باب الكتب

مدام كورى

مقدمة كتاب إيف كورى عن والدتها

« لو أضفت أقل زخرفة إلى قصة والدتى هذه ، التى تشبه الأساطير آتم الشبه ، لكان ذلك إجراماً منى » . هذا ما كتبته إيف كورى فى مقدمة كتابها . ثم استطردت قائلة : « إنى لم أذكر حادثاً ما لم أكن مستوثقة منه ، بل لم أخترع من عندى ولا لون فستان . فقد ذكرت الوقائع على حقيقتها وأعدت العبارات المقتبسة كما قيلت .

« وإنى لأرجو أن يشعر القارئ بما كان فى مارى أندر وأعظم شأناً من عملها وحياتها ، ألا وهو بناء خلقها المتين ، تلك الصفة النفسية التى لم يتمكن الصيت الذائع ، ولا المعارضة القاسية ، من تغيير طهارتها الفذة . تلك الصفة التى حملت اينشتين على القول : « إن مارى كوري هى الشخص الوحيد ، بين جموع المشهورين ، الذى لم تفسده الشهرة » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى خريف سنة ١٨٩١ انتظمت فتاة من المهاجرين البولنديين تدعى « مارى سكلودفسكا» فى قسم دراسات العلوم بجامعة السوربون بباريس . وكثيراً ما قابل الشبان هذه الفتاة الحيية ذات الملامح العنيدة ، والتى ترتدى ملابس تدل على الفقر والخشونة ، وتساءلوا فيما بينهم: «من هى» ؟ إلا أن الجواب كان غامضاً : « هى أجنبية يصعب نطق اسمها ، تجلس دائماً فى الصف الأمامى فى فصول علم الطبيعة » . وكانت عيون الشبان تتبع قوامها الرشيق ، وأخيراً يتهامسون « ما أجمل شعرها ! » . وظل شعرها الأشقر ورأسها الصغير السلافى — زمناً طويلا — هما كل ما يعرف به طلبة السوربون زميلتهم الخجول .

أما هى فكان أقل ما يسترعى التفاتها هؤلاء الشبان ، لأن دراساتها العلميـة استحوذت عليها ، فكانت تنكب على العمل بحرارة كحرارة المحموم، فكل دقيقة لا تنفقها على التحصيل كانت فى نظرها دقيقة مضيعة .

ولما لم يسمح لها حياؤها المتناهى بصداقة الفرنسيين ، لجأت إلى الحى الذى سكنه مواطنوها ، وقد كان بذاته جزيرة بولندية مستقلة فى وسط الحى اللاتينى بباريس . وهناك عاشت عيشة بسيطة منعزلة جعلتها وقفاً على الدرس والتحصيل . أما دخلها فكان أربعين « روبلا » فى الشهر ، وهو ما اقتصدته من عملها مربية فى بولندا ، وما يرسله إليها والدها من مبالغ يسيرة . وكان أبوها معلم رياضة وطبيعة فى بولندة ؛ فمن هذا الراتب — وهو ثلاثة فرنكات يومياً — كانت توفى أجرة حجرتها ، وثمن أكلها ، ولبسها ، ونفقاتها بالجامعة .

لم تشترك مارى عمداً فى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعيـة خارج برنامجها الدراسى ، كما امتنعت عن مجالس الأصدقاء . فعاشت عيشة تقشف ، اسبرطية ، غريبة عن طبائع البشر ، حتى لكأنها كانت تنكر أنها تستطيع أن تبرد أو تجوع . فكانت تهمل إشعال موقدها حتى لا تضطر إلى شراء فحم ، كما كانت تكتب الأرقام والمعادلات دون أن تلاحظ أن أصابعها متجمدة أو أن كتفيها ترتعشان . بل كانت الأسابيع تمر دون أن تأكل شيئاً غير الخبز والزبدة والشاى ، فإذا أرادت أن تنعم بوليمة اشترت بيضتين أو قطعة من الشوكولاتة أو قليلا من الفاكهة .

ولكن سرعان ما أصيبت تلك الفتاة القوية ، التى تركت وارسو منذ أشهر قليلة ، بفقر الدم . فكثيراً ما كانت تشعر بالدوار وهى تهم بالقيام عن مكتبها ، ثم لا تلبث أن تفقد وعيها قبل وصولها إلى فراشها . فإذا ما استعادت رشدها ، وساءلت نفسها عما

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أصابها ظنت أنها مريضة ، فاحتقرت مرضها كما تحتقر كل شيء يعترض عملها . إلا أنه يخطر ببالها حينئذ أن مرضها الوحيد هو افتقارها إلى الغذاء .

بيير كورى

كانت مارى قد حذفت الحب والزواج من برنامج حياتها ، واستولى عليها شغفها العلم ، فبقيت متمسكة تمسكا شديداً باستقلالها حتى بلغت السادسة والعشرين .

ثم ظهر فى الميدان بيير كورى ، وهو عالم فرنسى نابغة وقف روحه وحياته على البحوث العلمية ، وبقى غير متزوج إلى سن الخامسة والثلاثين . كان طويل القامة ، ذا يدين طويلتين مرهفتين ، ولحية كثة ، ووجه يعبر عن الذكاء النادر الممتاز .

تقابلا أولا عام ١٨٩٤ ، فى المعمل ، وسرعان ما قرب بينهما تبادل الشعور وتشابه الميول . فلقد وجد بيير كورى فى الآنسة سكلودفسكا الصموت شخصية تبعث على الدهشة . ما أغرب الحديث إلى فتاة ساحرة بلغة الاصطلاحات العلمية والتراكيب المعقدة . . . بل ما أحلاه !

تأمل بيير شعر مارى الأشقر ، وجبينها العريض المقوس ، ويديها المتأثرتين بأحماض العمل ، وثيابها الخالى من كل دلال ، فحاول بلطف وحزم أن يفوز بصداقة تلك الفتاة ، وطلب إليها السماح له بزيارتها . فاستقبلته فى غرفتها بود ، ولكن بكل تحفظ ، فانقبض قلب بيير مما رآه حوله من دلائل الفقر المدقع ، ولكنه قدر فى الوقت نفسه الانسجام التام بين خلقها ومسكنها . ففى غرفتها الخالية من الأثاث تقريباً ، وفى ملابسها الرثة ، وفى ملامحها التى تدل على شعور عميق بالحياة ، وعلى شكيمة شديدة ، ظهرت مارى أجمل منها فى أى وقت آخر .

فلم يخلبه فقط إخلاصها المتناهى لعملها ، بل شجاعتها ونبلها كذلك . فهذه الفتاة الرقيقة تحلت بأخلاق الرجل العظيم ومواهبه .

وبعد أشهر قليلة طلب بيير يد مارى ، فلم تقبل هذه الفتاة العنيدة فكرة الزواج إلا بعد مضى عشرة أشهر لأنها رأت أن الزواج من فرنسى ، والتخلى عن أسرتها وبلادها المحبوبة المظلومة ، خيانة شائنة .

* * *

قضى بيير ومارى الأيام الأولى من حياتهما معاً فى التجول فى منطقة « إيل دى فرانس » ، على عجلتين اشترياها بنقود قدمت إليهما هدية عند زواجهما . فتغذيا بالخبز والجبن والفاكهة ، واستراحا فى فنادق لا يعرفانها ، صادفتهما فى الطريق . وهكذا نعما بالوحدة أياماً وليالى طويلة لم ينغصها أثناءها إلا الطاقة التى تقتضيها العجلتان ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وقليلا من المال فى الفنادق القروية . أما الشقة الصغيرة التى استوطناها أخيراً بشارع جلاسيير رقم ٢٤ ، فكانت مفتقرة إلى جميع وسائل الراحة ، كما أنهما رفضا قبول الأثاث الذى قدمه إليهما والد بيير ، فإن مارى لا تجد وقتاً لتنظيفه ! فلم تضم تلك الجدران العارية إلا بعض الكتب ، ومقعدين ، ومكتباً من الخشب الأبيض عليه رسائل فى علم الطبيعة ، ومصباح يضاء بالغاز ، وباقة من الأزهار . فلا يستطيع أجرأ زائر إلا أن ينسحب ، حين يرى نفسه أمام مقعدين لم يعدّ واحد منهما له . إلا أن مارى تقدمت تدريجياً فى علم تدبير المنزل فاستنبطت بعض المأكولات التى لا تحتاج إلا إلى إعداد بسيط أو التى يمكن تركها على النار مدة دون مراقبة حتى تنضج . فقبل خروجها إلى عملها كانت تضبط حرارة الموقد ضبطاً علمياً . وتترك الطعام لينضج ، ثم تعود إلى الدور الأسفل لمشاركة زوجها فى العمل . وهناك بعد ربع ساعة تضبط حرارة النار المشتعلة ، وعليها أوان تختلف كل الاختلاف عن الأوانى التى تركتها فى مطبخها.

لم تختلف السنة الثانية من زواجهما عن السنة الأولى ، لولا حالة مارى الصحية التى تأثرت بحملها . ومع أن مدام كورى كانت تحب كثيراً أن ترزق طفلا ، إلا أنها ضجرت من مرضها وعجزها عن الوقوف فى المعمل لدراسة مغنطيسية الصلب .

وقد يظن أن حالة مارى الصحية خففت من حماسة بيير ، وحملته على قضاء صيف هادئ معها ، ولكنهما اندفعا بطيش كطيش الحمقى فقاما برحلة إلى بريست على عجلتيهما ، وهى فى الشهر الثامن من شهور حملها ، فقطعا فى رحلتهما مسافات بعيدة كعادتهما . ولقد صرحت مارى بعد ذلك أنها لم تشعر بتعب ما ، كما تملك بيير شعور غامض بأن زوجه خارقة للطبيعة فلا تخضع للقوانين البشرية . ولكن سرعان ما اضطرت الزوجة إلى أن تقطع رحلتها ، برغم شعورها أن فى ذلك إذلالا لها ، وعادت إلى باريس حيث وضعت ابنتها الأولى إيرين ، تلك الطفلة الجميلة التى فازت بجائزة نوبل سنة ١٩٣٤ (مع زوجها الأستاذ جوليو) .

لم تخطر ببال مارى فكرة الاختيار بين الأسرة وبين الحياة العلمية . ومع أنها عنيت بأمور المنزل ، وشؤون كريمتها ، وإعداد الطعام ، إلا أنها فى الوقت نفسه واصلت عملها فى معملها الحقير ، ذلك المعمل الذى توصلت فيه إلى اعظم اكتشاف فى العلم الحديث .

كشف الراديوم

فى نهاية عام ١٨٩٧ كانت مارى قد فازت بدرجتين جامعيتين ، وزمالة ، ووضعت ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

رسالة فى مغنطيسية الفولاذ السقى ، وكان مرماها التالى هو نيل درجة الدكتوراه .

وبينما كانت تفكر فى موضوع تختص فى بحثه، استرعت نظرها نشرة حديثة للعالم الفرنسى هنرى بيكرل . أما بيكرل فكان قد كشف أن أملاح الأورانيوم أطلقت إطلاقاً ذاتياً أشعة لم تعرف ما هيتها . وضع مركب الأورانيوم على لوحة للتصوير الضوئى محيط بها ورق أسود فوجد أنه يترك أثراً على اللوحة بعد احتراق ذلك الورق . فكانت مشاهدة بيكرل هذه المشاهدة الأولى لتلك الظاهرة التى اسمتها مارى بعد ذلك بالنشاط الإشعاعى ، إلا أن طبيعة الإشعاع وأصله بقيا سراً غامضا .

فتن آل كورى بكشف بيكرل، وتساءلا عن مصدر الطاقة المنبعثة من مركبات الأورانيوم فى هيئة إشعاع ، ففتح لهما هذا السؤال باباً واسعاً للبحث، بل قفز بهما قفزة نحو مملكة مجهولة ، إلا أنهما واجها فى الوقت نفسه صعوبة الفوز بمكان موافق للمضى فى أبحاثهما فيه . وأخيراً منحت مارى ، بفضل مدير مدرسة الطبيعة التى كان بيير مدرساً فيها ، استعمال غرفة أرضية رطبة كانت تخزن فيها الماكينات المنبوذة .

لم يكن المضى فى البحث العلمى فى هذا الجحر بالأمر الهين . فالحالة الجوية فيه أضرت بالآلات الحساسة الدقيقة كما أضرت بصحة مارى ، غير أنها لم تعر هذا الأمر اهتماماً ما ، فكلما شعرت ببرودة الجو انتقمت لنفسها منها بتدوين درجة البرد فى جدولها !

وكلما زادت مارى تعمقاً فى دراسة كنه أشعة الأورانيوم ، زادت اعتقاداً أنها الأولى من نوعها . وبعد أن قامت بتلك المهمة الشاقة ، مهمة امتحان جميع الأجسام الكيميائية ، وجدت أن مركباً من عنصر آخر هو عنصر الثوريوم أطلق إطلاقاً ذاتياً أيضاً أشعة تشبه الأشعة التى يطلقها الأورانيوم . هذا فضلا عن أن النشاط الإشعاعى فى كلتا الحالتين كان أقوى مما كان ينتظر ، بالقياس إلى مقدار الأورانيوم أو الثوريوم الذى فى الجسم الذى أطلق ذلك الإشعاع .

فما مصدر ذلك الإشعاع غير العادى ؟ لم يكن هناك إلا جواب واحد . لابد من أن تكون هذه المواد محتوية على مقادير صغيرة من عنصر أقوى فى نشاطه الإشعاعى من الأورانيوم والثوريوم . ولكن ما هو ذلك العنصر ؟

كانت مارى فى تجاربها قد امتحنت جميع العناصر المعروفة ، ولم تجد بينها رداً على سؤالها . فلا بد للعالم إذن أن يجيب بتلك

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الجسارة الفذة التى تتصف بها العقول الكبيرة : « إن تلك المواد تحوى عنصراً غير معروف إلى الآن ، وهو يمتاز بهذا النشاط الإشعاعى العجيب » .

عنصر جديد ! نظرية خلابة ! ولكن لا بد من كشف القناع عن تلك المادة المجهولة ، حتى تتمكن من أن تعلن وهى واثقة : « ها هى ذى ! » .

وبعد أن تتبع بيير كورى باهتمام كبير تقدم زوجه السريع فى تجاربها ، انضم إليها لمساعدتها صادفاً عن بحوثه الخاصة . فتعاون الآن عقلان وأربع أيد فى الكشف عن ذلك العنصر المجهول، فى تلك الغرفة الصغيرة الرطبة ، ثم دام هذا التعاون ثمانية أعوام كاملة ولم ينهه إلا حادث أليم .

بدأ بيير ومارى بحثهما بفصل كل عنصر من العناصر الداخلة فى مادة البتشبلند ، وهو ركاز الأورانيوم ، ثم عملا فى قياس نشاطه الإشعاعى فتوصلا إلى أن هناك عنصرين لا عنصراً واحداً يتصفان بالنشاط الإشعاعى . وفى شهر يوليو من عام ١٨٩٨ أعلنا اكتشاف أحد هذين العنصرين ، وقد سمته مارى « بولونيوم » تيمناً باسم بلادها المحبوبة بولندة .

وفى ديسمبر من عام ١٨٩٨ أعلن آل كورى كشف العنصر الآخر الذى سمياه «الراديوم»، وهو يتصف خاصة بأن نشاطه الإشعاعى عظيم للغاية .

العبقرية فى سقيفة

لم تتفق الصفات الخاصة بالراديوم مع كثير من النظريات العلمية التى قبلها العلماء مدى مئات السنين ، فلذلك كان موقف علماء الطبيعة إزاء الكشف الجديد موصوفاً بالتحفظ الشديد . أما علماء الكيمياء فكانوا أكثر تحفظاً منهم ، لأن الكيميائى بطبيعته لا يسلم بوجود عنصر جديد إلا بعد أن يراه ، ويختبره ، ويمتحن تأثير الأحماض فيه ، ويقرر وزنه الذرى .

أما الراديوم فلم يره أحد ولم يقرر وزنه الذرى بعد . فلكى يبرهن آل كورى على وجود هذين العنصرين — البولونيوم والراديوم — تعين عليهما العمل المتواصل مدى أربع سنوات . ومع أنهما كانا قد توصلا إلى طريقة عقدا عليها أملهما فى فى فصل الفلزين الجديدين ، إلا أن مهمتهما الجديدة اقتضت استخدام مقادير وافرة من المواد الخام ، لاستخراج دقائق من هذين العنصرين .

كان ركاز الأورانيوم الذى يحوى عنصرى البولونيوم والراديوم يعالج فى مناجم سنت جواشمتسال ببوهيميا ، لتستخرج منه أملاح الأورانيوم المستعملة فى عمل الزجاج .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وقد كان هـذا الركاز غالى الثمن ، إلا أن آل كورى توصلا ببحثهما إلى أن استخراج الأورانيـوم منه يترك عنصرى البولونيوم والراديوم بغير نقصان فى الفضلات ، فلم لا يستخدمان هذه الفضلات التى لا قيمة لها ؟

وفازا من الحكومة النمساوية بطن من فضلات ركاز الأورانيوم ، وبدآ عملهما فى سقيفة مهجورة بجوار الغرفة التى أجرت فيها مارى تجاربها الأولى . أما هذه السقيفة الجديدة فكانت تستخدمها كلية الطب قديماً حجرة للتشريح ، إلا أنها عادت لا تصلح حتى لحفظ الجثث ، إذ كانت عارية من البلاط ، خالية من الأثاث ، لولا طاولات مطبخ قديمة ، وسبورة ، وموقد غاز قديم من الحديد الصلب .

كانت هذه السقيفة خانقة فى الصيف ، كما أنها فى الشتاء مثل المنطقة الثلجية فى بردها برغم إشعال الموقد بها ، إلا أنهما لم يستعملاها كثيراً بل أجريا أغلب تجاربهما فى الخلاء ، لافتقارها إلى المداخن الصارفة للغازات الخانقة .

وقد كتبت مدام كورى بعد ذلك قائلة : « إن أسعد سنوات حياتنا وأفضلها هى تلك التى قضيناها فى هذه السقيفة التعسة ، حيث وقفنا كل وقتنا على العمل . فكثيراً ما قضيت أياماً كاملة وأنا أحرك بعض المواد ، وهى تغلى ، بهراوة من الحديد يقرب وزنها من وزنى . فإذا ما أتى المساء شعرت بأنى منهوكة القوى تماماً » .

وعلى هذا المنوال استمر الأستاذ كورى وقرينته فى عملهما من عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩٠٢ . وقد كانت مارى — وهى تعمل فى صحن تلك الدار ، بملابسها الرثة الملوثة بالأحماض ، وشعرها المنثور تداعبه الريح ، يحيط بها الدخان الكثيف الخانق — كانت مارى وحدها عبارة عن معمل كامل . وقد كتبت مرة تقول : « وصل بى الأمر أن اشتغلت بمقدار من المواد يبلغ وزنه عشرين كيلو جراماً فى وقت واحد ، مما اضطرنى إلى ملء الحجرة بأوعية السوائل والرواسب . ولقد كان حمل تلك الأوعية وصب السوائل منها ، وتحريك المواد المغلاة منها فى حوض الصهر ساعات طويلة ، عملا مضنياً حقاً » .

وامتدت أيام العمل أشهراً ، وانعقدت الأشهر سنوات ، غير أن ذلك لم يثبط من همة بيير ومارى . وكانا أحياناً يتركان أجهزتهما مدى لحظات قليلة ، فينتقلان فى حديثهما عن الراديوم المحبوب من البحث فى ناحيته الفائقة إلى التحدث فى الأمور الصبيانية المتعلقة به .

ففى أحد الأيام سألت مارى بحماسة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وتشوق تقربان من حماسة الطفل الموعود بلعبة جديدة : « ترى ما يكون شكله ا وبأية هيئة تتصوره يابيير ؟ » .

فأجاب العالم بلطف : « لا أدرى ا ولكنى أتمنى أن يكون لونه جميلا » .

وإذ مضت مارى فى معالجة الطن من ركاز الأورانيوم الذى أرسل إليها قدراً بعد قدر ، امتلأت الطاولات القديمة فى حجرتها بمواد زاد فيها تركيز الراديوم زيادة مطردة ، وحين أشرفت على الدور النهائى ، دور تنقية السوائل ذات النشاط الإشعاعى القوى عاقها عن العمل افتقارها إلى الأجهزة اللازمة والاستعداد الكافى . ففى هذه السقيفة المعرضة للرياح ، اختلطت ذرات الحديد والفحم المتناثرة بالمواد المنتقاة التى اقتضت تنقيتها منها عناءاً كبيراً ، فانقبض قلب مارى من تلك الحوادث اليومية التافهة التى استنفدت كثيراً من وقتها ومجهودها .

وهنت عزيمة بيير أمام هذه العقبات المستمرة وفكر فى اعتزال العمل وقتاً ما لعل الأيام تهيئ لهما أحوالا أصلح للبحث العلمى . إلا أنه فى تفكيره هذا لم يحسب لأخلاق مارى حساباً . فلقد أرادت مارى فصل الراديوم عن المواد الأخرى ، وإنها لفاعلة ذلك ، مستخفة بالمتاعب والمشاق ، غير آبهة لما يعوزها من المعارف لإنجاز عملها . كانت عالمة حديثة العهد بالأساليب العلمية ، وكثيراً ما صادفتها ظواهر طبيعية وعمليات حسابية لم تعرف عنها إلا القليل ، فاضطرت إلى دراستها دراسة عاجلة حتى تتمكن من مجابهتها .

وفى عام ١٩٠٢ ، بعد انقضاء خمسة وأربعين شهراً على اليوم الذى أعلن فيه آل كورى فرض وجود عنصر الراديوم ، تمكنت مارى من إحراز النصر بعزيمة وإصرار يفوقان صفات البشر ، إذ توصلت إلى إعداد ديسجرام من الراديوم النقى ، كما تمكنت من تقرير وزنه الذرى . فما كان للكيميائيين مفر من أن يطأطئوا الرأس أمام الوقائع ، ويعترفوا بوجود الراديوم .

حياة شاقة

ومما يؤسف له أنه كان أمام آل كورى نضال غير نضالهما مع الطبيعة فى معملهما . فلقد كان مرتب بيير شهرياً بمدرسة علم الطبيعة خمسمائة فرنك فقط ولذلك اضطربت الميزانية البيتية حين اضطرا إلى استخدام مربية بعد مولد إيرين ، فكان لا بد من البحث عن موارد أخرى .

وفى سنة ١٨٩٨ خلا كرسى أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة السوربون ، فقرر بيير أن يطلب تعيينه فيه . فعلى أن مرتبه فيه كان عشرة آلاف فرنك ، كانت ساعات التدريس المخصصة له أقل من ساعات التدريس

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بالمدرسة ، إلا أن طلبه رفض . ولم يتمكن من الوصول إلى مرتبة أستاذ إلا فى سنة ١٩٠٤ ، بعد أن اعترف العالم كله بمكانته العلمية العالية . أما حينئذ فقد اضطر إلى قبول منصب درجته أقل من درجة المنصب الشاغر بالسوربون ، حيث رضى أولو الأمر كل الرضا أن يعهدوا إليه فى تعليم بعض العلوم ذات المقام الثانوى ، مما يستغرق كل يومه . وفى الوقت نفسه حصلت مارى على منصب مدرسة فى مدرسة للبنات بالقرب من فرساى.

توصل الآن آل كورى إلى موازنة ميزانيتهما ، إلا أنهما أثقلا كاهلهما بالعمل المضنى فى الوقت الذى احتاجا فيه إلى كل قواهما لمواصلة تجاربهما فى النشاط الإشعاعى. فحاول أصدقاء بير جهدهم أن يقربوه من ذلك المقام الذى يصعب الوصول إليه ، ألا وهو منصب أستاذ ، فخطر لهم أن عضويته فى أكاديمية العلوم لا بد أن ترفع من شأنه ، ولذلك اقترحوا عليه أن يرشح نفسه لها فى سنة ١٩٠٢ . فتردد أولا ثم سلم غير راض ، لأنه كان يثقل عليه القيام بالزيارات المعتادة لأعضاء الأكاديمية ، والكلام عما أحرزه من شرف ، وما قام به من جلائل الأعمال ، بل إنه وجد أنه يتعذر عليه بتاتاً القيام بهذه المهمة . فنتج عن ذلك أنه قام بالزيارات ولكنه امتدح منافسه المسيو أماجا .... فاختار أعضاء الأكاديمية المسيو أماجا .

بعد مدة قصيرة أبى بير قبول وسام اللجيون دونور ، لأنه ظهر له أنه من بواعث السخرية أن يقدم إلى عالم أوصدت أمامه أبواب العمل ، صليب مغشى بالميناء ومربوط بشريط أحمر من الحرير ، وذلك على «سبيل التشجيع » ! !

ومضى آل كورى فى التعليم بروح طيبة ، وبدون تذمر ، باذلين جهدهما فى تأدية الواجب عليهما . ولانهما كهما الشديد فى عملهما ، بين تعليم وإجراء تجارب علمية ، نسيا حاجتهما إلى الطعام والنوم ، بل تماديا فى حماقتهما هذه حتى أساءا إلى نفسهما وإلى صحتهما . فكثيراً ما كان يضطر بير إلى الإسراع إلى فراشه من جراء ألم شديد فى فخذيه . أما مارى فتمكنت بصلابة أعصابها من المقاومة ، ومع ذلك فقد أفزع أحد أصدقائها شحوب وجهها وهزاله . وكذلك تقدم النشاط الإشعاعى ونما ، بينما كان يضنى تدريجيًّا العالمين اللذين وهباه الحياة .

قرار «لو قيمز ر ا »

هذا الراديوم العجيب ! عند ما حضر كلوريداً ، ظهر مسحوقاً أبيض عادياً يشبه ملح الطعام تمام الشبه . إلا أن خواصه مدهشة حقاً ، فإشعاعه فاق فى شدته غاية ما يمكن توقعه ، حتى كان أقوى من إشعاع

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأورانيوم مليونى مرة ، فاخترقت أشعته أقسى المواد وأعسرها اختراقاً ، ولم تحجبها إلا ستارة كثيفة من الرصاص .

أما أحدث أعاجيبه وأعمقها أثراً فهى التمكن من الاستعانة بالراديوم فى كفاح السرطان . وهكذا ثبت أن الراديوم نافع ، أى أن كشفه لم يقتصر شأنه الخطير على الناحية التجريبية فقط ، بل تعداها إلى إنشاء صناعة جديدة .

وعند ما عرفت قيمة الراديوم الطبية نشطت حركة فى مختلف البلدان ، ولا سيما فى بلجيكا وأمريكا ، لاستغلال الركاز الغنى بالنشاط الإشعاعى ، ولكن العلماء لم يتمكنوا من استخراج هذا « الفلز العجيب » منه ، لجهلهم سر العمليات الدقيقة اللازمة لذلك .

شرح بيير هذه المسألة لزوجه فى صباح أحد ما عقب قراءته رسالة وصلته من بعض أرباب الصناعات بالولايات المتحدة الأمريكية الذين يريدون استخراج الراديوم ويطلبون منه تزويدهم بالمعلومات اللازمة .

فقال لها بيير : « أمامنا طريقان يمكننا اختيار أحدهما . فإما أن نشرح لهم نتيجة بحثنا دون تحفظ ، بما فى ذلك عملية تنقية الراديوم . وإما . . . . »

وهنا أشارت مارى إشارة ميكانيكية تدل على الموافقة وتمتمت : « نعم طبعاً » .

ثم مضى بيير فى حديثه :

« وإما أن نعد أنفسنا مالكى الراديوم أو بعبارة أخرى « مخترعيه » ، ونسجل طريقة معالجة ركاز البتشبلند ، فنحتفظ لأنفسنا بامتياز صناعة الراديوم فى العالم كله » .

تأملت مارى بضع ثوان ثم قالت : « هذا مستحيل ، لأنه يتعارض مع الروح العلمية » . فانفرجت أسارير بيير ، ولكنه استطرد إراحة لضميره وهو يضحك ضحكا لطيفاً ، مشيراً إلى الأمر الوحيد الذى عزت عليه التضحية به : « ويمكننا حينئذ أن نمتلك معملا كامل المعدات » . أما نظرة مارى فلم تتغير ، لأنها ثبتت على رأيها وهو رفض الربح المادى : « إن علماء الطبيعة ينشرون دائماً بحوثهم كاملة . فإذا كان كشفنا له فائدة تجارية فهذا عارض يجب ألا نستفيد منه . وحيث إن الراديوم سيستخدم لمعالجة الأمراض ، فيجب ألا نستغله » .

لم تحاول أن تقنع زوجها ، لأنها وثقت بأنه ذكر أمر ملكية الكشف على سبيل الاحتياط فقط . فالكلمات التى فاهت بها بثقة تامة كانت تعبر عن شعورهما كليهما ، عن رأيهما الصادق فى مكان العالم فى الحياة . ثم أضاف بيير وكأنه يقرر أمراً لا قيمة له : « سأكتب هذه الليلة إلى الخبراء

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأمريكيين ، وأزودهم بالمعلومات التى طلبوها منى » .

وبعد ربع ساعة من هذا الحديث القصير فى صباح الأحد ، قام بيير ومارى بنزهة على عجلتين فى الغابات ، بعد أن اختارا إلى الأبد بين الفقر والغنى .

وفى المساء رجعا منهوكين ، وأذرعهما ملأى بأوراق الحقول وأزهارها !

العدو

والآن بدأت مقدمة تلك القطعة الموسيقية الرائعة التى سرعان ما بلغت أوجها . ففى يونيو من سنة ١٩٠٣ ، دعا المعهد الملكى بلندن بيير لكى يحاضر فيه فى موضوع الراديوم ، وتبع ذلك سيل من الدعوات لحضور الحفلات والولائم ، لأن لندن بأسرها تاقت إلى مشاهدة « والدى الراديوم » .

تحمل آل كورى هذه الحفاوة مدة أيام قليلة بشىء من التململ ، ثم رجعا إلى مسكنهما الصغير . ولكن الإنجليز السكسون متصنعون بالولاء لمن يعجبون به .

ففى نوفمبر سنة ١٩٠٣ منحت الجمعية الملكية بلندن بيير ومارى مدالية دافى ، وهى من أسمى أوسمتها .

وكانت بلاد السويد هى التالية فى الاعتراف بفضلهما . ففى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠٣ اعلنت أكاديمية العلوم بستوكهلم أن جائزة نوبل لعلم الكيمياء فى تلك السنة قد قسمت مناصفة بين هنرى بيكرل من ناحية ، ومدام كورى وزوجها من الناحية الأخرى ، لكشفهم النشاط الإشعاعى .

كانت قيمة جائزة نوبل هذه سبعين ألفاً من الفرنكات ، ولم يكن قبولها « يتعارض مع الروح العلمية » . فكانت فرصة عظيمة الآن لإنقاذ بيير من ساعات التدريس الطويلة ، ولرعاية صحته .

ويوم قبضا تلك النقود أفاضا الهدايا والقروض على أخى بيير وأخت مارى ، والهبات للجمعيات العلمية ، والعطايا لبعض الطلبة البولنديين ، ولإحدى صديقات مارى منذ طفولتها . وأعدت مارى حماماً متقناً فى بيتها الصغير ، وأثثت غرفة بسيطة . ولكن لم يخطر لها قط أن تحتفى بشراء قبعة جديدة . ومضت فى مزاولة التعليم مع أنها أصرت على أن يعتزل بيير عمله بمدرسة الطبيعة .

ذاع صيتهما ، وتكدست طاولتهما بأكوام الرسائل البرقية ، ونشرت عنهما آلاف المقالات فى الجرائد ، وتلقيا مئات الطلبات للحصول على إمضائهما أو صورتهما وكثيراً من الخطابات من المخترعين ، وكثيراً من الأشعار فى مدح الراديوم . ولقد وصل الأمر بأحد الأمريكيين أن طلب السماح له بتسمية فرس للسباق باسم مارى . ولكن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

سوء تفاهم مستديم فصل بين آل كورى وبين الجمهور الذى أعارهما التفاته الآن .

فلقد وصلا إلى لحظة مؤلمة جداً فى حياتهما ، إذ كانا فى حاجة إلى التفرغ للعمل ليتما رسالتهما التى لم تنته بعد ، على حين أن ذيوع الصيت لم يحسب حساباً ما لذلك . ذلك بأن الصيت يطغى على العظماء بحمله الثقيل ، ويحاول أن يعوق تقدمهم غير عابئ بالمستقبل الذى يجاهدون له .

إن منحهما جائزة نوبل أنالهما من الصيت الذائع ما حمل الملايين على حساب كشف النشاط الإشعاعى ، الذى لم يتجاوز بعد دور الطفولة ، ضمن الانتصارات المحققة . بل إن كثيرين شغلوا أنفسهم بالتدخل فى حياة هذين الزوجين الخاصة التى تقرب من الأساطير ، فسلبوها الكنز الوحيد الذى اعتزا بالاحتفاظ به ، ألا وهو التأمل والهدوء .

وعلقت مارى على ذلك ، بما كتبته فى ربيع سنة ١٩٠٤ :

« ... ضوضاء مستمرة . فالقوم يلهوننا عن عملنا ، ولذلك اعتزمت على التسلح بالشجاعة ورفض مقابلة الزائرين ، ولكنهم يصرون على إزعاجنا . لقد أفسد علينا الصيت حياة العمل الهادئة التى كنا نحياها » .

ولقد تألمت مارى بنوع خاص من الدور الذى انتظر العالم أن تمثله ، لأن طبيعتها لم تتفق مع المظاهر التى تقتضيها الشهرة من الاندماج فى الحياة الاجتماعية ، والصداقة المتكلفة ، والقسوة فى المعاملة أحياناً ، وادعاء التواضع أحياناً أخرى .

فالحادثة التالية ، من آلاف الحوادث مثيلاتها ، تبين جلياً موقف آل كورى من حماسة الجمهور واهتمامه بهما . فبينما كانا يتناولان الطعام مرة بقصر الأليزيه مع الرئيس لوبيه وقرينته ، سألت مدام لوبيه مارى قائلة : « هل ترغبين فى أن أقدمك إلى ملك اليونان ؟ » .

فأجابت مارى بكل بساطة وأدب وإخلاص : « لا أرى جدوى من ذلك » .

ولكنها لاحظت حينئذ دهشة السيدة التى تكلمها ، فامتقع وجهها وقالت مستدركة كلامها : « ولكن ... ولكن ... بالطبع أعمل مايسرك . كل شيء يسرك » .

وقد كان يجب على الصيت الذائع الذى أنزل بآل كورى كثيراً من النكبات ، أن يأتيهما بشيء من البركات مثل مقام الأستاذية ، ومعمل يليق ببحثهما ، وفريق من العلماء للتعاون معهما . ولكن متى تأتى هذه النعم ياترى ؟

الاثنان معاً

لما حلت نهاية حمل مارى الثانى فى

سنة ١٩٠٤ ، كانت منهوكة القوى لطول المدة التى لازمت فيها فراشها ، وهى فى حالة تعب شديد . وأخيراً فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٤ ولدت طفلة سمينة يعلو رأسها شعر كث وهى إيف(١) . ولكن سرعان ما عادت مارى إلى عملها بالمدرسة والعمل . حاول آل كورى كالمعتاد الامتناع عن الظهور كثيراً فى المجتمعات ، ولكنهما لم يجدا بداً من حضور الحفلات الرسمية لتكريم العلماء الأجانب . ففى هذه الحفلات فقط كان بيير يلبس سترته الطويلة الرثة ، ومارى فستان السهرة الوحيد الذى امتلكته .

فهذا الفستان الذى احتفظت به مارى سنين طويلة ، مستعينة بإحدى الخياطات بين وقت لآخر على تغييره بعض الشىء ليوافق الزى المتبع ، كان من الحرير « الجرينادين » الأسود . ولا غرابة إذا كان موضع احتقار أية سيدة عادية ، أما مارى فقد أوجدت لنفسها ، بما اتصفت به من الاتزان والتحفظ ، زياً خاصاً ملائماً لملابسها . بل لقد ظهرت بمظهر فاتن حقاً حين صففت شعرها الأشقر ، وعقصته فوق رأسها ، وتحلت بعقد لطيف من الذهب صياغته فى غاية الرقة ، فتجلى ما فى جسمها النحيف ووجهها من جمال وفتنة .

وفى إحدى هذه الحفلات تمتم بيير قائلا : « إنه من المؤسف حقاً عدم حضورنا الحفلات ، فملابس السهرة تناسبك جداً » . ثم أضاف فى حسرة : « ولكن يعوزنا الوقت لها » .

وانتخب بيير أخيراً فى ٣ يوليه سنة ١٩٠٥ عضواً فى الأكاديمية ، ولكن مع ذلك نال منافسه اثنين وعشرين صوتاً . وفى السنة نفسها أيضاً عينته السوربون فى منصب أستاذ للطبيعة . فتحققت جميع آماله ، إلا الحصول على معمل وافر المعدات للبحث .

وبقيت أمام مارى ثمانى سنوات كاملة أخرى قبل تمكنها من وضع أجهزة النشاط الإشعاعى فى معمل لائق بها ، ذلك المعمل الذى لم يسعد الحظ بيير برؤيته . فبقيت طول عمرها منغصة العيش متألمة ، لأن زوجها حرم تحقيق الأمنية المفضلة على جميع أمانيه .

فى ١٤ أبريل من سنة ١٩٠٦ كتب بيير يقول : « إننا نعمل معاً ، أنا ومدام كورى ، لنقيس بالضبط مقدار الإشعاع الذى ينطلق من الراديوم .

« وقد يبدو هذا أمراً هيناً ، ولكننا قضينا الشهور فى بحوثنا ، والآن فقط بدأنا نصل إلى نتائج منتظمة » .

« إننا نعمل معاً أنا ومدام كورى... »

تلك الكلمات التى خطها بيير قبل موته

(١) مؤلفة هذه السيرة .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بخمسة أيام فقط ، فعبر أحسن التعبير عن طبيعة اتحاد جميل وثيق ، ما كانت الحوادث لتنال منه أي منال .

فكل تقدم فى العمل ، سواء أفوزاً كان أم إخفاقاً ، كان مدعاة لتعزيز تلك الرابطة القوية بين الزوجين وتوثيقها . فبين هذين الندين اللذين أعجب أحدهما بالآخر إعجاباً كبيراً ، نشأت زمالة قوية كانت أسمى تعبير عن حبهما العميق .

وحيدة

حوالى منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦ ، فى يوم قاتم ممطر ، ودع بيير زملاءه أساتذة كلية العلوم بعد أن تغدى معهم ، وخرج إلى شارع دوفين وحاول عبوره دون أن يلتفت إلى عربة نقل قادمة . فلما رآها وقف مذهولا وحاول الإمساك بصدر الجواد الذى يجرها ، فتراجع الجواد إلى الوراء ، إلا أن بيير تزحلق على الأرض المبتلة ، ومرت عليه تلك العربة الضخمة المحملة بستة أطنان من البضاعة ، فسحقت جمجمته برغم محاولة السائق أن يوقفها . فرفع رجال البوليس ذلك الجسم الدافئ الذى فارقته الحياة فى أسرع من لمح البرق .

الآن الساعة السادسة مساء ، ومارى ملأى بالبهجة والحياة ، واقفة بباب المنزل تستقبل ضيوفاً وافدين ، ولكنها لاحظت فى نظراتهم وسلوكهم عطفاً خاصاً . فوقفت مارى جامدة ، قليلة الحركة ، بعد أن رووا لها وقائع الحادث . وبعد صمت طويل فاهت بهذه الكلمات :

« أحقاً إن بيير قد مات ؟ مات ؟ مات حقاً ! » . ومنذ اللحظة التى سجل فيها عقلها تلك الكلمات الثلاث « بيير قد مات » غدت مارى امرأة حزينة ، وحيدة لا تعزى .

وبكلمات قليلة طلبت نقل جثة بيير إلى المنزل ، ثم طلبت إلى إحدى صديقاتها أن تأخذ إرين وإيف إلى بيتها ، وبعثت رسالة برقية إلى والدها بوارسو ، وبعدئذ خرجت إلى الحديقة وجلست صامتة ، ساكنة ، محدقة فى غير وعى ، ممسكة برأسها بين يديها تنتظر وصول زميلها .

أدخلت النقالة ببطء من الباب الضيق إلى غرفة بالدور الأرضى بالمنزل ، فبقيت مارى بعض الوقت وحدها مع زوجها وهى تقبله ، وما زال جسمه ساخناً . بقيت هكذا إلى أن أخرجت بالقوة من الغرفة ، حتى لا تشاهد الجثة عند لفها بالأكفان . أطاعت دون التفات ، ولكن سرعان ما تنبهت أنها بخروجها من الغرفة قد حرمت تلك الدقائق القليلة الباقية ، فهرولت إلى الداخل إلى جانب جثة زوجها .

وبعد موت بيير وانقضاء المأتم، عرضت الحكومة رسمياً على زوجه أن تمنحها هى طفلتها معاشاً، فأبت مارى مجيبة بشجاعتها المعتادة: «لست بحاجة إلى معاش، فأنا صغيرة السن، وأستطيع أن أعمل لكسب عيشى أنا وطفلتى».

وفى ١٣ مايو سنة ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم بالسوربون بإجماع الأصوات إسناد منصب بيير فى السوربون إلى مارى. وكان إسناد هذا المنصب إليها أول مرة أسند فيها منصب فى التعليم العالى إلى امرأة. وبعد أن أصغت مارى، وهى ذاهلة عن نفسها، إلى كلام حمها فى أن الواجب عليها يقضى بقبول هذا المنصب لتتم رسالتها، أجابت بهذه العبارة القصيرة: «سأحاول ذلك».

حل ميعاد محاضرتها الأولى بالسوربون فملأت الجماهير بهو المحاضرات، وازدحمت بالدهليز والميدان، وامتدت الأعناق فى انتظار مدام كورى، وبدأ القوم يتساءلون: ما تكون أولى كلماتها ياترى؟ هل تبدأ بشكر وزير المعارف أو الجامعة، أو تذكر شيئاً عن بيير كورى؟ لا بد أن تذكر شيئاً عنه فقد جرت العادة أن يبدأ الأستاذ الجديد محاضرته الأولى بالثناء على سلفه...

وفى منتصف الساعة الثانية فتح الباب الخلفى، وتقدمت مارى كورى إلى المنصة فى عاصفة من التصفيق. أحنت رأسها تحية للجمهور، ولكن حركتها كانت جامدة بعض الشىء. ثم بقيت واقفة حتى هدأت العاصفة، ثم تطلعت مارى إلى الأمام وقالت: «متى فكر المرء فى التقدم الذى أصابه علم الطبيعة فى السنوات العشر الأخيرة، أخذته الدهشة من مبلغ ما طرأ على أفكارنا من التغيير بشأن الكهربائية والمادة...». وهكذا وصلت مدام كورى، بهذه العبارة ما انقطع من الكلام فى نفس الموضوع الذى عالجه بيير كورى قبل مصرعه، فاغرورقت عيون الحاضرين وسالت الدموع على وجوههم، وبعد أن انتهت من محاضرتها خرجت من الباب الصغير بنفس السرعة التى دخلت بها.

انتصارات وتجارب

ذاع صيت مدام كورى ومنحت كثيراً من الدبلومات ودرجات الشرف من الأكاديميات الأجنبية. ومع أن أكاديمية العلوم أبت أن تشرفها بعضويتها — إذ أخطأها صوت واحد فأخفقت فى الانتخاب — إلا أن السويد كافأتها بجائزة نوبل لعلم الكيمياء فى سنة ١٩١١، وهذه هى المرة الوحيدة التى منحت جائزة نوبل مرتين لأى رجل أو امرأة فى العالم.

بعد ذلك اشترك السوربون ومعهد

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

باستير فى إنشاء معهد للراديوم ، يضم قسمين : أحدهما معمل لأبحاث النشاط الإشعاعى تحت إدارة مدام كورى ، والآخر معمل للأبحاث البيولوجية ودراسة معالجة السرطان تحت إدارة طبيب مشهور . ورغماً من معارضة آلها ، تبرعت مارى للمعمل بجرام الراديوم الذى جهزته هى وبيير بيديهما ، وكان يساوى أكثر من مليون فرنك ذهب . وقد بقى هذا المعمل مدار حياتها إلى النهاية .

وفى أثناء الحرب خدمت مارى وطنها الثانى بكل ولاء وإخلاص . وإذ وجدت أن المستشفيات تعوزها الأشعة السينية التى تكشف موضع الرصاص فى المصابين ، قررت فى الحال أن مهمتها هى إعداد مراكز خاصة بالكشف بالأشعة السينية ، فجمعت أجهزة الأشعة التى تمكنت من الحصول عليها فى المصانع ومعامل الجامعات ، ووزعتها على المستشفيات القريبة من باريس . كما حشدت عدداً كبيراً من المتطوعين من الأساتذة والمهندسين والعلماء ، لكى يديروا تلك الآلات . وإلى جانب ذلك أعدت مارى سيارة خاصة لنقل المصابين من الخطوط الأمامية فى الميدان إلى المستشفيات ، وكانت تلك السيارة المجهزة بجهاز رونتجن ودينامو ، هى الوحيدة المستعملة فى أثناء واقعة المارن . ثم جاهدت مارى طويلا حتى تمكنت من الحصول على عشرين سيارة لهذا الغرض جهزتها كسابقتها ، فدعيت تلك السيارات « بالكوريات الصغيرة » . ولم تتأخر عن قيادة إحداها بنفسها ، برغم ما عانته فى سبيل ذلك من التعب .

وأضافت مفخرة أخرى إلى تاريخ جهادها إذ تمكنت من إعداد مائتى غرفة بأجهزة الراديوم ، حتى بلغ عدد المصابين الذين عولجوا فيها ما يزيد عن المليون . أمام كل ما لاقته مارى من المتاعب والصعاب لم تظهر أدنى تململ أو كلل ، بل لم تعن بتأثير الأشعة السينية فيها ، أو بتعرضها لخطر النيران حولها فى ميادين القتال . ومما هو جدير بالذكر أنها لم تنل اعترافاً رسمياً ما بالخدمات التى أسدتها إلى فرنسا فى الحرب ، ولكنها شعرت فى الوقت نفسه أنها نهضت بالواجب عليها على أكمل وجه .

أمريكا

فى سنة ١٩٢٠ اكتتبت نساء أمريكا بمبلغ مائة ألف دولار لشراء جرام من الراديوم لإهدائه إلى مارى كورى ، وطلبن منها مقابل ذلك زيارتهن ، فترددت مارى أولا فى إجابة طلبهن ، ولكنها إزاء كرمهن لم تجد بداً من التغلب على حيائها وانزوائها ، والتعرض لأول مرة فى حياتها ، وهى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى الرابعة والخمسين ، لما تفرضه عليها رحلة رسمية عظيمة كتلك الرحلة .

وهناك على رصيف ميناء نيويورك انتظرتها الجماهير الغفيرة مدة خمس ساعات كاملة ، فعبرت لها بذلك عن مبلغ إجلالها لها . كان الأمريكيون — قبل رؤيتها — قد أحاطوا اسمها بما يقرب من الولاء الدينى ، شيئا الآن وهى بينهم فليس لإجلالهم حد ما . لن أحاول فى هذا المقام أن أعرّف روح أمة ، ولكنى أقرر أن الحماسة المتناهية التى قابل بها الأمريكيون مارى كورى لها مغزاها العميق .

فإن الشعوب اللاتينية ، مع اعترافها بعبقرية الأمريكيين ونبوغهم ، تزعم لنفسها الانفراد بتبجيل المثل العليا ، ولكنه ثبت الآن أن الأمريكيين ما ساروا فى احتفائهم بمارى هذا الاحتفاء العظيم إلا وراء تلك المثل العليا التى يجلونها .

قد تثير سيدة كهذه بشخصيتها ومكتشفاتها شيئاً من حب الاستطلاع والإعجاب ، ولكن ليس هذا كافياً لوصف ما أظهره الأمريكيون من العطف والحب ، فإنهم ما كانوا حينئذ إلا محتفين بالنبل فى الحياة ، النبل الممثل فى احتقار الربح المادى ، والتفانى فى حب الحياة الفكرية الخالصة ، والرغبة الشديدة فى خدمة الغير . كانت الجامعات الأمريكية جميعها قد دعت مدام كورى لزيارتها وأعدت لها الداليات والدرجات العلمية ، ولكن مدام كورى وقفت مذهولة حينما أحاطها القوم بالإعجاب والتبجيل ، وشعرت بالخجل والحياء كلما تطلعت إليها الجماهير المتشوقة لرؤيتها ، بل إن خوفاً غريباً استولى عليها أولا ، ألا وهو الخوف من أن تطغى عليها الجماهير .

وأخيراً ضعفت صحة مارى فلم تتمكن من إتمام رحلتها ، واضطرت إلى الرجوع إلى فرنسا نزولا على مشورة أطبائها . رجعت مارى منهوكة ولكنها مغتبطة راضية ، وإن حياءها وتواضعها ما كانا ليحجبا عنها الحقيقة ، وهى أنها قد بثت السرور فى قلوب ملايين من الأمريكيين .

وإنى أعتقد أن رحلة والدتى إلى أمريكا قد علمتها أن حياة العزلة التى تحياها تتناقض ومقامها العالى . فمع أن مدام كورى الباحثة قد تمكنت قبلا من الانعزال عن العالم ، إلا أن مدام كورى فى سن الخمسين لم تكن باحثة وعالمة فحسب ، بل إن مقامها الاجتماعى هيأ لها النجاح فى تأدية رسالتها إلى العالم ، فكان لا بد لها من أن تحمل تلك الرسالة .

أما رحلاتها بعد ذلك فكانت متشابهة ، إذ شملت حضور المؤتمرات العلمية والمحاضرات والاحتفالات الجامعية ، وزيارة المعامل ، فكانت حيثما حلت موضع التكريم والتبجيل .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وفى ذلك الوقت جمعت وارسو مبلغاً من المال عن طريق الاكتتاب العام ، وانشأت به معهداً للراديوم أسمته : « معهد مارى سكلودفسكا كورى » ، كما تبرعت النساء الأمريكيات ثانية بجرام آخر من الراديوم لمدام كورى . فأعاد التاريخ نفسه إذ زارت مارى نيويورك فى ١٩٢٩ ، كما زارتها فى سنة ١٩٢١ ، لتشكر النساء الأمريكيات ، ولكن زيارتها كانت باسم بولندا هذه المرة ، حلت ضيفاً على الرئيس هوفر فى البيت الأبيض .

ومما يسترعى الانتباه أن مدام كورى لم تتغير ، فلم تتغلب على خوفها من الجماهير المحتشدة ، كما أن الشهرة لم تؤثر فى أخلاقها . ويخيل إلى أنها لم تتمكن من الوصول إلى « اتفاق ودى » مع ذيوع الصيت ، بل كان حليفها الأول والأخير هو العمل ، حتى كتبت مرة تقول : « إنى أشك هل أتمكن من الحياة بدون العمل ؟ » . وفهم هذه العبارة يقتضى منا فهم مدام كورى وتعرف نفسيتها ، فلقد كان يغمرها السرور والغبطة متى نجحت فى تجربة ما تجريها ، على حين كانت تنقض عليها صواعق الهم إذا ما أخفقت فيها .

خاتمة الرسالة

ومضت مارى فى عملها إلى النهاية بنشاط فذ ، وبإهمال فريد أيضاً لراحتها وصحتها ، فلم تحترس ألبتة من خطر الراديوم ، فتناولته واشتغلت به دون أن تأخذ بالحيطة التى نبهت طلبتها إليها . وبعد جهد جهيد أذعنت لامتحان دمها فى معهد الراديوم ، فأظهر الكشف مادة غريبة به . وما هى ؟ لقد قضت مدام كورى خمساً وثلاثين سنة وهى تعمل بالراديوم ، وتتنفس الهواء المشبع به ، كما تعرضت فى أثناء الحرب لإشعاع أخطر من الأول ، وهو إشعاع جهاز رونتجن ، ولكنها لم تحسب ما أصابها من ألم أو حروق إلا شيئاً يسيراً فى مقابل الأخطار التى تعرضت لها .

لم تعر مارى إصابتها بالحمى التفاتاً كبيراً ولكن فى مايو سنة ١٩٣٤ لازمت الفراش لإصابتها بنزلة . ولما توقف قلبها القوى أخيراً عن النبض ، أصدر العلم حكمه ، وهو أن ما طرأ عليها من الأعراض الغريبة ، وما أثبته الامتحان فى دمها ، يرجع إلى الراديوم ، فهو المجرم الحقيقى .

وفى يوم الجمعة فى السادس من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ أودعت مارى مقرها الأخير بدون احتفال رسمى — إنفاذاً لوصيتها — فدفنت بجانب زوجها بيير فى مدفن «سو» ، بحضور أقاربها وأصدقائها وزملائها .

باب الكتب

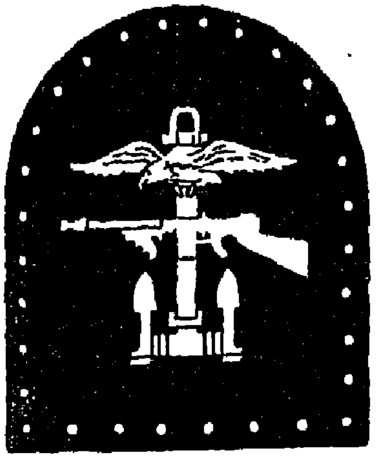

تجربة كاملة

قصة دييب

ملخص كتاب : كونتن رينولدز

« كان للاحكام الذى أديرت به غارة دييب العظيمة وقع بالغ فى نفس كونتن رينولدز ، ولكن وقع الذين اشتركوا فيهـا كان أبلغ وأعمق ، فكتب هذه القصة الشخصية الحية لما شهده من البسالة والمأساة والفكاهة ، بينما كانت سفينته تهاجم من الجو وتضرب بنار المدافع .

وقد ظل رينولدز عشر سنوات محرراً لمجلة « كوليرز » ، ثم صار مكاتبها الحربى منذ سنة ١٩٤٠ . وقد شهد انهيار فرنسا ، والهجوم الجوى الخاطف على لندن . واتفق له فى أثناء معركة فى لوبية أن أحاطت به ، وبلفيف من الجنود البريطانيين ، دبابات المحور وتعرضوا لضرب الطائرات المنقضة .

وله أربعة كتب أخرى عن تجاربه فى الحرب راجت كلها رواجاً عظيما » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى مساء ١٧ أغسطس خاطبنى الصاغ (ماجور) جوك لورنس تليفونياً فى فندق سافوى بلندن وقال لى : « تعال إلى مكتبى فى العاشرة صباحاً فى ثياب مدنية ، وهات بذلتك العسكرية فى حقيبـة ، وأتمنى لك أحلاماً جميلة » .

فتجهزت ، ولكنى لم أر أى حلم جميل .

وكان مكتب جوك هو ديوان اللورد لويس مونتباتن القائد العام للعمليات المشتركة ، وهى تشمل فصائل الفدائيين (كوماندو) . وطالما وددت أن أرافق الفدائيين فى إحدى غاراتهم ، فالآن تيسر تدبير الأمر .

وكان كل امرىء فى ديوان العمليات المشتركة ساكن الطائر غير معجل ، وليس فى وسعك أن تعرف من سلوك الموجودين فى الديوان أن هناك أمراً يوشك أن يحدث ، فقد كان سر الغارات يكتم كتماناً شديداً ، حتى إنه ما كان يعلم به سلفاً ، حتى فى الديوان إلا القليلون جداً .

ومضى بى جوك إلى البكباشى بوبى باركس سميث ، فقال لى هـذا : « اذهب إلى حجرة جـوك ، وارتد فيها بزتك العسكرية ، وستحملك سيارة فى الساعة الثانية ، وتقلك إلى ميناء فتركب المدمرة « كالب » . وسيكون الملازم « بويل » فى انتظارك ، وسيخبرك بوجهتك بعـد إقلاعها ، وستكون المكاتب الوحيـد الموجود عليها ، وهى مركز القيادة ، ومنها تدار العملية كلها » .

وألفينا فى حجرة جوك زميـله فيها البكباشى لورين ب . هيلسنجر ، وهو ضابط أمريكى ، يتجهز بسرعة عظيمة ، وما لبث أن غادرنا فضحك جوك وقال : « إنه ماض إلى حيث تمضى . وسيكون هناك عدة مراقبين من الأمريكيين ، وبعض الجنود الأمريكية — قوة رمزية ليس إلا » .

ولما أبدلت ثيابى وارتديت بزتى العسكرية قال لى جوك : « انزع شارة المكاتب الحربى » .

فسألته : « لماذا ؟ » .

قال : « إنك ذاهب إلى ميناء ، وقد تعوق الحالة الجوية القيام بالعمل المنوى يومين ، فإذا رأى الناس شارة المكاتب الحربى على ثيابك ، فقد يستخلصون أن هناك عملا كبيراً يوشك أن يقع . فالرأى أن تضع لك شارة فضية لبكباشى ، فلا يرى فيك من يراك إلا ضابطاً أمريكياً آخر » .

قلت : « لماذا لا يمكن أن أكون جنرالا ؟ » .

قال : « ليست لك سماته ، وإنه ليكون من أسوأ التدبير أن تمثله » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ثم ودعنى جاداً وقال : « أسأل الله أن لا يصيبك مكروه ، ولكنك فتى موفق » .

قلت ، وبى بعض الشك : « لا شك أنى فتى موفق » .

وما لبثت أن أقبلت سيارة مدهونة بلون أسمر خامد لا التماع له ، وجرت عجلاتها إذ وقفت إلى جانب البناء ، فخرجت وركبت فى مؤخرتها مع ضابطين — قائد جناح ، وصاغ بريطانى ، وبعد أن استعرف كل منا إلى الآخر . قال قائد الجناح للسائق : « سر إلى بورتسموث » .

وكانت رحلة طويلة ، مسافتها ٧٨ ميلا ولكنه كان يوماً جميلا ، وكانت الشمس تريق ضوءها على حقول ديفون الخضر ، فتبدو كأنما رشقت ألف زهرة شتى الألوان واشيات فى شعرها .

وتمتم قائد الجناح : « هذا وقت لا يطيب فيه السفر » .

فسألته : « كيف ؟ » .

قال : « فى هذا الوقت لا توجد حانة واحدة مفتوحة على طول الطريق ، مزعج هذا التنظيم لساعات الشراب وحظره » .

***

ووقف بنا السائق على رأس رصيف من الأسمنت المسلح ، وتقدم منا صول ، وطلب منا بادب بطاقاتنا المثبتة لشخصياتنا ، ورجا منا أن ننتظر دقائق ، فقعدنا على حافة الرصيف نتحدث عن كل شيء ، إلا الغارة وكان فى الثناء الجميل على مونتباتن وما فرضه على رجاله من تحرى الكتمان ، أن رفيقىّ لم تندّ عن أحدهما كلمة عن الخطة .

وما عتمنا أن انضم إلينا يوزباشى كندى من الضباط الموكلين بالصحافة والنشر ، فسألنا عن السفن التى ألحقنا بها فقال قائد الجناح والصاغ إنهما سيركبان المدمرة « بيركلى » ، (وقد حدث بعد ساعات أن أصيبت هذه المدمرة بضربة مباشرة فقتل الرجلان) .

وسألته : « كيف اتفق أن يلتحق ضابط صحفى كندى بهذه الحملة ؟ » .

فابتسم وقال : « إنها تكاد تكون حملة كندية بحتاً ، فقد مل جنودنا الجمود عامين ولجت بهم الرغبة فى القتال . ليتك سمعتهم يهتفون صباح اليوم حين أبلغهم « هام روبرتس » أنه قد جدّ الجد ا » .

وكنت قد سمعت أن اللواء ج . هـ . روبرتس يوصف بأنه « رجل حرب » ، فذكرت ذلك للضابط الصحفى .

فقال : « إنه لكذلك ، وقد قال لرجاله هذا الصباح إن عليهم أن يعبروا مضيق « المانش » ، ويخترقوا حقل ألغام ألمانياً طوله عشرة أميال ، يمتد ثلاثة ارباع

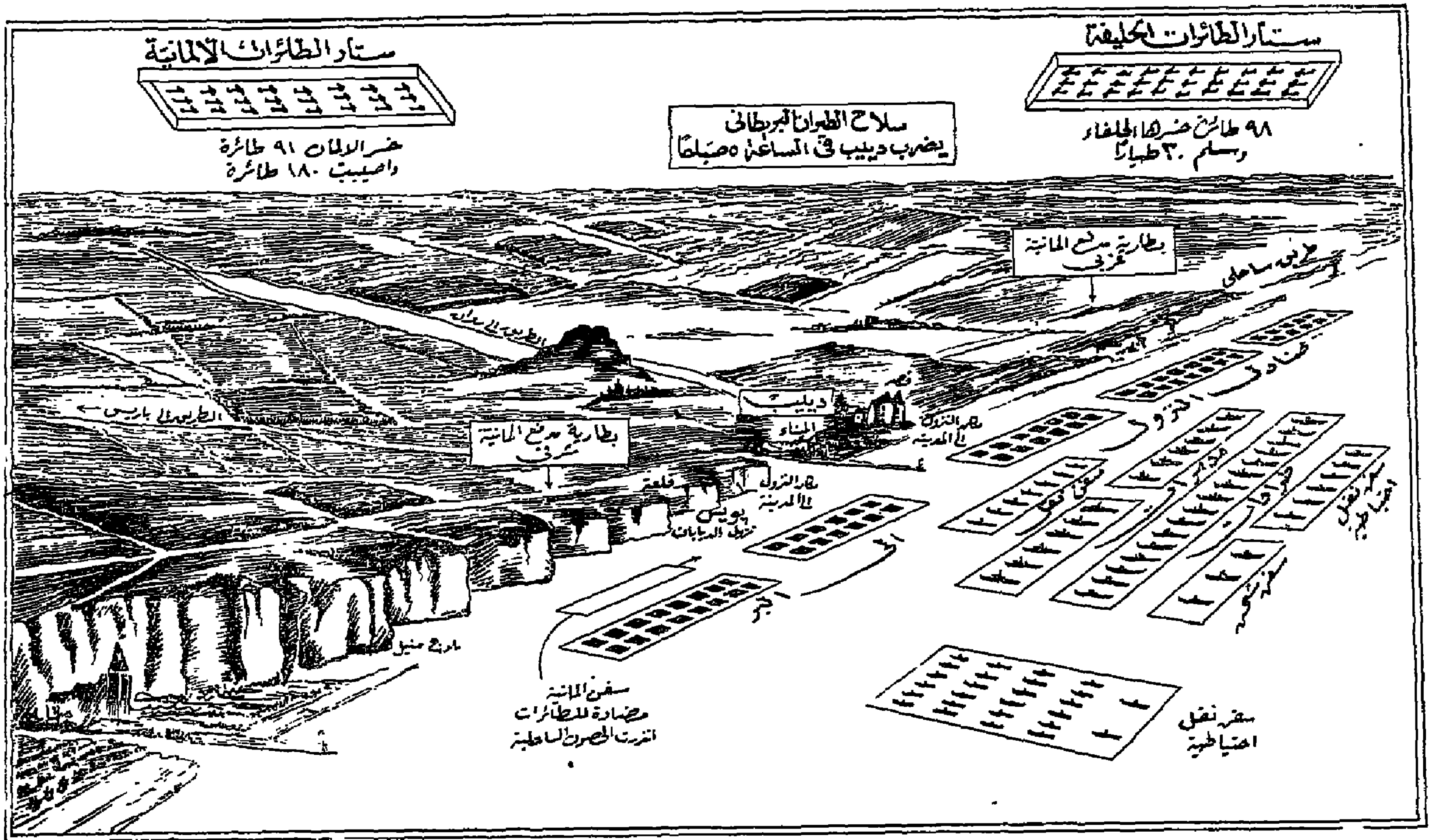

الساحل الفرنسى فى جوار دييب حيث نزلت القوات المغيرة فى ستة أماكن وكانت هذه القوات فى صنادل صنعت خاصة لمثل هذه الأعمال الحربية وقد نقلت بها فصائل المشاة والدبابات إلى الساحل .

وكان بين الأهداف الرئيسية للغارة بطاريتا مدافع إحداها غربى المدينة والثانية شرقيها وقد نجح الهجوم على الأولى ولم يصب الهجوم على الثانية نجاحاً كاملا لأن المغيرين التقوا بسفن ألمانية أنذرت الحامية .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الطريق ، وأردف ذلك بقوله : « وأحب أن تعلموا أن قائدكم سيكون على رأسكم وفى طليعتكم عند اجتياز هذا الحقل ، فإذا اجتزته فإنكم ستجتازونه جميعاً مثلى » .

قلت : « لا بد أن يكون شديد القلب »

قال الضابط وهو يهز رأسه هزة الإعجاب : « نعم . وستمضى مدمرته فى الطليعة ، ومن المحتمل جداً أن تنسف ، والآن هيا بنا » .

وخيل إلى أن المدمرة « كالب » صغيرة جداً ، وكأنما تخلل بها الأعياء ، على أن كل مدمرة تبدو كذلك من جراء ما تدهن به وتصبغ للتمويه . فصعدت إليها والتقيت بشاب وسيم عرفنى بنفسه ، وقال إنه اللازم بويل .

وقال مقترحاً : « هل نذهب إلى المقصف ؟ » .

فإن من التقاليد المرعية فى سفن الحرب البريطانية أن يكون أول مظاهر الحفاوة بزائرها تقديم الشراب إليه وقد طلب لى بويل كأساً ، ولنفسه شاياً .

وسرعان ما اهتزت السفينة كالجرو حين يخرج من الماء ، فقال بويل : لقد أقلعنا ، والآن أريد أولا أن أريك السفينة » .

وصعدنا فى سلمين من الحديد إلى غرفة حسنة على شىء من السعة ، وكان فيها ثلاثة رجال على أجهزة الراديو ، وعلى آذانهم السماعات ، ولكن عينى كانت على الرجل الجسيم المبسم الذى نهض واقفاً لما دخلت .

وأقبل علىّ باشاً يقول : « يسرنى أنك على ظهر هذه السفينة . أنا روبرتس »

فقلت ، وأنا أشعر بقلبى يهبط : « يسرنى أن أعرفك يا سيدى » . ودار فى نفسى ما روى الضابط الكندى أنه قال لرجاله : « أحب أن تعلموا أن قائدكم سيخترق حقل الألغام فى طليعتكم » .

***

وأخيراً أخبرنى بويل أن غايتنا هى دييب ، وكانت كاسحات الألغام تتقدمنا وتحاول أن تشق لنا طريقاً فى حقل الألغام الألمانى .

وسألنى بويل مستطلعاً : « هل سبق لك أن ذهبت إلى دييب ؟ » .

فقلت له بغير احتفال : « نعم ، منذ أسبوعين ، مع طائرات القتال الليلية » .

فجحظت عيناه ، وقال وقد تمشت فيه النشوة : « وطرت فعلا معهم ، وخضت ما خاضوا من قتال ؟ لطالما اشتهيت أن أفعل ذلك ! إن هؤلاء الطيارين آية فى البسالة ! وهم مع ذلك أحداث صغار — معظمهم » ! .

فسألته متردداً : « كم عمرك ؟ » .

فاتقد وجهه قليلا وقال : « سأبلغ الحادية والعشرين بعد نحو ثلاث ساعات . وغداً عيد ميلادى » .

وأطل نوتى بوجهه فى الغرفة وقال : « إن الربان هيــوز هاليت يود أن يراكما فى غرفة الملاحة » . فصعدنا ثلاثة سلالم من الحديد إليه .

وكان الترتيب الموضــوع يقضى بأن يوكل زمام الأعمال البحرية كلها إلى الربان ج . هيوز هاليت إلى أن نبلغ دييب ، وهناك يتولى الجـنرال روبرتس القيادة بالاشتراك مع القائد الجوى ا . ت . كول . وهذا هو مؤدى العمليات المشتركة : أن يعمل الجيش والأسطول والقــوة الجوية كفرقة واحدة ، مع التحرى الدقيق للتناسق التام .

وكنا على مسافة ميلين تقريباً من الشاطىء ، عند موضع التلاقى على ما يظهر . وكان الظلام حالكا ، ولكنا كنا نستطيع أن نرى سفناً حولنا فى كل ناحية . وكانت هناك ناقلات ضخمة عظيمة الجوف ، على ظهورها صنادل غزو صغيرة ، ومراكب طويلة لإنزال الدبابات ، ومعظمها غاطس فى المـاء ، وكنا نلمح من حين إلى حين مدمرة تفرق البحر على مقربة منا .

وسألت الربان : « هل معنا طرادات أو بوارج ؟ »

فهز رأسه وقال «معنا مدمرات ، ولكن ليس معنا ما هو أكبر ، على أن كل طائرة قتال ميسورة ستكون معنا عند الفجر» .

وتنبهت فجأة إلى أننا سائرون ، وأن وراءنا وعلى آثارنا خطاً طويلاً من السفن لا يستبين إلا لأنه أحلك من الماء . وهبطت أنا وبويل إلى القصف مرة أخرى ، فنشر خريطة وعدة صور فوتغرافية على منضدة .

وقال وهو يشير إلى الخريطة : « هذا منظر عام لدييب . وترى عليه ترقيمات شتى مثل « مدفع خفيف » أو « حواجز فى الطريق » أو « عوائق ضد الدبابات » أو « منزل مقوى » ، إلى مئات من أمثال ذلك ، فقد دأب السلاح الجوى الملـكى أسابيع على أخذ صور لدييب ، وكان آخر ما أخذ البارحة . ألق نظرة على هذه » .

وكانت الصور تبدو كأنها أخذت من ارتفاع مائة قدم ، فإن العدسات التلسكوبية التى يستعملها قسم التصوير التابع للسلاح الجوى الملكى تستطيع أن « تبصر » من ارتفاع مهول حقاً . وقد برزت المنازل والعمائر والطرق حيث تتلاقى وتتقاطع ، وأوكار المدافع المبنية من الأسمنت المسلح هنا وهنا — فى وضوح تام .

ثم قال بويل : « وهــذا هو جدول العمل » .

وناولني ثلاث صفحات مكتوبة بالآلة الكاتبة ، قرأتها فتبينت مبلغ الجهد الذى بذله مونتباتن وهيوز هاليت وروبرتس ، والأسابيع التى سلخوها لإعداد هذه الغارة وتدبير خطتها وتفاصيلها . فقد رتب الأمر بحيث يقع شيء كل عشر دقائق . مثال ذلك ، أن الشروع فى الإغارة مقرر فى الساعة الخامسة والدقيقة العشرين ، وفى هذا الوقت ينزل الجنود إلى الشاطىء ، ولكنه كان مقرراً أن تقوم المدمرات فى الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة بضرب هذا الشاطىء عشر دقائق . ولكل مدمرة هدفها الخاص ، وكان عليها جميعاً أن تطلق ١٧٨٠ قنبلة ، وكان طول الشواطىء الثلاثة التى ستضرب ١٧٨٠ ياردة . وهذا مثال كاف للتعريف بالجدول .

وقال خادم المطعم بإيجاز : « سندخل حقل الألغام ، فيحسن أن تلبسوا مناطق النجاة ، وأن تصعدوا إلى ظهر السفينة » .

ومناطق النجاة تسمى باسم ممثلة السينما « مى وست » ، حتى فى الاصطلاح الرسمى الآن . ومتى انتفخت وضح السبب فى إطلاق هذا الاسم عليها . وقد لبسناها وصعدنا ونظرت فرأيت أمامى نوراً .

فقال بويل على سبيل الإيضاح : « إن كاسحات الألغام تلقى طافيات مضاءة فى حيث طهرت البحر ـ واحدة كل نصف ميل تقريباً » .

واجتزنا الضوء الأخضر الصغير على مسافة عشرين ياردة منه ، ودخلنا فى حقل الألغام . ومضت السفينة مسرعة .

فقلت . « إنه لا موجب للعجلة فى الحقيقة ، أليس كذلك ؟ ألا نستطيع أن نسير على مهل ونحن نجتاز هذا الحقل الملغم ؟ » .

فضحك بويل وقال : إذا مسست لغما فإنه يستوى أن تكون مسرعاً أو متمهلا ، فالنتيجة واحدة » .

ورأيت على بعد ضوءاً آخر من هذه الأضواء الصغيرة ، وإلى هنا كان السير طيباً وكل شيء فيه على ما يرام . وكانت الريح قد هبت متداركة باردة ، ولكنى لاحظت أنى أتصبب عرقاً ، فحدقت أمامى متطلعاً إلى الطافية التالية ، غير أنى لم أر إلا الظلمة ومن ورائها العدو ، ولم يقطع السكون صوت ما . ومالت السفينة قليلا إلى اليمين ، وكانت لحظة من الجزع خطر لى فيها أنْ لعلنا فقدنا الدلالة التى تركتها كاسحات الألغام ، ثم مالت السفينة يسرة ، فأيقنت أننا ضللنا الطريق ، وإذا بضوء صغير يبدو فجأة على مسافة مائة ياردة .

وما زال الانتظار فى الحرب ، أبعث على الفزع من القتال حين يدور ، فإن الانتظار

يعذبك ببطء، ويضعفك ويتركك مسترخياً.
ومضينا على وجهنا آخذين سمتنا على الأضواء الخضر الصغيرة، وإذا بناقوس يدق في مكان ما، فسمعت أصوات ظلت ساكنة نحو ساعة، فكأنما تنفست السفينة الصعداء، فقد اجتزنا منطقة الألغام، وصار يسع الواحد منا الآن أن يهز كتفيه، ويحدث نفسه أن الرحلة لم تكن ثقيلة الوطأة على النفس.

والآن انقضى الوقت الذى كان ينبغى فيه كتمان الأسرار، فأفضى إلىّ روبرتس وكول، ونحن فى المقصف، بالخطة المرسومة للعمل.

وقد سألت روبرتس: «لنفرض أن كل شيء سار وفق الخطة الموضوعة، فهل هناك أى تفكير فى إقامة رأس جسر دائم؟».

فابتسم وقال: «كلا. فإن معنا طعاماً وعقاقير وذخائر ليوم واحد ليس إلا. ونحن نبغى — إذا تيسر ذلك — أن ندمر السفن التى فى المرفأ، ونستولى على جهاز لاسلكى لكشف الطائرات، وننسف مصانع الطوربيد. وأهم من ذلك أن هذه الغارة ستثبت للألمان أنهم لا يستطيعون أن يتراخوا عن اليقظة والحراسة فى أى مكان على طول الساحل، بل أن عليهم أن يعززوا استحكاماتهم، ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا بسحب الجنود والطائرات والمدافع من روسيا. ولا شك أننا كنا نؤثر أن نهجم على نطاق واسع، وأن نفتح مايسميه الناس جهلا منهم «الميدان الثانى»، ولكنك تعرف كما أعرف المصاعب التى تعترض ذلك».

فهززت رأسى موافقاً، فقد شهدت اجتماعات عقدت فى لندن فى سبيل الميدان الثانى، وكان إخلاص الخطباء والمستمعين وصدق سريرتهم من أوقع الأشياء فى النفس ولقد عدت من روسيا منذ بضعة شهور ممتلىء النفس إعجاباً بالشعب الروسى، ومن أشد الناس حماسة للميدان الثانى.

ورحت أجوب لندن وليس على لسانى سوى سؤال واحد: «لماذا لم يفتح إلى الآن ميدان ثان؟». ولم أكن ألقى هذا السؤال إلا على الذين يعرفوننى معرفة كافية تسمح لهم بأن يتكلموا معى بغير تحرز. وقد خاطبت فى ذلك رجالا مثل أفريل هريمان، والسفير أنطونى بيديل، وبعض القواد الأمريكيين الذين يعملون تحت إمرة أيزنهاور، وهم فيما أرى من الصفوة المختارة، شباباً، وعزماً، وصلابة، وإقداماً على الحرب. وخاطبت أيضاً رجالا فى وزارتى البحرية والطيران. فلما انتهيت من هذا التساؤل، عرفت لماذا لا يتسنى فتح ميدان ثان فى التو والساعة. فقد كان هؤلاء

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الرجال لا يتكلمون إلا بالحقائق والأرقام ، وليس الميدان الثانى فى نظرهم أمراً وطنياً ، أو مسألة تستثار بها حماسة الجماهير ، وإنما هى مسألة عسكرية جافة ، مدارها على الجند وأدوات الحرب ، ليس إلا .

ولم يكن فى الوسع الإفضاء بالحقائق المتعلقة بهذا الأمر فى ذلك الوقت ، ولكن الواقع أن جنود المظلات الذين لا غنى عنهم فى أى هجوم كبير ، كانوا لا يزالون يدربون فى ذلك الحين ، ولم يكن هناك من الجنود الأمريكيين إلا أقل من مائة ألف أوشكوا أن يتموا تدريبهم فى شمال إرلندا ، أما بريطانيا فلم يكن فيها جندى أمريكى واحد ، ولم تكن قوتنا الجوية قد بدأت تصل ، ولا كانت هناك مطارات معدة لها . ولقد هيئت بعد ذلك بشهور قليلة مطارات عظيمة بديعة لسلاحنا الجوى الأمريكى — ولكنك لا تستطيع أن تبنيها فى ليلة ، ولا سيما المطارات اللازمة لاستعمال القاذفات الضخمة .

فالمدنيون الذين كانوا ينتقدون الرؤساء العسكريين ، من بريطانيين وأمريكيين ، كانوا يفعلون ذلك لأنهم يجهلون حقائق الحالة

* * *

وصعدت إلى مركز القيادة فأدهشنى أنى وجدت أن السفينة كفت عن السير تقريباً . فمن الجلى إذن أننا قد بلغنا حيث نريد . ورأيت عن بعد نوراً يضطرب كأنه يطرف ، فقال لى أحد الضباط فى مركز القيادة ، وهو متجهم : « هذه منارة . وإنها لبشرى . فإن معناها أن القوم لا يتوقعون مجيئنا » .

فسألته : « أين نحن الآن ؟ » .

قال : « على نحو عشرة أميال من دييب » .

وكان على القوة الرئيسية التى كان هدفها دييب أن تنزل إلى اليمين من الميناء ، وعلى الوحدة الرابعة من الفدائيين أن تنزل على مسافة ستة أميال تقريباً إلى الشرق من ذلك ، وأن تدمر بطارية مدافع من عيار ست بوصات . وكان هذا حتما مطلقاً ، فقد قال قائد الوحدة — البكباشى اللورد لوفات وهو شاب متوقد الذكاء — فى الليلة السابقة لرجاله ببساطة وإيجاز : « افعلوا هذا ، ولو احتاج الأمر إلى أعظم مخاطرة ممكنة » .

وكان هناك إلى الغرب من دييب بطارية أخرى من مدافع عيارها ست بوصات مقامة على مرتفع من الأرض يشرف على الساحل المنبسط أمام المدينة ، وقد وكل تدمير هذه البطارية إلى الوحدة الثالثة من الفدائيين .

وعند منتصف المسافة بين دييب

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

والموضع الذى ينبغى أن ينزل فيه لوفات ورجاله ، أمكن أن يعرف مكان جهاز لاسلكى لكشف الطائرات ، وقد عهد إلى كتيبة « سوث سسكاتشوان » أن تدمره أو ، إذا أمكن ، أن تجرده وتعود به . وقد رافق رجال الكتيبة أحد المدنيين وهو ذو شأن عظيم ، ويعرف باسم «الأستاذ ويندل » ، ولا يعرف اسمه الحقيقى سوى قليلين جداً فى بريطانيا ، وهو فى الواقع صاحب الفضل فى ابتكارات شتى فى فن تعيين المواقع بأشعة الراديو ، وقد جعل الآلات البريطانية خير ما فى العالم ، وإليه يرجع الفضل فى أن سلاح الطيران الملكى وجماعات المدافع المضادة للطائرات فى بريطانيا تستطيع دائماً أن تعرف أن الطائرات الألمانية مقبلة قبل أن تصل إلى أهدافها بزمن طويل .

ولم تكن المهمة الموكولة إلى الأستاذ « ويندل » مما يطيب للمرء . وكان له حرس من أربعة جنود عليهم أن يفتحوا عيونهم وبنادقهم أيضاً على الأستاذ . وكان على الأستاذ أن يفحص الجهاز اللاسلكى الألمانى لكشف الطائرات لعله يقع فيه على جديد . وحسبه بضع دقائق لهذا الغرض بفضل ما له من التجربة الفنية العظيمة ، ولكن هب الألمان كانوا أقوى مما كان مقدراً ، وفاجأوا الأستاذ وحرسه ؟ الجواب بسيط . فقد كانت الأوامر الملقاة على الجنود الأربعة تقضى عليهم بأن يطلقوا النار على الأستاذ فوراً ، فما كان يسع بريطانيا أن تدع هذا العبقرى فى معرفة أجهزة اللاسلكى الخاصة باكتشاف الطائرات يقع فى أيدى الأعداء .

وقد شرح لى مونتباتن نفسه سبب هذا الزهد فى المخاطرة بوقوع أحد فى الأسر يمكن أن يستفيد العدو من معارفه . وقد عرفنا من طيارى السلاح الجوى الملكى الذين فروا من معتقلات الأسر الألمانية ، مبلغ حذق الألمان وبراعتهم فى استخلاص الحقيقة من الأسرى ، وقد كفوا ، إلى حد ما ، عن الالتجاء إلى وسيلة التعذيب البدنى الذى جروا عليه مع البولنديين والتشيك والنرويجيين . ولم يكونوا فى ذلك صادرين عن بواعث إنسانية ، وإنما كان السبب أنهم اهتدوا إلى وسيلة أخرى أنجع إلى التعذيب .

ذلك أن عندهم عقاراً يؤثر فى العقل ، ومتى تناوله الأسير فإن المسكين يصبح عاجزاً عن الكذب ، أو عن الامتناع عن الإجابة فكأنه مصل لكشف الحقيقة ، وهو يترك الضحية فى مثل « نوم السحر » وتأثيره . إن العقل الباطن ، أو الذى وراء الوعى ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يسيطر سيطرة تامة على العقل الواعى ، فلا يبقى للارادة مهما تبلغ من قوتها أى غناء . وقد أثبت العلماء البريطانيون أن مثل هذا العقار موجود .

ومن هنا كان مصير رجال مونتباتن أن يَقتلوا أو يُقتلوا . وكانوا يعرفون ذلك حين تقدموا متطوعين للعمل تحت قيادته . وكان ويندل يعرف ما هو مقدم عليه من الخطر العظيم ، ولكن وطنيته كانت أعظم . ومن حسن حظه وحظنا أنه نجا بعد أن أدى مهمته .

***

وكان من الجلى أن العدو لم يدر بعقدمنا إلى الآن ، فراح أسطولنا يزحف ويدنو ، وكانت الساعة قد بلغت الدقيقة السابعة والأربعين بعد الثالثة صباحاً ، ثم استيقظ الليل الذى كان راقداً ، على جمهرة باهرة من الأضواء الخضر والحمر ترسم أقواساً فى السماء ، ويومض سناها فى ظلمة الليل المخملية ، فوقفنا مبهوتين فى غرفة القيادة . وكانت هذه قذائف تترك وراءها أثراً يدل على أنها صادرة عن يسارنا . ثم سمعنا مما يلى الماء بمعمعة المدافع المضادة .

وعاد بويل من غرفة الجنرال روبرتس وقال : « إن باخرة زيت كانت داخلة على بضعة أميال إلى الغرب من دييب ، تحرسها أربعة أو خمسة من زوارق الطوربيد ، وقد رأت الزوارق صنادل الفدائيين فشرعت تمطرها وابلا من النيران » . وأضاف إلى ذلك وهو مقطب : « إن هذا سيقلب جدولنا » .

فذهبت إلى غرفة روبرتس ، وقعدت على الأرض قريباً من الباب من حيث لا أكون فى طريق أحد . وكان روبرتس وكول يتكلمان فى هدوء ، وكان رجال على أذانهم السماعات وأمامهم أفواه التليفون ، يتلقون الأنباء ويقدمونها إلى روبرتس .

« شتتت زوارق الطوربيد ، وأغرق ثلاثة منها ، وقد دمرت باخرة الزيت ، وتحاول الوحدة الثالثة من الفدائيين والكتيبة الملكية أن تجدا مكان الميعاد ، وتمضيا إلى وجهتهما » .

ولكن نيران زوارق الطوربيد كانت قد شتتت الصنادل الغاصة بالفدائيين وأغرقت بعضها ، فمات كثيرون من الفدائيين قبل أن يبلغوا الشاطىء ، ودار غيرها ورجع . على أن أحد الصنادل استطاع أن يغافل زوارق الطوربيد ويصل إلى الشاطىء ، ولم يكن رجاله من الفدائيين المقاتلين ، فى الحقيقة ، فقد دربوا على أعمال الاتصال والمخاطبات ، ولكنهم كانوا يحملون بنادق . وقد لبثوا بضع دقائق ينتظرون

ثم قال لهم الصـــاغ بيتر ينج ، وعمره أربع وعشرون ســنة : « لقد أمرنا أن نسكت هـــذه البطارية ، ونعطلها ، أليس كذلك ؟ » .

فقال بعضهم : « هذا صحيح » .

فصاح بهم : « إذن ماذا ننتظر . ؟ »

وكانوا عشرين فقط ، فمشـــوا مسافة ربع ميل دون أن يراهم أحـد ، ووجدوا البطارية ، فتفرقوا ، على نحو ما يصنع الهنود وأطلقوا النار من بنادقهم الآلية الصغيرة . ولم يكن فى مقدورهم أن يسكتوا البطارية ولـكنهم أزعجوها بنيرانهم ، حتى لقد عجزت عن التفرغ لنا نحن الواقفين على مسافة من الشاطىء .

وكان الفجر يزداد نوراً ، فنظرت إلى ساعتى وإلى الجدول . وقد بدأ ستار النار لما أتم عقرب الثوانى دورة الدقيقة ، فصار الهواء كأنما يضطرب ويختلج من أصوات القذائف .

وظلت المدافع عشر دقائق تقصف ، والومضات الذهبية تشق ضوء القمر ، ثم كأنما كان كل شىء يدير تجربته مدير حاذق ، فانطوى ستار الليل ، وطاردت الشمس قطعاً قليلة من الضباب ، فتبدت لنا مدينة دييب .

وتأدى إلينا من الغرب قصف المدافع من عيار ست بوصات ، ثم جاءت معمعة المدافع الرشاشـــة ، وسمعت فوق ذلك صــوت طائرات سبتفاير الرنان ، وكانت أربعاً وعشرين ، فى سربين . وتمتاز هذه الطائرات بهيفها وأناقتها ، ولا شبه لها فى ذلك ، ومحركاتها لا تزأر بل تترنم وتشدو ، وقد غيرت نظام صفوفها ، وصاركل أربع معاً ، وتفرقت جماعاتها هـــذه ، وخالفت بين ارتفاعاتها لتحمينا من كل جانب .

وظل روبرتس يتلقى الأنباء ، وقليل منها ما كان حسناً ، وكان لـكل رقعة من الساحل ، ولـكل هدف ، اسم .

« تقرير من الساحل البرتغالى يا سيدى أتمت الوحدة الرابعة من الفدائيين مهمتها وهى عائدة » .

« وماذا عن الساحل الأحمر ؟ » .

فهز الضابط رأسه وراح يكرر تكريراً مملا : « ادعو الساحل الأحمر ، ادعو الساحل الأحمر » ، وهو الموضع الذى كان مفروضاً أن تـكون الوحدة الثالثة من الفدائيين قد نزلت فيه .

« هنا الســاحل الأرجوانى . نطلب ستاراً آخر من الدخان على صخور الشاطىء الغربية . وابل الرصاص علينا شديد » .

فقال روبرتس : « أبلغ ألفريد هذا يا هندرسون » .

وكان القائمقام هندرسون أحد أركان

حرب الجنرال روبرتس ، فأدنى فمه من الميكروفون وقال : « ادعو ألفريد . ادعو ألفريد . ألقوا سحابة من الدخان على صخور الشاطىء الغربية حالا. هل تسمعنى ؟ انتهى »

وكان « ألفريد » هو الذى اتخذ فى يومنا رمزاً لمقر قيادة السلاح الملكى البريطانى فى إنجلترا . وهناك فى مكان ما ، وعلى بعد ثلاثمائة ميل سمعت هذا النداء آذان لا تنفك لاصقة بالسماعات . وصدرت الأوامر . وما لبثنا أن رأينا طائرات من طراز دوجلاس بوستون تحلق فوقنا ، وهى تحمل جهازاً لاسلكياً مزدوجاً للارسال والتلقى . وتمشيت على ظهر السفينة فأبصرت طائرتين من طراز بوستون ، تنقضان من حيث لا ندرى ، وتخلفان وراءهما دخاناً أبيض كالريش استقر على صخور الشاطىء . ثم مالتا ميلا حاداً وعادتا أدراجهما ، واحتجبت ذرى صخور الشاطىء بفضل هذه الطبقة الصناعية من السحاب ، وصار رجال المدافع الرشاشة فوق هذه الربى لا يستطيعون أن يروا رجالنا لابدين خلف جدار البحر الواطىء على الشاطىء .

وكان هـــذا هو العنصر الجوهرى فى العمليات المشتركة ، فما مضت دقيقتان على ما طلبه الجنرال روبرتس من إلقاء الدخان على الربى — وها هى ذى قد حجبت !

وكنا قد زدنا اقتراباً من الشاطىء ، وكان المنظر مما لا تستطيع هوليود أن تأتى بمثله ، وكانت القنابل تقذف من البطاريات الساحلية ، وقد سقطت إحداها على مسافة خمسين قدماً منا ، فدفعت فى الهواء نافورة من الماء ، وقعت عليها أشعة الشمس ، فأرسلت شرراً أحمر وذهبياً . وكانت المراكب من كل نوع تمتد إلى آخر مدى البصر ، والزوارق التجارية الصغيرة تنطلق من سفينة إلى أخرى . وقوارب الطوربيد تزأر وهى تمر ، والصنادل الكبيرة الموقرة بالرجال والمدافع تتجه إلى الشاطىء .

ودنا منا صندل ، ووقف ، وصعد رجاله إلينا . وكانت عليهم طوائف شتى من الأوساخ والأقذار ، ووجوههم ملطخة بالسواد ، ولكنهم كانوا يبتسمون . وكان هؤلاء فريقاً من وحدة «لوفات» الرابعة لم يستطيعوا أن يهتدوا إلى سفينتهم فجاءوا إلينا.

وسألت فدائياً ضخما منهم وهو يصعد إلى السطح : « كيف كان الحال ؟ » .

فضحك وقال : « كقطعة من كعكة ! لقد صرنا أدنى شىء إليهم قبل أن يتنبهوا إلى أننا هناك . وكان الحظ حليفنا ، فقد أصابت قذيفة من مدفع مورتر من مدافعنا ، مستودع الذخائر فنسف كل شىء . ثم هجمنا وقضينا عليهم . وقد دافعوا

ولـكنهم لا يستمرئون هذا السلاح ، أليس كذلك ؟ » .

فهز رفقاؤه رءوسهم مؤمنين ، وقال أحدهم : « حدثهم عن الـكولونيل » .

فانفجر الفدائى الضخم يضحك ويقهقه وقال : « أما إنه لرجل — هذا القائمقام لوفات ! فقد كان فى العودة آخرنا على الشاطىء ، وهو أبدا هكذا ، وكانت الصنادل على مسافة ١٥ قدماً من البر ، حتى لا تنغرس وتتعطل إذا احتاج الأمر إلى الجلاء السريع ، وكانت قنابل المورتر التى تضرب من مكان ما إلى الوراء تسقط قريباً منه ، والمدافع الرشاشة تنطلق بسرعة من فوق صخور الشاطىء ، والقذائف تتساقط فى كل مكان . فشرع القائمقام يخوض الماء ، فلما بلغ ركبتيه كان لا يزال على مسافة عشر أقدام من صندلنا ، فصاح بنا : « لماذا ينبغى أن أبتل من أجل أنكم أكسل من أن تدفعوا الصندل إلى الشاطىء ؟ تعالوا وخذونى ! » .

وضحك القوم وقال بعضهم : «القذائف تنهمر حوله وهو لا يزعجه إلا أنه يبتل ! » .

ثم جاءت الطائرات الألمانية . فما زلنا بعد ذلك تحت ضغط مستمر من طائرات العدو ، ففى حيثما صعدت طرفك ، كنت ترى معارك جوية ، إذ تحاول طائرات فوك — وولف ، ودورنير أن تخترق مظلتنا الواقية من طائرات سبتفاير . وقد شاهدت اثنتين من طائرات دورنير تضرعان وتهويان ، كأنهما كرتان من النار ، إلى البحر . وأصيبت ثالثة وهى فى الجو بقذيفة فانشطرت وصارت حطاماً متناثراً . ولم يتمثل للخاطر قط أن رجالا من لحم ودم كانوا بعض هذا الحطام .

وحاذانا صندل وألقى إلينا بالفوج الأول من الجرحى ، وكان الطبيب ينتظر فى غرفة صغيرة فى طبقة أدنى . فأمر الذين يستطيعون السير أن يجلسوا فى الممر ريثما يعنى باثنين كانت إصابتهما بالغة . وكان كلاهما راقداً وعيناه مفتوحتان ، وقد غاض الدم من وجهه ، وخلا من كل تعبير ، كأنما أسدل الألم عليه قناعاً . وكان أحدهما قد أصيب فى بطنه ، ولم يبن على وجه الطبيب تغير ما ، حين تناول أبرة وغرزها فى ذراع الرجل ، ونهض ، ونظر إلى ، وهز كتفيه .

أما الثانى فكانت إصابته فى رجله ، فحقنه الطبيب بشىء ، وأسرع مساعدان فقصا سراويله . وعريا الجرح ، فإذا رجله مما يلى الركبة لا يمسكها إلى جلدة .

وقال الرجل وكان صوته واحداً لا تتفاوت نبرته : « كيف نجوت ؟ لقد

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بلغنا الشاطىء . ونزلنا ، وكانت المدافع الرشاشة ترمينا من الجانبين ... كلهم أصيبوا إلا أنا ... وواصلوا رمينا بالرصاص ... ولم يصيبونى ... قتلوا جميعاً ... جميعاً إلا أنا ... لم يصيبونى قط ... » .

وخفت الصوت حتى انقطع . وتمتم الطبيب : « فات الوقت مع الأسف ! » .

وحينئذ فقط أدركت أن الرجل الذى على المائدة ميت .

وكانت مدافعنا المضادة تنطلق بشدة ، ومعنى هـذا أن الطائرات المعادية لا تزال تقبل ، وصار المقصف غاصاً ، وفيه على الأقل اثنا عشر رجلا فى بذلات مبتلة ، وكان خادم المقصف — جو كراوذر — يساعدهم على نزع ثيابهم المبللة والتوشح بالأغطية أو البطانات الدافئة .

وكان معظم الجروح من شظايا الشرابنل وهى ليست بالخطرة ما لم تكن الإصابة بها فى البطن ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع لشق الجروح وإخراج الشظايا ، فكان الطبيب يكتفى بأن يريق على الجروح مادة مطهرة ثم يضمده .

وكنا ربما سقطت قنبلة على كثب منا ، فكنا لا نعرف هل أصبنا تحت خط الماء إصابة مباشرة أو لا ، فكنا نسمع انفجاراً فتميل السفينة قليلا ويسمع لها صرير وصريف ، ونسكت ، ثم يضحك جو كراوذر ويقول : « يا للجحيم ! هذه كانت على مسافة نصف ميل » . ولم يكن جو كراوذر قبل ساعات معدودات إلا رجلا له لهجة أهل يوركشير أما الآن فقد صار شخصية تبرز ، وكان وجهه مستديراً ، وعيناه واسعتين حائلتين وكان يتكلم ببطء شديد .

وقال وهو يلف بطانية على قادم جديد : « هذه سفينة مجدودة . نعم ، فقد أصيبت مرات عديدة ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوا منها منالا . وإنها لمتينة طيعة ، أى نعم وخير من ذلك كله أنها مجدودة . خذ قطرة من « البراندى » يا صاحبى ، فإنه كله على حساب جلالة الملك . ولن يطالب القصف رواده بأثمان ما يشربون اليوم » .

ونزل بعضهم على السلم الحديدى متعثراً وانطرح إلى المقصف حتى بدا لى أنى أعرفه وقد تبينت أنه ولاس ريبورن مكاتب الستندارد التى تصدر فى مونتريال ، وكان وجهه شاحباً . خطا خطوتين فى الغرفة ثم تهافت إلى الأرض ، فرفعت رأسه ، وصببت فى حلقه شيئاً من « البراندى » فشرق ، وهز رأسه ، وفتح عينيه ، وعرفنى .

وقال : « يا لها من قصة ! » ، وابتسم بضعف ثم قال : « لست واثقاً ، ولكنى أحسبنى أصبت إصابتين » ففحصناه ، أنا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وجو ، فألفيناه أصيب فى كتفه وفى موضع آخر .

وضحكت وقلت له : « بك جرح لن تستطيع أن تراه إلا إذا لويت جسمك فصار وجهك فى موضع قفاك . وهو ليس بالبالغ — شظية صغيرة من الشرابنل. كيف كان الحال على الشاطىء ؟ » .

فقال وهو يرعد : « فظيع . كنت مع كتيبة سسكاتشوان . وكان هناك جدار على الشاطىء ارتفاعه اثنتا عشرة قدماً وفوقه أسلاك شائكة متينة جداً. فراح فتياننا يعالجونها ويلحون عليها ، وأخيراً شق أحدهم طريقه فيها فتخطيناها . وفى هذا الوقت تنبهوا لوجودنا. فأطلقوا علينا المدافع الرشاشة ، فطأطأنا رءوسنا لنتقيها . وبلغنا بيتاً مهجوراً ، ولكنهم جعلوا يرموننا فيه بقذائف المورتر ولم يكن هذا مما يطيب ، فخرجنا نقصد إلى المدينة نفسها .

« وكان علينا أن نعبر نهراً عليه جسر فأما الذين شرعوا فى ذلك أول من شرع فقد حصدوا جميعاً . ثم جاء ميريت — أعنى البكباشى س . س . ا . ميريت — ويااله من رجل ! فتى جسيم عليه رونق الشباب ، ولا يتجاوز عمره الثالثة والثلاثين . لم يزد على أن قال لرجاله فى هدوء : « لا تحتشدوا . . هيابنا ! » . ثم حمل خوذته بيده ، وذهب يمشى على الجسر كأنما يتمشى متريضاً . وكان آخر عهدى به أنه كان متجهاً إلى دييب ، وفى كلتا يديه مسدس . سألت الله أن يرده سالماً » .

« كم لبثتم على الشاطىء ياولاس ؟ » .

« أكثر من ست ساعات . وكان شرها الساعة الأخيرة ، وقد قضيناها فى انتظار المراكب لحملنا . وقد أقبلت فى الموعد المضروب ولم تتأخر عنه ثانية ، ولكن البحر كان قد مدّ ، فاحتجنا أن نخوض مسافة ثلاثمائة ياردة تحت رصاص المدافع الرشاشة وقذائف المورتر لنصل إلى الزوارق .

« ولا بد أن الحال كان شبيهاً بما حدث فى دنكرك — رقود على الشاطىء ما بين جريح وقتيل ، وآخرون فى الماء إلى ركبهم ينتظرون الزوارق ، ورجال يسددون بنادقهم إلى الطائرات التى تخطف فوق رءوسهم خطفاً حتى لا يكاد المرء يراها .

« وكان الزورق الذى ركبته قد انغرز فى الرمل ، ولكنا أخرجناه منه . ولما سار بنا نحو خمسين ياردة إذا به قد بدأ يغرق ، كان الله فى عوننا — غطس تحتنا . وكان هناك صندل آخر على نحو عشرين ياردة فسبحنا إليه ، ثم بدأ هذا أيضاً يغرق ، ولكن النوتية البريطانيين طافوا بالجنود واحداً واحداً ، وانتزعوا الخوذات والبنادق

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكل ثقيل غير ذلك ، وألقوا به فى الماء للتخفيف ، فتسنى لنا بذلك أن ننجو » .

وكانت مدافع أورليكون ومدافعنا الأخرى من عيار أربع بوصات تنطلق الآن ، فكان الضجيج والرجفان يملآن الغرفة الصغيرة . وشرع المصباح الموضوع فوق المنضدة يترجح من ناحية إلى ناحية كالمخمور ومالت السفينة ميلا شديداً يسرة ثم يمنة . وكان سيرنا معوجاً ملتوياً ، فكان من الجلى أن طائرات العدو تحلق فوقنا .

وأكبر ظنى أن السفينة ترنحت أولا قبل الانفجار بثانية . فقد ارتفع مقدمها ، ثم مال إلى اليسار ، ثم كان الانفجار ، فكأنما دققت زجاجاً ضخما بشوكة متذبذبة ضخمة ، فظل دوى الصوت فى أذنيك بعد الدقة بوقت طويل . ثم سمعنا من ناحية بيت المؤونة المجاور للمقصف ، صوت اندفاع الماء بقوة ، فتعلقنا جميعاً بالمناضد والكراسى . وإذا بضحكة مجلجلة — ضحكة جهيرة من أعماق القلب والجوف — تستعلى على هذه الضجات . وكان الذى أطلقها هو جو كراوذر .

وقال بصوت قوى وبلهجته الإقليمية : « أسمعتم مدفعنا الجديد من عيار ثمانى بوصات ؟ إن من يسمعه يخيل إليه أن قنبلة أصابتنا ، أليس كذلك ؟ ياله من مدفع ضخم يرج السفينة رجاً ! . ولقد حطم لى كل الزجاج فى مخزنى » .

فنظرت إلى وجه جو ، الكبير المستدير البرىء ، ودعوت الله أن يباركه ، فقد كان مكاننا من السفينة تحت خط الماء بكثير ، فلو كانت السفينة قد بدأت تغرق ، لضعف الأمل فى إمكان الصعود فى السلم الحديدى . ولم يكن ثم مدفع من عيار ثمان بوصات ، ولكن بعض التوتر الذى استولى على الجرحى زايلهم .

وأسرع بعضهم إلى بيت المؤونة بأدوات وآلات ، وكانت السفينة قد استوت ولكنها كانت لا تزال تتعرج فى سيرها ، فالطائرات لم تطرد إذن .

وقال جو كراوذر فى هدوء : « إننا نلقى ستاراً من الدخان . ومن عادتنا أن نتعرج فى سيرنا كلما فعلنا ذلك » .

* * *

وصعدت إلى ظهر السفينة ، فألفيت كل سفينة تتحرك حتى لا تكون هدفاً ثابتاً . وكانت هناك زوارق صغيرة لا تحمل إلا مدافع مصادة للطائرات ، فكانت ترسل ميزابا من رصاصها فى السماء . وكانت طائرات سبتفاير تمرق هنا وهناك وفى كل مكان . ولكنها كانت أحياناً ، وهى تطارد العدو ، تترك ثغرات فى الفضاء فتنشق طائرات دورنيير وفوك — وولف طريقها فيها ،

وتلقى قنابلها على سفننا وتطلق عليها مدافعها الرشاشة .

وحاذانا صندل ، وألقى إلينا نحو ثلاثين رجلا كلهم تقريباً من الجرحى ، فصارت سطوحنا كلها غاصة بالجرحى . وكان بعضهم رقوداً على محفاتهم متجاورين ، وبعضهم يتكىء على الحافة أو صناديق الذخيرة ، وكان اثنان من الذين جىء بهم أخيراً من « الرينجر » الأمريكيين ، من مدينة مينا بوليس وكانا حدثين فى رأى العين .

فسألت أحدهما وكان أشقر : « مع من كنت ؟ » .

وكان اسمه الجاويش كنث كنيون ، فقال : « مع الوحدة الرابعة من الفدائيين : وكانت المعركة شديدة على الشاطىء . ولكن هؤلاء الفدائيين والله أمجاد مغاوير ، وكان هدفنا بطارية مدافع من عيار ست بوصات ، وكان هناك بستان قبيلها ، فهل تدرى ماذا صنع هؤلاء الفدائيون ؟ كانوا يرقدون ويطلقون النار ، ثم يثبون إلى أقدامهم ويقطفون التفاح عن شجره ، ويعودون إلى إطلاق النار » .

وكان زميله الجاويش ماتشيل سوانك من المدينة نفسها ، وكان جرحه فى ذراعه ولكنه كان يهزأ به .

وقال مبتسما : « لقد كنت واثقاً أنْ لن يصيبنى سوء . فقد كان معى عوذة بديعة — إنجيل » . ورفع يده فى ثيابه المبتلة وأخرج كتاباً صغيراً مبللا : « وقد حمله أبى معه فى الحرب الماضية فلم يصب قط . وقد أعطانيه لما سافرت ، وصدقنى حين أقول : إنى سأحمله معى دائماً » .

وذهبت إلى مؤخر السفينة ، ورأيت الموضع الذى أصابته القنبلة ، وكان الحطام قد جمع ورفع ، ولكن بعض الدم كان باقياً . ورأيت عدة محفاة متجاورة ووجوه الراقدين عليها مغطاة .

ثم أصيبت السفينة « بركلى » — سقطت عليها قنبلة فى وسطها فقصمت ظهرها ولم نسمع القنبلة وإن كانت البركلى لا تبعد عنا إلا أربعمائة ياردة ، لأن الضوضاء الحاصلة من انطلاق مدافعنا ومن انفجار القنابل التى تسقط على كثب منا ، صارت نعيراً يمزق الأذن ، ولا يتسنى فى ضجته العظيمة تمييز صوت معين على حدة .

وخففنا إلى معونة السفينة المصابة وكانت زوارق الطوربيد البخارية والصنادل قد حفت بها ، وتولى الأسطول البريطانى مهمته الآن . ولست أظن أن أى رجل مكث فى الماء أكثر من ثلاث دقائق . وقد قتل كثيرون لما انفجرت القنبلة ، ولكن الجرحى نقلوا عن آخرهم .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وحمل بعض الناجين إلى مدمرتنا ، وكان أحدهم يوزباشي في الجيش البريطاني ، فسألته : هل رأى القائمقام هيلسنجر زميل جوك لورنس في مكتبه ؟ فهز رأسه أنْ نعم .

وقال بإيجاز : « لقد أصيب . وكنت معه على ظهر السفينة لما أصيبت ، فلم يمسسني أذى ، ولكن أصابته هو بالغة . وكان يتكلم مازحاً عن حذائين جديدين يلبسهما لما سقطت القنبلة . فمالت السفينة ميلا شديداً إلى اليسار ، وكنا في هذا الجانب ، فلم أصب . وقصدت إلى هيلسنجر لأسعفه ، فألفيته يسخط ويلعن ، وكان ظهر السفينة قد صار في مستوى الماء ، فرأيت أحد حذاءى هيلسنجر الجديدين طافياً على الماء على مسافة ثلاث أقدام ، فطار عقله ، وخلع الحذاء الآخر على نحو ما ، ورمى به وراء الحذاء الطافي » .

فسألته متحيراً : « هل تعني أن انفجار القنبلة أطار أحد الحذائين ؟ » .

فقال وهو يملأ صدره بنفس طويل : « نعم أطار الحذاء . وكان طافياً هناك وفيه قدم هيلسنجر أيضاً . وإن حالته لسيئة ، ولكنه شجاع جداً » .

« إذن قد فقد رجله ؟ » .

فقال بصوت ممسوح : « نعم فقد رجله »

* * *

وأقبل بويل علينا في المقصف فقال بهدوء : « انتهى الأمر . والجميع الآن عائدون من حيث أتوا — الجميع ما عدانا . فإن الجنرال روبرتس سيرجع إلى الشواطىء ليلتقط من عسى أن يكون في الماء ، وسنكون هنا وحدنا ، وسنلقى على التحقيق مثل حر الجحيم » ، قال هذا بلهجة المغتبط المستبشر .

وكنا نستطيع ونحن على ظهر السفينة أن نرى السفن عائدة ، أما مدمرتنا فاستدارت متجهة إلى الشاطىء ، ودنت منه حتى لقد سدد الألمان مدافعهم الرشاشة إلينا . فوقفنا وراء أستار المدافع وغيرها مما يصلح للوقاية ، فكان الرصاص يطقطق عليها . وكان بعضنا ، من حين إلى حين ، يلمح رجالا متشبثين بألواح أو غيرها من الحطام ، فكانت السفينة تمضي على مهل إليهم وترفعهم إليها .

وكان الضرب المنصب علينا شديداً ، لأنه لم يكن ثم غيرنا ، أما قبل ذلك فقد كان هناك أكثر من مائتي هدف في منطقة نصف قطرها أربعة أميال .

وإني لواقف خارج الممر قليلا ، وفي منتصف السفينة ، وإذا بصوت جديد يشق الفضاء فجأة على الرغم من أصوات مدافعنا : صوت لا تنساه أبداً إذا سمعته . وذلك أن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

طـائرة من طراز فوك — وولف ١٠٩ مرقت فى المظلة التى نشرتها طائرات سبتفاير وذهبت تقـذف بنفسها علينا . فجمدت فى مكانى ، وجمـد مثلى الأربعـة الذين كانوا حولى ، ومن بينهم بويل وكومودور الجو كول . وهبطت الطائرة من ارتفاع خمسة آلاف قدم إلى ثلاثة آلاف فى بضع توان ، ثم ألقت قنـابل ، وصار الجـو كله جحيما وزئيراً . فارتددت متراجعاً إلى الممـر ، واستلقيت على ظهرى ، ورحت أصغى إلى العالم وهو يقضى نحبه .

وذهلت ، ولم أدر هل أصبت أو لم أصب ، ثم انطبقت أسنانى على شىء ، فلفظته فإذا هى قطعة ذهب كانت غطاء ضرس ، فالتقطتها ودسستها فى جيبى ، فمن البديهى أن الرجة فكتها .

ونهضت متخاذلا ، ومشيت خطوتين إلى ظهر الباخرة ، فإذا الرجلان اللذان كانا واقفين على يمينى ويسارى ميتان . وجاء نوتى فساعد كومودور الجو كول على الدخول ، وكان وجهه ملوثاً بالدم . ومر بى بويل متعثراً ويداه على عنقه ، فقد أصيب فى عنقه ورأسه .

وتحسست أصابعى الحلية الذهبية التى فى جيبى . كنت واقفاً مع أربعة ، اثنان منهم قتلا ، والآخرون جرحا جروحاً بليغة ، أما أنا فما فقدت سوى « غطاء ضرسى » فلماذا نجوت ؟ ولأى شىء ادّخرت ؟

* * *

وكنا قد قضينا هنا نحو تسع ساعات إلى الآن ، فتحلل التعب بنا جميعاً ، ولم يعد هناك ذلك الصياح الذى كان يند عن رجال المدفعية كلما رأوا طائرة ألمانية . فصاروا يحشون المدافع ويطلقونها على نحو آلى وكان فى السفينة حوالى خمسمائة من الجرحى ، وغص المقصف والسطوح بالصامتين .

والبدن يستطيع أن يحتمل ضربا شديداً وأذى أليما ، وهو يكاد يكون غير قابل للتلف ، ولـكن الأعصاب لا تستطيع الاحتمال إلا إلى حد ما ، فإذا كلت ، وجاوز ما تكلف من جهد فى فترة ما ، حد الطاقة ، فإن بعض الناس يصبح شكساً ضجوراً ، والبعض يعتريه شىء من الهستيريا . ولا يقدح هذا فيما فطر عليه الرجل من شجاعة وشدة قلب ، فإن رد الفعل هنا خارج عن الإرادة كل الخروج .

ونهض فجأة ملازم مجروح وقال : « دعونا نعُـدْ بالله عليكم » ، وشهق شهقة البكاء وقال : « لقد عانيت الكفاية فدعونا نعد » .

فقال جو كراوذر معالجـاً تسكينه والترفيه عنه : « اشرب قدحاً يا رجل .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

إننا جميعاً قد عانينا ما فيه الكفاية، ولكن الربان يعرف ما هو صانع ».

فكرع اللازم كرعة روية من الزجاجة وحول الباقون عيونهم عنه، كأنما يريدون أن لا يشهدوا ما بدر منه أو يلاحظوه. فقد خالف القاعدة والأصول.

ودخل القصف ماتشيل سوانك الشاب الأمريكي يطلب منعشاً، فناولته البراندى وقلت له: « جرعة من هذا تنفعك ».

فنظر إلى الزجاجة مستغرباً وسأل: « ما هذا؟ »

قلت: « براندى — براندى جيد. يجعل شعرك جعداً، وينفع الأسنان، ويخفف متاعب الحمل! ».

فنظر إلى الزجاجة مرتاباً، وشرب شيئاً، وشرق، وسعل، ومج الذى فيه، وسأل بصوت شجى: « أليس عندك شىء من الكوكا — كولا؟ ».

وأدخل كبير المهندسين رأسه فى مدخل الباب وقال بإيجاز: « إننا عائدون الآن »، فتنفس الصعداء الأربعون رجلا الذين كانوا فى الحجرة.

وظلت طائرات دورنيير وفوك — وولف تتعقبنا، وأخطأتنا مرتين أخريين خطأ يسيراً، ولكنا أدركنا أسطولنا وجزناه. وكان هذا حسناً فى رأينا، وسنكون فى الميناء بعد ساعتين، ولكن هذا لم يكن ما أراده الجنرال روبرتس، كلا، فقد أراد مرة أخرى أن يكون هو فى الطليعة عند اجتياز حقل الألغام.

ومضت الساعات، واستوت الشمس فى كبد السماء بعد أن رأت ما فيه الكفاية فى يومها هذا. ولمحنا من بعيد خطاً دقيقاً ثم بدت لنا إنجلترا، وعدنا، ولكنه لم يكن هناك فى هذه السفينة لا جذل ولا سعادة. فقد كان كل امرىء متعباً. وكان العائدون يفكرون فى زملائهم الذين خلفوهم وراءهم.

والآن زال الأثر المخدر الرحيم الذى كان للصدمة، وبدأ الوجع يلح على الجرحى. وكانت الجروح مضمومة ضماً خفيفاً بالضماد والجبس، فانفتحت وانتقضت فسخط الجرحى على ما يكابدون من ألم، وعلى الضعف العجيب الذى حل بهذه الأجسام التى احتملت الآلام طول النهار وكتمتها، ثم عادت الآن ففترت عن المكافحة، وتركت الوجع يستعلى عليها.

وخرج الجنرال روبرتس إلى ظهر السفينة، وكان يبدو عليه هو أيضاً أنه متعب، واتكأ على الحاجز وعينه مصوبة إلى الماء.

فسألته: « كان الأمر أصعب مما قدرت أليس كذلك؟ ».

فتنفس نفساً عميقاً وقال ببطء : « نعم كان أصعب مما قدرنا » .

* * *

وفى اليوم التالى قال مونتباتن لمندوبى الصحف وقد دعاهم إليه : « إننا لم نحقق كل أغراضنا ولم نبلغ كل أهدافنا ، ولكنا أدركنا غاية رئيسية . فقد أرسلنا إلى دييب قوة بحرية كبيرة إلى حد ما ، وأبقيناها هناك أكثر من تسع ساعات ، ولم نفقد إلا مدمرة واحدة ، وفقد السلاح الجوى الملكى ٩٨ طائرة ، ولكن ثلاثين من الطيارين نجوا ، وأسقطنا على التحقيق إحدى وتسعين طائرة ألمانية على الأقل ، وهناك مائتان أخريان يرجح أنهما سقطتا . وقد علمتنا هذه الغارة كثيراً مما سينفعنا فى أعمال مقبلة » .

وقد اشترك فى الغارة حوالى عشرة آلاف رجل ، فى جملتهم رجال البحرية وطيارو السلاح الملكى الجوى ، وقتل أو جرح أكثر من ثلثهم . ولكن كون الغارة وجهت إلى ما لعله أمنع موضع على الساحل معناه : أنه ما من موضع آخر فى مأمن من الغزو . واضطر العدو إلى المبادرة إلى تعزيز حصونه فى عدة أماكن ، وعدل عما كان يرجو من إرسال عدة فرق من فرنسا إلى الميدان الشرقى .

وقد قصم ظهر السلاح الجوى الألمانى فى ذلك اليوم فى أغسطس ، فما قام بعده إلا بهجمة جوية حقيقية واحدة على بريطانيا ، واستطاعت طائراتنا أن تغير نهاراً على فرنسا ولا تجد إلا مقاومة أضعف مما كانت تلقى من قبل . فما كانت طائرات فوك ــ وولف البديعة التى دمرت فى ذلك اليوم ، ولا الطيارون الألمان المدربون الذى فقدوا * مما تهون الخسارة فيه ، أو يعوض بسهولة .

وقد درس الجنرال أيزنهاور كل حركة فى غارة دييب وهو يضع الخطة لحملة أفريقية الشمالية ، بل قد بلغ من حصافته وزكانة عقله أن طلب من مونتباتن وأركان حربه أن يساعدوه فى رسم هذه الخطة . وكان مونتباتن قد درس موضوع غارة واسعة النطاق على المواضع التى هوجمت آخر الأمر فوضع خطة وقدمها إلى الجنرال أيزنهاور . وبعد ثلاثة أيام من نزول الأمريكيين فى أفريقية الشمالية بعث أيزنهاور ببرقية شكر إلى مونتباتن على مساعدته له . والمرء يستطيع أن يستخلص أنه كان يفكر فيمن ماتوا فى دييب ، فإن من الصواب أن تقول إن أرواحاً أمريكية كثيرة أنقذت فى أفريقية الشمالية بفضل الدروس التى استفيدت من تجربة دييب .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ملخص كتاب كارستن اونستاد

كان كارستن أونستاد طالباً عادياً في مدرسة عالية أمريكية ثم أخذ بصره يغيض ويكف من جراء إصابة يسيرة في لعبة الكرة . واليوم وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، فقد علمه العمى أن يعتمد على حواس وجوارح أخرى ، وهو درس قد حذقه ببراعة .

وكتابه « العالم عند أطراف أصابعي » ترجمة لحياته . ويعد وصفه للتحصيل في مدرسته بغير عيون من أعجب وأندر الصور التي رسمها قلم لحياة طالب في مدرسة . على أن هذه الترجمة ليست قصة شخصية ممتعة فحسب ، فإنها أيضاً قصة شجاعة لا تقهر، ووحي بما يعين على النجاح والتغلب على العقبات والمصاعب .

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

هذه هى الطريقة التى تلاقى بها العمى .

تولد فى عالم لا ينفذ إليه النـور أبداً ، وتسمع به ، وتتطلع إليه وتترقبه ، وتتخيله ، وتجهد عينيك لتراه ، ولكنك لاتراه أبداً .

مثل جورج :

أو ترى ومضـة متألقة مفاجئة ، وإذا بكل دقيقة من تفاصيل ما حولك قد نقش بأحرف من نار على لوح ذاكرتك — الكوخ ، والأشجار الباسقة الذاهبة فى الهواء تحت السماء الحالكة ، والموضع الذى انفجر فيه الديناميت فالتمعت فيه ألوان برتقالية وبيضاء تزيغ البصر . ثم تدخل الدنيـا فى الظلام ، وتضع كفيك على وجهك ثم تردها والعرق يسيل منهما ، وبهما مثل مس الحمى .

مثل آل :

أو ترى الحروف وقـد بدأت تعـوم وتختلط على الصفحة كالسمك الهلامى فى الماء الراكد ، وتظل هكذا عاماً والأطباء يجربون كل ما يعرفون ليردوا الخطوط مستقيمة والألوان زاهية أمام عينيك ، وتبصر الدنيا من خلال ضباب منير ، ثم من خـلال ستر مرخى ، وقد أخذت الأضواء اللقاة عليه تخبو ، ثم لا تبصر شيئاً على الإطلاق .

مثلى :

شعرت أن شيئاً غير عادى قد حدث . فنزعت نظارتى ، ومسحتها ، ورحت أطرف ، وكنت أعزق الأرض للبطاطس ، وكان الظل الرَّوْحُ الذى يلقيه بيتنا يكسو الحديقة ، وفيما وراءها بدا لى بيت جارنا عند الركن الأقصى لهذا الجانب ، وهو يضطرب ، والدهان الأخضر على الزوايا يتحرك ويتلوى متداخلا فى بياض الجدار . فأغمضت عينى ، ثم نظرت مرة أخرى ؛ فإذا الأبيض والأخضر لا يزالان يلتويان ، ويبهتان ويطمسان ، وسبحت امام ناظرى خطوط سود تأبى أن تمحى وتختفى ، وازداد قصر نظرى ، فقلت لنفسى : سأطلب من أبى أن يزودنى بعـدسات أقوى من هـذه ، واستأنفت العزق .

وفى عصر ذلك اليوم دلقت الوعاء الذى فيه حبـوب البيغاء ، وجعلت أمى تراقبنى وأنا أجمعها .

فقالت لى : « لماذا لا تجمعها كلها ؟ » .

قلت : « لست أرى غير ما جمعت » .

قالت : « إن الحب أمامك وتحت عينيك »

فصوبت بصرى إلى البلاط محدقاً ، ولم يسعنى آخر الأمر إلا أن أمد يدى وأتحسس ، فما كنت أرى شيئاً من الحب .

ولما حدثت أبى بمعابثة عينى لى ، حملنى من فوره فى سيارة إلى إخصائى .

ولم يكن تشخيص الدكتور « أ » مشجعاً .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

قد سألنى : « تقول إن هذه العين ثقبها حد مقص وأنت فى الخامسة من عمرك ، فهل ترى بها شيئاً ؟ » .

وكانت هذه العين لا تكاد تتبين الضوء .

وعاد يسأل: « هل أصاب عينك الأخرى شئ ما ؟ » . فتذكرت أن كرة اصابتها فى مارس ، فورمت واسودت ، وبعد شهر أو نحوه ذهبت إلى دار للسينما فإذا بالرسوم تبدو مطموسة .

وانحنى الدكتور « أ » علىّ بمرآته ، ثم قال لأبى: « إن ههنا التهاباً ، وهنا التحامات تتكون بين القزحية والعدسة . ولا شك أن الضربة التى أصابت العين هى التى سببت كل هذا » . وكتب لى وصفة ، وقال : « عد إلىّ بعد أسبوع ، ولا تقرأ شيئاً ، وتجنب الشمس ، وإذا كنت فى النور فضع على عينيك نظارة سوداء » .

ووقفنا فى بعض الطريق ونحن نعود حتى يمر عرض ، فأنصت إلى الطبول وإلى أصوات الأبواق ، ونازعتنى نفسى أن أنظر ، وعجزت عن مقاومة الإغراء ، فرفعت النظارة السوداء ، فإذا بى كأنى ناظر إلى مشهد التقطته آله تصوير . فقد رأيت صفاً من حملة الطبول فى ثياب قرمزية وهاجة ، ومخدّمات(*) بيض ، وأحذية سود لماعة ، وكانت عصىّ الطبول واقفة فى الهواء ، وأحد الحذائين السوداوين مرفوعاً عن الأرض ، كأنما هؤلاء رجال فى صورة مرسومة ، يتحركون ولكن بغير حركة . وقد انحفرت الصورة فى ذهنى فليست تمحى أو تنسى . وكان هذا آخر عرض رأيته قط .

وتصرمت أيام الصيف ، وصار بصرى يزداد نقصاً ، فلما كان شهر أغسطس لم أعد أستطيع أن أتبين ما على طبق من الطعام . وكان اللحم والبطاطس والخنطة تبدو لى كأنها برك من ألوان حمر وبيض وصفر . ولما فتحت المدرسة فى الخريف رحت أفكر وأنا مكروب النفس ، فى زملائى من الطلاب ، وكيف أنهم يمضون فى التحصيل ، وأنا قاعد فى البيت لا أصنع شيئاً ، والركب يخلفنى وراءه .

وفى صباح يوم عاصف من أيام يناير مضى بى أبى فى سيارته إلى سنت بول لاستشارة إخصائى .

وقال الدكتور « ب » أخيراً بعد أن فرغ من الفحص : « أظن أنى أستطيع أن أرد البصر إلى هذه العين » . فغمرتنى موجة من الشعور بالفرح تركتنى ضعيفاً مرتعشاً . ومضى الطبيب فى كلامه شارحاً ويده على كتفى فقال : « سأستبقيك فى

(*) أرجل السراويل .

المستشفى بضعة أسابيع ، وسأعطيك ثلاث حقن بمصل التيفود للتغلب على هـذا الالتهاب » .

وقد امتدت الأسابيع القليلة حتى صارت تسعة شهور من العذاب الغليظ ، وصرت أكره الإبرة الواخزة الطويلة والطبيب الذى يغرزها فى عروقى التى صلبت ندباتها .

ولما أحدثت حقن التيفود أثرها ، عرتنى موجة من حر الحمى كان لها توصيم فى فى ظهرى ، وكان نبضان العروق فى جبينى من الشدة حتى أحسست أن مقلتى ستخرجان من محجريهما ، وكانت يدا الممرضة الرطبتان هما الوحيـدتان اللتان تستطيعان أن تحميا رأسى أن يتصدع ، ثم صارت الحمى نافضاً ، فطلبت زجاجات ماء ساخن وأغطيـة ، ثم أخرى .

وجاءت الممرضة ذات ليـلة بالديونين ، وهو عقار قوى له كى ولسع فظيعان ، وإنها لحانية علىّ ، وفى يدها القطارة ، وإذا بمحياها يبرز فجأة من ظلمة الغموض ، فأراه جلياً واضحاً ، فكأنما اخترقنى سيف من وقع هذا المنظر الذى لم أكن أتوقع أن أراه . وكانت تبتسم وشفتاها منفرجتان ، وخصل شعرها الدجوجى تزين جبينها ومفرقها ، وقد اجتمع فى عينيها الزرقاوين الضاحكتين لمع الضوء وومض الابتسام . وكان محياها أول محيا رأيته فى شهور عديدة ، وآخر محيا رأيته بوضوح . فسالت الدموع على خدى . ومضت هى عنى .

وأخيراً أجرى الأطباء الجراحة ، وكانوا كما خبرونى غير واثقين ، ولـكن عسى أن يكون هناك فرصة بعد التماثل .

ومضت الأيام بطيئة وأنا راقد ، وفوق ضماد عينى قناع من السلك كأنه نظارة ضخمة حتى لا تمتد أصابعى إلى عينى ، واستيقظت فى الليل فألفيتنى أعالج تمزيق القناع .

ثم جاء الدكتور « ب » ذات يوم وأمر بإسدال الستائر ، وفك القناع ، ونزع الضماد .

— « والآن افتح عينيك ... هل ترى أصابعى ؟ » .

— فحدقت فى خليط غامض من الأضواء والظلال .

— « كلا . إن كل ما أراه هو الضوء » .

وجعل الدكتور « ب » يعود كل يوم لفحص عينى ، ثم انصرف بلا كلام . وقبل أن أبرح المستشفى إلى البيت ببضعة أيام ، دخل على ، وناولنى طرساً على سطحه عدة نتوءات كأن رءوس مسامير قد نفذت منه ، فلمستها بأناملى وتحيرت .

وسألته : « ما هذا ؟ » .

قال « أبجدية بريل . أمسكها هكذا .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ودعني أر ماذا تستطيع أن تحفظ منها قبل أن أعود إليك غداً » .

***

وكانت أولى المعضلات أن أتعلم كيف أتنقل داخل البيت . وقد استنفد هذا وقتاً وكلفني خدوشاً . وقد اصطدمت بباب الحمام وكان أبي قد تركه مفتوحاً . وبعد دقيقتين دخلت المطبخ فاصطدمت بباب المخزن المفتوح فقالت أمي : « حاذر . امدد يدك أمامك حين تمشي » ، ولكني فضلت الخدوش على المشي ويداي ممدودتان ، فقد كرهت أن يظن بي العجز وقلة الحيلة .

وكان الاندفاع وراء الأشياء حين تفلت من بين أصابعي عادة ليس من السهل رياضة النفس على تركها . وكانت أذرع الكراسي وزوايا المناضد تعترض طريقي كثيراً فتكسر لي نظارتي السوداء ، وتخدش أنفي ، وتقشر جلدي إذ أنحني لأسترد قطعة من النقود قبل أن تكف عن الجري والدوران . ثم تبينت شيئاً فشيئاً أنه خير لي أن أدع الشيء يقع ، وأن أرهف سمعي حتى تنقطع حركته وصوته ، ثم ألتقطه بحذر ، وصرت أستطيع دائماً تقريباً أن أمد يدي إلى مكانه ولا أخطئه .

وكان تناول الطعام ، بغير وقوع في أغلاط ظاهرة ، معضلة أخرى ، وكان من الصعب أحياناً أن أعرف من ثقل الشوكة ووزنها هل عليها أو ليس عليها شيء من الطعام . وكنت أتوخى حذراً شديداً ودقة عظيمة حين يدعوني جار إلى العشاء . واتفق يوماً أن كان على المائدة أحب أنواع المتبلات والشهيات إلى نفسي — وهي خضر مقطعة قطعاً صغاراً على أوراق الخس الصعبة التناول ، فما كدت أرفع الشوكة إلى فمي حتى انفجر الصبي ضاحكا ، وكان في السادسة من عمره ، وقال : « انظري يا أم ! إنه ليس على الشوكة شيء ! »

وطال ترددي قبل أن أجرؤ على الخروج وحدي . وكنت أشعر أن كل حركة من حركاتي تراقب ، وأن السيدات ينظرن إلي من خلال السجف والأستار ، وأن الأطفال يدعون دراجاتهم ويقفون فاغري الأفواه . وكنت أتخبط وأصطدم بكل شيء ، ولا سيما إذا كان أحد قريباً مني وأخطيء موضع الانثناء في المشي ، وألقي نفسي على السياج الشائك ، وأدوس أحواض الزهر ، وأتعثر بأكوام الحطب .

ثم وقفت ذات يوم إلى وسيلة للهداية كانت لي بمثابة «حجر رشيد» (الذي حلت بفضله طلاسم اللغة الهيروغليفية) . وكانت تلك لحظة من أعظم اللحظات في حياتي . وما أحسب أن عالماً بالعاديات المصرية ، أو رائداً

أو فلكيا وجـــد أعظم مما وجدت من شعورى بهذه اللحظـة ، وكان « حجرى الرشـيدى » هو العمود الذى تشد إليـه حبال الغسيل .

ذلك أنى لما فترت حدة شعورى بذاتى وحالى ، اعتدت أن أمشى على حذر فى الفناء ، وفى ذلك اليوم بينما كنت أمشى على مهل قريباً من سلم المطبخ ، وقفت ، وارتددت بسرعة ، فقد شعرت أن أمامى شيئاً ، فدفعت يدى ، فإذا أمامى وفى طريقى مباشرة ، وعلى مسافة خطوتين أو ثلاث ، هـذا العمود . فذهبت أمشى حول البيت كرة أخرى ، فلما دنوت من موضع العمود خالجنى نفس الإحساس . فدفعت يدى إلى اليمين قليلا ، فإذا العمود هناك . ولم يكن هذا من فعل الخيال ، وإنما استطعت أن أحس بوجوده بطريقة ما .

فصعدت فى السلم مسرعاً ، وقلبت كرسياً من كراسى المطبخ ، واجتزت الردهـــة متطرحاً ، واندفعت داخلا إلى مكتب أبى . وصحت قائلا : « أبى ، إنى أستطيع أن أعرف أنى اقتربت من عمود الثياب . ولست أدرى كيف أفعل ذلك ، فمـا أسمعه ، ولا أنا أحتاج أن ألمسه ، ولكنى « أعلم » أنه هناك » .

وقد فتح لى هذا العمود آفاق الخارج ، فمـا دام فى وسـعى أن أشـعر بوجود الأشياء القريبة ، فإن فى استطاعتى أن أخرج وحدى وأنا آمن .

وسرعان ما عرفت أن الأعمى يستقيم على طريقه ، لأنه يحسن استخدام الحواس التى أوتيها . ولا شك أن ابتعاث الملكات التى طال تعطيلها وإرهافها وتنسيق عملها يستغرق وقتاً ، ولكن الأعمى يتعلم شيئاً فشيئاً كيف يجمع بين يقظـــة الحس والذاكرة ، جمعاً يعينه على السير فى الدنيا بغير معين . فهو يذكر مثـلا أن المشى الجانبى بعد هذه الشجرة يميل يمنة ، وتنذره حافة الرصيف بأنهـا هناك حـين يجتاز طوار الطريق ، فيرفع قدمه ويصعد من غير أن يصطدم بهـا ، ويسمع وقع أقـدام مقبلة فتخبره أن عليه أن يميل إلى الجانب الأيمن من الطريق .

وتعلمت قياس المسافات : فأمشى مسافة ، وأثنى ، وأجـد درجات السـلم أو الباب أمامى . ولم يكن يتعـذر على قط المشى على الرصيف ، فإذا تطرفت يمنة أو يسرة فإن الحشيش تحت قـدمى . ولم أكن أصطدم بشجرة ، لأنى كنت أشعر بوجودها حين أقترب منها . وإذا فقدت شعورى باتجاهى وتحيرت ، وأنا على الرصيف ، فإنى لا أروح أدبر وأقبـل ، وأدور حتى أقع فى حفرة ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بل أصغى للأصوات المختلفة ، وللسيارات حتى أتبين أنهـا آتية من ناحية مبنى ما ، أو شارع ما .

ووجـدت أن السمع أقوى عون لى ، ولم يكن اكتشافى مرة أخرى لعمود الثياب معجزة ، فقد سمعت موجـة صوتية مرتدة عنـه ، وهذه تجربه مشتركة بين الإنسان والحيوان . وقـد روى ألبرت بيزون تيرهيون أن كلباً أعمى كان مرهف السمع إلى حد أنه كان يذهب يعدو إلى جدار من الحجر حتى إذا صار منه على مسافة أشبار قليلة وقف . وقد كثر القول فى تعليل هذه « الحاسة العمياء » ، وذهب بعضهم إلى أنها شعورية ، وأن مركزها الجبين أو الوجه . ولكن العلماء وجدوا منذ بضع سنوات أن الأعمى إذا سدت أذناه ، يفقد قدرته على الإحساس بالعوائق المعترضة . فمن الجلى إذن أن هذه « الحاسة » الجديدة مرجعها إلى السمع . على أن سمع الأعمى من أوساط الناس أضعف من سمع البصير من أوساط الناس ، على خلاف الاعتقاد الشائع . وكل ما فى الأمر أن الضرير أفطن لأصوات أكثر ، لأنه وهو غير مشغول بالمرئيات ، يصبح وباله كله مجعول إلى مايسمع .

وعرفت ذات ليلة كيف أستخدم الأصداء لأعرف أين أنا . وما أظن إلا أن كل أعمى قد سمع بتورجر لين واستخدامه للأصداء استخداماً يدخل فى باب الخرافة . فنقرة واحدة بعصاه تعرفه مواضع الأشـــجار والمبانى وهو ماض إلى عمـله ، وفرقعة أصابعه تدله على ســـعة الغرفة ، وهل هى مفروشة مؤثثة أوفارغة خاوية . وقد جربت هذه الطريقة ذات ليلة ، لما أدركتنى عاصفة ثلجية وضللت .

فرقعت أصـابعى وأرهفت أذنى ، فإذا بالصوت يتبع خط الأشجار ، ثم يرتد إلى صداه ألطف وأشيع . والصوت يرجع عن المبانى كالتمطق الحاد . وكلما كانت الفرقعة أعلى وأقوى ، كانت المبانى التى أستطيع تعيين مكانها أبعد . وسرعة الأصــداء هى الوســـيلة لقياس المسافات والأبعاد ، فإذا دنوت من بناء زادت السرعة ، حتى إذا صرت على مسافة ياردات منه اختلطت الفرقعة بصداها وتسربت فيه وصارا صوتاً واحداً . وقد ازدهانى الفرح باكتشاف عالم أرحب آفاقا عنـد أطراف أناملى ، فوقفت هنـاك أفرقع أصابعى حتى أقبـل العسس يسأل : ماذا بالله ترانى أصنع ؟

والشىء الوحيد الذى لا يرتد عنه صدى هو ما هبط عن الأرض . ومن أجل هذا كانت درجات السلم الهابط إلى البدروم مصدر عناء دائم ، ومثلها المظـلة (تنده) الواطئة

المشرفة ، والأقبية المفتوحة على الطريق .

ولما قمت بأول رحلة وحدى إلى مدينة مينيابوليس التى لا عهد لى بها ، رأيت من الطبيعة الإنسانية ما طمأننى على المستقبل ، وملأ نفسى ثقة ، فقد كان الشرط وسائقو سيارات النقل وركابها ، والناس فى الطريق يتركون ما هم فيه ليبذلوا لى عونهم . وقد أحصيت فى آخر النهار من ساعدونى، فكانوا أربعة عشر، لعل كل واحد منهم عاد إلى بيته وهو يقول : «أما والله إنى لا أدرى كيف يصنع ! » .

ولـكن حاجتى إلى المعونة قلت على الأيام ، فكنت إذا خرجت وحـدى إلى شوارع مدينة غير مألوفة أجعل بالى إلى الاتجاهات وإلى المبانى والمعالم ، فعند هذا الركن حيث أتجه شمالا توجد محطة بنزين ، وعند الطرف الآخر من المبنى صندوق بريد كبير على طوار الطريق ، وبعد بناءين إلى الشمال آلة لخلط الأسمنت لبعض أعمال البناء ، بل ربما ساعدنى الأرج الذى يفوح من شجرة تفاح منورة ، أو زقزقة العصافير على بناء تعلق به النبات وعرّش عليه — أقول ربما ساعدنى هذا على معرفة المكان الذى أنا فيه .

وسرعان ما وجدت ، فى الصيف على الأقل ، حين تكون الأبواب مفتوحة ، أن لكل دكان رائحته التى يتميز بها . فللصيدلية التى فى الزاوية رائحة هى مزيج من العقاقير والعطور ، ولدكان البقال رائحـة البن المطحون حـديثاً ، ولدكان الثياب رائحة النسيج الجديد والـكرات المهلكة للعثة .

أما مفارق الطرق التى تشتد فيها الحركة فبقيت خطراً ، فكنت أقف على حافة الرصيف منتظراً مرهفاً سمعى ، مقـدراً الفرص التى تتاح للوصـول إلى الناحية الأخرى . وكان مرور سيارة واحدة مقرقرة أشد تحييراً لى من شارع كله حركة فقد تـكون وراءها سيارات أخرى ، ولا سبيل إلى التبين حتى ينقطع صوتها . وكانت سيارات النقل و (الموتورسيكل) تحيـل الأصوات فى مسمعى فوضى لا سـبيل إلى تمييزها . وكانت الريح تقتلع كل ما تسترشد به أذنى وتهتدى ، وتخلط كل المميزات الدالة وتجعل منها مزيجاً واحداً صارخاً .

ثم طامنت من كبريائى واتخـذت عصا بيضاء ، وكانت فى بعض الأحيان تضايقنى ، ولـكنها نافعـة فى المنعطفات . وكان سائقو السيارات يرونها فيقفون . وكنت بفضلها كموسى فى هذه المدينـة : أرفع يدى بالعصا فوق هذا البحر الصاخب فيفترق ، وأدرج سالماً إلى الناحية الأخرى .

وأدهشنى وسرنى أن وجدت أنى مازلت أستمتع بالذهاب إلى دور السـينما ، وهى

للأعمى كاذاعة الروايات المسرحية بالراديو للبصير. ولأكثر الروايات السينمائية موضوع محبوك تساعد الحركة والمؤثرات الصوتية على تتبعه ، ويعوض الخيال ما حرمه المرء من الرؤية ، فإذا سمعت صوت (فرملة) أو صرخة أو صوت اصطدام ، ارتسمت فى الذهن صورة يمهد لها الحوار السابق . وإذا كان الشريط يحتوى جزءاً صامتاً طويلا ، فإن كلمة من بصير تجىء فى أحيان كثيرة مؤيدة لما سبق أن وقع فى النفس .

***

وتطلعت إلى الالتحاق بمدرسة العميان التابعة لولايات منيسوتا ، وكانت هذه أطول خطوة أخطوها لأحيا مستقلا مستغنياً عن عطف والدىّ وحمايتهما ، ثم إن هذه المدرسة تعرفنى أعظم تعريف بذلك الجيش الذى لحقت به حين فقدت بصرى . وأخلق بطلبة هذه المدرسة ، وهم مائة وثلاثون ، تتراوح أسنانهم بين الخامسة والحادية والعشرين ، أن يكونوا قطاعاً حسناً ، من المائة ألف أعمى الذين فى الولايات المتحدة. فكيف هم يا ترى ؟ ماذا كانت تجاربهم ؟ وكيف يسيرون فى دنياهم ؟

ووصلت إلى المدرسة بعد الغروب، فمضوا بى إلى غرفتى فى الجناح الذى أفرد للنوم، وفيها عرفت «آل» زميلى فى الغرفة ، و«جورج» من غرفة أخرى فيما وراء الردهة .

وكان « جورج » مديد القامة ، يطولنى ويطول آل بشخصه الجسيم الشديد العضل، وهو شمشون أعمى مشدود إلى عمود ، وما أعظم ما كان يمكن أن يكون ، ولكنه الآن مستحيل . وقد شعرت وهو يتخبط ويتعثر فى الغرفة بالثورة على ظلم القضاء .

وكان أمر « آل» أحسن ضبطاً ، وميزانه أشد اعتدالا ، وهو أكثر مواهب . وكان يجلس ساكناً ويعزف على القيثارة ، وكانت موسيقاه عذبة ، وليست إيقاعاً منتظما كالذى يخرجه الهواة ، بل لمساً لأوتار رقيقة وتطريباً بألحان ، وكان يجيد ضرب القيثارة والطنبور إجادة عجيبة .

وما لبثنا أن استطردنا إلى الموضوع الذى لا مفر منه . وقد علمت أن عينى آل نسفتا نسفاً لما انفجر فى وجهه صندوق فيه رءوس ديناميت ، منذ أربعة أعوام .

وفى صباح اليوم التالى أعطيت لوحاً وملمولا (قلماً معدنياً) ، ثم ذهبوا بى إلى مكتب المديرة وهى سيدة حسنة الصوت ، فنظمت لى دراستى ، فى مواد الهندسة والتاريخ والطبيعة واللغة اللاتينية .

ثم قالت : «وما رأيك فى صناعة؟ إن لك الخيار — وأمامك صناعة القشات ، والحفر على الخشب ، ونسج السجاد ، وعمل

السلال ، والشباك ، وكسوة الكراسى بالخيزران ، وضبط أوتار البيانو » .

فلم يرقنى هذا ، وأشفقت إذا أنا أخذت فى شىء من هذا أن أسلم نفسى إلى حياة من الكد الذى لا خير فيه ، ولكنى ارتضيت نسج الخيزران وضبط الأوتار .

وكان المنهاج لا يختلف عما فى المدارس العامة إذا استثنينا الكيمياء . وكان على الطلبة أن يعكفوا على الصناعات بقدر ما تسمح لهم بذلك دروسهم ، والغرض من ذلك تدريب اليد . وكانت الموسيقى فى كل مكان ، وكل فتى أو فتاة تستطيع تعلم الغناء أو العزف ، تلتحق بفرقة موسيقية . وكانت المدرسة تعنى أيضاً بالآلة الكاتبة ، وكانت المذكرات والامتحانات تكتب عليها ، وقل من المعلمين البصيرين من كان يقرأ خط « بريل » بسهولة .

وكانت كتبنا المدرسية بخط بريل ، وكانت الصورات التى تستعمل فى تعلم الجغرافية بارزة ، وتلك خير ، من حيث البيان والوصف ، من المصورات المرئية ، لأن رءوس النجود الناتئة تحت الأنامل أعون على تصور الارتفاع والعمق . وكان كتاب الهندسة حافلا بالرسوم والأشكال البارزة ، وكنا نستعمل فضلا عن ذلك كتلا خشبية تجسد المثلثات والدوائر والمربعات والمسدسات من كل الأحجام . على أن حل المسائل الرياضية على لوح بريل للكتابة كان أصعب من المسائل نفسها ، وكان تصحيح خطأ ما ، أمراً غاية فى التعقيد والتحيير . وقد كان من شأن هذه الصعوبات أن صار كثيرون من الطلبة بارعين فى الحساب العقلى ، وأصبحوا أشبه بآلات آدمية حاسبة .

وقد عكفت على خط بريل عكوفاً شديداً ورحت أدرس كتاب مبادىء القراءة به حتى على أرض الملعب ، وأقرأ بجهد مجلداً ضخما يحوى رواية « الكبرياء والتحيز » بالليل فى فراشى ، حتى خدرت أناملى ودميت من كثرة ما لمست من سطور النقط . وكان يحدث أحياناً أن تعاد كتب جديدة ذات نقط حادة إلى المكتبة ، وعلى صفحاتها قطرات من الدم ، لأن بعضهم استحوذت على نفسه القصة فظل يقرأ حتى دميت أصابعه . وقد حاولت أن أستخدم أصابعى الأخرى ، ولكن النقط كانت تستعصى عليها وتستبهم ، كما كانت تستبهم على سابقى لما بدأت أتعلم هذا الخط .

ويظهر أن إجادة قراءة خط بريل رهن بملكة فطرية ، أو حساسية غير عادية فى المرء ، فإن بعضهم لبث سنوات يقرأ بهذا الخط ومع ذلك كان يتعثر عند كل نقطة ، على حين كان غيره يقرأ بسرعة عجيبة .

ومن هؤلاء « إيد » — ذلك الفرنسى

الصغير البدين الثقيل السمع ، وكان يقضى معظم الوقت فى القراءة أو العزف على البيانو ، ويقوس ظهره وهو يعزف كأنه بيتهوفن آخر يرهف أذنه ليسمع نغمات موسيقاه الدقيقة . وفى وسع الرجل من الأوساط أن يقرأ بخط بريل نصف مايقرأه البصير من الكتابة المطبوعة . أما « إيد » فكان يخطف كالريح فوق الصفحة بكلتا يديه وأصابعه العشرة ، رائحة غادية فوق النقط ، ولا تسمع إلا حسيساً إذ تمر أصابعه على النقط ، وإلا صوت الصفحة وهى تقلب . وكان يحب أن يسمعنا ما يقرأ ، وكان يبلغ من سرعته فى القراءة أحياناً أن تعجز شفتاه عن اللحاق بأصابعه ، فتخرج الألفاظ مغمغمة غير واضحة . وكان جو المكان مرحاً خفيفاً ، فبعد الدرس ، إذا هفا إلينا صوت البيانو من الطابق الثالث من الجناح المفرد للنوم ، بادر الجمع إليه ، ويجىء « سوب » بالسكسوفون وقد عرف أسلوب « سويد » فى العزف ، ويجىء « كات » بقيثارته ، و« بوب » بمزماره ، و« جودين » بطبوله وبالهامن بموسيقى . يجتمع الخلق عليها كالذباب على السكر ، حتى فى مداخل الأبواب .

وكان عمى العميان فى هذه المدرسة راجعاً إلى أسباب شتى : كالإصابة ، أو أمراض الطفولة ، أو الوراثة . ومن ذلك أن « بن » ، وهو صبى فى العاشرة ، كان يلعب فى فناء المدرسة فأصيبت عينه بكرة من الثلج ، وأعمت العين أختها . وأما « آرت » فإنه وهو فى الثامنة رأى أمه تقطع حلقة المطاط عن جرّة فيها مواد مخللة ، فانحنى عليها يراقبها فتفلتت السكين من يدها وخدشت قرنية عينه خدشاً لا يكاد يبدو . ولكن الحامض الذى كان على حد السكين ذهب ببصر الغلام . أما « جيم » ففقد بصره من جراء الحصبة وهو فى الثانية من عمره .

وسرعان ماتبينت أن الفتيان الذين كانوا عمياناً معظم حياتهم يتفوقون علىّ ، لا فى الحساب العقلى وحده بل فى الألعاب التى يعول فيها على الذاكرة .

وكان آرت أمهر فى ورق اللعب من أن يغلب ، وكان له مجموعة من الورق فى زواياها الفوقية الشمالية والتحتية اليمنى ما يميزها من نقط بريل . وكنت أجد مشقة فى تذكر ما فى يدى من الورق ، أما آرت فكان يذكر كل ورقة معه ، وكل ما ألقى على المنضدة . وكنا نلعب الشطرنج على رقعة مربعاتها السوداء هابطة ، وقطعها الحمر مستديرة ، والسود سداسية الشكل ، وفى هذا لا غنى عن الذاكرة ، وعن القدرة على تصور الرقعة فى حالاتها المتعاقبة .

وكانت الأحلام تتراءى لى فى منامى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كعهدى بها إذ أنا بصير ، وكانت الصور فيها واضحة حقيقية كما كانت ، فكنت أرانى أسوق السيارات وأركب الدراجات ، وأبصر الوجوه التى ألفتها ، بل كنت أحلم بوجوه أصدقاء جديدين لم تسبق لى بهم معرفة . وما أكثر ما تساءلت فيما بعد عن الصور التى تبدو لى فى الأحلام : أهى ياترى تطابق المظهر الحقيقى للاشخاص ؟

وسرنى ، لما عدت إلى المدرسة فى الخريف الثانى ، أن ثقتى قويت . فكنا نستطيع أن نهتدى ، ونجد طريقنا وحدنا ، بل نلعب لعبة معدلة من كرة السلة ، ونعدو وأيدينا على سلك ممدود يرتفع عن الأرض إلى خصورنا ، فى درب طوله مائة ياردة ، ولكنا كنا نشتهى أن نفعل غير ذلك مما يفعله المبصرون .

ولقد كان من دواعى العجب أن نشاطنا الجثمانى لم يقتلنا ، فقد كنا نتصارع ونتعارك فى غرفنا ، فنقع على الأرض ، ونخبط الكراسى والمناضد فنصطدم بالأسرة ، ونتلاكم على شرط « أن لا يكون ضرب فوق الكتفين » . وفى إحدى هذه الملاكمات زلت قدمى فوق البساط ، فوقعت على وجهى فأصاب عينى شىء ، إصابة أليمة ، وظللت إلى أن فحصنى الدكتور (ب) مرة أخرى أخشى أن يكون قد بت آخر ما بقى بينى وبين البصرين من صلة — أعنى قدرتى على رؤية الضوء .

ولعل أقوى ما شعرت به من التحرر من ربقة العمى ، كان لما اقترح « موستر » ، فى آخر شتاء قضيته بالمدرسة ، أن نتزحلق على الثلج . وكان لبعض الذين لم يفقدوا كل بصرهم ، أحذية للتزحلق استعرناها . وذهبنا إلى مرتفع حسن على مقربة من المحجر ، وأوقدناها ناراً محتدمة ، وكان « ديونج » يرى قليلا ، فشد قدميه إلى الحذاءين وانطلق فاختفى وراء ما ارتفع من التل .

ولما عاد إلينا ينفخ ويلهث سأله « آرت » : « هل على جانب التل أشجار ؟ » .

— « لم أجد شجراً حيث كنت » .

ولم يكن آرت ذا عين يبصر بها ، ولا كان ظنى أنه جاد فى اعتزامه التزحلق . منحدراً على هذا التل ، ولكنه بعد أن وجهه ديونج وجهته ، انزلق هابطاً وانغمس فى الظلمة . فأنصت ، وأنا كالمتحجر فى مكانى متوقعاً أن يصطدم بشجرة أو صخرة ناتئة ، ثم تأدت إلينا صيحته المألوفة من بعيد أن قد « فعلتها » .

ولما جاء دورى ترددت ، ولم استمرىء أن أقذف بنفسى فى الفضاء وأنا لا أدرى ماذا عسى أن يلقانى ، ولكنى لبست الحذاءين أخيرا ، ووجهنى ديونج إلى الطريق .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ووقفت هنيهة كالمعلق على الحافة وقد انقطع نفسى ، ثم هـوت الأرض تحتى فمضيت ، ورحت أهبط بسرعة تزداد حتى مال الحذاء عن مجراه ، فقذف بى كالمنجنيق بين سلسلة من كثبان الثلج .

وتخلصت ، وعدت أدرج مصعداً فى التل ثم قلت لديوتج : «وجهنى، فما من تجربة ذلك مرة أخرى بد» . وذهبت أهبط مرة أخرى والريح تضرب وجهى بمثل السوط فأقعيت وملت إلى الأمام ، وكنت أتوقع فى كل لحظة أن أذهب دائراً فى الهواء . وصحت لما وقفت : « فعلتها ؟ وبلغت السياج أو شيئاً نحوه » فقد شعرت بوجود شىء أمامى ، وتقدمت فلمسته ، فإذا هو شجرة ! وكانت على أقل من أربع خطوات منى ، وكان بين حذائى أصل شجرة متين !

ثم جربنا بعد ذلك قافلة المتزحلقين . ثم أحطنا بالنار نصطلى ، وألقى عليها موستر أكواما من الأغصان الجافة ، ورحنا ندفأ بضرامها الوهاج ، فتالله ، ما أطيب أن تخرج فى زمرة من الإخوان ، وأن تفعل ما كنت تحسب أن لن تقوى عليـه بعد ذلك أبدا .

* * *

وكنت لما فقدت بصرى قد كففت عن أشياء لها قيمة كبيرة فى حياتى — القراءة والكتابة ، والرياضة البدنية ، والموسيقى ، والأعمال اليدوية ، والتثقف بالكتب ، فالآن بعد ثلاثة أعوام ، استعدت ذلك كله .

وسأذهب فضلا عن ذلك إلى الكلية بفضل مجانية منحتنيها الولاية ! وقد اعترانى لذلك ازدهاء وفرح ، وأحسست كأنى منفى عنى عنه ورأى بعد سنوات أرض وطنه . وكان للذهاب إلى الكلية مؤدى عندى أكثر من مواصلة الدرس والتحصيل ، لأنه عود إلى العالم الذى أخرجت منه ، وخوض لحياة اجتماعية أعمق وأرحب .

وكان أهل هـذا العالم فى بداية الأمر ترق قلوبهم لى فيعاملوننى كأنى إنسان على حدة ، أو غريب جدير برعاية خاصـة ، ولـكن السور الذى يفرق ما بينى وبينهم ما لبث أن زال بسرعـة فصرت جزءاً لا يتجزأ من عالم الكلية .

وقد اتخذت أحد الطلبة قارئاً لى ، ولقينى « ديك » لما وصلت ، وطاف بى بسرعة فى أرجاء المكان ، ولـكن الصورة التى ارتسمت فى ذهنى كانت شديدة الغموض . وأفزعنى ، وأنا جالس فى غرفتى مصغياً إلى صيحات الطلبة فى الخارج ، خاطر المجازفة بالخروج وحدى ، والتعثر بكل شىء واجتذاب أنظار الطلبة إلىّ . ولـكنى لم أكن أتوقع أو أطمع أن يقودنى زملائى من مكان إلى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مكان ، وأن يضحوا بمصالحهم فى سبيلى .
وليس من حق الإنسان أن يقعد ويروح ينتظر أن تأتى الدنيا إليه وتسعى له ، وإذا أراد أن يكون من الدنيا فإن عليه أن يسعى لها ويخرج إليها ، لذلك حزمت أمرى ووضعت قبعتى الخضراء على رأسى ، وذهبت أدلف وحدى وأرتاد هذا العالم تدريجاً .

وكنا — أنا وديك — لما سجلنا اسمينا فى الكلية ، قد حرصنا على أن نختار من المواد المشتركة أكثر ما يمكن ، لأنه كان سيتولى القراءة لى ، وكان لا بد بعد هذا التوفيق بين المنهجين ، أن يراجع الأستاذ منهجى .

وقد سألنى هذا السيد الجهم : « كيف تنوى أن تدرس ؟ » .

قلت : « سيقرأ لى بعضهم » .

فتأمل بطاقتى وقال : « الإنجليزية ، والإلقاء ، والتاريخ الأمريكى ، والديانة ، والعلوم الطبيعيـة ، العـلوم النوردية ؟ » وتنحنح : « إن درس العلوم لازم ولـكنى أعتقد أن فى وسعنا أن نعفيك منها » .

فاجتنبت الإصرار على درس العـلوم ، وكان هذا خطأ ندمت عليه فيما بعد . وكانت دراستى ، فيما عدا ذلك ، مطابقة لدراسة الطلبة غيرى ، ولـكنى بترك العلوم الطبيعية أضعت فرصـة كانت تهيئ لى أن أثبت على وجه قاطع أن فى مقدورى ، على الرغم من العمى ، أن أحصـل أية مادة يستطيـع المبصرون من زملائى تحصيلها . ولا شك أن تجارب المعمل لم تكن تخلو من صعوبة ، ولـكنها صعوبة ذللها غيرى من الطلبة العميان فى الكليات الأخرى .

وقلت للأستاذ معترضاً : « ولـكن هذا لا يترك لى سوى أربع عشرة ساعـة من الدروس ، وبى حاجة إلى خمس عشرة » .

فسعل مرة أخرى وقال بلهجة الآسف : « نعم ، ولـكن من الصعب عليك أن تحمل العبء كاملا ، وسنرى ما تستطيع أن تصنع أولا بالأربع عشرة » .

فتململت ، ولـكنه لم يسعنى إلا أن أنزل على رأيه .

ولما كان العام التالى أخذت ثمانى عشرة ساعـة ، أى فوق العبء المتوسط ، ولما تصفح الأستاذ جـدول الشرف باحثاً عن اسم ابنته ، وجد اسمى هناك غير بعيد .

ولم يكن ميسوراً أن أحصـل على الـكتب المقررة فى الـكلية مكتوبة بخط بريل ، ولـكن كثيراً من الـكتب التى يجب مطالعتها كان يمكن الحصول عليها من الجماعة الاتحادية ، ولها ست وعشرون مكتبة ، كل ما فيها بخط بريل ، وهى مباحة للعميان ، وقد انتفعت بها أعظم انتفاع .

وكنت فى أول الأمر أستحى جداً أن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أدون مذكرات ، فى قاعة الدرس ، على لوح بريل ، ولكنى غالبت نفسى وثنيت كبريائى. ووضعت صحيفة من الورق السميك على اللوح ، وأقبلت عليها أنقر فيها بالقلم المعدنى. وكان صوت النقر ، إذ يثقب القلم الصحيفة يسمع فى جوانب القاعة فتلهبت أذناى من الخجل ، وأحسست كأن هذا شخير فى كنيسة .

وبدا لى أن تدوين المذكرات على هذا النحو لاخير فيه ، فلابد من التماس وسيلة أخرى ، ووجدت أن ورق اللف العادى يحتفظ بالنقط ، ولا يحدث صوتاً حين أنقره بالقلم .

وصرت بعد ذلك أحمل إلى قاعة الدرس كراسة كغيرى ، واستطعت بفضل الاختزال الذى كنت قد تعلمته ، على طريقة بريل أيضاً ، أن أكون أسرع فى تدوين المذكرات من الذين يكتبون بالخط العادى . وقبيل الامتحان النهائى فى علم الاجتماع ، شاع بين الطلبة أن مذكراتى تامة وافية ، فاحتشد الطلبة فى غرفتى ، وصاروا يقعدون على المناضد أو يضطجعون على الأسرة ، أو يجلسون على الأرض ، ويصغون إلى وأنا أقرأ لهم ، فانتفخت من فرط الزهو ، وكانت هذه فرصة اغتنمتها ، فرددت إليهم بعض ما أسدوا إلى من جميل وعرف .

وكانت وسيلتى لأداء أجر القارئ ، أن أصلحت أوتار خمسين بيانو ، للكلية ، بريالين لكل بيانو ، وهذا خير من القيام بعمل آخر لا حذق فيه ، فى مقابل ثلاثين سنتاً فى الساعة ، وهو ما يدفع للطلبة على ما يعملون من حين إلى حين ، على مدار العام ، فيقومون على خدمة الموائد ، ويغسلون الأطباق ، ويجمعون الأوراق المتساقطة . أما أنا فقد قضيت أسبوعاً من عطلة عيد الميلاد فى إصلاح الأوتار ، وأسبوعاً آخر فى عيد الفصح كذلك ، وانتهى بذلك عملى .

على أنى استنفدت فى هذين الأسبوعين كل ذرة من قوتى ونشاطى ، فكنت أستيقظ فى السادسة صباحاً ، وأعمل طول النهار ، فيما عدا عشرين دقيقة للغداء والعشاء ، وأرتمى فى العاشرة مساء على السرير وقد أضمرنى الكلال .

وما لبثت أن عرفت كل ما فى الكلية ، فاستطعت أن أتنقل بين قاعات الدروس بغير عناء ، وعرفت أيضاً الطريق القصير الصعب إلى ساحة الألعاب ، وهناك كنت أسبح فى البركة ، بل لقد وسعنى أن أتناول الطعام فى المقهى بلا مشقة ، وإن كنت لم أستغن عن معونة إحدى الفتيات العاملات ، لتجد لى مقعداً ، ثم لتأخذ بيدى وتخرجنى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بسلام من غير أن أصطدم بالصوانى الموقرة .
وألفيت الفتيات ذات صباح مرحات على غير العادة ، حين ناولتنى إحداهن زجاجة اللبن وكوب الماء .

وجلست ، ونزعت الغطاء عن الزجاجة ، وصببت ما فيها فى كوب فارغ ، وشربت ملء فمى ، فاتسعت عيناى من الدهشة ، فقد كان الذى فى الزجاجة ماء ، وتضاحكت الفتيات من حولى .

وقالت مارلز : « كذبة أبريل ! ألم تكن تعرف أن هـذا أول يوم فى أبريل ؟ وقد وضعنا لك اللبن فى كوب الماء ، والماء فى الزجاجة ، وكانت « إدنا » تخشى أن يكون فى هـذا جرح لإحساسك ، ولكنا فعلناها والسلام ، فكيف وجدت الطعم ؟ » .

قلت : « عظيم ! لقد خيل إلى أن اللبن اليوم أدسم من المعتاد ! » .

وليس حفظ ما فى الكتب كل ما ينبغى أن تفيده من الكلية ، وقد أردت قبل كل شىء تقريباً أن أكون طبيعياً فى علاقتى بالفتيات ، وكنت قد استطعت على نحو ما أن أشهد الحفلات بغير مشقة ، ولكنى لا أزال أشعر بالوحشة والاستفراد حين كنت أتمشى وحدى ، فألتقى بالفتيان والفتيات يتمشون معاً .

وقد قابلت عـدة فتيات فى المجتمعات ، وفى قاعات الدرس ، وساحات الكلية ، وكنت كل بضعة أيام أجد فتاة جديدة إلى يمينى وأخرى إلى يسارى فى أوقات الطعام ، وكانت « لويس » تبدو لى ذات حظ جزيل من الملاحة والفتنـة ، وكانت ظريفة رطبة اللسان ، وقد أوقعت مرة طبقاً من الحلواء فساعدتنى وأصلحت ما أفسدت .

ودخل علىّ ديك ليقرأ لى درس الغد فى الإنجليزية ، فسألته بلهجة من يخطر له خاطر عارض : « ماذا يبلغ من جمال لويس ؟ » . ومع أن الشخصية كانت أعظم عندى شأناً وأولى بالعناية من المحاسن ، إلا أنى كنت مازلت أنطوى على ذلك الزهو أو الغرور الرجالى الذى يأبى المرأة التريكة .

وقال ديك : « لا بأس بها — شعر أصفر ، وعينان زرقاوان ، وابتسامة حلوة ، وقد رأيتها تتنزه عدة مرات . لماذا تسأل ؟ » .

قلت : « لا أدرى . . . مجرد سؤال » .

وخالجنى شعور غريب وأنا أعالج أن أتشجع وأخرج إلى الردهة وأخاطبها بالتليفون وأرهفت سمعى عند الباب ، فلم أجد أحداً فى الردهة ، فطرحت الحذر جانباً وقصدت إلى مكان التليفون ، وأسرعت فطلبت رقم الجناح الذى فى غرفتها « ٤ — ٧ — ٤ » قبـل أن يقف فى حلقى ، ودار فى صدرى الشعور نفسه حين أجابتنى الفتاة التى طلبتها

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فعرفتها بنفسى ، ثم دعوتها متلعثما إلى المسرح ، وانتظرت ثانية أحسست أنها ساعة . انتظرت وقلبى يخفق خفقاً شديداً وإذا بها تقبل ! وما أشد ما عرانى حينئذ من الاضطراب ، والارتباك ، والدهشة ، بل الاستفظاع العميق ، وقد بهت ، ولكنى عدت إلى غرفتى وبخطواتى خفة لم يسبق لى بها عهد قط .

وفى الساعة السابعة رفعت الغطاء عن وجه الساعة ولمست عقربيها لأستثبت ، وخيل إلى أن كل الطلاب الذين فى الساحة على سلم جناح الفتيات ليرونى وأنا داخل ، فخطوت بحذر اتقاء للعثرة واجتناباً لزيادة جذب الأنظار ، ودلفت إلى الباب ، وتحسست حتى لمست المغلاق ، ثم أسرعت فدخلت وأنا مضطرب، وبى مثل مس الحمى ، وكانت الضوضاء فى الردهة تحير ، والبنات والفتيان يتمشون ، أو يجلسون ، ويتكلمون ويضحكون ، فشعرت أن ليس لى هنا محل حتى . . .

« مستعد ؟ » ، نطق بها صوت عذب إلى جانبى ، وتناولت « لويس » ذراعى بغير كلفة ، وخرجنا من الباب ، ومررنا باثنين أو ثلاثة واقفين على رأس السلم ، وهبطنا إلى الطريق ومنه إلى المدينة ، وكانت تهتف بأصدقائها ونحن نسير ، فامتلأت نفسى زهواً ، فقد كانت فتاة يغتبط أى واحد من هؤلاء بأن يخرج بها ، ولم تكن تأنف أن يراها الناس معى . نعم زهيت ، وانتفخت أوداجى كبراً .

وقد اشتركت فى كل ما أصلح له وأقدر عليه من مظاهر النشاط فى الكلية. واستطعت أن يكون لى نصيب فى التمثيل . ففزت بدور ألقى فيه أربعة سطور فى منظر يمثل القرصان، ولكن أعظم ما استمتعت به هو عملى فى مجلة الكلية ، وقد صرت أكتب لها فى السنوات الأخيرة من حياتى المدرسية عموداً فكاهياً .

والتحقت أيضاً بجمعية أدبية تسمى « سجما تاوس » لأنغمس فى الحياة الاجتماعية للكلية ، ولكن أملى خاب من البداية ، لأن الطلبة ترفقوا بى واختصونى بالرعاية ، وكانت مراسم الدخول فيها تجرى فى كهف قديم فى « بوب هيل » حوالى منتصف الليل . وكان على الأعضاء الجديدين أن يسيروا فى سرداب مظلم نسج فيه العنكبوت بيوته ، وفيه يفاجأون باللطم والغمز والدغدغة والإلقاء فى الماء — إلا أنا . فقد أخذ « تريت » بيدى إلى برميل معفر وقال لى : « أما أنت فقف هنا ، فلا حاجة إلى تكليفك كل هذا » ، وكان باعثه العطف ، ولكنه ضيع علىّ ما كنت أتطلع إليه ،

وهو لا يدرى . فما كان مما يطيب لى أن أقف جانباً على حين كان إخوانى يجشمون ما يبهرهم . وكان همى ومناى أن أعامل مثلهم وأن أشعر أنهم يدخلوننى فى زمرتهم كواحد منهم ، بلا تمييز يفردونه به أو يتوقعه هو .

ولم يعاملنى الطلبة كواحد منهم ويكفوا عن تمييزى ، إلا لما انضممت إلى جماعة « فاى جاما رو » ، وكانت مراسم الدخول عنيفة ، ومما تقضى به أن يسير المرء معصوب العينين ويذهب يضرب فى الأرض ، ولم تكن ثم حاجة إلى عصب عينى ، وتنتهى هذه المراسم بأن يطرح المرء على وجهه ، ويدعك جلده العارى فى المواضع الحساسة بالكحول ، ويلصق عليه ورق مما يتخذ لصيد الذباب . وقد حمدت الله فى تلك الليلة وأنا مستلق على وجهى ، فقد كان بجسمى من الخدوش والخموش مثل ما بغيرى .

* * *

وكرت السنوات الأربع سراعاً ، وأورثتنى قدراً من الحكمة والفلسفة ، وقد آنت زملائى الطلبة أعمالا يزاولونها ، اما أنا فقد اتصلت بوكالة للمعلمين ، وكتبت إلى مدارس العميان جميعاً ، ولكنى لم أحصل على شىء ، وظللت أنتظر طول الصيف على غير جدوى أو أمل .

وأخيراً ، فى سبتمبر ، علمت أن فى مكتبة مدرسة العميان فى فاريبوات وظيفة ، فقابلت المشرف عليها وفزت بالوظيفة . وكان مرتبها خمسين ريالا فى الشهر يضاف إليها السكنى والطعام ، فأفادنى ذلك استقلالا مالياً كنت قد يئست منه . فقوى قلبى وشدد عزائمى ، فأقبلت مغتبطاً على واجباتى الجديدة .

وكان الزمن فى مرّه قد جاء بما غير وجه الأمور فى بلدتى ، ولكنى لم أشعر بذلك لما زرت أهلى . وقد لقيت ناساً أعرفهم ، ولكنى لم أجد ما ينم على التغير فيهم ، فقد كانت أصواتهم كما أعهدها ، ولهذا كان مما صدمنى ورجنى أن أعرف فجأة أن المظاهر قد تغيرت .

وسألنى بعضهم مرة ، وكنت أزور أهلى : « من هذه المرأة الجذابة البيضاء الشعر التى تسكن البيت المجاور لبيتكم ؟ » .

فقلت مفكراً : « المرأة الجذابة البيضاء الشعر ؟ لا أدرى ! ولكن السيدة د . تسكن هذا البيت » .

قال : « هذا هو اسمها ، وقد تذكرته الآن » .

قلت : « ولكنها ليست بيضاء الشعر ، فإنها شقراء » .

قال : « كلا . ربما كانت شقراء فيما مضى ، أما الآن فقد شابت » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان من العسير على أن أروض نفسي على السكون إلى هذا . وخيل إلى أنى مثل « ريب فان ونكل » وقد بعث من رقدة طويلة ، ولم يستطع أن يدرك أن سنين عديدة قد تصرمت وخلفت أثرها فى نفسه وفى غيره .

وكان من العسير أيضاً أن أدرك أن المدينة أيضاً قد تغيرت صورتها المادية .

قالت لى أمى : « لقد قام بيت جديد على الناحية الأخرى من الشارع » ، ولكن مؤدى قولها ما لبث أن غاب دون أن يستقر فى نفسى ، ولم ترتسم فى ذهنى صورة للبيت الجديد إلا بعد أن سمعت صوت الباب وهو يغلق ، وصوت امرأة يصدر عن تلك الناحية التى كانت أرضاً فضاءاً .

* * *

ومن الغريب أن الأوصاف اللفظية لما لم يسبق لى أن رأيته من الأشياء ، لم يكن لها أثر يذكر فى أحلامى . وكان الانسياب قد روعى فى صناعة السيارات والقطر والطائرات ، بعد أن فقدت بصرى ، ولم يتعذر على أن أتصور هذا التغير الذى حدث ، ولكن السيارات التى حلمت بها أو تخيلتها كانت هى السيارات المستقيمة الجذع ، العمودية الظهر والزجاج الأمامى كعهدى بها سنة ١٩٢٨ . وكانت الطائرات والقطر تتمثل لى كما أعرفها من قبل .

ولم تكن وظيفتى فى المكتبة مما يفسح المجال للتقدم ، فبعد ثلاث سنوات كان عامل البريد يحمل إلى نفس مرتبى الشهرى القديم ، وهو خمسون ريالا ، وكان فى وسعى أن أظل أعيش فى غرفتى بقية حياتى مستريحاً ، وعندى ما يكفى للثياب والتدخين . وكنت أعد نفسى سعيداً لأنى أكسب رزقى ، ولكنى لم أنفض يدى قط من الأمل فى أن تؤتينى الحياة ما هو أكثر من الرزق وكفالته . وافتقدت ذلك العالم الرحيب الذى عدت إليه لما دخلت الكلية ، والذى أحسست أنى بعضه .

غير أنه لم يبد لى أمل فى الحصول على وظيفة أخرى ، فما توقعت أن يستخدمنى أحد حين يعلم أنى أعمى ، ولم يكن أمامى غير سبيل واحد — أن آخذ إجازة سنة ، وأدرس فى إحدى الجامعات ، فقد يساعدنى الحصول على درجة أعلى مما أحمل .

وقد اخترت جامعة « إيووا » لأن فيها قسماً بديعاً للانشاء ، وخرجت منها بعد فترة وأنا أحمل درجة الأستاذ « ماجستير » فى الآداب . وقد تدربت على الكتابة تدريباً حسناً ، وخير من ذلك كله أنى تعاقدت مع ناشر على طبع كتابى هذا ونشره .

ولم تكن رغبتى فى الخروج من ظلمة

الحول ، وأخذ مكانى فى عالم المبصرين الأرحب ، أمراً غير مألوف بين العميان ، فإن هناك الافاً من العميان القادرين الأكفاء ، لا يطيب لهم أن يوضعوا على الرف ، ولا ينبغى أن يكون هذا حظهم ، فإن هناك أكثر من مائة ضرب من الأعمال يمكن أن يؤدوها .

وأكثر أصحاب الأعمال لا يدرون ما يستطيع العميان أن يفعلوا ، إذا كانوا ممن حسن تدريبهم وتثقيفهم ، ومن ذوى التصرف والحيلة الواسعة . وكثيراً ما تحمل الرسائل الواردة من وكالات العميان العبارة الآتية فى ذيلها : « كتبها أعمى على الآلة الكاتبة » . وقد صنع « فونغراف الكتاب الناطق » الذى عندى، عمال فى مصنع عميان. ودرس غلام أعمى فى الثالثة عشرة من عمره علوم الطب ، وصار من أبرز الإخصائيين فى الولايات المتحدة . ونجح من العميان مدرسون ، وبائعون ، وفلاحون ، وموظفون فى الدكاكين ، وصحفيون ، وموسيقيون ، وقساوسة ، وعاملون فى الخدمات الاجتماعية ، وعمال تليفون ، ومديرو أعمال ، ووكلاء تأمين ، وجباة ضرائب ، وخدم فى المنازل . ويوجد ٢٩ عملا مختلفاً يؤديها العميان فى المصانع ، من ضم القطع وتأليف ما بينها ، إلى « البرشمة » وغيرها .

وفى وسع الكفيف الكفء إذا رزق الاستقلال الاقتصادى أن يأخذ مكانه فى المجتمع ، ويعيش سعيداً نافعاً كغيره . وهو لا يحب أن يذاد عن الناس ويمنع عن مواردهم ، لأن ما يعنيه كله فى عالم المبصرين ، ورغبته هى أن يعمل معهم ويحيا بينهم . وأعظم ما يسره من ثناء أن يسمع إخوانه المبصرين يقولون له : « أتعلم أنى لا أفكر فيك قط كأعمى » .

واليوم ، وبفضل المخترعات الحديثة ــ الآلة الكاتبة ، والدكتافون ، ولوح بريل ، والكتاب الناطق ، والراديو ــ صار العميان أوفى عدة مما كانوا من قبل وأقدر على احتلال مكانهم كأعضاء أكفاء فى المجتمع . ولا يطلب العميان الصالحون للعمل ، وهم أربعون ألفاً ، إلا ثقة الجمهور ، إذ بغير هذه الثقة ينقلب عبثاً كل ما حصل من التقدم لجعل العميان مكسباً للجماعة ، بعد أن كانوا حملة عليها . وهم لا يطلبون معاشاً أو صدقة أو إحساناً ، وإنما يطلبون أن تتاح لهم الفرصة ليحيوا حياة كاملة ، من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك حق لكل إنسان .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

المختار

كتاب فيه لكل يوم مقالة محكمة الإيجاز باقية الأثر

السنة الأولى المجلد ١ العدد ٤

الملكات يمتن كريمات

وليم ل . هوايت

« الملكات يمتن كريمات » — قصة عهد إلى المحرر الطواف وليم ل . هوايت أن يكتبها ، وهى تسرد قصة القلاع الطائرة ، أولئك الملكات المستوليات على عرش الجوّ اللاتى قاتلن حتى الموت فى سماوات الفلبين وجاوة وأستراليا . و « الملكات يمتن كريمات » قصة لن ينساها القارئ ، تحفر حوادثها بأحرف من نار فى الذاكرة ، وتقوى القلب وتنعشه ، إذ كانت سجلا مشجعاً للبسالة والإخلاص للواجب ، وتلك آية الوعد الصادق بالنصر » .

وقفت القلعة الطائرة القديمة الشهباء على مدْرَج فى مطار أمريكى متهيئة للرحيل إلى قارة أخرى ، ومنطقة حرب أخرى . وهذه الخدوش التى على بدنها أحدثتها فيها حبات الرمال فى جزيرة « ويك » ، حين كانت فى طريقها إلى الشرق الأقصى قبل الحرب . وهذه النقرة الصغيرة فى جناحها ، جاءتها من شظية قنبلة فى اليوم الذى شبت فيه الحرب، حين دمر اليابانيون كل طائرات سلاحنا الجوى فى الشرق الأقصى فى مطار كلارك بالفلبين ما عدا قليلا منها ، وكانت هذه إحدى الناجيات القلائل . وقد أكلت

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الشمس بعد ذلك ، فى سماء جاوة وصحراء أستراليا،لونها الذى دهنت به للحرب ، والآن وقد نزعت مدافعها فقد صارت كجواد حرب قديم نقل إلى المرعى .

ويجلس فى ظل جناحها رجال عنـدهم قصـة يروونها : الطيار فرانك كورتز ، بطل الغطس فى الألعاب الأولمبية سابقاً ، وكان قبل عام ملازماً فى فرقة القذف التاسعة عشرة ، وهو يحمل أوسمة رفيعة ، وقد صار بكباشياً ومازال فى الحادية والثلاثين من عمره ، ومعه مارجو زوجته الجميلة ، واليوزباشى هرى شريبر ، ملاح الطائرة ، وغـيرهم من رجالها .

ويقطع فرانك الأرض جيئة وذهاباً ، لأنه لا يجد الكلام سهلا ، ثم يقول : « لا أكاد أدرى أين تبدأ القصة ؟ ولعل البداية كانت مع الطائرة رقم ٩٩ التى كانت أولى طائراتى ، ومع « تكس » أول زميل لى فى القيادة ، وبقية رجال الطائرة — الذين رأيتهم راقدين فى مطار « كلارك فيلد » — ثمانية فى صف . وهذا ما وجدت بعد أن عادت قاذفات القنابل اليابانية ، حين وثبت إلى دراجتى واندفعت بهـا على المدرج فى خلال الدخان المتصاعد من القلاع الطائرة الأخرى المحترقة ، لأرى ماذا أصاب الطائرة رقم ٩٩ . وكان فى الطريق مرتقى ، وإنى لأدفع الدراجة مصعداً فيـه وإذا بقلبى يخفق خفقة قوية ، فقـد أخذت عينى مثبتها العمودى ، القوس الكبيرة من ذنبهـا ، ذاهباً فى الهـواء كأنه زعنفة ذيل سمـكة ، وكان يلمع فوق الطـريق فخثت الدراجة وإذا بى ، يا إلهى ...

« ولست أدرى هل ترجلت عن الدراجة أو سقطت من فوقها ، وكل ما أذكره أنى ذهبت أمشى على مهل إليها ، وأنا مشفق من الدنو منها جداً ، والإسراع إليها جداً ، فما كان بقى منها سليما سوى هذا الذيل الفضى الذى لا يزال ذاهباً فى الهواء .

« وقد تلوثت ضلوعها المسكينة واسودت ، وذاب عنها ما كان يكسوها من الألومنيوم كالجلد ، فتعرّى هيكلها حتى لتستطيع أن ترى من خلالها مكان القيادة ، حيث كنت أقعد أنا وتكس . وهوت محركاتها الأربعة إلى الأرض ، وكان كل ما تألفت منه الطائرة رقم ٩٩ باقياً هناك ، إلا أنه ذائب وملتو ، وأن ظهرها هابط ومكسور — كما تأخذ سمكة طيارة فى يديك وتكسر ظهرها ، وتلقى بها على الأرض لتموت .

« كان كل شىء هناك ، وشىء آخر أيضاً ولـكنى لم أستطع أن أتبينه ، على أنى لا بد أن أكون قد خمنت ما هو ، فقد بدأت أشعر كأن شيئاً يعصر قلبى ويقطع أحشائى حين أبصرت تلك الـكتلة الغريبة المحترقة

تحت الجناح المهيض ، فلما ازددت منه قرباً لم أستطع حتى أن اغالط نفسى فيه ، فقد كان أحد رجالى ، وكان راقداً هناك ، متردياً ، وإلى جانبه آخر ، ولكنى لم أستطع أن أرى الثمانية كلهم إلا بعد أن درت بالذنب .

« كانوا جميعاً رقوداً فى سكون فى ذلك اليوم الجميل الساجى — رجالى الثمانية الذين كانوا يعملون معى فى الطائرة رقم ٩٩ يرقدون فى صف غير منتظم ، يتجه إلى الغابة التى أرادوا أن يلجأوا إليها، فقتلوا من فوقهم وتركوا منكبين .

« وأذكر أنى وقفت هناك إلى جانب الذيل، وأنى عددتهم — واحد ، إثنان ، وهكذا إلى الثامن ، رجالى الذين كنت أعرف كل واحد منهم معرفته ، وكنت أرى ولكنى لا أستطيع أن أدرك ، وإن كنت أعرفهم جيداً — أيهم ينتظر أن تكون فى جيبه صورة امرأته أو فتاته . وأذكر كيف رحت أخطو من واحد إلى واحد ، وأحادث كلا منهم كما كنت أفعل ، وأربت على أكتافهم ، لأنهم فيما أحس لم يكونوا موتى ، وكيف بكيت ؟ ولست أخجل أن أقولها .

« كلمت كلا منهم — من الجاويش بيرجس الطبيب الذى كان أدناهم إلى حطام الطائرة ، إلى تكس صديقى العزيز وزميلى فى القيادة فى آخر الصف وقد مزق الانفجار ثيابه كلها . وقد عرفته من كتفيه فقد كانتا عريضتين ككتفى المصارع . وكان تكس فى آخر هذا الصف من الرقود فقلت له أناجيه، إنى لا أدرى ، كما لا يدرى هو ، لماذا أصابه هذا ، ولكن عليه ، بغض النظر عما حل بساحته ، أن يدرك أن هذه ليست النهاية ، وأننا لم نغلب على أمرنا ، وإنما هى البداية لا أكثر ، وأننا جميعاً سنعمل من الآن فصاعداً — نعمل معاً وننتصر . وقلت له : أيا كانت الطائرة التى سيعطوننى قيادها فيما بعد، فإن (رقم٩٩) ستظل دائماً مع السرب ، وسأظل أرى نور جناحيها كلما بعثوا به فى مهمة ليلية ، وأعلم أنها تحمينى بنيرانها ، وأنها تسقط طائرات « زيرو » التى تحاول أن تصعد إلى ما فوق ذنب طائرتى. نعم ! لعل هذا هو الموضع التى تبدأ منه القصة . »

فقالت مارجو : « ولكنها يا حبيبى تبدأ قبل ذلك بشهور وشهور — على الأقل فيما تحس زوجات الرجال الذين يعملون فى سلاح الجو . وحتى قبل الحرب كانت تقع كل تلك الحوادث أثناء التدريب . وأنا أعلم أن لا حيلة فى ذلك ، فقد كانوا يبذلون قصارى ما يدخل فى الطوق لتدريب عدد كاف من الطيارين لقيادة الطائرات

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ذوات المحركات الأربعة ، استعداداً للحرب التي كانوا يعلمون انها آتية .

« وإن شاباً قليـل التجربة يضل في الضباب ويصطدم بجبل ويتحطم ، لبطل في نظر زوجته ، كالطيار الذي يقتل وهو في مهمة . ومذ قامت الحرب صار الموت يجيء ومعـه رنين الداليات ، وشرائط الأوسمة الجميـلة المـكتسبة في المعارك ، ولـكننا نحن اللواتي عرفن السلاح الجوى قبـل الحرب قد تدربنا على مواجهـة الموت حين لم يكن معبأ هذه التعبئة الجميلة .

« وإن إحدانا لتعلم ، حين يطير زوجها في مهمة ، أن هؤلاء الفتية هم أشجع وأقوى الشبـان وأخفهم أجساماً وأحدُّهم فؤاداً . وأن العمل الخطر الذي يقومون به الآن لهو الذي يؤمن العـالم في المستقبل . وإن إحدانا حين ترى زوجهـا يتضاءل في الجو لتعلم أنها لا ترضى بغـيره في الدنيا بديلا ، ويخجلها أن تمر بها فترات ضعف ، ويزهيها أن تقول لنفسها إنها تدع لغيرها من الفتيات أولئك الرجال الثقال البطاء الذين يغادرون مساكنهم في الثامنة كل يوم ، ويعودون إليها دائماً في الخامسة . نعم هـذا ما شعرت به حين صدر الأمر إلى فرانك بأن يطير بقلعته إلى الفليبين ، وكان عليّ أن أتخلف » .

فقال فرانك : « هذا كان في أكتوبر ، وبعد أن نزلنا في بيرل هاربر . وفي ويك ، بدأنا نعيش في أكواخ في كلارك فيـلد خارج مانيلا .

« وكانت فرقة القذف التاسـعة عشرة مؤلفة من خمس وثلاثين قلعة طائرة جديدة لماعة الأديم جميلة المنظر ، وكانت الطائرة رقم ٩٩ إحداها ، وكانت جميعاً من طراز « د » ، وهو أحدث وأبدع ما أخرجتـه المصـانع إلى ذلك الوقت . وكانـ حوالى اثنتى عشرة من الخمس والثلاثين في « ديل مونتى فيلد » في جزيرة منداناو الجنوبية ، والبقيـة في القاعدة الرئيسية للقـاذفات في كلارك فيلد ، على مسافة ٤٥ ميلا في مانيلا التي كان فيها ديوان الجنرال ماك آرثر القائد العام . وكان قائدنا الجوى الجنرال بريرتون لا ينفك يزورنا في كلارك .

« وفي أحد الأيام خرجت بالطائرة رقم ٩٩ في تجربة دورية في طبقات الجو العليا ، فوجهتها إلى الشمال ونحن نرتفع ببطء فوق « إيبا فيلد » ، حيث كانت قاعدة طائراتنـا القاتلة من طراز ب ٤٠ الأمريكي . وصوبت عيني وأنا لا أزال أرتفع فرأيت الشاطيء ، وكنت أرى زبد الموج إذ يتكسر عليه كأنه خيط من القشدة على الماء الأزرق ، ولكني

« بقيـة المنشور فى صفحة ٤ »

ت أغلب الوقت مشـــغولا بملاحظة
رتى والآتى .

« وأخـيراً بلغت أعلى مرتقى للطـائرة ، اوزته ، واتفق أنى صـوبت عينى إلى تحتى ، وإذا بنا ، لا فوق البحر الأزرق فوق القاعدة اليابانية الكبيرة فى جزيرة موزا !! وهى رقعة سوداء كبيرة دميمة مة . وكنا معرضين لأن تضربنا المقاتلات انية فى أية لحظة . ولم يكن مما يطيب لى تصبح الطائرة رقم ٩٩ أول حادث دولى . ن أجل هذا عجلت بالخروج من هـذه نقة ، ولكن القلق ساورنى وأنا عائد ، أدركت للمرة الأولى أن كلارك فيلد نا فيلد واقعان تحت نار اليابانيين ، وفى نهم أن يحلقوا فوق فورموزا ثم يهبطوا رؤوسنا .

« ولم أرتح إلى هذا الخاطر ، ولم أكن سمعت فى ذلك الوقت أن الجـــنرال بريرتون أقل منى رضى عن موقعنا .

« وفى ٢٧ نوفمبر أنذرنا الجنرال بريرتون وأمرنا بوجوب اليقظة والاستعداد ، فقد تلقى من الوزارة نفس التحذير الذى أرسل إلى بيرل هاربر : إن الحرب قـد تشب بعد أيام ، ويحتمل أن تشب بعد ساعات . وكان السلاح الجوى مستعداً لها فى حدود ما نملك ، وكان الجنرال قد تخير أهدافه فى فورموزا التى كنا نعلم أن الضربة ستجيء منها ، وبدأت ملكاتنا (طائراتنا) المعدنية اللامعة تكتسى ثوباً من الدهان الأدكن الكابى ، بأسرع ما تسمح بذلك ما نملك من وسائل . وصدر لى الأمر بأن تكون الطائرة رقم ٩٩ تامة التمويه فى ٨ ديسمبر .

« وهذا تاريخ لن ننساه نحن الذين كنا فى الفليبين ، أما أنتم الذين كنتم على الجانب الآخر من خط التاريخ الدولى ، فإن اليوم كان السابع من ديسمبر ، ولكن الحقيقة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أنه هو اليوم بعينه ، فقد ضرب اليابانيون بيرل هاربر فى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين صباحاً حسب التوقيت المحلى فى هونولولو ، وهذا يوافق الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح ٨ ديسمبر فى الفليبين — قبل طلوع الفجر عندنا ببضع ساعات . وكنت حينئذ نائماً فى كوخى بكلارك فيلد .

« ونهضت فى الساعة السابعة كالعادة ، ودخلت أتعثر، وما زال النوم يغالبنى لأحلق، وفتحت الراديو لأسمع أخبار الصباح التى يذيعها دون بل فى مانيلا ، (وعلى ذكره أقول أن من أول ما فعله اليابانيون لما دخلوا مانيلا بعد أسبوعين هو أنهم ضربوا المسكين بالرصاص) ، وإذا به يذيع النبأ العظيم بلهجة أسرع من المألوف : إن اليابانيين ضربوا هاواى . واحتشد الآخرون حول الراديو ، وقد ذهلنا جميعاً . ولم تكن التفاصيل كثيرة جداً، ولكنه بدا لنا مما سمعنا كأن اليابانيين دمروا المكان تدميراً وجعلوا عاليه سافله . وذهبنا إلى المطعم ، وبلعنا الفطور ، ثم بادر الطيارون إلى الاجتماع بغرفة العمليات حيث درس الصاغ دون جبس معنا . وإنى لأراه الآن ، كما كان يومئذ ، أنيقاً يقظاً ، ولو أن الأجل امتد به فى هذه الحرب لكان الآن على التحقيق لواء .

« وقال : « والآن أيها السادة ، هذه ... الحرب . وإذا كانوا قد ضربوا هاواى فإ... لا يمكن أن يعفونا ، ولا أعلم متى تجي... الضربة، ولكنى أستطيع أن أقول لكم من أ... ستأتى ، (وهنا أشار إلى الشمال) فستأتى م... فوق هذا الجبل » وكان يشير إلى فورموز...

« ولما انصرفنا قال جبس: « أنكم فى انتظ... الأوامر وستجىء بسرعة طول هذا الصباح

« فعدت إلى الطائرة رقم ٩٩ فقد كان مقر... أن تموه هذا الصباح ، ولكن الأوامر ا... جاءت الآن بدت متناقضة ، فقد جاء أ... أمر يلغى التمويه ، وعلينا بدلا من ذلك تزود الطائرات بالقنابل، فذهبنا فى السيار... إلى مستودع الذخيرة ، ثم جاء أمر يقول « عد بها إلى الحظيرة فإنهم يأمرون بإ... التمويه بكل وسيلة » .

« ثم جاء أمر آخر بأن نفرغ القنا... ونضع آلات التصوير ، ولم يرد غير ذلك ولكنه كان من الواضح أنهم يعدوننا الآ... للاستطلاع فوق فورموزا .

« ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت أن ما ك... يحدث فى مطارنا كان صورة مما هو حادث... ديوان القيادة فى مانيلا ، حيث كان الجن... بريرتون يطلب الإذن بإطلاق الطائرا... ولا شك أن من السهل أن يكون المرء ح... رشيداً بعد الحادثة .

« ومع أن بيرل هاربر هوجم ، فإن
كونجرس (البرلمان) لم يكن إلى الآن قد
لن الحرب ، فهل تستطيع قيادة الفليبين
، تضرب على الرغم من أن حالة الحرب لم
كن قد وجدت قانوناً ؟ ويستطيع السخفاء
، يضحكوا من هذا الآن ، ولكن الجنرال
يرتون لم يضحك يومئذ ، بيد أنه أصر
، أن الأرجح ، إذا لم نضرب فورموزا
، الفور ، أن لا نستطيع أن نضرب على
طلاق .

« ولما رُفض ما استأذن فيه من الضرب ،
ب أن يؤذن له فى الاستطلاع الجوى ،
ف على الأقل هل تتخذ اليابان العدة
ربنا ، ولاشك أنه خرق طفيف « للحياد »
نصور فورموزا . وقالت القيادة العليا
ـا كان هذا ممكناً ، فانتظروا لتروا .

« وكنت وأنا فى موقف الانتظار والتهيؤ
طائرتى رقم ٩٩ لا أستطيع أن أعرف
ذلك الوقت أن هذا هو السبب فيما صدر
من أمر : أن أفرغ حمولتها من القنابل ،
ن أجهزها بآلات التصوير ، وأعجل بالتمويه
رجاء أن يجئ الإذن قريباً . وفى أثناء
ان الطائرة جلست خارج الحظيرة أصغى
آلة الراديو الصغيرة التى كانت معى .

« وكان الراديو حافلا بالإشاعات ، وكان
بها صحيحاً والبعض لم يقع بعد . وقد روى

أن حشداً كبيراً من سفن اليابان يجرى
قرب لوزون . وأن مانيلا تتوقع الإغارة
عليها من الجو فى كل لحظة — بل أذيع
أن القنابل تتساقط على كلارك فيلد » .

واستطرد فرانك فقال : « وكان عجيباً
أن أدير عينى فى كلارك فيلد تحت شمس
الضحى ، وأن أسمع الراديو فى يدى يقول
إن القنابل تتساقط عليه ! وكان هذا كلاماً
فارغاً ، ولكنه تركنا قلقين خائفين . وكان
إلى جانبى طيار آخر يصغى إلى الراديو معى
فقال بلهجة المضطرب : « لماذا بالله لا نخرج
من هذا المكان ونتقذ هذه الطائرات ؟ » .

« فقلت له : « اسمع ياصديقى — خذ
الأمور مأخذ التهوين ، فإننا رهن الأوامر »
ولكنى أنا كنت قد بدأت أضطرب وأقلق ،
وأذكر أنى صحت بالغلام الذى معه رشاشة
الدهان أن يسرع .

« ثم جاء بسرعة أمر آخر ، لنا نحن
الطيارين والملاحين ، بأن نكون على استعداد
فى الساعة الحادية عشرة . وقد جعلت أفكر
ونحن نتناول الطعام فى احتمال ضرب
الطائرات اليابانية لنا ، وأتساءل عنها كيف
هى ياترى ؟ فما رأيت قط طائرة يابانيـة فى
فى غير صورها فى المدرسة .

« وكنت وأنا فى المطعم أشعر بتوتر ،
ولكنه لم يكن يخطر لى على بال أن كل

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأسابيع والأيام الثمينة قد ذهبت الآن وأنه لم يبق سوى دقائق ثمينة .

* * *

« ثم قصـدت إلى خيمة العمليات ومعى إيدى أوليفر (ملاح طائرتى) ، وطلبت من تـكس أن يبقى إلى جانب الطائرة رقم ٩٩ وأخـبرته أنى سألحق به بعـد دقائق . وقلت له : « واسمع ياتـكس . هـذا هو الترتيب : إذا علمنا من خيمة العمليات أننا سنضرب هنا فى كلارك فيلد ، فإن فى وسعنا أن نخرج بالطائرة رقم ٩٩ من مكانها الذى هى فيه بغير حاجة إلى الاستخدام المألوف لمدرج الطيران ، فترقب مجيئى على الدراجة من خيمة العمليات . وإذا رأيتنى أشـير بيـدى إلى تحت ، وأنا على ذروة الطريق ، فاعلم أن معنى هذا أنى أريد منك أن تدير محركاتها إلى أن أصل إليك » .

« فقال بهدوء «حسناً يافرنك» — ولم يرفع يده بالسلام ، ولا خبط كعباً بكعب ، فمالمثل هذا محل يذكر فى السلاح الجوى — وكر راجعاً إلى الطائرة رقم ٩٩ .

«وكانت خيمة العمليات غاصة بنحو أربعين من الطيارين والملاحين ينتظرون ما عـ
أن يصدر إليهم من أوامر . ففتحت الراد
فى فترة الانتظار واستمعنا جميعاً إلى مح
مانيلا ، وإذا بالمذيع دون بل يسوق الأخـ
متلاحقة . بيد أننا لم نعرف أن الدقائق الثـ
قد ذهبت كلها ، وأنه لم يبق الآن إلا الثوانى
ولم نكن نعرف أن الجنر
بريرتون قـد تلقى أخـ
الإذن من الجـنرال
آرثر بأن نخرج فى ر
استكشافية فوق فورمو
لنرى هل يستعد اليابانيو
أو لا يستعدون لضربنا
ولم نكن ندرى أن الجنر
بريرتون كان فى هـ
اللحظة يحاول أن يتص
بنا تليفونياً ليلقى إلينا هذا الأمر .

«وكان دون بل يروى أن القنابل تسقـ
« فعلا » على كلارك فيلد ، وكان يذيع
سطح بنـاء من أعلى ما فى مانيـلا ، و
هناك كان يرى أعمدة الدخان المتصاعد
كلارك فيلد !

« فابتسمنا جميعاً لما سمعنا منه هذا .
نكن ندرى أنه ، من مانيلا ، يستطيع
يرى ما وراءنا فى إيبا فيلد ، وأن هـ
الأعمدة من الدخان كانت تتصاعد من

« إن إحدانا لتعـلم ، حين يطير زوجها فى مهمـة ، أن هؤلاء الفتية هم أشجع الشـبان وأخفهم أجسـاماً . وإن إحدانا حين ترى زوجها يتضاءل فى الجو ، لتعلم أنها لا ترضى بغيره بديلا »

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لأرات القتال من طراز ب ٤٠ المحترقة، ند كان اليابانيون فى تلك اللحظة يمزقون لاح مقاتلاتنا الأمريكية كل ممزق، لـكن بينما كنا نبتسم ونصغى إلى ما عسى ن يهرف به دون بل بعد ذلك، إذا ندى واقف على باب الخيمة يقول بلهجة إعجاب والإكبار :

« انظروا إلى هذه التشكيلة الجميلة من ائرات الأسطول ! ما أبدعها ! » .

«فجمد الدم فى عروقى، فقد سمعت أزيزاً، صاح بعضهم : « أسطول ؟ ياالجحيم ! هاهم أقبلوا ! » .

«فقلبنا المناضد ونحن نحاول أن نخرج من ذه الخيمة، غير أنا لم نكن جرذاناً فزعة، كنا مازلنا آدميين وعلى قدر من النظام.

« وأقبلت الطائرات، واشتد ازيزها، ن وراء الجبل كما تنبأ دون جبز — فى حشد ظيم على صورة الدال — وكانت حوالى بعين من القاذفات من طراز متسوبيشى، لى ارتفاع يتراوح بين ١٨ و ٢٠ ف قدم، أقبلت علينا ووجهتها أرضنا.

« فذهبنا نعدو إلى حفرة كبيرة قريبة رف المياه لنتخذ منها مخبأ، ووقفت بضع ان أنظر لأرى أى نوع من القنابل بها علينا هذه الطائرات، كما فعلت مراراً كاليفورنيا أثناء التدريب على إلقاء القنابل فى بحيرة موروك الجافة بصحراء موجيف، وراقبت طائراتنا لأرى إلى أى حد تعد قنابلها فعالة.

«ولم يطل بى الانتظار لأن أنف الطائرة الأولى التى تقود البقية تجاوزت خط القذف، وسمعت الصفير الذى لا يرتاب أحد فى دلالته، ثم تلته الدَّبة، فقد سقطت أول قنبلة من نوعها على الأرض على مسافة ثلاثة آلاف ياردة منا.

«ولـكنه صار علينا الآن أن نجرى التماساً للنجاة، فقد صارت التشكيلة فوق رءوسنا كأنها سحابة كبيرة يتساقط منها وابل من حجارة ضخمة.

«فذهبت أعدو إلى أقرب جحر، وكان غير عميق، لا يزيد عمقه على قدمين، ولم يكن يتسع لأكثر من رجل، ولـكن اثنين منا وثبا إليه، ولم ندرك إلا فيما بعد أنه كان فيه — سبقنا إليه — رجل آخر. وكنا حينئذ لا نفكر إلا فى هذا الزلزال وفى الضجة والدق والصفير من جراء هذه العاصفة الهائلة التى تجتاح الأرض. وكانت كل واحدة من هذه الطائرات اليابانية تلقى حوالى ١٢ قنبلة، فالجملة نحو ٥٠٠ تغطى الأرض فى وقت لا يتسع لأكثر من النطق ببضع جمل قليلة. وكنا فى أثناء ذلك ندفن أنفسنا كالدود على قدر ما نستطيع، فى هذا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الحجر . وكان ما كنا نخشى ، وارتجفت الأرض الصلبة ، كأنها سيارة ذات عجلات من الصلب ترعد على أرض مبلطة ، أو تطايرت كتل منها كالقذائف . ودار فى نفسى أنى خليق أن أنجو إذا استطعت أن أبقى فى مكانى لحظات أخرى ، فقـد دنا الموت منا الآن جداً ، وصار الزئير ، والصـفير ، والأرض المرتجفـة أقرب ، والرعد يجلجل فوق رءوسنا ، ثم انتهى كل شىء فجأة — اجتاز الأرض هـــذا القطار القاذف ، وانصرفت عنا الأسراب اليابانية .

« ولما رفعنا رءوسنا ونهضنا كان كل شىء ساكناً ، فما عدا صوت النار ومعمعتها التعالية ، وكان الدخان المنبعث من طائراتنا المحترقة قد بدأ يصعد ، ولم تكن أعمـدته المرتفعة قد تحولت إلى سحب كثيفة سوداء .

« ولـكنا كنا نسمع طنيناً فوق فرقعة النار ثم رأينا مصدره — عدداً من طائرات القتال مقبـلة ، لا بد أنها مقاتلاتنا من طراز ب ٤٠ ، ولم نكن نعرف أنها كلها فيما عدا قليـلا منها قد ضربت وأسـقطت ، وأن مطارها دمر قبل أن تزورنا القاذفات .

« وهكذا وقفنا نميط الوحل عن ثيابنا ، فقد سقطت قنبلة على مسافة ١٥ قدماً ليس إلا ، منى — وراقبنا هذه التشكيلة المقبلة فى صـف طويل كأنها الأوز الطائر ، وعلى ارتفاع لا يتجاوز ألفى قدم أو ثلاثة آلاف .

« وهل نلام إذا شعرنا بشىء من انتعاش النفس ، إذ رأينـا أخيراً بعض عصبتنا فى الجو؟ ولـكنا شعرنا أيضاً بألم ومضض ، لأنها لو كانت قد جاءت قبـل ذلك بقليل لـكانت قد عصفت بالطائرات المغيرة اليابانية وإذا ببعضهم يصيح فجأة : « انظروا بالله عليكم ، انظروا إلى هذه الدائرة الحمراء ! نعم — هى بعينها ، شمس اليـابان الطالعة طائرات ناكاجيما وبعض طائرات زيرو ومن كل واحدة منها يطل يابانى ويميـل بوجهه إلى الأرض ، وهو يدور ليتخير قلعة من قلاعنا يهاجمها .

« وداروا ثلاثة أرباع الدائرة ، وكان صنيعهم هـــذا كالضرب بالسياط لمطارنا المنـكود ، ثم تهيـأوا لضربنا بالمـدافع الرشاشة .

« وكنا قد شرعنا نخرج من جحورنا غير أنا الآن انكفأنا إليها ، فقـد صرنا فى مرحـلة أشبهنا فيها الجرذان . وكان الذى يقصد إليه اليابانيون هو أن يحيلوا منطقة الهدف جحيما . وكنت أرى أمامى رجالا يختفون فى حفرة ، فاختبأت فى جحرى ؟ وجاء جنـدى فارتمى على ، ورأيت أن مأ كمته قد قطعت ونسفت ، وقـد مات أمام عينى .

«وكان على مقربة من النقرة التى كنا فيها
ة يحيط بها جدار مقوس من أكياس
مل لوقايتها من الشظايا ، فاتخذتها إحدى
ئرات ناكاجيما هدفاً لها .

« وكانت الطائرة اليابانية لا تنفك تعود
ة بعد مرة ، وقد هبطت فى دورانها
ى صارت على ارتفاع ١٥ قدما من جناحى
لعة . وكان الضرب كأنه آلى ، فإذا
ربت انطلقت مدافع من الجناح تدمدم ،
لأ الجو بخيوط بيضاء ، حتى إذا أرته هذه
يوط أن هدفه خليق أن يصاب ، فتح مدفع
نابل التى من عيار ٢٠ مليمترا وأرسل
بلا من القذائف أعمق صوتاً .

« وكان ما لدينا من المدافع المضادة
لائرات قد أخذ ينطلق ، ولكنه لم يكن
نع شيئاً ، لكثرة الدخان الأسود ، ولأن
ه المدافع لم تصنع لتضرب على مثل هذا
ى القريب . ومن أجل هذا شننّا نحن
باً صغيرة من حفرتنا ، وصرنا كلما جاء
ابانى نطلق عليه مسدساتنا ، ولست
تطيع أن أزعم أننا كبدناه خسارة أو
أ ، ولكن عملنا هذا كان يشفى قلوبنا
ن الشفاء مما نجد .

« وفى هذه الأثناء كنت تسمع من جميع
اء المطار صوتين : الأول الدمدمة
ريعة العالية من المدافع المركبة فى أجنحة
الطائرات ، والغرض منها التثبت من الهدف ، يتبعه الصوت الآخر — وهو أبطأ — من مدافع القنابل التى يقذف بها الهدف . أما الصوت الثانى فكان أشد تخليعاً للفؤاد ، وهو يبدأ بهسيس متعال معناه أن رصاصة اخترقت خزان البنزين فى إحدى قلاعنا الطائرة ، ويلى ذلك عجيج عظيم معناه أن البنزين المحترق قد فجر قنابل الطائرة .

« وانتهت الغارة فجأة ، وارتفعت طائرات ناكاجيما وزيرو عن المطار كالغربان عن جثة وقعت عليها بحسن حظها ، وأصابت منها شبعها ، ثم انتظمت فى أسراب ، واختفت فى اتجاه حاملة طائرات كانت فى مكان ما على مقربة من لوزون .

« وبرزنا من جحورنا ، لنعود إلى خيمة العمليات وندلى بتقاريرنا ، ولكنه كان علينا أولا أن ندور حول حطام الطائرة المسكينة التى كانت لا تزال تحترق ، كأنها جواد حرب أصيل فى اصطبل يحترق ، وكنا ننأى عنها ونحن نطوف بها ، لا من شدة حر النار فحسب ، بل لأن ما أصابها كان أليماً ، ولم نكن نطيق أن ننظر إلى ما صارت إليه .

«وكانت خيمة العمليات قد نجت بأعجوبة ، ورأينا فى وجه الصاغ جبز الأثر الذى كنا نعلم أنه ارتسم على وجوهنا ، لما أدرنا عيوننا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

في حراب المطار، وفي الحطام المحترق، لما كان أقوى أسطول جوي من القاذفات ذوات المحركات الأربعة، في العالم.

«وقال جيز: «فرانك، يحسن أن تذهب إلى طائرتك لترى هل لا يزال في وسعها أن تطير».

«ولعلكم تذكرون أن الطائرة رقم ٩٩ كانت بعيدة عن الأعين وراء المرتفع الذي في مدرج المطار.

«فركبت دراجتي، وقد حدثتكم بما رأيت — وكيف وجدت رجالي صرعى، وكيف ذهبت أخطو إلى جانب صفهم، وأحادث كلا منهم وهو راقد، كأنما أريد أن أشرح لهم ما وقع وأفسره لهم.

«ثم صار في وسعنا أن نحصي ما أصابنا من خسارة. وكان كل ما بقي سليما هو رقعة واحدة من مدرج الطيران يمكن أن تنظف وتستعمل. وتذكرون أن فرقة القذف التاسعة عشرة كانت مؤلفة من ٣٥ قلعة طائرة أبية، وكانت اثنتا عشرة منها قد ذهبت إلى مطار «ديل مونتي» في مندناو، فسلمت من هذه الغارة. وفيما عدا هذه لم يسلم من البقية التي كانت في مطار كلارك سوى خمس يمكن أن تسمى طائرات، وحتى هذه الخمس أصيبت بعطب شديد، ولم تكن واحدة منها تستطيع أن تطير. ولكن إذا أخذنا الحطام كله وجمعناه، وأبدلنا جناحاً هنا، وذنباً هناك، وانتفعنا بمحركين سليمين من طائرة، فإن في مرجونا، على ما قال قائد سربنا القائمقام يوبانك، أن نخرج من الأربع والعشرين طائرة التي كانت على أرض المطار في ذلك الصباح، بثلاث طائرات قد تستطيع أن تصعد إلى الجو بعد إصلاح مدرج الطيران.

«وكان النهار قد ارتفع، فقال القائمقام يوبانك: إنه ليس ثم شيء يستطيع الطيارون أن يصنعوه، فعلينا أن نغادر منطقة الهدف إلى الصباح. فوجدت أنا وطيار آخر غرفة في بيت لأحد الأهالي، وتساءلت وأنا أبسط فراشي: أترى سمعت مارجو في نصف الكرة الآخر، بشيء؟ وكم ترى سيمضي من الوقت قبل أن يتسنى لي أن أخبرها أني أنا وإيدي أوليفر كل من بقي من الطائرة رقم ٩٩ التي ودعتها في البوكيرك قبل ستة أسابيع؟

* * *

«وفي الصباح الباكر عدت إلى المطار وقدمت نفسي إلى القائمقام يوبانك فعهد إلي في القيام على برج المراقبة في المطار، وكانت ست من القلاع الطائرة التي في مندناو قد عادت من مطار «ديل مونتي»، وهبطت إلى ما بقي من مدرج الطيران سليما — ومن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ار كله — وكان طول هذه الرقعة ٢٠٠٠
. ثم فُـرِّقت فى الأرض ريثما تتزود من
ين والقنابل ، واجتمع طياروها حول
ئمقام الذى عين لهم أهدافهم . وكان
ـولهم جميعاً وهم وقوف ، حتى لكأنه
رف عليهم ، صديقى القديم كولين كيللى .
نى لأرى الآن شعره الأسود المتجعد ،
إمته المديدة المعتدلة ، وكتفيه المرتدتين
الوراء كعادته . وكنت أعلم أنهم سيرسلون
مهمة كثيرة الأخطار ، ولم أستطع أن
بح نفسى عن الدنو والإصغاء ، بينما كان
ئمقام يبين لكولين هدفه ، وكنت أشعر
بطف الأخ الأكبر . فقد كان أحد أعوانى
قيادة الطائرة فى مطار مارش ، فالآن
لت إليه أول مهمة حربية ينهض بها .
ان الهدف الذى اختير له هو سفن النقل
ى جاءت الأخبار بأنها فى شمالى لوزون ،
هذه لا بد أن تكون وسائل الدفاع عنها
ية . وكان التعب بادياً على كولين ، فقد ظل
ير طول الليل ، ولم ينم إلا غرارا ، وكانت
لته الأنيقة فى العادة ملوثة بالشحم كأنما كان
ح طائرته بنفسه ، ولم يتسع الوقت لأكثر
ن تبادل التحية بإشارة اليد وهو يمضى
، طائرته ، وعدت أنا فصعدت إلى البرج .
ن البرج قد صار كأنه غربال من كثرة
صاص الذى اخترق حديده أثناء الغارة أمس .

« وكان علىّ أن أتولى أنوار البرج ، فأعطى الطيارين إشارة النزول حين يقبلون ، ولكن القائمقام لم يشأ أن يجازف أو يعرض أى شىء آخر للخسارة ، فأمرنى أن أبقى كل قلعة طائرة تجىء ، فى الجو تدور فوق المطار ، حتى يصدر هو أمراً آخر .

« وإنى لهناك وإذا بطائرة صغيرة واطئة من طراز ب ٣٦ التى يستخدمها سلاح الجو الفليبينى ، مقبلة ، وهى طائرة قديمة تصلح أن توضع فى متحف ، فأشرت إلى الطيار بالنور الأخضر ، لأنى تبينت أن طائرته كلها ثقوب من الرصاص الذى أصابها ، فلا قدرة لها فيما رأيت ، على البقاء فى الجو .

« ووثب الطيار الفليبينى المقاتل الصغير الجسم ، وكان كل ما يطلبه هو أن يملأ خزانه بنزيناً ، وأن يزود بالكفاية من القذائف لمدفعه الصغير من عيار ٣٠ ، ثم إذا به فى الهواء مرة أخرى . ألا لقد أبلى هؤلاء الفليبينيون الصغار الأجسام بلاء حسناً دفاعاً عن جزائرهم بهذه الطائرات العتيقة .

« وكانت مقاتلاتنا فى ذلك الصباح ، وقد نجا منها من غارة الأمس على مطار إيبا حوالى ١٥ من الأربع والعشرين التى كانت هناك ، تقوم بعمل بديع ، وتتعلم أيضاً ، فقد كان هذا أول عهدها بالقتال الحقيقى .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وما أكثر مالا يستطيع أن يعلمه أحـد عن الحرب فى المناورات! واسأل « بز واجنر » خير هؤلاء المقاتلة جميعاً ، يقل لك ما أقول أو على الأصح ، كان خليقاً أن يقول لك ذلك قبل أن يموت .

« وقد قام بز واجنر فى ذلك الصباح ، وبطائرة واحدة من طراز ب ٤٠ ، بعمل لا يضطلع به فى العادة أقل من سرب كامل ؛ فقد أرسل فى بكرة الصبح بذخيرة كاملة لمدافعه ، وتحت جناحيه قنابل زنة الواحدة منها ثلاثون رطلا ، فكان فى وسعه أن يعصف بكل ما يلتقى به أو يراه .

« وخرج إلى البحر شمالى لوزون ، فلمح أربع طائرات مقاتلة يابانية، محلقة فوقه ، فهمّ بأن يرمى قنابله تخفيفاً لحمله، وليكون أسرع وأقدر على المحاورة والمناورة ، ثم بعد ذلك يرقى فى الجو لينازل العدو ، ولكن القنابل التى زود بها كانت قد أعطيت له ليلقيها على طائرات جاء بها اليابانيون ووضعوها فى مطار قرب لنجاين ، فمضى واجنر فى طريقه .

« وإنه لآخذ سمته إلى غايته، وإذا بما يملأ حوالى ثلاثة أصـواع من الرصاص الحامى الأحمر المتوهج ، يهسّ ماراً على مقربة من برجه — فقد انقضت عليـه اثنتان من المقاتلات اليابانية لتدمره .

« وكانتا مقبلتين عليه بعزم صارم فقام بمناورة بارعة — رد طائرته بغتة ليدعهما تمران إلى جانبـه بسلام ، ثم صب ناره على ذنبيهما ، فأصابهما من ذلك ما أشعل فيهما النار . فبورك فى هذه المدافع من عيار ٥٠ ! وكان بطراز ب ٤٠ ستة من هذه المدافع ، وكانت إذا تكلمت ألسنتها الحامية لم ينبغ لغيرها ما يقول .

« ولا تنسوا أن واجنر لم يلق قنابله فى البحر ، طول هذا الوقت ، وقد كان من السهل أن يكلفه احتفاظه بها حياته ، ولكن مهمته كانت أن يصل إلى مطار لنجاين ، وكان على موعد هنـاك مع الملازم رسل تشرش .

« ولما اقترب من لنجاين رأى « رسل تشرش » الذى سار إلى جانبـه ثم أبصر هدفه — كل هذه الطائرات اليابانية جاثمة على الأرض كأنما هى معدة للتفتيش العادى فى زمن السلم . وأود هنا أن أنبهكم إلى أمر هو أن السلاح الجوى الأمريكى ليس هو الوحيـد الذى يؤخذ على غرة ويفاجأ من حيث لا يحتسب .

« وهكذا سارا — واجنر أولا ويليه رسل — مارين بالمطار ، ولما صار أول هدف قيد عيونهما ، ألقى واجنر القنبلة الأولى ثم غيرها من قنابله زنة ٣٠ رطلا ، ورد بصره

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الوراء ، فرأى رسل فى أثره ، وعبر
ىر المطار ثم دار دورة سريعة ليراقب
ى رسل وهى تسقط . وكان ذنب
ئرة التى يقودها رسل قد اشتعلت فيه
ـ من قذائف المدافع اليابانية المضادة ،
ن رسل يعرف ذلك، ولكنه واصل عمله
ـاب الطائرات اليابانية المصطفة بانتظام
بات مباشرة . وكان واجنر لا يزال
ـيه ، فرآه يدور عند آخر المطار وهو
ى قليلا ثم يهوى إلى الأرض . ويقول
جنر : إن من الممكن أن يكون رسل قد
ـتطاع أن يتخلص ويلق بنفسه بالمظلة ،
كن واجنرلم يستطع أن يتلكأ ليستثبت ،
ه كان يقوم حينئذ بجولته الثانية فوق
ار ، وحده . فمرق مرة أخرى بين
ائف المدافع المضادة وأطلق على هذه
ائرة الجاثمة مدافعه من عيار ٥٠ ، وكان
ص الطائرات يحترق ، واجتاز المطار ،
بجولة ثالثة، وإذا بقذائف تسديد الهدف
انية تصفر من خلفه ، فأدار عينه فرأى
ائرتين الباقيتين من الأربع اليابانية من
از زيرو تنقض عليه . ولم يكن يسعه
ء سوى أن يستحث طائرته على أقصى
عة تدخل فى طوقها ليفلت ، وصارينأى
ى طائرتى زيرو شبراً فشبراً ، حتى عاد
ل المطار » .

واستطرد فرانك فقال: « ولكن مهمتى كانت أن أكون فى برج المراقبة ، لا أن أذهب فى مهمات . فبعد الظهر بقليل اتفق أن صعدت طرفى إلى غمامة تأدّى إلى من ورائها أزيز إحدى طائراتنا ، وكان يبدو أنها تحاول أن تنزل ، وإذا بى أرى مظلة تنفتح تحت الغمامة ، ثم أخرى ، فثالثة ، وقد عددت من هذه المظلات ثمانى ، فلابد أنها إحدى قلاعنا الطائرة ، ولكنى لم أر التاسعة ، ورأيت بدلا منها جسما أسود يهوى إلى الارض . هى إحدى قلاعنا ، ولكن من الطيار ؟ ولم أعرف إلا فى المساء أنه كولن ، وكان قد خرج ليقوم بالمهمة التى وكلت إليه فى الصباح على مسمع منى، فأصاب أكبر هدف يطمع فى مثله طيار إصابة مباشرة ، ولما انثنى عائداً تبعته طائرتان مقاتلتان يابانيتان،وأصابتا أنابيب الأوكسجين بقنبلة محرقة ، فشبت النار كأنها فى قطن مغموس فى البنزين . ولكن لم يضطرب ولم يرتبك ، فأمر الثمانية الآخرين من رجال طائرته أن يغادروا الطائرة ، ففعلوا .

« ومن القواعد المقررة فى قلعة طائرة أن يكون الطيار آخر من يغادرها ، وهذا فى السلاح الجوى لا يعد مسألة شهامة أو بسالة ، لأنه لا بد من بقاء بعضهم أمام عجلة القيادة ليحتفظ للطائرة باستوائها وارتفاع

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

جانبها الأيمن ، ريثما يقفز منها الآخرون . والبعض الموكول إليه هذا هو الطيار .

« وقد بقى كولن أمام عجلة القيادة وطائرته تهبط والأوكسجين يحترق ، وخرج الثمانية جميعاً ، ولكن لما جاء دور كولن كان قد دنا من الأرض جداً فلم تتح له فرصة للخروج .

« وقد سمعت أيضاً ، حين سمعت كل هذا ، بالهدف الضخم الذى أصابه كولن ، وكان بارجة يابانية ضربها وأغرقها ، ولكنى لم أعبأ بهذا كثيراً فى ذلك الوقت ، ولا أظن أن كولن عبأ به شيئاً .

« وبعد الظهر بقليل أقبلت إحدى مقاتلاتنا تضطرب كالطير المجروح وقد فقدت قطعة من جناح ، وبينما هى تهوى إلى المدرج الضيق اصطدمت بجناح إحدى قلاعنا المعطوبة قليلا فأطارته ، وانقلبت فاصطدمت بالأشجار ، فقتل شاويش كان يعمل فى طائرة أخرى هناك ، ولم يصب الطيار بسوء ، ولكن طائرة أخرى من مقاتلاتنا القلائل الثمينة ذهبت .

« وكانت تلك الليلة مضنية ، وقد قضيت معظمها فى البرج . وكنا قد لفقنا نظاماً من الأنوار لمساعدة الطائرات على النزول ، لم يصلح إلا نحو نصف الوقت ، وكنا إذا استطعنا أن ننزل طائرة على الأرض ، يمشى

على جانبيها – عند طرفى الجناحين – اثنان يحملان مصباحين ، ليهديها إلى مكانها فى منطقة التوزيع ، وليحولا بينها وبين التردى فى إحدى الحفر التى أحدثتها القنابل .

* * *

« وفى اليوم التالى صار من الواضح أن علينا أن نرحل عن مطار كلارك فيلد ، فقد كان غاصاً بحفر القنابل ، وكنا فى متناول فورموزا ، ولا مقاتلات تدافع عنا ، وليس لنا إلا أقل من القليل من المدافع المضادة للطائرات .

« من أجل هذا بدأ الجلاء فى صباح اليوم التالى ، وقد أعطونى إحدى الطائرات التى رقعوها ، فقمت برحلتين ذهاباً وإياباً إلى ديل مونتى ، ومعى فى كل رحلة رجال من عمال الطائرات على الأرض ليقوموا على خدمة طائراتنا فى ديل مونتى .

« ولن أنسى أبداً آخر رحلة ، وكانت ليلا كما هو مفهوم بالبداهة – فقد كان الطيران نهاراً غير مأمون – وقد حلقت فى الساعة الثالثة صباحاً ، وإذا بأحد الميكانيكيين يخبرنى فجأة أن فى أنبوبة البنزين ثقباً كبيراً ، فماذا كنت عسى أن أصنع ؟ كل ما كان يسعنا أن نصنع هو أن نلف حول الأنبوبة المثقوبة شريطاً لاصقاً ، ونسرع ما استطعنا ، ونسأل الله أن يقينا شر اندلاع النار ونحن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لجو . وقد نجحنا ، وشاءت المقادير أن ن هذه آخر رحلة لى فى مطار كلارك ، اليابانيين عادوا فى اليوم التالى ودمروا ما بقى فيه . وقد فقدت فى هذه الغارة جرائها كل ما كان لى ، وفى جملتها عات الصغيرة ، واليوميات ، والمحافظ كانت لرجال الطائرة رقم ٩٩ .

« والآن صرنا فى ديل مونتى ، ومعنا عشرة من القلاع الطائرة ، ولـكنها وغة وسيئة الحال ، حتى لنعد سعداء إذا طعنا أن نرتفع بست منها عن الأرض قت معاً .

«ولـكن البقعة كانت، فيما عدا ذلك، أنيقة ة ، فقد كان فيها أرض خضراء زكية ، مصنع كبير للأناناس المحفوظ ، وناد ركة للسباحة ، وملاعب للتنس ، وعدد النساء البيض ، حتى لراح كل فتياننا لقون ويحدقون فى وجوههن ، ولـكنه كن هناك لا مدفع مضاد للطائرات ، طائرة قتال تحمينا فى دائرة يبلغ قطرها من الأميال .

« وازداد قلقنا على الأيام . فهنا فى هذا ر الجميل ، رأينا اناساً لم يكن يبدو أنهم يعرفون أن الحرب قد قامت . كل ما حولنا من العسكريين جماعة فرق النقل . وفى أول يوم نزلنا فيه دعوت اثنين من الجنود وأمرتهما أن يحجبا الأنوار الـكاشفة فى كل سيارة تدنو من المطار ، كائناً من كان صاحبها أو راكبها ، فنفذا أمرى ، واتفق أن وقفا سيارة لأركان حرب فى فرقة النقل ، فتوعد هذا الضابط أن يضع حداً لهذه السخافات .

« وقبل أن يزورنا اليابانيون، استطاعت فرقة القذف التاسعة عشرة ، أو ما بقى منها ، أن تضربهم ضرباً وجيعاً . مثال ذلك بعثة خليج ليجاسبي . وكان قلم استخباراتنا قد أنبأنا أن حشداً كبيراً من السفن اليابانية يتحرك جنوباً نحونا على شاطىء لوزون ، وكان هذا معناه هلاكنا ، ولا سيما إذا كانت إحدى السفن حاملة طائرات ، وعليها طائرات زيرو، فتستطيع أن تضربنا بمدافعها الرشاشة ونحن على الأرض . ولا تنسوا أنه لم يكن لنا طائرة قتال واحدة فى دائرة قطرها خمسمائة ميل، حول مطار ديل مونتى

« فـكان علينا أن ننهض ونصنع كل ما يدخل فى وسعنا . وكنا نعمل كالشياطين، حتى صار عندنا ست طائرات ، ظننا أنها صالحة لأداء هذه المهمة . ولـكنى فى ذلك الوقت لم يكن لى طائرة أقودها ، ولهذا يحسن أن يقص هارى هذا الخبر عليكم ، فقد كان هو الملاح فى الطائرة التى قادها جاك أدامز » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فقال هاري : «كان على الطائرات الست أن تقـوم فى الساعة العـاشرة ، فراح جيم كونالاى يدرج بطائرته ، وإذا بإطار عجلته يثقب ويخلو من الهواء على المدرج ، فمالت الطائرة واصطدم جناحها بالأرض ، وأصابه من ذلك تلف، فبقيت خمس طائرات ولم يكن هـذا مما يحمد ، فإن فى الـكثرة الأمن والسلامة ، إذا كانت الطائرات من القلاع ، وكلما كانت النار التى تصبها على طـائرات زيرو أقوى ، كان ذلك أدعى لسلامـة القلاع وعودتها إلى قاعدتهـا . ولـكننا قمنا على كل حال .

«وكنا نطير فى نظام، ونرقى فى الجو باطراد إلى الارتفاع المتفق عليـه وهو ٢٥٫٠٠٠ قدم . وبعد ساعة من خروجنا من مطار ديل مونتى ، تخلفت عن الصف إحدى الطـائرات فقلنا : لعـل بمحركاتها شـيئاً لا يساعدها على المواظبة على الصعود . وبعد نصف ساعة تخلفت طائرة ثانية ، ولما دنونا من هدفنا تخلفت ثالثة ، وكنا نستطيع أن نرى محركاتها ضعيفة ، وأنها لا تستطيع أن تصعد إلى الارتفاع المنشود .

«وكنا لاعتقادنا أن طائراتنا ستظل ستة قد اتفقنا على تقسيمها إلى سربين ، فى كل سرب ثلاث طائرات ، وإذا بكل ما بقى طائرتان ليس إلا ، فقرر أحد الطيارين الاثنين أن يزعم أنه السرب الأول ، و[ا] يكون الطيار الآخر هو السرب الثانى اثنان ضد هذه العصابة الكبيرة من الس[ـ] اليابانية .

« وكان على جاك أن يكون هو البادئ ولـكن السحب كانت من الـكثافة بـ[ـ] كان لا معدى من الهبوط إلى ارتـ[ـ] ١٨٫٠٠٠ قدم ، قبل أن نستطيع أن [ـ] الهدف . وقد رأيناه ، وهو صف من سـ[ـ] النقل معها سفن حربية للحراسـة ، [ـ] تنسوا أننا هبطنا إلى ١٨٫٠٠٠ قدم . ولـ[ـ] هذا بالارتفاع الموافق لنا فإن الطراز القـ[ـ] « د » من القلاع الطائرة ، مصنوع لـ[ـ] أفعل على ضعفى هذا الارتفاع تقريباً . ارتفاع ١٨٫٠٠٠ قدم فهو أصلح ما يكـ[ـ] لطائرات زيرو .

«وإذا أردت أن تعرف طراز «د» القلاع الطائرة معرفتها، وتلم بطريقك [ـ] فتصور أن أنفها رأس سمكة مصنوع [ـ] صلصال شفاف . وفى الفك الأعلى يقعد الـ[ـ] وزميله جنباً إلى جنب ، وهذا هو [ـ] الطيارين، وفى وسعهما أن يريا ما أمامهـ[ـ] وما على الجانبين، ولـكنهما لا يستطيعا[ن] يبصرا ما تحتهما . وتحت مقعديهما الـ[ـ] الأسفل فى رأس السمكة ، وتصل إليه باب صغير كباب الفخ ، وهنـا مكان الـ[ـ]

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ي ، ومكانه مصنوع أيضاً من صلصال
ف ، وفيه يجلس معه قاذف القنابل ،
وسعهما أن يريا ما أمامهما وما تحتهما ،
كنهما لا يبصران ما فوقهما .
« ومتى وصلنا إلى الهدف فإن وظيفتي
ح تنتهي إلى حين ، فأرتد إلى مستودع
بل حيث تكون معلقة بحمالات على
، ممشى صغير ، فأساعد على نزع دبابيس
لاق للقنابل . والمكان مظلم لا يضيئه
مصباح كهربائي صغير .
« والآن يفتح باب المستودع فيغمر
ء القنابل ، ثم تذهب القنابل ، وقبل
رد الأبواب وتوصد ، ألمح جماعة من
ات زيرو منطلقة في أثرنا .
« فأخبر جاك أدامز ، فيتجه إلى سحابة
أنها على عشرة آلاف قدم فننحدر إليها
وتنا ، وفي أثناء ذلك تكون طائرات
، في أثرنا وتدنو منا، ولا تلبث أن تطلق
ا علينا ، وبينما نحن مسرعون إلى
ابة ، يقوم المدفعيون بالرد على العدو .
وكان هناك خمس من طائرات زيرو
ا وتصعد إلى ما فوق ذنبنا ، وقد
ل مدفعينا التحتي أقرب الخمس ، ولكن
ع الأخرى ظلت مقبلة في نظام متماسك،
، جاك أدامز يحرك ذنب الطائرة إلى
وإلى تحت ، ليمكن المدفعيين العلويين

من ضرب المطاردات . وقد كان . أصاب
المدفعي العلوي واحدة، فبقيت ثلاث.
« ورأى جاك أن يكبح الطائرة فجأة ،
فتجاوزتنا إحدى طائرات زيرو إلى الشمال
فصارت صيداً حسناً لمدفعينا الجانبي . ثم
أقبلت أخرى تحت جهاز التوازن في الذنب
ففاز مدفعينا التحتي بصيده الثاني في يومه ،
وهكذا دمرنا أربعاً وبقيت واحدة كانت
لا تزال تهاجمنا على الرغم من كل ما فعلناه .
«ومما زاد الحال سوءاً أن هذه السحابة
اللعينة التي قدرنا أن تكون على ارتفاع
١٠٫٠٠٠ قدم تبين أنها على ارتفاع
٤٫٠٠٠ فقط ، وليس ثم أحجام قياسية
للسحب ، فلا يسعك أن تعرف على وجه
التحقيق مبلغ بعدها منك ، ولكنا دخلنا
أخيراً في سحابة .
«غير أنه لما أراد جاك أن يخرج من
مخبئنا وينطلق ، وجد أنه لا قدرة له على
ذلك ، لأن طائرات زيرو كانت قد أصابت
وعطلت المحركين رقمي ١ و٢ ، فصرنا نفقد
سرعتنا وارتفاعنا أيضاً ، ونهبط ببطء في
هذه السحابة على الرغم مما بذلناه من جهود .
« وكانت طائرة زيرو الباقية قد تبعتنا
في قلب السحابة ، وكانت لا تنفك، من حين
إلى حين ، تضربنا برصاصها ، ولن ننسى
أبداً صوت هذا الرصاص الياباني وهو ينثر

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى قلب طائرتنا ، فقد كان يخترق قشرة الألومنيوم كأنه جلد إنسان، ويصيب موضعاً من الدرع ، ثم يرتد . وما لبثنا ونحن نهوى فى كفاف هذه السحابة وأسافلها أن صاح بنا الطيار المساعد أن نستعد لنزول اضطرارى . وكان جاك يبحث عن رملة مستوية يهبط عليها ، غير أنه لم يكن ثم رملة ما ، ولا شىء غير صخور يدور بها ويلتف عليها الزبد . فاتجه جاك إلى الأرض ، فرأينا أمامنا جماعة كبيرة من الشجر يبلغ علوها ستين قدماً ، فلم يبق إلا أن نصلى ونبتهل إلى الله . ولكن جاك ارتفع بها إلى ما فوق الشجر، ثم نزل بها على بطنها فى مزرعة أرز خير نزول يمكن أن نطمع فيه .

«ولعلكم نسيتم طائرة زيرو الباقية ! أما أنا فما نسيتها، لأنها طاردتنا على طول طريقنا ونحن نهبط ، ولقد خرجت زاحفاً من الطائرة بأسرع ما استطعت ، وذهبت أعدو . والمضحك أن « بيل ريلنج » ، الطيار المساعد ، كان إما مذهولا أو راضياً عن المكان الذى هو فيه من الطائرة ، فقد بقى فى مقعده بينما كانت طائرة زيرو تدور ، ثم أقبلت ومدافعها تقذف النار ، وقد وشم الرصاص جناح القلعة كله ، بينما كان ريلنج قاعداً يحلم مستريحاً فى مقعده والرصاص يتناثر من حوله . وصدقونى أو لا تصدقوا ! فما أصابه شىء ، حتى ولا خدش . وهنا يثبت أنه يستوى أن تجرى فى أية ناحية أو لا تجرى على الإطلاق » .

* * *

وقال فرانك : « ومر بالطائرة الأخرى وقت عصيب أيضاً ، فإن الطيار فاندفانتر حلق فوق الهدف بعد أدامز بثلاث دقائق ، وطورد حتى دخل فى سحابة، وظلت طائرات زيرو تطوف حول السحابة حيث بقى محبوساً فيها مختنقاً بها زمناً ، وكلما بدا منه جناح صبت عليه طائرات زيرو نارها ، ولكنه تمكن من العود بطائرته » .

واستأنف الملاح هارى حديثه فقال « وعانينا بعض المتاعب من جراء ما أصاب طائرة أدامز . فإنى لما نهضت عن الأرض ، بعد أن انتهت طائرة زيرو من قذفنا برصاص مدفعها الرشاش، وجدت أن شاويشاً أصيب فى ساقه برصاصة ، وأنا أيضاً أصبت بخدش من رصاصة ، ولكنه لم يكن شيئاً يستحق الذكر .

« وأحسب أن لكم أن تقولوا إن إجازتى من السلاح الجوى تبدأ من هذه النقطة ، فما وقعت عينى على أحد من رجال الفرقة التاسعة عشرة إلا بعد أن وصلت أستراليا فى شهر مارس . وكانت الفرقة قبل ذلك قد طوردت إلى مطار ديل مونتى ، ثم ألقى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ذلك من بقى منهم فى معارك جاوة .
أثناء ذلك وقع لى كثير .

« فبعد ثلاث دقائق من نزولنا الجبرى
حقل الأرز ، أحاط بنا جماعة من
يبينيين ، وهم جميعاً يلوحون بأطول
حد مدى تود أن تراها . ولكننا أقنعناهم
السنا يابانيين ، فبذلوا لنا جميعاً معونتهم ،
خبرونا أننا فى جزيرة ماسباته ، وصنعوا
ة مريحة للشاويش المجروح .

« وأراد هؤلاء الأهالى أن يكرموا
باط الأمريكيين الذين يحاربون فى سبيل
هم ، فجاءونى بحمار أركبه ، وكان الرفض
قاً أن يعد إهانة لهم ، ولكنى لم أكن
ور مبلغ العناء الذى تكبدته .

« فقد كان هـذا الحمار كأنه محروم من
عام ، وكانت عظمة ظهره ناتئة ، ولم يكن
من وسـيلة للسيطرة عليه ، فقد كان
لف ويقف ليأكل بعض الحشيش ،
يلمح أمامه أناناً فيذهب يعدو ليدركها ،
ا ذهب يعدو فإنى أنا أرتج ، فأرتفع
حط على تلك العظمة البارزة .

« وبلغنا قرية بعد قليل ، ووجدنا طبيباً
بساق الشاويش .

« ومضى نحو أسبوع قبـل أن نبرح
ه الجزيرة فى زورق طويل ، نزلنا منه
باناى . ولما قدمنا أنفسنا إلى الجنرال
تشينويث قيل لنا إن الفرقة التاسعة عشرة
غادرت منداناو إلى أستراليا . وأخذونا
وألحقونا بألاى مدفعية ميـدان من القوة
الفليبينية ، وولوا كلا منى ومن جاك أدامز
وبيل ريلينج ، قيادة كتيبة فعددنا ذلك شرفاً
عظيما لأننا لم نكن أكثر من ملازمين » .

« وأدرنا عيوننا فى جنودنا فألفيناهم كلهم
فى سن طلبة المدارس العليا ، وبصفهم لا يتكلم
الإنجليزية . أما المدفعية فكانت عبارة عن
اسمها زائدا ست نظارات لمدافع فرنسية من
عيار ٧٥ ، مما كان يستعمل فى الحرب الماضية .
أما المدافع نفسها فغرقت مع سفينة تموين
فى خليج مانيلا ، وقـد نظفت النظارات
وصارت فى أحسن حال !!

« وقد أرسلت جماعتنا إلى مكان على
نهر يسمى كارمن فيرى ، حيث يصل طريقان
من مدينة دافاو فى الجنوب وكانت فى يد
اليابانيين ، وكان علينا إذا قام اليـابانيون
بهجوم أن نمنعهم من عبور النهر .

« ولم تكن هذه البقعة مما يطيب لى ،
ولا سيما الحيات . وكنت أنام فى خندق ،
وقبيـل الصبح يبترد الجو ، فتقبل عليك
الحيات لتدفأ بك فى الظلام ، وكانت غليظة
كالساق ، ولم يكن هذا مما يخفف على نفسى .
وأرجو ألا تظنوا أنى أذم الحيات أو أنتقدها
فقد كانت رفيقة رصينة . ولـكن المكان لم

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يكن يبدو لى كأنه بيتى ، فكان هذا سبباً آخر يضاف إلى أسباب شتى بغضت إلى العمل على الأرض ، وقد يكون العيش هناك مأموناً كما يزعمون، ولكنك لا تشعر أبداً أنه كذلك .

«من أجل ذلك اغتبطت أعظم اغتباط حين أمرت أن أعود إلى مطار ديل مونتى ، حيث كان الطيارون الذين لا طائرات لهم يجمعون للجلاء إلى أستراليا . وقد جاء الملازم بيز — وهو من الفرقة التاسعة عشرة — بقلعة طائرة ذات ليلة وحملنى مع خمسة عشر طياراً آخرين ليس لهم طائرات . وأقول الحق ، إنى شعرت بالغبطة لما صرت مرة أخرى فى جوف طائرة ، واختفت عنى عظام ذلك الحمار ، وكل هاتيك الحيات المتوددات ، فى ظلام الأفق . فما خلقت قط لعمل المشاة » .

***

وقال فرانك كورتز الطيار : « ولشد ما كان سرورنا بك يا هارى لما عدت إلى الفرقة التاسعة عشرة فى أستراليا ! فقد كنا سلكناك مع الموتى لما لم ترجع من خليج ليجاسبى مع الآخرين ، وقد رآك فاندفانتر منطلقاً بالطائرة إلى سحابة ، وفى إثرك خمس من طائرات زيرو . وجدتنا أنفسنا أنك لم تستطع قط أن تصل إلى تلك السحابة وتدخل فيها .

«وهكذا صارت الفرقة التاسعة عشرة فى مطار باتشلور بقرب داروين بأستراليا .

«وهى رقعة قاحلة قليلة السكان، وبورت داروين قائمة هناك على حافة لا شيء على الإطلاق ، وشوارعها واسعة ، وفيها فرقة موسيقية تعزف فى المتنزه ، وحديقة حيوان فيها عدد قليل من الكانجارو والدببة وغيرها . وليس بها خصر طازجة ، وكل شيء يستورد فى العلب . وهذه هى داروين .

« أما مطار باتشلور فعلى مسافة أربعين ميلا إلى الوراء فى الغابة ، وفيها مدرجان أو أسلوبان للطيران مرتجلان ، (فقد كان من الصعب الحصول على آلات للتمويه أو ديناميت لنسف الجذوع) ، وحظيرة يتولى أمرها السلاح الجوى الملكى الأسترالى .

« وكان حسناً بضعة أيام أن يكون الرء بمنأى عن الخطر ، وأن نشرع فى ترميم طائراتنا الست وإصلاحها ، ولكن للسلام متاعبه . فقد كانت أستراليا لا تعرف إلى ذلك الوقت أن هناك حرباً . وكان رجال السلاح الجوى الأسترالى ، على ظرفهم معنا يبدون كأنهم يتكلمون لغة أخرى . ذلك أننا نحن قاسينا أهوال الجحيم ، وكنا نعرف أن الجحيم تمشى إلينا بخطوات مطردة .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لكن هؤلاء الطيارين الأستراليين ، حيونا وأنما كنا قد هبطنا عليهم بعد رحلة عادية تنزنا فيها البحر .

« وفي ذلك الصباح الأول خرجنا جميعاً ، ن ضباط وجنود ، وشرعنا نحفر نفراً نختبئ فيها على سبيل الاحتياط من غارة يقوم بها اليابانيون علينا قريباً . فدهش الأستراليون وقالوا : يالها من ديمقراطية ! لم يخطر لهم قط أن يحتفروا شيئاً لأنفسهم .

« وشرعنا بأسرع ما نستطيع نقوم حلات . وكان مطار ديل مونتي لا يزال أيدى الأمريكيين فكان في وسعنا أن خذ منه قاعدة أمامية ، وكنا نذهب إليه نتنزل به على حذر كأنما هو أتون حام ، قد كانت المسافة ١٧٠٠ ميل من داروين ى ديل مونتي . فكنا نغادر داروين في صباح ، ونطير طول النهار ، وننزل في يل مونتي بعد المساء ، لنكون بمأمن من يابانيين ، ثم نتعهد الطائرة ونأكل وننام ليلا ، ثم نملأ خزان البنزين في وقت يمكننا ن القيام بغارة في الصباح الباكر على سطول الغزو الياباني على مقربة من لوزون . م نعود إلى ديل مونتي ، في وضح النهار ، ذلك خطر عظيم ، ولهذا كنا ننزل نتزود بسرعة من البنزين والقنابل ، ونذهب غارة أخرى بعد الظهر ، ونرجع إلى ديل مونتي في الظلام ، ولله الحمد ، حين لا يكون هناك طائرات قتال يابانية في الجو ، ونصل حوالى نصف الليل ، ونرقد مثل رقاد القطط ، ونتزود من البنزين ونثنى إلى أستراليا .

« وتصور حال الطيارين وأعوانهم ، وإلى أي حد يطحنهم الجهد يوماً بعد يوم ، ثماني عشرة ساعة في بعض الأحيان بغير انقطاع .

« ولكن الذى كنا نخشاه أكثر مما نخشى سواه هو عيد الميلاد ، وكان قد شارفنا عيد الميلاد ، ونحن في هذه الهزيمة وعلى هذا المطار الصحراوى المجدب الحار الكثير التراب ، ومن غير أن نسمع كلمة أو يأتينا بريد من أهلنا وقومنا .

« وكنا نعلم أنه لن يأتينا بريد ، فكان من الطبيعي في يوم عيد الميلاد القائظ أن يدلف بعضنا إلى كوخ الراديو عند الأستراليين ، لنلقط ما يمكن أن نلقط من كلمات عن بلادنا .

« وينبغى أن أقول هنا أن بعضنا ذهبوا في مهمات إلى الفلبين — ست قلاع طائرة في جملتها طائرة أل مويلر ، وهم الآن ينبغى أن يكونوا في رحلة الإياب إلى مطار باتشلور وهى تستغرق تسع ساعات طويلات مضنية . ولشدّ ما رجونا أن لا يدهم منها شيء في عيد الميلاد .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« وكان الأستراليون غاية فى الظرف معنا ، وقد أعطونا البطاقات التى تلقوها فى عيد الميلاد لنقرأها ، ثم كانوا يسألوننا : « من أية ناحيـة فى الولايات تجىء أيها الأمريكى ؟ » ، فكان يسعنا أن نحدثهم عن زوجاتنا أو عن صديقاتنا من الفتيات إذا شئنا ، وكان أكثرنا يفعل . ولكنا كنا قلقين على طائراتنا التى ذهبت فى مهمة ، وإن كنا لم نتحدث عنها . ولم نكن ندرى أنها تعرضت لمخاطر جدية ، وأن طائرات زيرو ضربتها على ارتفاع كبير، وأن طائرة أل مويلر ضربت بالمدافع الرشاشة فدخلت الرصاصات فى القسم الذى فيه الراديو . وقد أصيب الشاويش كيلين عامل اللاسلكى فى يافوخه وهو يساعد المدفعيين على التعبئة ، وجرح اثنان آخران جروحاً بليغة . ولما كان هذا قد حدث على ارتفاع كبير فقد كان الأمر خطيراً جداً ، لأن المصاب قد يسقط فتنزع عنه كمامة الأوكسيجين . وليس ثم شىء يستحق الذكر تستطيع عمله لجريح أثناء المعارك الجوية على ارتفاع كبير ، وأقصى ما يدخل فى طوقك هو أن تضع كمامة الأوكسيجين على وجهه، حتى لا يتحول وجهه إلى الزرقة ويختنق على ارتفاع ٣٠٫٠٠٠ قدم ، وأن تدعو الله أن لا يلح عليه النزف فيموت ، فما يسعك أن تكف عن القتال فتضمد جرحاً .

« ولنرجع إلى أل مويلر . إنك حين يصاب رجال طائرتك يكون همك أن تهبط إلى ارتفاع ١٠٫٠٠٠ قدم على الأقل بأسرع ما تستطيع ، حتى لا يضنيهم التنفس من خلال كمامة الأوكسجين ، ولكن طائرات زيرو كانت تحتهم أيضاً . وكان أل يدرك أنه إذا ترك السرب وانقض بمفرده ، فإن اقتناصه يكون سهلا ، ولهذا صنع خير ما يمكن أن يصنع — بقى مع السرب ، ولو أن هـذا كان من أقسى الأمور فى عيد الميلاد ، إذ كان معه هؤلاء الجرحى يكافحون فى سبيل التنفس فى طبقات الجو العليا .

« ولم نكن ندرى شيئاً عن هـذا ولكن عامل اللاسلكى الأسترالى كان يدير المفاتيح، فسمع شيئاً ، وبعد أن كتبه والسماعة على أذنه ألقى إلىّ نظرة غريبة تنطوى على الحيرة والارتباك ، وناولنى الورقة .

وكان الذى فيها من أل مويلر ، فقد انتظر حتى خرج من منطقة الخطر قبل أن يقطع صمت جهازه اللاسلكى ، وقد قال فى رسالته : إنه سيصل بعد المساء ومعه فى الطائرة قتيل ، وطلب أن تكون سيارة الإسعاف فى المطار ، ومعنى هـذا أن معه جرحى . فلم تبق لنا متعة بعيد الميلاد .

* * *

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« ولما وصلت طيارة أل كانت من
ئلف بحيث قررنا أن نعدها حطاماً ، وكانت
اجتنا شديدة إلى حطام فى المطار ، لنأخذ
ه قطعاً للتغيير لإبقاء الطائرات الأخرى
درة على الطيران . وكانت بنا حاجة إلى
ل شىء ، ولكنها أشد ما تكون إلى
زانات للبنزين .

« ذلك أن خزان البنزين الرئيسى ف
از « د » من القلاع الطائرة محمول
أجنحتها ، ولكنها تستطيع أن تحمل أيضاً
انات إضافية على الرفوف فى المكان الذى
القنابل ، فإذا أصابتنا الطائرة المقاتلة
ن هذه الخزانات تلقى مع القنابل لتكسب
طائرة مزيداً من السرعة فتنجو ، وإذا
انت الخزانات خالية فإن هذا يكون
عى إلى إلقائها . وكثيراً ما تخترق رصاصة
زان بنزين مترع ولا تشعل النار فيه ،
كن الخزان الفارغ يكون فى الحقيقة
وءاً بمزيج من الهواء وبخار البنزين
جر كالقنبلة ، كما يعرف اليابانيون حق
رفة ، وقد اضطررنا إلى إلقاء خزانات
ين كثيرة مما يوضع مع القنابل ، حتى صارت
اوى عندنا وزنها ذهباً .

« ومن البديهى أننا كنا على حال بالغة
السوء ، فقد فقدت الفرقة التاسعة عشرة
قوتها الأصلية فى ثلاثة أسابيع ، ولم يبق
لنا الآن إلا حوالى اثنتى عشرة طائرة .
ولكن كان هناك أمر واحد يبعث على
الأمل ، ذلك أنه لم يدمر فى المعارك الجوية
من الأربع والعشرين التى فقدناها ، سوى
اثنتين ليس إلا ، هما طائرتا كولن وجاك
أدمز . أما البقية فدمرت وهى على الأرض ،
وقد تحطمت إحداها على الشاطىء لإنقاذ
من فيها ، لما عجزت عن الأوبة إلى قاعدتها .

« وإنا لنحصى هذه الخسارة ونتساءل
عما عسى أن يحل بنا بعد ذلك ، وإذا بالجنرال
بريرتون يهبط فى المطار ، ثم دعينا على
الفور إلى اجتماع يعقد فى حجرة العمليات .

« وقد أبلغنا أن سلاح الجو التابع
لجيش الولايات المتحدة فى الشرق الأقصى ،
وهو الذى يقوده ، سينقل قاذفاته فوراً إلى
جاوة ، وستكون قاعدته الرئيسية فى مطار
قرب مدينة مالانج ، ومن هناك نعمل من
قواعد أمامية أعدها الهولنديون فى جزائر
بورنيو وسيليبس ، ومن هذه القواعد
الأمامية سيكون همنا موجهاً إلى تحطيم
حشد كبير من سفن النقل اليابانية ، يجتمع
فى خليج دافاو ، على الطرف الجنوبى لجزر
الفليبين .

« وكنا ، وهو يتكلم ، نسائل أنفسنا
عن هذا السلاح الجوى الأمريكى ومبلغ
قوته ، إذا كان سيوكل إليه أن يحطم اليابانيين

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى جزر الفلبين ، ويمنعهم أن يصلوا إلى جزر الهند الهولندية ؟ ولما تبينا أن السلاح الجوى التابع لجيش الولايات المتحـدة فى الشرق الأقصى ، هو نحن ليس إلا ، لم ندر : أنرثى لأنفسنا أم للجنرال بريرتون الذى لا يقود سوى هذه القوة الضئيلة ؟

« غير أنه كان هناك نبأ عظيم لى ، فمذ دمرت الطـائرة رقم ٩٩ بقيت طياراً بلا طائرة ، كأنى شبح يمشى على الأرض — أو رأس بغير بدن — بيد أنه تقرر الآن أن يذهب « لى كوتس » مع الجـنرال ألى بريسبين كضابط مهندس ، وأن أتولى أنا قيادة طائرته ورجالها فى معركة جاوة . فأتيـح لى أخـيراً أن آخذ بثأر الطائرة رقم ٩٩

« وقيل لنا فى الأسبوع التالى، أو حوالى ذلك ، أننا لن نقاتل بعد الآن وحدنا لأن القلاع الطائرة لن تلبث أن تجىء لنجدتنا مجتازة أفريقية وآسيا وشـبه جزيرة مالايا إلى جاوة ، ولن نـكون بغير حماية من المقاتلات، لأن طائرات القتال من طراز ب ٤٠ تنقل بحرا بالسفن . وعلى الجمـلة قيل لنا إن أمريكا قررت أن تلقى بأكثر من ألف طائرة ، فى خلال الأشهر الثلاثة المقبلة ، فى ميدان الشرق الأقصى لتصد اليابانيين عن التقدم .

« فلا عجب إذا كانت نفوسنا قد انتعشت فذهبنا إلى جاوة وقد اعتدلت رءوسنا فوق أكتافنا . وماذا ترى لو كنا لا نزيد على اثنى عشر ضد الإمبراطورية اليابانية كلها إن هذه ليست إلا غمزة من ذبابة الحرب وستجىء البقية قريباً على التحقيق .

« وهكذا طار عشرة منا فى صباح آخر يوم من السنة إلى جاوة ، وآمالهم كبيرة منبسطة ، وكنا واثقين أن سنة ١٩٤١ قد مضت بالأغلاط كلها ، وأن سـنة ١٩٤٢ ستكون مختلفة .

* * *

« والرحلة من أستراليا إلى جاوة تستغرق يوماً كاملا حتى من قلعة طائرة ، ولـكن الجو كان طيباً ، وكنا جميعاً على أحسن حال وكان المحيط عميق الزرقة ، وكنا لا نفتأ نمر بجزائر خضراء يانعـة النبات ، وهى بمثابة نقط وثوب بين آسيا وأستراليا .

« ولعل آخر الجزر كانت أجملها — جزيرة بالى المشهورة، قبل جاوة بقليل .

« أما جاوة فى العصر فكانت من فرط الجمال كما قيل إنها ستكون ، خضرة يانعة كأنفس مخمل لمسته يدك ، إلا حيث يرتمى نور الشمس المنحدرة للمغيب، على مزارع الأرز فتتوهج المياه كالعسجد وسط الوحل الأسود

« وطرنا فوق مرفأ سورابايا الـكبير

إلى مدينة مالانج الصغرى على مسافة ٦٦ ميلا من الأولى ، ومالانج هى قاعدتنا . كان قد قيل لى إن المطار مموه تمويهاً متقناً ، ولكنهم بينوا لى موقعها على الخريطة بدقة ، فلم أجد مشقة فى الاهتداء إليها . وكان التمويه خيراً من كل ما حلمنا فى الفلبين ، وقد صوبت عينى إلى المطار من الارتفاع الذى كنت فيه ، فخيل إلى أنه حقل حنطة يخترقه خط حديدى .

« وما كدنا نهبط حتى كان الفتيان كلهم يحترقون شوقاً إلى زيارة المدينة ، ولكنه كان علينا أن نشهد أولا اجتماع الطيارين المألوف ، وهو اجتماع لا يختلف ولا يتغير فيه شىء ، وليكن القائد من يكون ، آغاً أو يوزباشياً أو بكباشياً — فإنه لابد أن ينهض على قدميه ويروح يلوك كلاماً محفوظاً عما علينا أن نصنعه هنا وهنا ، على حين يكون السامعون لايكادون يستقرون من فرط الرغبة فى زيارة المدينة .

« ولكن هذا الاجتماع لم يبلغ هذا المبلغ من الثقة ، لأننا كنا سنعمل أخيراً ماتدربنا سنوات عديدة عليه بقلاعنا . ومتى جاءت معدات وتدفقت ، فإنه يكون فى وسعنا حينئذ أن نخرج فى أسراب كبيرة ، وأن نلقى من القنابل حملا لا يخفى مدلوله وأثره . بدلا من أن تخرج طائرة واحدة فتنثرهم نثرات ، نخرج لإلغاء ذلك المستطيل الضخم الكثيف من القنابل ، الذى لا يتسنى لسفينة أن تفر منه .

« ثم انتهى الاجتماع ، ووسعنا أن نستقل سيارة المطار لتحملنا إلى مالانج التى كانت مدينة ذهبية فى نظر هؤلاء الرجال ، الذين خاضوا غمار الحرب شهراً ونصف شهر بلا انقطاع . ومما زاد فى قيمة المدينة وقدرها ، أن الحرب لم تدركها ، ففيها المخازن والدكاكين التى تستطيع أن تشترى منها ما تشاء ، ودور السينما والمطاعم .

«وسرنا إلى ردهة « بلاس أوتيل » لتناول العشاء معاً فى ليلة رأس السنة ـ وكان يدير الفندق هولندى هرم بدين أحمر الوجه يسمونه «دى فرين» ، ولكن رجالنا كانوا لا يستطيعون أن يلقوا نظرة على قائمة الطعام لأن بنتيه الجميلتين دخلتا تنسابان فى الحجرة ، وكان شعرها الجميل منفوشاً ، ولم تسلبهما الشمس الاستوائية امتزاج اللونين الأرجوانى والأبيض ، الذى يمتاز به الهولندى . وكانت الفتاتان وهما تقطعان الحجرة تغضان بصرهما حياء وخفراً ، ولا تجودان إلا بأيسر نظرة بمؤخر عيونهما على الطيارين الأمريكيين ، وكان رجالى قد أتعبتهم الرحلة الطويلة ، ولكن هاتين الفتاتين دخلتا ، فكأنما سرى تيار كهربائى فراح كل فتى جالس إلى المائدة

يرفع يديه ليصلح رباط رقبته ، وعادت إلى عيونهم ، اللمعة القديمة .

* * *

« وفى اليوم التالى شرعنا فى العمـل ، وكان المقرر أن نغادر هذه القاعدة الرئيسية فى مالانج ، وأن نطير إلى قاعدتينا الأماميتين سمارندا فى جزيرة بورنيو ، وكندارى فى فى إحـدى جزر سيلبيس . فأما الأولى فواقعة على نهر استوائى ، ولكنا حُذّرنا من الطيران إليها مباشرة ، لأن طائرات الاستطلاع اليابانية قد تلمحنا فتعرف هـذا المطار الأمامى الصغير على الرغم من تمويهه .

« ولهذا كان علينا أن نتقى الطيران إلى مطار سمارندا مباشرة ، وأن نسير فى طريق غير منتظم إلى ساحل بورنيو ، ثم نحلق دقائق فوق النهر ، ثم نهبط إلى ارتفاع منخفض ، وعندئذ نكون فوق المطار ، ونكون أدنى إليه من أن نخطئه على الرغم من التمويه .

« وشىء آخر : إذا التقينا بطائرات قتال تشبه طائرات بروستر المقاتلة الأمريكية ، فيجب أن لا نطلق عليها النار ، وعلينا أن نعطيها إشارة التعريف المتخذة فى ذلك اليوم بمصباح « ألديس » ، لأنها طائرات بروستر حقاً ، وقد اشترتها الحكومة الهولندية قبل الحرب ، ويستعملها الآن طيارون هولنديون ، ويتراوح عددها بين ١٢ و ١٥ .

« وفى ذلك الصـباح استصحبت رجا[لي] الجديدين فى رحـلة تجريبية ، ولم أ[كن] أعرفهم ولا كانوا هم يعرفوننى ، وقد تدر[بوا] طبعاً على أعمال المدفعية فى الولايات المتحد[ة] ولـكن المهمة التى كنا سنقوم بها فى اليو[م] التالى كانت أول صيد لهم بطعم حى ، وفر[ق] بين الأمرين . وقد بينت لهم ما يجب أ[ن] يتطلعوا إليه ، ثم دربتهم على رفع النوا[فذ] الشفافة التى تكون أمام كل مدفع ، وه[و] ما نصنعه دائماً قبل الشروع فى إطلاق النار

« وقد قاموا بالتدريب بروح حسنة ولم يفتنى أنهم يتأملوننى ، وقد تعلمون أ[ن] السلاح الجوى ديمقراطى ، ومتى ارتفع عن الأرض ، فإن الرتبة التى تلمع شارتها [على] كتفك لا تكون لها قيمة تذكر ، إلا إ[ذا] رأى رجالك أنك تجيـد عملك ، وهـ[ذا] ما ينبغى أن يكون .

« وثم أمر آخر : هو أنهم جميعا كا[نوا] شديدى التعلق بطيارهم السابق ، وأحسب[ه] هو أيضاً كان يشعر لهم بمثل ما كنت أش[عر] به لرجالى فى الطائرة رقم ٩٩ ، ومهما يك[ن] من ذلك ، فإن الذى حدث هو أننا [لما] كنا فى الجو نعين لكل رجل مكانه فى و[قت] القتال ، ونطلق بعض الطلقات للتدريب [،] التفت إلىّ الشاويش شارل ، وهو رئيس جماعتى ، وقال لى وهو يحدق فىّ :

« لعلك تعلم يا سيدى اللازم أنه كان لنا
ار لا أعرف من هو خير منه فى أية
ئرة » . وكان هـذا صحيحاً ولا شك ،
ـكن هذا لم يكن وقعه حسناً فى نفسى ،
يكن شارل يريد أن يسرنى . غير أن
، دواعى ارتياحى أنه بعد الرحلة الثانية
ءنى وقال لى إنه خرج عن طوره قليلا .

« وفى اليوم التالى خرجنا إلى بحر جاوة
جهين إلى بورنيو ، واسترشدنا بتعلماتنا
جدنا نهراً كالذى حدثونا عنه ، واهتدينا
العصر إلى مطار سمارندا ، وكان تمويهه
ـ ما رأيت ، وخيراً من التمويه فى مالانج ،
فى الفلبين فلم يتسع الوقت للتمويه .
ـا دنونا من الأرض رأينا المطار مغطى
ـمير خشبية ، تودى بأية طائرة تحاول أن
ل بينها ، فإذا طفت بالمطار من فوقه ،
ـت جمعاً من الأهالى يجرون ويرفعون
ه الحمر الخشبية ، ويزحزحونها عن المدرج
ى ستهبط فوقه . ومتى بلغت الأرض
روا إلى تغطية المدرج من خلفك بهذه
ر . ذلك أنهم كانوا يتقون أن يغافلهم
ابانيون وينزلوا خلسة فى المطار ، فأعجبنا
ـؤلاء الهولنديين ، فقد فعلوا كل ما يدخل
الطوق للدفاع عن جزرهم ، ولم يتركوا
ـاً يسع أمة عزلاء .

« وبينما نحن نمضى بطائرتنا إلى مكانها ، أقبلت ممرضة هولندية وسيمة فى ثياب بيضاء مكوية ، ونظرت إلينا نظرة فى طيها القلق والأمل ، كأنما كانت تخشى أن تكون طائرات زيرو قد ضربتنا وجرحت بعضنا ، وكانت تجيد الكلام بالإنجليزية ، وقد تطوعت للعمل فى قلب هذه الأدغال الحامية ، لما علمت أن الأمريكيين سيستخدمون هذا المطار . وسرعان ما تبين الرجال أنها حصان جادَّة ، وكانت إلى هذا ظريفة أنيسة وكفؤاً لعملها وذكية أريبة . وكان من بواعث سرورنا أن نعلم أننا سنجدها فى انتظارنا فى المطار إلى جانب سيارة الإسعاف المفتوحة الأبواب إذا أصابت أحدنا رصاصة يابانية .

« وشهدنا اجتماع الطيارين ، وفيه رسمت الخطة للغارة على خليج دافاو . وكنا نعلم أنها رحلة طويلة فى الذهاب والإياب ، وأن الهدف أقوى تحصيناً مما رأينا حتى فى جنوبى فورموزا نفسها . وكان مما أمضَّنا أن هذا الهدف اليابانى الحصين قائم فى أرضنا الفليبينية ، حيث لا يزال جنودنا يقاتلون ، بل كان على نفس جزيرة منداناو التى يقوم فيها مطار ديل مونتى . ففيم الإرجاء والتسويف ؟ فلنذهب إليهم لنعجنهم .

« وبعد منتصف الليل بقليل كنا فى طريقنا إلى غايتنا ، وقد قيل لنا إن الجو سيكون رديئاً فوق البحر ، فكان ما قالوا .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكنت أنا ومساعدي كولوفن نتبادل القيادة وعيوننا تدمع وتتأذى من فرط التحديق من خلال النافذة ، في الأضواء الخضراء التي في ذيول الطائرات المتقدمة ، وكان السرب يطير بين سحاب متقطع ، ولكننا في الليل لا نرى ذلك ، وكل ما نعلمه هو أن الأنوار التي نراها تختفي فجأة ، لأن الضباب يحجبها ثم تعود فتظهر فجأة . وحوالي الساعة الرابعة صباحاً ، أمرت رجالي في الطائرة أن يطفئوا سجايرهم لأننا سنملأ خزان البنزين من الخزانات الاحتياطية ، وقام رئيسهم الشاويش شارل بإدارة الصمامين اللذين يسمحان بأن يمتص البنزين الذي في الخزانات الموضوعة على الرفوف في ردهة القنابل ، إلى الخزانين المركبين على الجناحين . وقد نضطر إذا أصابتنا طائرة زيرو أن نرمي هذه الخزانات الاحتياطية ، وسنحتاج إلى كل قطرة من هذا البنزين الثمين ، إذا أردنا أن نعود من هذه الرحلة الطويلة .

« وكانت الخطة أن نضرب دافاو في الفجر ، وكنت أتساءل هل يستطيع ملاحونا أن يبلغونا جميعاً هدفنا في الوقت المعين ؟ لأننا إذا تأخرنا كنا حريين أن نلتقي بدوريات الفجر من المقاتلات اليابانية ، وأن نجدها فوقنا في انتظارنا ، وإذا وصلنا قبل الأوان ، فقد نحتاج إلى التطويف نحو ساعة حتى يطلع الفجر ، ويتسنى لنا أن نر الهدف ، وفي هذه الحالة قد لا يكون في بعض الطائرات من البنزين ما يكفي للانتظا إلى الصباح، فيضطرون إلى الرجوع ، فتكو الطائرات الباقية لضرب الهدف أقل م الكفاية للأمن .

« وبدأ الجو يصفو ، وكان سربنا يط على هيئة الدال ، وكنت أنا في المؤخرة م جيم كونالاي ، وهذا وضع ثقيل ، لأن معظ الهجمات اليابانية في ذلك الوقت كانت تأ من المؤخرة .

« وكنا نرقى في الجو باطراد . بضـ مئات من الأقدام في الدقيقة ، فبدأ البر يشتد ، فطلبت من الشاويش أن يطلق الحرارة ، ودعوت إليه في سري أن لا تخذ الحرارة في ليلتنا هذه حين نفتقر إليها فليس أسوأ من أن تغير على الهدف وبك خدر من البرد ، وينبغي أن تكون أصاب القاذف دافئة ومنمّلة كأصابع العازف على الكمان ، إذا كان يريد أن يصيب هدفه وأصابعه مضافاً إليها حسن قيادتي — وهو ما ينبغي أن أتكفل به وأكفله — هو التي يعول عليها في إحكام الرماية . وقد نستطيع أن نغرق سفينة نقل وعليها بضع آلاف من اليابانيين .

وبدأ النور يفيض قليلا ، وبدت النجو

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ة ، ومعنى هذا أن الفجر قريب . فرحت
كر فى طائرات اليابانيين المقاتلة ، ولم يقل
. شيئاً ، ولكنى كنت أعرف أن رجالى
كرون فى هذا أيضاً ، فهل ترى يعرف
انيون أننا قادمون ؟ إن لهم طريقة
ون بها الطائرات المائية الكبيرة فى أنحاء
عدة فى البحار ، وترى هذه الطائرات
ى الماء كأنها الطيور ، فإذا سمعت أزيز
كاتنا بعثت باللاسلكى تحذيراً إلى القاعدة
بانية . وعسى أن نكون قد مررنا فوق
ن هذه الطائرات، ولعل المقاتلات اليابانية
ق الآن فى الهواء خارجة من دافاو
لة علينا .

« وصرنا على ارتفاع ٣٠,٠٠٠ قدم ولم
ن بيننا وبين الهدف سوى عشرين دقيقة ،
رت رجالى أن يتخذوا مواقفهم . وعلى
غم من التوتر المتزايد شعرنا بالراحة لأننا
شرع فى العمل قريباً . وقد صفا الجو
ه الحمد ، وبدأ الفجر يطلع ،وفرغنا من
ر ودخلنا فوق الأرض ، أرض
داناو ، وقد نستطيع إذا أسقطت
ترتنا أن نفلت من بعض هؤلاء الثلاثين
أ من اليابانيين المقيمين حول مدينة دافاو ،
لذين نطير فوق مزارعهم . وقد نستطيع
، نزحف من خلال النبات إلى مطار ديل
تى الذى لا يزال فى أيدى الأمريكيين .

« وكان قائدنا سيسيل كومز ، وكان يسير بنا بسرعة ٣٠٠ ميل فى الساعة . فلماذا نكلف محركاتنا كل هذا الجهد ؟ ألا ينبغى أن نريحها وندخر قوتها ؟ ولكن لعل سيسيل على حق ، فإنه يريد أن يسرع وهو يضرب الهدف، ويجتاز منطقته، وينقذ رجاله وطياراته ولو بإرهاق الآلات .

« وبلغنا نقطة متفقاً عليها من قبل، وعلينا فيها أن ننثنى مقدار ١٢٠ درجة ونمضى إلى دافاو مباشرة . وإنى لأنثنى انثناء حاداً وإذا بى أبصر الهدف للمرة الأولى ، والعادة أن لا يراه الطيار رؤية مفصلة ، فإنه وهو فى مقعده لا يرى إلا السماء والأفق البعيد . وقاذف القنابل هو الذى يستطيع أن ينظر إلى ما تحته ، وهو الذى يوجه الطائرة إلى تلك النقطة الصغيرة التى سنهاجمها ، وهى تبدو كرأس الدبوس . ولكنى الآن ، وقد ارتفع أحد جناحى جداً ، أستطيع أن ألمح من خلال النافذة الجانبية المائلة — والمدينة ما زالت نائمة ، وخليج دافاو كالفضة من نور الفجر ، ويا ما أحلى هذا المنظر ! سفينة كبيرة بعيدة من الشاطىء ، تحيط بها مدمرات تحميها ، وهى جميعاً لا حركة بها . ألا لقد داهمناهم وهم نيام يغطون وهذا ما كنا نبغى .

« ولكن تغييراً حدث ، فقد سمعت من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

تليفونى الداخلى « ستون » ، قاذف القنابل فى الطـائرة القائدة ، يقول لـكومز الذى يقودنا :

« هل تسمح بأن ندور ؟ إنى أرى هدفنا الحقيقى الآن » .

« فوقف كومز ، وملنا مرة أخرى واتجهنا على ما يظهر إلى ميناء دافاو الداخلى ، وأتيح لى مرة أخرى أن أرى ما تحتى ، ففهمت سبب التغيير ، فقد كان هناك أكبر حشد من السفن رأيته فى حياتى — من بوارج ، وطرادات وناقلات وغواصات ومدمرات ، وكلها منشورة على الماء ، ومتقاربة مع كثرتها بحيث لا يمكن أن نخطىء . وجاء وقت القذف ، فأنا أعـدل الطائرة وأكسبها الاتزان ، طبقاً لآلة التوجيه التى عند الطيار ، وهذا جهاز لاترون أنتم فيه أكثر من إبرة تختلج وتضطرب على اللوح ، ولكنه متصـل بمنظار قاذف القنـابل فى القسم الأسفل ، وكلما تحركت أصابع القاذف الحساسة قليلا على آلاته ، سجل الجهاز هذه الحركة بفضل هـذه الإبرة . وأنا لا أرى الهدف ، ولكنى أتبع ما تشـير به الإبرة فلا أخطىء .

« وبدأت أعصابنا تتوتر ، فأنا أنظر بسرعة إلى ما أمامى ، فأرى سيسيل كومز يطير فوق الهدف . ولما كنا فى المؤخرة ، فإن سيسيل منى على مسافة تسعة أميال وقلعته الطائرة لا تبدو أكبر من طير وهذه السماء أمامى ملأى بنفخات من الهبا[ء] الأسود من المدافع المضادة ، وهو يكو[ن] طبقة سوداء فوقه ، فقد أبعـد اليابانيو[ن] مرماهم قليلا ليصيدوا سيسيل ، ولكنى كن[ت] أعرف أنى بعد ثوان قليلة سأرى هذه الدا[ئرة] عن كثب ، ودعوت الله أن لا يخطى[ء] القاذف الذى فى طائرة سيسيل ، وقلت لنفسى « ألقها عليهم يا ستون ! ألقها يا فتى ! »

« ولـكن هذا الفتى لايخطىء ، فإنه م[ن] خير القاذفين ، وإنه الآن ليهيئ لليابانيي[ن] مثل صنيعهم ببيرل هاربر . فقد كان الهد[ف] هنا شبيها به هناك ، ســوى أنه لم يكن ل[نا] سوى عشر طائرات نغير بها ، أما اليابانيو[ن] فضربوا هاواى بعشرات وعشرات .

« وكانت سماعات التليفون تقرقر م[ن] جراء لغط رجال الدفعية الرشاشة ، وكله[م] يتطلع من النافذة حذراً من إقبال طائرا[ت] زيرو . وكانت مهمتى أن أتقيد بما تأمر ب[ه] الإبرة ، وأن أوجه طائرتى طبقاً لها ، وينبغ[ى] أن يكون التوقيت دقيقاً محكما كما يكو[ن] بين اثنين من العازفين على الـكمان[؛] فالقاذف فى طائرتى يحتاج إلى خفـة لمس العازف ، وأنا لا بد أن أتبعه بمثل هذه الخف[ة] فى لمس الدفة . فإذا اضطرب وحرك آلا[ته]

أبعد مما ينبغي، فإني أنا أيضاً أطيع الإبرة
بدفع الدفة إلى أبعد مما يجب ، فتخرج
ائرة عن نهجها .

« وتمتمت : « لكأني أسأل الله أن
يفعل ذلك ، هيا يا صاحبي لا تبالغ
الإحكام » .

« والآن أخاطر برفع عيني هنيهة عن
رة لألقي نظرة على ما أمامي، فأرى الطائرة
نية تدخل في نطاق الهدف ، وتجتاز خط
ف . وكانت المدافع المضادة قد أبعدت
ن ، فالآن صارت قذائفها تنفجر تحت
ئرة ، ومعنى هذا أنهم يتوخون أن
روننا بين قوسين من النيران، ومتى جاء
كان التسديد محكماً .

« وإني لفي هذا ، وإذا بي أسمع المدفعي
يح بالتليفون :
ر طائرات القتال صاعدة إلينا من جهة
ل » ، ولم أكن أستطيع أن أراها
ذ ولكني كنت أسمع رجال المدافع
تي يقولون: « أنها تصعد في خط حلزوني
ل بطيء كالنحل خارجاً من عشه ،
تصعد عمودياً تقريباً، حتى لتستطيع أن
بطونها وكأنها معلقة من مراوحها » .

« ومالي أنا بهم؟ إن هذا شأن المدفعيين،
بأني أنا فرهون بشأن قاذف القنابل .
ت طلقات المدافع المضادة في مستوانا
ولقد استطاعت أن تحصرنا بين قوسين ،
وسيكون على أن أدفع بالطائرة في هذا
الجحيم، إذا أردنا أن نظل على مجرى القذف
وهذا ما لا مفر منه .

« ثم تثور ثائرتي ، فإن كتبنا المدرسية
تقول إن المدافع اليابانية المضادة لا تستطيع
أن تصيب شيئاً على ارتفاع يتجاوز ١٨٫٠٠٠
قدم . وها نحن أولاء على ضعف هذا
الارتفاع تقريباً والقذائف تصل إلى مستوانا

« وإني لكذلك وإذا بأنف الطائرة
يرتفع فجأة ويميل إلى الشمال ، وما كدت
أردها إلى الاستواء، حتى حاولت أن تنثني
مرة أخرى . وكان السبب راجعاً إلى انفجار
القذائف — وفي هذه الحالة تحدث موجات
خفية من الهواء مع كل انفجار — فالطائرة
الآن ترتج كأنها طراز قديم من سيارة
فورد فوق طريق وعر . وقد جعلت الإبرة
قيد نظري ، ودعوت الله أن يوفق القاذف .

« وفي هذه اللحظة تلقيت منه إشارة،
وفتحت أبواب مستودع القنابل ، وأحسست
بالوطأة الخفيفة على الطائرة، ثم سمعت الإشارة
المزدوجة التي معناها أنه يقول: « امض على
استواء يافرنك من فضلك » ، ولا أجيبه
إلا بقدمي ضاغطتين برفق على الدفة ، وأهيء
له ذلك الاستواء التام الذي ينشده ، لأن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

نصف درجة هنـا معناه خطأ يبلغ مئات الأقدام على الأرض .

« وأخيرا يضئ النـور الكهربائى على اللوح أمامى ، ومعنى هذا أن القاذف يلقى فعلا قنابله واحدة واحـدة — وهى أربع ضخام زرق زنة الواحدة سـتمائة رطل ، يرميها وبين كل اثنتين نصف ثانيـة — وتظل قدماى على الدفة برفق حتى لتكاد لا تلمسها .

« ثم نادى : « ألقيت القنابل » وفى هذه اللحظة نفرغ من العمل للحكومة، ونشرع فى العمل فى سبيل زوجاتنا وأسرنا ، لأن هذا معناه أن آخر قنبلة قد رميت ، فهمنا بعـد ذلك أن نعود سالمين ، وإن كان لك أن تقول إن هذا يعنى الحكومة أيضاً ، من جراء المال الذى أنفقته على تدريبنا نحن التسعة ، ولأننا فى طيارتها ، وهى تساوى ثلث مليون ريال .

« غير أن همنا الآن كما قلت هو العودة ، فأستخدم كل ذرة من القوة لدينا ، وأنقض انقضاضاً جانبياً لأكتسب السرعة، وأحاول أن أفر من طائرات زيرو .

« وطائراتنا جميعاً تتدانى وتتجمع لتكون مربأ متماسكا غـير متفكك ، ولتكون قوة نيراننا المجتمعة أفتك بطـائرات زيرو التى تلاحقنا . وعلى الطـائرة القائدة أن تتريث لأستطيع أنا وجيم أن ندركها .

« وكنا لا نزال نتساءل عن طـائرات القتال أين هى ، فهل تستطيع الطـائرات القاتلة التى رأيناها كالمعلقة من مراوحها فوق دافاو أن تدركنا ؟ وهل عنـدها طـائرات أخرى فى الجو ستتعرض لنا فى طريق خروجنا ؟ ولاحظوا أنى لا أقول «فى طريقنا إلى قاعدتنا» ، لأنا غير متجهين إلى هذه الناحية ، فقد كنا واثقين أن بعض طائرات من طراز زيرو ، قد أرسلت وكلفت أن تطير تحتنا لتراقبنا وتعرف إلى أين نذهب، فإذا عرفت فإن قاعدتنا لا تلبث أن تضرب بعد بضعة أيام . فما دام من المحتمل أن تكون طـائرات المراقبة تحتنا ، فنحن نتبع طريقا غير منتظم .

« والآن بعدنا حتى صارت طائرات زيرو مضطرة إلى العودة ، ومن أجل هذا شرعنا فى الهبوط إلى ارتفاع أدنى ، ليتسنى للرجال أن ينزعوا أقنعة الأوكسـيجين ، ويشعلوا سجايرهم ، وحينئذ يتولى رئيس الرجال توزيع الساندويتش والقهوة الساخنـة ولست أظن مذاقهـا يحلو ويطيب كما يحلو فى هذا الوقت . ولست أدخن ولكنه كان يسرنى أن أشم رائحته ، وأعرف أن الذين معى فى راحة .

« ودعوت القاذف والملاح أن يصعدا

ـثانى بما صنعا باليابانيين ، ففعلا وهما ـيان القهوة ويمضغان الساندويتش .

« قالا إنه كان منظراً يستحق أن يرى ، استطاعت بضع طرادات ومدمرات ة أن تسير وتخرج ، وكانت وهى تفعل تتعرج لتتقى القنابل . وفيما خلا هذه ن القليلة ، داهمنا اليابانيين وهم فى غفلة ، كان عدد طائراتنا أكبر لنسفنا جانباً الأسطول اليابانى لا يفيق بعده أبداً .

« وقد رأينا أربع إصابات مباشرة على يابانية ، وشاهدنا حطاماً يتطاير فى كل ، والدخان يتصاعد . وفضلا عن هذا ن سربنا ثلاث سفن أصغر — طرادين ة — وقد رأينا إحدى السفن تميل ، وأخرى يرتفع مقدمها فى الهواء جراء إصابة مباشرة فى مؤخرتها ، وقد غرقت قبل أن تغيب عن أنظارنا .

« وقالا إن قنابلنا قد تركت المنطقة كلها بيضاء من الزبد ، وإن آلافاً من رجال البحر الحاذقين لا بد أن يكونوا قد قتلوا أو جرحوا ، وإننا دمرنا الأرصفة .

« ونزلنا فى سمارندا قبل الغداء بقليل ، وهذه هى الفتاة الهولندية الرائعة تنتظرنا ، وأحلى ما سمعت من الأصوات فى ذلك اليوم هو صوت أبواب سيارة الإسعاف تغلق ، لتعود من حيث جاءت فارغة ، حين قلنا لهم إنه لم يصب أحد .

«ولعل أملكم خاب، لأنه لم يحدث شىء أكثر استثارة للعواطف، ولم يقتل أحد ؟ أما نحن فلا ! لقد قمنا بمهمتنا ، وعدنا أحياء، وهذا أعظم مايحرك النفس إذا كنت تخوض المعركة ولست تقرأ عنها فحسب ! »

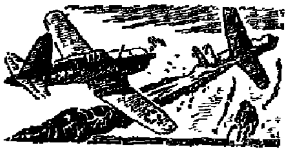

وقعت فى لسانه

كان جورج برنارد شو مدعواً إلى حفلة خيرية ، فرأى أن ينهض بما ينتظر منه ، فدعا سيدة نبيلة كبيرة السن إلى الرقص ، وفى أثناء الرقص سألته ، وفى لهجتها مزيج من الدلال والفخر : قل لى يا مستر شو ماذا حملك على مراقصة مسكينة مثلى ؟

فجاءها الرد فى الحال « أليست حفلة خيرية ؟ ! »

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

باب الكتب

باريس ... تحت الأرض

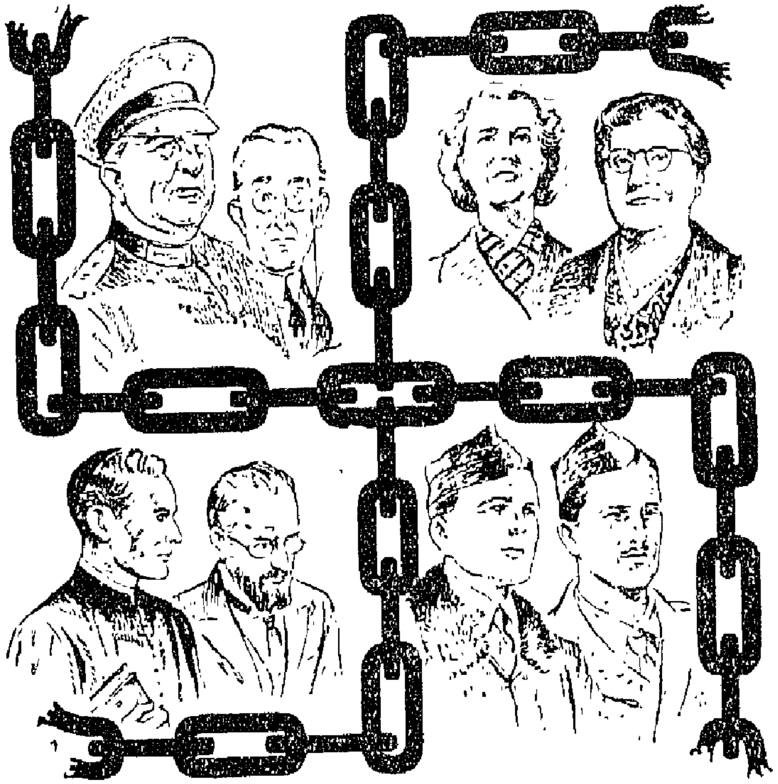

ملخصة عن كتاب بقلم إيتا شيبر

كتبت دوروثى كانفيلد تقول :

« إن هذا السجل الذى يستولى على هوى القارئ ، لتجارب امرأتين ضد الجستابو ، وهذه البطولة المؤثرة لملايين من صغار الناس فى فرنسا ، ليست حقيقية واقعية فحسب ، بل هى ترن فى الأذن رنين الصدق . وقد توخت المؤلفة أن تقتصر على تدوين ما حدث من غير أن تتكلف أية محاولة لتوشية الحقائق ، أو أن تجعل من نفسها بطلة ، ولكنها بطلة مغامرات يقف لها الشعر . ولا ينبغى أن يفوت أى أحد أن يطلع على هذه القصة المدهشة ، قصة البسالة والإقدام والتضحية بالذات . وما من أحد يستطيع أن ينساها » .

ويقول الناشرون إن الحقائق الأساسية فى هذا الكتاب ثابتة فى السجلات . وقد غيرت بعض الأسماء والتفاصيل التى يجهلها الجستابو أو حذفت لأسباب بديهية .

وكتاب « باريس — تحت الأرض » من مختارات نادى « كتاب الشهر » لشهر أكتوبر .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

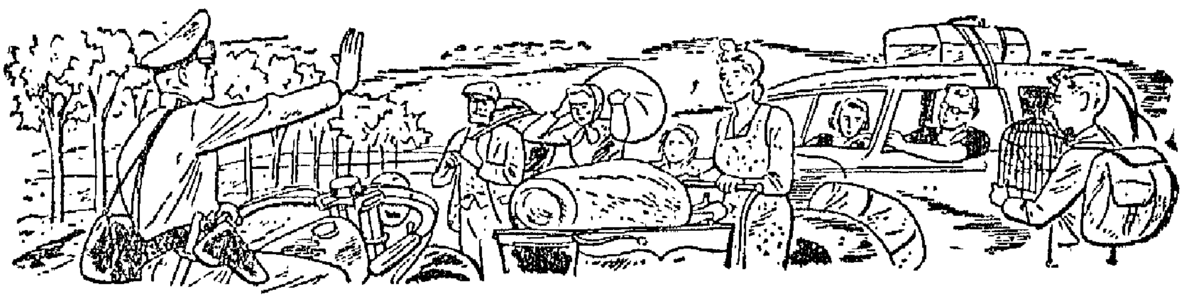

لم أقل كلمة وداع لأوربا . وكنت فى جوف الباخرة — فى غرفتى — لما بدأت تتحرك ، ولا بد أن آلاتها ظلت تدور زمنا قبل أن أشعر بنبضها المكتوم ، فأسرعت فصعدت إلى ظهر الباخرة . وكان شاطىء البرتغال قد غاب عن النظر فى غبش المساء ، وصارت الباخرة تسرى وحدها فى وهج ساطع من النور ، وقد أضاءت المصابيح القوية الأحرف السود المخطوطة على هيكلها الأبيض : « دبلوماسى — دروتننجهام — دبلوماسى »

وكنت فى طريقى إلى وطنى بعد أن لبثت فى سجن نازى أكثر من عام . فقد فتح فى مكان ما ، فى الولايات المتحدة باب سجن وأطلق سراح سجين ألمانى ، كنت أنا بدلاً له .

وأخبرنى « ويلى » قنصل الولايات المتحدة فى لشبونة أن السجين الذى أفرج عنه بدلاً لى هى « جوهانا هوفمان » حلاقة الباخرة الألمانية « بريمن » ، وقد حكم عليها بالسجن فى سنة ١٩٣٨ ، بعد أن ثبت أنها عضو فى عصابة ألمانية خطرة للتجسس تعمل فى الولايات المتحدة .

فهل كان إطلاق سراحى يستحق مثل هذه التضحية ؟

أجاب عن هذا السؤال موظف فى القنصلية الأمريكية بلشبونة فقال لى : « يا عزيزتى السيدة شيبر ، إن وزارة الخارجية تعلم علماً تاماً ما فعلت فى باريس . ولنفرض أن البريطانيين فى الحرب الماضية تيسر لهم أن يبادلوا بإديث كافيل ؟ أنت ، على كل حال إديث كافيل فى هذه الحرب » .

فلم يسعنى أن أدع هذا القول يمر بلا اعتراض وقلت : « كلا لست مثلها ، ولكن لعل صديقتى العزيزة كيتى كانت كذلك ، فإن ما عسى أن يكون هناك من فضل فيما صنعنا يرجع إليها ، وإنما كنت أتبعها فى حيثما تقود ، وقد دفعت هى وحدها الثمن ، فما زالت بين أيدى الجستابو إذا كانت حية ، أو لعلها ماتت إذا كان الحكم الذى قضى به عليها قد نفذ . نعم ، كيتى بوربيو هى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

التى كانت خليقة أن تقوم فى هـذه الحرب مقام إديث كافيل » .

***

قابلت كيتى فى سنة ١٩٢٥ فى إحدى رحلاتى السنوية إلى باريس ، وهى بنت أحد رجال المصارف فى لندن ، وقد تزوجت تاجر نبيـذ فرنسى اسمه هنرى بوريبو ، وانفصلت عنـه وفارقته على قاعدة ودية تماماً . وكانت من الوجهة المالية مستقلة وفى سعة من الرزق ، ولكنها أرادت أن تشغل فراغها بعمل ما ، ففتحت دكان ثياب فى شارع روديبه ، وفيه لقيتها فنشأت بيننا صداقة وثيقة .

وفى سنة ١٩٣٣ لما مات أخى إرفنج فجأة فى باريس ، تولت كيتى الأمر عنى فى هذه المحنة المباغتة ورتبت أمر دفنه فى مقبرة الأب لاسيز . ثم بعد ثلاث سنوات ، يوم مات زوجى أبرقت إلى تدعونى أن أعيش معها فى باريس ، وكان فقد الرجال من أهلى قد أورثنى الحيرة ، فما بقى لى من يتولى أمرى ، فأبرقت إليها شاكرة أنى آتية .

واستقر بنا المقام معاً فى شقتها الحديثة الوثيرة ، وتشاركنا فى حيـاة طيبة كانت مواردنا المعتدلة كافية لها .

وكانت نهاية حياتنا فى هذا البرج العاجى ذات يوم قبل أن يدخل النازى باريس — ١٣ يونية سنة ١٩٤٠ . وكنا قد أخلدنا إلى الاعتقاد بأن الفرنسيين — كما قال رئيس الوزارة بول رينو — سيدافعون عن باريس بيتاً بيتاً ، فأهملنا الإشاعات الملحة والذعر المتزايد ، ولكننا فى ذلك اليوم ، لما لم تظفر طلباتنا التليفونية المتكررة لأصدقائنا ، بجواب ، تنبهنا وأدركنا أن الجميع قد فروا .

وقلت وأنا لا أزال غـير مصـدقة : « سأطلب السفارة الأمريكية ، وسأعرف منها هل ينوى الألمانيون أو لاينوون أن يحاصروا باريس » .

فأجابنى صوت مذعور : « أما زلت فى المدينة ؟ ألا تعرفين أن الحكومة انتقلت إلى تور ؟ إن الألمانيين سيكونون فى باريس بعد ساعات ! » .

فجمعنا ماوسعنا جمعه من متاعنا وبنا مثل الخبل الأعمى ، ووضعناه فى سيارتنا وفررنا.

ولكنا كنا قد تأخرنا أكثر مما ينبغى فقد ألفينا الطريق روت ناسيونال رقم ٢٠ الذى يصل باريس بجنوبى فرنسا أضيق من أن يحتمل تيار الإنسانية المذعورة ، الذى كان يحاول أن ينحدر إلى حيث يكون آمناً . وكان هنـاك آلاف مؤلفة من اللاجئين ، فى السيارات ، وعلى الأقدام ، وعلى الدراجات يسدون الطريق فى وجهنا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مسافة مائتى ميل ولا يكادون يتحركون ، وفى صباح اليوم التالى كنا لا نزال فى مشارف المدينـة ، وعلمنا أن الألمـانيين دخلوا باريس .

وقالت كيتى فجأة : « إذا وصلنا مرة أخرى إلى مفرق طرق فسأعدل عن هذه السكة الملعونة ، وآخذ فى الحقول وأستعمل الطرق الخلفية » .

وكان أول مفرق ليس أكثر من سكة قذرة تتعرج بين الحقول المحروثة ، ولـكنه كان جافاً صلباً ، فاستطعنا أن نقطع أربعين ميلا فى الساعة .

ثم هوت الضربة ! ! فقد كان الطريق أمامنا غاصاً بالسيارات المقبلة علينا ! ! ولمـا بلغتنا السيارات الأولى صاح بنـا الناس : « ارجعا ! ارجعا ! إن الألمانيين وراءنا ! »

وأدركنا الليل لمـا دنونا من الطريق العام . وكنا على مسافة مائة ياردة منه حين سمعنا طنيناً خافتاً ما لبث أن صار عجيجاً فظيعاً فوق رءوسنا ، فوقفت كيتى السيارة وقفة رجتها .

وكنا نستطيع أن نرى جرم الطيارة الأسود فى جو السماء المعتمـة ، واللهب المنبعث من أفواه مدافعها الرشاشـة وهى تصب الموت على الصفوف التى وقعت فى الفخ على الأرض .

وخلا الطريق فى ثوان . فقد ذهب سـائقو السـيارات المذعورون يخرجون بسياراتهم عن الطريق ، ويلقون بها على الأشـجار أو فى الحفـر ، فانقلب بعضها وخرج ركابها منها وجروا ، ولم يبق سوى قليل من السيارات على الطريق وركابها لا حراك بهم ، وكانوا لم يلحقوا بالفارين فزعين من الطريق ، لأنهم قتلوا .

ولما غابت الطائرة وانقطع صوتها شرع الرجال والنساء يخرجون من الحفر على حذر ، ووقف بعضهم حائرين لا يدرون إلى أين يمضون . وكانوا قبل ذلك قد خرجوا على وجوههم إلى أى مكان فرارا من الخطر الذى كان وراءهم . فالآن أدركهم الذى كانوا يفرون منه ، فصاروا كأنهم فى شرك ، ولا مكان يذهبون إليه ، ولا شيء يصنعونه ، وقد وقعنا نحن مثلهم فى الشرك .

وتأدى إلينا فى الظلام صوت سيارات عدة ، وإذا بالجيش الألمانى قد أقبل كالسيل وجاء أولا راكبو الموتوسـيكلات من الجنود يسرعون إلى الجنوب وهم أتم ما يكونون اطمئناناً إلى أن الطائرات التى سبقتهم قد اجتاحت الطريق واكتسحته وأخلته ، ثم تلتهم السيارات المصفحة الخفيفة ثم أقبلت الدبابات تعج على الطريق الرئيسى من المفارق مجتازة الحقول . وكانت تبدو

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كأنها فى كل مكان ، وأن لها ملك الأرض جميعاً ، وكان راكبو الموتوسيكلات يخرجون كل مائتى ياردة على نسق منتظم من وراء الجيش الزاحف ، ويقفون ويتولون أمر المدنيين .

وأقبل علينا الذى كان أقرب إلينا وقال بلغة فرنسية صحيحة : « ستعودان إلى باريس » .

فقالت كيتى متوسلة : « ولكنا نريد أن نذهب إلى نيس ! » .

وكانت عبارة الجندى الألمانى مؤدبة ، ولكنه كان على شفتيه التهكم وهو يقول : « هذه وجهتنا نحن ياسيدتى ، أما أنتما فتعودان إلى باريس » .

فمضينا بسيارتنا إلى الطريق العام ، وبعد ساعات وقفنا أمام فندق وقد أنهكنا التعب وكدنا نسقط من الإعياء ، ولكن صاحب الفندق ، وكان واقفاً فى مدخل الباب ، أشار إلينا أن اذهبوا وقال : « ليس عندى شئ أقدمه لكم ، وقد مر بى مليون من الخلق فى اليومين الماضيين » .

فقالت كيتى وهى تفتر له عن أعذب ابتساماتها : « يكفينا فنجان من الشاى » ودخلت وجلست .

وفعلت الابتسامة فعلها ، فأوصد الرجل بابه وقدم لنا الشاى ، وزاد فأعطانا قطعة صغيرة من اللحم المقدد ، وقليلا من الجبن .

وسألنا بلهجة المهتم : « إنجليزيتان ؟ إذن يسعكما ان تصنعا لى شيئاً ، فإن عندى هنا رجلا لا يتكلم غير الإنجليزية . فاصنعا معروفا وقولا له إنه سيورثنى متاعب إذا بقى هنا .. إنى آسف جداً » ، وأخرج من غرفة داخلية شاباً مديد القامة ، عليه معطف من الجلد فوق البدلة الزرقاء الرمادية التى يلبسها رجال الطيران البريطانى الملكى .

وحدثنا الشاب أن اسمه وليم جراى ، وأنه طيار ، وأنه سقط عند دنكرك ولم يتيسر له أن يصل إلى سفن الجلاء ، وقال لنا بلهجة المعتذر : « إذا تفضلتما فرجوتما من صاحبنا هذا أن يعطينى ثياباً مدنية ، فإن فى وسعى أن أعنى بنفسى » . فترجمت كيتى كلامه .

فصاح رب الفندق : « يالها من حماقة ! إنه إذا كان فى ثياب مدنية فإن الألمانيين يستطيعون أن يرموه بالرصاص على أنه جاسوس ، أما وهو فى بذلته العسكرية فإنه يعامل معاملة أسرى الحرب » .

وجلس جراى ساكناً هنيهة ، ثم نهض وعلى فمه ابتسامة المرتبك .

وقال : « يحسن بى أن أخرج من هنا حتى لا أورط أحداً . فهل لك أن تسأليه عن حسابى لأؤديه له ؟ » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فضغطت ذراع كيتى وهمست فى أذنها : « لا تدعيــه يذهب . ألم تلاحظى أن به مشابه كثيرة من أرفنج المسكين لما كان فى العشرين من عمره ؟ » ، وكانت كيتى تعرف أخى حق المعرفة : « إن سيارتنا على البـاب وفى وسعنا أن نخبئــه فى مكان الحقائب » . وكان مكان الحقائب فى سيارة كيتى يفتح من الداخــل لا من الخارج ، وكان وراء المقعد الخلفى ، فلو استوقفنا الألمانيون فى الطريق فإن من المستبعد أن يبحثوا عن أحد مختبئ فى هذا الصندوق .

وأشرق وجـه كيتى وقالت : « اسمع يامستر جراى . إن لى كلاماً معك » .

وهكذا أقدمنا نحن السيدتين النصفين فى أرض الأعـداء ومعنا طيار إنجليزى ، على مغامرة كانت خليقة أن تبدو لنا قبل ساعات قليلة فقط خيالية خرقاء .

* * *

وقضينا الليل كله فى الوصول إلى باريس ، وانعصر قلبي حين رأيت برج إيفل مرة أخرى . فقد كان علم الصليب المعقوف يخفق فوقه ، ودرنا حول القوس ووقفنا أمام البيت رقم ٢ بشارع بالنى دافريكور — بيتنا ! .

فقلت وأنا أبلع ريقى : « هل أخرج أنا أولا ؟ » وكنت أتوهم أنى أرى النازيين فى كل مكان متربصين للوثوب على .

فقالت كيتى همساً : « مهلا ! » .

وأقبل جماعة من الحراس الألمانيين محيطين بجندى فرنسى ، فلما اختفوا وراء ركن التفتت كيتى إلى مكان الحقائب وقالت : « يا مستر جراى ! » .

فجاء صوته المكتوم يقول : « نعم ؟ » .

قالت : « ستخرج الآن ، فزرّ معطفك فوق ردائك واتبعنا ، وأرسل نفسك على السجية ولا تتردد . هيا بنا » .

ولم نر أحداً فى الردهة ، واتفق للمرة الأولى أن كان المصعد خالياً وعلى الطبقة الأرضية ، فأسرعنا إلى شقتنا ، وألقيت بنفسى على الباب أوصـده ودفعت المغلاق لأحكم قفله . وخيل الىّ ، لحظة ، أن ساقىّ لا تقويان على حملى .

وقال ولم جراى : « ما كان ينبغى أن أدعكما تخاطران كل هذه المخاطرة من أجلى ولم أكن أدرك .... » ، وكان قلقه علينا يجعله يبدو أصغر جداً مما هو .

فقالت كيتى بحزم : « والآن اسمع أيها الشاب . إننا جميعاً فى هـذا معا ، والذى ينبغى أن نصنعه هو أن ندبر مخرجاً من هذا » . قالت هـذا وانسابت إلى غرفتها لتصلح من شأنها ، وكانت تدندن بذلك اللحن القصير المرح الذى كان يخطر لها دائماً كلما شعرت بالرضى عن نفسها .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان من السهل على كيتى أن تقول إن علينا أن ندبر مخرجاً من ورطتنا ، ولكن من أين نلتمس المعونة ؟ لقد كانت خادمتنا البريتونية « مارجو » هى الوحيدة المطلعة على سرنا ، وكنا على يقين من أنها ستكتمه ولاتخوننا . وكان الجستابو يقومون بالبحث عن الجنود المختبئين بدقتهم المعهودة ، وكانوا يسدون مخارج الأحياء حياً حياً ، ثم يروحون يفتشون البيوت واحداً واحداً ، فكنا نتوقع فى كل يوم أن يزورونا .

وسلخنا أسبوعاً فى جو من الفزع المستمر ، وكان ولیم يأبى أن يتعزى أو يغتفر لنفسه أنه سبب لنا هذا القلق والاضطراب . ولمحناه مرة يسير على أطراف أصابعه إلى الباب وقد ارتدى ثيابه للخروج ، فجذبته كيتى وردته ووصفته بأنه ولد جحود ، ولكنها كانت تبتسم له فلم يسعه إلا أن يستسلم .

ولو أنه كان قد ذهب لما عرفنا راحة البال بقية حياتنا ، فقد كان الألمانيون يعدمون رمياً بالرصاص جميع الجنود البريطانيين الذين يقعون فى أيديهم على اعتبار أنهم جواسيس .

***

وتأخرت كيتى عن العشاء ذات ليلة ، قرأت فى وجهها وهى تهفو داخلة أن لديها أنباء طيبة ، وانفجرت هى قائلة : « إيتا ! أتذكرين شانسيل ؟ » .

وكنت أذكره جيداً ، فقد عملنا معه فى نادى الجنود ، قبل أن نحاول الخروج من باريس .

وقالت كيتى : « التقيت به فى النفق . وأنا أثق به وأعتقد أن فى وسعه أن يساعدنا وسنقابله عصر غد » .

وجلسنا معا فى حجرة الاستقبال نرشف آخر ماعندنا من القهوة المدخرة ، ونتحدث عن المقابلة التى ستجرى فى الغد والتى كنا نرجو أن تنتهى بها متاعبنا . ورأيت ابتسامة على وجه وليم — للمرة الأولى !

ثم دق جرس الباب !

وقد مضت على ذلك الصوت المصلصل شهور ، ولكنى أشعر مرة أخرى بالرعدة التى أصابتنى وشاعت فى بدنى كله ، وما زلت أرى وجه مارجو وقد ارتسمت عليه آيات الجزع وهى تتسلل إلى الغرفة وتغلق الباب .

« جاء الألمانيون ! » .

وكانت كيتى أول من أفاق فسألت : « أهم جنود ؟ » .

« كلا ، بل مدنيون » .

فقالت كيتى وهى تفهق : « الجستابو ! »

وكنت أسمع أنفاسها فى ذلك السكون ثم استدارت ، وقالت لى : « خذى بيل

(أى وليم) إلى غرفتك . واجتهدى أن تخبئيه » وأدارت عينهـا بسرعة فى الغرفة : « وخذى هـذا الفنجان الثالث معك . أسرعى ! » .

ولمـا خرجنا ، رفعت هى صوتها تقول بلهجة من نفـد صبره على خادمة فزعة : « لا تكونى حمقاء يا مارجو . ولا تطيلى انتظار السادة » .

وقع وليم على حافة الطارقة (الكنبة) فى غرفتى ، ورأسه مثنى على صدره ، ويداه متشابكتان . فتساءلت أتراه يصلى ؟ وخيل إلى أن البوليس على النـاحية الأخرى من الباب يستطيع أن يسمع دقات قلبى .

وفى هـذا الاضطراب والفزع ، وضح لى فجأة شيئان مألوفان ، صورتان شمسيتان على صوانى ، لزوجى وأخى . وكنت أستطيع أن أسمع نبرات صوتيهما ، فى قلبى كما سمعتها كثيراً فى حياتيهما ، وكأنما كأنهما يقولان لى : « لقد وقعت يا إيتا فى مأزق صعب ، ولكن لا تفقدى رشدك ، فإنا سندبر الأمر » .

وإذا بى أرى فجأة كيف يستطيع أخى أن يساعدنى . فوثبت إلى الطارقة وأمسكت بذراع وليم وقلت : « أسرع ! اخلع ثيابك وارقد على السرير ، وتظاهر بالمرض » .

وخلعنا معاً ثيابه الخارجية وأنا أهمس فى أذنه بخطتى . ولم تمض ثوان حتى كان راقداً على السرير ، ولففت على رأسه فوطة — فى الوقت المناسب — فقـد سمعت كيتى تصيح بى فى هذه اللحظة قائلة :

« إيتا ! أين أنت ؟ إن هذا السيد يريد أن يرى غرفتك » .

وخيل إلى أن عين الجستابو الناقدة تخترق ضلوعى ، وكان خلفه اثنان فى ثياب مدنية ، ومدام بيجلر بوابة العمارة . وكان من السهل أن يرى المرء من وجهها الجهم ونظرتها الشكسة أنهم لن يظفروا منها بمعونة .

وقالت كيتى : « هذه صديقتى الأمريكية العزيزة السيدة شيبر . وقـد ألفت نفسها ضحية للحرب — بعيدة من الأهل والوطن ، مثلكم ! » .

وتكلفت جاهدة أن أبدو على السجية . وقلت : « أرجو أن تغضوا عن مظهر غرفتى ، فإن أخى طريح الفراش ، مصاب بحمى معوية ، وهى فاشية الآن فى المدينة . وعسى أن لا تضطروا إلى إزعاجـه » ، ولم أجرؤ على النظر إلى كيتى مخافـة أن يفضحنى وجهى .

وقال رجل الجستابو بإيجاز : « أوراقه من فضلك » .

ففتحت درجاً فى الصوان وأخرجت محفظـة أرفنج الحمراء وجوازه الأمريكى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وبطاقته الشخصية ، وحمدت الله على احتفاظى بها .

فقلب رجل الجستابو صفحات الجواز بسرعة ووقف عند صورة أخى ، ورمى نظرة سريعة إلى الرجل الراقد . وكان وليم يمثل المريض أصدق تمثيل ، والفوطة حول رأسه ، وقد أضافت لحيته التى لم تحلق سنوات إلى سنه .

وفحص الشرطى بطاقته الشخصية فحصاً أدق ، وسأل : « لماذا لم تجدد هذه البطاقة ؟ »

قلت : « كان العزم أن نعود إلى أمريكا من زمان طويل ، لو كانت صحته خيراً مما هى ، وقد بدا لى أن الأمر لا يستحق عناء فى هذه الظروف » .

وكنت أعلم أن بطاقات الشخصية غير المجددة ليست بدعاً ولا غير مألوفة ، وكذلك كان الألمانى يعلم على ما يظهر ، وطلب أوراقى وراجعها ، وترك الغرفة بكلمة شكر جافة . فتنفست مرة أخرى .

ولكن رجل الجستابو طلب من مدام بيجلر ، وهو فى غرفة الاستقبال ، الجدول الذى فيه أسماء السكان وتأمله ملياً وبدقة ثم قال : « لست أرى هنا اسم أخى السيدة » .

فتخاذلت ركبتاى مرة أخرى ولكن كيتى قالت فى هدوء : « إن أرفنج ليس من السكان بالمعنى الصحيح . وإنما جاء إلى هنا لما احتاج إلى من يعنى به » .

وبادرت مدام بيجلر بشهامة إلى النجدة وقالت : « إنى آسفة ياسيدتى — إنى غبية — لقد نسيت أمر هذا السيد . ولكنه لم يطلب منى قط شهادة بالسكنى ، ومن أجل هذا لا يوجد اسمه فى جدولى » .

فجلس النازى إلى المنضدة وأخرج قلمه ، فماذا تراه ينوى أن يكتب ؟ أمراً بالقبض علينا ؟ غير أنه تناول جدول السكان وأضاف إليه بخطه هو اسم أخى إرفنج ! .

وما كاد الباب يغلق وراء الشرطى حتى وثبت إليه كيتى ودفعت المغلاق ، وتبادلنا النظرات فى صمت . وكنا نعلم أننا — إذا راجع الجستابو أقوالنا على السجلات الرسمية — لا نستطيع أن ننجو من تهمة إخفاء عدو فى شقتنا وتزويده بأوراق رجل ميت .

وظهر فى مدخل الحجرة شاب شاحب الوجه غير حليق الذقن ، فى ثيابه التحتية ، وعلى رأسه فوطة .

وقال وليم جراى مستفسراً : « ما ذا حدث ؟ »

فما سمعنا هذا منه حتى انطلقنا نضحك ضحكات عصبية مجلجلة .

* * *

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وفى عصر اليوم التالى ذهبنا لمقابلة شانسيل . فبدأت كيتى الحديث معه بحذر ، وفطن هو إلى الاتجاه العام لكلامها فقاطعها بابتسامة .

وقال : « يا سيدتى العزيزة ، إنى لم أغير سياستى لما دخل الألمانيون ، فخبرينى على وجه الدقة أى مأزق وقعت فيه ؟ »

ففهقهت كيتى وقالت : « إننا نخبئ طياراً إنجليزياً فى شقتنا » ، وقصت عليه القصة كلها وفى جملتها زيارة الجستابو لنا البارحة .

فصفر شانسيل وقال : « أما إن هذه لمغامرة لسيدتين لا يخطر لمن يراها أنهما مغامرتان . فلماذا لم تأتيا إلى على الفور ؟ لو كنتما فعلتما لأرحتما نفسكما من كثير من المتاعب » .

وكان شانسيل على ما يظهر ، عضواً فى جماعة سرية تساعد الجنود على الفرار إلى المنطقة غير المحتلة ، وكان للجماعة بيت على الشاطئ الغربى للسين ، يستطيع اللاجئون أن يمكثوا فيه إلى أن تعد لهم التراخيص بالسفر ، وكانوا بعد ذلك يرسلون بالقطار إلى أصدقاء آخرين لهم فى ضيعة على الحدود ، ومن هناك يعبرون إلى فرنسا غير المحتلة .

وقال شانسيل : « ولكن إذا كان هذا الشاب لا يتكلم الفرنسية فإن سفره بالقطار لا يكون مأمون العاقبة » .

فقالت كيتى : « أنا أحمله فى السيارة إلى الضيعة التى على الحدود » .

« لم يعد هذا أمراً سهلا . فمثلا لا سبيل إلى ابتياع بنزين » .

وضرب شانسيل المنضدة بيده فجأة وصاح : « وجدتها! إن نادى الجنود لا يزال يعمل تحت إدارة الألمانيين ، فتقدمى للعمل به مرة أخرى ، وحينئذ يسعك أن تضعى على سيارتك شعار الصليب الأحمر ، ويكون لك الحق فى عشرة جالونات من البنزين فى الأسبوع . وفضلا عن ذلك يجوز لك أن تنتقلى فى البلاد وتزورى المستشفيات ومعسكرات الاعتقال » .

وقد كان فرار وليم جراى قليل الحوادث إلى حد أنه خيب الآمال .

فقد حصلنا على أوراقنا المثبتة لشخصياتنا من نادى الجنود ، وبدأنا نزور المستشفيات فى منطقة باريس ، وحصل شانسيل على ترخيص بالسفر لوليم ، ولما تمت الأهبة دسسناه مرة أخرى فى مكان الحقائب . وكانت معنا طرود وهدايا من نادى الجنود مرسلة لعدد من المستشفيات العسكرية ؛ ولكنا وقفنا أول ما وقفنا ببلدة صغيرة عند الحدود حيث اهتدينا إلى أصدقاء شانسيل بغير عناء .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وبعد أسبوع أقبلت مارجو علينا فى حجرة الجلوس وفى يدها بطاقة بريد تلوح بها ، ذلك أن وليم بعث برسالة مكتوبة بحذر وحرص يخبرنا فيها أنه وعد أن تيسر له قريباً « زيارة والديه » ، فأدركت أنه يعنى إنجلترا ، وسرنى ذلك حتى لأحسست أنى على استعداد لأداء مثل هذه المهمة مرة أخرى .

ولكنى جزعت لما اقترحت كيتى شيئاً من هذا القبيل ، فقد وقعت عينها على ما بدا لها أنه إعلان غريب مثير للاهتمام فى جريدة « بارى سوار » . وكان العمود الذى تنشر فيه الإعلانات الخاصة « بالمفقودين » أول ما يعنى به الناس فى فرنسا ، فما من أحد إلا وله صديق أو قريب اختفى فى هذه الحرب . وكانت جريدة « بارى سوار » الشايعة للألمانيين منذ دخولهم تنشر عدة مئات من هذه الإعلانات كل يوم ، غير أن هذا الإعلان كان مختلفا ، فقد جاء فيه :

« يبحث جوناثان بيرك عن أصدقائه ومعارفه . العنوان : المستشفى العسكرى ، دولان (السوم) »

وقالت كيتى بلهجة المتفكر : « هذا اسم إنجليزى . ومن ذا الذى سمع بفرنسى اسمه جوناثان ؟ سأكتب إليه » .

فقلت وقد فزعت : « كيتى ! هل تريدين أن تتصيدى جنوداً آخرين من الإنجليز ؟ »

قالت : « لا . ولكن إذا اتفق لى أن لقيت أحداً منهم فإن أقل ما أستطيع عمله هو أن أبعث بهم إلى شانسيل » .

قلت : « إنك لا تستطيعين أن تغالطينى أبداً » .

وبعد أيام قليلة ناولتنى رسالة بالإنجليزية عليها توقيع جوناثان بيرك يقول فيها : « سيسعدنى أن أجد من أتحدث معه . . وسأرتقب زيارتك . . . »

وقالت وهى تنظر إلى بلهفة : « إن نادى الجنود ينتظر منا أن نحمل الهدايا إلى الجنود » .

قلت : « حسن . فمتى نذهب ؟ فإنى ذاهبة أيضاً كما تعلمين ، لأجعلك بمنأى من المآزق » .

وقصدنا إلى دولان فى صبيحة اليوم التالى ، ومعنا الطرود المألوفة من الطعام والسجاير للجنود ، وحملت كيتى معها أيضاً صندوقاً ملفوفاً فى ورق أسمر لم تقل عنه شيئاً صريحاً .

« إنه ليس إلا شيئاً أريد أن أتركه فى النادى وأنا عائدة » .

وكان المستشفى العسكرى فى دولان لا يزال تحت إدارة رجاله الفرنسيين ، وإن كان خاضعاً للسيطرة الألمانية . وكان على

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بابه اثنان من الحراس الألمانيين لم يبد عليهما حين دخلنا أنهما رأيانا . وكان المكان من الداخل مظلماً قذرا مملوءاً بالحشرات .

وطفنا بأرجاء المستشفى ، وجعلنا نحادث الجنود ونتطلع إلى جوناثان بيرك ، ولمحنا فى الحديقة ضابطاً بريطانياً جالساً وحده على دكة ، وكانت بذلة الطيران التى يلبسها متغضنة حائلة اللون ، وعلى عينه اليمنى ضماد . فلما دنونا منه ارتدت إليه نفسه فجأة .

وقال : « لقد كنت أرجو أن تجيئا ، ولكنى لم أكن أجرؤ على الاعتماد على ذلك »

فقالت كيتى : « إنك مواطنى ، وإنه لمما تتقزز منه النفس أن تبقى فى هذا المكان القذر » .

فقال بصوت خفيض : « قد يبدو لك هذا هكذا ، ولكنى متربص راصد للفرصة وإنى لفى أتم صحة ، وعلى أكمل استعداد للرحيل ، ومتى عرفوا ذلك فسيبعثون بى إلى السجن . ولا يكاد يكون هنا حرس ، وقد يتسنى لى أن أهرب من هنا ، ولكن الأمل ضعيف فى الفرار من السجن إذا انتقلت إليه » .

فخطت كيتى خطوات على الدكة ثم قالت بصوت كالهمس :

« هل تحب أن آخذك إلى باريس ؟ » .

فتعلق بيرك بيدها وهو يقول : « كيف ياسيدتى بوربيو ؟ يا إلهى ! إنى أعرف أنك تريدين بذل معونتك ، ولكن ماذا يسع امرأة أن تصنع ؟ إنك خليقة أن تخفقى قبل أن تبدئى ! » .

فقالت كيتى برقة : « إنك مخطىء يامستر بيرك . فإن فى وسعنا أن نبلغك باريس . ومن ثم إلى فرنسا غير المحتلة — وسنفعل ! »

فعاد إلىّ الجزع الذى كان قد زايلنى لما رحل عنا بسلام وليم جراى .

وأخرجت كيتى لفافة الورق السمراء التى كنت أجهل ما فيها ، والتى جاءت بها معها من باريس ، وقالت : « هذان دثاران وسيارتنا واقفة على الجانب الآخر من هذا الجدار الواطىء ، حيث تكثر الشجيرات . ووراء المقعد الخلفى مستودع للحقائب ، فادخل فيه فإنه ذو سعة ، وأغلقه وراءك ، وانتظر » .

ونظرت إلىّ ، وأحسبها توقعت منى اعتراضاً أو احتجاجاً ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أقول على مرأى ومسمع من بيرك الذى كان الأمل قد أورثه الاضطراب؟

وكان أشق ما تكلفت فى حياتى أن أعود فأجتاز أقسام المستشفى ، وأحادث المرضى كأنما لم يحدث شىء . وأقبل علينا شاب أشقر يظلع ، فى الدهليز ، كأنما كان فى انتظارنا وقال :

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« أنا لورنس ميهان — وقد رأيتكما مع بيرك — وأرجو .. أن تخرجانى من هنا »

وكان بادى السقم وبدنه يرعد من فرعه إلى قدمه فقلت : « إنك محموم » .

قال : « كلا ! وليس بى إلا جرح فى ساقى . وقد كاد يبرأ ، وسأكون بخير إذا بارحت هذا المكان » .

فقالت كيتى : « إسمع . إننا لا نستطيع أن نأخذ معنا فى السيارة سوى واحد فى كل مرة ، فإذا لم يضبطنا الألمانيون عدنا إليك » ، ومضت عنه دون أن تتلفت ، فأسرعت وراءها كأنى دجاجة فزعة .

ولما بلغنا البوابة قالت كيتى بصوت عال : « انتظرى هنا ، وسأجىء بالسيارة » .

فوقفت مسمرة فى مكانى من الخوف ، وعينى عليها وهى تقف السيارة أمام الحارسين الألمانيين وسألتهما بالألمانية : « فى أى وقت تفتح البوابة للزوار فى الصباح ؟ » .

فأخبرها أحدهما .

فقالت بهدوء : « قد نضطر إلى القدوم إلى هنا مرات عديدة . هل لك فى سيجارة ؟ » فتقبل منها السيجارة وأشعل عود ثقاب لسيجارتها .

وقالت بالألمانية : « أشكرك كثيراً » ، وأدارت محرك السيارة .

وهممت أن أؤنبها فقالت بهدوء من غير أن تنظر إلىّ : « إنما أردت أن يرى أنه ليس فى السيارة سوانا » .

« إنك آية يا كيتى ! ولكن هبيه طلب أن نفتح مستودع الحقائب ؟ » .

« لقد أوصدت بابه بالمفتاح . ولو كان طلب هذا لقلت له إنى تركت المفتاح فى باريس »

ولما صار بيرك معنا بسلام فى شقتنا ، أحسست أنا وكيتى أننا متآمران متعبان ولكنا ظافران ، أما هو فكان حائل اللون متغير الوجه ، وكان وجهه يتصبب عرقاً .

وقال : « إنكما آيتان ! ولشد ما أتمنى أن يكتب مثل هذا الحظ الحسن لغيرى من الجنود البريطانيين ، وهناك منهم حوالى عشرة آلاف لم يتسن لهم الخروج بعد دنكرك ، وهم مختبئون كالوحوش فى الغابات والكهوف بشمال فرنسا . وقد نظم الألمانيون وحدة مسلحة خاصة من راكبى الموتوسيكلات للبحث عنهم واعتقالهم ، ولا سبيل إلى إنقاذهم » .

وجلسنا لحظة صامتين مكتئبين . وبعد العشاء ، لما ذهب بيرك إلى مخدعه لينام ، التفتت كيتى إلى وفى عينيها نظرة من صح عزمه على أمر .

وقالت : « اسمعى يا إيتا . يجب أن تعودى إلى أمريكا ، فإنى لا أستطيع أن أقعد هنا جامدة وهذه المطاردة دائرة ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولا بد لى من مساعدة مواطنى على الهرب . ولكنه لا يحق لى أن أورطـك معى فى هـذا » . فلبثت لحظة لا أقوى على كلام ، واستطردت كيتى فقالت : « ليست هـذه شجاعة منى يا إيتا ، فإنى أخاف أن أموت ، ولكنه ما من إنسان يعرف كيف يساعد هؤلاء المساكين ، ويحق له أن يدعهم وشأنهم ، ويخـذلهم . ولو أنى علمت أن الألمانيين سيرمونني بالرصاص لما منعنى ذلك أن أحاول إنقاذ هؤلاء الفتيان الإنجليز » .

فقلت أخيراً : « لن أتركك أو أتخلى عنك يا كيتى . وإذا كان لا بد لك من إنقاذ الجنود ، فإن على أن أساعدك » .

وكانت المعضلة الكبرى أن نتصل بالجنود ، فاتفقنا أخيراً على أن نستخدم عمود الإعلانات عن « المفقودين » كما فعل بيرك . وخرجت كيتى فى بكرة اليوم التالى لنشر إعلان فى جريدة بارى سوار :

« يبحث ولیم جرای عن أصدقائه وأهله . العنوان : القهوة الحديثة ، شارع روديه بباريس » .

ولم نجرؤ — كما هو بديهى — أن نستعمل أحـد اسمينا أو عنواننا ، ولكن وليم جراى كان قد نجا من أرض الاحتلال الألمانى ، وكانت كيتى تعرف صاحب المقهى الحديث ، واسمـه دوران ، وهو فرنسى صادق الولاء ، وقد وعد أن يبعث إلينا سراً بما يحمله إليه البريد باسم وليم جراى .

وإنا لنتهيأ للذهاب إلى البيت الذى على « الشاطىء الغربى » ، وإذا بشانسيل يحمل إلينا أنباء سيئة . فقد خان الجماعة أحد رجالها فداهم الجستابو البيت الذى على الشاطىء الغربى فى الليلة السابقة ، وعرف النازيون أيضاً أمر الضيعة التى على الحدود .

ففهقفت وقلت : « إذن سيكونون هنا فى أية لحظة ! » .

فقال شانسيل : « كلا ! فأنتما فى أمان ، فما كان هذا الخائن يعرف سوى قليلين منا . وصاحبنا الذى يعمل فى دائرة الأمن العام — وهو الذى يزودنا بتراخيص الخروج — موثوق به من الألمانيين ، فهو يعرف كل ما يعرفون . وهم لم يسمعوا بكما قط » .

وكان شريكنا الذى فى دائرة الأمن العام قد حذر أصدقاءنا فخرجوا كلهم تقريباً من البيتين فى الوقت المناسب ، ولكن طريق الفرار لم يعـد صالحاً بعد ذلك . وكان شـانسيل نفسه على وشك الرحيـل إلى المنطقة غير المحتلة . قال : « وسأبقى هناك إلى أن تطول لحيتى ، وأؤلف جماعة للعناية بمن نهربهم إلى ما وراء خط الحـدود . وسأتصل بكما بعد عودتى » .

وودعنا ، فودعتنا الشجاعة اليسيرة التى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كان وجوده ينفثها فينا . وكنا نسمع الملازم بيرك يقطع غرفة النوم جيئة وذهوباً . وكان إنقاذه أكبرما يواجهنا من المشاكل العاجلة.

وقالت كيتى : « ليس ثم سوى وسيلة واحدة يا إيتا . غداً نبحث عن فلاح فرنسى يعيش على الحدود ويقبل أن يهرب بيرك » ، ثم اعترضت على نفسها فقالت : « لا نستطيع أن نفعل هذا غداً ، فإن علينا أن نأتى بلورنس ميهان » .

فصحت بها : « كيتى ! إنك لا تنوين أن تجيئى به أيضاً ؟ » .

فنظرت إلىّ مستغربة وقالت : «لا أجئ به إلى هنا ؟ ألسنا قد وعدنا ؟ » .

* * *

وكانت رحلتنا الثانية إلى دولان سريعة ، وكان ميهان راقداً فى فراشه وقد جهده المرض ، والتمعت عيناه حين رآنا ، ولكنه كان أذكى من أن يصدر عنه ما يشى بأنه يعرفنا . ووقفت كيتى إلى جانب السرير التالى لسريره ثم خرجت بى إلى الدهليز . وبينما كنا نمر بمكتب المستشفى فتح بابه ، واعترض طريقنا صاغ فرنسى .

وقال : « أنا الصاغ تيبو ، الموكل بإدارة هذا المكان . وأعتقد أنكما شرفتمانا بزيارة سابقة » . قال هذا على مهل ، ثم سألنا فجأة : « فهل لكما أن تتفضلا فتخبرانى أين الملازم بيرك ؟ » .

فوثب قلبى إلى حلقى ، ولكن كيتى قالت فى هدوء : « لا بد أن تكون ذا قدرة على قراءة الخواطر ، فقد كنا نجوب الأقسام باحثين عنه » .

فحدق الصاغ تيبو فى كيتى متفرساً فاحصاً ، ثم ارتد داخلا من الباب وهو يقول : « أرجو أن تتفضلا بالدخول فى مكتبى » .

فلما دخلنا أومأ إلينا أن نقعد ثم راح يتمشى فى الحجرة ببطء ، وكان الصمت والقلق مما لا يطاق . وأخيراً وقف أمامنا .

وقال : « لقد تحريت تحرياً دقيقاً ، فأنت يا سيدة بوريبو إنجليزية مولداً ، فليس يدهشنى إذن أن يهرب أحد الأسرى البريطانيين القليلين هنا عقب زيارتك . وأنا لست بالغبى ياسيدة بوريبو ، ومن الجلى أنك ساعدت الملازم بيرك على الفرار . ومن واجبى أن أسلمك إلى السلطات الألمانية ، فإنى جندى وعادتى أن أطيع الأوامر » .

وأمسك لحظة ، وكان قلبى يخفق خفقاً شديداً .

ثم قال ببطء : « ولكنى لست جندياً فحسب ياسيدتىّ ، فإنى فرنسى أيضاً ، وهذا هو السبب فى أنى لم أبلغ السلطات إلى الآن خبر اختفاء الملازم بيرك » ثم صارت نبراته حادة كأنما هو يصدر أمراً .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« إن عليكما أن تغادرا هـذا المستشفى حالا ولا تعودا إليـه . ولا يسعنى إلا أن أطلب منكما وعـداً رسمياً أن لا تكررا ما فعلتما ، فإن مثل هذا التكرير يكون على الأرجح وبيلا عليكما . ونصيحتى لكما أن تنسيا هذه الحادثة ، وأنا واثق أنى أنا لن أذكرها » .

وكنت جالســة معتدلة كالعصا على الكرسى ، وقد صعقت من التحول الذى حدث على غير انتظار . ونهضت كيتى وقالت: « أشكرك ياحضرة الصاغ » ، ومدت إليه يدها ! « وإنى لسعيدة جداً بأن أقابل فرنسياً صميما » .

فتناول الصاغ تيبو يدها وقال بلهجـة جافة : « سامحانى إذا كنت أوثر الحيطة وأرافقكما إلى سيارتكما » .

وقطعنا عدة كيلومترات من دولان قبل أن أجد لسانى ، ثم قلت : « لم يبق إلا أن تنسى أمر ميهان المسكين . فما نستطيع أن نعود بعد هذا » .

فتبسمت كيتى وقالت : « لقـد ناولت ميهان رقعة ونحن واقفان إلى جانب السرير الآخر . وهو الآن فى مستودع الحقائب » .

فارتسم على وجهى ما لم تستطع عليـــه صبراً ، وراحت تضحك ضحكا شديداً ، حتى لقد اضطرت أن تقف السيارة . ولم يسعنى إلا أن أضحك مثلها . وهكذا لبثنا نحن الاثنتين على جانب الطريق نقهقه فى أرض يندر أن يضحك فيها الآن أحد .

***

ولما بلغنا البيت وجـد ميهان صعوبة فى الخروج من السيارة ، ثم راح يطلع معتمداً علينا .

وطلع علينا بيرك من غرفة النوم وهو يسأل : « هل كل شىء على ما يرام ؟ »

وهوى ميهان إلى الأرض ، وارتمى عليها لا يتحرك ، فانحنى عليه بيرك ثم قال : « لقد انتقض جرحه » .

والواقع أن إحدى ساقى السراويل الذى يرتديه ميهان كانت مغمورة بالدم ، وكانت تسقط منه قطرات كبيرة على الأرض .

فقالت كيتى بلهجـة الأمر : « اطلبوا طبيباً بالتليفون » . ثم عادت تقول : « كلا ! لا نستطيع أن ندعو طبيباً . . . فهاتوا قوطاً » .

وجلجل جرس الباب وكان صوته عالياً ملحاً .

فوقفنا كأننا تماثيـل ، وعاد الجرس يصلصل .

وقالت كيتى بلهجة القانط : « لا فائدة ! فما نستطيع أن نخفى هـذا . إذهبى يا إيتا وافتحى الباب » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وما كرهت فى حياتى عملا أعمله كما كرهت هذا الذى كلفته ، على أن مخاوفنا لم يكن لها داع ، فقد كان الذى دخل علينا هو هنرى بوريبو زوج كيتى ، وكان لا يفوته أن يزور كيتى كلما جاء إلى باريس . وكانت زيارته فى هذه المرة نعمة من الله ، فقد تولى الأمر كله بعد أن أفاق من الدهشة . فدعا بالتليفون طبيباً يثق به ثقة تامة ، فحضر بعد خمس دقائق . ولم يمض سوى ربع ساعة حتى كان ميهان معصوب الساق مضمود الجرح راقداً فى السرير . ولكن الطبيب هز رأسه هزة القلق على مريضه وقال : « إن بجرحه قيحاً خبيثاً ، ولكنى سأفعل كل ما يسعنى » .

وبعد أن انصرف الطبيب حل لنا هنرى بقى من المشكل فقال : « إن لصديقى تيسيبه فى ليبورن كرمة تمتد إلى ما وراء خط الحدود وفى وسعه أن يهرّب هذين الشابين . ولكنه لا بد من كلفة طفيفة — ٥٠ فرنكا عن كل واحد — يأخذها الشاويشية الألمانيون » ، وابتسم : « ويظهر أن أبناء هذا « الشعب السيد » يطيب لهم أن يكسبوا قليلا من حين إلى حين .

« وأعرف أيضاً رجلا فى دائرة الأمن العام يستطيع أن يخلع أسماء فرنسية على صدفائكما الإنجليز ، فلا تقلقا ، فإن الشابين سيكونان بخير » .

فرأيت دموع الفرح فى عينى كيتى . وكنا قبل ساعات قليلة قد وطنا النفس على اليأس .

***

وفى اليوم التالى جاء إلينا إميل ، غلام دوران يحمل رسائل باسم وليم جراى بعنوان المقهى الحديث ، ففضت كيتى إحداها فإذا بها خالية إلا من هذا العنوان :

ب . و . ستو

١٢ شارع المحطة . ريمز

فقلت : « إن هذا يبدو لى مريباً » .

فقالت كيتى تخاطب بيرك : « إن إيتا سترى من الآن فصاعداً أن يد الجستابو وراء كل رسالة من هذه » .

وكانت الرسالة الثانية مكتوبة بالفرنسية .

« سيدى العزيز

« إنى قسيس أبرشية كونشى سير كونش ، وقد كتبت إليك إجابة لرجاء بعض أهل الأبرشية الذين يرون فيك ، على ما يظهر ، صديقاً قديماً ، وهم يرون أن فى وسعى أن أتصل بكم وأنا مطمئن فى أمر على جانب عظيم من الأهمية للطائفة .

« إن بناء كنيستنا يحتاج إلى إصلاحات عاجلة ، وإلا تقوض هذا الأثر الجميل من آثار القرون الوسطى . وهى كارثة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

متوقعة فى أى يوم ، ولا معوض لها ، وأخلق حينئذ أن نفقــد مالا مردّ له من كل قيم ثمين . وقد حصلت على إذن من الـكنيسة والسلطات المحلية بإجراء الإصلاح .

« فرجائى إليك ياسيدى العزيز أن تخبرنى فوراً متى وأين نستطيع أن نلتقى للبحث فى تنظيم أمر الا كتتاب وتوسيع نطاقه ؟ وأسأل الله أن يبارك فيك » .

المخلص

الأب كريستيان رافييه

فقلت : « ليس هذا إلا طالب مال » .

فـكادت كيتى تصرخ وهى تقول: « إيتا ! إن الرسالة موجهة إلى ولیم جراى رداً على إعلاننا ! وقــد كتبت بحيث نفهمها نحن ولا يفهمها سوانا . تأملى قوله : « إن بعض أهل الأبرشـية يرون فيـكم على ما يظهر صديقاً قديماً » ، فلا بد أن يكون على اتصال ببعض الرجال فى وحــدة وليم جراى . ثم انظرى قوله : « وهم يرون أن فى وسعى أن أتصــل بكم وأنا مطمئن » ، وقوله : « كارثة متوقعة فى أى يوم » ، ومعنى هذا بعبارة أخرى هو أن « الطائفة » قد يعرف أمرها ويقبض عليها » .

واتفقنا على أن الرســالة عليها مسحة الصدق ، وراجعت كيتى اسم الأب كريستيان رافييه فى مكتب اسقف باريس . وكان رأيها ، وهو صواب ، أنه لابد أن يكون هناك ا كتتاب مفتوح لإصلاح الـكنيسة وترميمها ، حتى إذا دار تحقيق بدت رسائله التى يطلب فيها المال بريئة . وقد عادت كيتى جذلة مبتهجــة ، وخرجنا من فورنا لمقابلة الأب كريستيان .

فاقترح أن نتحــدث فى مسكنه وراء الـكنيسة ، ومضى بنا من الحديقة إلى غرفة صغيرة قريبة السقف ، وأخبرنا أن هناك ألف جنــدى إنجليزى على الأقل مختبئين فى غابات « كوتشى سير كونش » ، وأنه على اتصال دائم بهم .

قال : « ولـكنى لا أعتقد أن فى وسعهم أن يبقوا طويلا ، فإنهم يتضورون جوعاً وقواهم منهوكة ، والجماعة هناك تعطيهم كل ما تستغنى عنه من طعام وثياب ، ولـكن الجراية المقررة يسيرة والتدقيق شديد ، فلو أنها أعطتهم كل ما عندها لما كان كافياً . وفى وسعى أن أحصــل لهم على بطاقات شخصية وأصحبهم إلى باريس ، كل بضعة رجال مرة ، إذا تـكفلتما بهم بعد ذلك ، فهل يسعكما هذا ؟ » .

فقالت كيتى : « إن هــذا يسعنا على التحقيق » ، وأخبرته بطريق الفرار من باريس . وأنه سيستخدم بعد حوالى أسبوع .

فأغمض القسيس عينيه هنيهة ثم قال :

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« لكأنى بكما صلاة تقبلها الله ، ودعاء استجاب له » .

* * *

وأبلّ لورنس ميهان إبلالا عجيباً بعد أن تولى الطبيب علاجه ، وأصبح فى طوقه أن يسافر بعد قليل ، وقلنا نرسله مع بيرك . ولكن صديق هنرى فى دائرة الأمن العام قد زودنا بعدد كبير من التراخيص ، ووكل إلينا كتابة الأسماء والبيانات الأخرى ، ولكن الصحف أعلنت ذات صباح أن الحكم بالإعدام سيكون جزاء من يساعد جنوداً بريطانيين على الفرار .

فقالت كيتى : « يجب أن أذهب إلى ليورن وأقابل تيسييه فوراً ، فإنى أخشى أن يخيفه هذا الأمر فيكف عن مساعدتنا » .

ولما كان عندنا ترخيصان لصاحبينا اللاجئين عندنا ، فقد رأت كيتى أن تستصحبهما ، وعادت وكلها ثناء على المسيو تيسييه .

قالت : « قد تخطى بيرك وميهان الحدود بسلام ، وإن المسيو تيسييه لآية ، وقد ذكرته بالأمر الجديد الذى يقضى بالإعدام فما زاد على أن بصق ، ثم قال : « لقد شهدت الحرب الماضية فى سنة ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ، وقد كان من الممكن ألف مرة أن أقتل ، والآن مرت بى حرب ثانية ، وما زلت حياً أرزق . وأحسبنى قد فزت بأكثر من حظى من الحياة ، فلن تصيبنى خسارة » .

وبادرت كيتى إلى الكتابة إلى الأب كريستيان تبلغه أن كل شىء قد أعد لجمع الاكتتابات ، فجاء بعد أيام قليلة إلى الشقة ومعه أربعة من الجنود ، وبعد أن زودوا بتراخيص السفر ، استقلوا قطار المساء إلى ليورن .

وكان على تيسييه أن يبلغنا خبر وصولهم سالمين ، ولكن يومين مضيا دون أن نتلقى منه نبأ ، فخفنا أن يكون قد مسهم سوء ، وإذا بتيسييه نفسه يدخل علينا ويقول لنا فى صراحة تامة :

« إنكما تخطئان خطأ فاضحاً . وأرجو أن لا تتركا هؤلاء الجنود فى المستقبل يسافرون وحدهم بغير رفيق حاضر الذهن يجيب عنهم بالفرنسية » .

وتبين أن الجنود الإنجليز الأربعة إنما نجوا من الاعتقال بأعجوبة ، وذلك أن حراس القطار وجدوا وهم يفحصون أوراق الركاب ، أن مع هؤلاء الأربعة تراخيص رسمية ، ولكنهم لا يتكلمون الفرنسية ، فلولا أن الركاب الفرنسيين تدخلوا واعترضوا اعتراضاً شديداً على ما همّ به الحراس ، لأنزلوا من القطار وسيقوا إلى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

السجن ، ولـكنهم نجوا ولما يكادوا .

فتنهدت كيتى وقالت : « وما ذا بالله نستطيع أن نصـنع ؟ من أين أجىء بمن يرافقونهم ؟ » .

وبعد نصف ساعة من انصراف المسيو نيسييه أخبرتنا مارجو أن زائراً آخر يطلب مقابلتنا واسمه المسيو كوربييه .

فقالت كيتى وقد استرابت : « لا أعرفه . وما ذا يبغى ؟ » .

ولم تجب مارجو لأن المسيو كوربييه فتح الباب ودخل ، وكان ظاهره يدل على أنه طبيب فرنسى — لحية سوداء غير منتظمة ، ونظارات سميكة الإطار . فحدقنا فى وجهه .

وقال هو : « ياسيدتى العزيزتين ، إن من دواعى سرورى أنكما لم تعرفانى »

فصحنا معاً : « شانسيل ! » .

وكان شانسيل يعمل الآن مع جماعـة جديدة تهرب إلى إنجلترا كل فرنسى يريد أن يحارب مع ديجول . وقـد جاء يدعونا إلى العمل معه ، فشرحت له كيتى ما نحن فيه ، فسرعان ما وجـد الوسـيلة إلى التوفيق بين الأمرين .

وقال : « ليس أسهل من ذلك . وما عليكما إلا أن تخبرانى كلما كان عندكم إنجليز تريدون إرسالهم ، فأعد مثل عـددهم من الفرنسيين الذاهبين للحاق بديجول » .

فقالت كيتى : « لا بد أن يكون الله قد ساقك إلينا مرة أخرى » .

وقد ظلت كلمة كيتى عالقة بذهنى ، فقد ساعفنا الحظ مرة بعد مرة . فهل كان ذلك كله مرجعه إلى الحظ ؟ أم هى يد الله معنا توفقنا ؟

وصار لنـا الآن طريق تهريب لا يخلى المنطقة غير المحتـلة فحسب ، بل على طول الطريق إلى إنجلترا بعد ذلك .

فلمـا كان شهر نوفمبر ، كنا قد أرسلنا أكثر من مائة إنجليزى يرافقهم مثل عددهم من الفرنسيين . وكان العمل يجرى بدقة الساعة ، وألفناه حتى لقد كدنا ننسى أننا نركب مركباً خطراً ، ولـكن إدراك ذلك لم يكن بعيداً .

* * *

وكنا فى أكتوبر قد بدأنا نعانى مصاعب مالية من جراء هذ التهريب بالجملة ، فقـد كانت نفقات السفر ، مضافة إليها خمسون فرنكا على كل رجل يجتـاز الحدود ، قد بلغت مبلغاً جسيما . على أن إطعـام الجنود وهم فى باريس كان أكثر كلفة ، فما كان عندنا سوى ثلاث بطاقات لطعامنا ، وكثير ما كان من المستحيل أن نحصل على مقادير الطعـام التى تخولنا إياها البطاقات قانوناً ، فكنا نلجأ إلى السوق السوداء وندفع عشرة

أضعاف السعر القانونى أو عشرين ضعفاً . وما كان الاعتراض أو الاحتجاج على هذه الأسعار الفاحشة ليؤدى إلا لقطع هذا المورد اليسير .

وكانت كيتى تعرف بعض الأسر الغنية فى المنطقة الحرة ، ولا تشك فى أنها تخف إلى النجدة ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تكتب إليها ، فلا مفر من السفر إليها .

فسألتها : « كم تبقين هناك ؟ » وحاولت بابتسامة أن أستر ما شعرت به من الخوف من الوحدة .

قالت : « أسبوعين أو ثلاثة لا تقلقى يا إيتا ... وإذا حدث شىء فإن فى وسعك أن تلجئى إلى شانسيل » .

وفى أول أسبوع من غياب كيتى بعث إلىّ الأب كريستيان بثلاث جماعات ، فحولتهم إلى رجال شانسيل ، وبعد نصف ساعة من رحيل الجماعة الثالثة ، أقبل إميل ، غلام دوران صاحب المقهى ، يسأل عن كيتى وقال : « إن المسيو دوران يقول إن فى المقهى رجلا إسمه المستر ستو ، وإنه يريد أن يتحدث إليها ياسيدتى » .

وكان « المستر ستو » هو التوقيع الذى قرأناه فى إحدى الرسائل التى تلقيناها رداً على إعلاننا فى جريدة « بارى سوار » .

فلبثت لحظة كالمفاوجة . كيف عرف هذا الرجل اسم كيتى ؟ إن إعلاننا لم يذكر إلا اسم وليم جراى .

يجب أن أهرب ! وعسى أن أستطيع الدخول فى المنطقة غير المحتلة . ولكن ما العمل حين تعود كيتى فلا تجدنى ؟ وبدأت نفسى تثوب إلىّ . ألسنا قد نجونا من المخاطر من قبل ؟

وذهبت إلى مطعم صغير على مقربة من مقهى دوران ، وأمرت إميل أن يسر إلى المسيو دوران أن يوافينى .

فجاء المسيو دوران على الفور .

فسألته : « هل أعطيت هذا المستر ستو عنواننا ؟ » .

قال : « كلا على التحقيق ! فقد أمرتنى السيدة كيتى أن لا أفضى به إلى أحد . وما سأل الرجل إلا عن وليم جراى فبعثت بإميل إليك » ، فخاصت أنفاسى : « وثق ياسيدتى أنى لست بالغبى كما يبدو علىّ ، وقد قلت له إنى لا أعرف أى رجل باسم وليم جراى ، وأشرت عليه بأن يقعد ، فإذا جاء من يدعى وليم جراى يسأل عن بريده عرفته به » .

فسألت : «وما رأيك فى الرجل يامسيو دوران ؟ » .

قال : « فرنسيته ليست رديئة ... ليست كفرنسية الإنجليزى تماماً ... وقد قال

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

إنه يخاف أن يتكلم بالإنجليزية ، وإن كان صوته خفيضاً جداً حتى يستحيل .... » ، وأمسك فجأة وقد فغر فاه ثم صاح : « يا للشيطان ! تالله ما أغبانى ! لقد أشعل سيجارة وهو يتكلم ، وهى من النوع الذى يوزعونه على الجنود الألمانيين ! » .

فتناولت يده فوق المنضدة وقلت : « تشدد يا مسيو دوران ، إن المستر ستو من رجال الجستابو » .

فتغير وجهه وامتقع وقال : « وماذا أصنع الآن ؟ ماذا عسى أن يصيبنى ؟ » .

قلت : « إن معى تراخيص سفر ، ففى وسعك أن تذهب الآن إلى المحطة ، وتستقل القطار إلى المنطقة غير المحتلة » .

فأن وقال : « كلا ! زوجتى ، وأولادى ! كل ما أملك هنا » ، واربد وجهه كأنما يعالج أمراً معضلا ، ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة وقال : « توجد وسيلة للخروج من المأزق — وسيلة جميلة — سأدق التليفون للجستابو فى ديوانهم وأخبرهم أن فى مقهاى إنجليزياً مريباً ، فلا يمكن أن يستريبوا بى حينئذ » .

وما كاد ينصرف حتى استولى علىّ الخوف من أن نكون قد أخطأنا . ولنفرض أن المستر ستو كان جندياً إنجليزياً صميما ؟ ومضيت إلى المقهى وقعدت فى الشرفة ، فقد كان لا بد أن أرقب ما يحدث لأطمئن إذا استطعت .

وأقبلت سيارة ألمانية رسمية ووثب منها ثلاثة دخلوا المقهى ، وما عتموا أن خرجوا ومعهم رجل آخر كان اثنان منهم يمسكانه من ذراعيه ، فهبط قلبى فى صدرى ، فقد كان الظاهر أننا أخطأنا .

ولكنهم ما خرجوا إلى الطريق حتى انطلقوا يضحكون ، واستقلوا السيارة والمستر ستو لا يزال يضحك ، ويقدم للآخرين سجاير من علبة أيقنت حين رأيتها أنها ألمانية .

وحدث بعد بضعة أيام أن حضر إلى الشقة المسيو دوران ، وفى يده جريدة ، وفى وجهه آيات الغضب التلهب ، وصاح : « هل جننت ؟ »

فقرأت الإعلان الذى كان يشير إليه بأصبع مرتعش .

« وليم جراى (بدنكرك سابقاً) يبحث عن أصدقائه .

« العنوان : مقهى دوران ، شارع روديبه ، باريس » .

فقلت له : « يا مسيو دوران . نحن لم نبعث بهذا الإعلان إلى الجريدة ، ولم نكلفها أن « تكرر إعلاننا » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فنظر إلىّ متردداً وسأل : « إذن من فعل هذا ؟ »

قلت ، وأنا على يقين جازم : « الجستابو . وقد أرادوا أن يعرفوا إلى من تذهب حين تقرؤه » .

فاغتم غماً شديداً وقال : « يا إلهى ! ماذا صنعت ؟ ماذا استطيع أن أصنع الآن ؟ »

قلت : « لا شيء ! إذا كانوا قد تبعوك إلى هنا ، فقد وقع المحذور . وإنك لفرنسى طيب يا مسيو دوران ، وأنا واثقة أنك لن تسلم إلى الجستابو ما عسى أن يرد إليك من رسائل باسم وليم جراى » .

* * *

وقضيت نهارى متوجسة ويدى على قلبى ، فلما كان الليل فتشت الشقة مستقصية ، وبحثت فى كل رف ودرج ، ولم أدع شيئاً يمكن أن يتخذ قرينة أو دليلا إلا أحرقته ، وبينما كنت أفطر فى صباح اليوم التالى دق جرس الباب .

ووقف اثنان فى الردهة .

« أين السيدة بوريبو ؟ »

قلت : « فى تور » . فقد كان لا ينبغى أن أقول إنها خرجت من المنطقة المحتلة .

« ومتى تعود ؟ »

« لماذا تسألنى هذه الأسئلة ؟ »

فأخرج الرجل شارة وقال : « البوليس السرى الألمانى » .

وكان المنظر لسبب ما ، على غير ما كنت أشفق أن يكون ، ولقد سلخت خمسة شهور فى جزع من مثل هذه اللحظة ، فلما جاءت إذا بى ساكنة ، وإذا الموقف خلاف ما كنت أتوقع ، وليس فيه أكثر من رجلين فى ثياب مدنية ومعهما ملفان ، وهما واقفان فى أدب بيانى كأنهما من التجار الجوابين .

وكان الرجلان يعتقدان أنى لا أعرف الألمانية فقال أحدهما لصاحبه : « لقد خرجت الإنجليزية ، فلا تبرح المكان ، ورد على التليفون دائماً » ، والتفت إلىّ ، وعاد إلى الكلام بالفرنسية : « تعالى أنت معى ، وأعدى حقيبة وضعى فيها ملابس دافئة » .

فدخلت غرفتى وشرعت أضع أشيائى فى حقيبة ، وكنت أفكر جاهدة ، وأنا أتناول الأشياء ، فى وسيلة لتحذير غيرى ، فقد كان الأب كريستيان سيصل عند الظهر ومن المحتمل أن يحضر شانسيل فى أية لحظة .

ولما أخذنا ننزل ببطء فى « المصعد » ، رجوت أن تقابل البوابة أو أمينة البيت ، ولكنى لم أرها قط .

ولما بلغنا ديوان الجستابو أدخلت غرفة جلس فيها رجلان إلى مكتبين ، وكان

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أحدهما يرتدى بذلة عسكرية — عرفت فيما بعد أن اسمه اليوزباشى بيتش — أما الآخر فاسمـه الدكتور هاجـير ، وهو رجـل فأرىّ الوجه صغير فى ثياب مدنيـة ، على هيئة معلمى المدارس ، وكان يتكلم الإنجليزية بصوت خفيض ولهجة رقيقة .

وقال ملاطفاً : « ياسيدة شير ، إننا لا نحب أن نضطر أن نسجن إحدى رعايا بلادك العظيمة ، فإذا كنت امرأة عاقلة ، فإنك خليقة أن تخبرينا فى صراحة بكل ما حدث . ونحن نعرف معظمه على كل حال ونعـرف أن السـيدة بوريبو كانت تعمل تحت ستار عملها فى نادى الجنود ، فتهرب الجنود الإنجليز إلى ما وراء الحدود . وكل ما نريد أن نعرفه منـك هو بعض التفاصـيل لتدوينها فى السجلات . ومن يدرى ؟ فقد توضحين بعض الظروف المخففة وبذلك تساعدين صديقتك » .

ومن الغريب أن الذعر الذى كان يستولى على نفسى فى أحوال كثيرة إذا خطر لى خاطر الاعتقال ، لم يعـد له وجود ، وألفيت نفسى أفكر بسرعة وسهولة . فقلت لنفسى إن مداهمة الشقة وسؤالى ، ليسا دليلين على أن الألمـانيين قد وقعوا على بينة أو عرفوا أخباراً ، وإنما هم يريدون أن يحصلوا على ذلك منى ، فاستقر عزمى على الإنـكار الشامل . وكان من المحقق أن المصير ويـل إذا أنا اعترفت ، فلزمت الصمت ، وجلست شاخصة إلى الدكتور هاجير ، فواصل الكلام بشىء من الضجر :

« تعالى ! تعالى ! يا سيدة شير ! دعينا نفرغ من هذا الأمر . وقولى فى أى تاريخ هربت السيدة بوريبو جنوداً بريطانيـين للمرة الأولى إلى ما وراء الحدود ؟ » .

فقلت بثبات : « إنى آسفة ، ولـكنى لا أعرف أى شىء عن نشاط من هـذا القبيل للسيدة بوريبو » .

والتفت اليوزباشى بيتش إلى الدكتور هاجير وهمس بصـوت سمعتـه : « امض فى سبيلك ، وجرب أساليبك الإنسانية ، إذا شئت ، ولكن متى وجدت أن وسائلك العاطفيـة السخيفة لا تبلغك شيئاً ، فأنا الضامن أن أحملها على الكلام » . ونهض وخرج .

وكان على الحائط ساعة كهربائية ، وقد أرتنى أن الأب كريستيان سيكون على باب الشقة بعد قليل ، ويدق الجرس ويصيح جذلا كعادته : « معى بضعة شبان جياع . فهل أدخل بهم ليتغدوا ؟ » .

ويدرك بعـد الأوان أن الذى يفتح له الباب رجل غريب .

وكان الدكتور هاجـير يلاينى تارة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ويتوعدنى تارة ، ثم صار كالمعلم إذا احتدم غيظه لأن تلاميذه أذكى منه وأخبث . فبدأت استعيد شجاعتى وقوة قلبى .

ودق التليفون بعد الساعة الثانية عشرة بقليل ، فرفع الدكتور هاجير السماعة وأنصت هنيهة ، ونظر إلى نظرة المنتصر . وقال : « هاته على الفور » ، ثم أصلح خطأه بسرعة وقال : « بل ابق أنت فقد يجىء زوار آخرون ، وسأبعث إليك بمن يحضره » .

وأدار وجهه إلى وعلى فمه ابتسامة الرضى وقال : « ألم تلاحظى قط ياسيدة شيير أنه إذا انقطع عقد وسقطت إحدى الحبات فإن الأخريات يتبعنها لا محالة ؟ » .

ولما أدخل الأب كريستيان إلى الغرفة قال : « كيف حالك ياسيدة شيير ؟ » .

فسأله هاجير : « إذن أنت تعرفها » .

فقال الأب كريستيان : « طبعاً ! لقد كنت أريد زيارة السيدة بوريبو التى تساعدنى على ترميم الكنيسة فقبض على ، ولست أدرى فيم كل هذا ؟ » . وكان هذا كل ما أحتاج أن أعرفه ، فقد أنكر كل شىء .

وفى خلال الساعات التالية ، توالت علينا الأسئلة ، معا أحياناً ، وعلى حدة أحياناً ، وكانوا يحاولون أن يوقعونا فى تناقض ، ولكننا أصررنا على أبسط تأويل لعلاقتنا وهو الذى ألقى به الأب كريستيان لما دخل ، فكفوا عن سؤالنا فى الساعة السادسة ، ودعا الدكتور هاجير أحد الشرط وقال له : « ستبقى المرأة رهن التحقيق » .

وقضيت أسبوعين كنت فيهما نزيلة السجن الألمانى الحربى ، أعانى الملل والجوع وسوء الحال ثم دعيت مرتين فى الأسبوعين التاليين إلى مكتب الدكتور هاجير ، وقذفت بعثات من الأسئلة والتهم ، فلم أتزحزح عن الإنكار ، وإذا بالدكتور هاجير يخبرنى فى ١٤ ديسمبر بلهجة ودية أنه سيفرج عنى . ودهشت واستربت ، وخطر لى أن هذه حيلة نازية ، ولكنى تسلمت ورقة الإفراج عنى المختومة وخرجت من السجن إلى الهواء الحر .

ولم يبد على السيدة بيجلر ، لما طرقت بابها أنها عرفتنى ، ثم ذرفت الدمع وهى تقول : « يا إلهى ! ماذا فعلوا بك ياسيدة شيير ؟ » . وأخبرتنى أن كيتى وشانسيل لم يحضرا إلى الشقة ، وأنها لم تر هنرى بوريبو ، فلا بد أنه عاد سالماً إلى المنطقة غير المحتلة ، وقالت إنها رأت من وراء بابها رجال الجستابو يقبضون على الأب كريستيان ، وكان قد جاء وحده ، ولم يكن معه أحد من الجنود ، وألقى القبض أيضاً على مارجو ثم أطلق سراحها ، فرجعت إلى أهلها فى بريتانى .

ولما دخلت الشقة وألفيتنى فيها وحدى ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

جعلت أتنقـل بين الغرف ، وأضيء النور وأطفئه ، وأجرب الماء الساخن ، كأنما أريد أن أستوثق من أنى سـأفوز مرة أخرى بمتعته .

ثم دق جرس الباب ، ووقف فى مدخله الدكتور هاجير ، وقال بأرق صوت إنه جاء ليرى هل ترك رجاله الشقة على حد من النظام ؟ وفحص كل غرفة وكل خزانة ، حتى صندوق الثلج نظر فيه ، ثم انصرف بعـد قليل ، ونصح لى بلهجة العطف أن أعود إلى أمريكا ، وقال : « وأقنعى صديقتك السيدة بوريبو بأن تذهب معك ، فقـد قضينا على جماعتها ، وختمت القضـية ، ولـكنا قد نضطر أن نكون أقسى إذا بقيت هنا وارتكبت جريمة أخرى » .

إذن كانت حريتى وهماً ، وما أطلقوا سراحى إلا ليستخدمونى فى إيقاع كيتى !

وكنت فى الأيام التالية لاأذهب إلى مكان ما ، إلا أحسـست بالذى يتعقبنى ويدور معى حيث أدور ، ثم رأيت ذات يوم شانسيل خارجاً من مدخل نفق مقبلا علىّ .

وكان أول ما خالجنى هو السرور : « إذن هو لا يزال طليقاً ! » . ثم قلت لنفسى : « لا ينبغى أن أظهر أنى أعرفه » فقد كان الذى يتعقبنى على مسافة قصـيرة خلفى ، ورآنى شانسيل وابتسم ، فنظرت إليه ببرود ، كأنى لا أعرفه ، ولما حاذيته همست « لا تظهر أنك تعرفنى ، فإن ورائى عينـاً علىّ » . وأسرعت إلى الزاوية ثم تلفت ، فلم أر مطاردى ، ولـكن جمعاً صغيراً كان قد احتشد عند مدخل النفق ، وسمعت صفارة بوليس .

فى تلك الليلة زارنى الجستابو مرة أخرى فى الشقة ! وقبضوا على « لاستجوابى » ، وعدت ، مرة أخرى ، إلى مواجهة الدكتور هاجير فى ديوان الجستابو . وقال : « انتهت المهزلة . وقد قبضنا على كوربييه عصر اليوم ، شـكراً لك ، ياسـيدة شيير ، وقبض على السيدة بوريبو فى بوردو قبل ساعتين » .

ولاحظت بارتيـاح أنه لم يذكر اسم شانسيل الحقيقى ، ولـكن شانسيل لم يبق له فى نفسى محل حين قال إن كيتى اعتقلت إذن أنشبوا فيها أظفارهم أخيراً !

وكان التحقيق معى فى هذه المرة مختلفاً جداً عنه فيما سبق . فقد دعى كاتب لتدوين كل ما أقول ، ليكون ما يدون هو المحضر الرسمى الذى يحفظ فى سجلات المحـكمة . وقد أصررت على الإنكار البات . ولما قدمت إلى أقوالى آخر الأمر مكتوبة بالآلة الـكاتبة لأوقعها ، قرأتها بعناية مخافة العبث بمـا قلت ، وكانت تملأ عشر صفحات ، ولـكنى وجـدت أن ما سـطر هو الذى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

نطقت به ، فكتبت اسمى فى ذيل كل صفحة .

ودعى حارس ليذهب بى إلى السجن ، وقال لى الدكتور هاجير بلهجة فظة قاسية وأنا ذاهبة : « سيمضى شهران أو ثلاثة شهور قبل أن تقدمى إلى المحاكمة يا سيدة شير ، وليس هذا بالزمن الطويل ، ولهذا أنصح لك بأن تتهيأى لما هو مقبل ، واعلمى أن للمحكمة الحق فى الحكم بالإعدام فى الجريمة التى ارتكبتها ، ومع السلامة يا سيدة شير ! » وانحنى لى وأنا خارجة وقد ابتسم ابتسامة كشفت عن أنيابه .

* * *

وجاءنى أول خبر عن كيتى عفواً من رجال السجن أنفسهم فى خلال الشهر الثانى من اعتقالى . ذلك أن السجان جاءنا ذات ليلة بالقهوة والخبز ، ولكنه بدلا من أن يسلمنا جرايتنا اليومية من الدهن دفع إلينا إعلاناً يقول :

« سيحرم السجناء جرايتهم اليومية من الدهن اليوم عقاباً لهم على ما قامت به من محاولة الهرب امرأة إنجليزية ، فرنسية بالزواج ، متهمة بمساعدة الجنود الإنجليز على الفرار من فرنسا . وقد أخفقت محاولتها وحكم عليها بالسجن الانفرادى لمدة ثلاثين يوماً . وهذا إنذار للسجناء بأن كل محاولة أخرى للفرار سيكون جزاؤها أصرم » .

ولم يداخلنى شك فى أن التى فعلت هذا هى كيتى التى لا يثنيها شىء . وما أكثر ما رأيتها تتمشى فى الغرفة وتفتح نافذة بعد أخرى وهى تقول : « إن الهواء حبيس . وأنا أحس كأنى فى سجن ! » هذه هى كيتى التى تحب الهواء والحرية ! وعلمت فيما بعد أن صحتها تداعت قبل أن ينتهى الشهر فنقلت إلى مستشفى السجن .

وبعد ذلك بقليل دعيت إلى مكتب مأمور السجن حيث وجدت الدكتور هاجير ينتظرنى . فناولنى وثيقة فى خمس عشر صفحة وهو يقول : « لقد جئت لأحذرك للمرة الأخيرة . فهل تودين أن تقرأى اعتراف السيدة بوريبو ؟ » .

فعبرتها بسرعة ، وكانت كل فقرة تبدأ بهذه العبارة : « أعترف . . . » ، وكانت تحتوى على بيان شامل لأعمالنا . فصعقت . كيف قبلت كيتى أن تفعل هذا ؟

وقال الدكتور هاجير بلهجة المنتظر : « أرأيت الآن ؟ فما رأيك فى الاعتراف ؟ » فلم أقل شيئاً فمضى هو يقول : « تعالى يا سيدة شير ، إن هذه سخافة . وكل ما تجنينه هو أن تستثيرى غضب المحكمة ، ولست أراعى فى هذا سوى خيرك » .

وكان خيراً للدكتور هاجير أن يهمل الجملة الأخيرة ، فقلت ببساطة : « ليس عندى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ما أزيده على أقوالى السابقة » ، فعادوا بى إلى محبسى .

* * *

وحوالى الساعة الثامنة من صباح ٧ من مارس أمرنى الحارس أن أمضى معه إلى المحاكمة . ولما بلغنا رأس السلم دفع باباً ونادى : « رقم ٢٠١٧ — للمحاكمة ! » فظهرت كيتى فى الباب .

فوثب قلبى فى صدرى . وكان وجهها ممتقعاً ، وتحت عينيها ظلال عميقة ، ولكنها لم تكن تبدو محطمة الجسم أو النفس ، وألقت إلى نظرة وطيف ابتسامة وقالت : « هاللو يا إيتا ! » .

فصاح الحارس : « صه ! إن السجناء لا يجوز لهم أن يتكلموا » .

ووجدنا سيارة سجن مدهونة باللون الأخضر واقفة عند الرصيف وفتح الحارس الباب فدخلنا ، ثم أوصد الباب علينا ، وانطلقت السيارة بنا .

ولما صرنا وحدنا نظرت إلى كيتى معاتبة وقالت : « كيف فعلت هذا يا إيتا ؟ كيف خارت قواك إلى حد الإقرار بكل شىء لهؤلاء الناس ؟ » .

فتمتمت : « أنا ؟ ... » ، وقد ذهلت وصدمت .

« لا بد أنهم أرهبوك يا إيتا ، ولكنك كنت خليقة أن تثبتى وتأخذى فى أمرك بالحزم . وكان ينبغى أن أكون ساخطة ناقمة عليك ... » .

فصحت : « كيتى ، إنى أقسم لك أنى أنكرت كل شىء » .

قالت : « ولكنى رأيت اعترافك بعينى هاتين ، وكان فى عشر صفحات ومذيلا بتوقيعك ، وعرفت خطك » .

فقلت : « كانت أقوالى فى عشر صفحات ، ولكنها كانت كلها إنكاراً لا اعترافاً . فإذا كنت رأيت غير ذلك فهو مزور » .

فقالت كيتى : « يا إلهى ! لقد صدقت ! ولقد اعترفت ! وأنا الذى خذلتك وخذلت نفسى ! » وتوجعت : « ومع ذلك اتهمتك ! » فوضعت ذراعى حول كتفها .

« لم تكن هذه غلطتك يا كيتى ! » .

فهزت كيتى رأسها ببطء وقالت : « لقد ضعنا يا إيتا ! ضعنا .. » . ووقفت السيارة فرفعت كيتى رأسها وسوت ثوبها . وقالت : « إرفعى رأسك يا إيتا ! ولا تدعى هؤلاء الألمانيين يروا أننا نخافهم ! »

وكان فى وسط قاعة المحكمة منضدة طويلة عليها حزم سميكة من الوثائق . وكانت كراسى القضاة ذوات ظهور عالية ، وأمامهم مقعد طويل للمدعى عليهم ، وعلى هذا المقعد جلست أنا وكيتى . وبعد لحظة وافانا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

المسيو تيسييه والأب كريستيان ، وكان شانسيل آخر من جاء محييا بهزة خفيفة من رأسه كأننا غريبان .

وكانت عيني على الباب ، وكنت أتوقع أن أرى المسيو دوران يدخل في أية لحظة ، ولكنه لم يجيء غيرنا .

وقال رئيس المحكمة : « السيدة كيتي بوريبو » .

نخطت كيتي إلى المنضدة الطويلة .

وكانت الأسئلة الأولى التي ألقيت عليها هي المألوفة : الاسم ، والعنوان ، والسن ، والمولد ، والجنسية ، والديانة إلى آخر ذلك ، ثم قال القاضي : « أنت متهمة بالتآمر مع السيدة شيير ، والمسيو كريستيان رافييه ، والمسيو تيسييه والمسيو كوربييه على تهريب الجنود الأنجليز من هذه البلاد » .

فقالت كيتي بصوت صاف جلي : « ليس هذا صحيحاً ! »

فقال القاضي متهكما : « صحيح ؟ هذا غريب ! فإن أمامي اعترافك بتوقيعك » .

قالت بثبات : « أنا لا أنكر ما اعترفت به ، ولكن هؤلاء الآخرين ليس لهم شأن بما فعلت » .

فقال : « لابد أن السيدة شيير التي كانت تعايشك في شقة واحدة كانت شاذة في عنادها » .

فأصرت كيتي وقالت : « على كل حال لم تكن تعرف شيئاً » .

« والمسيو تيسييه ؟ لقد استخدمت ضيعته لعبور خط الحدود » .

فقالت كيتي : « إننا لم نستأذنه ، وإنما اخترنا ضيعته لموقعها ، ثم رحنا نعبرها . وهذا كل ما هنالك » .

فقال القاضي متهكما : « هذا أحسن وأحسن . والآن نأتي للمسيو رافييه . فماذا أعددت له من المسوغات الطريفة ؟ »

قالت : « إنما اتخذت منه ستاراً لرحلاتي ، وكان يظن أني أساعده على جمع المال لترميم كنيسته » .

وكنت ، وأنا أسمع ما تقول كيتي ، أعجب بها وأرثي لها ، وأعطف عليها . فقد كان من المروءة أن تحاول إنقاذنا ، ولكن قصتها كانت بينة البطلان .

وقال القاضي : « هذا حسن . والآن بقي لدينا واحد . فما قولك في المسيو كوربييه ؟ »

فقالت بهدوء : « لست أعرف المسيو كوربييه » ، فقد فطنت هي أيضا إلى أنهم لم يعرفوا أنه شانسيل .

فقال القاضي : « إنك نبيلة جداً ، ولكنك طفلة غير حاذقة . وقد اعترفت ، وقررت أنك لا تريدين أن تنكري ما أقررت

به ، وهذا كل مايعنينا أن نسمعه منك » ، وأشار إليها إشارة الانصراف .

« السيدة إيتا شيبر ! » .

فاتخـذت مكانى أمام المنضدة ، وأجبت على الأسئلة التمهيدية .

وقال القـاضى : « إنك تعرفـين التهم الموجهة إليك ، فهل أنت مذنبة ؟ » .

قلت : « بل أنا بريئة » .

فرمانى القاضى بنظرة جافية حادة كأنها سن الرمح دون أن يتحرك أو يتكلم ، ثم ضرب المنضدة بجمع يده فجأة ضربة شديدة ارتفعت منها ملفات الأوراق عن مواضعها .

وصاح : « هراء ! كيف تجرؤين أن تزعمى أنك بريئة ؟ لقـد كانت الشقة التى تعيشين فيها غاصة دائماً بالجنود الفارين ، وكنت أنت القائدة الثانية لهذه العصابة من المجرمين . وإنك لمذنبة يا سـيدة شيبر ! وستأخذ المحكمة علماً بموقفك هذا » .

صاح بكل هذا فى نفس واحد ، وقد انتابته نوبة من الغضب الجامح ، فوقفت مسمرة فى مكانى ، وقد سحرتنى نظرته وألفاظه . وختم صياحه بقوله : « إذا كان هـذا كل ما جئت لتخبرينا به فالأولى أن تعودى إلى مقعدك » .

فتعثرت مرتدة إلى المقعد ، وقد انتسخ كل أمل أنشأته فى نفسى الشهادة التى أدتها كيتى . فإن من الجلى أن هذه المحكمة لا تنوى أن تعنىّ نفسها بالبحث عن البينة .

ونهض المسيو تيسييه إلى المنضدة الطويلة .

فقال القاضى : « لاحظت أنك جعلت توقيعك على أقوالك ، علامة الصليب ، فهل من الممكن أن تعجز عن كتابة اسمك ؟ » ،

فقال تيسييه بهدوء : « نعم لا أقدر » .

فقال القاضى : « شيء جميل ! فى هذه البلاد التى تفخر بعلمها يُنتخب رجل عمدة لبلدته ثلاث مرات ، وهو لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب » .

فقال تيسييه : « إنى لم أقل إنى لا أعرف الكتابة والقراءة » ، ومد ذراعه اليمنى : « ولكنى لا أستطيع أن أكتب بالقلم لأن رصاصة ألمانية مزقت يدى فى معركة المارن سنة ١٩١٤ » .

فاتقد وجه القاضى وعجل بالسؤال الثانى ، فاعترف تيسييه بأنه سمح لمن شاء أن يجتاز ضيعته لأنه لا يعترف بأن للأجانب حقاً فى إصدار أوامر يخضع لها الفرنسيون فى بلادهم .

ونهض الأب كريستيان بعـــد المسيو تيسييه . ولشد ما تمنيت أن شهادته دونت بالحرف الواحد ! فقد قال على قدر ما أتذكر « إن فرنسا لا تزال فى حرب مع المانيا . نعم استسلم لكم القواد ولكن الشعب لم يستسلم . وكم عددكم فى فرنسا ؟ مليون ؟

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فإن فى فرنسا أربعين مليوناً ضدكم ! « وأنا قسيس ، ولكنى كنت ومازلت فى هذه الحرب جندياً ، فقد كنت أحارب فى سبيل ما هو أعظم من الفصل الحربى بين دولتين — فى سبيل العدل . ولست أنتظر أن أرى العدل قائماً فى هذه المحكمة ، ولكنى أعلم أن العدل الإلهى سيسود فى النهاية ، وسيمضى الله فيكم قضاءه يا من تنتحلون حق الحكم علينا » .

وكان شانسيل آخر من دعى ، فخوطب باسم كوربييه مرة أخرى ، واتهم بأنه من عصابتنا ، وإن كانت البينة الوحيدة التى سيقت ضده هى أن بطاقة بريد وجدت فى شقته وعليها رسم هزلى للفوهرر ، وتحته عبارة : « فلتحى فرنسا ! » وليسقط البوش ! (الألمان) ، ثم قام المدعى وخلط الصحيح من التفاصيل بالخيال المحض ، وطلب الحكم علينا باسم هتلر .

وسمح لمحامى الدفاع أن يتكلموا ، ثم أعلن القاضى أنه هو وزملاؤه سيخلون للتداول فى الحكم . وأنهم ليهمون بأن يغادروا القاعة ، وإذا بالدكتور هاجير يندفع داخلا وهو يلهث ، وأسر إلى القاضى شيئاً ، وأخرج أوراقاً من محفظة .

فطرق القاضى المنضدة وقال : « أعيدت الجلسة واستؤنفت المحاكمة ، فقد ظهرت بينات جديدة . قف يامسيو شانسيل ! » .

فلم يسعنى إلا الإعجاب بالمسيو شانسيل وحضور ذهنه ، فقد ظل لا يتحرك بعد أن نودى اسمه على غير انتظار ، ولكننا نحن وقعنا فى الفخ وفضحنا صاحبنا ، فقد انثنت رءوسنا متجهة إليه ! .

وقال القاضى : « وا أسفاه ياهر شانسيل ! إذا كنت أنت قد نسيت اسمك ، فإن أصدقاءك لم ينسوه ! فالأولى بك أن تكف عن هذه المهزلة ، يا سيد شانسيل ، أو يا سيد كوربييه إذا كنت تؤثر هذا الاسم ! ويظهر أنك لم تأخذ الحيطة الكافية فتركت أوراقك الصحيحة وبعض الأوراق باسم كوربييه مع صديق لك ، كان من سوء حظه أنه قبض عليه . فهل تحب أن تغير ما قلت من أنك لا تعرف المتهمين ، ولم تكن لك صلة بما فعلوا ؟ » .

فقال شانسيل : « إذا كنت مطلعاً هذا الاطلاع كله من قبل ، فلا داعى إذن لأن أضيف أنا شيئاً » .

فغضب القاضى وقال : « إن هذه المحكمة لا تحفل اعترافك أو إصرارك على إنكار علاقاتك الجلية بهذه المؤامرة الإجرامية » .

ونهض المدعى وقال : « أود أن أضم اسم الهر شانسيل إلى أسماء من طلبت الحكم عليهم بالإعدام » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فقال القاضي : « قد أخذت المحكمة علماً بذلك » .

وأهمل شانسيل هذه « الإجراءات » ، والتفت إلينا وقال : « اسمحوا لي أن أعتذر وأطلب الصفح عن تلكؤي عن تحيتكم ، وإني لأعلم أن السبب لا يخفى عليكم » .

وكانت الساعة الثانية لما فتحت الأبواب ، ودخل القضاة القاعة متكلفين الأبهة والسمت ، ونطق الرئيس بالحكم : بالإعدام على كيتي والأب كريستيان ، وبالأشغال الشاقة خمس سنوات على شانسيل ، وبالأشغال الشاقة أربع سنوات على تيسييه ، وبها ثلاث سنوات عليّ .

وما أشك في أن آيات الجزع والاستفظاع ارتسمت على وجهي . ولقد كان نصيبي أخف من نصيب الآخرين ، ولكني شعرت أني لا أستطيع أن أحتمل ثلاث سنوات أخرى في هذا السجن الفظيع . ثم تذكرت ما حكم به على كيتي والأب كريستيان — الإعدام — ولا أعرف أن أحداً منهما نجا من ذلك .

وأمسكت كيتي بذراعي وقالت : « لا تبكي يا إيتا ! لا تدعي هؤلاء الألمانيين يروا أننا فقدنا اتزاننا وكبرياءنا ! » فضغطت يدها . ورددت عبراتي وخنقت شهقاتي ، فقد كانت كيتي المحكوم عليها بالإعدام تعزيني أنا لما

وأوصدت علينا سيارة السجن مرة أخرى . وادرك كلانا أن لعل هذه آخر مرة تتلاقى فيها عيوننا ، فتهافت ، وأرحت رأسي على صدر كيتي وبكيت بأربع . فمسحت كيتي شعري وأنشأت تقول :

« كان ينبغي أن أحملك على الرجوع إلى بلادك قبل أن تفلت الفرصة . ولا تقلقي عليّ يا إيتا . لقد جاء وقت كان فيه خاطر الموت يشيع في نفسي الجزع ، ولكني ألفت هذا الخاطر وسكنت إليه ، وسيموت ملايين قبل أن تنتهي هذه الحرب ، وليس في موت فرد آخر زيادة تحدث اختلافاً ، ولا سيما إذا ذكرت يا إيتا أني لم أخفق بل نجحت ، وأحرزت مائة وخمسين انتصاراً على الألمان في مقابلة هذه الهزيمة المفردة . فعديني يا إيتا أن لا تحزني إذ تفكرين في أمري . فكري فقط في هؤلاء الشبان الأشداء ذوي القلوب الكبيرة الذين رددناهم إلى وطنهم . لقد أعطيت إنجلترا مائة وخمسين حياة في مقابلة هذه الحياة الوحيدة التي تفقدها الآن » .

ووقفت السيارة . فقد بلغنا السجن .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

جسر الى النصر

فتح جزيرة اتو

ملخصة عن كتاب هوارد هاندلمان

« جسر إلى النصر » هو أول رواية تامة لاعادة فتح جزر ألوشيان وقد شهد هوارد هاندلمان مكاتب الأنباء الدولية كل ما جرى ووصفه وصفاً بيناً — الخطة الواسعة النطاق ، والحوادث الصغيرة ، والمناظر الرهيبة التي يكتنفها الضباب ، والأصوات والروائح وما كان في المعارك .

ولكنه فوق كل شيء معنى بزملائه من بني الانسان — أولئك الشبان الأمريكيين الذين جاءوا من وراء مسقاة الصودا ، أو مكتب الموظف ، أو المحراث ، وقذف بهم فجأة في أعجب قتال وأقساه في هذه الحرب .

ويشاطرهم هاندلمان رغبتهم في استطلاع كنه هذا العدو الشيطاني ، فيتسلل إلى مخابئ اليابانيين ، ويتأمل موتاهم ، ويتفحص الأسرى القليلين ، محاولا أن يفهم هؤلاء المخلوقات الذين يبدون أحياناً أشداء متجلدين وأحياناً متهافتين تالفي الأعصاب .

وجملة الأثر الذي يقع في نفس القارئ من هذه القصة التي تستولي عليه هي أنه يحس أنه هو أيضاً قد خاض هذه المعارك التاريخية .

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

جسر إلى النصر

لم يكن أحد، قبل الحرب، يريد أن تكون له جزر ألوشيان التي يعيش عليها حوالى ٩٠٠ من الأهالي وحفنة من الصيادين الأمريكيين. حتى الأهالي أنفسهم كانوا لا يستطيبون العيش في هذه الجزر. ولكن اليابانيين احتلوا جزيرتي أتو، وكيسكا، فصار من الضروري أن يطردوا لأنهم هددوا ألاسكا.

وقد اجتمع سوء الجو ووعورة الأرض فجعلا من جزر ألوشيان أصعب ميدان حرب في التاريخ الأمريكي، وقضت قواتنا شهوراً تحت قيادة الأسطول ولكن مع التعاون الوثيق، في إقامة قاعدة بعد أخرى في الداني من جزر ألوشيان والإحداق بكيسكا وأتو، من أجل المعركة القريبة المدى، وفي إعداد طريق جوي إلى اليابان للمعركة الطويلة المدى.

وكانت الخاتمة ذلك القتال المر الذي دار في رقعة جرداء خالية من الشجر من جزيرة أتو، وهذه قصته.

في أول مايو من سنة ١٩٤٣ احتشد في خليج «كولد» بألاسكا من القوة البحرية فوق كل ما شهدته هذه البلاد الشمالية في تاريخها: بوارج، ومدمرات، وحاملة طائرات صغيرة، وناقلات جنود صارت ظهورها صفراء سمراء لكثرة من اجتمع عليها من الجنود في بذلاتهم متلاصقين كتفاً إلى كتف، وكانت الطائرات المقاتلة تصعد من حاملتها ومن المطار الساحلي وتزأر فوق الرءوس، وتنقض أحياناً على إحدى السفن على سبيل التدرب.

وسمعت بحاراً يقول، وقد امتلأ قلبه روعة: «يا إلهي! سنخرج حقا للاستيلاء على تلك الجزيرة اللعينة».

وكان الجانب الأكبر من الجنود غايته خليج «ماسكار» في الرقعة الجنوبية من جزيرة أتو، وكانت ناقلة جنود مفردة ستقصد إلى خليج «هولتز» في الشمال. وكانت الخطة أن تلتقي القوتان عند المعسكر الياباني الرئيسي على القوس الغربية من خليج هولتز بعد يوم ونصف يوم من النزول إلى البر. وكان بين المكاتبين تنافس كثير، واحتيال غير قليل، على المراكز الممتازة. وراهنت على أن الجنود الذين تقلهم الناقلة المفردة سيصلون أول من يصل

وكان قائد هؤلاء الجنود الصاغ ألبرت ف. هارتل، وهو ربعة، دقيق العبارة، نظامي، وإذا لقيته أول مرة لم يبد لك أنه صليب العود قوي المراس، وأنه ذاهب لأداء مهمة شاقة. ولم يكن لسانه يجرى بلفظ ناب، وكان لا يفتأ يقول عن اليابانيين «إخواننا الصفر الصغار»، وكانت لهجته حين يقول ذلك أنم عن إحساسه وأكشف عن شعوره من العبارة المألوفة «أولاد الحرام الصفر الصغار».

وكان هارتل في حياته المدنية رئيس الحسابات في لجنة المنافع العامة بولاية داكوتا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الشمالية ، وكان يبتسم كالمعتذر حين يذكر ذلك ، على أن معظم الضباط وكل الجنود تقريباً كانوا يزاولون أعمالا ويحيون حياة كهذه ، لا صلة لها بالحرب ، فكان منهم الزراع ، والمحامون ، وموظفو المكاتب ، وطلبة المدارس ، ورجال الأعمال ، وعمال المصانع ، والمعدنون ، والبائعون المتنقلون ، وغيرهم ، فكانت أمريكا كلها ممثلة هناك . وكل ما صنعته أمريكا فى حياتها ، صنعه هؤلاء الرجال ، وجمعتهم الحرب معا ، وصاغت منهم كتلة واحدة ، ثم أخرجتهم على سواء ، كما أظهرت معركة أتو ، فقاتل كل واحد منهم ، وقاتلوا جميعاً كأنهم كانوا ما اشتغلوا بغير ذلك قط من قبل .

* * *

وقضى أسطول الغزو تسعة أيام يقطع البحر من خليج كولد إلى أتو ، وكانت هناك أدوات للألعاب الرياضية ، ولكن ظهور السفن كانت غاصة بالصنادل والمدافع والأجهزة ، فلم يتسن إلا لفئات قليلة من الجنود أن يزاولوا الرياضة فى وقت واحد . وبلغ من الاكتظاظ أن الرجال كانوا يقرأون وهم مستندون إلى ظهور زملائهم وكان الضباط يذهبون طول النهار فى طوائف صغيرة إلى حجرة المطالعة للدرس ، فكانت الحجرة أشبه بغرف النوم فى الكلية قبل الامتحان النهائى . فكنت ترى لفيفاً من ضباط الصف فى ركن ، و ١٠ أو ١٢ من المجندين فى آخر ، وجماعة كبيرة جالسين إلى منضدة فى الوسط . وكان الضباط يطلعون ضباط الصف والجنود على كل شىء ، لأن الجيش الأمريكى يعمل بالرأى القائل أن الجندى المطلع على جلية الأمر هو خير جندى .

حتى وجبات الطعام كانت فتراتها تستخدم لتعريف الجنود تعريفاً تاما بمهمتهم القادمة ، فكان الممر الذى يجتازه الجنود ليأخذوا طعامهم فيه مصوّر بارز ضخم للناحية الشمالية الشرقية من جزيرة أتو ، وهى الناحية التى سنهاجمها ، فكان الجنود يعكفون على هذا المصور ليلا ونهاراً ليدرسوه .

على أن من سوء الحظ أن معالم المصور كانت غير صحيحة ، فالكثبان التى كانت تبدو عليه كالتلال الواطئة تبين أنها جبال ترتفع إلى ٤٠٠٠ قدم فى أتو ، وكان هذا هو الخطأ الأكبر فى الحساب الذى وقعت فيه الحملة .

وفى اجتماع الضباط ، محا الصاغ هارتل الأثر الأول الذى وقع فى نفوسنا منه ، فقد وفى كل شىء حقه من البيان ، فى أناة ودقة وإحكام ، حتى لكأنه أستاذ فى مدرسة :

« ليست مهمتنا هذه بالهينة . فقد قضى إخواننا الصفر الصغار أحد عشر شهراً فى

أتو ، وهم أقوياء ، فى خليج هولتز الذى يجب أن نبلغـــه بأسرع ما نستطيع ، وستكون لنا السيطرة على البحر ، وستكون لنـا ، على الأقل فى اليوم الأول ، السيطرة على الجو ، ثم لا ندرى ماذا يكون بعد ذلك ، فإنهم يستطيعون أن يطيروا إلى هنـا من بارامو شيرو وهى على أقل من ٧٠٠ ميل .

ولا ندرى هل نستطيع أن ننزل على الشاطىء الذى اخترناه — الشاطىء الأحمر — أو لا نستطيع ، فهو صغير ، وصخرى ، وقد دلنا الاستطلاع الجوى على أنه ليس فيه يابانيون ، فإذا لم يكن فيه منهم أحد ، فإن هذا يكون حسناً ، وإلا فسيكون علينا أن نقاتل .

« وإذا نزلنـا على الشاطىء الأحمر فسيضرب الأسطول ما يلى ذلك أمامنـا ، وسيكون لنا رقعة تمتد إلى ستمائة ياردة تقع بيننا وبين مواقع القنابل .

« فاحرصوا على أن تتبينوا أى علامة تدل على أن أى رجل من رجالكم أصابه اضطراب من جراء الصدمة الأولى للمعركة ، فإذا رأيتم أحداً يضطرب فسيكون عليكم أن تحادثوه وتقوّوا قلبه وتشدوا أعصابه ، أو أن تردوه إلى الخلف ليتولى أمره الأطباء ، فما يعرف أحد منا كيف يكون حاله حين يلقى نفسه لأول مرة تحت وابل من النار .

« واستوثقوا من أن كل رجالكم ينزلون ومعهم ما يكفى من الطعام يوماً ،

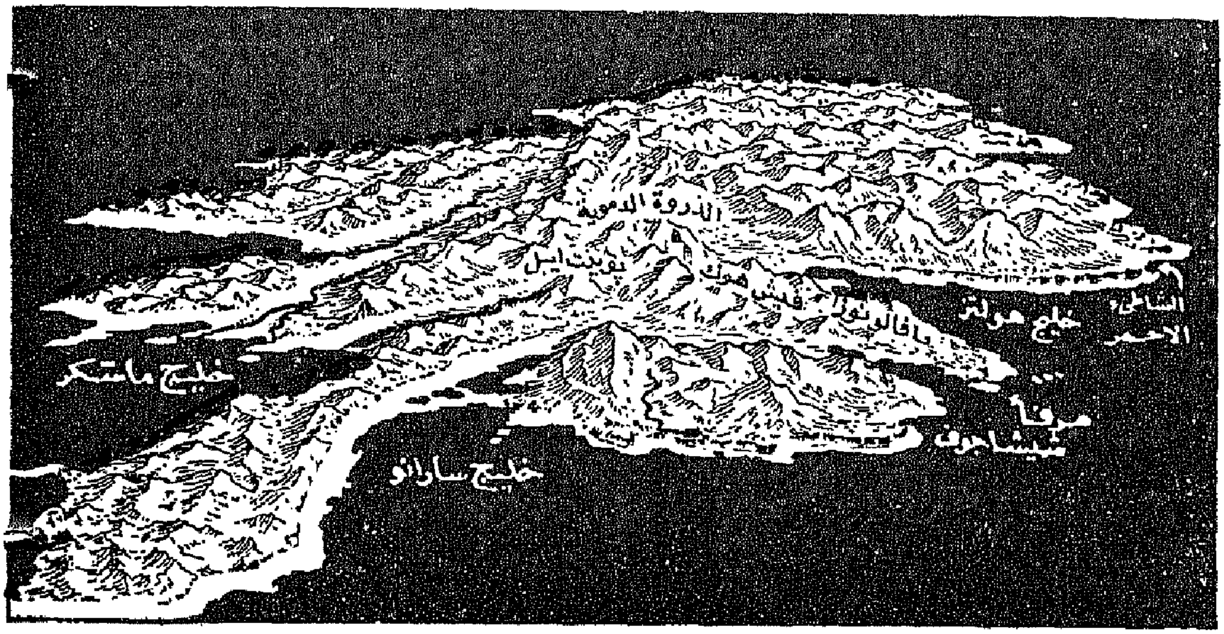

أتـو

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وأنهم يلبسون جوارب نظيفة وثياباً تحتية نظيفة ، وأنهم حلقوا ذقونهم ، وأنهم ، إذا تيسر ذلك ، اغتسلوا ، فإن القذارة تجعل إمكان العدوى أسهل . فينبغى أن تقص شعورهم ، وتقصر ، لأن الشعر الطويل يمتزج بجروح الرأس ويجعل العلاج أشق على الأطباء .

« وفى مرجوّنا أن يتسنى لنا أن نهيء لكل سَرِية خيمة دافئة حيث يستطيع الجنود أن يدفأوا ويجففوا ثيابهم ، وليست هذه بخيام للنوم ، فما ينبغى أن يبقى فيها أحد أكثر مما يلزم .

« وسينتهى القتال يوماً ما ، فمروا جنودكم أن يستعدوا لذلك اليوم الذى سيرخون فيه أعصابهم . قولوا لهم إن لهم إذا شاءوا أن يحملوا معهم فى جيوبهم ورقاً للعب » .

ولم يغفل هارتل شيئاً ، « والورق اللازم للتيمم . فقد علمت أن معدات الحمامات فى الجزيرة سيئة » .

وبعد ذلك ، جلس الصاغ هارتل يستريح قليلا ، عند مدفع ، تحت شمس بهرنج القصيرة فقال : « لقد تكلمت كثيراً على الصدمة الأولى للمعركة ، فقد سمعت أن وقعها شديد على المرء ، وأن البعض يخور ويتهافت ، وقد فعلت كل ماخطر لى لإعداد رجالى لتلقى الصدمة . وما أظن إلا أنهم سيجتازون امتحانها ، ولكن الذى أريد حقيقة أن أعرفه هل أجتاز أنا امتحانها؟» .

* * *

وكان يوم ١١ من مايو — وهو المعين للهجوم — يوماً حافلا بالحركة ، وكان الفطور فى الساعة الرابعة صباحا ، ومن عادة الضباط أن يدخلوا فرادى وعلى مهل ، ولكنهم فى ذلك الصباح هبطوا معاً إلى غرفة الطعام ، وقل من ذاق نوماً فى تلك الليلة ، فقد كان كل امرىء أشد تنبهاً من أن يؤاتيه النوم ، واستطاع الأكثرون أن يحلقوا لحاهم ، وبدا القوم أنظف مما كانوا فى أى وقت فى هذه الرحلة ، وكان ضباط الأسطول هناك أيضاً ، فقد كان هذا يوما عظيما لهم أيضاً ، إذ كان عليهم أن يمكنوا الجيش من النزول إلى الشاطىء .

ولم يستطع بحارة المطبخ أن يسدوا حاجات كل هذا الطوفان من الرجال ، وأخيراً دخل الضباط المطبخ وحمروا خبزاتهم وقلوا البيض ، وتعالى الضحك وأنسى القوم ماهم قادمون عليه ، فما يستطيع الإنسان أن يقلق من أجل شىء لم يقع بعد وأمامه البيض يقلى ورائحته تفغم خيشومه .

ولم يكن أحد مكتئباً سوى الدكتور هافرلى ، فأجال عينه فى هذا الحشد من

الفتيان الأمريكيين الضاحكين الصابحى الوجوه ، وهمس وهو كأنه مشفق على البكاء: « يا إلهى ! إنه ليسرنى أنهم لا يدركون ما هو مخبوء لهم . فإنا نقدر أن تبلغ الخسائر فى الأرواح ثلاثين فى المائة » .

وبعد الفراغ من الطعام راح الجنود يعنون بأشياء تافهة ، ليستوثقوا من أنهم لم يغفلوا شيئاً لازما ، وليزجوا الفراغ ، فراجعوا معداتهم ، وأعدوا خناجرهم ذوات القُرُب ، ودهنوا جلود أحذيتهم .

ورق الضباب فى الساعة السابعة ، واستطعنا أن نرى البوارج والمدمرات ، وكان البحر غاصاً بالسفن التى تتخذ مواقعها ، وعاودنا ما شعرنا به من القوة ونحن فى الميناء . وفى الساعة الثامنة كثف الضباب وصار كالجدار ، فصرنا لا نستطيع أن نرى آخر سفينتنا من أولها .

وفى منتصف الساعة التاسعة صدر الأمر بالمذياع لكتيبة ! وإلى كشافة ألاسكا قطاع الرقاب الخبراء بأحوال ألاسكا أن يكونوا فى صنادلهم ، فلبس القائمقام فرانك ل . كولن — من أبناء توكسون بولاية أريزونا — خوذته . وهو رجل متين الأسر صليب العود ومن المحاربين القدماء . وكانت كتيبته احتياطية ، ولم تكن قد اختيرت للنزول ، ولكنه هو اختير لقيادة أول من ينزلون ، ولقتال اليابانيين الذين قد يكونون على الشاطىء .

وتقدم منه ضابط صغير وتمنى له حظاً سعيداً ، وكان كولن ماضياً فى طريقه ، فوقف ودار وقال: « إنى مدين لك بالشكر » .

وكان صوته يشى بالإخلاص العميق ، ولكن نظرته كانت لا تخلو من آيات السهوم ، واستقل الجنود الصنادل واحداً بعد واحد بنظام ، وصعدوا عيونهم إلى الواقفين إلى جانب حاجز السفينة ، من الجماعة الثانية أو الثالثة ، فحول الواقفون عيونهم ، ولم يقل أحد شيئاً ، ولم يجر لسان بكلمة توديع أو دعاء بالخير ، فقد كان الأمر فوق هذا كله .

وجعل الجنود المحشورون فى الصنادل يتلفتون ، ويتحوجون ، وينقلون القنابل اليدوية من جيب إلى جيب ، لتكون أقرب منالا ، وأخرج جندى من حقيبته فرشة أسنان ونظف بها جهاز الإطلاق فى بندقيته .

واختفت الصنادل العشرة فى الضباب ، وكانت تجر وراءها ثلاثة زوارق مرنة ذات مجاديف ، كان فيها كشافة ألاسكا . وكان عليهم بعد أن يفصلوا عن الصنادل أن يجدفوا إلى الشاطىء بمجاديف لا تحدث صوتاً ، وكان هذا أول ما استعمل من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أساليب الهنود فى معركة كتب لها أن تحفل بالقتال على طريقة الهنود .

وكان على البوارج أن تبدأ الضرب فى الساعة العاشرة ، ولكنها لم تفعل لسبب ما ، فثقلت وطأة هذا التأخير على أعصابنا ، وراح أربعة من البحارة واقفين حول مدفع مضاد للطائرات يغنون كما يحدث فى مباريات كرة القدم .

« فلينسف هذا الشاطىء ! فلينسف هذا الشاطىء ! » .

***

وكان صباحاً كثير الأصوات ، وكانت هناك انفجارات ، ولكنا كنا نرى البوارج ونعرف أنها لم تطلق شيئاً . فالحرب دائرة ولكنا لا نعلم ماذا يجرى .

وألح القلق على القائمقام كولن ورجاله ، فقد مضى وقت طويل وهم هناك فى ذلك المجهول ، ولم يأتنا خبر عنهم .

وأخيراً بعث القائمقام كولن يقول إن الشاطىء خال ، وإن الصنادل تستطيع أن تدخل من بين الصخور .

وكان هارتل لا يستقر فهو يريد أن يبلغ الشاطىء ، وأن يشرع فى العمل ، وكان يبغى أن يستغل أكثر ما يمكن من نور النهار فى هذا اليوم الأول ليستطيع رجاله أن يحفروا الخنادق ، ولكن الأمر بركوب الصنادل لم يجىء إلا فى الساعة الأولى بعد الظهر تقريباً ، فأنزلت وغص بها البحر ، وفى كل منها حمولة نفيسة من الرجال والذخائر والطعام . وكانت الصنادل تفرق الماء بقوة فيصيبنا منه رشاش ، ثم سارت فى صف واحداً وراء الآخر تتقدمها مدمرة كأنها دجاجة خلفها فراريجها .

وكانت المسافة طويلة ، فخدرت سيقان الرجال .

وكان الشاويش دييجو روبيلز واقفاً فى الصندل الذى كنت فيه ، وظهره إلى جداره ، فسأل جنوده هل بنادقهم معدة ؟ وقنابلهم اليدوية قريبة المنال ؟ وحقيبتهم مشدودة إلى ظهورهم ؟ وكان روبيلز فى حياته المدنية زارعاً فى كونكورد بولاية كاليفورنيا وقد ترك فرصة الالتحاق بمدرسة لتدريب الضباط تفلت منه ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

حتى لا يفوته الاشتراك فى غزو جزيرة أتو .

وبدا الشاطىء من خلال الضباب فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة ، وكانت الثلوج على جوانب الجبل تبدو لنا أول الامر كالدخان ، وتدانت الصنادل مرة أخرى فى صخب .

وبعد دقائق سمعنا أول صوت للضرب من السفن ، ولم يكن ثم شك فى أن هذا صوت قنابل مقذوفة من مدافع من عيار ١٤ بوصة . وكان قد قيل لنا إن الضرب من البحر أفظع ما فى الحرب وأشده خلعاً للأفئدة ، وقد صدقنا ذلك لما سمعنا صوت القنابل الضخمة وهى تمرق فوق رءوسنا خلال الضباب .

وبينما كان الضرب من الأسطول مستمراً جعل الجنود يصيحون : «صبوا نار الجحيم على أولاد الزوانى ! اعصفوا بهم ! فهذا ما استحقوه ، عليهم اللعنة ! أذيقوهم العذاب ! ولا تقطعوه عنهم ! » .

وقد أزعجت ضوضاء القنابل الأوز الألوشى الكبير السمين الأسود ، فطارت ثلاث منه قريباً منا بأسرع مما طارت الأوز فى حياتها من قبل .

ورأينا ، ونحن قادمون على الشاطىء ، أعلاماً صغيرة عائمة حمراء وسوداء على أطواف مربعة تبرز هنا وهناك فوق الماء ، فطمأننا أن نراها . فإن مؤداها أنه قد سبقنا إلى هنا أمريكيون ، وأنهم ينتظروننا على الشاطىء ، فزالت عنا الوحشة .

وكانت رقعة الشاطىء التى نزلنا فيها — إلى الشمال من القاعدة اليابانية فى خليج هولتز — لا تزيد سعتها على مائة ياردة ، فكانت الصنادل تدنو من الشاطىء اثنين اثنين ، والبقية تنتظر دورها على مسافة.

ولما بلغنا حافة الماء سمعنا المشرف على الشاطىء والنزول إليه يصيح بمكبر الصوت: « يجب أن تتعرجوا وتزحفوا كالثعبان — كالثعبان ! فإن تحت الماء صخوراً . . . تحت الماء صخور » .

وجعل البحارة يميلون ميلا شديداً فوق جانب الصندل ، فإذا لمحوا صخوراً أشاروا إلى الذى فى يده الدفة ليتقيها .

وقبل أن نبلغ الشاطىء احتك الصندل احتكاكا قويا بصخرة كانت لحسن الحظ مستوية ، وقد وثب الصندل وثبة كبيرة ولكن الصخرة لم تخرق القاع الحديدى ، وأدلى لوح إلى الرمل البليل فنزل الجنود يحملون كل ما استطاعوا حمله من صناديق الذخيرة وذهبوا يعدون .

وانتهى الجزء الأول من المهمة ، وبقى الجزء الأصعب .

* * *

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

إن الذى اختار هـذا الشاطىء جدير بأن يحلى صـدره بمدالية كبيرة فقد كان يحيط به نجود ترتفع إلى ٨٠٠ قدم . ومن الجلى أن اليابانيين لم يخطر لهم أن النزول هنا مستطاع ، ولو أنهم ظنوا هـذا ممكناً لوسعهم أن يدافعوا عنه بستة من المدافع الرشاشة ، فجاء اختيار هـذه الرقعة من الشاطىء على مسافة أربعة أميال من المعسكر اليابانى الرئيسى القائم على هضبة ، عاملا كبيراً فى الانتصار الذى أحرزناه فى جزيرة أتو .

وكان الجيش والأسطول الأمريكيان يعملان بقوة حين بلغنا الشاطىء ، وكان الجنود فى كل مكان من الشاطىء ، يتخيرون خير المواضع لحفر الخنادق ، ويحملون الذخائر ، ويكومون صناديق الطعام ، ويجرون المدافع الثقيـلة فوق الرمال وحشائش البرارى الجليدية وراءها ، وقد غرس معظم الجنود هذه الحشائش فى شباك خوذاتهم ، للتمويه طبقاً للأوامر .

وذهب فريق منهم يصعدون فى ثنية فى هذا النجد ، وكان الصعود شاقاً لأنه كان زحفاً على اليدين والرجلين فى الوحل ، وكان هناك موضع دُلى منه حبل يتعلق به الجنود ويرتقون ، وكان بعض الرجال الذين يحملون صناديق الذخيرة ، أو جنود الإشارة الذين يجرون لفات ضخمة من أسلاك التليفون ، يزلون فيهوون تضع أقدام حتى يتسنى لهم أن يتعلقوا بصخرة أو يمسكوا بنبت متين . وانطرح الذين بلغوا الذروة على الحشيش البارد ليستريحوا مما أصابهم من الإعياء . وكان هـذا أول ما ذاقوا فى جزر ألوشيان ، وكان الطعم مراً .

وعلى ظهر الجبـل انتشرت طوائف صغيرة من الجنـود الأمريكيين على قدر ما كنا نستطيع أن نرى من خلال الضباب الذى بدأ يرق ويشف ، فتبعنا خط تليفون مد فوق الأرض المعشوشبة ، فبدت لنا وجوهها غريبة ، فمن أخاديد ، وجبال ، وثنيات ، وجداول ، وبحيرات ، وضباب ، ونور سيىء ، وغموض واستسرار وخطر . وكان المشى صعباً ، والأرض خائنة ، وجعل الجنود يقعون ، حتى وهم يسيرون على الأرض المستوية .

ووصلنا آخر الأمر إلى حيث كان الصاغ هارتل الذى سار مبكراً وبسرعة ، وكان قد اعتزم أن يتخذ مركزاً يمكنه من مهاجمة خليج هولتز فى اليوم التالى ، وكان عمـال اللاسلـكى يسيرون معه ومعهم جهاز للراديو .

وجاء أول نبأ بالاتصال بالعدو إلى الصاغ هارتل فى الساعة السادسة مساء ، ذلك أن دورية من كتيبة ب ، وكانت على مسافة كبيرة خلفنا على الجنـاح الأيسر قريباً من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

البحر ، التقت بدورية يابانية صغيرة، فقتل يابانى من أربعة، وجرح آخر ونجا اثنان. فلابد أن يعرف اليابانيون أننا إلى الشمال من مراكزهم .

وحدث بعد ذلك ، بينما كان جنود هارتل يستريحون على العشب المبلل ويلهثون من التعب ، أن سمعنا طلقات متقطعة من البنادق من ناحية الغرب عند خليج هولتز ، ولم يكن ذلك أكثر من صوت يخرج من الضباب ، فرجونا أن نعرف جليته فيما بعد .

وقد عرفنا . فبعد عشر دقائق أذاع الراديو أن دورية كتيبة ب التى قتلت يابانياً حصرت اليابانى الجريح بين الصخور وهى تطلق النار عليه .

وقبيل الساعة الثامنة أقبل الملازم بارى سجدن — ضابط المخابرات التابع لهارتل — وهو مشرق الوجه ، وأنفاسه سريعة ، ومعه بندقية يابانية غريبة طويلة القصبة برتقالية اللون .

وتداولها الجنود ، وكان يبدو أنها رخيصة ، وأشبه بالبندقيات الأمريكية القديمة الطراز لصيد الطيور ، وعيارها واطىء لا يزيد على ٢٥ و٠ ، فجعل الجنود يتبادلون

تجربة تسديدها ، ويحتشدون ويتلاصقون حتى احتاج هارتل أن يصيح بهم أن يتفرقوا .

وشددت هذه الغنيمة عزائم الجنود وقوت قلوبهم ، وصارت تذكاراً يحمسهم ، وتأملوا الدم اليابانى الذى لوث به سراويل سجدن .

وأصدر هارتل أمره بالسير مرة أخرى إلى الأمام ، وكنا نجد رقعاً من الأرض مغطاة بالجليد تعكس ضوءاً شاحباً للشمس الضعيفة التى تنفذ من الضباب ، وكانت أصوات إطلاق النار تتجاوب بها الأودية .

وسقطت أول قنبلة يابانية فى طريقنا فى الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والعشرين ، بينما كنا نقطع طريقاً فى الجبل مغطى بالثلوج . ولم تكن الرماية سديدة لأن القوم ما كانوا يعرفون أين نحن ، ولكنا مع ذلك انطرحنا على الأرض بسرعة ، ولبثنا هكذا على الجليد زمناً حتى بعد أن كف اليابانيون عن الضرب .

ولم يعرف أحد على وجه الضبط ماذا شعر به لما واجه النار أول مرة، ولكن الأكثرين سرهم وزهاهم أنهم لم يخافوا كما كانوا يتوقعون .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

واختيرت هضبة طويلة ذات نجوة مشرفة للمبيت ، وهى على مسافة ميل من الجبل الذى يحول بين هارتل والذراع اليسرى لخليج هولنز .

وانتشر الرجال بسرعة ، وحفروا خنادق مستطيلة حسنة فى الأرض اللينة ، وكانت ليلة باردة رطبة ، ولم تكن حقائب النوم قد وصلت .

***

وفى فجر يوم الأربعاء ١٢ مايو كان الضباب لا يزال يلف كل شىء فى شملته ، وكانت الدنيا ساكنة غامضة مخيفة ، واستيقظ العسكر فى الساعة الخامسة ، وأقبل الرجال على "حق" الحرارة يوقدونه بأصابع ييبست من البرد ، وعلى علب الفطور يفتحونها وفى كل واحدة شىء من لحم الخنزير مثمراً (مقطعاً صغاراً) وبيض وسبع قطع من السميد (خبز الدقيق الأبيض) وقطعة شهية من الفاكهة المركزة ، ولفافة فيها قهوة مركزة، وثلاث قطع من السكر وأربع سجاير ، وقطعة من اللبان .

ولم يتلق هارتل نبأ من خليج ماسكار ولكنه قدر أن يكون القوم قد مضوا إلى غايتهم كما مضى إلى غايته .

وسمعت الطلقات الأولى فى ذلك اليوم فى الساعة السابعة ، وكان ذلك تراشق قناصة بضعة يابانيين ولفيف من الأمريكيين فى الطليعة يترامون .

وما لبث الجنود أن استطاعوا أن يميزوا الذى تخرجه بنادق اليابانيين ، وهو مزيج من الإرنان والأزيز، من الصوت الصلب الشديد الذى يندّ عن البنادق الأمريكية .

وكانت القنابل المقذوفة من الدافع الأمريكية (عيارة ١٠٥) وراءنا على الشاطىء تمرق فوق رءوسنا من الضباب ولها صفير ، وكان دوى المدافع يرسل الأصداء متوثبة بين الجبال .

وأقبل رجل يعدو من مكان ما فى الضباب أمامنا .

وسأل وهو يلهث : « هل عندكم رجال إسعاف ؟ إن بهم هناك حاجة شديدة إليهم . فقد أخذت مدافع مورتر والمدافع الرشاشة سرية ب ، وسقط عشرة منهم إلى الآن . والسرية فى خندق ولكنها لا تستطيع أن تخرج منه ، فإن اليابانيين راصدون على الجانبين » .

فذهب إليهم رجال الإسعاف .

وبعد ساعة عاد بعضهم وأسبقهم مكدودين يحملون جريحاً على محفة ، وقد سرنا أن نرى أن هذا الرجل أتيحت له فرصة للنجاة والحياة ، فلو أن جرحه كان مميتاً لما حمله الإسعاف ونقلوه إلى « المحطة » ، فإن الأوامر

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الصادرة إليهم صارمة ولا تحتمل التأويل ، ورجال الإسعاف دون الكفاية فى كل وقت ولا يمكن أن يشغلوا بمن قضى عليهم بالموت ، وهذا هو قانون الميدان .

ومهمتهم خطرة أيضاً ، فإنهم وهم يحملون المحفات يضطرون إلى السير معتدلى القامات ، ولا يستطيعون أن ينحنوا أو ينطووا ليتقوا النار كلما أطلقت عليهم .

وانقشع الضباب فى الساعة التاسعة بغتة ، وصارت العين تأخذ الهضبة برمتها ، وكان المرء يرى إلى اليمين الخندق الذى سمرت فيه سرية ب .

وبدأ الأسطول يقذف قنابله فى الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة ، فنشرت انفجاراتها شفعا من رذاذ أسود على الثلج فوق سرية ب وبدأت مبارزة بالمدافع الرشاشة . وكانت الضوضاء تحير ، وشرعت طائرات الأسطول فى العمل عند الظهر وقد رمت بمدافعها الرشاشة مدافع اليابانيين المضادة للطائرات وأسكتتها .

ووقفت قوات هارتل جامدة على الهضبة ، غير قادرة على التقدم فى وجه نار يطلقها من البنادق والمدافع الرشاشة ، رجال لا تراهم ولا تدرى أين يختبئون . وتلك مهمة مضنية ، لأنه يجب العثور على كل يابانى وإهلاكه . وكان خير أسلحتنا مدفعاً مضاداً للدبابات عياره ٣٧ مم ، وقد جره الجنود على نحو ما ، إلى الهضبة ، ولا يمكن أن يكون رجاله قد ذاقوا النوم ، ومع ذلك كانوا إذا اهتدوا إلى وكر مدفع رشاش يابانى يقذفونه بقنبلة فيدمرونه ، وكانوا يستطيعون أن يصيبوا كل ما يستطيعون أن يروه .

وما جاء العصر حتى كانت المعركة قد بلغت من العنف مبلغاً عظيما ، فكانت قاذفات القنابل التابعة للجيش تلقى حمولتها ، والأسطول يضرب مواقع العدو ، والمدفعية الثقيلة تلقى ستاراً من النيران ، والمدافع الرشاشة والبنادق تطلق بلا انقطاع . فكان ذلك كله مجتمعاً جحيما فائرا .

وبعد العصر بقليل أمر هارتل بهجوم منسق على الجبل الذى احتفظ به اليابانيون طول النهار ، والذى كان سداً دون الوصول إلى خليج هولتز . وكان الهجوم مباشراً على الجبل ، ولكن بأفراد لا بجماعات ، فساروا فى صف مفرد ، واحد

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وراء الآخر ، وبين كل اثنين عشرون أو ثلاثون ياردة ، وكان الذى فى الطليعة يخطو وحده إلى أرض العدو على الثلج الذى كان على بعض الجبل دون بعضه ، وهو أشد ما يكون حذراً ، ولا يزال يتلفت يمنة ويسرة كلما وقف لينفض المكان باحثاً عن اليابانيين .

واستغرق صعود هؤلاء الرجال فى الجبل حوالى ساعة ، وكان كثيرون منهم يزلون ويرتدون متزحلقين فوق الثلج .

وأخيراً بلغوا القمة ، وكانت أشبه بسرج بين نجدين ، وقد أطلقوا على هذا السرج فى اليوم التالى اسم « الذروة الدموية » ولكنها كانت فى يومهم ذاك بغير اسم ، وكانت تشيع فى النفس الخوف من المجهول .

وكان اغتباط الأمريكيين عظيما بأن يروا أنفسهم على الجبل الذى كان هدفهم طول النهار ، ولكن هذا الشعور لم يطل فقد كان اليابانيون حريصين عليه أيضاً ، فكنت ترى عند خط الأفق رجالا يتطاعنون بحراب البنادق ، وتسمع البنادق تطقطق ، وتبصر نفخات صغيرة من الدخان تحدثها القنابل اليدوية . وكان هؤلاء المقاتلة يبدون للناظر إليهم من السفوح ألاعيب صغيرة سوداء تجرى وتدور على غير نظام أو ترتيب

وصوب اليابانيون من خليج هولتز مدافعهم المضادة للطائرات ، وهى مزدوجة الفائدة تصلح لضرب الطائرات وللضرب البرى ، إلى القمة ، وكانت قنابلها تنفجر فوق الرءوس وعلى بضع أقدام منها ، فتتناثر الشظايا على الأمريكيين واليابانيين على السواء . وتصيب خليطهم ، وتمسخ أجسامهم وتشوهها بلا تمييز .

واستمرت المعركة على « الذروة الدموية » اثنتين وعشرين دقيقة ، وثبت رجالنا وبدوا عند الأفق مرة أخرى يصوبون عيونهم إلى خليج هولتز . وليس الفضول الجرىء الذى يتصف به الأمريكيون بالخلة المحمودة فى الحرب ، ولكنك حين تراهم خارجين من معركة قاتلوا فيها يداً بيد ، وقد بلغ من ثقتهم أن يقفوا على ذروة الجبل ويصوبوا عيونهم إلى اليابانيين تحتهم ، يشيع فى نفسك الشعور الجميل بأن هؤلاء الفتيان لن يهزمهم أحد .

وفى المساء جىء بضابط إلى مركز الأسعاف ، وكان قد أصيب بجروح من الشظايا فى يمناه وفى فخذه ، فجعل يحدثنا عن أساليب اليابانيين ، فقال :

« إنهم لا يتحركون ، بل يقيمون مدفعهم ويدعونه حيث هو ، ويطلقون النار على خط ، فإذا دخلت فيه أصبت ، أما إذا كنت نائياً عنه ، فإنهم لا ينتقلون

لیضربوك ، وهذا هو السبب في صعوبة العثور عليهم والاهتداء إلى مواقعهم، فإنهم يخفون أنفسهم تحت ذلك الحشيش الأصفر الملعون ، أو يبقون بغير حراك ، ولا تستطيع أن ترى بنادقهم ، فإنها لا تخرج دخاناً ، ولا يومض منها شيء » .

وكان هذا الضابط في الخندق صباح ذلك اليوم مع سرية .

« ولا يزال كثيرون منهم هناك في الخندق ، وقد جمدت أقدامهم فلا بد من حملهم للعودة بهم » .

وكانت هذه أول كلمة في شرغلطة وقعت فيها الحملة ، فقد جهز الجنود بأحذية من جلد سميك أسود كالتي يتخذها الصيادون، ولكن المطاط هو الوقاية الوحيدة في جزر ألوشيان من البلل الدائم . وكان اليوم حارا فلوحت وجوه الكثيرين ، ولكن عشرات جمدت أقدامهم في هذه الأحذية السوداء الجميلة التي ابتلت وأبت أن تجف . وابتلال الأقدام ضار إذا اضطر الجنود إلى الوقوف بلا حركة . وقد دل إحصاء الإصابات في نهاية المعركة على أن الذين أصيبوا بالنار والحراب كانوا دون الذين خرجوا من المعركة من جراء ما حاق بأقدامهم .

وكان البرد قارساً في الليلة الثانية في أتو ، بل أشد وأقسى من أن يسمح بالنوم الثقيل أو الطويل . وكان خيراً من النوم والارتعاش في حفرة وأجلب للراحة أن يقف المرء ويدبدب بقدميه ويضرب يداً بيد.

وكان الرجال يسيرون في الظلام صامتين، والحراس يسألون القادمين بصوت خفيف، فيجيب هؤلاء بمثل هذا الخفوت . وكان السير في تلك الليلة آمن منه في الليلة الأولى، وصار الذين لم يشهدوا حرباً إلا أمس ، كأنهم قد تمرسوا بها ، وصارت أصابعهم أثبت وهي تشد الزناد .

وكنا نسمع من حين إلى حين طلقة بندقية ، فيذكرنا هذا بأن الحرب ما زالت دائرة على الرغم من الظلام .

ولم أر فجراً أشد برداً وقبضا للصدر من فجر اليوم التالي الثالث عشر من مايو . وقد امتلأت الهضبة بالناس فجأة بسرعة مزعجة وكأنهم خرجوا من الأرض ، واستيقظ عشرات منهم معا على أول نور صافح عيونهم في تلك الليلة السوداء ، وكان ماء الجدول أبرد من أن يغتسل به المرء ، فراح الجنود يحكون رءوسهم ويمسحون شعورهم

ووجوههم . وكان هـذا حسبهم من الزينة والنظافة فى أتو .

ثم أعدوا فطورهم فى جحورهم ودفأوا أيديهم على نفس الموقد الذى صنعوا عليه قهوة الصباح .

وكانت الخيام الدافئة ، والطعام الساخن وأفرشة النوم لا تزال من مواد الترف التى لم تصل إلينا بعد . فلم يرض هارتل عن هذا التأخير لأن الأرض كانت شراً مما خبروه ، ولم يكن هو المسئول عن التقصير فى إرسال المؤن والحاجات ، أو عن استطاعة عدد قليل من اليابانيين أن يستخدموا أرض هذه البقعة لوقف الزحف وصده ، ولكنه كان يشعر كأنه هو المسئول لا سواه .

وكان هو الوحيد الذى يشعر بذلك ، وكان الجنود يحبون ويحترمون هذا الرجل الربعة الرقيق العبارة الذى كان رئيس حسابات ، وقد خرج بهم إلى هنا يقودهم ويقاتل على رأسهم وبهم ، فاطمأنوا إلى عقله وتدبيره ، وكانوا راضين عن تعهده لهم وبره بهم ، مغتبطين بعنايته بتوزيع المؤن عليهم بالحق وبرعايته للجرحى منهم .

وكان حملة المحفات لا يزالون يعملون فى بكرة الصباح ، وقد تعبوا وخدرت أجسامهم ولكنهم يتحاملون على أنفسهم ويتشددون . وكان لا بد من رد الجرحى إلى الخلف ، وكان مركز الإسعاف فى خندق اتقاء للرصاصات الطائشة التى كانت لا تنفك تمر فوق الرءوس . وقد ظل الطبيبان يعملان طول الليل وطلع النهار وهما يواصلان العمل .

وحدث هرج وصل إلى مركز الاسعاف فقد أقبل جنود ليأخذوا البنادق التى تركها الجرحى ، لأن شيئاً يجرى هناك فى المقدمة .

وكان الصاغ هارتل مقطباً . فقد هاجم اليابانيون « الذروة الدموية » بأسنة الحراب فى الساعة السادسة من ذلك الصباح ، ولا تزال المعركة دائرة . وعادت المدافع اليابانية المضادة للطائرات إلى ضرب الهضبة وكان الجنود يشاهدون وهم يتحركون عند خط الأفق ، ويرمون القنابل اليدوية ويلتحم بعضهم ببعض .

وبدأ الأمر كأنما اعتزم اليابانيون أن يقوموا بهجوم حاسم ، فأمر هارتل غير المحاربين أن يرجعوا إلى الشاطىء ، فقضيت ذلك الخميس على الشاطىء الأحمر وعدت إلى الجبهة فى اليوم التالى .

وفى عصر الجمعة الرابع عشر من مايو — ورابع أيامنا فى جزيرة أتو — قدّم هارتل معسكره إلى حافة الذروة الدموية التى حمى القتال عليها فى اليوم السابق ، وراحت طلائعنا تهبط على الجانب الذى فيه

اليابانيون من الذروة ، على مرأى من وادى هولتز .

أما بقيـة جنودنا على الذروة الدموية فكانوا أشد إعياءاً من أن يظهروا سروراً ، وكان بعضهم لم يذق النوم منذ يوم الاثنين ، فانطرحوا فى الحفر العميقة التى حفروها ليحتموا من نيران اليابانيين .

وكانت هذه الحفر هى بيوتهم . والجندى يحمـل كل ما يملك على ظهره ، وفى كل ليـلة فى كل حفرة جديدة ، يحط حمله ، ويخرج مايحتاج إليه من فراش . وإذا كان معـه فراش ، وغطاء وجرايته وسجايره وكبريته ، ويرقد وعدته قريبة منـه بحيث يتناولهـا بسرعة إذا احتاج أن ينهض على عجل ، وأقرب ما يكون إليه ، بطبيعة الحال بندقيته وخوذته .

وصـارت الحياة فى أتو تزداد قسوة ، وبدأت التوافه تزعج الجنود ، وطالت اللحى واتتكل الجـلد ولا سيما تحت الذقن حيث كانت جلدة الخوذة تحك . وأحدثت الثياب التحتية الطويلة اللازمة لهذه الجزيرة أوراماً حمراً على الأذرع والسيقان ، لها أكلة كلسع البعوض ، وقل من خلع هذه الثياب أو الجوارب بعدما وطأت قدماه أرض الجزيرة .

وكان الطعام مستمرءاً فى اليوم الأول ، ثم صـار مسيخاً على ألسنة الجنود ، فصار الواحد منهم لا يستطيع أن يأكل جراية كاملة ، وصارت العلب ترمى على الحشائش وبهـا نصفها من الجبن والبيض واللحم ، وعاد كل شىء مما يمكن الاستغناء عنـه . فـكان المكدودون يلقون بكل مالا يحتاجون إليه ، حتى الأفرشـة والحراب والذخائر بعثرت على جانب الجبل .

وصار اليوم يعقب اليوم فى تتابع لانهاية له ولا معنى ، ولم يعد أحد يدرى أى يوم هـذا من الشهر ، وقل من كانوا يعبأون بذلك ، وكل يوم يضاعف بؤس الحياة على الجزيرة ويـترك أثره فى النفس ، ويزيد الأرجل تعباً ، والرءوس دواراً ، والأيدى قذارة ويبسا .

والحرب تضنى الرجال وتبـلى الثياب وما إليها ، فسـترة ألاسكا المتينـة ، يلبسها الرجل يوم الثـلاثاء جديدة زاهية ، فلا يجىء يوم السبت حتى تـكون قـد بليت وطرحت . وقل مثـل هذا عن القفازات والسراويلات والأفرشـة . والرجل الذى كان يوم الثلاثاء شاباً قويا ملتهباً تراه يوم السبت خامداً منقطعاً من الإعياء .

وكانت جثث اليابانيين منتشرة أيضاً فوق الذروة الدموية وقد جمدت فى أوضـاع الآلام الأخيرة .

وكان فى إحـدى الحفر يابانى مقرفص

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ووجهه إلى ركن ، أردته رصاصة نفذت من الخوذة إلى دماغه . وفى الحفرة عدة قنابل يدوية لم تستعمل .

وكان كل من يرى هذا القتيل اليابانى فى الحفرة يحدق فيه مستغرباً ، فقد كانت هـذه جلسة عجيبة يموت وهو عليها رجل محارب ، فقد كان رأسه مدسوساً فى زاوية وإلى جانبـه وفى متناوله ذخائر كثيرة لم تستعمل . وقد تبين أخيراً بعد أن ذبح كثير من اليابانيين فى الحفر ، أنهم يختبئون هكذا كالنعامة حين يوقنون بالهزيمة

قال القائمقام وين زيرمان — خريج كليـة وست بوينت ، ومن أهـالى مينسوتا — بعـد أن راقب اليـابانيين أسبوعين ورأوا كيف يقاتلون: «إذا صرت على مسافة خمسين ياردة من يابانى دون أن تصاب ، فإنك بخير ، لأنه حينئذ يختبىء فى حفرة وفى مرجوه أن لا تراه» .

* * *

وفى صباح السبت الخـامس عشر من مايو استـطاع الجنـود من ظهر الذروة الدموية أن يبصروا هدفهم ، وهو وادى هولتز ، الطويل المنبسط ممتداً من الساحل الهادىء ، وكان الشاطىء مغطى بحطام اليابانيين . وقد رأينـا طائرة من طراز « زيرو » مدمرة ، ومستودعات المؤن التى نسفتها مدافع الجيش والأسطول ، ومؤخر سفينة شـحن بارزاً من المـاء فى الخليـج ، وكانت الطائرات الأمريكية قد أغرقتها وهى راسية قبل ذلك بزمن طويل .

وكان اليـابانيون قد أعدوا شـبكة من الخنـادق والمخابىء المتصلة لصـد كل محاولة للهجوم على خليج هولتز من الأمام أى من الشرق ، ولـكنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا أن يجىء الهجوم من الشمال الغربى ، ومن أجل هـذا لم يستعدوا له ، فكان هجومنا سريع النجاح . فبعـد أقل من ساعة من احتشاد رجالنا على ظهر الجبـل وهبوطهم منـه طار النبأ إلينا بأنهم فى وادى هولتز .

على أنه كان هناك كثيرون من اليابانيين يجب تطهير الأرض منهم قبل أن يستطيع المشاة عبور الوادى، فظل القتال طول النهار عن بعد ، وواصلت المدافع ومدافع مورتر قذف المراكز اليابانيـة ونسفها على الجانب الآخر .

وكان الزحف متعباً مملا ، والجنود يتقـدمون وبنادقهم معـدة وهم مبعثرون فى جماعات صغيرة ، ولا مفر من النظر فى كل حفرة وكل خنـدق وجس ما فيها بأسنة الحراب . وكان هنـاك قليلون من جرحى اليـابانيين على الأرض المستوية وفى الخنادق خلفهم إخوانهم وهم يقهقهون ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان لا بد من قتلهم لأنهم كانوا لا يستسلمون ولا يخرجون إذا نودوا ، فلا يسع رجالنا إلا أن يقذفوهم فى مخابئهم بالقنابل اليدوية .

وانقشع الضباب قبيل المغرب ، وبرزت الشمس فرأينا على الجبل الشاهق بين الذراع اليمنى لوادى هولتز وخليج شيشاجوف مئات من اليابانيين يرتقون فى طريق وعر على الثلج .

وقد تبينا أن اليـابانيين يجلون عن قاعدتهم الرئيسية دون أن يدافعوا عنهـا بقواتهم الـكبرى ، وكانوا يتراجعون إلى شيشاجوف لينضموا إلى القوات الصغرى المعسكرة هناك .

وقدر عدد من ارتقوا فى هذا الطريق بأربعمائة ، ولا يدرى أحد عدد من بلغ منهم القمة ، فقد سدد إليهم اليوزباشى جيم سيمونز مدافعــه وكانت جثثهم ترى وهى تتطاير فى الهواء ، ويسر صفاء الجو لطائرات القتال مــن طراز ليتننج أن تجىء من أمشيتكا ، فأقبلت وأسكتت محركاتها ، وسبحت فوق اليابانيين وأمطرتهم مدافعها الرشاشة الثقيلة من جناحيها وابلا من النار والرصاص والموت ، وسمع الأمريكيون الذين كانوا فى الخطوط الأماميــة على مسافة ١٥٠٠ ياردة صراخ اليابانيين .

وفى اليوم التالى كان خليج هولتز كله فى أيدى الأمريكيين ، وانتصروا فى المرحلة الأولى من معركة أتو .

* * *

وقد فر اليابانيون من خليج هولتز ، دون أن يتلبثوا ليـدمروا مسـتودعات المؤن والذخائر ، وكانت غاصة بكل ما يحتاج إليه جيش يخوض حرباً .

وراح الأمريكيون الذين شعروا بالفرح والجذل لأول مرة مذ نزلوا فى هذه الأرض ، يبحثون فيما خلفه العدو عما يتخذونه تذكاراً ، أمّا ما كان لازماً من القتال فتولاه لفيف قليل منهم .

وعرفوا من الأكداس التى تركهـا اليابانيون فى معسكرهم ، أشياء عنهم ، وكيف يعيشون ، وماذا يأكلون ، وأى ألعاب يلعبـون ، وأى صور يحملونها معهم فى محافظهم .

وما من جنــدى من جنودنا إلا وهو يحمل صورة لزوجته أو لصـديقة له ، أما الجنود اليـابانيون فيحملون صوراً لجنـود آخرين ، أو لنساء من كواكب السينما ، أو من اللواتى يتخذن فى بلادهم للسمر والتسلية

وشاع على الشاطىء أن بعضهم عثر على إصبع لصبغ الشفاه ، وأن فى الجزيرة نساء يابانيات ، وقد بقيت هذه الإشاعة مستفيضة إلى ما بعد المعركة بزمن طويل ، ثم أدرك

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الجنود أن التراب الأحمر الذى فى العلب البيضاوية الصغيرة ليس لصبغ الشفاه ، بل ليطبع به الجندى اليابانى اسمه المحفور على طرف عظمة صغيرة .

وكان كل ما فى الوادى غريباً مثيراً للاهتمام ، فقد كانت هناك أكواخ طويلة من الخشب لها نافذة عند كل طرف من طرفيها ، وهى مطمورة إلى حافة السقف وفوقها الحشائش كالأرض . وبلغ من وفاء هذا التمويه أن جنودنا كانوا ربما مشوا على السقوف وهم يحسبونها من وجوه هذه الأرض غير المستوية ثم يفطنون إلى خطئهم .

وكانت الأكواخ ذات رائحة كريهة كرائحة السمك ، وقد قال الجاويش أميل بولانسكى ، وهو فلاح من ولاية كنساس : « لقد كنت أربى الخنازير ، ولكنى لم أكن أسكنها فى مثل هذه المساكن القذرة » .

وكان كوخ اللاسلكى حافلا بأنابيب لا تصلح مع الأسف لأجهزتنا ، وكان هناك جهاز تليفون للميدان ، من الألومنيوم ، أبى إلا الصمت حين وصل بأسلاكنا . ورأينا كرات سلة يابانية ، منها ما هو حسن ومنها ما هو ردىء ، ويراع من قصب حاول كل امرئ أن ينفخ فيه ويزمر فما أخرج شيئاً ، وسجاير طعمها على اللسان غير حميد ، ووجد جنودنا فى أكواخ بعض الضباط أفيونا وقصبات لتدخينه .

وارتدى الجنود ثياب اليابانيين وفرحوا بها لأنها كانت جافة ، فلبسوا القفازات اليابانية ، ومعاطف من السختيان بغير أكمام ، وجوارب ، ولفافات للسيقان وأحذية مبطنة بالفرو ، وخوذات من اللباد مبطنة بالفرو ، وشملات من صوف خشن ، ووجد صغار الأجسام من جنودنا سراويلات تصلح لهم .

واختبر الجنود كل شىء ، وقالوا إن مولدات الحرارة اليابانية خير من الأمريكية ، فتركوا ما عندهم منها واتخذوا ما وجدوه من اليابانية ، ووجدوا حلواء يابانية محفوظة اغتبطوا بها وعدوها نعمة بعد أن قضوا أياما طويلة ولا طعام لهم سوى الجراية المحفوظة (ويرمزون لها بحرف ك) واحتفظوا ببنادق وحراب وسيوف يابانية للذكرى ، ونسوا الحرب برهة ، ولم يفكروا إلا فى اليوم الذى يعودون فيه إلى بلادهم موفرى الظهور بهذه التحف اليابانية ليعرضوها على ذويهم .

ورأيت جنديا ينفخ إطار دراجة يابانية فى الرمل وهو يضحك ويزعق ، وقد قال إنه وجد اثنتى عشرة دراجة معلقة فى مخزن وهى جديدة لم تستعمل ، فصار كل جندى يحاول أن يركب هذه الدراجات اليابانية .

على أن بعض المعدات استعمل فى غير هذا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

اللهو، فمن ذلك أن المركبات التى تدفع باليد، وهى ذات عجلات من المطاط، استخدمت فى نقل الأمريكيين الذين قُرّت أقدامهم، إلى مراكز الإسعاف، وكان هؤلاء رواداً فى الطليعة وقد جاءوا وكان يقتلهم البرد، وعاد بعضهم معتمداً على اثنين من زملائه، والبعض يزحف على يديه وركبتيه، وقدماه مرفوعتان عن الأرض. وحدثنا هؤلاء عن أحد عشر جنديا لبثوا فى الجبال ثلاثة أيام وليس معهم من الطعام سوى علبة واحدة من الفاصوليا.

***

ومع أن خليج هولتز سقط فى أيدينا إلا أن الحرب ظلت دائرة الأرحاء مضطرمة الأوار فى الأودية والجبال بين خليج ماسكار وميناء شيشاجوف، حيث كان اليابانيون يتوقعون الهجوم عليهم، وقد خندقوا على تل وعر عند مدخل الوادى المفضى إلى خليج سارانا.

ولم يكن ثم ما يستر جنودنا بين خطوطنا الأمامية والخنادق اليابانية، بل لم تكن هناك سرية واحدة مستعدة للقيام بهذا الزحف، فقد تكبد جنودنا مشقات مرهقة وخسائر كثيرة فى وادى ماسكار أكثر من أسبوع، وخاضوا عشرات من المعارك العنيفة المرة يداً بيد، واستهدفوا طويلا لنيران المدافع الرشاشة التى كانت تقنصهم من الأوكار اليابانية فى التلال.

وبعث الصاغ هارفى سفرسن — وكان فيما مضى مهندساً مدنياً — بضباط الصف ليجمعوا من السرايا كلها عدداً من الجنود يكفى لمهاجمة التل اليابانى.

وقد صعد هؤلاء الجنود التل كالديدان، مستترين بكل ما وجدوا له غناءاً، وصب اليابانيون عليهم وابلا من الرصاص فتك بهم فتكا ذريعاً، وكانت تلك مهمة مرعبة. وكان ضباط الصف والجاويشية لا ينفكون يصعدون ويهبطون ليخرجوا الجنود من الخنادق ويكرهوهم على مواصلة الزحف.

وأخيراً، وبعد عناء لا يكاد يصدق، صار الأمريكيون على مرمى القنابل اليدوية من اليابانيين، فاضطربت كفتا الميزان، وكانت القنابل اليدوية الأمريكية أقوى من اليابانية، فصار الأمريكيون يرمونها كأنها

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كرة السلاح إلى فوق ، لتسقط فى خنادق اليابانيين فحطمت خط دفاعهم . وحاول عشرون منهم أن يلوذوا بالفرار غير أن الأمريكيين الذين ذاقوا العذاب الغليظ وهم يرتقون فى التل ، أبو أن يدعوهم يفرون وقتلوهم بأسنة الحراب .

وكان الأمريكيون يقاتلون كالوحوش بحرارة ، وهمهم أن يقتلوا ، وقست قلوبهم وامتلأت نفوسهم شراً ، وغلظت أكبادهم وهم يطاردون عدوهم ليعصفوا به ، وأدركوا أنه لا معدى لهم عن ذلك إذا أرادوا أن ينتصروا .

وبعد أن انتهت المعركة احتشد الأمريكيون مفتونين حول القتلى من اليابانيين ، وكان فى أحد الخنادق ستة أو سبعة من القتلى بعضهم فوق بعض ، فتزاحم الأمريكيون لينظروا وإذا بيابانى ينتفض واقفاً من هذا الكوم ويهجم كالمجنون عليهم ، ولكنه قتل قبل أن يصيب أحداً .

***

وفى عصر اليوم العشرين من مايو كان على رجالنا أن يقوموا بما هو أشق وأعسر ، ذلك أنه كان هناك إلى يمين التل الذى استولى عليه ، ذروة جبل يعلو التل بمقدار ١٨٠٠ قدم ، يكسو الجليد معظم جوانبه التى تكاد تكون عمودية ، وقد خندق اليابانيون على هذه الذروة ومعهم المدافع الرشاشة .

وكان لا بد من الاستيلاء على هذه الذروة — التى تسمى فى خرائطنا « بوينت إيبول » — لأنها تشرف على شعبة الوادى المؤدية إلى سارانا وشيشاجوف حيث مراكز الدفاع اليابانية الرئيسية .

وقد قاد الملازم هارى جلبرت — من أهالى شيكاجو — هجوماً على هذه الذروة صده اليابانيون ، وقتل الملازم جلبرت فى هذه الحملة وقتل معه كثيرون من رجاله .

وقام الأمريكيون بهجوم آخر فى منتصف الليل ، مهد له بستار من نيران المدفعية أضاءت السماء كما تضيئها الصواريخ وهتكت أصوات القنابل سكون الليل .

وتقدمت أربع وحدات لتصعد فى الجبل تحت هذا الستار النارى ، فسمرت المدافع اليابانية الرشاشة إحداها فى مكانها ، أما الثلاث الأخرى فارتقت فى الجبل ملتفة به . وقبل الفجر بساعة ، هجم الملازم توماس هندمان — وهو من أهالى سبارتانبرج — على رأس رجاله « وهم يزعقون زعقات مرعبة ويقذفون بالقنابل اليدوية » ، وحمل جاويشان على وكر مدفع رشاش أرهق الزاحفين ، وقد خر الرجلان صريعين ، ولكن الوكر محى من الوجود .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان الظــلام حالــكا ، والرجال يقع بعضهم على بعض وهم يقاتلون بين الصخور على ذروة الجبل ، ولــكن القتال لم يستمر إلا بعد أن وجد جنودنا فى الخنادق اليابانية فرشاً أمريكية ، وأحذية أمريكية ،وسجائر أمريكية وجرايات أمريكية ، فطارت عقولهم من الغيظ والحقد وأعملوا فى العدو الحراب والقنابل والمسدسات والبنادق ، وآلوا لا يعيشن من هؤلاء اليابانيين واحد ليقول إنه رقد على فراش أمريكى .

ولم يطرد اليابانيون من ذروة الجبل ، بل قتلوا قتلا ، وألوى بهم الأمريكيون أيما إلواء ، ولم يدعوا واحداً منهم يفلت ، وكان اليابانيون يزعمون أنهم لا يبارون فى الطعن بالحراب وفى القتال عن كثب ، فبــذهم الأمريكيون وعصفوا بهم .

وفى اليوم التالى كان هؤلاء الجنود المكدودون الذين استولوا على الجبــل ، لا يزالون قائمين على حراسته ، وهو موضع رهيب يصلح أن يكون منظراً لإحــدى أوبرات فاجنر ، والسحب تسبح فوقه وتحته ، والصخور الحادة الشهباء منتثرة على صور غريبة .

واجتمع الرجال حول النيران يصطلون ويسخنون القهوة ، وكانت جثث اليابانيين فى مكانها لم تنقل ، وجثث الأمريكيين أيضاً هنالك وقد غرزت بنادقهم فى الأرض إلى جانبهم حتى لا يخطئها الموكل بدفن الموتى .

وتحدث الملازم هندمان عن هذه المعركة ، ولــكنه كان أشد إعياءً من أن يسهب ، ولم يكن فى صوته نبرة الفرح بالنصر وهو يقول : « ليتــك سمعت صرخات الــكلاب ونحن نرميهم بالقنابل اليــدوية ! الحق أنهم لم يغتبطوا بها ! » .

* * *

وفى يوم السبت الثانى والعشرين من مايو ألقينا ستاراً من نيران المدفعيــة على أنف الجبل الذى يفصل وادى سارانا عن وادى شيشاجوف ، وكان القائمقام قائد المدفعية ، يتولى بنفسه إطــلاق مدفع فأصاب سرية كاملة من اليابانيين فى الفضاء ، تتقهقر ، فقتل منهم من قتل ، وحاول الباقون أن يهربوا إلى خليج شيشاجوف ، غــير أن الجنود الأمريكيين كانوا على أعقابهم فأردوهم برصاص البنادق .

واستمر تقــدمنا البطىء المطرد فوق النجود على جانبى وادى شيشاجوف طول يوم الأحد فى وجه مقاومة يابانية متقطعة ، وطهر خليج سارانا وواديه المنبسط من اليابانيــين الذين فروا إلى الجبال ، لعلهم يجدون طريقاً يرتدون منه إلى شيشاجوف .

وفى صباح يوم الاثنين ٢٥ مايو ، زحف

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أعظم حشد من الأمريكيين إلى الآن ، واحداً وراء واحد ، على نجد « فيش هوك » على الجانب الأيسر من وادى شيشاجوف . وكانوا يبدون من مركز مراقبتنا كأنهم يتقدمون بلا جهد أو عناء فوق الجليد . ولكن الواقع أنهم كانوا يعانون ما لا سبيل إلى وصفه من المشقات، وهم يرتقون فى جانب هذا الجبل .

وكانت مقاومة اليابانيين يسيرة ، على نجد « فيش هوك » لأنهم كانوا محتشدين على نجد أوطأ يسمى « بافالو نوز » ، وكانوا ظاهرين من الوادى وذلك أمر نادر فى أتو .

وفى هذا الهجوم اشترك جنود هارتل الذين قدموا من خليج هولتز ليشتركوا مع القوة الرئيسية ، وغطوا جناحها الأيسر وحموه ، وكان هارتل قد رقى إلى رتبة بكباشى جزاء له على ما فعله من سحق القاعدة اليابانية الرئيسية فى خليج هولتز .

وكان هذا أعظم زحف فى القتال الذى دار فى جزيرة أتو ، وقد حالفه التوفيق فى اليوم الأول ، غير أن اليابانيين احتفظوا « ببافالو نوز » وبمعظم نجد « فيش هوك »

وفى يوم الأربعاء ٢٦ مايو شهدت مظهراً نادراً للشجاعة وحسن التصرف .. ذلك أن جنودنا أمروا فى هذا البرد القارس أن يهاجموا جانباً من نجد فيش هوك كان فى أيدى اليابانيين ، يسمى « بنش »، وجلست أنا مع جماعة من الضباط على مرتفع على مسافة من « البنش » نراقب الهجوم .

وكان رجال المدفعية الرشاشة يحمون الجنود الزاحفين ، ويقذفون اليابانيين فى جحورهم ليبقوا بها ، وبدأ الزحف من وادٍ لم يكن فيه ما يسترهم ، وقد أصيب قليل منهم فرقدوا، ولكن الأكثرين ارتقوا فى جانب النجد .

وكانت الياردات الخمس والعشرين الأخيرة من الوعورة بحيث اضطر الجنود أن يغرزوا بنادقهم فى الجليد ليمسكوا بها ويجروا أنفسهم ، وظل اليابانيون لا يتحركون حتى كاد جنودنا يبلغون القمة ، فخرجوا من جحورهم وأرسلوا القنابل اليدوية تتدحرج على الأمريكيين ، فلم يسع هؤلاء إلا أن يتزحلقوا هابطين ليتقوها ، ولبثوا برهة منطرحين على الثلج، ثم شرعوا يرتقون مرة أخرى ، فعادت القنابل تتدحرج عليهم وعادوا هم يرتدون متزحلقين .

وإذا ببعضهم نراه واقفاً فوق قمة « البنش » وكنا من مرقبنا على مسافة ٦٠٠ ياردة لا نستطيع أن نتبينه لنعرف أهو أمريكى أم يابانى ، وكانت معه بندقية مصوبة إلى أسفل ، فلم يبق شك فى أنه أمريكى ، وكان يمشى على مهل من جحر إلى جحر

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ويقف ويطلق النار على من فى الحفر ، ولم يتحرك حين كانت القنابل اليدوية اليابانية ترسل دخانها الأشهب الكريه على جانبيه ، ومضى فى ضرب اليابانيين فى جحورهم وهو واقف فوقهم مشرف عليهم .

وكان لا يزال وحده ، فأدار بندقيته وشرع يضرب بمؤخرها يابانياً ، وكان اليابانى فى حفرة ، فاضطر الأمريكى أن ينحنى مع كل ضربة ، وكان لا يزال يضرب حين صعد الجنود إلى القمة وصاروا إلى جانبه ، فتولوا الأمر عنه ، وقعد هذا البطل على الأرض يستريح ، فقد استحق ذلك .

فكدت — كصحفى — أجن . هذه خير قصة فى الحملة كلها ، ولا اسم لذلك الرجل المفرد الذى كان كفاء جيش ، وحطم وحده مركزاً دفاعياً للعدو كان من الممكن أن يصد الهجوم كله ! .

ولم أقف على جلية الخبر إلا بعد أسبوع . فأما هذا الرجل الذى كان بمفرده جيشاً فاسمه الأومباشى جورج ميريك ، وكان يدير محطة بنزين فى كلاماث فولز بولاية أوريجون قبل الحرب ، وكان رجلا عادياً يزاول عملا عادياً ، ولما التحق بالجيش أصيب بتسمم ، فأعفى من التدريب العسكرى ، وندب كاتباً على الآلة الكاتبة فى إحدى السرايا .

فلما كان فى أتو ، قتل صديق حميم له وهما يرتقيان مع الآخرين فى النجد إلى «البنش» . وقد حدث الأومباشى ليريك أنه لم يعد يشعر بعد ذلك بما يفعل أو يدرك إلا حين ألفى نفسه فجأة على القمة يردى اليابانيين فى جحورهم .

وقد أصيبت ذراعه وهو يصعد ، وأصيب مرتين أخريين فى الموضع عينه بعد أن قتل هؤلاء اليابانيين السبعة فوق « البنش » .

وبعد انتهاء المعركة ذهب القائمقام «فن» إلى الرجل وقبله هناك وسط الساحة ، وسأله ماذا يطلب فقال ميريك : « ياحضرة القائمقام الآن وقد عرفت أنى لست مجرد كاتب على الآلة الكاتبة فلماذا لا تجعلنى جاويشاً ؟ فقد بقيت أومباشياً زمناً طويلا » .

فقال القائمقام : « ياميريك ، أنت جاويش من الساعة » .

ونال شرائطه ، وسينال مدالية أيضاً ، فقد طلبها له القائمقام كولن والقائمقام فن .

***

كان هذا الضرب من القتال هو اللازم لتطهير الجبال قبل شيشاجوف ، وقد استمر الهجوم الأمريكى فى غير هوادة حتى كانت ليلة الجمعة ٢٨ مايو ، فاضطر اليابانيون أن يتراجعوا إلى قاعدتهم الأخيرة فى ميناء شيشاجوف ويتكدسوا هناك ، وأخذ الأمريكيون

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يستعدون للقضاء عليهم فى اليوم التالى .

على أنه كان أمريكى واحد يساوره القلق وهو الجنرال لاندرام الذى لم يكن راضياً كل الرضى عن الموقف ، فقد بدا له فيه ما لم يرقه ، فأمر القائمقام ولمندورف من فرقة المهندسين أن يوزع على جنوده ، من قبيل الاحتياط ، مقداراً إضافياً من الذخائر والقنابل اليدوية .

وكان هذا الأمر غريباً فى ظاهره ، لأن المهندسين كانوا يمهدون الطريق وينقلون المؤن والذخائر فى وادى سارانا على مسافة ميلين تقريباً وراء الجبهة ، ولم يكن الجنرال على علم بما يمكن أن يفعله العدو ، وإنما آثر الحيطة والاستعداد للطوارئ .

وفى صباح يوم السبت ٢٩ مايو حدث اضطراب فظيع فى الجبهة ، ذلك أن القوات الأمريكية ، للمرة الأولى منذ نزولها ، خرج أمرها عن سيطرة القيادة ، فقد قطعت أسلاك التليفون ، وصارت الرسائل اللاسلكية لا تفوز برد ، وغمرت الإشاعات مناطق المؤخرة ، ولكنه ما من أحد كان يعرف حقيقة ما يجرى ، وكان الجنود يعودون من الجبهة كليلين فزعين .

وقصوا قصصاً مرعبة . وقالوا إن اليابانيين هجموا تحت ستار الليل ، وكانوا قد انقضوا على وادى شيشاجوف من الميناء ، ووصلوا إلى بضع مئات من الياردات من وادى ماساكر ، وكانوا يصيحون ويصرخون بأصوات عالية كالنساء ، وحملوا بالحراب مركزة فى أطراف العصى وبالبنادق ، وقتلوا كثيرين من شباننا وهم فى فراشهم .

وكملت صورة ما حدث شيئاً فشيئاً من روايات الذين نجوا من هذا الهجوم الجنونى ، ومن الوثائق التى وجدت ، ومن روايات الأسرى المذعورين ، ومن الساحة نفسها على الأكثر .

ولم تكن القوة التى قامت بالهجوم من شيشاجوف صغيرة ، والظاهر أن القائمقام ياسويا قائد القوات اليابانيــة فى أتو جمع ضباطه ليلة الجمعة وأفضى إليهم بخطته الخرقاء ، وأصدر أمره إلى كل يابانى يستطيع السير ، جريحاً كان أو غير جريح ، أن يهجم فى الظلام ، ويجب أن يقتل كل يابانى لا مفر من تركه من جراء جراحه ، رمياً بالرصاص أو بحقنة مورفين .

وكانت الخطـة تقضى بالتخـلى عن شيشاجوف كقاعدة ، وبأن يدمر كل جسر وراء اليابانيين ، ولم تكن ثم لهم قاعـدة أخرى يلجأون إليها فى الجزيرة .

والذى بقى من الذخيرة وزع ، ومثلها الطعام ، وطبخ الأرز وصنعت منه كرات ، ووضعت فى أكياس من التيل شدت إلى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أحزمة الجنود ، وحمل بعض الجنود معهم أيضاً سمكا مجففا له لون الجلد .

وسواء أكان الذى شجع اليابانيين وقوى قلوبهم نوبة هستيريا عامة أم المخدرات فإن الواقع أن اليابانيين تركوا آخر قاعدة لهم جاحظى العيون وبغير أمل ، والتفوا بجناح جنودنا فى الجبهة وانقضوا على أول معسكر أمريكى صغير وفيه حوالى مائة ، وكان اليابانيون ألفاً . ولم يجد الحراس وقتا لإيقاظ المعسكر ، وأقبل اليابانيون بحرابهم المثبتة فى العصى يعدون خلاله وهم يصيحون ويطعنون كل ما يظنونه إنسانا .

وتراجع الأمريكيون إلى ماوراء المعسكر ونظموا خطاً ، وطردوا اليابانيين برصاص البنادق..

وهنا شوهد اليابانيون ينتحرون ، فقد ذهبت الهستيريا وحل محلها اليأس أمام نيران الأمريكيين ، فلجأ عشرات من اليابانيين الذين واجهوا المقاومة العنيفة من رماة الأمريكيين ، إلى الموت ليخرجوا به من الشقاء والهزيمة ، وتناولوا القنابل اليدوية المشدودة إلى ثيابهم ، ونزعوا دبوسها وضموها إلى صدورهم ونسفوا أنفسهم .

أما على الجرف ، فى الناحيـة القصية من وادى سارانا ، فإن المهندسين الذين أمر الجنرال لاندرام بتسليحهم ، كانوا مستعدين ، وقد نبهتهم الضوضاء والاضطراب فى المقدمة ، فاستطاعوا بالأسلحة التى وزعت عليهم أن يحطموا القوة الرئيسية فى الهجوم اليابانى ، وقتلوا عشرات منها ، وأثخنوا فيهم حتى لقد آثر عشرات آخرون الانتحار بضم القنابل إلى صدورهم .

ولم يكن هؤلاء اليابانيون يقاتلون حتى النفس الأخير ، وإنما كانوا يقاتلون حتى يجرحوا أو يحيق بهم خطر ، وكان هـذا يحير الفتيان الأمريكيين الذين يرون أنه إذا لم يكن من الموت بد ، فليموتوا وهم يقاتلون ، أما اليابانى فيؤثر أن تنسفه قنبلته اليدوية .

وفر بعض اليابانيين إلى الجبال ليختبئوا فيهـا ، وزحف غيرهم إلى الحفر وربضوا بهـا ، وقد قضى الأمريكيون أسابيع فى البحث عنهم وإخراجهم من الجحور ، وكان الباحثون يمشون فرادى أو جماعات صغيرة ، كل جماعة ستة أو نحو ذلك .

وقد وجد فى بناء مستشفى تحت الأرض ١٨ من جرحى اليابانيين قتلوا بالمورفين قبل الهجوم الأخير ، وكانوا مطروحين على ظهورهم فى صف وأيديهم على صدورهم ، وكان الطبيب الذى قتل مرضاه ، ملقى على الأرض ، وقد انتحر برصاصة أطلقها على رأسه .

وظلت المصادمات المتقطعة مستمرة بضعة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أيام ، ولكن المعركة كانت قد انتهت فى صباح ٢٩ مايو — ذلك الصباح الذى خرج فيه اليابانيون من شيشاجوف ليقتلوا ويقتلوا .

* * *

إن نصف اليابانيين الذين خرجوا صباح ذلك السبت الأخير ، من شيشاجوف انتحروا بالقنابل اليدوية التى نسفت الصدور والرءوس ولم تترك إلا بقية هياكل الرجال ، وكانت الأذرع تبرز ممتدة من أجسام ليس فيها إلا العظم ، وكانت الأيدى التى تحمل القنابل ، وهى اليسرى عادة ، مقطوعة إلى الرسغ ، وهذه الميتة القبيحة الشنعاء هى الثمرة التى يجنيها اليابانى مما لقنوه وهو أن لا يسلم .

وكان هذا الموت كله شيئاً معنوياً ، وكان الأمريكيون الموكول إليهم عمل ما فى ساحة القتال يجلسون إلى جانب هذه الجثث ليأكلوا ، ويحفرون الحفر قريباً منها ليناموا فيها . ولم يكن يسعهم إلا هذا ، فما كان ثم سكان يلجأون إليه وينأون عن قتل اليابانيين المبعثرين فى كل موضع من الوادى .

وكان الجنود الأمريكيون يحدقون فى هذه الجثث المجوفة المشوهة ، التى كان أصحابها يستطيعون أن يواصلوا القتال فكفوا عنه وانتحروا ، وكنت لا تسمع منهم حين يرون هذه المناظر إلا قولهم : « أنا عاجز عن فهم هذا » .

وكان عشرات من القتلى اليابانيين ذوى جراح قديمة معصوبة ، وهؤلاء هم الجرحى الذين يقدرون على السير ، والذين اضطروا إلى الخروج من شيشاجوف صباح السبت على الرغم ما برءوسهم من جروح وبأذرعهم من كسر .

* * *

ولم يؤسر من ٢٣٠٠ يابانى كانوا فى الجزيرة سوى أربعة عشر بعد أسبوع من الهجوم الأخير . وكانت جراح بعضهم بليغة فلا هم يستطيعون القتال ولا الانتحار . وكان البعض الآخر سليما لا شىء به . ولكنه مذهول متضوّر طليح ، لا يقدر على تفكير أو مقاومة .

وكان أول أسير جىء به إلى ديوان القيادة طرّاق معادن فى حياته المدنية . وكانت حول فمه بقع خضر ، فقد كان يأكل الحشائش والأعشاب ليسكن آلام الجوع ، فخف به الجنود ، وتنافسوا فى بذل السجاير له فكان ينحنى شاكراً .

وقال أسير آخر بواسطة مترجم : « لا أدرى لماذا نحارب الجنود الأمريكيين ؟ وإنى لأود أن أعود إلى اليابان ، ولكنى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أعير إذا فعلت ، ولوددت أن أخدم الولايات المتحدة وحسبي منها الطعام والثياب » .

وأبى الأسرى جميعاً أن يعرف ذووهم أنهم فى الأسر . وكان لا بد من بتر ساق أحدهم فشكر الأسير للطبيب بترها وأسر إلى المترجم : «بودى أن أكون جاسوساً للولايات المتحدة » .

وقد ذهب الأمريكيون إلى أن هؤلاء الأسرى الذين يستجدون العمل بذلة ، جبناء ، وأنهم لا يحترمون أنفسهم وإن كانوا يحترمون الأسرة .

أما المنتحرون ، فإن من الخطر التسرع برأى فيهم ، فليس اليابانى بالعـدو الذى يستخف به من أجل أن عـدة مئات منه ضموا قنابل يدوية متفجرة إلى صدورهم ، فى جزيرة أتو ، فما فعلوا هذا إلا بعد ثلاثة أسابيع من ضرب قاس لا رحمة فيه من جنود لم تر الدنيا أمتن منهم أسراً وأصلب عوداً .

واليـابانى متين صلب أيضاً ، وليست العصبية التى تدفع مئـات منهم إلى إيثار الموت على التسليم وانتهاك حرمة التقاليد التى نشأ عليها ، إلا ثمرة من ثمار صلابته ، وقد ظهر الجانب الإيجابى، لهذه الصلابة التى يمتاز بها اليابانى ، فى القتال الشديد الذى قاتله قبل أن ينهزم .

* * *

بعد عام تقريباً من اليوم الذى جاء فيه اليابانيون إلى أتو ، عادت الجزيرة أمريكية، وبعد ثلاثة أشهر من عودتها جلا اليابانيون سراً عن كيسكا ، فقد كانت أتو على جناحها فلا خير فيها ، ومن العسير الاحتفاظ بها .

وقد نشرت قيادة الدفاع عن ألاسكا صورة ترى فيها الطائرات والمدافع والجنود والدبابات والسفن ماضية إلى الغرب فوق جسر مرسوم على بحر بهرنج والجزء الشمالى من المحيط الهادى ، وعنوان هذه الصورة « جسر إلى النصر » .

وهذا ما تحولت إليه سلسلة جزر ألوشيان باستيلائنا على جزيرة أتو ، وبجلاء اليابانيين عن كيسكا — جسر من الجزر ينقل عليه الأمريكيون المقاتلون إلى حيث يستطيعون أن يضربوا الإمبراطورية اليابانية نفسها .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس

ملخصة عن كتاب بقلم

ديل كارنيجى

رئيس معهد كارنيجى للالقاء المؤثر والعلاقات الإنسانية ، بمدينة نيويورك ، ومؤلف كتابى « الخطابة » و « حقائق مجهولة عن المشاهير » الخ .

[فى الثلاثين عاماً الماضية درّب ديل كارنيجى أكثر من ١٥٫٠٠٠ من رجال الأعمال والمهن الحرة ، بينهم لفيف من أشهر الناس ، على الخطابة وسياسة الناس . وبلغ من عظم فائدة مناهجه فى دوائر الأعمال أن شركات مثل « شركة وستنجهاوس للكهرباء وصناعاتها » و« شركة ماك جرو ـ هيل للنشر » و « شركة تليفونات نيويورك » أدخلت هذا التدريب فى مكاتبها لأعضائها وموظفيها ومجالس إداراتها .

ويقول المؤلف : « إن هذا الكتاب لم يكتب بالمعنى المألوف . وإنما نما وتكوّن من تجارب آلاف من البالغين فى فصولى . » ومن « خزان » هذه التجربة الواسعة النطاق تدفقت ثروة من دروس الحكمة والحصافة فى العلاقات الإنسانية خص بها كتاب « كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس »]

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

القـد عقيم

فى مايو سنة ١٩٣١ قبض على مجرم سفاح مشهور اسمه « كراولى ذو المسدسين » بعد أن حاصره مائة وخمسون من الشرط المسلحين بالمدافع الرشاشة وقنابل الغازات ، فقال مدير بوليس نيويورك : إن هذا العيّار من أخطر المجرمين فى تاريخ نيويورك . وقال : « إنه يقتل لأهون سبب وأتفه باعث »

ولكن كيف كان كراولى « ذو المسدسين » ينظر إلى نفسه ؟ إنه كتب رسالة عنوانها هكذا : « إلى من عسى أن يعنيه هذا » ، فى حين كان الشرط يطلقون النار عليه فى حجرته . وفى هذه الرسالة يقول : « إن تحت ثيابى قلباً مضنى ولكنه رقيق — قلباً لا يطيب له أن يمس أحداً بأى سوء » .

وقبل ذلك بوقت قصير كان كراولى يتنزه مع صاحبة له فى طريق خلوى حيال « لونج أيلاند » فأقبل شرطى على السيارة الواقفة وقال : « هات رخصتك » .

فما كان من كراولى إلا أن أخرج مسدسه بلا كلام ورمى الشرطى فأرداه .

وقد حكم على كراولى بالإعدام على الكرسى الكهربائى . ولما جىء به إلى غرفة الإعدام فى سجن « سنج سنج » لم يقل : « هذا جزائى على قتلى الناس » وإنما قال : « هـذا جزائى على دفاعى عن نفسى » .

ومغزى هـذه القصة هو أن كراولى « ذا المسدسين » لم يلم نفسه على شىء ما .

فهل هذا هو الموقف المألوف بين المجرمين؟ إذا كان هـذا ظنك فاستمع إلى ما يقوله المستر لوز مدير سجن سنج سنج : « قلّ بين المجرمين من يعد نفسه رجلا شريراً . ومعظمهم يحاول أن يسوغ ما اجترح ضد المجتمع ، وأن يقنع بذلك حتى نفسه ، ومن أجل هـذا يذهبون إلى أنه ما كان ينبغى أن يسجنوا ، ويصرون على ذلك بكل ما فى طاقتهم من قوة » .

وإذا كان الأشرار الذين تحيط بهم جدران السجون لا يحملون أنفسهم تبعة شىء ما — فما الرأى فى غيرهم ممن نحتك بهم نحن ؟

أما أنا فقد ذهبت أتعثر نحو ثلث قرن قبل أن أتبين أنه فى كل ٩٩ مرة من مائة ، ما من رجل يأخذ على نفسه شيئاً ما ، وأن النقد عبث ، لأنه يدفع المنقود إلى اتخاذ موقف الدفاع ، ويحمله عادة على الاجتهاد فى تسويغ ما فعل .

والنقد أيضا خطر لأنه يجرح كبرياء المرء

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ويسيء إلى شعوره بقيمته وشأنه ، ويثير امتعاضه ونفوره .

وقد اتفق لى وأنا فى مقتبل العمر ، أيام كنت أحاول أن ألفت الأنظار إلى نفسى أن كتبت رسالة سخيفة إلى ريتشارد هاردنج دافيز ، وكان يومئذ مؤلفاً مشهوراً ، وكنت أعد مقالا لإحدى المجلات ، عن المؤلفين ، فرجوت من دافيز أن يفضى إلى بطريقته فى العمل . وكنت قد تلقيت قبل ذلك رسالة فى آخرها هذه الحاشية : « أمليت ولم تراجع » فوقعت الحاشية فى نفسى موقعاً عميقاً ، وشعرت أن الكاتب لا بد أن يكون كثير العمل عظيم الشأن . ولما كنت أريد أن أقع فى نفس ريتشارد هاردنج دافيز هذا الموقع ، فقد ختمت رسالتى إليه بهذه الحاشية « أمليت ولم تراجع » .

ولم يتكلف دافيز قط أن يرد على رسالتى ، واكتفى بأن يعيدها إلىّ وعليها هذه العبارة : « إن سوء أدبك لا يفوقه إلا سوء أدبك » . ولا شك أنى كنت أستحق هذا التأنيب ، ولكنى بشر ، ولهذا امتعضت . وبلغ من شدة استيائى أنى لما قرأت نعيه بعد ذلك بعشر سنين كان الذى لا يزال يخامرنى ويدور فى نفسى — ويخجلنى أن أقول ذلك — هو الألم الذى أورثنيه .

وينبغى أن تذكر فى معاملتك للناس أنك لا تعامل أهل منطق ، بل أهل عواطف وشعور حافلة النفوس بالأهواء يسيرها الكبر والغرور . وإذا كان همك أن تثير غداً عداوة تبقى على الأحقاب وتدوم ما دامت الحياة فما عليك إلا أن تجرى لسانك بشيء من النقد اللاذع — بالغة ما بلغت ثقتك بأنك على صواب فيه .

لقد كان بنيامين فرانكلين كثير فلتات اللسان وعثراته فى شبابه ، فراض نفسه حتى صار حصيفاً كيساً لبقاً فى معاملة الناس حتى اختير سفيراً لأمريكا فى فرنسا . أتريد أن تعرف السر فى نجاحه ؟ قال : « لن أذكر أحداً بسوء ، وسأحرص على أن أتكلم بكل ما أعرفه من خير عن كل إنسان » .

ولقد قال الدكتور جونسون : « إن الله يا سيدى لا يحاسب الإنسان إلا بعد انتهاء أجله » .

فلماذا أفعل أنا وانت غير ذلك ؟

نريد أن نكون شيئاً مذكوراً

يقول الأستاذ جون ديوى — أعمق فلاسفة أمريكا : « إن أقوى دافع فى الطبيعة البشرية هو الرغبة فى أن يكون المرء شيئاً مذكوراً » . فتذكر هذه العبارة « الرغبة فى أن يكون المرء شيئاً مذكوراً » فإنها جوع ملتهب لا يسكن ولا يفتر ، وهذه

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الرغبة هي التي أغرت كاتب البقال الفقير غير المتعلم — إبراهام لنكولن — بأن يدرس القانون ، وهي التي ألهمت ديكنز أن يكتب رواياته الخالدة ، وهي التي تغريك بارتداء أحدث الأزياء ، وبطلب وظيفة أرقى ، وبالتحدث عن بنيك الأذكياء .

ويتمارض بعض الناس أحياناً ليفوزوا بالعطف والعناية والالتفات ، وليفيدوا الشعور بأن لهم قيمة . ويذهب بعض الثقاة إلى أن بعض الناس يصيبهم الجنون فعلا ليجدوا في عالم الأحلام الذي يتيحه الجنون ، ذلك الشعور بالأهمية الذي حُرموه في عالم الحقيقة القاسي .

فإذا كان هـذا مبلغ ظمأ الناس إلى الشعور بالأهميـة ، فتصـور المعجزات التي نستطيعها إذا نحن لم نبخل عليهم بالتقدير المنصف ! إن الإنسان النادر الذي يسعه أن يسكن هذا الجوع النفسي يسعه أن يضع الناس في راحة يده .

لقـد كان أندرو كارنيجي — ملك الصلب — ينقد تشارلز شواب مرتباً سنويا لم يسبق له نظـير ، مليون ريال ، فهل كان ذلك لأن شواب يعرف عن صناعة الصلب أكثر مما يعرف سواه ؟ كلام فارغ ! فقد أخبرني شواب نفسه أنه كان معه رجال يعملون له ، ويعرفون عن الصلب فوق ما يعرف هو ، وأنه إنما كان يتقاضى هذا المرتب لقدرته على معاملة الناس . وما السر في ذلك ؟

قال شواب : « إني أرى أن قدرتي على إثارة الحماسـة والغيرة في النفوس أعظم ما أمتاز به . والتقـدير هو الوسيلة إلى إبراز خير ما في الإنسان . فما قتل الطموح في نفس الإنسان كالذم من رؤسائه . لهذا تراني أتوخى أن أطرى وأكره أن أذم . ويقتضي أن أعرف رجلا — مهما بلغ من رفعة المحل — لا يكون عمله أجود ، وجهده أعظم ، بفضل الإطراء دون الذم » .

وكان التقدير المخلص من أسرار نجاح روكفلر في معاملة الناس . مثال ذلك أن أحد شركائه — إدوارد بدفورد — جر على الشركة خسارة بلغت مليون ريال في صفقة خاسرة عقدها في أمريكا الجنوبية ، ولو شاء روكفلر لعاب وذم ، ولـكنه كان يعلم ان بدفورد فعل أقصى ما يدخل في طوقه ، ومن هنا وجد روكفلر ما يثني عليه ، فهنأ بدفورد لأنه استطاع أن ينقذ ٦٠ في المائة من المال الذي غرره . قال : « هذا بديع ! ولسنا نحسن أن نفعل مثل ذلك في مكاتبنا هنا » .

والحقيقة أن كل رجل تلقاه تقريباً ، يشعر أنه خير منك ويفوقك في شيء ما ،

فالطريق إلى قلبه هو أن تدعه يدرك أنك تعرف قيمته ولا تنكرها . إننا نغذى أجسام أطفالنا وأصدقائنا ، ولكن ما أقل ما نغذى احترامهم لأنفسهم !

كلا ! لست أشير بالملق ، فإن الملق جدير بأن يخنق ، وهو يخفق عادة . والملق من طرف اللسان ، أما التقدير المخلص فمن القلب .

فلنكف عن التفكير فيما صنعنا وفيما نحتاج إليه ، ولنحاول أن نفطن إلى مزايا الغير ، ولنوف هذه المزايا حقها من التقدير النزيه المخلص ، فإن الذى يظفر بذلك منك يظل يذكره على كر الأعوام ، على حين تكون أنت قد نسيته .

قال إمرسون : « إن كل رجل ألقاه يفوقنى من ناحية ما ، فأنا لهذا أتعلم منه » .

ما يريده الرجل الآخر

تحتاج فى غد أن تقنع بعضهم بأن يفعل شيئاً ما ، فتذكر قبل أن تتكلم أنه ليس ثم سوى وسيلة واحدة تحت قبة هذه السماء لحمل أى إنسان على فعل أى شىء . وهذه الوسيلة هى أن تجعله « يريد » أن يفعل الشىء .

وقد كان أندرو كارنيجى استاذا حاذقاً فى التأثير فى الناس ، وذلك بأن يتحدث إليهم بما يحرك فيهم إرادة العمل . مثال ذلك أن أخت زوجته كانت شديدة القلق على ولديها فى الكلية ، فقد أهملا أن يكتبا إليها ، ولم يعيرا رسائل أمهما التفاتاً . فعرض كارنيجى أن يراهن بمائة ريال على أن يغريهما بالرد مع البريد الراجع من غير أن يطلب ذلك منهما . فقبل بعضهم الرهان منه ، فكتب إليهما رسالة لطيفة ، وذكر عرضاً فى حاشية أنه أرسل لكل منهما خمسة ريالات غير أنه أهمل أن يرسل المال .

فجاء الرد برجع البريد .

وقد نبهت هذه الحيلة باعثاً يعد ، إذا قيس إلى غيره ، غير كريم ، ولكن من الممكن فى كثير من الأحيان التأثير فى الناس بتنبيه أسمى البواعث الممكنة . وقد حدث أن رأى اللورد نور ثكليف صورة له فى جريدة لم يكن يريد أن تنشر فكتب إلى رئيس التحرير رسالة ، ولكن هل قال له فيها : « أرجو أن لا تنشر هذه الصورة مرة أخرى فلست أرضى عنها » ؟ كلا ! بل أيقظ فى نفس المحرر الاحترام الذى ننطوى عليه جميعاً للأمومة فكتب يقول : « أرجو أن لا تنشر صورتى هذه مرة أخرى فإن أمى لا تحبها » .

ولما أراد جون د . روكفلر الصغير أن يكف مصورو الصحف عن رسم أبنائه ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لم يقل لهم : « لا أريد أن تنشر صورهم » كلا ، بل نبه الحرص الكامن فى نفوسنا جميعاً على اتقاء ما فيه أذى للأطفال فقال : « إنكم تدركون الباعث لى ، فإن لكم أبناء ، وإ كم لتعرفون أنه ليس من مصلحة الصغار أن تكثر الدعاية لهم » .

كان لتشارلز شواب مدير مصنع لا ينتج رجاله ما ينبغى أن ينتجوه فسأله شواب : « كيف اتفق أن رجلا فى مثل اقتدارك لا يستطيع أن يجعل هـذا المصنع ينتج ما يجب أن ينتج ؟ » .

قال الرجل : « لا أدرى . قد حاورت العمال وداورتهم ، وحضضتهم ، ولعنتهم ، ولكنهم يأبون أن يزيدوا على ما يفعلون » وكان هـذا فى آخر النهار ، قبل أن يجىء عمال الليل .

فقال شـواب : « أعطنى قطعـة من الطباشـير » ثم التفت إلى أقرب رجل وسأله : « كم أخرجتم اليوم ؟ » .

قال : « ستة » .

فلم ينطق شواب بكلمة ، وانحنى فكتب بالخـط الكبير رقم « ٦ » على الأرض بالطباشير وانصرف . فلما أقبل عمال الليل رأوا رقم « ٦ » وسألوا عنه ما معناه فقال لهم عمال النهار : « كان صاحب المصنع هنا اليوم ، وسألنا عن إنتاجنا فقلنا ستة فخطها بالطباشير على الأرض » وفى صباح اليوم التالى دخل شواب فى المصنع فإذا عمال الليل قد محوا رقم « ٦ » وخطوا مكانه « ٧ » بالخط الجليل .

ولما جاء عمال النهار رأوا السبعة الكبيرة على الأرض فقالوا لأنفسهم : إن عمال الليل يظنون أنهم خير منا ! ! حسن ! سنريهم ! وعكفوا على العمل بحماسـة وغيرة ، ولما انصرفوا فى المساء تركوا وراءهم « ١٠ » ضخمة . وما لبث المصنع الذى كان يتلكأ فى إنتاجه أن صار ينتج فوق ما ينتج سواه .

ولماذا ؟ قال شواب : « إن الوسـيلة لحمل الناس على العمل هى إثارة روح التنافس ، ولست أعنى التنافس الذميم الذى غايته الحصول على المال ، وإنما أعنى الرغبة فى التفوق » .

فى سنة ١٩١٥ لما صمم وودرو ولسون على إرسال رسول سلام إلى سادة الحرب فى أوربا ، أراد وليم جننجز برايان ، وزير الخارجية وداعيـة السلام ، أن يكون هو الرسول . ورأى أن هذه فرصة أتيحت له لتخليد اسمه ، ولـكن ولسون عين الكولونل هاوس ووكل إليـه أن يبلغ برايان ، وهى مهمة شائكة . وقـد كتب هاوس فى يومياته يقول : « لقد كان من الجلى أن برايان خاب أمله ، ولـكنى بينت

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

له أن الرئيس رأى أن ليس من المصلحة أن يتولى هذه المهمة أحد رسميا ، وأن إيفاده (برايان) يلفت الأنظار لفتاً قوياً ، فيروح الناس يتساءلون عن السر فى قدومه » .

فهل أدركت المعنى الذى تنطوى عليه هذه العبارة ؟ إن هاوس يقول لبرايان إنه أكبر جداً من هذه المهمة ، وقد رضى برايان وارتاح ، ذلك أن الكولونل هاوس الحاذق الخبير بالدنيا وأهلها يجرى على قاعدة مهمة فى العلاقات الإنسانية : أشعر غيرك السعادة حين يعملون ما تقترح عليهم .

لا تجادل

حدث فى مأدبة أن قص الجالس إلى جانبى قصة اقتبس فيها هذه العبارة : « إن هنالك قدراً يصوغ مصائرنا كائناً ما كان ما نفعله نحن فى تدبيرها » وزعم أنها من الإنجيل وكان مخطئاً ، فصححت له خطأه وأظهرت أنى أعلم منه ، ولكنه أصر على زعمه . من شكسبير ؟ كلام فارغ ! إنها من الإنجيل . وكان إلى يسارى صديق قديم لى وقد درس شاكسبير درساً وافياً ، فاتفقت أنا وصاحب القصة أن نطرح الخلاف عليه ، فأصغى صديقى ثم ركلنى برجله من تحت المائدة وقال : « إنك مخطىء ياديل . وهذا السيد مصيب . فإن العبارة من الإنجيل » .

ولما كنا فى طريقنا تلك الليلة إلى بيوتنا قال صديقى على سبيل الإيضاح : « لاشك أن الكلمة من شكسبير ياديل ، ولكنا كنا ضيوفاً فى مأدبة بهيجة ، فلماذا تحاول أن تثبت لرجل أنه مخطىء ؟ أتظن أن هذا يجعله يستلطفك ؟ لماذا لا تدعه وشأنه ؟ ثم إنه لم يطلب رأيك فلماذا تجادله ؟ اتق دائماً الزاوية الحادة » .

« اتق دائماً لزاوية الحادة » لقد كانت بى حاجة شديدة إلى هذا الدرس ، لأنى كنت مغرى بالجدل ، وقد جادلت أخى فى شبابى فى كل شىء تحت السماء ، ودرست فى الكلية المنطق والمناظرة ، ثم صرت أعلمهما فى نيويورك . وكانت النتيجة أنى انتهيت إلى أن ثم وسيلة واحدة لإقامة الحجة وإنهاضها ، وهى أن تجتنب إقامتها ! ففى كل تسع مرات من عشر ينتهى الجدل بأن يكون كل من المتجادلين أشد اقتناعاً بأنه هو على حق ، ولا تستطيع أن تفوز ، لأنك إذا انتصرت على خصمك فإنك تخسر ، لأنك لن تكسب قط رضاه وطيب طويته .

وقد قال وليم م . ماك أدو وزير الخزانة فى عهد رياسة وودرو ولسون إنه تعلم من السنوات الحافلة التى قضاها فى السياسة : « أن من المستحيل أن تقهر جاهلا بالحجة » وما ارى إلا أن المستر ماك أدو قد آثر

التصدد ، فإن تجربتي تنبئني أنه يكاد يكون من المستحيل أن تحمل أي رجل — بغض النظر عن علمه أو جهله — على تغيير رأيه بالجدل .

مثال ذلك أن المستر فردريك س . بارسونز ، وهو مستشار في الضرائب ، ظل ساعة يجادل مفتشاً للضرائب ، وكانت المناقشة على ٩٠٠٠ ريال يقول المستر بارسونز إنها دين ميت ، ويقول المفتش إن ضريبتها يجب أن تجبى .

قال المستر بارسونز : « كان هذا المفتش جامداً ومتحجراً وعنيداً ، وكان يزداد عناداً كلما طال الحوار ، وأخيراً قلت له : « أحسب أن هذه مسألة تافهة بالقياس إلى المسائل المهمة الصعبة التي تعالجها وتبت فيها . وقد درست موضوع الضرائب ، ولكن معرفتي بها مستمدة من الكتب ، أما معرفتك فمستفادة من خط نار التجارب . وإني لأتمنى أحياناً أن يكون لي مثل وظيفتك ، فإنها خليقة أن تعلمني كثيراً مما أجهل » وكنت مخلصاً فيما قلت . فاعتدل المفتش على كرسيه واضطجع وراح يتكلم طويلا عن عمله ، وحدثني عن غش كثير كشف عنه . وصارت لهجته ودية شيئاً فشيئاً ، وما لبث أن حدثني عن بنيه . ولما هم بالانصراف قال لي إنه سيدرس موضوعي مرة أخرى ثم يبلغني رأيه بعد بضعة أيام ، وعاد بعد ثلاثة أيام وقال لي انه قرر أن يترك الأمر على ما هو مدون في ملفه » .

لقد كان هذا المفتش يبدي ضعفا إنسانيا شائعا جداً ، فقد كان مطلبه الشعور بأنه ذو شأن وخطر ، فلما كان المستر بارسونز يجادله ، كان هو يرضي شعوره بقيمته بتقرير سلطته وتعزيزها ، فلما أقر له بارسونز بقيمته وطمأنه من هذه الناحية وانقطع الجدل ، وتيسر له أن يوسع نطاق ذاتيته انقلب إنساناً عطوفاً رقيقاً .

وقد كففت عن القول لأحد إنه مخطئ ، وألفيت ذلك نافعاً ، فإن المنطقيين قلة ، وأكثرنا متحيز منكوب بآراء سابقة يعتنقها . وقد نعترف فيما بيننا وبين أنفسنا بالخطأ ، وقد نقر به لغيرنا إذا عالجنا برفق وحكمة ، بل قد نباهي بصراحتنا ، ولكنا لا نفعل ذلك إذا حاول بعضهم أن يرغمنا على ازدراء الحقيقة غير السائغة .

حدثنا فرانكلين في ترجمته بقلمه كيف تغلب على عادة الجدل القبيحة ، وكيف عالج نفسه حتى صار من أقدر الساسة في تاريخ أمريكا . وقال إنه حين كان شاباً كثير العثرات انتحى به صديق قديم ناحية وقال له : « اسمع يابني ، إن آراءك كأنها سياط تجلد بها كل من يخالفك ، وإن إخوانك ليطيب لهم العيش حين تغيب عنهم ، وإنك

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لتبدو أعلم من أن يستطيع أحد أن يعرفك بشيء ، بل إنه ما من أحد سيحاول ذلك ، لأنه جهد لا يثمر إلا المتاعب . فأنت لا يحتمل أن تعلم أكثر مما تعلم الآن وهو قليل جداً » .

وكان فرانكلين حصيفاً عاقلا ، فأدرك أن هذا حق فتحول . قال : « اتخذتها قاعدة لي أن أجتنب كل معارضة لآراء غيري وكل تقرير لآرائي . بل حرمت على نفسي أن أستعمل لفظاً يدل على رأي مقرر أو مفروغ منه مثل « على التحقيق » أو « بلا شك » وصرت أقول « أحسب أن الأمر كيت وكيت » أو « إن هذا يبدو لي كذلك في الوقت الحاضر » . وإذا قال غيري قولا أراه خطأ فإني أحرم نفسي لذة الاعتراض عليه فجأة ، وإظهار ما ينطوي عليه من غلط ، فإذا أجبته بدأت بأن أبين أن رأيه يصدق في حالات معينة ، ولكنه في الحالة الراهنة يظهر أن هناك شيئاً في الاختلاف .

« وصار هذا في النهاية عادة راسخة حتى إنه في خمسين عاماً تقريباً لم يسمع أحد مني عبارة تقريرية . وإلى هذه العادة ، مضافة إلى النزاهة ، يرجع الفضل في أنه كان لي تأثير في مواطني حين اقترحت مشروعات جديدة أو تنقيحاً في مشروعات قديمة ، كما يرجع إليها الفضل في نفوذي في المجالس العامة » .

إذا كنت مخطئاً

إذا وقعت في خطأ فكثيراً ما ينفعك أن تبادر إلى الإقرار به . كان فرديناند وارين رساماً تجارياً فلجأ إلى هذه الوسيلة لاكتساب رضى مدير فني شكس . حدثني وارين قال : « بعثت إليه حديثاً برسم رسمته بسرعة ، فطلب مني بالتليفون أن أحضر إليه في مكتبه على الفور ، فلما صرت عنده كان ما توقعته ، فألفيته ساخطاً ، ومغتبطاً بالفرصة التي أتيحت له للإنحاء عليّ باللوم ، وسألني بحدة : لماذا فعلت كذا وكذا ؟ فلجأت إلى خطة جديدة وقلت : « لقد أخطأت وليس لي أي عذر ، فإني أرسم لك من زمن طويل ، فكان من الواجب أن لا أغلط هذا الغلط ، وإني لفي خجل شديد » .

وإذا به ينقلب مدافعاً عني ويقول : « نعم ، نعم ، إن ما تقول صحيح ، ولكن هذه غلطة هينة على كل حال . . . »

فقاطعته قائلا : « إن أية غلطة قد تصبح باهظة الكلفة . وكان ينبغي أن أكون أشد عناية . وسأرسم هذا من جديد » .

فرفض قائلا : « لا لا لا . إنه لا يخطر لي أن أجشمك كل هذا العناء » وأثنى على عملي وأطراه ، وأكد لي أنه لا يريد إلا تغييراً طفيفاً لا يستحق كل هذا القلق . ذلك أن تقدي لعملي استل غضبه ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وقبل أن أنصرف ناولني شيكا ووكل لي عملا آخر.

ضمير المفرد المتكلم

هل تريد أن تكتسب أصدقاء؟ إذن كن ودوداً، وانس نفسك، فليس الناس بمعنيين بك، وإنما هم معنيون بأنفسهم صباحاً وغدوة ومساء. وقد درست شركة تليفونات نيويورك الحوار التليفوني، لتعرف أي الألفاظ أكثر دوراناً على الألسنة، فإذاً هو الضمير «أنا» فقد استعمل ٣٩٠٠ مرة في ٥٠٠ محادثة تليفونية. «أنا»، «أنا»، «أنا»، «أنا».

وهذا هو السبب في أنك تستطيع في شهرين اثنين، إذا أظهرت العناية بأمر غيرك — أن تكسب من الأصدقاء أكثر مما تكسب في عامين طويلين، إذا حاولت أن تحمل الناس على العناية بأمرك أنت.

وكان هذا هو السر في الشهرة العجيبة التي فاز بها ثيودور روزفلت. زار روزفلت البيت الأبيض يوماً، ولم يكن الرئيس تافت وزوجته هناك، فبدا حبه الصادق لصغار الناس من تحيته لكل خدم البيت الأبيض القدماء بأسمائهم، حتى الخادمات اللواتي يغسلن أواني المطبخ.

كتب ابنه يقول: «ولما رأى أليس خادمة المطبخ سألها عن فطائر الذرة، ألا تزال تصنعها؟ فقالت إنها تصنعها أحياناً للخدم، ولكنه لا يأكلها أحد من العلية» «فقال روزفلت: «هذا يدل على فساد ذوق، وسأقول هذا للرئيس حين أراه».

«فجاءته بقطعة على طبق فذهب إلى المكتب وهو يأكلها ويحيي البستانية والعمال وهو يمر بهم. ولا يزال هؤلاء يتذاكرون ذلك اليوم. وقد قال خادم والدمع يجول في عينيه: «لقد كان ذاك أسعد يوم مر بنا في عامين كاملين».

وكان مثل هذا الاهتمام القوي بأمور الناس هو الذي جعل الدكتور تشارلز إيليوت مدير جامعة هارفارد من أنجح من تولوا إدارة الجامعات. حدث ذات يوم أن طالباً جديداً — ل. ر. ج. كراندون قصد إلى مكتب المدير ليقترض ٥٠ ريالا من صندوق الطلبة، فأعطاه ما طلب. قال كراندون: «ثم التفت الرئيس إيليوت وقال: «تفضل واجلس» وأدهشني حين استطرد يقول: «لقد قيل لي إنك تطبخ طعامك وتتناوله في غرفتك. وأرى أن هذا حسن إذا حصلت على الطعام الصالح وعلى الكفاية منه. وقد كنت أنا أفعل هذا في زمن التحصيل. فهل صنعت قط فطيرة بلحم العجل؟ إنها من خير الأطعمة إذا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أنعمت إنضاجها ، لأنه لا شيء يضيع منها سدى . والطريقة التي كنت أصنعها بها هي هذه . . . » ثم راح يخبرني كيف يختار اللحم وكيف أطبخه على مهل ، وبحيث يترك التبخر الحساء كالهلام ، ثم كيف أقطعه وأضغطه بين وعائين أحدهما في الآخر ، ثم آكله آخر الأمر بارداً » .

أفترى يكون هذا الأسلوب صالحاً نافعاً في الأعمال المالية والتجارية ؟ إن في وسعي أن أورد عشرات من الشواهد .

كان تشارلز وولترز من رجال مصرف كبير في مدينة نيويورك ، فكلف أن يعد تقريراً سريا عن شركة معينة . وكان لا يعرف سوى رجل واحد عنده ما يبتغي من العلم، وهو الرئيس . فلما أدخل وولترز عليه في مكتبه أطل رأس فتاة من الباب وقالت إنه ليس عندها له اليوم طوابع بريد أخرى .

قال الرئيس على سبيل البيان : « إني أجمع الطوابع لابني وهو في الثانية عشرة من عمره » .

وشرح وولترز غايته من الزيارة وبدأ يلقي أسئلته ، فجاءت الأجوبة غامضة ، عامة ، وكان الحديث وجيزاً عقيما .

فلم يدر المستر وولترز ماذا يصنع ، ثم تذكر أن القسم الخارجي من مصرفه يجمع الطوابع من الرسائل التي يتلقاها من قارات الأرض جميعاً .

قال وولترز : « وفي عصر اليوم التالي زرت الرجل مرة أخرى ، وبعثت إليه أنبئه أن معي طوابع لابنه . فحياني بوجه مشرق الديباجة وجعل يقول وهو يتناول الطوابع : « سيعشق جورج هذا . وتأمل هذا .. إنه كنز ! »

« وقضينا نصف ساعة نتحدث عن الطوابع ، ثم أفرد لي أكثر من ساعة يفضي إلي بكل ما أريد الوقوف عليه ، حتى من غير أن أسأله » .

فإذا كنا نريد أن نكتسب أصدقاء فلنعن بأن نصنع شيئاً للناس — شيئاً يتطلب وقتاً ونشاطا وحصافة .

أحسن الإصغاء

قابلت أخيراً عالماً نباتياً ممتازاً في مأدبة عشاء، ولم أكن قبل ذلك حادثت أحداً من علماء النبات . فظللت طول ذلك المساء جالساً على حافة الكرسي في حين راح هو يتحدث عن الحشيش والبطاطس والحدائق المنزلية . وانتصف الليل ، فحييت وانصرفت . فالتفت النباتي إلى مضيفنا وأثنى علي ثناءاً جميلا ، ووصفني بأني أنعش الناس جليسي ، وأني « محدث ظريف » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

محدث ظريف ؟ إنى لم أفتح فمى قط . وما كنت أستطيع أن أقول شيئاً لو أنى أردت الكلام إلا إذا تغير الموضوع ، لأنى لا أعرف شيئاً فى علم النبات . ولكن الذى فعلته هو هـذا : أصغيت بعناية وأرهفت سمعى ، لأنى كنت حقيقة معنيا بما أسمع ، فلم يفته اهتمامى بما يقول ، وسرّه منى هـذا . وهذا الضرب من الإصغاء هو خير ما تثنى به على المرء .

وهذا هو سر النجاح فى أحاديث المجتمع والأحاديث التى تدور على الأعمال أيضاً . وتذكر أن الرجل الذى تتحدث إليـه يهتم بنفسه وبحاجاته وأموره مائة ضعف اهتمامه بك وبأمورك . ولضرس يؤلمه أخطر شأناً عنده من مجاعة فى الصين . ففكر فى هذا حين تفتح حديثاً مع أحـد ، وإذا أردت أن يحبك الناس فأحسن الإصغاء ، وشجعهم على الكلام عن أنفسهم .

سحر الأسماء

سألت مرة جيم فارلى عن سر نجاحه فقال : « الكد فى العمـــل » فقلت له : «لا تكن سخيفاً » .

فسألنى هو عما أظن أنه سر نجاحه فقلت : « سمعت أنك تستطيع أن تدعو ١٠٫٠٠٠ إنسان باسمه الأول » .

قال : « بل أنت مخطىء ، فإنى أستطيع أن أدعو ٥٠٫٠٠٠ إنسان باسمه الأول » .

فلا يداخلك شك فى هذا ، فإن هذه القدرة أعانت المستر فارلى على أن يجلس فرانكلين د . روزفلت فى البيت الأبيض . ولما كان فارلى يطوّف فى البلاد ممثلا صنعاً للجص ، ابتكر طريقة يتذكر بها الأسماء ، فكان إذا تعرف برجل بحث عن اسمه الكامل وعن أسرته كلهـا ، وعن عمله ، وعن آرائه السياسية ، وحفظ ذلك كله عن ظهر قلب . حتى إذا قابـله مرة أخرى ، استطاع أن يربت له على كتفه ويسأله عن زوجته ، وبنيـه وعن الخبيزى فى حديقته الخلفية . فلا عجب إذا صار له شيعة وأتباع !

وقد أدرك فى صدر حياته أن الرجل من الأوساط العاديين أعظم اهتماماً باسمه هو منه بجميع أسماء الخلق مجتمعة . فإذا تذكرت اسم رجل ووسعك أن تدعوه به بلا عناء ، فإنك تطريه إطراء فعالا ، أما إذا نسيته أو أخطأت فى هجاءه ، فإنك تضع نفسك منه فى موضع لا يسرك .

وقد عرف أندرو كارنيجى ، وهو فى العاشرة من عمره ، الأهميـة المدهشة التى يراها الناس لأسمائهم ، فاستخدم هذه المعرفة لاكتساب المعاونة . وكان له عدد من صغار الأرانب ليس عنده طعام لهم ، فقال للغلمان

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

من جيرانه إنه مستعد أن يطلق أسماءهم على الأرانب إذا جمعوا له الكفاية من البرسيم والهندباء لإطعامها .

فكان لهذا الاقتراح فعل السحر ، ولم ينس كارنيجي قط هذه الحادثة .

وقد ربح فيما بعد ملايين وملايين بتوخي هذه الوسيلة في أعماله . مثال ذلك أنه أراد أن يبيع قضباناً حديدية إلى شركة بنسلفانيا للسكك الحديدية ، التي كان يرأسها يومئذ ج . إدجار تومسون . فشيد أندرو كارنيجي مصنعاً هائلا للقضبان الحديدية في بتسمبرج وسماها « مصانع ج . إدجار تومسون للصلب » .

فمن أين كان إدجار تومسون يشتري القضبان لشركة بنسلفانيا للسكك الحديدية حين يحتاج إلى شرائها ؟ .

كان برسي هاموند الناقد المسرحي يجري على عادة لا تتغير إذا أراد إيذاء أحد فيما يكتب ، فكان يتعمد أن يغلط في هجاء الاسم . وكان يضع حلقة حول الاسم الخطأ ، ويكتب على الهامش تحذيراً لمصحح المسودات من أن يكون قليل العقل فيصحح الاسم . ولأمر ما يستاء معظم الناس إذا رأوا أسماءهم مكتوبة على غير وجهها الصحيح ، وكان هاموند يسره أن يمتعض الناس إذ يرون أنهم عنده شيء مهمل ، حتى إنه يخطىء حين يتهجى أسماءهم .

ولما كان كارنيجي وجورج بولمان يتنافسان ويحاول كل منهما أن يتغلب على صاحبه فيما يتعلق بمركبات النوم ، تذكر ملك الحديد (كارنيجي) درس الأرانب .

وكانت شركة النقل المركزية التي يسيطر عليها كارنيجي تنافس الشركة التي يسيطر عليها بولمان ، وكانت كل من الشركتين تحاول أن تحصل على امتياز مركبات النوم من شركة السكة الحديدية الاتحادية للباسفيكي . وكانت المنافسة قوية ، وكل منهما يهبط بالأسعار والقيم ، ويقضي على كل أمل في الربح . وذهب كارنيجي وبولمان إلى نيويورك لمقابلة مجلس إدارة شركة السكك الحديدية ، فالتقى كارنيجي ذات مساء ببولمان في فندق « سنت نيقولاس » فاقترح كارنيجي إدماج شركتيهما ، ووصف بعبارات خلابة المزايا المتبادلة التي تستفاد من العمل معاً بدلا من التنافس . فأصغى إليه بولمان باهتمام ، ولكنه لم يقتنع كل الاقتناع ، وأخيراً سأل : « وماذا تقترح أن تسمى الشركة الجديدة ؟ » فأجاب كارنيجي على الفور : « شركة مركبات بولمان بالطبع ! » .

فأشرق وجه بولمان وقال : « تعال معي إلى حجرتي . ولنتداول في الأمر »

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فكان هذا الحديث حدثاً في تاريخ الصناعة.

ومن فرط زهو الناس بأسمائهم واعتزازهم بها، يحاولون تخليدها بأي ثمن. فقبل مائتي عام كان الأغنياء يبذلون المال للمؤلفين ليهدوا كتبهم إليهم. وقد موّل أصحاب الملايين بعثة الأميرال بيرد إلى القطب على أن يطلق أسماؤهم على الجبال الثلجية.

ومن أسهل الطرق وأقربها وأهمها لاكتساب حب الناس وإشعارهم أن لهم شأناً، أن تتذكر أسماءهم. ومع ذلك كم منا يفعل ذلك؟ إننا نتعرف بامرىء ونحادثه دقائق، ثم نودعه ولا نستطيع أن نتذكر اسمه. ومعظم الناس ينسون الأسماء لأنهم لا يكلفون أنفسهم عناء التذكر وحفر الأسماء في رءوسهم.

كان نابليون الثالث يفخر بأنه يستطيع أن يتذكر اسم كل امرىء قابله. أتسأل كيف كان يصنع؟ إنه كان إذا لم يسمع الاسم واضحاً يقول: «إني آسف جداً لأني لم أسمع الاسم بوضوح» فإذا كان الاسم غريباً غير مألوف سأل عن هجائه.

وكان أثناء الحديث يتكلف أن يكرر الاسم مرات عديدة، ويقرنه في ذهنه بملامح وجه الرجل وشكله العام، فإذا كان الرجل ذا شأن جشّم نابليون نفسه ما هو أكثر من ذلك، فكان إذا خلا بنفسه يكتب اسم الرجل على ورقة وينظر إليه ويركز خواطره فيه، ويثبت الاسم في ذهنه ثم يمزق الورقة. وبهذه الطريقة كان يتذكر رسم الاسم مكتوباً كما يتذكره ملفوظاً مسموعاً.

وهذا كله يستغرق وقتاً. ولكن الأدب، كما يقول إمرسون يتطلب تضحيات صغيرة.

فتذكر دائماً أن اسم الرجل هو أعذب وأحلى وأهم لفظ في اللغة.

● كان الكولونيل لورنس، أحد أبطال الثورة العربية، في الحرب العالمية الأولى، واقفاً ذات صباح قائظ على شرفة فندقه في القاهرة، فدنت منه سيدة كان يهمها أن تشاهد واقفة معه، وقالت وهي تروّح بمروحة كبيرة: «تصوّر يا كولونيل لورنس، تصوّر، اثنتان وتسعون». فرد لورنس في الحال: «أهنئك يا سيدتي، وأتمنى لك عود العيد السعيد مراراً!».

[ي. ي. ادجار]

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

آرثر كونان دويل
عن "مجموعة شرلوك هولمز الكاملة"

مغامرة العصابة الرقطاء

إن شخصية شرلوك هولمز المحببة التى ابتدعها كونان دويل ، ظفرت بقلوب ثلاثة أجيال من القراء ، ولا تزال آخذة سبيلها لتصبح متعة الجيل الرابع أيضاً . ولا جرم أن كانت نشوة مغامراته تلقى القارىء فى بحر من النسيان ، كأنما بها مخدر لا سبيل إلى إنكاره . إذا دخلنا غرفة الجلوس ، فى المنزل « رقم ٢١١ مكرر فى شارع بيكر » انتقلت نفوسنا المرهقة بالشواغل إلى عصر الملكة فيكتوريا وكل ما يذكرنا به : عربات سود مقفلة ، تجرى على عجلات كبيرة ، وسماء يجللها الضباب ، وشرلوك هولمز يضرب أمامنا أمثلة بارعة على مقدرته الدائمة فى الاستنتاج . ونحن والدكتور وطسون الأمين ، نراقبه فى دهشة وإعزاز .

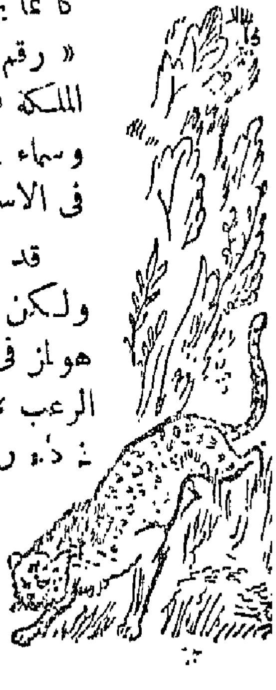

قد حاول بعض كتاب القصص البوليسية أن يقلدوا — بلا خجل — طريقته ، ولكن هيهات ! فليس هناك إلا هولمز واحد . ومغامرة العصابة الرقطاء تمثل شرلوك هولمز فى ذروة مقدرته وإقدامه ، إذ نرى فى هذه المغامرة بوقائعها الفريدة فى إثارة الرعب ، كيف يتفوق ذكاء هولمز — البوليس السرى الذى لا يبارى — على ذكاء رجل الشر ، الدكتور جريمسبي رويلوت . وسواء أقرأت هذه القصة للمرة الأولى أم قرأتها للمرة العشرين ، فإن وقائعها المخيفة لا تزال قادرة على أن توقف الدم فى قلبك من الرعب ، وأن تدفعك إلى البحث عن مغامرات أخرى لهولمز الخالد ؟

كريستوفر مورلى

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

استيقظت مبكراً ذات صباح من شهر أبريل فإذا شرلوك هولمز واقف بجانب فراشي في تمام ثيابه . فنظرت إليه ، والنوم يغالب عيني ، في شيء من الدهشة . فقد كانت عادته أن ينام إلى وقت متأخر . قال لي :

— يؤسفني أن أوقظك ياوطسون ، ولكن هذا هو حظنا المشترك هذا الصباح .

— ماذا حدث إذن ؟ هل شبت حريق ؟

— بل هي زبونة تقصدنا . هي سيدة في مقتبل العمر قد أخذ الاضطراب منها كل مأخذ ، وهي تنتظرنا الآن في غرفة الجلوس.

ما يسرني شيء أكثر من تتبعي لهولمز في مباحثه الفنية ، ومن إعجابي باستنتاجاته الخاطفة ، تخال لسرعتها وحياً وإلهاماً ، على حين أنها تستند إلى أساس من المنطق السليم ، وبفضلها يحل هولمز كل مشكلة تعرض عليه .

وفي برهة وجيزة تأهبت لمصاحبة هولمز إلى غرفة الجلوس . فلما دخلناها قامت إلينا سيدة قد ارتدت بالسواد ، محجبة الوجه بنقاب غليظ .

قال لها هولمز وهو يحييها بانشراح :

— طاب صباحك ياسيدتي ، أنا شرلوك هولمز وهذا صديقي الحميم ورفيقي الدكتور وطسون ، وتستطيعين في حضرته أن تفضي إليّ غير متحرجة بكل ماتريدين . بالله عليك إلا اقتربت من المدفأة فإني أراك ترتجفين .

أجابته السيدة بصوت خافت :

— ليس البرد هو الذي يجعلني أرتجف

— مم إذن ؟

— إنه الخوف يامستر هولمز ، إنه الرعب

رفعت ، وهي تتحدث ، نقابها فاستطعنا أن نتبين أنها حقاً في حالة من الهياج يرثى لها : وجه مجهد منغبر ، وعيون حائرة وجلة ، السمة والهيئة ، سمة امرأة في الثلاثين ولكن أسرعت في شعرها فلتات من الشيب . وفرّها هولمز بنظرة من نظراته السريعة الشاملة ، ومال عليها يربت على ذراعها ويقول لها مطمئناً :

— يجب أن تطرحي الخوف جانباً ، وعما قليل سنصلح لك أمورك . لقد جئت بالقطار ، فيما أرى ، هذا الصباح ؟

— هل تعرفني إذن ؟

— لا ، ولكني لاحظت أنك تحتفظين بالنصف الثاني من تذكرة ذهاب وإياب في قفاز راحتك اليسرى . ولا شك أنك بدأت رحلتك مبكرة ، فاضطررت إلى ركوب « دوكار » يبلغك المحطة من خلال طرق وعرة .

حدقت فيه مبهوتة فأردف يقول :

— إن الأمر جليّ ياسيدتي العزيزة ، فإن كم سترتك الأيسر قد تناثر عليه الطين

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى أكثر من سبعة مواضع ، وليس هناك عربة سوى الدوكار تقذف عجلاتها الطين على هذه الصورة، ولا يكون ذلك إلا وأنت جالسة على يسار السائق .

— مهما تكن أدلتك ، فقد أصبت فى كل ما قلت . لقد غادرت دارنا قبل السادسة فلم أعد أطيق احتمال هذا الهمّ . أواه ياسيدى ، هل تستطيع أن تلقى ببصيص من الضوء على هذا الظلام الدامس الذى يكتنفنى ؟ ليس فى طوقى اليوم أن أجازيك على مساعدتك ، ولكنى سأتزوج بعد شهر أو ستة أسابيع ، وسيصبح لى حق التصرف فى دخلى . وعندئذ ستجدنى — على الأقل — غير منكرة للجميل .

فأجابها هولمز :

— عملى هو جزائى . ولكنى أترك لك الخيار فى دفع ما قد أتحمله من النفقة ، فى الوقت الذى يروق لك . والآن أرجوك أن تدلى إلينا بكل ما يساعدنا على تكوين فكرة عن مسألتك .

أجابته زائرتنا :

— وا أسفاه ! إن سبب الرعب الذى أنا فيه يرجع إلى أن مخاوفى جدّ مبهمة ، وأن ارتيابى إن قام على شىء فإنما يقوم كله على أمور هينة قد تبدو لك أوهام امرأة مضطربة الأعصاب ليس إلا .

— إننى منتبه إلى ما تقولين كل الانتباه يا سيدتى .

— اسمى هيلين ستونر ، وأعيش مع زوج أمى ، وهو آخر من بقى من سلالة أسرة من أعرق الأسر فى إنجلترا ، أسرة رويلوث التى تنتسب إلى جهة ستوك موران بمقاطعة صارى .

فأومأ هولمز برأسه وقال :

— ليس هذا الاسم بغريب علىّ .

— كانت هذه الأسرة فى وقت من الأوقات تعد من أغنى الأسر فى إنجلترا ، ولكنها الآن لا تملك شيئاً سوى بضعة أفدنة من الأرض ، وقصراً يرجع تاريخه إلى مائتى سنة مضت ، وهو الآن مرهون مثقل بالدين . وظل آخر سيد يحمل لقب الأسرة يعانى على مهل بشاعة الحياة وهو يعيش عيشة صعلوك أرستقراطى . فلما رأى ابنه الوحيد ، زوج أمى ، أن لا مفرّ له من أن يلبس للحالة الجديدة لبوسها ، حصل على إجازة فى الطب ورحل إلى كلكوتا حيث أصبح مقصد كثير من المرضى . ولكنه فى نوبة غضب انهال ذات يوم بالضرب على خادمه الهندى حتى قضى عليه . ولم ينج من الإعدام إلا بشق النفس ، فعوقب بالسجن مدة طويلة عاد بعدها إلى انجلترا رجلا مكتئباً ممروراً .

وحين كان الدكتور رويلوث فى الهند

تزوج أمى ، المسز ستونر ، الأرملة الشابة التى مات عنها الماجور جنرال ستونر ، الضابط بمدفعية البنغال . وكنت أنا وأختى چوليا توأمين فى الثانية من عمرنا يومئذ .

ماتت أمى بعد عودتنا إلى إنجلترا بقليل ، فأخذنا الدكتور رويلوث لنعيش معه فى ستوك موران . وكانت أمى قد أوصت بكل دخلها ، وهو ما لا يقل عن ألف جنيه فى السنة ، إلى الدكتور رويلوث بشرط أن يدفع إلينا سنوياً مبلغاً معيناً بعد زواجنا . كان هذا الدخل يكفينا كل الكفاية ، وكانت السعادة تبدو كأنها فى متناول يدنا .

ولكن لم يلبث زوج أمى أن تبدلت طباعه تبدلا مخيفاً . فأصبح يغلق عليه باب غرفته ، ولا يكاد يخرج حتى يشير شجاراً وحشياً مع أى امرئ يلقاه فى طريقه .

والمعروف عن رجال أسرته أنهم يتوارثون حدة فى الطبع تقارب الجنون . ولا شك أن إقامة زوج أمى زمناً طويلا فى بلاد حارة قد أججت هذه العلة ، حتى صار أخيراً مثار رعب أهل القرية كلها . فلا يقابله أحد إلا فر منه رعبا ، إذ كان رجلا مفرط القوة ، فإذا أخذه الغضب فلا رادّ لغضبه .

لم يبق « بعدُ صديق واحد — اللهم إلا جماعة من الغجر الرحّل ، وقد أذن لهؤلاء المشردين أن يحطوا رحالهم فى تلك الأفدنة القليلة المهملة التى لم يبق للأسرة غيرها .

وكانوا يردون جميله فيدعونه إلى خيامهم فيلبى الدعوة ويصحبهم فى جولاتهم أسابيع متوالية . ولهذا الرجل ولع شديد بالحيوانات الهندية ، وإن لديه الآن فهداً وقرداً قد أطلق سراحهما فى أرضه ، يرهبهما أهل القرية رهبتهم لصاحبهما . ولعلك تدرك بعدُ أن لم يكن فى حياتى وحياة أختى المسكينة چوليا كثير من البهجة والسرور . ولقد توفيت أختى منذ سنتين ، وموتها هو الموضوع الذى أريد أن أحدثك عنه .

لنا عمة ، هى المس أونوريا وستفيل ، تعيش قريباً من مدينة هارو ، وكان يؤذن لنا أحياناً فى زيارتها فترة قصيرة ، وهنالك قابلت أختى ضابطاً فى البحرية وقبلت خطبته لها . لم يبد زوج أمى أى اعتراض على هذا الزواج ، ولكن قبل الموعد المحدد للزفاف بأسبوعين وقعت لنا حادثة مفزعة .

كان شرلوك هولمز مضطجعاً فى مقعده ، وعيناه مغمضتان ، ورأسه غارق فى الوسادة ، فإذا به يفتح عينيه قليلا ويرمى ببصره إلى الزائرة ويقول :

— أرجوك أن تراعى غاية الدقة فى ذكر التفاصيل .

— من السهل علىّ أن أفعل ، فإن كل

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

التفاصيل عالقة بذاكرتى كأنما حفرت فيها حفراً . فليس فى القصر القديم اليوم سوى جناح واحد مسكون . وغرف النوم فى الطابق الأرضى ، الغرفة الأولى لزوج أمى ، والثانية لأختى ، والثالثة لى . ولا يتصل بعض هذه الغرف ببعض ، ولكن أبوابها جميعاً تفتح على طريقة واحدة .

هل ترانى أوضحت الوصف ؟

— كل الوضوح .

— وتطل نوافذ الغرف الثلاث على المرج المحيط بالقصر . وفى تلك الليلة المشئومة بادر الدكتور رويلوث فأوى إلى غرفته ، ولكننا أدركنا أنه لم يفعل ذلك لغلبة النوم عليه ، فإن أختى آذاها الدخان المتصاعد من لفائف التبغ الهندى التى كان من دأبه أن يدخنها . فلذلك تركت غرفتها وجاءت إلى غرفتى حيث جلست قليلا تثرثر بذكر زواجها المقترب .

وفى الساعة الحادية عشرة قامت تودعنى ولكنها تريثت لدى الباب وقالت :

— خبرينى يا هلين . هل حدث لك أن سمعت شخصاً يصفر فى هدأة الليل البهيم ؟ قلت :

— أبداً ؟ ولماذا ؟

— لأننى ، فى الليالى الماضية ، حوالى الساعة الثالثة صباحاً ، سمعت صفيراً خافتاً واضحاً ، لم أستطع أن أتبين مصدره . ربما كان من الغرفة المجاورة ، وربما كان من المرج . أفتراك سمعته أنت أيضاً ؟

— كلا لم أسمعه . هم هؤلاء الغجر المناكيد ، ولا بد .

— إنه لخليق أن يكون كذلك . على كل حال ، ليس هذا بأمر ذى بال .

ابتسمت لى وأغلقت الباب ، وبعد بضع دقائق سمعت مفتاحها يدور فى قفل بابها .

قال هولمز :

— وإذن أكان من عادتكما أن توصدا الباب عليكما بالليل ؟

— دائماً . لقد ذكرت لك أن الدكتور يقتنى فهداً وقرداً ، فلا عجب أن كنا لا نشعر بالأمن إلا إذا كان بابنا موصداً .

— معكما الحق ! تفضلى فأتمى الحديث .

— لم يغمض لى جفن ، سيطر على شعور غامض بأن مصاباً يوشك أن يحل بنا . وكانت ليلة عاصفة ، تزمجر فيها الريح ، ويقرع المطر زجاج النوافذ . وفجأة شقت ضجة العاصفة صرخة عالية . صرخة امرأة مذعورة . فتبينت صوت أختى ، فوثبت من فراشى وتلفعت بشال واندفعت إلى الطرقة ، ولما فتحت الباب خيل إلى أننى أسمع صفيراً خافتاً كالذى وصفته أختى .

وبعد هنيهة دوت صلصلة أشبه بصلصلة

لوح ثقيل من المعدن يقع على الأرض . وبينا أنا أجرى فى الطرقة سمعت المفتاح يدور فى قفل غرفة أختى ، ثم فتح الباب على مهل ، وأثبت الرعب نظرتى عليـــه . وفى ضوء مصباح الطرقة رأيت أختى على عتبة غرفتها ، قد شحب وجهها من الرعب ، وامتـدت يداها تطلبان الغوث ، وجسمها كله يهـتز ذات اليمين وذات اليسـار . جريت إليها وطوقتها بذراعىّ ، ولـكن ركبتيها خانتاها وسقطت على الأرض تتلوى كمن يعانى آلاماً شديدة ، وأطرافها ترتعـد ارتعاداً مخيفاً ، فلما انحنيت عليها صرخت فجأة :

— آه ! يارب ! هلين ! إنها العصابة ، العصابة الرقطاء .

وكان على لسانهـا شيء تود أن تقوله ، وأخذت تشـــير بإصبعها مراراً إلى غرفة الدكتور ، ولـكن الرعدة أخذتها من جـديد ، فخفت صوتهـا . جريت أصرخ مستغيثة بزوج أمى ، فقـابلته وهو مسرع من غرفتـه ، وعليه معطفه المنزلى . ولما وصل إلى جانب أختى وجدها مغمىً عليها ، فصبّ فى فمها قليلا من الـكونياك ، وبعث إلى القرية فى طلب الإسعاف ، ولـكن كل ما بذلناه من جهد فى إنعاشها ضاع سدى .

قاطعها هولمز :

— لحظة واحـدة . هل أنت واثقـة من الصفير والصلصلة المعدنية ؟

— هذا ما سألنى عنه قاضى التحقيق . يتملـكنى إحساس قوى بأنى قد سمعت ذلك ولـكن عسى أن يكون سمعى قد كذبنى ، فى ضجة العاصفة ، وطقطقة الدار القديمة .

— وهل كانت أختك مرتدية ثيابها ؟

— كلا . كانت فى ثيـاب النوم ، وقد وجدنا فى يدها اليمنى بقية عود ثقاب محترق ، وفى يدها اليسرى صندوق الثقاب .

— هذا يدلّ على أنها حين فوجئت بما أفزعها ، عمدت إلى الثقاب فأشعلته ، وتلفتت حواليها فى ضوئه . وهذا أمر مهم . وما هى النتيجة التى وصل إليها قاضى التحقيق ؟

— إنه باشر التحقيق بكل عناية .

فقد كان سلوك الدكتور رويلوث مما تلوكه الألسن منذ مدة طويلة فى البلدة . غير أن القاضى لم يجـد لوفاة أختى سبباً واحداً مقنعاً . فقد ثبت من شهادتى أن بابها كان مغلقاً من الداخل ، وأن النافذة ، وهى من طراز قديم ، كانت توصد كل ليلة بقضيب عريض من الحديد . فلا ريب إذن فى أن أختى كانت وحدها فى الغرفة عند ما لقيت حتفها ، وفوق ذلك لم نجـد على جسمها أى أثر يدل على أنه قد وقع عليها اعتداء ما .

— «ماذا رأوا فى قتلها بالسم ؟ . .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

— لقد فحصها الطبيب ليتحقق من ذلك ، ولكنه لم يوفق إلى شيء .

— إذن ماذا ترين أنت فى سبب وفاة هذه السيدة المسكينة ؟

— إنى أعتقد أنها لم تمت إلا من الخوف والصدمة العصبية ، وإن كنت لا أستطيع أن أتصور مبعث هذا الرعب .

— ماذا فهمت من إشارتها إلى العصابة ، العصابة الرقطاء ؟

— أحياناً أظنها وليدة هذيانها ، وأحياناً أظنها تعنى عصابة من الناس — ولعلهم أولئك الغجر ، فإن أغلبهم يعصبون رؤوسهم بمناديل ذوات ألوان توحى بهذا الوصف الغريب الذى جاء على لسان أختى .

هز هولمز رأسه كمن يصعب عليه الاقتناع ثم قال :

— إن الأمر غامض جداً . تفضلى وواصلى الحديث .

— مرت سنتان منذ هذه الحادثه وكنت إلى عهد قريب أقضى حياتى فى وحدة أشد وحشة من ذى قبل .

ولكن صديقاً عزيزاً علىّ كنت أعرفه سنين طويلة سألنى فى الشهر الماضى أن أرضى به زوجاً . اسمه أرميتاج ، برسى أرميتاج . لم ألق من زوج أمى أية معارضة وسنتزوج فى الربيع .

ومنذ يومين شرع فى تعمير الجناح الأيسر للقصر فأحدثت فجوات فى جدار غرفتى ، فاضطررت أن أنتقل إلى الغرفة التى ماتت بها أختى وأن أنام فى نفس الفراش الذى كانت تنام فيه . تصوّر إذن مقدار رعبى ! فبينما أنا فى الليلة الماضية راقدة لا أنام ، أفكر فى المصير المخيف الذى لقيته أختى ، إذا بى أسمع فجأة الصفير الخافت الذى كان نذير موتها . وثبت من الفراش ، وأخذت المصباح ، ولكنى لم أر بالغرفة شيئاً . وأخذ الذعر منى كل مأخذ فلم أستطع أن أعود إلى مضجعى . ولم يكد الفجر يبين حتى أخذت دوكاراً من فندق القرية ، وركبته إلى المحطة ، وجئت إليك أستشيرك .

— وخيراً فعلت .

ساد الغرفة صمت طويل ، وهولمز معتمد بذقنه على يديه ، وهو يحدق فى شعل المدفأة وهى تطقطق . وأخيراً قال :

— هذه مسألة عويصة . أفى استطاعتنا ، إذا ذهبنا اليوم إلى ستوك موران ، أن نرى هذه الغرف دون أن يعلم زوج أمك بذلك ؟

— الواقع أنه كان يذكر اليوم نيته فى القدوم إلى المدينة . وأغلب الظن أن لن يزعجكم أحد .

— هذا بديع . إذن سنذهب كلانا ، وأما أنت فماذا تنوين ؟ .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

— مادمت قد جئت إلى المدينة فسأقضى حاجة لى أو حاجتين ثم أعود بقطار الساعة الثانية عشرة . وسأعود إلى رؤيتكم مرة أخرى عصر اليوم .

وقامت السيدة ، وأسدلت نقابها السميك على وجهها ، وتسللت من الغرفة كأنها طيف .

استلقى هولمز فى مقعده وسألنى :

— ماذا ترى فى هذا كله يا وطسون ؟ يخيل إلىّ أن هذا أمر يكتنفه أشد الغموض وأنه ينذر بأفظع الشرّ .

— نعم ، هو جد غامض ، وجو ملىء بالنذر . ولكن ماذا تقول فى هذا الصفير الذى ينبعث بالليل ، وهذه الكلمات الغريبة التى نطقت بها تلك المرأة وهى تجود بنفسها؟

— لا أدرى وايم الحق ماذا أقول !

— إذا قرنت بين أمر الصفير بالليل ، ووجود عصابة من الغجر ، وما عسى أن يستفيده الدكتور من منع ربيبتيه من الزواج ، وإشارة المتوفاة إلى العصابة — ثم أضفت إليها سماع مس هلين ستونر الصلصلة المعدنية التى ربما كان مصدرها سقوط قضيب الحديد من النافذة إلى مستقرّه ، إذا فعلت هذا فقد يمكننا أن نكشف عن سر هذا اللغز المعمى .

— ولكن ماشأن الغجر فى هذا الأمر؟

— لا أدرى ! ولكن يا للشيطان ! ما هذا ؟ .

رأينا بابنا يندفع فجأة ويفتح على مصراعيه ويقتحمه رجل عملاق . رداؤه مزيج من لباس أرباب المهن ، ولباس المزارعين . قبعته الأسطوانية العالية ، ومعطفه الأسود من الطراز التقليدى للسادة من أرباب المهن ، على حين كان يرتدى حذاءاً برقبة تصل إلى ركبته كأحذية الفلاحين . وقد بلغ من فرط طوله أن قبعته احتكت فعلا بسقف الباب ، وبلغ من بدانة جسمه أن خيل إلينا أنه ملأ الباب عرضاً . . وجه ضخم قد تخدّد لحمه أخاديد ، ولوحته الشمس فاصفر ، وتركت سمتها عليه كل نزوة شريرة . أخذ الرجل ينقل نظراته إلينا على حين كانت عيناه الغائرتان الحمرتان حنقاً ، وأنفه الأشمّ الدقيق ، تكاد ترينا فيه شبهاً قريباً من جوارح الطير المفترسة إذا ما شاخت .

ونطق هذا الشبح قائلا :

— أيكما هولمز ؟

فأجابه هولمز بهدوء :

— هذا هو اسمى يا سيدى ، ولكن إن كنت أنت على علم باسمى ، فإنى لم أتشرف بعد بمعرفتك !

— أنا الدكتور جريمسبى رويلوت من ستوك موران .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

رد عليه هولمز غير مكترث

— الآن تعارفنا . تفضل واجلس .

— لن أفعل شيئاً من ذلك . إن ربيبتى كانت هنا . لقد تتبعتها . فماذا قالت لك ؟

أجابه هولمز :

— ألا ترى أن الجو أبرد الآن مما كنا نتوقعه فى مثل هذا الفصل ؟

فصرخ زائرنا :

— تريد التخلص منى ! إننى أعرفك أيها الوغد . لقد سمعت عنك من قبل ، فأنت هولمز الطفيلى !

فابتسم صديقى وقال ؟

— بل هولمز الذى له فى كل واد أثر . . .

وضحك هولمز ملء شدقيه وأردف :

— ما أمتع حديثك ! إذا ما خرجت فأغلق الباب فإنى أشعر بمرور تيار من الهواء .

— لن أذهب إلا بعد أن أسمعك ما أريد أن أقوله . حذار من أن تقحم نفسك فى شئونى . إننى رجل خطر من التهلكة أن تخاصمه . انظر إلىّ . . . » .

وخطا الرجل بسرعة وتناول قضيب الحديد الذى تقلب به النار ولواه بيديه الضخمتين السمراوين .

— احرص على سلامتك . وإياك أن تقع فى قبضتى . قالها وهو يزمجر ، ثم قذف بالقضيب الملتوى إلى النار ، وغادر الغرفة بخطى واسعة .

قال هولمز ضاحكا :

— ما أرق طباع هذا الرجل ! إننى لست فى مثل ضخامته ، ولكن لو أنه بقى لأريته أن قبضتى لا تقل قوة عن قبضته .

والتقط هولمز قضيب الحديد ، فما كاد حتى أعاده إلى استقامته الأولى . ثم قال :

— هذا الحادث يزيد الحمية فى المباحث التى نحن قادمون عليها . والآن ، إلى بعض فطورنا . وسأذهب بعد إلى مكتبة الأطباء حيث أرجو أن أوفق إلى بعض المعلومات التى تعيننا فى هذه القضية .

* * *

كانت الساعة قد بلغت الواحدة حين عاد هولمز من جولته . وقال :

— لقد اطلعت على وصية الزوجة المتوفاة ، فوجدت أن دخل الدكتور رويلوث لا يزيد كله الآن عن ٧٥٠ جنيهاً . إذ لكل بنت الحق فى الحصول عند زواجها على ٢٥٠ جنيهاً سنوياً . فمن الجلىّ إذن أنه إذا تزوجت الفتاتان كلتاهما لم يبق لهذا الوحش إلا مبلغ لا يكاد يقيم أوده . وحتى إذا تزوجت واحدة دون أخرى لآده ما يحيق به . والآن يا وطسون إن الأمر أجل من أن نتلكأ عنه . فلنستقل الآن عربة تحملنا إلى محطة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

واترلو ، وأكون شاكراً لك فضلك لو أخذت معك مسدسك ، فهو ، وفرشة أسنان ، كل ما نحتاج إليه فيما أظن .

لحقنا بقطار أقلنا إلى محطة ليزرهيد ، فأجرنا من فندق القرية عربة سارت بنا أربعة أميال أو خمسة بين دروب صارى المشهورة بجمالها . وكان يوماً صحواً غاية فى الإشراق ، تسطع شمسه ، وتزين سماؤه كسف متفرقة من السحاب . وكانت الأشجار الكبيرة والشجيرات قد أخذت تخضر تباشير أوراقها ، وكان الهواء مشبعاً بعطر الثرى المبتل . جلس صديقى فى المقعد الأمامى ، وقد أمال قبعته على عينيه ، واستغرق فى تفكير عميق . ثم إذا به ينتبه فجأة ويلمس كتفى ويشير ناحية المراعى ويقول :

— انظر ، لابد أن تكون هذه هى ستوك موران .

فقال السائق :

— نعم ياسيدى ، وهذا هو قصر الدكتور جريمسبي رويلوث .

قال هولمز :

— لقد جئنا لمعاينة بعض الإصلاحات التى تجرى بالدار ، وسنشق طريقنا إليه سيراً على الأقدام وسط الحقول . .

ونزلنا ودفعنا الأجر ، وسارت العربة عائدة إلى ليزرهيد .

ولم نكد نقترب من القصر حتى رأينا المس ستونر تهرع للقائنا ووجهها ينطق بالفرح ، وقالت متلهفة وهى تصافحنا بشوق :

— كنت أنتظركم بفارغ الصبر ، لقد جرى كل شيء على ما يرام ، فالدكتور رويلوث قد ذهب إلى المدينة ولن يعود قبل المساء .

قال لها هولمز : لقد تشرفنا بمعرفته ! ثم أجمل لها فى كلمتين وصف ما حدث . فإذا بالمس ستونر قد شحب وجهها حتى شفتيها وصرخت :

— ياإلهى ! إنه من المكر بحيث لاأدرى أبداً كيف أتقى شره !

— ولعله يكتشف قريباً أن هناك شخصاً أمكر منه يتتبع أثره . والآن يحسن بنا أن لا نضيع الوقت ، فدلينا من فورك على الغرف .

وجدنا بناء مشيداً بحجر بحرى أشهب مخضر ، وهو مكون من صدر عال . وجناحين معقوفين على هيأة مخالب السرطان .

وأحد الجناحين مثال ناطق للقدم والخراب ، على حين كان الجناح الأيمن يبدو أحدث عهداً .

رأينا بعض « الروافع » منصوبة على الجدار الخلفى وقد استحدثت فى البنيان بعض الفجوات ، ولكننا لم نعثر حين

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

زيارتنا على أحد من العمال . وأخذ هولمز يقطع المرج المهمل عشبه ذهاباً وإياباً ، يسير على مهل ويفحص النوافذ بانتباه شديد .

— هذه فيما أعتقد نافذة الغرفة التى اعتدت أن تنامى فيها ، وتلك الوسطى نافذة غرفة أختك ، وتلك المجاورة للبناء الأصلى هى نافذة غرفة الدكتور .

— هو ما قلت تماماً . ولكنى أنام الآن فى الغرفة الوسطى .

— وذلك إلى أن تنتهى الترميمات فيما أرى . وبهذه المناسبة لا يبدو لى أن هناك أقل ضرورة تحتم عمل إصلاح فى الجدار الخلفى .

— نعم لم يكن هناك ضرورة وأعتقد أنما هى علة يتعلل بها فى إخراجى من غرفتى .

— آه ! هذه ملاحظة لها دلالتها . والآن هل لك أن تتفضلى بالذهاب إلى غرفتك فتغلقى نافذتك بالقضيب الحديدى ؟

ففعلت ، وأخذ هولمز يفحص النافذة بعناية ، محاولا جهده أن يفتح مصراعيها فلم يفلح . ثم أخرج عدسته المكبرة واختبر مفاصل المصراعين فوجدها من الحديد الأصم ، قد ثبتت خير تثبيت فى قلب الجدار المتين .

أخذ هولمز يهمهم وهو يحك ذقنه ، وقد بدت عليه الحيرة وقال :

— ما من أحد يستطيع فتح النافذة إذا أحكم إغلاقها بالقضيب الحديدى . وإذن فلننظر إلى الغرفة من داخلها عسى أن تهدينا إلى شىء .

يؤدى باب صغير جانبى إلى طرقة طلاؤها من الجير ، وهى التى تفتح عليها أبواب الغرف الثلاث . وجدنا الغرفة التى تنام بها الآن المس ستونر ، والتى لقيت فيها الأخت حتفها ، غرفة صغيرة مريحة سقفها غير مرتفع . وفى ركن منها صوان للملابس أدكن اللون ، وفى ركن آخر سرير ضيق أبيض ، وعلى يسار النافذة منضدة الزينة ، ذلك كل ما فى الغرفة ، ومعه مقعدان من الخيزران ، وسجادة صغيرة فى وسطها . وكانت الجدران مكسوة بألواح من خشب السنديان لونها أدكن ، وهى قديمة قد نصل لونها ، ونخرها السوس . وقف هولمز صامتاً ينقل نظرته فى الغرفة من الأرض إلى السقف مرة بعد مرة ، وهو يفحص كل دقائقها .

أشار هولمز إلى حبل غليظ يتدلى بجانب الفراش ، وهو حبل جرس كهربائى ، استقر مقبضه على الوسادة . وسألها :

— فى أى مكان وضع الجرس نفسه ؟

— فى غرفة الخادم .

— ولكن الحبل يبدو أحدث عهداً من سائر ما فى الغرفة !

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

— نعم . فإنه لم يوضع فيها إلا منذ سنتين .

— وذلك بناء على طلب أختك فيما أظن .

— كلا . فإنى لم أسمعها قط تستخدمه .

قصد هولمز إلى الفراش ، ومضت مدة وهو يحدق فيه ، وتجرى نظرته على الجدار من أعلى إلى أسفل . ثم إذا به يجذب الحبل فجأة جذبة قوية وقال :

— ما هذا ؟ إنه جهاز مصطنع لجرس وهمى . لعمرى إنه لأمر شائق جداً . فانظروا الآن تروا أن الحبل معقود بخطاف مثبت فوق فتحة التهوية تماماً .

— ما أسخف هـذا ! إننى لم ألاحظ ذلك من قبل .

وأخذ هولمز يتمتم وهو يشد الحبل :

— هذا أمر جد غريب . إن فى هذه الغرفة أموراً عجيبة تسترعى الانتباه . فمثلا . ما أحمق هـذا البناء الذى ينشىء فتحة للتهوية تؤدى إلى غرفة أخرى ، على حين كان فى استطاعته بالجهد نفسه أن يجعلها تؤدى إلى الهواء الطلق !

قالت السيدة :

— وهذه الفتحة أيضاً حديثة العهد .

فسألها هولمز :

— هل استحدثت فى نفس الوقت الذى ركب فيه حبل الجرس ؟

— نعم ، فقد أجريت فى الغرفة حينئذ تغييرات عديدة .

— لعمرى إن أمر هـذه التغييرات لعجيب . جرس مصطنع وهمى ، وتهوية لا تأتى بهواء ! والآن إئذنى لنا يا مس ستونر أن نفحص باقى الغرف .

وجدنا غرفة الدكتور رويلوث واسعة ولكنها بسيطة الأثاث ، وأهم مابها سرير من أسرّة الخيام ، ورف خشبى صغير مملوء بكتب أغلبها كتب علمية ، ومقعد كبير بجانب الفراش ، وكرسى من الخشب قريب من الجدار ، ومنضدة مستديرة ، وخزانة حديدية كبيرة . ودار هولمز بها يفحصها بكل عناية .

ثم دق على الخزانة وقال :

— ماذا بها ؟

— فيها أوراق زوج أمى .

— ألا تكون فيها قطة مثلا ؟

— كلا ! ما أعجب هذه الفكرة !

— إذن انظرى إلى هذا .

وتناول هولمز من على ظهر الخزانة إبريقاً صغيراً فيه لبن .

— كلا . ليس بالدار قطة ، ولكن بها فهداً وقرداً .

— آه : نعم . بالطبع . إن الفهد لا يزيد فى الحجم على القطة ، ولكنى لا أظن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أن هـذا الإبريق يسع من اللبن ما يكفى لإشباعه . هنـاك نقطة واحـدة أريد أن أجتلى كنهها .

وجلس هولمز القرفصاء امام الـكرسى الخشبى وفحص مقعده بعدسته المكبرة ثم قام ووضع العدسة فى جيبه . ولم يلبث أن قال :

— وى ! ههنا أمر عجيب ! فهذا مقود كلب قـد علق فى أحـد أركان السرير . ولـكنه كان ملتوياً بعضه على بعض ، ومعقوداً بحيث أصبح كسوط ينتهى بأنشوطة .

— بأى شىء تفسر هذا يا وطسون ؟

— إنه مقـود جـد مألوف ، ولـكنى لا أدرى لماذا عقد هكذا .

— بل هو مقود فريد ، ليس مثله كثير كما تدعى . أليس كذلك ؟ آه يارب ! هذه دنيا مليئة بالشرور ، وهى أحفل بالشر حين يصرف الرجل العبقرى همه إلى الجريمة .

ولم أر وجه صديقى أشد عبوساً ، ولا جبينه أشد تقطيباً مما كان حين فرغ من هذا الفحص . واستغرق هولمز فى أفكاره ولم يعد إلى الحديث إلا بعد أن قطعنا المرج ذهاباً وإياباً مراراً عديدة . ووجـه كلامه إلى المس ستونر قائلا :

— من الضرورى جداً أن تتبعى نصيحتى بكل حذافيرها تمام الاتباع .

— إننى فى يديك .

— يجب إذن أن أقضى أنا وصـديق ليلتنا فى غرفتك .

نظرنا إليـه ، أنا والمس سـتونر ، فى دهشـة .

— دعونى أشرح الأمر : فحين يعود زوج أمك يجب أن تعتكفى فى غرفتك متعللة بصـداع ألمّ بك . وحينما تسمعينه يأوى إلى غرفته لينام ، عليك أن تفتحى نافذتك وتضعى عندها مصباحك إشارة لنا ، ثم تنسحبين بهـدوء إلى الغرفة التى كنت تنامين فيها من قبل . أما ما عـدا ذلك فاتركيه لنا .

— ولـكن ماذا أنت فاعل ؟

— سنقضى الليلة فى غرفتك لنبحث عن سر هذا الصوت الذى أزعجك .

— أعتقد يا مستر هولمز أنك كونت لك الآن رأياً ، فأناشدك الله إلا ما خبرتنى عن سبب وفاة أختى ؟ .

— أوثر أن تـكون لدىّ أدلة بينة قبل أن أتكلم .

— تستطيع على الأقل أن تخبرنى هل كنت مصـيبة فى اعتقادى أن أختى ماتت من رعب مفاجىء

— كلا . لا أظن ذلك . بل أظن ان موتها يرجع إلى سبب محسوس على الأغلب .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

والآن يا مس ستونر ، يجب علينا أن نتركك ، إذ لو رآنا الدكتور رويلوث لضاع كل مجهودنا ، وذهبت رحلتنا هباء فاستودعك الله ، وكونى شجاعة .

* * *

لم يشق علينا — أنا وشرلوك هولمز — أن نستأجر غرفة فى فندق القرية ، وكان قصر ستوك موران بمرآى منا . وعند الغروب شاهدنا الدكتور رويلوث عائداً إلى داره وقد طغى جسمه الضخم حتى تضاءل جسم الصبى الذى يسوق العربة . وجد الصبى بعض الصعوبة فى فتح البوابة الحديدية الثقيلة ، وسمعنا الدكتور يصرخ بالصبى ويهدده بقبضة يديه وقد استولى عليه الغضب . ثم تابعت العربة سيرها .

قال لى هولمز ونحن جالسان فى ظلام يتكاثف شيئاً فشيئاً .

— هل تدرى يا وطسون أننى أجد بعض الحرج فى اصطحابك معى هذه الليلة ، فأمامنا خطر لا ريب فيه ؟

— وهل يساعدك ذهابى معك ؟

— بل قد يكون ألزم ما يكون لى .

— إذن لا جرم أننى ذاهب معك، إنك ياهولمز قد رأيت فى تلك الغرفة بلا ريب أكثر مما بدا لى .

— كلا بل الفرق كله ، فيما يخيل إلى ، أننى استنتجت أكثر مما فعلت أنت ، إذ أنك رأيت كل ما رأيته أنا .

— إننى لم أر بها أمراً عجيباً سوى حبل الجرس . وأعترف لك أننى لا أدرك الغرض من وجود هذا الحبل .

— وقد رأيت فتحة التهوية أيضاً !

— نعم . ولكنى لا أعتقد أنه من غير المألوف أن تنشأ فتحة للتهوية بين غرفتين ، وبالأخص لأنها فتحة ضيقة بحيث يصعب على فأر صغير أن ينفذ منها .

— لقد كنت أعلم أن ثمة فتحة للتهوية قبل أن أجىء إلى ستوك موران .

— ياصديقى العزيز . ! !

— نعم . كنت أعلم ، ألست تذكر أن المس ستونر قالت إنه كان فى إمكان أختها أن تشم رائحة سجائر الدكتور رويلوث ؟ فهذه العبارة هى التى دلتنى على وجود ما يصل بين الغرفتين . ثم لما علمت أنه غاب عن عين قاضى التحقيق ، أدركت أنها فتحة صغيرة جداً .

— ولكن أى ضرر تراه فى وجود هذه الفتحة ؟

— حقاً . هناك على الأقل توافق غريب فى وقوع بعض الحوادث فى زمن واحد : فتحة للتهوية تنشأ ، وحبل يعلق ، وسيدة نائمة فى فراشها تموت . . .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

— لم أر إلى الآن ما يربط هذه الحوادث بعضها ببعض !

— ألم يسترع انتباهك أمر عجيب فى ذلك الفراش ؟

— كلا .

— إنه كان مثبتاً فى الأرض . فلم يكن فى استطاعة صاحبته أن تنقله من مكانه ، وعلى ذلك فلا محيص من بقائه دائماً حيث هو من فتحة التهوية ومن الحبل .

ارتفع صوتى وأنا أقول له :

— يا هولمز ! يخيل إلىّ أننى أرى الآن فى شىء من الغموض ، ما ترمى إليه . لعلنا نكون قد جئنا فى حيننا لنمنع جريمة من أفظع الجرائم وأخبثها .

— نعم . إنها جريمة جد فظيعة وجد خبيثة ماكرة ، فإذا انصرف الطبيب إلى الشر كان رأس المجرمين ، فله أعصابه الثابتة وعلمه الواسع . ولكننا سنعانى الليلة ما يكفى من أمور مفزعة ، فبالله عليك هلم بنا ندخن فى هدوء ، ونصرف أفكارنا فى هذه الساعات القليلة الباقية إلى أشياء أكثر بهجة .

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة حين أضاء فجأة من القصر المظلم ضوء باهر منفرد . قال هولمز وهو يثب واقفاً .

— هذه هى الإشارة المتفق عليها ، فإنها تأتى من نافذة الغرفة الوسطى .

لم نجد إلا بعض المشقة فى دخول حرم القصر فقد كان بالسور القديم المتهدم فتحات عديدة . وشققنا طريقنا بين الأشجار حتى وصلنا إلى المرج ، واجتزناه . وكنا على وشك أن نلج فى النافذة حين انطلق فجأة كالسهم من بين الأشجار شىء بدا لنا كطفل دميم مشوه ، وألقى بنفسه على العشب تتلوى أطرافه ، ثم جرى مسرعاً وسط المرج واختفى فى الظلام .

همست لصديقى :

— يا رب ! هل رأيته ؟

وكان هولمز قد استولت عليه الدهشة كما استولت علىّ . إذ أطبق بقبضة يده على رسغى بقوة كأنها كلابة من حديد . ثم انبعثت منه ضحكة خافتة ، وأدنى شفتيه من أذنى وهمس :

— ما أحلى سكان هذه الدار ! هذا هو القرد .

سألت نفسى : وأين الفهد ؟ قد نجده فى أية لحظة منقضاً على أكتافنا . وأعترف أن بالى لم يهدأ إلا بعد أن حذوت حذو هولمز وخلعت حذائى ، وهبطت معه إلى الغرفة .

أغلق رفيقى مصراعى النافذة بهدوء ، ونقل المصباح إلى المنضدة ، وجال بنظره فى الغرفة . وجدناها لم تتغير عما كانت عليه

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى النهار . ثم اقترب منى هولمز ، فى مشية الحذر، وهمس فى أذنى بصوت لا أكاد أتبين كلماته من خفوته .

ــ أقل صوت يفســد خطتنا إفساداً تاماً . فهززت له رأسى ليعـلم أنى سمعت . فأردف يقول :

ــ يجب أن يكون جلوسنا فى الظلام فإنه يستطيع أن يرى الضوء من فتحة التهوية .

فهززت له رأسى مرة أخرى .

ــ وإياك أن تنعس . فقد تتوقف حياتك على بقائك متيقظاً ، وهيىء مسدسك . سأجلس أنا على حافة الفراش ، أما أنت فاجلس فى المقعد .

أخرجت مسدسى ووضعته على جانب من المنضدة . وكان هولمز قد أحضر معه عصاً طويلة رفيعة فوضعها على الفراش بجانبه ، ووضع معها صندوقاً من الثقاب وشمعة قصيرة . ثم أطفأ المصباح وبتنا فى ظلام دامس .

كيف أنسى سهرنا تلك الليلة ؟ لا تتبين أذنى صوتاً حتى ولا صوت تنفس ، على حين أنى كنت أعلم أن رفيقى جالس على بضع أقدام قليلة منى . شد الانتباه اعصابنا شداً ولبثنا نترقب فى ظلام حالك ، تصل إلينا من الخارج بين الحين والحين صرخة طير من طيور الليل . بل سمعت مرة عند نافذتنا تماماً مواء طويلا كمواء القطط ، دلنا على أن الفهد مطلق السراح حقاً . وكنا نسمع ساعة الكنيسة من بعيد ترن رنينها العميق الأجش . . دقت الثانية عشرة ، والواحدة ، والثانية ولانزال جالسين فى الظلام ننتظر .

وفجأة لمع من قبل فتحة التهوية وميض من نور دام برهة وجيزة ثم اختفى . ووصلتنا فى إثره رائحة قوية من زيت يحترق أو معدن يحمى . . لا شك أن أحـداً ما فى الغرفة المجاورة قد أشعل قنديلا لكن يحجب ضوءه . سمعت حفيفاً خفيفاً ، ثم ساد السكون من جديد . على أن الرائحة زادت حدة . ومضت نصف ساعة وأنا جالس أرهف السمع . وفجأة طرق سمعى صوت طارىء ، صوت جد رقيق ، وديع كالصوت الذى يحدثه تيار البخار المتتابع المنبعث من فم المرجل الذى يغلى فيه الماء . وفى اللحظة التى سمعنا فيها هذا الصوت وثب هولمز من الفراش وأشعل ثقاباً ، وأخذ ينهال بعصاه ضرباً على حبـل الجرس فى عنف شديد وهو يصرخ لى :

ــ هل رأيته يا وطسون ؟ هل رأيته ؟

لم أر شيئاً ، ولكنى سمعت ، وهولمز يشعل الثقاب ، صفيراً خافتاً واضحاً ولكن وهج الثقاب الذى انبعث فى الظلام فجأة ، كان قد بهر عينىّ فلم أستطع أن أميز هذا المخلوق الذى ينهال عليه هولمز بالضرب

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بمثل هـذا العنف . ولكن أتيح لى أن أرى وجه صديق شاحباً كشحوب وجوه الموتى ، وقد ارتسمت عليه علامات الفزع والاشمئزاز .

كف هولمز عن الضرب وأخذ يصوب نظره إلى فتحة التهوية . وفى تلك اللحظة شقت الليل صرخة مفزعة لم أسمع قط مثلها أخذت ترتفع ثم ترتفع ، صرخة مختنقة ، الألم والرعب والغضب امترجت كلها فى ذلك الصوت المخيف . وقد قيل إنها أيقظت النوام فى القرية بل فيما جاورها من الضياع أيضاً .

فقلت بصوت مضطرب :

— ما معنى هذا ؟ .

أجابنى هولمز :

— معناه أن كل شىء قد انتهى . ولعله انتهى إلى الخير . خذ مسدسك ولندخل غرفة الدكتور رويلوث .

رأيت وجهه — وهو يشعل المصباح — قد بدا عليه الجد ثم سرنا فى الطرقة . قرع هولمز الباب مرتين دون أن يجيبه أحد . فأدار مقبض الباب ودخل وأنا وراءه والمسدس فى يدى .

وجدنا على المائدة قنديلا قد فتح كنه قليلا فانبعث من خلال الفتحة ضوء باهر سلطت أشعته على الخزانة ، وكان بابها مفتوحاً . ووجدنا الدكتور جريمسبى رويلوث جالساً على الكرسى وهو فى معطفه المنزلى الطويل الأدكن ، وقد برزت منه يداه وتدلتا إلى جانبيه ، وهو منتعل خفيه وعلى حجره المقود الذى استرعى انتباهنا بالنهار . أما رأسه فقد مالت إلى الخلف ، تحدق عيناه بنظرة ثابتة مخيفة عالقة بركن السقف . وعلى جبينه عصابة صفراء ذات نقط سمراء ويبدو أنها شدت عليه شداً محكما . ولم يصدر عنه صوت أو تبدر منه حركة .

همس هولمز :

— العصابة ، العصابة الرقطاء !

تقدمت خطوة ، وفى لحظة واحدة أخذت هـذه العصابة الغريبة تتحرك ، وانساب من خلال شعره ثعبان بشع له رأس مسطحة تلمع كالماس ، ورقبته منتفخة .

— هذا هو ثعبان المستنقعات . أخطر ثعابين الهند . لقد مات قبل انقضاء عشر ثوان على العضة . فلنلق بهـذا الأرقط إلى جحره ، ثم لنأخذ المس ستونر إلى مكان أمين ونخطر البوليس بما جرى .

سحب هولمز المقود بخفة من على حجر الميت ، ورمى الأنشوطة حول عنق الثعبان وجذبه من مكمنه المخيف وحمله ، على مد ذراعه ، وقذف به إلى الخزانة وأحكم رتاجها .

* * *

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

هذه هى الحقائق فى حادثة وفاة الدكتور جريمسبي رويلوث . أما ما عداها من الوقائع القليلة التى كان لا بد لى أن أستقيها من شرلوك هولمز ، فإنه حدثنى عنهـا فى اليوم التالى قائلا :

كنت قد انتهيت إلى حكم خطأ ، مما يدل ياعزيزى وطسون على خطر استنباط الأحكام من مقدمات غير وافية . . وجود جماعة الغجر، واستعمال كلمة العصابة وجهتنى وجهة خطأ . ثم أعدت التدبر فى الأمر حين استرعى انتباهى وجود فتحة التهوية وجهاز الجرس المصطنع الوهمى، وكذلك اكتشافى أن الفراش مثبت فى الأرض ،كل هذا أثار ريبتى فى أن الحبل إنما وضع فى مكان ليكون قنطرة لشىء يلج من الفتحة وينحدر على الحبل إلى الفراش . وقد خطر ببالى أن هذا الشىء الذى ينزلق على الحبل إنما هو ثعبان ، إذ كان الدكتور يقتنى حيوانات هندية أخرى . وأنت ترى أن فكرة الاستعانة بسم لا يمكن أن يكتشفه أى اختبار كيميائى هى بالذات مايتوقع من رجل ماهر لا ضمير له ، إذا كان قد اكتسب فى الشرق خبرته .

ثم وجهت تفكيرى بعد ذلك إلى الصفير، من الطبيعى أن ينادى الثعبان إليه قبل أن يتسنى للفريسة أن تراه فى ضوء الصباح . فقام بتدريبه — ولعله كان يغريه بتقديم اللبن إليه — على أن يعود إليه إذا ما ناداه . وكان إذا وضعه فى فتحة التهوية وثق بأن سينزلق عليها ويهبط إلى الفراش . من الجائز أن يعض النائمة أو لا يعضها ، بل ربما مرت أيام الأسبوع كله وهى تنجو منه ولكن لامفر من موتها إن عاجلا أو آجلا .

وقد دلنى فحص الكرسى على أنه يكثر من الوقوف عليه ، ليتمكن من الوصول إلى الفتحة . كنت قد بقى لى بعض الشكوك ولكنهازالت عند ما رأيت الخزانة وإبريق اللبن ، والمقود المعقود فى أنشوطة . أما الصلصلة المعدنية التى سمعت المس ستونر فمصدرها إسراع زوج الأم وهو يغلق الخزانة على ساكنها المخيف . ولما سكنت إلى الحكم الذى أصدرته ، بدأت فى تنفيذ الخطة التى شاهدتها . لقد سمعت الثعبان ينفث وينفخ ، فهاجمته وطردته إلى فتحة التهوية . ولا شك أن ضربات العصا أثارت حنقه فهاجم أول شخص لقيه . وعلى هذا أكون أنا مسئولا إلى حد ما عن وفاة الدكتور جريمسبي رويلوث — ولكنى لا أقول إن هذا أمر من شأنه أن يثقل على ضميرى كثيرا ؟

****

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

تقرير عن الحالة الداخلية في ألمانيا ١٩٤٣

خلف الجدار الفولاذى

تلخيص لكتاب صدر من عهد قريب

بقلم

ارفيد فردبورج

الصحفي السويدي في برلين من ١٩٤١-١٩٤٣

« خلف الجدار الفولاذى » هو أول تقرير صحفي ينشر فى أمريكا عما حدث داخل ألمانيا النازية ، بعد استدعاء المراسلين الأمريكيين فى ديسمبر سنة ١٩٤١

وقد كان المؤلف ، وهو علم من أعلام الصحافة فى السويد ، مراسلا فى برلين لصحيفة استوكهولم اليومية « سفنسكا داجبلادت » منذ سنة ١٩٤١ حتى بضعة أشهر خلت . فلما لقى ما لا يطاق من تدخل الموظفين النازيين فى عمله ، قفل راجعاً الى السويد ليكون حرا فيما يكتب عما رآه وما سمعه خلال أزمة ألمانيا المتفاقمة . ولربما أصبح كتاب « خلف الجدار الفولاذى » من أكثر الكتب إثارة للمناقشة فى سنة ١٩٤٤

https://t.me/megallat

oldbookz@gmail.com

إذا أراد المرء أن تتيسر له حياة الصحفى المحايد فى الريخ الثالث فينبغى أن يكون أشبه شىء بالراقص على الحبل ، فأنت تعمل تحت الرقابة وتحت قيود أخرى عديدة ، وأنت متبوع بمثل ظلك ، وبيتك مراقب ، وعلى تليفونك أذن صاغية .

والتليفونات فى برلين يمكن اتخاذها آلات لتسجيل الأحاديث حتى ولو كانت السماعة على حاملها . فلما كنا على علم بذلك جعلنا من دأبنا ، أن ننزع وصلة الكهربائية أو نغطى آلة التليفون بثوب سميك . ومع ذلك لم نكن نطمئن إلى الخلوة ، فلا يزال محتملا أن يكون بالغرفة ميكرفون مخبوء فى مدخنة أو فى شمعدان أو فى وصلة كهربائية .

ولا بد للمرء من أن يكون دائم الحذر فقد حدث مثلا أن أخذ مراسل يلهو ذات يوم بتحرير مقال كما كان يشتهى أن ينشر ، ومن باب المشاركة فى المزاح تلا المقال على زميل له .

ففى اليوم التالى استدعاه موظف ألمانى وضيق عليه الخناق سؤالا عن حركاته فى الليلة السابقة ، فأجاب بأنه تناول قليلا من الشراب ، واستمتع بما لا ضير فيه ، فضغط الموظف على زر ، فأقبل رجل يحمل حاكياً ، وبعد لحظة صمت استمع الصحفى إلى مقاله متلوًّا بلسانه .

النزول فى شمال أفريقية

لن أنسى قط كيف صعقت برلين حين جاءها الخبر فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، بأن الحلفاء نزلوا فى شمال أفريقية ، فقد كانت دهشة وزارات الحكومة لا تقل عن دهشة رجال السياسة والصحفيين . فقد كانت الفكرة السائدة أن خسارة الحلفاء فى السفن من جراء حملة الغواصات بلغت من الفداحة مبلغاً يستحيل معه حدوث أية غزوة على نطاق واسع . وكان هتلر قد تساءل بازدراء فى خطبته الأخيرة : ماذا يخيل لهؤلاء الحلفاء الحمقى أنهم فاعلون ؟ فكان هذا هو الرد .

وكان من البين أن نزول الحلفاء أخذ برلين وروما على غرة ، وكان من البين أيضاً أن العجز عن وقف القافلة الضخمة الإنجليزية الأمريكية ، كان أشنع خيبة منيت بها الغواصات الألمانية .

وكاد الذعر يساور وزارة الدعاية ، ووزارة الخارجية ، فالتليفونات تدق ، والرسل يهرولون جيئة وذهاباً ، والصحفيون والموظفون تغص بهم قاعة الاجتماعات .

وعشى الوجوم وجوه الألمان ، وفقد الدكتور شمدت رئيس مكتب الصحافة بوزارة الخارجية ، ما عهد فيه من اتزان ، وهو يوجه إلينا الخطاب. فقد أعلن مؤكداً أن «ولهامستراس» رقبت الحوادث فى «هدوء مطلق وبرود» ، وأن الزعماء النازيين سوف يعملون ولا شك بسرعة وحزم ، ولكنه أخفق فى إخفاء الغضب المتأجج من أن البريطانيين والأمريكيين دبُّوا إليهم من وراء جدار المحيط الأطلسى الذى بذل الألمان فى بنائه كل جهد وعناء ..

وعجل النزول فى شمال أفريقية بما كان قد بدأ منذ زمن قليل : فقد أخذ موقف الدول المحايدة بإزاء ألمانيا يتغير تغيراً محسوساً . فقد كان كثير من الناس فى تلك الدول، حتى فى خلال مراحل الحرب الأولى، يعتقد أن ألمانيا سوف تخسر الحرب ، وفضلا عن ذلك فإن ميل السواد الأعظم كان إلى جانب الحلفاء . ولم يكد يظهر البريطانيون والأمريكيون أنهم أقدر من أن يكتفوا بالوقوف فى وجه المحور وحسب، حتى زادت الثقة فى الحلفاء زيادة عظيمة ، وتبع ذلك أن صار المحايدون من فورهم أصلب عوداً فى موقفهم تجاه ألمانيا .

وفى أسبانيا والبرتغال وتركيا ، أضحى التغير ملحوظاً ، ففى أواخر سنة ١٩٤٢ ، شرع الإسبانيون يحررون أنفسهم ، على مهل ومثابرة ، من روابطهم ببرلين . وقال زملاؤنا الإسبانيون : « لقد اجتزنا موقف الدولة غير المحاربة إلى موقف الدولة المحايدة » . فأما البرتغال فقد بدأت تثنى على بريطانيا بغير تحفظ ، وفى برلين سمعنا الشكوى من أن مكتب الأنباء التركية ، وكالة الأناضول ، مالت إلى جانب الحلفاء فى تعليقها على الأنباء ، ثم إن الراديو التركى هو أيضاً أخذ يمالىء الحلفاء .

وكان من أثر ارتباك الإيطاليين ، الذين أصابهم عمل الحلفاء الحربى فى شمال أفريقية إصابة مباشرة ، أن أزعج شركاء ألمانيا الباقين فى جنوب أوروبا الشرقى ، حتى تزعزعت ثقتهم جميعاً فى استحالة هزيمة ألمانيا ، وكذلك أصبح نظام تحالف المحور معرضاً للخطر ، واضطرمت أيضاً جذوة المقاومة فى البلاد المحتلة .

وفى الوقت ذاته باتت الجيوش الألمانية فى الروسيا فى موقف يأس ، ففى ٢٦ يناير سنة ١٩٤٣ أخبرنا أحد المتحدثين بلسان الجيش ، وهو الماجور سمرفلدت ، أن الألمانيين فى ستالينجراد يحاربون بلا أمل فى النجاة . وبعد بضعة أيام علمنا أن كل شىء قد انتهى ، وأن تسعة قواد و٩٠٠٠٠ رجل أخذوا أسرى ، وزادت

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

جملة خسائر المحور على ٣٠٠٫٠٠٠ ، وأقلقت القيادة العليا خسارة أفدح من هذه وهى خسارتها فى العتاد الحربى ، فقد خسر الألمان فى الجبهة الشرقية ، فيما يقال بين ١٩ نوفمبر إلى حين سقوط المدينة ، نحو ١٢٠٫٠٠٠ سيارة و ٧٫٠٠٠ دبابة و ٥٫٠٠٠ طائرة .

وأدت الانتصارات الروسية ونجاح غزوة الحلفاء فى شمال أفريقية ، إلى أزمة فى الروح المعنوية الألمانية ، فيومئذ بدا لجمهور كبير من الألمان أن زعماءهم الذين ظلت كفاياتهم الفنية لا تضارع ، قد كشفوا عن أنهم أقل كفاية من الحلفاء . وأخذ هتلر على غرة بالرغم من كل تيهه وفخره ، وأفضت قيادته للحرب إلى مأزق حرج . وفى الحق أن هيبة هتلر من حيث هو قائد عسكرى لم تقم لها قائمة منذ نكبة ستالينجراد .

الجبهة الداخلية

فى مستهل سنة ١٩٤٣ أدرك عقلاء الألمان كافة أنهم أصبحوا شعباً وحيداً لا ناصر له ، فكل أمل فى النصر كاد يزول ، وأصبح الخوف من الهزيمة ونتائجها أقوى الحوافز لمواصلة القتال ، وحتى أولئك الذين لا سبيل لهم إلى الوقوف على حقيقة الأنباء

شرعوا يفكرون ماذا تراهم يفعلون إذا ما وقع الانهيار التام . وأخذ الكثيرون يبحثون أمر ترحيل أسرهم ليقيموا مع أقاربهم فى ركن من الأركان الهادئة بالبلاد .

ويومئذ كنت لا تزال تتبين دلائل الإعياء واضحة على الناس ، فإن آثار خفض مقادير الغذاء أخذت تظهر ، فكنت تسمع فى المصانع عن عمال يخرون صرعى بجانب آلاتهم ، فإذا ما فحصهم طبيب المصنع كان السبب هو « الداء القديم نفسه » ، وهو قلة الغذاء والراحة .

وفى منتصف يناير سنة ١٩٤٣ عبأ الدكتور جوبلز حملة جديدة للدعاية ، أريد بها محو آثار غزوة شمال أفريقية والهزائم فى روسيا . وكانت الريبة فى جوبلز نفسه ثم فى الدعاية الألمانية بوجه عام قد ازدادت كثيراً ، ولاسيما فيما بين الجنود ، فقام يدعو إلى تسخير الموارد الألمانية كافة للحرب ، وكانت حجته التى استند إليها أنه بالرغم من كل ما حدث «لايزال الألمانيون يستمتعون بجانب من حياة السلم ، يدرك ذلك كل امرىء شاهد حرص الناس على شراء التحف أيام عيد الميلاد ، والصفوف الطويلة أمام أبواب الملاهى . إن حياتنا ذاتها متوقفة على

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

هـذه الحرب ، والنصر لن يتم لنا إلا بالحرب الشاملة » .

فالألمان المدنيون لم يعد يباح لهم أن يتمتعوا بأوقات فراغهم فى الرياضة ، أو فى سماع الراديو ، أو فى الحانات ، أو المسارح أو دور السينما . ذلك أن التعبئة كانت صارمة فى وضع حد لكل ترف ، فإغلاق كافة المتاجر التى لا ضرورة لها معناه توفير القوى البشرية والوقود والإضاءة والمواد الخام .

ومن وراء هذه الأهداف الظاهرة يستبين لنا هدف آخر ، فلا بد للشعب الألمانى من أن يجد الشواغل فى وطنه حتى ينسى الهزائم فى أفريقية وروسيا .

وما لبث إغلاق المتاجر أن أصبح حقيقة واقعة ، فصفى كثير من مطاعم الترف فى برلين أعماله ، وتبعها معظم متاجر العاديات والجوهرات والأثاث والعطور .

ومن وراء الستار نزاع شديد فى أمر بعض مطاعم معينة (فتحريم الترف إنما كان يراد به الشعب لا الزعماء) وجرت الشائعات بأن جوبلز دبر مظاهرة من « المواطنين الساخطين » لتلقى الأحجار على بعض مطاعم الترف التى يملكها رجال من ذوى النفوذ فى الحزب النازى ، لكى يتخذ من هذه المظاهرات الشعبية ذريعة إلى إغلاق هذه المطاعم . وجرت شائعة أخرى أن جوبلز أفلح بعد عراك عنيف فى استبقاء أحد هذه المطاعم لضباطه .

وأثار إغلاق المتاجر سخطاً أكثر مما كان يتوقع ، فإن هذا العمل نال كثيراً من الطبقات المتوسطة . وكان الاعتقاد السائد هو أن هذا العمل لم يكن يراد به أن يزيد فى الجهد الحربى بقدر ما أريد به الاستيلاء على أكبر جانب من المؤن التى لم تزل ميسورة — وخاصة لسد حاجة كبار رجال الحزب .

غارة برلين

وفى نهاية فبراير سنة ١٩٤٣ شرع البريطانيون فى حربهم الجوية ، فخربت أسن وغيرها من بلاد غرب ألمانيا . ثم جاء دور برلين فى أول مارس ، فلم تستطع المدافع المضادة أن تصد أسراب الطائرات التى ألقت عليها عدداً كبيراً من القنابل الثقيلة والمحرقة ، وهبت ريح عاصفة فاندلعت النيران ، ولما خرج أهل برلين من مخابئهم كان الأفق أحمر يتوهج فى جميع نواحيه ، والنار آخذة فى كل حىّ .

وكانت غارة أول مارس أقسى ضربة نزلت بالعاصمة الألمانية حتى يومئذ ، وخارت نفوس الناس خلال الأيام القليلة التالية ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

على ما بذله جوبلز من جهد خارق فى التغلب على روح الهزيمة الفاشية . وقد أنعم على بعض أهل برلين جزاءً لهم على موقفهم المجيد أثناء الغارة ، وامتلأت الجرائد بأناشيد الثناء على السكان الشجعان . وخرج جوبلز نفسه على الناس ، وعلى رأسه خوذة فولاذية ، فى ميدان برتينباخ . ووزع قطع الشوكلاته على الأطفال . جرى ذلك على إثر الغارة ، ولكن فى غضون الأيام القليلة التالية لم ير الناس جوبلز أو سواه من زعماء النازى ، فقد أظهر كثير من أهل برلين سخطاً لا يخفى واستقبلت الجماهير الموظفين النازيين يرددون هتافهم القديم « حمداً لزعيمنا » . وقد قبض فى حى واحد على ٣٠ شخصاً لما فاهوا به من « التعليقات الخائنة » .

وفى هذه الأثناء كان موقف رومل فى أفريقية يبعث على أشد القلق ، وكلما زاد هذا الموقف تحرجاً زادت جهود جوبلز فى تحقير انتصارات الحلفاء . وحتى بعد أن انتهت حملة تونس بالفاجعة، صرحت الجرائد الألمانية بأن قوات المحور لم تصب إلا بخدش طفيف ، وأن المقاومة فى أفريقية عطلت الغزو « شهوراً حاسمة الأثر » ، وهيأت للمحور وقتاً كى يحصن جبهته الجنوبية .

بيد أن استجابة الشعب الألمانى لم تكن كما يتوقع منه ، ذلك أن نتائج حملة تونس فسرت بأنها هزيمة محتمة ، لا خذلاناً لحقهم ، إذ لم يمكن إنقاذ شىء تقريباً من جيوش المحور فى تونس . وكانت الخسائر فى البحر أيضاً خلال المعركة جسيمة ، وكان ما أسقطه الحلفاء من الطائرات — ٩٩ طائرة فى يوم واحد — أمراً مخيفاً . ويزيد فى شناعة الهزيمة أن الوحدات التى أبيدت أو أسرت كانت من أحسن وحدات ألمانيا ، فقضى على فيلق روميل الأفريقى ذى الشهرة الأسطورية ، ومنى فيلق هومان جورنج بخسائر فادحة .

وحتى أشد الناس مغالاةً فى التفاؤل أخذوا يتساءلون عن عاقبة الحرب ، وغلب على الناس اليأس حتى فى فكاهتهم ، فصرت تسمع من يقول :

« تمتع بالحرب. فإن السلم سيكون أفظع » .

ويحكى أن رجلا هُدم منزله، فذهب يدور على الخياطين يبحث عن بذلة جديدة ، فلم يعثر على واحدة فى أى مكان ، وأخيراً انفجر صاخباً :

« وكل ذلك من أجل رجل واحد ! »

وسرعان ما قبض عليه واقتيد إلى القاضى فسأله عن الرجل الذى عناه ، فأجاب المتهم: « تشرشل طبعاً ! ومن عساك تظن ؟ » .

وملحة أخرى عن المتفائل والمتشائم ، يقول الأول :

« هـذا شيء فظيع — سوف نخسر الحرب » .

فيرد عليه المتشائم : « أجل . ولكن متى يكون ذلك ؟ » .

وبذل جوبلز كل جهده فى مكافحة روح الهزيمة هذه ، فلم يفلح إلا قليلا ، ولكنه كشف خطة جديدة ليلهى الناس بها عما يجرى فى ميادين القتال ، وذلك بأن يقضى على خبر سيء بخبر أسوأ منه .

وكنا نعلم منذ زمن طويل أن جرايات الطعام الألمانية سوف تخفض ، وهى خطوة أجلت أطول وقت ممكن ، إذ كان لها خطرها ، لأن كل ألمانى كان يذكر خطاباً ألقاه جورنج فى سنة ١٩٤٢ قطع فيه عهداً بأن الجرايات — وكانت قد زيدت حينئذ — سوف تبقى ثابتة بل سوف تزاد فى المستقبل . فالآن فوجئوا فى مايو بأن جرايات اللحم ستخفض بمقدار ثلاث أوقيات فى الأسبوع فثارت مناقشات حادة ، وساد الغضب والنقمة فنسى الناس ذكرى هزيمة تونس .

ولما تفاقمت مشكلة الطعام لم أزل أعجب كيف يسع ربات البيوت الألمانيات أن يتسقطن من الطعام ما يكفى لأسرهم ، فقد كان عليهن أن يقفن صفوفاً صفوفاً ساعات طويلة ليشترين قليلا من الفجل مثلا .

وقد يتسنى للمرء أن يحصل على السمك مرة فى الشهر على أن يظل يراقب الأسواق بعين لا تغفل . ولا تعرض الأسواق عادة غير ثلاثة أنواع من الخضر ، وكثيراً مايكون مقدار المؤن من التفاهة بحيث لا تستحق طول الانتظار .

وكثرت الجرائم ، فكثيراً ما كانت تسرق بطاقات التموين ، يسرقها عمال يكاد الجوع يقضى عليهم ، لا يتورعون عن القتل فى سبيل بطاقات يحصلون بها على قدر زهيد من الخبز . فكان من الطبيعى أن يرتفع شأن السـوق السوداء ، وأضحى رواجها المزدهر دليـلا جديداً على تداعى الروح المعنوية . وقبل أن أغادر برلين كان كل شيء تقريباً يسهل الحصول عليه فى السوق السوداء ، إذا ما وسعك أن تدفع الأسعار الفاحشة . وفى ربيع سنة ١٩٤٣ كان رطل البن يساوى ١٥٠ ماركا أو أكثر ، ورطل الزبد ٦٠ ماركا ، وثمن السيجارة ما بين ٥٠ فنج إلى مارك واحـد . وقد أخبرنى أحد معارفى أن رجلا اختطف وهو فى الترام سيجارته ، ثم دس فى يده ماركا ، وولى يتمتم قائلا : « عفواً فلا بد لى مهما يكن أن أدخن » .

وفى خلال الشهور الستة الأولى من ١٩٤٣ انحلت الأخلاق انحلالا بالغاً ، بحيث لم يكد يبقى ألمانى واحد ملزماً حد القانون . فما

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

من رجل إلا وهو موصوم بوصمة من جراء تجارة مريبة يزاولها ، أو شيء يشتريه من السوق السوداء .

ولم تعد للنقود فائدة تذكر ، إذ لا يكاد يكون هناك شيء يباع ، ولم يعد الناس يسألون : « أيلزمني هذا الشيء أم ذاك ؟ » وإنما : «هل أستطيع أن أجد ما أشتريه ؟ »

وكان السكن في برلين من المشكلات المعقدة في السنوات الأخيرة ، لم يكن من المستطاع أن تستأجر مسكناً ، ففي خريف سنة ١٩٤١ يوم كنت أبحث عن سكن ، وحسبت أنني عثرت عليه ، قيل لي ربما لا يتيسر هذا قط ، فإن ستة قواد كانوا في انتظاره . ومنذ ربيع سنة ١٩٤٣ تفاقمت المشكلة من جراء الدمار الذي أحدثته الغارات الجوية .

الحرب الجوية

كان كثير من الأجانب الذين زاروا برلين في سنة ١٩٤١ و سنة ١٩٤٢ يتوقع أن يجد المدينة خراباً ، ولكن الواقع أنه كان عليهم أن يبحثوا لكي يهتدوا إلى آثار الغارات . وقد دمرت الحرب برلين ، بيد أنها مدينة كبيرة ، فكانت نتائج الغارات في قلب المدينة ضئيلة ، فضلا عن أن هيآت التعمير كانت تعمل بسرعة خارقة . ففي خلال أسابيع قليلة بعد غارة كبيرة كادت تمحى كل آثار التخريب محواً تاما .

وفي أثناء السنوات الأولى من الحرب ، كانت السلطات في برلين لا تألو جهداً في سبيل إخفاء آثار التخريب ، سخية بالأموال والمواد واليد العاملة ، وقد كان يهم الدعاية أن تقنع الناس بأن الغارات البريطانية لم تكن إلا كوخزات الإبر ، فإذا كان الترميم غير مستطاع أقيمت الألواح أمام البناء المخرب ، وعليها إعلانات تنبئ بأن البناء يتولاه أحد المقاولين . وكان الأغراب في برلين كثيراً ما يدهشهم هذا النشاط المتواصل في حركة البناء .

ومنذ ذلك الوقت تبدل مظهر برلين تبدلا جوهريا ، فقد أصبحت برلين مدينة دمرتها الحرب .

فلما كان مايو بدأت غارات طائرات « الموسكيتو » البريطانية كل ليلة تقريباً ، وغرضها الأول أن ترهق أهالي برلين ، وقد نجحت أعظم النجاح . فكم من مرة ظلت الطائرات تحلق فوقها طويلا — مع أنها لم تلق سوى عدد قليل من القنابل — حتى يضطر كل امرئ أن يقضي في المخابئ عدة ساعات محروماً النوم ، أما المصانع فهبط إنتاجها ، وإن لم تصب ، لما يلحق العمال من الإنهاك البدني . واعتاد كثير من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أهل برلين أن لا يخلعوا ملابسهم حتى الساعة الثانية صباحاً ، على حين دأب آخرون على أن يناموا فى الساعة الثامنة مساء رجاء أن يناموا خمس ساعات قبل انطلاق صفارات الإنذار.

ولما حلّ شهر أغسطس سنة ١٩٤٣ كاد التلف يكون موزعاً فى برلين توزيعاً متساوياً ، فقد أصيب شارع «أنتر دن لندن» بإصابة شديدة ، ولكن الأبنية حول شارع ولهلمستراس لم تكد تمس ، ودمر الطابق الأعلى لوزارة المواصلات بولهامبلاتز ، وأصيبت وزاة طيران جورنج بطربيدجوى أحكم إطلاقه ، خرب ٢٧ قسما من أقسامها .

وصار جنوب برلين وغربها ولا سيما ولمرسدورف أطلالا . ومن المناظر البشعة أن يمر المرء ليلا بين هذه المبانى ، والقمر يرسل أشعته خلال النوافذ التى تهشم زجاجها والمنازل التى لا سقوف لها ، وهو لا يسمع صوتاً ولا همساً . وكانت ظلال هذه الأشباح المخيفة الجاثمة على الأفق أدنى إلى الخيال منها إلى الحقيقة . ومن العسير أن يصدق المرء أن هذه هى برلين — قفر موحش فى عاصمة أوروبية !

وأشدّ ما كان من آثار الحرب الجوية إلى أن فارقت البلاد هو تدمير خزانى « موينه » و« إيدر » فى مايو سنة ١٩٤٣ فليس من المبالغة أن يقال إن هذه الضربة الفتاكة كانت أبلغ ما أصاب ألمانيا حتى ذلك اليوم ، فقد غرقت جموع حاشدة من الناس ، واضطربت أنظمة الضرائب والإحصاء فى مناطق بأكملها ، واجتاح السيل دفاتر الكنيسة وسجلات البوليس وغيرها من الوثائق الثمينة . واشتملت النتائج الحربية للغارة على تحطيم محطة توليد الكهرباء وخفض منسوب المياه فى القنوات الحيوية . وكانت عاقبة ذلك أن خفضت أحمال القوارب ، ولم يعد من المستطاع أن تنقل ما كان عليها أن تحمله . هذا ، ولو تم اليوم ترميم الخزانين لاستغرق ملؤها ثانية وقتاً طويلا .

وتدمير الخزانين والقسم الصناعى لغرب ألمانيا هو من وجهة النظر العسكرية أعظم خطراً من الغارات على برلين ، إلا أن هذه الغارات كانت لها نتائج نفسية أعمق أثراً ، إذ لم تصب عاصمة ألمانيا وحسب ، بل أصيب رمز الاشتراكية الوطنية أيضاً .

الفاصل النمساوى

وحوالى هذا الوقت زرت النمسا فدهشت لسقوط الهيبة الألمانية فى وطن الفوهرر نفسه .

وحيرنى فى مبدأ الأمر ، ما افتقدته من حفاوة فينا القديمة ، حتى نصحنى أحد

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأصدقاء يوماً ما، أن أجعل الناس يعرفون أني سويدى، وإلا حسبونى ألمانياً من أجل لهجتى، وعاملونى طبقاً لذلك.

وسرعان ما أدركت أنه كان على حق، فقد كان من دأبى أن أتناول الطعام فى أحد المطاعم فكنت أعامل بشىء من البرود، وهذا أقل ما يقال، فلما بسطت نسخة قديمة من صحيفتى « سفنسكا داجبلادت » أقبل رئيس النُدُل وأدام نظرته إلى الصحيفة وقال:

« أأنت سويدى يا سيدى الدكتور؟ لو كنت أعلم ذلك لاختلفت معاملتى لك كل الاختلاف ».

وألفيت أن موقف رئيس الندل فى المطاعم الأخرى كان على نفس النمط. وبعد أن شاهدت حادثاً لا يعبأ به، بدأت أدرك السر، فقد كنت اعتزمت أن أتناول غدائى فى أحد المطاعم المعروفة، وكان المقعد الوحيد الخالى الذى استطعت أن أجده على مائدة يجلس إليها ضابط بروسى كان فى ختام وجبته. فعلى حين فجأة نادى رئيس الندل وصرخ فى وجهه أنه لم يعط سوى ٥٠ جراماً من اللحم على حين أنه أعطاه بطاقة عن مائة جرام. وبحث الأمر رئيس الندل، ثم عاد فأبلغ الألمانى بكل أدب أنه كان على خطأ. وعندئذ ضرب الألمانى المائدة بيده حتى تطايرت الصحاف، ثم خرج صاخباً يوعدهم بأنه سوف يعلمهم ماذا يعنى البروسيون بالنظام، وأن هذا التهاون النمساوى الملعون، هذا العبث سوف يكلفهم ثمناً غالياً، ولما صاح: « هؤلاء الناس القذرون » و « سوف نولج النظام فى أدمغتكم » رأيت الناس يشدون على أطراف الموائد بأيديهم كظماً لغيظ صدورهم.

وبعد قليل جاء رئيس الندل فاعتذر لى عما حدث قائلا: « إنك لتعلم كيف هم » وأضاف فى شىء من التسليم: « وهذا هو سر محبة الناس لهم ».

وقد كنت فى فينا يوم أعلن أن المخازن الكبرى على وشك الإغلاق، ويوم كانت البضائع تستنفد على عجل من المحلات الصغيرة. فأما النمساويون والأغراب فكانوا يحصلون على كل ما يبتغون، أما الألمان فكان يقال لهم إن كل شىء قد نفد. وما كان أصحاب المخازن يبالون حتى بمداراتهم، وكانوا يزعمون أنهم لا يفهمون سوى لهجة فينا، ويتغافلون عن خدمة الزبائن الألمان، أو يقدمون لهم شيئاً حقيراً ويقولون لهم بوجوه جامدة إنه: « شىء ممتاز للغاية، صنع فى برلين ».

وفينا نار متأججة من المعارضين لهتلر، ويبدو أن النمساويين قد نسوا أن كثيراً

منهم رحبوا فى ١٣ مارس سنة ١٩٣٨ بهؤلاء الألمان أنفسهم ، ذلك بأنه فى السنوات الخمس الماضية قابل نمساويون من جميع الطبقات ألماناً من جميع الطبقات ، فكانت العاقبة ضربة قاضية على آمال الألمان فى إنشاء إمبراطورية ضخمة متحدة وحياطتها ، وعدت إلى برلين وأنا على يقين حازم أن فينا قد خرجت من يد الريخ الثالث .

أعداء محترمون وحلفاء غير محترمين

كانت نظرة الشعب الألمانى إلى أعدائه ، طوال مدة الحرب ، أنبل من معاملته لحلفائه.

فالنازيون ينظرون إلى إنجلترا على أنها عدوهم الأول ، وينطوى شعورهم نحو إنجلترا على عامل شخصى عنيف ، هو إحساس بالضعة أو شعور بأن إنجلترا تربح دائماً المعركة الأخيرة ، يخالط ذلك إعجاب غريب بقوة احتمال الروح المعنوية البريطانية خلال الحرب الجوية الخاطفة . وكان يقال : « البريطانيون على كل حال من أصل جرمانى » .

وقد بذل النازيون كل ما وسعهم فى مقاومة هذه العواطف . ولاريب فى أن الدعاية التى أحكم تدبيرها ضد إنجلترا لا تضارعها دعاية أخرى ، حتى الحملات ضد السامية ، ولم تترك فرصة تمر دون أن يقرروا ما سموه السجايا البريطانية الثلاث ، وهى : الخسة ، والجبن ، والخور .

ولن ينسى المراسلون الأجانب فى برلين ذلك الحديث الذى أدلى به رومل ذات مرة فى حضرة جوبلز . فقد حدثهم الفيلد مارشال الذائع الصيت أن البريطانيين كانوا جبناء فى اللقاء ، أخساء فى القتال ، وأضاف رومل « ولقد هزمناهم » ، وأعلن أن الألمان سيدخلون مصر ولابد . جرى هذا الحديث قبل أن يقوم مونتجومرى بهجومه المضاد فى العلمين ببضعة أسابيع ، وبهذا الحديث وحده زال الاحترام الذى كان يكنه المراسلون فى برلين للمارشال .

وبعد أسبوع ، كان على الكابتن فون درهيدت ، حامل الصليب الحديدى ، وأحد الجنود الذين اشتركوا فى فتح كريت ، أن يحاضر فى تجارب فرق الهبوط بالمظلات ، وكان قد جاء بعد نزوله من طائرته مباشرة ، فلم يتيسر له أن يتلقى أية تعليمات . وعلى مرأى ومسمع من موظف وزارة الخارجية المتجهم من الغيظ ، ورجال الصحافة الأجنبية المتهللين ، انطلق هذا المحارب يثنى على أعدائه قائلا : « إن الجنود البريطانيين هم أشجع من لقينا ، نحن الألمان ، من الأعداء وأشدهم مراساً » .

والشعب الألمانى مرهف الحس فيما يمس الولايات المتحدة ، ومعظمهم يحب أمريكا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

من أعماق قلبه ، وإنما جاء هذا من أن كثيراً من الألمان قد رحلوا إليها ، ومع ذلك يساورهم شيء من الرهبة لأنهم يذكرون ما قامت به أمريكا في الحرب العالمية الأولى ، وقد أعظمتها في عيون الناس قوتها المادية.

وفي هذا أيضاً دأبت الدعاية النازية على « تصحيح » الرأي الألماني ، فجهدت أولا أن تستخف بقوة أمريكا ، وجعل الموظفون يسخرون بما سموه « هوس الأرقام » ، وأعلنوا أن « نظام الحرية » خيبة مطبقة ، وأن صناعة التسليح الأمريكية أدنى بكثير من مستوى الإنتاج الذي يزعمه روزفلت .

ولكن وزارة الخارجية تلقت صدمة عنيفة في يوم من الأيام ، إذ قام طمسن نفسه ، القائم بالأعمال في السفارة الألمانية بوشنطون إلى عهد قريب ، والوزير الحالي في السويد ، فألقى محاضرة على ممثلي الصحافة الأجنبيـة ، فأدهش السامعين بآرائه في أمريكا ، إذ كانت تنقض كل النقض سياسة ولهامستراس التي كانت تفصح عنها يوماً بعد يوم .

وقد سأل رئيس قسم الصحافة طمسن عن الشعب الأمريكي ، أهو على علم بخيانة روزفلت ؟ فأجابه طمسن بأن رئيس الولايات المتحدة تشد أزره البلاد بأجمعها ، وصرح قائلا : « إن الشعب الأمريكي سيقاتل حتى النهاية » . وتجهم وجه الدكتور شمدت حين نبذ طمسن كل خطته في الدعاية ، وطفح الكيل حين أنذر طمسن النازيين بحصافته بأنهم يهوّنون خطر التسليح الأمريكي . وقعد الدكتور شمدت وهو يتميز من الغيظ ، ولعله كان من الممتع أن تشهد كيف كان لقاء الرجلين بعد المحاضرة . واليوم صارت أمريكا كابوساً يجثم على صدور النازيين ، حتى كاد يكون الحديث عنها حراماً على الناس .

وموقف الريخ الثالث من عدوه الثالث — روسيا — أكثر تعقيداً ، إذ لا يختلف رأي النازيين عن رأي السوفيت فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ، فحشد القوة بلا رحمة ولا هوادة من سجايا برلين وموسكو كلتيهما .

بيد أن الألمان ينقمون أشد نقمة من « الأساليب الروسية الخسيسة في القتال » . والجنود الألمان الذين حادثتهم أعربوا كلهم عن الهلع والجزع الذي يجدونه في أنفسهم من قبل النظام الروسي . فهم يشعرون أن هـذا النظام أقام مباني حكوميـة ضخمة ، وأنتج مقادير هائلة من أحدث أدوات الحرب ، ومع ذلك فقـد رضي أن يعيش سواد الشعب في بؤس لا يوصف . وهـذه الدعامة القاسـية البشعة التي تقوم عليها

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

السياسة السوفيتية تفزع الجندى الألمانى ، وتجعله يشعر أنه يحارب البربرية الشرقيـة فى سبيل عالم أفضل من هذا العالم .

وقد حاولت الدعاية النازية يوماً ما أن تستغل هذا الشعور ما استطاعت ، فأقامت معرضاً سمته «جنة السوفيت» فى لستجارتن وهى مجموعة من المساكن الروسـية ، قالوا إنهم جلبوها من مدينـة منسك ، وكانت بشعة قذرة تغص بالخرق البـالية . وتدفق عليها كل يوم آلاف من المشاهدين . وكانت رائحتها منتنة تقذرها النفس ، فكان كثير من الزوار يخرجون منها أسرع مما دخلوها. ولا شك فى أن بعضهم كان يرتاب فى هذا الضرب من الدعاية المباشرة ، ولكن لم يكد المعرض يوصـد أبوابه حتى اسـتفاضت فى أرجاء برلين هذه الدعاية :

— « لماذا أغلقوا الجنة السوفيتية » ؟

— « لأن سكان برلين الشمالية طالبوا برد أشيائهم » .

وأما شعور ألمانيا نحو حلفائها فهو أمر عجيب ولا ريب . فما من ألمانى يسعه أن ينكر أن حرب اليابان فى آسيا خففت شيئاً كثـيراً من الضغط على ألمانيا ، ومع ذلك فاليابانيون مكروهون أشـد الكره ، على أن الصينيين — وناهيـك من عجب — محبوبون كل الحب . ويرجع ذلك إلى أن الألمانيين لم ينسوا بعد أن اليابان كانت لهم عدواً فى الحرب العالمية الأولى ، هذا ويشعر الألمان أيضاً بأنه عسى أن لا يكون القيصر ولهلم مخطئاً كل الخطأ أيام لم يكن يفتأ يحذر أوروبا من الخطر الأصفر .

وكانت آثار انتصارات اليابان الهائلة فى ربيع سنة ١٩٤٢ مما تلذ متابعته ، فقد تحمس الألمانيون بادىء الأمر وهللوا لها تهليلا كبيراً ، فلما توالت الفتوح وسقطت أخيراً الهند الشرقية الهولندية فى أيديهم ، استولى الوجوم على الدوائر السياسية الألمانية ، وحتى كبار رجال النازى أنفسهم كانت تصدر عنهم إشارات كهذه : « إن الشعوب الألمانية هى التى تدفع الآن ثمن تقدم الأجناس الصفراء » .

واستفحل أمر الشعور ضـد اليابان ، وصارت الدوائر السياسية شديدة الحنق على اليابانيين إذ أبوا أن يسيروا بالحرب طبقاً للخطط الألمانية ، ولا سيما لما كان من رفضهم أن يهاجموا الاتحاد السوفيتى . ومحور برلين — طوكيو ليس إلا صداقة منفعة ، ولا يعبأ أحـد الصديقين شيئاً بأن يضحى بصاحبه إذا دعا الأمر .

وأسوأ من ذلك علاقات ألمانيا بحليفتها السابقة إيطاليا . فتسليم إيطاليا فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٣ أسدى إلى ألمانيا يداً واحدة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

على الأقل ، ذلك بأن الألمان أصبحوا أخيراً قادرين على الإعلان عن شعورهم نحو الحليفة السابقة . فالشعب الإيطالى « البطل » الذى كان يرفعه الثناء ، منذ وقت قريب ، إلى السماء ، قد تحول فجأة إلى أمة من الخونة الأنذال ، وإذا هو من الخسة بحيث لا يستحق زعامة موسولينى العظيم .

ومع ذلك فلا بد من أن يكون تسليم إيطاليا قد هوى قاسياً على الشعب الألمانى فأثر فيه تأثيراً بالغاً ، وعمل الحلفاء فى إيطاليا ، بوقوعه فى وقت واحد مع الهجوم الروسى ، يفتح للريخ الثالث وجوها من التوجس لا حد لخطورتها ، فليس يقتصر الأمر على أن الغارات الجوية الساحقة أصبح يمكن توجيهها الآن إلى المناطق التى كانت تعد آمنة فى ألمانيا الجنوبية ، بل إن فرص غزو الحلفاء قد زادت . ومنذ سلمت إيطاليا أخذ ذكر (سنة ١٩١٨) يفعل فى الشعب الألمانى فعلا عجيباً يزداد يوماً بعد يوم .

ومع أن الجمهور الألمانى كله قد أرهق بالعمل وبرّح بأعصابه الاعياء ، فلا ينبغى لأحد أن يهون من خطر قوته . ولا يزال للريخ الثالث قوته الاحتياطية التى لم تبرز بعد ، بما فى ذلك الأسلحة الجديدة التى كثر الكلام عنها . وانه لمن الخطأ أن تظن هذا إنما هو دعاية وحسب ، ومن حسن الرأى أن نحسب حساباً لما يحتمل من أن الألمان لديهم وسائل فنية هى آخر ما فى يد الفوهرر ، فقد كانت هناك مثلا وثائق محفوظة عن مدفعية ذات مدى بعيد لم يسبق لها مثيل .

ومن الجائز اليوم أن يكون الألمان قد أتقنوا صنع مدفع صاروخى يرمى إلى ١٤٠ ميلا ، وربما كان مثل هذا المدفع غير محكم فى رمايته ، ولكن هذا ليس نقصاً معيباً إذا كان الهدف فى حجم المنزل الصغير . وإذا تيسر للألمان مثل هــذا المدفع كانوا فى موقف يمكنهم من تدمير جوانب كبيرة من لندن وإلحاق ضرر بليغ بإنجلترا ، هذا والمدفع نفسه فى مكان حصين من القارة الأوربية . ولــكن ما من سبب يدعو إلى الظن بأن هذا السلاح أو سواه من الأسلحة السرية ، لن يلقى أسلحة جديدة مثله تقوم له من قبل الحلفاء ، أو أن مثل هذا يثبط من عزيمة بريطانيا على الاستمرار فى الحرب إلى نهاية النصر .

كبار النازى

معارضة الحزب النازى منتشرة انتشاراً عجيباً فى ألمانيا ، ولــكن الحزب يقبض على البــلاد بيد من حديد ، ولن تخر أركان النازية على رؤوس حماتها من تلقاء نفسها .

ويقف الجستابو حارساً لا يقهر ليحرس سلطان النازى على الناس ، وهذه القوة وحدها تتألف من ٥٠٠٫٠٠٠ رجل على الأقل . وقد أعدّ الجستابو وسائل المقاومة لكل ثورة داخلية إعداداً دقيقاً ، فقد أقيمت أعشاش المدافع ، منكّرة على صورة أكشاك من حجر ، أو مخابئ للموظفين ، في محطات السكك الحديدية وفي ملتقى طرق المواصلات في المدن الكبيرة . ويحتل رجال « كتائب الصدام » ، مسلحين بأسلحة أوتوماتيكية ، منازل على نواصي الطرق لها قيمتها الحربية .

ويمارس الجستابو في مطاردتهم أعداء الحزب أساليب من الإرهاب تذكر بالقرون الوسطى ومحاكم التفتيش الإسبانية ، وإنهم يكلفون ببقاء هذا الجو عمداً . ويلقى القبض على الناس ليلا أو في الفجر ، ويتولى القبض عليهم رجال من شيمتهم الصمت والتجهم فلا ينطق منهم لسان ببيان ، ويدّعون المقبوض عليه هو وأهله يتوهمون أن الفريسة مسوقة من فورها إلى المشنقة .

وحيث لا يجدى الإرهاب وحده ، لا يتردد الجستابو في التحريض على الثورة ، فإذا ما سمع رؤساء البوليس الألماني أن قوماً يتآمرون على الشعب في ركن خفي من البلاد أرسلوا من يقوم بتدبير دسيسة ، فإذا ما أفرخت الدسيسة المبيتة ، أقبل الجستابو ليقبض على المتآمرين .

فإذا اقتضى الأمر الاعدام بالجملة ألقيت المهمة على عاتق حرس القمصان السود أو « كتائب الصدام » ، وكانت وحداتهم خاصة هي التي تتولى طرد اليهود من ألمانيا ، وقد أبدوا في ذلك قسوة لا حد لها ، وإن كان هذا فيما يبدو ، لا يعدّ شيئاً بالقياس إلى مافعله رجال « كتائب الصدام » أنفسهم في شرق ألمانيا . فربما ظل مجهولا إلى الأبد : كم من دم يهودى أو بولندى أو روسىّ أراقوه وحملوا وزره !

وجنود « كتائب الصدام » ، الذين منهم فرق الإعدام في الشرق ، قد جرى اختيارهم بعناية ، فهم مجندون من أشد العناصر قسوة ، وقد دربوا على أن يكونوا أعنف وأشد قسوة . ولعله لا يوكل إليهم في بادئ الأمر إلا سوق اليهود إلى تنظيف الشوارع أو جرف الثلوج المتراكمة ، ثم يكلفون تنفيذ الإعدام في الأفراد مع الفرق النظامية . فإذا دربوا على ذلك كلفوا تنفيذ الإعدام بالجملة .

وقد أبى كثيرون منهم الاشتراك في الإعدام بالجملة ، حتى بعد هذا التدريب ، فأعيدوا إلى وطنهم مهدّدين بما ينزل بهم وبأسرهم إن هم تكلموا . وحل بآخرين الخبل

فأرسلوا إلى البيمارستانات. وبين الحين والحين يستدعى الأطباء لفحص جنود فى الإجازة مصابين بنوبات هستيرية شديدة أو بأرق متطاول ، وتكون القصة دائماً واحدة : «لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت — لست أرى فى منامى شيئاً إلا الدماء» .

وزعماء النازى ينظرون إلى ألمانيا بل إلى أوروبا كلها كأنها من أملاكهم ، فطاشوا فى استغلال سلطانهم فيما يعود على أنفسهم بالمنفعة ، فلا يكادون يفرقون بين ما هو ملك لهم وما هو ملك للشعب . وقد محيت هذه الحدود محواً تاماً فيما يختص بأرفع المناصب ، حتى جمع من بيدهم مقاليد الحزب لأنفسهم أموالا وافرة بوسائل غير شريفة . وقد أثار فجورهم وإفراطهم على الناس بسلطانهم أعظم المقت وأشد الاشمئزاز فى نفوس الشعب الألمانى .

أما قوة معارضة النازى فى قلب ألمانيا فمن العسير أن تقدّر على وجه الضبط ، فالسواد من الشعب مقاوم للنازية فى قلبه ، ويريد أن يتخلص من الحزب وأن يظفر بالسلم والهدوء ، وأما الذين يدركون ما يريدون بعد هتلر فإنما هم قلة .

ويبدو أن الدعاية بما تناقلته الألسنة فى مكافحة هذا النظام قد دبرت ، تدبيراً محكما ، فبين الحين والحين تذيع فى أرجاء المدينة كلها فى بضع ساعات أسرار فاضحة ، وفى حياة زعماء الحزب وقود لاينفد لدعاية المعارضة .

وكثير مما يقع فى ألمانيا الآن يثير دهشة الأجنبى ، فإن أكثر من ١٥٠٫٠٠٠ شخص يعملون فى الخفاء ويعيشون عيشة الخارجين على القانون ، وبعض هؤلاء من اليهود ، ولكن أكثرهم من الألمان المعارضين للنازى . وهم يعيشون فى تحفز دائم من جراء نضالهم فى سبيل الاختفاء للإفلات من الجستابو ، يعينهم على ذلك بعض أهلهم أو أصدقائهم . وكثير منهم واتاه الحظ الآن لما لحق الأداة الإدارية من الفوضى الناجمة عن الغارات الجوية وإخلاء المدن .

وقد أبدى رجال الكنيسة — من بروتستانت وكاثوليك — شجاعة عظيمة وعزماً ثابتاً فى جهادهم فى سبيل حرية النفوس . وهم يتعاونون فى مقاومة الضغط النازى ، حتى لقد تهدمت حواجز كثيرة مما كان بين الكثلكة والبروتستانتية . فالقسس الكاثوليك يعظون فى الكنائس البروتستانتية ، والرعاة البروتستانت الذين طردوا من كنائسهم تعينهم الكنيسة الرومانية بالمال .

ولاريب إن نظام الكنيسة الكاثوليكية

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

المتين هو الذى أنقذ حتى اليوم ما بقى من الثقافة الألمانية والحرية الروحية. والكثلكة أيضاً هى التى تجنى اليوم ثمار البعث الدينى المشهود فى جميع أنحاء ألمانيا . ويرجع الفضل فى ذلك إلى الموقف الصريح الجرىء الذى وقفه كثير من زعماء الكنيسة . فمن ذلك أن نسخاً من الخطب المناهضة للنازية التى ألقاها جراف فون جالن أسقف مونستر ، تناقلتها الأيدى فى طول ألمانيا وعرضها ، وأن كاتدرائية مونستر كانت تغص بالسامعين إذا ما خطب الأسقف ، ومع ذلك لم يجرؤ الجستابو على التدخل . ولما أوشك القبض على الكونت جالن أن يكون ، صار الفلاحون يقبلون على المدينة كل صباح فى عرباتهم ويطالبون بأن يخرج إليهم الأسقف ، إذ كانوا يريدون أن يستوثقوا من أنه لم يزل فى الكنيسة لا فى معسكر الاعتقال .

وقد ذاعت عن هذا الرجل قصص لا حصر لها ، وربما كان أطرف ما عرف منها قصة الزعيم النازى الذى وقف فى الكنيسة فى يوم من أيام الأحد وصاح بأعلى صوته قائلا : « إن الذين لا يساهمون فى الحرب بدمائهم ودماء أبنائهم من أجل بقاء ألمانيا يجب عليهم أن يلزموا الصمت » . فكان رد الأسقف السريع العاجل : « إنى أنهى كل إنسان فى هذه الكنيسة ، مهما تكن منزلته ، عن التنديد بالفوهرر » .

ومثل هذه القصص لا تحكى عن جالن فحسب بل عن كثيرين غيره من رجال الكنيسة .

والسبب الذى من أجله ظل الحزب الوطنى الاشتراكى مسيطراً على الأمة سيطرة لم تتزعزع ، على ما دبّ فيه الفساد ، وعلى ما يكنه الناس من بغضه ، هو تماسك الزعماء النازيين الذين ظلوا متساندين على ما بينهم من خلاف ونزاع . وهذه الجبهة المتحدة فى كفاح كل معارضة ، إنما أنشأتها المصالح المشتركة ، والإيمان العنيف بالاشتراكية الوطنية ممثلة أولا وأخيراً فى شخص أدولف هتلر .

ولكن من وراء هذه الجبهة الموحدة فوضى من المصالح الشخصية المتضاربة ، يبدو أن هتلر نفسه ينميها ليظل محتفظاً بمكانة الحكم الأعلى .

والقدر سريع التقلب بالزعماء ، ففى مستهل سنة ١٩٤٣ مثلا صار جوبلز رجل الساعة ، وما كاد يصل حتى عاد إلى مكانه السابق بعد أشهر قليلة . ثم اختفى جورنج من مقامه الرفيع ، فلما كانت أواخر الربيع سمعنا أنه كالمنفى فى جراز ، وفى أغسطس حدث شىء غامض أعاده إلى الطليعة مرة أخرى . وتفسير ذلك أنه لا بد أن عملا ما

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كان يراد القيام به ، وأن جورنج كان الرجل الذى يمكنه أن يتولاه .

ومن الغريب أن هـذا الرجل الذى بذّت قسوته قسوة سائر الزعماء ، صار هو الذى يمثل الناحية الإنسانية من النظام النازى . فكان من افتتانه بالأزياء والأوسمة ، وتباهيه بها كالصبية ، وحبه للطعام الطيب الشهى ، ما جعل الألمان يرون فيـه أحد خصائصهم القوميـة ، وأحله المنزلة الأولى عنـدهم . ولكن ما لبثت شهرته أن تضاءلت أخيراً ، فإن بشاعة الفقر لم تدع أحداً يطيق أن يرى هذا الهيام بالترف . وقد أخذ يزداد ما يذاع عنـه من قصص تدل على مدى « اتساع ذمته » فى تفسير حق الملكية . فمن ذلك أن أحد الضيوف فى إحدى الولائم جعـل يبدى إعجابه بشمعدان بديع ، ومر به أحد القواد فمال على رب المنزل وقال له : « خذ حذرك ، وإلا لمحه جورنج » .

وربما كان هينريخ هملر ، وزير الداخلية الجديد وقائد كتائب الصدام ومدير البوليس الألمانى أقل زعماء النازى سيرة معروفة عند الجماهير . ومع ذلك فالفكرة العامة عنه أنه هو الذى يعلق الناس فى المشانق . وثمة دليـل صادق الدلالة أن هملر رجل فى قلبه نهم جنونى إلى السلطان ، فقد أسـس بهمته وعزيمتـه ، نظاماً بلغ من الكمال مبلغـاً يستطيع به أن يعلق على كل أحد عيناً من عيـونه . وقد سـجل فى ملفات سرية كل ما يبتغى المرء أن يعرفه ، عن مغـامرات جورنج وجوبلز ، وحتى حركات الفوهرر نفسه تدخل فى نطاق أبحاثه .

ويكاد يكون مارتن بورمان ، وهو من أعظم رجال ألمـانيا سـلطاناً ، مجهولا كل الجهـل خارج حدود بلاده . ويقول عنه المراسلون الأجانب فى برلين : إنه خليفـة رودلف هس بالفعل ، وإن لم يكن بالاسم . وبورمان نائب هتـلر وهو — كهس — رئيس إدارة الحـزب . وبالاختصار ، هو ساعد هتلر الأيمن فى كل ما يتعلق بالشؤون الداخلية .

أما يواكيم فون ربنتروب ، وزير الخارجية الألمـانية ، فهو مثال لمن نوهت النـازية بأسمائهم بعد خمول وهم على بعـد . همتهم ونشـاطهم رجال لا يتـورّعون ولا يتقون . وكان فى بادىء أمره خماراً وقد تبناه أحد أقاربه فتسنى له بذلك أن يضيف إلى اسم ذلك اللقب المرموق « فون » .

ويعتقـد كثير من الألمـان أنه أولى من هتـلر نفسه بأن تلقى عليه تبعة العدوان النازى . ويبدو أن ثمة أساساً متيناً لاعتقاد ما يسـمعه المرء كثيراً : هو أنه لو لم يؤكد ربنتروب أن بريطانيا سوف تستسلم ، ولو لم

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ينصح هتلر بأن يسوق الأزمة البولندية الألمانية إلى غايتها ، ما وقعت الحرب العالمية فى سنة ١٩٣٩

وربما كان الدكتور روبرت لى ، زعيم جبهة العمال ، أقل زعماء النازى قرباً إلى قلوب الشعب . وهو أحد أصدقاء هتلر المقربين القلائل ، ممتلىء البدن ضخم الذقن قد طوق الشحم عنقه ، فى صوته بحة وحشرجة،وفى طباعه العربدة النازية ،وهو يستوقف الأنظار فى الحفلات الرسمية وفى اجتماعات الريشستاج خاصة ، بهرولته شغفاً بتحية من هم أرفع منه منصباً ، هذا وعينه دائماً زائغة إلى آلة التصوير . وحتى المارشال كيتل نفسه ، وهو الذى وصف بألقاب النساء لأنه يبتذل نفسه غير ضنين لكل ذى سلطان ، لا يستطيع أن يخفى ازدراءه حين يرى ذلك الوزير القصير البدين.

وهو امرؤ خبيث الطوية حتى إن كثيرين من عقلاء النازيين حاولوا إقصاءه عن الحياة العامة ، لعلمهم أنه كان دائماً منبع الفساد فى الحزب . وإدمانه الخمر وعدم أمانته يعرفهما حتى الأطفال فى برلين ، ومع ذلك لا أمل فى التخلص منه ما دام هتلر يتولى حمايته .

إذا وقف المرء يراقب هتلر وهو يخطب فى حفل عام راعه ما يراه من ضروب التناقض فى طبيعته . ففى حركاته وشمائله تكلف بغير وقار ، وهو حين يصعد إلى منبر الخطابة يُرَى كأنه تاجر حقير يحاول عبثاً أن يكون سياسياً عظيما .

ثم يستهل خطبته بصوت مرتفع ، فيروى كدأبه قصته المألوفة المملة منذ كان جندياً عادياً حتى صار زعيما للريخ . وتزيد حماسته شيئاً فشيئاً ثم يفجأ العين منه رجل آخر ، هو نسيج من أعصاب ملتهبة ، تهوى كلماته كأنها وقع مطرقة . فإذا ألقيت نظرة على المستمعين ألفيتهم يصغون إلى كل كلمة بأفواه فاغرة وعيون شاخصة ، وعندئذ لا مناص لك من أن تملك نفسك لا يجترفك ما اجترف الجماهير من السحر . وعلى حين غرة يبطل هذا السحر ، فلا ترى إلا ذلك الرجل الضئيل وهو يحاول أن يقنع الناس ويقنع نفسه بعظمته .

وتصطبغ سياسته الخارجية ــ فى الظاهر ــ بصبغة واقعية مستهترة . والحقيقة هى أن عواطفه وحالته النفسية لها أثر فى توجيه سياسته . ولا يخفى على أحد فى برلين أن بعض المسائل التى تتطلب سرعة البت قد تهمل عدة أسابيع لأن المستشارين لا يجرؤون على عرض أية مسألة عسيرة شاقة ، إلا أن تعرض الفرصة النادرة حين يكون هتلر راضياً طيب النفس . وكثيراً ما رسمت

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أحقاده الخاصة سياسة ألمانيا . وهذا الاعتماد على الانفعال دون العقل ، هو الصفة المخيفة التي يعرف بها نظامه .

ولا يتسنى لأحد أن يجحد ما لهتلر ، القائد العسكري، من مقدرة على وضع خطط حربية عظيمة ، بيد أنه مولع بمعرفة التفاصيل ، وهذه خصلة تثير في نفوس العسكريين سخطاً شديداً . فقد يستدعى رئيس أركان حربه ثلاثين مرة في صباح يوم ما ، ليفسر له أعمالا حربية ينبغي أن تكون من شأن القواد في ميدان القتال . ثم إنه قد يؤجل الموافقة على استعمال سلاح جديد ، لأنه يريد أن يختبره بنفسه وهو عمل قد يستغرق أسابيع أو شهوراً .

ولا شك في أن من أكبر المحن التي ابتليت بها القيادة الألمانية أن يكون على رأسها قائد معتز بمقدرته ، وليس له مع ذلك حظ من الثقافة العسكرية . وقد دارت على الألسنة كثير من النوادر عن تدخل هتلر في الشؤون الحربية ، فهو لا يعبأ شيئاً بنظام الجيش، حتى قيل إنه أصدر أوامر إلى بعض السريات والكتائب متخطياً كبار قوادها . وقد تجلى مسلكه هذا مع الجنرال فون بوك . سأل فورت فونجلار رئيس الأوركسترا الذائع الصيت القائد فون بوك عن سبب عزله من القيادة ، فأجابه بقوله : « يا عزيزي فورت فونجلار ، لو كان مما يسّره الله للفوهرر أن يعرف الزمن لما تسنى لك أنت أيضاً أن تقود الأوركستر أمام الجماهير » .

ويطمع هتلر أن يكون جندياً كما كان سياسياً — بل أن يكون أعظم جندي في التاريخ — ولكنه لم يرزق مالا غنى عنه من أداة الجندي . وقد تمخض تدخله في ميادين القتال عن كوارث عسكرية . ولعل خير ما يفسر ذلك شعاره الذي دان له مدى حياته : « اجعل المستحيل ممكناً » . وقد أدى هذا المبدأ إلى نتائج باهرة في ميدان السياسة ، فقد خالف هتلر ما نصح به قواده بإعادة تسليح منطقة الرين ، وزحف إلى النمسا ، و « حل » مشكلة تشيكوسلوفاكيا. وقد ألقت هذه الفتوح السياسية في نفسه أن رأيه العسكري أيضاً معصوم من الخطأ .

وكانت سياسة تحقيق المستحيل هي التي رام هتلر أن ينهجها حين غزا روسيا ، ولكنه أخطأ تقدير العوامل العسكرية مثل : الاحتياطي، ووسائل النقل ، والجو وروح القتال التي جبل عليها الشعب الروسي. ولقد انهارت سيادة هتلر العسكرية في براري روسيا وفي صحاري أفريقية ، لأنه أخطأ في تقدير هذه العوامل .

وقد تغير هتلر خلال السنتين الماضيتين

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

إذ تقدمت به السن ، فزادت حدة عينيه وتجلى فى نظراته الضجر ، فهو يلقى فى روع من يلقاه صورة الرجل الذى يعلم أن ساعته قد أزفت .

وأما صحته فلا يعلم حقيقة أمرها الآن إلا المقرّبون ، ولكن قواه كانت تنهار بين الحين والحين ، فلا يشرف على شئون الدولة على الدوام ، فيؤول زمام الأمور السياسية والعسكرية إلى يد غيره فترات قد تطول أسابيع أو أشهر ، وتنتقل المسائل السياسية فى الغالب إلى أيدى هملر وبورمان وتنتقل السلطة العسكرية إلى القيادة العليا .

ويعيش هتلر اليوم فى عزلة تامة لا يقابل إلا رجالا قلائل . ويلوح أن قواد ألمانيا العسكريين قد أصبح لهم شأن فى توجيه سياسة الحرب ، وأن هتلر نفسه يقصى شيئاً فشيئاً عن إدارة دفتها .

ويوم يصير الصراع الحاضر ماضياً ، سيثنى التاريخ على ما عمل . فقد أصبح من الواضح أن هذه الحرب قد هيأت العالم لأعظم انقلاب فى التاريخ الحديث . وحين نخلف أحداث زماننا الحاضر وراء ظهورنا ، فربما عددنا هتلر يومئذ أداة سخرها القدر ، ولكن عملها يختلف كل الاختلاف عما قدر لنفسه وهو جاثم فى « وكر النسر » فى برخستجادن . فبفضل نظامه الغاشم عادت الحرية مثلا أعلى يفيض سناه فى أرجاء العالم ، ويتفانى الناس فى حياطته . وأصبح أهل البلاد الذين ظنوا أن الحرية شىء مضمون،لأنهم ألفوها ، يلمسون الآن الحقيقة مجسدة لما كانوا مهددين بفقده . وربما كان حكم التاريخ على يقظة الحرية هذه أنها : رسالة هتلر التى آمن بها العالم .

مرحلة الحرب النهائية

لا شك فى أن هتلر ورجاله سينزلون من التاريخ منزلة غلاة الهدامين . وقد حاول حزب النازى أن يغير الأساس الذى قامت عليه حياة الشعب الألمانى ، وهو الذى كان قبل أن يتسلم هتلر زمام الحكم شعباً متديناً صادقاً ، نعم ، كان أفراد كثيرون من الألمان لا يعبأون بالأديان كلها ، ولكنهم كانوا خاضعين للأحكام العامة التى يتبعها العالم المسيحى .

وقد حاول هتلر أن يخرج للشعب الألمانى ديناً جديداً ، فحيل بين الشبان وبين الكنائس ، ولقنوا عقائد جديدة ليؤمنوا بها ، وأصبح تقديس هتلر من العقائد الدينية . ولم تكن العقائد التى نفثت فى قلوب الشبان الألمان سوى الإيمان بالدم والقوة والاتحاد الجرمانى ، ولم يعودوا يعلمون شيئاً عن عقائد الشعوب الأخرى ومثلها العليا .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وتكمن فى نفوس الشبان الألمان أشد المخاطر التى تهدد ألمانيا وأوربا ، وكذلك كتب على قوم آخرين أن يحصدوا ما بذره هتلر . وقد تمضى أجيال قبل أن تنقى الأرض من بذور النازية .

والقضاء على نظام التشريع القديم يسير مع تخلق الدين الجديد جنباً إلى جنب . وإنه لمن العسير أن يدرك البعيدون عن ألمانيا ما ينطوى عليه النظام الجديد من الفوضى المتمردة على الشرائع والقوانين .

وحالة ألمانيا الآن تشبه ما كانت عليه فيما بين ١٢٥٤ — ١٢٧٣ م ، يوم كانت بلاداً لا حاكم لها . فالأهالى الأبرياء الصالحون يقبض عليهم ويعاقبون بلا تحقيق ولا محاكمة ، بل لا ضرورة للقبض وما يتبعه ، فالشخص المطلوب قد يقتل فى عقر داره . فهل نستطيع أن ندرك كيف يكون هذا كله فى شعب لم يزل يعد من أكبر شعوب العالم ثقافة وحضارة ؟

وفى الحياة العامة والحياة الخاصة على السواء تفشى القسوة والذل والكذب والفساد ، فأودى الشرف وخلا مكانه ، واحتل الغدر والوشاية مكان الصدق والشرف .

إن ملايين من الألمان يعارضون ، كغيرهم من الأوربيين ، هذه الأساليب التى انتهجها هتلر ، ولكن لم يجرؤ على التصريح باحتجاجه إلا قليل ، وقد يعد ذلك جبناً ، وإنه لكذلك ، ولكن قليل من الناس خارج ألمانيا من يستطيع أن يدرك تمام الإدراك عواقب الاحتجاج فى شعب كالشعب النازى . فالتلويح بالمعارضة لا يقضى على حياة الإنسان فحسب بل يقضى أيضاً على أسرته وأقاربه .

والألمان اليوم فى كرب مخيف ، فقد خضعوا عشر سنين للنظام النازى الذى يتابع تخديرهم وعزلهم عن بقية العالم ، ويرى أبعدهم نظراً أن انتصار ألمانيا سيكون غلا لا يطاق يرسف فيه الألمان والشعوب الأخرى على السواء ، وهو أمر لا يسعهم أن يتوقوا إليه بمحض قلوبهم . ولكن لم يزل يصب فى أسماعهم يوماً بعد يوم أن الخائن هو من لا يتعصب للفوهرر ويؤمن به . يضاف إلى هذا أن الذين حضروا سنة ١٩١٨ يعلمون معنى تجريدهم من السلاح ، ووقوعهم تحت رحمة العدو ، فهم لا يشكون فى أن الأمر سيزداد سوءاً إذا ما هزموا مرة أخرى .

وقد بدأ الألمان يحسون تيار البغضاء الكامنة فى نفوس الناس فى أوربا وبما يتوعدونهم به ، تلك هى أوربا التى أراد النازيون أن يدمجوها فى ألمانيا فاتحدت عداوة لألمانيا . وإنهم ليحسون أيضاً

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بمقاومة السلافيين تكاد تعصف بهم ، وبالخطر الكامن الذى يهددهم به ملايين العمال الأجانب التى سخرت للعمل فى ألمانيا.

ونحن لاندرى بعدُ ، ما الذى ستتمخض عنه المرحلة الأخيرة للحرب ، ولكن الفقر والبؤس يهلكان الناس ، والثورة ممكنة إذا ضاع الأمل فى النصر ، والعمال الأجانب فى ألمانيا ينذرون بثورة عنيفة لا مثيل لها فى التاريخ ، والحقد المتأجج فى صدور الدول المحتلة يتربص للانفجار .

ومع ذلك فإن معظم الألمان يشعرون بأنه ينبغى عليهم أن يمضوا فى السباق إلى نهايته ، فلم يبق لهم إلا أن يقاتلوا. ولا ريب فى أن الحلفاء لم يدعوا لهم ما يختارون إلا التسليم بدون قيد ولا شرط . ومن المستحيل أن نجعل شعباً يرضى هذه النتيجة قبل وقوع كارثة عسكرية . فحالة ألمانيا وأعداء ألمانيا كلاهما معاً يسوق الألمان للانضمام تحت لواء الصليب المعقوف .

« إما النصر وإما الشيوعية » . هذا هو النداء الذى يردده جوبلز وهو يريد به أن يقول : « ليس لنا أن نختار » . وبعد فالنازيون يعلمون كل العلم أن صراعهم فى الواقع إنما هو مسألة حياة أو موت .

* * *

● خطب أعرابى إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ ثم ارتفع السجف عن المرأة فرأى شيئاً كرهه . فقال لهم : والله ما عندى اليوم نقد ، وإنى لأكره أن يكون علىّ دين .

● قال الجاحظ : جاءنى يوماً أحد الثقلاء فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فعلمنى منها فقلت له : نعم ! فقال : إذا قال لى شخص ، يا ثقيل الروح ، أى شىء أقول له ؟ فقلت : قل له ، صدقت !

● قال الجاحظ : أتتنى امرأة «وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجة» وأريد أن تمشى معى ! فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا ! وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها . فقال : إنها أتت إلىّ بفص وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان ! فقلت لها : يا ستى . ما رأيت الشيطان قط ! فأتت بك وقالت ما سمعت .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

باب الكتب
٣٠

النهج الوحيد في الغد

ايين رانـد

ملخصة عن
بحث فى « القاعدة الأخلاقية للفردية »

إن أعظم خطر يهدد الإنسانية والحضارة هو ذيوع الفلسفة الكلية . وليس خير حلفائها إخلاص أتباعها وولاؤهم، بل حيرة أعدائها، فإذا أردنا أن نكافحها فإن علينا أن نفهمها.

إن الكلية هى الجماعية ، والجماعية معناها إخضاع الفرد لجماعة ، يستوى فى ذلك أن تكون الجماعة شعباً أو طبقة أو دولة ، فما لهذا قيمة . وهى تقضى بأن يكون الفرد مشدود الوثاق إلى العمل الجماعى والفكر الجماعى فى سبيل ما يسمى «الخير المشترك» .

وما ارتقى قط مستبد ، فى عصور التاريخ كلها ، إلى منزلة السلطان والقوة إلا بدعوى تمثيل « الخير المشترك » . فنابليون « خدم الخير المشترك» لفرنسا ، وهتلر « يخدم الخير المشترك» لألمانيا . وقد ارتكب «الإيثاريون» أو « الغيريون » أو مدعو حب الخير للغير، فظائع لا يجرؤ إنسان أن يفكر فيها لنفسه الأنانيـة ، وأقدموا على اقترافها بضمير نقى هادئ وسوغوها لأنفسهم « بالخير العام » .

وما طال عهد طاغية بقوة السلاح وحدها ، وإنما يستعبد الناس أولا بالأسلحة الروحية . وأعظمها وأقواها النظرية الجماعية ومؤداها أن سيادة الدولة على الفرد هى جماع الخير العام . فإنه ما من حاكم بأمره يستطيع أن يرقى إلى منازل السلطة إذا كان الناس يتمسكون بعقيدتهم — كأنها شيء مقدس — بأن لهم حقوقاً لا يجوز أن يسلبوها ، ولا يمكن أن يحرمهم إياها لأية غاية ، أي رجل كائناً من كان ، وسواء أشريراً كان أم خيراً مزعوماً .

وهذا هو المبدأ الأساسى للفردية على نقيض الجماعية، فالفردية مؤداها أن الإنسان وحدة مستقلة ذات حق ثابت لها فى نشدان سعادته فى مجتمع يتعامل الناس فيه على قدم المساواة .

ولدت إين راند فى مدينة بطرسبرج (لينجراد الآن) بروسيا وتخرجت فى جامعتها . واشتغلت بالكتابة والتأليف ، وفى سنة ١٩٣١ جاءت إلى الولايات المتحـدة ، كما قالت ، « لأكتب كما أشاء » . وهى مؤلفة المسرحية المشهورة « ليلة ١٦ يناير» التى ظلت تمثل ثلاث سنوات فى العقد الرابع من هذا القرن . ومن كتبها أيضاً «نحن الأحيـاء » وكتابها الحديث الذى راج رواجاً عظيماً « الينبوع » وسيمثل قريباً فى السينما .

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

والنظام الأمريكي قائم على الفردية ، فإذا أريد له البقاء ، فإن علينا أن نفهم مبادئ الفردية وأن نتخذ منها شعاراً لنا ، وقاعدة تصدر عنها في كل مسألة عامة وفي كل أمر نواجهه . إذ يجب علينا أن يكون لنا دستور إيجابي ، وعقيدة بينة مطردة .

ويجب أن نرفض الرأي القائل بأن الخير العام يخدمه إلغاء الحقوق الفردية ، فإن هذا شر محض ، فإن السعادة العامة لا يمكن أن يثمرها الشقاء العام والتضحية العامة . والجماعة السعيدة الوحيدة هي التي تكون مؤلفة من أفراد سعداء . فما يمكن أن تكون الغابة طيبة إذا كان شجرها هامدا .

وندل وسكي يقول

«لأجل كسب هذه الحرب قبلت الأمة الأمريكية الحكومة المركزية ، وتعبئة العمل ، وتقييد الحرية إلى حد أبعد مما قبلته في تاريخها .

« للكلية » أثرها الخادع السيء . وهي تؤثر في الذين يفضلون الانقياد للزعامة على الاجتهاد ، والطريق المرسوم على المغامرة ، وتؤثر فيمن يجدون أن من الصعب أن يسخروا الديمقراطية لمصالحهم الذاتية الاقتصادية أو السياسية .

ومتى انتهت هذه الحرب فإن الحريات التي فقدناها يجب أن تعاد وترد ، لا بعضها ، بل كلها ، ولا عاجلا أو آجلا ، بل عاجلا . فإذا لم نفعل ذلك فإن التاريخ سيسجل أن المنتصرين في هذه الحرب — كما حدث في حروب كثيرة أخرى — هم الذين انهزموا .

وينبغي أن يكون سلطان الجماعة مقيداً دائماً بالحقوق الأساسية الثابتة للفرد .

فحق الحرية معناه حق الإنسان في العمل الفردي ، والاختيار الفردي ، والابتكار الفردي ، والملكية الفردية . فما من سبيل إلى عمل مستقل بغير الحق في الملكية الخاصة .

وحرية نشدان السعادة معناها حق الإنسان في أن يحيا لنفسه ، وان يختار فيه سعادته الخاصة الذاتية ، وأن يعمل لإدراك ذلك وتحقيقه . وكل فرد هو صاحب الرأي والقول الفصل وحده في هذا الاختيار . ولا يمكن أن يقرر له إنسان آخر أو أي عدد من الناس سعادته .

وهذه الحقوق ملك فردي ، شخصي ، خاص ، وبغير قيد أو شرط ، لكل إنسان ، وهي له بمولده ، ولا حاجة بها إلى موافقة أو إقرار . وقد كان هذا هو مبدأ الذين أسسوا بلادنا ، فوضعوا الحقوق الفردية فوق كل دعوى جماعية . أما الجماعة فلا يمكن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أن تكون إلا كبوليس المرور فيما يتعلق بعلاقات الناس بعضهم ببعض .

وما زال الناس منذ فجر التاريخ رجلين متعادين يتواجهان ، وطرازين يتقابلان — الفاعل والمستكين المستسلم . والأول هو المنتج ، والخالق ، والمنشئ ، والفردى . وحاجته الأساسية إلى الاستقلال — ليفكر ويعمل — وهو لا يحتاج إلى السلطان على غيره ولا ينشده ، ولا يمكن حمله على العمل تحت أى نوع من الإكراه . وكل ضرب من ضروب العمل الصالح — سواء أكان وضع لبنات أم تأليف لحن موسيقى — يقوم به هذا الرجل . وإن المقدرة الإنسانية لتتفاوت درجاتها ، ولكن المبدأ الأساسى يبقى كما هو ولا يتغير ، وهو أن مبلغ استقلال الإنسان وحريته فى الابتكار ، هو الذى يحدد فضله كعامل وقيمته كإنسان .

أما الرجل السلبى أو المستكين فيوجد فى كل جماعة بالغة ما بلغت من الرفعة أو الهبوط ، فى القصور والمساكن الحقيرة الزرية . وطابعه هو خوفه من الاستقلال ، وهو مخلوق طفيلى ينتظر أن يعنى بأمره غيره ، ويود أن يرشدوه ويوجهوه ، فيطيع ويخضع ، ويتجه إلى حيث يؤمر ، وهذا يرحب بالجماعية التى تعفيه من كل حاجة إلى التفكير أو العمل بوحى من نفسه.

ومتى قامت الجماعة على مقتضى حاجات الرجل المستسلم فإنها تقضى لا محالة على الرجل العامل. ولكن متى قضى على العامل، فإن الآخر لا يمكن أن يعنى به ، أما متى قامت الجماعة على مقتضى حاجات الرجل العامل فإنه يحمل المستسلمين معه بفضل همته ، ويرفعهم معه إذ يرتفع ، وإذ ترتفع الجماعة كلها ، وهذه هى صورة كل تقدم إنسانى .

وهناك من الإنسانيين من يطالبون بدولة جماعية ، وذلك لفرط عطفهم على العاجز أو الرجل المستسلم . ومن أجله يريدون أن يشدوا الرجل العامل إلى المركبة ، ولكن الرجل العامل لا يستطيع أن يعمل وعلى عنقه نير ، ومتى قضى عليه ، فإن القضاء على الرجل المستسلم يتم من تلقاء نفسه . فإذا كانت الرحمة هى الباعث الأول للانسانيين ، فإن عليهم باسم هذه الرحمة ، إذا لم يكن باسم غيرها أن يدعوا الرجل العامل حراً فى العمل ، ليتيسر له أن يساعد الضعيف المستكين . فما من سبيل أخرى لمساعدته .

وتاريخ الإنسانية هو تاريخ النضال بين الرجل العامل والرجل المستسلم ، أى بين الفرد والجماعة . فأما البلاد التى أخرجت أسعد الناس ، وأرغد مستوى للحياة ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وأعظم رقى ثقافى ، فهى التى كانت فيها السلطة الجماعية — للحكومة أو الدولة — محدودة ، وكان الفرد فيها حراً فى العمل المستقل . مثال ذلك ، نهضة روما وقيام القانون فيها على حقوق الفرد وتغلبها على الوحشية الجماعية فى زمانها . ومن الأمثلة أيضاً إنجلترا ونظام حكومتها القائم على « العهد الكبير » — ما جنا كارتا — وتغلبها على إسبانيا الجماعية الكلية . ومن الأمثلة كذلك نهضة الولايات المتحدة إلى درجة لم يسبق لها نظير فى التاريخ — بفضل الحرية الفردية والاستقلال اللذين يسرهما دستورنا لكل مواطن ضد الجماعية .

وبينما الناس يتدبرون أسباب قيام الحضارات وسقوطها ، نرى كل صفحة من صفحات التاريخ تصيح بنا أن ليس ثم سوى مصدر واحد للتقدم : الرجل الفرد فى العمل المستقل . أما الجماعية فهى الوحشية القديمة بعينها . ذلك أن وجود الرجل المستوحش يسيطر عليه زعماء قبيلته ، أما المدنية فهى عبارة عن تحرير الناس من الناس .

ونحن نواجه الآن أمرين علينا أن نختار أحدهما — أن نسير إلى الأمام ، أو أن نرجع القهقرى .

وليست الجماعية «بالنظام الجديد فى غد» وإنما هى نظام الأمس الحالك الظلام . وهناك نظام جديد للغد — وهو رهن بالإنسان الفرد ، وهو وحده الذى أتاح للانسانية أى غد نعمت به .

الغضب كما يجب أن يرى

تعلمت منذ كنت غلاماً صغيراً أن أضبط عواطفى بطريقة بسيطة ، كانت من دأب أبى فكثيراً ما كان يحتدم الغضب بينى وبين أخى ، فيأتى أبى ويلقى إلى كل منا خرقة ، ويأمرنا أن نذهب إلى الباب ، ويقف كل واحد منا وراء أحد وجهيه ثم نصقل زجاجه ، فلا تمضى دقيقتان حتى يغلبنا الضحك وننسى شجارنا فقال لنا والدنا : « الضحك يا بنى خير علاج للغضب » .

وأجدنى حتى هذا اليوم ، إذا ما غضبت من أحد ، تخيلته كيف يبدو لعينى من خلال لوح صقيل من الزجاج وهو يفعل مثلما أفعل ، وعندئذ يذهب عنى الغضب .

[م . ه . فوكس]

النفس المعذبة

إرفنج ستون

ملخصة عن كتاب "شهوة الحياة"

[قضى أرفنج ستون — على سبيل التحضير لهذه الترجمة القوية الخيال لحياة فنسنت فان جوخ — أكثر من عام، وهو يقفو أثر هذا الفنان فى هولندا وبلچيكا وفرنسا. فزار كل معاهد فنسنت ومسارح حياته، وحادث كل من وجد ممن كانوا يعرفونه ولو قليلا. بل بلغ من أمره أنه فى ليلة الذكرى لوفاة المصور، نام على السرير الذى مات وهو راقد عليه. وفى إيتين — وهى بلدة فى إقليم برابانت رسم فيها فنسنت صوره الأولى — زار المستر ستون عامل البريد الذى صوره الفنان، على حين كان أهل البلدة يخشونه لظنهم أنه مجنون. ولا يزال عامل البريد محتفظاً بصورة من آثاره أعطاه إياها.

وما زال كتاب « شهوة الحياة » يفوز، منذ نشر، برواج مستمر]

لمّا فاز فنسنت فان جوخ للمرة الأولى بالراحة الكبرى، وهو لا يتجاوز السادسة والأربعين، لم يمش وراء جنازته إلا سبعة رجال. ولما حدث أخيراً أن أقام أحد المتاحف بنيويورك معرضاً لصوره، بلغ عدد الذين زاروه ليروا هذه المجموعة ١٢٣٫٣٣٩، واضطر المتحف أن يرد أكثر من هذا العدد. ولم يتجاوز ما كسبه من عمله طول حياته، كفنان، مبلغاً زهيداً يقرب من ١٢٩ ريالا. وبعد موته بيعت صورة واحدة مما رسم بمبلغ ٨٥٠٠٠ ريال، وتقدر جملة ما ارتفع إليه ثمن صوره بحوالى عشرة ملايين ريال.

وكانت صور فنسنت «عمل حياته» بالمعنى الحرفى، ولقد قال أحد النقاد إن «فان جوخ قضى على نفسه ليرسمها». وكان الناس يذكرون فان جوخ فيقولون عنه: «المصور الهولندى المجنون» ولكن والتر باتش يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول: «إن حياته كانت انتصاراً، وكانت ظروفها من أقسى وأمرّ ما عانى إنسان، ولكنه ما من مصور إلا وهو يعد ذلك ثمناً هيناً، إذا هو أعان على إكساب الألوان مثل هذه الحيوية، وإضاءة الوجوه بمثل هذه التعبيرات، وإفادة الضوء مثل هذا السطوع على القماش». وقد كانت نيران «البوتقة المضطرمة» فى ذهنه، هى التى خلقت هذه الصور الوهاجة، وما كان لهذه النار أن تهمد إلا بعد أن تأتى على العقل نفسه.

ولا مفر فى التلخيص من الاقتصار على نواحى من الحياة التى جعل منها المستر ستون فى كتابه «شهوة الحياة» قصة مؤثرة غنية بالتفاصيل.

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

النفس المعذبة

"بعض الناس يواتيهم الحظ كله. انظر إلى صاحبنا هذا: عمه يملك نصف متاحف جوبيل في باريس، وبرلين، وبروكسل، والهاي، وأمستردام، ويقال إن هذا العم الهرم ينوي أن يوصي له بما يملك. وله عم آخر يملك دكاكين كبيرة للصور في بروكسل، وآخر يملك أكبر متجر في هولندا. والحق أن أسرة فان جوخ هي أكبر أسرة تتجر في الصور في أوربا، وسيجيء يوم يسيطر فيه صاحبنا هذا ذو الشعر الأحمر على الفن في القارة كلها».

وكان زملاء فنسنت فان جوخ الموظفون في متحف جوبيل بلندن يقولون عنه — وهو في الثانية والعشرين من عمره، ومرتبه خمسة جنيهات في الشهر — إنه شاب له مستقبل حسن جدا، وإن كان على شيء من الشذوذ. ولكن فنسنت نفسه فقد فجأة كل لذة يمكن أن تستفاد من بيع الصور. فقد أحب للمرة الأولى في حياته، وقوبل حبه بالامتهان.

وفي الليلة التي قال فيها لأورسولا، وهو يتلعثم، إنه يريد أن يتزوجها، نظرت إليه وعيناها مفتوحتان وقالت: «زوجتك! ولكن هذا مستحيل! فإني مخطوبة، وخطيبي في ويلز» وأرسلت يدها من يده، ودارت على عقبها وقالت بصوت خفيض كالهمس كان له في نفسه وقع الصيحة: «ياله من أحمق أحمر الشعر!»

وأدارت هذه اللطمة رأس فنسنت، ولكن الألم — وهذا من دواعي العجب — أرهف إحساسه بالألم في نفوس الغير، وجعله أيضاً لا يطيق النجاح الرخيص الصاخب. وكان يقول: «كيف يستطيع رجل أن يقضي حياته كلها يبيع السخفاء من الناس صوراً رديئة؟» وقل ما يبيع من الصور حتى لم يعد ذا قيمة أو نفع للمتحف. وبعد شهر أعلن في هدوء أنه نفض كفيه من تجارة الصور.

وصار قسيساً في مدرسة لطائفة النظاميين (ميثوديست)، وكان تلاميذها من أحياء لندن الفقيرة. وفي بيوتهم عرف فنسنت لأول مرة معنى الفاقة الحقيقية، فقد كانت الأسر تحشد كالقطيع من الماشية في غرف باردة عارية وهي تنتفض من البرد، والسقم يطل من عيونهم ويرتسم على وجوههم. وتذكر، وهو يصغي إلى قصص بؤسهم وشقوتهم قول رينان: «إن الإنسان لم يخلق على هذه الأرض ليسعد فقط، ولا ليكون شريفاً فحسب، بل لينهض للإنسانية بمساع عظيمة، وليرتقي إلى مرتبة النبل». وخطر لفنسنت أن من الخير والنعمة أن يكون

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

المرء « إنجيليا » فى مثل هذا الحى .

وفى أحد أيام الآحاد ، وكل إليه أن يلقى عظة فى كنيسة مهمة على جمهور كبير مرضاته عسيرة ، فكان لغيرته ، وقوته ، وعينيه النافذتين وقع عظيم . ولما التف حوله السامعون ليصافحوه كان يحدث نفسه أن لو كان يسعه أن يحمل نجاحه هذا إلى أورسولا ويضعه عند قدميها ، ويشركها معه فيه !

وذهب يمشى تحت المطر الدافق ، فألفى بيتها مضاءً كله ، والمركبات على بابه ، ورأى أورسولا ومعها شاب نحيف مديد القامة ، واقفين عند الباب ، والناس يخرجون وهم يضحكون ويلقون عليهم الأرز . . . فعاد فنسنت أدراجه بخطى ثقيلة فى المطر المنهمر ، وحزم أمتعته ، وغادر لندن إلى غير رجعة .

وما لبث أن أدرك أن التربية الدينية لا تلائمه . وكان السؤال الذى يضنيه فى الليل والنهار هو : هل ينبغى أن يكون قسيساً محترماً بارعاً ؟ وما القول فيما ينشد من القدرة على إسداء الخير والمعونة للفقراء والمرضى والمرهقين ؟ وقال لنفسه وهو يحاورها : « إنى أريد أن أقوم بالعمل الذى يفرضه علينا الله — الآن ، لا بعد خمسة أعوام من الآن » .

وقال له صديقه : « اسمع يافنسنت ! لماذا لا تذهب إلى البوريناج ؟ إنها منطقة فحم فى بلجيكا ، والمعدنون هناك يعملون وهم أبداً فى خطر من الغاز والانفجار أو الفيضان ، وأجورهم لا تكاد تكفى لما يحفظ الرمق ، ومساكنهم أكواخ خرعة ، وأسرهم تقضى معظم السنة وهى تنتفض من البرد والحمى . فهؤلاء الناس بهم حاجة إلى رجال مثلك يافنسنت ، وما أشك فى أن اللجنة الإنجيلية تقبل أن تندبك » .

وقد ذهب فنسنت ، ولم يبق كوخ فى القرية إلا حمل إليه الطعام وزاره مواسيا ، ومرّض السقيم وصلى مع البائس . وكانت حول أكواخ المعدنين بضعة أشجار هامدة وحفر غاصة بالرماد ، وفوق هذه وتلك جميعاً تنشر المداخن الطويلة سحباً من الدخان الأسود أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم . وكان المعدنون دقاق الأبدان محنيي الظهور معروقين ، وكانوا يسمون « ذوى الأشداق السوداء » لأن الصابون كان ترفاً لا سبيل إليه ، وكانوا يعيشون ما يعيشون ثم يموتون ولا يفارق رماد الفحم وجوههم . وكانت القرية تبدو فى النهار مهجورة . وتحتها بعد نصف ميل يوجد « تيه » المدنية التى يقضى فيها السكان ساعات اليقظة ، من الطفولة إلى الممات . وما من معدّن يسعه أن يدخر عشرة فرنكات ، وكثيراً ما كان فنسنت يبذل لهم ما معه من فرنكات قليلة ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان لا يخفى عليه أن هذا عبث، فقد كان هناك مئات يتضورون جوعاً ويهرؤهم البرد في بوريناج .

وعاد فنسنت إلى غرفته ذات يوم وهو يكاد يجن من الأسى والآلام المحيطة به ، وأجال عينه في سريره المريح وغطائه النظيف ومخداته الوثيرة ، ونظر في صوانه الحافل . وخطر له أن عنده من الطعام لوجبة واحدة أكثر مما عند هؤلاء المعدنين في أسبوع . وشعر فجأة أنه كذاب منافق ، وجبان يعظ الناس ويزين لهم فضائل الفقر ، وهو يعيش في رغد وسعة . وجمع ما تجاوز مقدار حاجته من الثياب ليخلعها على من هو أحوج إليها ، وانتقل إلى كوخ لا نافذة له ، ولا بلاط له غير الأرض ، والريح مع الثلج تغشاه وتعصف به ، وراح يعيش كما يعيش المعدنون ، ويأكل من طعامهم ، وينام على سرير كأسرتهم . بل لقد مسح وجهه بتراب الفحم ليبدو مثلهم، فصار أخيراً واحداً منهم ، واكتسب الحق في أن يبلغهم كلمة الله !

وكان شهر فبراير من ذلك العام قاسياً ، وشغل فنسنت بجمع الفحم وإعداد الأشربة الساخنة والعقاقير، واستغرقه ذلك فلم يتسع قط وقته لفتح الإنجيل ، فقد صارت «الكلمة» ترفاً لا تسمح به حال المعدنين . وما كاد البرد يقل وتخف وطأته ، حتى حلت الحمى محله ، وكان فنسنت ينفق معظم مرتبه على الآخرين ، وأضناه الإمساك إلا عن طعام العمال ، وكان يروح ويغدو وهو محموم ، وعيناه كأنهما ثقبان ناريان في محجريهما ، وأعصابه تكاد تتمزق ، وقد تهضم وجهه وذهب لحمه ، ولكنه ظل متشدداً صحيح العزم كما كان .

ثم جاء يوم رأى فيه فنسنت أشخاصاً سوداً يعدون فارين من البناء، وهم يلغطون: « وقع حادث ! وصار قوم في مثل الفخ ! » وأقبل الأطفال والنساء في ذعر ، ومنهن من تبكي وتولول، ومنهن التي تحدق مفتوحة العينين ولا ترى . وظهرت جماعة يحملون ثلاثة أطفال لفت عليهم أغطية، وقد احترقت أجسامهم ، وكانوا بنتين في نحو التاسعة وغلاماً في العاشرة ، وكلهم غائب عن رشده ، وقد أكلت النار الجلد والشعر فيما كان غير مستور من أبدانهم ، وعلت أصوات الباكيات الحزينات الموجعات . ودخل فنسنت كوخاً ونزع الثياب عن الطفل الأول وصاح : « الزيت ! الزيت ! بسرعة ! والضمادات ! » فجاءت الأم بقليل من الزيت ثم وقفت شاخصة وتمتمت : « ليس عندنا ما يصلح أن يكون ضماداً » ، فخلع فنسنت سترته، ومزق قميصه وشعاره، وعصب البنت

من فرعها إلى قدمها ، ثم صنع مثل ذلك بالبنت الثانية ، فلما جيء بالغلام احتاج أن يمزق سراويله ليتخذ منه ضمادات .

وصارت فرق المتطوعين تعمل ١٢ ساعة بلا توقف . ولما كان الفحم لا يخرجه أحد من جوف الأرض ، فإن العمال لم يأخذوا أجوراً . ومع أن القرية كلها لم يكن مع أحد فيها سنتيم واحد ، فقد أضرب المعدنون . وأنفق فنسنت خمسين فرنكا كانت كل ما بقى معه ، على الطعام ، ثم لم يبق شيء ، وقعد المعدنون ينظرون إلى ذويهم وهم يتضورون.

وفى ذلك الوقت أعلنت «اللجنة الإنجيلية» أن سلوك فنسنت «شائن وأخرق» ، وقطعت عنه مرتبه ونهته عن الوعظ . وأعلنت شركة التعدين أن المنجم سيغلق ما لم يعد العمال إلى العمل من فورهم . فأقبل لفيف منهم على فنسنت يسألونه : « ماذا نصنع ؟ إنك الرجل الوحيد الذى نثق به ، فإذا أشرت علينا بالعودة ، عدنا ، وإذا قلت جوعوا صبرنا وتشددنا » فحاول فنسنت أن يقنع مدير الشركة بإيثار الحسنى ، ولكنه أخفق واضطر أن يقول للعمال ارجعوا . وشعر عندئذ أنه لا يستطيع أن يلقى عليهم عظة ما ، حتى لو كان مأذوناً له فى ذلك . وقد تخلى القدر عن العمال ، وما استطاع هو أن يكون أداة اللطف فيه .

* * *

وأفلس مرة ثانية ، لا عمل ولا مال ولا صحة ، وشر من ذلك أنه فقد شجاعته وقدرته على الابتداء من جديد ، وصار لا يكلم أحداً إلا فى الندرة ، ولا يدخل كوخاً ، وأحس أن الله خذله ، وأنه هو فقد نفسه .

وبعد شهور ، استيقظ شيء فى نفس فنسنت ، وحدث نفسه أنه لابد أن يكون ذا مزية ما ، وأنه ليس بالعاجز كل العجز ، وأن فى وسعه أن يساهم فى إسداء بعض الخير إلى العالم . ولكن أى شيء ؟ وشرع وهو جالس عند باب المنجم يرسم المعدنين إذ يخرجون ، وفى ذلك المساء ، وبينما كان يعيد رسم صوره ، أدرك بغتة أنه يحن إلى عالم الصور .

وعكف على العمل بعد ذلك ، وعاد إلى الأكواخ يدخلها — ومعه ورق وقلم بدلا من الإنجيل ، ورسم الأطفال وهم يلعبون على الأرض ، والزوجة وهى مائلة على القدر ، أو الأسرة وهى جالسة إلى عشائها ، وكان سعيداً . وأحس أن خدمة الكنيسة لم تجلب له مثل هذه النشوة التى يحدثها له الفن الإنشائى . ومر به أحد عشر يوماً وليس معه سنتيم ، وكان يعيش فى خلالها على بضعة أرغفة اقترضها ، ولكنه لم يشك ، ولم يتذمر حتى فيما بينه وبين نفسه . وما قيمة جوع بطنه ، وروحه شبعان ريان ؟

ومرت شهور أخرى ، ثم مرض ، فرقد

على سريره مكتئباً ظامئ الوجنتين ، غائر العينين من الحمى . وعلى هذه الحال وجده أخوه ، تيو ، وكان قد جاء دون أن يسبقه خبر . وكان في الثالثة والعشرين، ولكنه كان تاجر صور ناجحاً في باريس ، ينعم بمسرات المجتمع كلها . وكان فنسنت قذراً ، ولحيته الحمراء الشعر تغطي وجهه ، فاستفظع تيو هذا الحال الذي ألفى أخاه عليها ، وكان فنسنت عنده أهم إنسان في العالم . والآن صارت بفنسنت حاجة إليه ، ولا بد من استنقاذه من هذا الجحر وإقامته على قدميه فقال له : « اسمع يافنسنت ! إذا كنت قد اهتديت حقا إلى العمل الذي تحسنه فلنؤلف فيما بيننا شركة . . أنت تقدم العمل، وأنا أقدم المال . وفي وسعك أن تعيش حيث تشاء ، في باريس ، أو أمستردام ، أو الهاي ، فما أبالي ولو استغرق ذلك سنين وسنين » .

* * *

وهكذا استقر فنسنت في الهاي ، وتتلمذ على أنطون موف وهو مصور معروف ، واستأجر استوديو بأربعة عشر فرنكا في الشهر،وجاء إليه بمائدة وكرسيين وبطانية، وجعل ينام على الأرض . ولكن النماذج التي يحتاج إليها ليصورها كانت غالية . وكانت ربما تأخرت الفرنكات المائة التي يبعث بها إليه أخوه تيو كل شهر ، فيفلس ، وتقل حيلته . أفتراه سيظل يجوع طول عمره ؟ ألم يكتب له أن يستريح ويطمئن لحظة واحدة في أي مكان ؟ وكان يشعر بألم الوحدة فوق ألم الجوع ، فما كان ثم أحد يتجه إليه ويرافقه ويحادثه . واتفق ذات ليلة ، وكان معه بضعة فرنكات ، أن جلس في مقهى عمال ، وإذا بالخادم يخاطب سيدة جالسة إلى المائدة المجاورة ، بلهجة جافية ويقول لها : « أتريدين كأساً أخرى من النبيذ ؟ »

فقالت : « ليس معي مليم » .

فأدار فنسنت إليها وجهه وقال : «هل لك في قدح معي ؟ »

وكانت لا صغيرة ولا جميلة ، بل ذاوية حزينة العينين — كأنما تخطتها الحياة — فقالت،وهي تحادثه على الشراب: «ماعملك؟»

— « أنا مصور » .

— « أوه . إن هذه جحيم أيضاً . أليست كذلك ؟ إني غسالة إلا حين يقعد بي الضعف » .

— « وحينئذ ماذا ؟ »

— « حينئذ أخرج إلى الشوارع ، فلا بد من الطعام للأطفال » .

— « كم هم ؟ »

— « خمسة . وأنا أحمل سادسهم معي الآن ! » وأخرجت عقب سيجارة وأشعلته. وصمتا ، ثم تكلما ، ثم عادا إلى الصمت .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وأخيراً سألها فنسنت : « أتسمحين لى أن أذهب معك ؟ إنى وحيد جداً » .

ولما استيقظ فنسنت فى صباح اليوم التالى وإلى جانبه إنسان آخر ، بدا له العالم أقل جهامة، وشعر أنه مدين بالشكر لكرستين .

وبعد قليل صارت تذهب إليه كل يوم ليرسمها ، ثم صارت على الأيام تطبخ له طعامه ، وتغسل له ثيابه ، وترفو ما يتمزق ويبلى منها . وكان ينقدها على ذلك كله فرنكا فى اليوم ، ولكنها لم تكن ربة بيت صالحة ، فقد كانت كثيراً ما تثور ثائرتها وتجرى على لسانها بأبذأ الألفاظ . وكثيراً ما كان يفلس ويذهب طعامه قبل أن يجيئه مال من تيو بأسبوع .

وتلقى فنسنت أول طلب لصوره من عمه كورنيليوس فان جوخ ، وهو تاجر صور غنى ، طلب منه ١٢ صورة ، كل واحدة بفرنكين ونصف ! فإذا أعجبته كلفه أن يرسم له ١٢ صورة أخرى ، كلها مناظر من امستردام ! فانتشى فنسنت بخمر النجاح !

وبعث بالصور الاثنتى عشرة ، ولكنه احتاج أن ينتظر حتى يتلقى الثلاثين فرنكا . وفى أثناء ذلك انهال عليه السخط من كل جانب: « إنك تنسى أنك من آل فان جوخ! وقد شوهدت فى أماكن غير لائقة ومعك امرأة فاجرة » ... « شىء جميل يا فان جوخ ! لقد ذاع وشاع فى البلدة أنك اتخذت خليلة — وأى خليلة ! » وتلقى من عمه كتاباً قال له فيه : « يا فنسنت ! لقد بلغنى الآن أنك تسير سيرة شائنة ، فألغ من فضلك كل ما طلبته من صورك . ك . ف . ج . »

ولم يبق له الآن معول إلا على تيو ، وقد كتب فنسنت رسائل طويلة يشرح فيها الأمر ، ويؤكد أنه ينوى أن يتزوج كرستين ويرجو من تيو أن لا يتخلى عنه . فوعده تيو فى النهاية أن يواصل معونته له ، ووافق فنسنت على إرجاء الزواج إلى أن يصبح قادراً على كسب رزقه .

وعاد فنسنت إلى العمل وفى قلبه سلام جديد . وفى البوريناج كان يخدم الله ، أما هنا فقد صار له دين جديد : صورة عامل ، أو رقعة من رملة أو من البحر أو السماء . وهى موضوعات صعبة ولكنها جميلة ، وتستحق أن يقف حياته على معالجة التعبير عما تنطوى عليه من شعر . ومضى الصيف حميداً ، وكان يغادر البيت فى بكرة الصبح فلا يعود إلا مع دخول الظلام . ولكن الشتاء جاء ، واضطره إلى العمل فى البيت فتعذر الأمر . وكان يستيقظ فى الساعة الخامسة صباحاً ليعنى بأمر البيت ، وليتفرغ بعد ذلك لتصوير كرستين ، ولكن كرستين كان لها رأى آخر ، فكانت

تغضب وتقول له : « لم أعد نموذجاً ! وهذا كل ما تريدنى من أجله ! لتقتصد ! فلست إلا خادمة لك ! » وأخيراً اضطر أن يزيد نفقاته ليستأجر النماذج ، وبذلك زاد عدد الأيام التى يقضيها بغير طعام .

وبدأ الشتاء يمضى والربيع يقبل ، فزادت أحوال فنسنت سوءاً ، وأخيراً كتب إلى تيو ينبئه أنه اعتزم أن يقطع صلته بكرستين ، فجاءه الرد فى صورة مائة فرنك إضافية مقرونة بالموافقة . ورافقته كرستين إلى المحطة لتوديعه ، ثم كتب إلى تيو فيما بعد :

« عزيزى تيو : ذهبت إلى آرل . علق بعض الصور على الجدار حتى لا تنسانى . أصافحك تخيلا . فنسنت » .

* * *

ورأى ألوان الريف الجنوبى فوضع يده على عينيه الحائرتين الزائغتين ، وراح يتساءل : أنى له أن يرسم هذه الألوان المدهشة ؟ زرقة السماء العميقة ، والشمس التى تبدو فى صفرة الليمون ، وحمرة الأرض القانية ، وزهر البساتين ؟ وكان يستيقظ كل صباح قبل الفجر ، ويعود كل مساء بصورة تم رسمها . وراحت السنون التى قضاها فى الكد تمده بفيض من النشاط الموفق . وصار كل لوح يرسمه ترجمة بارعة وهاجة للطبيعة . ولم يكن يحيا حياة شخصية ، وإنما كان أداة رسم عمياء ، تعمل لأنها لا تستطيع إلا أن تعمل . وكانت حياته شيئاً واحداً ليس إلا : القدرة على الخلق والإبداع .

ولم يلبس قبعة قط ، ولو أن الشمس الحامية كادت تعميه . وكان يشعر بالليل كأن رأسه قد وضع فى كرة من النار ، وكان أهل آرل يرونه ينطلق إلى هنا وهاهنا ورأسه عار ، وشعره أحمر كاللحم النيئ ، وعينيه تومض كالمحموم ، فسموه « فورو » وكان هو يقول : « المجنون ذو الشعر الأحمر ؟ ربما ! ولكن ماذا أستطيع أن أصنع ؟ »

وجفاه النوم ليلة فقصد إلى « الميزون ده توليرانس » فتسللت فتاة إلى كرسى بجانبه وتبسمت له وقالت : « أنا راشيل » .

فنظر إليها فنسنت فرأى وجهاً ريّاناً ، وعينين واسعتين زرقاوين ، وشعراً أسود فقال : « أنت جميلة ياراشيل » .

فابتسمت وتناولت يده وقالت : « يطيب لى أن يستلطفنى الرجال ، فإن هذا أحلى ؛ أليس كذلك ؟ »

ولما هم بالانصراف لثمت أذنه وقالت : « يالها من أذن صغيرة ! كأنها أذن جرو ! تعال كل ليلة لترانى » .

فقال : « ليس كل ليلة يا راشيل ، وحسبك أنْ ليس معى المال اللازم لهذا » .

قالت : « إذن هات أذنك ، فإنى أحب

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أن تكون معى لألعب بها ، فلا تنس أن تبعث بها إلىّ » .

وظل طول ذلك الصيف يرسم كأنه قاطرة بخارية حتى كاد يقتله العمل . وذهب ما معه من المال مرة أخرى وعاش أربعة أيام على ثلاثة وعشرين فنجاناً من القهوة ورغيف من الخبز . ثم قاده الحظ إلى بيت أصفر — بيته الأصفر المشهور — فاستولى على هواه ، وكان بيتاً قائماً بذاته ، وأرضه من البلاط الأحمر ، وجدرانه بيض ، وواجهته إلى الشمس ، وكل ذلك بخمسة عشر فرنكا فى الشهر ! وكان واسعاً يكفى اثنين ، فما أبدع أن يستقدم إليه صديقه الفنان جوجوين ! وينبغى أن يجىء تيو إليه دائماً ليقضى فيه إجازاته !

وأقبل جوجوين ، وكان لقاء صاخباً حاراً ، ولكنهما ما كادا يستقران فى البيت حتى بدآ يختلفان ، وإن كانا قد عكفا على العمل كأنهما شيطانان . وكانا بالنهار يتراميان بألواح الألوان ، وبالليل تتنازع وتتصارع شخصيتاهما الهوجاوان ، فلجآ إلى شراب « الأبسنت » لتسكين أعصابهما ، ولكنه هاجهما إلى ما بهما . واعتراهما مثل الكظة من الشمس والألوان فتلاحيا ، ومزق بعضهما بعضاً . وفى إحدى الليالى كانا فى مقهى ، فتناول فنسنت قدحه وقذف بها جوجوين ، فاتقاها هذا ثم حمل فنسنت إلى البيت .

فبقى هادئاً عدة أيام ، وبعد عشاء تناولاه ذات ليلة فى صمت واكتئاب ، غادر جوجوين البيت بلا كلام ، فسمع وهو خارج خطى قصيرة سريعة غير منتظمة يعرفها ، وهجم عليه فنسنت وفى يده موسى ، فدار جوجوين على عقبيه ، فوقف فنسنت يحدق ، ثم انكفأ يعدو إلى البيت . فبات جوجوين ليلته فى فندق .

وبعد ذلك بقليل ارتقى فنسنت فى التل إلى « الميزون ده توليرانس » ورأسه معصوبة بضمادات كثيرة ودعا إليه راشيل ، فأقبلت من فورها وقالت : « إنه أنت يافورو ! أصاعد أنت معى ؟ »

قال : « لا ، ولكن إليك هذا التذكار ! »

— « ما ألطفك ! ما هو ؟ »

— « افتحى وانظرى ! »

فحلت الرباط ونظرت مرتاعة إلى أذن يمنى يقطر منها الدم ! وسقطت مغشيا عليها على السلم .

ولما استيقظ فنسنت فى اليوم التالى كان تيو إلى جانب سريره ، فتناول كف فنسنت وراح يبكى بلا خجل : « تيو .. دائماً ... حين استيقظ وأحتاج إليك تكون الى جانبي » .

ولم يستطع تيو أن ينبس بحرف .

وبعد أسبوعين أذن الدكتور راى لفنسنت فى التصوير ، ولكنه حذره من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

التهاون أو الإغراق . ومضت أسابيع ، ثم حدث فجأة ذات ليلة أن كان فى مقهى ، فدفع الطبق إلى الأرض ، ووثب ، وركل المائدة وصاح : «أنتم تحاولون أن تسمونى» .

وجاء اثنان من الشرط وحملاه إلى المستشفى . وما لبث الدكتور راى ، بموافقة تيو ، ان نقله إلى سنت ريمى ، فأوصدت عليه بوابة مستشفى الأمراض العقلية .

ولاحظ فنسنت فيما بعد، وهو يتدبر أمره، أن النوبات التى تعتريه دورية ، وأنها تنتابه كل ثلاثة شهور . ثم جاءته رسالة مسجلة من تيو: « أخيراً ! بيعت صورتك « الكرم الأحمر » بأربعمائة فرنك ! فأهنئك ! وأنا واثق أننا سنبيع صورك قريبا فى كل مكان بأوربا » ، وكان هذا الصك « الشيك » أكبر مبلغ كان معه فى أى وقت . فأفاده حسن حظه الصحة ، وأقبل على عمله بحماسة خرساء . غير أنه صار يتحرز بعد أن عرف مواقيت النوبات ، فكان يرقد بضعة أيام ثم ينهض مرة أخرى ويعكف على العمل .

وقبل أن تعتريه إحدى النوبات بيومين أوى إلى فراشه فى صحة جيدة ، وجاء اليوم المنتظر ، وتلاه آخر ، وكان لا يزال يشعر أن حالته عادية . ومر يوم ثالث فضحك وقال : «ألا لقد غلط الطبيب ! فقد ذهب عنى المرض وبرئت . وغداً أعود إلى العمل» .

وفى تلك الليلة ، وبينما كان كل المستشفى نائماً ، نهض من فراشه وهبط حافى القدمين إلى مخزن الفحم ولوث يديه ووجهه بترابه وجعل يقول : « ألا ترى الآن أنى منهم ؟ الآن أستطيع أن أبلغ كلمة الله إلى المعذبين» .

ووجده الحراس هنا فى الفجر ، يهمس بصلوات مضطربة مختلطة ، ويجيب الأصوات التى تصب فى أذنه أخباراً عجيبة . وكان الطبيب صديقاً عطوفاً ومحبا للتصوير . فقال له يوما : « أما يافنسنت لو أننى رسمت صورة واحدة كهذه ! إنى أشفى المرضى وأبرئهم وأذهب عنهم الألم ، ولكنهم يموتون فى النهاية . أما بنات الشمس هذه من أزاهيرك ، فإنها تستل الآلام من قلوب الناس ، وتسعدهم قروناً بعد قرون . وهذا هو السبب فى أن حياتك ناجحة ، وينبغى أن تكون سعيداً » .

ولكن فنسنت كان طليحاً كليلا ، وكان عقله فى عذاب دائم ، وكان لا يزال يسأل نفسه : فلنفرض أن تيو فقد عمله ! ولنفرض أن النوبة التالية تركته مجنوناً يهرف ، ولنفرض . . . ! وحمل عصر يوم أدوات الرسم وصعد التل إلى حقل القمح الأصفر ، ورفع وجهة إلى الشمس ، ووضع فوهة مسدس على خاصرته وشد الزناد ! وارتمى على الأرض الخصبة ، وعادت طينته اللينة إلى أمها الأرض .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أيها الرّواد!

هيلارى سنت چورج سوندرز

ملخصة عن كتاب وشيك الظهور

اختير هيلارى سنت چورج سوندرز لكتابة ستة من كتب الحرب الرسمية لوزارة الأخبار البريطانية. وقد أصابت كتبه «معركة بريطانيا» و «قيادة القاذفات» و «العمليات المشتركة» رواجاً منقطع النظير فى إنجلترا.

وعلى أثر ذلك قام المؤلف بأول زيارة للولايات المتحدة، فاطلع على ما فى أمريكا بإعجاب وحماسة، وقد استطاع أن يحتفظ لنا بسحر ما رأى لأول مرة.

فهذه أمريكا فى زمن الحرب كما يراها زائر إنجليزى، بما فيها من عواطف ودية، ومواطن ضعف إنسانى، وجرأة إنشائية، وقوة لا حد لها. وقد اقتبس عنوان كتابه من أبيات للشاعر والت ويتمان

كل الأيام الباهرة، وجميع الليالى الغامضة،
العامرة بالأحلام
أيها الرواد

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

أيها الرواد!

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة ليلا حين هبطت على المعبر المظلم للسفينة ، وألفيت نفسى فى سقيفة كبيرة ليس فيها ضوء كاف . فأين أنوار نيويورك التى كنا نسمع بها ؟

وقلت للحمال الذى أخذ حقيبتى : « لقد كنت أحسب أن نيويورك ستكون أبهى وأضوأ » .

فقال بابهجة المزهو : « إنه إظلام » وأضاف إلى ذلك : « تدريب ليس إلا » وخيل إلىّ أن فى صوته ما يشى بالتفكير .

وليس للإظلام قيمة عندى بعد أربع سنوات من الحياة فى لندن ، ولكن صدرى انشرح لما أضيئت الأنوار ، وأقبل التاكسى .

وسألنى السائق : « إلىّ أين ؟ » وقبل أن أجيبه قال : « أنت انجليزى ؟ » .

فهززت رأسى أن نعم ، ولم أزد ، فقد كنت أنظر إلى الأنوار ، ووقعت عينى على بناء عظيم غير واضح المعالم يبلغ عشرة أضعاف أكبر ما رأيت فى أوربا .

وقال السائق : « أحسب أنك لا تريد أن تنفق أكثر مما يجب ، وسأمضى بك إلى فندق لا يتقاضونك فيه أكثر من خمسة ريالات . وأظنك تستطيع أن تدفع هذا القدر » .

قال هذا وهو يلقى نظرة على البذلة الحسنة الوحيدة التى عندى ، والتى ارتديتها إكراماً لأمريكا .

فوافقت ، ومضينا فى طريقنا ونحن نتحدث ، وكان يتخلل الحديث من جانبه وصف لحياته المنزلية ، وهى على ما يظهر رضية جدا ، وأسئلة عما أعمل لكسب رزقى ، ولما قلت له إنى كاتب طلب منى أحد مؤلفاتى ، فبعثت به إليه فى اليوم التالى .

وذكر لى أسماء الشوارع التى اجتزناها ، وسرعان ما تبينت أنه فخور بأنه ابن مدينة ليست بالضئيلة الشأن . وقد عرجنا على فندقين قبل أن يقتنع بأنه وجد الفندق الذى يحسن أن أنزل به . وقال « ستكون مرتاحاً هنا » فأنقدته أجره — وأبى أن يأخذ أكثر من حقه — وتصافحنا ثم

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مضى . وكان هـذا أول صديق استفدته في أمريكا .

***

وما كدت أستيقظ في الصباح حتى تناولت التلفون وطلبت أن يبعثوا إلى بجريدة،فوصلوني بالموظف الموكل بالمهمات ، وهو موظف ذو شأن في جميع الفنادق الأمريكية ، صرت أثناء رحلاتي وأسفاري وثيق الصلة بطبقته من الناس . وهو « طير » زاهي الريش ، إلا أن ألوانه تتفاوت وتختلف جداً تبعاً للمناخ والعادات. وقد لقيت من هـذا الفريق من يرتدي ثياباً زرقاً مذهبة ، أو ذات ألوان قرمزية وخضراء، أو رمادية ذات خطوط مفضضة ، أو سوداء وحمراء . وهذا الموظف البراق الشاب تحت إمرته جيش من الفتيان ، غير أن أمريكا الآن قد دخلت في الحرب واحتاجت إلى كل فتى من أبنائها ، فصار هذا الجيش من الأطفال أو الشيوخ .

وظللت راقداً أنتظر الجريدة ، ثم دق الباب دقا شديداً ، ولبث هذا الدق يتوالى بعد فترات حتى ألهمت أن أنهض عن فراشي وأفتح الباب . والعادة في أمريكا أن لا يدخل عمال الفندق غرفتك ، بل عليك أنت أن تفتح لهم الباب . وقد فعلت ، فرأيت عاملا يناهز السبعين واقفاً وعلى يده الممدودة ما خيل إلى أنه « دليل تليفون » ضخم ، وما كان الذي معه إلا نسخة من جريدة « نيويورك هرالد تربيون » وفيها من الورق ما يكفي إحدى صحفنا اللندنية التي تباع ببني (نصف قرش) شهراً كاملا على الأقل بحجمها الحالي . وقد قرأت فقرات منها على فترات وأنا أرتدي ثيابي ، وسرعان ما تبينت أن من أمتع ما فيها ما يوافيها به الكتاب النقاد المعقبون .

ويؤدي هؤلاء النقاد — أو هكذا خيل إلىّ — مع الذين يذيعون التعليقات بالراديو، إحدى الوظائف التي يؤديها أعضاء البرلمان في إنجلترا . وهـذه الوظيفة هي توجيـه الأسئلة إلى الحكومة عن المسائل المهمة ، فليس في الكونجرس وقت معين للأسئلة ، لأنه ليس ثم وزراء مسئولون مباشرة أمامه . ومن هنا صار المعقبون والمعلقون يتولون توجيـه الأسئلة إلى الحكومة، إما في الاجتماعات الصحفية الشهيرة التي يعقدها الرئيس ، وإما في الأعمدة التي يكتبونها في الصحف ، أو الكلمات التي يذيعونها بالراديو .

وهـذه المهمة التي يتولونها هي إحدى الأسباب الرئيسية التي تجعل من المستحيل على أيّ رجل عام في أمريكا أن يهمل

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الصحافة أو يستهين بها ، فإن هؤلاء المعقبين والمعلقين — الذين ارتفعوا بالرغبة الطبيعية فى الاطلاع ، إلى مرتبة الفن — يسألون من شاءوا عما شاءوا ، ولا بد من أن تكون ملماً بموضوعك ليتسنى لك أن تجيبهم ، فإنهم محيطون بأمور كثيرة « ليست للنشر » ، ومطلعون كأعضاء الوزارة على البواطن والخفايا ، والذين رأيتهم منهم جادّون مستقيمون جداً .

وللمعلقين فى الراديو عادة ثقيلة هى أن يلقوا عليك الأسئلة ارتجالا أمام جهاز الإذاعة ، فإذا أعجب المعلق أسلوبك فى الجواب أشرق وجهه ، ورفع يديه وبسط راحتيه وحركهما بسرعة من تحت إلى فوق ، أما إذا ترددت وكنت فاتراً أو كليلا ، فإن وجهه تغشيه سحابة من خيبة الأمل ويلقى عليك سؤالا آخر .

وثم نقطة أخرى لها محل وشأن . فقبل أن يبدأ هذا الامتحان يقول المذيع بصوته السريع ، للعالم المستمع إن هذا البرنامج إنما أتيح بفضل « كلوكس كاندى » أو « لولو المسهل اللطيف » ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى . وما استطعت قط أن أعتاد هذه البرامج التى تتولاها وتكفلها الشركات ورجال الأعمال .

قضيت عدة أيام فى وشنطون . وهى مدينة غريبة أقيمت لسبب ما ، على أرض غمقة ، وقد سمعت من يصفها بأنها جميلة طويّة ، وهذا الوصف ليس إلا من الحسد ، فإن جمالها مجلوب ، فقد خططت وبنيت ، وقد كان وقعها فى نفسى أنها ذات سنى متجمد إلا أنه عظيم ، والأمريكيون يحبون السعة والرحابة ، فإذا لم يتح لهم ذلك ، كما هو الحال فى نيويورك ، فإنهم يستخدمون الهواء ويتوسعون عموديا ، أما إذا رحبت الأرض كما فى وشنطون ، وفى لوس أنجلس ، فإنهم ينتفعون بالسعة غير مبالين بالامتداد .

وجلست فى الكابيتول ساعة فى شرفة الأجانب أشهد مناقشة دائرة فى مجلس النواب ، فبدا لى أن ما يؤثر الأمريكيون من الحرية والبساطة لا يمكن أن يتجاوز هذا المدى ، فقد رأيت أعضاء الكونجرس الذين كانوا فى المجلس ، قاعدين على كراسى مريحة ، وقد عددت منهم سبعة يدخنون ويقرأون فى الصحف ، فكأنما كانوا فى غرفة التدخين بناديهم يسترون وجوههم بالصحف عن عضو ممل ، ينوب عنه ويمثله فى هذا المجلس العضو الذى كانت له الكلمة .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان الخطيب يتكلم باقتناع عظيم أمام الميكروفون ، وقدامه رجل عاكف على ورق أمامه يدون فيه ما يسمع ، وهناك عدة غلمان يعدون من مكان إلى مكان ومعهم رسائل ، وفى الجانب الآخر من المجلس ، بعيداً منى كانت كلير لوس — وهى من أعضاء الكونجرس — ترفع رأسها الجميل عن بعض الأوراق فى يدها ، ثم تتحدث إلى لفيف من زملائها. وكان الرئيس المستر سام ريبورن على منصته المشرفة على المجلس ، مرتدياً ثيابه العادية وفى يده مطرقة يعبث بها، وكان الجو إذا قورن بجو مجلس العموم، عجيباً فى خلوه من الطقوس والرسميات ، ولعل هذا كان مقصوداً .

وكانت هناك عاصفة وأنا أتخلع فى طريقى إلى شيكاجو ، وهى محطة فى الخط الجوى عبر القارة الأمريكية إلى لوس أنجلس ، وكنت أقصد إليها ، وقد أفاضت الفتاة الموكلة بالمسافرين فى الطائرة — فما أدرى كيف أسميها — من جمالها وفتنتها على الرحلة . ولما وجدت راكباً إنجليزيا قد أضمره الإعياء حتى لا يستطيع أن يأكل شيئاً من الطعام الشهى الذى وزعته على الأمريكيين الأشداء، سقتنى عصير البرتقال والحديث الحلو ، وقد استطعت بما بقى لى من عقل أن أدرك أن هذا بعض ما تؤديه من الواجبات المنوطة بها ، وإن كان قد بلغ من حذقها وبراعتها فى أدائه أنه كان يخيل إلىّ أحياناً أن موقفها حيالى عسى أن يكون بفضل من الله أكثر من المعونة المألوفة والترويح العادى عن الركاب الذين يوشك أن يصيبهم دوار الجو. ثم وقعت عينى على خاتم الخطبة على أصبعها ، فحييتها فى سرى، وأكبرت تمثيلها البارع المقنع.

وفى مطار شيكاجو أنزل الركاب المدنيون جميعاً ، فذهبوا إلى فندق ، على حساب شركة الطيران على ما يظهر — إلا أنا فقد كانت لى أولية وتقديم ، وقد جاهدت عبثاً أن أنزل عن حقى فى ذلك ، فقد كنت متعباً ، وكنت أتلهف على حمام أنعم بالاغتسال فيه ، وسرير أرقد عليه ، غير أن موظفى الخط الجوى كانوا غاية فى اللطف والرقة ، وغاية فى الصلابة . وصحيح أن الجو كان رديئاً ، ولكنه كانت هناك طائرة ذاهبة إلى مدينة « صولت ليك » وفيها مكان لى .

وكانت الصحراء ونحن نطير فوقها ، تبدو هائلة رائعة فى وحشتها ، وسكينتها ، وجمالها ، ولم يسبق لى قط أن أطير ساعات فوق أرض عراء خواء كهذه لا تعرف

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الإنسان ولا تعبأ به شيئاً . فألقيت على هذه السمكة الفضية البراقة التى تمرق فى الجو بسرعة مئتى ميل فى الساعة ، نظرة احتقار رصين للجنس الإنسانى كله .

وكان للصحراء روعة مستكرهة فى نفسى ، ثم جاءت الأرض المعشاب فخففت من الدوار ، وكنت إلى ذلك الوقت قد قضيت أربع عشرة ساعة فى الجو ، مع فترات وقوف فى المحطات ، فتعبت ، واحتجت إلى كل ما لى من إرادة وقدرة على ضبط النفس ، والمعونة واللطف والابتسام من موظفة أخرى جميلة ، لأخرج من الرحلة بسلام . وقد بلغت لوس أنجلس وأنا أفهق قليلا ، ولكن « كل ما فى معدتى بقى فيها » كما قال رفيق مسافر .

وفى لوس أنجلس وضاحيتها هوليوود لقيت من الحفاوة والإكرام « ما يليق بأمير » كما كانت عمتى نِل تقول . أما المدينة نفسها فلا أنيقة ولا حسنة النظام ، وكل ما فيها يبدو عليه أنه لم يتم ، وهناك عمائر برمتها خالية أو مخصصة لإعلانات عن « الكوكا كولا » أو « بيبسى كولا » وغير ذلك من السلع التى يظهر أنه لا غنى عنها للسعادة فى الحياة . وكانت وجوه الأطفال الصبيحة أو الفتيات الحسان ـ مكبرة خمسين مرة ـ تحدجنى بعيونها ونحن نجتاز الطريق خطفاً ، وفى أفواهها الموز تأكله ، أو فى أيديها علب السمك المحفوظ أو أنابيب لتنظيف الأسنان . وهذه الصور تمثل إيثار أهل المدينة للضخامة والجسامة فى كل شىء . وقد أخبرنى مدير الفندق أن الشارع الرئيسى فى هذه المدينة يبلغ من الطول ٤٨ ميلا ، وقد ألفيتنى ميالا إلى تصديقه بعد أن قطعت منه خمسة عشر ميلا ، وكان كل شىء يبدو لى على هذا النحو من العظم .

ولم يبلغ الجسم الإنسانى — للذكور والإناث — من الكمال والاستواء فى الخلق فى أى مكان مبلغه فى هوليوود ، إلا على الأرجح فى أثينا على أيام براكستليز . والجمال الناصع ، فى الشارة والقد شائع عادى كالمليون فى شهر مايو . والحسن من الكثرة حتى ليخيل إلى المرء أن « كل ثلاثة بقرش » . وجمال الأمريكيات هو إحدى المفاجآت السارة — وقد كدت أقول المسكرة — التى يلقاها الأوربى فى زيارته لأمريكا ، فمهما تكن سنهن أو طبقتهن فإنهن يحتفظن بمسحة من الجمال كأنه فيهن طباع ، وهو على أصفى صوره فى هوليود . ولا عجب فإن له هناك لسوقا ؟

وفى هوليوود عدد من الممثلين الإنجليز والممثلات ، وهؤلاء يقومون بعمل نافع ويحاولون أن يقدموا للسينما صورة صحيحة من الحياة الإنجليزية ، غير أن هذه المساعى كثيراً ما يحبطها من يزعمون أنهم خبراء ، وينحلون أنفسهم هذه الصفة ، وهم نفر عجيبون تختارهم وتعينهم الشركات الكبيرة ، وكثير من هؤلاء الخبراء ذوو معرفة واسعة بالحياة الإنجليزية والمناظر الإنجليزية — إلى سنة ١٩٣٧ أو حوالى ذلك ، ولكنهم لم يزوروا إنجلترا بعد هذا التاريخ . ولهذا لا يزالون ماضين على سننهم يعرضون سيارات الرولزرويس والقصور القديمة بمن فيها من الخدم والحشم !

ولو كان هؤلاء الخبراء قد رأوا إنجلترا عن كثب فى الأعوام الأربعة الأخيرة ، لارتدت السيدة مينيفر مثلا ثياباً أخرى ، ولسارت فى حياتها على نسق مختلف ، ولما ظهر الفدائيون وهم يقومون بعملهم ليلا دون أن يدهنوا وجوههم بالسواد .

وسأظل أذكر كثيرين من الذين لقيتهم فى هوليوود ، وأولهم « ولت دزنى » الذى لا يسعنى إلا أن أطلق عليه ذلك الوصف العتيق المبتذل — أعنى العبقرية — وهو يفيض على صناعة السينما فتنة وسحراً ، ويخلق فنا قوامه الحركة واللون والصوت ، ليس لاحتمالاته آخر يعرف . ولست أرى ما يدعو إلى الشك فى أن ولت دزنى قد يستطيع فى عالم الصور المتحركة أن يبلغ ما بلغه شكسبير على المسرح ، فإن كلا الرجلين يستطيع ، حين يشاء ، أن ينقل الإنسان وروحه إلى عوالم مجهولة وأرض سحرية .

ويختلف عنه — وإن كانوا لا يقلون عنه اقتداراً — أولئك الذين يمثلون عالم السينما العادى ، وهم رجال عمل وأهل حصافة وحذق ، مطلبهم الثروة والشهرة ، وإن كنت لا أدرى لماذا يعد هذا الطموح من عيوبهم أو ذنوبهم ؟ فليس النجاح مما يعاب فى عالم المسرح . فلماذا إذن يحتقر السادة لويس ماير ، وسام جولدوين ، وبن جويتز ، وسيسيل دى ميل ، لأنهم أثروا فى السينما ؟ وإنهم لصريحون فى هذا الموضوع ، ولهم الحق ، قال لى بن جويتز : « إن آخر ما أفكر فيه هو المال » ولمعت عينه وهو يضيف إلى ذلك : « قبل أن أنام ! »

حتى فى أيام الحرب يرى الأمريكى أن الريال رمز للتقدم الشخصى ، لا وسيلة إلى غاية ، وهو لهذا سخى فى آرائه وفى سيرته ، ويعد ما يملك مظهراً محسوساً لرغده يراه ويشاركه فيه الجميع . وهو يحب منك أن تبدى إعجابك ببيته وأثاثه وفخامة ناديه ، وقد اشتهر دائماً بكرمه ، وعلى الرغم من ثقل

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ضرائب الحرب ، وارتفاع تكاليف المعيشة ، والخوف الحقيقى من هبوط قيمة العملة ، فإن مظاهر كرمه مما لم أر له مثيلا فى أوربا . ولما كان يعيش على هذا النحو فإنه يتوقع من غيره حين يكونون فى بلاده أن يحذوا حذوه — وهذه هى الصعوبة .

وقد تحدث معى بن جويتز فى موضوع الأفلام حديثاً صريحاً منعشاً ، فقال إن من الممكن تربية الجمهور وتثقيفه ، ولكن من الخطل والقسوة أيضاً محاولة التعجيل بذلك والإسراع فيه بلا موجب . وقال عن إدخال عنصر الحب فى قصة محبوكة الأطراف ، إن عنصر الحب ضرورى لمن لها صديق ، أو له صديقة ، ولمن ليس له على السواء ، وكلا الفريقين يستمتع بذلك ، أما كلمة « الأفلاطونى » فإن كل ما ينبغى أن يكون لها من معنى ، هو اللهو للفتى وإنعاش النفس للفتاة .

وتجتاز صناعة الأفلام فى هوليوود إحدى أزماتها العديدة الدورية ، فقد حملت عليها الصحافة بعنف لأنها فى رأيها تعيش فى عالم وحدها ، عالم من الخيال والأحلام والأوهام . إذ لماذا — مثلا — لا تخرج أفلاماً حربية جادة ؟ على أنى أوثر أن تظل هوليوود ماضية فى نهجها الحالى وهى فرحة مرحة ، فإن الترفيه عمن يقوم بعمل تقتضيه الحرب ، وعن الجندى المقاتل على الخصوص ، لازم لزوم الطعام والسلاح . وما عليك إلا أن تذهب إلى أية محطة بحرية منعزلة ، أو أى معسكر ، أو أى مركز للقوات الجوية ، حيث يعيش كثيرون من الشبان عيشة تقرب من الرهبانية ، وانظر أى ضرب من الأفلام يؤثر هؤلاء . إن القصص الفكاهية والهزلية هى التى يطلبونها ويحبونها ، وهم يبغون أن يروا وجوه حياة تكون أبعد ما يمكن عن حياتهم ، ولا سبيل إلى هذا الفرار الوقتى الضرورى من بيئتهم وتناسيها قليلا إلى حين إلا بواسطة الأفلام .

غادرت لوس أنجلس عصر يوم مشمس من أيام مايو ، وقصدت إلى المطار مجتازاً طريقاً بديعاً يعد نموذجاً للطراز الأمريكى فى تعبيد الطرق ، والأمريكيون يشبهون الرومانيين فيما يتعلق بالطرق ، فإنهم يستخدمون لتمهيدها أحسن المواد الميسورة ، ويتوخون فى تخطيطها أن يمكنوا الناس من الانتقال من مكان إلى مكان فى أوجز وقت . ولا بد من أن يرى المرء الطرق الأمريكية ليقدر ذلك قدره ، فإنها

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لا تدور وتلف كما هو الحال فى كثير من طرق أوربا . وعلى مقربة من هوليوود مثلا ، يوجد واد ضيق هو أحد الشعاب الرئيسية فى سلسلة الجبال الساحلية ، وقد شق السابقون إلى استيطان هذه الرقعة طريقاً يتلوى ويتعرج فى الوادى ، فلما جاء عهد السيارة رفع بناة الطرق أرض الوادى عدة أقدام ، وعبدوا عليها طريقين للسيارات . ومن الأساليب الأمريكية المألوفة أن يأخذ القوم من القمم العالية ليملأوا الأودية .

وبلغت سان فرنسسكو عند دخول الظلام ، وبينما كانت الطائرة تدور لتهبط نظرت من النافذة فرأيت ما خيل إلىّ أول الأمر أنه سحابة كثيفة من الدخان تحجب جانباً كبيراً من المدينة ، أفترى شبت فيها مرة أخرى نار كالتى دمرتها وأتت عليها بعد الزلزلة فى سنة ١٩٠٦ ؟ ثم تبينت أن هذه السحابة الدخانية ليست إلا ضباباً يجىء من المحيط الهادى فيحجب رقعاً كبيرة من المدينة ، على حين يبقى سائرها مشمساً أو مقمراً . وهذه الظاهرة الطبيعية تكسب سان فرنسسكو منظر المسرح المهيأ . ويخيل إليك وأنت تنظر إلى المدينة من الجو أنها وشيكة الزوال ، أو أنها مزيج من الأحلام والخيال والسحر .

وتساءلت أترى هنا أحد يعمل عملا ؟ وتلقيت الجواب فى اليوم التالى ، فقد ألفيت نفسى قبل الغسق بساعة على منصة خشبية صغيرة ، وأمامى عدد كبير من الرجال والنساء فى ثياب العمل المثنية الملوثة ، ومن ورائهم هيا كل ضخمة لسفن تبنى ، وكانت لا تزال على الاسناد ، ولكن مقامها هذا لن يطول . وكانت الساعة وقتئذ السابعة مساء ولكن هذه على ما يظهر كانت ساعة الغداء وستنتهى بانطلاق صفارة تجارية . وهؤلاء العمال هم النوبة الوسطى فى مصانع كيزر للسفن بأوكلاند بولاية كاليفورنيا .

واستولت الرهبة على نفسى وأنا أتكلم ، وخفت أن لا أستطيع أن أقول لهؤلاء العمال ماهم واقفون هناك ليتعلموه فى ساعتهم القصيرة — كيف تدور الحرب ؟ وما هى الوسائل الكفيلة بإحراز النصر ؟

وسواء أوفقت أم لم أوفق ، فإن الذى أريد بيانه هو أنهم كانوا صامتين وعلى وجوههم أمارات الجد والاهتمام والعزم الصادق . فليت هتلر يراهم ، أو الأميرال دوينتز ... ولم يحدثوا صوتاً ، ولما فرغت تنهدوا ، ثم انطلقت الصفارة تدعوهم إلى العمل كرة أخرى .

الأمريكيون يعالجون بناء السفن فى يسر وبغير ضجة ، وهو عندهم ليس ثمرة تقاليد طويلة تلقاها جيل عن جيل من مهرة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

البنائين وحذاقهم ، وإنما هو وسيلة مهمة إلى النصر . وقد استعانوا فيها بالعقول التى أنتجت السيارات بالجملة ، ولما كان اللحام أسرع من البرشمة فإن اللحام أولى بالاتباع فى البناء ، وإذا كان أى جزء من السفينة — مثل غرف الربان والضباط — أكبر من أن يضم بسهولة إلى هيكل السفينة ، فإن هذا الجزء يقسم بمشعل الإسيتيلين إلى أجزاء أصغر ثم يعاد تركيبه على ظهر السفينة ، ومعظم السفينة يبنى مقلوباً ليكون العمل أسهل وأسرع . ولما كانت التصميمات المرسومة على الورق الأزرق لا يفهمها إلا الأقلون ، فإنهم يتخذون نماذج مجسدة للسفن إذا نظر إليها العامل عرف الجزء الذى هو موكل به وأدرك شكله وشأنه ومكانه من السفينة ووظيفته فيها .

ولا ينقطع العمل أو يتوقف فى دور الصنعة ، والعمال يتخذون مساكنهم على مقربة من هذه الدور ليجرى العمل مجراه بلا عائق ، ومن أجل هذا بنى « كيزر » مدينة بقرب دور الصنعة — مدينة كبيرة بيوتها من خشب وشوارعها واسعة نظيفة يلعب فيها الأطفال وتغرس صغار الأشجار، ولم يصده عن ذلك أو يعقه أن الأرض المجاورة لدور الصنعة كانت غمقة ، وكان يشرف عليها تل مجدب . وأقول « كان » فقد عملت فيه المجارف الآلية ونقل ترابه وردمت به الأرض السبخة ، فارتفع السطح العام للأرض مقدار قامة رجل .

وقد حادثت كثيرين فى سان فرنسسكو — عمال سفن ، وبحارة ، وجنوداً وصحفيين ورجال أعمال وغيرهم ، ووجدتهم على العموم يلهجون بالاعتذار والأسف ، ذلك أن بعدهم عن الحرب فى أوربا وعدم معاناتهم متاعبها الثانوية مثل الإظلام والجراية الدقيقة ، ومراقبة الحرائق وما إلى ذلك — هذا كله أورثهم شعوراً ثقيل الوطأة على النفس ، واعتقاداً مخلصاً بأنهم لا يبذلون جهداً كافياً لكسب النصر ، لا لشىء سوى أنهم لا يقاسون ما يقاسى غيرهم فى أوربا . وقد لفتنى هذا الشعور خاصة بين أهل سان فرنسسكو والأقاليم الغربية على العموم — خجلهم من أن حياتهم رضية منتظمة والراحة فيها متوفرة ، وإدراكهم أن الطريق إلى اليابان يمر بألمانيا . وهذا موقف مشجع جداً للإنجليزى الذى كان يتوقع العكس .

وهــذه اللهفة على مشاطرتنا متاعب الحرب راجعة إلى ذلك العنصر القوى الصافى فى معدن الشخصية الأمريكية التى جعلت من الأمريكيين أعظم الرواد فى العالم ، وهذا العنصر أقوى من كل المؤثرات السيئة التى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

تهاجمه كل يوم . وعلى رأسها وفى مقدمتها صحافة هرست وهى ذات قوة عظيمة فى تلك البلاد المشمسة . ولا يزال هذا الشيخ الهرم الذى يقيم فى واد عال من أودية كاليفورنيا يصل إليه المرء بخط حديدى خاص ، ينفخ فى بوق العزلة بقوة لا يكاد يوهنها ما يحمل من عبء السنين .

وقد تغير نسق النغمات ولكن اللحن بقى كما كان على الجملة فى الحرب الماضية ، وفى أثناء مؤتمر الصلح ، وفى زمن عصبة الأمم التى كانت حياتها قصيرة شقية . والنغمة الرئيسية هى أمريكا أولا وآخراً وفى كل وقت ، والعودات الجديدة التى تتوالى عليه الآن هى أن الخطة فى الحرب الحالية خطأ فى خطأ ، وأن الأمريكيين يضيعون وقتهم سدى فى أوربا ، وأن الواجب عليهم هو أن يحصروا همهم فى القضاء العاجل على اليابان .

ومتى تم ذلك فإن على أمريكا أن تتراجع إلى ما وراء أبوابها ، وتنظر من حصونها التى صارت ممتنعة بسحق العدو الوحيد الذى يعنيها ، إلى بقية العالم الذى لا يزال يخبط فى الحمأة التى أوجدها . أما ماذا يخول المستر هرست الحق فى مناقشة خطة هذه الحرب ، فلا يزال يحتاج إلى بيان ، ولكن صوته من العلو والقوة بحيث يكون من الحماقة تجاهله .

على أن المستر هرست ليس من نزاهة الغاية بالقدر الذى يكفى لإقناع المواطنين الذين يقفون لحظة ليفكروا ، والذين يجدون عوناً كبيراً على هذا التفكير من المعلقين فى الراديو بسان فرنسسكو ولوس أنجلس . وهؤلاء يقومون بمهمة نافعة لأنهم منصفون ومطلعون ، ولا تفتر لهم همة . وللراديو فى حياة الأمريكيين أكثر مما له فى حياتنا من الأثر ، فإن هذه الشباك العظيمة الحادة التنافس ، لا يقتصر عملها على الترفيه والتسلية ، بل يتجاوز ذلك إلى التعليم والتثقيف . وفى هذا الميدان يستطيع المعلق فى الراديو أن ينافس الصحفى بنجاح فى توجيه الرأى العام وصوغه .

وبارحت سان فرنسسكو كما دخلتها ، فى أول الليل . ونظرت ، والطائرة تصعد فى الجو ، إلى آلاف الأنوار اللامعة ، ومن ورائها إلى وهج بعيد خافت كان قبل نصف ساعة ساطعاً يغمر البوابة الذهبية . وبعد أربع عشرة ساعة كنت فى شيكاجو ، وسناها العظيم الصاخب .

وكان التوقيت يقضى بأن تصل الطائرة إلى شيكاجو فى الساعة ٣ والدقيقة ٤٤ بعد الظهر . ففى هذا الوقت تماماً — لا فى

الدقيقة ٤٣ أو ٤٥ — وقفت الطائرة أمام مبانى الإدارة فى المطـار ، وقد قطعت بها الليـل وبعض الصباح التالى ، وهبطنا فى مواضع شتى فى الطريق ، ومن بينها دِنفر حيث كان الفجر مسفراً يغمر نوره أرض المطار العظيم ، فأحسست بالسعة إحساساً زاده وقواه الهواء الصافى المنعش ، وخيل إلى أنى واقف على سطح ناطحة سحاب هائلة ، وأن قمم الجبال الصخرية البعيدة المتوجة بالثلج هى شرفاتها .

ولم يخامرنى مثل هذا الشعور فى شيكاجو حيث كان الهواء المرطوب يحف بالبنى الشاهقة، ويركد حول المساكن القذرة الفظيعة وراءها، ثم هبت الرياح من جانب البحيرة فنظفت الجو ولطفته مرة أخرى ساعة أو نحوها . وجو شيكاجو جهم كالح — فى الصيف على الأقل ، وقد أيد ذلك ما كنت قد ذهبت إليه من رأى ، وهو أن الأمريكيين فى الصيف يعيشون معظم الوقت فى جو استوائى ، وهم لا يدرون ، أو هم يؤثرون أن يتجاهلوه .

والأمريكى يتلقى الحرب بالبشر ، أما الأوربى فيتعذب ، فإذا أردت أن تشعر بشىء من الراحة فإن عليك أن تغير قميصك ثلاث مرات أو أربعاً فى اليوم ، وليس هذا بالهين لى من كان مثلى يطوف فى أمريكا وليس فى حقيبته ما يزن أكثر من أربعين رطلا . وأخلق بهذه الثياب فى حر الصيف وعرقه أن يصبح غسلها مشكلة كالكابوس . فالذين يشتغلون بغسل الثياب كانوا أعظم الجميع إقبالا على الالتحاق بالجيش .

ولقد لقيت فى شيكاجو كثيراً من الرجال والنساء لا يريدون أن يواجهوا ما يحتمل من أن تنزل بالجيش الأمريكى خسائر عظيمة قبل أن يتسنى كسب الحرب . ولعل من الأسباب التى تجعل أهل شيكاجو لا يبدون كأنهم لا يحسون بدواعى العجلة فى هذه الحرب ، أنهم على مسافة كبيرة منها ، ولا بد من مجهود عظيم للخيال ليستطيع المرء أن يتصور المنطقة المخربة حول كنيسة القديس بولس فى لندن أو المساكن المدمرة فى بليموث ، إذا كان لا يرى بعينيه إلا جلال واجهة شيكاجو المشرفة على البحيرة .

وشيكاجو أكثر تناقض من أى مدينة أخرى زرتها ، ففيها شوارع رحيبة ، وعمائر شامخة من المكاتب على شاطىء البحيرة لا تمتد إلى الداخل إلا مسافة قصيرة ، ثم تجىء أميال مربعة من المساكن الزرية ، وهى كأسوأ مايرى فى حى إيست إند بلندن ، أو حى ڤيليت بباريس ، أو منطقة موابيت ببرلين . فلاعجب إذا كانت ضاحية سيسرو بشيكاجو قد « أنجبت » كل هؤلاء

الأشرار الذين يعملون فى العصابات . وإنى لآنس من نفسى استعداداً لارتكاب جريمة كبيرة لأخرج من هذه البيئة .

ويبدو رونق العمارة فى شيكاجو وتعاستها أيضاً فى روح الأهالى ومزاجهم ، فما سمعت فى مكان آخر مثل هذا الثناء المسرف على الرئيس روزفلت ، أو مثل هذا الذم له والطعن عليه . ولم أر شبيهاً بهذا الاهتمام بالحرب والجدل حولها ، ولا لتجاهلها وإهمالها كأنها غير دائرة الأرحاء . ولم أر فى مدينة غيرها أعظم من هذا الإكبار لإنجلترا أوأشد من الاحتقار لها والزراية بها.

ولقيت فى مأدبة عشاء كثيرين من محررى جريدة « شيكاجو تريبون » — وهى جريدة الكولونيل ماك كورميك — غير أن الكولونيل الشهم لم يحضر المأدبة . وقد كنت أحب أن أقابل الرجل الذى اقترح أن تبتغى إنجلترا الوسيلة إلى الأمن والحكم الصالح بأن تتخلى عن ملكها وتصبح الولاية التاسعة والأربعين من « الاتحاد الأمريكى ».

وفى خلال المأدبة تحدث مساعدو الكولونيل بحرية وطلاقة فى كل شأن غير ذى شأن . وقد اتقينا الموضوعات التى تثير الجدل والخلاف ، وكنا ظرفاء مهذبين ، بل كنا نفيض مودة . ولم يحدث سوى مرة واحدة أن لمح أحدهم إلى ما يدور فى نفوسهم ، وذلك حين عرض ذكر مطعم يمكن الحصول فيه على طعام ألمانى فقال أحدهم : « لو ذقته لأحببته ، لو كنت تستطيع أن تطيق شيئا له صلة بألمانيا » . ولم تكن للألفاظ ذاتها قيمة ، ولكن اللهجة التى قيلت بها كانت ذات معنى ، فكأنه قال : « أيها الأوربيون السخفاء ، لماذا تحاربون بلاداً متمدينة رائعة مثل ألمانيا ؟ »

وقضيت فى شيكاجو صباحاً فى زيارة مصنع كبير لتعبئة اللحوم وحفظها ، فرأيت ما يكفى لإدراك مبلغ ما نحن مدينون به لأمريكا فيما يتعلق باللحوم المحفوظة التى هى جزء كبير من طعام القوات المسلحة ، والتى تساعد على زيادة جراية المدنيين . ويا له من منظر دموى عميق الوقع فى النفس ! فقد رأيت خنازير مشدودة إلى عجلة تنتقل منها إلى حزام تحويل ، فتتدلى ورءوسها إلى أسفل ، وهى تصرخ ، ثم تطعن فى حلوقها وتموت ، كما يموت كل ما يؤكل لحمه ، فى نهر من الدم يجرى إلى خزانات حيث تستخدم كل قطرة من الدم للإخصاب . وبعد أن تموت الخنازير تدخل فى مكان صغير مصخود حيث تغمس فى حوض من الراتينج المغلى، ثم تخرج وعليها طبقة سوداء تكسو سطحها كله ، وهى طبقة تجف بسرعة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فينزعها رجال يلبسون قفازات من الجلد ، فينزع معها الشعر ، وتبــدو الخنازير عارية شاحبة مهيأة للتقطيع الذى يجرى فى حجرة مجاورة . ولن أنسى بسهولة منظر هذه الأجسام السود التى تحولها إلى بياض الجثة أيدى عمال مهرة بسامين لا يحفلون ما يصنعون .

وكأن الذى وقع من نفسى على وجه الخصوص هو هذا البشر فى كل ناحيــة . وكان كل واحد من ، المدير فنازلا ، يعرف كل واحد آخر ، ويعرف اسمــه الأول ، وكان عدد كبير من العمال — حتى فى الأقسام الدموية — من النساء ، وكن ذوات عزم وحزم وراضيات على ما بدا لى عن حظهن ووجهن إلىّ أسئلة عن الحرب — معظمها يدور على الطعام . هل طعام العمال الإنجليز طيب أو ردىء ؟ وهل صحيح أنه ليس فى إنجلترا طعام يسمح بأكثر من وجبة واحدة فى اليوم ؟ ولما أخبرتهن أن الأمر على النقيض وأن ثمانين فى المئة من السكان أعربوا حديثاً عن استعدادهم لتقبل نظام الجراية بعد الحرب ، حتى يطعم المتضورون من أهل أوربا — لما قلت لهن ذلك تأثرن وتعجبن وقلن : « سنزودكم ونزودهم أيضاً بما تحتاجون إليه جميعاً » وما أشك فى أنهن يعنين ما يقلن .

ولم أر شيئاً يذكر من صناعات الحرب فى شيكاجو ، فإن هذه يطوف بها صديق لى هو الكولونل ماك ألبين الذى قاد الوحدة السادسة من الفدائيين البريطانيين والأمريكيين معاً فى شمال أفريقية . وهو رجل مديد القامة له سمت ، يرتدى الزى الأسكتلندى ويجيد الخطابة . ولست أعرف من أمر الفــدائيين إلا ما يحكى عنهم ، أما هو فمنهم وقد قادهم فى الميــدان . وقد زار أحد مصانع الصلب وكان العمال ، وعدتهم إثنا عشر ألفاً ، قد أضربوا قبل حضورى بساعة . ولم يكن يعلم ذلك حين وقف يخطب جمهوراً كبيراً منهم ، ولكن ما كاد ينتهى من خطبتــه التى وصف فيها عمل الفدائيين فى الجزائر وبون ، حتى هتفوا له وعادوا إلى العمل جميعاً . ولم استغرب هذا حين سمعته . فقــد كان الذى تبينته فى كل مكان ذهبت إليــه هو أن العامل الأمريكى إنما يحتاج أن يعرف على أى وجه تستخدم الأسلحة التى يصنعها ، وماذا يصنع بها الجنود فى سبيله ، ليضاعف جهوده .

وسهرت ليلة بديعة فى شيكاجو مع اثنين من زعماء العمال فى مقتبل العمر ، وقد تقابلنا فى منتصف الساعة التاسعة ، فائتلفنا ونادى بعضنا بعضاً باسمــه الأول قبل أن تنتصف الساعة العاشرة ، وافترقنا أخيراً والفجر يطلع ويسفر على المدينة الغائمة الرائعة .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وهما شابان إلا أن كلا منهما قد جاهد عشر سنين فى سبيل اتحادات العمال فى أمريكا ، وعملا فى مصنع بعد مصنع ليبثا فى نفوس زملائهما العمال روح الاتحاد والإيمان بفائدته وحريته ، وما أكثر ما أوسعهما زملاؤهما العمال ، أو وكلاء أصحاب الأعمال ، ضرباً ، وما أكثر ما جاعا وتناهى بهما سوء الحال .

ولم أر قط من قبل مثلهما رجلين لم توهن عزمهما عثرات الحظ وضربات القدر ، فقد كانا فرديين وعلى جانب عظيم من الصلابة وشدة المراس وقوة القلب ، وكانت القضية التى يجاهدان فى سبيلها مقدسة فى نظرهما . وعسى أن يكون هذا العنصر — عنصر الفردية القوى الذى هو من خصائص الشخصية الأمريكية — هو الذى يجعل النمو الرشيد لاتحادات العمال صعباً . فإن كثيرين جدا من الأمريكيين الذين لقيتهم كانوا كأنما يعملون بالمبدأ القائل « كل رجل لنفسه » ويعدونه غير قابل للجدل أو النقض ، ويرون أنه عمود الحياة الأمريكية ، وأن نقضه مؤداه الفناء .

وقد تطوع هذان الزعيمان ليرياني المدنية كما ينبغى وينتظر أن يراها رجل من القوات المسلحة فى إجازة اثنتى عشرة ساعة . وما لبثنا أن ذهبنا نقطع بالسيارة شارعاً رئيسيا تسطع فيه الأنوار من أوله إلى آخره ، وكانت أنوار « نيون » الحمراء والصفراء تستطير عند زاوية كل عمارة ، ونوافذ الدكاكين شعلة من النور ، وما رأيت من قبل حتى ولا فى زمن السلم فى بيكاديللى أو باريس — مدينة النور — ما يشبه هذا الضياء أو يقاربه .

ثم وقفت أمام مسرح هزلى علقت على جدرانه صور ملونة للفنانات ، وهن فيما يبدو للعين وسيمات ومطواعات أيضاً ، فلما دخلنا وجدنا المكان غاصّا بالرجال وأكثرهم فى الزى العسكرى .

واشتريت من بائعة السجاير علبة من سجاير شسترفيلد ، ففضحتنى لهجتى الإنجليزية ، فأقبلت تسألنى باهتمام عن الحياة الليلية فى لندن أثناء الحرب ، فوصفت لها لحظة كنت أجتاز فيها بيكاديللى فى ظلام دامس تشقه وتثخن فيه سيوف من ومضات القنابل المنطلقة ، فسمعت انفجار القنبلة التى قتلت كثيراً ممن كانوا يرقصون فى مقهى بشارع كوفنترى . ففهقت ولكنها لم تقل شيئاً ، وبعد هنيهة ضغطت كفى ومضت عنى تبيع السجائر .

وتلفت حولى فسمعت نوتيا ورائى يقول إن الآنسة فلانة — تلك الراقصة اللبقة الرشيقة من بنات سنسناتى — يوشك أن تظهر . وانطلقت جوقة الموسيقى تعزف لحناً

عالياً ظلت تعيده بعد فترات كلما آن أن تظهر فنانة على المسرح .

وبعد حوالى ثلاثين أو أربعين دقيقـة قال رفيقـاى إنى رأيت بعض ما تستطيع الفنانات البيض أن يصنعن ، فيحسن أن نرى الســـوداوات . فركبنا إلى مقهى ساطع الأنوار صافحت آذاننا لما اقتربنا منه موسيقى الرقص ، وجلسنا إلى مائدة على مقربة من فرقة موسـيقية حزينة الأصوات صاخبتها مؤلفة من ٣٥ عازفاً ، وكان تسعة أعشار الحضور من السود ، وتسعة أعشار هؤلاء يرقصون . ولا يستطيع من لم ير هـذا الرقص يؤديه الزنوج تحت تأثير موسيقاهم أن يتصور كيف يكون ـ ولعل أقرب ما يشبهه رقصات القبـائل فى « الساحل الذهبى » أو « الكونغو » . وكانت وجوه الراقصين تلمع ، وقد ارتسمت فى عيونهم وعلى أفواههم ابتسامة ثابتة كأنها بعض ما يقتضيه الرقص ، وكان المنظر كله عبارة عن حركة سريعة مرنحة ، فى مكان مزدحم حار ، على أنغام موجات من الأصوات تعلو وتهبط ولا تخفت أو تنقطع أبدا .

ولم يكن هنـاك رئيس للفرقة ولـكن الإيقـاع كان مضبوطاً إلى حد لا أعرف له مثيلا ، وكان أحـد الضاربين بالصنج أو الزامرين ، ربمـا وثب إلى قدميه ، وعيناه تدوران ، وذهب يطرّب بكلمات من وحى الساعة وفيض الخاطر ، وكان صوته ربما علا كالصراخ فوق جملة الأصوات المنتظمة . وكان يخيل إلىّ أحياناً أن كل واحد يعزف على هواه ، ولـكن الجملة كانت مزيجاً من أنغام مفردة تؤلف فيما بينها لحناً متناسقاً .

وبدا لى أن لهـذه الموسيقى فعل السحر فى نفوس سامعيها جميعاً . وإنى لأعرف من ذات نفسى أنى ، على بدانتى وكهولتى ، لو بقيت أستمع إليها لحظة أخرى ـــ لحظة قصـيرة جداً ـــ لنهضت وجذبت واحدة من هؤلاء الفتيـات ، وحاولت أن أرقص هذه الرقصة المعقدة ، ولـكن ردنى إلى عالم الحقيقـة صوت شاب طيار يجلس مع فتاته إلى منضدة مجاورة ، وكانت عيناه ، وعيناها ، تومض جـداً ، وكان هو يقول : « زمى شفتيك يا حلوة ، فإنى آتٍ إليك على شعاع من النور ـــ والنار » ثم قبلها قبلة حارة !

وزرت ذات مساء مصانع هنرى فورد القامة على ١٣٠٠ فدان فى « ويلو رن »*. وتبعد « ويلو رن » أربعة آلاف ميل على الأقل من أقرب قاعدة جوية ألمانية ، فلا حاجة إلى نظام الإظلام . وهذا التحرر من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مثل هذا القيد المعطل للإنتاج هو أحد الأسباب التي يسرت للمصانع الأمريكية أن تنتج كثيراً في وقت وجيز . والعمل في ويلو رن يجري تحت الأنوار الساطعة بالليل كما يجري بانتظام واطراد بالنهار ، فلا ريث ولا عجل ولا تردد .

وقدموا لي سيارة كهربائية أطوف بها مكان «التجميع» ، ولكنهم قالوا لي إن اطلاعي على العمل يكون أوسع وأشمل إذا مشيت ، فنزلت على رأيهم . ولن أحاول وصف الأثر الذي تركته الزيارة في نفسي عندما انتهت . ولقد قلت وأنا أنظر إلى القاذفات الضخمة وهي تخرج واحدة في إثر واحدة إلى المطار : « أترى هذا الصف سيمتد إلى يوم الساعة ؟ » فقال عامل يتكلم بنبرة تشيكية واضحة : « نعم ، إلى ساعة هتلر ! » .

ولا يسعني إلا أن أعتقد — بعد الذي شاهدته في ويلو رن — أن ساعة هتلر لن تتأخر كثيرا . وظل هذا هو رأيي وأنا أطوف بالمصانع الأخرى في ديترويت حيث تصنع سيارات جيب والدبابات والمحركات . وقد رأيت هنا قدرة الأمريكيين على معالجة المسائل المعقدة المرتبطة بتنظيم المصانع وتدريب العمال غير الحاذقين ، فقد رأيت النساء ، ومعظمهن فتيات ، يقمن بغاية المهارة والاطمئنان « بتجميع » أعقد محركات الطائرات ، وما مضى على أكثرهن في هذا العمل أكثر من ستة أشهر . ومع ذلك جاز إنتاجهن اليومي أدق الاختبارات ، بغير خطأ ، أو بغير خطأ ذي قيمة .

وقد تحولت صناعة السيارات إلى خدمة الحرب ، وتم هذا التحويل على ما أعتقد بعد كلام طويل وضجة كبيرة ولكن هذه هي الطريقة الأمريكية ، وهي تزيد الكفاءة في العمل ولا تنقص منها . وقد احتجت إلى وقت حتى أدرك هذا ، ولكني أقتنعت به بعد إتمام طوافي ، فإن الأمريكيين لا يحجبون نورهم تحت المكيال كما يقول المثل ، فإذا اعتقدوا أنهم قاموا بعمل حسن ، قالوا ذلك ، ويسمع أندادهم قولهم فإذا وافقوا عليه صفقوا . فليس ثم تواضع كاذب ولا شيء من ذلك الحياء الذي لا يزال يوجد في إنجلترا الحديثة .

ولما كنت في طريقي إلى شيكاجو من سان فرنسسكو ، طرت طول الصباح فوق سهل شاسع كله حقول مزروعة . فههنا تحتي توجد المنطقة الزراعية الأمريكية الهائلة — ميل بعد ميل من الخصب المنظم — وفيها فلاح الغرب الأوسط الذي

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

سمعت فى لندن ونيويورك الكثير عن عزلته وضيق نظرته وأنانيته .

واشتهيت أن أرى عن كثب هذا الشخص الذى يكاد يكون خرافيا ، فهـل يكون معقود اللسان أو جافيـاً ، أو يكون شرساً من ذلك — متكافئاً اللطف والبشر ؟ لذلك كان من دواعى اغتبـاطى أنى قضيت الصباح فى مزرعة قرب « دى موين » ، وكانت الحقول الواسعة على كل جانب من جوانب البيت الخشبى النظيف المرتب ، تمتـد وتترامى — وهى أكبر من الحقول الإنجليزية — وفى بعضها محصول وافر من البرسيم ، وفى البعض الآخر نبات البسلّى .

وكان المستر موريس وزوجته فى السبعين من عمرها . وهما ، بمعـاونة ابنهما الذى يناهز الثلاثين ، يقومان بأمر هذه المزرعة التى تبلغ مساحتها ٢٤٠ فداناً ، وليس ثم غير هؤلاء فقد ذهب الآخرون إلى الحرب .

ولقد لبثت ثلاث ساعات أستمع للوالد والولد وهما يتحدثان . وكثير مما قالاه عن الخصب والإنتاج فى هذه الأرض التى يباهى أهلها بأنها جديدة ، سمعته من المستأجرين فى قريتى بإقليم سسكس ، ويرجع عهـد آبائهم باستئجار هـذه الأرض إلى القرن الخامس عشر ، فإن فلاحة الأرض وتربية الماشية أقدم بما لا يحصى من السنين ، من بناء السفن وصناعة الطائرات .

واستمعت باهتمام خاص إلى مناقشة بينهما فى طريقة جديدة للحرث . فاما الإبن فنال درجة فى الزراعة من جامعة ولاية « أيووا » فهو يعرف هـذا الأمر حق معرفته ، وأما الأب فقد زاول الزراعة — على حد قوله — « جيلين » . وكانت الزوجة الهرمة الكريمة كما يقولون فى أمريكا « ذات إبهـام أخضر » ، وقد غرست الأزهار الإنجليزية الطويلة السوق أمام بابها ، وقد قطفت لى بعضها بينما كانت المناقشة تحمى وتفتر بين الولد وأبيه ، وصاخت أذنى من الجملة الأخيرة ، وكان الذى قالهـا هو الأب : « إذا كانت طريقتك أكفل بأن تكسبنا الحرب .... »

وما كنت لأستطيع أن أنطق بكلمة فى تلك اللحظة ، فإن كلمة « الحرب » على لسان هـذا الشيخ الكريم الوقور كانت كأنها الكفر على لسان قسيس . فإن من السهل أن يفكر الإنسان فى هذا المكان فى سخافة الحرب . وكثيراً ما أنحيت على الحظ والمقادير لأنى ولدت فى زمن كتب فيه على الإنسان أن يشهد حربين ، ولأنى رزقت أطفالا سيقضون حياتهم فى إصلاح ما أفسده آباؤهم وأجدادهم . وقد تزاحمت هـذه الخواطر فى ذهنى مرة أخرى وأنا أرى هذا الفلاح الهرم الحكيم يتقبل الرأى الجديد

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى سكينة وهدوء . وأحسبه قد فطن إلى ما يدور فى نفسى فقد التفت إلىّ وقال ببساطة : «سماء صافية ،ومطر كاف ، وأرض طيبة — لو أن كل إنسان أوتى هذا — لكان خليقاً أن يبيت قانعاً » .

وقد غادرت هذه المزرعة وأنا أشعر كأنى كنت أتحدث إلى أشخاص منتزعين من كتاب « العهد القديم » ، وقد قوى هذا الشعور بعد ذلك حين تحدثت إلى والد الأومباشى كونز وأمه ، وهو أول جندى فى جيش الولايات المتحدة قتل ألمانياً فى هذه الحرب . وأبواه فخوران بهذا ، ولكن فخرهما أعظم بأنهما مازالا قادرين على النهوض للعمل فى الخامسة صباحاً ، والقيام على خدمة المزرعة التى سيعود إليها ابنهما .

وكان المستر كونز وزوجته يبدوان غريبين فى ردهة الفندق الكبير الذى لقيتهما فيه ، وقد جاءا من « مدينة سوى » التى يصفها المستر كونز بأنها « أصغر من أن تعد مدينة » فإن سكانها سبعمائة ، وقد جىء بهما لمقابلتى لأنى رأيت ابنهما وحادثته بعد أن قاتل العدو لأول مرة .

وجلسنا مرتبكين قليلا إلى مائدة فى حجرة الطعام ، وزادنا ارتباكا نشاط أحد المصورين ومايلقيه علينامن الضوء ليصورنا، وسرى عنا لحم الخنزير والبيض وقلت شيئاً عن اللذة المستفادة من أكل طعام يكاد يتعذر الحصول عليه فى لندن إلا مجففاً ، ففتحت السيدة كونز عينيها جدا وقالت : « إنى أجمع من البيض كل يوم ملء ثلاث سلال ، وأحلب البقرات أيضاً ، فلست أوافق على حلبها بالآلات » .

وقد ولدت هذه السيدة الجميلة الوجهة لزوجها ستة أحدهم « فرانكلين كونز » وسرعان ما استطردنا إلى الكلام عن أعماله فى دييب . وقد كان فرانكلين أومباشيا ، وهوالآن شاويش ، وقد قلده اللورد لويس مونتباتن بيده نوطاً جزاء له على ما أبدى من شجاعة فى تلك الغارة ، وأرانى أبوه صورة للاحتفال بتقليده النوط . ولكن ماذا فعل على وجه الدقة ؟ هذا ما سألتنى عنه أمه ، لا أبوه الذى قال ، لما سمعها تسأله ، إن ابنهما اعتاد الإيجاز وعدم الإبانة فى رسائله .

فوصفت لهما الغارة على قدر ما أستطيع ، وحمست ، فرسمت الشاطىء على غطاء المائدة بدلا من الورق ، فأدهش السيدة عملى هذا فليس يجوز لى أن أسىء استعمال غطاء نظيف وأوسخه ، ولكنها كانت تتلهف على سماع أخبار ابنها وما فعله ، وألحت علىّ فرسمت الصورة مرة أخرى على رقعة ، وأخبرتها أن فرانكلين تلقى أمراً بأن يقنص رجال الدفعية فى بطارية ألمانية ، فاستتر

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لهذا الغرض فى إسطبل بمزرعة ، وجعـل يطلق النار على الألمان من ثقب فوق المذود ، وبذلت كل ما فى طاقتى لأصور لهما المنظر كما صوره لى ابنهما لما قص علىّ الحكاية فى مساء يوم كالح من أيام أغسطس على رصيف ميناء جنوبى ، وحولنا جنود سود الوجوه يروحون ويجيئون .

وكان المستر كونز وزوجته يصغيان بعناية وفى صمت تام ، ولما فرغت لم تقل السيدة كونز شيئاً ، ووجه الرجل إلىّ سؤالا واحداً : « هل كانت الخيل قد أخرجت من الإسطبل قبل أن يستخدمه فرانكلين ؟ » فقلت إنى لا أدرى ، ففكر لحظة ثم قال : « لابد أن تكون قد أخرجت ، فقد كان الفجر قد طلع منذ ساعة » .

وقبل أن نفرغ من الغداء كنا نتكلم فى غير تكلف عن تربة « أيوا » وعن مدارس الأطفال وما يأكلون ، وعن حاجة إنجلترا الشديدة إلى اللبن ووفرته فى الولايات المتحدة ، أما الحرب فكان رأى المستر كونز فيها حاسماً فقد قال قبل أن نفترق : « إن العالم يدلف إلى الكهولة والحجى فلا محل فيه للحرب ومثلها من السخافات . ويجب أن يوضع لها حد فى هذه المرة . وأمثال ابنى من الشبان هم الذين سيضعون هذا الحد . وقد عرفنا معنى السلم هنا ، ولكنى أحسب أننا لن نفوز به فوزاً ثابتاً إلا إذا عرفتم فى أوربا معناه » فسألت الله مخلصاً أن يكون على صواب .

وقد تكون هذه الآراء مصدرها روح العزلة ، ولكنى مقتنع بأن تفسيرها على هذا الوجه ليس فيه إنصاف لأمثال المستر موريس وزوجته ، والمستر كونز وزوجته ، والفلاحين فى الغرب الأوسط على العموم . ويخيل إلىّ أنهم يتهمون بالأنانية وضيق النظرة لا لسبب سوى أنهم يختصرون أمور الحياة ويقصرونها على الجوهرى ، فليس عندهم تعقيدات نفسانية أو ما يجرى مجراها مما تجىء به المدنية ، وهم ينظرون إلى الحياة كما ينظر إليها زراع الأرض ويعدونها جهاداً ضد الجفاف والثلج والرياح والمطر والآفات وكل ما تحشده الطبيعة ضدهم ، ولا يستطيعون أن يفهموا لماذا يعادى الناس أبناء جنسهم أيضاً ، « فإن هذه ليست سوى سخافة صرف » ومع ذلك بعثوا بأبنائهم بعشرات الآلاف ليقاتلوا الألمان واليابانيين الذين لا يشبهون بقوات الشر ، بل هم قوات الشر نفسها .

وقد خرج آباء هؤلاء الفلاحين وأجدادهم من أوربا لسبب بسيط ، هو أنها كثيراً ما تصبح ساحة حرب . وقد عقدوا الآن العزم على إقامة عالم جديد بعد أن تضع الحرب

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أوزارها ويضمر أوربا الإعيــاء . وهم لا يدرون كيف يتسنى إقامة هذا العالم ، ولكن إذا عجز زعماء الأمم المتحدة وأخفقوا فى السلم ، بعد أن ينجحوا فى الحرب ، فإن فلاحى الغرب الأوسط خليقون أن يصبحوا فيما أرى دعاة عزلة إلى حد لم يحلم به حتى الكولونيل ماك كورميك . أما الآن فإنهم يخوضون الحرب ، وفى عزمهم ، على قدر ما تبينت ، أن يشهدوها إلى ختامها .

ركبت القطار من سنت لويس إلى نيوأورلينز قبل أن يقوم بنصف دقيقة . وأرى أن مهندسى الولايات المتحدة قد أطلقوا لخيالهم وعقولهم العنان فيما يتعلق بمحطات السكك الحديدية ، فإنها عناوين تقدم وآيات جلال . ومحطات نيويورك شاسعة وجوانب منها تحت الأرض ، وليست محطات المدن الأخرى ولا سيما شيكاجو وديترويت ، بأقل منها . وكلها غاصة بأمكنة للتذاكر والصحف والمجلات والسجائر والفول ، والمركبات الكهربائية التى تحمل أمتعة الناس جميعاً . وفى كل منها لوحات هائلة تدعو هؤلاء المسافرين المسرعين ، أن يشتروا سندات الحرب ، وليس فى محطة منها علامة ترى وتدل المرء على مكان القطار .

وليست محطة سنت لويس بشذوذ عن هذه القاعدة . ولم يكن المسافرون أوفر عددا فقط منهم فى غيرها ، بل كانوا أيضاً قد صفوا صفوفاً متلاحمة تتحرك حولى ببطء ، وأخيراً استطعت بعد العناء وبعد أن تصببت عرقاً من الحر والزحام أن أصل إلى مكانى وهو مجهز بما يبرد الهواء ، وذهبت أنظر من النافذة إلى نهر المسيسبى وهو يتدفق .

وقبل أن يصل القطار نيو أورليتز فى صباح اليوم التالى بزمن طويل ، استيقظت ونظرت من النافذة ، فإذا الريف الأخضر الحافل بالشجر قد حل محله سهل منبسط شاسع ، أرضه حمراء وتتخلله جداول لا يأخذها عد ، وكانت هناك غابات كثيرة ولكنها متوشحة متشابكة هائجة . وكانت الأشجار فى أرض سبخة ذات ملح ونز ، وأغصانها متهدلة ، فكأنها جمع حاشد من الشيوخ يمشون خلف جنازة . وهذا الهدب الذى يتدلى ويسترسل من كل فرع تحت سماء زرقاء صافية لا يوائم مناظر هذه الأرض الجميلة الكثيرة الألوان والشيات .

وكان رسول المستر هيجنز الجبار ينتظرنى فى المحطة فمضى بى إلى فندق «سنت تشارلز» وأقنعنى ، وأنا قاعد على سريرى وفوقى مروحة بطيئة ، أن أتحدث إليه ثلاث من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الصحفيات ، ثم أمهلني نحـو عشر دقائق لتناول فطور متأخر ، وكانت هذه فاتحة البرنامج الدقيق الذي لا تهمل فيـه ثانية واحدة ، والذي تحكم في كل حركة لي ، بل في كل نفس من أنفاسي حتى موعد العشاء .

والمستر أندرو جاكسون هيجنز يصنع زوارق الطربيد على مسافة قصـيرة من المدينة ، وقد استخدمت زوارقه في الغارات من النرويج إلى جزر سليمان ، ومن الصعب أن أصف هذا الرجل العجيب ، وهو أبرز من رأيت في أمريكا . وقد وقف أمام مكتبه لا يطرف ولا يتكلم . ومن الجلي أن عبارات المجاملة وإشاراتها التقليدية تعد من الفضول في رأيه . وخـير ما أستطيع أن أصفه به تلك العبارة المألوفة : « إنه يشع نشاطاً » .

قلت له لأقطع الصمت : « لقد صنعت بعض الزوارق التي استخدمها الفدائيون في دييب » .

قال : « نعم ، وسأريك كيف صنعتها — بعـد أن تتحدث إلى عمالي . فعرفهم من فضلك كيف تستخدم هذه الزوارق » .

وبعد عشر دقائق كنت واقفاً في شرفة تعلو مقدار خمسين قدماً عن مستوى هذه الزوارق الصغيرة السريعـة التي يعمل فيها مئات من البيض والسود ، وقد تعرى كثيرون منهم إلى الوسط . وكان معي ضابط أمريكي شاب عاد أخيراً من « وادي الكنار » وقد أفضى إليّ ، في جمل وجيزة مفككة بوصف للحيـاة ، وللموت ، ومقاتلة اليابانيين — على تلك الجـزيرة الـكالحة ، وكان يحمل نوطاً سـامياً لشجاعته . ولا أستطيع أن أدوّن ما قاله لي ، ها أجرؤ على ذلك . وما من ناشر يمكن أن يطبعه ، وما من رقيب يمكن أن يأذن في طبعه .

وألفينا أنفسـنا على الشرفة نطل على جمهور من العمال من الجنسـين يقفون صامتين تحت هذه الشمس الرائعة . وكنت أعرف أن هناك آلافاً آخرين عند الزوارق التي لم يتم صنعهـا ينتظرون — في ساعة غدائهم القصيرة — أن يسمعوا من مضخمات الصوت ما سأقوله .

فرويت لهم قصة الغارتين على دييب وسنت نازير ، فأصـغوا وهم صـامتون ساكنون في الأغلب ، إلا مرة أو مرتين حين تنهدوا كما تنهد بناة السفن في أوكلاند . وبعـد ساعة من الحديث الذي أفضيت به إليهم أقبـل زعماؤهم على المسـتر هيجنز يعرضون أن يعملوا نصف سـاعة أخرى زيادة على ما يعملون ، طول مدة الحرب ، على أن يبذل الأجر عن هذه الزيادة لبعض الخدمات . فههنا رجال ونساء لا يحتاجون إلى أكثر من أن يعرفوا كيف يستخدم الجنود الزوارق التي صنعوها بكدّهم ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ليقرروا من تلقاء أنفسهم أن يضاعفوا جهودهم . وصحيح أنى علمت ، أنه بعد أسبوع أو نحوه تدخلت اتحادات العمال فى الأمر ووقفت هذا المشروع ، ولكن هذا لا يغض من شأن العمال أنفسهم ، وإنما هو عيب نظام دون نظامنا فيما يختص بالعلاقات بين رأس المال والعمل .

وقد ازددت معرفة بالمستر هيجنز فازددت إعجاباً به وحسنَ رأى فيه . وهو لا يحترم أشخاصاً ، ويقول أى شىء لأى إنسان ، وليس هو من أبناء نيو أورلينز ، فإنه على ما أعتقد من نبراسكا ، ولكنه أثار هذا الجنوب الراقد وبث فيه نشاطاً هائلا . ولست أحسبهم يحبونه حبا جما من أجل هذا ، ولكنهم يعملون كما لم يعملوا قط منذ شبت الحرب الأهلية بين الولايات الأمريكية .

وقابلت المستر هيجنز مرة أخرى فى تلك الليلة فى بيته ، وكان الجو حارا ، وكانت الأبواب والنوافذ كلها مفتوحة ، وكان هو جالساً وعليه قميص قصير الكمين ، فى غرفة الطعام مع زوجته وبعض الضيوف ، فحيونى جميعاً وحادثونى بتلك الرقة والظرف المعهودين فى المجتمع الأمريكى . وكان المستر هيجنز — بعد يوم قضاه فى عمل شاق — قد آثر أن يرسل نفسه على السجية ، فذهب يطرفنا بالحكايات ويقصها علينا بحماسة وبراعة ، ويبرز كل شخصية على حدة ، ويقلد اللهجات تقليداً محكما . وقد تجشم فى ذلك مجهوداً مضنياً ، يزيد فى قيمته أن الرجل ظل يعمل طول نهاره مدة أربع عشرة ساعة بأقصى ما فيه من قوة ، وأنه سيعود إلى العمل بعد ست ساعات .

وقمت فى بكرة الصباح التالى مع الطير ، وقضيت مع المستر هيجنز ثلاث ساعات أخرى فألفيته خفيفاً نشيطاً واسع الحيلة كالعهد به دائماً . وعكفنا على تصميمات ورسوم لمشروعات جديدة كثير منها سيزعج العدو قريباً — ولا سيما اليابانيين . ولقد قابلت كثيرين من رجال الأعمال ، وطائفة غير قليلة من زعماء الصناعة فى أمريكا ، وهم جميعاً يمتازون بالإقدام ، وكثير منهم ذوو بصيرة ، وبعضهم عباقرة ، ولكن المستر هيجنز يمتاز بذلك كله .

ذهبت القاذفة تزأر شرقاً مارقة فى جو لا يزال به شىء من الشفق ، وإن كانت الشمس قد غربت من وقت غير قصير . فانطرحت على مرتبة على الأرض بين أستاذ فى الزراعة وجنرال أقطعنى جانباً غير يسير

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

من معدات نومه . وكنت محتاجاً إلى ذلك فقد كان الإرتفاع عظيما ، فلم تغن فى اتقاء البرد وإفادة الدفء ، الخوذة المبطنة بالمخمل والبذلة المطرّفة بالفرو ، والحذاء المبطن بالصوف . وكان جهاز الأوكسيجين رطباً مبتلا على أنفى وفمى ، ولكن التنفس كان سهلا وطبيعياً . وكنت أرى من النافذة موكباً بطيئاً من النجوم . وكانت أمريكا ورائى ، فإنى فى طريقى إلى وطنى . وكان علىّ أن أفكر فى أمور كثيرة ، وهذه أول فرصة من السراح والرواح أتيحت لى.

وفكرت أول ما فكرت وأنا ألف الغطاء حولى ، فى السؤال الذى أعرف أن أصدقائى سيوجهونه إلى حين أراهم : كيف رأيت الأمريكيين ؟ ألا إنهم ، فى نظر الإنجليزى ، لشعب أجنبى ، وأعتقد أن أقل من خمسين فى المئة منهم يجرى فى دمائهم دم إنجليزى . أما كونهم يتكلمون لغتنا ، أو على الأصح لهجة قوية منها ، كلها نار وألوان ، فليس معناه أنهم يستعملونها ليعربوا بها عن رأينا نحن فى الحياة . والأمر على نقيض ذلك ، فإنه يبدو لى أنهم يحيون حياة أرحب وأكثر امتلاء من حياتنا ، وخليق بالإنجليزى أن يرى أنهم وهبوا حظاً جزيلا من الحيوية والقوة . وطلعتهم شديدة ، وهى راجعة إلى فرط شعورهم بالحياة والتذاذهم لها . وهذا الروح هو إلى حد ما ، الذى يجعل من المستحيل على الأمريكى العادى أن يتصور أنه قد يخيب ، فإذا أخفق أحدهم فى عمل فى مينيا بوليس ، فإنه يذهب إلى شيكاجو ، فإذا لم ينجح هنا ، جرب سان فرنسسكو أو سنت لويس ، أو ديترويت . ولا قيمة للمكان لأنه مقتنع فى أعمق أعماق سريرته أنه لا بد ناجح ، وهذا الاقتناع هو الذى يثمر النجاح ، فطلعتهم وروح الرواد فيهم مرتبطان أوثق الارتباط .

على أن الأمريكيين شديدو الوطأة على أنفسهم بالنقد ، وهم يكتبون ويقولون — بعضهم عن بعض — ما كان خليقاً أن يترك كل محكمة فى البلاد دائمة الانعقاد ، لو كان عندهم ما فى إنجلترا من قوانين السب والقذف . وقد كانت هذه الخصائص القومية هى التى دفعت الصحفيين منهم إلى كلام فى غاية الشدة عن هزائمنا العسكرية الأولى — وهو كلام كان له وقع مر أليم فى إنجلترا . فلما دخلت أمريكا فى الحرب كتب الصحفيون أنفسهم عن ميناء بيرل مثل ما كتبوا عنا ، ذلك أنهم يضربون ضربات قوية ويتوقعون أن يتلقوا مثلها . . . .

وقد عدت وأنا مقتنع اقتناعاً عميقاً بأن العلاقات بين أمريكا وبريطانيا على أعظم

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

جانب من الأهمية لسلام العالم ورخائه ، فماذا نستطيع نحن المواطنين العاديين أن نفعل لتحسين التفاهم المتبادل بيننا وبين أمريكا ؟

وأول شيء وأولاه بالتقديم أن لا نكون عاطفيين فيما يتعلق بالأمريكيين وأن لا نشجعهم على أن يكونوا كذلك معنا ، ولتكن الصراحة أساس التفاهم ، وقد وجدت أن أخلص أصدقاء بريطانيا الذين لقيتهم فى أمريكا هم أصرحهم ، وينبغى أن يكون العكس صحيحاً أيضاً . فإن الألفاظ الشديدة لا تكسر عظاماً بل هى أحرى بأن تمنع الكسر ، وليس معنى هذا أن يذهب المرء يلهج بالأقذاء ، أو حتى بالخشبات ، التى فى أعين غيره ، وإنما معناه أن يكون له رأى نزيه فيدلى به فى نزاهة .

وينبغى أيضاً أن نبين بجلاء فى كل وقت أن جماعة الأمم البريطانية تقف إلى جانب أمريكا ، ومعها فى صفها لا فى هذه الحرب فحسب ، بل فى السلام الذى يعقبها كذلك . وقد كان للعهد الذى قطعه المستر تشرشل بأن يحول كل قواتنا إلى قتال اليابان بعد هزيمة ألمانيا وقع عميق فى الولايات المتحدة .

ولا يسع إنجليزياً يجتاز المحيط الأطلسى فى طائرة أمريكية ، بعد أن قام برحلة شاهد فيها كل أنواع المواد الحربية تتدفق ليلا ونهاراً من المصانع الأمريكية ، إلا أن يستعظم مزايا التعاون البريطانى الأمريكى ، فهل ترى تبدو هذه المزايا عظيمة أيضاً للذى يطير من إنجلترا إلى بلاده ؟ أظن أن هذا ممكن ، غير أنه ينبغى أن نتذكر أن أمريكا لم تدخل هذه الحرب إلا بعد أن تعرضت لعدوان وحشى لا مسوغ له .

وأمريكا بلد جديد على التحقيق ، وكذلك الأمريكيون شعب جديد ، وهم يشعرون أن الحاضر والمستقبل لهم ، أما الماضى فيمكن تركه وشأنه . وقد كانت الحياة فى تلك الأيام البعيدة معناها المتاعب والشقاء ، والاضطهاد والعوز لآبائهم لما كانوا يعيشون فى قارة قديمة قاسية بالية ملأى بالحروب وإشاعات الحروب . فلما استطاعوا آخر الأمر أن يخرجوا منها ، وأن يصلوا إلى أمريكا ، أداروا ظهورهم إلى الأبد إلى تلك القارة ، واستدبروا طريقة حياتهم السابقة فيها ، والآن لا يرى أبناؤهم وأحفادهم فى ذلك الماضى سوى حلم سيء غامض .

وهل جاهد الرواد هذا الجهاد الحافل بالرجولة القوية إلا ليهيئوا حياة أطيب ؟ أو لم يرفعوا قواعد حياة عجيبة واسعة خصيبة فى أقل من مئتى عام — حياة يحق لكل فرد فى البلاد أن يزهى بها ويفخر ؟ إن الجواب بالإيجاب المحتوم . والأمريكى العادى حين يجيب به ، يرفض العالم القديم سواء أكان

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مدركا لذلك أم غير مدرك ، ولا يحب أن يذكره بوجوده مذكر .

وهذه حالة نفسية كان لا بد أن تنشأ فى شعب التمس كثيرون من آبائه ما وصفه زعماؤه الحاليون بأنه « الحريات الأربع » فظفروا به فى أرض واقعة فيما وراء البحار . ومن سوء الحظ أن أوربا لا يمكن إغفال وجودها ، وقد حدث مرتين أن أراق الأمريكيون دماءهم فى الحرب ، لأن أوربا ما زالت فى مكانها .

ومن أجل هذا صارت أوربا مبعث نقمة وسخط لكثيرين من الأمريكيين ، ومن العسير أن لا يعطف المرء على وجهة نظرهم ، فإن مما يثير النفس ولا شك أن يضطروا إلى التدخل — مع احتمال عناء كبير وتكاليف عظيمة — فى شئون قارة تعمد أجدادهم وآباؤهم أن يهجروها ويخرجوا منها ، لينجوا من اضطرابها وحروبها . وعندى أنه يحسن بنا أن نتذكر هذا حين تحدثنا أنفسنا بأن نذم دعاة العزلة فى أمريكا.

وهذا أحد جانبى الصورة . أما الجانب الآخر فإنه ، من وجهة نظرنا ، أبعث على التشجيع . فهناك أولا أنه لا يسع المرء ، حتى ولو كانت نظرته سطحية مثلى ، إلا أن نلاحظ عظم اهتمام الأمريكيين بالعلاقات الخارجية . وقد ظهر هذا من استفتاءات معهد جالوب ، وغير ذلك من الوسائل التى يسبر بها غور الرأى العام ، ومن الرواج الذى لقيه كتاب المستر ويلكى « عالم واحد » . وقد تبينت من ملاحظاتى الخاصة أن الأمريكيين يألفون شيئاً فشيئاً فكرة التعاون ، لا لأسباب خيالية أو مثالية ، بل لأنها سياسة عملية .

ولعل الآراء السياسية التى يذهب إليها الجنود العائدون إلى أوطانهم ، سيكون لها أثر حاسم فى أى مشروع بعد الحرب . وقد رأيت ما فيه الكفاية من القوات المسلحة للولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وبريطانيا ، لإقناعى بأن هؤلاء المقاتلة مصممون على أن يترجم ميثاق الأطلسى إلى شىء حاسم مادى محسوس — إلى حياة — يتسنى فيها للشبان أن يتزوجوا وأن يثقوا بأن أبناءهم سيستطيعون أن يكبروا ويعيشوا فى سلام .

وهم يريدون أن يقيموا عالماً يكون فيه للمساعى الفردية مجال رحيب واف ، وأعتقد أنهم يتطلعون إلى نظام يسمح بأن تلقى سيرتهم وجهودهم الخاصة عوناً من الدولة دون أن تسيطر عليها . وهذا هو الاتجاه فى أمريكا على التحقيق .

عندما يواجه الإنسان الموت لا يفكر في نفسه

ملخصة عن

طيار فرنسي تمتزج كتابته بروح الشعر والفلسفة

ده سنت إكسوبيري

"اليوزباشى والملازم دوترتر : فليقدما نفسهما إلى الصاغ » .

كان معنى هذه الدعوة أننا سنؤمر بالخروج مرة أخرى عبثاً ، وكنا قد شارفنا ختام مايو سنة ١٩٤٠ ، وكان ذلك وقت تقهقر تام ونكبة شاملة . وكان كل شىء يتقوض حولنا ، وكانت طائفة فى إثر طائفة من رجال الطيران يضحَّى بها . وكنا كأنما نقذف بأكواب من الماء فى غابة تضطرم فيها النار رجاء أن تخمدها .

وكان كل ما للجيش الفرنسى أجمعه من طائرات الاستطلاع خمسون، لكل منها ثلاثة من الرجال . من هذه الخمسين ثلاث وعشرون تتألف منها وحدتنا ، وقد زالت من الوجود فى ثلاثة أسابيع سبع عشرة من الثلاث والعشرين . وذاب فريقنا كأنه كتلة من الشمع . وكنت أتحدث البارحة إلى الملازم جافوال فجرى لسانى بهذه الكلمات : « على كل حال ، سنرى ما يكون من هذا الأمر بعد الحرب » فقال جافوال ، وقد صدمه كلامى : « أرجو ألا يكون معنى كلامك ياحضرة اليوزباشى أنك تتوقع أن تخرج من الحرب سالماً حيا ؟ »

ولما ذهبت أنا ودوترتر إلى الصاغ ألياس ألفيناه ساهماً وكأنما قد استنفد قوته وخذلته أعصابه .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

رياح ورمال ونجوم

خلاصة كتاب بقلم

أنطوان دي سنت إكسوبيري

مؤلف "الطيران ليلاً" و"الطيران إلى أسفا"

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

رياح ورمال ونجوم

[هذه أكثر من قصة شخصية لطيار عظيم ، فإنها قصة عالمية لرجال يريدون أن يحيوا — وأن يموتوا أيضاً — في سبيل قضية ، ورواية أخطار في صور شتى ، من ثلوج الأند ، إلى خنادق إسبانيا ، وبيان لشيء في الإنسان يسمو فوق الخطر .

وينظر أنطوان ده سنت أكسوبيرى إلى تجاربه الواسعة نظرة الفيلسوف ، ولا يقتصر على نظرة الرجل الذى يكابدها . ويلقى على الحرب نظرة تنفذ إلى البواعث الإنسانية الكامنة وراء الحروب كلها] .

في سنة ١٩٢٦ اتخذتنى شركة لاتيكوير — التى خلفتها شركة « إيرفرانس » على الخط الجوى بين تولوز فى جنوبى فرنسا ، وداكار فى إفريقية الغربية الفرنسية — تلميذاً طياراً . وكنت أتعلم هذه الصناعة ، وأتدرب على ما يتدرب عليه الطيارون الشبان قبل أن يسمح لهم بحمل البريد . فكنا نقوم بدورات فى الجو للتدريب ، وبرحلات صغيرة متواضعة بين تولوز وبربنيان ، ونتلقى دروساً جافة فى الظواهر الجوية فى حظيرة يجمد من بردها الدم ، ونعيش فى خوف من جبال إسبانيا التى سيكون علينا أن نجتازها ، ورهبة وإجلال لمن هم أقدم منا .

وكنا نرى هؤلاء الطيارين المحنكين فى مطعم المطار — وهم جفاة وليس من السهل أن يتبسطوا ويرسلوا النفس على السجية — فكنا ، بعد أن يهبطوا إلى الأرض وقد غمرهم الماء ، وجاءوا بعد الموعد من اليكانتى أو الدار البيضاء ، نسأل أحدهم فى أدب عن رحلته . وكانت أجوبته الوجيزة فى تلك الأيام العاصفة تصلح أن تكون مادة كافية يصاغ منها عالم خرافى غاص بالشراك والفخاخ ، وبالجبال التى تبرز فجأة من الضباب ، وبتيارات الهواء التى يبلغ من قوتها أن تقتلع ضخام الأشجار . وكان يحدث أحياناً أن يتخلف عن العودة واحد من هؤلاء الطيارين الذين تنطوى لهم القلوب على الإجلال .

ثم كانت ليلة دعيت فيها بدورى إلى غرفة مدير المطار .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فقال : « عليك أن تسافر غداً » .

وما كدت أخرج من تلك الغرفة حتى ذهبت أعدو إلى صديقي جويوميه، فإنه يعرف الطريق وقد طار فوقه من قبل ، ويعرف كل الحيل والوسائل التي تضع في يد الطيار مفاتيح إسبانيا .

فلما دخلت عليه صعد طرفه إليّ وابتسم .

وقال : « إني على علم بالأمر ، فلا تقلق فإن الأمر أهون مما تظن » .

وكان يشع بالثقة والاطمئنان كما يشع المصباح بالضوء ، وقد جاوز فيما بعد كل ما سبق من السرعة في الطيران بالبريد في الأند والمحيط الأطلسي الجنوبي . أما الآن فكان جالساً ، في ضوء المصباح ، مرتدياً قميصه المطوي الكمّين ، وإحدى ذراعيه فوق الأخرى ، وعلى فمه ابتسامة ليس أشد منها تشجيعاً ، وقال لي ببساطة :

« ستضايقك العواصف والضباب والثلج ، من حين إلى حين ، فإذا أحسست بالضيق ففكر فيمن تغلبوا على هذه المصاعب قبلك ، وقل لنفسك إني أستطيع أن أفعل ما فعلوه » .

فبسطت خرائطي وسألته متردداً هل يسمح بشرح الطريق لي . وهكذا انحنيت في ضوء المصباح ، وكتفي إلى كتف هذا الطيار المحنك ، وشعرت بما يشعر به التلميذ السعيد المطمئن القلب .

ويا له من درس تلقيته في الجغرافية ! لم يتحدث جويوميه عن الأقاليم والمدن ، وإنما تحدث عن ثلاث أشجار برتقال على حافة مدينة: «احذر هذه الأشجار ، ويحسن أن تضع علامة لها على الخريطة » فصارت أشجار البرتقال هذه من الآن فصاعداً أعلى فيما أتوهم من جبال سييرا نيفادا .

وكانت التفاصيل التي نثرناها وأخرجناها من ظلمة الخفاء مما لم يعن جغرافي قط بارتيادها . فهناك مثلا نهر إبرو ، وهو يمر بمدن كبيرة، فلهذا يعنى به من يرسمون الخرائط، ولكننا تحدثنا عن جدول صغير يترقرق سرًّا بين أعشاب الماء إلى الغرب من موتريل :

« كن على حذر من هذا الجدول . فإنه يجتاز المهبط كله. ضع له علامة على الخريطة » آه ، سأظل أذكر أبداً ذلك الأفعوان الذي ينساب بين الحشائش . فما كان يبدو كأنه موجود ، ولا كان خريره الخافت أعلى من نقيق طائفة من الضفادع ، ولكنه ينام وإحدى عينيه مفتوحة . وكان يجري بين الحشائش في ذلك المهبط الذي اتخذ للطوارئ ، فكأنه متربص لي على مسافة ألف ميل مني حيث أنا جالس ، ولو أتيحت له فرصة لأحالني إلى شمعدان موقد .

وهذه الشاء الجريئة الثلاثون المستعدة

للحمـالة عليّ ، على سـفح تل ! الآن وقد عرفت أنها رابضة هناك فسأتشدد للقائها !

« يبـدو لك وأنت فى الجو أن المرعى لا شيء به ، وإذا بثلاثين شاة فى إثرك » فلم أقدر على أكثر من ابتسام الدهشـة حين سمعت هذا النذير القاسى .

وصارت إسبانيا على خريطتى — شيئاً فشيئاً — كالأرض المسحورة ، وصارت العـلامات التى وضـعتها للأماكن المأمونة والفخاخ ، معالم ومنائر للهداية . وسجلت أشجار البرتقـال ، والغنم ، والجـدول ، وشعرت أن جوبوميه قد جعل من البـلاد صديقاً لى .

* * *

وكانت الساعة الثالثة صباحاً حين أيقظونى فارتديت ثيابى وقعدت أنتظر السيارة القديمة التى ستقلنى . فلمـا جاءت ، انحشرت بين حارس من حراس الجمارك ، يغالب النوم ، وموظف حكومة كالح الوجه . وكانت السيارة تفعم الخيشوم بمثل رائحة العفونة ، ورائحة تراب مكاتب الحكومة التى تهوى فيها حياة الإنسان كما تغيب الأرجل فى الرمل الوعس . وكانت السيارة تقف كل خمسمئة ياردة لتأخذ موظفاً آخر ، وحارساً آخر ، ومفتشاً آخر .

وسمعتهم يتكلمون همساً عن المرض ، والمـال ، والمتاعب المنزليـة التافهة . . . ألا يا أيها الموظف القـديم الجالس إلى جانبى ، إنك لـكالنمل ، تبنى سـعادتك بأن تسـد بالأسمنت كل كوة وفتحة يمكن أن ينفذ منها الضـوء ، وتطوى بعضـك على بعض حتى تصبح كالـكرة ، وتلف حولك اطمئنانك وتتـدثر بعملك الآلى الذى لا يختلف ، وتشتمل بالتقاليد الخانقة للحياة الإقليمية ، وترفع سوراً ضئيلا يحجب الرياح والأنواء والنجوم ، وقد آثرت أن تكون بمنجى من المسائل الـكبرى ، وحسبك من المتاعب أن تنسى مصيرك كإنسان . أما أنا فقد فتح لى سحر الطيران عالماً سأواجه فيه ، قبل الفجر ، الأفاعىَ السود ، والقمم المتوّجة لسديم من البروق الزرقاء . ومتى جاء الليـل ، فإنى سأهتدى فى طريقى بالنجوم .

* * *

بعد هـذا « العماد » الفنى شرعت أنقل البريد الجوى بانتظام ، وكانت الرحلات فى الأغلب خاليـة من الحوادث ، وصرنا كالغواصـين الذين يهوون فى سكون إلى أغوار المحيط .

وكان الطيران يبدو لنا على العموم سهلا ، ومع ذلك مرت بنا رحـلات كنا نحس فى خـلالها فجأة أن على كل امرىء أن يعنى بنفسه ، ويبـدو لنا أننا اجتزنا تخوم عالم الحقيقة ، ونكون على مسافة ساعتين ليس إلا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

من الميناء الجوى ، فنشعر أننا دخلنا عالماً محظوراً سيكون من العسير جدا علينا فيه أن نعود منه .

فمثلا لما عبر ميرموز جنوبى المحيط الأطلسى للمرة الأولى ، وقد مالت الشمس للمغيب ، وقع فى بلية من « منطقة الحجر الأسود » على مسافة من إفريقية فقد واجه إعصاراً يهيج بمثل العمد نحو السماء ويرتفع شيئاً فشيئاً كما يرتفع الجدار ، ثم جن الليل على هذه البوادر فطواها جنحه وغابت فيه ، فلما دخل بعد ساعة فى أطواء السحب كان كأنما خرج إلى عالم خيالى .

فقد كانت هناك أمثال عمد الهيكل فى ثباتها ، من الماء الفائر المندفع فى الهواء ، وتضخمت رءوسها فكأنها تحمل عقداً مسفا من العاصفة ، وكانت هناك فجوات فى هذا العقد تبدو منها « ألواح » من الضوء ، وكان القمر فى ليلة السواء يرسل أشعته الفضية اللألاء من بين العمدان ، على البحر الذى كأنما فرش بقرميد متجمد . فكان ميرموز يأخذ طريقه بين هذه الخرائب المهجورة وينزلق مائلا من مجرى ضوء إلى آخر ، ويدور حول هذه الأعمدة الضخمة التى لا بد أن يكون ما جاش واندفع من البحر يجلجل فيها ، وظل أربع ساعات يطير مجتازاً دهاليز ضوء القمر إلى المخرج من المعبد . وبلغ من روعة هذا المنظر وعمق وقعه فى النفس أنه ما أدرك أنه لم يكن خائفاً إلا بعد أن خلف « الحجر الأسود » وراءه .

والطائرة التى يخيل إلى الإنسان أنها أداة لعزل الإنسان عن الطبيعة ، تقذف به فى أعماقها ، فإن المسائل الجوهرية التى تواجه الطيار ، مدارها الجبال والبحر والريح . ومتى صار وحده أمام محكمة السماء العاصفة فإنه يدافع عن بريده ، وينازل هذه العناصر الثلاثة على قدم المساواة .

وأكياس البريد المحفوظة فى مستودعها هى دين حرفة الطيار ، وهى المشعل الذى يناوله ، فى هذا السباق الجوى ، عدّاء إلى عداء . وما قيمة أنه لعله لا يحمل فى بريده إلا ما تخطه أقلام التجار والعشاق ؟ وإذا حدث يوماً أن صاد أحد النجود رجال طائرة ، فإنهم لا يكونون قد قضوا نحبهم فى سبيل التجار أو غيرهم ، بل طوعاً لأوامر ترفع أكياس البريد مقاماً سامياً متى صارت فى الطائرة .

وحتى هذه الأوامر ليست هى التى تعنينا ، وإنما يعنينا الرجال الذين تصبهم فى قالبها .

* * *

وميرموز هذا هو طيار أحد الخطوط .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وجويوميه طيار آخر ، وسأتحدث عنه لتدرك بوضوح ما أعني حين أقول إن طرازاً جديداً من الرجال يصاغون فى قالب هذه الحرفة الجديدة .

كانت حفنة من الرجال ، ميرموز أحدهم ، يرتادون خط الدار البيضاء — دكار ، وكانت السيارات فى تلك الأيام غير ما تعلم ، فأسره رجال القبائل وبقى أسبوعين أسيرا عندهم ، ثم افتدى ، وظل بعد ذلك يطير فوق هذه المنطقة نفسها .

ولما أنشىء خط جنوب إفريقية ، اختير ميرموز — وهو فى طليعة الرواد أبداً — لارتياد القسم الواقع بين يونيوس إيريس وسانتياجو دى شيلى ، فقد كان هو الذى أقام جسراً فوق الصحراء الكبرى ، فالآن وكل إليه أن يقيم جسراً فوق الأند . وأعطوه طائرة أقصى ماترتفع إليه ١٦٫٠٠٠ قدم وطلبوا منه أن يطير بها فوق سلسلة جبال ترتفع إلى أكثر من ٢٠٫٠٠٠ قدم . وكان عليه أن يبحث عن فجوات عرق منها فى جبال كورديلليرا ، أى أن الرجل الذى درس وجه الصحراء ، كان عليه أن يدرس وجوه النجود التى تتلفع بالثلوج التى تثيرها الرياح ، وتهيج الهبوات فى دهاليزها الضيقة ذوات الجدران الصخرية ، وتكره الطيار على ما يشبه المبارزة .

وقد أقدم ميرموز على الدخول فى هذه الحرب مع العناصر الطبيعية وهو أتم مايكون جهلا بعدوه ، وبمبلغ إمكان الرجوع حيا . وكان عليه أن يقوم لنا جميعاً بهذه التجربة . وقد قام بها ذات يوم فألفى نفسه أسيراً فى الأند .

فقد اضطر ميرموز والميكانيكي الذى معه إلى الهبوط إلى ارتفاع ١٢٫٠٠٠ قدم فوق هضبة تنحدر جوانبها عمودية من كل ناحية ، فظلا يومين عصيبين يبحثان عن مخرج من هذه الهضبة ، ولكنهما كانا كأنهما فى فخ ، فقد كان المنحدر وعراً فى كل مكان ، فجازفا بآخر ما عندهما من حيلة .

وكانا لايزالان فى الطائرة ، فأطلقاها تدور وتقفز هابطة فوق منحدر حتى بلغا وهدة ، واستطاعت الطائرة أن تستجمع ، وهى تهوى من السرعة ، ما تستجيب به للآلات ، فوسع ميرموز أن يحول أنفها إلى نجد وأن يتخطاه ، وكان الماء ينبثق من جميع الأنابيب التى انفجرت بتأثير الصقيع فى الليل ، وأعطبت آلاتها بعد سبع دقائق فقط من الطيران ، ونظر ميرموز فإذا تحته سهل شيلى كأنه أرض الميعاد .

وفى اليوم التالى أعاد الكرة .

وعلى هذا النحو من الارتياد ، اضطر ميرموز غير مرة أن يهبط فى الصحراء ،

تارة ، وفوق الجبال طوراً ، وفى الليل وفى البحر أحياناً ، وكان فى كل مرة يعود سالماً ليستأنف الخروج كرة أخرى .

وأخيراً ، بعد اثنتى عشرة سنة من الخدمة طار من دكار قاصداً إلى ناتال ، فبعث برسالة لاسلكية موجزة يقول إنه عطل محركه الأيمن . ثم ساد الصمت .

وانتظرنا ، وتعلقنا بالأمل . وطالعتنا الحقيقة شيئاً فشيئاً فأدركنا أن زميلنا لن يعود ، وأنه راقد فى المحيط الأطلسى الجنوبى الذى كثيراً ما جاب سماءه . لقد أدى عمله وانسلَّ ليستريح كالحاصد ربط حزمته بعناية ، وانطرح فى الحقل لينام .

وفى أمثال هذه الحالة لا يستقر فى وعينا إلا تدريجاً أننا لن نسمع مرة أخرى ضحك صديقنا ، وأن هذه الحديقة الخاصة قد أوصد بابها فى وجوهنا إلى الأبد . وفى هذه اللحظة يبدأ حزننا الحقيقى ، فما من شىء يحل محل هذا الزميل ، فإن الأصدقاء القدماء لا يستفادون فجأة بالإرادة . ولا شىء يعدل كنز الذكريات المشتركة ، والمحن المجتازة معاً ، والشجار والخلاف والوفاق والوئام والعواطف الكريمة . ومن العبث أن تغرس بذرة فى الصباح وتتوقع أن تستظل بشجرتها عصراً .

وهكذا الحياة ، نظل سنوات نغرس البذرة ، ونشعر أننا أغنياء ، ثم تجىء سنوات أخرى يعمل فيها الزمن عمله ، فإذا مزرعتنا قليلة الشجر سليبته . ويذهب زملاؤنا واحداً بعد واحد ، فنحرم ما كنا نتفيأ من ظلهم .

***

وأنت يا جويوميه ، يا صديقى القديم ، سأقول فيك أنت أيضاً بضع كلمات ، ولتثق أنى لن أخجلك بالمباهاة السخيفة بشجاعتك وبسالتك فى عملك ، فإن لى غرضاً آخر مختلفاً جداً من التحدث عن أغرب مغامراتك .

كان الوقت شتاء ، وقد تهت فى الأنديز . وأقبلت من أقصى بتاجونيا لأنضم إلى ديلى فى مندوزا ، وقضينا نحن الاثنين — وكل فى طائرته — خمسة أيام نبحث فى الجبال بلا جدوى . طائرتان اثنتان ليس إلا ! لقد كان يخيل إلينا أن مئة سرب تطير مئة عام ليست بكافية للبحث فى هذه السلسلة التى لا آخر لها ، والتى تذهب قممها فى السحب وتغيب . وفقدنا كل أمل ، ونصح لنا موظفو حكومة شيلى بأن نكف ونيأس من العثور عليك ، وقالوا : « إن هذا قلب الشتاء ، فحتى لو نجا صديقكم عند هبوطه فإن الليل فى هذه الدروب يحيل الإنسان لوحاً من الثلج » .

وكان يخيل إلى وأنا أقوم بهذه

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأبحاث العقيمة، أنى لم أعد أنشدك، وإنما أنا جالس مع جثمانك فى سكون معبد الثلج. ومضى على غيابك أسبوع وإذا بنبأ يجىء فجأة: «لقد وجدوا جويوميه!».

وما هى إلا عشر دقائق حتى كنت فى الجو ومعى اثنان من الميكانيكيين، وبعد أربعين دقيقة هبطت إلى جانب طريق، فقد عرفت وأنا فى الجو، السيارة التى حملوك فيها من سان رفاييل. وأتذكر أننا بكينا كالبلهاء، وطوقنا جويوميه الحى — مؤلف آيته ومعجزته! وفى تلك اللحظة نطقت بأول جملة مفهومة — فكانت كلمة بارعة بما انطوت عليه من الاعتداد بالإنسانية.

«أقسم أن ما احتملت لم يكن يستطيع حيوان أن يحتمله».

ثم رويت لنا بعد ذلك قصتك، فعلمنا أن عاصفة ألقت ما ارتفاعه ١٥ قدماً من الثلج فى ثمان وأربعين ساعة على الأرض، فكان هذا فخاً وقعت فيه، وتجاذبتك تيارات فظيعة، فصارت الطائرة تتقلب كأنها قبعة فى الطريق، وهبطت بها أخيراً على الثلج.

وقلت لى: «ولما خرجت منها وقفت، فضربتنى الريح فألقتنى على الأرض، ثم نهضت واقفاً مرة أخرى، فصرعتنى الرياح ثانية، فزحفت حتى صرت تحت مقدمة الطائرة، وحفرت لنفسى مخبأ فى الثلج، وأحطت نفسى بعدة أكياس بريد، ورقدت هكذا يومين وليلتين، ثم سكنت العاصفة، فشرعت أسير ملتمساً لى مخرجاً، وقد سرت خمسة أيام وأربع ليال».

ولكن ما ذا كان قد بقى منك يا جويوميه؟ لقد وجدناك حقاً، ولكنك كنت هزيلا معجوفاً، كأنك امرأة عجوز، وكان منظرك وأنت على سرير المستشفى، فظيعاً، وكنت شقيا لأنك فقدت أداة عملك الجميلة، وكانت يداك قد خدرتا وهرأهما البرد وسلبهما الفائدة، ولما جلست على حافة سريرك تدلت قدماك الجامدتان كأنهما كتلتان ميتتان، ولم تكن قد فرغت من الرجعة إلى الحياة، فقد كنت لا تزال تلهث وتكافح وتجاهد.

وكنت، وأنت تقص علينا قصتك المروعة أراك بعين الخيال تجر رجليك بغير عصى، أو حبال أو زاد، وتتوقل نجوداً ترتفع إلى ١٥٫٠٠٠ قدم، وتزحف فوق صخور عمودية، وكفاك، وقدماك، وركبتاك، تدمى فى جو تهبط فيه درجة الحرارة إلى عشرين تحت الصفر، وتزف دمك شيئاً فشيئاً، واسترقت قوتك، وطار لبك، فمضيت على وجهك بمثل عناد النملة، تكر راجعاً لتدور حول عقبة معترضة، وتنهض نفسك متحاملا عليها بعد كل عثرة، وتصعد فى المراقى التى تفضى إلى مهاو، ولا تكف

عن السير والحركة ، ولا تغمض لك عين ، لأنك لو كنت نمت لما قمت أبداً عن فراش الثلج .

وقاومت ما يغريك . وقلت لى : « إن الإنسان بين الثلوج : يفقد غريزته التى تدفعه إلى المحافظة على ذاته . فبعد يومين أو ثلاثة أو أربعة من المشى والسعى ، تعود وليس لك هم إلا النوم . وكانت نفسى تنازعنى أن أرقد ولكنى كنت أقول لنفسى : « إذا كانت زوجتى لا تزال تعتقد أنى على قيد الحياة ، فإنها ولا شك تعتقد أنى على قدمى . وكل زملائى يعتقدون أنى على قدمى لأنهم يثقون بى . فلا بد أن أستمر » .

على أنه حدث مرة أن زلت قدمك ، فألفيت نفسك منطرحاً على الثلج ، فنفضت يدك يائساً .

وقلت : « لقد بذلت غاية وسعى ، فأخفقت فلماذا أستمر ؟ » .

وشعرت أن كل ما عليك أن تفعله لتفوز بالراحة هو أن تغمض عينيك ، فما أقل ما كان الأمر يتطلب لتطوى صفحة هذا العالم المؤلف من الوعور والثلوج ! .

وبدأت تذوق الراحة المستفادة من هذا « المورفين » ، ولكن وخز الضمير أهاب بك من أعماق وعيك : « ففكرت فى زوجتى وكيف أنها ستصبح معدمة إذا لم تستطع أن تقبض مبلغ التأمين » .

ذلك أن الرجل حين يختفى ، يؤجل تقرير وفاته رسمياً أربع سنوات ، وقد كان هذا الخاطر الرهيب حسبك ، فمحى كل ما عداه ، وكنت راقداً واقعاً على بطنك ، ووجهك إلى الثلج الذى يكسو مرتقى وعراً . ومتى جاء الصيف وذاب الثلج هوى جسمك مع ما يسيل من الماء والتراب ، وغاب فى واحد من آلاف الشقوق فى الأند . وكنت تعرف هذا ، ولكنك كنت تعرف أيضاً أن على مسافة خمسين ياردة أو نحو ذلك صخرة ناتئة من الثلج : « نخطر لى أنى إذا نهضت ، قد أستطيع أن أصل إليها ، وإذا استطعت أن أستند إلى هذه الصخرة ، فقد يجدوننى عندها فى الصيف المقبل » .

وصرت على قدميك مرة أخرى ، فذهبت تجرها وتمشى ليلتين وثلاثة أيام ، ولكنه لم يكن يدور بخلدك عندئذ أن فى وسعك أن تحتمل فوق ما احتملت .

« إن الذى ينقذ الإنسان هو أن يخطو خطوة ، ثم خطوة أخرى » .

وأخيراً ، فى تلك الغرفة ، نمت نوم المتكسر الذى أضمره الكلال ، فقلت لنفسى إن مكان جويوميه فوق الشجاعة وفوق تلك الفضيلة العادية التى تسمى التواضع : فإن عظمته الأدبية مرجعها إلى شعور

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بالتبعة فقد كان يدرك أنه مسئول عن نفسه ، وعن البريد ، وعن تحقيق آمال زملائه ، وكان فى يديه حزنهم وسرورهم ، وهو مسئول عن ذلك العنصر الجديد الذى ينشئه الأحياء ، والذى يشترك فى إنشائه .

لقد كان جويوميه أحد أولئك الرجال ذوى الجرأة والأريحية الذين فرضوا على أنفسهم أن ينشروا ظلهم فوق آفاق شاسعة . ومعنى أن يكون المرء رجلا ، هو أن يكون مسئولا ، وأن يشعر بالزهو من جراء انتصار فاز به زملاؤه ، وأن يحس حين يضع لبنته أنه يساهم فى بناء العالم .

عرفت شاباً انتحر ، ولا أتذكر أية خيبة أمل له فى الحب أو غيره أغرته بأن يطلق رصاصة على قلبه ، ولا أدرى أى باعث أدبى صدر عنه حين وضع على يديه قفازين ناصعى البياض قبل أن يطلق الرصاصة . ولكنى أتذكر ، حين علمت بهذه الحادثة المؤسفة ، أنى لم أشعر بنبل فيه ، بل بنقص فى الكرامة . فوراء هذا المحيا الوسيم ، إذن ، وفى هذا الرأس الذى كان ينبغى أن يكون صندوق كنز ، لم يكن هناك شىء ما على الإطلاق .

ولما سمعت بهذا المصير العقيم التافه ، تذكرت رجلا آخر مات ، وكان بستانياً ، وكان يقول وهو على فراش الموت : « لعلكم تعلمون أنى كنت أحياناً أتصبب عرقا وأنا أعمل بالفأس ، وكان الروماتزم يأخذ فى ساقى فيجهدنى الوجع ، فأسخط على نفسى وأقول إنى عبد رق ، والآن أقول لكم إنى أشتهى أن أعمل بالفأس وأعمل ، فإنه لعمل جميل ، والإنسان يشعر أنه حر حين يعمل فأسه . ثم إنى أتساءل من ذا عسى أن يقلم أشجارى بعد موتى ؟ » .

وكان الرجل سيخلف وراءه أرضاً بورا ، وكانت فى قلبه علائق حب لكل أرض تزرع ولكل أشجار العالم . فهذا رجل كريم القلب ، رجل سخى النفس ، رجل نبيل ، رجل يصارع الموت باسم الخلق ، ويستحق ، مثل جو يوميه ، أن يوصف بأنه شجاع !

* * *

لقد كان ميرموز ، وجويوميه ، والبستانى المسكين — رجالا أحراراً حقاً . ويحضرنى الآن ذكر رجل آخر ، وضيع المنزلة، ولكنه فاز بالحرية من طريق آخر . وقد عرفته لما كنت أعمل فى إفريقية ، واسمه بارك ، وهو عبد مسترق .

« خبئنى فى طائرة مراكش ! » .

وكان يتقدم إلىّ بهذا التوسل ليلة بعد ليلة فى رأس « جوبى » . وكان اسمه ، قبل زمن طويل ، محمد بن الحسين وكان راعياً

فى تلك الأرض السوداء ذات البيوت القرمزية اللون ، ولكن بغاة الرقيق سطوا على الأرض وحملوه وأطلقوا عليه اسماً مسيحياً « بارك » ، وباعوه . وكانت زوجته وأبناؤه الثلاثة فى مراكش ، وكانوا لا يزالون ولا شك على قيد الحياة .

ولم يحقد علىّ من أجل أنى رفضت بالصمت أن أجيبه إلى طلبه ، وأنى أخرت رجعته إلى الحياة . ولم أكن فى نظره إنساناً ، بل قوة يدعوها ويتوسل إليها ، أو ريحاً طيبة ، قد تعيد إليه حسن الحظ وإشراق الحياة .

وكنت أنا لا يساورنى مثل هذا الوهم فيما يتعلق بقوتى ، وهل أنا إلا طيار بسيط يتولى ، بضعة شهور ، رياسة المطار فى رأس جوبى ، ويعيش فى كوخ من الخشب كل أثاثى فيه : حوض ، وإناء للماء ، وسرير أقصر منى ؟

« سنرى يا بارك » .

فيبتسم بارك ويبين لى بصوت كالهمس كيف أستطيع أن أخبئه فى الطائرة ، ولكنى أخشى ما عسى أن يفعله رجال القبائل بنا على سبيل الانتقام وغسل الإهانة .

وقد حاولت فعلا أن أشتريه ، ولكنه لم يكن مما يحدث كل يوم أن يجد رجال القبائل أوربياً يريد أن يشترى عبداً ، فاغتنموا هذه الفرصة .

« عشرون ألف فرنك » .

« إن هذه سخافة » .

« ولكن انظر إلى ذراعيه القويتين . . »

ومضت شهور قبل أن يهبطوا إلى رقم أستطيع بمساعدة أصدقائى أن أجده .

ولما اشتريت بارك ، حبسته ستة أيام فى كوخى ، لأنه لو كان قد خرج قبل أن تصل الطائرة ، لكان رجال القبائل قد خطفوه بلا شك . ورأى الميكانيكيون أن من العار أن يقذف ببارك على الدنيا وهو خالى الوفاض ، فجمعوا له مبلغاً من المال .

« وداعاً يا بارك ! وكن رجلا » .

وانتفضت الطائرة استعداداً للصعود ، وألقى بارك نظرة أخيرة على رأس جوبى وما حوله من محل ، ووقف حول الطائرة مئتان من رجال القبائل ليروا كيف يكون الرقيق حين يقف على عتبة الحياة ، وما كانوا ليحجموا عن خطفه واستعادته ، لو أن الطائرة بعد ذلك بقليل اضطرت إلى الهبوط .

ووقفنا حول وليدنا الجديد الذى يبلغ من العمر خمسين عاما ، وقد ساورنا بعض القلق لأنا نلقى به فى تيار الحياة .

* * *

وآخر ما اتصل بنا من أخبار بارك ، هو ما رواه لنا عبد الله ، الذى رجونا منه

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أن يعنى به فى أغادير ، فعلمنـــا أن الطائرة وصــلت إلى أغادير فى الصباح ، ولـــكن الطائرة الأخرى التى كان سيواصل رحلته عليها لم تسافر إلا فى المساء . فقضى بارك نهاره على النحو الآتى :

بدأ بالتجول فى المدينـــة وهو صامت لا يستقر ، فقد فاز بهذه الحرية فجأة ، وكان من الصعب أن يتكيف بسرعة ، ثم جلس فى مقهى عربى وطلب لنفسه ولعبـــد الله شاياً ، وكان هذا أول عمل أتاه من أعمال السادة . وكان هذا خليقاً أن يبدو مستغرباً فى عيون الناس ، ولـــكن الخادم صبّ له الشاى بلا استغراب ، ومن غير أن يدرى أنه بذلك يحتفى برجل حر .

وقال بارك : « تعال نذهب إلى مكان آخر » ، فذهبا إلى القصبة ، وهى حىّ فيه نسوة مرخص لهن ، فتناولت فتيات البربر يده ، وكان مشغولا برسالته فنزع يقص عليهن قصة بعثه ، فابتسمن ابتسامة العطف ، وأراد هو أن يزيد دهشتهن فقال: « اسمى محمد بن الحسين » .

ولـــكن هذا لم يكن مما يدهشهن ، فإن لـــكل رجل اسما ، وما أكثر الذين يعودون من بلاد بعيدة ، ولـــكنهن مع ذلك أدركن أن هذا الرجل تعذب ، فحاولن أن يكن لطيفات مع هـــذا المسكين . فشـــكر لهن لطفهن ، ولـــكن قلقه لم يكن قد سكن لأنه لم يكن قد استرد دولته .

فرجع ومعه عبد الله إلى المدينة ، ووقف ينظر إلى البحر ، ويقول ويكرر إنه يستطيع أن يذهب كما يشاء فى أى اتجاه ، وأنه حر . ولـــكن هذه الحرية خالطها بعض المرارة ، وكان أقوى ماوقع فى نفسه منها أنه لا يربطه بالعالم شىء .

وأقبل فى تلك اللحظة طفل ، فمسح له بارك خده الغض ، فابتسم الطفل ، فاستيقظت نفس بارك ، وشعر أنه صار أكبر شأناً فى هذه الأرض ، ونظر إلى طائفة من الصبيان يلعبون على مقربة منه ، ثم قصد إلى دكاكين اليهود ، فلما عاد مثقلا بالهدايا غضب عبد الله .

وقال : «يا أحمق ! أهكذا تبدد مالك ؟»

فلم يعبأ به بارك شيئاً ، ودعا إليه الصبية واحـــداً بعد واحـــد ، وارتفعت الأيدى الصـــغيرة وامتدت إلى اللعب ، والدمالج ، والخفاف المخيطة بخيوط الذهب ، وكان كل طفل بعد أن يأخذ هديته ، يذهب يعدو ، وعاد بارك إلى دكاكين اليهود .

وسمع صبيان آخرون فى أغادير بالأمر فتجمعوا عليه ، واحتشدوا وراء هذا الإله الأسود ، وتعلقوا بثوبه البالى ، وصاحوا مطالبين بنصيبهم ، فأنفق عليهم بارك ، فى فرحته ، آخر درهم .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان عبد الله لا يشك فى أنه جن ، وقال بعد ذلك : « جن من الفرح » . ولكنى أميل إلى الاعتقاد بأن بارك لم يكن بشاطر غيره فيضاً من السعادة ، فقد كان حراً ، ولكن ما خير هذا المال متى كان مطلبه الذى يلح على نفسه إلحاح الجوع هو أن يكون رجلا فى أسرة رجال تربطه وشائج متينة بغيره .

وكانت فتيات البربر قد أولينه عطفاً ورقة ، ولكنهن لا يحتجن إليه ، وقد احترم عاملُ المقهى ، والمارة فى الشارع ، وأصحاب الدكاكين ، هذا الرجل الحر الذى هو بارك ، ولكنه ما من أحد منهم بدا عليه أن به حاجة إليه .

لقد كان حراً ، ولكن حريته كانت بلا حد ، ولم يكن يدب على الأرض ، بل يسبح فوقها ، وأحس أنه تنقصه العلاقات الإنسانية التى تعوق خطوات الرجل ، ومع ذلك تربطه بغيره .

ولهذا ذهب بارك يخوض الحياة فى تيار من الطفولة المتجمعة حوله ، كما كان يفعل فى بحر من النعاج . وسيعود فى اليوم التالى إلى فقر أسرته ، وإلى التبعة عن حيوات كثيرة لعل ساعديه الهرمين لا يقويان على الكفية لها . على أنه شعر وهو بين هؤلاء الأطفال بجذب نفسه الحقيقية ، فرد نفسه إلى الحرية بفضل ألف طفل يحتاجون أشد الحاجة إلى الخفاف الذهبية .

* * *

ولما كان الإنسان ، لا الطيران ، هو الذى يعنينى أكثر مما يعنينى سواه ، فسأقص قصة رجل يتحسس طريقه إلى كمال نفسه ، كما شهدت ذلك فى الشهور الأولى من الحرب الأهلية فى إسبانيا ، حيث كنت أنشد جواب هذا السؤال : كيف يحدث أن نرى الرجال أحياناً راغبين فى الموت مستعدين له ؟

وكنت فى مدريد فشهدت ضربها بالقنابل ، فكأنما كان ينبغى أن تنفجر قوة هذا الرعد كله على الطريق الكبير لتزهق روحاً إنسانية واحدة ! روحاً واحدة ليس إلا ! وكان المارة قد نفضوا عن ثيابهم التراب وغيره ، وكان غيرهم قد تبعثروا وذهبوا يعدون ، ولما تقشع الدخان وجد الخطيب — الذى نجا بأعجوبة فلم يصبه خدش — عند قدميه خطيبته التى كانت ذراعها إلى ما قبل هنيهة ملتفة بذراعه ، قد صارت إسفنجة ممتلئة دما ، وكتلة هامدة من اللحم والخرق .

فركع ، وهو غير مدرك شيئاً ، وهز رأسه ببطء كأنما يقول لنفسه : « لقد حدث أمر غريب » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان هـذا الشيء الغريب المنطرح على الرصيف ، لا يشبه في شيء تلك التي كانت حبيبته وخطيبه . وكان التعس أليم البطء في احتوائه عليه ، فظل ثانية أخرى مذهولا ، يدير نظره وهو حائر باحثاً عن ذلك القد المشوق كأنما كان هو على الأقل ينبغي أن ينجو ، ولكنه لم يكن ثم إلا هـذه الحزمة من خليط من الدم واللحم والتراب .

وانطفأت شرارة الإنسانيـة الضعيفة .

وبينما كان الرجل تتلجلج في حلقه تلك الصرخة التي لا أدري ماذا منعها أن تنطلق ، فكر في أنه لم يكن يحب هاتين الشفتين بل زمتهما ، لا بل ابتسامتهما ، ولا عينيها بل نظرتهما ، ولا ثدييها ، بل رقة إشرافهما . وتسنى له أن يدرك أخيراً مصدر الألم الذي ادخره الحب له ، وأن يعرف أنه كان ينشد مالا ينال ، وأنه لم يكن يشتهي أن يعانق جسما بل روحاً وشرارة ، أوالملك الروحاني الذي يسكن البدن .

ولست أعبأ شيئاً بأصول الحرب وقانون الانتقام ، أما الفائدة الحربيـة التي تجنى من مثل هذا الضرب بالقنابل فشيء لا أستطيع أن أفهمه ، ولقد رأيت زوجات مبقورات البطون خارجات الأحشاء ، وأطفالا مشوهين ، وبائعة متجولة عجوزاً ، تطرح عن بضاعتها المخ الذي انتثر فوقها . ورأيت امرأة بواب تخرج من قبوهـا وتريق دلو ماء على الرصيف المتسخ . ولا أزال عاجزاً عن أن أفهم الفـائدة التي تجنى في الحرب من هذا المجازر .

أم ترى الغرض معنوي ؟ ولكن الضرب بالقنابل يهيج النفوس على الضارب ! فإن كل قنبلة سقطت على مدريد حصنت شيئاً في المدينة ، وأقنعت الذي كان واقفاً موقف الحياد والتردد بأن يخف إلى نجدة المدافعين ، والطفل المقتول يكون أثقل في الميزان حين يكون طفلنا . وقد تبينت بجلاء أن ضرب مدريد لم يشتت أبناءها بل وحّدهم ، فإن الفظاعة تجعل الناس يعضون على النواجذ وينضم بعضهم إلى بعض .

* * *

وفي مرة أخرى وقفت ذات ليـلة مع ثلاثة رجال أو أربعـة محتمياً بجدار أمام خنادق الأنصار ، وكانت خطوط العدو على الناحيـة الأخرى من الوادي المظلم حيالنا ، فأوقدت عود ثقـاب لأشعل سيجارة ، فدفعت يدان قويتان رأسي إلى تحت ، وانحنى كل امرىء وسمع صفير رصاص .

وقال أحدهم : « يظهر أن القوم هناك أيقاظ » .

« أتظن أنهم سيتكلمون الليلة ؟ » .

« إن أحدهم — أنطونيو — يتكلم أحياناً » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« ناده » .

فنهض ووضع كفيه على جانبي فمه ، وملأ صدره هواء ، ونادى بصوت عال « أنـ . . . طو . . . نيو . ! » .

فذهب الصوت يتموج وينتشر ، ويسبح فوق الوادى ويرتد إلينا صداه .

وقال جارى : « يحسن أن تطأطئ رأسك ، فإنهم يرمون بالرصاص أحياناً حين نناديهم » .

ووقفت أتخيلهم على جانبهم من الوادى إذ يسمعون هذا الصوت الآدمي الذى لم يستثر غضبهم لأنهم لم يطلقوا رصاصة . وصحيح أنهم لم يجيبوا ، ولكن ما أشد يقظة هؤلاء القوم الصامتين الذين كان إشعال عود كبريت واحد كافياً لتحريك أصابعهم على الزناد .

وملأ الرجل صدره بالهواء مرة أخرى وصاح :

« انطونيو ! إنى أنا ليو أناديك ! »

وذهب الصوت فى الوادى كأنه سفينة تنزل إلى الماء — مسافة ثمانمئة ياردة ، إلى الشاطئ الآخر ، وارتد إلينا صداه مجتازاً ثمانمئة ياردة . فإذا أجابوا فستمضى خمس ثوان بين أسئلتنا وأجوبتهم . خمس ثوان من الصمت ينقطع فيها كل قتال .

« او و و . . . . . »

صوت بعيد كالموجة الضعيفة يقبل علينا ليموت على شاطئنا ، وقد أقبل مرة أخرى « وقت . . . النوم ! »

هؤلاء الرجال الذين أطلقوا نارهم على ضوء عود الكبريت ، قد ملأوا الآن صدورهم بالهواء ليبعثوا إلينا بنصيحة أبوية .

«اسكنوا ! ارقدوا ! جاء وقت النوم !»

فتتحرك نفوسنا لذلك . وقد تظن أيها القارئ أن هؤلاء الرجال إنما كانوا يلعبون لعبة ، وإنهم ليفعلون ذلك على معنى من المعانى ، ولكن الألعاب قد تستر شيئاً عميقاً قوياً . وههنا لعبة تركت قلوبنا تخفق بشدة .

واعتدل الفلاح الذى أغرى أنطونيو بالكلام وجعل من نفسه سفيراً لنا ، وأخرج من صدره الكبير هذا السؤال الذى ينطوى على كل سؤال :

« ياأنطونيو ! لماذا تقاتل ؟ »

وينبغى أن أقول هنا إنه هو وأنطونيو يخجلهما أن تحمل كلامهما على محمل الجد ، وأنهما خليقان أن يؤكدا لك أنهما يمزحان ، ولكنى كنت هناك وهو واقف ينتظر ، ونفسه متلهفة على الجواب .

« فى سبيل إسبانيا . . . »

ثم سمعت :

« وأنت ؟ »

وتلقى جوابه ، وسمعته يقذف به فى الهواء ،

« قوت إخوتنا ! »

ثم هذه التحية المدهشة :

« عم مساء ياصديقي ! »

ثم الجواب من الجانب الآخر من العالم :

« عم مساء ياصديقي ! »

ثم السكون .

لم تكن ألفاظهم واحدة ، ولكن الحقائق كانت متطابقة .

* * *

وجلست أتعشى ذات ليلة فى جبهة مدريد بغرفة تحت الأرض مع ضابط شاب ونفر من رجاله ، فدق التلفون وصدر الأمر إلى الضابط بالاستعداد للهجوم قبل طلوع الصبح ، وكانت خطوط العدو على بضع ياردات فقط ، وكان الهدف عبارة عن عشرين منزلا فى هذه الضاحية الصناعية ، وكان على المهاجمين أن لا ينتظروا تعزيزاً ، وأن ينسفوا المنازل واحداً بعد واحد بالقنابل اليدوية ويحتلوها.

وخالجنى شعور غامض وأنا ألقى نظرة أخيرة على هؤلاء الرجال الذين لا يلبثون أن يلقوا بأنفسهم فى التهلكة ، فتتناثر أشلاؤهم قبل أن يبلغوا الجانب الآخر من الطريق ، وكانوا يتناولون الأمور فى يسر ، ولكن الضابط عاد من التلفون وهو يهز كتفيه ، فدفع بيده قدحين وزجاجة براندى وقال للشاويش :

« ستقود الصف معى ، فاشرب قدحاً ونم قليلا » .

فشرب الشاويش ونام . وكنا اثنى عشر جالسين حول المائدة وقد سدت جميع الثقوب والنافذ، فما من خيط من الضوء يمكن أن يتسرب ، وكان البراندى حلواً ، ينعش النفس ، وطعمه غير سائغ كالمطر فى مطلع الصبح . وكان بعضهم إلى يمينى يقص قصة مضحكة ، وكان يتكلم بسرعة فلم أفهم أكثر من كلمة واحدة من كل ثلاث كلمات .

ودخل رجل يترنح قليلا من السكر ، ووقف يحك ذقنه وينظر إلينا بعينين ناطقتين بالمودة ، وأخذت عينه الزجاجة ، فالتفت إلى الضابط وألقى إليه نظرة رجاء وتوسل .

فضحك الضابط فى فتور ، فعظم رجاء الرجل فضحك مثله ، وسرت نفحة خفيفة من الضحك فى الغرفة الغاصة بالرجال ، ومد الضابط يده ودفع الزجاجة إلى حيث لا تصل إليها اليد ، فنمت نظرة الرجل على اليأس ، وبدأت لعبة صبيانية ، أو رقصة صامتة فى ضباب من دخان السجاير وضجر السهر وما سيتلوه من الهجوم ، فكان ذلك كله كأنه حلم . وجلست مسحوراً بجو السهر الذى ينتهى ببطء، على حين كانت أصوات القنابل فى الخارج تزداد شدة وعنفاً .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وبعد قليل سيذهب هؤلاء الرجال ويطهرون أنفسهم من العرق والبراندى وأقذار السهر ، بمياه الحرب ! فشعرت أن فيهم شيئاً يكاد يكون صفاء لا تشوبه شائبة ، أما الآن فإنهم يرقصون رقصة السكير والزجاجة ، وقد آلوا أن يستغرقهم هذا أتم استغراق ، وكانوا يطيلون الحياة إلى أقصى ما يتيسر ، ولكن هناك على رف ساعة منبهة ، وقد ضبطت لتدق الوقت المعين للهجوم ، ساعة الصفر — ولم يكن أحد يرفع طرفه إليها ، ولكنهم جميعاً سيسمعونها على التحقيق !

وستدق الساعة ، وسينهض الرجال ويتمطون على نحو غريزى فى كل رجل يوشك أن يعالج مسألة البقاء ، ثم يرتدون أشياءهم ويحملون سلاحهم ، ويسحب الضابط مسدسه من كيسه ، ويفيق السكران ، ويخرجون جميعاً واحداً وراء واحد إلى الدهليز ، ثم يقذفون بأنفسهم تحت النجوم .

* * *

وما كاد الأمر بالهجوم يلغى بالتلفون ، وما كاد هؤلاء الرجال يدركون أنهم منحوا يوماً آخر يدبون فيه على هذا الكوكب الجميل بأحذيتهم الخشنة ، حتى بدأوا معاً يندبون حظهم .

« أتراهم يحسبوننا جماعة من النساء ؟ »

« أهذه حرب أم ليست بحرب ؟ »

« ما أبدعها من هيئة أركان حرب ! »

« لا تستطيع أن تستقر على رأى ! »

وهكذا جعلوا يشكون ساخرين .

وكان من الجلى أنه قد لا يعود منهم أحد بعد أن يهجموا فى ضوء القمر ، وأنه كان ينبغى أن يسرهم أنهم بقوا أحياء ، وأن فى وسعهم أن يتذمروا من القيادة العامة . على أن قدرة سخطهم لم تكن عن حماقة ولا عن زهو ، فقد كانوا جميعاً مستعدين أن يموتوا ببساطة .

لقد ارتفع هؤلاء الرجال حقاً من الأعماق ، وبدأوا فى الواقع حياة جديدة . وقد حدقت فيهم وفى الشاويش ر . على الخصوص ، وكنت معهم حين أيقظوه ، وكان يعلم حق العلم أنه سيكون أول رجل يبرز إلى خط النار المقذوفة من أوكار المدافع الرشاشة ، فكان استيقاظه كاستيقاظ السجين فى غرفة الموت .

« قم يا شاويش » .

فزفر زفرة قوية كالموجة ، وكأنه التلميذ المعاقب نسخ الناقوس الملح حلمه بعالم لا مدارس فيه ، فشرع يحس ببرد اليقظة .

ومد يديه ، ثم رجليه ، واحدة واحدة ، وكانت عليه ثيابه وأدوات حرفته : الأحزمة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

والبندقية،وحزام الطلقات ،والقنابل اليدوية الثلاث وهى تتدلى من حزامه وتعوق الضربات الأخيرة التى يضربها هذا السابح فى بحر النوم . وأخيراً فتح عينيه وجلس على الفراش وهو يتمتم : « هوه ! هل نمضى ؟ » .

ومد يده وهو يتكلم ، إلى البندقية .

فقال الضابط : « كلا . فقد ألغى الأمر بالهجوم » .

ودعنى أقل لك أيها الشاويش أننا قدمنا إليك حياتك هدية ، كأنما كنت واقفاً أمام الكرسى الكهربائى . والله يعلم أن حبراً كثيراً يراق فى وصف أثر العفو عن المحكوم عليه بالقعود على الكرسى الكهربائى . وقد جئناك بالعفو عنك فى اللحظة الأخيرة ، ما فى هذا شك ، فاغفر لى فضولى ، فقد حدقت فى وجهك ، ولن أنساه أبداً . كيف يتلقى المرء ياترى هبة الحياة ؟ الجواب عندى : يجلس ساكناً ، ويخرج شيئاً من الدخان ، ويهز رأسه ببطء ، ويصعد عينيه إلى السقف ويقول : « هذا يوافقنى » .

والآن أيها الشاويش المطمئن ، أراك تغمس خبزك فى قهوتك ، وأنت كالصبى الذى قيل له إنه لن يعاقب . وإنك لمستعد أن تخرج الليلة مرة أخرى . ويدور فى رأسى مرة بعد مرة ، ذلك السؤال الذى اشتهيت أن ألقيه عليك منذ الليلة البارحة : « ماذا يجعلك أيها الشاويش مستعداً أن تموت ؟ »

ولكنى أعرف أن من المستحيل توجيه مثل هذا السؤال ، فإنه خليق أن يسىء إلى حيائك وخجلك فلا تعفو أبداً عنى ، ومن أجل هذا سأحاول أن أهتدى إلى الجواب بأن ألقى عليك أسئلة تبدو كالعبث :

« قل لى ، لماذا تطوعت ؟ » .

وإذا كنت قد فهمت ما قلت فإنك أنت لا تكاد تدرى ، فقد كنت كاتب حسابات فى برشلونة ، ولم تكن تعنى كثيراً بالحرب ، ثم تطوع صديق لك ، ثم ثان ، فأقلقك أنك تعانى تطوراً غريباً ، وبدت لك أعمدة أرقامك فى دفاتر حساباتك عقيمة ، وكأنما مسراتك ، وعملك ، وأحلامك كلها من مخلفات عصر آخر .

وحتى هذا لم يكن ذا قيمة،حتى كان يوم قتل فيه صديق لك على جبهة ملقة ، ولم يكن صديقاً تفديه بحياتك ، ومع ذلك هب عليك الخبر كأنه ريح من البحر . وفى ذلك الصباح نظر إليك صديق وسأل : « أتتطوع أم لا تتطوع ؟ » فقلت : « نتطوع » .

ولم تفكر قط تفكيراً حقيقياً فى هذا الهاتف الذى أهاب بك ، فلم يسعك إلا أن تستجيب له ، وإنما تقبلت حقيقة لا تستطيع أن تعبر عنها ، ولكن بداهتها استولت عليك

وقهرتك ، وبينما كنت أصغى إلى قصتك ، تمثلت لذهنى صورة ففهمت .

فحين يرحل البط البرى أو الإوز البرى فى موسم هجرته يرتفع مد غريب فى المناطق التى تجتازها ، فترى الدواجن تثب فى الهواء قدماً أو قدمين وتحاول أن تطير كأنما سحرها السرب العظيم ، وكأنما يدعوها صوت البرية ويخزها بمثل سن الحربة ، وتسرع دماؤها فى عروقها من بقية وحشية كامنة فيها. وكذلك الإنسان ، يستحوذ عليه شعور خفى بالحقيقة الأصيلة ، فيفطن إلى باطن حياته الآمنة الوادعة .

وهذا الذى أهاب بك فحرك نفسك يعذب الناس جميعاً ، وسواء أسميناه التضحية أم الشعر أم المغامرة، فإنه هو الصوت بعينه . وقد أجبت نداءه أيها الشاويش دون أن تعنى نفسك بمحاولة فهمه ، ودقت الساعة التى لا بد أن ترتفع فيها إلى السماء ، وشعرت ، كما شعرت دواجن المزرعة ، أنك قد جرفتك تلك الهجرة الباطنية التى لم ينبس أحد قط بكلمة عنها لك .

وماذا كنت تبغى ؟ ماذا كانت أيها الشاويش الأحلام والصور التى تراءت لك ، وسوغت عندك المخاطرة بحياتك فى تلك المغامرة ؟ حياتك التى هى كل ما تملك !

لقد ثارت بك الريح هوجاء ، واستولدتك الأمير النائم الذى تكنه — الرجل الذى تنطوى عليه . وإنك لند للموسيقى الذى يصوغ لحنه ، وللعالم الطبيعى الذى يوسع نطاق المعرفة ، ولكل هؤلاء الذين يمهدون الطريق التى نجتازها إلى النجاة والخلاص ، وأنت الآن حر ولك أن تقامر مع الموت ، وماذا معك الآن مما تخشى عليه الخسارة ؟

***

ما من إنسان يستطيع أن يتنفس نفساً حراً إذا كان لا يشاطر غيره من الناس مثلا أعلى نزيهاً مشتركا . وقد علمتنا الحياة أن الحب ليس أن ينظر بعضنا إلى بعض ، بل أن نمد بصرنا معاً فى اتجاه واحد . وليس ثم زمالة إلا إذا كان هناك اتحاد فى جهد سامٍ واحد . وهذا لا بد أن يكون كذلك حتى فى عصر رخائنا المادى ؛ وإلا فكيف نفسر السعادة التى نشعر بها حين نقتسم آخر كسرة من الخبز مع غيرنا فى الصحراء ؟ وما من عالم اجتماعى يستطيع أن ينقض هذه الحقيقة . وكل طيار خف إلى نجدة زميل له منكوب يعرف أن كل المسرات عبث بالقياس إلى هذا .

ولعل هذا هو السبب فى أن العالم اليوم يتداعى وينقض حولنا ، وهذه الغاية التى تعدنا بها أدياننا هى التى تلهب نفوس الناس اليوم . وكلنا يعرب بألفاظ ينقض بعضها بعضاً

عن هـذا الباعث السامى بعينه . وليست غاياتنا هى التى تثير الخصومة بيننا — فإنها كلها تستوى وتتماثل فى النهـاية — بل أساليبنا التى هى ثمرة التفاوت والاختلاف فى تفـكيرنا .

وإذا كانت غايتنا أن نفهم الإنسان ونوازعه ، فإنه ينبغى أن لا نضع حقيقة إنسان ضـد حقيقة إنسان آخر . وإذا أردنا أن ننجح فى فهم ما هو جوهرى فى الإنسان ، فإن علينا أن ننحى الأهواء والشهوات التى تفرقنا . وليس أسهل من أن نقسم الناس إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وإلى حُدب ومستقيمى الظهور ، وإلى فاشيين وديمقراطيين — وهـذه تمييزات صحيحة كلها ، ولـكنا نعرف أن الحقيقة تؤدى إلى الجلاء والبيان لا إلى الإختلاط والغموض . والحقيقة هى اللغة المعبرة عن الروح العالمى .

ولهذا لا فائدة من البحث فى المذاهب . والذى نحتاج إليه جميعاً هو أن نتحرر ، والرجـل الذى يضرب بفأسـه الأرض ، يطلب أن تكون لضربته ثمرة ومؤدّى . وثم فرق بين ضربة فأس من يد سـجين وضربة فأس من يد باحث منقب ، لأن ضربة السجين ليست بذات معنى . وليس السجن مجرد قيد فظيع ، وإنما استعمال الفأس لغير غاية هو السجن .

وكلنا تنازعنا نفوسـنا أن نهرب من السجن ، ويشعر الناس جميعاً ، على تفاوت بينهم فى الإدراك ، بالحاجة إلى أن يكونوا أحياء ، ولـكن معظم الوسائل إلى ذلك ليست سـوى شراك وأوهام . وفى الوسع ابتعاث الحيـاة فى النـاس بإلباسهم أزياء عسكرية ، ودهوزة أناشيد الحرب فى أشداقهم ، وهذه إحـدى الوسـائل لمؤاكلة الزملاء ولمعرفة ما يبتغون ، وهو الشعور بشىء عام عالمى . ولـكن للموت جنوداً من هذا الخبز

ومن السهل التنقيب والـكشف عن أصنام خشبية ، ونشر أساطير عتيقة مثل الجامعة الجرمانية أو الأمبراطورية الرومانية .

ولـكن هذه الأصنام من أكلة اللحوم . وإن الرجل الذى يلقى حتفه فى سبيل تقدم العلم أو ليشفى المرضى ، ليحيى فى موته ، أما الحرب الحديثة فتهدم ما تزعم أنها تغـذيه وتربيه . ولم تعـد الحرب التى اتخذت من الغازات والقنابل سلاحاً ، حرباً بل صارت نوعاً من الجراحة الدموية ، فإن كل فريق يحتمى بجدار من الأسمنت المسلح ولا يعرف عملا أولى به وأخلق من أن يرسل ليـلة بعـد ليلة ، أسراباً من الطـائرات تضرب الفـريق الآخر وتمزق أحشاءه ، وتنسف مصانعه ، وتشل إنتاجه ، وتعصف بتجارته .

وهـذه حرب يكسبها من يكون آخر

من يبلى — ولكن الفريقين فى النهاية يصيبهما البلى :

ونحن نحن إلى الزمالة والإخاء فى عالم صار صحراء ، وإن مذاق الخبز الذى نأكله مع الزملاء والرفقاء لهو الذى يجعلنا نتقبل قيم الحرب ، ولكن هناك وسائل أخرى غير الحرب تكسبنا دفء السباق ، كتفاً إلى كتف ، إلى غاية واحدة . ولكن الحرب أوقعتنا فى شركها ، وليس بصحيح أن البغضاء تضيف شيئاً إلى مجد الجنس .

لماذا يبغض بعضنا بعضاً ؟ إننا جميعاً نحيا لغرض واحد ، وقد ولدنا على كوكب واحد ، ونحن جميعاً نواتى ، سفينة مفردة . ويكفى لتحرير الإنسان أن يساعد بعضنا بعضاً لندرك أن هناك غاية يسعى لها البشر جميعاً ، فلماذا لا نسعى لها معاً ما دامت هى التى توحد صفوفنا جميعاً ؟ إن الجراح لا يجعل باله إلى توجع مريضه ، لأنه ينظر من وراء هذا الألم إلى الرجل الذى يحاول أن يشفيه ، وهذا الجراح يتكلم لغة عامة ، وكذلك العالم الطبيعى حين يتدبر تلك المعادلات التى تشمل الكون كله من الذرة إلى السديم . حتى الراعى البسيط الذى يجعل غنمه قيد عينه تحت النجوم قد يهتدى ، متى فهم الدور الذى يؤديه ، إلى أنه أكبر من خادم ، وأنه حارس ، وكل حارس من الرجال مسئول عن الدولة كلها .

ولن نشعر بالسعادة إلا متى عرفنا دورنا فى الحياة مهما بلغ من هوان شأنه ، ولن نحيا فى سلام ونموت فى سلام إلا بهذا الإدراك ، لأنه هو الذى يكسب الحياة والموت معناهما .

* * *

وليس من الضرورى — لكى يبلغ الإنسان رشده ويستوفى حظه من النضج — أن يقتل حول مدريد ، أو أن يقود طائرة بريد ، أو أن يجاهد وهو كليل مجهود فى الثلج ، احتراماً لمقام الحياة وكرامتها . فإن الرجل الذى يستطيع أن يرى الإعجاز فى قصيدة ، ويستصفى السرور من الموسيقى ، ويؤاكل الزملاء ، ويفهم — مثل بارك العبد — حاجة الأطفال إلى الخفاف الذهبية ، هذا الرجل يفتح نوافذه لنفس الريح المنعشة من البحر ، ويتعلم هو أيضاً لغة الرجال .

ولكن ما أكثر الذين لا يوقظون ! فما يخلق الرجل إلا الروح متى جرى نفسها على الطين !

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

(باب الكتب)

فاتح البحار

قصة ماجلان

تلخيص لكتاب وضعه

ستيفان زفيج

صاحب التراجم المشهورة

لقد أخسّ الزمن حظ الملاح البرتغالى الذى كان أوّل من أثبت أن الأرض دائرة بأن طاف حولها بحراً . وفاز كولمب ، وكورتز ، وفرانسيس دريك بصفحات لا عداد لها ، كتبت لتخليد ذكرهم . أما ماجلان الذى بذهم جميعاً بعمله ، فقد ظل اسما ليس إلا فى كتب التاريخ . وقد أراد ستيفان زفيج أن ينصفه من هذا الظلم ، واستعان قلمه الحى فبرز ماجلان من هذا الكتاب بطلا ورجلا بسيطاً أقدم على الأهوال ، وقاتل مستيئساً ، ونجح نجاحاً باهراً .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فاتح البحار

كان طلب الأفاويه هو البداية . فمنذ تلك الأيام التى استطاب فيها الرومان تلك التوابل الحرّيفة من أبزار الشرق ، استحال على العالم الغربى أن يستغنى عنها ، وكان طعام أوربا فى القرون الوسطى غثاً ماسخاً ، ولم تكن الفاكهة التى تعد الآن عادية ، معروفة ، فلم يكن هناك ليمون أو طماطم ، أو حنطة ، ولا سكر أو شاى أو قهوة ، حتى موائد الأغنياء لم يكن عليها ما يجعل الطعام الواحد سائغاً إلا إذا أمكن الحصول على الأفاويه .

وكانت هذه تجلب من جزر الهند وحدها ، وكانت الطرق التجارية إليها ومنها طويلة وخطرة — تغشاها عصابات اللصوص وشيوخ القبائل الذين يعيشون على النهب والسلب — فكانت أثمان الأفاويه حين تصل إلى أوربا ترتفع إلى حد باهظ ، مثال ذلك أن الزنجبيل والقرفة كانا يوزنان بميزان الصيادلة ، وأن الفلفل كان يعد حبة حبة وكان ثمنه يعدل وزنه فضة .

وكانت الجرأة التى أوحت برحلات كولمب ، ودياز ، وجون كابوت ، وغيرهم من عظماء الرواد فى عصرهم ، ثمرة الرغبة فى الاهتداء إلى طرق تجارية جديدة مأمونة إلى جزر البهار الشرقية .

وبعد أن طاف فاسكو دى جاما بطرف إفريقية الجنوبى فى سنة ١٤٩٨ وبلغ الهند بحراً ، احتدم التنافس على التجارة والدولة فى الشرق ، وفى سنة ١٥٠٥ أوفدت البرتغال أسطولا لإقامة مراكز تجارية فى جزر الهند ، فذهب معه فردنند ماجلان ، وهو جندى برتغالى شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، وقد عاد من هذه الرحلة والرحلات التالية التى امتدت إلى ملقا (قرب سنغافورة الحالية والباب إلى جزر البهار) بساق عرجاء من أثر جرح ، وبتجربة عظيمة ، وبعبد من الملايو اشتراه فى ملقا . وقد قُسم لهذا العبد الذى سماه إنريك أن يقوم بدور مدهش فى حياة ماجلان بعد ذلك .

* * *

تفتح ذهن ماجلان وتطلع إلى آفاق بعيدة ، وصار يحلم بالوصول إلى جزر البهار بأن يبحر غرباً ، كما حلم كولمب من قبله . وكان أمريجو فسبوتشى ، وكورتز ، وكابوت قد التمسو على ساحل أمريكا منفذاً إلى جزر الهند . ويبدو من المحتمل أن يكون ماجلان قد استوحى خريطة سرية رسمت وفاقاً لملاحظات فسبوتشى (وانخدع بها كما أثبتت الحوادث ، وهى خريطة فيها بوغاز خفى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وراء كابو سانتا ماريا فى البرازيل .

ومهما كان من أمر ، فقدكان غيره من الرواد يقول فى تواضع : « إنى أرجو أن أجد بوغازاً » ، أما ماجلان فصرح بلهجة اليقين الجازم : « إنى أعرف أين أجده » وطلب — اعتماداً على هذا اليقين — من عمانويل ملك البرتغال ، أسطولا يرتاد به هذا الطريق الجديد إلى الشرق .

ولما أبى الملك عمانويل أن يساعده فى هذه المغامرة الخطرة ، عرض ماجلان خدمته على إسبانيا — أكبر منافس للبرتغال فى تجارة الأفاويه . وكان لتوكيده الجرىء أنه هو وحده الذى يعرف هذا المجاز السرى ، وقع عميق فى البلاط الإسبانى . ونازعت الملك شارل نفسه أن يسبق منافسه البرتغالى ، فمنحه ما أراد ، وتكفل كبار رجال المصارف الإسبانيين بتزويده بأسطول من خمس سفن .

وسمع الملك عمانويل بهذا فكلف سفيره فى إسبانيا أن يقضى على المشروع بأى ثمن ، فاستعان على إحباطه قنصل البرتغال — سباستيان الفارز (الفارس) ، فجعل هذا يجوب بين السفن وينفث الشك والشقاق ، وصادق الربابين الإسبانيين ، وأضرم ما كانوا ينطوون عليه من الغيظ الدفين : وذلك أن هؤلاء الأشراف من قشتالة سيكونون تبعاً لمغامر برتغالى أبت بلاده أن تقيم له وزناً .

وتظاهر سباستيان الفارس بصداقة ماجلان أيضاً ، وحذره مادبر له الملك شارل ، وزعم له أنه أمر الربابين أن يتولوا هم الأمر متى وقفوا على سر ماجلان . فصار الشجار ، والتسويف ، بل الفتن أيضاً ، تعطل أعمال ماجلان من كل ناحية ، وما استطاع أخيراً أن يرقع السفن الخمس القديمة ويزودها للرحلة الطويلة إلا بفضل مثابرته التى جاوزت طاقة البشر .

وبلغ من نجاح سباستيان الفارس فى دسائسه أن ماجلان ما استطاع أن يجىء بالنواتى إلا بجهد جاهد ومشقة بالغة . وكان بين هذا الخليط من المغامرين والأوشاب شاب إيطالى حي يدعى أنطونيو بيجافيتا ، وهو غصن من دوحة شريفة ، التحق بالأسطول لأنه أراد أن يشاهد « أهوال المحيط وبدائعه » ، والعالم مدين له لأنه واظب على تدوين مذكرات يومية عن هذه الرحلة التاريخية .

* * *

أبحر أسطول ماجلان من سان لوكار بإسبانيا فى ٢٠ من سبتمبر سنة ١٥١٩ ، وكان فيه ٢٦٥ رجلاً ودع معظمهم وطنه وداعاً أبديا .

وكانت أشق مهمة يعانيها قائد هذه

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأسطول هى أن يجعل من خمس سفن متفاوتة السرعة وحدة ، ومن أجل هذا أمر ماجلان قبل السفر بأن تسير السفن الأربع كل مساء قريباً من سفن القيادة — ترينداد — وأن تحيى أمير البحر بهذه العبارة : « حفظك الله أيها الربان » ثم تتلقى الأوامر لليل ، وكان غرضه من هذا الاتصال اليومى الاحتفاظ بالنظام .

وكان ربابين السفن يتوقعون أن يدعوا إلى سفينة القيادة ، فتبسط أمامهم الخرائط ويستشاروا فى المسلك ، غير أنهم ألفوا ماجلان فاتراً عنهم ، لا يبلغون منه حيث يريدون ، ولا يستطلع رأيهم فى شىء ، وكان عليهم أن يتبعوا رايته بالنهار ، وضوءه بالليل ، وأن يطيعوه فى صمت كالكلاب . فلما لم يسلك بهم البحر جنوباً بغرب إلى البرازيل كما كانوا يتوقعون، واتجه جنوباً على شاطئ إفريقية تقدم إليه جوان دى قرطجنة — ربان السفينة سان أنطونيو — وسأله بصراحة لماذا غير الاتجاه .

وعسى أن يكون ماجلان قد عدل عن الطريق، وفى مرجوه أن تسعفه ريح تجارية موافقة ، ولكنه اقتصر فى الجواب على قوله : « ليس من حق أحد أن يسأل إيضاحاً » . فزاد هذا فى عداء قرطجنة المكنون حتى إنه ذات مساء لم يقترب من سفينة القيادة لتلقى الأوامر وكان من الجلى أن جوان دى قرطجنة لا يقرّ للقائد البرتغالى برياسة مطلقة .

وقضى ماجلان عدة أيام لا يقول شيئاً ، ثم كأنما لان وأذعن ، فدعا الربابين الأربعة إلى الاجتماع فى سفينته ، فجاء جوان قرطجنة مع الآخرين ، وأغضبه أن ماجلان أبى أن يبين له طريقه الجديد فجاهر بالعصيان ؛ فما كان من ماجلان إلا أن أمر رئيس حرسه بالقبض على المتمرد

فذهل الربابين الأسبانيون الآخرون ، وكانوا قبل دقائق فى صف جوان قرطجنة ولكن سرعة ماجلان وحزمه تركاهم عاجزين مبهوتين . ولم يجرؤ أحد منهم على الكلام إلا حين هم رئيس الحرس باقتياد جوان ، فتوسل بعضهم إلى ماجلان أن يُعفى جوان من القيد ، لأنه من أشراف إسبانيا ، فقبل ماجلان مشترطاً أن يحلف حارسه الموكل به — لويز دى مندوزا — أن يحتفظ بالسجين ويضعه رهن مشيئة أمير البحر .

* * *

وصار مسكيتا - ابن عم ماجلان - ربان السفينة سان أنطونيو ، ومضى الأسطول فى طريقه دون أن يقع حادث ما . وفى ١٣ ديسمبر ، بعد أحد عشر أسبوعاً دخل خليج ريو دى جانيرو .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولا بد أن هـذا الخليج كان كالجنـة لهؤلاء النواتى المكدودين ، وخرج الأهالى من أكواخهم على حافة الغابة للتحفى بالجنود المسلحين ، متطلعين غير مستريبين ، وكانوا لطافاً وعلى السجيـة . ويقول بيجافيتا فى مذكراته إنهم باعوا محاصيلهم بأبخس الأثمـان ، « فقـايضونا بسلة ضخمة من البطاطس على ناقوس صـغير » ، وكانت الفتيـات أرخص جداً ، ويقول بيجافيتا : فيهن : « إن شعورهن هى كل ما كان عليهن من ثياب » .

وبعـد الاستراحة ثلاثة عشر يوماً تزود فيها الأسطول ، استأنف ماجلان رحلتـه جنوباً على شاطئ البرازيل ، وفى ١٠ يناير سـنة ١٥٢٠ بلغ كابو سانتا ماريا ، ورأى البحـارة فيما يليها تلا صغيراً يذهب فى الجو من سهل واسع فسموه مونتفيدى — وهو اليوم يسـمى مونتفيـديو . وكان الخليج الـكبير الذى دخلوا فيـه هو مصب نهر الريو دى لابلاتا ، ولـكن ماجلان لم يكن يدرى هذا ، فقضى أسبوعاً يرتاده ، ولشد ما خاب أمله لما وجد أنه ليس إلا مصب نهر عظيم !

وعلى الرغم من هذه الصـدمة حرص ماجلان على كتمان الأمر حتى لا يفطن أحد من الربابين إلى أن أمله خاب ، فواصل السير على محاذاة شاطئ كان يزداد إمحالا . وغاب ساحل البرازيل الخصيب المونق ، واختفت أشجاره الوارفة ، وأهلوه الـكرماء السمر الوجوه ، ولم يعد يرى سوى سـباع البحر وطيور البطريق ، وراح ماجلان يفحص كل خليج ، بعنـاد ولجاجة ، والآمال فى صدره تكبر لتنتسخ مرة بعد أخرى . ومضى الأسطول جنوباً ، وساء المصـير فيا تحس القلوب ، وقصر النهار ، وطالت الليـالى ، وكسا الثلج الأشرعة ، وحطمت العواصف الصوارى ، ومضى نصف عام ، ودنا الشتاء القطبى الجنـوبى ، دون أن يدنو ماجلان من غايته .

وبدأ النواتى يظهرون القلق ، فقد قبلوا السفر إلى جزر البهار المشمسة ، فإلى أين يقودهم هـذا الرجل الصموت المشـئوم ؟ وكانت العواصف والثلوج والشـتاء تهدد الأسـطول الذى يمضى إلى حيث لا يدرى أحد ، ويجاهد فى سبيل الحيـاة العزيزة ، ويغالب بحاراً كالجبال .

وفى ٣١ مارس سنة ١٥٢٠ ظهر شرم آخر ممعن فى البر ، فخفق قلب ماجلان بالأمل وهو يفحصه . أتراه مفتوحاً ؟ كلا ! إنما هو خليج آخر موصد ، على أن ماجلان دخل فيه ، فقد كان معاذاً من العواصف وكان ماؤه غاصا بالسمك ، فأمر بالرسـو ، وقرر أن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يقضى الشتاء فى هـذا الميناء ـــ ميناء سان جوليان ـــ الذى لا يعرفه أحد ولا يسكنه أحد

✲ ✲ ✲

وشـعر النواتى أنهم محبوسون هنـا ، وثقل عليهم نظام الجراية فتذمروا ، وزاد الجفـاء والتوتر بين ماجلان والربابين الإسبانيين حتى تمردوا علانية ، واستتر الثائر قرطجنة بالظلام ومعـه اثنان آخران من الربابين الإسبانيين وثلاثون رجلا مسلحاً ، وصـعدوا إلى السـفينة سان أنطونيو ، واستولوا عليهـا ، وقتـلوا ضابطاً وسجنوا مسكيتا ابن عم ماجلان .

فقرر ماجلان على الفور أن يتخذ تدابير جريئة ، وبعث برئيس حرسه الموثوق به ـــ اسبينوزا ، ومعه خمسـة رجال إلى السفينة فكتوريا ، وحمّله رسالة إلى ربانهـا المتمرد لويز دى مندوزا .

ولم يخالج الثوار فى هذه السفينة الحسنة التسلح أى شك حين رأوا الزورق الصغير يدنو منهم . وكيف يستطيع ستة من الرجال أن يهاجموا سفينة فيهاستون؟ وصعد اسبينوزا على مهل ، ودفع برسالة ماجلان إلى الربان مندوزا وفيها يدعوه إلى سفينة القيادة .

فتلا مندوزا الرسالة وضحك ساخراً من هذا الفخ الذى لا شك فيه ، ولـكن ضحكته انقلبت شهقة فظيعة ، فقـد أغمـد رئيس الحرس خنجره فى حلقه .

ونظر بحارة السفينة المتمردة إلى جثـة ربانهم ، ولم يحاولوا المقاومة ، وعادت السفينة فكتوريا تحت سلطان ماجلان . ولم يبـد الثوار الباقون رغبـة فى القتـال ، فلم يجد ماجلان عنـاء فى القبض على الربابين الثائرين الآخرين ـــ جوان دى قرطجنة ، وجاسبار كويسادا .

وكان كويسـادا هو الذى قتـل ضابط السفينـة سان أنطونيو ، ولما كان ماجلان يدرك أنه لا يستطيع أن يعاقب المتمردين جميعاً ـــ وهم خمسة رجال ـــ فقد رأى أن يجعـل من كويسادا عـبرة لغيره ، فحاكمه رسمياً ، وأدى الشهود الشهـادة ، ودوّن الـكتاب محضراً ، ثم أصدر ماجلان الحكم ـــ وهو الإعدام .

ولـكن من الذى ينفذ الحكم ؟ لقد اشترك خادم كويسادا ـــ لويس دى مولينو ـــ فى الهجوم الدموى ، فعرض ماجلان على مولينو العفو إذا هو نفذ فى سـيده حكم الإعدام . وكان الخيار فظيعاً ولـكن مولينو قبل أخيراً فأطار عنق كويسادا بضربة سيف واحدة .

وبقى حكم آخر ينبغي أن يصدره ماجلان ، ذلك أن جـوان دى قرطجنة هو الزعيم الحقيقى للتمرد ، وكان هنـاك أيضاً قسيس حاول أن يحدث فتنة ثانية ، ولم يكن هذان

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أقل إجراماً من كويسادا ، فرأى ماجلان أن يتخلى عنهما ويتركهما على البر ، فلما نشر الأسطول قلوعه مرة أخرى وتهيأ للرحيل ، تركهما على البر وزودهما بشيء من الطعام والنبيذ ، ووكل أمر حياتهما أو موتهما إلى الله .

وقد كان هذا الحكم الدموى الذى أصدره ماجلان سابقة احتذاها فرانسيس دريك أبرع خلفائه . وبيان ذلك أن هذا البطل البريطانى قام بمثل هذه الرحلة الخطرة بعد ٥٧ سنة ، ولقى من التمرد ما لقى ماجلان ، ورسا مثله فى ميناء سان جوليان فخير دريك ربانه الثائر بين الموت الشريف بضربة سيف كما مات كويسادا ، أو تركه على البر مثل قرطجنة ، وكان دوتى الثائر قد قرأ تاريخ ماجلان ورحلته ، وعرف أن أحداً لم يعثر على أثر لقرطجنة أو القسيس ، فآثر أن يموت كالشجعان بالسيف ، فكان رأسه ثانى رأس طار عن كتفيه على رمال سان جوليان .

* * *

وقضى الأسطول أربعة شهور أو خمسة عاجزاً عن الحركة بسبب الشتاء فاغتنم ماجلان الفرصة للعمل على ترميم السفن وإصلاحها ، وكانت الأرض فى هذه الفترة الشتوية تبدو خالية من كل أثر لإنسان أو حيوان ، ولكن فى صباح يوم من أيام الربيع ظهر رجل مديد القامة على تل قريب ، ويقول بيجافيتا : « إنه كان من الطول بحيث كنا لا نكاد نبلغ خصره ، وكان يلبس جلداً مخيطاً بمهارة » .

وقد دهش الإسبانيون لقدميه الكبيرتين على الخصوص ، ولكبر القدم (بتاجاوّوا) سميت الأرض « بتاجونيا » . وأقبل هذا العملاق وهو يبتسم ويرقص ويغنى ، فأمر ماجلان أحد النواتىّ أن يرقص مثله ، فعد المتوحش هذا التقليد تحية وترحيباً ، ودنا ، فقدم له البحارة طعاماً ، وجعلوا ينظرون إليه دهشين وهو يدس فى فمه نصف سلة من البسكويت ، وقدموا له فأرين فأكلهما حيّين .

وأهدى إليه ماجلان بعض النواقيس الصغيرة ، فذهب يعدو ليجيء بغيره من العمالقة رجالا ونساءاً . وكان اطمئنان أطفال الطبيعة هؤلاء نكبة عليهم ، فقد كان ماجلان — مثل كولمب وغيره — قد تلقى أمراً بأن يجمع نماذج من كل أنواع الإنسان الجديدة . وأراد البحارة أن يأسروا اثنين من هؤلاء العمالقة فأثقلوهما بالهدايا وملأوا بها أيديهما ، ثم قدموا لهما سلسلتين من الحديد ، ولما كانت أيديهما ملأى فقد أروهما كيف توضعان على القدمين ، وضربا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الحلقات بالمطرقة فإذا السلسلتان قيـدان . وسر العملاقان أول الأمر بهذين الطوقين الجميلين على سـيقانهما . وصار من اليسير سطحهما ، فإنهما وهما مقيـدان لا يسعهما شيء ، ولما كان الأمبراطور يطلب أمثالهما من « التحف » ، فقد حملا كالثيران إلى السفن .

ولم يلق الإسبانيون في ميناء سان جوليان سوى الكوارث . فبعد أن تقضى الشـتاء بعواصفه ، أمر ماجـلان السفينة الصغيرة «سانتياجو» بأن ترتاد الخليج ، وكان على ربانها أن يعود بعد أيام معدودة ، فتأخر . وجعل ماجلان ينظر إلى البحر وهو قلق ، فجاء النبأ الأول من البر ، فقد رؤى اثنان يمشيان متطوحين على التلال ، وكانا من بحارة سانتياجو ، وكان ما جاءا به من الأنباء سوءاً كله فقد تحطمت السفينة في عاصفة ، ولكن النواتي نجو وبعث إليهم ماجـلان بزورق يجيء بهم ، غير أن السفينة سانتياجو ، وكانت أسرع الجميع ، ضاعت .

وأخيراً ، وفي ٢٤ أغسطس سنة ١٥٢٠ أمر ماجلان بالرحيل من هذا الميناء المشئوم — سان جوليان — وألقى نظرة أخيرة على الشقيين اللذين تركهما على البر ، وقد غرقت له سفينة ، وقتل اثنان من ربابينه ، ومضى حول مذ بدأت الرحلة — حول لم يفز فيـه بشيء ، ولم يستكشف شيئاً ، ولم يصنع شيئاً .

* * *

ولا شك أن تلك كانت أحلك ما مر بماجلان في حياته من أيام ، وقد حاول أن يمضي قدماً ولكن العواصف ثارت به ونأت بسفنه عن الساحل شهرين آخرين ، على أنه دنا من غايتـه وهو لا يدري . ففي ٢١ أكتوبر سنة ١٥٢٠ رأى نجوداً بيضاً تذهب في الهواء فوق شاطئ متعرج ، وما لبث أن دخل خليجاً عميقاً أسود الماء ، وكان المنظر غريباً مروعاً ، والأرض جرداء لا حياة فيها ولا نبات ، ولا شيء إلا عواء الرياح . ونظر الرجال إلى هـذا الخليج الحالك الذي تحف به الجبال ، وأجمع الربابين على أن هذا لا يمكن أن يكون إلا خوراً شوهدت أمثاله على شاطئ النرويج .

غـير أن ماجلان كانت تخامره فكرة البوغاز الخفي ، فأبى إلا أن يرتاد هذا الخليج العجيب ، وأطاعت السفينتان سان أنطونيو وكونسبسيون أوامره على كره منهما ، بأن تسيرا غرباً وتتوغلا ما استطاعتا ، على أن ترجعا بعد خمسة أيام .

وما كاد الأسـطول ينقسم حتى ثارت عاصـفة جللت مياه الخليج ، وكادت تحطم سفينة ماجلان على الصخور ، ولكنه كان

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أشد قلقاً على السفينتين الأخريين اللتين خرجتا ترتادان ، وخشى أن تكون العاصفة قد أدركتهما فى المضايق ، فإذا لم تحدث معجزة فقد هلكتا لا محالة .

وفى اليوم الرابع من هذا الانتظار الأليم شوهد شراع . فالحمد لله ! نجت سفينة ! لا بل نجتا جميعاً فقد عادتا سالمتين . وما كاد ماجلان يلمحهما حتى رأى ومضات تصدر عن جوانبهما ، تتبعها أصوات طلقات. فماذا حدث يا ترى ؟ لماذا يبدد مرءوسوه البارود فى طلقة بعد طلقة ؟

نعم ، جاءت السفينتان بالأنباء المنشودة ، فقد دفعتا غرباً وكادتا تتحطمان على الصخور ، وفى آخر لحظة انفتح أمامهما بوغاز ، ولم تريا مخرجه الغربى ولكنهما واثقتان أنه بوغاز .

وكان هذا النبأ خير ما يمكن أن يتلقاه ماجلان الذى امتحن أقسى امتحان . ولا محل للتردد الآن ! طلقة أخرى للإمبراطور شارل ، ودعاء آخر ترتفع به الأصوات إلى السماء ، ثم فلتندفع السفن بشجاعة رزينة فى هذا التيه الذى سماه « تودوس لوس سانتوس » ، وسمته الأجيال التالية « بوغاز ماجلان » .

وتالله ما كان أغرب منظر هذه السفن الأربع وهى تنساب بلا ضوضاء فى ذلك الخليج الأسود ! وكانت قمم الجبال المجللة بالثلج تلمح من بعيد ، وتحمل الريح أنفاسها المقرورة إلى من فى السفن ، ولم يشاهد مخلوق حى على هذا الشاطىء المتجمد المجدب غير أنه فى الليل كانت ترى نيران تضطرب ، ولهذا سموا الأرض « تييرا ديل فويجو » — أى أرض النار — (وقد ظلت هذه النيران تشاهد عدة قرون بعد ذلك ، وكان الأهالى لا يعرفون كيف يوقدون ناراً جديدة فحرصوا على إبقائها متقدة دائماً فى أكواخهم).

وكان اجتياز هذا المضيق يحتاج إلى براعة عظيمة ، لأن مجراه كثيراً ما يتفرع وفيه مواضع قريبة الغور يجب اجتنابها ، وصخور لا مفر من اللف حولها . ثم إن الرياح تثور به فيزخر الماء ويجيش ، وليس أدل على براعة ماجلان النادرة من أنه وهو أول من اجتاز البوغاز الذى أطلق عليه اسمه ، ظل سنوات وهو آخر من مرّ به بلا حادث . وقضى شهراً يرتاد الساحل ثم فاز ، بفضل ما أوتى من مزية المثابرة والعناد . ولما انفرج البوغاز أخيراً عن المحيط العظيم ، انحدرت دموع الفرح — على ما قيل — على لحيته السوداء .

* * *

وجمع ماجلان ربابينه لينظر فى أمر المؤونة ، فقد بلغ أولى غاياته . فهل هم مستعدون أن يواصلوا السير حتى يبلغوا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

جزر البهار ؟ ولم يسعه أن يكابر بخلاف فى أن قلة المؤونة خطر عظيم ، ولكنه هو لم يرتع .

وارتفع صوت بالاعتراض هو صوت جوميز ربان السفينة سان أنطونيو ، فقال : إن كل رجال الأسطول خليقون أن يهلكوا جوعاً إذا هم واصلوا السير .

وكان ما قاله جوميز معقولا ، ولكن ماجلان كان أشد اهتماماً بعمله الخالد منه بحياته الفانية ، فقرر المضى ، ولكنه أمر الربابين أن يكتموا عن النواتى أن المؤونة غير كافية .

وبعث بالسفينة سان أنطونيو لترتاد شعبة طويلة ، فلم تعد فى الوقت المعين . وقضى ماجلان عدة أيام يبحث عنها بلا جدوى ، ثم دعا بالمنجم فتذكر هذا ما كان قاله جوميز ، وأخبرهم بما زعم أنه استطلعه . واتفق أن كان هذا — فى هذه المرة — هو الحقيقة . ذلك أن السفينة سان أنطونيو تخلت عن رفاقها وكرت راجعة إلى إسبانيا .

فواجه ماجلان للمرة الثانية موقفاً حرجاً ، فقد كان معظم المؤونة مع السفينة سان أنطونيو ، فالمضى فى الرحلة الآن انتحار ، ومع ذلك كان قراره المضى ! وفى ٢٧ نوفمبر رفعت السفن الثلاث الباقية أشرعتها واتجهت شمالا بغرب ، ودخلت فى محيط مجهول ، إذ لا بد أن تكون جزر البهار ، جزر الثراء ، وراء الأفق فى مكان ما ، ومن ورائها أرض الصين والهند ، ومن وراء هاتين على مسافة شاسعة أرض إسبانيا . فأطلقت السفن الثلاث الصغار المستفردة طلقة من مدافعها تحية للبحار المجهولة .

* * *

وهذا العبور الأول لمحيط لا اسم له ، من أخلد أعمال الإنسان . ولقد عدت رحلة كولمب مظهر شجاعة باهرة ، ولكن كولمب كانت معه ثلاث سفن جديدة خارجة من دور الصنعة ، ولم تدم رحلته أكثر من ٣٣ يوماً ، وكانت مؤونته من الكفاية والوفاء بحيث كان يسعه ، إذا جرت الأمور على غير ما يشتهى ، أن يرجع إلى بلاده بسلام.

أما ماجلان فكان يقتحم مجهولا وخلاء ، وقد أضمر رجاله الكلال ، وما كان يستدبر إلا الجوع والحرمان ، ولا كان يستقبل سواهما . وكانت ثياب رجاله قد صارت خرقاً ، والأشرعة رثة ، والحبال ضعيفة . ولا شك أن كثيرين قد حسدوا زملاءهم الذين عادوا ، ومع ذلك ظلوا يسيرون ٤٠ يوماً ، و ٦٠ ، و ١٠٠ ، ولا أرض تبدو لهم ، حتى لقد حدث ماجلان نفسه أنه لا بد أن يكون قد جاوز اليابان . ولكنه لم يكن قد قطع إلا ثلث هذا المحيط الهائل الذى كان هادئاً فسماه الهادىء .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولكنه كان قاسياً على الرغم من هدوئه ، فقد ظل المحيط مرآة زرقاء لا تتغير ، والسماء قبة صافية شديدة اللظى ، وكانت رائحة التعفن لا تنفك تتصاعد من جوف السفن ، وغارت العيون ، وتهضمت الوجوه ، وصار الرجال أشباحاً ، وكل سفينة داراً لذوى القروح .

وكان الذى يقدمه الموكل بالطعام أقرب إلى الوضر ، وصار الماء من وقدة الشمس غير سائغ ، وتحلل البسكويت فصار دقيقاً أسمر قذراً يعيث فيه السوس بعد أن لوثته الجرذان ، بل لقد صارت هذه المخلوقات الكريهة أطايب تشتهى ويطاردها البحارة فى أركان السفن ليظفروا بها . وكانوا يمضغون نشارة الخشب والجلد ليسكنوا جوعهم .

ومات ١٩ من العذاب فى هذه الرحلة الفظيعة ، أى عشر من بقوا . وكان من أول من ماتوا الأسيران اللذان خطفا من بتاجونيا .

وأخيراً فى ٦ مارس سنة ١٥٢١ سمعت صيحة من قمة الدوقل « الأرض ! » وقد جاءت الصيحة فى أوانها ! فلو أن ظهور الأرض تأخر يومين أو ثلاثة فى هذا الفضاء ، لكان الأرجح أن لا يبقى خبر عن هذه الرحلة التاريخية . ولكن جزيرة بدت ، وما كاد الأسطول يدخل الخليج حتى خرجت زوارق صغيرة مدهونة أشرعتها مصنوعة من أوراق النخيل ، وقد خيط بعضها إلى بعض . وصعد الأطفال العراة كالقرود إلى ظهر السفن ، وشرعوا لجهلهم بتقاليد الحياة المتحضرة يستحوذون على كل شىء غير ثابت ، حتى زورق السفينة تريندداد أخذه الأطفال وجدفوا به إلى الشاطىء فرحين .

فرأى ماجلان أن يلقن هؤلاء اللصوص درساً ، وأنزل أربعين رجلا مسلحاً أحرقوا أكواخ الأهالى ، وحملوا كل ما وجدوا — من دجاج وسمك وفاكهة — ثم عاقب الأهالى بأن وصم أرضهم باسم « جزيرة اللصوص » — لادرونز .

وقد أنقذت هذه الغارة الإسبانيين من الهلاك ، وأعادتهم إلى الصحة ثلاثة أيام من الراحة والفاكهة الطازجة واللحم والماء ، واستؤنفت الرحلة إلى الغرب بمدد جديد من الشجاعة . ولما شوهدت بعد أسبوع جزيرة ثم أخرى علم ماجلان أنهم نجوا . وكان تقديره أن هذه جزائر مولوكا أى جزر البهار ، وخيل إليه أنه بلغ غايته .

ولكنه أخطأ مرة أخرى ، فقد وجد طائفة من الجزر مجهولة كل الجهل هى الفليبين ، وبذلك حصل للامبراطور شارل على إقليم جديد ، قسم له أن يبقى تحت حكم التاج الإسبانى زمناً أطول مما بقى أى إقليم كشف عنه كولمب أو كورتز أو بيزارو .

* * *

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وفى ٢٨ مارس وصل الأسطول إلى مازافا ، وهى من جزر الفليبين الصغيرة ، فصادفت ماجلان حادثة من أعجب ما وقع له فى حياته . ذلك أنه لما دنت السفن الأجنبية الثلاث من الشاطئ احتشد الأهالى ، فبعث ماجلان بعبده أنريك رسولاً ، وقد خطر له — وكان على صواب — انهم خليقون أن يكونوا أكثر اطمئناناً إلى رجل أسمر منهم إلى البيض ذوى اللحى .

وهنا حدثت الأعجوبة ! فقد ذهل العبد حين سمع لفظ الأهالى وهم حافّون به ، لأنه فهم كثيراً مما يقولون ، وكانت قد مضت سنوات طويلات لم يسمع فيها كلمة من لغته ، فعرف ماجلان من هذه المصادفة المدهشة أنه بلغ غايته ، وأدرك أنه وصل إلى الملايو . فالذى حلم به العلماء أصبح الآن حقيقة ثابتة ، والأرض كروية ، فقد دار حولها رجل .

وقضى ماجلان أسبوعاً فى مازافا كان أسعد ما مر به فى رحلته ، فقد استقبله كلامبو ملك الجزيرة أكرم استقبال وزوده بالطعام والشراب ، فلم يبق إلا أن يمضى إلى جزر البهار ، ويؤدى المهمة التى وكلت إليه ، غير أنه لم يشأ أن يغادر أرخبيل الفليبين قبل أن يجعل منها مستعمرة دائمة لإسبانيا ، وليس يكفى فى هذا أن يزور ويضم جزيرة صغيرة .

فسأل كلامبو عن أكبر الجزر فقيل له أنها زيبو (سيبو) وإليها أقلع ماجلان ، وهنا يقول بيجا فيتا الأمين : « وهذا ما شاء سوء حظه أن يكون » .

ودله أول ما رأى من جزيرة سيبو أنه هنا حيال رقعة من الأرض لها قيمة عظيمة ، فقد كانت فى الميناء سفن قديمة من بلاد أجنبية إلى جانب الزوارق المحلية ، فأراد أن يظهر كسيد البرق والرعد ، فأمر الأسطول بأن يطلق مدافعه على سبيل التحية ، ففر أهالى الجزيرة فى كل ناحية ، فبادر فأرسل أنريك إلى الشاطئ ليتولى الترجمة والتفاهم ، وليقول لحاكم الجزيرة أن هذا الرعد ليس عملا عدائيا ، وإنما هو إعراب عن الاحترام لراجا سيبو العظيم . وقال إنريك إن أمير البحر مستعد أن يعرض على جلالته بضائع شتى نفيسة وأن يتجر معه .

ولم يكن هومابون — راجا سيبو — ساذجاً أو على الفطرة ، فقال لإنريك بفتور إن رسوم الميناء لابد أن تؤدى قبل أى تجارة . وكان خليقاً أن يصر على هذا الطلب لولا أن تاجراً مسلماً قدم حديثاً من سيام أسرّ إليه كلاماً على سبيل التحذير ، فقد رأى هؤلاء التجار الشنيعين الذين يجيئون بمدافعهم ، وقال للراجا أن عليه أن يجتنب النزاع بأى ثمن ، فإن هؤلاء هم الشياطين البيض الذين فتحوا كلكتا وهندستان وملقا .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

واقتنع الراجا بما قاله التاجر ، فنزل عما طلب من رسوم الميناء ، ودعا رسل ماجلان إلى مأدبة ، وأعلن أنه مستعد أن يعقد معاهدة سلام دائم مع القادمين . وفعل ماجلان ، من جانبه ، كل ما هو حقيق أن يوثق عرى الصداقة والمودة ، فصارت العلاقات بين الأهالى وهؤلاء الأغراب الأقوياء من الود والصفاء حتى أن الراجا ومعظم أتباعه أعربوا عن رغبتهم ، من تلقاء أنفسهم ، فى التنصر .

وفى يوم الأحد ١٤ أبريل سنة ١٥٢١ احتفل الإسبانيون بأعظم نصر أحرزوه ، فرفع فى السوق صليب كبير ركع أمامه الراجا وخمسون آخرون ، وعمدوا جميعاً باحتفال عظيم ، وانتشر الخبر ، وفى اليوم التالى أقبل من الجزر المجاورة شيوخ قبائل آخرون ليدخلوا فيما دخل فيه الراجا ، وما هى إلا أيام قلائل حتى كان الرؤساء جميعاً على التقريب قد حالفوا إسبانيا ، وثر عليهم ماء التعميد .

* * *

ونجح ماجلان فى كل ما عالج ، كأنما كانت الملائكة تنير طريقه ، ولكن مأساة وقعت . ذلك أنه كان فى جزيرة تدعى ماكتان — على مقربة من سيبو — راجا اسمه سيلا بولابو ، وكان عدوا لراجا سيبو . وقد بذل كل ما دخل فى وسعه منذ جاء الإسبانيون ، ليمنع الرؤساء الآخرين من تزويد الأجانب بالطعام . ويظهر أن كراهة سيلا بولابو للإسبانيين كان لها ما يسوغها ، فقد حدث شغب فى جزيرته ، وأحرق عدد قليل من الأكواخ فيها (والأرجح أن بحارة الأسطول لطول ترهبهم فى هذه الرحلة أسرفوا فى نشدان النساء الوطنيات) .

واتخذ ماجلان من رفض تزويده بالزاد مسوغاً لمظاهرة ، وأراد أن يظهر لراجا سيبو بأس سيد الرعد والبرق .

وللمرة الأولى فى سيرة ماجلان نجده قصير النظر ، فقد عرض راجا سيبو أن يسيّر ألف محارب لقتال ماكتان ، فأبى ماجلان ، فقد كان همه أن يظهر قوة إسبانيا وبأسها ، وأن الأهالى المسلحين بالرماح لا يستطيعون أن يجرحوا جنديا إسبانيا متلثّماً ، فأخذ ستين رجلا ليس إلا ، وطلب من الراجا أن يراقب المعركة من زورق .

وكان من سوء حظ ماجلان أن أمير ماكتان الصغير كان له عون من طبيعة الشاطئ ، فقد عجزت الزوارق عن السير بين جزر المرجان ، فاضطر أربعون رجلا بقيادة ماجلان نفسه أن يخوضوا الماء إلى الشاطئ ، وقد حرموا تأييد المدافع والسهام من السفن ، وكان كثيرون من الأهالى ينتظرونهم على الشاطئ وهم يصيحون صيحات التحدى .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان يجافينا أحد المهاجمين ، وقد أصيب بجرح من سهم ، وهو يصف المعركة فيما يلي :

« لما أدرك أهل الجزيرة أن نيران السفن لا تصيبهم ، هجموا علينا ورمونا بالسهام ، وطعنونا بالحراب والرماح حتى كدنا لا نقوى على الدفاع عن أنفسنا .

« ولما عرفوا أن أجسامنا تحميها الدروع ولكن سيقاننا عارية ، جعلوا أرجلنا هدفاً لهم ، وقد أصيبت رجل القائد اليمنى بسهم مسنون فأمر بالتراجع ببطء ، ولكن رجالنا — أو معظمهم — لاذوا بالفرار حتى لم يبق معه إلا ستة أو ثمانية منا ، إذ كان لعرجه لا يستطيع أن يتقهقر بسرعة . وعرف أهل الجزيرة القائد فانهالوا عليه يرمونه بالسهام ، فطارت الخوذة عن رأسه مرتين ، وظل يقاتل ويناضل حتى أصيب بضربة قوية في ساقه اليسرى ، فانكب على وجهه في الماء ، فألقى أهل الجزيرة بأنفسهم عليه وأثخنوا فيه بالسيوف والرماح حتى قتلوه » .

وهكذا قتل ماجلان في مناوشة صغيرة مع أهل جزيرة عراة ، وقد كاد أن يتم عمله الخالد . وعجز رجاله حتى عن الاهتداء إلى جثة زعيمهم .

ولم يفقد الإسبانيون أكثر من ثمانية رجال في هذه المناوشة التافهة ، ولكن مصرع قائدهم جعلها كارثة ، وامحت أسطورة الرجل الأبيض الذي لا يقهر . ألم يكن راجاسيبو مشاهداً للأمر . وقد رأى سيلابولابو وهو من أقل الأمراء شأناً يقهر الإله الأبيض ؟

ولكن الكارثة النهائية جاءت ثمرة إهانة حمقاء وجهت إلى إنريك عبد ماجلان . وكان إنريك الوفي قد ظل يقاتل إلى جانب سيده إلى اللحظة الأخيرة ، ثم حمل وهو جريح إلى السفينة ، فرقد بغير حراك ولفت عليه حصيرته .

وانتخب للقيادة اثنان معاً — دوارتي بربوسا وجواءو سرّاءو ، فبلغ من حماقة أولهما أن قال للعبد المسكين إنه ليس له أن يتوهم أن الكلب من حقه أن يقعد وينفض يده من كل عمل بعد موت سيده ، فإذا لم يبادر إلى الشاطئ ليقوم بالترجمة ، ويساعد على تبادل البضائع ، فإنه سيضرب حتى يخضر من الضرب . فلم يقل إنريك شيئاً ، ولكن نفسه ثارت على هذه الإهانة ، وأظهر الطاعة ، وتحامل على نفسه إلى السوق ولكنه هناك تآمر مع راجا سيبو .

وبعد أربعة أيام من موت ماجلان ، جاء إنريك يحمل أنباء سارة إلى الربابين ، وقال إن الراجا جمع جواهر ليرسلها إلى إسبانيا ، فهل للربابين بربوسا ، وسراءو أن ينزلا إلى البر ليتلقيا الهدايا ؟

فمضى سراءو ، وبربوسا بلا تفكير

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

إلى الفخ . وكان عدد الإسبانيين الذين نزلوا ٢٩ وبينهم أمهر الملاحين وأكثرهم خبرة ، (ومن حسن الحظ أن بيجافيتا كان لا يزال جريحاً فبقى فى السفينة) ، فاستقبلوا بحفاوة ، ثم مضوا بهم إلى كوخ من أوراق النخيل حيث أعدت مأدبة . وإذا بمن بقوا فى السفن يسمعون فجأة صيحات وصرخات فقد نكّل راجا سيبو بضيوفه !

وخلف على القيادة كارفالهو فأمر بأن تسدّد المدافع إلى المدينة ، فانطلقت تجلجل واحداً بعد واحد . ثم حدث شيء فظيع ، فقد استطاع سراءو — ولما يكد — أن ينجو من أيدى القتلة ويهرب إلى الشاطىء ، فتبعوه ونزعوا سلاحه ، فوقف أعزل يصيح وينادى كارفالهو أن يرسل زورقاً موقراً بالبضائع لافتدائه .

وبدا كأن الأمر سيتم ، وقدر الفداء بمدفعين ، وسبيكتين من النحاس وبعض المنسوجات ، ولكن الأهالى أصروا على أن يتسلموا ذلك أولا ، وخشى كارفالهو على الأرجح أن يستولوا على البضائع ، وعلى الزوارق أيضاً ، ومهما يكن من ذلك فقد أقلعت السفن فجأة ومضت مسرعة ، ورأى من فيها سراءو يذبح على الشاطىء .

وفى الوقت نفسه كان فريق آخر من الأهالى يحطمون الصليب الضخم الذى كان ماجلان قد رفعه ، فالذى بناه فى أسابيع من الكد والصبر انهار فى ساعة .

* * *

وصارت حالة الناجين مما لا يحسدون عليه ، فقد التحق بالسفن فى أشبيلية ٢٦٥ لم يبق منهم سوى ١١٥ ، وهم دون العدد اللازم للسفن الثلاث ، فيحسن إذن أن يضحى بإحدى الثلاث . وكانت السفينة كونسبسيون ذات خروق ، فأفرغت حمولتها وأضرمت فيها النار ، وسارت السفينتان الباقيتان معاً — ترينداد وفكتوريا .

وظهر الأثر الذى أحدثه فقد القائد الحقيق لهذا الأسطول فى اضطراب السير ، فبدلا من المضى إلى جزر ملقا ، وكانت قريبة ، ظلت السفينتان ضالتين ستة شهور ، ونسى الشرف ، وصار كارفالهو قرصاناً لا يخجل ولا يحجم عن شيء ، حتى أنف رجاله وكرهوا أن يكون قائدهم ، وما لبثوا أن ولوا عليهم سباستيان ديل كانو .

وأخيراً ، وصلوا إلى ملقا — الجزر السعيدة — مصادفة . وفى ٨ نوفمبر سنة ١٥٢١ نزلوا فى تيدور ، وكان الأهالى لطافاً ظرافاً فأعطوا الإسبانيين كل ماطلبوا وزيادة ، فأقبل هؤلاء على الأفاويه يشترونها ببنادقهم وأرديتهم وأحزمتهم ، فإنهم عائدون إلى وطنهم وإلى الغنى من أثمان هذه الكنوز

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

التى ظفروا بها . وأوقرت السفينتان ، ولكن لما نشرت الأشرعة صرّت جوانب السفينة ترينداد وانشقت ، ولم تستطع فكتوريا الانتظار ، فتقرر أن يبقى ٥١ من الملاحين فى الجزر السعيدة حتى ترمم ترينداد. (وقد حاولت فيما بعد أن تقوم برحلة الإياب فغرقت بمن فيها) .

* * *

وكانت رحلة السفينة فكتوريا حول النصف الثانى من الكرة ، بعد أن قضت ثلاثين شهراً فى النصف الأول ، من أمجد الأعمال فى تاريخ الملاحة وأحفلها بمظاهر البطولة ، وكانت قد زودت بما يكفيها خمسة شهور ، ولكنها لم تستطع أن تحصل على شىء من الملح ، ففسد لحم الخنزير المخلل تحت هذه الشمس المحرقة ، فألقى الملاحون بمخزونهم منه فى البحر اتقاءاً لما قد يصيبهم منه .

وهكذا رافقتهم المجاعة مرة أخرى وهم يجتازون البحر ، وكانت موقرة بمئات من قناطير البهار ، ولكن من الذى يستطيع وقد عصب ريقه ، وجف لسانه ، والتوت أمعاؤه من الجوع ، أن يمضغ الفلفل أو يحتمل لسعة القرفة ، أو يزدرد جوزة الطيب بدلا من الخبز ؟ فكانت الجثث المبرية تلقى فى اليم واحدة فى إثر واحدة كل يوم ، ومات أكثر من عشرين من الملاحين ، قبل أن تصل فى ٩ يوليه سنة ١٥٢٢ ، بعد خمسة شهور فى البحر ، إلى سانتياجو فى جزر الرأس الأخضر .

وكان هذا ميناء برتغالياً فى مستعمرة برتغالية ، فإذا نزل القوم إلى البر كان مؤدى ذلك أن يسلموا أنفسهم إلى العدو ، ولكن الجوع لم يترك لهم خياراً ، فبعث ديل كانو بعض رجاله إلى البر ، وأمرهم أن يزعموا أن السفينة جاءت من أمريكا ، وعاد الزورق مثقلا بالزاد ، فرده ديل كانو ليجىء بحمولة أخرى ، وإذا به يلمح بعض الزوارق فى الميناء يستعد للخروج ، فأدرك أن حيلته انكشفت ، وترك ملاحيه لمصيرهم على الشاطىء ، وأسرع فرفع المرساة ونشر القلوع .

ومع قصر المقام عند جزر الرأس الأخضر ، شاهد بيجافيتا — ذلك المؤرخ المجد — أعجوبة أخرى كان هو أول رجل فى العالم لاحظها . ذلك أن الملاحين الذين ذهبوا إلى البر ليمونوا السفينة عادوا يقولون إن اليوم هو يوم الخميس على البر ، وإن كان يوم الأربعاء على السفينة ، وكان بيجافيتا قد واظب على تدوين مذكراته بدقة تامة ثلاث سنوات ، فهل من الممكن أن يكون قد نسى يوماً ؟ فسأل الملاح «ألفوا» وكان هذا قد أثبت الأيام فى سجلات السفينة ، فقال ألفوا إنه واثق أن هذا يوم الأربعاء . فلا بد إذن أن يكون هؤلاء الذين طافوا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

حول الأرض مغربين دائماً ، قد فاتهم يوم . وقد أذهل بيجافيتا العالم الأوربى بهذه الظاهرة العجيبة التى لم يعرف لها أحد تعليلا ، لأنه لم يكن أحد يتوهم أنه يكسب يوماً وهو يطوف حول الأرض .

* * *

على أن السفينة فكتوريا لم تكن قد وصلت بعد إلى وطنها ، فواصلت السير ، ببطء وكلال ، وبذلت آخر ما يدخل فى طاقتها فى هذه المرحلة الأخيرة ، ولم يكن قد بقى سوى حفنة من الستة والستين الذين ركبوها حين أبحرت من جزر البهار ، وكان على هؤلاء القلة أن يعملوا جاهدين فى الطلمبات ، ولما لمحوا رأس سنت فنسنت فى فى ٤ سبتمبر ١٥٢٢ فى الركن الجنوبى الغربى من البرتغال « كانوا أضعف وأشد خوراً مما كان أى إنسان فيما مضى » .

وبعد يومين رست السفينة عند مصب النهر الكبير الذى أقلعت منه قبل ثلاث سنوات ، فجثا الباقون وكانوا ١٨ ، وقبلوا أرض وطنهم الطيبة .

وفى صباح اليوم التالى صعدت السفينة فى النهر إلى أشبيلية . أشبيلية ! فصاح ديل كانو : « أطلقوا المدافع » فدوى الصوت ، تحية . وبهذه المدافع منذ ثلاث سنوات ودعوا إسبانيا ، وبها حيوا بوغاز ماجلان ، والمحيط الهادى المجهول ، وبهذه المدافع أيضاً حيوا ارخبيل الفليبين الذى استكشفوه ، ولكن صوتها الحديدى لم يكن قط أعلى وأشد ولا أبعث على الجذل منه اليوم حين أعلنت : « إننا عدنا ، وفعلنا ما لم يفعله أحد من قبل ، وكنا أول من طاف حول العالم » .

* * *

واحتشدت جماهير غفيرة على سيف النهر ليشاهدوا هذه السفينة الشهيرة — على ما جاء فيما كتبه أوفيدو — التى كانت رحلتها أروع وأعظم ما حدث فى الدنيا مذ خلقها الله » . وجعل الناس ينظرون ، وقلوبهم تفيض عطفاً وإعجاباً ، إلى هؤلاء الثمانية عشر وهم ينزلون من السفينة ، وكيف كانوا يتعثرون من الضعف ، وكيف نحل وذوى هؤلاء الأبطال ، وكيف هرموا وشيخوا ، وارتفعت سن كل منهم عشر سنوات فى ثلاث فقط . وقدم لهم الطعام ، ولكنهم أرادوا أولا الوفاء بنذر نذروه فى أحلك الساعات ، فمشوا حفاة إلى الكنيسة ، وشكروا الله القدير المتعال على نجاتهم وحركوا شفاههم الذابلة بالصلاة على روح قائدهم الذى سقط — ماكتان — وعلى أرواح أكثر من مائتين من رفقائهم .

وانتشر خبر عودتهم كالنار فى الهشيم اليابس فى أوربا فما تحركت نفوس العالم إلى هذا الحد العميق منذ رحلة كولمب ، وزالت

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الشكوك الجغرافية إلى الأبد ، إذ ما دام أن سفينة أقلعت من ميناء أشبيلية وأبحرت غرباً دائماً ثم عادت إلى الميناء نفسه فقد ثبت على وجه لا ينقض أن الأرض كرة يحيط بها محيط متصل ، وقد بدأ كولمب تحت راية إسبانيا ، الاستعمار الحديث ، وأتمه ماجلان تحت الراية نفسها . وتعلم النـــاس في ثلاثين سـنة عن الأرض التي يسكنونها أكثر مما تعلموا في آلاف من السنين الماضية ، حتى رجال المال الذين جهزوا الأسطول وجدوا ما يسرهم ، فإن حمولة السفينة فكتوريا من البهار (وهي حوالى ٢٦ طنا) تركت لهم ربحاً صـافياً مقداره ١٥٠٠ بندقية من الذهب . فحمولة هــذه السفينة بمفردها قد عوضت خسارة الأربع الأخرى وزيادة ، أما خسارة الرجال وهم حوالى مائتين فلم تدخل في الحساب !

ولم يفزع ويجزع سوى حوالى اثنى عشر رجلا في العالم كله ، حين علموا أن إحدى سـفن ماجلان عادت سالمة ، وهؤلاء هم الضـــباط الذين تخلوا عنه وكروا بالسفينة سان أنطونيو إلى أشبيليـــة قبل أكثر من عام . وكانوا قد وصفوا تمردهم بأنه عمـل وطني ، ولم يذكروا شيئاً ما عن البوغاز ، وإنما ذكروا «خليجاً» ،وزعموا أن ماجلان كان ينوى أن يسلم الأسطول للبرتغاليين . ولـكن من حسن حظهم أن ديل كانو كان شريكهم في التمرد الذي وقع في ميناء سان جوليان ، فساعدهم فنجوا من العقاب ، ونسيهم الناس من فرط ماهم فيه من السرور .

* * *

ونال ديل كانو من الثناء ما كان ماجلان جديراً به . والواقع أن ما حققه ماجلان وضحى في سبيله بحياته لم يكن ذا نفع يذكر لأحد ، فإن كثيراً من السفن التي حاولت أن تجتاز بوغاز ماجلان بعد ذلك هلكت . فظل الملاحون عشرات من السنين يتقون هــذا المجاز الخطر ، وآثروا أن يذهبـــوا ببضائعهم إلى المحيط الهادى ، أو أن يجيئوا بها منه ، بالطريق البرى الشاق مجتازين برزخ بناما .

وما مضى جيل حتى كاد البوغاز ينسى ، وبعد ثمان وخمسين عاماً من الاهتداء إليه اســـتطاع دريك أن يستعمله لمفاجأة المستعمرات الإســـبانية على الشاطئ الغربي لأمريكا الجنوبية ، ولـكن بعد ذلك لم تجتزه سوى سفن قليلة ، وإن كان ماجلان قد اعتقد أنه سيكون المجاز الرئيسى بين أوروبا والبحار الجنوبية .

ولـكن التاريخ لا يستطيع أن ينسى أول ملاح اجتاز هذا البوغاز — ذلك الرجل الذي استكشف الأبعاد الصحيحة للكرة ، وكشف أيضاً عن الذرى الرائعة التي تستطيع الشجاعة الإنسانية أن ترقى إليها .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الدنيا تقبل

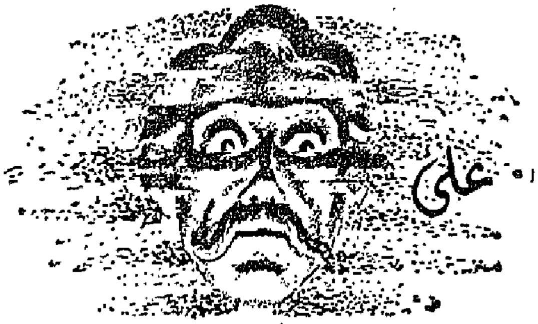

على ساحر

سيرة دانيال هوم

أشهر وسيط روحاني

خلاصة كتاب جين بارتون

« ليس في تاريخ الوسطاء الروحانيين مثيل لدانيال هوم ، فقد فاتهم جميعاً بحياته المليئة بالفواجع تتخللها المهازل ، وبفنه الخلاب ومقدرته البارعة فى أداء تجاربه الروحانية .

وقد أثارت جلساته المخيفة ، وشخصيته الظريفة ، ضجة كبرى فى أمريكا وأوربا ، وأخذت تنهال عليه الدعوات وهدايا الحلىّ من نابوليون الثالث إمبراطور فرنسا ، وإسكندر الثاني قيصر الروسيا ، ومن نبلاء كثيرين .

وراجعت جين بارتون فى كتابة سيرته كثيراً من المذكرات والرسائل والمؤلفات التى سطرها من شهد جلساته من فضلاء القارئين ، فجاء كتابها موفقا في رسم صورة حية مسلية لشخصية تعتبر من الظواهر الاجتماعية الفريدة .

ويقول المشتغلون بالسحر فى الجيل الحاضر أنهم قادرون على تفسير خوارق هوم ، ويرونها من قبيل الحيل الممكنة ، ولكن لا جدال في أنه حير مشاهير عصره حيرة تامة ، ولم يكتشف قط فى جلساته ما يدل على الغش » .

الدنيا تقبل على ساحر

ذات مساء فى شهر يناير سنة ١٨٦٣ ، اجتمع فى باريس ، فى غرفة الاستقبال بدار السيدة جوفان دى أتانفيل نفر من الأعيان ، خليط من رجال ونساء ، ينتظرون وصول « ضيف الشرف » ، المستر دانيال دانجلاس هوم ، القادم حديثاً من الولايات المتحدة .

ومنذ ست سنوات أو تزيد ، زار باريس أول مرة هذا الوسيط الروحانى الشهير الذى يزعم بأنه من صفوة الوسطاء ، ورأى الباريسيون أنه حقاً من الصفوة ولكن على وجه آخر : فالمستر هوم يصر على أن يستقبل استقبال الأكفاء ، والحذر كل الحذر من أن ينتهى مخاطبه نفسه ويعرض عليه نقوداً ، إنه يقبل الهدايا من الحلى والملابس ومعاطف الفراء ، ولا يرد مضيفاً يرافقه إلى مدن المياه الشافية التى تقصدها الطبقات الراقية ، أما النقود — فلا ! وهو فوق ذلك لا يأبه لدعوة إلا إذا جاءته ممن يعرفه حق المعرفة .

أما واسطة دعوته تلك الليلة فهو الأمير جواكيم مورا ، الذى قابله من قبل فى إحدى الجلسات التى كان يعقدها فى جناح الإمبراطورة أوجينى فى قصر التويلرى .

وكانت الأميرة بولين مترنخ ، وزوجها السفير النمساوى ، بين الضيوف الكرام الذين خفوا إلى تحية هوم عند مقدمه .

وبعد حديث قصير مهذب دار بين الحاضرين (وهوم يتكلم الفرنسية بطلاقة) جلس الجميع حول مائدة كبيرة . وكانت الغرفة تتوهج بنور الشمعدانات والثريات البلورية ، واختار هوم مقعداً يبعد عن حلقة المجتمعين بما يقرب من أربع ياردات ، ثم نبههم كى يعرفوا أن المائدة أبعد مما تنال يداه ، وأنذرهم — كدأبه دائماً — قائلا : إنهم — أى الأرواح — قد لا يأتون أبداً . ثم مال واستند إلى ظهر مقعده ، وشوهد وجهه يزداد شحوباً ، وما من أحد فى تلك الغرفة الدافئة الصامتة المتلألئة بالأنوار إلا وعلق على الوسيط عينيه .

وما هو إلا أن أخذت الشمعدانات تتحرك ، وأقبل من آخر الغرفة مقعد خال يسعى كأنما تدفعه قوة لا تغالب . وفجأة صاح هوم : « هم هنا — هم حولنا من كل جانب ! » .

وفى اللحظة ذاتها صرخت الأميرة مترنخ وقالت ، وهى تتلمس لنفسها عذراً ، إن يداً خفية صلبة كالحديد قبضت على أصابعها .

واعترف الآخرون ، وهم مضطربون ، أنهم أحسوا أيضاً بضغط تلك الأصابع الجافية .

وحينئذ شرع مفرش المائدة — وهو من الحرير المزركش — يرتفع قليلا قليلا ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وبدا من تحته شيء ، لعله يد خفية ، وأخذت تقترب منهم ، واندفع الأمير مترنخ هو وبعض الحاضرين ليمسكوا بهذا الشيء المتحرك ، ولكنهم آبوا بالخيبة ، إذ أجمعوا على أنهم ما كادوا يمسكون بها حتى اختفت . واقتض رجل على المفرش ومزقه ، وارتمى غيره تحت المائدة ، ولكنهم لم يجدوا شيئاً . ولما عادوا إلى مقاعدهم انبعثت من المائدة ، نقرات متلاحقة كأنها تسخر بهم ، وجعلت المائدة تميل ميلا كبيراً وترتفع عن الأرض عدة بوصات .

كان هوم حينئذ فى غيبوبة لا حراك به ، ووجهه أبيض كالشمع ، ورأسه مائل إلى الوراء ثم تكلم وسأل : « هل فى الدار أكورديون ؟ (موسيقى اليد) ، فإن جو الجلسة يبشر بالنجاح ، فربما قبلوا « هم » رجاءه وعزفوا عليه . فتطوع اثنان من الحاضرين بأن ينطلقا لشراء أكورديون من متجر قريب للآلات الموسيقية .

وبعد قليل عادا ومعهما أكورديون جديد مجلوّ ، فطلب هوم من الأميرة مترنخ أن تحمل الأكورديون بيد واحدة وترفعه فوق رأسها ، وهى واقفة بمفردها فى وسط الغرفة .

فأطاعت الأميرة مترنخ ، وشعرت مبدأ الأمر بجذبة ، ثم بعد لحظة : « عقدت الدهشة لسانى حينما سمعت فجأة — كما سمع كل الحاضرين — صوت عزف بارع يعزف ألحاناً سماوية .

وحينئذ بلغ انبهار الحاضرين ذروته » .

وكان هذا إيذاناً بانتهاء الجلسة ، فانطلقوا جميعاً يتناقشون فى حدة ، ويدلى كل منهم برأيه فى تعليل ما رآه . هل مُوّه عليهم بشيء مصنوع على هيئة اليد ؟ هل هى خيالات الهذيان ؟ أو هل هو التنويم المغناطيسى الذى يؤثر فى الجماعات تأثيره فى الأفراد ؟ وانبرت الأميرة مترنخ تفند الرأى الأخير وقالت : « ليس من المستحيل أن يكون هوم منوماً مغناطيسيا لا مثيل له ، ولكنه لم يلجأ معنا إلى وسيلة واحدة من الوسائل المعروفة للتنويم المغناطيسى » . وقالت أيضاً إن الغرفة لم تطفأ أنوارها لحظة واحدة طول الجلسة ، وإن هوم لم يدخل هذه الدار قط قبل ذلك المساء فليس فى مقدوره أن يخفى فيه قبل الجلسة أدوات حرفته

أما الذى حيّرها فظاهرة تبلبلت لها أفكار من هم أكثر تبحراً منها فى العلم ، وذلك أن المائدة حينما مالت فى حضور الوسيط ، ظل ما فوقها من الاشياء لاصقاً بسطحها لا يتحول عن مكانه ، وضاع سدى كل جهد يراد به تحريكها . وفوق ذلك أن لهيب الشموع بدلا من أن يستمر صاعداً مستقيما أخذ يميل بميل الشمعدان والمائدة .

هذه الحوادث أنموذج لما كان يفعله هوم كل مرة فى جلساته . وظل أيام شبابه —

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان وقتئذ فى الثلاثين من عمره — يعقد مئات من هذه الجلسات كل سنة . ولم يكن من غير المألوف لديه أن يعقد خمس جلسات فى يوم واحد . وأخذت الشخصيات البارزة فى القارتين تتنافس فى شرف دعوته إلى دورها ، بل أصبح لزاماً فى أكثر من بلاط واحد . فأى شهرة نالها ، وأى شوط قطعه هذا الصبى الأسكتلندى المهاجر بفضل مواهبه الروحانية !

ولد دانيال دانجلاس هوم بأسكتلندة سنة ١٨٣٣ ، وأبوه ولد سِفاح لنبيل هو الإرل العاشر من سلالة هوم ، وعُرفت أمه بأنها من أهل الكشف . وربى الصبى فى كنف عمته مارى ماك نيل كوك التى سافرت به إلى أمريكا وهو فى التاسعة من عمره . وقد تجلت قدرته على الكشف وهو فى سن الثالثة عشرة ، إذ أخبر عن وفاة صديق ناء ، فصدق كل ما قاله . ومرت سنوات ، فإذا مسكن كوك قد أخذت تشيع فيه الدمار حوادث لا يمكن تعليلها ، تتوالى واحدة فى إثر أخرى ، فقد دأب الأثاث على التنقل فى المسكن بهدوء من تلقاء نفسه ، وجعلت تتردد فيه ضجة نكراء مشئومة ، وجلس ذات صباح إلى طعام إفطاره ، فإذا بنقرات واضحة تسمع من جوانب المائدة كلها .

بلغ القنوط بالعمة الفزعة أن دعت القسيس ليبتهل إلى الله أن يرفع هذه المحنة ، فلما جعل القسيس يدعو ويبتهل سمع نقراً خفيفاً على كرسيه ، فإذا لج فى طلب الغوث والمدد ، لجت النقرات وعلت .

استطارت هذه الحوادث بين الجيران ، فأحاطوا بالدار ، فإذا الصبى هوم ينبئهم عن مقر ذوى قرباهم الغائبين منذ أمد بعيد ، وعن مكان مستنداتهم وحليهم الضائعة . وأخيراً ضاقت العمة ذرعا بهذا الأمر كله وطردت دانيال من الدار ، وهو إذ ذاك فى السابعة عشرة من عمره .

وهكذا ولج دانيال ميداناً كان قد أصبح مزدحماً بالمتنافسين يتناحرون فيه . جرى هذا فى سنة ١٨٥٠ أى بعد سنتين من قيام وسيطات مشهورات باسم الأخوات فوكس ، بكشف الستار أول مرة عن مذهب تحضير الأرواح فى صورته الحديثة ، وذلك بظهور هذه النقرات ذاتها فى تجاربهن . ثم أخذ الوسطاء الروحانيون ، ومنهم الهواة والمحترفون ، يتكاثرون من كل جانب ، ويستحضرون هالات من النور تتجلى فيها وجوه وأيد بشرية ، وموسيقى ولوحات تعزفها وترسمها الأرواح ، وأصوات وأنوار وتيارات من هواء بارد كالثلج . ومضت بضع سنوات ركبها الهذيان ، فكان عدد أنصار هذا المذهب قد أربى على الملايين .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولم يحدث فى أرجاء الدنيا قاطبة منذ العصور الوسطى أن بلغ ميل الجماهير إلى الإيمان بالروحانيات ما بلغه فى مقاطعات الساحل الشرقى للولايات المتحدة .

وهوم ، وإن كان يعدّ نفسه طريداً لا صديق له ، لم يكن يعدم حمى يأوى إليه . وجعل من دأبه ، طوال حياته ، إذا نزل بلداً أن يحوم — تقوده فى ذلك بصيرة لا تخطىء — حول قادة الرأى فيه . ففى أمريكا يقع على أثرياء التجار والأطباء ومحررى الصحف وأصحاب الفكر الحرّ من رجال الدين ومن شاكلهم، وفى باريس يتطلع إلى الإمبراطور والإمبراطورة . فمبدؤه كان واحداً وحيثما حلّ تلقاه الناس بالحفاوة .

قيل فى وصفه إنه واسع الحيلة ، يميل إلى الإفاضة فى التعبير عن شكره ، وكان قادراً على أن يلبس لكل حالة لبوسها ، فإن لقى أطفالا سارع إلى مساعدتهم فى دروسهم أو إلى الإعجاب بألعابهم . وخلاصة القول هو أن الطبيعة حبته بكل الصفات التى تجعل منه أمثل ضيف وأحب جليس . وأعانه سقمه (فهو مصدور منذ صباه) على أن يصبح موضع اهتمام الناس ومثار عطفهم . لم يشق هوم يوماً فى طلب الرزق، فقد تيسر له بكل بساطة أن يقضى حياته ضيفاً مكرماً تحتفل به الأثرياء فى مختلف الممالك أبهى احتفال.

والذين احتفلوا به من أهل الوقار والرزانة ، يشهدون مؤكدين بأن ما يحدث عادة هو هذا :

فهو إذا ما ولج الباب ، كثيراً ما ترتج قطع الأثاث ارتجاجاً طفيفاً ، وكذلك المائدة التى يجلس حولها المجتمعون وقد تلاصقت أيديهم ، تطفر وترتج . وقد تزداد تلك الظاهرة قوة فيتصل تأثيرها بالأرض والجدران حتى ليهتز كيان الغرفة كله اهتزازاً. وتسمع نقرات تنبعث من كل جانب، ويهب على الغرفة نسيم بارد يرتجف له أطوع الموجودين للاستهواء . وكل شىء خليق بعد ذلك أن يحدث: إما سحب مضيئة تتجسم منها أيد بشرية ، وإما أجراس تدق دون أن يمسها أحد ، وإما مناديل تعقد بمهارة فى أنشوطة أمام أعين أصحابها ، وإما أن تطارد البيانُ عجائزَ المدعوات — حتى تحبسهن فى أركان الغرفة . وإما أن تدق الساعة دقا مثيراً للخوف إجابة على أسئلته ، وقد تأخذ الآلات الموسيقية كالجيتار والأكورديون وغيرها فى العزف وحدها ، سواء أكانت فى يد هوم أم فى يد غيره ، بل قد تعزف أيضاً وحدها دون أن يتناولها أحد ، وتتنقل فوق ذلك من جالس إلى جالس وهى تعزف بقوة بالغة . وكان الذين من دأبهم الشك والارتياب، يحضرون معهم آلاتهم الموسيقية ، أو

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يفككون الآلات التى تعزف فلا يجدون شيئاً .

وبَذّ هوم كل منافسيه بمقـدرته على الارتفاع بجسمه عن الأرض ، وأول مرة حقق فيها تلك الظاهرة العجيبة ترجع إلى سنة ١٨٥٢ حينما كتب ف . ل . بور محرر صحيفة هارتفورد تيمس يقول : « وفجأة ارتفع هوم إلى سقف الشقة العالى حتى لمسه برأسه ويده برفق ، وحينئذ تبينت أن شيئاً من الخوف أخذ يتملكه » .

وفى السنة نفسها استقبل هوم أربعة أساتذة أوفدتهم إليه جامعة هارفرد الشهيرة ، وبعد إنتهاء الجلسة وقعوا جميعاً على كتاب يشهدون فيه بأن من بين الظواهر التى رأوها أن واحداً منهم جلس فوق المائدة فاهتزت بعنف شديد ، وأخيراً مالت واستقرت على قائمتين ، واستمرت على هذا الوضع ، حتى بعد أن انضم اثنان من الأساتذة إلى زميلهما وجلسا معه فوقها .

وقرروا كذلك : « أن هوم ألحّ علينا مراراً أن نشد يديه ورجليه ، وكانت الغرفة جيدة الإضاءة ، ولقينا كل عون وتيسير للقيام بما أردناه من فحص دقيق . والثابت لدينا أنه لم يحتل علينا ولم يخدعنا » .

ويرجع التأثير الذى تتركه أعمال هوم فى النفوس إلى ميزتين جعلتاه صاحب طريقة انفرد بها وحده . فهو يجلس مع الموجودين كأحـدهم ، ويباشر عمله فى وضح النور . وكم سخر من عجزة المشتغلين بتحضير الأرواح الذين لا يعملون إلا فى الظـلام ، أو وهم مختبئون فى كِنّ من حوله الأستار يسمونه « الكنّ الروحانى » وهو يقول : « إذا وجد الظلام ، سهل الخـداع » ، فلا عجب أنْ لم يفز هوم قط بحب زملائه الوسطاء .

لم يكن هوم فى كل جلسـة من جلساته يلجأ إلى الاستغراق فى غيبوبة روحانيـة ، وسواء بدت عليه تلك الغيبوبة أو لم تبد ، فإن الظواهر الطبيعية التى تحدث فى جلسته كانت لا تفترق كثيراً فى إحدى الحالتين عن الأخرى . وكان إذا دخل فى غيبوبة ، ووضح أن روحاً زائراً قد استولى على حركاته وكلماته ، تسلطت عليه أحياناً كآبة مرهقة ، فيصف مناظر مرعبـة تتراءى له ، ويبكى ويرتجف . وقد يحدث أن يتصلب ساعداه وينطبق فكاه ، ثم إذا أخبر بما حدث له « أثناء غيبوبته » أجاب أحياناً ببرود أنه لا يصدق كلمة واحدة مما يقال .

سافر هوم إلى إنجلترا فى نهاية سنة ١٨٥٤ وقد سبقه إليها صيت خوارقه ، مثال ذلك أن المؤلف الإنجليزى الكبير ثاكرى كان يقوم بجولة فى الولايات المتحـدة لإلقاء محاضرات ، فكتب إلى وطنه يصف تلك الخوارق بأنها « مدهشة حقاً » .

ويذكر هوم بتأثر أنه حينما دنت سفينته من الشواطىء الإنجليزية : « وقفتُ عليها وحيداً ، قد ضعضعت العلة قواى ، وما من صديق يفتح لى ذراعيه عند وصولى » ولكنه لم ينفك يؤمن إيماناً ساذجاً بأنه أينما ذهب فلابد ملاقيه شخص يمهد له الطريق . وقد صدق إيمانه ، وكان هذا حاله فى الواقع طول حياته .

حمل هوم معه خطاب توصية إلى المستر وليم كوكس ، صاحب فندق كوكس فى شارع جرمى ، إذ كان ترحيب المستر كوكس بالوسطاء الروحانيين قد استفاض خبره فى أمريكا وإنجلترا . ويقول هوم : « ما كاد الرجل يعلم من أنا حتى رحب بى ترحيب الأب بابنه » ، وبعبارة أخرى أكثر صراحة : لم يتقاض الرجل منه أجراً .

حل هوم بلندن فتنافست الأسر النبيلة فى استضافته ، حتى تعذر عليه أن يلبى دعواتها جميعاً . ودعاه السير بلوار — ليتون الكاتب الشهير وصاحب القصص البارعة عن عالم الأرواح ، فعقد جلساته فى داره الفخمة بحىّ بارك لين ، وظل يدعوه ويحتفى به بين الحين والحين طوال السنوات العشر التالية .

ولم يكن قد مضى عليه وقت طويل فى لندن يوم حصلت إليزابيث باريت براونج ، التى أصبحت فيما بعد من أكبر المؤيدين له مدى الحياة ، على بطاقة دعوة لتشهد بها جلسة من جلساته . ومرت ساعة تتوالى فيها العجائب وشاعرة إنجلترا الأولى تجلس مشدوهة تتقد عيناها السوداوان فى وجهها الصغير المرمرى الشاحب . وكان زوجها الأنيق النابه روبرت الشاعر من بين الموجودين أيضاً ، ودل وجهه المقطب على أنه يمقت ما يراه من الإسفاف العقلى .

ثم جاء دور تجربة شهيرة تسمى « تجربة إكليل الزهور » وكتبت مسز براونج تقول : « لبثت اليد تطلب الوسيط وأخذت من المائدة إكليلا من الزهور ووضعته فوق رأسى ، وكانت اليد قريبة منى قرب يدى هذه التى أكتب بها وواضحة وضوحها »

ولم يتحول براونج عن إنكاره لمقدرة هوم ، وأخذ يلقبه بالوغد ، ويعلل ظهور اليد الروحانية بأنها «قدمه العارية أو شىء ما متصل بها» . وكتب قصيدة عنوانها « المستر سليدج الوسيط » وكلها سخرية هدامة . ولم يخف المعنىّ بها على أحد فى إنجلترا اللهم إلا على المستر هوم نفسه الذى احتج وهو يبتسم بقوله : « ما من أحد يعرفنى ولو معرفة ظاهرة إلا رأى أنه ليس بينى وبين المستر سليدج أقل شبه ! ! » .

وعلى النقيض من أمر براونج ، وجد هوم فى جون رسكن ، كاتب المقالات الشهير ، مسارعاً إلى تصديقه . وراسكن هذا كان

قد أعلن من قبل أنه يكفر بالديانات المنزلة جميعاً، فإذا به يشترك في جلسات هوم ويصبح من غلاة المؤمنين بالروحانيات. أما شارلز ديكنز فقد خصّ هوم بمقته الشديد وشهر به ووصفه بأنه دجال. ولكن نشر هذه الآراء المختلفة زادت من شهرة هوم وراح يقول: «إن الصحافة تخدمني بتلك المطاعن التي تجود بها عليّ كل يوم».

وأخذ ذكر هوم يفوز في مراسلات مسز براونتج بحيز لم يحظ به أحد من مشاهير معارفها، فكتبت لأختها تقول: «سمعت أقوالا كثيرة عن هوم، وكلها تؤكد صدقه. وقد زار روبرت صديقاً له من المرتابين، وكثيراً ما حدثه عن سخف أولئك الذين يقيمون إيمانهم على دعائم من الوهم والخداع، ولشد ما عجب إذ رأى صديقه وأهله جميعاً قد تخلوا عن ريبهم وآمنوا، فقد اتخذوا مع هوم كل ما يلزم من الحيطة، فأوثقوا منه اليدين والقدمين، فإذا باليد الروحانية تجيء وتفك الوثاق أمام أعينهم. واهتزت الغرفة كلها، كأنما لحقها زلزال قد بلغ من شدته أن أصاب الدوار كل من كان فيها. فهذه وقائع تجعل الشك مستحيلا».

لم يحدث في مكان ما أن أثارت نقرات الأرواح ضجة مثل التي أثارتها بين الجالية الأمريكية الإنجليزية في فلورنسا، حين قصدها هوم سنة ١٨٥٥، ونزل ضيفاً على توماس أدولف ترولوب شقيق الكاتب الشهير أنطوني ترولوب. ورحبت به جماعة هؤلاء النزلاء المعروفين بالظرف والمرح، وأخذ بعضهم ينافس بعضاً في دعوته وتكريمه. حتى إن الكاتب الأمريكي ناتانيال هوذورن، حينما زار فلورنسا بعد ذلك بثلاث سنين، وجدهم لا يزالون مشغولين بذكر هوم، فأخذ يجمع الحكايات المحيرة التي تروى عن براعته.

ففي يوم من الأيام تناول هوم الشاي مع حيرام باورز، الحجة في علم التشريح، وقد جعل الأيدي الروحانية التي يظهرها هوم موضع دراسته وبحثه الدقيق. ومما سجله عن بعض الظواهر التي شهدها قوله: ظهر شيء في شكل يدين على حافة المائدة، وتناولتا مروحة، وأخذتا تروحان بها. ولما سأل باورز عن نوع آخر هدية قدمها إلى ولد له قد مات، شعر هو وزوجه فجأة بوخز في الركب كوخز آلة حادة، إذ كانت الهدية مبراة!

وذكر هوذورن، وهو من أكثر الناس اتزاناً، أنه روى له أيضاً أعاجيب أخرى مماثلة جديرة بأن تدون على أنها وقائع ثابتة، شأنها في ذلك شأن كل حادثة تثبت للناس بشهادة الشهود.

ولجأ المستر ترولوب، مضيف هوم في

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فلورنسا ، إلى ساحر شيخ مجرب يدعى بارتولوميو بوسكو ليسأله رأيه فى الوسيط ، فأكد له أن ما يفعله هوم تعجز عنه كل حيل خفة اليد المعروفة .

ولما ذاع خبر هوم فى أرجاء فلورنسا اضطربت نفوس أهلها ، وأخذوا يتهامسون بأنه يقيم الحفلات الدينية للشكالى ، وأنه يبعث الموتى برقاه . ووصلته خطابات غفل من الإمضاء تهدده بأفظع انتقام إذا هو لم يغادر البلد من فوره . ومن حسن حظ هوم أن وافته حينئذ رسالة من الكونت برانيكا — من أحفاد إخوة النبيل الروسى بوتمكين — يدعوه فيها أن يعود إلى باريس .

ولكن طرأ طارىء غير منتظر ، فقد أعلن هوم أن الأرواح أبلغته فى العاشر من شهر فبراير سنة ١٨٥٦ أن قدرته ستفارقه سنة كاملة .

ولم يبق أحد فى باريس فى السنة التالية إلا وهو يعلم بالتحديد اليوم الذى سجل فيه موعد رجوع القدرة إلى هوم .

لم يثر بين أهل باريس جدل عن عودة مغن محبوب إلى الأوبرا ، أو مصارع شهير إلى حلقة النزال ، مثل ما ثار من جدل عنيف حول موعد هوم . ولا شك أن هذا الاعتكاف سنة كاملة كان مثلا بارعاً للحكمة والسياسة فى الدعاية .

وفى صباح اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ١٨٥٧ كان الماركيز دى بلمونت رسول الإمبراطور نابليون الثالث واقفاً بباب هوم ليسأله ، هل عادت إليه قدرته . فأجابه هوم : لقد عادت ، وكانت عودتها فى تمام منتصف الليل بظهور يد روحانية استقرت على جبينه .

فبادر المركيز ودعا هوم للشخوص إلى قصر التويلرى ساعة يحدد له موعد .

وكانت أول مرة مثل فيها هوم بين يدى الإمبراطور نابليون الثالث والإمبراطورة أوجينى فى يوم الجمعة ١٣ فبراير سنة ١٨٥٧ ، وطوال تلك الجلسة الافتتاحية ظل الإمبراطور ودلائل التفكير العميق تبدو على عينيه الفاحصتين . وكان هو نفسه من هواة السحر ، وموفقاً فيه بعض التوفيق ، ومع ذلك أجابته النقرات على أسئلة أضمرها ولم ينطق بها .

تسلط هوم على الإمبراطورة أوجينى فخضعت له خضوعاً سريعاً كاملا . سألها أن تمد يدها تحت المائدة وقال لها همساً : « إنها إذا أحست بيد أخرى تتناول يدها حيث هى فلتعلم أنها يد مسالمة لا تخيفها » . ولبث الحاضرون ينتظرون ، وبعد هنيهة تمتمت الإمبراطورة ، وهى لا تصدق : « إنها يد أبى ! » ولمسها الامبراطور أيضاً .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكلاهما عرفها من نقص فى خلقتها انفردت به.

ثم حدثت واقعة كانت أكثر ما أثار الدهشة فى الجلسة، فقد تجمع ضباب مضىء، وتجسمت منه يد رجل تناولت قلماً وكتبت به « نابليون » . وقد صرح الإمبراطور بأنه لا مجال لأقل شك فى أنها إمضاء نابليون الأول . واستأذنت الإمبراطورة أوجينى فى تقبيل يد هذا الذى هم جميعاً مدينون له بجميل أىّ جميل ، فارتفعت اليد إلى شفتيها قبل أن تختفى .

وأرسل الإمبراطور يدعو إليه عاجلا بعض الأساتذة من السوربون ، وهو يرجو فى قرارة نفسه أن يفسروا له ما رآه بأنه من الظواهر الكهربائية ، إذ كانت الكهرباء يومئذ أعجوبة غامضة لا تتعدى المعامل العلمية، ولكنها أقل غموضاً من ظاهرة الأكتوبلازم وهى المادة السيالة التى تتجسم منها الأشباح الروحانيــة . وحكم الأساتذة بأنه من المســتحيل أن يكون الإمبراطور قد رأى ما روى لهم أنه رآه رأى العين .

أصبح هوم بعدئذ يتناول عشاءه أسبوعاً أثر أسبوع مع الإمبراطور والإمبراطورة فى جلسة يرفع فيها التكلف كأنهم أفراد أسرة واحــدة . وصار يقوم بتجاربه أمام زوّار الإمبراطور من عظماء الأجانب. وأسر هوم أفراد الحاشية فأخذوا يتغنون بمديحه ، وهم يرومون من وراء هذا كله أن ينتشى هوم ويملأه الزهو والخيلاء ، ـ ولكنه ظل محاذراً رزيناً ، يجول بين نساء حاشية نابليون الثالث ، المتألقات جمالا ، المزدهيات بفاخر الثياب والحلىّ ، وهو شاحب الوجه ، مستغلق السر . وأخذ جمهور الشعب يسىء الظن بسيطرة هوم على البلاط الفرنسى ، فكتبت مجلة هاربر الأسبوعية تقول : « إن الإمبراطورة تستبقيه معظم الوقت فى جناحها الخاص ، وتوطدت بينهما الألفة حتى أن الألسن الخبيثة فى باريس أخذت توسوس بالفضيحة » . بل تضمنت تقارير كافة الممثلين السياسيين إلى بلادهم إشارات أشد تجريحاً ، فقد كتب اللورد كراولى سفير إنجلترا فى بريده السرى يقول : « إن هوم مسيطر تمام السيطرة على الإمبراطور والإمبراطورة ، وقد أفزع هذا رجال الشرطة » . وهاجمه الكونت والوسكى (ابن نابليون من حبيبته البولونيــة ماريا والوسكا) واتهمه بأنه جاسوس أجنبى . قد سخر المستر هوم مما نسب إليه من دسائس ومكايد ، ولكنه أزعجته بعد ذلك فكرة خطيرة جالت فجأة فى ذهنه إذ قال : « أىّ غنم يفلته رجل ذو هوى له مثل مواهبى ! »

* * *

ما لبثت الطبقة الراقية كلها أن حاطت

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

دانيال برعايتها ، وأخذ يتردد فى باريس على موائد الأمراء ، والكونتات ، والدوقات . وكثيراً ما شوهد فى صحبة ألكسندر دوماس فى المسارح والمقاهى ، ودعاه شيلى الشاعر الإنجليزى الشهير وزوجه لقضاء أسبوعين معهما . ثم تحوّل إلى هولندة ليعقد جلساته للملكة صوفيا فى لاهاى . وزار فى ولاية بادن بادن حاكمها الدوق الكبير حيث عقد فى بلاطه جلسات حضرها ملك ورتنبرج ، وولى عهد بروسيا . واستقبله البابا بيوس التاسع (وكان هوم منذ أن اشتهر قد اعتنق الكثلكة) وسأله عدة أسئلة وشيعه ببركته .

والتقى وهو فى روما فى إحدى الحفلات بالحسناء الروسية النبيلة الآنسة ساشا دى كرول ، وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، وبعد اثنى عشر يوماً أعلنت خطبتهما .

وعقد العقد فى الروسيا ، وكان ألكسندر دوماس شاهد الزوج ، ولم يتردد القيصر إسكندر الثانى فى الموافقة على الزواج إذ كان لا يعقد للنبلاء إلا بإذنه . وأصبح القيصر خير صديق مخلص لهوم ، وأهداه قبل الزواج بثلاثة أيام خاتماً ثميناً رمزاً للصداقة التى تربطهما . فلما رزق دانيال وزوجه ساشا بعد سنة من الزواج بغلام كان أشبينه فى حفلة التعميد هو عاهل روسيا العظيم نفسه .

وفى العيد السنوى الأول للزواج وصلت إلى إنجلترا أسرة هوم ومعها ابنها جريشا ومربيته ، ونزلوا فى جناح خاص بفندق كوكس « فمن سجية هوم الوفاء لأصدقائه الأقدمين » وزينوا غرفهم بصور فوتوغرافية لكثير من النبلاء وأصحاب التيجان من أوربا ، وقد وقع عليها بالإهداء من أصحابها ، ثم فتحوا أبوابهم فتدفق عليهم سيل من الزوار يتزاحمون من غير حياء ليظفروا بنظرة منهم إلى الوسيط الشهير وعروسه الشابة .

ولما أوفى العقد السادس من القرن التاسع عشر على الانتهاء كان لم يبق أحد من ذوى الخطر ، رجلا كان أو امرأة ، دون أن يشهد عجائب جلساته . وبالجملة بلغ هوم من الشهرة قمة لم يبلغها أحد .

ويمكن أن نقول إن هوم فاز من الحياة بأوفى نصيب فى قدرتها أن تجود به : بنبلاء معجبين يحيطون به ، وزوج حسناء غريرة . وولد ، ومواهب روحانية تدر عليه الأموال ، ولكن سحابة واحدة كانت تعكر سماءه الصافية ، فما من روح طيبة واحدة رضيت أن تنذر ساشا بأن السل مرض وبىء ، وأنها تذوى يوماً بعد يوم .

قصة مرض ساشا وموتها كحوادث قصة مسرحية تشهدها إنجلترا جميعاً . وما من شىء كان ينقص تلك المسرحية : أم فتية حسناء يضنى المرض جسدها الغض ، وزوج تفترسه

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأحزان ، ووليد يسعى إلى أمه يربّت على خدها ويناجيها : « ماما أطيب من أن تمرض » .

وأدت ساشا في موتها أكبر خدمة إلى مذهب زوجها ، إذ برهنت على فرق ما بين الطمأنينة التي يستمدها المحتضر من إيمانه بالروح ، والرعب الذي يأخذ غير المؤمن وهو على فراش الموت . فقد ظلت وقتاً طويلا وهي متصلة بأرواح أصدقائها الراحلين ، وشعرت بأن الحياة الجديدة التي تتفتح لها ذات جمال يفوق كل جمال . وكان الناس في ذلك العصر قد طبعوا على إجلال كل « موت جميل » : وهكذا وفقت ساشا بموتها في الترويج للمذهب الروحاني بين المستمسكين بدينهم توفيقاً لا تصيبه أي محاولة أخرى .

ظل هوم مخلصاً لزوجه الأجنبية الحسناء ، ولكن هذا الصفاء شابه كدر طارئ ، إذ ما كادت تموت حتى تورّط في نزاع قام على ميراثها ، فقد استولى أقاربها ، وفي مقدمتهم الكونتس بوشكين ، على كل أملاكها ، وانقطع عنه دخله انتظاراً لصدور الحكم . ولكنه في سنة ١٨٦٧ وضع يده في ظروف عجيبة على أم وثروة ولقب جديد ، وأصبح يلقب بـ « ليون » أما صاحبة اللقب فهي المسز جين ليون ، وكانت عجوزاً إنجليزية تبلغ من العمر ٧٥ سنة ، ولا ولد لها ، وتملك مبلغاً خلابا يبلغ ١٤٠ ألفاً من الجنيهات . ولما كانت من المؤمنات بالمذهب الروحاني ، فقد حاولت الاتصال بزوجها المتوفى ، ثم أشير عليها بأن تجرب هوم ، فدعته إليها ، فذهب .

توطدت صداقتهما ، وما لبثت أن فاتحته أنها تريد أن تتبناه ، وقالت له : « لا شيء يغيظ أسرة زوجي غيظاً أشد من هذا . سننثر المال نثراً ، وسأتمتع بأيامي الباقية »

ذكر هوم فيما بعد أنه أبدى لها اعتراضه قال : « وأفهمتها أنني رجل يعرفه أغلب الناس ، فلن تحجم الألسن عن أن تلوك سيرتها » . فأجابته بحماسة :

« حبذا لو فعلوا ! »

ثم أخبرته (وكل هذا من رواية هوم طبعا) أنها قد اعتزمت — سواء قبل أن تتبناه أو لم يقبل — أن تخصص له مورداً ثابتاً يغنيه طول حياته ، وسارعت إلى إثبات قولها فكتبت له الوثيقة التالية :

« عزيزي المستر هوم

يسرني كل السرور أن أقدم إليك الآن هدية خالصة مني مبلغ ٢٤ ألف جنيه .

وتفضل بقبول فائق احترامي .

[جين ليون]

قبل هوم هذه الهدية الكريمة بعد أن فكر في الأمر — وإن كان تفكيره لم يطل كثيراً . ثم لم يصبح في مقدوره ، بعد أن قبل هدية

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

المسز ليون ، أن يعصى رغبتها فى تبنيه ، فصدر إشهاد شرعى بتغيير اسمه إلى دانيال هوم ليون ، واحتفلت المسز ليون بمناسبة صدور الإشهاد ومنحته ٦ آلاف جنيه أخرى . ثم أمطرته بعد ذلك بوابل من هدايا شتى .

باعته ورهنت له عقارات ، وتنازلت له عن أسهم وسندات . وأقسمت المسز ليون فى شهادتها التى أدلت بها فيما بعد ، أنها فعلت كل ذلك طاعة لرسائل جاءتها على يد هوم من روح زوجها المتوفى .

وسرعان ما ندم كل من « الأم » و « الابن » على العهد الذى ارتبطا به ، فلم يمض أسبوع حتى قال عنها إنه : « ينقصها الصدق نقصاً مريعاً ، ومن سجيتها ، فوق ذلك ، الانتقام » . وكذلك لقى من مسلكها فى الجلسات ما يؤذيه إذ تدلك كفيها مسرورة وتقول : « فلنقلع إلى موطن الأرواح » . فإذا قام بما يجب لها عليه واستصحبها لزيارة أصدقائه ، أظهرت له أمامهم من علائم التحبب والهيام ما يربكه ويندى له جبينه . فكان يكتم فى قلبه عذاباً شديداً ، وبدأ الناس يتغامزون بهما ، والخلاصة أنها استرقته ، ففر منها إلى مدينة بريتون .

وفى شهر مايو رفعت عليه مسز ليون دعوى لاسترداد مالها ، وادعت أنها إنما دفعته له بالإكراه . واستمرت قضية « ليون ضد هوم » عشرة أيام ، وكان فى شهادة الطرفين من النوادر ما لم يدع للكتاب الفكاهيين مجالا للزيادة عليها بدعاباتهم .

وشهد هوم بأن المسز ليون رغبت إليه أن تقوم بينهما علاقة أدنى إلى القلب من علاقة الأم بمتبناها ، وأنه صد عنها ، وهذا هو سبب انقلابها عليه . استوفت هذه القضية خير النوادر التى تعشقها الجماهير وتخوض فيها ، فقد ظهر بين الشهود فيها وسطاء آخرون يجرح بعضهم بعضاً . وأماثل تبين أنهم استرقوا السمع من وراء الأبواب ، وسيدات من علية القوم يقفن والخادمات أمام المحكمة جنباً إلى جنب . وجلست المسز ليون وسط قاعة الجلسة كثيرة الثرثرة ، سليطة اللسان لا يردعها ما اصطلح عليه الناس من حياء كاذب . فكان إذا قيل عنها تلميحاً إنها مصابة بنقص فى عقلها أقرت وهى جذلة متهللة : « لاشك أن عقلى كان قد طار ، فإننى كنت خاضعة لسلطانه الروحانى كما ترون » .

ولما انتهت المرافعة صدر حكم ابتدائى فى مصاريف الدعوى ، يقضى على المسز ليون بأن تدفع إلى هوم ما تحمله فيها وأن تغرم هى ما صرفته . وانتهز رئيس الجلسة فرصة النطق بأن الحكم يصدر بعد المداولة وقال : لا جرم أن الفوضى تعم لو سمح للمتبرعين للجمعيات

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الدينية أو الخيرية بأن يغيروا رأيهم ، ويعدلوا عن التبرعات التي تبرعوا بها فعلا .

ولكن الحكم النهائي هاجم المذهب الروحاني ووصفه بأنه « خطة مرسومة لخداع المغرورين والضعفاء والحمقى والمؤمنين بالخرافات» . واستردت المسزليون نقودها ، كما استرد هوم اسمه القديم ، وقد ناله من هذه المحنة ما ناله من خدش وتجريح .

لم يزل مقدراً لهوم حينئذ أن يقضى في حرفته بضع سنوات ، وبدأ في ذلك الوقت يضيف إلى برنامجه المعهود تجربتين جديدتين: أما الأولى فظاهرة مخيفة أسماها « إطالة القامة » ، وأما الثانية فظاهرة لمس النار .

ولما استحدث هوم ظاهرة إطالة القامة أخضعها الفاحصون لامتحان دقيق ، فكانوا يوقفون هوم (وهو في غيبوبته) إلى جدار ويرصدون رجلا منهم يمسك بقدميه ، وآخر يراقب وسطه ، وثالثاً يقف بجانبه وفي يده قلم يبين به على الجدار مقدار ما بلغه نموه . وذات ليلة ، وكان هوم في دار صامويل كارترهول (من أدباء لندن)، جرى امتحانه على صورة جديدة من باب التنوع . فرقد دانيال على الأرض ، وجلس عند قدميه سيد من الأشراف يدعى لندساى ، وعند رأسه نبيل إيرلندى شاب يدعى لورد آدير ، فقرر أن قامة هوم بدا منها أنها تطول من طرفيها ، وأنها أزاحت الرجلين عن موضعهما . وأقبل هول مسرعاً وفي يده شريط قياس ، ولشد ما كانت دهشته إذ وجد بين الشاهدين مسافة طولها سبع أقدام.

أما ظاهرة لمس النار فكانت تملأ قلوب الناظرين رعباً ، واعتبرها الكثيرون برهاناً قاطعاً على أن هوم مؤاخ للشياطين . وكان الظاهر أن هوم يستطيع نقل مناعته إلى الآخرين بل إلى الزهور في بعض الأحيان ، فهو يدنى الزهرة من لهيب النار، ثم يدور بها على الحاضرين فيرونها ندية سليمة . وشهدت اللادى جوم أنه ناولها فحمة متقدة فحملتها في يدها دون أن تضرها ، ثم ما كادت تضعها على ورقة بجانبها حتى أسرع فيها اللهيب من فوره .

وارتاع رجال أشداء وامتقعت وجوههم يوم رأوه يسير — وهو في غيبوبة — إلى الموقد ، ويحرك بيده الجمر حتى يرتفع لهيبه ، ثم « يركع ويدس وجهه بين قطع الفحم المتقدة ، ويحركه يمنة ويسرة كأنما يغسله في الماء » ، دون أن تحترق شعرة واحدة في رأسه ، ثم رأوه يلتقط جذوة مشتعلة ويدور بها على الحاضرين ، فكانوا لا يطيقون لهيبها وهم على بعد قليل منها .

ولم تسلم صحبة هوم ، في الإقامة أو في السفر ، من أغرب الحوادث. نزل مرة ضيفاً — في زيارة قصيرة — على المستر جون

أمور جونز فى مقاطعة نوروود ، فوافاه اللورد آدير ، الذى أصبح رفيقه الذى لا يفارقه ، ليشهد جلساته ، وفاته بسبب ذلك آخر قطار إلى لندن ، فدعاه صاحب الدار المضياف الكريم أن يقضى الليلة عنده ، وحملت أريكته إلى غرفة هوم فى الطابق الأعلى لينام الضيف الجديد عليها . أطفىء النور ، ولكن الغرفة كان لا يزال يصلها بصيص من مصابيح الطريق ، وأخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث والنعاس يغالبهما ، وإذا بالغرفة قد أخذت تهتز ، وغطاء الفراش ينجذب وينحسر ، ثم سمعت ألحان موسيقية . فناديا جونز ، فأقبل مهرولا وسألاه هل فى الدار أحد يعزف على الهارمونى . فنفى ذلك ومكث معهما ليرى ما يحدث .

حينئذ وصل إلى سمع آدير صوت تقليب نظارته وحق سعوطه على المقعد الذى تركهما عليه من قبل ، وارتفعت المائدة التى ألقى عليها ملابسه وأخذ ينبعث منها ضوء ضئيل ، وتساقطت نقوده واندلقت على البساط .

وكان آخر ما سمعه تلك الليلة صلصلة قطع النقود وهى تلتقطها أرواح حريصة على أناقة الغرفة ، وتعيدها إلى حيث كانت فى ملابسه.

واختتم هوم سنة ١٨٦٨ بخارقة تعد أروع الخوارق فى حياته كلها ، وأكثرها استطارة فى الشهرة ، إذ جمع بين الارتفاع بجسمه فى الجو ، والتنقل من غرفة إلى غرفة من نوافذ مطلة على الطريق من الطابق الثالث . جرى هذا فى مسكن هول ، وشهده آدير ولندساى والكابتن شارلز وين ابن عم آدير . وكتب كل من آدير ولندساى وصفاً مستقلا بما حدث . دخل هوم فى غيبوبته واستمر زمناً ، ثم أخذ يسير بمشقة ، وأخيراً قادته قدماه إلى غرفة مجاورة فولجها وغاب ، وحينئذ سمع لندساى صوتاً يهمس له فى أذنه : « سيبرح الغرفة من النافذة ، ويدخل إليكم غرفتكم من النافذة أيضاً » ، ولم يكد يجد من الوقت ما يذيع فيه هذا النبأ حتى « سمعنا صوت رفع النافذة فى الغرفة المجاورة ، وتلا ذلك أن رأينا هوم يطفو بجسمه فى الهواء خارج نافذتنا . واستمر فى ذلك الوضع بضع ثوان ، ثم رفع زجاج نافذتنا وانحدر إلى الغرفة تسبقه قدماه ، ثم جلس .

« ثم ذهب اللورد آدير إلى الغرفة المجاورة ليفحص نافذتها ، فوجد زجاجها لم يرتفع عن قاعدته إلا مقدار ١٨ بوصة ، فأعرب عن دهشته كيف أمكن مرور المستر هوم من تلك الفُرجة الضيقة ، فأجابه هوم (وكان لا يزال فى غيبوبته) : سأريك ، وكانت النافذة خلفه ، ثم مال بظهره واندفع من الفُرجة تسبقه رأسه ، وقد تصلب جسده ، ثم عاد بهدوء » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولما أفاق هوم كان فى اضطراب بالغ ، وقال إنه يشعر كأنما مر من خطر جسيم ، وأن رغبة مخيفة تجيش فى صدره وتحثه على أن يلقى بنفسه من النافذة .

* * *

وفى أوائل سنة ١٨٧١ ، ولأول مرة منذ ست سنوات ، عاد هوم إلى روسيا بدعوة من الكونت مايندورف ، واستدعاه القيصر لمقابلته فى قصر الشتاء .

وفى زيارته تلك لروسيا قابل هوم جولى دى جلوملين الحسناء ، وهى من أقارب كل من إسكندر . ف . أسكاسوف ، المستشار الإمبراطورى ، والدكتور ا . فون بوتلرو أستاذ الكيمياء فى جامعة سان بطرسبرج .

وجدت جولى من هوم رجلا رقيقاً ودوداً ، وسمعت صوتاً لا تدرى من أين يجيئها يقول لها : « هذا هو زوجك » وسرعان ما انعقدت خطبتهما ، ولكن عقد الزواج أجّل لاضطرار هوم إلى العودة إلى إنجلترا فى شهر مارس لارتباطه بموعد .

وكان الأستاذ وليم كروكس الشاب النابه الطموح ، والعالم المتخصص فى الطبيعة والكيمياء ، (والذى منح لقب سير فيما بعد) مهتما بأمر هوم أكبر اهتمام ، ويتحرق شوقاً لامتحان تجاربه فى معمله — وكان يقول : « إن المعتنقين للمذهب الروحانى يروون أن غرفاً ومنازل تهتز بفعل قوة فوق قوة البشر ، وكل ما يريده الرجل العالم أن يحدث أمامه هو تحريك رقاص ساعة جدار موضوعة فى قالب زجاجى » وأضاف « إنه لا يعقل أن ينجح هوم فى تنويم آلة جامدة تنويماً مغناطيسيا » . وأعد له فى معمله أيضاً أكورديوناً داخل قفص محزوم بأسلاك من النحاس ، وظلت يدا هوم مقيدتين طول التجربة ، ومع ذلك شوهد الأكورديون يطفو فى الهواء داخل القفص ، وتصدر منه أنغام تتحول إلى لحن حلو شجى .

وبعد أن شاهد كروكس ظاهرة ارتفاع هوم بجسمه فى الجو ، وأخذه النار بيده ، وغيرها من تجاربه الخارقة ، كتب تقريراً للمجلة العلمية « كوارترلى جورنال أوف ساينس » حكم فيه حكما قاطعاً ، بوجود قوة جديدة تكمن فى الكائن البشرى ، على صورة مجهولة ، ويمكن تسميتها من باب التيسير فى التعريف : بالقوة الروحانيـة ، وأن هوم أكثر أصحاب هـذه القوة إثارة للدهشة .

« فكل ما رأيته منه جرى فى النور ، ولا أتأخر عن الشهادة بأن الظواهر التى شاهدتها تناقض تمام التناقض المبادىء العلمية المقررة ، كقوة الجاذبية ، فى تأثيرها المطلق الدائم . وإن فى رأسى نزاعاً بين عقلى الذى يحكم بأن هـذه الظواهر مستحيلة الوقوع

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

من الوجهة العامية ، وشعوري بأن ما رأيته بعيني ولمسته بيدي لم يكن كذباً باطلا » .

وكتب بعد ذلك بعشرين سنة يقول إنه لم يتسن له أن يكتشف ثلمة في التجارب التي أقيمت ، ولا في النتائج التي استخلصها منها .

تقاعد هوم عن العمل بعد زواجه الثاني وهو في سن الثامنة والثلاثين ، وكان قد صدر له حكم في النزاع الذي قام حول ميراث ساشا ، فلما تحسنت شؤونه وثروته ، أصبح هوم مثال الشخصية العالمية ، ينعم بحياة هادئة ناعمة ، ويقضي معظم وقته في الرحلات . ولكن صحته كانت قد ساءت وامتد السل إلى رئتيه معاً ، وأصيب بداء النقرس فأصبح لا يسير إلا متوكئاً على عصا .

وكان الاهتمام يثور بين نزلاء مدن الاستشفاء بالمياه ، كلما ظهرت بينهم تلك الشخصية الأسطورية ، ورأوا ذلك الساحر المتقاعد يحف به أمناء سره ، وجماعة المعجبين به ، وزوجه الرشيقة الجميلة ترفرف حواليه . أما هو فكان يتوهج ، كأنه شجرة عيد الميلاد ، بحلى جميلة نالها على مر السنين من هدايا أصحاب التيجان تقديراً له منهم . فالخواتم تغطي أصابع يديه ، وكان يروي قصة هذه الخواتم ببراعة لمن يسأله عنها . فهذا الخاتم جاءه من إمبراطور فرنسا ، وهذا من صوفيا ملكة هولندة ، وهذه الفصوص من الماس والزمرد والياقوت من قيصر روسيا . أما اللؤلؤة فمن وليم الأول عاهل ألمانيا .

واحتفل هوم بعيد ميلاده الخمسيني في نيس ، واجتمعت الجالية الأجنبية هناك للاحتفال به ، وقدمت إليه طاقات الزهور ، وألقيت خطب المديح ، ومات بعد ثلاث سنوات من ربيع سنة ١٨٨٦ ، ودفن بالمقبرة الروسية في مدينة سان جرمان دي لاي .

لقد أثارت حياته ومغامراته أوربا كلها ، ولا تزال خوارقه لغزاً معمى ، فلم تنفرج شفتاه طول حياته بكلمة واحدة تكشف الستار عنها . ولما أهيل عليه التراب كان قد جر معه سره إلى القبر . ولكن مما لا يشك فيه أن هوم نجح في تجاربه نجاحاً باهراً متألقاً متصلا .

ظل هوم إلى أن مات يقظاً لا يغفل ، ولا شك أنه أمضى حياته في حذر دائم منهك ، يسابق بذكائه الفواجع فينجاب عنه غبارها . وكانت مآسي حياته تتمثل في انتزاعه للفوز من بين براثن اليأس ، ولا يجاريه في هذا الفوز أحد من الناس .

وقال عنه ج . ك شسترتون الكاتب الإنجليزي الشهير :

« أشقى النوابغ ، ولا جرم ، من كان نابغة دجالا فذًّا في الخداع — إنه سلطان قاهر ، ولكن في جزيرة جرداء موحشة ! » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

باب الكتب

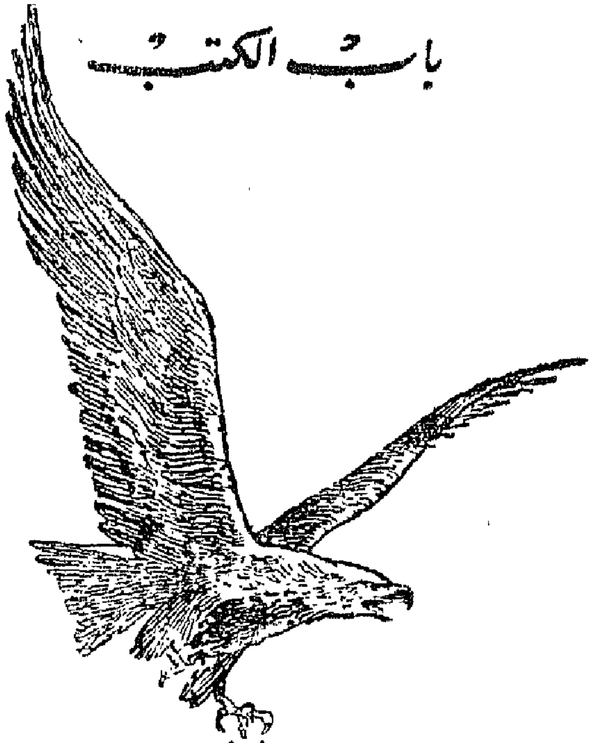

الولايات المتحدة
وغاياتها من الحرب

تلخيص كامل لكتاب
والتر ليبمان

مؤلف "الرأى العام" و"سياسة الولايات المتحدة".. الخ

« عززوا النظام الدولى الذى سبكناه خلال الحرب فنستطيع أن نظفر بسلام دائم » — هكذا يقول أكبر كتاب أمريكا السياسيين .

وليس ثمة بحث أنفذ رأياً ، وأصدق ، وأبعث على الرجاء فى تنظيم العالم بعد الحرب ، من هذا الكتاب الجديد بقلم ولتر ليمان . إن صفحاته المنيرة تتحدّى القارىء وتعينه على مراقبة تطور الشعوب العالمية ، بعناية أعظم وفهم أدق .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الولايات المتحدة وغاياتها من الحرب

آن لأمريكا أن تعين غاياتها من الحرب، واستبان الطريق أمامها، وما كان في وسعنا أن نفعل ذلك في العام الماضي، وكنا أقل قدرة على هذا لما أعلنت الحرب، لأن استقرار العزم على المقاومة عند حصول التحدي ليس مما يصفه أحد بأنه غرض من أغراض الحرب. وكنا في ديسمبر ١٩٤١ لا ندري أنستطيع أن نحتفظ بهواي، وألاسكا وأستراليا أم لا نستطيع؟ ولا كنا ندري أنستطيع أن نصل إلى الصين أو كيف نصل إليها قبل أن يتم قهرها وفتحها؟ وحتى في سنة ١٩٤٢ كان أكبر ظننا أن تخترق ألمانيا الشرق الأوسط، وتنفذ اليابان إلى الهند، وتتلاقى أيديهما في المحيط الهندي، ولم نكن نعلم أن روسيا تستطيع أن تصد الغزو الألماني.

والآن، في سنة ١٩٤٤ — وإن كانت اعظم المعارك لعلها باقية أمامنا — نستطيع أن نستشف نتيجة الحرب بجلاء يسمح لنا بأن نعيّن غاياتنا الحقيقية من الحرب. والواقع أني لا أظن أننا نغالط أنفسنا أو نخدعها الآن إذا اعتقدنا أن عهد سلام طويل عظيم أصبح في متناولنا.

غير أنه ما من أحد يستطيع أن يجلس في غرفة مكتبه أو إلى مائدة مؤتمر ويخترع مشروعاً عملياً للسلام. وما من أحد يستطيع أن يخترع شجرة، وإنما يستطيع أن يربيها، ويقلمها ويشذبها، ويحميها من الآفات التي تتلفها وتعصف بها، ويقويها على احتمال الزوابع. ولن يُصنع السلام بعد أن تقف أرحاء القتال، فإنه يصنع الآن، والسلام الوحيد الذي نستطيع أن نناله هو هذا الذي يصاغ الآن بإدارة الحرب، وإنا لنكون مخدوعين إذا ظننا أنه يسعنا إغفال هذا السلام والحصول على سلام آخر غيره.

ومتى ألقى أعداؤنا السلاح فسيكون معنا صورة السلام ومبناه، ولن نحتاج إلى بنائه لأنه يكون قد بُني بفضل أعمال البطولة والكد الشديد، وعلينا أن نحرص على أن لا نقوضه، ثم علينا أن نجعله أقوى وأمتن، ثم علينا أيضاً أن نشرع في تحسينه وتهذيبه، وإذا أدرك الناجون قيمة ما تم فعله، فإنهم سيجدون أنهم يرثون سلاماً عظيما أقامه الرجال بدمائهم وعرقهم ودموعهم، وأن هذا السلام يستطيع البقاء اذا أخلصنا لجوهره ولما يعد به.

ونحن نحتاج أن نعرف أولا لماذا نحارب، فإذا عرفنا لماذا نقاتل، وماذا كسبنا حقاً،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فإننا خلقاء أن نعرف كيف نعين غاياتنا من الحرب .

الحرب مع اليابان

نبدأ بأن نسأل كيف اتفق أن نكون فى حرب مع اليابان ؟ وصحيح أن اليابان هاجمت ميناء بيرل فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ وأنه لم يبق لنا حينئذ خيار فى الأمر ، ولكن اليابان ما كانت لتهاجمنا لولا أننا اعترضنا طريقها فى أمور كانت مصممة على القيام بها .

وليست هذه الأمور بسر ، فقد تورطت اليابان فى فتح الصين ، وكانت تستعد أيضاً لفتح جزر الهند الشرقية ، والفلبين ، والملايا ، والهند الصينية ، وكان من المحقق أنها تنوى الهجوم على الاتحاد السوفيتى ، ولكن العزم الذى لا تحوّل عنه هو فتح الصين ، فلما أبت الولايات المتحدة أن تكف عن مقاومة اليابان فى الصين ، لجأت اليابان إلى الحرب .

والسؤال ، إذن ، هو لماذا وكيف آثرت الولايات المتحدة أن تقبل التحدى اليابانى وأبت أن توافق على فتح الصين ؟

وكان أول رئيس اتخذ موقف معارضة لتجزئة الصين وتمزيقها هو ماكنلى ، ففى سنة ١٩٠٠ صرح وزير خارجيته — المستر جون هاى — بأن « سياسة حكومة الولايات المتحدة هى ... المحافظة على كيان الصين » .

ولما استطاعت الأحزاب فى الصين فى سنة ١٩٣٧ أن تتحد على مقاومة اليابان بعد زمن طويل من الحرب الأهلية ، كان علينا أن نقبل أخطار الحرب ، لأن الصينيين كانوا يريقون دماءهم فى سبيل مبدأ ظللنا نجهر به أربعين سنة ، فكان الشرف والحكمة لا يسمحان لنا بالوقوف جانباً .

ولهذا بدأت الولايات المتحدة، بعد سلسلة من الاحتجاجات الدبلوماسية ، تتخذ تدابير «دون الحرب». وفى ٢٦ يوليه سنة ١٩٤١ جمدت الولايات المتحدة الأموال اليابانية فى الولايات المتحدة ، وكان هذا بمثابة إعلان لحرب اقتصادية،فصارت المسألة الوحيدة بعد هذا هى: متى وأين تضرب اليابان ضربتها ؟

وفى هذه الظروف دارت المفاوضات الأخيرة مع كوروزو المبعوث اليابانى، وكان الثمن الذى حدده كوروزو هو أن نكف عن مساعدة الصين ، وأن نوافق على الفتح اليابانى . وكان هذا هو الشىء الوحيد الذى لا نستطيعه .

إن عدّة الصين ومواردها الهائلة ، إذا نظمتها وقادتها اليابان ، تستطيع أن تغذى وتمد قوة مشتركة براً وبحراً فى منطقة المحيط الهادى لا يسعنا أن ننظر إليها إلا بجزع

عميق . وفى نوفبر سنة ١٩٤١ كان علينا أن نبت فى الأمر نهائياً فإما أن نخضع وندع هذه الإمبراطورية الأسيوية تقوم ، وإما أن نقاوم ونحارب . فإذا آثرنا تهدئة اليابان ومراضاتها بعدم التمسك بكل ما ظللنا نقوله عن الصين مدة أربعين عاماً ، فإننا نواجه احتمالا قويا هو أن تتألف حكومة صينية تصالح اليابان ، وحينئذ تتوطد أقدام اليابان فى الصين وتتعزز بها ، فتضربنا ضربتها على كل حال ، بعد أن صارت لها قوات احتياطية أعظم جداً مما كان لها . ولهذا رأت الولايات المتحدة آخر الأمر أن عليها أن تقبل المخاطرة بحرب عاجلة مع اليابان ، وأن هذا خير من المخاطرة بتسلم الصين وما يتبع ذلك من معاونتها لإمبراطورية أسيوية تحت الزعامة اليابانية .

التحدى الألمانى

يدل تقويم الحوادث التى أفضت مرتين إلى الحرب مع ألمانيا ، على أن غريزة المحافظة على الذات القومية يثيرها ويبتعثها فى هذه البلاد (الولايات المتحدة) العدوان الناجح على بلدان واقعة على الشواطىء الأخرى للبحار التى تحيط بنا .

ومهما يكن ما يقوله بعضنا أو كثيرون منا ، فإن هذا هو الخطر الذى يحدث رد الفعل فى الأمة ، وقد يصف رجال منا أنفسهم بأنهم من أنصار العزلة أو من أنصار التدخل ، وقد يؤيدون قوانين الحياد أو السلامة الكلية ، فإن جميع الحجج والأقوال تفتر حين ترى الأمة نفسها أمام قوة فاتحة وراء حدودها البحرية . والواقع أننا إذا درسنا ما يقال من الآراء والمذاهب درساً دقيقاً ، اتضح لنا أنها ناشئة على الأكثر عن اختلاف التقدير العملى لاستطاعة المعتدى أن يفتح بلاد أحد جيراننا ، أما إذا زال الشك فى هذه الاستطاعة ، فإن الشعب الأمريكى يجمع إجماعا باهراً .

قام النظام النازى فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ وسرعان ما تبدت روحه بالقضاء على الحريات الألمانية ، وبتمجيد الحرب ، وتهديد الجيران الأوربيين الضعفاء . وقد أثار كل هذا احتجاجاً ، ولكن العدوان النازى بدأ فى أول الأمر كأنه موجه إلى الشرق — إلى النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، وبولندا — بعيداً عن عالم المحيطات . وكان النازيون محل الاستهجان على العموم فى الولايات المتحدة ، ولكنه لم يدع إلى اتخاذ تدابير عملية ضد هتلر سوى الذين اعتقدوا أنه سيتحول إلى الغرب يوما ما . وكل ما طالبوا به ودعوا إليه فى البداية هو رفع الحظر عن بيع الأسلحة لبريطانيا وفرنسا .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولم يقترح أحد برنامجاً جديا للتسلح فى هذه البلاد حتى بعد أن بدأت الحرب فى أوربا : « لما شبت الحرب الاوربية أصدر الرئيس إعلان حالة طوارئ محدودة أدت فيه بزيادة الجيش العامل من ٢١٠٫٠٠٠ إلى ٢٢٧٫٠٠٠ رجل وزيادة الحرس الوطنى إلى ٢٣٥٫٠٠٠ رجل ... وفى مارس سنة ١٩٤٠ خفض مجلس النواب اعتمادات وزارة الحربية الخاصة بعدد قليل من الطائرات المراد بها الحلول محل المستهلك ، إلى ٥٧ طائرة » *

وهكذا ، لما كانت القوة البرية لألمانيا واقفة وراء حاجز الأسلحة البريطانية الفرنسية ، لم يكن العدوان الألمانى يعد تهديداً حقيقياً لسلامة الولايات المتحدة . حتى إن الولايات المتحدة لم تعن بالاستعداد للحرب لما كان هذا الحاجز الغربى سليما .

ولكن لما اخترقت ألمانيا هذا الحاجز الغربى ، أدركت أمريكا من توّتها وبما يشبه الإجماع أنها مهددة .

اقتحم الخط الفرنسى عند سيدان فى ١٤ مايو . وفى ١٦ مايو طلب الرئيس من الكنجرس اعتمادات إضافية للدفاع مقدارها ٨٩٦ مليون ريال وإنتاج ٥٠٫٠٠٠ طائرة حربية .

وما كان الذى استدعى برنامج الدفاع الجديد سوى اقتحام الحاجز الأوربى الغربى . ويدل سجل الحوادث على أن سوء صبغة النازى وروحه الشريرة لم يكن هو السبب الأول فى الصراع بين ألمانيا والولايات المتحدة ، فقد كان النظام النازى سيئاً وشرير الروح من يناير سنة ١٩٣٣ إلى مايو سنة ١٩٤٠ كما كان بعد ذلك ، ولكن لما وصلت ألمانيا إلى شاطئ الأطلسى لم يبق رجل مسئول يجرؤ على المخاطرة بإهمال زيادة قواتنا المسلحة زيادة عظيمة .

وقد كان رد الفعل فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٤١ كما كان فى سنة ١٩١٧ . فالرأى الأمريكي ، كما بدا فى حربين مع ألمانيا وحرب مع اليابان ، هو أن الشر الذى يجب أن يقاوم هو فتح بلاد جيراننا على الناحية الأخرى من البحار المحيطة بنا .

الخطر الذى انسقنا إليه

إن الشعب الامريكي — بمقاومته العميقة لفتح بلاد جيراننا على الناحية الأخرى من البحار المحيطة بنا ، إنما يصدر عن إدراك صحيح لمصالحه الحيوية ، فقد أظهرت الحرب أن الدولة التى تقدر على الفتح فى أى جزء

---

* من تقرير رئيس هيئة أركان حرب جيش الولايات المتحدة عن العامين : أول يوليه سنة ١٩٣٩ — ٣٠ يونيه سنة ١٩٤٠

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كبير من هذه المنطقة لا تلبث أن تهـدد السلامة المباشرة للولايات المتحـدة . وقد نظمت اليابان وأعدت قوة قادرة على فتح الفلبين ، والفوز بموطن قدم لها فى مشارف ألاسكا، وتهديد هواى ، بل شاطئ المحيط الهادى . وأعدت ألمانيا ونظمت قوة كانت على وشـك النزول فى أمريكا الجنوبيـة ومشارف قناة بناما .

ويدل نوع الحرب التى اضطررنا إلى خوضها على أن تقديرنا الأساسى كان صحيحاً ، وأننا بإهمالنا ما يتطلبه هـذا التقدير من خطة سياسية محكمة ، وسياسة حربية دقيقة الإعداد، وقفنا على شفا كارثة قومية لا نجاة منها.

ولا يتسنى لنـا الانتفاع بهـذه التجربة إلا إذا استطعنا أن نستخدم النصر الذى سنفوز به استخداماً حكيما . ولـكى يتيسر الاستخدام الحـكيم للنصر يجب أن نعين غاياتنا من الحرب، بحيث تتاح لنا فى آخر هذه الحرب الوسائل الـكفيلة بالاحتفاظ بمصالحنا الحيوية على مقتضى سياسة قومية مستقرة .

وقد اضطرت الولايات المتحدة أن تشرع فى خوض الحرب بعـد أن فتح أعداؤنا كثيراً من البلاد وقهروا شعوب إمبراطورياتهم الجديدة . وهكذا أحتجنا أن نعبر المحيطات ونهاجم السواحل على الحوافى الخارجيـة للبلاد التى سيطروا عليها ، أى أنه كان علينا أن ننقض ما عجزنا عن منعه .

ونحن فى الشرق الأقصى نقاتل لنستعيد كل ما اعترضـنا على أخذ اليـابان له من ١٩٣١ إلى ١٩٤١ ، فإذا لم نسـتعده فإن القوة اليابانية التى فتحت الفلبين ، وهددت ألاسـكا ، وهواى ، وساحلنا على المحيـط الهادى ، تظل سليمة . وأخلق باليابان إذا استغلت القوة الإنسانية الهائلة فى آسـيا الشرقية ، وكنوز جزر الهند ، أن تصبح دولة عسكرية أعظم وأقوى من دولتنـا . وإنا لندرك الآن بجلاء ، ما كنا نلمحه ونفطن إليه على نحو غامض : وهو أن تحرير الصين والبلاد المفتوحة جزء لا يتجزأ من الدفاع عن الولايات المتحدة ، ولولا ذلك لما كان علينا أن نحررها لنهزم اليابان .

أما فى المسرح الأوربى فإن الموقف يختلف ، لأن قتال ألمانيا بدأ وما زالت فى أيدينا السيادة البحرية، ولأن القاعدة العظيمة وراء المحيط بقيت سليمة وهى إنجلترا . ولـكى ندرك ما كان لهذا من مؤدى ، يحسن بنا أن نتخيل الاحتمالات التى كانت خليقة أن تـكون ، فى المحيط الهادى ، لو كان لنا فيه حليف فى مثـل قوة بريطانيا على مسافة عشرين ميلا من الجيش اليابانى ، وفى نطاق مدى القاذفات المغيرة على طوكيو بيننا وبين اليابان .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

على أنه كان من الممكن أن نعزل فى المحيط الأطلسى كما عزلنا فى المحيط الهادى ، فقد أتيحت فرصة حسنة لألمانيا بعد سقوط فرنسا فى سنة ١٩٤٠ لإخضاع الجزر البريطانية ، ولو أن الألمان كسبوا معركة بريطانيا لما كانت ثم قوة أخرى تستطيع أن تردهم ولو إلى حين عن مشارف النصف الغربى من الكرة الأرضية .

بل الواقع أنه فى سنة ١٩٤٠ لم تكن الولايات المتحدة تملك القوة لاعتراض غزو بحرى برى لأمريكا الجنوبية ، وصده ، فقد كان مالنا من قوة — على عدم كفايتها — مشغولة فى المحيط الهادى ضد اليابان ، فلو أن بريطانيا سقطت لباتت أبواب أمريكا الجنوبية مفتوحة .

ومتى استقر الألمانيون فى البرازيل والأرجنتين فما من شىء يستطيع أن يمنعهم من إنشاء قوة برية وجوية للزحف إلى قناة بناما وعلى مواصلاتنا فى البحر الكريبى ، وبعد ذلك يصبح الدفاع عن الولايات المتحدة غاية فى الصعوبة . فلو أن بريطانيا سقطت وبقينا نقاتل وحدنا ألمانيا واليابان مجتمعتين ، أترانا كنا نطمع فى أحسن من أن نطلب هدنة خطرة ، أو أن نمضى فى حرب دفاع مرهق لا آخر له ؟

وقد وقينا هذه النتائج السيئة ، ولكنه لاشك فى أنها كان من الممكن أن تكون ، وإنما صرف عنا هذا الخطر الوبيل لأن بريطانيا التى يقودها تشرتشل استطاعت، فى أحرج الشهور فى تاريخنا، أن ترد الألمانيين عنها فى أوربا بنجاح ، ولأن الأمريكيين الذين ناصروا روزفلت وويلكى وتبعوهما ، تغلبوا ، وأنجدت الولايات المتحدة بريطانيا العظمى فى الوقت المناسب ، ولما تكد .

وقد ظلت هذه البلاد من صيف ١٩٤٠ إلى صيف ١٩٤٢ معرضة لأعظم خطر حاق بها فى تاريخها من أقوى أعداء لها . ولن نستطيع أن نحدد غاياتنا من الحرب إلا إذا قسنا هذا الخطر قياساً صحيحاً : وفطنا إلى أسبابه . لأن غاياتنا من الحرب تكون غير ذات معنى إلا إذا وسعنا أن نقى هذه البلاد شر الانسياق مرة أخرى إلى مثل هذا الموقف الفظيع .

***

رأينا الخطر الذى ألفت الولايات المتحدة نفسها فيه لما كادت ألمانيا تقهر أمم أوربا الغربية قاطبة، غير أن مما له مثل هذه القيمة هو أن نؤكد الحقيقة التالية : وهى أن أوربا الغربية كلها كادت تقهر لما كانت الولايات المتحدة على الحياد . وقد صارت الولايات المتحدة الآن القلعة الداخلية ، وفيها دور الصنعة الرئيسية ، والاحتياطيات

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الاستراتيجية للدفاع عن منطقــة الأطلسى كله . وقد رأينا فى ربع قرن كيف أن أوربا الغربية لم يتسن" الدفاع الناجح عنها بغير معونة من الولايات المتحدة . فهاتان الحربان تعلماننا أن أوربا الغربية ، وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، تعد كلها من وجهــة السلامة والدفاع وحدة استراتيجية لا تتجزأ

وينتج من هذا أنه لا يمكن إقامة نظام دولى إلا بعمل منسق من « جماعات » من الدول . وأنا أسمى إحدى هــذه الجماعات « جماعة الأطلسى » ، ولما كنا داخلين فيها وتابعين لها ، فإنها بطبيعة الحال أول همنا ، وأنا أسميها جماعــة الأطلسى وإن كانت تمتد وتذهب إلى مدى بعيد فى المحيط الهادى ، لأن قوة هذه الجماعة من الأمم وبأسها وسطوتها فى المحيطين ، وأثرها فى المدنيــة السائدة على طول الطريق إلى أســتراليا ونيوزيلند — كل ذلك ينبوعه الرئيسى فى منطقة المحيط الأطلسى .

إن التسويات مع اليابان وألمانيا لا يمكن أن تتم بنجاح بواسطة أية واحدة من الدول الأربع الكبرى على حدة ، وليس فى وسع هذه الدول الأربع معاً أن توجد سلماً وطيد الأركان إذا هى أهملت جاراتها من الدول . فإقامة النظــام تتطلب الشروع فى التحديد والتوطيد لمواطن الدفاع الاستراتيجية والعلاقات الخارجية بين كل الدول فى نطاق نظام استراتيجى واحد .

وجماعة الأطلسى وحدة فى هذا النظام ، ومن الجلى أن روســيا محور وحدة ثانية ، وستكون الصين قلب وحدة أخرى . ومن المرجح على الأيام أن تتألف « منظومة » أو أكثر غير هذه فى عالمى الهند والإسلام ، ولكن هذا أوانه أبعد ، وإنما الذى نستطيع أن نتبينه بالتفصيل حتى فى يومنا الحاضر هو حشد جماعة الأطلسى من ناحيته ، وتخطيط المدار الروسى من ناحية أخرى . وستكون التسوية مع ألمانيا قوامها هاتان الجماعتان ، والتسوية مع اليــابان قوامها هاتان أيضاً مضافاً إليهما الصين .

جمــاعة الأطلسى

وفى وســعنا أن نعرف على وجه اليقين الأمم التى لا غنى عنها فى هذه الجماعة ، فهى بريطانيا العظمى وفرنسا فى أوربا الغربية ، والولايات المتحدة وكندا فى أمريكا الشمالية . وقد تظن هذه الأمم فى وقت السلم أن فى مقدورها أن تذهب كل منها مذهبها الخاص المستقل ، ولكنها فى الحرب يحتاج بعضها إلى بعض ، وتستهدف لخطر ماحق إذا لم تتضافر قواها . وسنرى كم أمة أخرى تنضم إلى هذه الوحدة .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وقد ظهرت حاجة فرنسا وبريطانيا وأمريكا الشمالية ، بعضها إلى بعض في حربين عظيمتين ، فما تستطيع فرنسا أن تثبت بغير معونة بريطانيا ، ولما سقطت فرنسا حاق ببريطانيا خطر وبيل ، وليس في وسع بريطانيا أن تصمد بغير أمريكا الشمالية ، ولو أن بريطانيا سقطت لكان باب النصف الغربي من الكرة قد فتح على مصراعيه .

والدفاع عن كل واحدة من أمم الأطلسي الأربع لا ينفصل من الدفاع المشترك عنها جميعاً . وليس المقياس الصحيح ما كان الناس يرون ويقولون قبل الحرب ، بل ما وقع ، ففي الحربين اللتين قامتا في هذا القرن اضطرب هذه الأمم الأربع الواقعة على جانبي الأطلسي أن تحارب تحت قيادة موحدة .

وليست جماعة الأطلسي من تلفيقات الخيال فإنها حقيقة، وقد أغفلناها وأهملناها فكان ذلك شراً علينا، واضطررنا أن نعيدها بثمن باهظ . وفي هذه الحرب تعمل الجماعة كوحدة استراتيجية وتموينية تحت قيادة رياسات أركان الحرب المشتركة ، وتمتد القيادة المشتركة إلى آخر حدود المسئوليات والمصالح الحيوية لهذه الجماعة .

وهي لهذا لا تمتد إلى روسيا أو إلى الصين ، فإن هاتين الدولتين حليفتان في ائتلاف عالمي، ولكنهما يديران الحرب تحت قيادتيهما، وهما في الواقع وحدتان عسكريتان منفصلتان وإن كانتا متصلتين ومنسقتين . وفي وسعنا أن نصل إلى اتفاق حسن وطيد مع الصين وروسيا إذا أدركنا هذه الحقيقة — وهي أنهما في السلم كما في هذه الحرب وحدتان منفصلتان وإن كانتا على اتصال .

* * *

ولما كانت منطقة الأطلسي وحدة دفاعية قائمة بذاتها فإن أول قاعدة يفرضها العقل علينا هي أن الحرب في عالم الأطلسي محرمة ، وليس تحريم الحرب في نطاق جماعة الأطلسي بأمنية لفظية ، بل سياسة عملية . ولو كنا أخذنا بها في أيام مؤتمر وشنطون الذي عقد في سنة ١٩٢٢ لكان مما يعنينا أن نحرص على أن تكون بريطانيا وفرنسا قويتين إلى الحد الكافي ، لا أن نرى إلى حد نستطيع إضعافهما .

وعلى مقتضى هذا المبدأ يجب أن ينظم تسليح أمم الأطلسي في المستقبل ، وبدلا من أن نفرض على أنفسنا وعلى حلفائنا حداً أعلى للتسليح ، سنحتاج أن نقرر حداً أدنى لنا جميعاً ، لأن كلا منا ستكون عليه واجباته وتبعاته ، وسيكون مما يعني الجميع أن نكون جميعاً قادرين على النهوض بهذه التبعات .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولما كانت قواتنا ستعمل حتما كقوة متحدة فإنها لا تستطيع أن تكون مجدية في الحرب إلا إذا نظمت لهذا الغرض ، ولهذا لابد من ضمانات تكفل أن تجند وتجهز كل أمة ذلك النوع من القوة الذى يوائم كفايتها، ويلائم الخطة الاستراتيجية العامة للأمن المشترك . وسيكون من الضرورى فى سبيل هذه الغاية الاحتفاظ بهيئات مشتركة لأركان الحرب ، والاستخبارات ، ولوضع الخطط العسكرية .

فإذا سلمنا بهذه المبادىء فإن الرؤساء العسكريين والحكومات المدنية تتاح لهم قاعدة لتقدير القوة اللازمة ونوعها فى البحر والبر والجو . وإلا فكيف تستطيع وزارة البحرية الأمريكية مثلا أن تبين للرئيس أو للكنجرس لماذا تحتاج إلى اعتماد معين للبحرية لا إلى ضعفه أو نصفه ؟ ذلك أنه لا سبيل إلى تقدير شىء فيما يتعلق بأسطول الولايات المتحدة إلا إذا عرفنا ما عليه الأسطول البريطانى ، ولا سبيل إلى تقدير شىء فيما يتعلق بجيشنا مالم نعرف مبلغ القوة البرية التى نستطيع أن نعتمد عليها فى الخارج .

وإنما يستطاع وضع سياسة عسكرية رشيدة للولايات المتحدة على أساس تفاهم سياسى وطيد، مؤداه أن الحرب فى منطقة الأطلسى ليست مما يتصور وقوعه ، وأن الحرب فيما وراء هذه المنطقة لابد أن تكون عملا مشتركا .

* * *

إن جماعة الأطلسى وحدة أوقيانوسية ، وقد يؤثر بعضهم أن يسميها جماعة الأوقيانوس ، والدول العسكرية الكبرى الداخلة فى نطاقها يفصلها البحر ، وهى جزائر إذا اعتبرنا موقع بعضها حيال بعض ، ومعنى هذا أن الجماعة لا يمكن أن تكون إمبراطورية عسكرية واحدة تحكم من عاصمة واحدة ، وإنما تكون جماعة من الأمم الحرة يؤلف بينها إدراكها لمصالحها المشتركة وتعمل معاً بالاتفاق .

ولابد أن تقف المملكة المتحدة وفرنسا معاً ، ولكن إحداهما لا تستطيع أن ترغم الأخرى على الوقوف معها ، وليس فى وسع إحداهما أن تحتل الأخرى وتسيطر عليها ، غير أن كلا منهما يجب أن تدافع عن الأخرى ، وليس فى مقدور الولايات المتحدة — حتى لو بلغ من سخافتها أن ترغب فى ذلك — أن تحتل البرازيل والأرجنتين لترغمهما على العمل معها . ومع أن الدفاع المشترك عن أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية أمر محتم، إلا أنه لا يتسنى بغير الاتفاق، وما من سبيل إلى الإكراه على الاتفاق ، فإنه

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لا يكون إلا بدافع من المزايا المتبادلة ومن نشوء الولاء المشترك .

وهكذا نرى أن حقائق الحياة الدولية فى عالم الأطلسى تطابق روح ميثاق الأطلسى . ومنطقة الأطلسى هى تلك الرقعة من العالم التى فيها حقوق الدول الصغيرة أعظم ماتكون أمناً ، بل هى فى الواقع الرقعة التى فيها معظم الدول الصغيرة التى توطدت دعائم وجودها(*) .

إن استقلال الدول الصغيرة فى عالم الأطلسى ، ولا سيما التى فى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، قد ظل منذ زمان طويل قائماً على قاعدة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التى احتفظت فيما مضى بالدول الصغيرة فى أوربا . ذلك أن علاقة نشأت فى العالم الجديد بين الدول الكبرى والأمم الصغيرة تدل عليها أطيب دلالة وأدقها عبارة «سياسة الجوار الحسن» . أما فى أوربا وإلى أن شبت هذه الحرب ، فقد كانت الأمم الصغيرة تعول فى استقلالها على الاحتفاظ بتوازن القوى بين الدول الكبرى .

مثال ذلك أن سياسة بولندا أو فنلندا لم تكن سياسة حياد بالمعنى الذى يفهمه الأمريكيون ، وإنما كانتا ترجوان النجاة بالاتكاء على ألمانيا ضد روسيا ، وعلى روسيا ضد ألمانيا ، وكانتا تكرهان وتخافان جارتيهما القويتين ، فحاولتا أن تقفا بينهما دون أن تكونا مع إحداها على وجه حاسم نهائى .

أما علاقة الجوار الحسن فهى على العكس علاقة تكون بمقتضاها الكبرى والصغرى من الأمم الواقعة فى منطقة واحدة من السلامة الاستراتيجية ، حلفاء وأعواناً فى السلم والحرب جميعاً . وتقدم الدول الكبرى الحماية التى لا تستطيع الدولة الصغيرة أن تكفلها لنفسها — بسبب الخصائص الفنية للحرب الحديثة — وتقدم الدولة الصغيرة مايسعها — التسهيلات الاستراتيجية اللازمة للدفاع المشترك ، وتستخدم حقوق سيادتها لحماية جارتها الكبرى من الدسائس

(*) تدخل الدول الآتية فى نطاق جماعة الأطلسى فضلا عن الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا وهى دول عسكرية كبرى :

الأرجنتين ، أستراليا ، بلجيكا ، بوليفيا ، برازيل ، كندا ، شيلى ، كولمبيا ، كوستاريكا ، كوبا ، الدانمرك ، جمهورية دومنيكان ، اكوادور ، إرلندا الحرة ، جواتيمالا ، هايتى ، هندوراس ، ليبريا ، لكسمبورغ ، المكسيك ، البلاد الواطئة (هولندا) نيوزيلند ، نيكاراجوا ، النرويج ، بناما ، باراجوى ، بيرو ، البرتغال ، اتحاد إفريقية الجنوبية ، أسبانيا ، أورجوى ، فنزويلا .

وينبغى أن يكون فى هذا النطاق أيضاً السويد وإيطاليا ، واليونان وسويسرا ، وهى كلها مرتبطة ارتباطاً حيويا بجماعة الأطلسى .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

والجاسوسية ووكلاء الأعداء .

لقد اهتدت الأمم الأمريكية إلى هذه السياسة وثبتت فائدتها ، وإن كانت لم تبلغ بعد مرتبة الكمال . وفى وسع الأمريكيين أن يعرضوا هذه السياسة على سبيل المساهمة الإنشائية فى سلام الجنس البشرى وحرياته .

ومما يسر لنا تقديم هذه المساهمة أنه لم يكن فى النصف الغربى من الكرة شئ يسمى توازن القوى ، وقد كان من الممكن أن يفضى هذا ، طبقاً لتجارب أوربا ، إلى قيام إمبراطورية أمريكية ، غير أنه أفضى بدلا من ذلك إلى بدعة فى الشئون الإنسانية ، وإلى البديل الصحيح الوحيد من الإمبراطورية وهو ما نسميه سياسة الجوار الحسن .

ولما كانت الأمم المستقلة كثيرة ، فإنه ما من واحدة من أمم الأطلسى فيما عدا الولايات المتحدة إلى حد ما ، ذات كفاية ذاتية . ومن هنا كانت منطقة الأطلسى هى المركز التاريخى للتبادل الاقتصادى الدولى ، وقد تركت الحاجة إلى التجارة الدولية طابعها الخاص على شئونها الاقتصادية الداخلية ، وقد أدى هذا إلى تشجيع التجارة الفردية والخاصة والمغامرة الفردية أيضاً .

المدار الروسى

قامت الحرب مرتين فى هذا القرن بين ألمانيا وروسيا ، وقد أقنعت الحربان روسيا بأن الأمم الغربية عاجزة عن منع ألمانيا من غزو أوربا الشرقية وروسيا ، ومن أجل هذا لا يسع الروسيين إلا أن يعدوا المنطقة الواقعة شرقى ألمانيا وحدة استراتيجية للسلامة قائمة بذاتها .

ومهما يكن عظم تقديرنا للمعونة التى قدمتها بريطانيا وأمريكا لروسيا فى هذه الحرب ، فإن الحقيقة الجلية هى أن طرد الجيوش الألمانية من الأراضى الروسية يتوقف إلى أكبر حد على الجيش الأحمر وجهود الشعب الروسى ، فمن الواضح إذن أن روسيا قائمة فى نطاق من السلامة الاستراتيجية منفصل عن نطاق جماعة الأطلسى .

وليس معنى هذا أن المنطقتين الروسية والأطلسية ليست بهما حاجة إلى التبادل والتعاون ، فما بإحداهما غنى عن الأخرى ، ومن البديهى أن روسيا وحدها ما كانت تستطيع أن تهزم ألمانيا ، وكانت أخلق بأن تكون أعجز عن ذلك لو كانت اليابان فى حرب معها أيضاً ، ومن البديهى أيضاً أنه لو كانت الأمم الغربية غير متحالفة مع روسيا لضعف أملها فى الانتصار على ألمانيا واليابان معاً ، وهذه هى القاعدة التى يقوم عليها تحالف الأمم الغربية مع الاتحاد السوفييتى ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فإن لنا جميعاً نفس الأعـداء ، وليس فى وسعنا أن نهزمهم بغير المعونة المتبادلة .

فالسلم بعد هـذه الحرب سيكون مناطه الاحتفاظ بالتحالف بين المـدار الروسى وجماعـة الأطلسى ، ويتوقف قيام حرب عالمية ثالثة أو عـدم قيامها فى القرن العشرين على استقرار الروسيين فى مدارهم ، ودول الأطلسى فى مدارها ، وعلى توحيد السياستين من الجانبين حيال المانيا واليابان .

المنطقة الصينية

للصين جارتان كبريان هما اليابان وروسـيا ، وإذا نحينا جانباً خرائط عصر السفن الشراعية ، وتأملنا الكرة الأرضية ، فإنـا لا نلبث أن ندرك أن الطرق الجوية بالمباشرة إلى قلب الصين من الولايات المتحدة تمر فوق الأراضى الروسـية ، وأنه حتى الطرق البحرية تجتاز المياه الروسية واليابانية .

وقد بين مجرى هـذه الحرب أثر ذلك فى مركز الصين فى العالم ، فقد استطاعت اليابان أن تقطع مواصلات الصين البحرية مع الولايات المتحدة ، ومع ذلك استطاع قلب الصين العميق بمعونة ضئيلة منـا أن يقاوم الغزو اليـابانى زمناً طويلا ، وإذا صح ما يذهب إليه أوين لاتيمور ، وهو صديق للصين مخلص ، من أن الصين الجديدة فى المستقبل لن تكون على الشاطئ وعلى نهر يانج تسى بل فى المنطقة الداخلية العميقة ، وأن تحول الصين إلى بلاد صناعية « سـيكون وطيداً فى قلب تلك المنطقة » ، فإن مؤدى ذلك أن الصين بعـد تحررها من اليابان ستصبح مستقلة عنا من الوجهة الاستراتيجية ، وتكون علاقاتها الحيوية فى الشئون الخارجية مع جيرانها على حدودها البرية — مع روسيا وعلى الأيام مع الهند .

وستتكون وحدة إقليمية أخرى حول الصين ، ومتى حققت الصين الاتحاد السياسى الداخلى ونموها الصناعى ، فإنها تصبح دولة كبرى قادرة على تدبير أمر سلامتها الإقليمية بين الأمم الصغرى مثل الهنـد الصينية وبورما ، وتايلاند ، والملايا .

التسوية مع اليابان

إن التسوية التى ستعقد مع المهزومين ستكون رهناً بتنظيم أمور المنتصرين ، فإذا سأل سائل: أى مكان يعد لليابان وألمانيا ؟ قلنا: إن الجواب لا يتيسر إلا إذا كان هناك اتفاق سابق على نظام العالم بعد الحرب .

وقد ارتبطت الولايات المتحدة والصين وبريطانيـا العظمى ، فى التصريح الذى أصدرته فى القاهرة ، بشروط معينة تضع حدوداً جـديدة لليابان ، وسترغم على أن

ترد إلى الصين كل الأراضى الصينية وفى جملتها منشوريا ، « وستنزع منها كل الجزر التى فى المحيط الهادى » والتى احتلتها فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وستطرد من كل الأراضى التى سيطرت عليها أو احتلتها منذ صيف سنة ١٩٤٠

وإذا أخذت هذه الشروط جملة كان مؤداها أن اليابان ستطرد من أرض القارة الأسيوية وستفقد قوتها البحرية فى المحيط الهادى ، وتعود اليابان مرة أخرى أمة فى جزيرة فى محيط لغيرها فيه السيادة .

ولن يكون هنـاك معنى لفرض هـذه الشروط الآن إلا إذا أدمجناها فى تسوية خليقة بالدوام. ويجب أن تبدأ التسوية بأن تكون مما لا يسع اليابان نقضه ، ثم يجب أن تصبح تسوية تقبلها وترتضيها الأمة اليابانية فى النهاية .

وهذه هى الغاية العامة لأية تسوية دائمة لحرب عدوانيــة : إخماد جماعة الحرب ، وحماية أنصار السلم بأن تكون الهزيمة تامة لا تنقض ، والسلم مما يقبل .

ومتى أقصيت اليابان عن أرض القارة فإنها لا تستطيع أن تعود بغير موافقة روسيا والصين ، ومتى أخرجت من جزر المحيط الهادى فإنها لا تستطيع أن تعود إليها إذا صممت الولايات المتحـدة على منعها ، وعلى هذا فإن الشروط التى تضمنها تصريح القاهرة تبقى نافذة إذا أيدتها روسـيا والصين والولايات المتحدة .

أما إذا وقع نزاع جدى بين هذه الدول الثلاث ، فإن اليابان تجد ما يغريها بالسعى مرة أخرى لاسترداد ما فقدت ، لأنه إذا قام خلاف بين هــذه الدول الثلاث فإنه بعضها ، والأرجح أنهـا جميعاً ، ستحاول على التحقيق أن تفوز بتأييد اليابانيين .

فالتسوية مع اليـابان مقعد ذو ثلاث أرجل فهو لا يستطيع أن يظل قائما إذا غيرت إحدى الدول الثلاث سياستها حيال اليابان .

وينبغى فى معاملتنا السياسية للأمة اليابانية أن نتبع زعامة الصين ، وهذه هى الطريقة الوحيـدة لاتقاء الخطر العظيم الذى ينشأ من أن تصبح اليابان فى نظر العالم الشرقى كله أمة شرقية يضطهدها الغربيون .

وينبغى أن نفرض أن الصينيين أقدر مما نطمع نحن أن نكون على رسم الخط الفاصل بين العدل الذى تعده آسيا عدلا ، والانتقام الذى تنفر منه آسيا على اعتبار أنه مظهر لتحكم الرجل الأبيض . وأخلق بأن يبلغ أمريكا غايتها إذا أصبحت اليابان عاجزة عن اسـتعادة قوتها الحربية للضرب مرة أخرى ، أما إصلاح اليابان وإعادة إنشائها

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فأمر فوق متناولنا ، وإنا لنكون حكماء إذا نحن وثقنا علاقتنا بالصين بأن نصبح معها فى هذه الشئون فى المحل الثانى منها .

وإنا لنرجو أن تكون الإصلاحات بعيدة المدى، وأن تحدث انقلابا فى النظام الاجتماعى والثقافى اليابانى الإقطاعى الإمبراطورى . وينبغى أن لا يختلط علينا الأمر مرة أخرى بدعاية العدوان ، القائلة إن اليابان لا بد أن تتسع بالفتح لأنها أمة لا تملك شيئاً ، فإن اليابان ، كما يقول أوين لاتيمور « لم تكن قط أمة محرومة بقدر ما كانت أمة مسالمة منظمة كالسويد اليوم » .

ولكننا لا نستطيع أن نعالج ثورة يابانية، وأقصى ما يدخل فى طاقتنا هو أن نجعل الثورة محققة بأن نجعل الهزيمة تامة ساحقة.

التسوية مع ألمانيا

وشأن ألمانيا كشأن اليابان ، وليس فى وسع الحلفاء أن يهتدوا إلى أى حل حتى يوطدوا علاقاتهم فيما بينهم ، والتسوية مع ألمانيا تدوم ما دامت العلاقات بين جماعة الأطلسى والمدار الروسى .

ومن المتفق عليه أن ألمانيا يجب أن ينزع سلاحها نزعاً تاماً ، والمسألة هى من الذى سيقوم بالحراسة؟ وإلى متى ؟ ويذهب البعض إلى أن ألمانيا ينبغى أن تسلخ منها أرض لبولنـدا : فإذا كان هذا هكذا فالمسألة هى كيف تدافع بولندا عن هـذه الأرض ؟ ويطلب بعضهم تمزيق ألمانيا لتصبح دولتين أو ثلاثا ، والمسألة التى يثيرها هذا التمزيق هى كيف تمنع الأجزاء من الاتحاد مرة أخرى؟ ويقول بعضهم إن بين الألمان أخياراً وأشراراً ، ويدعون إلى تأييد الألمان الديمقراطيين ، على حين يشير غيرهم إلى التاريخ ويذهب إلى أن الألمان الديمقراطيين قد تبعوا دائماً الألمان العسكريين .

وليس لكل هذه الأسئلة جواب إلا إذا استطعنا أن نقول بلهجة اليقين : إن الأمم المحيطة بألمانيا ستنظم تنظيما متيناً ، بحيث تكون كل أمة منها موثوقاً بقيامها بنصيبها من التسوية الألمانية ، فى نطاق وحدتها الاستراتيجية ، فإن هذه هى المقدمة الكبرى التى لاغنى عنها فى كل مشروع مما ذكرنا .

فإذا استطاعت ألمانيا أن تفصل أية واحدة من جاراتها وتجتذبها إلى نطاق ألمانى فإنه ما من مشروع بالغاً ما بلغ من الشدة أو اللين ، يمكن أن ينفذ ، وكل مشروع لنزع السلاح أو الضم ، أو التقسيم أو المحافظة على كيان ألمانيا كدولة ديمقراطية مع إيتائها المساواة فى الفرص الاقتصادية — كل مشروع يحبط إذا استطاعت ألمانيا أن تنزع فرنسا مثلا من جماعة الأطلسى أو

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بولندا من النطاق الروسى .

فالمسألة الكبرى إذن هى مبلغ دوام الإطار الاستراتيجى والسياسى الذى توضع فيه التسوية مع ألمانيا .

ولا خير فى أن نتصور أن أى نظام خاص داخل ألمانيا يمكن أن يبقى إلى الأبد ، ورأيى المبنى على الدلائل المستفادة من الحروب الماضية هو أن الأزمة ستنشأ بعد نحو ١٥ سنة على وجه التقريب بعد الهدنة ، فإذا عقدت الهدنة فى سنة ١٩٤٥ فإن ألمانيا فى سنة ١٩٦٠ تقريبا ستتجه إما للاستعداد لحرب جديدة ، وإما إلى الإخلاد إلى سلم حقيق ، وسيكون مدار الأزمة : هل يقطع الجيل الجديد ما بينه وبين القدماء من حزب الحرب أو يتبعهم كما تبع النازى رجال الجامعة الألمانية القدماء ؟

وقد تسنى — بثمن فادح وخطر جسيم — الحيلولة بين ألمانيا وبين النصر بقيام التحالف الذى كان يستطيع أن يمنع الحرب لو أنه كان قائماً قبلها ، فبعد خمسة عشر عاماً من اليوم يجب أن يكون هـذا التحالف الذى نشأ فى زمن الحرب ، قائماً وطيـدا وإلا استطاع حزب الحرب الألمانى أن يقنع الجيل الجديد بأن محاولة جديدة خالية من أخطاء هتلر ، هى فرصة ذهبية .

وستكون الحياة قاسية فى ألمانيا المقهورة ، وأخلق بالأمل فى النجاة — وهو ما ينشئه إحباط التحالف — أن يجعل أعمال التجديد والإنشاء مرهقة مضنية لا تطاق .

وإذا اعتقـد الألمان أنهم يستطيعون أن ينقضوا ذلك الإطار ، فإن حزب الحرب سيعد الهزيمة العسكرية صدمة وقتية ، وإذا اعتقدوا أن هـذا ليس فى وسعهم فإن الديمقراطية الألمانية المسالمة قد تستطيع أن تخضع حزب الحرب وأن تصفيه فى النهاية .

ولا شك أن شروط الصلح الخاصة بالأراضى والتعويضات وعقاب مجرمى الحرب على جانب عظيم من الأهمية ، ولكنى أذهب إلى أنه فيما يتعلق بهذه الشروط ، قياساً على ما أسلفت فيما يتعلق بمعاملة اليابان سياسياً ، ينبغى أن تتقى الولايات المتحدة أن يكون لها مقام الزعامة . وكما أن الخير أن ندع للصين الزعامة السياسية فى معاملة اليابان كذلك من الحكمة أن ندع للشعوب الأوربية التى هى ضحايا ألمانيا وفريستها ، أن تسوى الحساب الأدبى والسياسى ، فإن الذى يعنينا فوق غيره هو أن تكون التسوية دائمة ، وهل يبقى أو لا يبقى حزب الحرب فى ألمانيا ؟

ذلك أن الهـدنة لن تقضى على حزب الحرب لأنه يستطيع أن يختفى تحت الأرض بضع سنوات ، وسيحاول أن يدفع ألمانيا إلى مركز تستطيع فيه أن تحتفظ بالتوازن

بين روسيا والعالم الغربى . وسيناشد جماعة الأطلسى أن تأذن فى رد قوة ألمانيا لتوازن بأس روسيا ولتصد الشيوعية عن الانتشار . وكل نجاح يحرزه الألمان بفضل هذا النداء فى باريس ولندن ووشنطون ، سيبادر ساستهم إلى إعلانه فى موسكو لإثارة مخاوف السوفيت القديمة ، وظنهم السابق أن العالم كله متألب عليهم كما كان فى ١٩١٩-١٩٢١ ، وستحاول ألمانيا بضرب هذا الفريق بذاك أن تحرر من قيود التسوية وتشرع فى بناء قوتها الحربية مرة أخرى .

وعلى هذا يجب أن تكون غايتنا الأولى من الحرب غير قابلة للتغيير ، وهى أن نجعل من المستحيل على ألمانيا أن تقف موقفاً تمسك فيه ميزان القوة بيننا وبين روسيا .

ويبدو لى أن ألمانيا المنزوعة السلاح تستطيع فى النهاية أن تستقر فى أمان داخل نطاق التبادل الاقتصادى الدولى لجماعة الأطلسى ، ولكنها لا يمكن أن تقبل فى هذا المحل إلا بالموافقة المخلصة من الاتحاد السوفيتى ، ولهذا ينبغى أن لا تدخل ألمانيا فى النظام العسكرى لأمم الأطلسى ، فإن جعل ألمانيا المنزوعة السلاح متوقفة فى حياتها على التجارة المحمولة بحراً هو خير ضمان للقضاء على التوسع الألمانى القديم العهد ، شرقاً .

ولتمام القضاء على هـذا التوسع إلى الأبد ، ينبغى أن تعزز السلامة الاستراتيجية للمنطقة الروسية بمحالفات متينة بين روسيا والأمم الشرقية الأخرى المجاورة لألمانيا .

ولا سبيل إلى عزل ألمانيا عزلا دائماً ، فإن أمم العالم لن تقبل أن تقضى سنوات طويلة عديدة تراقب ألمانيا فى مدرسة إصلاحية ، ولا بد أن تأخذ ألمانيا على الأيام مكاناً معترفاً به لها فى العالم ، وأمامها إحدى منطقتين — جماعة الأطلسى أو النطاق الروسى ولا ثالث لهما .

ولكن النطاق الروسى ليس فيه مكان لألمانيا يكون محتملا ومأموناً من الأمم الشرقية أو الغربية ، فإن ألمانيا الداخلة فى النطاق الروسى تكون عدواً داخلياً خطراً يهدد اتحاد السوفييت ، ولما كان إدخال ألمانيا فى المدار الروسى يبلغها شواطئ الأطلسى ، فإن هـذا الحل يكون مما لا يحتمله العالم الغربى .

ولكن إذا صارت ألمانيا أمة تجارية عزلاء فى نطاق جماعة الأطلسى ، فإنها تصبح آمن ما يمكن على أوربا وعلى العالم .

الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة

إننا بالانتفاع الحكيم بانتصارنا نستطيع أن ننهى سلسلة الحروب التى خربت العالم

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مـــدى خمسين عاماً ، فيتيسر لنـا أن نفوز بأكثر من هدنة لا تبقى إلا ما بقيت الأمم أشد كلالا وإعيـاءاً من أن تقاتل ، ونظفر بسلم طويل لم يعرفه رجل متوســط العمر في عصرنا ، ويجيء زمن لا تكون فيـه الحروب وإشاعات الحروب شاغلنا الدائم الرهيب .

ويتوقف المستقبل على العلاقات بين اتحاد السوفيت والولايات المتحدة أكثر مما يتوقف على غيرها ، فإن كلا منهما الآن مركز الثقل في مناطق شاسعة من الأرض ، وفي وسعهما أن يمنعا نشوب حرب عالمية ثالثة ، فإذا اقتتلتا فإنها تكون أفظع حرب شهدها العالم .

ولم يسـبق قط في العصور الحديثة أن اتفق مثل هــذا التوزيع للقوة الحربية كما سيحدث بعد أن نكسب هذه الحرب ، فإن أقوى دولتين في العالم سـيكون بينهما من البعد أطول ما يمكن ، ذلك أن قلب القوة السوفيتية في الأورال — في جوف القارة الأوربية الأسيوية ، والقوة الأمريكية في وادي المســيسبي في قلب قارة أمريكا الشمالية ، ولم يسبق منذ أكثر من ألف سنة أن نشأ مثل هذا الأمل في سلم مستقر ، فقد عدنا إلى عصر فيـه دولتان عظيمتان قادرتان على شن حرب شعواء ولكن كل واحدة منهما ممتنعة على الأخرى .

ففي الغرب لا تستطيع الدولتان أن تشتبكا إلا بعبور أوربا وقد تشـنان حرب حدود في حيث تلتقي أو تتدانى سيبيريا وألاسكا ، ولكن الأمريكيين لا يستطيعون أن يغزو ويحتـلوا الأورال عن طريق ألاســكا ، ولا الروسيون يسعهم أن يغزو ويحتلوا وادي الميسيسبي عن طريق سيبيريا . فشـبوب حرب تدار مباشرة بين روسـيا والولايات المتحدة تبدو لنا على قدر ما نستشف من حجب المستقبل مستحيلة كاستحالة قتال بين فيل وحوت .

ولـكن الحرب ممكنة إذا كانت عامة تشترك فيها الأمم الأخرى ، وهذه هي الحقيقة التي يجب أن نعنى بها ، فروســيا والولايات المتحدة تستطيعان أن تقتتلا في الشرق إذا هيأت لهما اليابان والصين مواطن الضرب ، وفي وسعهما أن تتحاربا في الغرب إذا دخلت في الحرب أولا أوربا كلها وبريطانيا العظمى ، فهما لا تستطيعان أن تتماسكا وتتصارعا إلا بواسطة الحلفاء .

وهكذا صارت روسيا وأمريكا في مركز يتوقف فيه أمر السـلم والحرب بينهما على السياسة التي ينتهجانها فيما يتعلق بمحالفاتهما ، وفي وسعهما أن تنعما بالسلام إذا اسـتخدمتا محالفاتهما لتوطيد سياسة حلفائهما الخارجية . وهما خليقتان أن تشقيا بالحرب إذا حاولت

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

احداها أن تحالف أمـــة داخلة فى نطاق الأخرى ، أو إذا حاولت أن تضم ألمانيا أو اليابان إلى وحدتها الاستراتيجية الخاصة . وأخلق بالعالم كله أن يدرك على الفور أن بوادر حرب عالمية ثالثة قـد ظهرت إذا تحالف اتحاد السوفييت مع ألمانيا أو اليابان، وكذلك إذا عقدت أمة من جماعة الأطلسى — كبريطانيا أو فرنسا مثـلا — محالفة ليست مفتوحة للاتحاد السوفييتى أو بغير موافقتها — مع ألمانيا أو مع أية دولة داخلة فى النطاق الروسى مثل بولنـدا — فإن حادثاً كهذا يكون علامة لا شك فيها منذرة بتصدع بناء السلم .

ونحن متى أخذنا بمبدأ الجماعات الإقليمية نستطيع أن نصل إلى قاعدة عملية نستشف بها نية العدوان ، فإنه إذا أريد منع الحرب ، يجب أن يحال دون العدوان قبل أن يعبر المعتدى الحدود بزمن طويل . لأن الانتظار إلى أن يقع العدوان فعلا مؤداه أن يكتسب المعتدى كل مزايا البدء بالعمـل ، والوقت الذى يمكن أن تمنع فيه الحرب هو قبل أن يصبح المعتدى قادراً على الضرب ، وهـذا الوقت هو الذى يسعى فيه سـعيه السياسى لعزل الضحية .

وبمقتضى المبدأ الإقليمى الذى اشير به ، يكون من أعمال العدوان الصريح أن تحاول أية دولة أن تجاوز مدارها الاسـتراتيجى لمحالفة دولة أخرى فى مدار آخر . ولا بأس بالمحالفات داخل نطاق جوار اسـتراتيجي واحد ، فإن الجيران ينبغى ان يتحـدوا ويتعاونوا لخيرهم جميعاً ، ولـكن المحالفات تنقلب شراً إذا جـدت دولة غريبة وزجت بها فى جيرة خاصة . وما من أحد يعترض على محالفتنا لـكندا والمكسيك ، ولـكن إذا عقدت المكسيك محالفة مع اتحاد السوفييت ، فإن كل امرىء يعرف على الفور أن السلام تعكر صفوه ، وإذا عقـدنا نحن محالفة مع إيران أو رومانيا ، فإن العالم كله يكون محقاً فى إساءة الظن بنياتنا .

ما بين اتحاد السوفييت والولايات المتحدة

لما كانت علاقاتنا مع اتحاد السوفييت هى التى يرتهن بها قيام حرب عالمية ثالثة أو عدم قيامها ، فإنه ليس فى وسعنا أن نجعل علاقاتنا حسنة إلا بالصراحة التامة ، ولا يجوز أن تـكون سياستنا حيال روسيا وقتية أو ليوم من أيام الصيف فقط ، بل ينبغى أن تـكون من المتانة والقوة بحيث يسعها أن تحتمل أعاصير الشـتاء ، ومع ذلك فإن علاقاتنـا المتبـادلة محوطة بمتناقضـات عميقة تحول دون التعاون القائم على الثقة .

وأول ما نواجهه من هـذه المتناقضات

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أن الصلات الدبلوماسية ليست قائمة على قاعدة المساواة والتبادل ، فحكومة السوفييت تحتفظ بنوع من « الحجر » على الاتصال الحر بنا ، والرسائل الخارجية من روسيا بعد مراقبتها لا تسمح لنا بأن نعرف عن روسيا إلا ما ترى الحكومة أن نعرفه ، والرسائل الواردة على روسيا تراقب فلا تسمح للشعب الروسي بأن يعرف عنا بل حتى عن أعمالنا الرسمية — إلا ما ترى الحكومة أن يعرفه .

ومؤدى هذا الحجر السوفييتي ، أن الحكومة السوفييتية ، تستطيع — في الشئون الخارجية — أن تستخدم التكتم والمفاجأة في مناورات تقوم بها على نحو لا تستطيعه الحكومات الديمقراطية ، فإن نظمنا لا تجعل في وسعنا — إلا إذا هدمناها — أن نعاملها بالمثل فنقيم نحن أيضاً حجراً ، ونحن على خلاف السوفييت لا نستطيع أن نرسم سياساتنا إلا بعد بحث ومناقشة فيتتبه العالم كله .

بعد هذه الصعوبة الأولى ، تجيء صعوبة أخرى ، ذلك أنه في سنة ١٩٤١ ألغت السياسة الخارجية السوفييتية مشروع الثورة الشيوعية الدولية ، وأعلنت تأييدها التام للنظم والمبادىء الديمقراطية في الخارج . والدستور السوفييتي المعلن في سنة ١٩٣٦ ديمقراطي الصبغة والروح وهو يشمل بياناً بالحقوق المدنيـة ويتضمن النص على نظام انتخابي قائم «على حق التصويت العام المباشر والمساواة فيه » ، ولكن هذه الأحكام الديمقراطية التي اشتمل عليها الدستور لم تطبق قط في روسيا السوفييتية ، فلا مفر للعالم من ان يتساءل عن التصريحات الديمقراطية الجديدة التي أعلنتها السياسة الخارجية السوفييتية هل ستصبح في الواقع نافذة ؟ وليس في وسعنا أن نغضي عن هذا الأمر إذا كان مبتغانا التفاهم التام مع روسيا السوفييتية ، ولا بد لنا من تناول هذه الشوكة بقوة وإن آذتنا وأوجعتنا ، فإن نظام العالم في الجيل المقبل سيقوم على قاعدتي جماعة الأطلسي والاتحاد السوفييتي ، وهو لا يستطيع أن يظفر بثقة الأمم وتأييدها وولائها ما لم يسو هذا النزاع المبدئي على حقوق الإنسان المدنية .

ولكن قبل أن نبحث هذا الموضوع بإخلاص وضمير نقي ، يحسن بنا أن نذكر أنفسنا بالوجه الآخر ، فما نسيت روسيا أن حلفاءها السابقين في الحرب العالمية الماضية سيروا عليها جيوشاً اشتركت في الحرب الأهلية على الرغم مما أعلنوه من مبدأ عدم التدخل ، وهذه الاسترابة من جانب روسيا في نيات

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الدول الغربية — وهى تقابل استرابة الدول الغربية فيها — يمكن محوها نهائياً بتأييدنا لتسوية تقضى قضاء مبرماً على التهديد الألمانى والياباني لسلامتها . وعلى هذه القاعدة نستطيع أن ننشد بجرأة التفاهم الدائم مع اتحاد السوفييت .

أما النزاع على الحقوق المدنيــة الأولية — وهى أصل الصعوبات — فيمكن تسويته، ومن حقنا أن نطمع فى ذلك ونتطلع إليه ، فقد صرنا حلفاء فى الحرب ازداد اتحاد السوفييت فى سياسته الخارجية أخــذاً بالمبادىء الديمقراطية دون الكتابية ، ولما كان السوفييت أنفسهم قد أعلنوا أخذهم بالمبادىء الديمقراطية فى بلادهم بدستور سنة ١٩٣٦، فإن الخلاف على المبادىء الإنسانية الأوليــة لا وجود له من الوجهة النظرية ، بل الواقع أنه غــير موجود إطلاقاً لأن الدستور السوفييتى لم يصبح قط نافذاً تنفيذاً كاملا.

ولهذا بقي العالم يتساءل: لماذا ظل الاتحاد السوفيتى على الرغم من دستوره دولة كليــة النظام تحت دكتاتورية الحزب الشيوعى ؟ ويستطيع الذين يميلون إلى روسيا أن يقولوا كما قال سوروكين أن « النظام الصارم » السائد الآن لم يعد تلك الدكتاتورية المطلقة التى كانت قائمة فى العهد الأول من الثورة ، وإنما هو « نظام حكم عرفى » ناشىء عن « الضرورات القومية » التى أثارها « العدوان النازى » . أما الذين يسيئون الظن فسيقولون إن حكومة السوفييت ، بإعلانها الأخــذ بالمبادىء الديمقراطية ، مع مزاولة الحكم الدكتاتورى إنما تعمل بسوء نية لتخدع الإنسانية وتحكمها

وليس الجدل فى أى هذين التفسيرين هو الصحيح ، بقادر على أن يحسن العلاقات ويقيمها على الثقة ، وإنما يقدر على حسم الخلاف السوفيت أنفسهم ، لا المراقبون الأجانب ، وذلك بما يفعلون بعد الحرب ، بل حتى فى أثناء الحرب ، لتنفيذ دستورهم .

ونحن نفهم أن الحروب العظيمة الخطر لا يمكن خوضها بنجاح فى ظل الحرية الديمقراطية ، وقد جاءت الحرية الديمقراطية فى روسيا بدعة وانقلاباً ، فلم يكن يسعها أن تخاطر بالتعرض للاضطراب والارتباك فى وقت كانت فيه على وشك أن تهاجم مهاجمة وحشية ، ولكن بعد إنزال الهزيمة التامة بألمانيا واليابان — وهما عدوا روسيا الوحيدان — يزول الداعى إلى الاحتفاظ بالدكتاتورية والحكم العرفى ، أما إذا بقيتا فكيف يمكن تفسيرهما أو تعليلهما؟ إن الروسيين لا يستطيعون أن يتوقعوا فى العالم أن يثق بمبادئهم الديمقراطية فى سياستهم الخارجية إذا هم لم يطبقوا هذه المبادىء فى بلادهم

بيان الحقوق

أعتقد أنه ينبغي عند وضع دستور النظام العالمي أن نقترح تضمينه بياناً بحقوق الأمم التي هي أعضاء فيه ، وهي الحقوق المدنية التي اشتمل عليها الدستور السوفييتي ودساتير الدول الغربيـــة جميعاً ، ومتى ضمنا الميثاق الدستوري للعالم هـــذه الحقوق ، فإن ذلك يجعله عهداً بأن تكون أحكامه نافذة ، ويصبح اتحـــاد السوفييت ملزماً بتنفيـــذ دستوره ، وتكون الديمقراطيات الغربية ملزمة بالاحتفاظ بنظمها الدستورية ضـد الحركات الكلية من فاشية أو شيوعية .

وهكذا يجب علينا أن نذهب إلى روسيا ، فإن مفتاح البـاب في يدها ، ولا بد لنا أن نخاطبهم بصراحة كحلفاء ينوون أن يكونوا أصدقاء ، وأن نطالبهم بأن يعاونوا على كفالة مستقبل العـالم في ظل الحرية الديمقراطية .

ولنا أن نرجو وأن نعتقد أنهم لن يرفضوا ، أما الدليل على قبولهم ، فهم وحدهم الذين يستطيعون أن يقدموه بالتـــدابير التي يتخذونها بعد انتهاء الحرب لإنجاز وعودهم الدستورية ، ولجعل تبادل الأنباء والآراء بين شعبهم وبين حلفائهم الحاليين حراً ، وعلى قدم المساواة وقاعدة التبادل .

فإذا رفضوا فإنه يظل في وسعنا أن نبذل قصارى جهدنا للسير معهم ، وأن نواصل بذل الجهود بالطرق الدبلوماسية العادية لمنع قيام حرب عالمية ثالثـــة ، ولـكنه يحسن بنا إذا رفضوا أن لا نخـــدع أنفسنا أو نغالطها بالاستنامة إلى ما ليس له حقيقـــة ، وهو مظهر جماعة عالمية للاحتفاظ بالسلم .

غايات الحرب

وأنا أرى أن الغايات التي سأجملها فيما يلي جلية ، وهي التي يجب على الأمـــة أن تقرر ما ترى فيها ، أما عـــدا ذلك فعبارة عن مفاوضة وتشريع وإدارة ، وليس في وسع الحكومة أو الـكنجرس أن يتبين أهداف المفاوضة في علاقاتنا الدولية بعد الحرب إلا إذا حددت العلاقات الأساسية تحديداً صحيحاً دقيقاً .

وغاياتنا من الحرب إجمالا ، هي أنه يجب على الولايات المتحدة :

١ — أن تعمل على توطيد العـــلاقات الاستراتيجية والدبلوماسية القائمة الآن ، بين جماعة الأطلسي : أي مع جماعـــة الأمم البريطانية وإمبراطوريتها ، ومع الجامعـــة الأمريكية ، ومع فرنسا وإمبراطوريتها ، وبلجيكا والبـــلاد الواطئة (هولنـــدة) ومستعمراتها ، ولـكسمبورج ، والنرويج والدانمارك ، وإيسلاند ، وأن تحاول توسيع

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

نطاقها بحيث تشمل البرتغال ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، واليونان ، وإرلندة الحرة ، والسويد .

٢ — أن تعترف للنظام الاستراتيجى للوحدة الروسية بصحتها وشرعيتها ، وبأنها تشمل الأمم الواقعة شرقى ألمانيا وغربى إتحاد السوفييت ، وعليها بعدئذ أن تبلغ حكومة السوفييت رأيها أن التعاون فى نظام عالمى عام يكون حقيقياً وحراً ، أو مقيداً ومشكوكا فيه ، بحسب ما تتوقاه الدول — ولا سيما أقواهن — فى بلادها من الاحتفاظ بالحريات الديمقراطية التى ترغب فى تعزيزها فى الخارج .

٣ — أن تعترف بأن الصين ستكون مركزاً لوحدة استراتيجية ثالثة يقدر لها أن تشمل جميع أراضى القارة الأسيوية الشرقية بين حدود الاتحاد السوفيتى والهند

٤ — أن تعترف بأن الأمم الإسلامية ، والهندية — فى إفريقية الشمالية والشرق الأوسط ، وجنوبى آسيا ، ستؤلف فى الوقت المناسب وحدات أقليمية خاصة بها .

٥ — أن تجعل المبدأ الأساسى للتسوية فى الشرق الأقصى أن اليابان لا تستطيع أن تحتفظ بتوازن القوى فى الشرق الأقصى بين الصين واتحاد السوفييت والولايات المتحدة ، وأن تجعل الغاية الأولى الأساسية للتسوية الألمانية أن ألمانيا لا تستطيع أن تحتفظ بالتوازن الدولى بين جماعة الأطلسى والوحدة الروسية .

٦ — أن تعترف بأن الغاية العامة لأية تسوية دائمة لحرب عدوان، هى إخماد حزب الحرب وحماية حزب السلم ، بأن تكون الهزيمة تامة ماحقة والسلم مقبولا مرضياً .

وأنا مقتنع أن الأمم باتباعها خطوط هذه السياسة تستطيع أن تخلد إلى سلام طويل. وليست هذه مجرد أداة دبلوماسية قائمة على خيالات قانونية ، وإنما هى نظام جلى لدول العالم اليوم ، وهو جلى لأنه يتطلب من الأمم أن تعين سياستها الخارجية مع جاراتها وتوطدها ، وهذه الأمم لا تنزل أو تتخلى عن سيادتها ، ولكنها تنزل عن حقها فى المناورات الدبلوماسية الذاتية فى المعاملات والعلاقات الدولية ، وأنا أزعم أنه لا يمكن إقامة جماعة عامة ناجحة إلا على القواعد الوطيدة لمثل هذا السلم المنظم .

غلطة ١٩١٩

وأنا أدرك أن هذا لم يكن الرأى الأمريكى السائد فى أيام الرئيس ولسون ، فقد كان يعتقد أن من الممكن أن يوكل إلى جماعة عامة كعصبة الأمم إيجاد السلام وحفظه ، وأنا فى هذا البحث أذهب إلى نقيض هذا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الرأى على خط مستقيم ، فإن الولايات المتحدة لا بد أن تعتمد أولا على قوتهـا المسلحة ومقدرتها القومية ، ثم على نظام عالمى عام .

إن الحرب لا يمكن أن تمنعها إجراءات جماعة عامـة ، والنظام العالمى لا يمكن أن يحرسه الشرطى ، فإذا كان هذا هو المنتظر منه أن يفعله فإنه لن يخفق فقط كما أخفقت العصبة ، بل إنه يثير على التحقيق خلافات ويقسم الأمم صفوفاً ويعجل بالفشل .

وكان هـذا ، فى جوهره ، هو رأى فرنسا فى سنة ١٩١٩ ، وينبغى أن نعترف الآن بأن كليمنصو كان على حق ، وأن ولسون كان مخطئاً ، فقد كان الذى يفتقر إليه العالم فى سنة ١٩١٩ ، قبل كل شئ ، هو وضـع تسوية دائمة مع ألمانيا ، تدابير مقنعة لإبقاء ألمانيـا مسالمة حتى تعتاد الحكم الديمقراطى . ولـكن إصرار ولسون على جعل التسوية مع ألمانيا فى المحل الثانى ، وجعل مشروع السلم العالمى فى المحل الأول ، حرم ألمـانيا السلامة التى لا يكفلها لهـا إلا حلفاء يعول عليهم .

والواقع أن الرئيس ولسون بإيثـاره السلام عامة على السلام خاصة ، نسى ألمـانيا وذهل عنها ، وقد افترض أن الهدنة سوت المسألة الألمانية ، ثم قصد إلى باريس ليفرض سلماً ولسونياً على الحلفاء ، وعلى الرغم من تحـذير رجال مثـل تيودور روزفلت ، ولودج ، ونوكس ، وغيرهم حل ولسون الائتلاف الذى كسب الحرب والذى كان هو الوحيـد الذى يستطيع أن يكفل دوام التسوية . فإن مسئولية النظام تقع لا محالة على عواتق الحكومات المنتصرة ، وليس فى وسـعها أن تنيب جمعية عالمية لم تـكن قد وجدت بعد ، ولم يكد القوم يفرغون من إعداد نظامها ، فى حمل هذه المسئولية .

وخطأ ولسون العظيم هو ظنه أن جمعية عالمية تستطيع أن تحل محل الإدارة العامة للحياة الدولية ، ولا يزال هذا الخطأ شائعاً فى مقامات عالية ذات نفوذ بين الجمهور ، وهو يهدد بإحباط تنظيم العالم ، لأن الجمعية العالميـة وإن كانت تعزز السلامة القومية والإقليمية ، لا تصلح أن تـكون بديلا من الحدود الثابتة . والقوة المسلحة الـكافيـة المنظمة بحكمة ، والمراكز الاسـتراتيجية ، والتحالف بين الحلفاء الطبيعيين الذين لا غنى عنهم .

والولايات المتحدة لم تقصد قط ، ولا يمكن أن تقصد ، أن تتخلى عن الدفاع عن قناة بناما ، أو عن قاعدتنا البحرية فى جمهورية كوبا المسـتقلة ، أو عن كندا والمـكسيك وأمم البحر الـكريبى . ولم يخطر لنا قط أن نعترف « بحق » كوبا أو هايتى ، أو جمهورية

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بناما — وكلها دول مستقلة ذات سيادة — في عقد محالفات تتعارض مع المصلحة المشتركة لمنطقة أمريكا الشمالية كلها .

وأخطأ ولسون أيضاً في اعتناقه مبدأ تقرير المصير ، ونسى إبراهام لنكولن ، ونسى أعظم نزاع دستورى فى تاريخ الولايات المتحدة ، ولم يعن قط بالفرق بين حق تقرير المصير ، وحق الانفصال ، وفاته أن جعل حق تقرير المصير قانوناً في المكان الأسمى فى الحياة الدولية مفض إلى الفوضى الصريحة .

ذلك أن هذا المبدأ يمكن استخدامه — وقد استخدم فعلا — فى تمزيق أوصال كل دولة منظمة تقريباً . ولم يكن أحد أعرف بهذا وأشد فطنة له من أودلف هتلر نفسه ، فقد كان مبدأ تقرير المصير أقوى أداة فى يده لتوسيع الريخ بالضم ، وللقضاء على الوحدة المدنية للدول التى اعتزم أن يغير عليها — من الداخل . وقد لجأ هتلر إلى هذا المبدأ حين ضم النمسا ، ومزق تشيكوسلوفاكيا ، وهاجم بولندا ، وائتمر بروسيا ودس لها فى أوكرانيا ، ولعب بالبرازيل .

وهكذا يكون مبدأ تقرير المصير إذا اعتبرت شر آثاره ، ترخيصاً بالتدخل والعدوان ، وهو على الرغم من ديمقراطيته السطحية لا يعد بالمعنى الدقيق أمريكياً فى روحه أو من عوامل المدنية ، لأنه يرفض فكرة الدولة التى يجد فيها شتى الأجناس العدل والحرية تحت قوانين واحدة بحيث يمكن أن تصبح جماعة من الأمم . ومبدأ تقرير المصير الذى لا شأن له ولا علاقة بالحكم الذاتى وإن كان قد اختلط به ، هو مبدأ بربرى رجعى ، لأنه بإقراره الانفصال يدعو الأكثريات والأقليات إلى التعادى وعدم التوافق ، ولا آخر لتقسيمه الجماعة الإنسانية إلى ذرات ، فإن الأقليات التى انفصلت عن الأكثريات تظهر فيها أقليات أخرى ترغب هى أيضاً فى الانفصال .

اشتراك جماعات كبيرة

إن الجمعية العالمية لا يمكن أن تكون إلا اشتراكا اختيارياً من دول ذات سيادة ، ولا يمكن أن تكون حكومة عالمية لأنه ليس ثم وسيلة يمكن تصورها الآن تستطيع بها هذه الحكومة أن تنال من ألفى مليون من سكان الأرض سلطة التشريع وتنفيذ القوانين ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يكون هناك حق وراثى فى الحكم فى حكومة عالمية ، ولا وسيلة هناك لانتخاب حكومة عالمية ، ولا يعقل أن يسلم شعب الولايات المتحدة مثلا حقوق السيادة إلى جمعية تشريعية عالمية تقوم على قاعدة صوت واحد لكل فرد فى الانتخاب ، فيكون الشعب الأمريكى بالقياس

إلى سكان آسيا ، على نسبة واحد إلى عشرة ، ومع ذلك كيف يستطيع الأمريكيون أن يدّعوا — وإلى أى مبدأ يستندون إذا ادعوا — أن أصواتهم ينبغى أن تكون أعظم قيمة وأثقل وزناً من أصوات بقية الآدميين ؟

على أننا نستطيع أن نقيم مجلساً عالمياً ، لا حكومة عالمية تحكم العالم — مجلساً تتشاور فيه الحكومات وتحاول أن تتفق ، فإن المسائل التى تعدها الدول حيوية لا يمكن أن تتقرر بالتصويت .

فى سنة ١٩٣٧ كانت هناك ٧٣ دولة لها حق معترف به فى التمثيل المستقل فى هيئة عالمية ، ومن الجلى أنه إذا كان لكل الأعضاء أصوات ، وإذا كان يجب أن يتفقوا ، فإنه مامن خلاف جدى يمكن أن يفصل فيه بإحصاء الأصوات .

وما علينا إلا أن نتذكر الضجة التى قامت فى هذه البلاد لأن بريطانيا كان لها « ستة أصوات » يقابله صوتنا المفرد ، أو انتفاضة الخوف حين أعلن اتحاد السوفييت أنه أصبح الآن مؤلفاً من ١٦ جمهورية ذات ست عشرة وزارة للخارجية ، وقد راح الذين يظنون أن الشئون الدولية يمكن أن تدار بالآليات السياسية ، راحوا يتساءلون ألا ينبغى أن تطالب الولايات المتحدة لنفسها بثمانية وأربعين صوتاً بعدد ولاياتها ! وهكذا نرى أن فكرة إدارة شئون جمعية عالمية بإحصاء الأصوات تفضى إلى مثل هذه السخافات .

إن الآفة التى ينبغى أن ننشد لها علاجا هى المحالفات المتنقلة بين الدول الكبرى ، والعلاج لهذه المحالفات التى لا تزال تتحول هو تثبيتها وتوطيدها ، و « الأقليمية » هى السبيل إلى ذلك ، إذ تدرك كل دولة أنها تابعة لمنطقة استراتيجية واحدة ، ليس إلا ، من السلامة ، ويكون مكانها غير موضع للشك ، ولا يبقى موضوعاً للدس والمساومة .

واعتقادى هو أن واجبنا أن نعكس مبادىء ولسون ونقلبها ، وأن نحاول المحافظة على الدول السياسية الموجودة بدلا من أن نمزقها وفقاً لمبدأ تقرير المصير ، وأنه ينبغى أن نقر — لا أن نحظر — وأن نكمل — لا أن نفكك — الجماعات الإقليمية للقوميات الدولية ، وبذلك تكون العناصر المكونة للجمعية العالمية ٧٣ ذرة سياسية من المحتمل أن تتجزأ إلى ذرات أخرى لا يدرى عددها أحد ، وإنما تصبح الجمعية العالمية حشداً من الجماعات الإنسانية الكبرى .

وقد سميت إحداها — وهى جماعتنا — جماعة الأطلسى ، وهى موجودة الآن وقائمة لا لأن رجلا نظرياً اخترعها ، بل لأن ضرورات حرب البقاء أحوجت إلى تنظيمها .

ولا سبيل إلى القضاء على خطر حرب

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ألمانية عدوانية أخرى فى أقل من جيل — أى إلى أن يفنى حزب الحرب غير معقب ذرية — وفى هـذه الفترة يكون على جماعة الأطلسى والمدار الروسى أن ينظما شئونهما العسكرية ، وأن ينسقا سياستيهما الخارجية لمنع ألمانيا خاصة من استعادة قوتها الحربية بالاحتفاظ بالتوازن الدولى بين الاتحاد السوفيتى والعالم الغربى .

وبهذا ينتفى التعارض الفظيع بين القومية والدولية ، لأنه ما من أحد مطالب بأن ينقل ولاءه من وطنه إلى وطن دولى جديد ، بل يظل وطنياً مخلصاً ، وجاراً حميداً ، ولما كان جاراً حميداً فهو مخلص لقوانين الجمعية العالمية وعاداتها ومطالبها .

وليس فى وسعنا — كما حاول ولسون — أن نشيد الجمعية العالمية مبتدئين بالسطح ومنتهين بالقاعدة ، بل يجب علينا أن نبنيها من تحت إلى فوق ، وأن نجعل مادة البناء الدول الموجودة والجماعات التاريخية ، وهذا فيما أرى هو الذى ينبغى أن نتعلمه من تجربة عصبة الأمم ومن إخفاقها ، وعلينا فى رأيى أن نحذق الدرس لأننا لن نحتمل الإخفاق مرة أخرى .

مصير أمريكا

كلما حاولت أن أقارن أمريكا التى نشأت بها بأمريكا الحاضرة ، أدهشنى أنى كنت فى شبابى لا أجعل بالى إلى المسائل العويصة التى هى موضوع التاريخ ، فما فكرت حينئذ فى سلامة الجمهورية ، وكيف يكون الدفاع عنها ، وكنت فى غرارة تلك السن أظن أن تنازع البقاء قد انتهى من زمان طويل .

وقد ظلت الولايات المتحدة زمناً طويلا — إلى عهد حديث جداً — وليس لها أعداء ، وكانت الأمة تنعم بمناعة تامة من الهجوم ، حتى لكان يسعها أن تستغنى استغناء يكاد يكون تاما عن متاعب التسلح والتدابير الاستراتيجية الاحتياطية والمحالفات ، وتكاليفها ، وكنا نعلل هـذا الأمن الذى لا يكلف جهداً بخرافة شائعة هى أن المحيط الأطلسى وسع جداً من أن يستطيع عدو لنا عبوره ، فالذى يجرى فيما وراء البحار لن يقلقنا ما دمنا لا نحشر أنفسنا فيه ، فليس بالولايات المتحدة إذن حاجة إلى اتخاذ تدابير تكفل لها السلامة ، وكل ما تحتاج إليه هو أن تحاذر التورط فيما يجرى وراء البحار . ولم يفتح شعبنا عيونه إلا فى الحرب الكبرى الثانية فى هذا القرن على الحقيقة : وهى أن عصر السلامة الفريدة والأمن الذى لا يكلف جهداً قد مضى وانقضى ، وأن الولايات المتحدة تحتاج الآن إلى الدفاع عنها شأنها فى هذا شأن الدول الكبرى الأخرى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى التاريخ — بالدبلوماسـية ، والسياسة ، وبالسلاح .

فإذا سأل أحد : هل تنهض الأمـة الأمريكية لحمل العبء ، وتكون كفؤاً لما هو مقدور لها ؟ فإن هـذا يكون بمثابة التساؤل هل أوتى الأمريكيون إرادة الحياة .

ولا داعى للشك السقيم فى هذا ، فإن الذى يعكر صفو حياتنا القومية — نزوعنا إلى الانسياق مع التيار ، وقلة مبالاتنا كأفراد بالواجب العام ، وعدم وجود سياسة إيجابية لنا فى الداخل أو الخارج — ليس نتيجة لمحاولة القيام بالعظائم والإخفاق فيها ، بل لطول اعتيادنا أن لا نضطر إلى القيام بعظائم الأمور . وما استثارت المسائل الداخلية التافهة الروح النبيلة فى أمة ما ، قط ، وإنما تبذل الأمة غاية جهدها وهى مؤمنة بنفسها وبمصيرها ، حين يبلغ التحدى أقصاه فيحرك أعماق نفوسها .

وقد واجه الشعب الأمريكى الآن من التحدى مالم يسبق له بمثاله عهد ، وهو يبذل من الجهد ما لم يسبق له بذل نظيره ، ومتى عرف واجبه فهو يخف إليه ، لا مستكرهاً ، بل مغتبطاً ، لأن ذلك يرد إلى حياته الشخصية معنى كان يفتقده ، ويخطئه ، ويفيض على أمريكيته مجداً وسنًى مستفادين من فكرة خالدة .

وقد شاءت الأقدار أن تكون أمريكا فى مركز الحضارة الأوربية لا على حافتها ، وفى هـذا يتجلى مصيرنا . وفى وسعنا أن نرفضه ، فإذا نحن فعلنا فإن الحضارة الغربية التى هى مفخرة عالمنا تصبح حاشية مضمحلة مفككة للاتحاد السوفييتى وأمم آسيا الناهضة .

ولكنا نصبح كفؤا لمصيرنا إذا أدركناه حق إدراكه ، وليست تنقصنا البصيرة ، فلا داعى لأن تبيد أمتنا . ولقد دعيت الآن أمريكا إلى النهوض بما كان المؤسسون والرواد يعتقدون دائماً أنه مهمة أمريكا : أى أن تجعل العالم الجديد مكانا يزدهر فيه الإيمان القديم ، فيتحقق الوعد الأبدى آخر الأمر .

حين نستشعر الغضب ، فى نقاش ما ، فعندئذ نكف عن الكدح فى سبيل الحقيقة ، لكى نكدح فى سبيل تأييد الذات . [توماس كارليل]

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

باب الكتب

استيقظ واستمتع بالحياة

ملخص كتاب

دوروثيا براند

مؤلفة "كيف تصير كاتبا" و "أجمل النساء" وغيرها

فى هذا الكتاب « استيقظ واستمتع بالحياة » تهدى دوروثيا براند إلى قرائها « دستور النجاح » وهو كما تقول : « دستور قد بلغ من البساطة والوضوح ما ردّنى عاجزة عن أن أصدّق أنه كان سرّ العواقب العجيبة التى جنيتها حين طبقته بنفسى »

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

استيقظ ، واستمتع بالحياة

كنت إلى سنتين مضتا امرأة مخفقة ، ولكن لم يفطن لهذا أحد سواى ، وكيف وأنا أنعم بمقام كريم وحياة لا تنقصها البهجة ؟ ومع ذلك كنت ، أنا وحدى على الأقل ، أومن فى دخيلة نفسى بأنى أخفقت .

وغمّت علىّ السبل ، فمع أنى كنت على بينة مما أريد أن أفعل ، وكنت متزوّدة بكل عدة للنجاح فى عملى ، رأيتنى أخبط فى الحياة خبط عشواء ولا أتقدم .

ثم إذا بى أظفر بالفكرة التى فضّت عنى قيودى ، ذلك أنى كنت أقرأ كتاب « الشخصية الإنسانية » من تأليف هـ . ى ميارز فوقعت على جملة بلغ من إشراقها أنى نحيت الكتاب جانباً لأتدبر كل المغانم المحتملة التى تشف عنها هذه الفكرة الواحدة . فلما أخذت الكتاب ثانية كنت قد أصبحت إنساناً آخر .

تغير كل شىء فى حياتى ، ولم أتبين هذا التحوّل فى مبدأ الأمر ، ولكنى أدركت بيقين جعل يرسخ على مرّ الأيام ، أنى ظفرت أخيراً بتميمة تعالج الإخفاق وقعود الهمة ومثبّطاتها ، وكانت هذه التميمة دواء ناجعاً صادق الأثر . فكل ما استطعت أن أكتبه فى السنوات العشرين السابقة لم يزد على سبع عشرة قصة صغيرة ، وعشرين رسالة فى نقد الكتب ، وعدة مقالات فى الصحف ، ومحاولة واحدة لتأليف قصة طويلة ، فكان معدل إنتاجى أقل من مقالتين فى السنة الواحدة ..

أما فى السنتين التاليتين لتلك اللحظة التى استنارت فيها بصيرتى ، فهاك بيان ما أنجزته : ثلاثة كتب (ولم تنقض السنة الأولى حتى كنت قد أتممت أولها وثانيها ، وكلاهما لقى نجاحاً) وأربع وعشرون مقالة ، وأربع قصص صغيرة ، واثنان وسبعون محاضرة ، وهيكل ثلاثة كتب أخرى ، ورسائل لا تحصى بعثت بها إلى من يطلب منى المشورة فى كافة أنحاء البلاد .

لم يكن هذا هو كل ما أفدته من هذه الوصفة ، كلا بل لقد زالت عنى علة التردد والخجل التى عرقلت نشاطى فى كل مجال من قبل . أما الأحاديث الصحفية والمحاضرات والاجتماعات التى اندفعت فيها وأنا منتصرة على الإحجام فى كل لحظة ، فقد أضحت مجلبة لسرورى .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وأخيراً أصبحتُ راضية عن نفسى ، ولم أعد أعاقبها واستحثها وأسوقها بلا رحمة ، وكذلك كففت عن شكوى السأم والإعياء يصيبانى بلا مسوغ .

وحدث قبل بضعة أشهر أن دعيت إلى إلقاء محاضرة على جماعة من أصحاب المكاتب ، فكان الموضوع الذى اخترته هو عرض خلاصة هذا الكتاب : وذلك أننا جميعاً ضحايا « إرادة الاخفاق » ، وأننا إذا لم نفطن لهذا الأمر فى حينه ونعمل على مقاومتها ، انقضت حياتنا دون أن نحقق رغائبنا ، وأنّ هناك علاجاً لمكافحة هذه الإرادة ، وهو علاج له فعل السحر .

وكأن المستمعين كافة كانوا يشكون من الحال التى وصفتها ، وكأنهم كانوا جميعاً يتلمسون المعونة للخلاص منها ، فانهالت علىّ الرسائل والأسئلة بالبريد والتلفون ، وطلب الحديث منى كثيرون أدركوا أن حياتهم غارقة فى النكوص والتهيب والتردد . وأنا أريد أن يكون هذا البحث التالي مرشداً عملياً لأمثالهم ، ممن يستطيعون الخلاص من حياة عقيمة بغير جدوى ليبدأوا حياة سعيدة طيبة .

◆◆ ◆◆ ◆◆

ربما نال المرء نجاحاً مؤكدا لو هو بذل فى سبيله ما يبذله من وقت وجهد فى سبيل جعل الإخفاق حقيقة مؤكدة .

ولنفرض أن رجلا كان على موعد يبعد عن بيته مئة ميل شمالا ، وهو على ثقة بأنه إذا لم يخلف هـذا الموعد ، فاز بالسعادة والرفاهيـة ، ولم يكن له من الوقت إلا ما يكفيه للوصول إلى موعده ، فخرج يقصده ، ولكنه يعدل ، ويرى أنه قد يظفر بقسط أوفر من متاع النفس إذا هو سار ٢٥ ميلا جنوبا قبل أن يبدأ سيره بجدّ .

هذه حماقة أليس كذلك ؟

ومع هـذا فحينما يكون علينا أن ننطلق رأساً إلى الموعد الذى واعدنا أنفسنا على الوفاء به لتحقيق آمالنا ، نجد أن مسلكنا جميعاً أشبه شىء بمسلك بطل تلك الحماقة البلهاء ، فنسير فى غير الوجه الذى ينبغى ، وكذلك نخفق حيث كنا أدنى إلى النجاح إذا ما بذلنا نفس المقدار من الجهد والوقت .

فالإخفاق يدل على أننا بذلنا الجهد باطلا فى غير وجهه ، وذلك أن الإخفاق يقتضى بذل جهد كبير .

وهـذا أمر قلما ندركه لأول وهلة ، ولو راجعت عالماً نفسانيا لعلمت أى جهـد عظيم يبذله من يقاوم رغبة التحرك والسعى ، إذ لابد من شنّ حرب ضروس تهزم قوى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الحياة من أجل أن نبقى ساكنين ، ولو أنها حرب خفية تدور رحاها فى أعماق أنفسنا بحيث لا نكاد نفطن لها إلا قليلا . ولا يغرنك همود الجسم ، فإنه لا يفيد إفادة قاطعة أن قوة الحياة قد انطفأت جمرتها .

فإذا كان مبعث الإخفاق هو وقف أثمن ساعات العمر على مطالب لا ينجم عنها إلا قتل الوقت ، تبين لنا جميعاً أن هـذا جهد قد حول عن مجراه ، غير أن هناك وسائل أخرى لقتل الوقت تقتضى عملا شاقا يبذله صاحبه عن علم . ولن نصل إلى الاقتناع بأن جهدنا موقوف على طلب الإخفاق إلا بتدقيق النظر وإدراك أن ما نعمله يورثنا الإعياء والسخط معاً .

ولكن لماذا يكون ذلك كذلك ؟ ولماذا ونحن لو انتفعنا بهذا القدار ذاته من الجهد الذى لا بد لنا من بذله فى حياتنا على أية حالة ، لكان نجاحنا أمراً محتملا — لماذا قلما نظفر بالحياة التى تمنيناها وعقدنا العزم على أن نحياها ؟ ولماذا نسوغ إخفاقنا بتعليل النفس بأنها نالت حظا مرضيا من التقاسف ؟

ونحن لا نصدق عن يقين أن الإنسان ليس له إلا أن يختار إحدى اثنتين : إما النجاح وإما أن يحيى مستمتعاً بالحياة . ونحن نعلم أن الذين يظفرون بالنجاح ليسوا أقل حظا من المخفقين ، فهم يرون من مغرب الشمس ما يراه المخفقون ، ويتنسمون من الهواء ما يتنسمون ، ويكون أحدهم محباً أو محبوباً كما يكونون ، كلا ، بل هم يظفرون فوق ذلك بشىء آخر : ألا وهو علمهم بأنهم تخيروا لأنفسهم طريق الحياة والنماء .

إذن فلماذا نخفق ؟ ولماذا — على وجه أخص — نكدح فى طلب الإخفاق ؟

ذلك بأن الإنسان كما تسوقه إرادة الحياة وإرادة السيطرة ، تسوقه أيضاً إرادة أخرى هى إرادة الإخفاق .

وهذه فكرة سيعدها كثير من الناس رأياً جديداً ، ذلك أن علماء النفس قد أكثروا من الحديث عن إرادة السيطرة وأهملوا إرادة الإخفاق ، لأنها أشد غموضاً .

فإذا فطن المرء إلى هـذا التيار الذى يعوقنا ويبطل جهودنا ، خطا أول خطوة فى التحول عن طريق الإخفاق إلى طريق النجاح . فإذا شد من عزمه لمغالبة ذلك التيار ، استطاع أن يثنى عنان جهده ويعدل به عن طلب الإخفاق ليوجهه فى طريق النجاح .

ضحايا إرادة الإخفاق

قلما نتبين إبان شبابنا أعراض « إرادة الإخفاق » فى نفوسنا ، فنعلل الإحجام عن البدء فى ولوج معترك الحياة بأنه خجل

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الناشئ الغر" ، أو ترانا إذا لم نحاول قط بذل قصارى الجهد فى العمل ، نختلق لأنفسنا العذر بأن العمل الذى لم نهتد إلى سواه حين لم يكن لنا مناص من المبادرة إلى اكتساب الرزق ـ ليس هو العمل الذى كنا نصلح له كل الصلاح . ويتفاقم الحرج إذا تزوجنا وأصبحنا من أرباب الأسر ، فلربما كان مما لا يعجزنا أن نصبر على الضر" والأذى بضع سنين ، ولكن أن تسأل عيالك أن يصبروا كما تصبر ، فذلك أمر يحتاج إلى شجاعة قد لا تتوفر لكثير منا .

وكثيراً ما نعقد العزم فى مبدأ الأمر على أن لا يغيب الهدف المقصود عن أبصارنا ـ ولكن عملنا المرهق يستأثر بمعظم ساعات النهار ، فلا جرم أن تكون القوة التى يتطلبها قوة تفوق طاقة البشر ، لكى يحتمل المرء رؤية نفسه وحيداً غارقاً فى العمل ، على حين يلهو سائر الناس ويلعب ، وحين لا تلوح لأعيننا أية بارقة تبشر بالنجاح إذا ثابرنا ، وهكذا نتخلف ـ ونحن لا نعى ـ عن موكب الحياة دون أن نشارك فيها بنصيب ، ودون أن تتكشف مواهبنا عما تطيق ، ودون أن نبذل ولو جزءاً يسيرا من مقدرتنا . ثم إذا نحن استطعنا أن ندبر لأنفسنا معيشة فيها بعض الدعة ، وأن نظفر بشىء من التوقير والإعجاب ، أو بنشوة سلطان نتذوقها ساعة ثم تنقضى وشيكا ، وأن ننعم بشىء من الحب ، حسبنا أننا فزنا من الحياة بصفقة رابحة ، بل قد يبلغ بنا الأمر أن نهنىء أنفسنا بحصافتها دون أن نرتاب فى أننا من المخدوعين .

من الحكم المأثورة عن ماركوس أوروليوس ، الإمبراطور الرومانى الشهير ، قوله لنفسه وهو يحذرها : « لا يكن تصرفك كمن خال أنه سيعيش ألف سنة » ونحن أينما التفتنا رأينا نذراً سافرة قاسية تقول : « لقد فات الوقت وأنت غافل » . ومع هذا فإن جميع من يقع فى قبضة إرادة الإخفاق ، يصرف أثمن الساعات كأن" له معيناً من الوقت لا ينضب . فهناك مثلا أناس ينفقون فى النوم ما بين ساعتين إلى ست ساعات فى اليوم ، زيادة على القدر الذى يكفل لهم تمام الصحة والعافية ، وهناك أناس لا تختلف يقظتهم عن السبات العميق ، فهم يستغرقون فى مطالب يتمثل فيها الكسل وقتل الوقت : كهذا الجيش العرمرم من أحلاس القهوات ينفقون أوقاتهم فى اللعب النرد والدومينو والتسلى باستعراض المار"ة ، وفيهم من يجلس وحده ساهم النظرة ، يتثاءب أو يعبث ، وكأولئك المغرمين بحل الألغاز وأحاجى الكلمات المتقاطعة ، ومن عو"د نفسه أن

يقعد حبيساً فى داره ليقرأ كل ما تصل إلى يده على غير هدى ولا تمييز، حتى أصبحت القراءة عنده داءً لا يرجى شفاؤه .

وهناك فرق واضح بين الترويح عن النفس ، وانقيادها انقياداً أعمى فى أمثال تلك المطالب ، وليس من العسير علينا رؤية هذا الفرق إذا نحن انتبهنا إلى وجوده . ولا ننس أيضاً رواد المسارح ، وعشاق السينما وسباق الخيل ، والمغرمين بالتزاور والتحدث فى المجالس حديثاً كله ثرثرة ، وهؤلاء الذين إذا لم يدعوا إلى حفلة شاى ورقص حسبوا يومهم قد ضاع من عمرهم .

وتفترسنا إرادة الإخفاق بأساليب أخفى من هذه ، فتدبر مثلا أمر هذا العدد الجم من الناس الذين يرتضون لأنفسهم عن عمد عملا هيناً لا يقتضيهم إلا بذل قسط يسير من مقدرتهم ، ثم يخلقون له تفاصيل تافهة وينهمكون فيها إلى أن يبلغ منهم الإعياء. وتدبر أمر هؤلاء الذين لا ينفكون عن الشروع فى التحضير لشهادات عليا ، وتدبر أمر هؤلاء الأبناء والبنات والأمهات الذين يظنون أن من البر أن يفنوا حياتهم فى حياة من هم مثلهم فى النضج وبلوغ الرشد ، وغاب عنهم أن قعودهم عن استغلال كامن مواهبهم على خير وجه قد جعل ما يبذلونه لا يجدى شيئاً على من ضحوا من أجله بالحياة ، وغاية ما تجديه أن توفر له نوعا من الرفاهية لا يؤبه له .

فهناك إذن هذه السبل كلها — وغيرها كثير — للخضوع لإرادة الإخفاق ، ولكن لا يغبْ عنك أن الجهود المبذولة إنما تبدو فى الظاهر وحسب باطلة لا هدف لها ، والحقيقة أن لكل منها غرضاً خفياً . فكل الذين يؤدون أعمالهم بجهد مبعثر، والمتململون الساخطون ، والعابثون ، إنما يرومون من وراء مسلكهم هذا أن يخدعوا أنفسهم، بأن يملأوا فراغ كل لحظة ودقيقة فى ساعات يقظتهم ملئاً تاماً ، فلا يبقى فيها أقل فرجة يتسرب منها إليهم الشعور بأن جهدهم هباء لا ثمرة له ، فإذا أدركهم الليل كانوا لا يزالون منصرفين إلى اللهو ، أو بلغ بهم الإعياء مبلغاً لا يستطيعون معه أن يتدبروا الأمور على حقيقتها .

وما أبشع منظرهم حينما تتجلى لأعيننا حقيقتهم سافرة ! فنراهم كالمجانين الذين ذهب الشح بألبابهم ، فإن حياتهم فى أيديهم كخزانة لا تقدر بمال ، ولن يظفروا ما عاشوا بسواها ، ومع ذلك فهم فى حمقهم يحشونها توافه خسيسة هينة القدر ، وتجارب غير نافعة ، وأهواء مضللة ، وشغفاً باطلاً وعواطف مزيفة .

ومن البين أن هذه الحالات كلها تخفى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

غرضاً واحداً ، كثيراً ما يستقر فى النفس وصاحبه لا يعى ، هو أن يملأ الحياة ملئاً تاماً بجهود ضئيلة ، أو بجهود مبذولة فى غير ما ينبغى ، بحيث لا يبقى لنا وقت نقوم فيه بخير عمل نحن قادرون عليه .

والخلاصة أن الغرض هو طلب الإخفاق .

مغانم الإخفاق

إذا أردنا أن نفهم لماذا يتآمر الكثيرون منا — عن غير وعى — مع أنفسهم لإدراك الإخفاق ، فمن الضرورى أن نفحص ما نسميه هنا بمغانم الإخفاق .

فقد عودنا على النفس أن نسلم بالرأى القائل بأننا جميعاً — على درجة ما — نقضى معظم الوقت فى شرود الذهن ، فنستغرق فى الأحلام ، عن وعى أو عن غير وعى ، فى اليقظة أو فى المنام ، فنجد أنفسنا فى حياة أسعد من حياتنا التى نحن فيها .

والمثابر على هذه الأحلام إنما يعمل ما يعمل فاتر النفس حتى يضمن قوت يومه ، فإذا انتهى عمل النهار عاد إلى أحلامه من جديد ، فهو لا ينجح إلا فى تحقيق غاية واحدة ، هى أن يفسح لنفسه فى زحمة الحياة حيزاً ضئيلا ، ويظفر كل يوم ببضع ساعات يفرغ فيها للدؤوب على تبديد حياته ، ولكنه سعيد مغتبط بأحلامه ، ولذلك فهو يداوم عليها .

ومن المهم أن لا يغيب عن بالنا أن مغانم الإخفاق هى فى ذاتها مغانم حقيقية ، وإلا لكنا عقدنا العزم على مقاومتها مقاومة كافية . وللإخفاق مغانم أخرى غير هذه الأحلام .

فتدبر مثلا كيف إذا أنت لم تبذل إلا أيسر جهد يسوغ لك القول بأنك « حاولت » القيام بعمل ما ، اقتنعت بأن لا تثريب عليك إذا كففت يدك وركنت إلى الراحة بقية العمر ، بل قد تجعل نفسك من الهواة ذوى الخبرة الذين يباهون بأنهم وحدهم يعلمون حدّ الكمال ، وهيهات أن يبلغه من لا يزال يكابد هذا العمل ويتصبب فيه عرقاً ، وأنه كمال باهر مستحيل المنال . فلا غرو إذا كان الإخفاق فى الوصول إليه أشرف فى رأيك من نجاح رجل آخر يناله اتفاقاً من غير جهد .

فأنت إذا لم تصل بعمل ما إلى غايته ، ظللت تحلم بهذا التصفيق الحارّ الذى كنت ستقابل به ، وهذه الصفقة المالية الرائعة التى كنت ستعقدها ، وهذا العمل الفنى المنقطع النظير الذى كنت ستحققه ، وهذه الخيالات أهم عندك وأعز من كل نجاح لو كنت أصبته حقاً .

وتنبه كيف أنك فى هذه الحالات كلها

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

قد غنمت من إخفاقك — على الأقل — هربك من الكفاح والألم والمذلة التي تصحب الجهد إذا بذل فعلا .

ولكن مغانم النجاح أولى بالنوال ، فإن لها قيمة لا تقدر ، فأقل واجب حين تنجزه على خير وجه ، أو أصغر شيء من صنع يديك حين تراه ماثلا أمامك في الدنيا وتعلم أنه لولا عملك لما كان ، يذيقك من لذة الرضى في لحظة واحدة ، ما لا تناله طول عمرك من الإخفاق . وعلمك بأنك جربت فانتصرت في عالم الحقيقة لا في عالم الخيال أشبه شيء بالرجل تتقاذفه الأمواج زمناً طويلا ثم يقر أخيراً على أرض صلبة يقف عليها .

جبن عقلنا الباطن

أما وقد فحصنا طبائعنا وتبينا تياراتها التي تؤدي بنا إلى قبول الإخفاق ، فلننظر الآن في العوامل المباشرة التي تمنعنا من بذل الجهود المباركة في سبيل النجاح .

وسنجد هنا شيئاً من العون إذا استرشدنا بحقائق التنويم المغناطيسي ، فإن بعض النتائج التي يصل إليها المنوم إذا كان متثبتاً في فنه ، وكان المنوم مُيسَّراً للاستهواء — لما يعجز عنه الطبع المألوف تمام العجز . فهذا رجل يصاب بالدوار إن هو ارتفع عن الأرض ولو قليلا ، يستطيع — إذا نوم — أن يسير مطمئناً على لوح ضيق من الخشب نصب على ارتفاع شاهق . وهذا رجل آخر ضئيل الجسم واهن القوى يستطيع أن يرفع حملا ثقيلا . وقد جاء ف . ي . ه . مايرز بمثل رائع في الفصل الذي كتبه عن التنويم المغناطيسي ، فروى أن ممثلة ناشئة ، يعهد إليها بحفظ دور الممثلة الأولى لتحل محلها إذا غابت ، فوجئت بدعوتها للدخول إلى المسرح ، فوجمت وارتبكت من الخوف ورهبة الظهور أمام الجمهور ، فلما نوّمت تنويماً يسيرا أدت دورها بتوفيق باهر ، وقوبلت بتصفيق شديد .

وفي الفصل ذاته يذكر أن الخجل والتردد اللذين يركبان عادة من يقدم على عمل جديد لأول مرة ، يزولان عنه تماماً بالتنويم المغناطيسي ، فيؤديه بدقة وثقة .

وقال : « إن فعل الإيحاء المغناطيسي في إزالة الخجل يأتي في الواقع من تطهير الحافظة ، بمحو ذكريات كل إخفاق سابق ، وإطلاق سراح فئات من المواهب المختزنة اللازمة للعمل الذي هو مقدم عليه » .

وهذا هو سر الأمر ، فلم تكتب من قبل جملة فيها ما في هذه الجملة القصيرة من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

معانٍ جليلة القدر ، لمن أراد حقا أن يعدل بحياته فيوجهها إلى النجاح .

والمألوف أننا نتعلم بأسلوب : « إذا أخطأت فحاول من جديد » ، وربما أعدنا المحاولة عدة مرات حتى نظفر بالوسيلة المؤدية إلى النجاح.

ولكننا نكون فى هذه المحاولات قد ذقنا مرارة الإخفاق : فعضتنا الآلام الصادقة حيناً ، وسخر الناس منا حيناً ، واستهدفنا للمذلة الجارحة حيناً آخر ، حتى إن النجاح الذى نظفر به فى نهاية الأمر لا يمحو من عقلنا الباطن ذكريات الإخفاق والألم.

والعقل الباطن يرهب الألم والمذلة والتعب ، ويتحاماها دائماً جهد طاقته . وهذه الحقيقة هى علة ما يستحوذ علينا من السكون والخمود حين يكون من الخير لنا أن نبذل جهداً إيجابياً . فلئلا نواجه الألم ، وإن كانت مواجهته مجرد احتمال فحسب ، ولئلا نستعيد ذكريات الإخفاق السابقة ، نقرر ، بوحى من عقلنا الباطن ، أن نقعد عن العمل جملة واحدة ، أو أن نختار عملا أيسر علينا منه ، أو نبدأ منهجاً ونسير فيه قرب الموضع الذى أوذينا عنده من قبل ، ثم نختلق لأنفسنا عذراً وننكص على أعقابنا مهرولين ، وهكذا ينتصر العقل الباطن بهذا التصرف الصبيانى . فلكى نتفادى هما ضئيلا ، نعمد إلى جمع ذكريات الإخفاق التى لا بد من أن تؤذينا فى المستقبل ، وكذلك نضيع فرصة بعد فرصة قد لا تسنح لنا مرة أخرى .

تصحيح الاتجاه

إذا صدق كل ما قلناه من قبل ، وأيسر تحليل للنفس يثبت صدقه ، فكم يكون من المريح لكل منا أن يتأبط ذراع منوم مغناطيسى أينما ذهب ليمده بعونه كلما وجب عليه أن يشرع فى عمل — ومع هذا فإن الحل الذى نعرضه عليك أهون من ذلك بكثير .

كل ما يطلب منك حتى تحطم قيود الخمود والشعور بالخيبة هو هذا :

كن فى تصرفك كأنما هو أمر مستحيل أنه تخفق .

فهذه هى التميمة ، وهذه هى الوصفة ، وهذه هى الصيحة التى تجعلك تدير وجهك من الإخفاق إلى النجاح .

وكل منا قد جرب بنفسه أو لاحظ تلك الحالة التى تسمى « شجاعة اليائس » . فإذا بلغ الحرج منتهاه تجيش هذه الشجاعة ، لأن نكبة ما ، أو سوء حظ متلاحق ، قد سد كل السبل إلا سبيل النجاح . ونحن نقول عمن كان فى مثل هذا الموقف :

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« لم يكن لديه ما يخسره » . إذن فهو يعمل بسداد وشجاعة لم يكن يقدر عليهما عادة . وكثيراً ما يتوج هذا العمل بالنجاح ، حتى أصبح وقوعه مضرب الأمثال . فمن بلغ به الحرج مبلغاً لا يجسر معه على الإخفاق يعمل دائماً ما ينبغي عليه أن يعمل ، أي يعمل عمل المؤمن بأن الإخفاق مستحيل .

وليس اليأس هو السلاح الوحيد الذي يقضي على احتمال الإخفاق ، فإن عمل المخيلة أمضى منه وأفضل ، فإذا استطعت أن تطبع في مخيلتك هذا الوثوق الذي يملؤك لو علمت أنك ذاهب للقاء نجاح متيسر لك ولا بد منه ، وجدت أن أول ثمرة تنالها هي انبعاث نشاطك وتدفقه تدفقاً عظيما ، وتشعر كأنما عقلك قد تنفس الصعداء لخلاصه من الأسر ، وأنه قد عبأ كل قواه . وليس سبب هذا أننا قد وُهبنا فجأة قوى جديدة عجيبة ، بل لأننا حينما أبينا الخضوع لسلطان الخوف الذي يرد كل جهد نبذله عقيما ، اهتدينا إلى مواهب كامنة فينا أصلا ، لم نكن من قبل نبذل أي جهد لكي نعرفها ، فتتكشف في أنفسنا قدرة أصيلة لم يكن يدور في خلدنا أنها مستقرة فينا ، فإذا تبدت لنا شعرنا كأنها قد وهبت لنا لساعتها تلك .

ولكن كيف تطبع في مخيلتك وثوق من يعمل وهو مؤمن باستحالة الإخفاق ؟

هذا أمر سهل ، فليس فينا أحد إلا وقد ذاق مرة لذة النجاح في عمل ما ، وإن كان عملا هيناً . فارجع بذاكرتك إلى أمثال هذا النجاح الذي لقيته ، حتى وإن كان نجاحاً يعود زمنه إلى أيام المدرسة ، وكل ما يطلب منك أن تطبعه في مخيلتك هو الشعور بالثبات والوثوق اللذين كنت عليهما وقت النجاح .

واجعل انتباهك وقفاً على هذه الفكرة ، فإنها تحدد لك الوضع الذي يجب أن يكون عليه عقلك إذا أردت أن تعمل . وارفض دائما أن تبدأ العمل وعقلك لم يصل بعد إلى ذلك الوضع الذي ترومه . وعليك أن ترغم نفسك للوصول إليه بأسرع ما يمكنك . فإذا وصلت إليه ، ووثقت بأنه يملؤك من الشعور ما كان يملؤك وقت النجاح ، فاحتفظ به في دخيلة نفسك قليلا من الوقت ، كأنما تنتظر أمراً يصدر إليك بابتداء العمل . ولن تلبث حتى تشعر بقواك قد نشطت من عقالها ، إذ تكون نفسك قد أصدرت إليك أمرها فكان لك أن تبدأ العمل . وسترى أنك لست في حاجة إلى أن تدفع نفسك دفعاً في العمل ، فإن قواك الطليقة تعمل وحدها من تلقاء نفسها .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

عشر قواعد للنجاح

ولكن بعد أن نصل إلى هذا الشعور الذي يهيئنا للنجاح ، يكون لا يزال من الضروري أن تتوفر فينا أيضا صفتان عقليتان ، فيجب أن نجعل ذهننا أشد مضاء وأكثر لينا ، فنحن جميعا نميل إلى أن نوفق في عملنا اليومي إلى نمط لا يتطلب منا إلا أقل جهد ، وهذه حقيقة ليست في ذاتها سيئة الأثر لو أننا انتفعنا على خير وجه بالوقت الذي نوفره . ولكن الحقيقة المرة هي أن هذا الميل لبذل أقل جهد هو ديدننا في حياتنا كلها . وكلما انقضى يوم نخلد فيه إلى تلك العادة ، أصبحت عقليتنا أكثر استرخاء وتهيبا ، وأقل تجربة ، إذ نكون قد استسلمنا إلى الضعف ، وتنازلنا عن براعتنا ، لكي نفر من حمل التبعات ما استطعنا ، حتى يبلغ بنا الأمر أن نمقت «النظام» لفظا ومعنى .

ومع ذلك فالنظام حتم لازم إن أردنا أن نربي في أنفسنا تلك الصفات اللازمة لتمام انتفاعنا بالحياة ، فإن العقل يستفيد من النظام الذهني ذلك الكمال الذي يستفيده الرياضي من نظامه في تمريناته الجسمانية . فيجب أن نعنى أولا بمعرفة مقدرتنا العقلية ثم نستخدمها لما هي مهيئة له ، لنستطيع أن نستغلها أتم استغلال .

وسنورد هنا تمرينات ننصحك بها للوصول إلى هذا النظام الذهني . وليست كلها متساوية النفع في كل الحالات ، ولكن يطلب منك قبل أن ترفض أحدها أن تتفحص نفسك لترى أأنت إنما تطرحه جانباً لغير سبب إلا لأنه يفرض عليك شيئاً من النظام لا يروقك .

الأول : الزم الصمت كل يوم ساعة واحدة ، لا تتكلم فيها إلا لتجيب على أسئلة توجه إليك . ويجب أن يتم ذلك دون أن تجعل غيرك يظن أنك عابس متجهم ، أو أنك تشكو من صداع ، وحافظ ما استطعت على مظهرك المألوف ولكن بفارق واحد : هو امتناعك عن الكلام . واجعل إجابتك على قدر السؤال ، ولا تزد عليه ، ولا تحاول أبداً أن تفتح الباب لسؤال آخر . والغريب أن هذا التمرين يشق حتى على من كان يميل بطبعه إلى القصد في الكلام . فمن عادتنا أن ننطلق في التحدث إلى الآخرين كلما لقيناهم ، لا لشيء إلا لنثبت لهم أننا قوم لا ينقصهم الود والصداقة ولين الجانب .

وسرعان ما يتجلى لكثير ممن جربوا ما ذكرناه ، أننا ندفع عادة في الحديث ، ونلمح على وجوه المستمعين أننا لم نفلح في

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الإبانة عما نريد أن نقوله ، وقد نهفو ونزل في الحديث بكلمة غير مناسبة ، فنعمد إلى الانتقال إلى حديث آخر ، فلا نكون فيه أحسن حالا ، ونتحول إلى غيره ، ثم نصمت لحظة تتدبر فيها الأمر ، ثم نقول بعدها كلاما نجعله محكماً ، ولكن المستمع وهو يستحضر في ذهنه إخفاقنا ثلاث مرات من قبل لا يقيم كبير وزن لما قلناه ، ويسلكنا بين الذين يهيمون بالكلام في غير طائل . وكل الذين مروا بهذه التجربة متفقون على أنهم حينما يصمتون يجدون في أنفسهم شعوراً لا يزال يزيد بأنهم قادرون على التحكم في الموقف ، فإذا عادوا للحديث فعلوا وهم شاعرون بأن حديثهم واضح ، وأن له هدفاً يرمى إليه .

الثاني : تعلم كيف تقضي نصف ساعة يوميا وقد حصرت تفكيرك في موضوع واحد . وهذا طلب قد يبدو في ظاهره يسيراً ، ولكنه في الواقع عسير . ويجب على المبتدىء أن يروض نفسه في أول الأمر على حصر تفكيره في موضوع واحد خمس دقائق فحسب ، ثم يزيدها تدريجاً كل يوم حتى يبلغ نصف ساعة . ويكون بدؤه باختيار موضوع مادي ، فيفكر مثلا في زهرة ما ، ويجب أن لا تكون هذه الزهرة بادية أمامك ، بل عليك أن تتخيلها في ذهنك وأنت تتمثلها ما استطعت بكل حواسك . فإذا فعلت ذلك ففكر في موطن هذه الزهرة ، وموسمها ، ومنافعها ، وما ترمز إليه من معان . فإذا جاوزت هذه الخطوة الأولى اليسيرة فانتقل من الماديات إلى المعنويات فتختار لنفسك موضوعاً يروقك .

فإذا مرنت على حصر تفكيرك فيما يروقك من المواضيع ، وتبينت أن ذهنك لا يسرح عنها ولو لحظة واحدة ، فابدأ باختيار موضوع جديد عليك ، كأن يكون أول سطر تقع عليه عيناك عرضاً إذا فتحت كتاباً أو مجلة ، واحصر تفكيرك في المعاني التي تتبادر إلى ذهنك من السطر الذي تقرأه .

ومما يسهل عليك القيام بهذا التمرين أن تستعين بقلم تخط به على ورقة خطا كلما شرد ذهنك ، وستجد ورقتك قد امتلأت بالخطوط في المرات الأولى ، إلا أن النجاح لحسن الحظ يطرد بعدئذ بسرعة ، فبعد الأسبوع الأول — وقد يمتد الأسبوع في بعض الحالات إلى شهر حين لا يكون الذهن مطاوعاً — تجد ورقتك تكاد تكون بيضاء بعد نهاية نصف الساعة . وفائدة هذا التمرين لا تخفى على من يريد الشروع في عمل يحتاج إلى الابتكار . ومن الحكمة أن تقوم بهذا التمرين في أول

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأمر وأنت فى خلوة منفرداً ، ثم يجب أن تكون بعد ذلك قادراً على القيام به إبان مشاغلك الأخرى ، كأن تقوم به وأنت فى الترام أو فى القطار فى ذهابك إلى عملك أو إيابك منه .

ولك أن تسمى هذا التمرين بكل بساطة « حصر الذهن » ، هذه الملكة التى طالما وصانا بها فى غير طائل أساتذة مدارسنا .

فإذا أصبحت قادراً على حصر ذهنك جنيت ثماراً لا تحصى ، فتستطيع أن تتعلم لغة أجنبية بكل سهولة وفى وقت قصير ، وقد تكون لهجتك سقيمة مضحكة ، لأنك لم تعتد النطق بتلك اللغة منذ صغرك ، ولكنك تستطيع قراءة ما يطبع بها من الكتب والمجلات . وتستطيع كذلك — إذا كنت من أصحاب ملكة حصر الذهن — أن تحفظ من ألفاظ لغة أجنبية فى شهر واحد ما يكفيك للتفاهم مع غيرك إذا أردت القيام بسياحة فى البلد الذى يتكلم أهله تلك اللغة .

وكذلك إذا عقد امتحان بين متسابقين فإن أسرعهم فى الوصول إلى جواب الأسئلة هم الذين مرنوا على التفكير الثابت المركز .

الثالث : اكتب رسالة لا تتضمن ضمير المتكلم فى كافة صوره . واجعلها رسالة أنيقة رشيقة ، فإذا بلغك أن المرسل إليه قد لاحظ أثر التعمل فى هذا الخطاب فاعلم أنك قد أخفقت فى التمرين .

وهذا التمرين يقطع انشغالنا بأنفسنا ، ويمكننا من الإفلات من قيد شخصياتنا ، حتى لكأننا نصبح نراها من بعيد ماثلة أمامنا .

فإذا أردت أن تنجح فى هذا التمرين وتكتب رسالة موفقة ، فلا بد لك من أن تحول ذهنك من الداخل إلى الخارج ، فإن الانقطاع — ولو برهة يسيرة — عن الانشغال بأمورنا يجعلنا ، إذا عدنا إلى هذا الانشغال من جديد ، أصفى ذهنا وأروق بالا .

الرابع : لا تذكر ضمير المتكلم فى حديثك مدة ١٥ دقيقة كل يوم .

الخامس : اكتب كتاباً تنم روحه على النجاح والرضى . ويجب أن تلتزم فيه قول الصدق ، فلا تدع باطلا ولا تكذب ، بل تخير من تجاربك ما تعتقده حقاً جديراً بأن يذكر فى كتابك ، واقصر حديثك عليها ، واجعل أسلوبك ينم على أنك حين كتبته كنت لا تشعر بأقل يأس أو خيبة .

والغرض هنا هو أن تتحول من موقف سلبي حافل باليأس إلى موقف إيجابى فيه خيرك .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ومهما بدا لك فى مبدأ الأمر أن لا أمل فى العثور على مادة صالحة لكتابك هذا ، فإنك لن تلبث طويلا حتى ترى قلمك يجرى بسهولة فى ذكر واقعة بعد أخرى ، وأنك كنت تغمض الطرف عنها حينما ظللت حاصراً ذهنك فى اليأس والتندم . فإن النجاح لا يتأتى بلا ريب إلا بالتخلى تماماً عن التحسر والكآبة .

السادس : إذا صادفك إنسان لأول مرة وأخذ يحادثك ، فدعه يتحدث عن نفسه دون أن تشعره بما تفعل . فإذا سألك سؤالا بدافع من التأدب فى الحديث فجاوبه بسؤال من جنسه توجهه إليه ، دون أن يشعر من فعلك هذا بأنك صددته . فإن كنت كريم القلب ، واسع الذهن ، ملت إلى مخاطبك ميلا كبيراً ، وزال عنك آخر أثر لهذا الشعور المثبط الذى يسمى « الشعور بالنفس » ، وأقل ما تفوز به هو أن يتسع رأيك وتدرك كيف تبدو الدنيا لبعض الناس .

السابع :(وهو عكس سابقه ، وأشق منه لمن يتعمده) « اجعل كلامك قاصراً على نفسك وما تهتم له ، دون أن تتشكى أو تتباهى ، ودون أن يشعر سامعك — إن أمكن — بالملل من حديثك » . بل اجعل شخصك وأعمالك تبدو له فى ثوب شائق يسترعى اهتمامه .

ومن غرائب المتناقضات أن يكون هذا التمرين خير ضابط لمن اعتاد الإسهاب فى التحدث عن نفسه ، فإننا نتحدث عادة — ونحن ساهون — عن أنفسنا وما نهتم له ، فلا نلتفت إلى ما يظهره المستمع من علامات الملل وقلة المبالاة والضيق ، والأغلب أن أقل هذه العلامات لن تخفى علينا إن نحن تحدثنا عن أنفسنا ونحن شاعرون بما نفعل . وسيتجلى لنا سريعا أن التحدث عن توافه الأمور وما ألفه الناس وتكرر وقوعه يبعث السأم فى النفوس فى حين أننا نظفر بإصغائهم لو أعانتنا فى الحديث تجارب مشوقة ، أو مواقف دالة على ذكائنا وحسن تصرفنا ، أو قيامنا بعمل جديد — والخلاصة أنه سيتبين لنا جليا أننا قد نغنم كثيراً لو عملنا على تزويد أنفسنا بثروة من التجارب والمغامرات ، وكنا فى تصريف حياتنا اليومية أكثر ذكاء وفهما .

الثامن : ضع خطة لساعتين من يومك والتزمها ، فترسم لنفسك فيهما مثلا برنامجا تتدرج فيه من قراءة المجلات إلى الرد على ما وصلك من رسائل ، وأخيراً إلى قراءة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كتاب معيّن . على أن يكون انتقالك من خطوة إلى خطوة فى تمام الوقت المحدد لها — لا قبل ولا بعد . فإذا لحقك الموعد وأنت مستغرق فى قراءة المجلة ، فهذا أمر قد يثير أسفك ، ولكن لا مفر لك من أن تتركها لتنتقل إلى الخطوة التالية ، وهكذا .

والغرض من هذا التمرين هو إظهار سوء تقديرنا لما يلزمنا من الوقت لإنجاز عمل معين ، فنحن نقرر — بغير اكتراث — أن نفرغ ساعتين بعد الغداء للقيام بعمل يحتاج فى الواقع إلى النهار بأكمله .

ومن الميسور أن نتعلم كيف نحسن استعمال الوقت إذا وضعنا فى مبدأ الأمر برنامجاً لساعتين من نهارنا ، ثم لثلاث ساعات ، ثم لأربع ، وهكذا حتى نصل إلى ثمانى ساعات ، يتمثل فيها الوقت الذى يجب أن نعمل ونحيي فيه خير حياة .

ووضع برنامج ثابت لا نحيد عنه لليوم كله ليس من المستطاع دائماً ولا هو من المرغوب فيه ، ولكن وضع خطة ليومنا ، والتزامها بين الحين والحين ، ينبهنا إلى قيمة الوقت ، ويعلمنا أننا نستطيع إنجاز ما نرجوه من العمل إذا نحن لم نضع وقتنا سرفاً .

التاسع : (وهو أشق التمرينات كلها ، وسيرى الكثيرون من القراء أن ما يطلب منهم هو من باب التعسف فحسب ، فلا يقدمون على أداء هذا التمرين . نعم ، هو من باب التعسف فحسب ، بل إن التعسف هو قوام هذا التمرين) . دبر لنفسك مواقف لم تألفها ، وروض نفسك عليها ، فليس من السهل أن نتخلص من جمود الحياة . ولكن المرونة شرط له من الخطر ما يجعله لازماً لحياتنا كل اللزوم . وقد يبدو لك أن المطالب التالية عبث وسخف ، ولكن ثق أن نتيجتها ستثبت لك قيمة هذا التمرين .

اكتب على قصاصات من الورق — وتكفى اثنتا عشرة قصاصة فى مبدأ الأمر — تعليمات من القبيل الآتى :

قم برحلة تقطع فيها عشرين ميلا مستعيناً بوسائل الانتقال المألوفة كقطر السكك الحديدية والترام . . . »

« صم عن الأكل ١٢ ساعة » .

« كل مرة فى مطعم لم يكن يخطر ببالك من قبل أن تقصده » .

« لا تتكلم طول يومك إلا رداً على سؤال » .

« اسهر الليل كله مقبلا على عملك » .

والمطلب الأخير هو أهم هذه المطالب كلها ، إذ يجب أن تهيء نفسك للعمل بثبات وبهدوء ، وتغالب كل ميل للاضطجاع ولو قليلا ، ولكن لك أن تسترخى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مقعدك كل ساعة أو نحوها ، ثم انشط إلى العمل من جديد إذا شعرت بأن الراحة قد تمادت بك فانقلبت كسلا . والساهرون بالليل فى عملهم هم وحدهم الذين يدركون ما فى عقولنا من كنوز مخبأة لم نبحث عنها من قبل . فقد اعتدنا أن نستسلم للتعب إذا هاجمنا أول مرة ، وأن لا نظل ساهرين إلا إذا وجدنا أمامنا ما يسلينا . اطو هذه القصاصات فى اثنتى عشر طرفاً ، واخلطها بعضها ببعض ، وضعها فى درج مكتبك . وعليك فى كل أسبوع مرة ، أو فى يوم معين من كل شهر ، أن تأخذ قصاصة وتفتحها ثم تقرأها وتنفذ ما فيها .

وقد يكون المطر منهمراً من مثل أفواه القرب ، أو تكون الشمس محرقة والرياح سموماً ، وأنت تجد فى القصاصة أمراً بأن تقطع مسافة عشرين ميلا . فيجب أن تطيع اللهم إلا إذا كنت مريضاً لا تقوى على الخروج . وكلما سارعت إلى أخذ نفسك بالحزم والعسف ، قويت إرادتك وصلب عودك . وشتان بين ما ننصح به لك هنا ، وبين ما نحذرك منه ، ألا وهو أن تنقلب رجلا قلقاً عنيداً يركب رأسه كل مركب .

ولك أن تضيف إلى هذه القصاصات أوامر بأعمال تشعر فى نفسك أنها تشق عليك ، وتعتقد فى الوقت ذاته أنه من الخير لك أن تقوم بها . وأنا أعرف شاباً يشكو الخجل والحياء قد راض نفسه على أن يبدأ الحديث يوميا مع ثلاثة من الغرباء . وليكن حكمك فى اختيار ما تريده من الأوامر ، أن تكون مقومة للاعوجاج ، وأن يكون مما لم تقم به من قبل ، لتهز مألوف حياتك هزاً .

العاشر : تخيرلك ، بين الحين والحين ، يوماً تقول فيه « نعم » إجابة لكل طلب تراه معقولا . وتزيد فائدة هذا التمرين بازدياد ميلك إلى العزلة عن المجتمعات ، إذ ستجد أناساً يدعونك إلى حفلة شاى ، وأناساً يدعونك إلى تغيير صناعتك أو عملك . أما الدعوة إلى حفلة الشاى فلا بد من قبولها مهما كرهت مخالطة الغرباء ، وأما تغيير الصناعة أو العمل فأمر لا يضيرك أن تبحثه وحدك على مهل ، فإنك لن تسترشد فيما تعزم عليه إلا بوحى العقل وحده. فإذا دعيت للشاى فاذهب ولا تخف ، فلن تأكلك السباع ذلك اليوم ، بل ستخرج بنتائج عظيمة الأثر ، فيها تهذيب لك أحياناً ، وفيها أكبر النفع أحياناً أخرى .

وفى أول مرة أديت فيها هذا التمرين سئلت أن ألقى فى إحدى كليات الآداب درساً عن الفن القصصى ، ولم يكن قد

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

سبق لى من قبل أن تلقيت مثل هذا الطلب . ومع كرهى للتدريس ، واعتقادى أن الفن القصصى موهبة لا تستفاد من معلم ، فقد قبلت ، تنفيذاً للتمرين . واستمعت إلى الأسئلة التى وجهها التلاميذ إلىّ ، فأدركت أن ما بين أيديهم من الكتب لا يجيب على تلك الأسئلة التى حيرتهم ، فاعتزمت أن أضع كتاباً يجدون فيه بغيتهم . أما الكتاب الذى تقرأون خلاصته اليوم فهو أيضاً نتيجة لقولى « نعم » فى يوم التزمت فيه أن أقولها .

فقد دعيت إلى إلقاء المحاضرة وأنا لا أجد فى وقتى فراغا يتسع لها ، وربما كنت رفضتها لولا تعليمات هذا التمرين .

ولا يفيد هذا أن كل يوم من هذا القبيل كان له من الأثر البالغ ما تركه يومى الذى ذكرته ، وإن كنت أقر بأن أيامى كلها ممتعة ، وهذا حسبها .

ولكن إياك أن تتسرع وتستخلص من ذلك أنه ما دام قد أثمر يوم من هذا القبيل هذه الثمرة ، فخليق بكل يوم أن يأتى بمثلها ، إذ أن الواقع على عكس ذلك ، فيجب — بين الحين والحين — أن تكف عن الجرى وراء هذه الدعوات . وأجدر الناس بالاستماع لتلك النصيحة هم الذين لا ينفكون عن التردد على حفلات الشاى والمسارح والسينما ، إذ يجب على أمثال هؤلاء أن يتعلموا رفض الكثير من هذه الدعوات ليفرغوا إلى تهذيب أنفسهم .

إذا راقتك هذه التمرينات فستجدها نافعة ومسلية معاً ، كبعض الألعاب التى تنازل فيها لاعبا آخر ، فإن هذه التمرينات التى تقتضيك حشد كل مقدرتك للتغلب على نفسك ، إنما تختار لك منازلا هو أمكر ممن تلاعبهم وأوسع حيلة . فإذا انتصرت عليه بذكائك حق لك أن تزهى بانتصارك وتطمئن إلى مقدرتك . وأخيراً ، فإنك تستطيع إذا مضيت فى هذه التمرينات أن تستعين ماشئت بكل مقدرة ذهنية تكون قد ظهرت أو نمت بفضل هذه التمرينات ، وستجدها تلبيك غير مبطئة .

لقد أردنا أن نتدبر فن النجاح وأصوله فى هذه الصفحات ، فذهب أكثرها من تحليل وتفصيل ، قد يخيل منها للقارىء أنه مدفوع به فى طريق طويل يقطعه بخطى متثاقلة . والحقيقة أن النجاح يسير بخطى أكثر سرعة ويسراً ومضاء — ولا يستطيع أى كتاب أن يظهرها بالتحليل ، فإن التوفيق فى العمل يبعث فى النفس إحساساً له لذة وبهجة . وقد قال حديثاً أحد نبغاء المصورين لبعض أصدقائه :

« إذا رأيتنى أعمل وأنا مسرع علمت

أنني على هدى . فإذا تراخت يدى وتباطأت ، أدركت أنني انحرفت عن الغاية ، وأنني لا أجيد رؤية ما أريد رسمه . فإذا رأيتني على هدى كان عملي هيناً كأنما هو لعب » .

هذا ، ومع أن العمل الذي يرمى إلى هدف قد يبدو لك أسرع وأمتع من سواه ، فلربما كنت تعمله في الحقيقة بحركة أبطأ وعناية أشد مما ألفت واعتدت . فالمهم أن لا تخفى عليك الأغراض والعواقب ، وأن لا ينصرف جزء من ذهنك في اللهو والعبث وأنت مقبل على عملك ، فهذه الصفات وحدها هي التي تنظم خطى السير في طريق النجاح .

والرغبة في الوصول إلى القصد والسداد في العمل ، هي التي تدفعنا إلى أن نتدرب على ضبط النفس . والكياسة ، والمياسرة ، وأن نتعلم كيف نحيد بالمخيلة عن الخوف ونرمى بها في طريق مبارك ، وأن نعتزم التصرف بحكمة في الصغير من الشؤون ، لنجد في أنفسنا ماينبغي من الشجاعة لمواجهة عظائم الأمور . والشجاعة شرط لا يتم بدونه النجاح .

ولن ندرك غاية جهدنا إلا إذا كنا نعمل بعزم الواثق بالنجاح ، المؤمن بأن الإخفاق مستحيل . وسيجد كل رجل سليم العقل أن « النجاح » و « إتقان العمل » اسمان على مسمى واحد .

اعمــل لدنياك كأنك تعيش أبداً
واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً

[على بن أبي طالب]

****

احتمال

سألت مقاتلا في إجازة ، رأيه في سر قوة الجيش الأمريكي .

فقال : « التفاؤل . . . وإليك ما يحدث : يطلب الكابتن مئة متطوع . فنتطوع . ثم يقول : « من واجبي أن أحذركم أنه يحتمل أن يقتل تسعة وتسعون منكم » . ويمر دقيقة نشعر خلالها بشيء من الرهبــة ، ثم يتنفس الصعداء كل واحد من هؤلاء المئة ، ويلتفت حواليــه ، ويقول في ذات نفسه : « ليحزنني فقد الإخوان » .

[رتشرد كنى]

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

باب الكتب

أنة وملك سيام

ملخص كتاب : مرجريت لاندون

[« أنة وملك سيام » قصة حقيقية ، وإن كانت أغرب جداً من أشد الروايات إيغالا فى الخيال . وهى مبنية على مذكرات صحيحة عن مغامرات سيدة إنجليزية فى بلاط عاهل من آخر الحكام بأمرهم فى الشرق .

وقد قال جون تشمبرلن فى وصفها فى جريدة نيويورك تايمز : « إنها قصة ساحرة . ومن أعجب ما كتب عن أشد القرون رومنطيقية — القرن التاسع عشر »] .

في أصيل يوم من سـنة ١٨٦٢ كانت باخرة من سنغافورة تدخل فى بطء وحذر فى نهر تشورفيا مصعدة إلى بانجكوك عاصمة سيام .

وكانت سيدة إنجليزية تعتمد على الحاجز ، ومعها ابنها الصغير وهو فى السادسة أو نحوها ، وكان ثوبها الأزرق ذا زيق عال أنيق وكمين طويلين إلى الرسغين ، وهى هيفاء القوام رشيقته ، وكان النسيم يعبث بذلاذل ثوبها الفضفاض وهى واقفة هناك ، ولم يكن فيها ما يشى بالقلق سـوى عينيها الدعجاوين وقد شخصت بهما إلى الساحل .

وألقت الباخرة مراسيها على مقربة من جدار طويل أبيض ، تبـدو من ورائه مشرفة عليها فى شىء من الغموض طبقة فوق طبقة من سقوف القصر الملكي . فجعلت السيدة الإنجليزية تنظر إليها مستغرقة الذهن ، ذاهلة عن الأطواف والزوارق والسفن التى غص بها النهر .

وإذا بجندول طويل يخرج مؤتلقاً من الظلال المتكاثفة منحوت كالتنين ، ومشاعله تنعكس أضـواؤها فى حيث تضرب الماء صـفوف المجاديف المبتلة ، وصعد منه موظف إلى الباخرة ، وكان يلف على بدنه ملحفة من حرير أرجوانى نفيس لا تبلغ ساقيه ، ولا يلبس سترة أو معطفاً ، وكان جسمه الأسمر يلمع تحت ضـوء المشاعل ، وخلفه اثنى عشر من الأتبـاع انبطحوا على الأرض كالضفادع وثنوا أذرعهم وأرجلهم تحتهم . وكأنما أعطيت إشارة ، فخر كل أسيوى كان على السفينة — من الحمالين وغيرهم — على وجهه .

وتقدم ربان الباخرة :

« هل تسمحين لى يا مسز ليونوونز أن أقدم إليك صاحب السعادة شاو ــ فيا ــ سرى ــ سورياونج رئيس الوزارة فى مملكة سـيام ؟ ويا صاحب السعادة هذه هى المسز ليونوونز » .

فانحنت السيدة الإنجليزية قليلا ، واضطرب ضوء المشاعل على وجه رئيس الوزارة الذى كان كأنه مصبوب فى قالب . ومع أنه كان نصف عار ، ولا شىء يرمز إلى رتبته ومقامه إلا أنها أدركت أن هذا الشريف السيامى يتقاضاك الاحترام . وأشار إلى شاب من أتباعه فزحف إليه كما يزحف الكلب ويدنو من سـيده المغضب ، وتلا ذلك لفظ سريع بمقاطع ألفاظ غير مفهومة ، والتفت التابع إلى أنّة ليونوونز وقال لها بالإنجليزية :

« هل أنت السيدة التى ستـعلم الأسرة الملـكية ؟ » .

فحنت رأسها قليلا وقالت : « نعم » .

« هل لك أصدقاء فى بانجكوك ؟ » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« لا أعرف أحداً فى بانجلوك » .

ودار كلام سريع مرة أخرى باللغة السيامية ، ولم تكن السيدة الإنجليزية تدرى أن ذا العينين السوداوين المتكبرتين ، الذى كان يحدّ إليها النظر، كان يفهم ما قالت تماما.

وعاد المترجم يقول :

« وماذا تراك صانعة ؟ أين تبيتين الليلة ؟ » .

فقالت وجاهدت أن تحافظ على اتزان صوتها : « لا أدرى ، فإنى غريبة هنا . ولكنى فهمت من كتاب جلالته أن مسكناً سيهيؤ لي عند وصولى » .

فتأملها المترجم وسيده فى غير أدب ، وتكلم السيد وترجم المترجم : « إن جلالته لا يستطيع أن يتذكر كل شىء » . قال ذلك بلهجة من لا يكترث: « ولك أن تذهبي حيث تشاءين » .

ودار رئيس الوزارة وانحدر من حيث صعد يتبعه عبيده وخوله ، وغاب الجندول فى الظلام بمشاعله الخفاقه الضوء ومجاديفه الملتمعة .

وظلت أنّة لحظةواقفة تنظر وقد أذهلها ما استقبلت به من قلة المبالاة بمصيرها .

وكانت قبل نحو عام قد توفى زوجها فجأة ، وهو ضابط شاب فى الجيش البريطانى فى الشرق الأقصى ، وترك أنّة وطفليها الصغيرين بلا مال ، فحاولت زمناً أن تدير مدرسة لأبناء الضباط فى سنغافورة ، ولكن الأمر كان شاقاً ، فقد كان الضباط يبعثون بأبنائهم عن طيب خاطر إلى المدرسة ، ولكنهم كانوا كثيراً ما ينسون أن يدفعوا المصاريف . ولهذا ما كاد يعرض عليها الملك مونجوت ملك سيام ، بواسطة قنصله ، أن تتولى تعليم أبنائه حتى بادرت إلى القبول . ورتبت أمورها فأرسلت بنتها « أفيس » إلى إنجلترا مع أصدقاء لها ، لتتعلم فى مدرسة هناك ، واستصحبت هى ابنها لويس الصغير واثنين من خدم الأسرة فى رحلتها هذه .

وكانت قد حُذّرت مراراً من الذهاب إلى هذه البلاد — بلاد الظلمات والأسرار والرق والحريم والاسترابة العميقة الجذور بالأجانب . والآن وقد انقطع آخر صوت خافت لضرب المجاديف فى المركب الآتية ، ولم يعد يسمع فى الليل الساجى النسيم ، فقد شاع فى كيانها الخوف واستحوذ عليه . فياليتها أصغت إلى أصدقائها فى سنغافورة ! غير أنها تشددت وطردت مخاوفها . ومهما يكن ما يحدث فقد صممت على البقاء .

***

وكان فى بانجوك قنصل إنجليزى هو السير روبرت شومبرج ، ولكنه كان قد رحل عن المدينة حتى ينقضى موسم الحر

فهو لا يمكن أن يكون عوناً لها . غير أنه كان من حسن حظها أن ربان الباخرة استطاع أن يدلها على ملجأ وقتى عند مدير الميناء الإنجليزى ، الكبتن جون بوش ، فأنزلت حقائبها ، ورحبت بها المسز بوش ترحيباً جميلا على الرغم من تأخر الوقت .

ولكن أنّة لم تستطع أن تنام . وفى صباح اليوم التالى ، بعد ليلة قلقة لا راحة فيها ، التمست من مدير الميناء أن يشير عليها بما ينبغى أن تصنع .

فقال الكبتن بوش على سبيل الإيضاح « هذه سيام . وأهم شىء هنا هو أن تستطيعى الانتظار حتى يتاح لك ما تبغين . وقد أنفق الملك مالا على رحلتك ، فهو سيتقاضاك خدمته فى وقتها » .

والواقع أنه ما كاد طعام الإفطار ينتهى حتى أقبل رسول يدعو أنّة . وقال : إن رئيس الوزارة — أو كرالاهوم وهو لقبه فى بلاده — ينتظرها .

فربتت المسز بوش على كتف أنّة وقالت لها : « والآن لا تقلقى ، فسيكون كل شىء على ما يرام ، وما عليك إلا الصبر » .

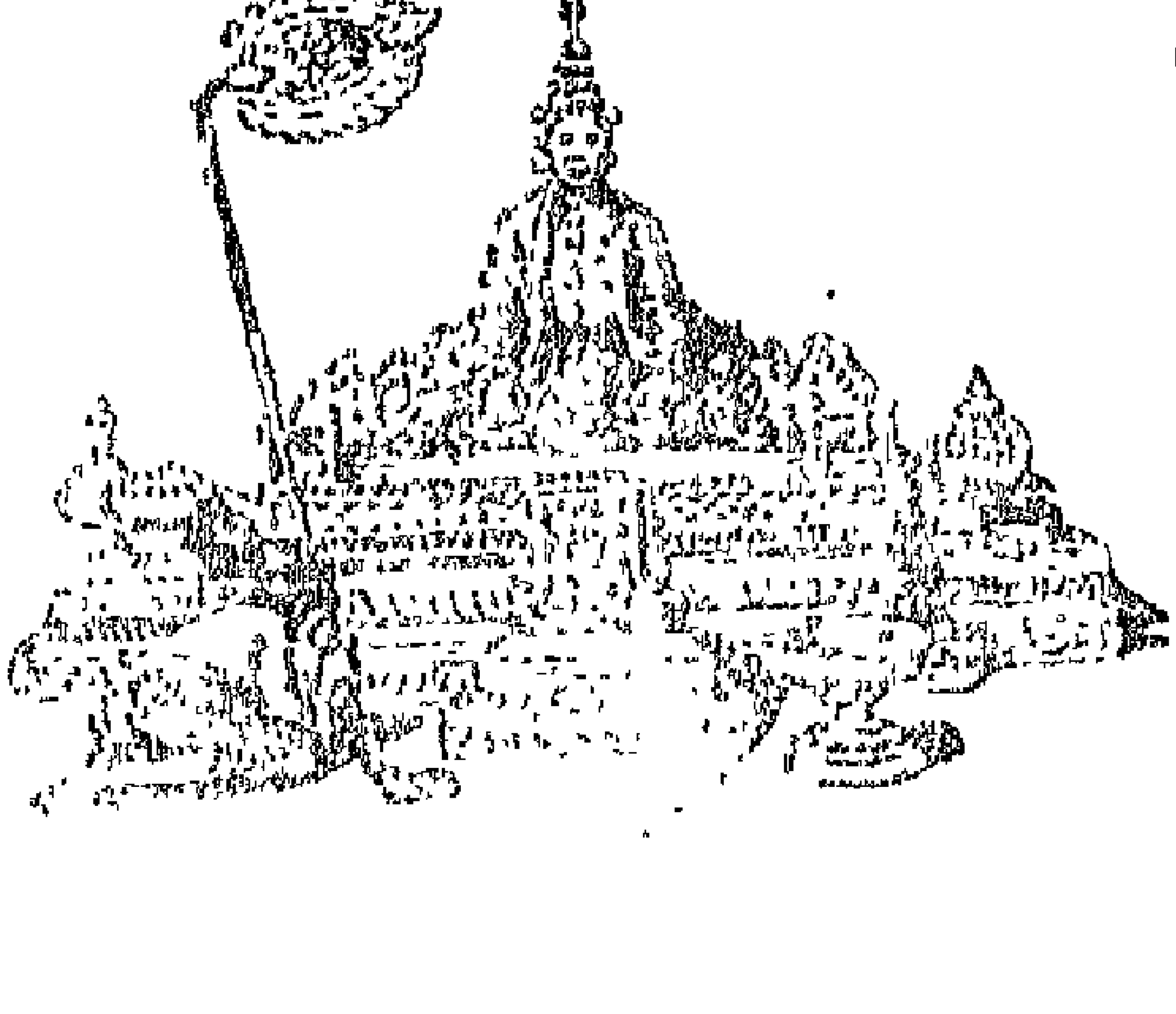

واستقبلهما الكرالاهوم فى قاعة الاستقبال بالقصر ، وهى حجرة عظيمة يصل إليها المرء من سلسلة من الحجرات تجودها ستور من البَزّ النفيس ، وتزينها شمعدانات من البللور ، وقد شاع فيها أرج يفوح من شتى الأزهار ويأخذ بالكظم قليلا . ولمحت أنّة وهى تدخل عدداً من الفتيات ينظر إليها وإلى ابنها من وراء الأستار المخملية المسدلة من السقف إلى الأرض . وكان رهط كبير من الأتباع من الذكور جاثين فى غرفة الانتظار ، بعضهم فى ثياب الخدم أو الأرقاء الزرية ، وبعضهم فى هندام جميل وكأنهم من أقرباء الكرالاهوم الشبان . وأحست أنّة بالهمس الخافت من الاهتمام المكبوح ، والعيون السود المتطلعة ، فوقفت هى ولويس فى الوسط مترددة متوجسة .

وانفرجت الأستار فجأة وظهر الكرالاهوم ، وكان نصف عار كما كان فى الليلة السابقة ، فوقع فى نفس أنّة ، بفضل حاسة سادسة أفادتها من السنين الطويلة التى قضتها فى الشرق ، أن هذا يشعر بقلة الاحترام لها وللمنصب الذى ستشغله ، ولكن سلوكه لم يكن غير ودى ، فبسط لها يده وقال لها

بالإنجليزية : « اجلسى يا سيدى » .

فصافحت اليد الممدودة ولم يسعها إلا أن تبتسم لقوله « سيدى » ، وصرفتها غرابة اللفظ وعدم موافقته لمقتضى الحال عن مخاوفها ، وردت إلى خواطرها مقداراً من الاتزان ، فقررت أن تدخل فى الموضوع على الفور ، والتفتت إلى المترجم الذى كان جاثماً إلى جانبها على الأرض وقالت :

« هل لك أن تسأل سيدك أن يتفضل فيرفع إلى جلالة الملك رجائى أن يعطينى منزلا هادئاً أو شقة بأسرع ما يستطاع ؟ لقد وعدنى الملك فى كتابه بمسكن قريب من القصر » .

فسرعان ما تغير مسلك الكرالاهوم ، وخاطبها مباشرة فسأل : « متزوجة ؟ »

« زوجى مات »

« إذن أين تراك ستذهبين فى المساء ؟ » .

فأجابته بلهجة الإيجاز الحاد، وقد وخزها ماينطوى عليه سؤاله من التلميح : « لا إلى أى مكان يا صاحب السعادة ، وما أبغى إلا أن يكون لى ولابنى مكان أخلو فيه بنفسى وأرتاح بعد أن أؤدى واجباتى » . والتفتت إلى المترجم وقالت : «قل لسيدك إنه ليس له ما يخوله أن يستطلع شئونى الخاصة ، فإن علاقته بى لا تتجاوز عملى كمعلمة ليس إلا ، وأنا أرفض الحديث فى كل موضوع آخر »

وما كادت تقول ذلك حتى شكت فى حكمة هذه اللطمة الحادة ، وكان رد الفعل الطبيعى قد أنساها لحظة ما تعرفه من أن الشرقيين يفتتحون الحديث عادة بسلسلة من الأسئلة الشخصية ، وأن مابدا لها من سوء أدب الكرالاهوم لعله ليس أكثر من مظهر لرغبته فى التظرف بالحديث . على أنه كان من المهم لها أن تقرر على الفور حقها فى الاحترام ، وفى حريتها فى شئونها الخاصة . فهز الكرالاهوم كتفيه هزة خفيفة وقال بفتور: « كما تشائين » ثم انحنى لها ، ودار فاختفى وراء مرآة .

وما كاد الكرالاهوم ينصرف حتى ترك المترجم مجثمه ونهض ، ودنا فى جرأة من السيدة الإنجليزية .

وقال : « صباح الخير » .

فأجابته بفتور : « صباح الخير . كنت أظنك خادماً » .

فاعتدل فى وقفته كالمستاء وقال: «أنا أخو الكرالاهوم من أبيه . تفضلى من هنا ، فقد أعدت لك غرفك » .

وكان المسكن مؤثثاً تأثيثاً مريحاً على الطريقة الأوربية ، ويفتح على ساحة هادئة تظللها أشجار فاكهة منوّرة ، وتطل على بركة مصنوعة حافلة بالأسماك الملونة . وبعد قليل ، جىء بالغداء ووضعه على المائدة خدم

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

صغار ، وكان الطعام خليطاً من آكال أوربية أعدت لها ، ومن الكرى والمتبلات وهى سيامية لا خفاء بها ، وتراجع الخدم الصغار إلى الأرائك ليضطجعوا ويرقبوا باهتمام أنّة ولويس وهما يأكلان .

وكانت حقائبهما قد جئ بها من الباخرة ، وكانت أنّة لا تزال مشغولة بإفراغ مافيها فى اليوم التالى حين زارها المستر روبرت هنتر ، سكرتير القنصل البريطانى ، فالتمست أنّة معونته على مقابلة الملك .

فوعد السكرتير أن يبذل ما يسعه ، ولكنه أنذرها أن الأمر قد يستغرق عدة أسابيع . وقال لها ، على سبيل الإيضاح ، إن جلالته مشغول بالاحتفال الذى يتبوأ بمقتضاه أكبر بنيه — البرنس شولا لو نجكورن — منصبه الرسمى ، ويصبح فعلا ولى العهد . فسألته أنّة : « أتراه سيكون من تلاميذى ؟ » .

فقال المستر هنتر : « أظن ذلك » .

فأحست أنّة للمرة الأولى منذ وصولها بما يشجعها . ولم تكن موافقتها على المجئ إلى سيام من إملاء الحاجة وحدها إلى العمل ، فقد شعرت بأن هناك قدراً يحدوها . وكانت الحركة التى قامت فى الولايات المتحدة لتحرير الأرقاء قد حركت فى نفسها وتراً من العطف ، وعسى أن تكون الفرصة التى أتيحت لها للتعلم فى « حريم » الملك معناها أنها تستطيع أن تبث فى تلاميذها شعورها الخاص العميق بقداسة النفس الإنسانية ، والشر الذى ينطوى عليه أى نظام ينتهك حرمتها ، بأن يسمح لشخص بأن يملك شخصاً آخر . فإذا كان ولى العهد من بين تلاميذها ، فإن لها أن تأمل على الأقل أن تصوغه قليلا .

وبينما كانت المفاوضات دائرة عكفت أنّة على درس اللغة والحياة حولها ، وكان مسكنها يتعرض كل يوم أو نحو ذلك لغارة صاخبة من السيدات اللواتى فى « حريم » الكرالاهوم ، وكن يقبلن عليها كأنهن الجراد ، وقلما كن ينصرفن بغير غنيمة من التوافه التى يطلبنها أو يأخذنها .

ولم يكنّ ، حتى فى نظر هذه الإنجليزية المدققة ، غير فاتنات ، وإذا أغضينا عن شعرهن المجزوز ، وأسنانهن السود من جراء مداومتهن على مضغ رؤوس الفلفل ، فإن كثيرات منهن يرتضيهن الرأى الغربى فى الجمال بوجوههن السمر الصافية ، وعيونهن اللوزية السود .

وكان أصعب ما تعانيه أنّة هو أن تشرح لهن سبب وجودها فى سيام ، فقد كانت هناك ، فضلا عن بنات الأسر السيامية الطيبة ، كثيرات من الفتيات الصينيات والهنديات

يشتريهن السماسرة كل عام لحريم الملك . وكان معروفاً أيضا بأن هنالك أمراً رهن التنفيذ باجتلاب : « إنجليزية ذات جمال وأرومة كريمة » ، فكان يبدو لهن مما لا يصدق أن أنّة إنما جاءت لتعلم أطفال الأسرة الملكية فحسب، لا لتدخل في الحريم.

على أن رئيسة الزوجات وهى فى الأربعين من العمر ، كانت متوقدة الذكاء وكانت تدعو أنّة أحياناً إلى زيارة بيتها الجميل فى جناح النساء من القصر . وكان يعيش حول القصر وفيه أكثر من ألف من أتباع الملك، وثم أيضاً عدة مئات من الأرقاء يحتاجون إلى التعهد والنظر ، وكانت هذه المدينة المصغرة مسئولة من الزوجة .

وكانت أنّة تزداد كل يوم إعجابا بها ، فقد كانت رقيقة إلا أنها فى منتهى الكفاية ، شارت الأمور فى هذه المؤسسة الكبيرة بمثل الهدوء الذى تميزت به سيدتها. وتأثرت أنّة على وجه الخصوص بعطفها الذى لا يفتر على الصغيرات فى حريم زوجها ، وكانت تحيا بينهن سعيدة كأنهن بناتها ، وتشاطرهن نجواهن ، وتسرّى عنهن شجونهن ، وتنصرهن أمام الكرالاهوم .

وتقرر أخيراً أن يتولى الكبتن جون بوش مدير الميناء تقديم أنّة فى بلاط الملك . وتهيأت أنّة لهذه المقابلة بشيء من الخوف ، وكانت قد بدأت تعرف شيئاً عن هذا الملك العجيب الذى يسميه رعاياه «ملك الحياة» . وقد تبوأ العرش بعد ثلاثين عاماً قضاها فى الكهنوت ، وفى هذه المدة عكف على درس العلوم الغربية ، فالآن اقترن ما حصله من العلوم الناهضة بالاستبداد التقليدى القائم على الهوى والقسوة .

وكان القصر الملكى على الضفة الأخرى من النهر فى مقابل قصر الكرالاهوم . وكان النهر ، كما هو دائماً ، يعج بالحركة ، وكان نفر من القساوسة يستحم فى النهر ، وكان قساوسة آخرون واقفين على الساحل فى أكسية صفر مبللة ، يعصرون أردية فرغوا من غسلها ، وكان هناك فتيات رشيقات تعتدل على رءوسهن جرات الماء ، يسرن فى الطريق على حافة الرصيف ، على حين كان غيرهن يحملن حزماً من الدريس أو سلالا من الفاكهة ، وكان الأشراف فى محفات مذهبة يحملها العبدان المتصببون عرقاً على ظهورهم ، يسرعون إلى المقابلة الملكية قبيل الغروب . ولمحت أنّة ، من بعيد ، لفيفاً من الجنود الرامحين وأسنة حرابهم الطويلة تلمع فى ضوء الشمس .

وخرج الكبتن بوش وأنة ولويس عند رصيف القصر من الزورق ، وساروا فى ممر مغطى أدى بهم إلى طربة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

نظيف مرصوف بالآجر ، نأى بهم عن النهر وأفضى بهم إلى شـارع ضيق على جانبيـه جدران عالية مبنية بالقرميد . وكان الكبتن بوش يريها المعالم المشهورة — معبد وات بو وتمثاله الضخم المشهور وهو عبارة عن تمثال لبوذا متكئاً ،وطوله ١٥٠ قدم وارتفاعه ٤٠ قدماً ، تكسوه طبقة من رقائق الذهب — ووات فراكانو و معبد بوذا الزمردى ، وهو أعجب الهياكل الفخمة فى سيام ، ومعبد الملك الخاص .

ودخلوا قاعة الاستقبال بالقصر ،وكان فيها فيض من نور الأصيل يخلص من نوافذ عالية متوجة ، ويسطع على رهط من الأشراف يرتدون ثياباً من حرير ألوانه شتى وموشى بالذهب ، وكانوا جميعاً منكبين على الأرض فوق مرافقهم وركبهم ورءوسهم محنية ، فى اتجاه العرش الذهبي فى آخر القاعة ، وعليه كان يجلس الملك ، وهو معتـدل الطول هزيل الجسم ، وعليه ثياب من ذهب ، وكان متربعاً لا يتحرك ،فكأنما نحت هو والعرش المتألق من قطعة واحدة .

ورآهم الملك ساعة دخلـوا ، فوثب إلى قدميه وتقـدم بسرعة نحوهما فى القاعة ، وكانت قدماه فى نعلين من ذهب لساناهما ينثنيان إلى فوق ، وعليهما درر صغار ينبعث منها بريق يسير إذ يمشى .

فلما بلغهم جثا الكبتن بوش على ركبتيه كغيره من رجال البلاط ، وقام بواجب التقديم : « يا صاحب الجلالة ، هذه هى المعلمة الإنجليزية الجـديدة ، المسز أنة هريييت ليونوونز وابنها لويس » .

فانحنت أنــة انحناء شديداً ثم حافظت على قـدر ما تستطيع على وضعها وهى مثنية الركبتين على هيئة ضفدعية،قالوا إنها تكون مقبولة . وإذا بالملك يمد ذراعيـه فجأة إلى آخر مداهما ،ويشير إلى أنفها وسألها بصوت عال : « كم عمرك ؟ » .

فكان السؤال غير المنتظر مفاجأة تامة لأنـة،على أن عقلها دار عدة دورات سريعة وقد واجهت احتمال التنقيب فى حياتها الخاصة على مسمع من مئات من الرجال الراكعين .

وأجابته بهدوء ورصانة: « مائةوخمسون سنة يامولاى » .

فرشق الملك محياها بنظرة فاحصة من عينيه السوداوين كأنهما خرزتان ، ثم التمعتا بالفهم السريع .

وسألها بحدة: « إذن فى أى سنةولدت؟ »

فقامت بسرعة بحساب عقـلى وردت برزانة : « فى سنة ١٧١٢ يا صاحب الجلالة » وكان هذا أشبه بلعب الأطفال .

ومن المدهش أن الملك لم يغضبه منها اجتراؤها على الهرب من سؤاله ، بل انطلق

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يضحك جذلا . وبعد أن وجه كلمات سريعة إلى أقرب رجال الحاشية الذين ابتسموا للسجادة تحت أنوفهم، تناول يد أنة وجرّها بسرعة فى قاعة العرش إلى باب عليه سجف فى آخرها ، وكان لويس يتعلق بثوبها ولا يدعه ، فمضوا بهذه السرعة التى لاوقار فيها يجتازون ممرات مغطاة متعاقبة تجثو فيها قهرمانات متغضنات الوجوه دميمات ، وقليل من الشواب . وكن يغطين وجوههن تأدبا وحياء بالنصيف ، كأن شمس الملك تبهر عيونهن الآدمية . ولما انبهرت أنفاس أنة ولويس ، وقف الملك أخيراً أمام باب من سلسلة الأبواب المستورة ، ونحى السجف المخملية .

فإذا هنالك على الأرض امرأة راكعة ، وكان وجهها مغطى بنصيفها كغيرها من النسوة التى كن فى الممرات ، وكان جسمها صغيراً وممشوقاً كأنه تمثال صغير من صنعة درسدن ، فنحى الملك الحرير المطوى الذى سترت به محياها ، وكانت معارف وجهها من الرقة والجمال كقوامها .

وقال الملك : «هذه إحدى زوجاتى . وإنه لمن بواعث سرورنا أن تتعلم الإنجليزية تعلما كليا » .

واستولى شىء من هذه الشابة على قلب أنة ، وألقت الفتاة إلى أنّة نظرة فيها من السرور الصادق ما جعل أنة تحس لها حين انصرفت بمزيج من المحبة والمرثية . ولشد ما يستثير النفس أن تكون رغبات الإنسان البريئة رهناً بأهواء هذا الملك الذى يشبه الصرصور الذابل ! وتبدى القصر فجأة فى نظر أنّة — بما فيه من مرمر وذهب وأنسجة ثمينة وجواهر وجدران متألقة — كأنه غاص بأشباح الاسترقاق والظلم .

وبينما كان الملك يرتد بها من الممرات إلى القاعة الكبرى ، خرج عشرات من الأطفال من جوانب القصر ، فخاطبهم الملك بلطف ورقة ، ولكن لويس كان هو الذى اجتذبهم فانقضوا عليه وحفوا به يلغطون ويضحكون ويصيحون ، وكان ينفر خجلا إذ يمدون أيديهم للمسه ، فلا يزدادون إلا شداً عليه ودنواً منه ، وتحسسوا ثيابه وشعره وجلده وحذائيه ويديه البيضاوين العجيبتين .

وقال الملك مزهوا وقد بلغوا القاعة ونجا لويس أخيرا : « إن لى ٦٧ من البنين ، وستربينهم لى ، وتعلمين من زوجاتى أيضاً كل من ترغب أن تتعلم الإنجليزية ، ولا بد أن تساعدينى كذلك فى مكاتباتى الكثيرة »

فراعت أنة هذه الكثرة فى واجباتها ، ولكنها رأت أن الأصوب أن ترجىء إلى المستقبل أى اعتراض .

وصرفها من المجلس بإشارة من يده وبقوله : « سأرسل إليك فيما بعد » .

فانحنت أنـّة، وحتى لويس استطاع أن يهز رأسه، ثم انصرفا مع الكبتن بوش. وما لبثوا أن خرجوا إلى الهواء الطلق، فتنفست أنـّة تنفساً عميقاً . وكان الملك قد بدأ رقيقاً راضياً ، ومن المحقق أنه لم تكن تنقصه روح الفكاهة ، ولكنه رجل غريب ، ومن الجلى أنه استبدادى النزعة، وحوّل قلب لا سبيل إلى التكهن بما يغريه به مزاجه .

* * *

وبعد شهور من التأخير ، عين أخيراً يوم رأى منجمو البلاط أنه موافق للافتتاح الرسمى للمدرسة . وفى أثناء ذلك كانت أنـّة قد عجزت عن احتمال الانتظار والقعود بلا عمل ، فأخذت تعلم الأطفال فى قصر الكرالاهوم . فتعجب رئيس الوزارة لجدها وحبها للعمل .

وقال على سبيل البيان : « إن السيدة السيامية لا تحب العمل ، وإنما تحب اللعب والنوم » .

وكان المقرر أن تعقد المدرسة الجديدة فى بناء كبير قائم فى بستان من أشجار البرتقال والنخيل . فلما وافت الساعة المعينة تناولت أنـّة يد لويس ودخلت وبها شىء من التردد، فما كانت تدرى ماذا يحق لها أن تتوقع ؟ وكان هناك تمثال كبير من ذهب لبوذا يشرف على القاعة العظيمة، وقد وضعت فى وسطها على الأرضية المرصوفة بالفسيفساء ، منضدة طويلة جميلة الصنع ، وبضعة كراسى مذهبة . وحضر الملك وأكثر سيدات البلاط من الأشراف، وبعض الكهنة .

واستقبل الملك أنـّة ولويس بلطف وعطف ، وأشار إلى مقعدين أعدا لهما من قبل . وأمر الملك فظهر بعض الجوارى يزحفن بحذق فوق الأرض ومعهن صناديق فيها ألواح الإردواز والأقلام المختلفة والحبر، وكتاب وبستر الأزرق الجلدة المشهور ، للتهجى والمطالعة ، ووضعن ذلك كله على المنضدة الطويلة . ثم أمر الملك مرة أخرى فأنشد الكهنة ترتيلا .

وأخيراً هفت أصوات الموسيقى من فرقة غير مرئية ، فكان ذلك إيذاناً بدخول الأمراء والأميرات الذين سيتتلمذون على أنـّة وتقدموا واحداً واحداً بحسب أسنانهم ، وكان الملك يمسك كلا منهم برفق ويقدمه إلى أنـّة .

وانتهى الاحتفال . فوجه الملك كلمة قصيرة إلى الأطفال ، ثم انصرف ووراءه الكهنة . وبعد

لحظات أقبل بعض الأرقاء وحملوا الأمراء ومضوا بهم . وقد أدهش أنّة ، أن الأمر لم يقتصر على حمل الأطفال الصغار ، فقد تجاوزه إلى الكبار من الصبية والبنات ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ، وكأنهم لم يألفوا المشى حتى ولا مسافات قصيرة ، فكان النسوة يحملنهم على أذرعهن فهن لهم جوار ومركبات آدمية ، ولا يبدو عليهن أن فى الأمر مشقة ، فكأنما يحملن أطفالا رضّعاً .

وبعد أسبوع من الافتتاح الرسمى بدأ العمل المدرسى الجدى ، وكان أصغر أبناء الملك فى الخامسة وأكبرهم فى العاشرة .

وسار الدرس على نهج منتظم إلى أن جيء بعدد من النساء الصغيرات ليتعلمن كالأطفال . وسرعان ما ظهر أن معلمتهن أهم لديهن من كتبهن ، فكن يلمسن شعرها وينزعن منه بعض الدبابيس ، ويتحسسن ثوبها ، وبخاصة زيق العنق والحزام ، ثم خواتمها . ثم جثت إحدى الجوارى أمام أنّة وجعلت تشير إلى أنفها الذى لا يشبه أنفها المبطط ، وكأنما كانت تريد أن تعرف هل استوى أنف أنّة وامتد لكثرة شده ؟ وهل ينبغى أن يشد كل صباح ليبقى هكذا ؟ وقد أدت هذه المقاطعة إلى تعذر العمل ، حتى دخلت قهرمانة صارمة من الشرفة الخارجية فأعاد وجهها المكفهرُ النظامَ على الفور .

وفى الأيام التالية تسلل بعض النساء وقد أضجرهن التعليم ، على أن كثيراً من أبناء الملك أظهرن ما يبشر بحسن التعلم ، ولاسيما البرنس شولا لونجكورن ولى العهد ، وهو غلام وسيم مؤدب فى العاشرة من عمره ، وكذلك أخته الصغيرة الأميرة شانتارا مونتون التى كان كل امرىء يسميها « فاهنج » أى الأميرة السماوية .

وكان علم الجغرافيا من البداية هو الذى كان أقوى استيلاء على هوى التلاميذ الملكيين وخيالهم .

وكانوا إلى الآن لم يروا سوى خريطة قديمة أعدها رئيس وزارة سابق كان أدرى بالسياسة منه برسم الخرائط ، وكان طولها خمس أقدام وعرضها ثلاث أقدام ، وفى وسطها رقعة حمراء مساحتها ٢٠ فى ١٢ بوصة ، وقد ألصق بها صورة إنسان بطولها ، وهى مصنوعة من ورق فضى . وكان هذا هو ملك سيام ، وقد وضع على رأسه تاج ضخم فيه عدة نقط ترمز إلى أملاكه الشاسعة . فلما أجاب الملك أنّة إلى ماطلبت ، وزودها بكرة كبيرة تمثل الأرض ، كان من العسير عليهم أن يروا أن سيام قد تقلصت حتى عادت مجرد نقطة على وجه الأرض .

وكان الشيء الوحيد الذى عزاهم هو أن

إنجلترا — موطن معلمتهم — كانت أصغر من ذلك .

ولما أخذ أفق الأطفال يرحب ، راحت أنّة تجد وتتصيد وتجلب إلى الفصل أى شئ غير مألوف قد يساعدهم على تكوين فكرة عن العالم الخارجى — قطعة من الفحم الحجرى يستطيعون أن يقارنوا بينها وبين فحم الخشب الذى يستعمله الأرقاء للطبخ ، وجزة خروف ، مع صور لدولاب غزل ومصنع حديث ، ونماذج من الغزل ونسيج الصوف .

واتفق يوما أن جلبت باخرة صندوق ثلج للملك من سنغافورة ، فحصلت أنّة على قطعة للدرس ، فجعل الأطفال يفحصون هذه المادة الجديدة باهتمام عظيم ، وانتشر خبرها فأقبل النسوة من « الحريم » على المدرسة وتزاحمن ليروها ، ولمسنها ، وتهاتفن إذ وجدنها باردة ، ثم راقبنها وهى تذوب وتعود ماءاً . ولما رأى الأطفال الثلج لم يجدوا مشقة فى تصديق أن الماء يتجمد فى بلاد من العالم باردة الجو ، حتى يصبح من المستطاع السير عليها ، ولكن لما استطردت أنّة وقالت إن المطر فى مثل هـذه البلاد يتجمد وهو يسقط ، وأنه يصير مادة بيضاء يسميها الناس « البرَد » ، ثار ثائر المدرسة كلها ، ولم تستعد حسن الرأى فيها وفى صدقها إلا بعد أن أقنعت الملك بأن يشهد بأنه قرأ كثيراً عن هذه الظاهرة فى كتب السياحة .

ولما كان من أغراض الملك أن يتدرب أبناؤه على العادات الأوربية فإنها ، دعت ذات يوم نحو ثلاثين من تلاميذها إلى حفلة شاي إنجليزية . وزينت حجرة الطعام لهذه الغاية بالأعلام الإنجليزية ، ووضعت أزهاراً كثيرة على الموائد التى صفت عليها أوانى الشاى والقهوة ، والفطائر المنزلية ، والمربيات والمحفوظات والخبز والزبدة .

ولكنها لم يخطر لها أن تطلب قصر الأتباع على عدد معين ، فلما أقبل التلاميذ كان كل منهم يصحبه جوار كثيرة . وحاولت أنّة عبثاً أن توجد النظام حين أخذ هذا الجمع المختلط يتدفق من الأبواب ، فضاع صوتها فى الضجة ، وفحص الأمراء والأميرات موائد الشاى باهتمام ، ودس بعضهم أصابعه فى أوعية المربيات ليعرف قوامها ، وتناول البعض الفطائر ثم وضعها ثانية ، ونظر بعضهم فى أباريق الشاى ، ثم انتشروا فى المكان دون أن يطعموا شيئاً ، ومعهم جواريهم ، ووضعوا أيديهم على كل ما راقهم .

فلولا أن ساعة البرج العالى على الناحية الأخرى من الشارع دقت وأعلنت انتهاء اليوم ، لما بقيت إبرة أو زهرية أو صورة

أو منديل فى البيت ، فخرج الجميع يعدون إلى القصر ، وخطفت الجوارى أحمالهن الملكية ومعها الغنائم ، واختفى الحشد كما جاء بغير احتفال ، وصار البيت قاعاً صفصفاً ، ولم يبق لأنّة مقص ولا بكرة خيط من القطن ولا دبوس ولا كستبان . وكان الشىء الوحيد الذى لم يمسسه أحد ، والذى بقى على ترتيبه الجميل كما كان حين بدأت الحفلة ، هو صف موائد الشاى .

وجاء اليوم التالى بموكب من الجوارى من القصر يحملن صناديق من الطباق (التبغ) والكافور والسعوط ، وغير ذلك من الهدايا من أمهات الأطفال على سبيل التعويض ، وكان معظم هذه الهدايا أثمن عشر مرات مما أخذ ، وإنما كانت الآفة أنها لا فائدة لها عندها على الإطلاق .

* * *

وما لبث الملك موجكوت أن طلب من أنّة مساعدته على كتابة رسائله الإنجليزية والفرنسية ، فضلا عن أعمالها المدرسية . وكانت مكاتبات جلالته هائلة ، وكان اهتمامه بعلوم الغرب ولا سيما بالفلك ، وهو ما أفاده من السنين التى قضاها مع الكهنة ، مدعاة لتبادل الرسائل مع العلماء فى أقطار العالم . ولكن معظم المكاتبات كانت له أسباب دبلوماسية ، ذلك أنه فى القرن التاسع عشر تطلعت كل من فرنسا وإنجلترا إلى شبه جزيرة الملايو ، وكان الملك هو الوحيد تقريباً بين معاصريه السياميين الذى أدرك من البداية أن سياسة العزلة والمنع السيامية التقليدية ينبغى أن تراجع إذا أريد الاحتفاظ باستقلال البلاد .

وكان قبل بضع سنوات قد دخل فى مفاوضة لعقد أول معاهدة حديثة مع إنجلترا ، فاستتبع ذلك مكاتبات طويلة مع الملكة فكتوريا .

ولم يهمل الولايات المتحدة فى سعيه لتوثيق علاقاته بالعالم الخارجى ، وكان قد قرأ مرة أنه فى معارض الوحوش المتجولة ، وهى محبوبة جدا فى المناطق الريفية بالولايات المتحدة ، يعد الفيل أغرب الحيوانات التى تعرض ، فبادر إلى الكتابة إلى الرئيس لنكولن يعرض عليه أن يرسل عدة أزواج من صغار الفيلة ، ويقول إنها كلما كثرت تصلح أن تكون دواب حمل لسكان أمريكا .

ومع أن المستر لنكولن كان فى شاغل عظيم من الحرب الأهلية ، إلا أن رده كان غاية فى اللطف والظرف :

« . . . وما كانت هذه الحكومة لتتردد فى الانتفاع بمثل هذا العرض الكريم ، لو كان يمكن أن يكون ذا فائدة من الوجهة العملية . غير أن اختصاصنا السياسى لا يبلغ من هبوط

مستواه أن يشجع تكاثر الفيلة ، وقد كان البخار ومازال خير وسائلنا وأجداها فى مواصلاتنا الداخليـــة على الأرض وعلى الماء أيضاً . . . .

وإنى مع تمنىّ لجلالتك حياة سعيدة طويلة ، ولشعب سيام الأريحي المحتشد اسمى مراتب الرخاء الميسورة ، أسأل الله القدير أن يبارك فيكما جميعاً » .

صديقك المخلص
أبرهام لنكولن
وشنطن فى ٣ فبراير سنة ١٨٦٢

***

وكان تولى مكاتبـات الملك عملا دقيقاً وشاقا ، لأن جلالته حوّل قلّب ، ومستبد ، فكان يبدو أن من المستحيل إرضاءه ، إذ كان يكتب الرسائل ويوقعها ويضع عليها ختمه ويبعث بها فى حقيبة بريده الخاصة إلى أوربا وأمريكا أو غيرهما . ثم يعود بعد ذلك فيأمر أنّة أن تكتب إلى من أرسلت إليهم الرسائل وتقول : إن التعليمات الواردة فيها كانت خطأ ـــ خطأها هى فى الترجمة أو النقل أو أى شىء آخر إلا ما يقصد إليه هو .

وقد أصرت على شىء واحد ، ذلك أنها إذا كان عليها أن تعمل مع جلالته فى غرفة واحدة ، فإنه يجب أن يسمح لها بالوقوف معتدلة فى حضرته . لأن الجثوم على هيئة الضفادع ، وهو ما سمح به لهـا على سبيل المعاملة الخاصة ، لا يطاق أكثر من بضع دقائق . فوافق الملك ، على أنه حتم أن تجلس على كرسى ، إذا جلس على كرسى ، أو على الأرض إذا جلس على الأرض .

وتلقت ذات يوم دعوة مستعجلة من الملك ، وكان ينتظر أن يزوره قريباً اللورد جون هي قائد الأسطول البريطانى فى المحيط الهندى ، فأراد أن يكسب مودة الزائر الممتاز ، فاستقر رأيه على ما لم يسبق له مثيل فى سيام ، وهو أن يسمح له بأن يرى طائفة من أجمل فتيات البلاد ، ولكى لا يعود إلى الملكة فكتوريا فيقول لها إن الملك متوحش ، فإن على أنة أن تدرب النساء الصغيرات على آداب السلوك الإنجليزية وارتداء الثياب الإنجليزية . أما لوثة السواد على الأسنان فإن الحلاق يتكفل بإزالتها .

وفى صباح اليوم التالى تحولت حجرة الدراسة إلى حجرة للخياطة ، وبذلت كبرى وصيفات القصر لأنّة كل معونة ، ووضعت رهن مشيئتها الحرير والجواهر والزهور و « الدنتلات » ، وتكدست المناديل والجوارب والخفاف المرصعة بالجواهر ، إلى جانب عشرات من حزم الحرير الكثيف الغزل والمشجر جىء بها من المخازن ، ولم يكن ناقصاً سوى ما يلبس مما يلى الجسد ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولما لامت أنة الوصيفة على هذا النقص ، كان جوابها إن الوقت لا يتسع لصنع شيء من ذلك.

وقد اختيرت الأميرة فانرى عمة الأمير شولا لونجكورن كاصلح سيدة لاستقبال القائد ، ومعها خمس من الحسان كوصيفات لها ، وقد سرهن جميعاً أنهن سيرتدين ثياباً مذيّلة مثل أنة .

وبعث الملك بالحلاق لينظف أسنانهن ويجلوها حتى تعود بيضاء كاللبن ، وتولى رسام صينى دهن بشرتهن باللون الأبيض كذلك ، وكسيت رءوسهن شعراً أوربيا مستعارا ، تتلوى خصله على أحسن طراز ، وجعلت فيه أناشيط من اللؤلؤ والياقوت والماس ، ولما أضيفت الدبابيس والمشابك والقلائد والأساور ، صار المنظر يخطف الأبصار . وأسفت أنة لحظة لأن الوقت ضاق عن صنع الغلائل الثمينة ، وإن كان النظر الفاحص قد طمأنها فأيقنت أن كثافة نسج الحرير لن تدع أحداً يفطن إلى هذا النقص.

وجاء الوقت لتدريبهن على آداب السلوك الأوربية ، وكان كل ما يطالبن به هو أن يجلسن وراء سجف قرمزى بديع موشى بالذهب أسدل فى الهيكل، فإذا نحى السجف، وقدمهن جلالته إلى الضيف ، نهضن وانحنين وارتددن . وكان بعضهم قد حدث الملك أنه لا أحد يولى الملكة فكتوريا ظهره بعد أن يقدم إليها، وإنما يرتد ووجهه إليها، فأصر الملك على هذا من أجله ومن أجل السفير البريطانى.

وقد دربت أنة السيدات مرة بعد مرة على هذه الحركة البسيطة ، ولكنهن كن لا يلقين بالا إلى التدريب لفرط اضطراب أعصابهن. وكانت هناك إشاعة فى الحريم بأن كل الإنجليز ذوو لحى ، وذلك منظر منفر لشعب حليق، وأن كثيرين منهم سريعو الإصابة بعيونهم ، وهى عيون زرق فظيعة تستطيع أن تنفذ مباشرة إلى قلوب ضحاياهم ، وتوقع فى شراكها النفوس القليلة الحيلة إلى الأبد.

ومن سوء الحظ أن اللورد جون كان ذا لحية كثة وشاربين كثيفين يختلطان بها، فهى مرسلة على صدره، ولا شىء يبدو من وجهه سوى عينيه وأنفه . فلما كان يوم الاستقبال، ونحى الستار على صوت بوق فضى ريعت السيدات السياميات فجمدن على كراسيهن .

وفوجىء اللورد جون أيضاً بما أدهشه كل الدهشة ، ولم يكن يتوقع أن يرى فى ضوء المعبد الخافت سيدات أوربيات على ما يبدو، فى الحريم الملكى بسيام ، وكأنما أراد أن يستثبت فرفع نظارته المفردة (المونوكل) إلى عينه اليمنى ، وراح يفحصهن من قمة رءوسهن إلى أقدامهن على حين كان الملك يقوم بواجب التعريف .

ثم انحنى انحناءاً شديداً كأحسن ما تقضى

به المراسم ، غير أن السيدات ، بدلا من أن ينهضن وينحنين ، ندت عنهن صرخات فزع خافتـة ، وغطين وجوههن بأكفهن ، وجعلن يراعينه من بين أصابعهن الممدودة . ولما رأين أن الرجل ما زال يحدق فيهن فى هدوء من خلال عينه الزجاجية (المونوكل) صاحت إحداهن : « عين السوء » فوثبن جميعاً عن مقاعدهن كأنما كن على اتفاق ، ورفعن ذيولهن إلى رءوسهن ليقين أنفسهن السوء ، ووَلين الفرار من المعبد .

وقد سرى عن أنّـة كثيراً فيما بعد حين لم يزد الملك على تأنيبها فى رفق لأنها لم تعرف السيدات بعادة الإنجليز أن يضعوا على عيونهم « زجاجاً متجسساً » ، وقال لها : « إن نساءنا يستحيين أن ينظر إلى وجوههن رجل غريب » .

كاد العام الأول من مقام أنّـة فى سيام ينقضى ، فتكشفت لها حياة القصر التى كانت غامضة ، وكان القصر نفسه يبدو فى البداية معقداً ، ثم بدأت صورته تنجلى شيئاً فشيئاً ، وكان فى الحقيقة مدينة مسوّرة محصنة ، مستطيلة الشكل تزيد مساحتها على ميل مربع .

وكان فى القسم الشمالى ديوان الحكومة وفيـه مستودع السلاح ، وثكنات حرس القصر ، ومكاتب الحكومة ، والبورصة ، ومحاكم القضاء العليا . وفى هذا القسم وحده كان الناس أحراراً فى الدخول والخروج لأعمالهم الرسمية .

أما قلب المدينة الملكية حيث يقيم الملك ، فكان موقعه بحيث لا يمكن الدخول إليـه من الخارج إلا من بوابات محروسة حراسة قوية . وتحيط بقصر الملك إحاطة تامة بساتين ذات شرفات تنمو فيها أشـجار البرتقال والرمان فى أصـص صينية نفيسة ضخمة . وأوراق أشجار البلوط والدِّفلَى تلقى ظلها المسـنون على المماشى المرمرية ، وغرس فى أصـص من الخزف السوسن والزنبق والنرجس من كل نوع ولون ، فمن قرمزى وذهبى ، إلى أرجـوانى حائل وأبيض ، والنوافير لا تفتأ ترسل ماءها فتتلق فيضه أحواض من الحجر تسبح فيه أسماك بلون الذهب والفضة وتأتلق كالدر .

وفى القصر الملكى ممر مغطى يؤدى إلى الحريم ، ولم يسمح قط لرجل بأن يدخل دائرة الحرم إلا الملك والكهنة الذين يأتون تحت الحراسة لأداء وظائفهم الدينية . وكان الملك مونجكوت أكثر تسامحاً من أسلافه ، فكان يأذن أحيـاناً لنسائه أن يخرجن فى مناسـبات مهمة كإحراق جثمان واحدة إحداهن . غير أن المدينة كانت لمعظمهن هى العـالم ، عالم من النساء عـدته تسعة آلاف فى نطاق من الأسوار العالية .

وكان الملك فى عالم القصر هو قرص النور

الذى يدور حوله كل شىء ، والذى يفعله يوما بعد يوم ، هو الذى يعين ما تفعله نساء الحريم . وكان يستيقظ فى الخامسة صباحا ، فكان معظم من فى بيته من النسوة يفعلن مثله . وبعد إفطار خفيف تقدمه النساء اللواتى كن فى خدمته فى الليل ، يقصد الملك إلى معبده الخاص ليقضى فيه ساعة فى التأمل .

فإذا فرغ من هذا أوى إلى مخدعه ليغفى ، يحف به رهط جديد من الوصيفات ، وتصرف اللواتى كن يقمن بخدمته فى الليل فلا يستدعين مرة أخرى إلا بعد أسبوعين أو شهر ، إلا إذا شاء أن يوليهن عطفاً خاصا .

فإذا استيقظ من إغفاءته قدم إليه طعام الإفطار بمراسم معقدة ، فيركع اثنتى عشرة امرأة على مقربة من صحاف فضية عظيمة فيها اثنى عشر لوناً من الطعام — المرق ، واللحوم ، والطيور المصيدة ، والدجاج ، والسمك ، والخضر ، والكعك ، والهلام ، والمربيات ، والمتبلات ، والفواكه ، والشاى . وكل لون من هذه الألوان تقدمه ثلاث سيدات إلى رئيسة الزوجات ، فترفع الغطاء الفضى ، وتبدو ، على الأقل ، كأنها تذوق ما فيه ، ثم تتقدم على ركبتيها وتضع الصحاف واحدة واحدة على المائدة أمام الملك .

والحقيقة أن الملك ما كان يأكل إلا قليلا من هذا الطعام الوفير ، فقد كان أثناء اعتزاله الطويل ، فى الهيكل البوذى قد اعتاد التزهد ، فهو يكتفى عادة بملء سلطانية من الأرز المسلوق .

وكثيراً ما كان يتناول مع أنّة على طعام الإفطار ، أخبار اليوم ، والحرب الأهلية الأمريكية ، وبعثة نابليون إلى المكسيك ، وغوردون « الصينى » .

وسرعان ما أعجبت أنّة بما حصله عقل الملك ، وكانت تعتقد أنه بين الرءوس المتوجة فى ذلك الوقت ، فى الشرق أو فى أوربا ، أوفاها تعلما نظاميا ، ولكنها كانت كثيراً ما يصدمها وينفرها نزوع عقله إلى الشك فيما يتعلق بالناس ، فما كان له أى إيمان بنزاهة أى إنسان . وكان كلما نهضت أنّة لتدافع عن صديق أو صديقة ، لا يرى فى مروءة نفسها إلا نشداناً للمنفعة الشخصية ، وكان لا يفتأ يقول : « المال ، المال المال ! إنه يشترى أى شىء » كأنما كان صديقها قد رشاها لتدافع عنه أمام الملك .

وكان حب الأطفال هو فضيلته الثابتة ،

وكثيراً ما كان يأخذهم بين ذراعيه ويعانقهم ويبدى لهم من وجهه صوراً مضحكة ، بيد أنه على كونه أباً عطوفاً على بنيه الذين أرضته أمهاتهم ، كان لا يستطيع أن يغفر لطفل أن أمه لم ترضه .

ومن نقائض الخلق السيامى الغريبة التى كانت مبعث دهشة دائمة لأنّـة ، أنه على الرغم من وجود الملك ، والهلع الذى كان يهجم على النسوة منه فيشلهن ، فقد احتاج الأمر إلى عدد غفير من « النساء الشرطيات » لحفظ النظام ، فإذا كثر الهتاف والهمس وجاوزا الحد وراء ستار ، ذهبت إحدى الشرطيات ، وضربت بالسوط فى رفق أكثرهن جلبة ، وكان السوط يستعمل ثلاث مرات أحياناً فى حضرة الملك ، فإذا انصرف انتشر النساء كأنهن سرب من الأوز ، وذهبن مسرعات إلى مساكنهن كأنما نجون وما كدن من واجب ثقيل .

***

ووصلت أنّـة ذات صباح إلى الهيكل فألفت تلاميذها فى هرج شديد ، فقد قيل إنه أثناء الجمع السنوى للأفيال فى الغابات شوهد فيل أبيض ، وهذه عند السياميين حادثة لها أسمى قيمة قومية ، لأن الاعتقاد السائد هو أن الفيل الأبيض ليس إلا بدناً يعود إلى الحلول فيه ملك أو بطل متوفى .

وما ذاع الخبر فى المدينة حتى أقبل الملك والفلاحون والسادة والعبيـــد والشيب والشبان ، بعضهم على بعض يتبادلون التهنئة فى جذل ، وأقيمت الصلوات وقدمت القرابين فى الهياكل جميعاً على الفور ، وانهالت على منادى المدينة الذى كان يصيح بالخبر فى الشوارع ، الهدايا من المال والثياب والأرز ، وزجاجات الزيت المعطر .

وصدرت الأوامر بإعداد خمسة وسبعين صندلا ملكياً ومائة زورق فى الحال ، وجهزت بمؤونة أسبوع لتقل الأسرة الملكية بأسرها إلى حيث وجد الفيل الأبيض ، ونالت أنّـة إذناً بمرافقة الركب .

وقبيل الغروب انطلق هـذا الموكب فى النهر إلى العاصمة القديمة أيوثيا ، وهناك ركب القوم الخيل وقطعوا أميالا فى أرض جميلة إلى الرقعة المسورة أو « الكرال » التى أحيط فيها بالفيلة ، فكان مما ازدهى بالرهط الملكى واستخفهم أن رأوا فيلا فى لون سمك السلمون ينهج ويزفر فى بحر من الفيلة السود والشهب المحشودة فى هذه الحظيرة .

وفى صباح اليوم التالى نقلت الفيلة المقنوصة من الحظيرة ، وترك الفيل الأبيض وحده موثقاً بحبال من الحرير . وسرعان ما شرع فى تمهيد طريق واسع له فى الأرض التى لا بد أن يجتازها إلى النهر فى رحلته الملكية إلى بانجكوك ، فلما تم ذلك بعد

بضعة أيام ألقى على ظهره ستر منسوج بخيوط الذهب ، وبدأ موكب النصر يعود إلى العاصمة . وحتى الملك صار فى المحل الثانى إلى جانب هذا « الأمير » الجديد . ورقصت البنات وغنين وضربن على المعازف أمام الفيل الشاب ، وقام عدد من الرجال بطائفة من ألعاب القوة والبراعة ، فكانوا يتصارعون ويوقع بعضهم بعضاً لتسليته ، وتولى رجال آخرون الترويح عليه وإطعامه، وصلى الكهنة من أجله ، فلما بلغ بانجكوك أنعم على هذا الحيوان الحسيب بلقب معناه « مولى الأسرة القوية الوسيم » ، وألبست أسنانه خواتم من ذهب ، وطوقت عنقه بقلادة من ذهب وألقي عليه كساء أرجوانى من خمل حواشيه قرمزية موشاة بالذهب .

وكان قد شرع فى بناء إسطبل جديد بديع « للأمير » ، وبذل القوم غاية الجهد فى إطعامه بخير الأعشاب، وأنضر الحشائش وأحلى القصب ، وأنضج الموز ، وأشهى الكعك، وكان ذلك يقدم إليه فى قصاع ضخمة من ذهب ونضة ، وعطر ماؤه بالياسمين . فثقل عليه هذا كله ، وأصابته تخمة شديدة فى الليلة السابعة ، ومع أن طبيب الملك الخاص دعى لعلاجه فقد مات بعد بضع ساعات.

ولم يجرؤ أحد أن يبلغ الملك خبر هذه الكارثة . غير ان الكرالاهوم ، وكان رجلا واسع الحيلة لا يخونه حضور ذهنه ، دعا بالآلاف من العبيد وهدم الإسطبل الجديد ، وكانوا يعملون بسرعة محمومة، فقد كانوا يخافون أن يجئ الملك قبل أن يفرغوا ، ولم يحضر الملك إلا فى الأصيل العليل ليرى مبلغ تقدم البناء الذى كاد يتم فى الليلة السابقة ، فوقف مسمراً إلى الأرض لما لم تر عينه إلا الفضاء ، وأدرك الحقيقة لتوّه، فندّت عن صدره صرخة ألم ، وهوى على حجر وأنشأ يبكى بكاء مراً .

فحدّت الأمة كلها على الفور ، وأخيراً لف على جثة الحيوان الميت كفن من الكتان الأبيض، ووضعت على نعش حمل على النهر بين العويل والرثاء ليودع آخر الأمر خليج سيام.

***

وكانت أنّة كلما اجتازت بوابات الحريم الضخمة ، يستولى عليها إحساس ثقيل الوطأة بأن هذا سجن تسجن فيه مدى الحياة نساء وأطفال لم يجنوا شيئاً ، وعسى أن لا يكون النساء جميعاً غير سعيدات ، ولكن أنّة كان يستثير نفسها أن هؤلاء النسوة ليس لهن فى حياتهن من الشأن أكثر مما لحيوانات الأرض .

وذهبت ذات صباح لتشهد احتفالا دينيا مهما ، فضلت الطريق بسوء الاتفاق ، وإذا بها تلقى نفسها فجأة فى ممر مظلم لا مخرج لها

منه ، على ما بدا لها ، سوى باب من نحاس مصقول فى جدار عال من قرميد . فدفعت الباب وقد خامرها شئ من الإشفاق أن تكون داخلة فى مكان محظور ، ثم تخطت العتبة إلى ساحة مرصوفة .

ورأت فى وسط حديقة قريبة من بركة صغيرة امرأة جالسة على الأرض وفى حجرها طفل عريان فى نحو الرابعة من عمره ، فلما أبصرت أنّة رفعت رأسها منتفضة ، وضمت ذراعيها العاريتين على الطفل ، وشخصت إلى أنّة بعينين ثابتتين صارمتين . وكانت عظيمة الجسم قوية البنية سمراء ، وكانت تبدو أشبه بدمية منحوتة من حجر أصم ، وموضوعة هنـاك لتفزع المتطفلين ، منها بآدميـة ، وكانت معارف وجهها معروقة شاحبة ، وشعرها الأشعث الأغبر يتهدل متفرقاً على كتفيها .

وسحبت أنّة يدها من البـاب فارتد بقرقعة منـذرة ، ووقفت ترتجف قليلا ، ولكنها نسيت، وهى تنظر إلى المرأة والطفل، ما ساورها من الخوف، وطغت على قلبها موجة خانقة من العطف والمرثية ، وكانت المرأة عارية إلى خصرها، وإحدى رجليها مشدودة إلى عمود ، ولا شئ يقيهـا لفح الشمس المحرقة، وكانت سلسلة القيد من حديد وثقيلة.

وظلت أنّة لحظة لا تستطيع أن تنطق بكلمة ، وأخيراً سألت المرأة عن اسمها فكان الجواب الجافى : « باى سـيا ـــ اذهبى عنى » . فلم يزعج أنّة هذا ، وقعدت على البـلاط المحرق بجانب المرأة والطفل ، وسألت عن اسم الطفل بلهجة رقيقة جدا .

فقالت المرأة وهى مترددة : « اسمه ثوك (الحزن) » وأشاحت بوجهها ، ولكن نظرة التحدى التى كانت فى عينها خفت .

واستطاعت أنّة، باستدراجها وعطفها، ان تقف على قصتها ، فأخبرتهـا أن اسمهـا « لور » وأنها ولدت على الرق ، فاشتراها وأعتقها تاجر هندى كان قد رآها فعشقها . وتمت الصفقة على مقتضى القانون السيامى ، وبدأت المرأة حياة من الحرية السعيدة ، غـير أن مولاتها السابقة لم تستطع قط أن تروض نفسها على التخلى عنها .

ففى ذات يوم ، بعـد ثلاثة شهور من زواجها ، قبض عليها وكممت ، وشد وثاق يديها ورجليها وأعيدت إلى هذا المكان . وأمرت مولاتها بربطها إلى هـذا العمود حيث بقيت إلى أن وضعت طفلهـا ، وبعد شهر قيدت ثانية ، وكانت جارية تأتى إليها بابنها حتى استطاع أن يأتى إليها وحده ؛ ولا يعرف مكانها سوى مولاتها والجارية ، وقد مضى على وضعها فى القيد أربع سنوات .

فوقعت قصة لور من نفس أنّة موقعاً

عميقاً ، وآلت لتعرضن أمرها على الملك ، وكان من حسن الحظ أنها اشترت حديثاً هدية — كتاباً صغيراً اسمه « عجائب العلم » أزمعت أن تهديه إليه متى قابلته مرة أخرى .

وقد سر الملك بالكتاب سروراً عظيما ، واهتزت نفسه وانبسطت للمروءة، فوعد بأن يتحرى قصة لور . وبعد وقت غير طويل صُدّعت الأصفاد عن لور بعد أن طال وثاقها ورُدت إلى بيتها ، وفي اليوم التالى زار زوجها السعيد أنّة ، وأخبرها أن اسم ابنه « ثوك » أو الحزن قد أبدل فصار اسمه الحر .

وكان من نتائج عودة لور إلى زوجها بما يشبه المعجزة ، أن ألفت أنة نفسها وقد طارت شهرتها فجأة ، فقد راح العبيد الذين يخرجون من القصر إلى المدينة لقضاء الحاجات يقصون القصة على أصحاب الحوانيت فينقلها هؤلاء إلى زبائنهم ، وكان الذين لم ترهم قط من قبل ، من الناس العاديين ، ينكبون على وجوههم إذ تمر بهم ، وجعلوا يزحفون إليها بملتمساتهم وهي جالسة في رواقها في المساء . وإذا دخلت حجرة الدراسة وجدت في مكانها وعلى كرسيها أزهار قطفتها أيدى الجوارى ونظمت منها طاقات . وصارت من الآن فصاعداً معروفة لمن في القصر والمدينة باسم « الملاك الأبيض » وأصبحت عبارة « اذهى إلى بيت الملاك الأبيض فتساعدك »

رسالة أمل يُهمس بها في آذان المكروبين .

ولم يقتصر الأمر على المسكينات ، فإن سيدات الحريم الساميات المقام كن يأتينها سرا بشكاواهن ، فوجدت نفسها على غير قصد منها ، قائمة بين الظالم والمظلوم ، وكانت تُقصد يوماً بعد يوم لمقاومة ظلم القضاة . وقد حاولت مراراً في حالات التعذيب والسجن والابتزاز أن تتنحى عن التدخل ، ولكن الأمهات أو الأخوات كن يتوسلن إليها فلا ترى لها حيلة إلا أن تحاول المساعدة .

وكانت أنّة أحياناً ، تعمل في هذه المساعى متواطئة مع رئيسة الزوجات — اللادى تيابج ، وهى امرأة عطوف حكيمة . فكانت اللادى تيابج إذا رأت أن الملك متلهب الغضب خطره ، وأنه يوشك أن يهوى بالسوط على إحدى نساء الحريم ، تبادر إلى دعوة أنّة ، وكان على أنّة أن تذهب من فورها إلى الحجرة التى فيها الملك . والكتاب في يدها ، لتستشيره في ترجمة من اللغة السنسكريتية أو السيامية . وكانت أنّة تحتفظ بذخيرة من مثل هذه الأسئلة لوقت الحاجة إليها . وكانت هذه الحيلة على وضوحها ، أو لفرط بساطتها ، تؤتى ثمرتها المنشودة في العادة ، فكان الملك كثيراً ما يستغرقه السؤال الذى تثيره أنة فيكفّ بسرعة مصححة عن اللعنات والشتائم ويشير

بيده ، وهو شارد الذهن ، إلى المرأة المذنبة الراكعة أمامه أن تخرج .

على أن شفاعتها لم تكن دائماً مقبولة ، ففي ذات يوم جاء نبأ بأن السيدة توبتيم فى كرب شديد ، وهى سيدة صغيرة من تلميذاتها السابقات ويبلغ عمرها ١٦ سنة ، وكانت أنّـة توليها مودة خاصـة . وكان ما حدث هو أن هـذه السيدة عجزت عن احتمال حياة الحريم ، فلم يكفها أن رفضت ما قاربها به الملك من الرغبة ، بل استطاعت بطريقة ما أن تتسلل من بين الحراس وتفر من القصر ، وشر من ذلك أنها وجـدت متخفيـة فى دير . وإذا دنست امرأة ديراً بوجودها فليس لها إلا الموت .

ولم يكن ثم شئ يسع أحداً أن يفعله من أجلها ، غير أن أنّـة ألفت نفسها مرة أخرى تعد ، وهى تشعر شعوراً ممضاً بالعجز ، أن تشهد المحاكمة لتصنع ما يدخل فى وسعها لتلميذتها السابقة .

ولما جئ بالسجينة راع أنّـة ما اعترى الفتاة الجميـلة من التغير ، فقـد جز شعر رأسها حتى كاد يكشف العظم ، وحُلق حاجباها ، وكان خداها غائرين ، وعيناها إلى الأرض ، وصُـفدت يداها ، وكادت قدماها الصـغيرتان العاريتان تعجزان عن جر السلسلة الثقيلة التى قيدتا بها .

وكانت البيّـنة ضدها ماحقة ، فلم يقتصر الأمر على العثور عليها فى ثياب الكهنة التى تنكرت فيها لتهرب ، بل وجدت أيضاً رقعة صغيرة مخيطة إلى بطانة الثوب وعليها اسم فرابالات أحد الكهنة . فلم يشك القضاة فى نوع الخطيئة التى ارتكبت ، أو فيما جناه الاثنان ، غير أن توبتيم أصرت على أن الكاهن برئ . وقد تأثرت أنّـة تأثراً عميقاً بجلال هـذه المرأة الطفلة الوهنانة وهى تقذف القضاة بالتحدى ، فاقتنعت أنّـة ببراءتها ، وبادرت إلى الخروج من قاعة المحكمة لتعرض الأمر على الملك .

وكان الملك فى حجرة الإفطار ، وأدار رأس أنّـة نكهة الطعام وهى ترقى بجهد فى الدرج العالى ، فما أفطرت فى ذلك الصباح قبل أن تذهب إلى المحكمة ، غير أنها مضت بسرعة مخافة أن تفقد شجاعتها إذا فكرت فى الأمر لحظة .

وبدأت تقول ، وقد أحست أن هـذا ليس بصوتها : « يا صاحب الجلالة ، لقـد عدت الساعة من محاكمة توبتيم ، وأنا مقتنعة بأنها بريئة من الجريمة التى تتهم بها » .

فنظر إليها الملك بعينيه الضيقتين المؤتلقتين اللتين كثيراً ما أذكرتاها عيون الطير .

وقال : « إنك مجنونة » ورماها بنظرة فاترة كلها استرابة ، ثم مال إلى الأمام وانطلق

يضحك فى وجهها ، فوثبت إلى قدميها كأنما كان لطمها ، ورأت فى وجهه المكفهر من الغضب شيئاً مستعراً ، شيئاً شيطانيا لم تره من قبل . ولم يكن معنياً بوجه الحق فى قضية توبتيم ، وغاض شعوره باللياقة والحق ، وابتلعته حاجة وحشية إلى أن يغرق فى الدم الكبرياء الجريحة للذكر المهين ، فاستولى على أنّـة شعور بالاستفظاع لا سبيل إلى العبارة عنه ، وذهلت وبهتت حيال هـــذا الشر الصريح الذى تكشف لها عنه قلب الملك ، وخانها عقلها ولسانها ، فدارت لتنصرف .

ولكن الملك كان قد قرأ وعرف ما نطق به وجهها ، فرده استبشاعها إلى الحالة الطبيعية ، فانقلب على الفور على عادته وقال لها بلهجة الأمر : « أيتها السيدة ، عودى ! إنى أقبـل رجاءك ، وسيحكم على المرأة بأن تعمل فى مضرب الأرز بقية حياتها . وسأبعث بقرارى إلى المحكمة بعد دقائق ، ولا حاجة بك إلى العودة إلى هنـاك ، والأفضل أن تذهبى إلى المدرسة الآن » .

ولم تستطع أنّـة أن تشكره ، فقد كان اشمئزازها عظيما ، وكان رأسها ينبض ويدور ، فانصرفت دون أن تنبس بكلمة ، ومرت عند رأس السلم بإحدى القاضيات وقد جاءت بضبطة المحاكمة إلى الملك ، وبدلا من أن تذهب أنّـة إلى حجرة الدراسة ، ذهبت إلى بيتها ، فقد كانت تحس أنها مريضة لا تقوى على شىء سوى الرقاد .

وكانت الساعة الثانية حين استيقظت ، وجذبها إلى النافذة صوت جمهور يضج ، وأفزعها أن ترى مشنقتين تنصبان فى الساحة قرب بيتها . وكان العمال يدقون الأوتاد ويجيئون بآلات غريبة بأوامر من موظفين كبار ، وقد احتشد جمع كبير من الرجال والنساء والأولاد ليشهدوا المنظر كائناً ما يكون ، وكان الجمهور يبدو عليه الاهتمام البالغ .

فدعت أنّة خادمتها وسألتها عن هـذا الاستعداد كله وذلك الهرج ما سببهما ؟ فأخبرتها الخادمة أن كاهناً وأميرة مذنبة سيعذبان لترقية الأخلاق العامة ، إذن قد نقض الملك قراره وعكسه !

وعلمت أنة فيما بعد أنها ما كادت تنصرف من حضرة الملك حتى عرض عليه ما جرى فى المحاكمة ، فلما قرأ ذلك تلهب غضبه تلهباً شمل أنّـة كما شمل الخليلة والكاهن ، فأمر بأن يعذب السياميان علناً ثم يشنقا ، ولكنه لم تخطر له وسيلة لعقاب الإنجليزية سوى إقامة المشنقتين تحت نافذتها مباشرة !

وقبل الساعة الثالثة بقليل رتبت أدوات التعذيب إلى جانب المشنقتين ، ثم سمعت نفخة فى الأبواق كانت إيذاناً بقدوم الرهط الملكى ، وأقبل الملك وحاشيته جميعاً وأخذت

الشرطيات فى ثياب قرمزية مذهبة،أمكنتهن لحراسة سيدات الحريم ، وإذا بالجمهور يطلق صيحة ، ذلك ان الحراس كانوا قد جاءوا من فناء القصر بالسجينين ، وكان الكاهن على ما يبدو أضعف من أن يمشى وحده ، فرفع إلى المشنقة التى إلى اليمين على حين صعدت توبتيم إلى المشنقةالتى إلى اليسار فى هدوء وبدون مساعدة ، وصوبت عينيهافى سكون إلى الغوغاء الذين اقتربوا متزاحمين ليستمتعوا بالمنظر ، غيرأن شيئاًفى هيئة الفتاة ألزمهم الصمت ، وأحست أنة أن سكينة توبتيم أفرغت على قلوبهم الرهبة بكرههم .

وانطلق نافخان فى بوقين ــ يميناً وشمالا ــ يعلنان الجريمة التى اتهم بها الاثنان ، فصارت توبتيم وبالات فى نطاق من عشرة آلاف حدقة ، ولكن الجمهور كان أخرس حتى لا تفوته كلة واحدة من الحكم ، ونفخ فى الأبواق مرة أخرى وأذيع الحكم الذى صدر ، فزال السحر الذى كان مضروباً على الجمهور ، وارتفعت صيحة عظيمة حين ارتقى الجلاد منصة مرفوعة ليعذب توبتيم ، وبدأت الضربات تهوى عليها ، وخيل إلى الجمع فى اللحظات التاليــة الأولى أن الألم سيكون أشــد من أن يطاق ، فأشاحت بوجهها قليلا عن الملك المتفرج من النافذة ، وتلوى جسمها برغمها ، وحاولت أن تخفى وجهها فى راحتيها ، غير أنها لم تكد تهم بذلك حتى ارتدت بقوة الإرادة فاعتدلت فى وقفتها ، ودوى صوتها فى الساحة كأنه ناقوس فضى عميق الرنة « أن بوذا المقدس فى السماء يعرف كل شىء ، ونحن بريئان ! » .

وما كادت تنتهى مما قالت حتى انكفأت صارخة صرخة نفذت من قلب أنة كالسيف ، وظلت الفتاة غائبة عن رشدها حتى رده إليها الأطباء ، ثم استؤنف التعذيب . فعاد صوتها يدوى مرة أخرى احتجاجاً .

واستخدمت كل أداة للتعذيب ــ واحدة واحدة ــ دون القتل ، لانتزاع اعتراف من توبتيم ، غير أن كل عذاب ، وكل ألم عجز عن أن يكشف عن شىء سوى شجاعتها المعدومة النظير ، فلم تعترف بشىء ، ولم تطلب رحمة ، وواجهت معذبيها ومضطهديها بجلد بلغ مرتبة الجلال ، وواجهت قضاتها والملك ببراءتها . وكان آخر ما سمعته أنة منها قولها : « إنى لم أرتكب خطيئة ! » .

ولم تسمع أنة ولم تر شيئاً آخر بعد هذا ، ولم تدرك أن الإعياء أضمرها ، وأنه لم تبق لها ذرة من القوة تحتمل بها المنظر الذى تحت نافذتها ، فقد غاب وعيها فلم تعرف شيئاً ، وكانت لا تزال منطرحة على الأرض ــ ضعيفة متقبضة ــ حين أقبلت جارية من القصر سراً لتخبرها بما صار إليه توبتيم

وبالات ، ولم يعترف أحد منهما بشيء على الرغم من التعذيب ، وأخيراً كفوا عن التعذيب مخافة أن يزهق روحهما قبل أن يحرقا حيين ، ثم جروهما في الشوارع وأحرقوهما علناً خارج أسوار المقبرة ، وقد تأثر الشعب تأثراً عميقاً بجلد توبتيم وقوة روحها ، حتى لم يبق ثم من يهزأ ويسخر .

ولبثت أنة شهراً لا ترى الملك بعد مقتل توبتيم ، وأخيراً دعاها ذات يوم إلى حضرته ولم تكن قط كما كانت في ذلك اليوم ، باردة جافية ، لا يعرف قلبها الصفح والمغفرة ، فلم يعر ذلك اهتماماً ، وما كاد يراها حتى استأنف حديثهما السابق كأنما لم تكن ثم فترة انقطاع .

وقال : « إني شديد الحزن على توبتيم » ورأت أنة أنه قد اعتراه تحول سريع شاذ على عادته ، وأنه صادق فيما قال فقد كان وجهه بادي الكآبة : « وأنا أعتقد الآن أنها بريئة ، فقد رأيت حلماً تمثلت لي فيه بوضوح توبتيم وبالات يسبحان معاً في فضاء واسع ، وانثنت إلى ، ولمست كتفي وقالت لي : « لقد كنا دائماً طاهرين غير مذنبين على الأرض ! وانظر إننا سعيدان الآن » .

وإني لعظيم الأسى أيتها السيدة ، عظيم الأسى ، وعميق الاحترام لرأيك . والآن سآمر أن يقام أثر تذكاري لبالات وتوبتيم » .

وأقيم على المكان الذي ماتا فيه أثران عاليان بأمر الملك ، ونقشت على كل منهما هذه العبارة : « قد تغرب الشموس وتعود إلى الطلوع ، ولكن بالات وتوبتيم النقيين الشجاعين لن يعودا إلى الأرض » . ولما كان يؤمن بالدورة التي لا تنتهي للميلاد وتكروه ، وأن ذلك لا ينتهي إلا ببلوغ النيرفانا ، فإن كلماته هذه شهادة باقتناعه بأنهما قد نجوا بطهرهما من دورة التناسخ .

***

وعلى الأيام صارت أنة كثيراً ما تشعر بالحاجة إلى مغادرة سيام ، فقد انقضت خمس سنوات دون أن ترى ابنتها أفيس ، وصار لويس محتاجاً إلى الالتحاق بمدرسة داخلية منتظمة العمل . وثم أيضاً صحتها ، فقد جعلت تعتريها نوبات عنيفة من الحمى ، ووافق الملك مكرهاً — نزولا على أوامر الأطباء — على خفض ساعات عملها ، غير أن ذلك لم يقها مطالبه المسرفة .

وقد أحست مرة أنها في خطر حقيقي من تقلب مزاج الملك ، وذلك أنه في عصر يوم على أثر خلاف بينهما على رسالة ، جاء سكرتير الملك الخاص برقعة فيها جدول بعدة اتهامات طولبت بالاعتراف بها وتوقيعها . وكان بين الاتهامات التافهة بالعصيان ، والجحود ، و « الفكر السيء » اتهام بأنها « مشت على رأس جلالته » .

وقرأت أنة هذه التهم السخيفة ، وغضبها يستشيط ، فياما أشد تشبث ذاكرة الملك بكل هفوة صغيرة ! وما أسرع ما ينسى الإخلاص فى الخدمة ! حدث مرة منذ زمن طويل ، وقبل أن تفهم مراسم القصر ، أن أعرب الملك عن رغبته فى كتاب معين ، فتذكرت أنه فى الغرفة التى فوق الحجرة التى كان الملك يعمل فيها فى صبيحة ذلك اليوم ، وظنت أنها إنما تفعل ما يريد ، فأسرعت فصعدت لتأتى بالكتاب ، ودخلت وهى لا تدرى غرفة فوق التى كان الملك جالسا فيها، وأخذت الكتاب ونزلت به وهى تتوقع أن يسره منها ما فعلت . ولكنها بذلك « مشت فوق رأسه » وأدهشها ، أن الوصيفات كن ينتفضن جزعاً ، وأكدن لها وشفاههن ترتجف أنها إذا ارتكبت مثل هـذا الانتهاك لحرمة المراسم الملكية مرة أخرى فإنها ستلقى فى غيابة السجن . وكانت التهم الأخرى مثل هذه السخافة ، فردت الوثيقة إلى رسول الملك دون أن تنطق بحرف.

وبعد قليل تلقت رقعة بغير توقيع من قصر الملك جاء فيها أن غضب الملك قد زاده رفضها أن توقع الورقة التى أرسلها إليها ، وأنه صاح فى حاشيته المجتمعة: «أمامن أحد يخلصنى من هذه المرأة ؟ » فطلبت أنّة من خدمها أن يغلقوا الأبواب كلها ، وأن لا يسمحوا بدخول أحد . وقد ضحكت من نفسها فيما بعـد ، وبدت لها مخاوفها ، وهى تكرر النظر فيها ، خيالية . ولـكن أكانت خيالية ؟ أم تراها شعرت بخطر حقيقى زال لما زال غضب الملك ؟

وقد بقيت ، على الرغم من كل شىء ، لأن عملها استغرقها استغراقاً عميقاً ، ولاسيما تربية الأمير الصغير شولالونجكورن. ولـكنه لابد آخر الأمر من فهم هذه العلاقة أيضاً ، فقد بدأ الأمير يشب ويدخل مداخل الشباب، وسيكون عليه أن يتفرغ لواجباته الرسمية .

وأحست أنها ، مع هذا الأمير على الأقل، قد أصابت قسطاً من النجاح ، فقد جرى بينهما أخيراً حديث طويل مداره أبرهام لنكولن ، وكان يعرف قصة هـذا الرجل الإنسان العظيم من إشاراتها الدائمة إليه على طول السنين ، وقد أثرت فاجعة موت لنكولن تأثيراً عميقاً فى تفكير الأمير الشاب.

فقال لها وعيناه تومضان بالعزم : « ياعزيزتى . إذا عشت لأتولى الحكم ، فسأكون ملكا على أمة حرة لا أمة مسترقة».

فنظرت أنّة إلى وجه الفتى المتحمس ، وتمنت أن يعيش ليحقق حلمه .

***

وأبى الملك فى أول الأمر أن يوافق على سفرها ، وكان يقول لها معاتباً كلما خاطبته

فى الأمر : « ياعزيزتى ، إنك مكسال ، وجاحدة » فاحتاجت إلى ستة شهور لتفوز بموافقته التى كان ضنيناً بها . وحتى بعد ذلك لم يأذن لها فى السفر حتى وعدت بإخلاص أن تعود متى سمحت لها صحتها .

وقبل أن تسافر دعتها إحدى تلميذاتها المحبوبات السيدة « صون كلين » ، وهى من الحريم ، إلى العشاء ، ولم يكن ثم شىء غير مألوف فى مثل هذه الدعوة ، ولكن أنّة كانت تشعر طول الوقت أن هناك اهتماما مكبوتاً بأمر مستور ، فلما انتهى العشاء نهضت السيدة صون كلين وخرجت بأنّة إلى الحديقة . وهناك كان كل عبيدها وجواريها ركعا ، ١٣٢ من الرجال والنساء والأطفال ، وكان كل منهم يرتدى ثياباً جديدة . فقد اعتقتهم السيدة صون كلين !

فوقفت أنّة صامتة ، وأحست بشىء معترض فى حلقها . وإذا كانت لم تصنع شيئاً سوى أن تعلم هذه المرأة بمفردها ، فإن لها أن تثق أنها جزيت أوفى جزاء بما شاهدته فى تلك الليلة على السواد الخمس الشاقه .

وكانت أنّة قد أرجأت إخبار معظم النساء والأطفال أنها مسافرة حتى اقترب اليوم . فلما أعلنت ذلك كادت لا تقوى على مواجهتهم ، وظل البعض يأبى أن يصدق أنها ذاهبة حقاً ، فلما انقطع الشك أولوها من مظاهر الحب والإخلاص ما غلبها على أمرها ، فتدفقت الهدايا من كل نوع بكثرة تورث الارتباك ، وبعث كثيرات من النسوة مبالغ من المال لتستعين بها أنّة على الرحلة ، وجاء أفقر الجوارى وأصغرهن شأناً ، بالأرز والكعك والبقول المجففة والسكر ، وحاولت أنّة عبثاً أن تفهمهن برفق أنها لاتستطيع أن تأخذ كل هذه الأشياء معها .

أما الملك فكان صامتاً مقطباً حتى كان صباح يوم السفر ، ثم سال منه ما كان متجمداً ، فعانق لويس وأعطاه مشبكا من فضة وكيساً فيه مائة ريال ليشترى بها حلوى فى الطريق . ثم التفت إلى أنّة وقال : « يا عزيزتى إنك محبوبة جداً من عامة شعبنا ومن جميع سكان القصر والأطفال الأمراء . وكل امرئ متأثر لرحيلك ، ولا بد أن السبب أنك سيدة طيبة ومخلصة . وكثيراً ما غضبت منك وأضعت حلمى ، وإن كنت أنطوى لك على احترام عظيم ، على أنك يجب أن تعرفى أنك امرأة عسيرة ، وأنك أصعب مراساً من النساء عامة ، ولكنك ستنسين ما كان وتعودين إلى خدمتى ، فإنى أزداد ثقة بك كل يوم . وداعاً ! » .

ولم تستطع أنّة أن تجيب ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وأدركت أن ما حسبته

غير ممكن قد كان . وأنها هى والملك ليسا مخدوماً ومستخدماً ، ملكا ومربية ، بل هما صديقان .

وبعد بضعة أيام رحلت أنة ولويس عن بانجكوك ، ورافقهما كثير من صديقاتها إلى الباخرة ، ثم صارا وحدهما — هى ولويس — يرقبان خط الشاطئ وهو يغيب ويصبح ظلا أشهب رقيقاً .

* * *

ولم تعد أنة إلى سيام بعد ذلك ، ومات الملك بعد عام من رحيلها .

وكانت أنّة قد شغلت بحياة جديدة ، فبعد أن أدخلت لويس مدرسة فى إنجلترا سافرت إلى أمريكا عملا بمشورة الطبيب ، لأن الجو هناك أبعث على النشاط ، وظهرت أولى مقالاتها وفيها تصف بعض تجاربها فى بلاط الملك مونجكوت فى مجلة « أتلانتك منثلى » فى يونيه سنة ١٨٦٩ ثم تلا ذلك كتابان « المربية الإنجليزية فى بلاط سيام » و « قصة الحريم » . وما كادا يظهران حتى انهالت عليها طلبات المحاضرات ، فقضت سنوات توزع وقتها بين الكتابة والمحاضرة .

وبعد ثلاثين سنة من رحيلها عن سيام فى سنة ١٨٦٧ ، زار الملك شولا لونجكورن لندن ، فالتقت أنّة مرة أخرى بأبرز تلاميذها شأناً .

وكان الملك قد تبوأ العرش منذ ٢٩ سنة ، وهو رجل وقور هادئ قوى العزيمة قام بأعمال كثيرة على الرغم من مصاعب عظيمة ، فقضى على عادة السياميين أن ينكبوا بوجوههم على الأرض ساجدين ، وكبح امتيازات الأشراف ، وبدأ بإدخال الاصلاحات الخليقة أن تمحو الرق يوماً ما ، وأسس المدارس فى أنحاء المملكة ، وشجع بعثات المبشرين على فتح المستشفيات والمدارس ، وأعاد تنظيم المحاكم ، وأخذ الموظفون المتعلمون يحلون شيئاً فشيئاً محل رجال الإدارة الإقطاعيين السابقين ، وأوفد الشبان إلى الخارج ليدرسوا ، واستقدم المعلمين من أوربا وأمريكا ، حتى صار أهل سيام يقولون فى حياته إن شولا لونجكورن أعظم ملوكهم .

وهكذا سمعت أنّة الملك يقول — وقلبها يفيض شكراً وتواضعاً — إن الفضل فى المشروعات التى وضعها لترقية مملكته يرجع إلى المبادئ التى بثتها فى أثناء تعليمها له .

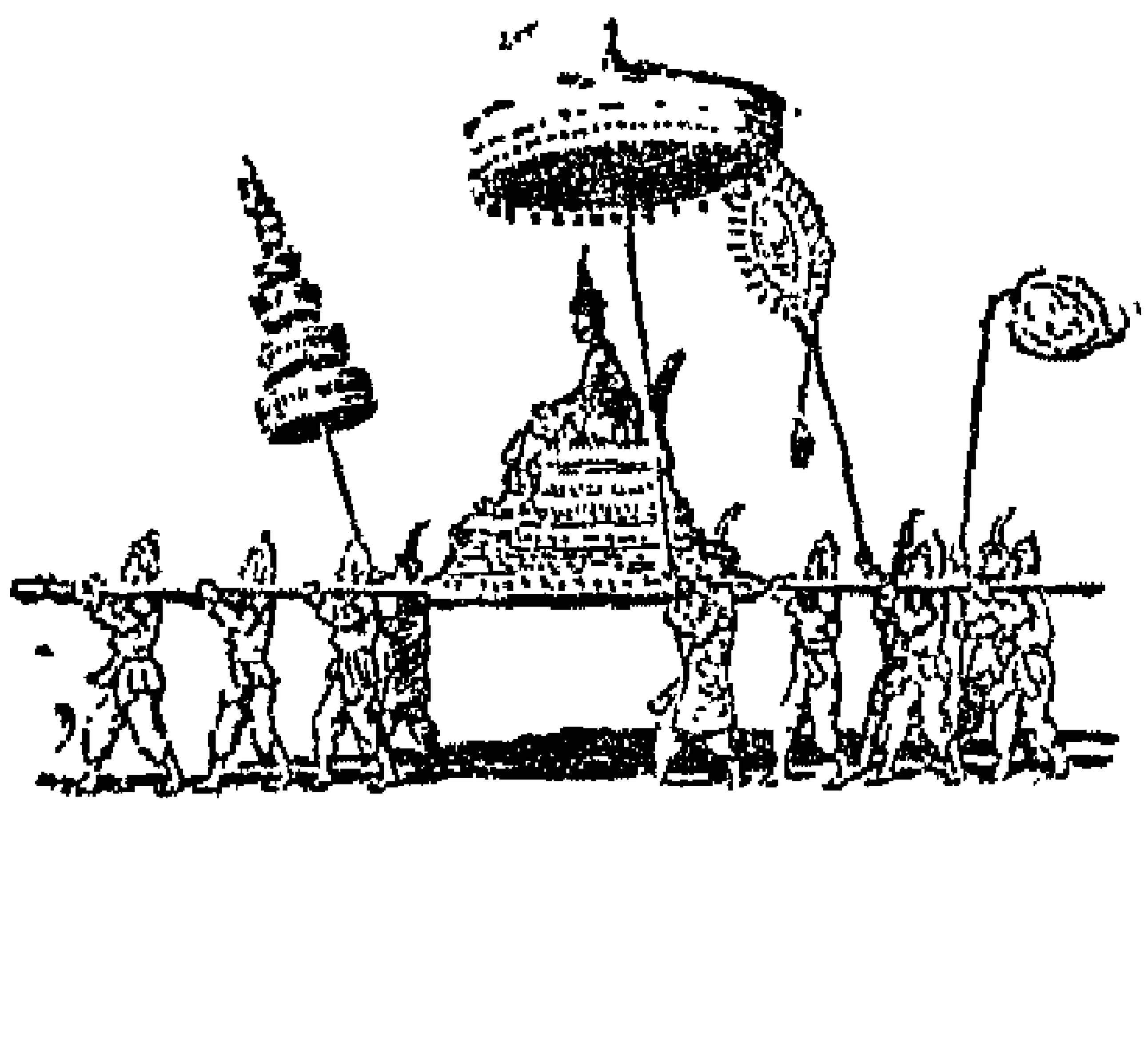

الإنسان... ذلك المجهول

مقتطفات ملخصة عن كتاب "ألكسيس كاريل"

الدكتور ألكسيس كاريل ، الجراح العالم ، وحائز جائزة نوبل الطبية سنة ١٩١٢ لنجاحه فى وصل أوعية الدم بعضها ببعض ، ونقل الأعضاء وزرعها ، يسدد هنا بصره النافذ إلى دراسة الإنسان ، أكثر المخلوقات غموضاً .

فهذا العالم المشهور يصف فى كتابه « الإنسان ، ذلك المجهول » ، بأسلوب صاف فاتن ، ما هو جسدك وما هى وظائفه ، وما يعينك على أن تكون صحيح البدن والعقل ، ويدلك على ما يضرك . والكتاب حافل بالآراء التى تحفز إلى المناقشة ، وبنظرات صادقة سديدة فى حياة الناس فى العصر الحديث ، تلهم الرضى وسكينة النفس .

قال ول دورانت مؤلف قصة الفلسفة : « إن هذا الكتاب هو أعمق كتب الأدب الأمريكى الحديث وأعظمها قيمة وأحفلها بالحكمة » . وقال ستيفن وايز : « سوف يكون له أثر عظيم فى تفكير الناس أجيالا طويلة » .

وقد ظل « الإنسان ، ذلك المجهول » زمناً ، أكثر الكتب رواجا بعد أن نشر سنة ١٩٣٥ ، ولم يزل من أبعثها على منازعة الآراء واحتدامها .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الانسان ، ذلك المجهول

الجسم والوان النشاط الفسيولوجي فيه

المرء عن سواه بقامته وهيأته ومحياه، ويدل مظهره على ما في جسمه وعقله من قوى، وما لهما من صفات. فالرجل الذي كان في عصر النهضة (بعد القرون الوسطى) هدفاً دائماً للأخطار والمحن، والذي تعهد اكتشافات جاليليو بنفس الحماسة البالغة التي أولاها روائع ليوناردو دافنشي، لا يشبه الرجل الحديث الذي يتقلب في ظلال الترف، ويقصر تأملاته على أفلام السينما السخيفة، ويرهف سمعه للمذياع.

إن كل عصر يسم بميسمه الكائنات البشرية التي نعيش فيه، ولقد بدأنا نشهد هذه الأجيال الجديدة من البشر التي صاغت حياتها السيارات والراديو وفنون الرياضة. فهيئتنا تشكلها ما تألفه أبداننا من عادات بل تشكلها أفكارنا المألوفة أيضاً. وصور وجوهنا وأفواهنا وأساريرها تحددها الأحوال التي تألفها العضلات، وهذه الأحوال إنما تعتمد على حالة العقول. فقسمات وجهك تصطبغ، وأنت لا تدري، عامرة بشعور كيانك كله وشهواته وأمانيه. ولا يرى الذي يقرأ ما في صفحة هذا الوجه، رذائل الكائن الحي أو فضائله، وذكاءه أو غباءه، وما يحتال في إخفائه من عاداته فحسب، بل يرى فيه أيضاً تكوين جسده وما هو عرضة له من الأمراض البدنية والعقلية. إن جمال الشباب مستمد من ذلك الانسجام الطبيعي بين أسارير الوجه، أما جمال الشيخوخة — وما أندره — فمنبعه الروح.

يتوقف مظهر العظام والعضلات والجلد والشعر على تغذية الأنسجة، وهذه التغذية إنما ينظمها تركيب مصل الدم، أو بعبارة أخرى: نشاط الغدد وجهاز الهضم. وظاهر الجلد مرآة تنعكس عليها أحوال الغدد الصم والمعدة والأمعاء وجهاز الأعصاب. وثمة تفاوت عظيم في وظائف الأعضاء بين الرجل الطويل النحيل والرجل القصير الممتلىء. فالطويل عرضة للإصابة بالسل والعته، والقصير للهوس المتردد والسكر والروماتزم

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

والنقرس . ولقد كان الأطباء القدماء فى تشخيصهم للأمراض يعلقون أهمية عظيمة على المزاج والطباع ، وكانوا على حق ، ففى وجه كل امرىء صورة جسمه وروحه .

☆☆☆☆

ويكاد الجلد يكون حدوداً منيعة مضروبة على دنيا مستورة محجوبة ، وهو قادر على إتلاف الميكروبات التى تعيش على سطحه ، مستعيناً بمواد تفرزها غدده ، ولا ينفذ فيه الماء ولا الغاز ، ولكن فى استطاعة بعض الكائنات الدقيقة القاتلة أن تجتاز الحدود . وظاهر الجلد معرض للضوء والريح والرطوبة والجفاف والحر والبرد ، أما باطنه فيتاخم عالماً من الماء دافئاً محروماً من الضوء تعيش فيه الخلايا كأنها أحياء البحر . ويستمد الجلد حياته من طبقاته المتعددة من الخلايا التى تتكاثر ببطء وإلى غير نهاية . وتموت هذه الخلايا ولا يزال بعضها متصلا ببعض كأنها لبنات على سطح ، وهى كمثل هذه اللبنات لا تفتأ الريح دائبة تأخذ منها ، ولا يفتأ الجلد يعيضها لبنات جديدة مما تذهب به الريح .

وتحس كريات اللمس الشائعة تحت الجلد كله بالضغط والألم والحر والبرد ، فما كان منها فى اللسان فهو يتأثر بطعم الطعام وبالحرارة أيضاً ، وتؤثر ذبذبات الهواء فى جهاز الأذن المعقد ، وتستجيب شبكة أعصاب الشم للروائح . ومن أجل ذلك كانت سمة الفرد تابعة لسمة سطحه البادى ، لأن المخ يتشكل بالرسائل المستديمة التى يتلقاها من العالم الخارج . ومن أجل ذلك ينبغى أن لا ندع عاداتنا الجديدة ، ونحن لا ندرى ، تغير من حالة هذا الغلاف . فنحن مثلا لا ندرك تمام الإدراك ما للتعرض لأشعة الشمس من أثر فى نمو الجسم كله ، فيخلق بنا إذن أن لا نقبل الإسراف بغير حساب فى دبغ جلودنا بلفح الشمس .

☆☆☆☆

إن الإنسان لا يستطيع أن يفهم الكائن الحى بدراسة جثمانه الميت ، لأن أنسجة الموتى قد حرمت دمها الجارى وعمل وظائفها . والعضو الذى ينفصل عن الوسط المغذى الذى يعيش فيه لم يعد له وجود . وفى الجسم الحى يجرى الدم فى كل مكان ، فتستحم كل الأنسجة فيما يحتوى عليه من سائل شفاف . فلكى نفهم هذا العالم الباطن كما هو ، يجب أن ندرس أعضاء الحيوان الحى والإنسان كما نراها أثناء الجراحات ، لا كما تتفق لنا فى أبدان الموتى . وينبغى أن لا نفرق بين الخلايا وبيئتها كما يفعل علم

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

التشريح ، فإن كل الخلايا الحيـة تعتمـد فى حياتها اعتماداً مطلقاً على الوسـط الذى تـكون مغمورة فيه ، وإنها لتغير هذا الوسط تغيـيراً لا ينتهى ، وتتغير به ، والحق أنها جزء منه وليس لها بغيره حياة .

يتألف الدم من حوالى ٢٥ إلى ٣٠ ألف بليون خلية حمراء و ٥٠ بليوناً من الخلايا البيض ، وهذه الخلايا كلها معلقة فى سائل هو المصل . ويحمل الدم لـكل نسيج من أنسجة الجسم غـذاءه المناسب ، ويقوم فى الوقت نفسه مقـام الأنابيب التى تلقى فيها الفضلات المتخلفة عن الأنسجة الحيـة . ويحتـوى الدم كذلك على مواد كيميائيـة وخلايا قادرة على ترميم الأعضاء كلما مست الحاجة . وإن خواصه هذه فى الحق لعجيبة ، فإن الدم فى أدائه هـذه الوظائف المدهشة يعمل ما يعمل السيل الذى يكون ما يحمل فى عبابه من الطمى والشجر سبباً فى إصلاح ما يتداعى على حِفافيه من معاهد العمران .

وهـذا المصل ، الذى هو زاخر بمواد أكثر مما يظن ، يحتوى على مواد زلالية وأحماض وسكريات ومواد دهنية ومفرزات من كل الغدد والأنسجة ، وعلمنا بطبيعة أكثر هذه المواد ووظائفها الشديدة التعقيد علم ناقص . وفى الدم فوق هـذا أجسام مضادة للميكروبات ، تظهر عند ما يكون لزاماً على الأنسجة أن تحمى نفسها من غزو الجراثيم . يضاف إلى ذلك أن فى هذا المصل مادة زلالية تدعى « الفيبرين » تلتصق خيوطها من تلقاء نفسها بالجروح فتـكفـها عن النزف .

ويسرى فى الجسم بأسره هذا الفيض من مواد الغـــذاء . وليست أغشية الهضم بمساحاتها الواسعة جداً مرشحاً لهذه المواد فحسب ، ولـكنها تقوم منهـا أيضاً مقام المصنع الـكيميائى . وتفرز الأغشية المخاطية التى تغطى باطن الجوف، مقادير عظيمة من السوائل ، وتمتص مثلها ، فتأذن خلاياها للأطعمة بعد هضمها أن تنفذ إلى الجسم ، ولـكنها تمنع الميكروبات التى تزخر بها قناة الهضم أن تنفذ . وهذا العدو المخوف لا يقل خطره ولا يزول . فى الحلق والأنف تعيش الميكروبات الفيروسية ، وفى اللوزتين تثوى الجراثيم السبحية وجراثيم الدفتريا، وتتكاثر ميـكروبات الحمى التيفودية والدوسنطاريا بسهولة فى الأمعاء . وسلامة أغشية التنفس والهضم لها سيطرة عظيمة على مقاومة الجسم للأمراض المعدية ، وعلى توازنه وكفايته واتجاهاته الفـكرية .

وتشدّ غدد التناسل أزر القوى البدنية والعقلية والروحية جميعاً ، فما من خصىّ أصبح فيلسوفا عظيما قط ، أو عالماً كبيراً ،

أو حتى مجرماً خطيراً . وتفرز الخصيتان والمبيضان فى الدم موادّ معينة ، تجعل لأفعالنا كافة مميزاتها الخاصة ، فإفراز الخصيتين يورث الجرأة والضراوة والقسوة ، وهى السجايا التى تميز ثور الصراع من الثور الذى يجر المحراث فى الحقل . ويؤثر إفراز المبيضين فى كيان الأنثى أثراً مشابهاً .

والفِلْذة من النسيج الحى إذا وضعت فى قارورة احتاجت إلى مقدار من السائل يعادل حجمها ألفى مرة ، كى لا تقتلها فضلاتها السامة فى بضعة أيام . وعلى هذا لو أن الجسم البشرى أحيل عجينة ، وزرع زرعا صناعياً ، لتطلب ٢٢٥٫٠٠٠ لتر من السوائل المغذية . ولكن نظراً للكمال الخارق الذى امتازت به الأنسجة المسؤولة عن دورة الدم فى الجسم ، وعن ثروته من المواد الغذائية ، وعن نفض الفضلات منه على الدوام ، نجد أنسجتنا تستطيع أن تحيى فى سبعة لترات أو ثمانية من السوائل بدلا من ٢٢٥٫٠٠٠ لتر .

ويسرى الدم فى الأنسجة بسرعة تكفى لمنع تركيب الدم من أن يتأثر بما يلقى فيه من الفضلات . ويقدر كل عضو مقدار الدم اللازم له وسرعة جريانه فيه ، وذلك بمعونة الأعصاب التى تسيطر على أوعيته الدموية . فالمخ وسائر الأعضاء يتطلب كل منها ضغطاً خاصا للدم الجارى فيه ، ويتوقف أمر سلوكنا ونوع أفكارنا على حالة دورتنا الدموية توقفاً كبيراً . وكل الجهود البشرية تابعة لحالة هذا الوسط الغذائى .

وعندما يعود الدم من العضلات والأعضاء إلى القلب تدفعه نبضات القلب إلى شبكة الشعيرات الدموية الهائلة فى الرئتين ، حيث تأخذ كل كرة حمراء حظها من أوكسجين الجو ، وفى نفس الوقت تنفض فى الجو الخارجى ثانى أكسيد الكربون بحركات التنفس . وتتم تنقية الدم فى الكلى حيث تنفصل منه بعض المواد خارجة مع البول ، وحيث تقدر هى مقدار الأملاح الضرورية للمصل . ويجرى عمل الرئتين والكلى بكفاية عظيمة ، وإن نشاطهما البالغ لهو الذى يهيىء للبيئة المائية اللازمة للأنسجة الحية أن تكون قليلة فى مقدارها كل هذه القلة ، ويهيىء للجسم البشرى أن يكون مدمجاً خفيف الحركة .

وفى الدم فوق ما فيه من أوكسجين الهواء ومنتجات الهضم فى الأمعاء ، نوع آخر من المواد المغذية مكون من إفرازات الغدد الصم التى من خواصها العجيبة أن تصنع من مفردات الدم الكيميائية مركبات جديدة . ومن عمل هذه المركبات أن تغذى بعض الأنسجة وتنبه بعض الوظائف . ويشبه هذا الأسلوب فى أن يجدد الشىء

نفسه بنفسه ، أسلوب تربية الإرادة بجهد الإرادة نفسها . فالغدة الدرقيـة والغدتان فوق الكليتين ، والبنكرياس مثلا ، تصنع مركبات جديدة هي الثيروكسين والأدرنالين والأنسولين على التوالى ، فهى مصانع كيمياثية حقيقية . وتصنع بهذه الطريقة مواد لا غنى عنها فى تغـذية الخلايا والأعضاء ، وفى شتى وجوه النشاط البدنى والعقلى . وهذه الظاهرة تشبه فى غرابتها سيارة تستطيع بعض أجزائها أن تصنع الوقود الذى تستهلكه أجزاؤها الأخرى ، وأن تصنع المواد التى تعجل حرق هذا الوقود ، بل أن تصنع خواطر المهندس الميكانيكى نفسه أيضاً . وإلى هذه الغدد يعود الفضل فى حياة الجسم وما ينطوى عليه من شتى ألوان النشاط .

فالإنسان أولا كيان قائم على التغذية ، فهو مركب من حركة دائبة بين مواد كيمياثية ، وتجرى المادة جريانا دائماً بين خلايا الجسم كلها ، تهب للأنسجة ما تتطلبه من الطاقة وتمنحها المواد الكيمياثية التى تبنى لأعضائنا ومزاجنا كيانها المؤقت الرقيق .

****

ليست وظائف الجسم من دقة التحديد كأعضائه ، وإنما هى أقل منها فى هـذه الناحية بكثير . فالهيكل العظمى مثلا ليس دعامة للجسم وحسب ، بل يؤلف أيضاً جزءاً من أجهزة الدم والتنفس والغذاء ، مادام يستعين بنخاع عظامه على صنع الخلايا البيض والحمر . والكبد تفرز الصفراء وتفتك بالسموم والميكروبات ، وتختزن النشاء الحيوانى ، وتنظم تمثيل السكر فى كيان الجسم كله ، وتنتج الهيبارين . وعلى غرار ذلك لا يقتصر البنكرياس ولا الغدتان فوق الكليتين ولا الطحال على وظيفة واحـدة ، بل لكل منها وجوه مختلفة من النشاط ، وتكاد تشاطر الجسم كل ما يجرى فيه من أمور . وليس العضو محدوداً بحدوده الظاهرة ولكنه يصل إلى حيث تصل المادة التى يفرزها ، فكل غدة تبسط ظلها على الجسم كله بإفرازها الخاص . فلو فرضنا أن المواد التى تنتجها الخصيتان كانت زرقاً ، لشاع اللون الأزرق فى جسد الذكر كله ، ولكانت الخصيتان نفسهما أشد من سواها زرقة ، ولانتشر هذا اللون الخاص فى كل الأنسجة والأعضاء حتى الغضاريف والعظام .

ويجدد العضو نفسه بطرق تعد غريبة على العقل . فما هو بالمصنوع من مادة دخيلة عليه كما يصنع البيت ، ولا هو ببنيان مرصوص من الخلايا ، إنه بالبداهة مكون من خلايا كما يتكون البيت من لبنات ، ولكنه يولد من خلية واحدة حتى كأن

البيت قد استوى بناؤه من لبنة واحدة ، لبنة سحرية طفقت تصنع سواها من اللبنات ، وهذه اللبنات لا تنتظر تصميم المهندس ولا قدوم البنائين ، ليتجمع بعضها على بعض وتنشئ الجدران ، وهى أيضاً تتحول فتصير ألواحاً للنوافذ ، وبلاطاً للسقف ، وفحماً للتدفئة ، وماء للمطبخ ، وحماماً . وكذلك ينمو العضو بوسائل تشابه الوسائل المعزوة إلى الجنيات فى أساطير الأطفال ، ويتخلق من خلايا كأنها تعلم ما سيكون عليه الصرح المنشود ، وتخلط له من محتويات مصل الدم مواد البناء ، بل توجد له العمال أيضاً .

والجسم غاية فى القوة ، يعد نفسه لكافة الأجواء من زمهرير القطبين إلى قيظ المناطق الحارة ، ويقاوم كذلك الحرمان من الطعام ، وأهوال الجو والتعب والشدائد . والإنسان أصلب الحيوان عوداً ، وإنا لنديم مقارنة الجسم بالآلات بلا وعى ، فقوة الآلة تعتمد على المعدن الذى صنعت منه ، ولكن قوة الإنسان مستمدة من مرونة أنسجته وتماسكها ، وقدرتها على النمو لا على التهافت والفناء ، وقوتها على التغير كلما تغيرت الظروف . وليست مقاومة الإنسان للمرض ، واحتماله للعمل والمتاعب ، وطاقته على السعى ، وتوازن أعصابه ، سوى آيات لسموه على سواه .

وهذه المزايا ، وإن كانت وراثية ، قد تمحى حتى فى أعظم الأمم وأغناها ، ويدل تاريخ المدنيات الغابرة على أن مثل هذه الكارثة محتمل الوقوع . ويوهب الفرد المنحدر من سلالة أمة عظيمة ، إذا لم يبتل بالانحلال ، مناعة طبيعية من التعب والخوف ، فهو لا يفكر فى صحته ، ويتجاهل وجود الأطباء ، وينظر إلى نفسه كأنما قضى عليه أن يناضل ويحب ويفكر ويقهر . وهو يواجه البيئة التى يعيش فيها بمثل البساطة التى يثب بها الحيوان الضارى على فريسته ، غير شاعر بتكوينه المعقد أكثر من شعور هذا الحيوان .

إن كثيراً من الناس ليسوا أصحاء ، وإن هم لم يكونوا مرضى . ولعل مرد ذلك إلى نقص يشوب نشاط بعض الأنسجة فى أجسامهم ، فقد يكون إفراز هذه الغدة أو ذاك الغشاء المخاطى دون الكفاية أو فوقها . وقد تكون أجهزتهم العصبية مرهفة الأحساس ، أو لا تكون أنسجتهم من القدرة على مقاومة العدوى بحيث ينبغى أن تكون . وتجلب هذه النقائص على مثل أولئك الأشخاص شقاء كبيراً . وسيكون من يعثر فى المستقبل على طريقة ما لتحريض الأنسجة والأعضاء على أن ينسجم بعضها

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مع بعض فى النمو ، محسنا قد أدّى للبشر أكثر مما أدى باستير نفسه .

وللجسم وحدته فى المرض ، كما أن له وحدته فى الصحة ، فهو يمرض جميعاً إذا مرض ، ولا يبقى أى انحراف يصيبه مقصوراً على عضو واحد لا يتعدّاه . ولقد كان من آثار الفكرة التشريحية القديمة للجسم البشرى ، أن انساق الأطباء إلى النظر إلى كل مرض كأنه وقف على العضو الذى يصيبه ، وقلما استطاع أن يفهم هذا الجسم إذا اعتلّ سوى أولئك الأطباء الذين يعرفون الإنسان تفصيلا وإجمالا فى عقله وبدنه على السواء .

جسور العقل

يدخل فى تركيب المراكز المخية سوائل تحتوى على مفرزات الغدد والأنسجة التى تشيع فى البدن كله ، وكذلك يكون كل عضو ممثلا فى قشرة المخ السمراء . فإذا حرم الدم وسائله الشفاف من إفراز الغدتين فوق الكليتين غلب على نفس المريض فتورها . وكل منا يدرك كيف تتأثر شخصية الإنسان بأمراض الكبد والمعدة والأمعاء . ويتضح من ذلك أن خلايا الأحشاء تقذف فى سوائل الجسد موادّ معينة تؤثر فى وظائفه العقلية والنفسية .

وتؤثر الخصية أثراً عميقا فى قوة العقل وقدرته . وفحول الشعراء والفنانون والقديسون وكذلك الغزاة الفاتحون ، هم عامة من أصحاب القوة الجنسية العظيمة . ويحدث استئصال الغدد الجنسية بعض التطور فى قوى العقل ، ويبدو أن الإلهام يعتمد على أحوال خاصة فى الغدد الجنسية ، والحب إذا لم يدرك بغيته نبّه العقل ، فلو ظفر دانتى ببياتريس فصارت خليلة له ، فلربما عدمنا « الكوميديا الإلهية » آيته الشعرية. ومن المعروف أن الإفراط الجنسى يعوق نشاط العقل، ويبدو أن الذكاء، لكى تكتمل قواه ، يحتاج إلى غدد جنسية كاملة النمو ، يظاهرها قمع مؤقت للشهوة .

فإذا ألف المرء عواطف الحسد والبغض والخوف ، أصبح فى قدرتها أن تحدث تغيرات عضوية وعللا حقيقية ، فآلام النفس وتباريحها تزلزل الصحة . ورجال الأعمال الذين يجهلون كيف يكافحون الهموم يموتون صغاراً . وتسيطر العواطف على انبساط الشرايين الصغيرة أو انقباضها بوساطة الأعصاب التى تنظم الدورة الدموية ، فهى مصحوبة إذن بتغيرات فى هذه الدورة ، فالسرور يضرّج الوجه حُمرة ، والفزع يجعله شاحباً ، وذلك أن الظرف المؤثر إما أن يهيج إفراز الغدد أو يبطله أو يغير تركيبه الكيميائى.. وقد قام الدليل على أن

الصدمة النفسية قد تسبب تغيرات واضحة للعالم فى الدم . ويورث التفكير نفسه ألواناً من الأذى للبدن ، وتنشىء ذبذبة الحياة الحديثة واضطرابها الذى لا ينتهى حالات فى العقل تصيب المعدة والأمعاء باضطرابات عصبية وعضوية وتؤدى إلى نقص التغذية ، وتقحم جراثيم الأمعاء فى الدورة الدموية وثمة التهابات شتى فى الكلى والمثانة ليست إلا آثاراً بعيدة أسبابها ، من جراء اضطرابات قديمة تخامر العقل والنفس. ومثل هذه الأمراض تكاد تكون مجهولة فى طوائف المجتمع حيث مناهج الحياة أكثر بساطة ، وحيث القلق أقل تتابعاً ودواماً . ومثل هؤلاء ، أولئك الذين يحافظون على سكينة نفوسهم فى صخب الحياة، فهم بمنجاة من كل اضطراب عصبى أو عضوى ، فالإنسان إنما يفكر ويخترع ، ويحب ويتألم ، ويعجب ويصلّى ، بعقله وأعضائه جميعاً .

وجهود العقل تنميها الرياضة ، والذكاء ينبغى أن يصاغ بالتعود على التفكير المنطقى . فكل إنسان يولد وقوى عقله تختلف عن قوى سواه ، ولكن أياً كان أمر هذه القوى الكامنة من قوة أو ضعف ، فهى فى حاجة إلى الرياضة المستمرة . فقوى العقل ينميها التعود على التفكير المنظم ، ودراسة المنطق ، وخضوع العقل للنظام ، وقوة ملاحظة الأشياء . وعلى نقيض ذلك كان مما يعوق نمو العقل تلك الملاحظات الخاطفة وتلاحق المؤثرات ، وفقر المرء إلى التفكير المرتب. ويؤثر أيضاً نمو الذكاء فى بعض عادات المعيشة والطعام ، ولعل التخمة والإفراط فى الألعاب الرياضية يمنعان نمو العقل ، فالرياضيون عامة ليسوا على حظ كبير من الذكاء . ومن المحتمل أن يكون العقل يتطلب ، لكى يصل إلى أقصى نموه ، سلسلة من الظروف لم تجتمع إلا فى عصور معينة . فماذا كان منهاج حياة أولئك الرجال الذين عاشوا فى العصور المجيدة من تاريخ المدنية ؟ وماذا كانوا يأكلون؟ وكيف كانوا يتعلمون؟ إننا نكاد نجهل كل الجهل سرّ نشأة الذكاء ، ومع ذلك فنحن نؤمن بأن عقول الأطفال يمكن تنميتها بتمرين الذاكرة وشتى الرياضات التى تمارس فى المدارس الحديثة !

وللعباقرة ، على ما وهبوه من قوى الملاحظة وسعة الإدراك ، مزايا أخرى كالبصيرة والخيال المبدع ، وبهذه البصيرة يتعلمون أشياء يجهلها سائر الناس . فالقائد الحق من قادة الشعوب لا يحتاج إلى اختبارات نفسية فى اختيار أتباعه ، بل هو يقدّر الرجل قدره فى لمح البصر ، ويدرك فضائله ورذائله . والعالم العظيم يتبع بغريزته السبيل الذى يؤدى به إلى الكشف

عن مجهول . والمعرفة التى يمتاز بها الأطباء العظماء فى الطب لمرضاهم فى بعض الأحيان ، إنما تنبع من هذا الينبوع . وهذه الظاهرة كانت تسمى يوماً ما إلهاماً .

والإرادة والذكاء عملان متشابهان فى أرقى البشر تهذيباً وحضارة .

ومن الإرادة والذكاء تنشأ كل قيم الأخلاق . وكل امرئ يولد ، على قدر محدود ، إما صالحا أو طالحا أو بين بين ، ولكن الأخلاق يمكن أن تنمى كالذكاء بالتعليم والنظام وقوة الإرادة ، فالخير يعادل الإحسان والعدل والجمال ، والشر يعادل الأنانية والخسة والقبح . ولكى يحافظ المرء على استواء عقله وبدنه ، يجب عليه أن يفرض على نفسه نظاما تخضع له . ويجب على كل إنسان أن يدرك ضرورة إخضاع نفسه لمثل هذا النظام بمجهود من إرادته هو .

إن الذكاء والإرادة والخلق متقاربة النسب أشد تقارب ، ولكن الأخلاق أهم كثيراً من الذكاء ، فإذا عدمتها أمة من الناس بدأ كيانها الاجتماعى كله يتقوض . والجهود الساعية إلى تهذيب الأخلاق لم تنل ما هى خليقة به من العناية ، فيجب أن تدرس مسائل الأخلاق بطريقة إيجابية كما يدرس الذكاء . ومثل هذه الأبحاث لا يمكن بالطبع القيام بها فى معمل ، ولا غنى عن دراستها فى البشر أنفسهم ، ولكن هذه الجهود الأخلاقية تقع فى حيز الملاحظة العلمية دون ريب .

إننا حين نلاقى ذلك الشخص النادر الذى يسير فى الحياة سيرة يستلهمها من مثل خلقى أعلى ، لا يسعنا إلا أن ننتبه إلى طلعته ، فإن الجمال الخلقى ظاهرة نادرة تلفت النظر ولا ينساها المرء أبدا . وهذا النوع من الجمال أشد أثراً من جمال الطبيعة ، وهو يجعل للذين رزقوا من نفحاته العلوية قوة عجيبة خفية السر ، وينمى قوة الذهن ، وينشر السلام بين البشر ، ويمكّن للمدنية أكثر مما يمكن لها العلم والفن .

إن حاسة الجمال مركبة فى فطرة البشر من أدنى درك فى سلم المدنية إلى أعلى درج فالإنسان يسره أن يعمل أشياء أوحت له بها نفسه . وفى أوربا تجد فنانين بين الطهاة وقطاع الحجر وصناع الأحذية والميكانيكيين ، وأولئك الذين يصبون الفطائر على أشكال جميلة وذوق دقيق ، والذين يطرقون الحديد ليصنعوا منه الأبواب الفخمة ، والذين ينسجون الأقمشة الجميلة — يحسون من نشوة الإبداع ما يحسه عظماء النحاتين والموسيقيين .

ويظل نشاط حاسة الجمال كامنا فى معظم الناس لأنهم انقلبوا فصاروا آلات . فالعامل

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يقتصر على صنع مفردات من العمل ، ولا يباح له أن يصنع الشيء كاملا أبداً ، بل لا يؤذن له أن يستعمل ذكاءه . إن الصناعة تحرّم على المرء كل لون من ألوان نشاط عقله الذي يمكن أن يمدّه كل يوم بمتاع . وقد ارتكبت المدنية الحديثة خطأ كبيرا ، حين ضحت بالعقل في سبيل المادة ، ويتفاقم أمر هذا الخطأ لأنه لم يجد من يثور عليه ، ولأن الناس قد هان عليهم أن يتقبلوه كما تقبلوا الحياة الضارة بالصحة في المدن الكبيرة وكما تقبّلوا أن يسجنوا في المصانع . وكيفما كان ، فإن أولئك الذين يجدون في عملهم أثارة من الشعور بالجمال أكثر سعادة من أولئك الذين لا يعملون إلا لكي تستهلكوا ما ينتجون . إن الجمال كامن في كل مكان ، وهو يفيض من الأنامل التي تصب آنية الفخار ، أو تنسج الحرير ، أو تنحت الرخام ، أو ترتق فتوق لحم البشر . ونراه في جداول جاليليو الرياضية ، كما نراه في تجارب باستير . وهو للذين يكشفون الغطاء عن مستقره ، معين سعادة لا يغيض .

وقلما نجد في الرجل من أهل هذا العصر سمات النشوة الروحانية أو الروح الدينية ، فأغلب الناس لا يرى الكنائس إلا متاحف ديانات بائدة . والنشاط الديني ليس سوى إلهام غامض يتجه بالإنسان نحو قوة تسيطر على هذا العالم . إنه ضرب من الصلاة لم تقيد صورته ، أو بحث عن الجمال المطلق . وهذا النشاط سخي كل السخاء فهو يمد الإنسان بقوة كامنة في النفس ، ونور في الروح ، وسكينة لا يحيط بها الوصف .

أسرار الملاءمة

هناك بون بعيد بين قوة أجسادنا على البقاء ، وإسراع عناصرها إلى التحول . فالإنسان مكوّن من مادة رخوة قابلة للتغير ، متهيئة للانحلال في بضع ساعات . ومع ذلك فلو كان قد صنع من الفولاذ لما كان أطول بقاء . وهو خير من الحيوان بكثير في الملاءمة بين نفسه والظروف المتبدلة والتقلبات الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية . ويعود مثل هذا الاحتمال إلى طريقة النشاط الخاصة التي تتخذها أنسجته وأخلاطه . فبدلا من أن يتهافت الجسم فإنه يتبدل ، وترتجل أعضاؤنا على الدوام وسائل نواجه بها كل موقف جديد .

فإذا استؤصل نصف الغدة الدرقية ازداد حجم النصف الباقي ، وكانت زيادته أكبر مما يلزم بوجه عام . واستئصال كلية واحدة يليه تضخم الأخرى ، ولو أن إفراز البول

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يمكن أن تكفله كلية واحدة سليمة . وإذا لم يكف إفراز غدة ما ، فإن الغدد الباقية تزيد من نشاطها لتعوض إفراز الغدة المعطلة . وإذا اختلّت الكليتان ارتفع ضغط الدم في الشرايين ، كي يدفع مقداراً أكبر من الدم خلال المرشح المختل .

وكل عنصر من عناصر الجسم يتشكل ليوائم سائر العناصر ، وكذلك تفعل كلها ، يعينها على ذلك ارتباطها جميعاً بالسوائل العضوية والجهاز العصبي . ويبدو أن كل جزء يدرك حاجات الجسم كله في الحاضر والمستقبل ، فيعمل على أساس ما تقتضيه ويشعر الجسم بالمستقبل شعوره بالحاضر . فإذا ما أشرف الحمل على غايته أخذت السوائل تتدفق إلى أنسجة الشفرتين والمهبل ، فتصبح هذه الأنسجة رخوة مطاطة ، وتجعل مرور الجنين فيها ممكناً بعد بضعة أيام . وفي الوقت نفسه تضاعف الغدد الثديية خلاياها ، ثم تشرع في عملها قبل الولادة . وكذلك يتهيأ الثديان لإرضاع الطفل وينتظرانه . ومن الواضح أن كل هذه الأعمال تمهيد لحادث مقبل .

وتظل الأنسجة تمهد للمستقبل طوال حياة الجنين ، فالأجزاء التي تتكون منها العين مثلا تتعاون على هدف معين ، وإن يكن هدفاً مستقبلا ، : ٠٠١ جزء من سطح المخ يتكون منه عصب البصر وشبكية العين ، ويتحول الجلد الذي يغطي هذه الشبكية الناشئة تحولا عجيباً فيشف حتى يؤلف القرنية والعدسة البلورية ، ويؤسس هذا الجهاز المبصر العظيم الذي نسميه العين . فبأية وسيلة تؤثر الشبكية المستقبلة في الجلد فتجعله يصنع عدسة قادرة على إبراز صور الدنيا الخارجة على أطراف أعصابها ؟ وأمام العدسة تتشكل القزحية نفسها على صورة غشاء مثقوب يتسع ثقبه أو يضيق تبعا لشدة الضوء ، يضاف إلى ذلك أن شكل العدسة يهيىء نفسه بنفسه كي يستطيع الرؤية القريبة أو البعيدة ، وصلة هذه الأجزاء بعضها ببعض مما لا يمكن إيضاحه .

إن صلة الأعمال العضوية بعضها ببعض يصبح ظاهراً عقب النزف ، ففي البداية تنقبض جميع أوعية الدم ، فيزداد حجم ما يبقى فيها من الدم نسبيا ، وبذلك تحتفظ الشرايين بضغط يكفي لاستمرار دورة الدم ، ويشعر المصاب بظمأ شديد ، فتنفذ سوائل الأنسجة خلال جدران الأوعية الشعرية وتغزو مجرى الدم ، كما أن الدم يمتص السوائل التي تدخل المعدة ، ويستعيد حجمه الأصيل ، ثم يستمد الخلايا الحمر من مستودعاتها الاحتياطية في الأعضاء التي تخزن فيها ، وفي النهاية يأخذ نخاع العظم

فى صنع خلايا حمر يكمل بها تجديد الدم . وقصارى القول أن أجزاء الجسم جميعا تشاطر فى هذه الظاهرة .

فإذا أصاب الجلد أو العضلات أو أوعية الدم أو العظام أذى ، هيأ الجسم نفسه فى الحال ليلائم الحالة الجديدة ، ويجرى كل شىء كما لو كان الجسم يتخذ سلسلة من الخطوات كى يصلح الفساد الحادث . وكما حدث فى تجديد الدم ، تنهض إلى العمل أجهزة مختلفة المكان متحدة الهدف . فإذا قطع شريان انبثق منه الدم بغزارة ، وانخفض الضغط الشريانى ، وأحس المصاب بغشية مفاجئة ، ثم يقل النزف ، ويتكون فى الجرح غشاء من الفيبرين ، وعندئذ ينقطع النزف . وخلال الأيام التالية تغزو الخلايا البيض وخلايا الأنسجة هذا الغشاء ، وتدأب على إقامة جدار الشريان .

وإذا انكسرت جارحة من جوارح الجسم ، فإن الأطراف المسنونة من العظام المصدوعة تمزق العضلات وأوعية الدم ، وسرعان ما تحاط بغشاء دموىّ من الفيبرين ، ثم تنشط الدورة الدموية ، فتتورم الجارحة المصابة ، وتفيض على العضو الجريح المواد الغذائية اللازمة لتجديد الأنسجة . وتتجه كل الجهود نحو الإصلاح ، فتصير الأنسجة إلى الحالة التى ينبغى أن تكون عليها لتؤدى نصيبها من العمل المشترك . فتتحول مثلا قطعة من العضل قريبة من موضع الكسر إلى غضروف ، ويستحيل هذا الغضروف فيما بعد إلى نسيج عظمى ، ويحدث خلال هذا الإصلاح عدد عظيم من الظواهر الكيميائية والعصبية والدموية والخلوية . وكل هذه الظواهر متصل بعضها ببعض ، ويبدأ الدم ، الذى يسيل من الأوعية ساعة الإصابة ، أعمالَ التجديد الفسيولوجية ، وتتلاحق الظواهر ناشئاً بعضها عن بعض .

إن علمنا بهذه الخطوات التى يتخذها الجسم نحو الشفاء ، هو الذى خلق الجراحة الحديثة ، ولو لم يكن من الجسم هذا السعى فى سبيل البرء ، لما استطاع الجراحون أن يعالجوا الجروح ، إذ لا سلطان لهم على أسباب الشفاء ، وإنما يقتصرون على توجيه هذه الأسباب التى تعمل عملها من تلقاء نفسها .

****

على أن ثمة عوامل لا تجدى فيها هذه الأسباب المصلحة أية جدوى ، فمرض الزهرى مثلا أحد هذه العوامل . فهو لا يترك فريسته مختاراً أبدا ، وهو يستقر فى الجلد أو أوعية الدم أو المخ أو العظام ، فلا تقوى خلايا الجسم ولا أخلاطه على قتاله ، ولا يسلس

الزهرى قياده لغير العـلاج الطويل . والسرطان كالزهرى لا يجد من الجسم مقاومة ، فهـذه الأورام قريبـة الشبه بالأنسجة الطبيعية حتى تجد الجسم لا يشعر بوجودها. وأما أعراضها حين تظهر، فليست إلا نتائج مباشرة لأفاعيل الورم السيئة ، أو منتجاته السامة ، أو إتلافه عضواً مهما ، أو ضغطه على عصب من الأعصاب .

****

إن البيئة تسم الـكائنات البشرية بوسمها الذى لا يمحى ، ويؤدى النشاط العنيف الذى يبديه العضل أيضاً إلى تطورات دائمة . فالرعاة يكتسبون قوة ومنعة ومرونة لا يمكن أن يظفر بمثلها أي رياضي محفوف بالترف الذى تهيئه له الجامعات الحديثة..

لقد كان بقاء الإنسان فى الأزمان الغابرة يرجع كله إلى قدرته على مطابقة نفسه لما يحيط به ، أما المدنية الحديثة فقد استطاعت بمعونة علم الصحـة ، والعيش النـاعم ، والمستشفيات والأطباء والممرضات أن تبقى على حياة كثير من البشر الضعاف البنية . ويساهم هؤلاء الضعفاء وذراريهم مساهمة كبيرة فى إضعاف الجنس كله . ولعل الأخلق بنا أن ننبذ هذا النوع الزائف من الصحة ونصرف جهودنا إلى طلب العافية الطبيعية .

ويبدو أن عمل هـذه الأسباب المصلحة ينبه كل وظائف الأعضاء ، فالإنسان يصل إلى أقصى نموه حتى يكون عرضة لعوادى الحر والبرد ، وحين تكون وجبات طعامه وافرة حيناً ، وزهيدة حيناً آخر ، وحين يبـذل جهداً جهيداً لـكى يظفر بطعامه ومأواه . فقد كتب عليـه أن يروض عضلاته ، وأن يتعب نفسه ويريحها ، وأن يناضل، وأن يتألم، وأن يسعد، وأن يحب وأن يبغض. وإن إرادته لتتطلب أن يتعاقب الجهد عليها والراحة ، وينبغى له أيضاً أن يكافح أخدانه أو يناضل نفسه . لقـد خلق لمثل هذه الحياة كما خلقت المعدة لهضم الطعام . فإذا ما نمت وتكاثرت أساليب مطابقته لما يحيط به بلغت رجولته غاية تمامها . ونحن نعلم أى قوة فى البدن والخلق انفرد بها أولئك الذين خضعوا منـذ طفولتهم لنظام حكيم والذين عانوا بعض الحرمان ، وراضوا أنفسهم على ما حاق بهم من الشدائد . فالمرء إذا خف كساؤه وكان عليه أن يصون حرارة جسمه بالرياضة العنيفة ، تعمل كل أجهزته البدنية عملا كثيراً متواصلا . وعلى نقيض ذلك ترى هـذه الأجهزة تظل هامدة إذا ما اتقى المرء الجو البارد بالفراء وبالملبس الدافىء ، وبجهاز تدفئـة الهواء فى السيارة المغلقة ، أو بجدران الغرف المدفأة بالبخار .

إن رجل العصر لا تضرب الريح جلده قط، فليس عليه أن يذود عن نفسه الثلج أو المطر أو الشمس عدة ساعات . وقد كانت الأجهزة المسؤولة عن تنظيم حرارة الدم والأخلاط البدنية في العهود الماضية تظل في نشاط متواصل، من جراء كفاحها عادية الحر والبرد، أما اليوم فقد أصبحت في خمود مستديم .

وإذا عاش المرء عيشة أكثر شظفا وأشد عناء، استرد قوة نفسه وبسالتها، فينبغي أن نستبدل باطراد الحياة ولين العيش في المدارس عادات أقرب إلى الرجولة . فالمرء حين يطابق نفسه لما يحيط به من النظم تلحقه تطورات واضحة في جهازه العصبي، وفي غدده الصم، وفي عقله، فيصيب الجسم بذلك حظا أوفر من الكمال، ونصيبا أعظم من القوة، وقدرة أسمى على اقتحام مصاعب الحياة .

والإنسان يميل بطبعه إلى إشباع شهواته، كشهوة الخمر مثلا، وشهوة السرعة، وشهوة التغيير على الدوام، ولكن إشباع هذه الشهوات إشباعا كاملا يفضي إلى الانحلال، فعليه إذن أن يروض نفسه على السيطرة على جوعه وعلى نزواته الجنسية، وعلى كسله، وعلى كلفه بالخمر، وعلى حاجته إلى النوم .

إن رجل العصر إما مفرط في النوم وإما مفرِّط، فهو لا يعد نفسه لمطابقة ما يختلف عليه في مثل هذا الأمر . وخير له أن يعود نفسه على أن يظل يقظا حين تدركه الرغبة في النوم، فإن مقاومة النوم يحرك أعضاء تنمو قوتها بالتمرين، وهي تقتضي أيضا بذل مجهود من الإرادة، وهذا المجهود وكثير من أمثاله قد قضت عليه مناهج الحياة في العصر الحديث .

إن الفرد والجماعة تضعفهما شدة الفاقة، وخطر الثراء كخطر الفاقة ! فالفراغ مهلكة للفقراء والأغنياء جميعا . فالسينمات والحفلات والراديو والسيارات والألعاب الرياضية، لا تصلح أن تكون عوضا عن العمل الحكيم . وثم شرطان أساسيان في رقي الإنسان هما شيء من العزلة والنظام، وفي وسع كل إنسان أن يروض نفسه على هذه الشروط . ففي طاقة كل امرئ أن يرفض ارتياد سينمات معينة، أو الإصغاء لبعض إذاعات الراديو، وقراءة بعض الكتب أو الصحف، ولكن تجديد نفوسنا يتوقف في الأغلب على نظام العقل والخلق، ونبذ طباع القطيع . وأهم ما يكون مثل هذا النظام في زمن الكهولة والشيخوخة خاصة، إذ يبدو أن دؤوب الجسم والعقل على العمل

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

يرجىء نزول الشيخوخة . والعمل أجدى من الكحول والمورفين فى احتمال الشدائد، والبطالة تضاعف جميع الآلام . ومجهود العقل المتطاول العنيف يسم الإنسان بسمة لا تزول .

إن العمل ينشط كل الوظائف البدنية والعقلية ، وكلما عملت العضلة ازدادت نماء ، فالعمل يقويها ولا يوهن قوتها . والعضو إذا أهمل ضمر وذبل ، والذكاء والأخلاق كالعضلات والأعضاء تذبل من قلة التمرين ، فبذل الجهد أمر لا غنى عنه للانسان كى يبلغ غايته من الرقى والتهذيب .

عجائب البلاد الشمالية

✲ حين يصفو الجو فى المنطقة المتجمدة الشمالية ، وتهبط الحرارة إلى درجة تتفاوت بين ٥١ و ٦٢ تحت الصفر بميزان سنتجراد ، تستطيع أن تسمع حديثاً عادياً على مسافة تختلف من نصف ميل إلى ميل . وأن تسمع وقع أقدام رجل على ميلين ، ونباح الكلاب أو صوت قطع الأخشاب على عشرة أميال إلى اثنى عشر ميلا .

✲ ترتفع الحرارة فى الصيف إلى ٣٥ درجة سنتجراد ، وقد سجلت هذه الحرارة فى غير مكان واحد داخل الدائرة القطبية الشمالية .

✲ يؤثر البرد الشديد تأثيراً ظاهراً فى الهواء فيجففه . فإذا كانت درجة الحرارة ٣٤ إلى ٦٨ تحت الصفر أحدث هذا الجفاف ظاهرات غريبة ، إذ ترتفع الغيوم من الأنهار الفائضة كأنها دخان حريق فى غاب ، وتعدو الحيوانات فتترك وراءها خطا من الضباب . وقد روى أن وعلا واراه البخار المتصاعد من بدنه ، فلم ير على مسافة عشر أقدام .

✲ يزداد مدى الرؤية فى الهواء البارد ، إن لم تتكثف الرطوبة التى فى الهواء . فاذا كانت درجة الحرارة ٤٦ تحت الصفر ، استطعت أن ترى أجساماً صغيرة لا تراها إذا كانت درجة الحرارة ١٠ فوق الصفر ، إلا على ثلث مسافة بعدها الأول عنك أو نصفها . أما الأشياء البعيدة ، كالجبال التى ترى فى الجو الدافىء أرجوانية اللون غير واضحة المعالم ، فتبدو فى هـذا الجو البارد جلية لا يشوبها لون . وقد اتفق لى أن حسبت جبلا يبعد عنى ٢٠ ميلا ، أكمة لا يزيد بعدها على ميل واحد .

[ستفانسن فى كتابه : « دليل المنطقة المتجمدة الشمالية »]

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

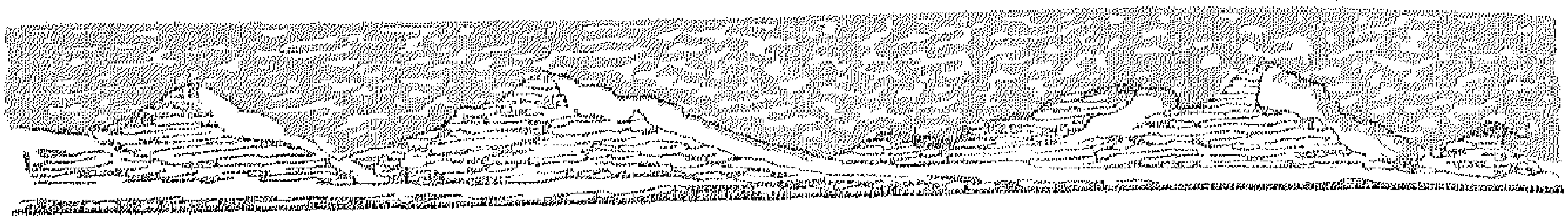

كابلونا

ملخصة عن كتاب

جونتران دى بونسان

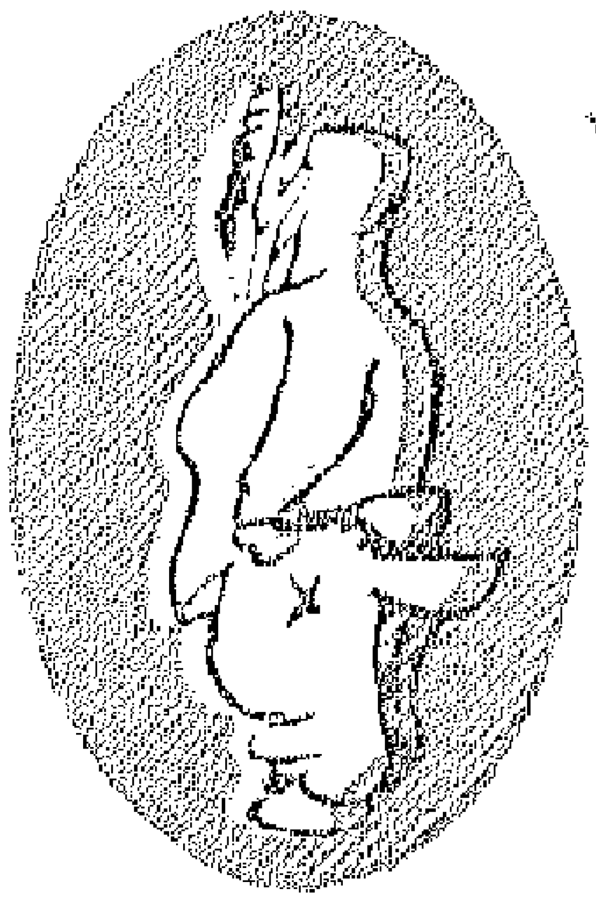

يقول جونتران دى بونسان : « إن من أندر الأشياء فى العالم أن تقع على رجل متحضّر مطمئن النفس » . بيد أنه حين كان فى المنطقة المتجمدة الشمالية ، وعاشر الإسكيمو « غير المتحضرين » الذين لم تفسد فطرتهم ، وحين شاطرهم متاعبهم الفادحة المروعة ، ولذاتهم الفطرية ، ونشواتهم التى تكاد تكون وحشية ، وجد من سكينة النفس ما لم يجده فى أى مكان آخر .

وقد لقى كتابه « كابلونا » الذى يروى فيه تلك المغامرات المادية والنفسية ثناءً عاما من جمهور الناقدين .

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

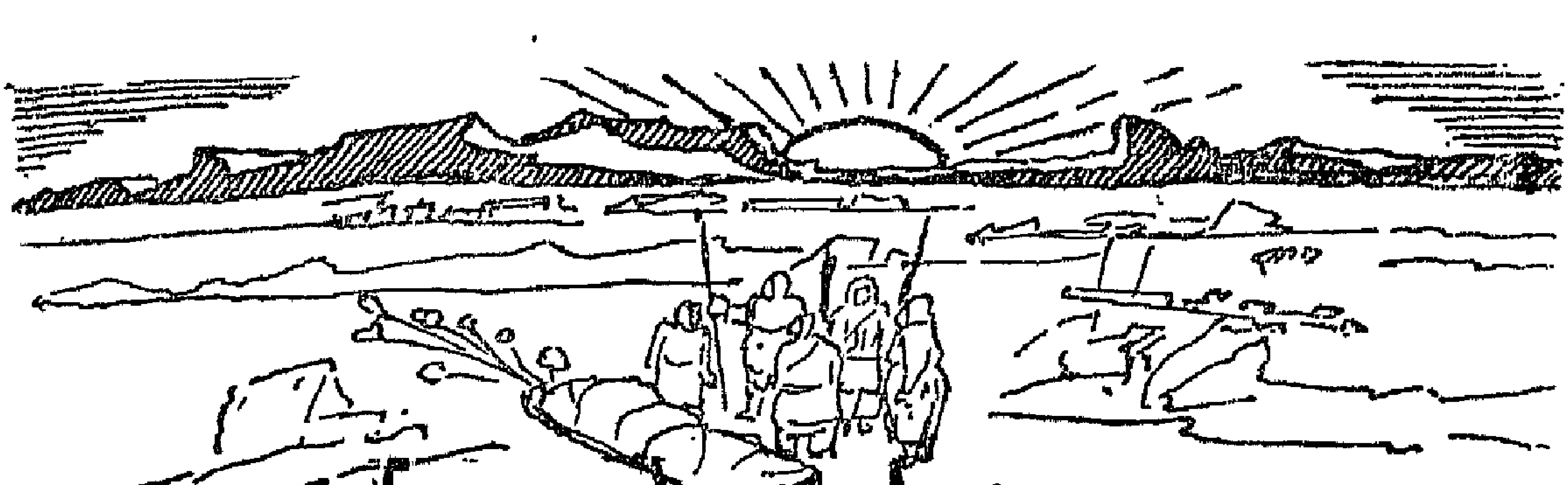

كابلونا

لست أذكر، أكانت صورة شمسية معروضة فى دكان أو ملاحظة عابرة وقعت فى سمعى، هى التى حفزتنى إلى ما فعلت؟ ولكن كل ما أعرفه، قبل ذلك الربيع وأنا فى باريس، أن كلمة «إسكيمو» كانت تدوى فى أعماق نفسى، وجعلت تتردد كأنها رنين ناقوس. واستولت على شيئاً فشيئاً رغبة ملحة فى النزوح إلى المنطقة المتجمدة الشمالية، وأن أعيش بين قوم لا يزالون على الفطرة.

وكان أول أثر لهذه الرغبة فى نفسى هو شعورى بالقلق لا بالعزم والاستقرار، فقد أخذت دنياى تضيق بى، وجعلت أضيق بها، وبدا لى أن أصدقائى لا ينطقون إلا هراء، وأنهم يحيون حياة لا طعم لها ولا معنى. وأخيراً تأتى لحظة، فتفيق فى جوف الليل وتظل بلا حراك، وعيناك مفتوحتان فى الظلام، وتشعر أن شيئاً يوشك أن يكون ثم يكون فعلا: لقد أجمعتَ رأيك.

ووقفت أدق الجرس بباب الآباء الكاثوليك، وأخص أعمالهم أن ينشروا المسيحية بين شعوب الأرض البعيدة التى حرمت هداية الله، ومن هذه الدار لم يزل يخرج القساوسة المسيحيون منذ أجيال مضت إلى أواسط إفريقية وغابات البرازيل والمنطقة المتجمدة.

وبغير تمهيد أفضيت بغرضى من الزيارة إلى القس الذى فتح لى الباب: إنى أريد أن أعيش بين الإسكيمو، لا إسكيمو جرينلندة الذين أشرفت الحكومة على تحضيرهم، ولا إسكيمو ألاسكا الذين ينحتون التذكارات للسائحين، بل إسكيمو كندا الذين يسكنون تلك الأصقاع المتجمدة الوسطى، وقدنأت بلادهم فهم لا يزالون يعيشون على الفطرة كل الفطرة. وكانت الجزر التى يعيشون فيها تابعة لأسقف له طائرته الخاصة. ولقد أمّلت أن يطير بى إلى تلك البقاع، فهل أجد مُعيناً من الآباء؟

وأشاروا علىّ بأن أكتب إلى الأسقف، فكتبت إليه فى إبريل وعنونت كتابى إلى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

«فورت سمث» . وفى آخر مايو تلقيت رده أنه يسره أن يطير بى، ورغب إلى أن أقابله فى ماك مرى بألبرتا الشمالية فى أوائل يوليو.

وكانت هذه الرسالة الغالية ووثائق جمعية باريس الجغرافية التى تدل على أنى من الباحثين فى عادات الأجناس البشرية ، هى كل ما حملته ، ولم يكن معى من المال إلا القليل ، ولم تكن لى خطط موضوعة . فقد وجدت من أمد بعيد — فى الهند والصين وفى بحار الجنوب — أن الحياة تمقت ما نضع من خطط ، وأن لها خططاً تفوق كل ما نتصور .

وغادرت باريس فى ١١ يونيو ١٩٣٨، وفى ٩ يوليو ، وكنت قد بلغت أقصى ما تصل إليها القطارات فى شمال كندا ، ركبت الطائرة مع الأسقف برينات من فورت ماك مرى . وبعد خمسة أيام ، وقد طرنا ١٥٠٠ ميل ، أنزلنا طيار الأسقف فى كوبرماين على المحيط المتجمد. فقابلنا الأب ديلالاند وقادنا إلى دار بعثته . وفى اليوم التالى عاد الأسقف العجوز بعد أن قام بما استطاع من أجلى، حيث أنزلنى فى أبعد منزل من منازل المدينة .

ففى كوبرماين ينتهى عالم الرجل الأبيض، حيث يظل فى وسع المرء أن يتعامل بالنقود وإن كانت قليلة ، وحيث آخر محطة للراديو فى أقصى الشمال ، وهى محطة حكومية تذيع أحياناً بعد ظهر أيام الآحاد ، وترسل رسائل خاصة إلى رجال الدين ورجال البوليس ومديرى البريد فى خليج هدسن، وحيث يزورهم طبيب الأسنان مرة فى السنة يصحبه غلام من الإسكيمو يحمل ثاقبته التى تدار بالقدم .

على أن كوبرماين التى بلغتها بعد سفر ٧٠٠٠ ميل كانت لم تزل تبعد من الأصقاع التى يسكنها إسكيمو المنطقة المتجمدة الشمالية. وكان آخر وجهتى مقر شركة « هدسن باى » فى جوا هافن فى الجزيرة المعروفة بأرض الملك وليم ، وتقع على مسافة ٧٠٠ ميل شمالا شرقيا ، وكان علىّ قبل بلوغها أن أقطع ٢١٠٠ ميل — وهكذا الترحال فى الأصقاع المتجمدة .

ولم أستطع الرحيل من كوبرماين إلا بعد انقضاء أسبوعين أقمت خلالهما مع الأب ديلالاند . وقد لاحظت أن البيض أمثال الأب وزائريه ينقلبون فيعيشون معيشة الإسكيمو ، ولا ينقلب الإسكيمو فيعيشون مثل معيشتهم . فقد كان كل همهم كهمّ الإسكيمو — الجمد ، وتكسر الثلج ، وم كبات الجليد ، وأمراض الكلاب . وأسعار الفراء . وكان يهمهم أمر دليل الكلاب إذا مرض ، أكثر مما يهمهم سلام

أوروبا بأسرها ، فإن دليـل الكلاب فى البـلاد الشمالية هو كل شيء . وقد قال لى الأب ديلالاند : إنه أمضى ست سنين فى هذه الأصقاع قبل أن يتيسر له أن يقع على دليل قادر ، وهو الآن لا ينفك يتحدث عنـه وعن براعته وجرأته .

وكنا إذا تجاذبنا أطراف الحديث لا يفتأ الأب ديلالاند يميـل ببصره إلى النافذة ، ثم يخرج ولما يتم حديثه ليتبينها أهى فقمة فى الماء ؟ فإن الفقمة فى تلك الأصقاع هى الغذاء ، والغذاء أهم من الحديث . والأكل والدفء هما حياة الناس فى الشمال .

على أننى بدأت أرى أن هؤلاء القناصة والصائدين ورجال الدين من البيض فى بلاد الشمال ، إنمـا يأخذون بطرائق معيشة الإسكيمو إلى حد محدود ، فيسافرون على عربات الثلج ، ويصطادون السمك من منفرج الجمد ، ويتدثرون بالفراء ، وقد يلجأون أحياناً قليـلة إلى بناء أكواخ مـن الجمـد كما يفعل الإسكيمو ، ولكنهم لا ينفذون البتة إلى «عالم» الإسكيمو ، إلى أسلوب تفكيرهم فى الحياة . ولقد قصدت هذه البلاد لكى أنفذ إلى هـذا « العالم » الذى لم يعيروه مهم .

وكانت الملابس الصالحة للمنطقة المتجمدة لم تزل تعوزنى ، فأشار على الأب ديلالاند أن أشترى ما أحتاج إليـه من جلود فى كوبرماين . وأنفذ فى طلب كريلامك وهى خير خياطة فى القرية ، وذكر لها حاجتى .

وسارت إلى جانبى عجوز الإسكيمو وهى تطلع تدخن سيجارة فى أثر سيجارة ، حتى انتهينا إلى الدكان . وليس ثمة مشهد يستولى على الإنسان كمشهد صانع يزاول صناعته ، وكان مشهد كريلامك وهى منهمكة فى اختيار الجلود يبعث على الثقة ، فقد نبذت نصف الجلود بنظرة واحدة ، وفحصت المخزون جلداً جلداً وهى تعرك الجلد وتزنه بين أصابعها . وبعـد ساعتين فرزت كومة من الجلود عددها ١٧ جلداً كاملا وثلاثة بيضاً من جلد البطون و ٣٠ من جلد القوائم ، وكلها من جلد الوعول ، ثم جلد فقمة كبيرة للأحذية وجلد أيّـل كبير وجلد ذئب لزركشة الملابس .

واشـترينا كذلك لفافة من عضل الوعول جعلت كريلامك تستخرج الأعصاب منها واحداً واحداً وتفتلها بأسنانها ، فتصنع منها خيطاً غاية فى المتانة .

وحملت كل هذا إلى خيمتها وبدأت تخيطها دون أن تنبس بكلمة عن المقاييس ، ومع ذلك

فقد جاءت الملابس على قدّى تماماً .

وعلمت بعد إقامتى ١٢ يوما فى كوبرماين ، أن فى وسعى أن أبلغ نهر برى على مسافة ٢٥٠ ميلا من أرض كنج وليم بالسفينة أودرى ب ، ولكن خط سيرها كان يتعرج غرباً إلى مصب نهر ماكنزى قبل أن تبحر شرقاً إلى نهر برى — وهى رحلة طولها ١٩٠٠ ميل لبلوغ مكان لا يبعد إلا ٥٠٠ ميل ! وأخيراً أرسينا فى نهر برى بإزاء مقر شركة « هدسن باى » . وفى اليوم التالى أقلعت السفينة ، وانفصمت بذلك آخر حلقة تربطنى بسائر العالم .

وبعد أسبوع صحبنى إسكيمىّ على شىء من الحضارة ، اسمه أنجولا لك ، فى زورق بخارى قطع بنا ٢٥٠ ميلا تفصلنا عن أرض كنج وليم . وفى ٩ سبتمبر دخل الزورق خليج جواهافن الهادىء الفخم . ولاح لى من ورائه سهل فسيح لا لون له ، سهل صخرى لا نبض فيه ولا حياة ، ولا ينفسح أمام الناظر إليه من الآمال سوى أمل الوحدة والعزلة .

وفى جواهافن نزلت ضيفاً على بادى جبسون ، الرجل الأبيض الوحيد فى مقر

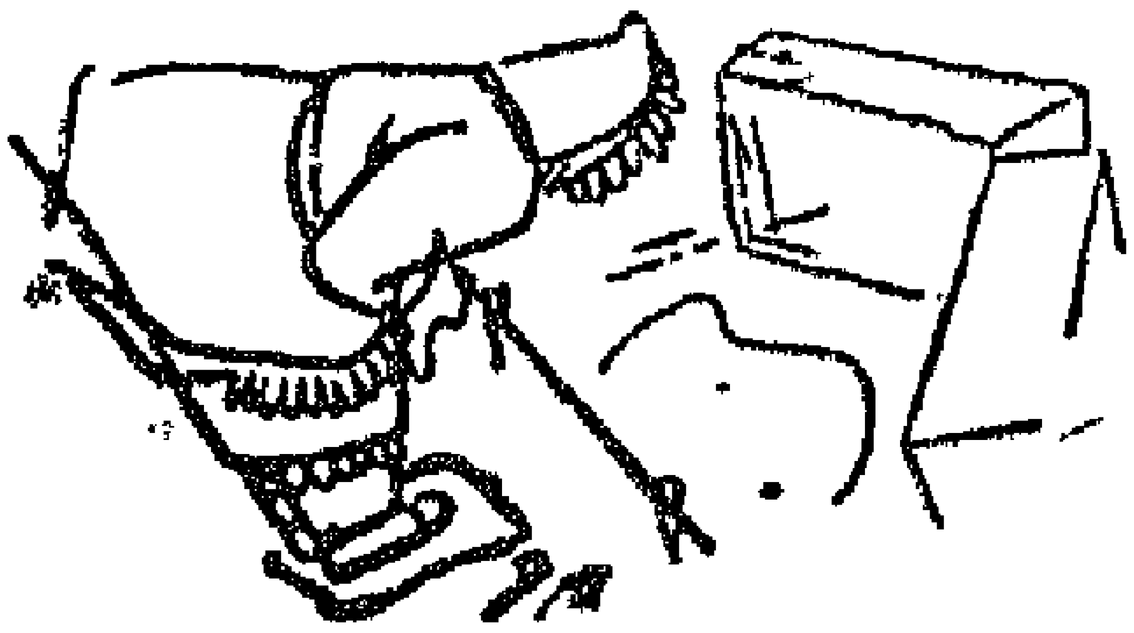

الشركة ، وكان مساعده الذى يشاطره كوخه الأدكن الصغير قد ارتحل بالزورق الذى جئت فيه .

ووقفت أنا وبادى على حافة الماء ، وقد انساب الزورق فى الخليج ، وعجبت لبادى كيف لم ينبس بكلمة أو بيد إشارة وداع ؟ لا : إن الاشارات تصلح للناس على أرصفة السكك الحديدية يلوحون بها لمسافرين لا يرتابون فى أوبتهم يوما ما ، ولكنها هنا نافلة لا ضرورة لها .

وما إن عدنا إلى مقر الشركة حتى أكبّ بادى على البريد الجديد القادم ، ولم يكن لهُ ما يفعله غير ذلك خلال يومين ، فكان يبدأ كتاباً ويقرأ منه صفحة أو صفحتين ثم يلقى به جانباً ويفضّ غلافَ آخر . إن فى قلبه لشوقاً شديداً أن يتصل بالناس ، شوق لا تشوبه رغبة فى معرفة الأخبار . ممن هذا الكتاب ؟ وذلك أيضاً ؟

وفجأة التقط جبسون غلافاً وندّت عنه زفرة ، وجعل يقرأ ذلك الكتاب بإنعام إلى آخره . فقد كان من أبيه ، ولكن أباه كان قد مات فى إرلندة منذ ستة شهور وسمع نبأ وفاته فى الراديو . وظل بادى ساكناً بلا حراك . فحوّلت نظرى عنه ،

وجال برأسى أن هنا ركناً من العالم لا يزال الحىّ يتلقى فيه من الميت رسائله . وألح علىّ هذا الخاطر ، وفى المساء حين أوى كل منا إلى مضجعه تخيلت جبسون وهو فى فراشه ، على الجانب الآخر من الحاجز ، يفتح ذلك الكتاب ثانية ويقرأ :

« ولدى العزيز . . . »

غداة وصولى وقفت فى نافذة وحدقت فى باز يطير مع الريح ثم ينقلب عائداً مع العاصفة التى تجتاح تلك المفازة الفسيحة من الجليد . وكان يصيد طير الثلج ، وهو قوام معاشه .

كل شىء فى هذا المكان حلقة فى سلسلة الفناء ، فالإنسان يجىء هنا ليصيد الثعلب الأبيض ، والثعلب الأبيض خلق هنا ليصيد جُرَذ الجليد ، وجرذ الجليد فى إثر فريسة أصغر منه . والحال فى الداخل على هذا المنوال أيضاً : فالذئب يقتفى أثر الوَعِل ، ومن ورائه الثعلب يأكل ما خلفه الذئب ، وفى أثره الذُّؤَيب ليأتى على ما نبذه الثعلب . وعلى أطراف الجليد يصيد الدب القطبى الفقمة ، ويسير الثعلب الماكر فى أثر الدب ، لأن الدب — ساكن الثلج النهم الذوّاقة — لا يأكل من الفقمة إلا شحمها ويترك ما عداه . ويأتى الإنسان من خلف الثعلب الماكر ينصب له الفخاخ .

لقد تقلصت دنياى هنا تقلصاً شديداً . ففى هذا الفصل لا تستطيع العين أن ترى أبعد من ثلاثة أرباع الميل ، وحيثما ألقيت ببصرى تبينت لى حدود كل شىء ونهايته . وهى حال أشبه بحال السجين فى المعتقل على ما خيل إلىّ ، فقد كان المكان كئيباً ممحلا مخوفاً لا حياة فيه .

كانت جميع هذه الخواطر — ذلك الباز الحائم ، وسلسلة الموت ، والإحساس بالعزلة — كل أولئك ، كما عرفت الآن ، كانت هى بَرَم الغريب عن تلك الأصقاع ، وليس فى المنطقة المتجمدة من يدعها تفسد عليه حياته . ولقد خبرت ذلك فى نفسى ، فما هو إلا أن زالت ، وسرعان ما انقلب كل كئيب غريب أليفاً مألوناً ، فيصبح الجمد ملاذى ، والعاصفة الثلجية عدوًّا يجب أن أتعلم كيف أغالبه ، ويصبح خاطر الموت نفسه مألوفاً .

بيد أننى لم أبلغ بعد هذه المنزلة ، فالشتاء لم يحل بعد ، وكنا فى الخريف : ذلك الفصل المخوف ، فصل الزوابع والأمطار ورعدة الأبدان ، (وهو الفصل الوحيد الذى يرتجف فيه الناس برداً فى الشمال) حيث يتبع الإسكيمىّ فى خيمته يبتهل إلى الله أن يعجل مجىء الشتاء كما نتوق نحن إلى مجىء الربيع ، والثلج عند الإسكيمو هو هبة الله الموموقة ، والعنصر السحرى الذى يتيح له

السفر والترحال ، والترس الذى يقيه غائلة الريح ، حين يقضى الساعات الطوال فى البحر المتجمد مترقباً ظهور الفقمة ، وهو بعد ، تلك المادة الجميلة التى يصوغها قطعاً لبناء بيته ، ويخفى الإسكيمى تحت أكوام من الحجر مركبة الثلج وحرابه وسروج كلابه وجميع أمتعته شهور الشتاء الرائعة المهيبة .

والإسكيمى يظل ، حتى يتساقط الثلج فى أكتوبر ، مخلوقاً شقياً ، وأفاقاً فى أسمال بالية . فإذا جاء الشتاء هجر تلك الخيمة الرثة ، وأقام كوخ الجمد الأبيض ، وخاط الجلود والفراء ملابس جميلة ، وينقلب ذلك الأفاق الرث السقيم صائداً ، ويصبح ذلك الفقير المسكين الذى كان يلوذ بجدار مقر الشركة « رجلا تام الرجولة » .

وفى أوائل أكتوبر شاهدت البحر يجمد لأول مرة ، رأيت المياه الدافقة تجمد وتتحجر أمواجاً وتتجمد فى الجحور والأخاديد .

وكان ما شهدته — وقد نشأت فى بقعة فلما نزلت فيها درجة الحرارة إلى ٥ تحت الصفر — مشهداً سحرياً عجباً . ولم يكن تجمد البحر فى نظر الإسكيمى بأقل شأناً منه فى نظرى ، لأن البحر فى تلك الأصقاع هو الطريق الملوكى فى الشتاء . وهو مرتع الصيد الذى يمنح قوتاً وفيراً يدخر للأشهر العجاف المقبلة ، وهو موطنه و « أرضه » حيث يؤثر أن يبنى عليه كوخ الجمد ، فإن الجمد على الماء أدفأ من الأرض الدائمة الجمد .

ولا ينقلب البحر جمداً فى ليلة واحدة ، فقد شاهدت يوماً إثر يوم تلك المرآة المحببة من سطح الجمد تتشقق وتتكسر وتنساب فيها المياه طليقة غير ممنوعة ، ثم يبدأ كفاح الجمد من جديد . ويستكره البحر شيئاً فشيئاً على الإذعان والتسليم ، وتتبلور مياهه المتاخمة للساحل الذى جمد . ويجىء يوم فلا يبقى من تلك المياه غير بركة وسط الخليج خضراء دكناء حتى تكاد تخالها سوداء وفى اليوم التالى تختفى هذه أيضاً ، ويسير الإسكيمو من الساحل إلى وسط الخليج يتحسسون الجمد بأقدامهم فى براعة وحذر إيذاناً بحلول أعظم الفصول .

وكان جبسون فى خلال ذلك يعد العدة للشتاء ، كان عليه بادئ ذى بدء أن ينقل الفحم من كومة بجوار الساحل ويخزنه ، ثم كان عليه أن يستر الباقى بعناية ويقيه البرد ، فإن ثمن الطن من الفحم عند التسليم يبلغ ١٧٠ ريالا ، وإذا جمد لا يحترق . وكذلك تجب العناية بكل شىء يمكن أن يضر به البرد الشديد ، فالبطاريات الكهربائية مثلا تفقد نصف قوتها إذا جمدت ، والأوانى الزجاجية التى تحفظ فيها

الطماطم والمخللات قد تنفجر ، والبطاطس التي تجمد لساعتها يمكن أن يذاب جمدها وتبقى صالحة للأكل ، ولكنها إذا جمدت على مهل فسدت وعطبت .

ولم يمض طويل وقت حتى خرجت أول مركبة من مركبات الثلج في أول رحلة في الشتاء ، وتجمع الناس يرقبون رحيلها ، ولم يكن ذلك لأن الثلج كان قد تكاثر يومئذ ، بل لم يزل رقعاً متناثرة . وكان السفر يحتاج إلى التعرج الطويل من كثيب إلى كثيب ، فيسيرون ٦٠ ميلا ليصلوا إلى نقطة تبعد ٢٥ ميلا . بيد أن الإسكيمو لا حاجة بهم إلى أن يقيموا للوقت وزناً ، وبذل الجهد عندهم هو قوام الحياة . ولقد دبرت أمر رحلتي بأن يصحبني يوتاك الإسكيمي ، نظير ثعلب أبيض ، إلى مخيم قريب للاسكيمو . وكان عليّ أن أدبر طعامي والهدايا الصغيرة المعتادة لأهل المخيم . ولما تهيأنا للمسير كان الثلج قد تراكم حول مقر الشركة كثباناً يبلغ ارتفاعها عشر أقدام .

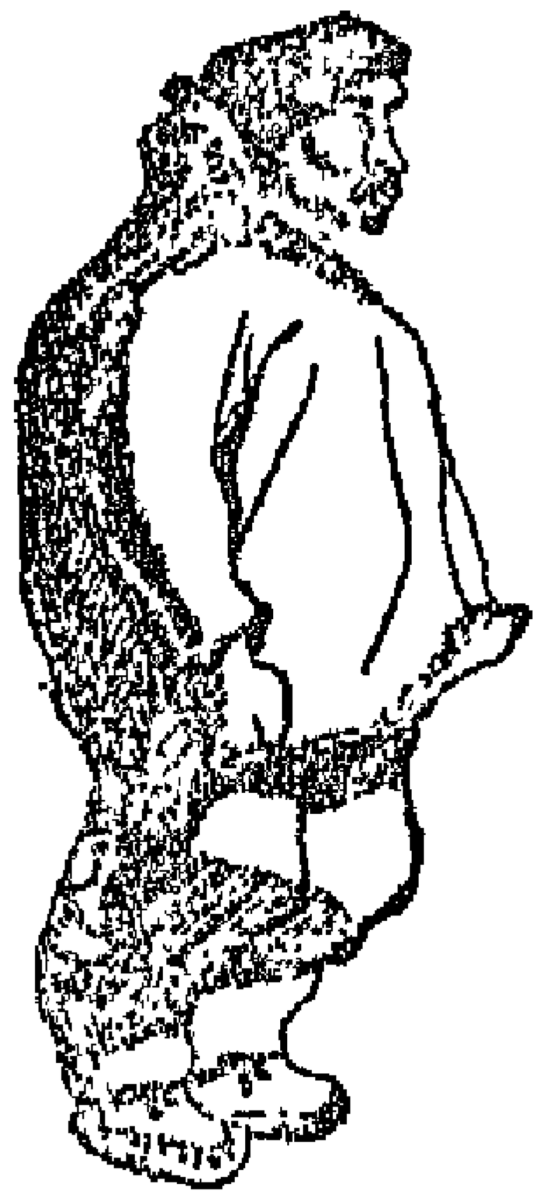

وساعدني بادي في حزم أمتعتي ومؤونتي وقال لي : « ألا أنبئك بما تفعل : جهز لنفسك حساء ثخيناً من اللحم المملح والأرز والفاصوليا ، وانشره على لوح من الخشب في صحن الدار فيجمد لوقته . ثم خذ مطرقة واكسره قطعاً واتركه معرضاً حيث يبقى على حاله متجمداً ، وفي الطريق سخن إحدى هذه « الحجارة » . فهذا هو غذاؤك ! » .

ولقد تزودت بهذه المؤونة الضئيلة ، وببضع كلمات دارجة من لغة الإسكيمو لكي أخوض غمار عالمهم .

وتختلف مركبة الثلج في طولها من ١٢ قدماً إلى ١٨ ، ويبلغ ارتفاعها عن الأرض من ست بوصات إلى ثمان ، أما عوارض الانزلاق فهي من الصلب ، بيد أن الصلب وحده لا يصلح ، فإن الثلج يعلق به ويعوق سيرها السهل الحثيث . ومن أجل ذلك يعمد الإسكيمو إلى الطين الذي يستخرجونه من قعور البحيرات في الصيف ويغلونه ، ويدهنون به تلك العوارض وهو لا يزال يغلي ، فيجمد عليها ، ثم يصقلونه بمبرد من حديد ، وبعد ذلك يرشون قطعاً مربعة من جلد الدب ببعض الماء ويمسحونه بها مسرعين — ويصير هذا طلاء مستوياً من الجمد ، فإن الماء يجمد لساعته ، وبهذا تستطيع أن تجعل مركبة الثلج تنزلق على الجليد بلمسة من بنصرك .

فإذا انتهى تجميد عوارض المركبة ، حملت

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بالمؤن وربطت إليها الكلاب ، وهى شديدة الحرص على مواضعها من العنان ، فإذا بُدّلت مواضعها فإما أن يقوم بينها صراع عنيف ، وإما أن تأبى أن تتحرك .

ولما تهيأ كل شيء ، على ما بدا لى ، اكتشف يوتاك فجاءة أن سكين الثلج لم تزل فى الكوخ ، فعاد إليه وأحضر تلك الأداة التى لا يستغنى عنها ، والتى تستخدم فى الأكل ، وبناء أكواخ الجمد ، وفى مهاجمة الدب القطبى . ثم وجدنا أننا نسينا حربة صيد الفقمة فجعلناها بين أمتعتنا ، وألقى يوتاك نظرة فاحصة على المركبة وأبدى ارتياحه . ولكن مهلاً ، أين إبريق الشاى ؟ كيف نسيناه !

واستغرق تحميل المركبة ساعة ، وقفت خلالها برماً بطول الاستعداد ، وإذا بالمركبة تسير فجاءة وألفيت نفسى أجرى خلفها أتعثر فى الثلج ، أجهد أن ألحق يوتاك وهو يجرى إلى جانب المركبة يلهب الكلاب بسوطه . ولما تقطعت أنفاسى كفّ الكلابَ وابتسم حين لحقته وأنا ألهث ، وقد سره أن يرى الرجل الأبيض فى حال مضحكة . وكنا على مسافة ٢٠٠ ياردة فقط من مقر الشركة ، ولكن خيل إلىّ مع ذلك أننى قد انتقلت إلى عالم آخر .

ولم يقع شيء فى الطريق ، نعم ! ومع ذلك فقد كنا لا نكف عن العمل ، فهذا حزام قد استرخى ، عليك أن تشده وإلا انزلقت نصف أمتعتك . ارقب ذلك الكلب ! إنه يوشك أن يقعى ، فإذا فعل فألهبه بالسوط . اتق ذلك الحجر ! فلو اصطدم بعوارض الانزلاق لتكسر طلاء الجمد . إن سوق مركبة الثلج كتسيير الزورق ، فإنه لا شيء يحدث فى البحر والجو صافٍ ، ولكن البحّار لا ينقطع عن العمل .

ولقد بذلت ما وسعنى حتى أكون جزءاً لا يتجزأ من هذه المركبة وتلك البيئة . وكان أعجب العجب عدم اللون ، فقد وجدت أن الثلج ليس بأبيض ، فما أرى إلا عالماً أشهب لا معالم له ولا حدود . ولم أر قط أفقاً يفصل بين الأرض والسماء : فإنهما كانا من أديم واحد . لم يكن ثمة ما تتبين به الأبعاد أو المرئيات ، فلم تكن العين تقع إلا على آلاف من زغب الثلج الأدخن ينساب على الأرض تسوقه الريح .

وإذا نحن نضل الطريق فى هذا القطن الأشهب المندوف . كان الرذاذ المتطاير ملء الهواء ، وكنا نرى الكلاب ونحن فى المركبة كأنها أشباح ، فأطبقت عينى وشددت على أجفانى — كأنى أريد أن يلتحما ، فقد كانت الريح تقطع وجهى إرباً إرباً . وجعلت

وجنتاى وذقنى تلهب كأن حديداً محمَّى قد مسّها ، وأحسست بلحمى يجمد فجأة .

واهتزت نفسى وكنت أزمع الاستسلام ، إن الطبيعة هنا أقوى من أن تقاوم . والتفت بوتاك نحوى وحسبت أنه على وشك أن يحدثنى بما يدور بخلدى — أن يعترف بأننا هلكنا . كلا ! بل كل ما قاله : « وددت لو أعطيتنى غليونك » ونفث نفثتين وأعاده إلىّ ، ولم يزد على أن قال باسماً : « جميل جدا » .

كان ينبغى أن أعرف أن هذا لا يزعجه ، فهو إسكيمى . وإذا « ضل » الإسكيمى فإنه يبنى كوخاً من الجمد — كوخاً من هذه الآلاف — ويسلم نفسه إلى سنة من النوم الهادىء حتى تمر العاصفة .

وتقدمنا بوتاك فى الطريق فاختفى ، ثم ظهر فجأة وهو يصوب بصره محدقاً إلى الأرض ، وجعل يسير من اليمين إلى اليسار بسرعة فائقة . كان يبحث عن أثر مركبات الثلج فى الزوبعة . تصور آثاراً عرضها بوصتان تفرق بينها ١٨ بوصة ، غائرة فى ضريب أبيض مترامى الأطراف ! ولكن العجب أن بوتاك يتحسس الثلج الجديد بقدمه فوجد الآثار ، وما لبث أن عاد يسير وهو يتطلع باحثاً عن المعالم التى يعرفها كما يعرف الزراع فى بلادنا « الغصن المكسور » أو « شجرة البلوط التى حرقتها الصاعقة » .

فما أرخى الليل سدوله حتى شق تلك الغياهب بصيص ثلاثة أنوار خافتة . تلك هى أكواخ الجمد ! حيث يرى من خلال جدرانها الشفافة الثلجية بصيص مصابيح الزيت التى تنم على وجود الإنسان . ولقد زحفت على أربع ، فى نفق ملتو متعرج ، لأدخل أحد هذه الأكواخ .

ولكن أهذا هو كوخ الجمد ؟ ذلك الكهف المعتم الذى يتصبب بللا من فعل حرارة مصباح الزيت وأجسام البشر ! وفى ضوء ذلك المصباح الخافت رأيت أشباحاً ، رجالا ونساء ، يتحركون . وكانت الرائحة تفوق التصور ، فلقد حسبت نفسى فى وجار دبّ أو مغارة أحد سكان الكهوف .

وكنت حديث عهد بهذا العالم ، فلن ترى عيناى فى الكوخ إلا قذارة : أكواماً من اللحم المتجمد مكدسة على الأرض ، وبقعاً من دم الفقمة ، ورءوس السمك المقضومة متناثرة فى كل مكان . وكان مما يزيد الهول أن أحد هؤلاء الإسكيمو كان يلقى بنفسه بين الفينة والفينة فى النفق المؤدى إلى الكوخ ليطرد الكلاب ، ويتردد فى أرجاء المكان عواء كأنه صوت قتيل فى حجرة تحت الأرض .

ولم يزل من العسير علىّ حتى اليوم أن أفسر كيف استطعت فى خلال شهر أن أعتاد

هذه الحيـــاة حتى أرى وصفاً كهذا شيئاً سخيفاً ، وأنه سرد للتوافه ، وإغفال لكل ما هو عظيم فى حياة الإسكيمو .

وكنت لحسن الحظ لا أستطيع التفكير لما لحق بى من كلال ، كانت التوافه تؤذى عينى ولكنها لم تكن لتبلغ فكرى . وكانوا قد حملوا صندوقى إلى الكوخ ولكننى من الإعياء لم أستطع أن أعثر على طعام يصلح للرجل الأبيض . ماذا آكل ؟ ذلك السمك الكريه المجمد المغطى بالثلج الذى أسمع جرشه بين أسنانهم وهم يمضغونه ؟ .

وحملق أهل الدار فىّ حين رأوا أن « الكابلونا » — أو الرجل الأبيض فى لغة الإسكيمو — لن يقدم إليهم شيئاً من الهدايا الطيبة . لم ينبسوا ، ولكن سخطهم كان بادياً لا تخطئه العين . وهكذا انسللت مكتئباً حزيناً إلى كيس نومى لم أذق طعاماً .

ونمنا ستة فى صف فى كوخ بنى لثلاثة . ولم أخلع ملابسى ولكن الإسكيمو ناموا عراة فى أكياس نومهم . كنت كمن نام فى قفص مع وحوش ، وكان يؤذينى طول الليل تساقط الماء على وجهى من السقف . ولم يكن فى وسعى أن أتجنبه . فقد كنا محشورين حشراً فى ذلك الكوخ . وكان جارى ، وهو أخو يوتاك ، لا يكف طول الليل عن تقريب إناء من صفيح يستعمل كمبولة ، ثم يفرغه تحت أنفى كل مرة دون أن يكلف نفسه عناء التحرك .

وفى ركن من الكوخ عجوز جعلت طول الليل تبصق . بهذا الشعور القاتم الكئيب استسلمت أخيراً للنعاس .

وفى اليوم التالى بنى لى يوتاك كوخاً متصلا بكوخه . وكوخ الجمد غاية فى الحسن حين يكون جديداً ، وتكون أريكة الثلج المسطحة قد صقلت فهى ناصعة البياض نقية صافية حتى ليخشى الإنسان أن يتحرك مخافة أن يفسدها . فما كاد كوخى يصبح مريحاً كالبيوت ، حتى أغار عليه الإسكيمو كالفاتحين واقتعدوا أريكتى الثلجية يتجشأون ويتضاحكون ويأكلون السمك ويلفظون الشوك ، ويلوثون ويدنسون كل شىء .

ورأيتنى عاجزاً ، وفى حالة لا رجاء فيها . وزاد الطين بلة أن يدى جمدتا بعد ذلك بيومين ، فلقد خرجت لصيد السمك مع يوتاك ، وعلى مسافة نصف ميل من الساحل حفر يوتاك حفرة من الثلج وبنى حاجزاً من ثلاث قطع من الثلج يقينا الريح ، ثم جثا على قطعة من جلد الأيل ، وأدلى فى الماء بطعم كذب يجتذب الأسماك . فلما هرعت إلى الطعم رماها بحربة ذات ثلاث شعب .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وما كان أعجب صبره وتشوّفه وهو يرقب تلك الحفرة . كانت أصغر سمكة تمر تستثير بضع كلمات خافتة منه وتحمله على الاضطراب . كان منهمكا انهماك العالم فى . . . . فيم ؟ فى فن ملء بطنه .

ولولا تباريح البرد لكنت أسعد ما أكون وأنا أرقبه ، ولكن أصابعى كانت تحترق وهى فى قفازىّ ، وأصبح الألم لا يحتمل بعد أن قضينا بضع ساعات . وأخيراً وقفنا وخلعت قفازى ، فألفيت أصابعى قد صارت كالشمع . وظلت ثلاثة أيام ولا نفع لى منها ، وهى كالخشب صلابة ، وبلغ منى الألم فلم أكن أطيق أن ألف سجارة ، وظللت رهين الكوخ أياماً .

وجعلت من أريكة الثلج أرقب حياة النساء من الثغرة التى بين كوخينا . كانت أونارناك ، زوج يوتاك ، تشتغل بمصيدة القمل ، وهى عظمة طويلة من عظام الأيّل ملصق فى طرفها خصلة من شعر الدب القطبى . ويظهر أن هذا الشعر يجتذب القمل اجتذاباً شديداً . وكانت متعة حقا — ولو أنها متعة من نوع خاص — أن ترى أونارناك تستخرج القمل من الشعر وتقضمه بأسنانها .

وكانت نيا كو جنالوك أم يوتاك ، وهى عجوز شمطاء تجلس طيلة اليوم تحتُ الجاود ، وهى مهمة لا تنقطع عند الإسكيمىّ ، فإن الثلج والماء لا يزالان يبللان ملابسه والجاود التى يرقد عليها ، ويقسّيها .

كانت مكبة على الجاود وقد ثنت قدميها تحتها تعمل بيديها المشوهتين ، وهى لا تنفك تحتّ وتتمتم بلا انقطاع . فإذا فرغت من جلد ألقته بملل جانباً ، وترنحت إلى كومة الجاود وأخذت جلداً آخر .

وكان لها محتّتان أو ثلاث مختلفة تعمل بها ، ولكن التطرية الحقيقية كانت تقوم بها بأسنانها ، وكان الجلد الذى تفرغ منه نيا كو جنالوك يرتدّ أبيض رخْصاً كالقفاز .

فلما وثقت أن أصابعى لن تسقط من البرد ، عزمت على أن أطلب إلى يوتاك أن يصحبنى إلى صيد الفقمة مع الآخرين بدلا من أن نعود إلى مقر الشركة . وكان ثمة سببٌ خطير يقتضيه الخروج إلى صيد الفقمة ، فإنه مع خروجه كل يوم لاصطياد السمك ، كان السمك صغير الحجم لا يكفينا جميعاً .

والإسكيمو ، قبل كل شىء ، رحّال وصائد بحرى تسوقه الحاجة إلى إطعام أسرته فى دائرة غير منتظمة . فإنه إذا انتهى موسم صيد السلمون فى النهر ، قصد البحيرات لصيد السمك خلال الثلج وقنص الثعلب الأبيض . فإذا تقدم به الشتاء وتراكم الثلج كثيفاً حتى يتعذر صيد السمك من خلاله ،

ضطر إلى الرحيل ، فإن أسرته وكلابه تستهلك نحو ٥٠ رطلا من الطعام في اليوم ، وهو متوسط تصعب المحافظة عليه . والمرحلة التالية فى دائرة حياته هو صيد الفقمة وصيد الدب القطبي على البحر المتجمد . فإذا حل الربيع جاءت الأيايل فى طريقها نحو الشمال ويبدأ موسم السياحة العظيم . وفي الخريف يعود سمك النهر إلى الظهور .

ولست أعرف فى العالم مكاناً آخر تفرض فيه الفصول ، على هذا النحو من الدقة ، ما ينبغى أن يفعله الإنسان لكى يعيش . على أن الإسكيمو لا يعدّون بلادهم بلاداً تقسو فيها الحياة ، فإنها بلادهم وملكهم الذى لا ينازعهم فيه منازع ، إن جميع الأيايل التى تسرح فى تلك السهول هى ملك أيديهم ، كذلك جميع السمك فى البحيرات ، وجميع الفقمات فى البحر ، لا ينازعهم فى رزقهم أحد ، ولا يقتحم بيوتهم ناهب يبغى سرقة متاعهم اليسير أو يستعبد عيالهم ، ولا تغير عليهم الجيوش لتحرمهم سلطانهم على الثلوج . والسرقة غير معروفة فى تلك الأصقاع ، فإن فى وسعهم أن يختزنوا فى أكواخ الجمد ما لا يحتاجون إليه فى صيد الفقمة ، ويغرسون أدوات صيدهم معتدلة مستقيمة على بيوتهم الثلجية لتكون معلماً ، وينطلقون فى الطريق دون أن يلتفتوا إليها التفاتة واحدة ليستيقنوا أنْ لا خوف عليها .

ولقد خطر لى وأنا أنظر إليهم وهم يحملون مركباتهم فأرى كيف يجد أحدهم العون من سائرهم ، وكيف يتعاونون جميعاً على العمل دون أى أثر للأنانية ، وكيف يجرون من مركبة إلى مركبة ، وكيف يتبسمون ويتضاحكون وهم يتحدثون ويشربون آخر قدح من الشاى قبل أن يؤذن بالمسير وتصفر السياط فى الهواء ، لقد خطر لى أن هذه هى حقا حياة الجماعة ، فكانت أول مرة بدأت أرى فى الإسكيمو شيئاً جميلا أخاذاً ، وأرى فى حياته شيئاً يصح أن يحسده عليه الإنسان المتحضر .

كان الرحيل نفسه مشهداً عجيباً — مركبات محملة أحمالا عالية ، وكلاب تنبح وتكاد تختنق إذ تشد إلى الأحمال الثقيلة ، وزوجات يصحن ويشرن بأيديهن فى مقدمة الركب ، وعجائز ربطن إلى أعالى الأحمال يتأوهن كلما اهتزت المركبة وارتجت عظامهن البالية .

كان أول منزل لنا على مقربة من مخيم للسمك حيث لكل رجل مخبأ مطمور ، فأزيلت عنه الصخور وظهر المخبأ . واقتطعوا بفأس قطعة كبيرة من لحم السمك المجمد ، وكان ثمة مئات من الأعمال : أنزل هذه

العجوز فإن عضلاتها تؤلمها ، وأرضع ذلك الطفل ، وحلّ مقاود الكلاب التى اشتبك بعضها ببعض ، وأعدّ الشاى ، وكان الرجال يقفون بعد شربه جانباً يدخنون غلاييهم ويتحدثون عن أمورهم . وقلّ أن يحار الإسكيمى فى اختلاق عذر للتلكؤ فى الطريق ، فإن الحياة القاسية التى يحياها تجعل وقت فراغه ثميناً ، وليس ثمة فى عالمنا المتحضر مثل هذه المتعة يقتنصها الإنسان فى ساعة من ساعات الفراغ ، اللهم إلا بين الزراع والعمال .

ويعمل الإسكيمو دائماً بوحى خاطرهم ، فالوقوف فى مهبّ عاصفة ليس شيئاً إذا صح عزمهم فجأة على تناول قدح من الشاى . وقد يؤدى هذا التأخير إلى قضاء ليلة أخرى فى الطريق — ولكن هذا لا يهم ، وتقف المركبة ، ويوضع صندوق فارغ على أحد جوانبه ، ويوقد موقد البريموس فى داخله ويغلى عليه الشاى . وقد تكون الريح شديدة تقطعك إرباً إرباً ، ولكن ماذا يهم؟ إنها لم تمنع أونارناك وحماتها من الاستمتاع بحديث هادئ ، ولم تمنع يوتاك من التسلى بتدوير ابنه على مركبة ثلج صغيرة والطفل يصرخ فرحاً . وقد ترى خنازير البحر فى البحر الهائج تلعب وتمرح ، وتعجب أنت كيف بها لا تبالى . فالإسكيمو مثل هذه الخنازير .

* وفى اليوم الرابع وقعنا على مخيم صيد الفقمة ، وهو مخيم صغير من أربعة أكواخ أو خمسة ، ولم يبق لدى طعام كثير ، ولم يكد كوخى يتم حتى اجتاحه أهل المخيم وطاحت نصف مؤونتى فى ساعتين ، وأشرف يوتاك بنفسه على توزيع الأسلاب ، ووزع جميع ما وقعت عليه يداه من طعامى وطعامه أيضاً ، فإن أهم شىء هو الكرم ، والملكية لا قيمة لها.

ولقد أدخل السرور على نفسى طريقة سلوكهم التى لا كلفة فيها ، فقد كانوا يلكزوننى بغير مبالاة ويقولون لى : إن الصغير فى حاجة إلى شىء من المربّى فأين تخبئه ؟ أو « أوَ هذا كل ما لديك من الطباق ؟ ليس لديك منه ما ينبغى لرجل أبيض ».

وينتشر الإسكيمو فى مكان صيد الفقمة على شكل مروحة ، ومع كل منهم كلبان مدربان تدريباً خاصا مشدودان إلى مقاود طولها ٣٠ قدماً . وتتشمم الكلاب ككلاب الصيد وأنفها إلى الثلج . وفجأة يقف أحد الكلاب مرتجفاً متشمما ، لقد وجد الثغرة التى تتنفس من خلالها الفقمة .

ولكل فقمة عدد من هذه الثغرات ، فبينما يتراكم الثلج إلى ارتفاع ست أقدام أو ثمان فى كل مكان ، تجد الفقمة تطل فى أوقات متقاربة لتتنفس ، حتى إن جمد الثغرة يظل رقيقاً بين فترات إطلالها من

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الثغرات ، فمن اليسير عليها أن تنفذ بجسمها إلى السطح .

فإذا ما عثر الكلاب على الثغرة المغطاة بالثلج ، شد الإسكيمو رأس حربة من الصلب إلى طرف حربته ، ويعقد الحبل المشدود إلى رأس الحربة حول يده ويقف متأهباً لصيد الفريسة .

ولكن الفريسة قد تتأخر ، فإن الفقمة لها عدة ثغرات ، قد تستغرق ساعات حتى تظهر عند تلك الثغرة ، أو لربما لم تأت أبداً .

وقد لقيت مرة صائداً قضى ثلاثة أيام بغير حراك في ذلك الوضع الغريب الذي يتخذونه : الرأس إلى أسفل والعجيزة إلى أعلى ، إذ يضطرهم سمع الفقمة المرهف إلى التزام الصمت المطلق — وكل ذلك بلا جدوى .

حدث مرة أن عاد أنجوس جافن إلى نهر ري صفر اليدين من صيد الفقمة . فسأله إسكيمي : « كم لبثت عند الثغرة ؟ » .

فأجابه جافن محنقاً مغيظاً : « أربع ساعات جُمُداً » .

فنظر إليه الإسكيمي في رزانة وقال : « بل أربعة أيام ليست بالوقت الطويل » .

وبعد القنص يعد الطعام . وحدث مرة في رحلة صيد أن شاطرت ثلاثة من الإسكيمو كوخهم ، وذات ليلة بعد صيد موفق تناولنا الشاي المعتاد ، ثم — ولا أدري

كم كانت الساعة ، صحوت وكنت قد استسلمت لسنة من النوم ، ووقع ناظري على الإسكيمو الثلاثة — خيالات ثلاثة — يضيئها من الخلف نور الشمعة المرتجف ، وقد ألقى على الجدار ظلالا غريبة مكبرة . كان الرجال الثلاثة جاثين على ركبهم وجذوعهم مائلة إلي الأمام لا يبدون حركة إلا من أيديهم النهمة . وكان أمامهم طست هائل ملؤه قطع كبيرة من لحم الفقمة . اجتمعوا عليه كأنهم في وليمة ، وكان كل منهم يمسك بيديه وفمه قطعة هائلة من اللحم ، وقبل أن يتموا التهامها تسرع أيديهم إلى الطست تتحسس ما فيه . وكانت الرائحة التي تشيع في جو الكوخ رائحة الفقمة ، ورائحة المتوحشين في الحر وقد جلسوا يلتهمون طعامهم . ولقد بدت لي وجوههم ، من حيث كنت راقداً ، تلمع بالشحم والدم المتدفق . وأوحى إليّ مشهد جماجمهم المفرطحة ، وجباههم يحجبها الشعر ، وأشداقهم الهائلة — بصورة لا تحول من العصر الحجري .

لقد رأيت عجائب مدهشة في بلاد قاصية ، بيد أن ما شهدته في ذلك الكوخ يفوق كل ما شهدته من قبل . أحسب أن كان

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ثمة ٥٠ رطلا من اللحم هاجمها الرجال الثلاثة بدمدمة الحيوان وزمجرته ، وكانت أشداقهم تفعقع وهم يأكلون ، وكانوا يتجشأون ويلعقون أيديهم المخضبة بالدم ويمصون أصابعهم . ولا يزالون يأكلون ، ولا يزالون يمدون أذرعاً كأذرع القرود إلى الطست ويقلبون بأيديهم القطع التى نبذوها فى بدء الطعام ، فأصبحت الآن أطايب تلتهم فى شراهة ونهم . ولقد كفوا منذ وقت عن قطع اللحم بأيديهم ، فأسنانهم تغنى ، وكانت عظام الفقمة تفعقع وتتناثر شظًى فى وجوههم . ولقد خبرت من قبل ما تستطيعه تلك الأسنان ، فإنه إذا تعذر رفع غطاء خابية البنزين بالأصابع أخذه الإسكيمو بين أسنانه ونزعه بسهولة . وكانت أسنانهم ، وقد تآكلت ، حتى اللثة تبدو جذوراً من عظام غائرة لا تتكسر . وإن أخوف ما أخافه ، إذا قدّر على أن أخاصم رجلا من الإسكيمو ، أن يحطم جمجمتى بتلك الأسنان .

وبعد عودتى من رحلة الصيد إلى جواهافن بأيام قليلة علمت أن الأب هنرى ، وهو قس من سواطنى ، يدير بعثة دينية بين الإسكيمو فى خليج بلى ، فعقدت النية على زيارته ، واتفقت مع أحد الأهالى على أن يصحبنى فى مقابل ثمن ثعلبين .

والإسكيمو إذا أخذت تفاوضه أبدى اعتزازاً شديداً وثقة تثير الإعجاب ، تسأله عن كلابه فيقول : إن لديه خير دليل منها أنجبته تلك الأصقاع ، وسل من بَدا لك . وتسأله عن الطريق فيجيبك : هل أنت جاد فيما تقول ؟ ليس فى الدنيا من يعرف هذا الطريق خيراً من معرفتى .

وتسأله كم تستغرق الرحلة إلى خليج بلى فيعد على أصابعه . كوخين ، ثلاثة أكواخ ، أربعة أكواخ . . . والكوخ فى حسابهم يعدل ليلة فى الطريق . وهو حين يعد يرقب وجهك ويفكر : كم أعد من الأكواخ قبل أن يدرك الخوف الرجل الأبيض ؟ ثمان ليال وتسعة أيام ، بيد أننا استغرقنا فى رحلتنا ١٧ يوماً .

وأخيراً سافرت مع دليلى شونجيلى ، وسرنا على نهر متجمد نجر المركبة وندفعها على الثلج . ووقفنا حين أرخى الليل سدوله وجعلت أنظر إلى الرجل نظرة فاحصة . كان واقفاً كالقرد ميت العقل مقوس الكتفين قد أرخى ذراعيه إلى جانبيه ، وشارباه الطويلان قد تهدّلا على فمه ، وكان يضحك كأنه بنت ، ولا يكف عن لعق أصابعه . وكلما أدرت ظهرى لأجرى أمام الكلاب علا المركبة فإذا نظرت خلفى ترجل عنها . وكان ثقيل الفهم بطىء الحركة بغيضاً

إلى الغاية. ولكن الحياة فى الأصقاع المتجمدة دروس متواصلة لا تنقطع ، والجو بشدته الهائلة هو الذى يلقى عليك أول هذه الدروس . كنت ممتعضاً كل الامتعاض من شونجيلى ، وهبت يوماً عاصفة عاتية حملتنى من فورى على أن أنسى نفسى وأن أذكر أننا رجلان يقاتلان فى سبيل هدف واحد .

بدأت العاصفة حول منتصف الساعة الثالثة ، وعلى حين فجأة أخذت الريح تهب بسرعة ٥٠ ميل فى الساعة واكتنفتنا سدود من الثلج ، ولم تمض دقيقة حتى لفّ الضباب الكلاب كلها إلا ما كان قريباً منا ، وصدمت عصفة من الريح مركبة الثلج وجعلت تتقاذفها كأنها عود من القش . وكان عواء الكلاب الإسكيمية التى حجبها الضباب ينبعث فى العاصفة مروعاً مخيفاً .

فوقفنا وبنينا كوخاً على خير ما وسعنا ، وعندئذ أراد شونجيلى أن يرينى معنى الرجولة الحقة ، واستحال هذا المخلوق البليد الثقيل الفهم فناناً ، وجعل يعمل كمن أُلهم إلهاماً ، وأشعل غليونه فى رصانة وهدوء وجعل ينخس الأرض بحربته بحثاً عن الثلج الصالح للبناء .

وبدا لى أن بناء هذا الكوخ استغرق قروناً ، واقتطع شونجيلى بعناية صفاً من كتل الثلج ورتبها فى دائرة ، وهرعت الكلاب إليها تلتمس الوقاية فركلها بشدة ، ووقف داخل هذا الجدار وقد عقد العزم على أن لا يخرج منه حتى يتم عمله . وكان يقتطع كتل الثلج اللازمة للصفوف العليا من تحت أقدامه . ويحتاج الأمر إلى مهارة خاصة فى استعمال الثلج الهش ، وفى قطع السطوح الداخلية بالميل المناسب ، وإنقاص مساحة الكوخ أثناء العمل ، إذ يضطرك اشتداد العاصفة إلى الإسراع . كل ذلك كان يسيراً على شونجيلى .

واستمر يعمل هادئاً ثابت الجأش ، فإن ما كنت أعده نكبة نكباء كان لديه شيئاً من الحياة اليومية . ولما أشرف الكوخ على التمام زحفت إلى داخله ولبدت إلى الجدار ، ووضع شونجيلى آخر كتلة من الثلج فى البناء ثم خرج ليبحث عن الكلاب ويطعمها ويدفن أمتعتنا فى الثلج . وأخيراً عاد وهو ينفض ملابسه ، وجلس وخلع حذاءيه ، ثم اضطجع ونظر إلىّ ، فقد أثبت أنه أقوى من العاصفة . وكان مثله مثل البحّار فى اليمّ يلقى العاصفة هادئاً ، وتمضى عنه ولم تزعزعه . إنها لم تغير من سيرته شيئاً . وهذا التأنى البطىء الذى كان منذ ساعة مضت يملؤنى غيظاً ممضًّا ، أصبح يبدو لى الآن نوعاً من العظمة .

إن فلاح المنطقة المتجمدة هذا قد وهبنى

بقلة اكتراثه فى تلك الزعازع الجائحة ، شيئاً من سكينة النفس .

وبعد أيام فى الطريق انتهينا أخيراً إلى مستعمرة الإسكيمو فى خليج بلى ، وقادنا أحدهم إلى الأب هنرى الذى قصدته . فلما أشرفنا على مقصدنا أسرع دليلنا خطاه ليحمل إليه النبأ العظيم نبأ وصول كابلونا « الرجل الأبيض » . فهذه أرض لم يرها إلا ثلاثة من البيض فى قرن من الزمان .

وجاوزنا أكمة ورأينا رجلا طويلا نحيلا معروق العظام مقبلا علينا ليلقانا — كلا لم يكن نحيفاً وحسب ، بل كان صافياً شفافاً ، فقد كان الأب هنرى بجميع من على شاكلته من النساك ، يوحى إلى النفس شعور الصفاء الذى لا يخفيه ماتسربل به من ملابس الإسكيمو ، وقد برقت تحت فرو قلنسوته عينان صافيتان زرقاوان فيهما روحانية وطفولة ، وكانت له لحية صهباء كلحى رجال الدين تتهدل على صدره .

وقادنى الأب هنرى إلى باب خشبى فى سفح الأكمة وساقنى إلى صومعته ، وكانت الأرض هنا متجمدة إلى عمق مائة قدم ، وكانت درجة الحرارة ٥٥ تحت الصفر . ولن يرضى إسكيمى أن يعيش فيها ، فإن كوخ الجمد أكثر منها دفئاً . وكان فى المغارة مصباحان يرسلان ضوءاً خابياً فى الظلام . وعلى رف إلى اليمين مصباح بترول ومدية إسكيمية مقوسة ، وخرقة ، وعلبة طباق خاوية ،وصندوق للملح . وكان فى نهاية المغارة قبالة الباب أريكة بينها وبينه أربع أقدام ونصف .

كانت الأريكة مصنوعة من ألواح رقيقة من الخشب بسط عليها جلدان من جلود الأيايل ، وعلى هذا السطح المائل كان يرقد الأب هنرى ، وكان ثمة فتحة فى الأرض إلى اليمين حجب صندوق أمتعتى جزءاً منها .

وقال لى الأب هنرى : « سيكون هذا الصندوق سريرك ، فإذا استطعت أن تتجنب هذه الفتحة فستصيب كل الراحة » .

كان الأب هنرى يعوزه كل الأدوات التى يعرفها البيض المتحضرون ، وقد أصبح كل ما كان يملكه منها عند قدومه إلى هذه الأصقاع نسياً منسيا . وقال لى : « إن هذه الأشياء لا معنى لها هنا » فما فائدة صحفة أو سكين أو شوكة ، ووجبة طعامه الوحيدة قطعة من السمك المجمد يأكلها عند ما يصحو من نومه فى الصباح ؟ وما القلم هنا حيث يجمد المداد ؟ وما المنشفة التى تيبس وتصير كلوح الخشب فى هذا البرد ، وما من شىء يستطيع الإنسان أن يفعله سوى أن يلعق أصابعه ، وقد أصبحت هذه الحركة عادة حاكمة .

ولما أخرجت إليه هداياه وقف وهز رأسه . إنه لم يعد يطيق أن يأكل طعام الرجل الأبيض : حتى الأرز شيء لا يهضمه ، أما السمك المجمد فليس ثمة خير منه كما يقول لتدفئة الأحشاء . ولقد ظل ست سنين لا يأكل غيره ، إنه غض يدفئك ويرد جوعك ويجعلك تشعر بالعافية .

على أنني مع هذا التثبيط لم أنقطع عن إخراج الهدايا . ذلك الجبن سآكله أنا ، وتلك السيجارات : إن ثمة قساً بلجيكيا في خليج ريبلس يحب السيجار فعزلتها له جانباً ، وذلك الغليون ! مسكين الأب هنري ! كان تدخين الغليون بين الفينة والفينة هو متعته الوحيدة ، بيد أن الأسقف طلب إلى جميع المرسلين أن يقدموا تضحية فضحى الأب هنري بغليونه . وأما بقية الهدايا فقد تناولها ووضعها جانباً وهو يقول لثارد اللب : « هذا كرم عظيم ، هذا كرم عظيم » . كان شكره اعترافاً بجميل القصد ، أما الهدايا نفسها فلم يكن لها معنى لديه .

كانت الساعة السادسة حين استيقظت في اليوم التالي ، وقد نبا مضجعي على صندوقي ، إذ لم أستطع أن أمد رجلي . وكان الأب هنري قد صحا منذ وقت طويل وجلس على سريره ساكناً مخافة أن يوقظني وهو يتمتم بعض الدعوات . أما وقد صحوت ، فقد قام يعد محرابه ، فدفع مصباح البترول وصندوق الطباق الخاوي جانباً وبدأ يصلي .

كنت طول ذلك اليوم أشعر بالضجر والبرد الشديد ، فجعلت نفسي في كيس النوم وجعلت أشرب الشاي . وكان الأب هنري يبادلني الحديث ونحن نتناوله ، وحدثني عن سرب كلابه العظيم الذي كان يفخر به بأسلوبه الذي لا كبر فيه .

وكان يقول : « كلما زدت في معاشرة الكلاب ازددت معرفة بالناس ، فعيوبها عيوبهم ومحاسنها محاسنهم . وما أشد اختلافها عن كلاب بلادنا ! وكم ذا يسرها أن تغرر بك وتلعب عليك الألاعيب ، وتنظر إليك كل مرة تلك النظرة الساخرة ! ومع ذلك فقد رأيتها تظل أسبوعاً بغير طعام ، وهي لا تكف عن العدو ، لا يند عنها ضُغاء من الشكوى . فإذا جن الليل رقدت لتنام على غير طعام ، كأنها لا تنتظر خيرا » .

وأبديت أسفي لأني لن أجيد معرفة لسان الإسكيمو وبذلك لن تتيسر لي معرفة أهله . فقال لي الأب هنري : « إن من جمال لسانهم البيان المفضي إلى غرضه ، بيد أنهم عندما يتكلمون يتركون لأنفسهم مخرجاً للخلاص[1] . وإليك المثال : يعود الإسكيمو من صيده فيجد في الكوخ عدداً من الزائرين ، فيأخذ منفضة الثلج وينفض

الثلج عن ملابسه ثم يخلعها وهو لم ينبس بكلمة ، ولما كان يعلم أن الآخرين ينتظرون حديثه يقول : « هذه الثعالب ! لا سبيل إلى صيدها » . ثم يصمت : « هذا ولست بعد قادراً على بذل جهد كبير ، وقد تقدمت بي السن » . ثم يصمت ثانيـة . وأخيراً يقول وهو كمن يحدث نفسه : « ولـكني اصطدت اليوم ثلاثة » .

وحـدثت الأب هنرى عما لقيت من متاعب فى الوصول إلى خليج بلى على كثرة ما توسلت إلى دليلى أن يجدّ فى السير .

فضحك الأب هـنرى وقال : « إنك لسعيد الحظ أنْ وصلت إلى هـذا المكان بهذه الطريقة ، فإنى إذا أردت أن أبعث مركبة فى رحلة مستعجلة أدعو الإسكيمى وأقول له : أريدك أن تذهب إلى خليج ريلس ، وسيقتضيك ذلك وقتاً طويلا ، وأنت صغير السن وربما كنت لا تعرف الطريق كل المعرفة ، ولا أحسب كلابك قوية قادرة ، ومع ذلك فليس ثمة غيرك ، فسر فى طريقك » .

وينقضى وقت ويعود الإسكيمى من رحلته .

فيقول الأب هنرى : « خيراً ؟ » .

ويقف الرجل ذليلا ناكس الرأس ، لقد ساءت الأمور : كان الجو أسوأ مما توقع ، ثم مرض أحـد الـكلاب ، وكانت مشقات جمـة أخرى يعددها له واحـدة واحدة ، ولـكنه مع ذلك ذهب وعاد فى ١٢ يوماً ، فهو يعلم أن الأب هنرى يعرف أن هذا سير سريع .

وحدثنى الأب هنرى عن رجل من الإسكيمو زاره يوماً ، وبعد ما جرت به العادة من شرب الشاى والصمت ، قال فجأة : « لقد خرجت اليوم بالعجوز إلى البحر المتجمد » .

والعجوز هى أمه ساقها إلى البحر لتجمد حتى تموت ، زعم أنه كان يحبها حبا جما ، وكان يشفق عليها ، بيد أنها كانت كفيفـة البصر بلغت من السن عتـيًّـا فلم تعد تصلح لشىء ما . وقد اقتادها بموافقة الأسرة جميعاً إلى البحر المتجمد وخلّـفها هنالك وحدها فى العراء لـكى تموت .

وقال لى الأب هـنرى : « إنى لأرجو بعون الله أن أغير هـذه الأحوال على مر الزمن ، وأن أرقّـق بعض عاداتهم ، على أن ذلك أمر عسير ، فإنهم يعيشون عيشة قاسـية ، عيشة مادية . وسـيقولون لك ، إذا هم عرفوا تعبيرنا ، إن عليهم أن يواجهوا الحقائق : إنّ هـذا الرجل كان ولداً باراً حقا . إنهم يعنون بالشيوخ منهم على الطريق ، ويعودون إلى المركبـات مراراً ليروا أنهم

فى دفء وشبع لا تعوزهم قطعة من السمك . ولكن يأتى يوم بعد سنين طويلة لم يتخللها ضجر أو تذمر ، ويومئذ يرى صغار السن أن ذلك أصبح متعذراً ، ويتركون العجوز على الجمد . ويذعن الشيوخ لهذا فى هدوء ، بل إنهم يكونون أحياناً أول من يقترح تلك النهاية لأنفسهم .

وقد قطعت إقامتى عند الأب هنرى لزيارة مخيمات صيد الفقمة التى كانت متناثرة على الجليد على طول خليج بلى . ولما انتقلنا من مخيم إلى مخيم أثار دهشتى سعة الأكواخ وفخامتها . ولقد رأيت طرازاً من مساكن الجماعات — ثلاثة أكواخ بنيت بحيث تفتح على ردهة وسطى ، وقطر كل كوخ ١٢ قدماً أعد لأسرتين ، ينيره مصباحان من مصابيح زيت الفقمة . أما رخاء هذه الجماعات الثرية فيدل عليه وفرة لحم الفقمة .

كانت كل صغيرة من أمور الحياة هنا أمراً جللا : تسوية المصابيح عند القيام من النوم ، وإطعام الأطفال والرجال والكلاب ، وجلبة الخروج إلى الصيد ، وثرثرة النساء وضجيجهن فى تدبير بيوتهن ، والعودة من الصيد عند المساء تحت عواء الكلاب وصخب الرجال وجر الفقمات إلى الأكواخ ، وأخيراً تناول الشاى والرجال ينفخون ويمزحون ويقتطعون قطعاً كبيرة من اللحم وهم ينتظرون أقداح الشاى أن تبرد ، وقد شعروا بأنهم رجال حقا . وقليل من الناس من رأى ما رأيت . وهى مشاهد لا ترى فى غير هاتيك البقاع — حياة الجماعة كما كانت عليه فى قديم الزمان ، ورخاء ورفاهية يختلفان اختلافاً بينا عن حياة الإسكيمو الغربيين وتحضرهم الكاذب ، وعن حياة قبائل أرض كنج وليم البائسة وفقرهم المدقع .

وكان ما أعجبنى من كرمهم مثل ما أعجبنى من جمال حياتهم ، كنت لا أكاد أدخل الكوخ حتى أجدهم يخلعون عنى ملابسى وحذائى وجوربى ، ثم تعلق لتجف ، حتى كأن محضرى كان يشرف الكوخ . وبعد حين تناولنى بنت صغيرة ملابسى على استحياء فاتن ، وقد جفت وحتّ عنها الثلج وأصبحت لينة .

حدث ، ولما يمض على غير خمس دقائق فى مخيم كنت أزوره لأول مرة ، أن سمعت هأهأة مرحة فى الكوخ المجاور ، فانحنيت ورأيت شخصاً على صورتى . كانت زوج إكشيڤاليتاك تقلد حركاتى ، وهأنذا أرى نفسى على ما أنا عليه بحركاتى الثائرة وكلامى الجازم : « أريد هذا وأريد ذاك » لا كما كان ينبغى أن أقول « أودّ » . إن مشهد

رجل أبيض أوحد في بلادهم، يأخذ على نفسه أن يصدر إليهم أوامر بقوله « أريد ... » وحيرته بين « أريد » و « أودّ » كان مما يثير ضحكهم .

وكان تقليد المرأة لي حتى في نبرات صوتي متقناً إتقاناً أذهلني . ومن عجيب أمر هؤلاء الناس أنهم يلمون لساعتهم بالصفات المميزة للشخص : ذلك الهياج وذلك الملل ، وتلك الكبرياء الخرقاء التي يبديها الرجل الأبيض الذي يظن أنه السيد الآمر حيثما ذهب . فلا عجب إذا انفجرت ضاحكا أنا أيضاً .

لا تحتاج العودة إلى حياة الفطرة إلى طويل وقت ، فلقد كففت عن الشعور بحاجتي إلى مرافق المدنية ، وذهبت من خاطري فكرة تغيير ملابسي كل يوم ، وأصبحت أحبُّ مذاق السمك المجمد وخاصة إذا كان قد جمد لساعته ، وبذلك يحتفظ بنكهته الطبيعية . ولا أذكر أني استسغت طعاماً في فرنسا كما استسغت هذا السمك .

نعم ، إن الأب هنري كان مصيباً حين قال : إن طعام الرجل الأبيض لا يصلح أبداً لهذه الحياة ، فالأرز المسلوق يدفئك وأنت تأكله ، ولكن حرارته تزول من فورها تقريباً . أما السمك المجمد فتأثيره عكس ذلك ، فأنت لا تشعر لساعتك بما يشيعه من الحرارة ، ولكنه يبدأ بعد عشرين دقيقة يبعث الحرارة في جسمك ويحفظها عليك ساعات . أما اللحم النيء بذخائره الثمينة من الفيتامين ، فإنه إذا أكل مجمداً امتص الجسم منه مقادير وفيرة ، فإذا قضيت يوماً شاقاً في الطريق ، فلا تكاد تعرف نهاية لما تأكل ، ويأتي يوم تستسيغ فيه حتى الطعام العفن ولو أن الأمر لم يبلغ بي أن أعدَّه من الأطايب . وقال لي الأب هنري : « لقد كنت مثلك ، بيد أني وقعت يوماً على قطعة من الـ « تي بي » أو اللحم الزَّهِم المتغير، فتذوقتها وقلت لنفسي : آه ، لا بأس به ، ومنذ ذلك الوقت صرت أجد اللحم الغض لا طعم له » .

وقد أحبني الأب هنري وأحببته منذ أول لقاء ، فلما ائتلفت قلوبنا صار حديثنا خالياً من تحفظ المجتمع ، فسألته يوماً : ألم تجد في حياة الوحدة مشقة وعنتاً ؟

فأجابني : « كلا ، وأنا سعيد جداً هنا ، ولدي كل ما أحتاج إليه » . (ولم يكن لديه شيء البتة !) « وما يجثم على صدري بين الحين والحين إلا مصيري إذا أدركني الكبر ؟ » .

كان كمن يعترف بضعف خفي في نفسه . فقلت له محاولا أن أرفه عنه : « إذا كبرت فستعود يوماً إلى بعض الإرساليات

بين البيض » . فاعترض قائلا : « لا ، لا ، لا ، ليس هـذا » .

ماذا كان يعنى أن أقول ؟ لم يكن لى أن ألح عليه فى السؤال ، غير أنى وددت من أعماق نفسى عندئذ أن يرى كل رجل له بيت ينعم فيه بالدفء وقد ضمن الراحة فى الكبر هذا القس المتوحد فى تلك الأصقاع المتجمدة .

إن هذا الرجل تحييه قوة غير قوة الطبيعة . لقد غادرته الحياة كما نفهمها ، وحل محلها شىء أكثر لطفاً وغموضاً . كان صريحاً ساذجاً ، متجرد النفس ، لا يلتحف بغير رداء دينه وتقواه .

كان بفضل هذا الرداء لا يبالى بجسده ، فإذا قلت مثلا : « إنه يوم غير دافىء » ، وافقك غير مريد ولكنه لا يحس البرد ، و « البرد » عنده « لفظ » لا أكثر ، وكان إذا سد منافذ الباب فإنما يفعل ذلك من أجلى . كان بنجوة عن يحيى حياة أخرى .

نعم ، لم تكن به حاجة إلى شىء قط ، فقد كان يعيش ويقيم أوده بالصلاة . ولو كان عماد حياته ما فى الإنسانية من قوة لما عاش إلا فى يأس مقيم ، ولكنه كان يستمد العون من قوى أخرى ترعاه بعنايتها . ومهما يكفر بأمره من لا يؤمنون ، فقد كان إذا اشتدت العاصفة وأنذرت بالهلاك ، يدعو ربه ، فإذا هى تضمحل وتهدأ . كان يوماً ما على شفا الموت من جوع ناله ، هو والإسكيمى الذى كان يصحبه فدعا ربه ، فوجدا فى شباكهما تلك الليلة قمتين . وكان عبثاً أن أحاول رده إلى حقيقة الحياة ، إنه لا يطيق أن يعايش تلك الحقيقة .

كانت حلته الروحانية درعاً تقيه الجوع والبرد وجميع عوادى العالم . ولقد علمت مرة أخرى أن الروح عزيزة لا تقهر ، وأن المادة هالكة ضعيفة . فإذا كان ثمة رجل شهد ما شهدت ، ثم يأبى مع ذلك أن يؤمن بهذا ، فخير له أن يقبع فى داره فليس هو بالرحالة الجوال !

وأخيراً طلبت إلى الأب هنرى أن يدبر أمر عودتى إلى أرض كنج وليم ، فاتفق مع أحد الإسكيمو ليصحبنى ، فلما جئت أودعه خنقتنى العبرات واحتبست الكلمات ، وبعد لأى ما استطعت أن آخذ بكلتا يديه وأومىء له برأسى . وانطلقت مركبتنا بسرعة :

واستمر نور النهار على الطريق من منتصف الساعة الثانية عشرة إلى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم سقط الليل علينا وقضينا يومنا ظلاماً دامساً . والآن عادت الشمس فجعلت البحر بساطاً مترامياً رقيقاً وردى اللون ، بدت على سطحه قطع

الثلج خضراء صافية ومركبتنا تسرع السير بينها . وماتت الأرض مع دورة الفصول ثم ولدت من جديد ، وأحس الإسكيمى بنضارة الحياة ورقتها كما أحسست . ومع أن درجة الحرارة لم ترتفع بعد إلى أكثر من ٥٠ تحت الصفر ، ولم يزل البرد قارساً في الليل ، فقد كنا ثلاثتنا — وكان مانيلاك قد اصطحب زوجه في هذه الرحلة — نتحدث ونتضاحك في مرح وسرور ، وقد أحسسنا كأننا ولدنا من جديد .

وكنت كلما قضيت أياماً بين هؤلاء القوم أجدنى أطابق نفسى على طرائقهم فى الحياة . فقد أصبحت بعد الثرثرة حليف الإيجاز . وإذا فكر المرء فى هذا الأمر فكم من كلمات نقولها لا ضرورة لها ! وقد صرت أعتقد أن اللغة إنما وضعت للكسالى الذين لا عمل لهم . ونحن فى الطريق لا نكف أبداً عن العمل ، إن ثلاثة من الناس فى رحلة على الجمد هم جماعة صامتة ، يؤدى كل منهم ما عليه صامتاً . فإذا ما اعترضتنا أكمة نزلنا ثلاثتنا ، ولم ننطق كلمة ، وتعاونّا على دفع المركبة . وسواء أكنا نغطى بالثلج عوارض الانزلاق ، أم كنا نحل أحزمة الكلاب ، أم كنا نعد الشاى ، فقد كانت حركاتنا مؤتلفة ، وإذا فى النفس أثر لا ينسى من الألفة والسكينة . فإذا ما فرغنا من عملنا أخذنا فى لف السجائر من علبة طباقنا المشتركة ، وتبادلنا الابتسامات كأننا على تفاهم واتفاق .

وفى كل ليلة كنا نقيم كوخ الجمد بأسرع من لمح البصر ، وكانت الزوجة تدق الثلج حتى يصير مسحوقاً ناعماً ، وتسد به الشقوق سداً محكما . وكان الزوج يقيد الكلاب فى مكانها ، أما أنا فكنت كربة المنزل دائب الحركة فى جوف الكوخ . والراحة فى الكوخ هى الترتيب ، فإنه ينبغى إذا ما جلست على أريكة الثلج أن يكون كل شئ فى متناول يدك ، وكل أداة فى مكانها المعهود ، حتى إذا ما مددت ذراعك ، وقعت يدك على « ثلج الشرب » ، أو علبة الطباق أو الملابس على مشجب التجفيف فوق المصباح . ولقد أصبحت كقعيدة البيت ، لا شىء يغرينى بتغيير مواضع هذه الأشياء . وإذا تم كل شىء اتخذت مجلسى ورضيت عن نفسى كما ترضى عن نفسها حارسة الباب فى باريس ، وقد جلست فى غرفتها وحبل المزلاج إلى يمينها والموقد إلى يسارها ، وهرّتها على ركبتيها .

تلك هى الراحة ! على أنك إذا ما تمت تغير كل شىء ، فحين يطفأ المصباح تنزل درجة الحرارة . كنت لم أصبح إسكيمياً بعد ، وظل النوم يراوغنى ، ويأخذ كيس نومى

يطقطق كلما تحركت ، فقد استحال قطعة من جليد . كان الثلج يشمل شعرى ويغطى وجهى ، وقد كان نفسى يجمد لساعته حين يخرج من بين شفتى .

فإذا صحوت من نومك فى الصباح ألفيت الكوخ مفعما بضباب أشهب ، وبعد لأى ما تعقد عزمك على أن تتحرك . وإنه لعذاب أى عذاب أن تخرج ذراعك من الكيس لتوقد موقد البترول .

ولن تطيق أن تحلق ذقنك ، وعجزك هذا يجلب شراً مستطيراً ، فإن الشعر إذا نما على خديك وذقنك وشفتيك ، تجمع الثلج عليه وأصبح عبئاً لابد من إزالته . ولم أكن أطيق أن أخلع قفازى لأفرك الثلج بيدى ، فأجذبه بشدة ويأخذ وجهى يدمى ، والدم يجمد ، ويبدو منظرى ، بين الدم المجمد وبقع الصقيع السود على أنفى وخدى ، منظراً فظيعاً .

وبلغنا جواهافن عند منتصف الليل حيث لم يزد جبسون فى الترحيب بى على قوله : « هالو ! لقد عدت إليناثانية » . ليته كان يدرك ما أدركه من قوله « عدت إلينا ثانية » .

لقد انقضت ٣٥ يوماً منذ أن غسلت وجهى وخلعت عنى جميع ملابسى . وعلى أنى كنت منهوك القوى فقد كان عسيراً على أن أنام . كان الترمومتر فى داخل الكوخ عند درجة التجمد ، وكنت أكاد أختنق من الحر . وجعلت — وأنا الذى لم أسعل مرة فى الطريق — أسعل كما يسعل العجوز . ولقد غلبنى سُعار الجوع ، ولكن الإعياء قعد بى عن الأكل . كنت مضنى من التعب ، وسأظل كذلك أياماً .

وسافرت بعد إقامة ثلاثة أسابيع فى مقر الشركة فى صحبة يوتاك وأحد أهالى نهر برى ، اسمه بيروآنا ، إلى مقر شركة خليج هدسن عند نهر برى .

كانت الشمس متألقة فى ذلك اليوم ، والمياه المتجمدة تلمع على مد البصر ، والجو هادئاً صافياً ، حتى خيل إلى أنى أخلف ورائى السعادة كل السعادة . وفى الطريق لقينا مساعداً شابا من شركة خليج هدسن ، وقد جعلنى منظره أدرك فجاءة طول المسافة التى قطعتها .

وقد تتوقع أن يتعانق اثنان من البيض إذا هما التقيا فى منتصف الطريق فى تلك الأصقاع المتجمدة ، بيد أنى ، عندما أسرع ذلك الشاب نحوى يحيينى ويقدم نفسه إلى ، وقفت لدهشتى بلا حراك فى حذر الإسكيمى وتهيبه . وشر من ذلك أنى ، بعد أن تبادلنا التحية ، انصرفت عنه إلى يوتاك وبيروآنا . فلقد صارا أعز على من جنسى . ولما تحركنا

للسير – وكان ثمة ثلاث مركبات قد اتجهت وجهة واحدة – تركت الشاب وحده ودلفت إلى جانب رفيقي أمزح وأتحدث إليهما . وقد كان لدىّ ولدى الإسكيمى أشياء كثيرة يقولها بعضنا لبعض ، ولم يكن لدينا ما نقوله للرجل الأبيض . وكل ما قاله الرجل الأبيض لم يسترع انتباهى ، بل إنه لم يكد يطرق سمعى ، وكان ما فهمته من قوله سخيفاً غير معقول .

وقد ظهر الفرق بينى وبينه ظهوراً بيناً عند ما جنّ الليل ، فقد بنى يوتاك كوخاً من الجمد لجستنا ، بدا صغيراً لصاحبنا الأبيض حتى لقد زفر حين رآه . وأول كوخ يراه الإنسان يبدو دائماً صغيراً .

وقد قال لى صاحبنا : « إن هذا مضحك ! قل له إننا لا نستطيع أن ننام جميعاً فى مثل هذا الكوخ » .

لم يكن يعرف من الحياة فى الكوخ شيئاً ، وقد خطر لى فجأة أن قضاء ليلة فى كوخ من الجمد يقتضى مئات من التفاصيل الدقيقة تعلمتها أنا واحدة واحدة دون أن أشعر . فثمة طريقة نفض الثلج عن الملابس دون أن يقع الثلج على الجلود التى تغطى أريكة الجلوس . وثمة ذلك الفن الجميل ، فن ترتيب كل أشيائك بحيث تكون فى متناول يدك وأنت متكىء على الأريكة .

وأخيراً وفوق كل شىء ، هناك نظام الحياة فى الكوخ الذى يجب أن يتبع بدقة صارمة.

فإذا عرفت هذا النظام تصبح حياة الكوخ سهلة بسيطة وتسير بغير عائق ، وإذا جهلته سارت الأمور على غير ما تريد ، فتتأخر ، وتزاحم ، ولا تستطيع أن تعثر على ما تبحث عنه . وبينا يكون الآخرون فى أكياس نومهم ، لا تكون أنت قد استطعت حتى أن تأكل . وأخيراً يندس الرجل الأبيض وهو مرتد جميع ملابسه فى كيس النوم ، ولا يستطيع أن يغمض جفنه ، وينقضى الليل والمبولة تدور تحت أنفه نزيده هماً على هم .

كان هذا الأبيض المسكين عبئاً ثقيلا وحجر عثرة فى سبيل كل فرد ، لم يكن يدرى ماذا يفعل ، وكان خيراً له أن لا يفعل شيئاً ، ولكنه كان مثلى فى الخريف الفائت ، كان به نقيصة أخرى هى أنه كان لا يفكر فى غير نفسه . وقد كشف لى وأنا أرقبه أن حياة الإسكيمو تجرد المرء من الأنانية . كان هذا الشاب رجلا أبيض فهو إذن محب لذاته : « شايى ... علبتى ... نومى » ، ولكن لا ياسيدى ! إنه شاينا ، وعلبتنا ، ونومنا ، إن الحياة الإنسانية تنقرض من المنطقة المتجمدة لو هى خلت من هذا التماسك والاجتماع . ولقد علمنى الإسكيمو فوق هذا

جميعاً أن أنبذ أشياء كثيرة ـ العجلة، والهم، والتمرد، والأثرة . وقد استغرقت سنة أتعلم هذه الدروس، ورأيت فجأة أن تلك السنة التي قضيتها في الشمال لم تكن ـ كما حسبت ـ سنة قهرت فيها عناصر الطبيعة، ولكنها كانت سنة قهرت فيها نفسي . وبفضل هذا النصر لم تعد المنطقة المتجمدة عندي مصدر ألم وعناء، بل مبعث سعادة وسرور. كانت البوتقة التي ذاب فيها خبث طبيعتي على مهل . فلقد وجدت في هذا الرحب المتجمد ما أبغيه من رضى النفس، وهو ما لم أجده في سائر أنحاء العالم .

وعاد الربيع إلى المنطقة المتجمدة، وارتفعت درجة الحرارة إلى ما فوق الصفر وذات يوم ارتفعت فجأة ـ وكان ذلك في ٢٥ ابريل ـ إلى درجة واحد تحت الصفر، وهبت ريح « حارة » تضيق بها الأنفاس وكان « الحر » لا يطاق، واضطررنا إلى إزالة الثلج الذائب عن سطح الشركة مخافة أن يغمرها الماء .

وتطلعت من النافذة إلى خيوط الجليد وهي تقطر ماء، وفكرت في اكتئاب: ما أبغض مرأى الدنيا على هذه الحال . وبرزت من جديد تلك الحجارة الشبيهة بالجماجم كالحة قد انتثرت في البرية الجرداء، وكان المشهد على امتداد البصر كريهاً شاحباً كئيباً . وبدا مقر الشركة غارقاً في حمأة من الروث والفضلات أظهرها ذوبان الثلوج . فيالها من قذارة لا تقع تبعتها إلا علينا نحن! هذه الصفائح التي كنا نلقي بها في الخارج غير آبهين، وأوعية المربى الخاوية، والبطاطس الفاسدة، كلها تظهر فجأة لتلبسنا الخزي .

فلما مرت الأيام سراعاً جعلنا نرى النور في السماء طول الليل، فكنا نكره أن نأوي إلى الفراش، فإذا فعلنا لم نستطع النوم . وكنا كالحيوان قد استكن الشتاء كله، وقد أشرفنا الآن على زمن الخروج والسعي .

وكان الإسكيمو في ذلك الوقت قد هجروا أكواخهم المتداعية، وقامت الخيام في كل جانب . فلما عادت ريح المنطقة المتجمدة المتقلبة تهب باردة، وجعلت تصفر خلال مساكنهم الجديدة، أقاموا حولها سياجاً من الثلج يقيها شرة الريح . وكنت ترى في خيامهم أكواماً مختلطة من الجراب وجلد الدب وآلات الخياطة التي علاها الصدأ، وفونوغرافات قديمة، إلى غير ذلك مما نبشوه من الأرض في الربيع . أما شاطئ البحر فكان أكواماً من الصفائح الفارغة وجثث الثعالب وقطع الجلود البالية، تشهد كلها أن الإنسان أحقر حيوانات الخليقة جميعاً .

وشهر مايو هو شهر الزيارة العظيم ، وكان الإسكيمو ينزلون هذا المكان كل يوم تقريباً ، وكثيراً ما يأتون من مسافات بعيدة ليبيعوا تجارتهم السنوية ، وقد يجلب بعضهم ١٥٠ أو ٢٠٠ من جلد الثعلب : وكان يبدو عليهم جميعاً التلهف والفرح لما يتوقعونه من ولائم وزيارات وتجارة فى النساء ، وكان وصول كل مركبة غنما كبيراً المخيم جميعه .

ولم يكن هؤلاء هم الإسكيمو الذين أسعد بالإقامة بين ظهرانيهم ، فإنهم كان يصطادون بالبنادق ، وكانوا يعرفون الجمع والطرح ، وقد قطعوا إلى الحضارة نصف الطريق . كانت قفازاتهم معلقة إلى جنوبهم بخيط من الصوف طويل زاهى اللون ، كانوا كقرود معارض الحيوانات يجلسون على كراسى ولا يأكلون إلا أرقى صنف من أصناف البسكوت ، ويدخنون السجاير الملفوفة ، ويقلدون الرجل الأبيض فى حركاته .

وفى مقر شركة « هدسن باى » تلتقى فى التجارة عقليتان وتلتحم إحداها بالأخرى ، هما عقلية الرجل الأبيض وعقلية الإسكيمو . فيرى الإسكيمو فى هذه النقطة النائية الواقعة فى أقصى الفضاء ، ما يمثل خلاصة حضارة الرجل الأبيض — مستودعاً للثروة والترف ، فإذا دخلوا المتجر سمعت منهم ضحكا مكتوماً ، فسوف يغلبون الرجل الأبيض فى البيع مرة أخرى ! ألا تراهم يظفرون بتلك الأشياء العجيبة فى مقابل فراء بعض الثعالب ! فالرجل الأبيض ولا ريب رجل مأفون لاهتمامه بمثل هذه التجارة . ماذا تجدى عليه هذه الثعالب ؟ إن جلد الثعلب ينفع فى كوخ الجمد لمسح الآنية ، على أن جلد الطيهوج (طائر من رتبة الدجاج فى البلاد الباردة) خير للمسح من جلد الثعلب . وليس من الممكن أن يكون لدى الرجل الأبيض آنية كثيرة تحتاج إلى المسح !

ويدخل الإسكيمو واحداً بعد واحد إلى المتجر وفى أعقابهم زوجاتهم وأطفالهم ، يقفون بلا حراك صامتين مشدوهين . فإن هذا المتجر هو جنة الخلد عند قوم يرون مبرداً علاه الصدأ كنزاً ثميناً — وقد روى لنا آمندسن عن إسكيمو يسافرون ٦٠٠ ميل للحصول على بضعة مسامير . هنا صناديق عدة حافلة بالمسامير ، وصنوف من مبارد الحديد ، ويتدلى من السقف على مد أيديهم ٥٠ مسخنة (غلاية) من مساخن الشاى . فجعل بعضهم ينظر إلى بعض وقد أثارهم وبهرهم ما رأوه . ما أعجب هذا المخلوق ، هذا الرجل الأبيض ! إنه لا يقتنى جميع هذه المساخن والأباريق فحسب ، بل إنه لتصله منها مقادير جديدة كل سنة . لا بد

أن يكون له فى بلاده النائية مخابئ هائلة فى الأرض ملؤها الآنية والأقمشة والطباق .

ويتقدم أولهم ، وهو أعظمهم شأناً ، لقد راعه ما رأى ، ومع أنهم قد تحدثوا عنه فى أكواخهم مراراً فإن حقيقة المتجر تبهر الأبصار أكثر مما كانوا يذكرون . ويلقى الإسكيمو بكيس إلى الأرض ، ويفتحه ويسحب منه شيئاً أبيض لا شكل له يعلوه دم مجمد . ذلك هو الثعلب .

ويقف الرجل الأبيض باسماً ، ويظل الإسكيمى منقباً فى فكره ، وأخيراً يقول فى ثبات :

« أوت — كور — لو » أى زيت الفحم .

فيسأل الرجل الأبيض: « تا — مار — ميك ؟ » أى : بقيمة ثعلب كامل ؟

فيقول الإسكيمى : « إهْ — إهْ » أى : نعم .

ويحضر الرجل الأبيض ذلك الوقود ، ويأخذ أول ثعلب ، ويخرج الإسكيمى ثعلباً آخر ويعود فيقول :

« تى — با — كو » أى طباق .

فيسأله الرجل الأبيض ثانية: « تا — مار — ميك ؟ »

ويضايق الإسكيمى تكرار هذا السؤال ، ويستولى عليه خوف غامض ولا يجرؤ أن يأمر وينهى ، وأخيراً يقول فى صوت خافت :

« نابى — دلو — جو » أى مشطور شطرين .

ولكن ماذا يشترى بالنصف الآخر من الثعلب ؟ فيجعل ينظر إلى السقف ويتمتم :

« نا — أونا » . (لا أدرى) .

وفجأة يذكره شىء يراه على الرف بما يريد ، فيشير إليه ويقول :

« تام — نا — لو » . (ذلك الشىء) .

وكلما رمى الرجل الأبيض بجلد الثعلب تحت المنضدة يفهم الإسكيمى أن ذلك الثعلب قد نفدت قيمته ، ولكن ما دام الثعلب على المنضدة فله قدرته على الشراء لا تزال .

وتباع الثعالب الثلاثة أو الأربعة الأولى بسهولة ، فثمة تلك الأشياء التى لا يستغنى عنها الإسكيمى ، كزيت الفحم ، والشاي ، والطباق ، بيد أنه بعد بيع الثعلب الخامس يحار الإسكيمى فيما يبغى ، ولا يرجع ذلك إلى قلة تأهبه للأمر ، كلا علم الله ، فقد تحدث هو وزوجه عشرين مرة فى كوخهما فى ذلك الأمر ، ولكن خانته الذاكرة .

على أنه من حسن الحظ أن زوجه كانت حاضرة ، فكانت تلمزه بطرف حذائها فى كعبه وتلقنه ما يقول ، فتقول : « القماش » « آنيـة الطهى » ، وتلتمع عيناها التماعاً لا يكون إلا فى عينى امرأة تعيش على الفطرة .

نعم نعم ، كيف نسى ؟ وتتوالى عليه الأفكار تباعاً ويقول : « هذا ! وهذا ! وذاك ! » ويشير إلى كل ناحية فى وقت واحد مخافة أن تفلت منه هذه الأفكار الطارئة .

وأخيراً يرى أنه قد تمادى ، وحين يترك المتجر يجر وراءه صندوقاً من خشب حشوه الكنوز ، يحس إحساساً غامضاً أن كثيراً من هذه الأشياء البراقة لا تجديه شيئاً . وفى أغلب الأحيان يجد نفسه فى غير حاجة إلى تلك الأشياء التى كان منذ لحظة واحدة لا يستطيع مقاومة إغرائها . ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة أخرى فى الاتجار — بين الأهالى أنفسهم . ولما كانت الأشياء فى نظرهم لا قيمة لها فى ذاتها ، بل إنها تقوّم حسب الرغبة فيها أو الرغبة عنها ، فإنه يحدث أن يشترى طوق كلب جميل بغليون من طين ، أو نصف كيس من الدقيق بقلم أحمر . وكذلك قد تعدل الإبرة فراء ثعلب بأكمله ، وتكون لشريحة جلد رئة قيمة مصباح . والغريب أن ليس ثمة إسكيمى يقول بأنه غلب فى صفقة بيع ، فإن ذلك لا يخطر له على بال .

وتبادل الزوجات شائع بين الإسكيمو ، وهو أمر تافه يقتضيه حسن المعاشرة ومجاملة لا تمنع عن الأصدقاء او الزوار .

والتصرف فى المرأة من حق الزوج وحده ، والرجل الذى يطلب هذا من الزوجة رأساً يقترف أمراً خطيراً ينقض العرف المتبع ويستجلب المتاعب الشديدة .

وسؤالك الإسكيمى أن يعيرك زوجته أمر تجرى به العادة ، بحيث لا يتردد أحد أن يطلبه فى كوخ يعج بالناس . وهو أمر لا يبلغ من شأنه أن يقطع الحديث ، فترى الزوج يجيب بلا أو نعم ، كما يشتهى فى تلك اللحظة بغير اكتراث .

ويتم كل شىء بغير اكتراث كما تم الطلب نفسه . فإذا حان وقت النوم اندسّ الزوج ساكن النفس فى كيس نومه المصنوع من جلد الغزال ، على حين تنسل زوجته إلى كيس صديقه . ولا يجد الزوج فى نفسه شيئاً من الغيرة ، بل تراه قد أسلم نفسه للنوم قبل أن يستقر الصديق فى الكيس مع زوجته .

ولا يزال الإسكيمو على الفطرة الأولى . فالربيع ، وهو فصل السِّفاد (التلاقح) فى المملكة الحيوانية ، يبدّل فى أبدانهم وطبائعهم ، فيتغير لونهم من أسمر أربد إلى أرجوانى ، ويتقد على خدودهم وهج أحمر ، وتلمع عيونهم ببريق غريب . وتسود هنا فى نهر يرى ثورة من الهياج الجنسى فى طول المخيم وعرضه تجتاح كل من فيه . ولا يزالون

يتواقعون ليل نهار فى طوفان من الهياج لا ينقطع ولا تكبح شرّته . ولا حديث لهم غير هذا . ويصل الرجال إلى مقر الشركة فرحين مرحين يقصون مفاخرهم فى هذا الميدان بإسهاب وتفصيل ، ثم إذا بهم ، وقد حركتهم كلماتهم ، يعودون سراعاً إلى خيامهم . ويشترك فى هذا الهياج ، الصغير والكبير ، وكل بنت وامرأة . ولما كان موكاهينك بلا زوجة فقد تزوج بأم شريكه فى الصيد ، وكان يبدو عليها أنها بلغت السبعين ، ولكن ربما كانت فى الخمسين . وقد ظهر هو الآخر عند مقر الشركة يقص قصته . وحتى صغار الأطفال ركبتهم هذه الحمى التى كانوا يشاهدون مظاهرها (فلا حياء فى الخيام) . وكانوا يقلدون كبارهم فى فرح ، وهم لا يدرون ما يفعلون .

وفى ناحيــة نهر برى ألفيت حزمة من الرسائل تنتظرنى ، وكان على أن أجيب على بعضها ، ومع أنى كنت على مسافة ٥٠٠ ميل من كوبر ماين ، لم ينقذنى هـذا البعد من براثن الراديو الحديدية ، واضطررت أن أرسل بعض برقيات ، فمنذ الآن لم يكن لدى ما أفعله إلا أن أدبر أمر عودتى إلى العالم الذى كنت الآن فى سبيلى إليـه . ولقد قاومت فكرة عودتى هذه ، وحدثت نفسى أنى كنت ملكا فى كوخى ، وسأرتد فى ذلك العـالم عبداً مسترقاً . ومهما يبد من عقوقى ، فإن جميع الدوافع كانت تحفزنى إلى نبذ عالمى الذى نشأت فيه . ولم تك بى رغبة فى سماع أى شىء عن فرنسا أو عن أصدقائى ، حتى بارحت كندا نفسها وعلمت أن الحرب قد اندلع لهيبها .

وفى ليلة فى أواخر مايو — قبل أن أبحر على سفينة البوليس الملكى الكندى بيومين ، وهى السفينة التى كانت ستحملنى من المنطقة المتجمدة إلى بنى جنسى — مشيت إلى قمة الأكمة وأجلت البصر حولى . وكانت الليلة ساكنة سكوناً عجيباً ، وقد ران على الأرض والبحر ذلك الصمت الذى يجعل الليالى فى المنطقة المتجمدة شيئاً يفوق تصور من لم يعرفوه .

ورجعت بخاطرى إلى تلك الأشهر فى الطريق ، وتلك الشدائد ، وحتى ما لقيت من البلاء . وفجأة جعلت أفتقدها افتقاداً شديداً دهشت له ، ولم يفارقنى هـذا الشعور منذ تلك اللحظة . ولم أحنّ فى حيـاتى إلى أى شىء حنينى إلى الشتـاء القطبى ، وتلك الأكواخ الزائلة الجاثمة على الثلج .

ويعلم الله أى فقر كان فقرنا ، فقد كان فقراً تاماً شاملا ، لم نكن نملك فتيلا . على أنه كان ثمة فرح ورضى يسودان حياتنا ، ولا أزال أطيل التأمل فيهما دون أن أجد لهما

تفسيراً . لقد خسرت جميع ما أملك، بيد أنى وقعت على كنوز عظيمة . خسرت العالم ولكنى وجدت نفسى ، واستبدلت البريق بالذهب . لقد كان فى قرارة نفسى مكان للهدوء الروحانى لم أكن أعرفه . ولقد وجدت فى العاصفة والخطر المحدق خلاصى وسعادتى ، ولولاهما لنامت روحى غير حافلة تحت أطباق الجسد . وهنالك فى البرية المتجمدة أعدت بناء نفسى من جديد ، فمن خلال طبقات الجلد المتجمدة المغضنة التى تكسو وجهى ، بدأ يبرز وجهى الحقيقى ، ذلك الوجه الذى أراد الله لكل امرئ أن يبديه لأخيه .

ووقفت على تلك الأكمة وقلت لنفسى : إننى لا أريد أن أبرح هذه الأرض . كان ما أنزع إليه أن أعود إلى تلك الأصقاع النائية ، وأعيش كما يعيش الأب هنرى فى خليج بلى ، ولكن هذا كان أمراً لا يمكن التفكير فيه لأسباب كثيرة . فلما انقلبت راجعاً أنزل عن الأكمة ، أدركت أنه قد كتب على أن أعيش فى غير ذلك المكان . وإنى لأعلم الآن علم اليقين أنه فرنسا .

☆☆☆☆☆☆☆☆

هؤلاء من خيار الناس

لا يذهبن بك الظن إلي أنك أصغر سناً من أن تنهض بجلائل الأعمال ، فقد كان توماس جفرسون فى الثالثة والثلاثين من عمره حين كتب وثيقة « إعلان الاستقلال الأمريكى » . وكان بنيامين فرنكلين فى السادسة والعشرين حين ألف « تقويم رتشرد المسكين » . وكان تشارلز ديكنز فى الرابعة والعشرين حين شرع يؤلف « أوراق بيكويك » . وفى الخامسة والعشرين حين ألف « أوليفر تويست » . وكان ماكورميك فى الثالثة والعشرين حين اخترع الحصادة ، أما نيوتن فكان فى الرابعة والعشرين حين صاغ قانون الجاذبية .

وقد كان الفيلسوف كانت فى الرابعة والسبعين حين ألف أفضل مؤلفاته ، وفردى الموسيقى فى الثمانين حين ألف أوبرا فالستاف ، وفى الخامسة والثمانين حين ألف أوبرا آفى ماريا . وكان جوته فى الثمانين حين أنجز «فاوست» ، وميخائيل أنجلو فى السابعة والثمانين حين أتم أعظم آثاره ، وفى الثامنة والتسعين حين رسم الصورة التاريخية « معركة لبانتو » . ولا يزال برنارد شو — وهو فى الثامنة والثمانين — هو شو نفسه كأبرع ما كان .

[لويس نيزر فى مجلة « باجنت »]

حكم على الهند

ملخصة عن كتاب بقلم بفرلي نكولز

[« حكم على الهند » ثمرة رحلة أتمها حديثاً صحفي انجليزي من أقدر الكتاب على إثارة الإهتمام . وكتابه يصف مغامرة شخصية بين الشعب الهندي وزعمائه الحاليين ويعرض آراء شخصية تخالف بعض الآراء الشائعة في موضوع الإستقلال الهندي]

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

حكم على الهند

لما دخلت مستشفى هندياً لعلاج قدمى الملتهبة ، كان أول ما علمته أنه ليس ثم سوى ممرضة واحدة مدربة لكل ٦٥٠٠٠ من سكان الهند . وهذا الرقم يعادل إجمالا ، أن يكون لكندا كلها ٢٠٠ من الممرضات . وفى مدينة بشاور التى أويت فيها إلى مستشفى يوجد ٦٠٠٠٠ حالة من التدرن الرئوى وحده ، فإذا جعلنا ممرضة واحدة لكل عشرة من هؤلاء المساكين ، فإننا نحتاج أن نستخدم هيئة التمريض بأجمعها فى الهند لهذه المدينة الصغيرة نسبياً .

ولا يزال التمريض فى الهند مهنة تعدها السواد الأعظم من النساء الهنديات وصيعة ، وليست العادات التى اضطرت فلورنس نيتنجيل أن تكافحها فى إنجلترا فى العهد الفكتورى ، سوى أهواء ونزوات إذا قيست بالقواعد المقررة المستحكمة للطبقات والتقاليد ، التى تحكم المرأة الهندية .

وهذا هو السبب فى أن نسبة كبيرة من جماعة الممرضات الصغيرة ، تتألف من الفتيات المولدات (الهنديات الإنجليزيات) ومعظمهن مسيحيات . والمهانات التى كثيراً ما تتعرض لها هؤلاء الفتيات مما لا يصدق ، وخاصة حين تكون إحداهن موكلة بحالة خاصة . وقد حدثتنى فتاة عالية الثقافة شديدة الذكاء أنها تطالب بأن تأكل مع الكناسين ، وأنه بعد أن يستحم مريضها بالمطهرات ، يصر المريض على الاستحمام مرة أخرى ليميط عنه « لوثة » لمسها .

وهؤلاء الستون ألفاً المصابون بالتدرن؟ من أسباب ذلك ، ربطة « البوردا » . وأنت إذا سرت فى شوارع بشاور فإنك لن ترى وجه امرأة ، والنساء القليلات اللواتى تلقاهن مغطيات من الفرع إلى القدم ، وليس لهن سوى شقين ضيقين للعينين ، وخرق ضئيل للفم — وهذا هو كل الهواء النقى الذى ينلنه .

وحدثنى الطبيب الموكل بجناحى ، قال : « لو أن أحداً أراد أن يخترع ثوباً مثالياً لتفريخ الجراثيم لما استطاع أن يجىء بخير من البوردا . ونحن نكافح هذا الرداء سنة بعد سنة ، ولكنا لا نستطيع أن نكافحه جهرة مخافة أن نسىء إلى الإحساس الدينى فى الشعب » .

وقالت ممرضتى صباح يوم — وكان الاثنين — : « قد نشأت متاعب فى إحدى حجرات الجناح المجاور » .

« جاء غلام صغير ومعه ١٨ من أقربائه يصرون على النوم بجانب سريره » .

« ثمانية عشرة ؟ » .

« نعم ، أبواه وجدوده وعمومته وخؤولته وإخوته وأخواته وأبناء عمومته ، فضلا عن ثلاثة أطفال لا يكفون عن الصراخ . وهو أشد ما يكون حاجة إلى الهدوء التام » .

« ولماذا لا تتخلصون منهم ؟ » .

« لا نستطيع . ولو أنا طلبنا من أحدهم فقط أن يخرج لحماوا الغلام ، ولكان الأرجح أن يقضى نحبه قبل الصباح » .

ويرجع ذلك إلى نظام الأسرة المشترك في الهند ، وهو يقضى بأن تعيش الأسرة المكونة من ٢٠ أو أكثر تحت سقف واحد . ولما أخذت أتماثل وأستطيع أن أطوف بأنحاء المستشفى الأخرى على كرسى ذى عجلات ، وجدت أن كثيراً من الغرف هي عبارة عن مستشفى مجانين صغير . فإن كل شبر من الأرض يحتله بعض أعضاء الأسرة من العجائز إلى الرضّع الصارخين .

أضواء على الهندوسية

لا أذكر أن كاتباً واحداً من مئات الكتاب الذين لفتوا الأنظار إلى « تدين » الهند ، قد عالج ما ينطوى عليه ويفضى إليه في العالم الحديث — أو بين كيف أن التعصب الديني يجتاح اليوم حياة الهند وينفذ إلى كل وجه من وجوهها . إن الهندوسية في أشد صورها تطرفاً ، قوة هائجة ، وصوتها يرتفع فوق ضوضاء المصانع ، ويتحكم في مجتمعات السياسيين والطلبة .

وقد كانت الهندوسية في أصولها الأولى ضرباً من الروحانية في الحياة ، شديدة العسر ، مسرفة التجرد . وقد خلدت في قليل من الآثار العظيمة مثل « باجافاد جيتا » و « أوبانيشاد » . وهذه « الديانة » — وهي على كل حال تجاوز إدراك أي جمهور كبير من الناس — قد مسخت حتى عادت لا تتبدى على أصلها ، واستعارت من هنا وههنا ومن كل مكان ، وكدست جملة من الخرافات ، وألهت الغريزة ، وقدست الراحة ، وخلعت على الشهوات الإنسانية برداً من الأمر الإلهى ، حتى ألفت نفسها مثقلة بعدة آلاف من « الأرباب » بعضها أسوأ ما تكون صفات ، ففيها أرباب للشره . وأرباب للشهوة .

وأخلق بالغيرة الدينية التي دافع بها الهندوس عن عادة فظيعة كزواج الأطفال ، وهم يكافحون قانون زواج الأطفال ، أن تكون في نظر الغربي من الأوساط بمثابة ضوء يكشف عن الحقيقة ، وحتى اليوم لا يزال القانون يخالف علناً .

وقد وقفت أنا نفسى فى معبد القرد فى بناريس ، على حين كانت صفوف من الفتيات الصغيرات لا يمكن أن تتجاوز أعمارهن الثانية عشرة ، تجر إلى الأصنام لتتوسل إليها فتجود عليها « ببركات » الخصب . وكن يستأخذن من المسكنة كأن بهن خجلا من أنهن لم ينهضن بواجب الأمومة المقدس .

وثم «السوتى» وهى عادة حرق الأرملة حيّة ، و « التوجى » ، وهى استخدام القتلة الدينيين المحترفين — هذه كانت جزءاً من الديانة الهندية ، وقد ألغاها البريطانيون ، وقاوم الهندوس إلغاءها مقاومة عنيفة باسم دينهم .

وكذلك الحال فيما يتعلق بالديفاداسى ، وهو هيكل البغايا اللواتى يتخذن من طفولتهن لقضاء حاجات الحجاج والكهنة . وليس أمرهن بارزاً كما كان فى المدن الكبيرة ، ولكن ما عليك إلا أن تميل قليلا عن الطريق المألوف ، لتراهن جالسات عند الغسق على عتبات البيوت الصغيرة المحشودة حول منطقة الهيكل .

وقد كتب أحد كبار الهندوس على سبيل البيان والاعتذار يقول : « إن فكرة السماح للفتيات الصغيرات من طبقة البغايا أن ينشأن فى جو الهياكل ، ترمى إلى بث شىء من الدين فى نفوسهن ، وشىء من خشية الله ، حتى إذا بلغن أمكن أن يتقين الاختلاط الجنسى بلا حساب . فبغايا الهند ، لهذا ، من أشد الخليلات المعروفات فى هذه المهنة المنكودة ، خوفاً من الله وولاء » .

الشعوذة

لو أنه قيل لرجل بريطانى أو أمريكى من الأوساط : إن الزهرى يشفى بشرب قدح من الشاى ، لارتاب وأنكر . وإذا قيل له فضلا عن ذلك : إن هذا الفنجان من الشاى نفسه يشفى الدرن أيضاً ، والحمى المخية ، والملاريا ، والسيلان ، والنزلات الشعبية لنازعته نفسه أن يقذف بفنجان الشاي فى وجه مخترعه .

وأمامى ، وأنا أكتب ، فنجان الشاى ، أو على الأصح ملء حق صغير منه ، وقد ارتد إلىّ الآن من معمل التحليل ، وهو لاضير منه ، ولا فائدة منه على الإطلاق بطبيعة الحال لأى مرض مما يوصف له . وقوامه عشب يشبه الذى ينبت فى أمريكا الجنوبية ويسمى « ماتى » . وفيه أيضاً عناصر من السعتر ، والحبهان ، والقرنفل ، وأوراق جافة من أزهار عادية . وقد تكون له فائدة فى الهضم ، ولكن هذه كل مزيته .

وقد قدم لى هذه المادة أحد كبار رجال الطب الهندوسى — وهو طب لا يعدو أن

يكون ضرباً من الشعوذة يطلقون عليها إسم أيورفيدا ، وهى خليط من التّجامة (التنجيم) والسحر ، والدين . ويزعمون أنها اهتدت إلى أسرار قديمة سبقت الطب الغربى بمراحل ، وهى دعوى تستفيض فى الهند الحديثة، والطلبة يلتحقون بها بالآلاف. وفى كثير من أنحاء الهند يزيد عدد الأطباء فى اتباع إيورفيدا عشرين أو ثلاثين فى المائة على عدد الأطباء العلاجيين على الطريقة الغربية .

والباعث الرئيسى على نمو هذه الشعوذة الضخمة ، بسيط كل البساطة — وهو الوطنية الهندية ، وهذا الدجل مظهرها الطبى .

والأشياء التى لا يحاولها طب إيورفيدا أعظم دلالة مما يحاول . فهو يحتقر المجهر (الميكروسكوب) ويهمل ميدان علم الجراثيم كله ، ويرفض الجراحة ، ويعطى المصاب بالسرطان حبة . وليس له مطهرات يستعملها إلا فى أبسط حالات التعفن . ولمنع انتشار الكوليرا يعلق طاقة من الأزهار على الباب ، ويتعمد أن يرفض أدوية لا حصر لها ثبت نفعها ثبوتاً لا يرتقى إليه الشك فى الطب الغربى ، مثل مستحضرات السلفوناميد للالتهاب الرئوى ، أو الأنسولين للسكر .

على أن فرعاً من هذا « العلم » قد تقدم تقدماً عظيما ، فإن الإيورفيدا فى صناعة النواعيظ ، فماله فى هذا الباب مزاحم . ولا يأخذ الإحصاء مصانع الكيميائيين الإيورفيديين ، والطلبات على إنتاجها هائل ، ولها فهارس تشرح بلغة مغرية ما تدعيه من تنبيه الرغبة الجنسية .

وهذا هو النظام الذى يحاول باسم الوطنية أن يتحمل التبعة عن صحة خمس الجنس البشرى تقريبا .

الهند الأخرى

لقد كان يبدو لى دائما من العبث أن أنغمس فى السياسة الهندية قبل أن أبذل جهداً لفهم الشعب الهندى . ويرجع السبب فى أن كثيراً من المناقشات سواء أكانت فى مجلس العموم أم فى أعمدة الصحف الأمريكية ، ليس عليها طابع الحقيقة ، إلى نقص فى الصورة الواقعية والجوية .

فمن ذلك مثلا أن عدداً من المعلقين يكتبون كأن الهند التى يحكمها الأمراء لا وجود لها . والواقع بطبيعة الحال هو أن الأمراء موجودون حتى إنهم ليحكمون نحو خمسى رقعة الهند كلها ، ورعاياهم لا يقلون عن ثمانين مليونا . يضاف إلى ذلك أن إماراتهم ، وعددها أكثر من ٦٠٠ ، محيطة بإحكام فى الكيان الرئيسى بخيوط التاريخ والمصلحة الذاتية ، حتى إن أية محاولة

تنزعها قد يسبب الانهيار للكيان كله . وبعض هذه الإمارات صغير جداً . وهى نومص على دثار الهند كأنها شذور من الذهب . ولكن البعض الآخر فى سعة فرنسا تقريبا ، يحكمها أمراء ذوو سلطة واسعة ومطامع قوية ، ولا يقوم فى نفوسهم أضأل استعداد للتخلى .

الهندى الرواغ

« هل قابلت هنديا قط ؟ »

ألقى علىّ هذا السؤال المدهش صديق لى ، بعد أن قضيت فى الهند نحو عام ، وقطعت آلافا من الأميـال فى تجوابى من ثلوج الحدود الشمالية الغربية إلى أسواق مدراس .

قابلت هنديا ؟

ماذا يعنى الرجل ؟ لقد قابلت كثيرين بطبيعة الحال . وهنـاك آلاف معرفتى بهم لا تتجاوز نطاق التحدث . ولكن لنفرض أننا نظرنا إلى الهند من زاوية أعم .

هناك أولا ١٨٠ مليونا هم طبقة الهندوس . وقد كانوا هنوداً ولا شك ، وحبـة قلب الهنـد . ولكن تمهل لحظة : هل كانوا كذلك حقا ؟ وما الرأى فى الستين مليونا ممن لا طبقة لهم ؟ هندوس كانوا يتمرغون فى التراب ؟ أكان هؤلاء هنوداً أيضا ؟ إنهم فى نظر طبقة الهنـدوس لا يعدون آدميين ! لقد كانوا « منبوذين » ومشاربهم من وعاء واحد نكون سماروحيا ، حتى ظلهم نفسه تلويث . فهل يمكن أن يصف غربى هؤلاء الملايين الستين — الذين يعدهم إخوانهم أدنى بكثير من أحط الحيوانات — « هنوداً » ؟

وإذا كان الهندوس « هنوداً » ، فما الرأى فى المسلمين — نحو ٩٢ مليونا منهم — وما يحلمون به من الباكستان ، أى قيام دولة لهم هندية منفصلة ؟ ان هذه الجماعات الهائلة من النـاس — الهندوس والمسلمين — مرهفة الإحساس بما بينها من اختلافات حتى لتأبى أن تأكل معا ، أو تفكر معا ، أو تصلى معا ، بل تأبى أن تعيش معا فى رقعة واحدة من الأرض .

ولنبـدأ من الطرف الآخر ، بأصغر جماعة فى الهنـد ، الفارسين . فلن نجد أن الأمر خير من ذلك . ومع أنه لا يوجد منهم إلا أقل من ١١٥٫٠٠٠ ، إلا أننا إذا حكمنا عليهم بما استطاعوا أن يفعلوه ، فإن هؤلاء الفارسين يكتسبون مرتبة فى الأهميـة لا تتناسب أبداً مع عددهم ، فحيثما تكون فى الهند كنوز ، تجد الفارسين . ويكفى مثل واحد ، هو الشبكة الهائلة من مصانع تاتا فإنها كلها فارسيـة ، فى التفكير ، وفى التنفيذ ، وفى الإدارة والتوجيه فى الوقت

الحاضر . ومصانع تاتا هي الهند الصناعية . ومصانع الصلب التابعة لها في جامشيدبور وهي تستخدم ٣٠،٠٠٠ عامل ، أكبر مثيلاتها في الامبراطورية البريطانية . ومصانعها الكهربائية المائية ، أكبر وحده في البلاد . وقد تستطيع مصانعها للطائرات ، على الأيام ، أن تتحدى أكبر امثالها في الغرب .

والهند بغير الفارسيين تكون كالبيضة بلا ملح ، وبغير جانب كبير من محّها (صفارها) أيضا .

ولكن — وإنها لضجمة — ليس في وسعنا أن نقول إنهم حقاً « هنود » ، وحتى لو حاولوا أنفسهم ذلك (وكثيرون منهم يفعلون ، مؤثرين أن يعدّوا أنفسهم جماعة منفصلة تعيش على التسامح) — فإن الجمهور الأكبر من الهنود خليق أن ينكره عليهم . ويقولون إن الفارسيين فارسيون في الحقيقة كما يشير إلى ذلك اسمهم . وهم يقولون ذلك بلهجة هي أبعد ما تكون من اللطف والمجاملة . ذلك أن الفارسيين أثاروا حسداً عظيما . وثم آلاف من الأصابع تتحرق لهفا على دعمهم .

وهناك أيضاً جماعات أخرى كبيرة تبلغ عدة ملايين — من السيخ ، والجين ، والبوذيين — والملايين الخمسة من السيخ ، مثلا ، من الأرستقراطية الحقيقية في الهند ، وهم نجباء يحيون حياة نظيفة ، سريعو الخاطر حفاف الأبدان ، وهم أيضا أعداء ألداء للمسلمين . ولو أن حلم المسلمين بالباكستان تحقق ، فإن السيخ ، الذين يعيشون كلهم تقريبا في البنجاب حيث المسلمون هم الكثرة الساحقة ، يهددون بأن يقيموا دولة منفصلة للسيخ يسمونها خالستان .

فأين إذن الرجل الذي يستطيع أن يقول بإخلاص حقيقي ، وبغير نفاق ، وبدون أي تفكير في المصلحة الذاتية « أنا هندي » ؟

تحت أدنى الدرجات

رجل في نحو الخمسين ، ينتظرني في كرسي من القش على شرفة داره ، جسيم متوقد ، شمائل جذابة جداً ، لكنه عصبي ، ميال إلى العبث برباط حذائه . يبدو كأنه متحرز كأنما هو متهيئ لأن يتقي التعيير من كل جانب

هذه نبذة من مذكراتي .

والرجل هو الدكتور أمبدكر ، عضو العمال في حكومة الهند ، ومن أقدر العقول في الهند ، فلماذا إذن هذا الاضطراب العصبي ، وما يبدو عليه من أنه خليق أن يستاء بسرعة ؟

لأن الدكتور أمبدكر (أستاذ في الآداب

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

من لندن ، ودرجات الشرف من جامعة كولمبيا ، ودرجة التفوق الخاص من جامعة هيدلبرج) هو فى نظر طبقة الهندوس الصميمة « منبوذ » ، أى رجل يلوث إذا مست ثياب العشاء التى يرتدى مثلها فى حى ما يفير (بلندن) قمصان الهندوس .

وكثيرون فى إنجلترا وأمريكا يبدو عليهم أنهم يتوهمون أن «النبذ» آخذ فى التقلص ، وقد قرأوا برضى استنكار غاندى لذلك ، ورأوا صوراً له وذراعه على أكتاف المنبوذين . وهم يحدثون أنفسهم بأن «مثل هذه القدوة القوية فى هذه الأيام المستنيرة لا بد أن يكون لها تأثير ! » كلا . ليس الأمر كذلك .

وغير منكور أنه حدثت إماءة أو اثنتان مسرحيتان فى السنوات القليلة الأخيرة . مثال ذلك أن بعض الهياكل فتحت أبوابها للمنبوذين ، ولكن ما الذى يحدث ؟ لا يكاد المنبوذون يدخلون حتى يكون الهندوس قد خرجوا . ويصبح الهيكل هيكلا «منبوذاً» ، ملوثاً ، مدنساً ، وبهذا لا يعود مكاناً له قداسة حتى عند المنبوذين أنفسهم .

وحياة المنبوذين هى الأكثر سلبية ، فليس لهم أن يستعملوا الآبار العامة ، ومؤدى ذلك أن يقضى عليهم بأن يشربوا ماء غير نقى . وليس لأولادهم أن يدخلوا المدارس ، وعليهم أن يجلسوا خارجها . وليس لهم أن يدنو من أماكن الاستحمام ، ومن هنا قذارتهم عادة .

وكنت أتحدث ذات مساء مع ضابط صف بريطانى موكل بمعسكر تدريب للمهندسين الهنود الشبان ، وكان يجد مشقة فى جمعهم .

فقال : « إنهم يجيئون بسرعة ، ولكنى مضطر أن أردهم . انظر هناك » .

فرأينا شابين هنديين بارعى المنظر ، واقفين فى ظل شجرة كافور يحدقان فى التراب .

« هذان اثنان من خير من رأيت — جسما وعقلاً ، وهما يبغيان أن يلتحقا بمن عندى ، وأنا أريد أن آخذهما ولا أستطيع »

« ولم لا ؟ » .

« طبقة المنبوذين » .

« ولكن هذه سخافة » .

« هى كذلك بلا مراء ، ولكن هذه هى الهند . ولو أخذتهما ، لألقى رجالى الأدوات وكفوا عن العمل » .

أما إن غاندى صديق المنبوذين ، فيكفى أن نصغى إلى ما يقول الدكتور أمبدكر زعيمهم غير مدافع .

قال لى : « إن غاندى ألد عدو رآه المنبوذون فى الهند » .

وخليق بهذا القول أن يكون صدمة

عنيفة لمعظم الناس ، فإن غاندى لم يكف عن إعلان مقته للنبذ ، وعنده منبوذون فى أشرام ، بل لقد تبنى طفلا منبوذاً ، غير أن الذى لا يعرفه معظم الناس هو أن غاندى قاوم بعنف كل محاولة لتخويل المنبوذين صوتاً مستقلا فى شئون الهند .

ومن قوله : « إذا جعلتم للمنبوذين دوائر انتخابية منفصلة ، فإنكم تخلدون مركزهم على الزمن » وهو منطق عجيب ، يستسخفه الذين لم تفتنهم شخصية المهاتما . وهم يرون أن غاندى يخشى أن ينضم الملايين الستون من المنبوذين إلى المسلمين الذين يبلغون ٩٢ مليوناً (كما كادوا يفعلون) ويتحدّوا دكتاتورية الـ ١٨٠ مليون من الهندوس.

ويتوقف مستقبل المنبوذين إلى حد كبير على البريطانيين ، أما ترك مصيرهم فى أيدى مؤتمر يتحكم فيه البراهمة ، كما يقضى إلى ذلك مشروع كريبس ، فإن المؤدى يكون كما قال الدكتور أمبدكر : « القضاء التام على مصالحنا » .

وبعضهم ينكر على أمبدكر حقه فى الزعامة ، وما كانوا يفعلون ذلك لو أنهم شهدوا أى اجتماع من اجتماعاته ، مثل الحشد العظيم الذى كان فى ناجبور حيث حياه ٧٥٫٠٠٠ من المنبوذين وهتفوا له بحرارة قد ينفسها عليه غاندى نفسه .

وقال أمبدكر : « إن حجر الزاوية فى سياستى هو أننا لسنا فرعاً ثانوياً فى الهندوس بل عنصراً منفصلا فى الحياة القومية ، وفى كل قرية أقلية صغيرة من المنبوذين . وأنا أريد أن أجمع هذه الأقليات ، وأضم بعضها إلى بعض ، وأجعل منها أكثريات . وهذا يقتضى جهداً عظيما فى التنظيم — نقل سكان ، وبناء قرى جديدة . ولكن فى وسعنا أن نفعل ذلك إذا سمح لنا .

« ونحن وطنيون أشداء كأى رجل من رجال المؤتمر ، ولكننا لا نريد أن يرحل الإنجليز عن الهند حتى تكفل حقوقنا . فإذا رحلوا قبل ذلك فإن مصيرنا يكون أفظع من مصير أى شعب من الشعوب المظلومة فى أوربا » .

الشمال العاصف

تعد الحدود الشمالية الغربية من قديم أعنف منطقة بركانية فى الهند كلها ، حتى حين لا تطلق القبائل المختلفة النار علينا ، يطلقها بعضها على بعض .

وتتضح رقة غشاء المدنية فى هذه الأرجاء بمجرد مغادرة بشاور عاصمة الإقليم . فأنت تتغدى فى ناد ريفى تحف بك نساء جميلات فى ثياب زاهية ، على حين تعزف فرقة موسيقية صغيرة حاذقة ألحان الجاز الذى كان شائعاً قبل الحرب . وبعد ساعة من ذلك

تكون قد بعدت وصرت فى الجبال فى أغلظ أرض فى العالم - وهى وعرة ولا أمان لها - والطريق الذى تسلكه عبارة عن شريط ضيق من الأمان ، عبر كالخيط نسيج مغمور بالدم ، من الخطر والموت ، وقبل أن يحل وقت الشاى تكون فى ممر خيبر نفسه .

وكان رائدى فى ممر خيبر ضابطاً شاباً عمل أربع سنوات فى منطقة القبائل حيث توجد عدة لغات ، ولكن أهم أداة للعبارة عن النفس هى البندقية .

« هل لك أن تمنحنى إجازة شهر ياسيدى لأذهب وأقتل ابن عمى ؟ »

وقد لا تبلغ عبارة السؤال هـذا الحد من الصراحة ، ولكن هذا هو فحوى كثير من الالتماسات التى يقدمها جنود الباتان فى هذه الجهات إلى الضباط الإنجليز .

وقال رائدى : « وإذا رفضت ، فإن الرجل ينفض يده من الخدمة ويرحل ويأخذ معه بندقيته ، ومؤدى هذا خسارة رجل طيب آخر ، والقلق والخوف من قناص آخر فى الليالى المظلمة » .

ولا شك أن للاقتصاديات شأناً أيضاً .

فقد رأينا تحتنا فى الوادى ، ونحن وقوف هناك ، التراب الذى تثيره الجمال والقوافل الطويلة السائرة .

قال رائدى : « صوب عينك إلى هذا الوادى . فإن هناك ثروة — ملء عيابٍ منها تنتظر من يستحوذ عليها بغارة مفردة . وهذه القوافل تحمل الحرائر من بخارى ، والسجاد التركمانى ، ومعادن نفيسة كثيرة لصاغة بشاور » .

واستطرد يقول : « والآن انظر حولك . فماذا هناك فوق ؟ صخور ، وتراب ، وحسك ، وصبار ، ولا ماء ، وبضعة أمعز ، وحجر فى الصخر لسكناك ، فهل تستغرب حين يرى نفر من الجياع هدفاً كهذا أن يكون الإغراء أقوى من أن يكبح ؟ »

ههنا أرض من القبائل الجامحة لا يحفظ شيئاً من النظام والأمن بينها إلا عدد يسير من الإنجليز دائمى السهر واليقظة ... وقد ألفيت نفسى أفكر فى أنه من اليسير جداً أن أشرح الموقف لجمهور من الأحرار المستنيرين فى بلادنا ، مقتنعين بأن الإنجليز لا يكادون يخرجون من الهند حتى تزدهر البلاد بين مساء وصباح وتنعم بمزايا النظم الديمقراطية التمثيلية .

حزب المؤتمر

ومن التناقض العجيبة أن يكون حزب المؤتمر فى الهند هو حبيب الأحرار الغربيين الطيبى القلوب . ذلك أن حزب المؤتمر هو أولا مظهر دكتاتورية لغاندى مئة فى المئة

وليس معنى هذا أن غاندى يحكم جهرة ، فإنه يسيطر بواسطة سردار باتل ، الذى وصفه جون جنتر بأنه منظم حزبى وفاتك لا يرحم .

وكان غاندى أثناء مقامى فى الهند ، فى السجن ، وعبارة « فى السجن » مضللة ، لأن السجن كان أحد قصور أغاخان ، وكان فى وسعه أن يخرج منه فى أية لحظة يشاء إذا وقع على رقعة صغيرة تشتمل على تعهد بعدم تخريب مجهود الحرب . فآثر أن يبقى فى السجن .

ولا شك أن غاندى لم يجاهر فى أى وقت بالانحياز إلى اليابان ، فإنه يتكلم دائماً وإحدى عينيه على أمريكا ، ولو رأته أمريكا ما زال اليابان علنا لكانت النتيجة كارثة على نفوذه . ولكنه ذهب إلى آخر ما يستطيع من مدى ، فزعم أن اليابانيين راغبون فى السلم رغبة قوية ، وأنهم اضطروا مكرههم إلى العدوان ، لأن الإنجليز يدافعون عن الهند .

ويكاد يكون من المستحيل على أحذق الناس أن يتبين متى يكون غاندى مخلصاً ومتى لا يكون . وتأمل سياسته الاقتصادية ، فإنها تبدأ وتنتهى وتدور كلها حول الشارخه ... أى المغزل . فلو أن الفلاحين غزلوا ثيابهم فى بيوتهم ، وواظبوا على ذلك ، لاختفت المساوىء الاقتصادية فى الهند .

ويشبه نظرية المغزل من حيث القيمة العملية أن نقول إن البطالة تزول من الولايات المتحدة إذا اعتادت المرأة الأمريكية أن تحوك جوارب زوجها .

أما المبدأ الآخر الكبير فى برنامج غاندى ، وهو « عدم العنف » المزعوم فقد أدى دائماً إلى العنف .

سأل بعضهم فى صحيفة غاندى « هاريجان » : « بأى شىء يسمح لإيقاع الاضطراب والخلل فى الحكومة ، فى نطاق عدم العنف ؟ »

فكان الجواب : « لا يسعنى أكثر من الإعراب عن رأيى الشخصى . إن الأمر يجب أن يكون فى نطاق عدم العنف ، وبدون أية شائبة »

وإلى هنا لا بأس . ثم ماذا ؟

« إن قطع الاسلاك ، ورفع القضبان ، وتدمير الجسور الصغيرة لا يمكن الاعتراض عليه فى نضال كهذا »

وفى نشرات المؤتمر ، كانت السرقة ، والإحراق عمداً ، والفتن ، وكل نوع من أنواع التخريب مما دعى إليه علانية ، وباسم « عدم العنف »

ويظهر أنه صحيح أن نفوذ غاندى العملى قد أخذ فى الأفول ، وأنه لا يحتمل أن يعود

إلى سابق عهده ، فإن غاندى الآن فى الخامسة والسبعين ، وقد خرج من السجن فوجد عالما شديد الاختلاف عن العالم الذى خلفه وراءه . ولم تعد بريطانيا تكافح وظهرها إلى الحائط ، ولم يعد اليابانيون يزحفون على الهند .

وأهم من ذلك أن الهوة السحيقة بين ألفاظه السحرية الخاوية ، وحقائق العالم الحديث المثيرة ، أصبحت جلية كل الجلاء . وكل يوم قضاه غاندى فى السجن ، شهد زيادة سريعة فى عدد الشبان الهنود الذين دخلوا فى مدار المجهود الحربى ، أى فى مدار القرن العشرين . فمن آلاف القرى يقبل الشبان على مراكز الجيش حيث يتعلمون للمرة الأولى فى حياتهم مبادىء الصحة والنظام ، ويطلعون لأول مرة على سحر الآلات الحديثة .

ومن أبرع أعمال التنظيم التى قام بها الإنجليز فى الحرب الحاضرة ، المعرض الحربى الذى انتقل من مركز إلى مركز ليقف الهنود على مسائل الحرب والأسلوب الذى تدار به . وليس المعرض مجرد عدد من الدبابات وإعلانات الدعاية ، بل هو صورة كاملة وافية هائلة المقياس للحديث فى الهندسة والطيران والنقل والزراعة واللاسلكى والطبخ والخدمة الاجتماعية ، والنبات والطب .

وقد فاز المعرض بنجاح تام ، ولا سيما بين الشبان ، على الرغم من الجهود المحمومة التى بذلها المؤتمر لمقاطعته . فكان نقطة تحول فى حياتهم . فقد جاءوا من قرى نائمة لو كان الأمر لغاندى لظلت نائمة ، وإذا بصندوق عجائب العلم الحديث يفتح لهم فجأة . فيحدقون فى دهشة واغتباط متزايد ، ثم لا يلبثون أن يروا أنفسهم يسيرون فى عالم جديد لا يستطيع شىء ، ولا صوت غاندى الساحر ، أن يردهم عنه ، لأن موضعه ينبوبه فى هذا العالم الجديد .

باكستان

وأهم مسلم فى الهند يبلغ الثامنة والستين ، وهو طويل نحيف رشيق ، وعلى إحدى عينيه نظارة (مونوكل) متصلة بخيط رمادى من الحرير ، وحول عنقه بنيقة بيضاء ناشفة يلبسها حتى فى وقدة الحر . وهو يذكرك بسيد إسبانى . ويعد سياسياً من رجال المدرسة القديمة الذين كان المرء يراهم جالسين فى شرفات نادى سنت جيمس .

والمستر جناح رجل يستحق أن يجعل الناس بالهم إليه ، لأنه فى مركز فريد فى بابه من حيث القيمة الاستراتيجية . فهو ليس فقط رئيس العصبة الإسلامية ، وهى هيئة مكافحة متماسكة يدين لها بالولاء ٨٥ فى المئة

على الأقل من مسلمى الهند ، بل هو كذلك الحاكم المحتمل لإمبراطورية جديدة شاسعة — الباكستان .

وصحيح إن الباكستان فى الوقت الحاضر ليس إلا إمبراطورية فى الأحلام ، ولكنها فى أذهان المسلمين لا تنقصها صبغة الحقيقة من أجل ذلك .

ومعناها الحرفى « أرض الأطهار » ، أما مؤداها الجغرافى فرقعة عظيمة فى الشمال الغربى من الهند تتألف من باوخستان ، والسند ، وبنجاب ، والحدود الشمالية الغربية ، تضاف إليها رقعة فى الشرق هى الجانب الأكبر من البنغال .

والمقترح هو أن هذه الأراضى التى يسودها العنصر الإسلامى ، تنفصل نهائياً عن بقية الهند التى يسودها الهندوس ، وتكون منها دولة مستقلة . وأنا أحد الذين يعتقدون أن هذا سيحدث ، بل إنه يجب أن يحدث ، فإذا حدث فإن موقفاً جديداً كل الجدة ينشأ فى آسيا فيحطم توازن القوى الموجود الآن ، ويؤدى إلى تعديل شامل لسياسات كل دولة فى العالم .

وكثيراً ما يقال إن الباكستان نبات سريع الزوال ، وإن المسلمين والهندوس استطاعوا أن يعيشوا معاً إلى الآن ، على نحو ما ، وإن هذا الطلاق السريع إجراء فيه من صفة الحسم فوق ما ينبغى . غير أن هذا القول يهمل الحقيقة الواقعة وهى أن البريطانيين ظلوا إلى الآن المسئولين عن القانون والنظام ، وقد اتقدت الطائفية اتقاداً شديداً باقتراب ساعة الاستقلال القومى .

لما أقيم الحكم الذاتى فى إحدى عشرة ولاية بمقتضى قانون ١٩٣٥ فاز المؤتمر بكثرة عظيمة فى سبع منها فى أول انتخاب . فبدلا من أن يدعو المسلمين إلى مشاطرته ثمرات الحكم ، وبدلا من أن يحاول الوصول إلى أى نوع من الائتلاف ، أقصاهم إقصاء تاماً عن كل مسئولية . فكان التلاميذ المسلمون مضطرين أن ينهضوا وقوفاً ويحيوا صورة غاندى ، واعتبر علم المؤتمر علماً للأمة كلها ، وفى شئون العمل والتجارة كان التعصب ضد المسلمين من أكبر ملاك الأرض والتجار إلى أحقر فلاحى التربة ، بالغاً غاية اللجاجة .

وخير دليل على صحة هذه المزاعم ، أنه لما شبت الحرب واستقال وزراء المؤتمر ، دعت العصبة الإسلامية إلى الاحتفال بيوم شكر وطنى على انتهاء عهد الاستبداد .

والغريب فى كل ما يقال حول الباكستان له وعليه ، هو المعارضة التى يثيرها فى نفوس المخلصين من مريدى الخير للهند . وهذا راجع إلى قوة دعاية المؤتمر ، فقد استطاع الهندوس بإلحاحهم فى الإيحاء أن يقنعوا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لعالم أنهم هم « الهند » ، وأن كل محاولة تقسيم « الهند » تكون « مؤامرة خبيثة من الإنجليز » قائمة على المبدأ المقرر : « فرّق تسد » .

وقد انخدع معظم الأحرار فى الغرب بهذه الدعاية انخداعا تاما ، ومن أجل هذا رأينا هذا المشهد الغريب : سياسيين إنجليز يدافعون فى مجلس العموم عن قضية « الوحدة » الهندية فى سبيل قضية الاستقلال الهندى المشترك ، غافلين عن أن إلحاحهم فى هذه « الوحدة » المزعومة هو السبب الوحيد المفرد لبقاء الإنجليز فى السرج .

ورأى جناح فى هذه النقطة صريح. فقد قال لى : « إن الشىء الوحيد الذى يبقى الإنجليز فى الهند هو الفكرة الباطلة عن الهند المتحدة كما يدعو إليها غاندى . وإنى لأكرر أن الهند المتحدة اختراع بريطانى — أسطورة — وأسطورة خطرة جداً ستثير نزاعاً لا نهاية له . وما دام هذا النزاع قائماً فإن للإنجليز حجة فى البقاء ! » .

أبيض ولا كالأبيض

ولعل أعجب ما فى الحكم البريطانى أنه حكم حفنة من الرجال . وكانت النسبة فى وقت السلم (بغض النظر عن الجيش الضئيل العامل) نحو عشرة آلاف من الرعايا البريطانيين إلى ٤٠٠ من الهنود .

ويبدو أن كثيرين يتصورون أن انسحاب البريطانيين سيكون خروجاً ضخماً . على أن الحقيقة أن هذا الانسحاب يمكن أن يتم فى آخر أسبوع ، وأن كل رجل وامرأة وطفل يمكن ترحيلهم فى قافلة واحدة .

وماذا تكون النتيجة إذا حاولنا أن نرى الإنجليز بمثل الصراحة التى قوّمنا بها الهنود ، ونظرنا أى ضرب من الناس هم حقاً ، وإلى أى حد يعدون أكفاء لمسئولياتهم ؟

وهل يوجد حقاً هؤلاء الأشخاص الهزليون القدامى ، وهل يصيحون عند الغروب طلباً لقدح من الخمر على نحو ما يصفهم إ . م . فورستر ؟ وهل « يخرجون فى وقدة الشمس ظهرا » كما يقول نويل كوارد ؟ وهل ينغمسون فى شهوات محظورة فى ظل أشجار الصندل والتمر الهندى على ما يصف سومرست موم ؟

أما فى بعض المدن الكبرى فالجواب نعم ، ولكن من حسن الحظ أنهم ليسوا بالطراز الغالب ، فإن الإنجليز الأوساط ، رجالا ونساء ، « فئة محتشمة » ولا سيما الذين يعيشون منهم فى الأقاليم القصية .

ومهما يكن ما تنكره على هذه الحفنة الصغيرة من الرجال المبعثرين فى البلاد كأنهم قبضة من تراب غريب فى صحراء متقاذفة ،

فلا بد أن تقر لهم بالشجاعة . ويجب أن يشهد بها للحاميات الصغيرة التى تعيش على الحدود الشمالية الغربية فى تهديد دائم من القناصة ، وللقضاة الذين يشقون أخدوداً مستقيماً فى أدغال من الأكاذيب والخداع والمطاعن، وللأطباء الذين يتشاشون بعنادهم فى جو مشبط من الخرافات والعداء ، وعلى الخصوص للنساء والممرضات وزوجات الموظفين فى الريف اللواتى لا يجدن صوت الموسيقى والضحك وحفيف الحرير إلا فى صفحات المجلات . على أنه لا يسعنا أن ننكر أن هناك طائفة من الانتقادات توجه إلى البريطانيين فى الهند، إذا نظرنا إليهم على أنهم أفراد لا على أنهم تروس فى الآلة الإمبراطورية .

كنت يوماً أستقل أول قطار ركبته فى الهند ، من جوالبور إلى دلهى ، فسألت قائمقاماً إنجليزياً أحمر الوجه، عن التعبير الهندى الذى يقابل « أشكرك » ، وكان الحمالون الذين حملوا الحقائب ينتظرون أجرهم ، وكان الحر شديداً وكانوا هم قد أنجزوا عملهم بسرعة وإتقان ، فبدا لى أن من قلة المروءة أن أكتفى بمكافأتهم وأصرفهم.

فقال القائمقام: « أشكرك ؟ أشكرك ؟ » .

فقلت : « نعم . أشكرك » .

فقال مغمغماً : « ولكنك يا عزيزى لا تفعل ذلك » .

« لا تقول أشكرك ؟ » .

« كلا ، على التحقيق — أبداً — إن هذا لا يقال » .

وقد أخذ الإنجليز شيئاً كثيراً من الهند ولكنهم لم يقولوا قط : « أشكرك » وهذا مما يدعو إلى الأسف ، فإن مثل هذه العبارات ذو فائدة .

ثم إنه يبدو أحياناً أن البريطانيين الذين يعيشون فى الهند ، لا يعيشون فيها على الإطلاق . وماذا يمكن أن تعرف عن الهند إذا كنت لم ترقط فى عشرين أو ثلاثين عاما شريطاً سينمائياً هنديا ، ولن تسمع أبداً بالباجافاد — جيتا ولم تقض حتى ولا ليلة واحدة فى قرية هندية ؟

وأعترف أنى لم أفعل ذلك كثيراً ، ولكنه حتى التجربة القصيرة علمتنى أكثر مما يستفاد من عشرة كتب . وقد عرفت مثلا ذلك الشعور الغريب الذى يحسه الهنود بالوحدة مع الحيوان ، فقد كان يبدو أنه من الطبيعى أن تكون أربع أماعز صغيرة راقدة فى ركن من الكوخ ، وطائفة من الدجاج تحضن بيضها وترخم عليه للتفريخ فى ركن آخر ، وأن يدفع ثور رأسه فى الباب من حين إلى حين . ولم يكن من الميسور أن أنام ملء جفونى . وكانت اللسعات لا تحصى ، ولكن ما يعوض ذلك كان كثيراً

فالترجيع فى المزمار عند الغسق ، وصور النساء الجميلة عند البئر ، إذ تبدو سوداء كالفحم تحت سماء زرقاء ، وقدح اللبن الرائب ، والفاكهة الغضّة التى جاءونى بها قبل النوم ، وعقد الياسمين الذى قلدونى إياه . ثم الفجر يطلع فجأة أحمر وهاجاً فى لون البرتقال الدامى ، وغناء الفلاحين وهم يمضون إلى حقول الأرز . وما أقل ما يعدل فى جماله منظر حقول الأرز فى بكرة الصباح فإنها تشبه لحافاً موشى ذا درجات عدة من الخضرة — من الزروع الحائلة على الحوافى وقد غرست متباعدة فى الأرض الحمراء ، إلى مربعات من الزمرد المتوهج المؤذن بإقبال المحصول .

وسألت الإنجليز مرة بعد مرة : « هل لكم أصدقاء حقيقيون من الهنود ؟ » فكان الجواب دائماً واحداً لا يختلف : « أصدقاء ؟ أعرف بعض الهنود وهم من خير الناس ، ولكنى لا أستطيع أن أسميهم أصدقاء » .

ولعلّ هذه هى المأساة الكبرى ، وإن لم يكن الذنب فيها كله للبريطانيين ، وإليك مثالا : إن معظم الأندية فى المراكز الجبلية مختلطة ، ويجتمع الأعضاء فيها على المساواة التامة ، وماداموا يؤدون اشتراكهم فلا سؤال يسأل ، ولا امتياز يمنح . وإلى هنا ، كل شىء حسن — نظرياً . ولكنه ماذا يحدث فعلا؟ يحضر الرجال الهنود وحدهم ليلة بعد ليلة ، ويرقصون مع زوجات الضباط الإنجليز ، ولكن نساءهم يمكثن فى بيوتهن .

ومن أتعس النتائج لهذا التعصب الباقى فيما يتعلق باللون ، ما يعانيه ١٤٠,٠٠٠ من الهنود — الإنجليز ، وهم من عدة وجوه أسوأ الجماعات فى العالم حظاً . فإنهم ليسوا فقط محتقرين من إخوتهم الأخياف من الجانبين ، الإنجليز والهنود ، بل إنهم هم يحتقرون أنفسهم . وهمهم الوحيد ، الذى يكاد يكون داءً مخامراً ، هو أن ينكروا دمهم الملوّن .

وأخلق بهذا أن يكون مضحكا لولا أنه مبك . وقد عرفت مرة ممرضة هندية إنجليزية ، وكانت فتاة لطيفة ذات كفاءة وفيها أناة وصبر ، وهى جميلة السمرة ، ولا يمكن أن يكون ثم شك فى أصلها ، ولكنك حين تسمعها تتكلم يخيل إليك أن فى وسعها أن ترفع نسبها إلى أسرة بلانتاجينت الملكية .

فكانت تقول بلهجة الاحتقار إذا جاء أحدهم بدواء غير المطلوب ، أو تكاسل الكناس فى عمله : « هؤلاء الهنود ! أعوذ بالله من هؤلاء الهنود ! لا يمكن أن يصنع المرء شيئاً مع مثل هؤلاء الناس » .

ومن العبارات المألوفة على لسان الفتاة الهندية الإنجليزية : « لقد طال مقامى هنا ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وفقدت الانفصال بوطنى » وبالهن من مسكينات ، فما كن تعط فى « وطن » ، ولكنهن يؤثرن الموت على الاعتراف بذلك . وأعظم ماتطمح إليه الفتاة منهن أن تتزوج إنجليزياً ، وأن يخرج بها من البلاد ، وبذلك تتخلص من موقف الشك الذى ألقت بها الحياة فيه .

أما الرجل الهندو الإنجليز فإن حالهم لا يبلغ هذا المبلغ من السوء ، فإن نسبة حسنة من الوظائف محتفظ بها لهم فى المصالح العامة ولاسيما فى البوليس والسكك الحديدية ، وقد ارتقى بعضهم بفضل كفايته النادرة إلى مراكز ملحوظة وأفادوا غنى .

غير أن مستقبل الأكثرين من هذه الفئة ليس بالبراق جداً ، فإنهم مع الجزر الحادث بسرعة فى النفوذ البريطانى ، قد أصبحوا متروكين على الشط ، يديرون عيونهم فى البحار الخالية ، عسى أن يظهر فى الأفق شراع عطوف ... شراع لن يجىء أبدا .

غليان

والمرء ، حين يكر الطرف ، لا يسعه إلا أن يدهش للهند وكيف لا تلبث أن تمتزج بدمه ، وكيف تزول الصدمات الأولى بسرعة . فالنور المتوهج على أشجار الموهور الذهبية ، وكان يؤذى العين حين تراه ، يفقد هالته . وأنت اليوم لا تعنى حتى بأن تدير رأسك على حين كنت بالأمس تحدق وتحدق .

وكذلك الفظائع . فبعد عشر دقائق من وصولى إلى الهند رأيت هيكل حصان ، يعرج ويتحامل على نفسه فى الطريق وهو عبارة عن جملة من الآلام والجروح .

وتشبه زيارة لمحطة من محطات السكة الحديدية — وهى الملتقى المحبوب لشحاذى الهند — رحلة فى متحف من الشمع لكل شنيع من الصور . فهناك ترى المجذومين والمصابين بالزهرى فى آخر درجات المرض ، والأطفال العميان — لا الذين ولدوا مكفوفين ، بل الذين أعماهم آباؤهم ليكونوا فى المستقبل مصدر دخل فى سوق الشحاذة .

وترى نفسك فى البداية تسخو على هؤلاء ، ولكن صوت النقود يجتذب إليك حشداً من الناس فيهظك الأمر وكأنهم يشقون الأرض ويخرجون ، ويتلاغطون ، ويتفاون ، ويتأوهون ، ويصيحون ، ويشيرون إلى إصاباتهم ، فتنفض يدك يائسا . وتتعلم أن الكلمة الهندية للفظ « انصرف » هى « ياءو » فتقولها كارها ، ثم تقولها بصوت أعلى ، ثم ترفع الصوت طبقة أخرى ، حتى تلقى نفسك آخر الأمر تصيح بها .

على أنى منذ عام ، فى نيودلهى ، عانيت صدمة من ضرب آخر ، وكانت أول مدينة

هندية كبيرة أزورها ، وكانت تنتظرنا عند المحطة سيارة فخمة يسوقها عملاق فى ثياب بيض مزركشة بالذهب ، وإلى جانبه عملاق آخر ، فقد كنا ضيوفا على نائب الملك ، فدرنا لنقول كلمة شكر للحمال الذى كان ماهراً فى أداء مهمته ، فلما هممنا بذلك ماتت الألفاظ على شفاهنا . فقد رأينا شيئاً . . شيئاً مكتوباً بحروف كبيرة طولها قدم ، بالطباشير على الجدار وعلى بضع ياردات منا : « اخرجوا من الهند » .

فجعلت عينى تطرف وأنا أنظر إلى هذه العبارة ، واضطرم وجهى — لا غضباً ، بل لأنى شعرت بشىء من الارتباك والاضطراب — كأنما ضبطت وأنا أقتحم بابا .

ونظرت بمؤخر عينى إلى السائق الجسيم . وماذا يكون الحال إذا رأى هو أيضاً هذه العبارة والتفت إلينا وقال : « إنكم تعرفون ما ينبغى أن تفعلوا أليس كذلك ؟ حسن إذن : اخرجوا واذهبوا إلى بلادكم » ولكن العملاق كان يحدق أمامه ولا يبدو عليه شىء .

والحقيقة أن هذا كان موقفاً شاذاً جداً . فهنا إهانة حامية ، وحض على التمرد ، منشور على عيون المئات من الناس ، ولكنه ما من أحد كان يلتفت إلى ذلك . وكان الركاب يمرون مسرعين ، والجنود البريطانيون يمضون وبنادقهم على ظهورهم التى يقطر منها العرق ، ورجال الأعمال يحملون حقائبهم ، والنساء الهنديات فى أردية خضر مفضضة ، وكهنة البراهمة والفلاحون يحملون الدجاج من أرجله ، والبحارة الهنود ومعهم أشياؤهم . وما من أحد يلتفت أيسر التفات .

وتذكرت بعد ذلك منظراً آخر بعيداً . منظر أشجار شهباء وضباب فى نوفمبر ، وقضبان عليها سواد . حدائق هايد بارك ، وخطباء الجماهير يصيحون : « اذهبوا ! » وكانت صيحاتهم هذه موجهة إلى الملك والملكة ، وإلى الأعيان وسيداتهم فى إنجلترا ، وإلى جميع الذين يسكنون قصوراً مذهبة . ولا أحد يلتفت ، والشرطى يبتسم ، والجمهور يساهم بعبارات خشنة ، إلا أنها ودية !

فهل صنعت إنجلترا فى الهند معجزة أخرى من معجزاتها التى تجىء عفواً ؟ أتراها مرة أخرى قد أخجلت البركان بتجاهل انفجاراته ؟ إن الأمر يشبه أن يكون كذلك .

الرحيل أو عدم الرحيل

لا شك ان معظم الناخبين البريطانيين حين يتفق أن تخطر الهند على بالهم — وهذا نادر — يساورهم شعور كريم غامض بأنه ينبغى أن نرحل ، ولعلهم خليقون أن يعطوا

أصواتهم وفقاً لهذا الشعور حتى ولو عرفوا أنهم يصوتون على خلاف ما تقتضيه مصالحهم.

وليس ثم نهج آخر غير هذا من الوجهة الأدبية ، غير أنه من الوجهة الأدبية أيضاً يجب أن يكون رحيلنا على شرط الاعتراف بالتساوى فى السيادة والاستقلال للأمتين الهنديتين الكبيرتين – المسلمين والهندوسيين وإلا كنا فى خطر من منح الحرية بإحدى اليدين وسلبها بالأخرى . ولا يذهب إلى إمكان رحيلنا بين مساء وصباح إلا رجل ليس عنده أدنى تقدير للتبعة. فإن الهند تكون بذلك مجردة عن كل دفاع ضد الاعتداء .

ولم تلق مسألة الدفاع الأساسية هذه إلا عناية ضئيلة من الذين يقولون : « إن الهند متلهفة على الدفاع عن نفسها لو أنها فازت بحريتها » .

وللمرء أن يسأل بحق : « تدافع عن نفسها بماذا ؟ » إنه لا يوجد هناك فى الواقع ما يصح أن يسمى الأسطول الهندى . فى بداية الحرب كان الأسطول الهندى كله عبارة عن طائفة قليلة من سفن الحراسة الصغيرة ، ومثل هذا الأسطول الذى يشبه اللعبة ، ليس فيه أدنى كفاية لبلد فى حجم الدانمرك ، فضلا عن بلاد فى سعة إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وإسكندناوة ، وإيطاليا والبلقان وزيادة . وحتى أحمق المتفائلين لا يجرؤ أن يزعم أن أسطولا يمكن أن يبنى فى أقل من عشرين عاما .

ومثل هذا يقال عن الجيش الهندى . ولا أحد ينكر بسالة الجنود الهنود فى هذه الحرب ، ولكن من المضحك أن يقال إن هؤلاء الجنود قادرون على أن يتولوا وحدهم الدفاع عن الهند ، فما يوجد إلا حفنة من الضباط الهنود وكلت إليهم سلطات واسعة .

والمفروض أننا سنرحل على نحو ما . وقد نرحل بسرعة فتكون تلك مأساة لا يخففها شىء ، وقد نرحل على مهل فنتيح على الأقل لأنفسنا وللعالم فرصة للتكيف على مقتضى التغيرات الهائلة، عنصرياً وحربياً واقتصادياً ، وهو ما يؤدى إليه انسحابنا .

ولكن سواء كان الرحيل غداً أو فى يوم أبعد ، فإن الإنجليز لن يرحلوا عن الهند بالمعنى الروحى ، فقد أفرغنا على الهند سلاما على الرغم من أخطائنا السلبية والإيجابية ، ومن انفجار غضبنا أحياناً ، وقصور خيالنا فى أحيان كثيرة . ومنحنا الهند القانون ولم يكن قانون الأقوى ، وآتينا الهند الحرية — كما سيعترف لنا بذلك آخر الأمر ، فقد كانت آراء ملتون ، ولوك ، وولبرفورس ، وميل ، وبرايت ، وغلادستون هى التى أيقظت العقل الهندى وجعلته يفهم الحرية ومعناها الحقيقى .

باب الكتب

رواية الضابط البحرى إليف دافيد رتشردسون
نفسه عن حربه الخفية فى جزيرة ليتى .

عصابة أمريكية فى الفلبين

ملخصة عن كتاب بقلم إيرا ولفرت

فى هذا الكتاب رواية تامة لأول مرة لقصة الضابط رتشردسون الرائعة عن الحرب الخفية على اليابانيين فى الفلبين . وقد ظل المطاردون الباقون من كارثة باتان عامين يقومون بهذه الحرب الخفية الباسلة ، دون أن يشار إليهم فى الأنباء ، فقد كتم الجنرال ماك آرثر خبرهم ، لأن العصابات التى كانت تشن هذه الحرب كانت ترسل إليه باللاسلكى معلومات ثمينة عن حركات سفن اليابان وطائراتها وجنودها .

فى كتاب و . ل . هوايت الخالد — عن زوارق الطربيد التابعة للولايات المتحدة فى معركة الفلبين الأولى — يروى الملازم روبرت ب . كيللى كيف أن الضابط إليف دافيد رتشردسون فى عيد ميلاده الرابع والعشرين يدير دفة الزورق ، حين أغرقوا طراداً يابانيا بعد معركة تجلت فيها البطولة . وبعث كيللى برتشردسون إلى شاطئ سيبو فى قارب ليجئ بطبيب للجرحى . وفى أثناء غيابه ، دمرت الطائرات اليابانية زورق الطربيد . وفى اليوم التالى — ١٠ إبريل — سقطت باتان .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

جمع الضابط رتشردسون من بقي من رجالنا وانضم إلى قواتنا البحرية في جزيرة ماكتان ، ومن هناك ، كما قال الملازم كيالي ، « يحاولون جميعاً أن يهربوا إلى جزيرة ليتي . وكان هذا آخر عهدي بهم »

ولكن هذا لم يكن آخر عهد العالم بهذا الضابط الشاب ، فقد فر إلى ليتي ، ثم اشترى هو و ١١ أمريكيا آخرين زورقاً شراعيا صغيراً وأوقروهُ بالمؤن ، ومن بينها خنزير حي ، وانطلقوا إلى أستراليا ، غير أنهم لم يعطعوا سوى ٢٠ ميل حتى ثارت بهم عاصفة مفاجئة فقلبت زورقهم على مسافة ثمانية أميال من الشاطىء . واستطاع خمسة منهم ، بعد أن سبحوا ثلاثة عشر ساعة في الماء ، وبعد جهد لايكاد يصدق أن يبلغوا الشاطئ ، والتقط الأهالي الموالون الآخرين .

وكان رتشردسون يرجو أن يبحر مرة أخرى إلى أستراليا ، وإذا بغرصة نادرة تسنح له ليؤدي خدمة مباشرة لبلاده .

فقد اتصل بالعصابات ، وساعد على تنظيمها وتدريبها وقيادتها ، وثم قصص أخرى عن حرب العصابات ، ولكنه ما من قصة أخرى تفوق قصة هذا الكفاح في الفلبين ، وقدرتها على تحريك النفوس وتقوية القلوب .

وقد كتبها أيرا ولفرت كما رواها الضابط رتشردسون بألفاظه

قال رتشردسون : ظلت الرقعة التي كنت فيها من الفلبين هادئة طول الصيف من سنة ١٩٤٢ ، ولم تكن لليابانيين هناك قوة كبيرة ، فقد مضى جيشهم الرئيسي في زحفه ولم يخلف وراءه إلا شراذم ، فقضيت أنا ومن معي من الرجال عدة شهور حول القرية ، على مقربة من الموضع الذي غرق فيه الزورق الذي حاولنا أن نذهب به إلى أستراليا ، وزجّينا الوقت بصيد السمك والسباحة ، والكسل على العموم .

وكنا نعيش مع أسر من الفلبين ، ونتنقل بينها من حين إلى حين حتى لا يبهظ أسرة واحدة منها عبء إطعامنا ، واتقاء لليابانيين الذين كانوا يرسلون أحياناً دوريات ولكن الأهالي كانوا ينذروننا إذا أقبل اليابانيون ، حتى ولو كنا في قرية غريبة أو مارين بضيعة في الجبال .

« نعم يا سيدي ، نعم ، كان الأمريكيون هنا يا سيدي ، وقد رأيتهم بعيني رأسي يا سيدي ، ولكنهم رحلوا منذ ثلاثة شهور أو أربعة » .

هذا ما كان يقوله الفلبينيون ، ولعلنا ما اختفينا إلا قبل ذلك بخمس دقائق .

وكان هناك أمريكيون مبعثرون فى كل مكان مختبئين . وحوالى أول سبتمبر ملّ طول الإختباء من العدو « أبوت » — وكان راعياً فيما سلف — وأمريكى آخر اسمه تونى هيراتيك ، وكان فى الجبل قرب بالينجاساج ، وكانا يختلفان كثيراً إلى المدينة ، فأهلها يعرفونهما . وفى أول سبتمبر أقبلا كالعادة فقيل لهما إن هناك ثلاثة من اليابانيين فقال أبوت : « تعال نطردها من المدينة » .

وكان معهما بنادق أتوماتيكية من طراز برونج ، وكان اليابانيون مسلحين أيضاً ، ولكنهم ذعروا فدخلوا فى كنيسة من الخشب وصعدوا إلى برجها ، ولم يكن وقت أبوت وهيراتيك يتسع لحصارهم وتجويعهم فأضرموا النار فى الكنيسة ، ولم يحتج أحد .

فألقى أحد اليابانيين بنفسه من البرج وتحطم ومات على الأرض ، واحترق الآخران مع الكنيسة ، وانصرف أبوت وهيراتيك إلى شأنهما ، وقال الأهالى لهما : « مرحى ! خيراً صنعتما ! » وإن كانت كنيستهما قد دمرت تدميرا .

ونقل التهامس الخبر ونشره فى طول الجزيرة وعرضها ، وذاعت فكرة « اقتلوا اليابانيين » وهى بسيطة ، ولكن ما من أحد عنى بأن يعمل بها من قبل ، فالآن بدأوا . وفى نحو أسبوعين وجدت حوالى خمسين عصابة منفصلة تجوب الجزيرة ، وكل منها يحمل اسماً ضخما ، وعلى رأسها زعيم طموح .

ولم تكن ثم صعوبة فى تأليف هذه العصابات ، فقد كان مما أدى إليه وجود اليابانيين تعطل كثير من الرجال : أصحاب زوارق صودرت مراكبهم ، وجنود فلبينيون سابقون . وجاءت سياسة عدم التعاون الفلبينية مع منهاج « الرخاء المشترك » اليابانى فزادت عدد العاطلين ، من معلمى المدارس مثلا ، والموظفين والأعوان السياسيين على اختلافهم ، وسائقى سيارات النقل . فالعصابة من هؤلاء الرجال كان لها مقام محترم فى جماعاتهم .

وكان غير الصالحين يقودون هذه العصابات فى البداية ، فكانوا يهبطون قرية من القرى ، ويزعمون أنهم مقاتلون فى سبيل الحرية ، ويأخذون من الأهالى ماشاءوا — ثيابا ، وبنادق ، وطعاما ، وكل ما يستطيعون أخذه حتى النساء !

فقلت لمن معى من الرجال : « إن هذا النوع من النشاط لاينبغى لنا » .

وبعد قليل سمعت بكولونيل أمريكى له جيش من عصابة صغيرة فى ماليتبوج على

شاطيء ليتى الجنوبى . فاستطعت أن أذهب إلى هناك ، وعرفت أنه الكولونيل مورجان الذى كان فيما سبق فى خدمة البوليس الفلبينى . وقد انضم إلى الكولونيل وندل فرتيج من جيش الولايات المتحدة الذى عهد إليه الجنرال دوجلاس ماك آرثر بعد التسليم ، فى تنظيم نشاط العصابات . وأخبرنى مورجان أنه يعمل الآن فى معاونة فرتيج على توحيد العصابات فى كل مكان وتقسيمها إلى مناطق عسكرية منفصلة ، ومتى اتحدت فإنها تحصل على الاعتراف بها والمساعدة لها من ماك آرثر ، ولكنه لا اعتراف بها ما بقيت هوجاء .

فبدا لى أن هذه فرصة حسنة ، وانضممت إليهم ، فأرسلنى مورجان إلى زعيم عصابة آخر هو الكولونيل روبرتو كانجليون ، وهو رجل قضى فى جيش الفلبين سبعة وعشرين عاما ، وكان أول وطنى عينه ماك آرثر قائد فرقة ، وبعد الهزيمة سلم هو ووحدته ، ثم استطاع بعد ذلك أن يفر إلى جنوبى ليتى .

وكان لكانجليون بيت صغير نظيف مخبوء فى الجبال ، لا يستطيع أحد أن يدنو منه ، لأن رجالا كامنين فى الأدغال يقفونك بالسلاح حتى يأذن فى مقابلتك . وكان هنا مقر قيادة العصابات فى ليتى ، على ما كانت من ضعف فى ذلك الوقت .

وكان كانجليون لا ينهب . وقد أقام مصنعاً بدائيا للصابون ليحصل على المال ، وهذا المصنع عبارة عن عجلة من الخشب وبد تدير مخرطة ساذجة تخرط جوز الهند ، ثم تغلى الخراطة التى تتناثر ويطفو الزيت على السطح ، وبعد أن يتبخر الماء يضاف إلى الزيت خلاصة رماد الخشب ، ولم يكن هذا صابوناً حسناً ، ولكنه كان خيراً من لا شيء ، وكان الأهالى يتلهفون على شرائه .

لما زرت الكولونيل كانجليون أول مرة ، كان جندى يدير العجلة ، وكان الكولونيل يمسك بقشر الجوز للعاصر ، فقدمت نفسى إليه وعرفته أنى ضابط فى بحرية الولايات المتحدة ، فقال إنه سمع بى من أمريكيين آخرين . وبحثنا بإسهاب مسألة تنظيم العصابات وكيف نوحدها لنحصل على الاعتراف والمساعدة ، وكيف نبقى حتى تأتينا المعونة دون أن نكون عالة وحملة على الأهالى .

وانصرفت فى مهمة ، فإنه كان قد أرسل اثنين ليتصلا بالكولونيل فرتيج ، فاختفيا ولم يظهر لهما أثر ، فعرضت أن أكون أنا الثالث الذى يقوم بهذه المحاولة .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

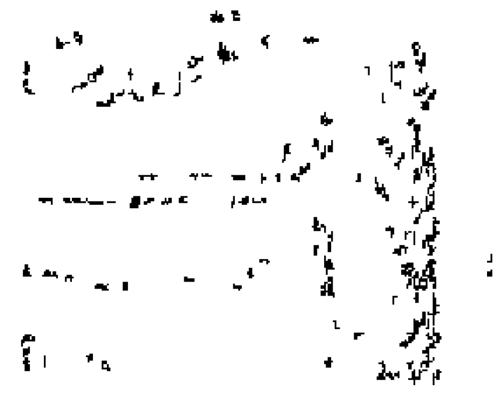

إلى منداناو فى زورق شراعى صغير ومعى مسدس أعطانيه الكولونيل كانجليون ، وكان أول همّ لى أن أجد كولونيل اسمه ماك ليش، فإنه هو الخليق أن يعرف مكان فرتيج .

وساعفنى الحظ مع اليابانيين ، فلم أر أحداً منهم ، ووجدت الكولونيل ماك ليش بسهولة . فلما صرت عنده رأيت عصابة حقيقية ، فقد كان هناك مَنْسَر كامل من الجيش والأسطول وجدوا الطريق بسلام إلى أرض العصابات .

فقال ماك ليش إنه سيذهب قريباً إلى مقر القيادة العامة — كما يسمى البيت الذى يقيم فيه فرتيج — وأنه يسره أن أرافقه ، فركبنا الزورق « روزاليا » ، وهو زورق بخارى حسن اغتصبوه من اليابانيين .

وقال لى الكولونيل ماك ليش : « إننا بدأنا بقيد معوّق ، فإن معاركنا الحالية هى فى سبيل المؤن . ولسنا نقاتل حتى من أجل حياتنا ، فإن هذا يكون تبديداً للرصاص ، وكل ما نفعله هو أن نجرى . ولكننا نقاتل اليابانيين من أجل المؤن . ومن هنا استولينا على روزاليا » .

ووكل إلى الكولونيل ماك ليش قيادة الزورق وقال : « لما التحقت بالجيش قال الأسطول : سنحملك إلى هناك . حسن يا بنى ، خذنى إلى هناك » فراجعت السرعة والاتجاه ، وأقلعنا فى الساعة الثالثة بعد الظهر .

وفى نحو الساعة الرابعة صباحاً كنا ماضين بسرعة حسنة ، وفى لين ويسر ، والمراقبان اللذان فى المقدمة يبدوان يقظين غير واضحين ، والحال تبعث على الرضى ، وإذا بهما يحولان من السواد إلى الشهبة اللامعة ، فقد ارتمى عليهما نور كشاف — نور كبير — من مدمرة .

وكان النور علينا تماماً ، فجعلنا نبدو فى لون باهت من الخضرة الضاربة إلى الزرقة . وكما يحدث أحياناً فى الحرب لم يتحدنا أحد لحسن الحظ . ولا أزال إلى اليوم أرتجف كلما فكرت فى ذلك . فمضينا بأقصى سرعة — نحو ست عقد فى الساعة — وانطلقنا إلى الشاطىء رأساً . وكنا على مقربة من سلسلة من الصخور تمتد من الشاطىء إلى البحر مسافة ميل ، فإذا كان المد عالياً استطاع الزورق ان يسير فوقها ولم تستطع سفينة أن تتبعه ، فأسرعنا إلى الساحل ووثبنا إليه .

وقصدت أنا والكولونل ماك ليش إلى الجبال ، وشرعنا نشق طريقنا فى حقول

الأرز ، وما لبثنا أن أقبلت امرأة تعدو نحونا من الطريق وتصيح : « اليابانيون ! اليابانيون آتون » .

ومرت بنا سرية من اليابانيين ونحن مختبئون ، وكانت لهم ضوضاء وهم يمشون ، ولمعدّاتهم صرير وصريف ، فمروا بنا كأنهم أشباح تتراءى فى حلم ، واستأنفنا السير واضطررنا إلى الاختباء من عدة دوريات يابانية .

وقد علمنا فيما بعد أن اليابانيين نزلوا قبل ذلك بوقت قصير فى عدة مواضع على طول الساحل المجاور ، فى حملة مفاجئة ليأخذوا العصابات على غرة ، ويستولوا على مؤنها . وكان يساعدهم رجال من الطابور الخامس، فهم يعرفون على وجه الدقة إلى أين يقصدون . وكان فرتيبج يتخذ مستودعات من بيوت مبعثرة بعثرة واسعة فى الجبال ، وكان اليابانيون يرسلون الطيارات فوق المستودعات ، إذا تعذر على جنودهم الوصول إليها ، وقلما كانت الطائرات تخطىء ، فكانت تهتدى إلى البيت المنشود من بين عدة من أمثاله وتضربه حتى تسويه بالأرض .

ولكنهم لم يهتدوا إلى فرتيبج ، ولما وجدناه أخيراً كان قد اتخذ مقراً جديداً فى بيت جبلى عادى على قوائم من خشب ، وكان مقراً متنقلا لم أر فى حياتى أسهل من نقله . وكانت لفرتيبج حقيبة صغيرة وضع فيها الخرائط والأوراق والشفرة ، وفى وسعه أن يثب من نافذة وينطلق ومعه الحقيبة إذا تطلب الأمر الهرب فى أية ساعة من النهار أو الليل . أما سجلاته وملفاته فكانت مخبوءة بعناية فى جحور مغطاة فى جوف الأرض . وكان فرتيبج ، لما وصلت ، على اتصال يومى بمقرّ قيادة الجنرال ماك آرثر فى المنطقة الجنوبية الغربية من المحيط الهادى . وكان الاتصال قد حدث فى ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، إذ كان روبرت س. بول أحد رجال فيلق الطيران من ولاية أنديانا ، ووليم . ف . كونكو وستيوارت ويليفر من رجال اللاسلكى فى عمارة زوارق الطربيد للدوريات ، قد نجوا من اليابانيين وانضموا إلى فرتيبج فى الجبال فقال لهم : « أنتم سلاح الإشارة عنـــدى » فبحثوا وصنعوا جهازاً مرتجلا ، وأخيراً أوجدوا الاتصال اللاسلكى ، وكان جهازهم عجيباً ، ولكنه يستطيع الإرسال والتلقى .

وظلوا أسبوعاً يرسلون الإشارات ويحاولون الاتصال بسان فرانسيسكو ، ولكنهم لم يتلقوا جواباً ، فظنوا أن جهازهم ربما كان مختلا ، فكانوا يفكونه كل ليلة ثم يركبونه مرة أخرى ، غير أنهم لا يتلقون جوابا .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ثم جاءتهم فجأة نقط وشرطات — حصل الاتصال مع سان فرانسيسكو ، واستعرف الكولونل فرتيج إليها ، وصار معنيا بعد بعد ذلك بإمكان إيجاد هيئة استخبارات فعالة للعصابات ولماك آرثر . وقد تحدثنا نصف يوم فى المسائل التى يقتضيها تنظيم العصابات على قاعدة عملية صحيحة ، ثم شرعت فى العودة إلى ليتى .

وكان علينا أن نقطع نحو ثلاثمائة ميل حافلة باليابانيين قبل أن يتسنى لى وأنا آمن أن أستقل زورقاً إلى ليتى . ولم أكن قط بديناً ، ولكنى فقدت نحو ٣٠ رطلا فى هذه الرحلة ، فلما شارفت نهايتها كنت أحس عظامى تحتك تحت جلدى وتخزه ؛ وكانت جماعتنا مؤلفة من الكولونل ماك ليش وعشرة من الجنود الفلبينيين ، ومنى ، ومعنا ٢٠٠٠ طلقة من عيار ٣٠ر ، وخمسة صناديق كبيرة من المهمات الطبية ، وكنا نضطر إلى التلبث بكل بلدة لنحصل على حمالين متطوعين يساعدوننا على الوصول إلى البلدة التالية .

وكنا نمشى يتقدمنا رائد فلبينى يكشف لنا الطريق ، وكان أعزل ، وكل ما يبدو عليه أنه صبى من أهل الناحية يؤدى رسالة . ويتبعه طليعة من أربعة جنود ، ثم الباقون ومعهم الأحمال والمهمات ، وأخيراً تجىء الساقة . فإذا شوهد ما يدعو إلى التحرز تراجع الرائد إلى الطليعة ، ونفخت الطليعة فى بوق من الصدف ، والنفخ فيه يحدث صوتاً طويلا حزيناً بعيد المدى .

وهناك طائر له مثل هذا الصوت ، فهو نافع للتحذير ، ولكنا كنا إذا سمعنا صوت الطائر نظن أن العدو قريب فنختفى فى الأدغال ، وكان هذا يعوق تقدمنا كثيراً ، فكنا نرسل أحدنا يعدو إلى الطليعة لنعرف أنفخوا فى بوقهم أم ذاك صوت الطائر .

وحاولنا أن نسير بمعدل ١٥ ميلا فى اليوم ، وبعد قليل صار قلبى يخفق كأن فيه ريحاً ، وكل من يسير فى الأدغال يصيبه ذلك عاجلا أو آجلا من التعب ، فترقد وتحس كأن مضخة تفرغ ما فيها فى صدرك ، وبعد الراحة تزول عنك ، وأحياناً تحم أيضاً ، ولكن هذا أيضا يزول .

ولن أنسى قط هذا السير — الحسك والأشواك تمزق الذراعين والساقين ، ورائحة الأدغال الرطبة العفنة ، واضطراب قلبى ووجيبه ، والعرق والقروح ، وما يتصبب من العرق الملح يكويها ، والإعصار يقذف بالمطر بشدة ، فيحس المرء أن القطرة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كيس من حصى ، وصوت البوق ، وطابور من مصفحات اليابانيين يمر بنا ونحن مختبئون فى الغابة نتساءل والعرق يسيل : ماذا نصنع هنا ؟ وماذا رمى بالأمريكيين فى عالم كهذا؟

ولما عدت إلى الكولونل كانجليون لم يعرفنى أول ما رآنى ، فقد كان البرق قد حمل إليه نعيي .

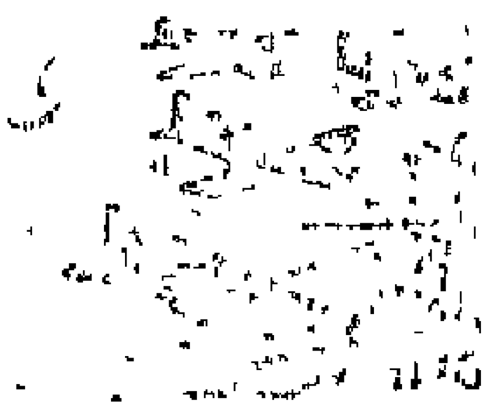

كانت المشكلة الأولى عند كانجليون هى الذخيرة . وكان جيشه الصغير يستعمل فواصل البطاريات ، وأطرافها وغيرها من المعادن اللينة لصنع الرصاص . فإذا استعملتَ هذا المعدن ، وأطلقت بعض طلقات ، سدت أنبوبة البندقية وارتدت عليك فقذفت بك عشر أقدام .

وصارت مسألة الذخيرة كلها مسألتى ، وكنت قد اتفقت مع الكولونل ماك ليش على أن يعطينى ٤٠٠٠ طلقة فارغة من عيار ٣٠ر٠ فنحشوها ونعيد إليه ألفاً محشوة . ووجدت شابا اسمه كويزون لتنظيم مصنع للذخيرة . فبحثنا حولنا وعثرنا على كور يدوى وعدد من المناشير ، ومبرد . فكان منها مصنعنا للأسلحة الصغيرة .

ويبلغ كويزون من العمر الحادية والعشرين ، ولم يكن له عهد سابق بالجيش ، ولكنى جعلت منه « ملازماً ثالثاً » لأنه ذكي مِطْواع .

وبحثنا فى دور المدارس عما يصلح لملء أصداف الرصاص ، وكانت القضبان النحاسية للستائر مصنوعة من معدن قوى سمكه كسمك الرصاصة من عيار ٣٠ر٠ ، فجعلنا نقطع القضبان إلى أطوال ملائمة ونبرد طرفها حتى تصبح مدببة ، ثم ندس هذه الرصاصة فى بندقية قديمة محطمة من طراز سبرنجفيلد ، ونتناول قضيباً وندفعها به ، فإذا خرجت من أنبوبة البندقية فهى صالحة وإلا بردناها مرة أخرى .

أما المواد المتفجرة فاتخذنا لها مزيجاً من الكبريت وفحم قشر الجوز والأعد ، ولكن مصدرنا الرئيسى للمواد المتفجرة كان الألغام البحرية اليابانية ، التى كنا نفكها ، وكنا نخلطها بمسحوق الخشب لنؤخر الاحتراق لأن المادة المتفجرة فى اللغم أعنف من أن تصلح لرصاصة بندقية ، وقد نسفت خمس بنادق قبل أن نفطن إلى ذلك .

وكانت الطريقة أن نفرغ البارود فى غلاف الرصاصة بقمع صغير صنعناه بأيدينا ، ثم نضع القطعة من قضيب الستائر فى الغلاف ، تطوى فتحة الغلاف عليها بكلّبتين (زرّادية).

وكانت مهمة كويزون أن يقدر النسبة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

اللازمة للمزيج ، وكان الأمر كله أمر تجريب ووقوع فى أخطاء ، فإذا حصل خطأ انفجرت الرصاصة فى أنبوبة البندقية ، فيخرج اللهب من بين المزاليج فيحرق يديه .

وقد أتلف ذات صباح ثلاث بندقيات واحترقت يداه ثلاث مرات على التوالى ، وردّت كتفاه إلى الخلف بشدة تأذت منها قدماه .

فقال أخيراً : «سيدى، إنى لست مرتاحاً إلى هذا الضرب من العمل ، وسأضع البندقية على المنضدة ، وأختبرها عن بعد يا سيدى» .

ثم استطعنا أن نستولى على ميزان صيدلى فامتنع أن تنسف البندقيات ، وكان استعمال هذه الذخيرة يرهق البنادق ، ولكنها كانت تفتك باليابانيين .

بل لقد كان هناك مدفع للهجوم على بلدة وقد صنعه الكبتن زابنتا الفلبينى وزوجته ، وكانت أنبوبته قصبة غاز عيار ثلاث بوصات وقد وقياها من الانفجار بغلاف من المعدن ، وحلقات مقواة بأسافين ، أما دبوس الإطلاق فكان عبارة عن مسمار مدبب مقوى بأحزمة من المطاط مأخوذ من أنبوبة داخلية . وصنع زابنتا وزوجته ثلاث قنابل من قصبة نحاسية من عيار ثلاث بوصات وحشواها رصاصاً ، مضافا إليه ما وجداه من «الخردة» . وكان غلاف البارود طوله أربع بوصات وقد ملآه بالبارود إلى الحافة لأنهما كانا يريدان أن يستوثقا من أن القنبلة ستنطلق .

ووضع هذا المدفع المخترع على عجلات من الخشب ، وكان طول الحبل ٣٠ قدما لأنهما كانا واثقين أنه سيحصل ارتداد عظيم إذا انطلقت القذيفة .

وكان هناك من اليابانيين ١١٠ فى مدرسة البلدة ، وهى مبنية من الأسمنت المسلح ليكون جوها طيباً .

وجر زابنتا وزوجته المدفع إلى مكانه ، وقضيا طول الليل يسدّدانه ، وحولهما جمهور متحمس يدلى إليهما بالنصائح ، وانتظرا إلى الفجر ليكونا على يقين من أن كل شىء على وجهه ، ثم ارتد كل امرىء إلى الخلف ، وتناولت السيدة زابنتا الحبل وجذبته .

فحدث أعظم انفجار على ظهر الأرض . واندفع المدفع واثباً فى الهواء ودار دورة كاملة وهوى على قصبته وشرع يتوثب ، وبلغ من تراجعه فى توثبه أن اضطرت السيدة زابنتا أن تجرى ، ولكن القنبلة كانت قد انطلقت واخترقت الجدار وأصابت الشظايا مَنْ وراء الجدار من اليابانيين . وكنا نسمع توجع اليابانيين طول النهار .

وكنا يومئذ فى سباق مع الزمن، ولا يخفى علينا أنه متى بلغنا من القوة مبلغاً يزعج اليابانيين فإنهم سيجيئون إلينا ويسحقوننا ، ولم نكن نتوقع أن نستطيع الفوز إلا بعد أن يعود ماك آرثر ، ولكنا كنا نعول على الفتك باليابانيين ، وعلى أن نستبقى أمل الأهالى فى التحرير يوما ما .

وفى أثناء ذلك أقام كانجليون فى منطقتنا حكومة جديدة ضد اليابانيين . وقد وضعت أنا إعلانها « رقم ٢ » وقد نص على أنه فى يوم ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٣ أو قبله يجب أن يسلم من يملك المهمات الآتية اللازمة لإدارة الحرب ، إلى أقرب رئيس بلدية . وتضمنت القائمة الورق والإطارات وزيوت التشحيم ، والأسلحة النارية ، والذخيرة ، وأجهزة الراديو والمحركات والآلات — وبعبارة أخرى كل شىء ينفع حتى الخيوط والأزرار ، على أن يكون الدفع بواسطة سندات تسدد بعد النصر ، وكل من لا يلبى هذا النداء متطوعا يكون عرضة للمصادرة .

وقد حصلنا على مقادير عظيمة من المواد أكثرها قديم ، ولكن استعماله ممكن بقليل من التجديد . وقد أضفنا إلى ما تلقينا ، بالإغارة على الدكاكين الصينية ، وكان الصينيون فى الفلبين ممثلين إلى حد ما للصين القديمة فى التفكير — الصين التى لم تكن أمة وإنما كانت نهباً لسادة الحرب ، وهؤلاء يعدون كل حكومة أجنبية وغادرة ظالمة . وكان الصينيون قد قدموا من بضائعهم ما لا يعدو أن يكون رمزاً ، فأغرنا عليهم ، وعدنا بأحمال كبيرة ، ولم تثر الغارات عداوات بين الصينيين ، فقد تقبلوا ذلك راضين به على علاته .

وقد غنمنا من الغارات ٢٠٠٠ بالة من المنسوجات ، فوضع كانجليون تصميما لبزة تصنع منها ، وهى عبارة عن قميص قصير الكمين وسراويل ، وقد صنعنا ٧٠٠ بزة من الألفى بالة ، وكانت خشنة الملمس ، ولكنها على كل حال بزة .

واستطعنا بفضل الحكومة المدنية أن نوجد داراً لضرب النقود ، فطبعنا أوراقاً نقدية بقوالب من الخشب ، وكان فيها صور جاموس ، وكوخ ومناظر محلية — وكانت تبدو ذات صبغة رسمية .

وكانت دار سك النقود تعمل على قاعدة التجميع فى مدرسة قديمة ، فرجل يقطع الورق ، وآخر يضعه فى قطار ، ويغمس القالب الخشبى فى محبرة ثم يطبعه على الورق .

ولم نخف من التزييف ، فقد كان عندنا كل ما هناك من الورق ، وكان بعض هذا الورق النقدى مطبوعا على ورق اللف

وبعضه على ورق الكتابة ، وهو مسطر وله هوامش . وصنعنا الحبر بأن أخذنا مصباح زيت وجعلنا عليه غطاء يتلقى السخام (الهباب) ثم نمزج السخام بالجاسرين .

وعينى كابجليون رئيساً لهيئة أركان الحرب، وكان طبيعيا أن أشعر أن من الضرورى أن يكون هناك أركان حرب أنا رئيسهم . ولم يكن لنا ضابط للإشارات ،أو قسم لحرب الدعاية ، أو قسم طبى أو قسم للنقل . فعينا فيلوزو — وهو سياسى سابق — رئيساً للدعاية ، وأعطيناه جهازاً للراديو ليكون مصدراً للأنباء ، فصاغ الأنباء فى عبارات نارية كان قسم النقل يوزعها .

وقد أنشأ قسم النقل رجل من رجال الأسطول الأمريكى ساهم فيه بموتوسيكل التقطه فى مكان ما . وأضفنا إليه مركبة خبأها بعضهم فى الأدغال ، وأخذنا من المدنيين ثلاث سيارات خفيفة وثلاث سيارات نقل ، ولم يكن عندنا دهان ندهنها به فتشبه سيارات الجيش ، وكان مكتوبا على أحدها « شركة جوز الهند الدولية » فتركناه عليها.

وكان البنزين مشكلة تتطلب الحل السريع ، فتخطى بنا هذه العقبة فرانك ليرد . وهو أمريكى عمل فى الجيش ١٥ عاما ، ومن قوله : « إنك فى الجيش تتعلم كيف تصنع أى شىء » فجئناه ببراميل وأنابيب مطلية بالزنك ومفتاح إنجليزى ، فعالج أمر البنزين ، واستخلص الكحول من ال« توبا » وهو شراب محلى من التمر .

وكان هذا وقوداً لا يعتمد عليه لأنه يمتص الماء بسرعة ، فإذا تركت زجاجة وفيها هذا الوقود إلى نصفها ، وبغير سدادة ، فإنها بعد ساعات قليلة تمتلىء إلى عنقها لأن كحول « التوبا » يمتص الرطوبة من الهواء .

ولكن السيارات كانت تستطيع أن تقطع من ستة أميال إلى ثمانية أميال بجالون من هذا الوقود ، إذا جعلته يتدفق إلى الكاربورتر بأكثر من المعتاد . وقد أقبل عليه الجنود يحتسونه ولكنهم كفوا عن ذلك بعد أن أصيب أحدهم بالعمى الوقتى .

وكان ليرد يستعمل الأنابيب المطلية بالزنك فى التقطير ، أما لتقطير الشراب فيجب أن تستعمل أنابيب من النحاس ، وقد استطعنا الحصول عليها، بعد أن انتظمت الأمور، بأن انتزعنا أنابيب النحاس من السيارات المحطمة.

ووضعت سلاح الإشارة تحت إشرافى الخاص ، وكان كابجليون يستخدم العدائين الذين كانوا يقومون برحلاتهم فى زمن يتراوح بين أسبوع وشهر أو شهرين .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان الأهالى قد قطعوا كل أسلاك التلفون بعد دخول اليابانيين، وكان هذا عملا وطنيا . ومن الممكن أيضاً اتخاذ المسامير من الأسلاك ، وكانت المسامير نادرة جداً، وقد حصلت على كمية من الأسلاك بأن أرسلت الجيش ليستولى على كل الأسلاك الشائكة وينزعها عن الأسوار ، ثم وكلت إلى لفيف من الجنود أن يعملوا بالكماشتين فيفكوا الأسلاك ويلفوها على بكر .

واتخذت من زجاجات الصودا القديمة عوازل ، فكنا إذا وجدنا أعمدة تلغراف نربط الزجاجات إلى قممها بالسلك ، ولكننا كنا على الأكثر نتخذ النخيل لمخاطباتنا ، فاستطعنا فى شهر ونصف شهر أن نمد من خطوط التلغراف ما يقرب من ١٤٠ كيلومتراً .

وهكذا اتصلت مخابراتنا أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم ، وأفادنا ذلك سرعة عظيمة فى تلقى الأنباء وإرسالها . وكانت الأنباء هى المهمة الأولى لكل وحدة فى منطقة يابانية ، وكان كانجليون يريد أن يتصل به الخبر كلما عطس يابانى ، فصار البرق يبلغه ذلك فى نفس اليوم الذى يعطس فيه اليابانى لا بعد شهرين . وبذلك تهيأت لنا مقومات جيش ، فعندنا المخابرات ، وعندنا البزات العسكرية ، والجنود يدربون ويقومون بتجارب فى الكمين ، ومناورات الليل ، والزحف السريع ، وإصابة الهدف .

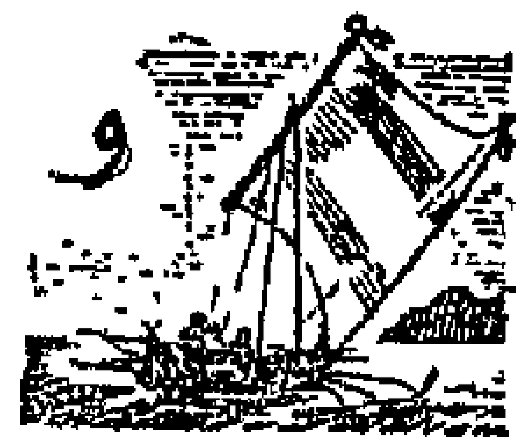

وفى ٢٧ من أكتوبر وردت رسالة من الكولونيل فرتيج يدعو فيها بعضنا إلى مقر قيادته ، فظننا أن ذلك معناه الجلاء إلى أستراليا ، فركبنا لرحلتنا زورقاً كبيراً حسناً كان قد استولى عليه الكبتن فالى من رجال العصابات .

وهو زورق صالح ، جاء وعليه ١٥ يابانيا لعلهم كانوا آتين من اليابان مباشرة ، ونزلوا إلى البر يبغون جوز الهند واللحم ، فحمل رجال فالى بنادقهم وراء ظهورهم وعلقوا جوز الهند على فوهاتها وكعوبها ، وأحاطوا بلا ضجة باليابانيين وهم ينزلون ، فلما دنوا منهم ألقوا جوز الهند وأطلقوا النار فصرعوا اليابانيين جميعاً .

ولما بلغنا مقرّ فرتيج تبينت أنى لست ذاهباً إلى أستراليا ، وإنما وقف الأسطول على خبرى ، فأنزلت من رئيس أركان حرب العصابات إلى ملازم فى أسطول الولايات المتحدة ، وكلفت أن أنشىء شبكة لاسلكية للتجسس على النقل البحرى اليابانى .

وكان ماك آرثر فى ذلك الوقت لا يعنيه أن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

نقتل اليابانيين أو لا نقتلهم ، وإنما يعنيه أن يتلقى أخبارهم .

على أن النبأ العظيم كان أن غواصة آتية إلينا تحمل مؤناً ، وكان فرتيج قدأوفد نحو ٥٠٠ جندى للمساعدة على التفريغ ، ودعا رؤساء العصابات من أماكن قصية مثل مانيلا . وغرضه الظاهر تنسيق نشاطهم ، أما غرضه الحقيقى فهو أن يروا الغواصة والمعونة التى تبذلها أمريكا . وأعد أيضاً ملء سيارتى نقل من الخضر الطازجة والفاكهة لإهدائها إلى الغواصة ، فقد كان يبغى أن تعود إلى مقر ماك آرثر فتبلغه أن له نظاماً حقيقيا نافذاً .

ولما دنا موعد ظهور الغواصة سرنا جميعاً إلى خور صغير على مسافة ستة أميال من المقر العام ، ولم يكن لليابانيين جنود يكفون لحراسة كل الجزيرة ، وكانت هذه المنطقة خالية منهم . وحوالى الساعة ٤ والدقيقة ٣٠ ارتفعت صيحة على طول الساحل فقد طفت الغواصة .

وكان عندنا زورقان لإرشادها ، وكنت أقود أحدهما ، بل كان عندنا أيضاً فرقة موسيقية فى قمصان بيض وسراويلات بيض عزفت بعض الأدوار .

فقال أحد بحارة الغواصة : « يظهر أننا غلطنا وذهبنا إلى هوليود ! » .

وكنت مزهواً جداً بالأسطول فى ذلك اليوم أمام كل هؤلاء الفلبينيين . فقد كانت الغواصة ضخمة كالبارجة ، وقد حملت إلينا بنادق تومى وبنادق عادية ، وقنابل يدوية ، ومدافع بازوكا ، ومدافع رشاشة من عيار ٥٠ر٠ ، وذخائر ، وأكسية للتمويه فى الأدغال وسجاير وشكولاته ملفوفاً عليها ورق كتبت عليه هذه العبارة « سأعود — ماك آرثر » .

وكان فرتيج قد نظم كل شىء بحيث استطاعت الغواصة أن تفرغ شحنتها وتبحر فى منتصف الليل . فشعرت كأنى مدار بى ، فإن هذه الغواصة ستقطع الطريق إلى أستراليا فى أقل من الوقت الذى تستغرقه عودتى إلى ليتى ، فلو أنى ذهبت فيها ، لعدت إلى الأسطول وإلى الاتصال اللاسلكى بالولايات المتحدة ومكافحة اليابانيين بأجهزة مصنوعة فى الولايات المتحدة ، لا بزجاجات صودا مشدودة إلى النخيل .

وكان بين الموجودين فى الغواصة « لويج توم باكنتر » ، وسيرته مع العصابات مثال لسير كثيرين من الأمريكيين المقاتلين الذين اختبأوا بعد الهزيمة فى الفلبين .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولم يكن باكستر طويلا جدا فى الحقيقة، ولكنه كان أطول من أهل الفلبين فسموه الطويل — لونج . وهو شاب أمريكى من الأوساط يناهز العشرين، وقد جند وألحق بالفيلق الجوى الذى كان مرابطاً فى منداناو . فلما صار الموقف ميؤوساً منه فر إلى الجبال ، وبعد رحلة شاقة وصل أخيراً إلى هيناتوان على الشاطىء، غير أنه كان فى حالة سيئة ، فدعاه العمدة ورئيس الشرط إلى العشاء، وقدموا له طعاما جيداً ليطول الأمر إلى منتصف الليل ، ثم دعاه العمدة ليريه شيئاً فى ركن ، وسدد رئيس الشرط مسدساً الى ظهره ، ومضى به إلى السجن . وكانا قد تعمدا أن يفعلا ذلك فى الليل، حتى لا يتدخل أحد من الأهالى المعادين لليابانيين، وكانا يبغيان أن يتحببا إلى اليابانيين.

وتسلمته دورية يابانية ذهبت به إلى السجن فى سوريجاو، حيث زاره يوزباشى يابانى ومعه جنديان يحملان بندقيتين مسددتين إليه .

ووقف الضابط ينظر إلى لونج برهة، ثم ركله فجأة فى فخذه ، وركله فى ساقه ولطم وجهه .

وكان يتكلم وهو يضربه ، ويضربه حتى يقع على ركبتيه ويقول : « هذا لا يكفى » ويجذبه من صدر قميصه ويقول: « فلنجرب هذه الطريقة » ويصرعه مرة أخرى ، ويقول : « هذا حسن . هذا أحسن » ويركله وهو مطروح على الأرض قبل أن يشده وينهضه ويصرعه مرة أخرى ، والجنديان لا يتحركان ومعهما البندقيتان مصوبتين . ثم انصرف الثلاثة أخيراً ، بدون كلام أو تفسير .

وفى اليوم التالى أقبل اليوزباشى مرة أخرى وسأله: « كيف حالك يا نوم باكستر؟ » وكان يدخن سيجاراً كبيراً ، ويبدو عليه الامتلاء والرضى ، كأنما طعم لساعته .

وكان لونج راقداً على فراشه، فدفع إحدى رجليه لينهض، وكان حافياً، فأمسك اليابانى بقدمه ولسعه بالسيجار ، وجعل لونج يعالج الخلاص واليابانى يكوى بسيجاره الجلد الرقيق ، وأخيراً اصطدم رأس لونج وهو يتلوى بالجدار الحجرى فغاب عن الرشد .

وظلت هذه المعاملة أسبوعين ، وكان اليابانى حريصاً على إصابة ساقه بحذائه العسكرى ، وقد كانت الندوب باقية بها مدة سنة .

وفى عصر يوم أطل لونج من كوة محبسه فرأى مشنقة تنصب فى ساحة خلف السجن، وقال الحارس فى صباح اليوم التالى للونج إن السبت التالى سيكون يوم احتفال، وأن اليابانيين ينوون أن يحتفلوا فيه بشنقه .

فانتظر لونج طول النهار حتى دخل الليل، وكانت تلك ساعات من أطول ما مر بإنسان،

فلما جن الليل شرع يقطع قضبان الكوة بأداة لفتح العلب وجدها فى محبسه .

وكانت القضبان الغليظة مصنوعة من خشب ال « بايونج » وهو أصلب خشب معروف .وكان عليه أن يكسر قضيبين ، ولم يكن فى وسعه أن يواصل العمل بانتظام واطراد ،لأن هناك حارسين يتمشيان طول الليل أمام بابه . وأصيبت يداه بجروح فى الساعتين الأوليين من العمل ، ولكنه دأب عليه ، وصنع طينا من التراب يسد به الفراغ فى القضبان .

فلما طلع فجر الثلاثاء كان قد قطع الجزء الأسفل من القضيبين ، أما الجزء الأعلى فكانت معالجته أشق ، لأنه لم يكن يستطيع أن يصل إليه بآلة رافعة، ولأنه كل وأضمره الإعياء ، وكان يلهث وهو يعمل ، وكانت أنفاسه تخرج عالية الصوت فى سكون الليل فيخشى أن يتنبه الحراس ، غير أنه ما كان يستطيع أن يكتم أنفاسه ، وتعبت عضلات ذراعيه حتى لصارت ترجف ، وكانت يداه مجرحتين ، ولكنه ثابر .

وفى ليل الثلاثاء ثار إعصار ، وهطل المطر أيضاً ، ثم انقطع المطر وسكنت الرياح فى الساعة العاشرة ، غير أن محطة الكهرباء أصابها خلل فانطفأت مصابيح الشوارع ، فانتظر لونج دقيقتين بعد مرور الحارسين فى الخارج ، وهو يعد الثوانى ، وقدر أن يكون له السبق بمقدار ١٣ دقيقة ، ثم نزع القضيبين وخرج .

وتسلل إلى الشاطىء ووجد قارباً صغيراً يملأ الماء ثلاثة أرباعه ، وليس به مجداف ، فراح يبحث كالمحموم عن شىء يصلح للتجديف ، قبل أن يجىء حراس الشاطىء ، فلم يجد إلا قطعة من الخيزران طولها ٦ أقدام وقطرها نحو بوصتين .

وليس فى وسعك أن تجدف بعصى مدورة ، فلم يقطع فى ساعة ونصف ساعة إلا نحو نصف ميل ، ولكنه بعد ذلك دخل فى تيار حمله بضعة أميال ، فلما كان الفجر مال بالقارب إلى الساحل .

ولم يكن يدرى ماذا يصنع ، فقد كان وجهه الوارم من لكمات اليابانى ، كأنه علم يدل عليه أينما سار ، ثم أقبل رجل كهل كان يصطاد السمك طول الليل وكان لا يعرف الإنجليزية ، ولكنه ذهب بلونج إلى كوخه وأطعمه وغطاه بالغرائر ، فنام على الفور. واستيقظ بعد العصر ، وكان الرجل الكهل واقفاً عند رأسه ومعه مسدس ، وإلى جانبه صبى فى العاشرة من عمره .

وقال الصبى: « إنى ابن أبى » وكان الرجل قد جاء بابنه لأنه يتكلم الإنجليزية: « وأخى ياسيدى فى الجيش ، وقبل التسليم أعطى

أبي مسدسه ، وهو لك الآن » .

وكان من عيار ٣٢ر٠ ومعه خمس طلقات . وذهب الرجل بلونج في تلك الليلة إلى أسرة أخرى على الساحل فبقى معها نحو أسبوعين ، وكانت الأسرة كلها تعمل في الحقول طول النهار ما عدا فتاة صغيرة ، كانت تلعب وترتع حول البيت وحدها ، على حين كان لونج ينام نهاراً وليلا . ثم إن رجلا من الطابور الخامس عرف أن لونج هنا ، فأرسل اليابانيون جنديين للقبض عليه ، وقف أحدهما أمام البيت والثاني خلفه ، وأكبر ظنهما أنهما لا يناديانه حتى يخرج إليهما مرفوع اليدين ولكنهما نسيا الفتاة الصغيرة . فقد أيقظت لونج وأسرت إليه بصوت خفيض جدا : « رجلان — جاءا هنا »

وكان المسدس مع لونج ، وكان قد نام والمسدس إلى جانبه مرفوع الزناد ، فذهب إلى النافذة ورأى رجلا واقفاً وفمه مفتوح من الدهشة ، فلما هم الرجل بتسديد بندقيته ضربه لونج بين عينيه ، ثم رأى الرجل الثاني فأرداه . وخرج من هذه الحادثة بمسدسين آخرين ، فصار معه ثلاثة مسدسات وثماني عشرة طلقة — وبهذه الذخيرة بدأ حرب عصابات بمفرده .

وكان نقل الأخبار بالتهامس يبلغ في العادة كل أمريكي وجود غيره ، وبهذه الوسيلة اتصل لونج توم باكستر بجوردون سميث ، الذي كان طباخا في الفيلق الجوى التابع للجيش ، وبدتش جيزين وهو شخصية لم يكن يجرؤ حتى كونراد أن يبتدعها . وقد مات دتش ولاشك ، ولكنه في زمنه قد ركب البحر في سفن شراعية وأخرى بخارية بين شيلي والشرق ، واشتغل بكل عمل من التعدين إلى تهريب الرقيق لأثرياء الصينيين .

وذهبت عصابة الثلاثة إلى منجم منداناو للحديد ، وحصلوا على أنبوبة من الحديد طولها نحو ثماني بوصات ، وحفروا فيها أخدوداً بمبرد لتتطاير شظاياها حين تنفجر ، وحشوها بقطعتين من الديناميت وجدوهما في المنجم وجعلوا لها غطاء وفتيلا .

ثم هبطوا إلى مالامونو حيث اتخذ عشرون من اليابانيين المدرسة ثكنة ، وبقى جيزين وسميث على التل ليحموا ثالثهم ، وتسلل باكستر بين الحشائش العالية إلى مبنى خلف المدرسة مباشرة ، فأشعل الفتيل وأمسكه ثانية أو نحوها ، وهو يصغى إلى الغمغمة ، وإلى اليابانيين وهم يلغطون داخل المدرسة : ثم قذف بالأنبوبة من النافذة .

وقال لى باكستر : « بعد ذلك ذهبت أعدو بأسرع ما أستطيع ، ثم نظرت ورأى تخيل إلى أن جوانب البناء تكورت قليلا ، ثم

بدأت الأشياء تطير من خلال الجدران ».

هذه هى قصة لونج توم باكستر على قدر ما أعرف ، وبعد أن أبحرت الغواصة كانت مهمته التالية أن يحرس النهر ، ولم تكن هناك طرق فى الأدغال ، فإذا حرم اليابانيين الانتفاع بالنهر ، فإنهم يضطرون أن يسيروا أميالا حول هذه البقعة ليحافظوا على الاتصال بين حامياتهم .

وكان آخر مرة رأيته فيها ، يمشى مترهلا مع رجاله ، وقد لوحته الشمس وانتفش شعره حتى بدا كأنه واحد منهم .

فقلت له : « مع السلامة يابنى ! »

فلوح لى ببندقيته وقال : « واظب على الضرب » .

وكانت مهمته خطرة جدا ، فقد كانت الطريقة الوحيدة لحراسة النهر أن يركب قاربا من قوارب الأهالى ، وكانت على طول جانبي هذا النهر اللعين ، أماكن كثيرة يسهل التربص فيها ، ولم أسمع به بعد ذلك ، ولكنى أرجو مخلصاً أن يكون حيا .

و شرعت فى الإياب إلى ليتى فى أول ديسمبر على زورق ومعى من المهمات ما يكفى تركيب ثلاثة أجهزة للراديو ، وبعد رحلة مثيرة كثر فيها التوارى عن زوارق الدوريات اليابانية ، نزلنا فى بورجوس حيث أقمنا أنا والملازم جوزيف ريفا ريال — من رجال اللاسلكي سابقا ، محطة لاسلكية واحدة.

وكانت هذه هى المرة الأولى والوحيدة ، التى عملت فيها عصابة كان لى بها شأن ، بنجاح من أول الأمر . وقد أقمنا المحطة فى منزل بجوار الطريق ، ومددنا السلك بين شجرتين من أشجار جوز الهند ، وأرسلنا رسائلنا اللاسلكية ، ولكن فرتيج لم يتلق أية رسالة مدة يومين ، فقد كان فى الطرف الآخر عنده خلل ما ، على ما يظهر ، وكانت لهم متاعبهم ومصاعبهم هناك .

وفى اليوم التالى هبط اليابانيون فى كل مكان ، واستولوا على كل البلاد التى كانت فى أيدينا فى جزيرة ليتى ، وعلى بلدتين فى جزيرة باناؤن على الجانب الآخر من الخليج ، وكانت عصابات ليتى الجنوبية قد بدأت تخز جلودهم ، فمدوا أصابعهم ليقضوا علينا .

ولم يجد اليابانيون فى المنطقة الجنوبية من ليتى جيشاً يقاومهم ، فزحفوا شمالا على الشاطىء وانتشروا فى الجبال ، وراقبناهم وهم ينظرون مستغربين إلى نظامنا التلغرافى الذى استخدمنا فيه زجاجات الصودا ، وتلاقت طوابيرهم على غير شىء .

وكان العمل الوحيد الذى قاموا به هو

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

شروعهم فى استخدام نظامنا التلغرافى ، فقطعنا الخط ، فأصلحوه ، فقطعنا الأشجار ، فوصلوا الخط بأشجار أخرى ، فقطعنا فى ليلة واحدة عشرة كيلو مترات من الأسلاك ، فنفضوا أيديهم يائسين .

وكان كانجليون يدير حرباً تنطوى على الذكاء والحذر ، فما كان عنده سوى ٧٠٠ رجل ، ونصف هذا العدد من البنادق ، وقليل من الذخيرة ، وقد طاردهم اليابانيون بأكثر من خمسة آلاف مسلحين أسلحة ثقيلة . غير أن كانجليون كان يعلم أن اليابانيين خليقون أن يملوا إرسال طوابيرهم فى زحف سريع طويل لا ثمرة له ، وأخلق بهذه القوة أن تكون باهظة التكاليف ما دامت لا تصنع شيئاً ، على حين تنشط العصابات فى جزر أخرى ، وحينئذ يشرع اليابانيون فى سحب قوتهم ، وليس فى وسعه أن ينتظر حتى يتم انسحابهم ، إذ لا بد لأسباب سياسية من أن يقع قتال ، فقد أمد الشعب بالعون جيشاً من العصابات ، فلا مهرب من أن يقاتل من أجلهم ، وإلا فكيف يبقى الأمل فى التحرير إلى أن يعود ماك آرثر ؟ وإذا انتسخ الأمل فى التحرير ، فمن أين لماك آرثر بالاستخبارات ؟ وأية قوة تكون هناك لساعدته حين يجىء ؟ كلا ، لا بد من القتال ، ولكن ليس الآن — واليابانيون كأقوى ما يكونون .

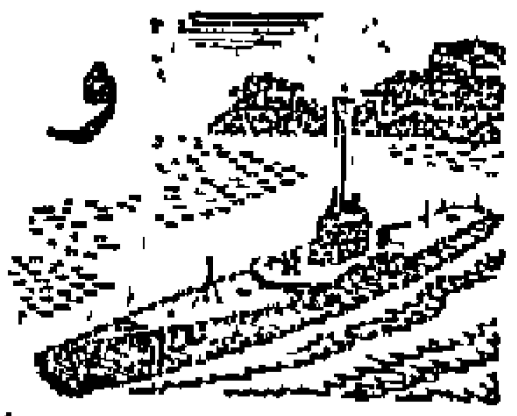

وفى أثناء ذلك ذهبت أنا وريفاريال والجاويش بدرو باتوران لإقامة الجهاز اللاسلكى الرئيسى ، فجدفنا فى الخليج ليلا ، وفى صباح اليوم التالى قادنا دليل من رجال العصابات مسافة أربعة أميال مصعدين فى النهر إلى كوخ خرب فى الجبل ، وكان كل ما أحتاج إليه آلة ومولدا ووقوداً وبنزيناً وزيتاً للتسخين وأسلاكا ، فاهتديت إلى شاب ذكى هو الملازم جوانيتو بيى ليحصل لى على ما أريد ، وتذكرت محركا ومولداً فى سوجود ، كانا يستعملان لتوليد الكهرباء لتصفيف الشعر ، وكانا عند رجل من الطابور الخامس ، فذهب جوانيتو ليلا وجاء بهما منه .

واستغرقت رحلة الذهاب والإياب ثلاثة أيام ، خالطنا فى خلالها الفلبينيين وعشنا فى جوارهم ، وأنشأنا نظاماً للحراسة بالتطوع ، واستأجرنا مساعدين ، وموهنا طريقنا إلى الكوخ وملأناه حجارة وحشائش ، فجاء التمويه آية من آيات الفن .

وتبينا أن قوة المولد ١١٠ فولت ، وكان

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الجهاز يحتاج إلى ٢٢٠ فولت ، فظللنا خمسة أيام نحل ونربط ونحاول عبثاً أن نزيد القوة ، فلم نوفق في شيء مما صنعنا .

وكان الحراس المتطوعون غير ذوي خبرة وسريعي الاضطراب . فأنبأونا مرة أن اليابانيين قادمون فرحلنا ، واحتاج نقل المحرك على أعواد إلى اثني عشر رجلا ، وحمل برميل زيت التشحيم إلى خمسة عشر رجلا ، وكانت جملة الحمالين خمسين ، ودخلنا في الأدغال وخضنا جدولا كثير الصخور . وكان الرجل منا ربما وقع ، أو العود انكسر فلا يصيح أحد ولا يتكلم حتى بصوت عال ، وسرنا في سكون على قدر المستطاع ، دون أن يكون هناك ما يدل علينا سوى أصوات الببغاوات إذ تصرخ وتصيح بنا.

واتضح أن النبأ الذي جاءنا باطل ، فدعوت كل الحراس المدنيين وكلمتهم جادا وقلت : « لقد ضيعنا وقتاً ثميناً ، ومن الضروري أن تكونوا شجعاناً ، ورجالاً لا نساء ، وأن لا تتوهموا أن وراء كل طائر يابانيا » .

فوافقوا ، ووعدوا أن ينبئونا بقدوم اليابانيين دون أشباحهم .

وساعفنا الحظ مساعفة جميلة ، فوجدنا محولاً للتيار الكهربائي يحول الـ ١١٠ فولت إلى ٢٢٠ وكان يستعمل قبل ذلك لآلة إلقاء الصور السينمائية على الشاشة .

وهي الوحيدة في جنوبي ليتي . ولكن محركنا أبى أن يعمل ، فكان يهسهس ويكركر ثم يقف ، فنعيد الكرة ، فيعيد سيرته الأولى ، ولا يزيد على أن يطمعنا .

وأخيراً أهملناه وخرجنا إلى حيث اليابانيون ، ووجدنا محركاً استولينا عليه وقضينا يومين نركبه فوق كتل خشبية هيأناها . ولم يكن عندنا مثقاب ، فكنا نحمي مسماراً وندقه بالمطرقة في الكتلة حتى ينفذ ، ولكن المسمار ينثني ويلتوي إذا طرقته بشدة .

وإذا بحارس متطوع يقبل وهو يلهث في الساعة الحادية عشرة ذات مساء ويبلغنا أن اليابانيين في طريقهم إلينا . ولم يكن البلاغ كاذباً في هذه المرة ، فشرعنا ننزع الأسلاك ونضع المهمات في الصناديق ، وكنا نعمل في هرج ومرج ، غير أنا استطعنا أن ننقل أشياءنا إلى الأدغال ، وأن نخفيها قبل أن يصل اليابانيون .

وأقمت المحطة في كوخ في جوف الأدغال بني لهذا الغرض ، وحوالي ذلك الوقت رأى كانجليون أنه قد آن أن يضرب ، فأمر رجاله أن يهجموا في منتصف ليلة أول فبراير سنة ١٩٤٤ وظلت الوحدات طول الليلة الأخيرة من يناير تهبط من الجبال لتتخذ مراكزها التي عينت لها من قبل .

وكان الهجوم هجوم عصابات . فليس

هناك جنود يزحفون بعد تمهيد بستار من نار المدفعية ، وكان مع جو نازارينو — قائد مدفعية كانجليون — مدفع واحد من مدافع المورتر من عيار ٨١ مم وخمس قذائف ، ومدفع بازوكا . وكانت الخطة أن يتربص الجنود على مقربة من المدن حتى تخرج الدوريات اليابانية — إلا فى مدينة آناهاوان فقد كانت الحامية اليابانية فيها مؤلفة من اثنى عشر رجلا لا يخرجون فى دورية قط ، فاحتاج جنودنا أن يدخلوا عليهم بعد أن اتفقوا على الأمر مع العمدة ، ووجدوا قنبلة يدوية لم تنفجر — وهذه هى الخطة فى جوهرها .

ودعا العمدة الحامية إلى الإفطار صباح أول يوم من فبراير فحضر رجالها جميعاً ما خلا واحداً ، تركوه فى الخارج ليقوم بالحراسة ، ثم قال لهم العمدة إنه أعد لهم شيئاً خاصاً فى الفناء الخارجى ، وأنه ذاهب ليحضره .

فكان خروجه هو الإشارة المتفق عليها مع رجال العصابة ليشرعوا فى العمل . وكان بعضهم قد زحف إلى قريب من البيت ومعه القنبلة اليدوية ، وتقدم آخر ، من الحارس ، وعليه قميص من قمصان اللعب فوق سراويله ، وكان معه مسدس فى حزامه تحت القميص ، وفى كلتا يديه دجاجة حية مشدودة الرجلين بخيط ، فمد يديه بالدجاجة إلى الحارس دون أن يقول شيئاً ، فأومأ إليه الحارس أن يدخل بالدجاجة ، فأظهر الرجل أنه غير فاهم وترك الدجاجة تسقط من يديه ، فأخرج اليابانى صوتاً كالتمطق من الغيظ وانحنى ليمسك الدجاجة ، وقد عز عليه أن يراها تضيع .

وكان حامل القنبلة قد جذب خيطها لما رأى زميله يسقط الدجاجة ، وأخذ يعدو ، فلما انحنى اليابانى على الدجاجة أخرج الواقف أمامه مسدسه وأرداه برصاصة فى قفاه ، وقذف الآخر بالقنبلة من نافذة البيت ، ثم هجم الباقون من الباب بالبنادق ليقضوا على الذين فى الداخل .

وكان جو نازارينو مزهواً بمدفع المورتر والقذائف الخمس فحاول أن يدخل برجاله بلدة ليلوان ، وبدأت المعركة بقنبلة من قنابل المورتر سقطت خارج بناء المدرسة التى فيها الحامية اليابانية ، فخرج اليابانيون واحداً وراء واحد ليلجأوا إلى الجحور ، وكان حولهم أسلاك شائكة أيضاً ، وقاوموا طول النهار ، وانتهت معركة اليوم بغير نتيجة .

وفى تلك الليلة أطلق اليابانيون قنبلة مضيئة ، وذهب جو إلى أن معنى ذلك أنهم يطلبون مدداً من وراء بوغاز ليلوان . فوضع رجاله على الشاطىء ، فلما أقبل زورق

غاص باليابانيين كان جو ورجاله مستعدين لاستقبالهم. ورسا الزورق على رملة الشاطىء ففتح عليهم جو وجماعته أفواه البنادق ، وعدّوا ثمانين يابانيا فى الزورق ، فكانت مذبحة ، وقضى الرجال بقية الليل يغطسون طلباً للجثث والبنادق والمؤن، وكانوا يبغون أن يأخذوا ثياب القتلى وأحزمة الرصاص .

أما مدفع البازوكا فاستعمل للتسلط على بوغاز ليلوان . وفى ١٠ من فبراير أقبل زورق بحارى حتى صار على مسافة ٧٥ ياردة من الشاطىء ، وكان رجال جو لم يطلقوا هذا المدفع قط ، ولم تكن القذائف من الكثرة بحيث تسمح بالتدريب، فجعلوا هدفهم المحرك ثم شدوا الزناد .

فحدث انفجار فى الماء على مسافة ٥٠ ياردة من الجانب الآخر من الزورق فتجمع اليابانيون عند الجانب الثانى وظهرت عليهم الدهشة من فورة الماء وجيشانه ، وكانت القذيفة قنبلة من النوع الذى يتأخر انفجاره، والذى يستعمل ضد الدبابات ، وقد اخترقت جانب الزورق فوق خط الماء ونفذت من الجانب الآخر ثم انفجرت فى البحر دون أن تحدث أذى ، ولكن اليابانيين لم يعبروا بوغاز ليلوان فى زورق بعد هذا ، وآثروا أن يقطعوا ستين ميلا فى لفة طويلة ، على أن يخاطروا مرة أخرى .

ثم جاءت الطائرات فألقت قنابلها وضربت بمدافعها ، ومحت أربعة بيوت كنت من قبل فى إحداها أنا ومحطتى اللاسلكية، ولكنهم لم يقتربوا من دار محطتى الجديدة فى الأدغال ، لأنهم عجزوا عن الاهتداء إليها ، وكانت نتيجة الغارة أن فقدت عمالى أسبوعاً كاملا ، فقد جاءت زوجاتهم وأخذنهم ليحفروا لهم وللأطفال خنادق .

وأرسل اليابانيون سرايا قوية التسليح مع دورياتهم ، فتركتها العصابات تمر دون أن تتعرض لها . فلما كان المساء وعاد اليابانيون يجرون أرجلهم من التعب والإعياء وقد قطعوا نحو ١٥ ميلا على الأقدام دون أن يجدوا شيئاً ، انقضت عليهم العصابات .

وليس هناك رقم دقيق لخسائر اليابانيين، ومن المحقق أن الخسائر بلغت المئات، ولعلها على الأيام دخلت فى الآلاف ، وكان الماجور الذى يتولى الأمر فى منطقتنا يتخذ سبورة يسجل عليها بالطباشير جملة الخسائر اليابانية لتقوية الحالة النفسية بين رجاله ، غير أن العصابات قلما تستولى على ساحة ، وإنما تضرب حتى تنفد ذخيرتها ، ثم تتراجع . ومتى كنت لا تستولى على ساحة فإنك لاتستطيع أن تحصل على إحصاء دقيق للقتلى.

ومهما يكن من ذلك، فقد بلغت خسائر

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

اليابانيين مبلغاً جعل رد الفعل من جانبهم مقروناً بالوحشية ، فكان أهالى البلاد يفرون مذعورين إلى الجبال ، وكان من جراء هذا أن صار مركز اليابانيين حرجاً فيما يتعلق بالأقوات ، لأن حامياتهم كانت تعيش عيالا على أهل المدن ، وكانوا يضطرونهم إلى العمل لهم . ولم يكن يسعهم أن يعيشوا فى بلاد مهجورة ، فقصدوا إلى الجبال ومعهم رجال الطابور الخامس ليجيئوا بالفارين ، فإذا عرف رجال الطابور الخامس أسرة من أسر البلدة أكرهوها على العودة ، وكانت الأسر الجبلية تُقتل حتى لا تعاون العصابات .

غير أن الجلاء عن المدن استمر وكان عوناً كبيراً لنا ، لأنه أكره اليابانيين على ابتعاث فرق للبحث والتفتيش نستطيع أن نفتك بها . وكان بين أهالى البلاد مئات من الأبطال . وهذه قصة لن تروى على الوجه الذى ينبغى أن تروى به ، فإن فصولها كثيرة جداً ، وكثير منها وقع فى أماكن معزولة كان شهودها الوحيدون أولئك الذين أصبحوا قتلى .

واخترعت العصابات حقول ألغام محلية لم تكلفهم قرشاً ولم تتطلب شيئاً من المواد الحربية الباهظة الأثمان ، فكانوا يدسون أعواداً من الخيزران أطرافها محددة مسنونة فى الحشائش على جانبى الطريق ، ويستعملون لهذا الغرض نوعاً خاصاً من الخيزران اسمه « بانجا كى » . فإذا جرحت نفسك عليه خبث الجرح . والأهالى ينفرون من استعمال هذا النوع ، ولكن العصابات صنعت آلافاً من هذه الأعواد المسنونة وغرستها على الطريق الذى يسلكه اليابانيون ، بحيث يكون السنان خارجاً من الأرض نحو قدم ، حتى إذا أقبلت دورية يابانية أطلق رجال العصابات عليها النار أو جهجهوا بها ، فينطرح اليابانيون أرضاً للتوقى فتطعنهم هذه النصال الفتاكة . وقد قتل كثيرون من اليابانيين بهذه الطريقة ، وجرح آخرون أجهزت عليهم العصابات بالخناجر .

وصار رجال الجبال يحملون الخناجر والخنجر العادى له نصل طوله ١٢ بوصة وهو يحمل فى قراب على الكتف ، وكانوا يحملون هذا ويحملون أيضاً خنجراً صغيراً تحت القميص ، فإذا قبض عليهم ألقوا الخنجر الكبير — طبقاً للأوامر — وانتظروا حتى يدنو اليابانى لتكتيفهم ، وحينئذ يستل الرجل منهم الخنجر الصغير ويضرب به حتى يقتل . وقد انتهى الأمر باليابانيين إلى أن صاروا يتقون الاقتراب من الأسير حتى يخلع قميصه . ثم صار أهل الفلبين

يضعون قطعاً من الزجاج فى أفواههم ، أو مواسى إذا وجدوها ، ويسنون الأظفار ويطيلونها ، ليفقأوا بها عيون أعدائهم — أى شىء يؤذى وكفى . وظل جيش كانجليون يقاتل اليابانيين قتالا دموياً مستيئساً ويدفعهم ببطء إلى مدن الشاطىء حتى سلمت الجبال لنا .

وكانت محطتى فى الأدغال كالسفينة فى البحر ، فصنعت مكتباً من خشب باب ، ووضعت عليه جهاز التلقى ، وجرس باب له مفتاح تلغراف ليدق ، فإذا أردنا أن نرسل رسالة أذنت المهندس بدق الجرس ، كأنى فى برج سفينة . ودقة واحدة معناها الابتداء ، ودقتان للتوقف ، وثلاث لخفض القوة ، وأربع لزيادتها ، وخمس للحضور للأكل . ولم تكن هناك إشارة لوقف المحرك ، فإذا وقف كان ذلك لخلل ، وكان لا بد من البنزين للابتداء ، وهو نفيس نفاسة الماس ، أما بعد أن يشتغل المحرك فإنه يعمل بعد ذلك بالزيت الوسخ وعندنا منه الكفاية ، فقد كانت سفينة يابانية قد ضربت بالطوربيد على مقربة من الشاطىء ، فحمل الماء براميل كثيرة من الزيت إلى البر ، فجئت بكل مدنى وكل رجل من رجال العصابات من مسافة عشرين ميلا ، فظلوا يعملون ثلاث ليال لنستولى على هذا الزيت .

أما البنزين ! البنزين !

وصار استقطار « التوبا » غير عملى ، فإنه ينمو بجوار البحر ، وعلى أنه لم يكن عندنا حينئذ شىء نصنع منه جهازاً للتقطير .

وتمت إقامة شبكتى اللاسلكية ، ولكنى لا أستطيع أن أزعم أنها تعمل بغير توقف ، وبعثت بجهاز للراديو إلى المنطقة الشمالية من ليتى مع رجل من رجال العصابة اسمه كابيليوس ، وكنا قد ركبناه مما فضل من هنا وههنا ، واستغرقت إدارته مثل طول الأبد . وقضى كابيليوس ثلاثة أسابيع ليقطع مئة وعشرين كيلومترا إلى المحطة الجديدة ، فقد كان اليابانيون على طريقه فلم يكن له معدى عن التحرز وأخيراً بدأ العمل ، فإذا جهاز الإرسال يرسل ، أما جهاز التلقى فيأبى أن يتلقى . وكنا قد جربناه فوجدناه صالحاً فى الحالين ، أما هو فاختلف الحال معه ، ولم يكن يعرف كيف يصلحه ، ولا كان عندى رجل أستغنى عنه فأبعث به إليه ، فظل يبعث إلينا برسائله يسألنا فيها هل نسمعه .

فأرسلت إليه عداء يحمل منهاجاً ، ويأمره أن يذيع فى الساعة الثامنة صباحاً والساعة الرابعة مساء ، فسلخ الرجل ثلاثة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

أسابيع فى الذهاب وثلاثة فى الإياب ، وجاء يقول إن كابيليوس ليس عنده ساعة ! فرددته إليه ومعه ساعة، وغاب ستة أسابيع أخرى فى رحلتى الذهاب والإياب، ثم صارت الدوريات اليابانية أنشط ما تكون فى الساعة الثامنة صباحاً والساعة الرابعة مساء ، فلم يستطع أن يذيع فى هذين الوقتين ، وطلب توقيتاً جديداً ، واضطررت أن أبعث عدّاء بالتوقيت الجديد غاب ستة أسابيع ، وبعد ذلك اضطربت ساعته . فكان كل مايسعنا هو أن ندع جهاز التلقى مفتوحاً خمس دقائق فى الصباح وخمساً فى المساء عسى أن نسمع منه نبأ.

ولم تكن ثم قطع للتغيير لأى جهاز من أجهزتنا . ولما اتفق أن انتظم أمر جهازى توقفت محطة منداناو، فقد ذهب اليابانيون إلى هنـاك مرة بخمسة عشر ألف رجـل ومائة طائرة ، ونسفوا منشئات فرتيج ، ولم تستطع منداناو أن تنبس بأخفى همهمة أكثر من أسبوعين .

ثم يقبل اليـابانيون علينا فيضربوننا ، وكنا نستطيع عادة أن ننقذ معظم أجهزتنا ولكن إعادة تركيبها كان يستغرق وقتاً ويستنفد جهداً . وقد فقدنا جهاز إرسال لما أغاروا على محطة أقمها بإشراف جوزيف سنت جون من رجال الفيلق الجوى التابع للجيش وكان معى فى الزورق الشراعى حين أزمعنا الذهاب إلى أستراليا .

وكان أول ما شعر به الرصاص يخترق كوخه ، فلما خرج منه رأى نحو مئة يابانى يهبطون عليه من الجبـل ويطلقون النار ، ولم تكن عنده ذخيرة ، فرمى بندقيته ليتخفف ، وأحنى رأسه وذهب يعدو .

وكان على مسافة خمسين قدماً من الكوخ حقل نباته عال جداً ، فأدرك أنه إذا دخل فيه ترك أثراً . وكانت هناك شجرة مقلوعة على حافة الحقـل فألقى بنفسه تحتها ، وكان ما تحتها ضيقاً ، ولكنه كاف لبدنه المعروق . والنبات الذى اضطر أن يدخل فيه ويدوس عليه حتى يتصل إلى الشجرة ، قوى يستطيع أن يرتد واقفاً فلا يبقى هنـاك أثر . وكان معه مسدس فرفع زناده . وقال لى فى وصفه: « لقد كنت تستطيع أن تسمع صوت هذه المطرقة وأنت فى الصين ! » .

وأقبل اليابانيون يطعنون بأسنتهم يمنة ويسرة ويحرقون بها النبات ، ومشى أحدهم على الشجرة التى كان منطرحاً تحتها وجعل يطعن على جانبيها ، وظل جونى راقداً لا يتحرك ، وأمطرت السماء وأصاب جذع الشجرة وسال عليه ، فلم يتحرك، وخرج النمـل الأحمر ومشى على جفونه ودخل فى أذنيه ، وجاس خلال أنفـه ، فلم يطرده . ولبث هكذا خمس ساعات ونصف ساعة ،

وكان اليابانيون كل دقيقتين أو ثلاث يطلقون النار جزافاً فى الغابة وفى النبات والجبل لإقصاء العصابات ، ثم انصرفوا وأخذوا معهم كل ما كان عند جونى ، وفى جملة ذلك ١٥٠ بيضة ، وغرارة أرز ، وحذاءان لجونى .

كلا ، لم يكن ثم آخر للمتاعب — فالأدوات العازلة تحترق ، ومحوّلات التيار والأنابيب تهلك ، والأعوان يفقدون رباطة الجأش ويقولون إنهم مضطرون إلى ترحيل أسرهم إلى مكان أمين ، ثم لا يعودون . ولكن جزيرة ليتى لم تكف قط تماماً عن الإذاعة ، فقد كان بعضهم يأتى بالمعجزة ، فتظل تذيع . وأعتقد أن جزيرتنا هى الوحيدة التى لم تفقد اتصالها قط بعالم آرثر يوماً واحداً . ثم جاءت غواصة أخرى ، فطاب الحال بعد ذلك .

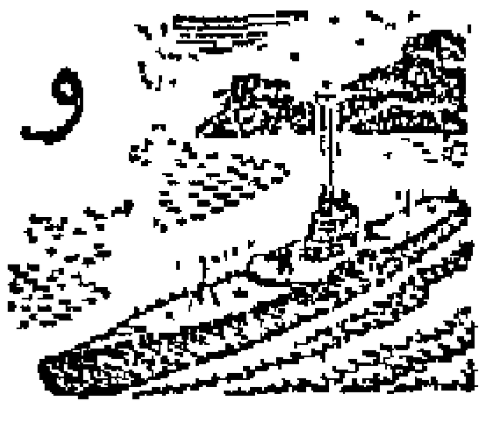

وكان لابد من معجزة أخرى لتجىء الغواصة ، فقد اختل المكثّف فى جهاز الراديو ، ثم أخذت البطارية تخلو من الكهرباء ، فوصلنا بطاريتين بشريط لنحصل على القوة اللازمة للإذاعة ، وكانت هذه آخر رسالة أعانت عليها البطاريتان ، ولكنها أثمرت ثمرتها ، فأتمت الترتيبات الخاصة بالغواصة .

وخرجت الغواصة من الماء على مقربة من الساحل حوالى الساعة السادسة ليلا ، وكان معنا ٤٠٠ فلبينى ينتظرون تفريغها ، ولم يكن هناك رصيف فاستخدمنا القوارب الصغيرة للتفريغ . وكان عندنا منها خمسون . ولكننا اضطررنا أن نربط كل قاربين معاً لنقيم عليهما سطحاً يتسع لشىء ما ، وكان الربان يحتفظ بمستوى الغواصة بإدخال مقادير من الماء فيها كلما أفرغت منها شحنة .

وسألنى : « أين اليابانيون ؟ » .

قلت : « على مسافة خمسة كيلو مترات تحتنا وسبعة كيلو مترات فوقنا » .

فقال : « يا بنى إذا كنت تريد أن تفزعنا فأنت موفق » .

وقد أرسل اليابانيون دورية لترى ما هذه الضجة كلها وما داعيها ، ولكن ١٥٠ من رجال العصابات كانوا رابضين لها فى خنادق حفروها بخناجرهم ، فلم ينجُ من اليابانيين أحد إلا من ولى هارباً .

وأرسل اليابانيون فيما بعد سفناً حربية ، ولكنه لم يكن ثم شىء تضربه ، فقد ذهبت الغواصة ، وذهبنا نحن أيضاً ، ومعنا من البنادق أكثر مما عند كانجليون من الرجال ، ومن أجهزة الراديو أكثر ممن عندنا من رجال اللاسلكى ، أجهزة جديده لامعة قوية من أسطول الولايات المتحدة ، ومهمات

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

طبية ، وصناديق طبية كبيرة . وأذكر أن الدكتور بارادو رئيس القسم الطبي عندنا فتح إحداها على الشاطىء ثم قعد يحدق فيها.

فلما صرت إلى جانبه قال : « سأحتاج أن أراجع كتبي مرة أخرى لأتذكر فيم تستعمل كل هذه » ، وكانت عيناه مغرورقتين بدموع الرضى والفرح .

وكان في الغواصة شابان أمرت أن أساعدهما على إقامة محطة أرصاد جوية ، وكانا مضطربين في البداية ، فسرني أن أمثل معهما دور المحارب القديم ، وكنت أقول لهما كلاماً كهذا : « لا شيء يدعو إلى القلق ، فليس هنـــاك ياباني على أقل من مئة ياردة من هنا ! » وكان معهما أربعة أطنان من المهمات ، فجمعت ستين من الشبان الفلبينيين لحملها .

وما كادت المحطة الجوية تقام حتى تلقيت رسالة تأمرني أن أذهب إلى سامار الجنوبية ، وأنشىء محطة لاسلكية ، وأخطط حقل ألغام في بوغاز سوريجاو بين هومونهون وجنوبي ليتي .

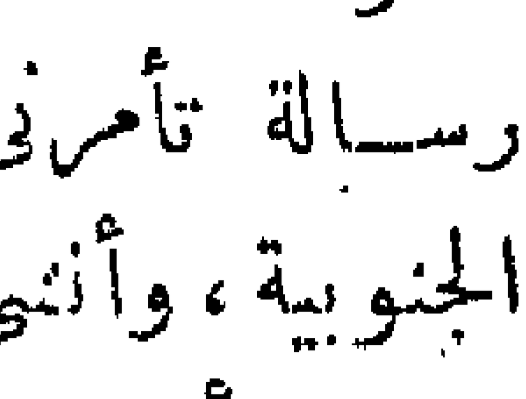

وجزيرة هومونهون أقل من ستة أميال طولا ، ولا يتجاوز عرضها في أوسع مكان ميلا ونصف ميل ، وكانت الدوريات اليابانية تختلف إليها من حين إلى حين ، والسفن اليابانية تمر بها كل يوم ، وكانت في جزيرة سولوان ، على بعد أربعة أميال ، حامية يابانية من مشاة الأسطول ، ولا مكان للاختباء في هومونهون إذا جد العدو في البحث . ولم يكن معي غير ستة من الجنود ، فإذا جاء اليابانيون لم يبق لنا من سبيل سوى الجري ، وفي هومونهون تجري ما تجري فلا تنتهي إلا إلى ماء .

واجتمع الأهالي لمشاهدتنا ونحن ننزل ، فأعطيناهم مجلات وصابوناً وشكولاته وكبريتاً كتب عليها كلها « سأعود — ماك آرثر » وكانت الصور المنشورة في المجلات ممارسم في سنة ١٩٤٤ ، فهي تثبت للأهالي أننا على اتصال بماك آرثر ، واستولت على قلوبهم صور السفن اليابانيـــة المغرقة ، وعلى عقـــولهم الخرائط التي تبين ما فعله نيمتز وماك آرثر إلى الآن .

وكان معي للأهالي ذخيرة من الأسبرين والكينين والأتبرين — فقد كانت الملاريا متفشية في الجزيرة — وأخبرتهم أن ماك آرثر أرسل هـــذا إليهم ليثبت لهم كيف أنه دائم التفكير في أهالي الفلبين .

ثم ألقيت فيهم خطبة مدارها أن ماك آرثر ليس ببعيد . وكنت أعرف إحساس الأهالي ، ففريق منهم يطلب الحرية بأي ثمن ، فالكلام

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

على ماك آرثر يشعل النار فى قلوبهم . وفريق آخر كبير يبغى السلام بأى ثمن ، فالكلام على ماك آرثر يغريهم بأن يتبعونا وأن يدركوا أن هذا هو ثمن السلام .

وأبى جهاز الراديو الكبير الجديد أن يعمل ، فعالجناه أربعة أيام ، وركبناه ، ونقلناه من موضع إلى موضع . ثم تنبهت إلى أن أشجار هومونهون هامدة قميئة ، وأن التربة حمراء ، فالجزيرة ليست إلا كتلة من خام الحديد . وكان عندنا جهاز صغير أقمناه فى زورق وربطنا سلك الهواء بعود الشراع ، وبعدنا عن الشاطىء مقدار عشرين قدماً ، وجعلنا طرفه الآخر فى جوف الماء ، فصلح الأمر .

ولم نقض وقتاً طويلا فى تخطيط المسالك بين حقول الألغام فى البوغاز ، فقد كانت السفن اليابانية من كل حجم كثيرة المرور وكان معى منبه ، وبوصلة صغيرة . فأذكر لمساعدى البيانات الخاصة بالمسافة والاتجاه والمسلك والسرعة فيدونها فى كل دقيقة حتى تختفى السفينة عن النظر .

وكنت أجلس فى بيت على الشاطىء تماماً ، وعلى بعد قليل من النافذة والمنظار على عينى ، وكانت السفن تدنو جداً من الشاطىء حتى كنت أستطيع أحياناً أن أقرأ ما تطالعنى به وجوه اليابانيين ، وأن أدرك ما يحس به المرء وهو على هذه السفن .

ثم حدث ذات صباح ، ومساعدى يشتغل بالراديو فى القارب ، أن سمعت أزيزاً فوقى وإذا بطائرة من طراز زيرو فوقنا مباشرة ، وكانت منخفضة فرأيت اليابانيين اللذين كانا فيها ، وكان أحدهما ينظر إلى الزورق بمنظار ، ولم تعد الطائرة ، ولكن بعد ظهر ذلك اليوم أقبل أحد زوارق الحراسة يسير بجوار الشاطىء ، وكنت قد أخرجت كل مهماتى من البيت وخبأتها ، وأمرت رجالى فتواروا متباعدين فى الحشائش العالية القريبة من الساحل ، ولم تكن ثم فائدة من الجرى ، وكنا على كل حال نستطيع أن نقتل بعض اليابانيين إذا نزلوا إلى البر ، ولكن الزورق اكتفى بالمرور واكتفى رجاله بالنظر بالمناظير ثم انصرفوا . وأكبر ظنى أن الطائرة لم تستطع أن تعين لهم مكاننا بدقة .

وبعد أن تم تخطيط المسالك بدقة فى حقول الألغام ، وأرسل الرسم إلى مقر قيادة ماك آرثر ، قسمت رجالى فريقين ورحلت بأحدهما إلى سامار ، وقدرت أن يكون الذين تركتهم فى هومونهون فى أمان ، ما دام ليس معهم رجل أبيض ، فإذا جاء اليابانيون ، فما عليهم إلا أن يطرحوا بنادقهم فلا يستطيع أحد أن يفرق بينهم وبين بقية الأهالى .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وفي ١٢ من سبتمبر أقبلت طائرات الأميرال هالسي، وكنت قد أنشأت محطتي اللاسلكية في جنوبي سامار فاختلت ، فأصلحناها ، فاختل المولد الكهربائي فأصلحنا المولد فاحترق ، فسرقنا بعض المولدات من سيارات مكتب الحامية البوليسية التي يسيطر عليها اليابانيون ، ثم احتجنا أن نعود فنسرق أحزمة المراوح ، وقد عانينا مشقة كبيرة في الوصول إلى مكان السيارة الأولى ، فإذا بها ليس فيها حزام مروحة ، فاضطررنا إلى المخاطرة بالذهاب إلى مكان السيارة الثانية .

ثم أقبلت الطائرات . وياله من يوم لم يسبق له مثيل في أي مكان ! وكنت قد نهضت لساعتي من الفراش ، وإذا بضجيج يملأ السموات ، فخطر لي أن العصابات لابد أن يكون شأنها قد عظم جداً ، إذا كان اليابانيون يرسلون عليها كل هذه الطائرات ، وأقبل الرجال يعدون .

وصاحوا : « الطائرات ياسيدي ! طائرات ، طائرات ، طائرات ، طائرات كثيرة ، كثيرة ، يا سيدي ! »

وكنا نرسل الطائرات إلى ماك آرثر عن الطائرات ، فأردت أن أعدها وأعين طريقها . وانقضت برهة وأنا لا أستطيع أن أرى هذا المنظر حق رؤيته ، ثم أدركت أنها طائرات أمريكية من طراز لم أره من قبل ، وكان آخر ما رأيت من الطائرات الأمريكية يرجع إلى نحو ثلاث سنوات خلت ، ولكن هذه شارة النجم — الشارة القديمة التي لا يمكن أن يرتقي إليها الشك .

وصاح الرجال : « طائرات أمريكية ؟ »

فقلت : « طبعاً ! تراكم تظنون أن عند اليابانيين كل هذا العدد من الطائرات ، وما من واحدة منها إلا وهي جديدة جداً ؟ »

وحاولت أن أبدو رصيناً هادئاً ، ولكن يا لله ! لقد تعذر علي أن ألزم نفسي الهدوء ، وإذا أنا أهتف هتافاً كاد يخلع عنقي .

وظلت هذه الطائرات تجيء كل ساعة ، وفي الموعد بدقة ، طول النهار ، ثلاثة أيام على التوالي فهتفنا حتى تمزقت ضلوعنا وثيابنا ، وصفقنا حتى ورمت أكفنا ، ونططنا كنطاطيد الأطفال .

وكانت الغارة على مانيلا ، ولم نشهد إلا مثالا واحداً لضربها ، وكان هناك نحو ٣٦٠ يابانياً على سفينة شراعية جاءوا لنجدة الحامية في جويوان ، فخرجت ثلاث طائرات من السرب لترى ما هناك ، ولكن طائرة واحدة هي التي ألقت قنابلها ، فأصابت هدفها ، فوالله لو أنه أخطأ الهدف لاحتجت إلى بيان طويل وتعليل شاق ! ولكنه

أصاب فكان كل ماقلته للفلبينيين: « مالكم خرجتم عن طوركم ؟ إن الطائرات الأمريكية لا تخطىء الهدف — لا تخطئه أبداً » .

لقد انتظرت مجىء ماك آرثر مدة عمر كامل على ما كان يخيل إلى ، منذ خرج به زورق طربيد من كوريجيدور . وقد عملت لعودته ، وكابدت ما كابدت فى سبيلها أيضاً ، وكانت تلك اللفافات الصغيرة المكتوب عليها « سأعود — ماك آرثر » على الصابون والشكولاته كأنها شريط من النار يمر برأسى وأنا نائم ، وكنت أحلم أن تكون العودة على هذا النحو : يقبل جنود ماك آرثر هاجمين على الشاطىء ، وننحدر نحن هاجمين على الشاطىء ونطعن اليابانيين من الخلف ، ونلتقى بالقادمين على جثث اليابانيين ، ونتصافح . ثم أستيقظ متثائباً ، وما زايلنى إحساسى باليد الأمريكية التى صافحتها فى المنام .

على أن الذى حدث جاء على غير ذلك الوجه.

فقد سمعنا ذات صباح انفجارات كأنها الرعد البعيد ، وكان هذا هو الأسطول الأمريكى ، وكان ماك آرثر ينزل فى جزيرة ليتى على مسافة أربعين ميلا منا ، فلما وصل النبأ إلى أقرب بلدة رفعت العصابات العلم الأمريكى على دار المدرسة ، ولما جئنا وحيينا العلم هتفت المدينة .

وسألت : « لماذا لا ترفعون علم الفلبين أيضاً ؟ » .

« كلا ياسيدى ، إن ماك آرثر آت ! وهذا للترحيب به فقط ياسيدى » .

فقلت: «إن الأمريكيين يسرهم أن يروا علم الفلبين أيضا » .

فضج الجمع بالهتاف وارتفع العلم الفلبينى إلى جانب العلم الأمريكى وأمسك رجل بذراعى وقال : «من فضلك ياسيدى» فقد ادخر شيئا ثلاث سنوات ليوم التحرير ، فهل أشاركه فيه ؟ وإذا بهذا الشىء ثلاث زجاجات من شراب الكوكا كولا ، معفرة كأنها النبيذ المعتق . ولم تكن مثلوجة ، ولكن طعمها أذكرنى بلادى ، ونبهنى إلى روح عرفان الجميل فى نفوس أهالى الفلبين .

ثم استولينا على زورق خرجنا به لنستقبل الأسطول ، وكانت الطائرات تمر فوق رءوسنا كل ثلاث دقائق فى أسراب من ثلاث طائرات أو تسع ، وقد يجربون مدافعهم وهم فوقنا ، ولم تكن معى علم أمريكى ألوح به ، ولكنى لوحت بكل شىء معى ؛ فقد أردت أن يعرفوا أن الزورق ليس يابانى ، وإنما هو للضابط رتشرد سن من أسطول الولايات المتحدة، وأنى أقود القوة التى مهمتها التمهيد لساعة الغزو تأييداً لماك آرثر.

وظللنا نسير بعد الظهر كله ، فلما كان

الغسق سكنت الريح ، فلم يبق لنا إلا أن نجلس حيث نحن ، حتى أقبلت فجأة سفينة كبيرة تنساب إلى جانبنا ، فأشارت إلى أن أستعرف إليها ، فكدت أموت من الجزع لأنى لم أدر كيف أجيب .

وأجبتها بنور البطارية، وبشفرة مورس: « أنا ضابط أمريكى فى طريقى إلى البيت ، الماجور رتشردسون » .

فدنت المدمرة ، ودعيت بمكبر الصوت أن أدنو بالزورق من الجانب .

فجدفنا كالمجانين ، وشددنا ظهورنا ، وقوينا قلوبنا ، وكان القمر يريق ضوءه على المدمرة ، فرأيت كل مدفع ، بما فى ذلك البطارية الرئيسة ، مسدداً إلينا . فلما صرنا على مسافة ثلاثين قدما ، أمرونا أن نبقى حيث نحن، ووقف البحارة صفًّا على الحاجز يطلون علينا .

وسأل سائل له صوت ضابط : « من أنت ؟ » .

« أنا الماجور رتشردسون ، وأنا من من رجال الأسطول أيضا » .

فسمعت بعضهم يقول : « هذا الرجل مخبول » .

وأخيراً أمر الضابط أن أصعد ، وألقى نور المصباح الكهربائى على ، وكانت على رأسى خوذة الشمس ، وفى قدمى حذاء الأدغال ، وكنت مرتديا سراويل قصيرة وقميصا قصير الكمين ، ومسدسى فى حزامى وبندقية تومي على كتفى .

فدلوا سلما من الحبال لى وللثلاثة الذين معى ، فلما صعدت إلى السطح أمسك بى بحار ضخم ، على حين نزع غيره سلاحى . وكنت واقفاً أبتسم ، فقد طاب لى الموقف ، وأريتهم خاتم الأسطول وشاراتى الخاصة من كوريجيدور ، ولم أستطع أن أقول شيئا من كثرة الابتسام، فاكتفيت بأن أمد يدى بهذه الأشياء .

وكان الذين معى يلبسون سراويلات قصاراً قذرة مهلهلة وليس فى أقدامهم نعال فصاح بحار : « أهذا هو الجيش ؟ أين ثيابهم ؟ » .

فرفع تيودورو إصبعه الذى يحرك به زناد البندقية وقال : « هذا يا سيدى كل ثيابى » .

فمضوا بى إلى غرفة الطعام ليقدموا لى الألوان الأمريكية الشهية ، وكنت أتلهف عليها منذ ثلاث سنوات ، ولكنى لم أستطع أن أطعم شيئا، فقد كانت أطيب من أن توافق ذوقى ، بعد أن اعتدت الأكل من الشجر كل هذا الزمن .

واغتسلت ورقدت على سرير حقيقى له زنبرك ، وأغطية بيض ووسادة ، غير أنى

لم أنم فقد كان لنا حدا ، وأخيراً نمت على السجادة على الأرض .

ولما استيقظت فى الصباح وصعدت رأيت ثلاثة من الخدم الفلبينيين ، وكانوا فتيانى! فى ثياب الأسطول الأمريكى — قبعات وقمصان وسراويلات وأحذية سود وغير ذلك . وتحت إبط كل منهم نحو ست علب من السجاير والصابون وصابون الحلاقة والمواسى والشكولاتة ، فقد أعطاهم البحارة كل شىء إلا هيكل السفينة !

وبعد عصر ذلك اليوم أمرت أن أذهب إلى الطراد « ناشفيل » فأخذ بعض الضباط يحادثوننى لتزجية الوقت على ما خيل إلى ، وأنا أتساءل : لماذا بعثوا بى إلى هنا ؟

وقال مراسله : « سيقابلك الجنرال الآن ياسيدى » .

فلم أفهم هذا حق الفهم ، وتبعت المراسل إلى غرفة فإذا الجنرال ماك آرثر جالس فيها ! فذهلت . ووقف الجنرال أمام المكتب ومد يده ، وبلغ من دهشتى أنى لم أمد يدى فاضطر أن يتناولها هو من جانبي .

ودام حديثنا نحو عشر دقائق ، ولست أتذكر مادار فيه ، وكان أكثره أسئلة من الجنرال ماك آرثر . ويا للجحيم ! أتراك تظن أنك تستطيع أن تجلس وتروح تثرثر مع جنرال؟ وقد أدهشنى أن أعرف أن ماك آرثر لم يكتف بأن يقرأ كل رسالة بعثنا بها ، بل كان على ما بدا لى قادراً أيضاً على تذكر تفاصيل كل منها . غير أنى أذكر الشعور بالألم الذى كان يخالجنى كلما نسيت أن أقول : « سيدى » وكان الألم يتكرر كثيراً ، لأنى لم أقل « ياسيدى » لأحد ، كل هذا الزمن ولهذا كنت أنسى .

وأحسب أن القصة تنتهى هنا . وقد عملت مع الفيلق الجوى التابع للجيش فترة للمساعدة على تعيين الأهداف اليابانية ، والتقيت بزملائى رجال العصابات فى تكلوبان أنا والكولونيل كانجليون ، وجو ريفاريال فتعانقنا حتى كادت تنشق صدورنا ، ثم تلقيت أمراً بالعودة إلى الوطن لأستريح ، ثم يعين لى بعد ذلك عمل .

ترجو إدارة المختار حضرات القراء ، أن يذكروا
« المختار » حين يراسلون أصحاب الإعلانات

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الطريق إلى الرق

ملخص لكتاب

فريدريخ ا. هايك

كتب هنري هازليت في جريدة نيويورك تيمس يقول : « إن كتاب فردريخ ا . هايك « الطريق إلى الرق » من أهم الكتب في جيلنا ، وهو يبسط فيه لزماننا النزاع بين الحرية والسلطة ، وفيه دعوة قوية إلى جميع ذوي النيات الحسنة من الاشتراكيين وأصحاب مشروعات الإصلاح ، وإلى جميع الديمقراطيين المخلصين وأحرار القلوب ، أن يقفوا ، وينظروا ، ويسمعوا » .

والمؤلف اقتصادي دولي الشهرة ، وهو نمسوي المولد ، وكان مديراً للمعهد النمسوي للأبحاث الاقتصادية ، ومحاضراً في الاقتصاد بجامعة فيينا في السنوات التي ظهرت فيها الفاشية في أوربا الوسطى . وقد عاش في انجلترا منذ سنة ١٩٣١ حيث عين أستاذاً لعلم الاقتصاد بجامعة لندن ، وقد اكتسب الجنسية البريطانية .

وفي هذا الكتاب يرسل الأستاذ هايك صيحة تحذير وإنذار قائمة على التفكير القوي والمنطق الصارم ، إلى الأمريكيين والبريطانيين الذين يتطلعون إلى الحكومة لإيجاد مخرج من مصاعبنا الاقتصادية جميعها . وهو يبين أن الفاشية وما يدعوه الألمان بحق الاشتراكية الوطنية هي النتائج المحتومة لاطراد الزيادة في رقابة الدولة وسلطة الدولة و « التوجيه » الوطني والاشتراكية .

وقد كتب جون تشمبرلن محرر باب الكتب في مجلة هاربر في تقدمته لكتاب « الطريق إلى الرق » يقول : « هذا الكتاب صرخة تحذير في وقت تردد . وهو يهيب بنا أن نقف ، وننظر ، ونسمع . ومنطقه لا يدفع ، وينبغي أن يظفر بالإصغاء إليه في أوسع نطاق ممكن » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

قضى المؤلف نحو نصف حياته ، بعد أن بلغ مبالغ الرجال فى وطنه النمسا، على اتصال وثيق بالفكر الألمانى ، والنصف الآخر فى الولايات المتحدة وإنجلترا . وقد ازداد اقتناعاً فى الشطر الأخير بأن بعض العوامل التى عصفت بالحرية فى ألمانيا تعمل أيضاً هنا فى الولايات المتحدة وانجلترا .

إن مدى جسامة الفظائع التى ارتكبها الاشتراكيون الوطنيون قد قوت الثقة بأن النظام الجامع لا يمكن أن ينشأ هنا . ولكن علينا أن نتذكر أنه قبل خمسة عشر عاماً كان إمكان حدوث شىء من هـذا فى ألمانيا خليقاً أن يبدو خياليا ومستبعداً لا لتسعة أعشار الألمانيين أنفسهم فحسب ، بل لأشد المراقبين الأجانب عداء .

وهنـاك وجوه كثيرة كانت يومئذ تعد « ألمانية الصبغة » وهى الآن مألوفة فى إنجلترا وأمريكا ، وأعراض عديدة تشير إلى تطور آخر فى الاتجاه نفسه : ازدياد الاحترام للدولة ، وروح القدرية فى تقبل « الاتجاهات التى لامفر منها » ، والحماسة « لتنظيم » كل شىء ، (ونحن نسميه الآن « التوجيه ») .

ولعل إدراك طبيعة الخطر أقل هنا — إذا كان هـذا ممكناً — مما كان فى ألمانيـا . وما زالت المأساة الكبرى غير مدركة ، وهى أن ذوى النيات الحسنة فى الأغلب والأعم ، هم الذين مهدوا السبيل بسياساتهم الاشتراكية للقوات التى تمثل كل ما يمقتون . وما أقل من يفطنون إلى أن ظهور الفاشية والنازية لم يكن رد فعل للنزعات الاشتراكية فى المدة السابقة ، بل نتيجة لازمة لهـذه النزعات . ومماله دلالة أن كثيرين من زعماء هذه الحركات ، من موسولينى فنازلا (وفى جملتهم لافال وكويسلنج) بدأوا اشتراكيين وانتهوا فاشيين أو نازيين .

وفى الديمقراطيـات القائمة فى الوقت الحاضر ، يعمل كثيرون من المخلصين فى مقت كل مظاهر النازية ، فى سبيل مثـل عليا يفضى تحقيقها إلى الاستبداد المشنوء مباشرة . ومعظم الذين تؤثر آراؤهم فى سير الأمور اشتراكيون إلى حدما ، وهم يعتقدون أن حياتنـا الاقتصادية ينبغى أن تُوَجّـه توجيهاً قائما على الوعى والإدراك ، وأنه ينبغى أن نحل « التوجيه الاقتصادى » محل نظام التنافس . ولـكن هل ثم مأساة يستطاع تخيلها أعظم من أننا فى محاولتنا صوغ مستقبلنا بإدراك ، طبقاً للمثل العليا ، ننتج فى الواقع ومن حيث لا نحتسب نقيض ما نسعى له ؟

التوجيه والسلطة

لكى يدرك الموجهون غاياتهم لابد لهم من إيجـاد سلطة — سلطة على الغير

يستعملها الغير — في نطاق وإلى مدى لم يعرفا قط من قبل ، وسيكون نجاحهم رهناً بما يفوزون به من هذه السلطة . والديمقراطية عقبة في طريق هذا الخنق للحرية ، وهو ما تتطلبه الإدارة المركزة للنشاط الاقتصادي، ومن هنا يقع التصادم بين الديمقراطية والتوجيه .

ويتوهم كثيرون من الاشتراكيين لسوء الحظ أنهم بحرمان الأفراد ما لهم من قوة في نظام فردي ، وتحويل هذه القوة إلى الجماعة ، يقضون على السلطة ، ولكن الذي يغيب عنهم هو أنهم بتركيز السلطة تركيزاً يجعل من الممكن استعمالها لخدمة منهج واحد ، لا ينقلون هذه السلطة فحسب بل يزيدونها أضعافاً مضاعفة ، لأنهم بجمعهم في أيدي هيئة مفردة ، سلطة كان كثيرون يتوزعونها ويستعملونها منفردين، قد خلقوا مقداراً من السلطة أعظم جداً من أي قدر آخر كان له من قبل وجود . وهي لفرط بعد مداها تكاد تكون من ضرب مختلف جداً.

ومن الخطأ المحض أن يقال إن السلطة العظيمة التي تستعملها هيئة مركزية للتوجيه لن تكون « أكبر من السلطة التي كانت تستعملها في جملتها مجالس الإدارات » ، فليس ثم أحد في جماعة قائمة على قاعدة التنافس يستطيع أن يزاول حتى ولو جزءاً من السلطة التي تملكها هيئة موجهة اشتراكية . واللامركزية في السلطة مؤداها خفض مقدارها ، ونظام التنافس هو الوحيد الذي يهبط بسلطة الإنسان على الإنسان إلى أدنى حد . ومن الذي يشك جاداً في أن السلطة التي تكون لمليونير على — أنا عامله — أقل جداً من السلطة التي يملكها أصغر مستبد في يده سلطان الدولة، وإلى رأيه يرجع الأمر في كيف يسمح لي أن أعيش وأحيي ؟

والعامل غير الحاذق الضئيل الأجر في هذه البلاد ، يملك بكل معنى صحيح ، من الحرية في تكييف حياته فوق ما يملك كثيرون من أصحاب الأعمال في ألمانيا ، أو مهندس أو مدير عمل أحسن منه أجراً في روسيا . فإذا أراد مثلا أن يغير عمله أو ينتقل من المكان الذي يعيش فيه ، أو إذا شاء أن يذهب إلى آراء معينة ، فإنه لا تعترضه عقبة ما . وليس على سلامته البدنية أو على حريته خطر ، وليس ثم قوة وحشية تلزمه أن يبقى في العمل والوسط الذي عينه له رئيس .

وقد نسي جيلنا أن نظام الملكية الفردية أهم ضمان للحرية ، وما تيسر لنا نحن الأفراد أن نكون أحراراً فيما نصنع بأنفسنا ، إلا لأن السيطرة على وسائل الإنتاج موزعة بين أناس كثيرين يعمل كل منهم مستقلا .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ومتى صارت جميع وسائل الإنتاج محصورة فى يد واحدة ، سواء أكانت اسميا يد الجماعة فى جملتها أم كانت يد دكتاتور ، فإن الذى بيده هذه السيطرة يكون له الأمر كله علينا . ومن الممكن أن تكون القوة الاقتصادية فى أيدى الأفراد أداة للإكراه ، ولكنها لا تبلغ أبداً أن تكون سيطرة على حياة الشخص كلها . أما متى ركزت القوة الاقتصادية وصارت أداة للسلطة السياسية ، فإنها تخلق درجة من الاتكال والتعويل لا تكاد تتميز من الرق . وقد صدق من قال إن المعارضة فى بلد تكون فيه الدولة هى وحدها التى تستخدم الناس فى الأعمال ، يكون معناها الموت البطىء جوعاً .

الخطر الماثل

إن الفردية ، على نقيض الاشتراكية وكل أشكال النظم الجامعة الأخرى ، قوامها احترام الفرد ، والاعتقاد أن من المرغوب فيه أن يكون الناس أحراراً فى إنماء مواهبهم الفردية ومسايرة ميولهم الخاصة . وقد نمت هذه الفلسفة التى بسطت لأول مرة فى عصر النهضة واستفاضت ، فصارت ما نعرفه الآن بالحضارة الغربية ، وكان الاتجاه العام للتطور الاجتماعى هو تحرير الفرد مما يقيده فى الجماعة الإقطاعية .

ولعل أعظم نتيجة أدى إليها تحرير الفرد ومواهبه هو هذا الرقى المدهش الذى أحرزه العلم . وما استطاع العلم أن يخطو هذه الخطوات العظيمة فى المئة والخمسين عاماً الأخيرة وأن يغير بها وجه العالم ، إلا بعد أن فتحت الحرية الصناعية الطريق للانتفاع الحر بالمعارف الجديدة ، وإلا بعد أن أصبح من الممكن اختبار كل شىء وتجربته ، إذا وجد من يظاهر التجريب على مسئوليته — وقد فاقت نتيجة هذا الرقى كل ما كان متوقعاً . ففى حيثما أزيلت الحواجز التى كانت تحول دون الانتفاع الحر بالذكاء الإنسانى ، صار الإنسان بسرعة قادراً على إرضاء رغباته التى لا يزال نطاقها يزداد اتساعاً ، وقد بلغ العالم درجة من الدعة المادية والأمن والاستقلال الذاتى كانت قبل مئة عام لا تكاد تبدو ممكنة .

وكان من أثر هذا النجاح أن يكسب الناس شعوراً جديداً بالسيطرة على مصايرهم ، والاعتقاد بإمكان تحسين أحوالهم إلى غير حد ، وصار ما أمكن تحقيقه يعد ملك إيمان الناس . وقد تم تملكه وانتهى الأمر ، وبدأت درجة التقدم تبدو أبطأ مما ينبغى ، وحدث فضلا عن ذلك أن المبادىء التى يسرت هذا التقدم أصبحت تعد عقبات فى سبيل تقدم أسرع ، يجب أن تنحى

بسرعة حتى ليمكن أن يقال إن النجاح الذى أصابته المبادىء الحرة انقلب علة انحطاطها.

وما كان ينبغى لعاقل أن يشك فى أن المبادىء الاقتصادية للقرن التاسع عشر لم تكن أكثر من بداية ، وأنه كانت هناك احتمالات هائلة للتقدم فى الطريق الذى سرنا فيه . ولكن المسألة ، بحسب الآراء السائدة الآن ، لم تعد : كيف نستخدم القوات الذاتية التى تعمل من تلقاء نفسها فى جماعة حرة ، أحسن استخدام ؟ فقد أخذنا فى الواقع نستغنى عن هذه القوات ونحل محلها التوجيه الجامع المنطوى على العمد .

ومما له دلالة أن هذا الانصراف عن المبادىء الحرة ، سواء أظهر فى صورة الاشتراكية المتطرفة ، أو فى صورة « تنظيم » أو توجيه قد بلغ غايته فى ألمانيا . ففى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والربع الأول من القرن العشرين ، سبقت ألمانيا العالم بمراحل فى نظرية الاشتراكية وتطبيقها ، حتى إن المباحث الروسية فى الوقت الحاضر لا تعدو فى الأكثر أن تصل ما انقطع عند الألمان ، وقد حمل الألمان على المبادىء الحرة والديمقراطية والرأسمالية والفردية قبل ظهور النازيين بزمان طويل.

كان الاشتراكيون الألمانيون والإيطاليون يذهبون إلى آراء استخدمها النازيون والفاشيون فيما بعد على نحو فعّال ، ففكرة حزب سياسى يسيطر على نشاط الفرد من المهد إلى اللحد ويزعم أنه يرشده ويهديه فى كل أمره ، كان الاشتراكيون أول من وضعها موضع التنفيذ . ولم يكن الفاشيون ، بل الاشتراكيون ، هم الذين بدأوا يجمعون الأطفال فى سن غضة ويزجون بهم فى هيئات سياسية لتوجيه تفكيرهم ، ولم يكن الفاشيون بل الاشتراكيون هم الذين فكروا قبل غيرهم فى تنظيم الألعاب مثل كرة القدم والرحلات على الأقدام ، فى أندية حزبية لا يتأثر فيها أعضاؤها بآراء أخرى ، والاشتراكيون هم أول من حتم على عضو حزبهم أن يميز نفسه من غيره بأساليب التحية والخطاب ، وهم الذين نظموا « اللجان السرّية » وابتكروا الوسائل للإشراف الدائم على الحياة الخاصة ، فخلقوا النموذج الأول للحزب الجامع .

فلما جاء هتلر واستولى على السلطة فى ألمانيا كانت المبادىء الحرة قد ماتت ، وكانت الاشتراكية هى التى قتلتها .

وكثير من الذين راقبوا الانتقال من الاشتراكية إلى الفاشية عن كثب ، قد استبانوا العلاقة بين المذهبين أو النظامين ،

وقبل ظهور النازيين بزمان طويل أيضاً

وازدادت وضوحاً لهم ، ولكن كثرة الناس فى البلاد الديمقراطية لا تزال تعتقد أن من الممكن الجمع بين الاشتراكية والحرية ، ولا يدركون أن الاشتراكية الديمقراطية التى كانت الغاية المثالية للأجيال القليلة الأخيرة ، لا سبيل إليها ، وأن السعى لها ينتج شيئاً مختلفاً أتم الاختلاف — هدم الحرية نفسها . وقد قيل بحق : « إن الذى لم يزل يجعل من الدولة جحيما على الأرض هو أن الإنسان سعى ليجعل منها جنة له » .

ومما يقلق أن نرى فى إنجلترا والولايات المتحدة اليوم نفس تجمع القوى ، ونفس الاحتقار تقريبا لكل ما هو حر بالمعنى القديم . وقد كانت عبارة « الاشتراكية المحافظة » هى الصيحة التى اتخذها كثير من الكتاب لإعداد الجو الذى نجحت فيه الاشتراكية الوطنية . « والاشتراكية المحافظة » هى النزعة السائدة بيننا الآن .

الطريقة الكثرة للتوجيه

ويرجع شيوع فكرة التوجيه على الأكثر إلى أن كل امرىء يود بطبيعة الحال أن تعالج مسائلنا المشتركة بأكثر ما يمكن من بعد النظر . وليس موضوع الخلاف بين المحدثين من الدعاة إلى التوجيه ، وبين الأحرار ، هل ينبغى أن نحرص على التفكير السديد المنظم عند توجيه أمورنا ، وإنما الخلاف على خير الطرق للقيام بذلك . والمسألة هى : هل نوجد أحوالا يستطيع الأفراد فى ظلها بعلمهم وابتكارهم أن يتولوا هم التوجيه بأعظم نجاح ، أو هل توجه وننظم كل وجوه النشاط الاقتصادى إلى أقصى حد ؟ أى أن « نوجه عمداً موارد الجماعة بحيث تطابق الآراء الخاصة للموجهين فى مَن من الناس يكون له ماذا من الأمر » .

والمهم أن لا نخلط الاعتراض على الضرب الأخير من التوجيه، بموقف ترك الأمور تجرى فى مجاريها ، فإن الأحرار لا يذهبون إلى إبقاء الأمور على ما هى عليه ، وإنما يؤثرون أحسن استخدام ممكن لعوامل المنافسة كوسيلة لتنسيق الجهود الإنسانية . وهذا المذهب قائم على الاقتناع بأنه فى حيث يستطاع خلق المنافسة الفعالة ، تكون هذه الوسيلة لتوجيه الجهود الفردية خيراً من غيرها . ولكى تؤتى المنافسة ثماراً حميدة ينبغى سن تشريع دقيق بعناية تامة ، وأنه لا الأحكام القانونية الماضية ولا الخاصة تخلو من مواطن نقص خطيرة .

على أن المبادىء الحرة تعارض إحلال وسائل أدنى وأحط لتوجيه النشاط الاقتصادى محل المنافسة ، وتعد المنافسة أرفع ، لا لأنها

فى أكثر الأحوال أفعل وسيلة معروفة فحسب ، بل لأنها كذلك الوسيلة الوحيدة التى لا تتطلب التدخل الإجبارى أو العرفى من جانب السلطة . وهى تستغنى عن الحاجة إلى « السيطرة الاجتماعية المنطوية على العمد » وتتيح للأفراد فرصة للبت فى هل ما يرجى من عمل معين فيه تعويض كاف ومكافأة مجزئة للمتاعب والمصاعب المرتبطة بهذا العمل ؟

ولا ينفى الاستخدام الناجح المنافسة بعض ضروب التدخل الحكومى . مثال ذلك أن تحديد ساعات العمل ، وتحتيم بعض التدابير الصحية ، وتهيئة نظام واسع النطاق للخدمات الاجتماعية — كل هذا يأتلف تمام الائتلاف مع الاحتفاظ بالمنافسة . وثم أيضا ميادين معينة لا يكون فيها نظام المنافسة عمليا . مثال ذلك أن الآثار السيئة لقطع الغابات أو لدخان المصانع ، لا يمكن أن تكون مقصورة على صاحب هذه أو تلك . ولكن كوننا مضطرين إلى الالتجاء إلى التنظيم المباشر حيث لا يتيسر إيجاد الأحوال الصالحة للمنافسة ، لا ينهض دليلا على أنه ينبغى قمع المنافسة فى حيث يمكن أن تعمل وتنفع . ولا شك أن إيجاد أحوال تكون فيها المنافسة أفعل ما يمكن ، ومنع الغش والتدليس ، والقضاء على الاحتكار — هذه المهمات تهيئ مجالا رحيبا لا جدال فيه لنشاط الدولة .

وليس معنى هذا أن من الممكن إيجاد « وسيلة وسطى » بين المنافسة والإدارة المركزية ، وإن كان هذا يبدو لأول وهلة أولى وأرشد ، أو أخلق بأن تتقبله عقول العقلاء ، فإن العقل بمجرده يضل فى مثل هذا المجال ، لأن المنافسة وإن كانت تتقبل مقداراً من التنظيم يختلط بها ، لا يمكن أن يجمع بينها وبين التوجيه إلى أى مدى نشاء بدون أن تفقد قيمتها كمرشد فعال للإنتاج . والمنافسة والإدارة المركزية تصبحان أداتين ضعيفتين غير مجديتين إذا كانتا غير تامتين ، والخلط بينهما معناه سلب كل منهما القدرة على العمل .

إن التوجيه والمنافسة لا يمكن أن يجتمعا إلا إذا كان التوجيه للمنافسة لا ضدها ، فالتوجيه الذى نوجه إليه كل نقدنا هو التوجيه ضد المنافسة .

النظام المثالى

ولا شك فى أن معظم الذين يطالبون فى البلاد الديمقراطية بإدارة مركزية لجميع وجوه النشاط الاقتصادى لا يزالون يعتقدون أن الاشتراكية والحرية والفردية يمكن أن يجتمعا ، غير أن كثيرين من المفكرين قد

فطنوا من أول الأمر إلى أن الاشتراكية أعظم خطر يهدد الحرية .

وقلما يتذكر الناس الآن أن الاشتراكية فى بداياتها كانت مستبدة صريحة، فقد بدأت جهرة كرد فعل للمبادئ الحرة التى قامت عليها الثورة الفرنسية . وكان الكتاب الفرنسيون الذين وضعوا أساسها لا يشكون فى أن آراءهم لا يستطاع وضعها موضع التنفيذ إلا على يد حكومة دكتاتورية قوية . وقد تكهن أول المنظمين المحدثين بأن الذين لا ينزلون على حكم هيئات التوجيه المقترحة « سيعاملون كالماشية » .

وما من أحد كان أصح إدراكا من المفكر السياسى العظيم دى توكفيل لما بين الديمقراطية والاشتراكية من تعارض حاسم قال : « الديمقراطية توسع نطاق الحرية الفردية » ، وقال فى سنة ١٨٤٨ : « إن الديمقراطية تجعل لكل فرد كل قيمة ممكنة أما الاشتراكية فلا تجعل الفرد إلا مجرد أداة ، ومجرد رقم . وليس بين الديمقراطية والاشتراكية شىء مشترك سوى كلمة واحدة: المساواة. ولكن لاحظ الفرق : فالديمقراطية تنشد المساواة فى الحرية ، أما الاشتراكية فتنشد المساواة فى الكبح والاستعباد » .

ولكى يسكن الاشتراكيون هذه الشكوك ، ويشدوا إلى مركبة الاشتراكية أقوى البواعث السياسية ـ الرغبة فى الحرية ـ أخذوا يزدادون استخداماً للوعد « بحرية جديدة » ، فقالوا إن الاشتراكية ستجىء « بالحرية الاقتصادية » التى لا تكون الحرية السياسية بدونها ذات قيمة .

ولكى يجعلوا هذه الحجة مقبولة حوّلوا معنى كلمة « الحرية » تحويلاً ينطوى على الدهاء . وكانت الكلمة فيما مضى معناها التحرر من الإكراه ، ومن السلطة العرفية التى يستعملها الغير ، فالآن صار معناها التحرر من الضرورة، ومن إكراه الظروف التى تضيق لا محالة نطاق الاختيار لنا جميعاً. وبديهى أن الحرية بهذا المعنى ليست إلا لفظاً آخر للسلطة أو الغنى ، فالمطالبة بهذه الحرية الجديدة ليست إلا صورة أخرى للمطالبة القديمة بإعادة توزيع الثروة .

وقد أخذ معظم الباحثين يتخلون عن الزعم القائل بأن الاقتصاد المهيأ المخطط خليق أن يكون أعظم إنتاجاً من نظام التنافس ، غير أن الأمل الكاذب يدفعنا كما يدفعنا أى شىء غيره فى الطريق إلى التوجيه.

ومع أن الاشتراكيين الحديثين مخلصون فيما يعدون من حرية أعظم، إلا أن ذوى النظر والبصر فى السنوات الأخيرة قد فطنوا

واحداً بعد واحد ، إلى النتائج غير المتوقعة للاشتراكية ، وإلى التشابه الغريب من عدة وجوه بين الأحوال فى ظل « الشيوعية » و « الفاشية » . وقد أعرب الكاتب بيتر دروكر عن هذا فى سنة ١٩٣٩ فقال :

« إن الانهيار التام للاعتقاد بإمكان الوصول إلى الحرية والمساواة عن طريق الماركسية قد أكره روسيا على السير فى نفس الطريق الذى سلكته ألمانيا إلى الجماعة الكلية التى لا حرية فيها ولا مساواة . وليس معنى هذا أن الشيوعية والفاشية سواء فى جوهرهما ، فإن الفاشية هى المرحلة التى بلغت بعد أن ثبت أن الشيوعية وهم وخدعة ، وقد ثبت أنها وهم فى روسيا ، كما ثبت ذلك فى ألمانيا قبل عهد هتلر .

وليس رأى الجماهير فى الحركات الشيوعية والفاشية بألمانيا قبل سنة ١٩٣٣ ، بأقل دلالة أو أضعف مغزى ، فإن السهولة النسبية التى يمكن بها تحويل شاب شيوعى إلى نازى ، أو بالعكس كانت معروفة ، وكان أعرف الناس بها الدعاة من الحزبين . وقد تصادم الشيوعيون والنازيون فيما بينهما أكثر مما تصادما بغيرهما من الأحزاب ، لسبب بسيط هو أنهما يتنافسان على طراز عقلى واحد ، واحتفظ كل منهما للآخر بكراهة المؤمن للضال ، ودلت أساليبهما على مبلغ ما بينهما من صلة وثيقة . فكلاهما يرى أن عدوه الحقيقى هو الرجل الذى لا يشاركه فى شىء ، أى الرجل من الأحرار من الطراز القديم . ولكن الشيوعى فى رأى النازى ، والنازى فى رأى الشيوعى ، والاشتراكى فى رأى الاثنين ، نصير محتمل من المعدن المنشود ، وكلاهما يعلم أنه لا سبيل إلى التوفيق بينه وبين الذين يؤمنون إيماناً صحيحاً بالحرية الفردية .

والذى يعدوننا به ، وهو الطريق إلى الحرية ، ليس فى الواقع إلا الطريق الأعظم إلى العبودية والرق . فليس من العسير أن نتبين العواقب التى لا بد منها متى أخذت الديمقراطية طريقها إلى التوجيه . وسيوصف الهدف الذى يرمى إليه التوجيه بعبارة غامضة مثل « الخير العام » . ولن يكون ثم اتفاق حقيقى على الغايات التى تنشد وسيكون تأثير موافقة الأمة على أن يكون هناك توجيه مركزى دون الاتفاق على الغايات ، شبيهاً بأن تخرج جماعة من الناس فى رحلة من غير أن يتفقوا على المكان الذى يقصدون إليه . وتكون النتيجة أن يضطروا جميعاً إلى القيام برحلة لا يريدونها على الإطلاق .

إن الجماعات الديمقراطية لا تستطيع أن تعمل كوكالات للتوجيه ، ولا تستطيع أن

تصل إلى اتفاق على كل شيء — الإدارة الجامعة لموارد الأمة — لأن عدد الطرق الممكنة للعمل لا حصر لها. وحتى لو استطاع مؤتمر يخطو خطوة خطوة، ويتوخى التوفيق في كل نقطة، أن يتفق على مشروع ما فإنه لن يرضى أحداً في النهاية على التحقيق.

ووضع خطة اقتصادية على هذا النحو أبعد في الإمكان من النجاح في وضع خطة حربية باتباع إجراءات ديمقراطية، وكما أنه عند وضع الخطط العسكرية لا مفر من وكل المهمة إلى الخبراء، كذلك في الشئون الاقتصادية. وحتى إذا استطاعت الديمقراطية باللجوء إلى ذلك، أن توفق إلى وضع الخطط لكل قطاع في ميادين النشاط الاقتصادي، فإنه سيكون عليها أن تواجه مسألة التوفيق بين هذه الخطط المنفصلة وجعلها كلا موحّداً، وستزداد الحاجة إلى إيجاد هيئة ما، أو فرد يخوّل سلطة العمل على مسئوليته. فإن الحاجة إلى دكتاتور اقتصادي مرحلة مميزة لهذه الحركة في سبيل التوجيه.

وهكذا تضطر الهيئة التشريعية إلى اختيار أشخاص يخولون سلطات مطلقة في الواقع. ويتجه نظام الحكم كله إلى ذلك النوع من الدكتاتورية الذي يثبت فيه رئيس الدولة من حين إلى حين في منصبه بالتصويت العام، ولكنه في الواقع يملك كل السلطات التي تجعله على يقين من أن التصويت سيتجه الوجهة التي يريدها.

وهذا التوجيه أو التسيير يفضي إلى الدكتاتورية، لأن الدكتاتورية أفعل أداة للإكراه، فهي لهذا جوهرية إذا أريد أن يكون التوجيه المركزي ممكناً على نطاق واسع. وليس ثم ما يسوغ الاعتقاد الشائع بأنه لما كانت السلطة ممنوحة على مقتضى الإجراءات الديمقراطية، فإنها لا يمكن أن تكون عرفية. فإن مصدر السلطة ليس هو الذي يمنعها أن تكون عرفية، إذ يجب أن تكون السلطة أيضاً مقيدة لتخلو من الصبغة الدكتاتورية. وأخلق بدكتاتورية حقيقية للطبقات العاملة (البروليتاريات) حتى ولو كانت ديمقراطية شكلا، أن تعصف بالحرية الشخصية عصفاً تاما، كأية حكومة أوتقراطية، إذا هي تولت إدارة النظام الاقتصادي على نحو مركزي.

إن الحرية الفردية لا يمكن أن توائم سيادة غرض واحد تخضع له الجماعة كلها خضوعاً دائماً. وقد جربنا نحن هذه الحقيقة في زمن الحرب إلى حد محدود، إذ كان إخضاع كل شيء لمطالب الحرب العاجلة الملحة هو الثمن الذي نؤديه لنحتفظ بحريتنا

فى النهاية . غير أن العبارات الدائرة على الألسنة والتى مؤداها أن نصنع لأغراض السلم ما تعلمنا أن نصنع لأغراض الحرب — هذه العبارات مضللة جداً ، فإن من الحكمة أن نضحى بالحرية إلى حين لنجعلها فى المستقبل أرسخ قدماً . أما التضحية بالحرية تضحية دائمة لمصلحة التوجيه الاقتصادى فأمر مختلف جدا .

والذين راقبوا التحول من الاشتراكية إلى الفاشية عن كثب ، يرون العلاقة بين النظامين بديهية ، فإن تحقيق البرنامج الاشتراكى معناه القضاء على الحرية ، أما الاشتراكية الديمقراطية التى كانت الأجيال القليلة الأخيرة تعدها مثلا أعلى تنشده ، فلا سبيل إلى تحقيقها .

لماذا يستعلى شرار الناس

ولا شك أن نظاماً « فاشيا » إنجليزيا أو أمريكيا ، يكون مختلفاً إلى حد كبير عن النموذجين الإيطالى والألمانى . ولاريب فى أنه قد يكون لنا أن نتوقع أن نظفر بزعيم من طراز أحسن إذا تم الانتقال والتحول بغير عنف ، ولكن هذا ليس معناه أن نظامنا الفاشى سيكون فى النهاية مختلفاً جدا عن النماذج التى سبقته ، أو أن احتماله سيكون أقل عسراً . وثم أسباب قوية للاعتقاد بأن شر وجوه النظم الجامعة ظواهر ملازمة لهذه النظم تبدو عاجلا أو آجلا .

وكما أن السياسى الديمقراطى الذى يهم بتوجيه الحياة الاقتصادية للأمة لا يلبث أن يضطر إلى اختيار أحد أمرين ، إما تخويل نفسه سلطات دكتاتورية ، وإما التخلى عن مشروعاته ، كذلك الزعيم فى نظام جامع لا يلبث أن يضطر إلى أحد أمرين : إما إغفال الأخلاق العادية وإما الإخفاق . وهذا هو السبب فى أن الذين لا يبالون بما يكون منهم ، أخلق بالنجاح فى جماعة تميل إلى النظام الجامع . والذى لا يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة لا يكون قد فطن إلى سعة الهوة التى تفصل ما بين النظام الجامع والحضارة الغربية ذات الصبغة الفردية فى جوهرها .

ولا بد للزعيم فى نظام جامع أن يجمع حوله زمرة مستعدة للخضوع للنظام الذى يوكل إليها أن تفرضه بالقوة على بقية الأمة ، فأما أن الاشتراكية إنما يستطاع وضعها موضع التنفيذ بوسائل لا يقرها معظم الاشتراكيين ، فهذا درس تعلمه كثير من المصلحين الاشتراكيين فى الماضى . فقد كانت الأحزاب الاشتراكية القديمة مكبلة بمثلها العليا الديمقراطية ، ولم تكن فيها تلك

القسوة التى يتطلبها أداء واجبها المختار . ومما له دلالة أنه فى كل من ألمانيا وإيطاليا ، كان نجاح الفاشية مسبوقاً برفض الأحزاب الاشتراكية أن تحمل أعباء الحكم ومسئولياته. وكانت هذه الأحزاب غير مستعدة قلباً وقالباً أن تستخدم الأساليب والوسائل التى دلت عليها ، وكانت لا تزال ترجو أن تقع المعجزة ، وأن توافق أغلبية على خطة معينة لتنظيم الجماعة كلها ، على أن غيرها كانوا قد حذقوا الدرس وأدركوا أنه فى جماعة منظمة مسيرة ، لا يبقى محل للسؤال عما عسى أن توافق عليه الأغلبية ، بل يكون السؤال عن الجماعة الكبرى الذى يتفق أعضاؤها اتفاقاً يكفى لجعل الإدارة الموحدة لكل الشئون ممكنة .

وثم ثلاثة أسباب رئيسية تجعل الأرجح فى الاحتمال أن يتألف مثل هذا الفريق الكبير ، المتشابه الآراء إلى حد كبير ، من شر العناصر فى أى جماعة ، لا من خيرها .

الأول : أنه كلما كانت تربية الأفراد أسمى وذكاؤهم أحد ، كانت مسافة الخلف بين آرائهم وأذواقهم أوسع . وإذا أردنا أن نجد درجة عظيمة من التطابق فى النظر ، فإن علينا أن نهبط إلى ذلك الدرك العقلى والأخلاقى الذى تسود فيه الغرائز البدائية . وليس معنى هذا أن المقاييس الأخلاقية منحطة عند سواد الأمة ، وإنما معناه أن الفريق الأكبر من الأمة الذى تتشابه عنده قيم الأشياء تشابهاً شديداً ، هو الذى تكون مقاييسه منحطة .

الثانى : أنه لما كان هذا الفريق ليس من الكثرة بحيث يجعل لمساعى الزعيم وزناً كافياً ، فإنه مضطر أن يزيد عدده بأن يغرى عدداً آخر أكبر بالتحول إلى هذا المذهب البسيط نفسه . ولا بد له من أن يفوز بتأييد كل لين العريكة سهل الانقياد والانخداع ، ممن ليست لهم عقائد قوية أو آراء خاصة ، وإنما هم مستعدون أن يتقبلوا ما يعرض عليهم من القيم محضراً مجهزاً إذا قرعت به أسماعهم قرعاً متكرراً كافياً . وهؤلاء الذين يسهل التأثير فى آرائهم الفجة الغامضة ، واستثارة عواطفهم وإحساساتهم هم الذين تتضخم بهم صفوف الحزب الجامع .

والثالث : أن الزعيم إذا أراد أن يوثق ما بين جماعة مؤتلفة من الأنصار ، لا معدى له عن أن يهيب بضعف إنسانى مشترك . ويبدو أن اتفاق الناس على نهج سلبي — مثل كراهة عدو ، أو حسد من هم أحسن حالا — أيسر من الاتفاق على مهمة إيجابية .

ومن أجل هذا كان الذين ينشدون ولاء الجماهير الغفيرة لا يزالون يستعملون لفظى « نحن » و « هم » على سبيل المقابلة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

والمعارضة . وقد يكون العدو داخليا « كاليهود » فى ألمانيا ، و « القولاق » فى روسيا ، أو يكون خارجيا . ومهما يكن من ذاك ، فإن هذه الوسيلة لها مزية كبيرة هى أنها تؤتى الزعيم حظاً من حرية العمل أعظم مما يؤتيه إياه أى برنامج إيجابى .

والارتقاء فى الجماعة الكلية ، أو الحزب الجامع ، رهن على الأكثر بالاستعداد للقيام بأعمال منافية للخلق الكريم . فالمبدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وهو يعد فى شرعة الأخلاق الفردية نقضاً لكل فضيلة ، يصبح لا محالة القاعدة العليا فى شرعة المبادىء الجامعة ، ولا يكاد يوجد شىء لا يكون الرجل الجماعى غير مستعد أن يفعله إذا كان فيه « خير المجموع » ، لأن هذا عنده هو المقياس الوحيد لما ينبغى أن يفعل .

ومتى سلمت أن الفرد ليس إلا أداة لخدمة غايات الكيان الأسمى الذى يسمى الجماعة أو الأمة ، فإن معظم وجوه النظام الجامع التى نستبشعها ، تنشأ حتما . فمن وجهة النظر الجماعية ، يكون التعصب والقمع الوحشى لكل خلاف ، والغش ، والتجسس ، والإهمال التام لحياة الفرد وسعادته ، أموراً جوهرية لا مهرب منها ، والأعمال التى تستثير غضبنا وسخطنا كإعدام الرهائن ، أو قتل المرضى والشيوخ ، تعد أموراً تقضى بها الضرورة ليس إلا ، ويغدو قلع مئات الآلاف من الناس من أوطانهم وإخراجهم من ديارهم ونقلهم إلى سواها ، وسيلة سياسية يقرها كل امرىء تقريباً ، ما خلا الضحايا أنفسهم .

فإذا أراد الرجل أن يكون عونا نافعاً فى إدارة دولة جامعة فإن عليه إذن أن يكون مستعداً لانتهاك كل قاعدة أخلاقية عرفها فى حياته ، إذا بدا له أن هذا ضرورى لإدراك الغاية التى رسمت له ، وتهيأ فى ظل النظام الجامع فرص خاصة للقساة ومن لا يزعهم ضمير ، فلا الجستابو ولا إدارة معسكرات الاعتقال ، ولا غيرها هى وما يقابلها من الهيئات ، أماكن صالحة للصدور عن وحى العواطف الإنسانية . ومع ذلك فهذه المراكز هى التى تفضى إلى أسمى المناصب فى الدولة الجامعة .

وقد لاحظ اقتصادى أمريكى ملحوظ المكانة ، هو الأستاذ فرانك ه . نايت ، بحق أن أولى الأمر فى الدولة الجامعة « لا يسعهم إلا أن يأتوا هذه الأمور سواء أأرادوا ذلك أم لم يريدوه . واحتمال أن يكون ذوو السلطان أفراداً قد يكرهون أن تكون لهم السلطة وأن يستعملوها ،

كاحتمال أن يحصل رجل رقيق القلب جداً على وظيفة جلاد فى مزرعة عبيد » .

وثم نقطة أخرى ينبغى أن نسوقها : ذلك أن النظام الجامع مؤداه القضاء على الحقيقة ، فليس يكفى لكى يسير النظام الجامع بدقة وإحكام ، إكراه كل امرىء على العمل للأغراض التى اختارها الذين فى أيديهم الأمر ، بل من الجوهرى أن يُحمل الناس على الاعتقاد أن هذه الأغراض هى أغراضهم ، وهذا ما تتكفل به الدعاية والسيطرة التامة على جميع مصادر الأنباء والمعلومات .

وأفعل وسيلة لحمل الناس على التسليم بصحة المبادىء التى يخدمونها هى إقناعهم بأنها هى نفسها ما كانوا يعتنقونه دائماً ، وكل ما فى الأمر أنها لم تكن مفهومة أو مُدركة على الوجه الصحيح . وأيسر ما تتأتى به لذلك أن تستعمل الألفاظ القديمة ولكن تغير معانيها . وقل أن تكون هناك خصائص للنظم الجامعة أبعث على حيرة المراقب السطحى ، وارتباكه ، وأدل فى الوقت نفسه على الجو العقلى كله ، من هذا المسخ التام للغة .

ولم تُمن كلمة فى هذا الباب بمثل ما مُنيت به كلمة « الحرية » ، وهى كلمة يشيع استعمالها فى الدول الجامعة كما فى غيرها ، بل إنه ليكاد يمكن أن يقال إنه فى حيثما يُقضى على الحرية بالمعنى الذى نعرفه ، يتم هذا باسم نوع جديد من الحرية يوعد بها الشعب . حتى بيننا ، نجد موجهين يعدوننا « حرية جماعية » وهى عبارة مضللة كتضليل أى شىء يقوله الساسة الجماعيون . فإن « الحرية الجماعية » ليست هى حرية أعضاء الجماعة أو الأمة ، بل الحرية المطلقة للموجِّه أن يصنع بالجماعة أو الأمة ما يشاء . وهذا خلط بين الحرية والسلطة يذهب إلى أبعد حد .

وليس من الصعب حرمان السواد الأعظم التفكير المستقل ، ولكن القلة التى تحتفظ بالميل إلى النقد يجب إخراسها أيضاً . ولا بد من قمع النقد العلنى أو حتى مجرد الإعراب عن الشك ، لأن هذا من شأنه أن يضعف تأييد النظام . والأمر كما يقول سدنى وبيتريس ويب فى وصف الحالة فى كل مشروع روسى : « فى أثناء سير العمل ، يكون كل إعراب عن الشك فى أن المشروع ناجح ، عملا ينطوى على عدم الإخلاص بل على الخيانة . وذلك لما عسى أن يكون من تأثيره فى إرادة بقية العمال وجهودهم » .

وتمتد السيطرة حتى إلى الرعايا الذين لا يبدو أن لهم قيمة سياسية . فنظرية

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

النسبية مثلا ، قد عورضت لأنها « حملة سامية على أسس الفاسفة الطبيعية المسيحية والنوردكية» ولأنها « تناقض المادية المنطقية والتعاليم الماركسيّة » . فكل نشاط يجب أن يستمد مايسوغه من غرض اجتماعى مقصود ، ولا يجوز أن يكون هناك نشاط اختيارى" غير مسيّر ، لأنه قد يحدث نتائج غير منظورة ، وليس له فى الخطة المرسومة كفيل .

بل إن المبدأ يمتد حتى إلى الألعاب والملاهى ، وأنا أدع للقارىء أن يخمّن أين نوشد لاعبو الشطرنج رسميا أن « نقضى حملة ودفعة واحدة على حيدة الشطرنج . ويجب أن نستنكر استنكاراً حاسما قاعدة « الشطرنج من أجل الشطرنج » .

ولعل أدعى الحقائق إلى الجزع أن احتقار الحرية العقلية لاينشأ فقط متى توطد النظام الجامع ، بل يمكن أن يوجد فى كل مكان بين الذين اعتنقوا عقيدة جامعة . إن شر الظلم يغتفر إذا ارتكب باسم الاشتراكية ، وعدم الاحتمال للآراء المعارضة يمجّد علناً ، ومأساة العقلية الجماعية هى أنها تبدأ بأن تجعل المحل الأسمى للعقل ، وتنتهى بأن تهدمه وتقضى عليه .

وثم وجه من وجوه التغيير فى القيم الأخلاقية ، جرّه تقدم المذهب الجماعى" ، وفيه مجال خاص للتفكير . ذلك أن الفضائل التى لا يقل التقدير لها فى بريطانيا وأمريكا هى بعينها التى كان الأنجلو سكسون يباهون بها ، والتى يُعترف لهم على العموم بالتفوق فيها . وقد كانت هذه الفضائل هى الاستقلال والاعتماد على الذات ، وروح الابتكار الفردى ، والمسئولية المحلية ، والاعتماد الناجح على النشاط الاختيارى ، وعدم التدخل فى شئون الجار . والتسامح مع المخالف ، وسوء الظن بذوى القوة والسلطان .

وكل هذه التقاليد والخصائص التى صاغت الخلق القومى وطبعت الأخلاق بطابعها فى إنجلترا وأمريكا ، هى بعينها التى يدأب النظام الجامع ووسائله المركزية على القضاء عليها .

التوجيه — وحكم القانون

ليس أوضح تمييزاً لبلد حر من بلد آخر تحت حكومة استبدادية ، من توخى المبادىء العظيمة التى تسمى حكم القانون . وهذا معناه ، إذا أهملنا المصطلحات الفنية ، أن الحكومة فى كل أعمالها مقيدة بأحكام مقررة ومعلنة من قبل — أحكام تجعل فى الإمكان أن يعرف المرء معرفة تكاد تبلغ حد اليقين ، كيف تنوى الحكومة أن تستخدم سلطتها القهرية فى ظروف معينة ، و تيسّر

للفرد أن يرتب شئونه على مقتضى هذه المعرفة . ففى الحدود المعروفة لأحكام العمل يكون الفرد حرا فى السعى لغاياته الشخصية، وهو واثق أن سلطة الحكومة لن تستخدم عمداً لإحباط مساعيه .

أما التوجيه الاقتصادى الاشتراكى فيستوجب نقيض ذلك تماماً ، فإن السلطة الموجِّهة لا تستطيع أن تقيد نفسها سلفاً بأحكام عامة تمنعها من التصرف على هواها .

فإذا أرادت الحكومة أن تقرر كم خنزيراً تربى ، أو كم خط سيارات نقل يجرى ، وأى مناجم الفحم يستغل ، وبأى ثمن تباع الأحذية ، فإن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تقرر لمدد طويلة سلفاً ، إذ كانت رهناً بظروف الساعة . ومن الضرورى عند وضع هذه القرارات ، الموازنة دائماً بين مصالح أفراد مختلفين وهيئات شتى .

وينتهى الأمر بأن تتغلب آراء بعضهم فى أى المصالح أهم ، ولا مفر من أن تصبح هذه الآراء جزءاً من قانون البلاد ، ومن هنا تتجلى الحقيقة المألوفة ، وهى أنه كلما مضت الدولة فى التوجيه واسترسلت فيه زادت على الفرد مشقة توجيهه لشئونه .

والفرق بين هذين النوعين من الحكم ، مبهم ، وهو شبيه بالفرق بين وضع العلامات على الطرق للإرشاد ، وبين إكراه الناس على سلوك طرق معينة .

وفضلا عن ذلك فإن الحكومة فى ظل التوجيه المركزى لا تستطيع أن تتجنب التحيز ، ولا تعود الدولة أداة نفع مقصود بها معاونة الأفراد على إنماء شخصياتهم الفردية إلى أقصى حد ، بل تصبح منشأة تتعمد التمييز بين الحاجات الخاصة لأشخاص مختلفين ، وتسمح لواحد بأن يفعل ما يجب أن يمنع غيره من فعله . وتقرر بحكم القانون مبلغ الرغد الذى ينعم به أشخاص معينون ، وبماذا يسمح لمختلف الناس .

أما حكم القانون ، وانتفاء الامتيازات القانونية لأشخاص معينين تتخيرهم السلطة ، فإنه هو الذى يكفل تلك المساواة أمام القانون، التى هى نقيض الحكم الغاشم . ومما له دلالة أن الاشتراكيين (والنازيين) قد ظلوا دائماً يحتجون على العدالة الرسمية المجردة ، ويعترضون على القانون الذى لا يبين ما ينبغى أن ينعم به أشخاص معينون من الخفض والرغد ، ويطالبون «باشتراكية القانون» ويحملون على استقلال القضاة .

وفى الجماعة المسيرة يفيض القانون الصبغة الشرعية على ما يظل مع ذلك عملا عرفياً إذا اعتبرنا أغراضه وغاياته . فإذا قال القانون إن هذه الهيئة أو السلطة لها أن

تفعل ما تشاء ، فكل ما تفعله هذه الهيئة أو السلطة يكون قانونيا ولكن أعمالها ليست خاضعة فى أى حال لحكم القانون . ومتى خولت الحكومة سلطة غير محدودة ، فإن كل حكم غاشم يمكن أن يكتسب الصبغة القانونية . وبهذه الطريقة يمكن أن تقيم الديمقراطية أشد أنواع الاستبداد التى يمكن تصورها .

إن حكم القانون إنما نشأ فى العصر الحر وهو من أعظم ثماره ، وهو الكيان الشرعى للحرية . وفى هذا يقول إمانويل كانت : « الإنسان حر ما دام لا يحتاج أن يطيع سوى القوانين » .

ألا مهرب من التوجيه ؟

مما له مغزى أن دعاة التوجيه الذين يقنعون اليوم بأن يقولوا إن التوجيه المركزى مرغوب فيه ، قليلون ، أما الأكثرون فيقررون أننا الآن مضطرون إلى ذلك ، بحكم ظروف لا سيطرة لنا عليها .

ومن الحجج التى كثيراً ما يسمعها المرء أن تعقد الحضارة الحديثة يخلق مسائل جديدة لا يرجى لها علاج فعال إلا بالتوجيه المركزى . وهذه الحجة قائمة على سوء فهم تام لفعل المنافسة ، فإن تعقد الأحوال الحديثة هو بعينه الذى يجعل المنافسة الطريقة الوحيدة التى يمكن بها تنسيق الأمور .

وقد كان خليقاً أن لا تنشأ صعوبة ما ، فيما يتعلق بالسيطرة الفعالة أو التوجيه لو كانت الأحوال من البساطة بحيث يستطيع فرد واحد أو مجلس إدارة أن يحيط إحاطة وافية بجميع الحقائق ، ولكن الحقائق التى يجب إدخالها فى الحساب كثيرة ومعقدة بحيث يعجز مركز واحد عن تتبعها والإلمام بها ، وليس فى الوسع الإحاطة التامة بأحوال العرض والطلب التى لا تنفك تتغير فيما يتعلق بالسلع المختلفة ، ولا من الممكن أن يذيع أى مركز مفرد هذه الأحوال بالسرعة اللازمة .

أما فى ظل المنافسة — دون أى نظام اقتصادى آخر — فإن نظام الأسعار يسجل من تلقاء نفسه وعلى صورة آلية كل المعلومات المرومة . ففى وسع رجال الأعمال إذا جعلوا بالهم إلى حركة عدد قليل نسبيا من الأسعار — على نحو ما يراقب المهندس بعض اللوحات — أن يجعلوا نشاطهم وفق نشاط غيرهم من الناس .

وإذا قيس التوجيه المركزى إلى هذه الطريقة لحل المسألة الاقتصادية — باللامركزية مضافاً إليها التنسيق الآلى بواسطة نظام

الأسعار - فإن التوجيه يبدو غليظاً ، وبدائياً ، ومحدود النطاق ، إلى حد يجاوز التصور . وليس من المبالغة أن يقال إننا لو كنا اضطررنا أن نعتمد على التوجيه المركزى فى نمو نظامنا الصناعى لما بلغ قط هذه الدرجة من التنوع والمرونة . وقد تيسّر نشوء الحضارة الحديثة لأنها لم تخلق خلقاً ، وقد جاوز توزيع العمل كل ما كان يمكن أن يحدث بالتوجيه ، وكل نمو آخر فى الكيان الاقتصادى المعقد لا يجعل التوجيه المركزى ألزم ، بل يزيد أهمية استخدامنا لعامل المنافسة وعدم التعويل على السيطرة المفروضة .

ومما يساق أيضاً من الحجج أن التغييرات الفنية جعلت المنافسة مستحيلة فى عدد متزايد من الميادين ، وأن علينا أن نختار أحد أمرين لا ثالث لهما : السيطرة على الإنتاج بواسطة الاحتكارات الخاصة ، أو التوجيه بواسطة الحكومة . على أن الاحتكار يبدو أنه ليس نتيجة لازمة للتقدم الفنى بقدر ما هو نتيجة للسياسات التى اتبعت فى معظم البلدان .

وقد قامت اللجنة الاقتصادية القومية الموقتة بأوفى درس للموقف ، وهى على التحقيق لا تتهم بالإسراف فى تحيزها للمبادىء الحرة . وقد ختمت اللجنة تقريرها بقولها :

« إن التفوق فى الكفاية فى المؤسسات الكبيرة لم يثبت ، والمزايا التى يقال إنها تقضى على المنافسة ، قد عجزت عن التبدى فى عدة ميادين . . . ولا يمكن التسليم بأن مزية الإنتاج فى نطاق واسع لا بد أن تفضى حتما إلى إلغاء المنافسة . . . على أنه يجب أن يلاحظ أن الاحتكار كثيراً ما أمكن الوصول إليه بالتواطؤ ، وشجعته السياسات العامة . ومتى أبطلت هذه الاتفاقات المنطوية على التواطىء ، وعُكست السياسات ، فإن الأحوال اللازمة للمنافسة يمكن أن تعاد » .

وكل من لاحظ كيف أن المحتكرين الطامحين لا ينفكون ينشدون معونة الدولة لتكون سيطرتهم فعالة ، لا يبقى عنده شك فى أن هذا التطور ليس أمره محتوماً أبدا . وقد ساعدت سياسة الحماية القوية فى الولايات المتحدة على نمو الاحتكارات . وفى ألمانيا كان نمو نقابات الإنتاج يشجع عمداً وباطراد منذ سنة ١٨٧٨ ، وهناك بمساعدة الدولة أدت التجربة العظيمة الأولى « للتوجيه العلمى » و « التنظيم المتعمد للصناعة » إلى إيجاد الاحتكارات الضخمة ، فقد كان القضاء على المنافسة سياسة متعمدة فى ألمانيا اختطتها فى سبيل مثل أعلى نسميه الآن التوجيه .

والخطر أعظم من سياسة فئتين قويتين تؤيدان تنظيم الصناعة على قاعدة الاحتكار: وهما رأس المال المنظم، والعمل المنظم. وقد جاء النمو الحديث للاحتكار نتيجة للتعاون العمد بين رأس المال المنظم، والعمل المنظم، فى حيث تشاطر طوائف العمال الممتازة أرباح الاحتكار على حساب الجماعة، وخاصة على حساب الذين يستخدمون فى الصناعات التى هى أقل تنظيما. على أنه لا سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه الحركة لا معدى عنها.

إن الحركة التى تنزع إلى التوجيه نتيجة للعمل العمد، وليس ثم ضرورات خارجية تفرضها علينا.

هل يخلينا التوجيه من التبعات؟

إن معظم دعاة التوجيه، الذين درسوا بعناية الوجوه العملية لمهمتهم، لا يخالجهم شك فى أن الاقتصاد المسير يجب أن يقوم على قاعدة دكتاتورية، وأن النظام المعقد لوجوه النشاط المتداخلة يجب أن تتولى إدارته هيئات من الخبراء، وتكون السلطة العليا فى يد قائد عام لا تعوق أعماله الإجراءات الديمقراطية. والعزاء الوحيد الذى يقدمه لنا دعاة التوجيه هو أن هذه الإدارة الاستبدادية لا تسرى إلا على الشئون الاقتصادية، وهذا التطمين يصحبه فى العادة القول بأننا بالنزول عن الحرية فيما هو قليل الأهمية من وجوه حياتنا، نحصل على الحرية فى نشدان ما هو أسمى قيمة. وعلى أساس هذه الحجة نرى الذين يمقتون فكرة الدكتاتورية السياسية، كثيراً ما يصخبون مطالبين بإقامة دكتاتور فى الميدان الاقتصادى.

والحجج التى تساق فى هذا المعرض تؤثر فى خير غرائزنا، لأنه إذا كان التوجيه يحررنا حقا من المشاغل القليلة القيمة، ويسهل علينا أن نجعل حياتنا بسيطة فى أسلوبها وسامية فى التفكير، فمن ذا الذى يود أن يغض من قدر هذا المثل الأعلى؟

ولكن من سوء الحظ أن الغايات الاقتصادية البحت لا يمكن أن تكون بمعزل عن غيرها من غايات الحياة. والذى يسمى تضليلا «الباعث الاقتصادى»، لا يعنى إلا الرغبة فى الفرصة العامة. فإذا نحن سعينا للمال فإنما نسعى لأن المال يتيح لنا أوسع مجال للاختيار للاستمتاع بثمرات جهودنا — ومتى كسبنا المال فنحن احرار فى إنفاقه كما نحب.

ولما كان دخلنا المحدود من المال هو الذى يشعرنا بالقيود التى يفرضها علينا فقرنا النسبى، فإن كثيرين منا قد أصبحوا يبغضون

المال ويعدونه رمزاً لهذه القيود . على أن الواقع أن المال من أعظم أدوات الحرية التى اخترعها الإنسان . والمال فى جماعاتنا القائمة هو الذى يهىء مدى مدهشاً للاختيار للرجل الفقير — مدى أعظم مما كان مهيّأ قبل أجيال غير كثيرة للأغنياء .

وخليق بنا أن نكون أقدر على فهم قيمة الخدمة التى يؤديها المال، إذا قدرنا المعنى الحقيقى لما يقترحه كثيرون من الاشتراكيين من إحلال « الحوافز غير الاقتصادية » محل « الباعث المالى » . فلو أن كل المكافآت كانت لا تقدم فى صورة مال ، بل فى صورة إنعامات أو امتيازات أو مراكز ذات سلطة على الغير ، أو مساكن أحسن وطعام أطيب ، وفرص للسياحة أو التعليم ، فإن هذا لا يكون مؤداه إلا أن الذى يتلقى المكافأة يفقد الاختيار ، وأن الذى عين المكافأة هو صاحب الرأى لا فى قدرها فحسب ، بل فى طريقة الاستمتاع بها أيضاً .

والحرية الاقتصادية ، كما يسميها الذين يعدوننا بها ، معناها على وجه الدقة إعفاؤنا من ضرورة حل مسائلنا الاقتصادية الخاصة ، وأن الاختيارات المرة التى كثيراً ما يؤدى إليها هذا ، ستفرض علينا . ولما كنا فى الأحوال الحديثة نحتاج فى كل شىء تقريباً إلى الوسائل التى يهيؤها الناس، فإن التوجيه الاقتصادى يفضى إلى التحكم فى كل وجوه حياتنا تقريباً ، ولا يكاد يوجد وجه واحد لا يسيطر عليه الموجه ، يدخل فى ذلك حاجاتنا الأولية وعلاقاتنا بأسرتنا وأصدقائنا ، وطبيعة عملنا وما نزجّى به فراغنا .

ولن تكون سلطة الموجِّه على حياتنا الخاصة أقل ، إذا كان المستهلك حرا بالاسم فى إنفاق دخله كما يشاء ، لأن هذه السلطة تسيطر على الإنتاج .

أما حريتنا فى الاختيار فى جماعة تجرى فيها المنافسة مجراها ، فتقوم على هذه الحقيقة : وهى أنه إذا أبى شخص أن يرضى رغباتنا ، فإن فى وسعنا ان نتحول إلى سواه ، أما إذا واجهنا محتكراً فنحن تحت رحمته . وأخلق بالسلطة التى توجه النظام الاقتصادى كله أن تكون أقوى ما يمكن تصوره من أشكال الاحتكار .

ذلك أنها تكون ذات سلطة تامة فى تقرير ما نعطاه ، والشروط التى نعطاه بها . ولن يقتصر الأمر على تقرير السلع والخدمات المتاحة ، وبأى كمية تعطى ، بل يكون فى وسعها تقرير توزيعها بين المناطق والجماعات ، وفى مقدورها إذا شاءت أن تميز وتفرّق بين الأشخاص كيف تشاء ، فليس رأينا

نحن ، بل رأى غيرنا فيما ينبغى أن نحب أو نكره ، هو الذى يعين ما ينبغى أن نحصل عليه .

وتكون إرادة السلطة هى التى تكيف وتوجه حياتنا اليومية ، وأثر هذا التوجيه أكبر ، بوصفنا منتجين . وأكثرنا ، وقته الذى يقضيه فى عمله ، هو جانب كبير من حياته كلها ، وعمله هو فى العادة الذي يعين له المكان الذى يعيش فيه ، والناس الذين يحيا بينهم . ومن هنا كان بعض الحرية فى اختيار عملنا أهم على الأرجح من الحرية فى إنفاق دخلنا فى ساعات فراغنا .

وحتى فى خير العوالم تقيد الحرية ، وقل من يتهيأ لهم اختيار العمل فى نطاق واسع . على أن المهم هو أن لنا بعض الاختيار ، وأننا لسنا مشدودين إلى عمل اختير لنا ، وأنه إذا أصبح العمل مما لا يطاق ، أو تعلقت قلوبنا بغيره ، فإن هناك دائماً وسيلة يستطيع بها الفرد أن يصل إلى غايته ببعض التضحية . وليس شىء أكفل بأن يجعل الأحوال أثقل من أن تحتمل ، من العلم بأنه ما من جهد لنا يستطيع تغييرها . وقد يكون من الشر أن يكون المرء قطعة من آلة ليس إلا ، ولكن شراً من ذلك بكثير أن نعجز عن تركها ، وأن نربط بالمكان وبالرؤساء الذين اختيروا لنا .

ومن الميسور فى عالمنا الحاضر أن نفعل كثيراً لتحسين فرصنا للاختيار ، غير أن « التوجيه » يسير على التحقيق فى اتجاه ضد هذا الاتجاه ، لأنه لا بد أن يسيطر على الدخول فى الحرف والمهن المختلفة ، أو على قواعد المكافأة والأجور ، أو على هذا وذاك . وقد حدث فى حالات التوجيه المعروفة جميعها تقريباً أن كانت السيطرة والتقييد من أول التدابير التى اتخذت .

ومن الممكن الحصول على معظم الأشياء بثمن فى جماعة قائمة على المنافسة . وكثيراً ما يكون الثمن قاسياً فى ارتفاعه ، إذ لا بد أن نضحى بشىء لنفوز بآخر ، غير أن البديل من هذا ، ليس حرية الاختيار ، بل الأوامر والنواهى التى لا بد أن تطاع .

وليس من المستغرب أن يتمنى الناس الإعفاء من الاختيار المر الذى تعرضه عليهم الحقائق القاسية ، ولكن ما أقل من يبتغون أن يكون الإعفاء بأن يتولى غيرهم أمر الاختيار لهم . وإنما يشتهى الناس أن لا يكون الاختيار ضروريا على الإطلاق وما أشد استعدادهم لأن يعتقدوا أن الاختيار ليس ضرورياً فى الحقيقة ، وأنه لا يفرضه عليهم إلا النظام الاقتصادى الخاص

الذى يعيشون فى ظله . والذى يتحضون منه فى الواقع هو أن هناك مسألة اقتصادية .

ومما قوّى التوهم المبنى على الاشتباه ، بأنه لم تعد هنـاك مسألة اقتصادية ، الزعم بأن الاقتصـاد الموجه خليق أن يكون أوفر إنتاجاً من نظام المنافسة . على أن هذا زعم قد أخذ معظم الذين درسوا الموضـوع يتخلون عنه شيئاً فشيئاً ، بل إن كثيرين من الاقتصاديين ذوى الآراء الاشتراكية يقنعون الآن بالأمل بأن تكون الجماعة المسيّرة فى مثل كفاية الجماعة القائمة على المنافسة، ويشيرون بالتوجيه لأنه يساعدنا على الوصول إلى توزيع أعدل للثروة . ومما لا نزاع فيه أنه إذا أردنا أن نقرر من يأخذ ماذا ، فإن علينا أن نوجه النظام الاقتصادى كله .

ولكن المســألة التى تبقى هى : أليس الثمن الذى ينبغى أن نؤديه لتحقيق العدل المثالى فى نظر بعضهم سيكون لا محالة زيادة السخط والظلم على كل ما سببه النظام الذى كثر ذمه ، والذى يقضى بترك العوامل الاقتصادية حرة فى التفاعل ؟

ذلك أنه إذا تولت الحكومة توزيع الثروة ، فبأى المبادئ تهتدى أو ينبغى أن تهتدى ؟ وهل ثم جواب قاطع للمسائل التى لا حصر لها عن المزايا النسبية ؟

إنه لا يهيئ الجواب إلا مبدأ عام واحد وقاعدة بسيطة واحدة : المساواة المطلقة بين جميع الأفراد . فإذا كانت هذه هى الغاية ، فإنها خليقة على الأقل أن تكسب الفكرة الغامضة عن العدل الموزع ، معنى واضحاً . ولكن الناس على العموم لا يعدون المساواة الآلية من هـذا الضرب مرغوباً فيهـا ، والاشتراكية لا تعدنا المساواة التـامة بل « مساواة أعظم » .

وهذه القاعدة لا تقدم جواباً لأية مسألة، فهى لا تعفينا من الحاجة إلى أن نوازن فى أية حالة خاصة بين مؤهلات الأفراد أو الجماعات الخاصة ، ولا تساعد على تقرير شىء . وكل ما تقوله لنـا هو فى الواقع أن يؤخذ من الأغنياء كل ما يستطاع أخذه ، فإذا انتقلنا إلى توزيع الأسلاب ، فإن المسألة تبقى كما هى ، كأنما لم تخطر فكرة «الحرية الأعظم» على البال .

وكثيراً ما يقال إن الحرية السياسـية لا معنى لها بغير الحرية الاقتصادية . وهذا صحيح، ولكن بمعنى يكاد يكون مناقضاً للمعنى الذى يقصده الموجهون حين يسـتعملون هـذه العبارة . إن الحرية الاقتصادية التى هى الشرط لكل حرية أخرى لا يمكن أن تكون التحرر من التبعات الاقتصادية الذى يعدنا به الاشتراكيون ، والذى لا يمكن أن يتحقق بإعفائنا من القدرة على الاختيار ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وإنما يجب أن تكون هذه الحرية هي حرية النشاط الاقتصادي التي تحمل التبعة عن هذا الحق ، مع حق الاختيار المضاف إليها .

نوعان من الأمن

إن الأمن الاقتصادي ، كثيراً ما يصور « كالحرية الاقتصادية » الزائفة ، كأنه حالة لا غنى عنها للحرية الحقيقية . وهذا من بعض الوجوه صحيح ومهم ، فقلما نرى استقلال العقل أو قوة الشخصية بين من لا يستطيعون أن يكونوا على ثقة من أنهم سيشقون طريقهم بجهودهم .

ولكنّ هناك ضربين من الأمن : الاطمئنان إلى الحصول على حد أدنى معين من مقومات الحياة للجميع ، والاطمئنان إلى مستوى معين للحياة ، وإلى المركز النسبي الذي ينعم به فرد أو جماعة من الناس بالقياس إلى الغير .

وليس ثم ما يمنع أن يكفل النوع الأول من الأمن للجميع بغير خطر على الحرية العامة ، في جماعة بلغت ما بلغته جماعتنا من المستوى العام للثروة — أي حد أدنى للطعام والمأوى والملبس يكفي للاحتفاظ بالصحة . كذلك لا سبب هناك يمنع الدولة أن تساعد على وضع نظام شامل للتأمين الاجتماعي بالاحتياط للمخاطر العادية التي لا يستطيع سوى القليلين أن يحتاطوا لها .

والنوع الثاني من التوجيه في سبيل التأمين هو الذي له هذا الأثر السيء في الحرية ، فإنه توجيه مقصود به حماية أفراد أو جماعات من نقص دخلهم .

وإذا كان الواقع ، الذي يزداد وضوحاً ، أنه إذا كان يسمح لرجال أية صناعة تتحسن أحوالها ، بأن يقصوا غيرهم ليضمنوا لأنفسهم الربح الكامل في صورة أجور أو فوائد أعلى ، فإن الذين يعملون في صناعات قل طلبها لا يجدون عملا . وكل تغيير ، يؤدي إلى زيادة البطالة . ولا يمكن أن يكون هناك شك في أن السعي للأمن بهذه الوسائل في العقود الأخيرة هو الذي أفضى إلى مثل هذه الزيادة في البطالة والاضطراب .

إن حالة اليأس التي صار إليها الذين تُركوا خارج نطاق العمل المحمي ، في جماعة أصبحت أحوالها جامدة صارمة على هذا النحو ، لا يقدرها إلا الذين عانوها . ولم يشهد العالم قط من قبل مظهراً لاستغلال طبقة لأخرى ، أقسى من هذا الاستغلال من المنتجين الوطدي المركز ، للذين هم أسوأ حظاً . والذي يسّر هذا هو « تنظيم » المنافسة . وما أقل الكلمات التي أحدثت من

الأذى مثل ما أحدثته كلمة « توطيد » بعض الأسعار أو الأجور ، فقد ضمنت لبعضهم الرزق ، وجعلت حالة الباقين تزداد حرجاً على الأيام .

وقد ازدادت فى إنجلترا وأمريكا أهمية بعض المزايا الخاصة ، ولا سيما التى اتخذت صورة « التنظيم » للمنافسة و « التوطيد » لأسعار وأجور معينة . فإنه كلما منحت جماعة مثل هذا التأمين ، ازداد تبعاً لهذا اضطراب الباقين ، لأنك إذا ضمنت للبعض حصة ثابتة فى كعكة غير ثابتة الحجم ، فإن النصيب المتروك للآخرين لابد أن يتفاوت وتضطرب نسبته أكثر مما يتفاوت حجم الكعكة كلها ، ثم لابد أن يزداد النقص فى تنوع الفرص وكثرتها ، وهو العنصر الجوهرى للأمن فى نظام المنافسة .

إن السعى العام للتأمين بتدابير مقيدة تعززها الدولة قد أحدث على الأيام تطوراً مطرداً فى الجماعة — وهو تطور كانت ألمانيا هى السابقة إليه ، كشأنها فى عدة أمور أخرى ، وكانت الدول الأخرى تابعة لها فيه — وقد عجل بهذا التطور تأثير آخر للتعاليم الاشتراكية التى تتعمد الغض من كل مظاهر النشاط التى تستدعى المخاطرة الاقتصادية ، والإنحاء باللوم على المكاسب التى تجعل المخاطر أهلا للركوب ، والتى لا يفوز بها إلا القليلون .

ولسنا نستطيع أن نلوم شبابنا حين يفضلون المركز الآمن ذا المرتب على خطر المغامرة ، بعد أن ظلوا يسمعون مذ كانوا صغاراً أن الأول أسمى وأخلى من الأنانية والأثرة . وقد نشأ جيل الشباب الحالى فى عالم تعلم فيه من المدارس والصحافة أن روح المغامرة التجارية معيب ، وأن كسب الربح مناف للأخلاق ، وأن استخدام مئة رجل استغلال ، أما قيادة مثل هذا العدد فعمل شريف .

وقد يرى الذين ارتفعت بهم السن أن هذه مبالغة ، غير أن التجربة اليومية للمدرس الجامعى لا تدع شكا فى أنه كان من أثر الدعاية ضد الرأسمالية أن تغيرت القيم تغيراً سابقا جدا لما حدث إلى الآن من التغير فى النظم . والمسألة هى : إذا غيرنا نظمنا لمواجهة المطالب الجديدة ، ألا نقضى ونحن لا ندرى على القيم التى لا نزال نغلى من قدرها ؟

إن النزاع الذى علينا أن نعالجه أساسى بين طرازين لا يأتلفان من التنظيم الاجتماعى ، كثيراً ما وصفا بالتجارى والعسكرى ، وفى أحدهما يكون الاختيار والمخاطرة مرجعهما إلى الفرد ، وفى الآخر يعفى منهما جميعاً . وفى الجيش يعين العمل والعامل بالأمر ،

وهذا هو النظام الوحيد الذى يؤتى الفردُ فيه التأمين الاقتصادى التام ، على أن هذا التأمين لا ينفصل عن القيود المضروبة على الحرية وعن نظام الطبقات فى الحياة العسكرية — فهو تأمين الثكنات .

وليس من المحتمل فى جماعة ألفت الحرية أن يكون كثيرون من الناس مستعدين عن عمد وإدراك ، أن يشتروا التأمين بهذا الثمن ، غير أن السياسات التى تتبع الآن تخلق بسرعة أحوالا تجعل السعى للتأمين أقوى من حب الحرية .

فإذا أردنا أن لا نقضى على الحرية الفردية ، فإنه يجب أن ندع المنافسة تعمل عملها بلا عائق . ولنعين معدلا أدنى لكل امرىء ، ولكن علينا أن نعترف فى الوقت نفسه بأن كل المطالب الخاصة بتأمين ممتاز لطبقات معينة يجب أن تهمل ، وأن يزول كل ما يسوغ به السماح لطوائف معينة بإقصاء غيرها عن مشاركتها رخاءها النسبى لتحتفظ بمعدل خاص لنفسها .

ولا يمكن أن يكون هناك شك فى أنه يجب أن يكون من غاياتنا الرئيسية توفير التأمين الوافى من الحرمان القاسى ، ولكنه ليس أوخم عاقبة من هذا الأسلوب الجديد الذى يتخذه الزعماء المفكرون لتمجيد التأمين على حساب الحرية . ومن الجوهرى أن نعود فنتعلم مرة أخرى أن نواجه بصراحة هذه الحقيقة ، وهى أن الحرية لا يمكن أن تنال إلا بثمن ، وأننا كأفراد يجب أن نكون مستعدين أن نبذل تضحيات مادية قاسية للاحتفاظ بها .

ويجب أن نسترد الاقتناع الذى قامت الحرية على قاعدته فى البلاد الأنجلو سكسونية ، والذى أعرب عنه بنيامين فرانكلين فى جملة تصدق علينا أفراداً وشعوباً :

« إن الذين يريدون أن يتخلوا عن حرية جوهرية ليشتروا أمناً وقتياً يسيراً ، لا يستحقون لا الحرية ولا الأمن » .

نحو عالم أفضل

إذا أردنا أن نبنى عالماً أفضل، فلا بد لنا من شجاعة نقدم بها على محاولة جديدة . وعلينا أن نزيل العوائق التى كظت بها الحماقة الإنسانية طريقنا ، وأن نطلق للنشاط الإنسانى الفردى العنان ، وأن نخلق أحوالا جديدة ملائمة للتقدم لا « لتوجيه التقدم » .

ليس الذين يصيحون مطالبين بزيادة « التوجيه » هم الذين يظهرون الشجاعة اللازمة ، لا ولا الذين يدعون إلى « نظام جديد » ليس أكثر من استمرار لاتجاهات

الأربعين سنة الماضية ، والذين لا يستطيعون أن يفكروا فيما هو خير من تقليد هتلر . بل الواقع أن أعلى الناس صوتاً من أجل الاقتصاد الموجه ، هم أتم الناس خضوعاً لسلطان الآراء التي أثمرت هـذه الحرب ومعظم الشرور التي نقاسيها .

ويجب أن يكون المبدأ الهادى في كل محاولة لخلق عالم من الأحرار هو هذا : أن سياسة الحرية للفرد هي السياسة الحقيقية الوحيدة التي تفضى بنا إلى التقدم .

أرأيت إلى البيضة ؟

نزل ثلاثة طيارين من طائرة محطمة في سفوح جبال همالايا ، حيث يقال إن رجال القبائل هناك من قناصة الرءوس . فقادتهم جماعة من المحاربين عتاة الوجوه ، في صمت مخيف إلى كوخ الزعيم . فجلسوا هنيهة والقوم حولهم يتمتمون تمتمة تنذر بالوبال ، وعلى أحد الجدران علق صف من جماجم البشر .

وأخيراً تجرأوا فطلبوا شيئاً يأكلونه ، وكانوا قد رأوا بعض الدجاج في القرية ، فكور الجاويش أصابعه إشارة إلى البيضة ، فهز القوم أكتافهم . وأراد أن يوضح ، فقعد القرفصاء وحرك ذراعيه وصوت كالدجاج . وإذا أشد القوم عبوساً وشراسة يقفز إلى الساحة ، وجعل يحرك ذراعيه ويصيح كما يصيح الديك ، وهجم على الجاويش كما يهجم الديك على الدجاجة ، فذعر الجاويش فصاح صيحات قوية وجعل ينط على الأرض والديك يطارده .

فانفجر القوم ضاحكين وانشرحت الصدور ، وهتف القوم للطيارين واحتفوا بهم ، ثم رجعوا بهم إلى قاعدتهم آمنين . ولكن الجاويش لا يزال يرتجف كلما رأى بيضة . [كورى فورد وألاستير مكبين فى مجلة « كوليرز »]

الأربعون شيخوخة الشباب . والخمسون شباب الشيخوخة .

[فكتور هوجو]

مهمة في الظلام

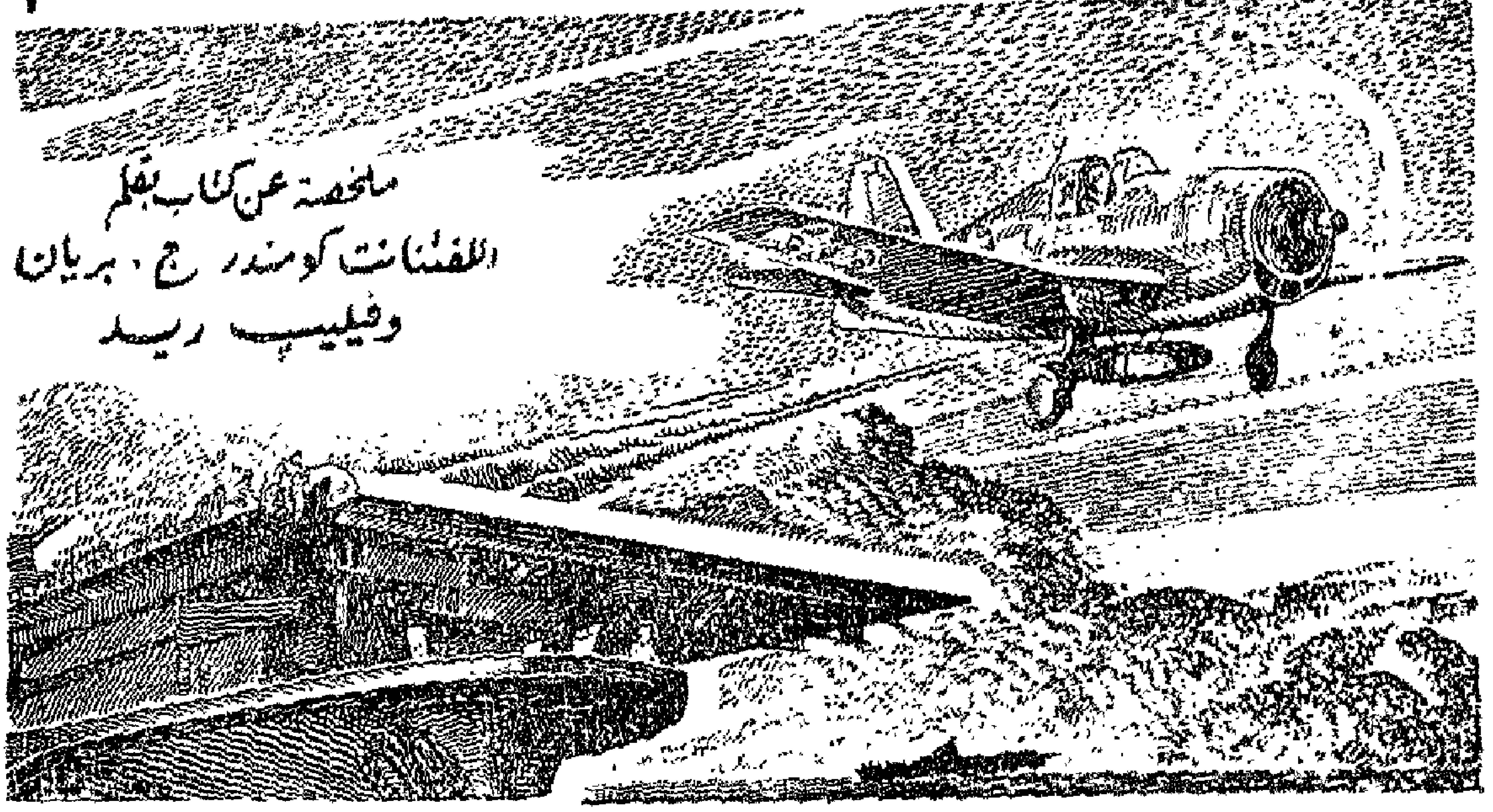

ملخصة عن كتاب بقلم
اللفتنانت كومندر ج. بريان
وفيليب ريد

هذه قصة بضع ساعات في حياة ٦٤ شاباً أمريكياً باسلا من رجال حاملة الطائرات لكسنجتون التابعة للجماعة الجوية السادسة عشرة، مسوقة في عبارة بسيطة وبتفصيل مؤثر لا ينسى. وليس ثم كتاب آخر يصف بمثل هذه القوة إحساس المرء وهو في أحد هذه الأبراج الموحشة الضيقة، محلقاً فوق المحيط الهادى الواسع ليضرب اليابانيين ثم يكر راجعاً، والظلام والخطر محدقان به، إلى ذلك الرواق الذى هو سطح حاملة طائرات. وهو كتاب فيه أبطال، ولكن ليس فيه تهويل وتمثيل — كتاب يصف لك بأمانة بالغة ما أحس هؤلاء الطيارون، وما قالوا وكيف أعانهم تدريبهم العالى وعزمهم الماضى على النجاة حين تحيروا وخافوا، وخامرهم اليأس وتخلل بهم الكلال، وبلغ الإعياء بهم مبلغاً يجاوز الطاقة البشرية.

والقصة تتناول جانباً من معركة الفلبين الأولى فى ١٩ يونيه سنة ١٩٤٤، حين هاجمت طائرات الأسطول الأمريكى التابعة لقوة الضرب الثامنة والخمسين، أسطولا يابانيا. فأغرقت حاملة طائرات وأربع ناقلات بترول، ويرجح أن تكون أغرقت

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

حاملة طائرات أخرى وناقلة بترول خامسة ، ومدمرة ، وأعطبت عدة سفن أخرى . وكانت خسارة الأمريكيين ٩٦ طائرة و ٤٩ رجلا .

والجماعة الجوية السادسة عشرة وقاعدتها حاملة الطائرات لكسنجتون ، مثال لأكثر من عشر جماعات اشتركت فى الهجوم . وقد طارت ما بين ثلاثين إلى أربعين من طائراتها عصر ذلك اليوم ، من بينها إحدى عشرة طائرة مقاتلة من طراز « هلكات » ذات مقعد واحد ، وسبع من قاذفات الطربيد ، وفى كل منها ثلاثة رجال ، وست عشرة قاذفة منقضة فى كل منها رجلان . وكان متوسط أعمار رجال الطائرات ٢٣ سنة أو أكثر قليلا .

ويقول المؤلفان إن هذه القصة « مستقاة كلها من روايات الناجين ، وبيانات الضباط والبحارة فى حاملة الطائرات لكسنجتون ومما شاهده المؤلفان . وما من حادثة فيها مختلقة ، وما من لفظ أو خاطر أو عمل ، عزى إلى أحد بدون إذن منه » .

ذلك فى التاسع عشر من يونيه سنة ١٩٤٤ ، وكانت هذه آخر الساعات فى آخر يوم من المطاردة ، وكان كل امرىء فى قوة الضرب ٥٨ يعرف ذلك ، وكانت طائرات الاستكشاف التابعة لها تجوب الأفق الغربى باحثة فى بحر الفلبين عن أسطول يابانى شارد ، وكان الفيس أميرال مارك ا . متشر قائد قوة الضرب ينتظر تقارير هذه الطائرات فى مركز القيادة من حاملة الطائرات لكسنجتون ، وحوله حاملات الطائرات الأخرى التابعة له ، وسطوحها غاصة بالطائرات تنتظر الأمر بالهجوم ، ولكن الظلام سيخيم بعد أربع ساعات ، وغداً تكون الفرصة قد أفلتت ، وكان أركان حرب متشر حافين بالراديو يصفّون ثرثرته ابتغاء الكلمات التى تدفعهم إلى العمل ، فسمعوا الراديو يقول أخيراً « إنى أراهم ! » .

فقال متشر فى هدوء : « هاتوا الخبر كله »

وكان رجال الراديو فى حجرته تحت السطح بطابقين ، يثبتون على الآلة الكاتبة كل كلمة تختلج بها سماعاتهم ، وكان طيار مستكشف فى ناحية نائية من الغرب قد لمح فى أقصى نقطة من نطاق استكشافه ، نقطاً غريبة واضطراباً فى الماء تحت أشعة الشمس التى تخطف البصر ، وكانت النقط تبدو لعينيه المتحيرتين كأنها سحب صغيرة أو ظلال سحب ، فلفت إليها من معه من رجال

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الطائرة ، وكانت عيونهم أحدّ ، فمد عامل اللاسلكى يده إلى المفتاح : « شوهدت قوة العدو . الموقع . . . » .

ودفعت نسخة الرسالة إلى برج القيادة ونشرت على منضدة الخرائط ، فقاس الملاح الأبعاد ، ثم دون رقماً على رقعة . فألقى متشر هذا السؤال : « حسن ، هل يدخل الأمر فى وسعنا ؟ » .

ووقف أركان حربه هنيهة لا يجيبون ، وكانوا يفكرون فى أمور واحدة : الدفاع اليابانى العنيف ، وفى مسافة الطيران البعيدة عند الإياب فوق فضاء المحيط ، وفى الطيارين المكدودين وعيونهم على الإبر على مقياس الوقود وقد أخذت تهبط إلى علامة « الفراغ » ، ومؤدى ذلك السقوط فى الماء الأسود ، وفى خطر الهبوط ليلا فى الظلام على سطوح حاملات الطائرات .

وقال أحدهم أخيراً : « نعم فى وسعنا ، ولكن الأمر سيكون شاقا » .

فأصدر متشر الأمر فى حزم : « أطلقوها » . وأرسل قراره أولا إلى رئيسه الأميرال ريموند سبروانس قائد الأسطول الخامس على سفينة قيادته وكانت قريبة ، وبعد دقيقتين بدأت الرسائل البرقية تخط وراء أستار مضاءة فى حجرات الحاملة لكسنجتون وحجرات الحاملات أنتربرايز ، وبرنستون وبنكرهيل ، وهورنت ، وواسب ، وغيرها .

ورفع الطيارون رءوسهم عن المجلات وأوراق اللعب ، وكانت لوحاتهم قد امتلأت منذ الصباح بالبيانات الخاصة بالرحلة : الجو ، ووقت الغروب ، والعلامات التى يعرفون بها ما يبغون ، الخ . وكان الشىء الوحيد الذى ينقصهم هو هذا الذى بدأ يسجل على الستار : مكان العدو ، والاتجاه والسرعة .

وفى غرفة طيارى المقاتلات على السفينة لكسنجتون ، وجد ساى سيبزت أن مكان العدو يقع خارج مدى طائرته ، فوضع نقطة على هامش اللوحة بالقلم الرصاص وحدق فيها غير مصدق : « هل علىّ أن أطير إلى هنا ؟ » .

فقالوا له : « نعم يا أخانا . علينا أن نطير إلى هناك » .

وشرع الطيارون يلبسون أردية الطيران ، ولما جاءهم من مكبر الصوت الأمر « أيها الطيارون ، خذوا مكانكم فى طائراتكم » التقطوا خوذاتهم ولوحاتهم ، وإضمامة المذكرات التى كانت تتدلى وتضرب ركبهم ، وصعدوا فى هدوء إلى سطح السفينة . ولم يكن ثم ما هو معهود من التزاحم والمزاح ، فقد كان كل واحد يدرك أن هذه المهمة ليس فيها ما يغرى بالتندّر .

ودارت المحركات بسرعة وما لبثت أن بلغت أقصى قوتها وعلت ضوضاؤها ، وصارت نفخات من الدخان الرقيق تخرج من أطراف المراوح . وحجب الواقفون فى المماشى الضيقة عيونهم وغطوا آذانهم ، واتخذ الضابط الموكل بإصدار الأمر بالطيران مركزه عند طرف الجناح الأيمن من أول طائرة من طراز هلكات فى الصف ، وكانت الطائرات قاذفة الطربيد من طراز «أفنجر» محتشدة وراء القاتلات ، وخلفها المنقضات من طراز «دونتليس» . وكانت الريح تهب على جانب السفينة الأيمن ، ثم على السطح ، فاعتدلت الحاملة لكسنجتون فى طريقها .

وصدر الأمر بمكبر الصوت : « أطلقوا الطائرات ! » وشرع الضابط الذى يرسلها فى الجو يلوح براية صغيرة ذات تربيع .

وكانت أول طائرة من طراز هلكات هى التى يقودها هنرى كوسيوسكو ، فلما رأى تلويح الراية زاد سرعة المحرك حتى اضطرب ذيل الطائرة وانتفخت إطارات عجلاتها المربوطة ، ثم هبطت ذراع الضابط مشيرة

وفى أثناء ذلك كان الطيار المستكشف الذى شاهد أسطول العدو ، يدخل فى السحب ويخرج منها ويبعث بتقارير إضافية عما يرى . وإلى الجنوب منه قليلا ، كان طيار مستكشف آخر يرسل تقاريره فأذاع تلفون الكلام بين السفن :

« توجد ثلاث عمارات من سفن العدو ، فى إحداها حاملة طائرات كبيرة وطرادان ثقيلان أو ثلاثة ، وثمانى مدمرات . وعلى مسافة عشرة أميال أو خمسة عشر منها عمارة أخرى قدامها ناقلات البترول وسفن الحراسة . والعمارة الثالثة والكبرى إلى الغرب من هاتين ، وهى مؤلفة من حاملات الطائرات ، وبوارج ، وعدد كبير من الطرادات الخفيفة والثقيلة والمدمرات . والهدف الأول هو حاملات الطائرات »

وصدر من برج قيادة الطائرة بالسفينة لكسنجتون هذا الأمر : «أديروا المحركات»

إلى مقدمة السفينة ، وارتفع طرف الجناح فوق رأسه . ثم تجمع الطيار ، ووثب بطائرته فى الهواء ، وانثنى يمنة حتى لايعطب الطائرة التى تليه .

وقاد ساى سيبرت السرب التالى من القاتلات ، وكان وهو ينتظر هبوط الراية يشعر بجفاف غريب فى فمه . فربت على جيبه ليطمئن — نعم ها هناك — ريال من الفضة هو أول ما كسب فى حياته ، وقداحة رخيصة صدئة ، وكانا قد وقعا معه فى البحر لما غرقت حاملة الطائرات القديمة «واسب» فى بحر المرجان ، فلم يطر أبدا بغيرهما .

ولما طارت القاتلات الإحدى عشرة (من طراز هلكات) تبعها توم برون فى أولى قاذفات الطربيد . وكان بين من تلاه كنت كوشمان الذى كان يحمل فى جيبه قطعة نقود إنجليزية هى نصف شلن — وهى التى وضعتها زوجته فى حذائها لما تزوجا .

وجاء بعد ذلك كانت سوانسون ، فألقى نظرة على خاتمه وهو يمضى بطائرته إلى خط الوثوب . وكان عمه قد حفره له ، فصار يحرص دائماً على أن يكون الخاتم فى وضعه الصحيح على إصبعه قبل أن يطير أو يهبط .

وكان نورمان سنيرى الطيار السابع والأخير فى طائرة من طراز أفنجر ، وكان قائد السرب ١٦ من قاذفات الطربيد وأكثر طيارى السرب خبرة ، ومن أجرئهم . وقد حدث فى معركة بحر المرجان أن قذف حاملة طائرات يابانية بطربيد ثم عاد وهجم هجمة ثانية ليصرف نار الدفاع عن زميل له ، فمنحوه نجما مذهباً يضعه فوق صليب البحرية الذى كان قد فاز به من قبل .

وبعد قاذفات الطربيد أقبل رالف ويموث فى أولى الطائرات المنقضة من طراز دونتليس ، وكان رتبته لفتننت كومندر فهو أكبر ضابط بين زملائه ، وقائد الهجوم كله من الفرقة الجوية التابعة لحاملة الطائرات لكسنجتون . وكان قائد الفرقة الثانية دونالد كيركباتريك . وقد اشترك فى ٤١ هجوما قبل ذلك وأصيبت طائرته ١٨ مرة ، وأسقطت مرة .

وكان البحارة يهتفون من الممرات كلما صعدت طائرة ويشيرون إليها برفع إبهاماتهم ، متمنين لهم السلامة .

ولم يشهد الأميرال متشر هذه المرة خروج الطائرات ، فقد كان هو وأركان حربه يبحثون فى هل يوجهون الضربة الثانية أو لا .

وكان فى عصر اليوم السابق فى برج القيادة حين عادت القاتلات من اعتراض هجمة جوية يابانية وصدها . وكان الطيارون وهم يمضون إلى مقدمة السفينة يبتسمون له ويرفعون أصابع بعدد الطائرات التى أسقطوها

— واحدة ... اثنتان ... أربع بل ست .

فقال متشر حينئذ : « الحقيقة أنى فخور بأنى أمريكى ، فإنها لبلاد رائعة تلك التى تنجب شباناً من أمثال هؤلاء »

والآن راح يفكر فى الهجوم الذى وجهه وفى الهبوط ليلا بعد ذلك ، وهو عمل قد يصيبهم منه فوق ما يصيبهم من الهجوم نفسه . وفكر فى الهجوم الثانى والخسارة المضاعفة . وقال : « كلا ! أرجىء الهجوم الثانى . فلست أستطيع أن أضحى بأكثر من ذلك ، ولو فى مقابل الأسطول اليابانى . وينبغى أن يكون فى هجومنا الليلة ما يكفى لأداء المهمة . والباقى نفعله فى الصباح » .

وفى غرفة طيارى القاذفات رقم ١٦ ، بعد أن خرجت أسراب الهجوم ، فتح أحد الطيارين راديو طوكيو فسمع نشرة الأخبار عن معركة الأمس الجوية .

وكان المذيع من طوكيو يقول : « وتدل التفاصيل التى وردت عن انتصارنا العظيم غرب جزر ماريانا ، على أن اثنتين من حاملات الطائرات الأمريكية غرقتا مع بارجة وطرادين ، وأعطبت عدة حاملات أخرى ، ودمرت على الأقل ثلاثمئة من طائراتها »

فصفر السامعون ساخرين ، فإن مقاتلاتهم أسقطت أكثر من ٤٠٠ طائرة يابانية ، ولم تخسر سوى ١٧ طائرة ، ولم تغرق سفينة واحدة ، ولم تصب حتى بعطب خطير .

وكان الأسطول اليابانى قد ظل يتجول شمالا نحو أسبوع قبل تلك المعركة التى دارت أمس — ١٨ يونيه سنة ١٩٤٤ ، وكانت طائرات الدوريات البحرية قد شاهدته يرفع مراسيه ويخرج من تاوى تاوى فى الفلبين الجنوبية ، وتعقبته إلى ما قبل بضع ليال حين غاب عنها . وكانت تحت إمرة الأميرال سبروانس والأميرال متشر — فى قوة الضرب ٥٨ — أرمادا يبلغ من بأسها أن تستطيع أن تواجه الأسطول الإمبراطورى بأجمعه تقريباً . فإذا وسعهما أن يشتبكا مع هذا الأسطول المفرد فقد يؤدى ذلك إلى التعجيل باستسلام اليابان وتقديمه عدة شهور . ولكن فى ١٥ يونيه بدأ الجنود الأمريكيون وجنود الأسطول يغزون سايبان ، فصارت المهمة الاولى لقوة الضرب ٥٨ أن تحمى هذه القوة البرية البحرية .

وما دام مكان الأسطول اليابانى غير معروف على وجه الدقة ، فإن سبروانس ومتشر لا يستطيعان أن يخرجا يخبطان على غير هدى ، ويعرضان سايبان لهجوم من طائرات الحاملات أو للضرب من السفن .

ولكن بعد المعركة الجوية التى دارت فى ١٨ يونيه كان المفروض أن الحاملات

اليابانية لم يبق لها أكثر من مئة طائرة . فلم تعد ساليان فى خطر من الهجوم الجوى ، وأصبح فى الوسع أن توسع قوة الضرب ٥٨ نطاق بحثها وهى آمنة .

وكانت الأنباء قد جاءت بأن الأسطول اليابانى متجه إلى نقطة قريبة من أقصى مدى للمنقضات وقاذفات الطربيد التابعة للحاملة لكسنجتون ، فعرف الطيارون أن الأسطول اليابانى ليس إلا أحد عدوين يتربصان بهم عصر ذلك اليوم ، أما الآخر فهو نفاد الوقود .

وكان الطيارون قد قطعوا نصف ساعة فى طريقهم حين سمع قائد فرقتهم — ويعوث — طائرة استكشاف تبلغه : « إليكم تصحيحاً لمكان العدو » وإذا بالمكان الجديد لليابانيين يبعد سبعين ميلا من المكان الأول ! فغير ويعوث خط سيره وشرع يرتفع — فى رفق ومع الاقتصاد فى الوقود . وكان كوكى كليلاند يتلهف على هذه الحركة ، فقد كان أكثر رجال السرب حماسة ، وكان لا يزال يتململ حتى يبلغ الارتفاع اللازم لقذف القنابل . وكان قبل أن يطير قد قال للمدفعى فى طائرته : « هذه فرصتنا لنريهم ماذا تستطيع أن تفعله طائرة منقضة حقيقية . وهذه هى المهمة التى صنعت لأدائها طائرات الانقضاض ، دونتليس — ضرب الأساطيل . وسترى ما نستطيع أن نفعل » .

فالآن صار هناك شىء آخر يراه الطيارون ويجعلون بالهم إليه : مقياس الوقود ! وكان كليلاند فى طائرة من أقدم طائرات السرب وكان الكاربوريتور نهما لا يشبع أبداً ، وكان اليوم يمتص من الخزانات أكثر مما كان يفعل ، فلم يقل كليلاند شيئاً لويعوث لأنه لو أخبره بذلك لأمره بالعودة على التحقيق . ونظر إلى مقياس الوقود وراح يدندن ، وصوب عينه إلى المقياس مرة أخرى .

وكان وهج الشمس الغاربة خداعاً ، فحدث مرتين أن قال الطيارون إنهم يرون السفن أمامهم ، بل لقد عينوا أنواعها — كذا من الحاملات ، وكذا من البوارج ، وكذا من الطرادات والمدمرات — وفى كلتا المرتين اتضح أنها سحب صغار دانية من الماء . وبعد ذلك صمت الراديو إلى أن قال صوت : « انظر إلى هذا الزيت ! » وكان القائل من الأسراب التى سبقت السرب ١٦ ببضع دقائق . ثم سمع صوت آخر يسأل : « أهذه هى القوة التى سنهاجمها ؟ إن بنزينى نفد نصفه »

فقدر ويعوث أنهم شاهدوا أسطول بواخر الزيت ، وأسف لهذه الطائرات — نصف بنزينها قد نفد ، وما زال عليها أن تقوم بالهجوم ، ثم يلى ذلك رحلة الإياب فى وجه ريح سرعتها ١٤ عقدة . أسف لها ولكنه كان فخوراً بها ، فإن هؤلاء الشبان يدركون

ما يواجهون ، وكثيرون منهم يعرفون أنهم سيسقطون فى المحيط فى ليلتهم هذه ، وهم مع ذلك صادقو العزم على القيام بهذا الهجوم !

ثم رأى هو نفسه الزيت ـ خط مستطيل قاتم على وجه الماء ، ولم يكن من النوع الذى تخلفه سفينة غارقة . ومن الجلى أن سفن العـدو كانت تتزود بالوقود فأزعجها شىء ، فانطلقت تجرى على حين كانت الخراطيم لا تزال تصب زيتها . وقد تركت بواخر الزيت هذا الأثر وهو خليق أن يهـدى ويدوث إلى السفن الحربية مباشرة .

وبعد دقائق قليلة أبلغ طيار إحـدى القاذفات أن « السفن إلى الأمام ! » فنظر ويدوث فى ساعته : ٦٫٠ و ٢٣ دقيقة . ولما صارت الساعة : ٦ و ٣٥ دقيقة رأى بواخر الزيت ، وكانت هدفا جميلا ، فهمّ بأن يضربها ، ولـكن ضابط المخابرات كان قد قال له : « إن هدفك الأول هو حاملات الطائرات »

فأغـذّ السير ، فبدت له أمامه سحابة كثيفة ضخمة على هيئة السندان ، فلما صارت الساعة ٦ والدقيقة ٤٥ غير اتجاهه ليمر من تحتها . وما لبث أن تأدى إليه على متن الهواء صوت خاشع يقول : « يظهر أنا وجدنا الأسطول اليابانى اللعين كله ! »

وكانت السفن اليابانية ثلاث مجموعات : المجموعة الرئيسية على عشرة أميال إلى الأمام وقوامها ثلاث حاملات وبارجتان ، وطرادات ثقيلة يتراوح عددها بين اثنين وأربعة ، ومن أربعة طرادات خفيفة إلى ستة ، ومدمرات . والمجموعة الثانية على ١٢ ميلا إلى الشمال وفيهـا حاملة وثلاثة طرادات أو أربعة ، وخمس مدمرات أو ست .

وكان الهجوم قد بدأ على هذه المجموعة الشمالية . وشاهد ديوب دوبرى عدة قنابل تصيب حاملة الطائرات ، والدخان يصعد منها ، ولما شرعت قاذفات الطربيد تهاجم الطرادات الثقيلة دار بنفس هانك موريز من رجال السرب ١٦ أنهم : « لن ينجوا من هذه النار . هذا مستحيل ! »

ولما اقترب ويدوث وقاذفاته كان ما تحتهم قد دخل فى الغسق ، وكانت السفن اليابانية كأنها شعلة من النار مستطيرة ، فقد كانت أفواه المدافع لا تنفك تومض ، وكانت الانفجارات فى الشفق كأنها سقف متماسك ، وكانت قذائف الترميت والفوسفور ترسل شهباً ، والطرادات الثقيلة تطلق بطارياتها الـكبرى ، والشظايا الساطعة تتطاير من القنابل كأنها خارجة من بركان ـ وكانت كثرة القذائف مروعة وشر ما واجهه الأمريكيون إلى الآن ، غير أن الألوان كانت أشد ترويعاً : الأخضر والأصفر والأسـود . والأزرق والأبيض والقرمزى والأرجوانى . واضطربت

الطائرات وارتجت ولكنه لم يسقط منها شيء . ومضى ويعوث فى طريقه ، ورأى هدفه ـ حاملة الطائرات فى أقصى الجنوب ـ وشرع يدور على مهل ليهجم عليها من الغرب .

أعطى إشارة الانثناء يمنة ـ اليدا اليمنى مرفوعة ، والكف مطبقة ـ وحرك جناحيه « للتنفيذ » وكرر قواد الأسراب الإشارة لمن يلونهم إلى الآخر ، وألقى ويعوث نظرة أخيرة على ما تحته . وكانت الحاملات متجهة إلى الشمال ، فمالت إلى الغرب وأخلق بالاتجاه إلى الغرب أن يمنع تأثير الريح الشرقية ، فخطر له أن هذا هو الذى يحلم به قاذف القنابل ! وكان على ارتفاع ١٠٫٥٠٠ قدم حين شرع ينقض ووراءه المنقضات الأخرى ، وكانت الساعة السابعة والدقيقة الرابعة ـ فقد انقضت ساعتان و٣٨ دقيقة منذ حلقت آخر طائرة من السفينة لكسنجتون .

بدأ انقضاض ويعوث فى ضوء الشمس وانتهى فى الغسق ، وسجل مقياس الارتفاع هبوط ٩٠٠٠ قدم قبل أن يقذف قنبلته ، وألف قدم أخرى قبل أن يكف عن الانقضاض . وكان وهو يهوى يطن فى أذنه : « لا بد أن أصيب ! لا بد أن أصيب ! » وأبقى جهاز الرؤية على الهدف حتى أيقن من الإصابة . وقد شاهدها ماك إلهيني : كتلة من الدخان الأسود منبعثة من السطح قريباً من الجزء الأعلى من هيكل السفينة .

ولما انقض هارى هاريسون انفجرت تحته قنبلة ثرميت ونثرت شظاياها المريجة ، فتقبض على مقعده برغمه ، وخطر له : إذا نجوت من هذا ـ ولن تنجو ولكن إذا نجوت ـ فستكون خير فتى فى الدنيا ! وكان الدخان فوق الحاملة من الكثافة بحيث لم يستطع أن يرى إلا خطوطها ، ورأى ثلاث فورات فى الماء قريباً من السفينة ، فغمره الزهو بالسرب ١٦ : ثمانى قنابل لم يخطىء منها الهدف سوى ثلاث ! وألقى هو قنبلته ، وارتفع بالطائرة .

وقال المدفعى فى طائرته ـ راى باريت : « ماذا ترانا فعلنا ؟ »

فقال باريت : « كدنا نصيب ، سقطت القنبلة على مسافة ٤٠ قدماً من يمين السفينة » .

ولم يدم شعوره بخيبة الأمل إلا هنيهة قال بعدها : « لا بأس إن الإصابات الخمس التى سبقتنا قد ألقت بكثيرين من أولاد ... فى الماء ، وأراهنك أن قنبلتى أصابت بعضهم ! »

وكانت المدافع المضادة قد سددت المرمى فأصابت قنبلة من عيار ٢٠ مم خزان الوقود الأيمن فى طائرة كليلاند ، وأصابت قنبلة من عيار ٤٠ مم جناحه الأيمن وأحدثت فيه ثغرة قطرها قدمان ، ومزقت قنبلة أخرى من عيار ٤٠ مم أرض البرج الخلفى

فصرخ المدفعي : « يا إلهي ! نلت وسام جرحى الحرب ، وفقدت ساقي ! » ولكنه لم يصب ، وإنما خدرت ساقه من إصابة الطائرة . ورد كليلاند طائرته إلى مكانها من الصف وألقى قنبلته فسقطت على ١٠ أقدام من مؤخرة السفينة .

وانتهى الهجوم ولما يكد يفطن إلى ذلك أحد ، وصار على الطيارين الآن أن يواجهوا رحلة الإياب الطويلة ، ومغالبة الظلام ، وخزانات الوقود الفارغة .

من الأصول المرعية بعد هجوم القاذفات أن تتلاقى الطائرات في طريق العودة ، وكان أمام ويعوث طريقان : الطريق المباشر إلى الملتقى ، وهذا يعرض سربه للنار من مدمرتين وطرادين على الأقل ، والطريق الملتف وهو يستنفد من البنزين أكثر مما بقي ، وقد يكون معنى ذلك أن تكف محركاته عن الدوران قبل الوصول . وقد اختار الطريق المباشر وآثر التعرض لمدافع العدو .

وما كاد يفعل حتى ندم ، فقد جعلت القنابل من كل عيار تصفر وتصرخ وهي ترتفع إليه ، وتنفجر حوله ، فمن قذائف من عيار ٢٠ مم إلى قنابل المدافع من عيار ٨ بوصات ، وقنابل شرابنل وقذائف الترميث التي تعصف بالمعدن كأنها سرطان مضطرم .

وألقى مالك إلهيني من المقعد الخلفي في طائرة ويعوث قذائف هادية على سطح أقرب مدمرة ، حتى فتح أحد الطرادات مدافعه من عيار ٨ بوصات وقذف منها قنابل محرقة وصارت الشظايا تتلمس طريقها إلى برجه ، فتجمع وراء الدرع وهو ينتفض ويدعو الله . وأطلق الطراد الآخر مدافعه في الماء رجاء أن يسقط إحدى الطائرات بتفجر الماء .

وما كاد كوك وكونكاين يأخذان مكانهما وراء سرب ويعوث ، حتى أطلق عليهما النار طراد ثقيل وطرادان خفيفان ، ومدمرتان ، فانفجرت قنبلتان على مقربة من مؤخرة الطائرة ، واخترقت شظية مقعد كونكاين ورنّت على خوذته فحك رأسه بأصابعه وقال يحدث نفسه : « أتراني مت وأنا لا أدري ؟ كلام فارغ ! لا يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة ! » .

وكان دون رايشيل قد خرج من المعركة وحده ، بين مدمرتين دارتا حين اقترب منهما بحيث تقذفانه من الجانبين ، وقد حصرتاه بين قوسين من الماء المتطاير من الانفجار في البحر ، والقنابل المنفجرة خلفه ، التي جعلت ذيل طائرته يرتعد ويرتج وكان لا يكاد يصدق أن بعض الماء المتطاير كان يصل إلى ارتفاع طائرته ، أي إلى حوالي مئتي قدم أو ثلاثمئة .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وخرجت عدة مقاتلات يابانية تهجم على شيلدز وسيديل ، وكان سيديل قد عايش شيلدز سنتين ونصف منذ تطوعا ، فلما أقبلت إحدى الطائرات اليابانية على شيلدز رآه سيديل يتقبض فى برجه ، وقد طارت نظارته وبدا كأنه يصرخ ، ثم ارتمى على عجلة القيادة ودفعها أمامه ، فأخذت الطائرة تهبط ، وظل مدفعيه ، ليو لى ماى ، يطلق النار حتى غيبه الماء .

وكانت ثلاثون طائرة من الفرقة الجوية ١٦ قد وصلت إلى منطقة الهدف ، وقد سقط منها ثلاث ، وشرعت الباقيات تقوم برحلة الإياب الطويلة ، وكانت الشمس قد غربت ، فالسماء سيلفها الظلام فى ثماته بسرعة ، فإن الليل يحلولك بسرعة فى المناطق الاستوائية ، وبدأ رجال الطائرات يسمعون ما يدور فى نفوسهم ويتردد وحده فى خواطرهم : « أترى يكفى الوقود ؟ هل يكفى ؟ هل يكفى ؟ »

وفى وسع طائرة من طراز أفنجر أو دونتليس تدور محركاتها فى يسر أن تقطع المسافة إذا كان طيرانها عاديا وكانت سرعتها معتدلة ، ولكن معظم هذه الطائرات قد ظلت تخوض القتال عشرة شهور ، وكانت محركاتها قديمة ومنهومة . وقد احتاجت أن ترتفع إلى أكثر من ١٠,٠٠٠ قدم ، محمولة من القنابل ثم اضطرت إلى السير بأقصى سرعة حين خرجت من المعركة لتتلاقى فى الجو ، وكانت فى الوقت نفسه تحاول أن تروغ وتتقى نيران المدافع المضادة ، والسير بأقصى سرعة يستهلك من الوقود ضعفى ما يستهلكه السير المعتدل ، ثم إنها الآن تسير ضد ريح سرعتها ١٤ عقدة ، ومتى بلغت سفن قوة الضرب فستقضى زمناً غير محدود فى الدوران — بأقصى قوة أيضاً — قبل أن تستطيع أن تهبط إلى حاملاتها .

وكانت تقديرات الطيارين تجرى فى مجرى واحد : علينا أن نقطع ٣٠٠ ميل ، متوسط السرعة ١٢٠ ، أى ٢ ½ ساعة ، ونصف ساعة أو ٤٥ دقيقة للاهتداء إلى الحاملة لكسنجتون ، والدوران وانتظار دورى فى الهبوط . . . سيكون الأمر دقيقاً جداً .

وقد دق الأمر على بعض الطيارين من فرق أخرى ، شارف وقودهم النفاد أو ضلوا ، وكانت أصواتهم تأتى على متن الهواء ، واشية بالجزع أو الأسى أو التحدى : « لم يبق لى من الوقود إلا ما يكفى عشر دقائق . وأرى أن أهبط بها إلى الماء الآن . وداعاً يا جو ! » .

« هنا الطائرة رقم ٤٦ . أين أنا من فضلك ؟ ليخبرنى من يدرى أين أنا ! »

وجاءت الأصوات تترى : « ليس فى وسعى الاستمرار يا إخوانى سأهبط : ابحثوا عنى غداً إذا أتيحت لكم فرصة من فضلكم ! » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وسمع خمسة منهم يبحثون موقفهم كأنهم في مؤتمر . هل يواصل كل منهم السير إلى آخر قطرة من الوقود أو يهبطون معاً الآن إلى الماء ؟ واتفقوا على أن يرتضوا حكم الأغلبية ، وأخذوا الأصوات فاتفق أربعة على واحد على الهبوط ! .

فقال الذى تولى الرياسة : « تقرر الأمر . حسن ! ها نحن أولاء إذن نهبط ! » وسرعان ما سمع صوت مزهو من سرب آخر يقول : « إن عندى ٦٠ جالوناً ! »

فقال صوت قاس : « أتراك تطمع أن تكفيك ستون جالوناً للعودة ؟ » ولم يسمع جواب . ولكن طياراً كان لا يزال فى الهواء شاهد ثلاث طائرات لم يتبينها تهوى ، وبعد هنيهة تطاير الماء فى ثلاثة مواضع .

وسمع ويعوث صوتاً هادئاً يقول : « بقى عندى خمسة جالونات ، وأنا أستعد للنزول على الماء » فقال صوت هادىء آخر : « إن عندى ١٧ جالوناً ولكنى أرى أنه يحسن بى أن أنزل معك » فقال الصوت الأول : « شكراً ياصديقى . أشكرك . مستعد ؟ » فأقفل ويعوث جهازه اللاسلكى فقد شعر أن حياته تحتضر .

والآن بدأ التعب والتوتر العصبى يتحللان بهم على نحو لم يكابده من قبل سوى القليلين منهم : الدوار ، الظلام التام ، لا أفق يرى ولا قمر ، والسحب المسفة تحجب النجوم أحياناً ، والنقط الوحيدة التى يرجعون إليها هى الأضواء الصغيرة فى الطائرات نفسها وقد أضيئت اجتناباً للمصادمات ، ولم تكن ثابتة ، فقد كان بعضها يخفق وينطفىء ، والبعض يهبط تحت وإلى الخلف وغاب بعضها جملة .

واختفى النور الذى فى ذيل طائرة كيركباتريك ، ولم يبق سوى الضوء الذى على يساره يهتدى به كونكلين على جناحه وقد مرت لحظات لم يكن كونكلين فيها يدرى أهو على مسافة خمسين ياردة من طائرة كيركباتريك أم خمسين بوصة . وقد رد الدفة مرتين قبل أن يصطدم جناحاهما . وفقد اتزانه وخدر شعوره به ، وبدأ يشك فيما تدل عليه آلاته ، فقد كانت تنبئه أنه يطير على استواء على حين كان هو مستعداً أن يقسم أنه يرتفع ، وكان يناجى نفسه : الحمد لله على كيركباتريك ! انظر إليه ! ثابت كالصخرة ! أما لو فقدت كيرك —

وكان كيرك يطير بحكم العادة ، وقد اضطرب أذنه وصار الدوار يعتريه فى نوبات كالموجات الغامرة ، وكان ربما سار على هدى نجم فلا يلبث أن يتبين أن ما ظنه نجماً ليس إلا ضوءاً فى طائرة أخرى مضطرباً كضوئه .

على أن الطيارين والمدفعيين كان يسعهم على الأقل أن يتلفتوا حولهم وأن يطمئنوا بعض الاطمئنان حين يرون أنوار الطائرات

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

الأخرى ، ولكن رجال اللاسلكى فى قاذفات الطربيد كانوا فى شبه سراديب لا منفذ فيها لعيونهم ، فلم يقتصر الأمر على الدوار يصيبهم ، بل كان النعاس يغالبهم أيضاً من جراء الاهتزاز ، وكانت الأشياء حولهم تغمض وتستبهم ، وتضطرب وتترنح داخلة وخارجة ، فيتسع المكان ويضيق . وكان كانجبيل عامل اللاسلكى فى طائرة ستيرى يدفع يديه ليبقى الأشياء فى مكانها ، وقد قرفص فى مقعده ، وتوترت أعصابه توتراً شديداً مما أصابه من خداع حواسه ، ومن توهمه أن كارثة ستحل به فجأة ومن حيث لا يحتسب — من انتهاء السكون الذى يكون معناه أن آخر خزان للوقود قد جف ، أو من صدمة السقوط فى الماء .

وكان النعاس يثنى رءوس الطيارين أيضاً وهم جلوس وحدهم فى الظلام ، فقد كانت محركاتهم تدور بانتظام ، فتنقلب الدورة المنتظمة طنيناً ، ويصير الطنين غناء مرقداً يخمد الحس ويفضي إلى التهلكة .

وقد نبه ستيرى نفسه وردها عن التهويم بأن شغلها مبالغاً فى كل أمر جهده ، وحصر اهتمامه فى نطاق برجه ، وتعمد تعقيد أبسط الأعمال ، ليمنع أن يرنق النوم فى عينيه . وكان يدور بوجهه حتى لا تتعلق عينه بأية آلة من آلاته فيقاربه النوم ، وجعل يلمس الأدوات ، ويرخى حزامه ، ويربت على جيوبه ، ويخرج مصباحه ، ويتأمل مقياس الوقود ، متحرياً الدقة فى ذلك كله .

ومهما يكن ما يوجه الطيار إليه نظره ، مرة أو مرات ، فإن عينيه كانتا ترتدان دائماً إلى إبرة مقياس الوقود . وفى طائرات الانقضاض أربعة خزانات للوقود ، وقد كانت الخزانات الثلاثة قد أشرفت الآن على النفاد ، وكان بعض الطيارين لم ير الإبرة تسقط فى الوقت المناسب ليتحول إلى الاستمداد من الخزان الأخير فى يسر ، فكانت المحركات تقف ، والطائرات تهوى إلى أن تدور ثانية بعد أن تعمل طلمبات الوقود .

وقد ترك أدمز محركاته تمتص آخر قطرة من البنزين فى خزانه الثالث ، ثم تحول إلى الرابع وأعاد إلى محركاته الحركة ثم نادى كيللى المدفعى وقال له : « فى المرة الآتية حين ينفد الوقود ، تعرف أننا نازلون إلى الماء » .

فأجاب كيللى فى هدوء : « مفهوم » .

وسمع المدفعى إسترادا محرك الطائرة التى هو فيها يقف ثم يدور ، فأدرك معنى ذلك ولكنه لم يعد يعبأ بشىء . فقد أضمره الإعياء ، وتعب من التفكير فى الطائرات الثلاث التى شاهد إسقاطها .

ثم بدأوا يرون الإشارة المنبئة بقرب الوصول وقد رآها ستيرى حين كان منها

على مسافة ٦٠ ميلا . وكان هو وويموث يسيران فى اتجاه منحرف إلى الشمال ، فملا يمنة واتجها إلى الشعاع وسرباهما خلفهما .

وفى منتصف الساعة التاسعة تماماً أبصر الطيارون الأسطول الأمريكى لأول مرة ، بفضل نور كشاف أفقى منبعث من سفينة فى عمارة بنكرهل ، فراح الطيارون يحدثون أنفسهم : « لقد عدنا على كل حال ! فإذا هبطنا فى الماء الآن فإنهم سيلتقطوننا » .

غير أن متاعبهم كانت على وشك الابتداء .

كانت الحاملات التابعة للقوة ٥٨ مبعثرة فوق مئات من الأميال فى المحيط . وكان على كل طيار أن يهتدى فى الظلام إلى سفينته ، وعليه بعدئذ أن يؤدى الأعمال المعقدة التى يتطلبها النزول بلا أدنى خطأ .

وهذا عمل شاق حتى بالنهار ، وهو يبدأ بأن يلف السرب فى الجو على ارتفاع مأمون حتى تدور الحاملة وتواجه الريح وتبعث بإشارة تقول : « إنى مستعدة لتلقيكم » . ومتى تلقى قائد السرب هذه الإشارة فإنه يحرك جناحيه للنزول ، ويدلى عجلاته ورفارفه ، وينزل إلى المهبط ، ويتبعه من يكونون على جناحيه ، ثم الآخرون .

و « دائرة » النزول على صورة حافة حوض الاستحمام ، والجوانب تسمى « السيقان » . والساق الأولى المواجهة للريح تبدأ عند مؤخرة السفينة وتمتد على جانبها الأيمن . ومتى قطع الطيار ميلا أو أكثر فإنه ينثنى يسرة ، ويقطع الريح مسافة نصف ميل ، وينثنى مرة أخرى يسرة ، وبذلك يتسنى له أن يهبط على خط مقابل لخط السفينة .

ومتى صار مواجهاً لمؤخرتها فإنه يسرع فى الانحناء يسرة ، فإذا أدى هذه الدورة الأخيرة بإحكام ألقى نفسه فى « الأخدود » ويقبل على السفينة من خلفها مباشرة . على أنه كلما اقترب زاد ما يحتجب من سطح السفينة عن ناظره ، لأن مقدمة الطائرة تستره ، ويكاد يستحيل عليه أن يتم نزوله بغير مرشد فى هذه الثوانى الأخيرة الحرجة .

والمرشد هناك — وهو ضابط إشارة النزول وعمله من أهم الأعمال وأدقها فى السفينة كلها ، ومركزه منصة صغيرة على طرف الجانب الأيسر من السطح ، ووراءه ستار مربع من القماش ليقيه ضغط الريح المطرد على السطح ، وتيار الطائرة التى نزلت وأخذت تسير على عجلاتها إلى موضعها ، وإلى جانبه شبكة يلقى بنفسه فيها إذا مالت الطائرة ودنت منه أكثر مما ينبغى ، فإذا تجاوز الشبكة فإنه يقع مسافة ٦ أقدام على مصطبة مدفع ومن ثم مسافة ٥٠ قدماً إلى البحر .

ويستخدم ضابط الإشارة لإرشاد الطائرة

نهاراً عند نزولها مصطلحات من الإشارات بواسطة رايتين لونهما زاهٍ ، وفى الليل يستعمل عصوين مضيئتين ، فيرسم بذراعيه علامة ٧ إذا كانت الطائرة أعلى مما يجب ، ويرسمها مقلوبة إذا كانت أدنى مما يجب ، ويكون الذراعان أفقيين إذا كان مستوى الطائرة صحيحاً ، ومائلين إذا كان غير ذلك . وفى اللحظة المناسبة فى الاقتراب المحكم يمر الضابط يده اليمنى على عنقه : « اقطع المحرك وانزل » فينزل الطائر بطائرته إلى السطح فيعلق خطاف الذيل بواحد من الأسلاك المتحاذية الكثيرة المشدودة على ظهر السفينة فتقف الطائرة ، فإذا تخطى الخطاف كل الأسلاك ولم يعلق بواحد منها ، فإن حواجز من الأسلاك ترفع وتنزل بسرعة ، فتصده .

وإذا كان اقتراب الطائرة لا يبعث على الرضى فإن ضابط الإشارة يرفع الرايتين أو العصوين ، فوق رأسه ويجعلهما ، متقاطعتين ثم يفتحهما ، ليرده عن النزول وعلى الطيار حينئذ أن ينثنى يسرة ويدور دورة النزول مرة أخرى . ويجب أن تطاع إشارة الرجعة والانصراف ، فإذا أهمل الطيار هذه الإشارة فإنه يمنع بعد ذلك من الطيران .

وكان ضابطا الإشارة فى الحاملة لكسنجتون هما جون شاف ، ويوجين هانسون ، وكلاهما طيار ذو خبرة . وقد ظهرت أولى الطائرات العائدة فوق قوة الضرب فى الساعة ٨ ½ فصعد هانسون عينيه إلى السماء وقال : « لا قمر وهذا خليق أن يؤودنا » . فقال شاف : « قمر أو لا قمر . سيكون الأمر شاقاً على الحالين » .

وكل طراز من الطائرات له طريقة خاصة فى النزول تبعا لخصائصه . وكان شاف وهانسون قد أبلغا أن هذه الطائرات من طراز « هل ديفرز » . وهو طراز لم يكن منه شىء فى الفرقة الجوية ١٦ . وكان شاف قد أنزل اثنتين من هذا الطراز فقط ، وكانتاهما زائرة ، أما هانسون فلم تكن له حتى هذه التجربة اليسيرة . فقال لشاف : « إنك تعرف هذه الطائرات ، فيحسن أن تتولى أنت أمرها » .

فرفع شاف عصويه المضيئتين ، وألقى نظرة على الناحية المقابلة له ليرى باد ديرنج . وكان على ديرنج أن يقوم بأمرين : أن يحذر شاف حين تكون الطائرة خارج الخط وأدنى مما ينبغى ، وأن يلقى ضوءاً على كل طائرة مقبلة ، ليرى هل خطاف ذيلها نازل فى موضعه تماماً . فجعل يطرف بمصباحه يضيئه ويطفئه ، ليخبر شاف أنه مستعد .

وكانت الحاملة لكسنجتون تعتدل حيال الريح ، وجاء صوت الكومندر سذرلند ، ضابط الطيران ، يصيح من الأبواق الموضوعة فوق السطح : « أنزلوا الطائرات ! » .

وكان الأميرال متشر قد ترك غرفة الخرائط مرتين إلى برج القيادة ، وفى كلتا المرتين وقف وحده يحدق فى السماء ، وكان أعوانه يعرفون حيرته ، ويعلمون أنه هو وحده الذى يستطيع أن يبت فى الأمر : فهل يضىء الأنوار ويعرض السفن للخطر ، أو يدعها مطفأة ويعرض الطيارين للخطر؟

لقد قاد آلافاً من الرجال وسفناً تقدر قيمتها ببلايين الريالات إلى مياه العدو ، ومنذ خمس ليال قذفت طائرات العدو الحاملة لكسنجتون بأربعة طرابيد ، مرق اثنان منها على مسافة عشر ياردات من هيكلها ، وقد أطفئت أنوارها منذ ذلك الوقت . فإذا أضيئت أنوارها وأنوار غيرها من السفن الآن ، فإن أية قاذفة طربيد معادية أو قاذفة قنابل أو غواصة فى هذه المنطقة لا يمكن أن تخطىء هدفها ، غير أن النزول بالليل خطر حتى مع إضاءة الأنوار كلها . وبعض هؤلاء الطيارين الذين فى الجو لم يجربوا النزول فى الليل قط ، وحتى خير الطيارين قد بعد عهده بذلك ، فتصور عدة مئات من الطائرات تتحسس طريقها إلى هذه المنازل الضيقة فى الظلام .

وعاد متشر إلى غرفة الخرائط ، وهوى إلى المقعد المحشو بالريش ، وظل دقيقتين أو نحوها يدخن فى سكون ، ثم رد قبعته وحك جبينه ، وقال : « أضيئوا الأنوار » .

فأذاع الكبتن بيرك الأمر على السفن ، فانطلقت الأنوار الكشافة ، بعضها عمودى كعلامات للقوة البحرية ، وبعضها أفقى لإضاءة حاملات الطائرات فى الظلام .

وأقبلت الطائرة الأولى من المؤخرة مباشرة فتلقاها شاف بعصويه ، ودعاها إلى الهبوط قليلا ، فلما اتزنت أشار بعصاه اليمنى إشارة الحز على رقبته ، فعلق الخطاف بالسلك الثانى ، فوقفت بضجة على السطح ، والدخان ينبعث من عجلاتها ، وذيلها يضطرب من أثر القوة التى تضطرها إلى الوقوف . وكانت الساعة ٨ : ٥٠

فقال شاف : « هذه إحداها قد دخلت على كل حال » .

وما كادت الطائرة تقف حتى سأل متشر : « من أية سفينة هذه الطائرة ؟ »

« من السفينة هورنت يا سيدى » .

« هورنت ؟ إنها ليست من فريقنا ! إذا كان الطيارون يشق عليهم كما أرى أن يهتدوا إلى سفنهم ، فيحسن بنا أن نجعلهم ينزلون حيث يستطيعون ، وفى الصباح نردهم إلى سفنهم » .

فسمع الطيارون هذا الأمر فى الساعة ٨ : ٥٢ « على جميع الطائرات بأمر قائد قوة

الضرب ٥٨ أن تنزل إلى أية قاعدة تراها ».

وأدخل شاف الطائرة الثانية وكانت طائرة ضالة من طراز « هلكات » وما كاد يفعل ذلك — وكان أمر متشر قد أذيع — حتى شعر كأنه صار هدفاً لهجوم بالمدافع الرشاشة . فبدلا من أن تقبل الطائرات واحدة بعد واحدة بانتظام ، صارت تقبل اثنتين اثنتين ، بل فى أسراب ومحركاتها تزأر معاً ، وهى تتزاحم وتتسابق على التماس الإذن بالنزول .

وكان من المستحيل إفراد واحدة منها بإشارة ، ذلك أن الطيار المجاور لها أو الذى فوقها قد يتوهم أن الإشارات موجهة إليه ، وإذا حاولت طائرتان أن تهبطا فى وقت واحد ، فإنهما خليقتان أن تتحطما وأن يقتل رجالهما ، ويعود السطح غير صالح للنزول مدة ساعة . فأشار إليهما جميعاً أن تنصرف وترتد ، وكان يدرك بمرارة أن بعضها قد لا يكون عنده من الوقود ما يكفى لدورة أخرى ، ولكنه لا حيلة له فى هذا .

وصرف الجماعة التالية والتى بعدها ، وأنزل طائرة من طراز هلكات تابعة للسفينة إنتربريز ، وورد جماعة ثالثة . وكانت العصوان — وطول كل منها ٢٤ بوصة وهما مثقلتان ببطاريتين كهربائيتين — تبهظان ساعديه ولكن الطائرات المنهوكة ظلت تقبل . وأنزل طائرة ثالثة من طراز هلكات ، ثم تخير أخرى من طراز افنجر وكادت تبلغ السطح ولكن محركها وقف ، وهوى جناحها الأيسر ، وتحول طرفه نحو صدر شاف كأنه منجل زنته سبعة أطنان ، فارتمى فى الشبكة ، ثم رفع رأسه فرأى الطائرة تهوى إلى البحر ، وخرج منها ثلاثة ، وكانوا يلوحون وهم يفعلون ذلك .

ولم تمض سوى عشر دقائق على إنزال أول طائرة ، ولكن قلق الطيارين بلغ مبلغ اليأس ، وكانوا قبل ذلك يتقبلون إشارة الارتداد على الفور ، فصاروا يدنون من طرف السطح وكأن كلا منهم يطمع أن ينصرف منافسوه فى آخر لحظة ، وكان بعضهم ينخفض فى طيرانه إلى حد يضطر شاف أن ينزل الستار الذى وراءه ، ولولا ذلك لاصطدموا به ، والبعض الآخر ينحرف إلى الجانب الأيمن ويكاد يحك طرف جناحه بأبراج المدافع من عيار خمس بوصات المقامة على حافة المهبط .

وكان كل من لا عمل له قد صعد إلى ظهر السفينة ليرى ما يجرى ، فاحتشدوا فى كل مكان حول المهبط . ولما ردت الطائرات القليلة الأولى عن النزول صاحوا بها : « لا بأس ! ستنزلون فى المرة الآتية » ولكنهم ما لبثوا أن صمتوا . وكانوا يهتفون للطائرات التى نزلت بسلام ، على طول السطح ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولكنهم كفوا عن المزاح ، وقل كلامهم .

وانزل شاف طائرة رابعة من طراز هلكات، وصرف عدة طائرات فى أعقابها ، فارتمت إحداها فى الماء . وظنها طائرة مقاتلة ، وخيل إليه أنه رأى الطيار يخرج برأسه من الماء ولكنه لم يكن واثقاً . ولم تكن إلى ذلك الوقت قد نزلت طائرة واحدة من الفرقة الجوية ١٦

وأقبلت جماعة أخرى من الطائرات ، فلما ردها فذهبت ظهرت من خلفها طائرة — من طراز «هل دايفر» ولا ضوء فيها ، وهى تسير بسرعة وتتجه مباشرة إلى المهبط . فلوح شاف بيديه ، فإن طائرة تهبط إلى السطح بمثل هذه السرعة لا بد أن تمزق كل الحواجز فلا تعود الحاملة صالحة لتلقى أية طائرة فى تلك الليلة ، غير أن الطائرة لم ترتد ولم تخفف من سرعتها .

فأشار إليها شاف مرة أخرى بعنف . وكان البحارة الموكلون بترتيب الطائرات فى مواضعها ، يعالجون فى مقدمة السفينة ، طائرة هل دايفر كانت قد نزلت منذ لحظة ، ووقف وليم لونج يشير إليها ليدفعها ، فتقطع الأقدام القليلة الأخيرة إلى موضعها ، وعلى جانبيها رجلان منحنيان على مقربة من العجلتين ليوقفاها بحواجز ثقيلة من الخشب ، وثمانية رجال يدفعون الجناحين ويعاونون على طيهما.

فلما اندفعت الطائرة الشاردة مارة بالضابط شاف ، أدار الكومندو سذرلند صفارة الصادمة ، فصاح الملازم ڤرن براذر رئيس بحارة المهبط : « أخلوا السطح ! » وانطرح على الأرض قبل أن يضرب رأسه طرف جناح ، وصرخ لونج : « ابعدوا ! » واستطاع بعض بحارته أن يتقلبوا ويصلوا إلى الماشى ، وارتمى بعضهم على الأرض وغطوا وجوههم بسواعدهم . وثبت الرجال الموكلون بعجلات الطائرات فى مراكزهم .

ومرت الطائرة الشاردة فوق الحواجز ثم اصطدمت بقوة ساحقة فانطفأ كل ضوء ، ونفذت صرخة من خلال الدم فى حلق بعضهم ، وصاح بعضهم : « قنبلة سايبة ! » ثم لا صوت سوى حسيس أدوات الإطفاء .

وأقبل براذر يظلع ، وعلى أثره الدكتور نيل باكستر الجراح ومعه أربعة اثنان منهم من حملة المحفات ، وأومض نور أخضر من البرج ، فوقف أحد الرجال وهمس «ياالله!» ثم دخل براذر وباكستر فى هذا الخليط .

وكانت الطائرات الست التى أنزلها شاف قد رصت فى المقدمة ، وكانت أربع منها فى خط الصادمة ، وفى آخرها الطائرة التى أنزلها شاف منذ لحظة ، وهى من طراز هل دايفر ، وكان طيارها ومدفعيها لا يزالان فى مكانيهما منها ينتظران أن توضع الحواجز

الخشبية لوقف العجلات ، فاخترقت المروحة البرج الخلفى وشطرت المدفعى شطرين ، واندفع ذيل الطائرة هل دايفر إلى مقدمتها تسمر الطيار فى مكانه . واصطدمت الكتلة كلها بالطائرات الثلاث التى أمامها فدمرتها.

وتحطم أحد الرجال الواقفين فمات على الفور . وفقد لونج وعيه من الصدمة وأصيب أربعة من البحارة ، وانكسرت ساق الطيار المسمر ، أما الطيار والمدفعى اللذان كانا فى الطائرة الشاردة فلم يصابا بسوء.

وانبثق الزيت والبنزين من الخزانات المحطمة ، وسالا على السطح والممشى الأيسر ومصاطب المدافع ، فشرارة واحدة تكفى لإضرام النار حول الذخائر .

وأخرج باكستر المصابين وضمدهم وأعطاهم المورفين ، وكان لونج يهذى ويصيح : « ابعدوا ! ابعدوا ! » وكان دم الرجال يبدو فى الضوء أسود كالقطران .

وكان أحد الضباط عند أحد مصاطب المدافع يمسح الزيت من عينيه ، فشد بعضهم ذراعه ، وكان أحد البحارة وعلى أذنيه السماعات ، يحرك شفتيه ليقول شيئاً ، ولكن الصوت كان لا يخرج ، فاكتفى أخيراً بأن يشير بإصبعه ، وإذا قنبلة زنتها ٢٥٠ رطلا وفيها فتيلها على بضع أقدام منهما .

وكان سذرلند حين صدمت الطائرة هل دايفر قد جذب ذراع لوحة الإضاءة ليطفىء الأنوار ، فيعلم الطيارون أن المهبط عاد لا يصلح للنزول . فما يمكن إنزال طائرة ما حتى يرفع الحطام ، وكانت كل دقيقة تمضى تدنى الطيارين من خطر نفاد البنزين.

وصعد سذرلند طرفه إلى السماء ، فإذا بإمكان نزول الطائرات قد استحال . وكانت الطائرات تتزاحم وقد استولى على رجالها الفزع ، وتندفع كالعمياء وكل منها تحاول أن تكون الأولى فى الخط حين تعاد الأنوار ، وكانت تبدو كأنها تحوِّم فوق المؤخرة ، ثم ترتد وتدور وتتخذ مكانها .

وانقضت أربع دقائق ، ومدت الآلة الرافعة يدها إلى الحطام وشدت ، فخلص شىء وتدلى على جانب السفينة ، ثم وقع فى الماء . خمس دقائق . وجرت طائرة من طراز دونتليس على وجه الماء على مسافة مئة قدم ليس إلا من ميسرة السفينة ، ثم كفت فجأة وغطست ، ولم يخرج منها أحد ، وغابت فى الماء طائرة أخرى إلى الخلف غير أنها كانت بعيدة ، فلم يستطع سذرلند أن يتبينها . ثمانى دقائق . . . تسع .

وكانت الطائرة هل دايفر قد تحطمت فى الساعة ١٠ : ٩ وفى الساعة ٣٠ : ٩ أضيئت أنوار الحاملة لكسنجتون مرة أخرى فالتقط شاف عصوين . وأقبلت طائرة مفردة

من طراز أفنجر فأشار إليها أن تنخفض ، وقلل سرعتها ، وأنزلها . فلما تلفت رأى ست طائرات مقبلة عليه . لقد عاد التزاحم .

وكان التزاحم على أشده حين بدأت طائرات الفرقة الجوية ١٦ تظهر فى الجو ، وكانت المقاتلات فى المقدمة ، وكان الطيارون قد سمعوا إذن منتشر لهم بأن ينزلوا على أية قاعدة ، غير أن معظمهم أحس كما قال ساى سايبرت : « أنى أريد أن ينزلنى ضابط الإشارة فى سفينتى لينسى لى أن أنام على فراشى » وكانوا واثقين أنهم متى اهتدوا إلى مكان قوة الضرب فإنهم يستطيعون أن يتبينوا جماعتهم ، ولكن ثقتهم ضاعت لما رأوا المنظر الذى تحتهم .

وكان على مقدمة كل سفينة مصباحان ثابيان ، ولكن الطيار لا يستطيع أن يميز بهما حاملة الطائرات من المدمرة ، وإنما وسيلته مبلغ علو السفينة ، وما أكثر ما يعجز عن معرفة سفينته هو . وكانت كل حاملة ترسل نوراً وهاجاً ولكنه لا يرى إلا من فوقها رأساً ، ومع أن المهابط عليها مصابيح صغيرة ، إلا أنها لا ترى إلا من مسافة قريبة جداً من المؤخرة .

وكان الطيارون يرونها لماماً حين يرونها ولا يبصرون شيئاً فيما بين هذه اللمحات ، وكانت الأنوار الكشافة تضىء وتنطفىء ، والمشاعل تسطع على وجه الماء وتعين المواضع التى غطس فيها بعضهم . وكان الطيار ، إذا اضطرم أحدها على مقربة منه ، يحس أنه طائر فى جوف مصباح كهربائى ضخم . وكانت أضواء الطائرات نفسها تتوامض فى هذا الخليط : صفراء وخضراء وحمراء وبيضاء ، وتخفق وتتداخل وتتقاطع كأنها شريط من أنوار نيون فى عاصفة .

وقد اضطر سايبرت ووندورف (وهما طياران فى طائرتى قتال) أن ينفصلا ويتباعدا لتمر بينهما طائرة عابرة . وشاهدا حاملة ، ثم احتجبت عنهما واحتجبت أخرى أيضاً . وأقبل سرب من القاذفات عليهما فساقهما إلى الماء تقريباً ، وبدأ سايبرت يحدث نفسه ليذهب عنها الروع .

ووجد حاملة أخرى وأقبل عليها مقترباً منها ، وإذا بطائرة ليس فيها ضوء تظهر فجأة إلى يساره ، فاضطر أن يميل يمنة بسرعة حتى لكاد جناحه يصطدم ببرج السفينة . ولم يزل ما عراه من الاضطراب إلا بعد أن صارت السفينة على مسافة ميل وراءه . وفى المرة الثانية ، كان يقوم بالدورة الأخيرة ، وإذا بالنور الكشاف فيها يريه أنه ليس بينه وبين الماء سوى عشر أقدام فصعد وجاوز « الأخدود » ومر فوق « الجزيرة » مباشرة للمرة الثانية ، فلام نفسه : « ألا

لماذا فعلت هذا ؟ » . وكان فى منتصف الطريق إلى السفينة ، مرة أخرى وإذا بالأنوار تطفأ ، ولاحظ فى الوقت نفسه أن إبرة مقياس الوقود وقفت ، فحاول أن يهدئ روعه بأن يقول لنفسه : « لا تجزع يا سايبرت ! لا تجزع ! لا تجزع ! » وأضيئت أنوار السفينة ولكن الطائرة التى أمامه ارتطمت بالحواجز فصار المهبط غير صالح ، ورده ضابط الإشارة : « لا تجزع ياسايبرت ! لا تجزع !! » .

وتشدد فى مقعده وتماسك وبدأ للمرة الخامسة يقترب ، فأشار إليه الضابط أن ينزل ، ورأى برجين مألوفين فعرف أنها الحاملة لكسنجتون . ولم يكن يريد أن يتقدم بالطائرة بعد الهبوط إلى الأمام ، وإنما كان يريد أن يثب عن مقعده ويرتمى على السطح ويقبله . وصاح بعضهم : « هذا سايبرت ! مرحباً ياساى ! » وربتوا له على كتفيه . فلم يفهم لماذا يفعلون ذلك حتى أخبروه أن طائرته هى المقاتلة الوحيدة التى نزلت . فسأل : « أين وندى ؟ كان ينبغى أن يكون هنا من زمان طويل ! أين هو ؟ » فلم يستطع أحد أن يخبره بشىء .

وفى غرفة الجلوس بالحاملة لكسنجتون ، جاء الدكتور باكستر بطيار الطائرة هلدايفر التى تحطمت على السطح ، وكان قميص باكستر ملوثاً بالدم ، وقميص الطيار ممزقاً عند الكتفين ، وكانت القطع الممزقة ملطخة بالدم ، فأشار إليها باكستر وقال : « شظايا شرابنل . لقد مر بهذا الفتى وقت عصيب . وأنا أريد منه أن يقص عليكم ما حدث . اجلس يابنى ، فسينفعك أن تطرح هذا العبء عن صدرك » .

وكان الطيار يبدو كأنما يجثم على صدره كابوس ، وكانت عيناه على حذائيه ، فلما تكلم كان الكلام يتدفق كالطوفان ، ولكن الصوت كان خافتاً حتى ما يكاد يسمع :

« انفجر علينا جحيم فوق الأسطول اليابانى — وأحسبه من قنابل الترميت ، وقد خرقت الشظايا الجناح الأيسر فى طائرتى فاضطرمت الحروف وبدأت تذوب . وكانت عينى عليها وهى تذوب . وأصبت فى ظهرى هنا ، ولم أكن أدرى مبلغ إصابتى ، ولكنى كنت أحس بالدم يسيل على ظهرى . وأخذ هذا الثقب الذى فى جناحى يتسع ، ويتسع فهوت الطائرة مائلة ، وشرعنا ندور ، وخطر لى أنه يحسن أن أهبط إلى الماء قبل أن يذهب الجناح كله ، ولكنى مالبثت أن رأيت أن الحروف قد فقدت حمرتها فقررت أن أعود بالطائرة . وقد عدت ، ولكنى لا أدرى كيف . ووجدت هذه

السفينة ، ولكن دائرة النزول كانت غاصة . ولم يكن قد بقى عندى من الوقود إلا حفنة ، ولا نور على الإطلاق . وكنت أدرك أنى لن أستطيع النزول ، ولكنى زاحمت ودخلت فى الدائرة ، ورأيت إشارة الضابط أن أرجع ، ولكنى لم أستطع أن أطيعها .. لم أستطع بتاتاً .. وليتنى كنت استطعت ! وإنى لمستعد أن أضحى بكل شىء . . . . هؤلاء الذين قتلتهم .. » . ونهض وخرج .

وحاول سوانسون مرتين أن ينزل بإحدى الحاملات الكبيرة — لا يدرى أيها — وكاد يفعل لولا أن طائرة أقبلت عليه فاضطر أن يميل عنه ، وقد حجب برج الحاملة الضخم ، السماء عن عينه وهو يمر بجانبه . وأراه مقياس الوقود أن ما عنده منه خمسة عشر جالوناً ، فأنبأ زملاءه أن عليهم أن يتهيأوا للنزول فى الماء .

وفى هذه اللحظة لمح حاملة طائرات أخرى ، وبدا له أن مدار النزول إليها خال ، وأشار إليه ضابط الإنزال أن يهبط ، وكان سوانسون قد سوّى على إصبعه خاتمه الذى يجلب له حسن الحظ ، فاستعد لخير هبوط قام به فى حياته ، وكانت الحاملة هى برنستون ، وكانت طائرته أول ما نزل عليها .

فمضوا به إلى ضابط السطح ، ولكن كل ما استطاع أن يقوله هو : « اعتنوا برجالى من فضلكم ! » وكرر هذا وهو ذاهل : « اعتنوا برجالى » وأخذه ضابط آخر وساعده على الرقاد . ثم ما لبث أن عاد وسأله : « سنزود طائرتك بالوقود والسلاح الليلة فهل أنت مستعد للطيران فى الصباح ؟ » .

فلم يصدق سوانسون ما يسمع ، وصاح : « كلا ! كلا ! » . وأدار وجهه إلى الوسادة وطلع الصباح قبل أن تسمح له أعصابه بأن ينام نصف ساعة .

لما اهتدى توم برون إلى الحاملة لكسنجتون كانت أنوارها مطفأة وسطحها غير صالح للهبوط ، وكان الباقى من الوقود عنده ضئيلا ، فخطر له أن يبحث عن حاملة أخرى ، غير أنه قرر أن يجازف وينتظر إضاءة الأنوار فى الوقت الملائم . فلما دار دورتين حول منطقة الهبوط كان ما بقى عنده من الوقود لا يكفى إلا لدورة أخرى ، فلما قام بها كانت لكسنجتون لا تزال مظلمة وكانت إبرة مقياس الوقود على « الفارغ » .

وكان توم برون قد سمع باز توماس يقول : « سأنزل إلى الماء » فأحس بدافع يغريه بأن يقول : « هلو باز ! أنا توم برون ! وسألحق بك » .

ولمح برون أمامه وإلى اليسار ، مدمرة ، فدار إليها وأخذ يضيء أنواره ويطفئها

ليلقفها إليه ، وترك الطائرة تهبط ، وكان اللهب الخارج من أنابيب العادم ينعكس على وجه الماء ، ويزداد التماعاً ، واصطدمت الطائرة بالماء ووقفت . ومن حسن الحظ أنها شوهدت فأنقذ رجالها .

وفى أثناء ذلك كانت المنقضات من طراز دونتليس قد أقبلت ، وكثير منها ليس فيه من الوقود إلا ما يكفى للطيران خمس دقائق أو عشراً ، فاجتاز بها ويموث قائدها صف المدمرات ، ودار بها دورة فى خط متعرج ، وقد عاد بها الآن إلى قواعدها فانتهت مسئوليته ، وعلى كل طيار أن يعنى بنفسه من هنا إلى « الأخدود » .

وبدأ كليلاند يهبط ، فصدمت طائرات عابرة جناحيه ، وأفقدت طائرته اتزانها وأخرجتها عن طريقها ، وأحس أن ذهنه يتحول إلى تراب ، وارتكب أغلاطاً وهو يدرك أنه يرتكبها ، وحاول النزول مرتين على الحاملة برنستون ، ومرتين على الحاملة لكسنجتون ، ومرة على مدمرة ، ومرتين على الحاملة إنتربرايز ، ولم يتذكر كيف نزل أخيراً على سطح إنتربرايز ، ولم يثب إليه عقله إلا وهو يسير بطائرته على المهبط ، وحين وقفت محركاته لنفاد الوقود . وحدثته نفسه أن يقفز منها ويربت على غطاء محركها : لقد وصلت سالمة بآخر قطرة من وقودها !

ودفع الطائرة عمال المهبط بقية المسافة إلى المقدمة ، وبعضهم يدعو بعضاً أن ينظروا إلى الثقب الذى تحت برج المدفعى ، والتمزيق الطويل فى رفرف الجناح الأيمن ، وثقب قذيفة تحت الخزان الأيمن ، وكانوا جميعاً فى ذهول . فقد حدث قبل دقائق ما لم يكن أحد يتصور أنه فى الإمكان ، ذلك أن ضابط الإنزال كان يشير إلى طائرة مقاتلة أن تهبط ، وإذا بطائرة من طراز دونتليس تهبط فوقها تقريباً ، فانطرح الرجال فى الماشى ، وتناول رجال المطافىء أدواتهم وبادروا إلى المهبط ، ولكنه لم يحدث اصطدام ولا انفجار ، وتعلق خطاف الذيل فى الطائرة المقاتلة بالسلك الثانى ، وخطاف الدونتليس بالسلك الخامس ، ووقفت الطائرتان وقوفاً سهلا دون أن يصيبهما أذى .

وكان رجال المهبط على حاملة الطائرات إنتربرايز لا يزالون مضطربى الأعصاب مما نجوا منه ، فأقبل كابتن طيار وحاول أن يخرج كليلاند ومدفعيه هيسلر من معقديهما ، وصاح بهما : « اخرجا ! بسرعة ! فإن علينا أن ندفع هذه الطائرة إلى البحر ! » .

فتذكر كليلاند الهجوم على بالاو ، وكانت طائرته قد أعطبت هناك أيضاً ، وقد نزل بها على سطح الحاملة إنتربرايز كذلك ، فأراد القوم حينئذ أن يدفعوا طائرته ليلقوا

بها فى الماء ، وقد أقنعهم بالعدول فالآن شرع يتكلم يقنعهم مرة أخرى .

فقال الكابتن الطيار : « لا فائدة ! إن هذه الطائرة العتيقة قد تلفت تلفاً بالغاً . ولا محل لها عندنا . تنحّ ! »

فأخرج كليلاند مسدسه وقال : « عليك لعنة الله ! هذه الطائرة تبقى حيث هى ! »

فقال الكابتن الطيار : « لا بأس ياسيدى إذا كان هذا شعورك نحوها . . . » .

وكانت الطائرة التالية التى ظهرت فى دائرة مهبط الحاملة لكسنجتون تدعو إلى الاستغراب ، فقد كان فى منظرها الغامض شىء غير مألوف . وفى الوقت نفسه رأى ضابط الإشارة شيئاً آخر غير معهود ، ذلك أن خطاف الذيل غير متدلّ ، فألقى عليه شعاعاً من نوره الكشاف لينبّه الطيار ، فأراه النور هيكل الطائرة ودائرة حمراء كبيرة ، فتبين أنها من طراز « جيل » ، وأنها من أحدث طائرات الطربيد اليابانية .

فالتقط الضابط عصويه ولوح بهما فوق رأسه ، فارتدت الطائرة ومضت إلى حاملة أخرى ، فرُدّت عنها كذلك ، ثم ظهرت قريبة من الحاملة بنكرهل ، التى أذاعت الإنذار الآتى باللاسلكى : « على جميع الطائرات التى فى هذه المنطقة أن تنأى عن دائرة مهبطنا ، فإن فيها طائرة معادية ، وسنطلق عليها النار ! » ولكن الطائرة غابت قبل أن تستطيع أن تطلق السفينة نارها ، ومضت إلى حاملة طائرات رابعة ، وأطفأت كل سفينة أنوارها . وصدر الأمر إلى رجال المدفعية بالاستعداد ، وبذلك بلغت الهستيريا فى تلك الليلة ذروتها .

ولعل الطيار اليابانى كان ضالاً ، ولعله كان يتلهف على الهبوط فوق أى سطح كأى طيار أمريكى فى تلك الليلة . وإن فى إطاعته لإشارة الانصراف ما يوحى بذلك ، ولكنه ما من أحد كان يجرؤ أن يفترض أنه جاء مسالماً والآن لن يستطيع أحد أن يهتدى إلى الحقيقة . وقد كشفه طراد بأنواره ورآه يترنح ويهوى إلى البحر .

وكان شاف قد يئس من إنزال الطائرات فى يسر ، وكل ما كان يبتغيه هو أن يراها على سطح السفينة بسلام ، فإذا كانت على مسافة قريبة من السطح أشار إليها بتخفيف السرعة ، وقد قفز خمس مرات إلى الشبكة ، وبعد فترة تسلم هانسون منه العصوين ، وقد اضطر أن ينزعهما من يديه المتصلبتين .

وفى أثناء ذلك كان الطيارون الذين نزلوا على سطح السفينة إنتربرايز فى حجرة الجلوس ينتظرون المفقودين فى قلق ، وكان

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

بنكى أدمز أول من نزل بطائرة من طراز دونتليس، فسقوه جرعة قوية من البراندى ولكنه لم يستطع أن يشربها كلها وقال : « لقد أسأمتنى الحرب حتى سئمت الخمر ».

ولما دخل كليلاند ، أعظم طيارى السرب حماسة وإقداماً ، دفعه بنكى إلى ركن وسأله : « هل شبعت يا كوكى ؟ » .

فقال كليلاند : « لقد كان وقتاً عصيباً » .

« ليس هذا ما سألتك عنه . هل شبعت ؟ »

« لقد كانت المعركة حامية لا مراء »

فألح أدمز عليه قائلا : « لا يزال هذا غير ما سألتك عنه . هل شبعت ؟ »

فقال كليلاند فى رزانة : « نعم يا أدمز شبعت » .

ولما دخل هانك موبرز ومدفعيه لى ڤان إيتين الحجرة ، رمى ڤان إيتين جهاز التصوير على كرسى وصاح : « خذوا هذه ، قبحها الله ! فلن أستعملها مرة أخرى ! لن أطير مرة ثانية ! أبدا » .

وكانت آخر طائرتين وصلتا من سرب الدونتليس هما اللتان يقودهما كيركباتريك ، وكونكلين ، فوجدا حاملة طائرات ، ومرابها عن يمينها ، ولمح كونكلين خيالها فقال لنفسه وهو جذل : « هذه هى ! هذا هو بيتنا الذى لا بيت مثله ! » .

ووجد الطيارين الآخرين فى حجرة الجلوس ينظرون إليه نظرة غريبة ، فلم يفهم معنى ذلك حتى قالوا له إن جبينه يدمى . وكان يذكر أنه رفع مقعده ، وأرخى حزام كتفيه ليراقب الطائرات العابرة ، ولعله ارتمى إلى الأمام وصدم جبينه باوحة الآلات حين هبط ، ولكنه لا يتذكر .

ولما سأله ضابط المخابرات فى السرب عن قصته قال : « لقد أرهقتنى المقاتلات اليابانية من قبل فوق ما عانيت منها الليلة ، وقمت فى مهمات طرت فيها أكثر مما طرت الليلة ، وهبطت وعندى من الوقود أقل مما هبطت به الليلة ، ولكنه لم يحدث قط أن اجتمعت على كل هذه المتاعب فى وقت واحد إلا الليلة . إى والله لقد كانت الليلة الليلاء ؟ »

وقد فقدت تسع من الطائرات الأربع والثلاثين التى أطلقتها الفرقة الجوية السادسة عشرة ، والتقطت المدمرات أو طائرات الإنقاذ معظم الذين هبطوا إلى الماء ، ولكن أربعة من الشبان البواسل لم يعودوا .

وبعد أسبوعين طلبت للناجين مداليات ، فإذا كنت لا تعرف ما تدل عليه المداليات نفسها ولماذا استحقت ، فإنك تعرف الآن .

باب الكتب

تقويم ألمانيا

ملخصة عن كتاب بقلم

إميل لدفيج

يتناول هنا كاتب ألمانى ذو شهرة دولية ، أعقد مسائل ما بعد الحرب ، وكيف يعالج الشعب الألمانى ؟

ولد إميل لدفيج فى برسلاو وتعلم فى هيدلبرج ودرس القانون ، غير أنه احترف الكتابة فى سن مبكرة . وفى ربيع سنة ١٩١٤ ذهب إلى لندن مراسلا لصحيفة يومية ، وبعد أن شبت الحرب العالمية الأولى واصل عمله الصحفى فى البلاد التى كانت محالفة لألمانيا . وقد نشر منذ سنة ١٩١٨ سيلاً مطرداً من الكتب عن أعلام العالم ، وفى موضوعات سياسية وتاريخية . وترجم بفهم عميق للروح الألمانية ، لجوته ، وبيتهوفن ، وبسمارك ، والقيصر غليوم ، وهندنبرج ، وصنف كتاباً عن الشعب الألمانى . وفى كتابه الجديد هذا يتابع دراسته الأخيرة ويتقدم بها خطوة أخرى ، ويعرض مقترحات طريفة تدعو إلى التفكير لاستئصال شأفة العسكرية الألمانية ، ورد أمته إلى الجماعة المتحضرة . وهو يقيم الآن فى الولايات المتحدة .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

تقويم ألمانيا

« بروسيا » يعنى أكثر من إقليم اسم جغرافى — فإنه يدل على فلسفة وأسلوب حياة . ولاغنى عن الإحاطة بهذه الفلسفة وبأثرها فى الشخصية الألمانية، لتقرير ما ينبغى أن تعامل به ألمانيا بعد الحرب .

بدأت إرادة الفتح فى بروسيا منذ ثلاثمئة عام تقريباً حين أنشأ « أمير » ولاية براندنبرج بيد من حديد أول جيش ألمانى نموذجى . وكان لبروسيا فى ذلك الوقت طبقة عسكرية استولت بالسطو والوراثة على رقع فسيحة من أرض شرقية يتكلم أهلها لهجات بولندية وسلافية ، وقد وعدت هذه الأسر — وهى مئتان — أميرها أن تحميه من العدوان الخارجى ، إذا أمنها على ضياعها وامتيازاتها . وهكذا ألف « الأمير » فريدريك وليم هيئة من الضباط من « اليونكرز » الملاك ، على حين دفع اليونكرز بفلاحيهم فى الخدمة العسكرية . وكان الفلاحون يعيشون طول حياتهم عيشة الأرقاء المسلحين ، ويرسلون كل عام مدة ثلاثة شهور أو أربعة إلى بلادهم ليفلحوا الأرض، ويؤتى فى خلال ذلك بجنود غيرهم . ولم يكن معلمو المدارس ورعاة الكنيسة إلا خداماً لليونكرز الذين كانوا يتولون أيضاً الوظائف القضائية المحلية ، وهكذا كانت لهم السيادة على جميع وجوه الحياة المدنية .

وهذه هى الطريقة التى أنشأت بها ألمانيا جيشها . ولما كان الملوك واليونكرز يستخدمون هذا الجيش لإخضاع الأقاليم الأجنبية ، كانوا يتحدثون عن نقل الثقافة الألمانية إلى البربر ، فكان السيف والسوط أداة ذلك « الكولتور » (الثقافة).

وقد استخدم ملوك بروسيا أساليب الاسترقاق لتكبير جيوشهم ، فكان الرعايا الأجانب يخطفون أو يشترون كالماشية ، وأحياناً كانوا يستأجرون للحروب الأجنبية، وكانت هذه الأساليب بدعاً بين الأمم المتحضرة . ومما يذكر على سبيل المقابلة أن الولايات المتحدة وفرنسا كانتا قد اعتمدتا حقوق الإنسان من زمان طويل . وفى أيام رياسة وشنطون للجمهورية كان لبروسيا « ميزانية عسكرية » بدلا من أن يكون لها دستور ، وكان أعضاء الوزارة كلهم يسمون « وزراء حرب » وجميع جباة الضرائب يسمون « وكلاء حرب » .

وفى سنة ١٨٧١ لما فرض بسمارك سيادة بروسيا على الإمارات الألمانية الأخرى، وصار ملك بروسيا إمبراطور ألمانيا، تولى اليونكرز

https://t.me/megallat
oldbookz@gmail.com

الأمر فى آلمانيا بأجمعها . وإلى سنة ١٩١٨ كانت أسر اليونكرز تملأ كل مناصب الوزارة والحكم والإدارة — وإن لم يكن لهؤلاء العسكريين المحترفين أدنى دراية أو أيسر تدريب على هذه الأعمال . وكان معظم أتباع أسر اليونكرز يقتصرون من التعلم على ما يتلقونه فى أكاديمية أركان الحرب العامة ، وعلى فترة فى الجامعة أحياناً تقضى عادة فى شرب البيرة والمبارزة .

وفى ألمانيا وحدها ينظر شزراً إلى رجل العمل الذى يكون أيضاً عالماً . وقد خلف أول رئيس للولايات المتحدة ٣٧ مجلداً من تأليفه ، وكان جفرسون وفرانكلين وويلسون وغيرهم علماء ، ولكن بروسيا ثم ألمانيا ، ظلتا ثلاثمئة عام يحكمها على الأكثر أشراف جهلاء ، وظل الذين تعدهم بروسيا زعماء روحيين على مدار الأعوام يعربون عن آراء كهذه .

الكيميائى أوستفالد الذى نال جائزة نوبل (١٨٩٤) : « لا أستطيع أن أعترف بأى مصدر للحق غير القوة » .

المؤرخ تريتشكى (١٨٩٦) : « إن الذى يدعو إلى هراء السلم الدائم ليست عنده أضأل فكرة عن الحياة القومية . إن جيشنا صورة مجيدة للمثالية الألمانية » .

الجنرال برنهاردى الكاتب العسكرى الحجة المعتمد : « الحرب تبرز أسمى ملكات الطبيعة الإنسانية . والفظائع الفردية تنطفئ خيال ما تنطوى عليه الحرب من نزعة مثالية » .

أدولف هتلر : « الرحمة ليست إلا مزيجاً من الغباوة والجبن » .

وقد أصدرت هيئة أركان الحرب البروسية ، على الأقل مرة فى كل جيل ، ذلك الأمر الوبيل : الأمر بالتعبئة . وفى كل مرة تقبلت الأمة الأمر بحماسة . وقد ظلت الحياة العامة قروناً عديدة ومعناها عند الألمان ، الأمر والنهى ليس إلا . وهذا الموقف — الذى لا يعد غير قابل للتعديل — يجب أن يتغير إذا أريد أن يكون فى أوربا والعالم سلام .

إن الأمريكى يرى الجماعة كسطح يعيش الجميع عليه فى مستوى سياسى واجتماعى واحد تقريباً ، وإن كان الذين هم أقدر قد يبزون غيرهم فى النفوذ أو الثراء أو الآثار الفنية . أما فى نظر الألمان فالجماعة تبدو له كالهرم ، وهو نفسه ليس إلا حجراً فيه ، يحمل حجراً فوقه ، ويضغط بدوره حجراً تحته ، وهو سعيد مغتبط بذلته ، ويضرب كعبيه أمام من هم أرقى منه طبقة ، وهو سعيد كذلك حين يصيح بأوامره لمن هم دونه .

وفي أمريكا تعد الدولة اتحاداً من الأمة التي وكلت إلى بعض المواطنين إدارة الحكومة ، أما في ألمانيا فالدولة « رب » عرشه فوق السحب . وكل موظف مدني أرقى شأناً من أي مواطن عادي ، وللدلالة على مقامه المتفوق يلبس بذلة خاصة . والعامل الأمريكي ينقد رئيس الجمهورية وعضو الشيوخ وقائده العسكري ، أما الألماني فإنه ينفر بغريزته من مثل هذا النقد

وقد نال الشعب الألماني ذلك الضرب من الزعامة الذي يبغيه ، فلما ارتقى هتلر إلى مركز السلطة لم يحير العالم الخارجي شيء كما حيره جذل أساتذة الجامعات الألمانية لطلوع فجر هذا العهد الجديد من القوة والعسف . وفي سنة ١٩١٤ أذاع ٩٣ من المثقفين الألمانيين البارزين بياناً أعربوا فيه عن إقرارهم لغزو بلجيكا ، وفي سنة ١٩٣٣ رحب لا أقل من ١٢٠٠ من الأساتذة الألمانيين بعهد البربرية الهتلرية .

وهكذا حرم الشعب الألماني في الأزمات الكبرى تأييد زعمائهم الروحيين المحنكين . وقد آمن الألمان بحكمة حكامهم ، لأنهم رأوا قرارات حكامهم يؤيدها زعماء الفكر الألماني . ولو كان الأساتذة الألمان في اللحظات الحاسمة في ١٩١٤ و١٩٣٣ و١٩٣٩ قد نهضوا للاحتجاج ، لكان من المحقق أن جانباً من الأهالي على الأقل كان خليقاً أن يشعر بالارتباك والخجل ، فلا ينضم إلى فظائع الحكام ، ولكن الأساتذة فعلوا نقيض ذلك تماماً .

وألمانيا هي البلاد الوحيدة التي ينقصها بطل للحرية وتمثال للحرية ، فالرجال الذين ثاروا على أمرائهم المستبدين ، والذين يحيون في التاريخ وفي قلوب الأمم الأخرى ، لا وجود لهم لا في التاريخ الألماني ولا في الأدب الألماني ، لأن النظام كان دائماً مفضلا في ألمانيا على الثورة ، والطاعة فيها خير من الحرية .

يضاف إلى ذلك أن هتلر هو الدكتاتور الحديث الوحيد الذي نال السلطة بوسائل قانونيـة ، فقد استخدم الآخرون جميعاً القوة المسلحة للاستيلاء على الحكومة . وقد رأى الألمان في سنة ١٩٣٢ في آخر انتخابات حرة جرت في بلادهم ، أن يؤثروا النازيين ، من بين ثمانية أحزاب رئيسية ، باثني عشر مليون صوت يقابلها سبعة ملايين فاز بها الاشتراكيون . وكان هتلر قد أذاع برنامجه السياسي صراحة ، فأعرب هؤلاء الملايين الاثنا عشر بجلاء عن رغبتهم في أن يتولى السلطة . والواقع أنه ما من رئيس أمريكي ركب إلى البيت الأبيض

بمثل هذا الحق القانونى الذى مضى به هتلر إلى الولهلمشتراس فى ٣٠ من يناير سنة ١٩٣٣ وكان هندبرج قد عينه مستشاراً للدولة استناداً إلى القوة العددية لحزبه فى البرلمان.

فعلى رؤوس الأمة الألمانية ، لا على رؤوس النازيين المتعصبين وحدهم ، تقع التبعة الأليمة عن هذه الحرب . فإن هتلر كان أكثر من رئيس قانونى للألمان ، إذ كان أيضاً رئيسهم الأدبى . وما ظفروا قط بزعيم أوفق لهم منه .

وقد أعطاهم الفوهرر ما أخطأوه وفاتهم أيام الجمهورية الباهتة الألوان — البذلات العسكرية ومواكب العرض والموسيقى . وأعاد فوق ذلك توطيد السلطة — وهم يفضلونها على المسئولية . فهنا رجل على غرار ما يشتهيه الشعب : تكفل هو بالتفكير كله — وبالتصويت — عنهم ، كما كان الملوك واليونكرز يفعلون من قديم الزمان .

فى أول مايو سنة ١٩٣٣ استمعت بالراديو إلى خطبة هتلر فى عدة آلاف ، فلما صاح : « النظام ! » وكرر اللفظ مرتين غمرت السامعين موجة مسموعة من الحماسة الصارمة . وكما ترحب الأمم الأخرى بالحرية وتحيونها ، يرحب الألمان بالطاعة ويحيونها . وقد اهتدى الزعيم الجديد إلى مفتاح قلوبهم ، على أن أعمق ما وقع فى نفوسهم كان مذبحة ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٤ ، وهى التى فتك فيها بألف ومئة من أتباعه . الآن أخيراً وجد الألمان رجل العمل العظيم الذى يعرف كيف ينجز ما يريد ، بيد من حديد !

وكان الألمان جميعاً يعرفون ، ويقرون العود إلى التسلح سراً . وحتى قبل عهد هتلر كانت فصول الدراسة فى طول البلاد وعرضها ، تعرض خرائط تبين حدود ألمانيا فى سنة ١٩١٨ وحدودها التى ستكون لها مرة أخرى ، وكانت اعتمادات الجيش وحدها ، دون جميع الاعتمادات التى طلبت من الريخستاغ ، هى التى تنجو من تدخل المعارضة فى شأنها مدة ١٤ عاما .

وفى الاثنى عشر عاما التى قضاها هتلر فى الحكم ، لم يحتج على ما كان يفعل أى حزب سياسى أو ناد أو جامعة ، ولا رفعت طائفة من الطوائف صوتها بالاعتراض على الاستعداد الجلى للحرب ، أو على معاملة النازى الوحشية لليهود ، أو على السيطرة التامة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وقد احتج الأساقفة الكاثوليك ورجال الكنيسة البروتستانتية على تدخل الدولة فى شئون الكنيسة لا على النظام الإجرامى فى ذاته .

أما جرائم الحرب الألمانية فلم يرتكبها ذلك المليون من فرق الهجوم ، بل ارتكبها

الخمسة عشر مليوناً من الجنود الألمان .
ومن هم الجنود الذين أخذت صورهم والسجاير بين شفاههم المفترة ، فى ناحية ما ببولندا ، وهم يستقلون مركبة يجرها عشرة من الشيوخ اليهود ذوى اللحى الطويلة ؟ ومن هم الطيارون الذين ضربوا بالمدافع الرشاشة الهائمين على وجوههم من النساء والأطفال فى طرق فرنسا سنة ١٩٤٠ ؟ ومن الذى أحرق ليدتشى وأحالها رماداً وقتل الأهالى كلهم ؟ ومن الذى خنق عشرات الآلاف من اليهود فى سيارات شحن موصدة مختومة ، وذبح عشرات من الألوف أمام قبور اضطروا أن يحفروها لأنفسهم ؟ من فعل ذلك إذا لم يكن الشعب الألمانى وهو تحت السلاح ؟ إنه نفس الشعب الذى دمر منذ نحو عشرين عاما مدن فرنسا فى تقهقره الأخير ، وأحرق الغابات الفرنسية ليستمتع باللحظة الأخيرة من القوة والقدرة على البطش ، إنهم نفس الرجال أو أبناؤهم .

والفرد الألمانى إذ يجترح هذه الجرائم يشعر انه أداة الدولة وآلتها . ولأن يكون الألمانى أداة كفؤا لما يكلف ، خير عنده من أن يكون فرداً مستقلا رحيما . وفى سبيل مجد الوطن يقتل الألمانى أى جار يشعر هو أنه أعلى منه شأناً . وقد فعل ذلك لا مُنْذُ قام هتلر ، بل من أيام أباطرته فى القرون الوسطى .

وقدصار الألمانى يعتقد أن حياته مدارها حماسة حكامه لسيادة العالم ، ونزوعه هو إلى الطاعة . والهزيمة تقلب إلى حين ذلك النظام الذى قضى به الله ، ولكن الهزيمة ليست على كل حال إلا هدنة . وهو يعزى نفسه بأن ابنه سيقوم بمحاولة أخرى بعد عشرين سنة . فكل تغيير إلى الأحسن فى ألمانيا ، يتوقف على مبلغ الأمل فى أن تنزل الأمة عن هذا الإيمان بأنها لا تقهر .

ومعظم الخطط التى يقترحها الكتاب الأمريكيون لمعاملة ألمانيا بعد الحرب تتخذ أحد اتجاهين متطرفين ، وكلاهما فى رأيى خطأ :

فأحد الاتجاهين يشير بالتدمير التام للأمة الألمانية — إجبار الذكور على العمل فى البلدان الأخرى ، وتسوية كل المنشآت الصناعية بالتراب ، وتقسيم ألمانيا إلى نحو اثنتى عشرة دولة . والاتجاه الآخر يشير بإعادة إقامة ألمانيا بوساطة « خير عناصرها » وبتأييد « الأقلية الكريمة » ، والانتخابات الديمقراطية ، والحكم الذاتى .

وثم خطة ثالثة هى فى رأيى الحل الوحيد الممكن ، وهى وسط بين هذين الطرفين . وغايتها ليست أن يدرك الألمان أنهم

خسروا الحرب وحسب ، بل أن يدركوا أيضاً أنهم استحقوا أن يخسروها .

فأولا يجب أن يعاقب في هذه المرة عقاباً حقيقياً أولئك الذين دبروا هذه الحرب والذين ارتكبوا الفظائع فيها ، وينبغي أن نذكر أن بين مجرمي الحرب كبار رجال المصارف والمصانع وقادة الفكر ، فضلا عن الرؤساء النازيين والعسكريين . وينبغي أن تكون المحاكمات علنية ، وأن تنقل بالراديو هي وصور الأخبار لأكبر عدد ممكن من المستمعين الألمان . فإن سماع زعمائهم السابقين وهم ينشجون ويبكون ، واجتلاء الحق والكذب في وجوههم حين تعرض صور الأخبار ، خليقان أن يحملا الألمان على مراجعة أنفسهم في أصنام الأمس .

ولا يجوز أن تتكرر مهزلة نزع سلاح ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، فإن التجريد التام هو الحل الوحيد الممكن لمسألة الروح العسكري الألماني ، إذ كانت الغاية الأخيرة هي حمل الألمان على نبذ البذلة العسكرية ــ مادياً وعقلياً ــ ونسيانها . هذا وينبغي أن يتعلم الألمان أن يتقبلوا البذلات العسكرية الأجنبية في بلادهم ، لأنه لما كانت البذلة العسكرية هي المظهر الرسمي الوحيد للسلطة في ألمانيا ، فإنه ما من شيء أحق بأن يقنع الألمان بأنهم انهزموا من رؤية البذلات العسكرية الأجنبية في بلادهم .

وحينئذ قد يقول كارل لصديقه : « فريتز ! يظهر أننا خسرنا الحرب في هذه المرة ! » .

وكل هذا يستدعي بطبيعة الحال وجود جيش احتلال ، وينبغي أن يمثل في هذا الجيش كل بلد كان الألمان يحتلونه ، فضلا عن الدول الكبرى الثلاث . ويجب أن يرى الألمان بعيونهم الشعوب التي عذبوها ، والرجال الذين تغلبوا عليهم وقهروهم في النهاية . وهذه فيما أرى هي الوسيلة الوحيدة لاكتساب احترام الجمهور الألماني ــ وسيكون احترامه هو العامل الفاصل .

وثم نقطة أخرى لها أعظم شأن : وتلك أنه يجب أن يكون الإعدام عقاب من يحرز سراً أي سلاح ، فإنه لا يمكن أن ينتظر أن يوجه الألمان مواهبهم في اتجاه السلم ، إلا إذا اقتنعوا بأن التسلح هو الشيء الوحيد الذي يأباه العالم عليهم .

ولا أرى أن يحدد سلفا بمدة الاحتلال العسكري ، فإن الموقف العالمي في جملته ، وموقف الألمان أنفسهم ، هما اللذان يعينان ذلك . ولا سبيل إلى سحب جيش الاحتلال إلا بعد أن يقتنع العالم بحدوث تغيير شامل في موقف الألمان ، سواء أحدث ذلك في عشرين سنة أم في ثلاثين .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وينبغى أن لا يسمح للألمان بالسياحة خارج ألمانيا ، وذلك لمدة عشر سنين . ولنذكر ما حدث آخر مرة :

بعثت الجمهورية الألمانية إلى أمريكا نحو ستمئة من أساتذة الجامعات ، وكان قليلون منهم ذوى شأن إلا باعتبار أنهم دعاة لألمانيا العظمى . وقد خرج ستمئة داعية وبدأوا ينشرون أسطورة براءة ألمانيا من إثارة الحرب ، ويدعون إلى تخفيف شروط الصلح . فهذا المنظر الأليم يجب أن يحال دون تكرره ، لئلا يعمد العلماء ورجال الصناعة الألمان مرة أخرى إلى الانتفاع برحلات إلى باريس أو نيويورك لبث الدعاية للشعب الألمانى المسكين المتألم .

وإذا شعر الألمان بأن هذا الحظر إهانة ، فإن ذلك يكون خيراً وأفضل . فإنه إلى أن يدركوا أن العالم أقل تقديراً لهم منه لغيرهم من الشعوب ، لا يرجى أن يديروا عيونهم فى قلوبهم ويفحصوها ويحاولوا أن يغيروا ما بأنفسهم . فهذا جانب من الفتح الأدبى .

أما تقسيم ألمانيا إلى دويلات كثيرة ، فإنه لا يكفل سلاماً وطيداً ، بل إن السلام العالمى يمكن بلا جدال أن يكون تحقيقه أسهل بغير هذا التقسيم . ولنفرض أن الولايات المتحدة قسمت إلى اثنتى عشرة دولة مختلفة بواسطة اليابان المنتصرة ، فإن الخصومات الحاضرة خليقة أن تمحى بين عشية وضحاها ، وأخلق بالأمة جميعها أن تشعر بيقظة قومية متجددة . ويبدو التاريخ المشترك . واللغة والعادات المشتركة ذات شأن عظيم فجأة . ومن هذه اللحظة لا تكف الأمة لحظة واحدة عن الجهاد فى سبيل الاتحاد السياسى .

على أن هناك كراهة مستفيضة لبروسيا بين بقية الألمان ، سببها أن بروسيا أخضعت لها كل الولايات الأخرى فى خلال القرن الماضى . وهذا يشير إلى حل ناجح بسيط للمسألة : تقسيم ألمانيا إلى « اتحاد ألمانى » (يكون فيه نهر الألب هو الحد الشرقى) و « جمهورية بروسية » ، فإن كل ما أورثه الألمان هذا السكره العنيف كان مبعثه من بروسيا . ومتى عزلت بروسيا عن بقية البلاد ، فإن العقول والأعضاء التى ترجع إليها شهوة الحرب عند الألمان تصبح مشلولة .

ومازال اليونكرز البروسيون يملكون الضياع الكبيرة التى كانت وما زالت تكسبهم السلطان ، فإذا قسمت هذه الأملاك ووزعت على الفلاحين (ومنهم بعض مئات من الآلاف يعيشون كالماشية) فإن عصفورين يضربان بحجر واحد .

وأخلق بفصل بروسيا عن بقية البلاد

أن يحقق الغرض المرجوّ من تقسيم البلاد إلى عدد من الدول المستقلة ، ولكن من غير أن يحدث فى الوقت نفسه رد فعل قومىّ . ولا يمكن أن يكون هناك شك فى أنه لو أجرى استفتاء لاختارت الكثرة الساحقة من غير البروسيين أن تكون تابعة « لاتحاد ألمانى » لا إلى بروسيا .

ويؤدى مشروعى إلى إنشاء ثلاث دول تتكلم الألمانية وتعيش جنباً إلى جنب (كما يعيش جنباً إلى جنب عدد من البلدان المختلفة التى تتكلم الفرنسية أو الإسبانية)، وهى « بروسيا » و« الاتحاد الألمانى » و« النمسا » .

ومزايا هذا الحل هى : (١) أنه يبعد فى الاحتمال أن تقوم حركة قومية . (٢) استئصال شأفة النفوذ البروسى . (٣) أنه يستحيل فى المستقبل أن يعبئ ملك بروسى أو زعيم (فوهرر) جيشاً من ألمانيا كلها .

ولا ينبغى فى هذه المرة أن تفرض على ألمانيا تعويضات (لم تجمع قط فى المرة السابقة) فإن الأمر الجوهرى هو تربية الألمان ومعالجتهم من داء العظمة . والنجاح هنا أعظم قيمة من أى مبلغ من التعويضات .

يضاف إلى ذلك أن إكراه الألمان على أداء تعويضات يحوج إلى إبقاء المصانع الألمانية سليمة أو إعادة بنائها ، وإذا أعيدت إليهم أجهزتهم الصناعية كلها ، فإنه ما من قوة فى الأرض يسعها أن تمنع الألمان من العودة إلى التسلح .

إن منظر الأفران ومحركات القوى كاف وحده أن يكسب الألمان شعوراً بقوة جديدة ، فيستأنفوا اللغط بصوت أعلى ، والإعراب عن غضبهم لأن أمة بلغت من الاقتدار والكفاية مبلغهم « تستعبد وتسترق » .

وإنها لدعاية محض أن يقال إن اقتصاديات أوربا تنهار بغير صادرات ألمانيا . فقد لبث العالم خمسة أعوام ينتج ما يحتاج إليه بغير معونة الصناعة الألمانية ، فلماذا لا يستمر على هذا النحو ؟ وإن ألمانيا لا تستنبت أو تعدن أو تنتج شيئاً لا يمكن استنباته أو تعدينه أو إنتاجه فى غيرها . وينبغى أن يسمح لألمانيا بأن تصدر ما يكفى لدفع أثمان بعض الواردات الجوهرية ، مثل القطن والصوف — ولا تزيد على ذلك .

وإذا تركت ألمانيا سليمة باعتبارها قوة اقتصادية ، فإن هذا يجعلها أقوى أمة أوربية من حيث الاحتمالات الصناعية . وهذه القوة مضافاً إليها زيادة ساعات العمل والوسائل المعروفة لغمر الأسواق ، خليقة أن تصبح السبب المباشر فى بطالة هائلة فى الولايات المتحدة . وبهذا تصبح ألمانيا فى مركز بديع بفضل الضغط الاقتصادى للاستعداد مرة أخرى لغزو العالم .

ولا خوف من أن يجوع الألمان ، والواقع أن فى وسعهم أن يزيدوا محصولاتهم فى الوقت الذى ينقصون فيه إنتاجهم الصناعى. وفى سنة ١٩٣٠ أنتج السبعون مليوناً من الألمان ٩٠ ٪ من طعامهم . ويذهب الإحصائيون إلى أن التوسع الزراعى وتقسيم ضياع اليونكرز يمكنان ثمانين مليوناً من الاعتماد على الأرض فى حياتهم .

وثم مطلب آخر له قيمة عظمى فى الميدان الاقتصادى : أخذ الألمان لاستخدامهم فى العمل لتعمير ما خربوه فى البلاد الأخرى. ولا ينبغى أخذ جميع الذكور الألمان ، فإن فى بضعة ملايين الكفاية لهذه المهمة، ويترك الباقون للعمل فى بلادهم . ولكن من العدل والحق إكراه أمة اقترفت جريمة لا نظير لها فى التاريخ ، أن تصلح بأيديها على الأقل جانباً من الخراب الذى أنزلته بغيرها .

غير أنه ينبغى أن يبقى للألمان أمل . وعلى الحلفاء أن يعدوهم بالحرية التامة والحكم الذاتى بعد أن يعمروا ما خربوا . وإذا اعتبرنا وسائل الإنتاج الحديثة ، فإن عشرين سنة تبدو تقديراً معتدلا لهذه المهمة . وبعد إنجازها تخف وطأة الحكم الأجنبى لا الرقابة الأجنبية .

وينبغى أن يبدأ فى إعادة تربية الألمان بالأطفال فى سن الخامسة ، فما من أحد يستطيع أن ينقذ شباب هتلر — الفتيان الذين هم فى الرابعة عشرة ، ولكن إذا بدئ بأبناء الخامسة فإن فترة ١٥ عاماً من التربية ينبغى أن تكون كافية .

ولا يجوز اتخاذ معلمين من الأجانب ، فإن نبراتهم خليقة أن تضحك الأطفال — بغض النظر عن الحاجة فى مثل هذه المهمة إلى معرفة دقيقة بالنفسية الألمانية . ومن رأيى أن المعلمين المنشودين — مع رقابة دقيقة تتولاها لجنة متحالفة — يمكن الاهتداء إليهم فى ألمانيا .

ويجب إلغاء الجو العسكرى الذى كان يسود المدارس ، فلا يجوز أن يكون هناك زى خاص ، أو أناشيد عسكرية ، أو شىء فى المناهج عن « بأس » ألمانيا .

ويجب أن تبث فى الألعاب الرياضية للتلاميذ — وهى التى ظلت فى السنوات الخمسين الماضية تقوى صبغتها العسكرية — روح الإنصاف التى تمتاز بها الألعاب الإنجليزية السكسونية ، فإن الألمان ليس لهم إلى الآن كلمة تؤدى معنى « إنصاف » ، أو « جنتلمان » .

ويجب أن ترد إلى الألعاب الألمانية روح الرياضة . ويجب فوق كل شىء ، أن يتعلم

الشبان الألمان أن يحترموا المغلوبين فى اللعب ، وأن يتذكروا دائماً أنهم هم أنفسهم قد يغلبون أيضاً .

وينبغى أن يكون للتاريخ مكان ملحوظ فى هذه التربية الجديدة لألمانيا . ويجب أن تعرض الصفحات السود فى تاريخ ألمانيا والصفحات البيض أيضاً ، فقد كان الأطفال يعلمون بعد الهزيمة الأولى أن يعدوا مالك الأمس والقواد ، أبطالا راحوا ضحايا لعالم خائن متفوق مادياً . ففى هذه المرة يجب أن يدركوا أن آباءهم تحدوا العالم ، واستعبدوا القارة ، ولوثوا الاسم الألمانى بجرائم لم يسمع بمثلها من قبل ، ويجب أن يشعروا بفضيحة ألمانيا وعارها .

ويجب أن تعرض الفظائع الألمانية فى المدارس والجامعات وعلى المسرح والشاشة ، ليراها الجيل الناشئ من الألمان ، لأنه ينبغى أن يروا بأعينهم أسباب نكبتهم القومية . وهكذا قد يتساءلون عن الطاعة العمياء لذوى السلطان ، وهل تفضى إلى خير ؟

إن أمة ربيت مدة قرن وزيادة على الغطرسة وعبادة القوة ، لا يمكن إخضاعها بأساليب لينة . ولا يجوز استرقاق الألمان ، ولكن القيود الأدبية لا معدى عنها فى معاملتهم .

ولا أمل للحلفاء فى التأثير فى الألمان وإحداث التغير المنشود ، إلا إذا وقف الحلفاء فيهم موقف السادة . وأحر بالحكم الأجنبى بيد قوية ، وبتعليم التسامح والمبادئ الحرة بيد رفيقة ، أن يحملا عدة ملايين من الشبان الألمان عاجلا أو آجلا على تأمل دورهم الخاص فى جماعة الأمم ، فيروحون يتساءلون عن وسيلة يهتدون بها إلى حياة أرغد وأجلب للراحة . ثم يجب أن يعلم هؤلاء الشبان أن كلا من الحكم الذاتى والمساواة الأدبية سيعاد إلى ألمانيا ، متى عمروا القارة التى هدمها ودمرها آباؤهم عمداً .

إن روح أية جماعة يكون فرعاً من روح الجيل الناشئ . وقد يعيش الألمان الذين هم الآن أحداث فى الخامسة ، حتى يصبحوا رجالا ونساء ، ويروا أمتهم تعود حرة إلى العالم بكل ما امتازت به الأمة الألمانية من المواهب والفضائل التاريخية ولكنها تعود — فى هذه المرة — عزلاء !

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كان فردريك باينتون المراسل الحربي لريدرز دايجست — كاتب « بعثة إلى شمال إفريقية » المختار سبتمبر ١٩٤٣ صفحة ٧٣ و « تقرير عن فلسطين » يوليو ١٩٤٤ صفحة ٧٣ ومقالات أخرى كثيرة — واقفاً على مدرج طائرات في جزيرة جوام في الساعة ٣٠ : ٣ من صباح ٣١ مارس ، وقد قضى النهار السابق مع رجال قلعة طائرة ضخمة تتهيأ للإغارة على اليابان . وكان سائقها يلوح للمراسل مودعاً ، فلما رفع باينتون يده ليلوح له ، سقط ميتاً من نوبة قلبية .

وقد كان باينتون أحد قتلى الحرب ، وكان قلبه ضحية الإجهاد في شتى ميادين القتال ، حيث عانى شدائد الحرب وشاهد أهوالها . وقد ظل دائباً على عمله إلى اللحظة الأخيرة ، فحين سقط ميتاً في جوام ، كانت مقالة من مقالاته تطبع في الريدرز دايجست .

خاض باينتون غمار الحرب العالمية الأولى ، فاستقر في نفسه حب صادق للمقاتلين ، فآثر في هذه الحرب أن يشاطرهم حياتهم الشاقة ، وأن يروي رواياتها . وقد دفعه ذلك إلى تكبد مشاق يحجم عن مكابدتها من كان أصغر منه سناً . ففي بدء الحملة على شمال إفريقية ، نسفت السفينة التي كان مسافراً عليها بالطربيد . وحين كان طائراً إلى الدار البيضاء أطلقت النار على طائرته ، فقتل الرجل الذي كان جالساً إلى جنبه . ولكن الخطر لم يثنه ، فقد كان يذهب إلى حيث القتال على أشده — مضيق قصرين في تونس ، وصقلية وإيطاليا وفرنسا ، وأخيراً إلى جحيم أيوجيما في المحيط الهادي .

وقد أذاع كبار القواد الأمريكيين رسائل أثنوا فيها ثناء طيباً على ما كتبه باينتون عن الحرب ، وما كان يتصف به من الصدق والجرأة . ومن هؤلاء القواد أيزنهاور ، وماك آرثر ، ونيمتز ، وعمر برادلي . وقد قال نيمتز : « كان فردريك باينتون من أحب المراسلين إلى القوات المسلحة ، وقد مات في خدمة وطنه كما مات الجنود الذين جادوا بأرواحهم في ميدان القتال » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

باب الكتب

كيف تكون رجلاً حقاً

مختصر كتاب بقلم

هارى إمرسون فوزدك

يعرف العالم الدولى هارى أمرسون فوزدك أستاذاً ومؤلفاً ، وقد منح عدة درجات فخرية من الجامعات فى أمريكا وأوربا ، وترجمت كتبه إلى لغات أجنبية كثيرة .

وفى العشرين سنة الأخيرة ازداد باطراد عدد الذين يقصدون الدكتور فوزدك لاستشارته فى شئونهم الخاصة ، فاحتاج لكى يعالج المشاكل غير المألوفة علاجاً ناجعاً ، أن يدرس وسائل العلماء النفسانيين ، وأن يستعين بهم فى أحوال كثيرة . وهكذا استطاع أن يبذل مشورته فى الحالات العقلية والنفسية جميعاً .

ويقول فى مقدمة هذا الكتاب : « ليس أبعث على ارتياحى الآن من ذكرى بعض النتائج » .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

كيف تكون رجلا حقا

المصول ثايت

المهمة الأولى لكل آدمى هى أن يكون شخصاً حقيقيا . ونحن نملك بالفطرة العوامل التى يمكن أن تتكون منها الشخصية ، وتنظيم هذه العوامل بحيث تصبح تنتج حياة فعالة ، هو المهمة الأولى لكل إنسان .

ويمكن أن يقال بغير مبالغة إن المخفقين التعساء الذين لا يستطيعون أن يجعلوا أنفسهم وفق الحياة ، هم أعظم مأساة مفردة فى العالم . ففى القصور والأكواخ ، وبين الأميين وفى كليات الجامعات ، وفى كل حالة من الحالات ، يوجد أناس يعالجون أن يبنوا شخصياتهم ، فيخلطون ويتعثرون فى ورطة ، وبذلك يرتمون فى جحيم أرضى .

إن هناك ثلاثة عناصر تبنى منها الشخصية : الوراثة ، والبيئة ، والاستجابة الشخصية . ولسنا مسئولين عن وراثتنا ، وجانب كبير من بيئتنا لا سيطرة لنا عليه ، ولكن القدرة على مواجهة الحياة باستجابة فردية خاصة — هذا ما نعد مسئولين عنه . على أنه يحدث دائماً تقريباً ، كلما اقتضى حمل المسئولية الإلحاح على الذات ، أن يخف إلى النجدة بديل يحل محلنا .

وهذه الرغبة فى التهرب من اللوم تتبدى — فى أحط مستوى — فى الإحالة على الحظ ، فترى الناس يقولون إن المجدودين « يسعفهم الحظ » ، وإن الخيبة الشخصية ليست راجعة إلى الخطأ بقدر ما هى راجعة إلى عثرات الحظ . فأما أن الحظ عامل حقيقى فى التجربة الإنسانية فأمر بديهى ، والذى لا يتوقع سوء الحظ على اعتبار أنه عنصر من عناصر الحياة ، يحاول أن يعيش فى عالم خيالى . غير أنه لم يظهر على ظهر الأرض أروع من الذين كانوا سيئى الحظ وهم مع ذلك رجال حقيقيون . ذلك أن العامل الذى له قيمة فى تجاربهم ليس هو ما يحدث لهم ، بل الطريقة التى يتلقون بها ما يحدث .

أصاب جلين كنجهام فى حداثته من جراء نار شبت فى المدرسة ، ما تركه مقعداً ، ومع ذلك صار من أعظم الرياضيين فى زماننا . وقد قال الأطباء إنه لن يستطيع السير على قدميه مرة أخرى إلا بمعجزة — فقد خانه الحظ . وقد بدأ يمشى بالاعتماد على محراث فى الحقل ، ثم راح يتجشم فى غير ملل تجارب شتى ليرى ماذا يستطيع أن يصنع برجليه ، حتى ضرب كل رقم قياسى فى سباق الجرى مسافة ميل .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وقد كتبت رواية « دون كيشوت » وغيرها من روائع الكتب ، في السجن .

إن سوء الحظ اعتذار واه ، ويكفي دليلا على ضعفه أن حسن الحظ بمجرده لم يكن قط كافياً لتكوين شخصية حقيقية ، لأن الحياة ليست من البساطة بحيث يغني فيها حسن الحظ .

ويحاول كثيرون أن يهربوا من الشعور بالمسئولية بأن يستسلموا لحالة وجدانية قوامها القدرية . ومن الغريب أن هذه الحالة من أبعث الحالات التي يستطيع أن يعيش في ظلها الإنسان ، على الراحة ، لأنه إذا كان الإنسان آلة ، فهو ليس بمسئول عن شيء .

وأما في أعلى مستوى فإن رغبة الإنسان في التهرب من المسئولية تتبدى في رد كل صفاته الشخصية إلى الوراثة والبيئة . وهي نظرية شائعة في أيامنا هذه ، ذلك أنه متى كان مبلغ الذكاء الموروث لا ضمان له ، وأحوال البيئة التي تتعهد بنا لا حيلة فيها ، فإن الاعتذار بذلك يهيئ الدفاع اللازم عن كل نوع من النقص ، وبذلك لا تحتاج أي حياة مخفقة أن تبحث بعيداً عن عذر لها. ولكن تأمل الفرد الذي رزق وراثة ممتازة وظروفاً مواتية ، أتراه لا بد أن يكون شخصية تستحق الإعجاب ؟ أهذا قدر محتوم شاء أم لم يشأ ؟ من المحقق أن الأمر لا يبدو كذلك ، فإن ما يؤدي إليه سوء استخدام الوراثة الحسنة والبيئة الصالحة من الكوارث ، ظاهرة مألوفة إلى حد لا يسمح بالشك .

إن معالجة المصاعب ، ومحاولة الانتفاع على خير وجه ميسور بما يكون من سوء الحال ، من أكبر مهمات الحياة . وكثيراً ما يكون السبب في تعذر الانتصار راجعاً إلى الإنسان نفسه ، غير أنه من الصعب أن يعترف الإنسان الذي يعنيه الأمر بهذه الحقيقة . ويمر بكل منا وقت نشبه فيه ذلك الفلاح الذي كان يسوق خيل مركبته بجهد في طريق كثير التراب ، فسأل رجلا على الطريق : « كم بقي من هذا التل ؟ » فكان الجواب : « تل ؟ أي تل ؟ إن عجلتيك الخلفيتين منزوعتان ! »

والدنيا مكان خشن ، وكثيراً ما يكون ناسها ظالمين ، أنانيين ، قساة . غير أننا ، بعد كل ما يقال ، نعرف الفرق بين رجل لا يزال يبتني من محل محله لينجو من التبعة ، ورجل آخر ، في مثل هذا الموقف الأليم تماما ، لا ينفك يدير عينه في نفسه ومواقفه وموارده — فلا اعتذار ولا إحالة على الحظ . وهو في كل ظرف يرى أن نفسه هي مسألته الكبرى . ثقة منه بأنه إذا أحسن تناولها

فإن ذلك يحدث بعض الأثر . وفى وسع كل إنسان أن يتبين صحة الإدراك واستقامة الذهن فى ذلك الشاب الذى كتب إلى أبيه بعد إخفاق فرقته فى مباراة الكرة : « لقد وجد خصومنا ثغرة كبيرة فى حظنا ، وكنت أنا هذه الثغرة » .

ونحن حين ننجح ، وندرك غاية لنا منشودة بقوة العزم والجهد ، نكون واثقين أن لنا يداً وفضلا فى النجاح . فليس فى وسعنا إذن أن نطرح المسئولية عن كواهلنا حين نخفق . فما يسعنا أن نأكل كعكتنا ونحتفظ بها أيضاً .

فبداية الحياة التى لها قيمة هى أن نواجه أنفسنا — نحن المخلوقات الفذة التى وهب كل منها ما تبنى منه الشخصية ، ومع ذلك يصارع كثيرون من الناس كل عامل يمكن تصوره فى الحياة الإنسانية قبل أن يواجهوا المسألة الأولى — نفوسهم . وقد رأيت رسماً فكاهياً حديثاً يصور أشنع مآسينا الإنسانية ، وفى الصورة طبيب يواجه مريضاً ويقول له بجد وقلق : « هذه حالة خطيرة جداً . فإنك مرهف الإحساس بنفسك »

تعهد نفوسنا

العبارة الشائعة « بناء الشخصية » لا تخلو من تضليل ، فإن الشخصية أشبه بالنهر منها بالبناء القائم — فهى تتدفق باستمرار ، ومعنى أن تكون شخصاً ، هو أن تكون منهمكا فى حركة دائمة للتكون .

ولهذا فإن مقاييس الحياة الشخصية الناجحة لا تكون متطابقة إذا أخذنا شخصين فى حالتين مختلفتين أو شخصاً واحداً فى أسنان مختلفة ، غير أن الاتفاق عام على مقياس واحد . ذلك أن الشخص الحقيقى يبلغ درجة سامية من الوحدة النفسية الداخلية ، إذ لا بد من تنسيق عناصر التجربة الشخصية التى كثيراً ما تتضارب ، مثل النزعات والأهواء والعواطف .

إن كلا منا يعالج باستمرار تلك المسألة التى تنطوى عليها الحياة المفككة ، فالرجل المضطرب الذى يهيجه ويحيره أنه نسى أين وضع نظارتيه ، والمعجل الذى يحاول أن يضع شيئاً بأسرع مما ينبغى فيخرج عن طوره ، والخائف الذى أصابه الفزع ، والغضوب الذى يلقى نفسه قد فقد السيطرة على أعصابه — هذه الأمثلة المأخوذة من الحياة العادية تذكرنا بمبلغ الوهن وقلة التماسك فى كياننا الشخصى .

ما من فضيلة يعدها الناس جميعاً محكاً لحسن الأخلاق ، مثل أن يكون الإنسان أهلا للثقة به ، ومن البديهى أن هذه الفضيلة لا سبيل إليها إلا إذا اكتسبت الشخصية

كلها وحدة متينة يمكن الاعتماد عليها .

وكثيرون منا يتصرفون فى أحوال عديدة تصرفاً يخرج بهم « عن حد الأخلاق الحسنة » ، وقد تكون سيرتنا العامة فى حياتنا منطوية على الاستقامة والصدق وأمثال هذه الصفات — ولكن لا فى كل حال . وما أشيع طراز الإنسان الذى لا يكون أدبه مضموناً ! ونحن جميعاً نعرفه — يكون اليوم مهذباً مؤدباً ، وغداً شكساً غير مؤدب ، ومجاملا وحسن السلوك فى عمله ، ومنقبضاً متجهماً فى البيت ، وظريفاً مع من يسمون « الأنداد » وخشناً متعجرفاً مع الخدم .

أما الرجل الذى هو على خلق فإن استجابته للحياة تكون من حيث النوع وطيدة منتظمة ، وفى وسع المرء أن يعتمد عليه ، فإن عواطفه ورغباته وآراءه المختلفة ليست مجرد أهواء طيارة غير متناسقة ، إذ كان قد أصبح إنساناً كامل الكيان له طراز موحد من الآراء والإحساسات يكسب كل ما يفعل انسجاماً وتطابقاً .

والحياة « الوافية التكوين » ليس معناها الحياة الوادعة التى خلصت من كل صراع ، فكثير من النفوس العظيمة عاشت فى عذاب باطنى ، وقد لقيت فلورنس نايتنجيل عناء طويلا حتى اهتدت إلى نفسها وكتبت فى مذكراتها : « فى هذه السنة الحادية والثلاثين من عمرى لا أرى شيئاً مرغوباً فيه إلا الموت » .

وفى كل أصحاب الشخصيات القوية — إذا تسمع الإنسان وراء ستار — فإنه يسمع أصداء للصراخ والعراك ، غير أن أمثال هؤلاء أبعد ما يكونون عن الحيرة فى داخل نفوسهم ، لأنهم نظموا حياتهم حول بعض القيم العليا وناطوها بها ، وأفادوا تركيزاً قوياً لغاياتهم وبواعثهم .

فالوسيلة إلى بلوغ الشخصية الحقيقية باطنية وروحية ، وما من تغيير فى البيئة يستطيع وحده أن يدفع مقومات الشخصية دفعاً يكسبها هذه الوحدة ، ويجعل منها كلا فى الباطن ، حتى إذا رزق المرء بيئة صالحة ، كأن تكون له أسرة عظيمة الحب والولاء له ، فإن هذا لا يغنيه عن مواجهة نفسه . ولهذا قال نوفاليس : « إنما يكون المرء صالحاً لعشرة الزوجية إذا كانت عشرته لنفسه سعيدة موفقة » . أما الرخاء المادى فإنه كثيراً ما يؤدى إلى الانحلال لا إلى التوحيد فى الحياة . والواقع أن الانهيار العصبى من الأمراض الخاصة بأهل الرخاء ، والثروة توسع نطاق الاختيار فتصبح أبعث على التفكك منها على الإرضاء .

وصف روائى حديث أحد أشخاصه فقال: «كان أشبه بحرب أهلية منه بآدمى». وكل إنسان يواجه فى بعض الأحيان موقفاً تكون فيه نفسه الحقيقية فى جانب، بما أوتيت من كفايات وما حولها من ظروف، وصورته المثالية المتخيلة لنفسه ولأعماله فى جانب آخر، وبين الاثنتين هوة تتعاظم مجتازها. وهنا تبدأ الحرب الأهلية حقاً.

إن من آيات مجد الإنسان أن تكون له مثل عليا وأطماع، وليس أمجد من إنماء الشخصية، على أن هذه الملكة تعمل أحياناً بطريقة شاذة فتمزق الحياة إرباً إرباً.

ومن أجل هـذا لا يتسنى أن تكون الحياة وحدة متناسقة إلا بتقبل الإنسان لذاته بادىء ذى بدء، فكأن الإنسان يقول لنفسه: أنا فلان أتقبل نفسى بكل ما اشتملت عليه من المواهب والنقائص الموروثة، وبكل عناصر بيئتى التى لا أستطيع أن أسيطر عليها، ولما كنت قد تقبلت نفسى على اعتبار أنها الخير الذى أنا فى نطاقه محصور، فسأنظر الآن ماذا أستطيع أن أصنع بفلان هذا الذى هو أنا. وقد قال أمرسون: «يجىء وقت فى خلال تربية كل إنسان ينتهى فيه إلى الاقتناع بأن الحسد جهل، وأن التقليد انتحار، وأن عليه أن يتقبل نفسه بخيرها وشرها على اعتبار أنها نصيبه».

يقوم أليك تمبلتون بتسلية الملايين بالراديو بموسيقاه وببدوات أطواره الغريبة، وهو أعمى. والوضع الطبيعى الأول لمثل هذه العاهة المقعدة هو أن يغص الخيال بصور مالا ينال، فمن مقابلة هذه الصور بالحقائق الواقعة ينشأ الامتعاض، والعطف على النفس، والجمود. غير أنه ليس أنبل فى قصة الإنسانية من أولئك الرجال والنساء الذين تقعد بهم الآفات، فيتقبلون أنفسهم على العلات ويحققون ما يسميه الدكتور ألفريد أدلر «قدرة الإنسان على تحويل النقص إلى زيادة».

وكثيراً ما ينشأ التوتر بين نفوسنا كما هى ونفوسنا المنشودة، من مثل أخلاقية عليا، والأغلب أن يساء علاجه فى هذه الحالة. فالإيثار والولاء مثلا من أكبر الفضائل، ولكن بنتاً واقعة فى إسار أم أثرة قد تتصور أن واجبها يقضى عليها أن تجرى على سنة الولاء والإيثار، فتنكب حياتها وتقوض كيان شخصيتها من غير أن تسدى إلى أمها أى خير حقيقى.

إن المثل الأخلاقيـة العليا تكون عند تطبيقها نسبية إلى الفرد. فقد يكون لرجل مزاج هادئ متزن لا يخرجه عن طوره

شيء ، وقد يحتاج آخر أن يقول كما قال الدكتور ستيفن تيلنج لمن أنبه على حدته : « إنى أضبط من نفسى كل ربع ساعة ما لا تستطيع أن تضبط أنت فى عمرك كله » .

وإذا لم يحصل تقبل الإنسان لنفسه ، واشتد التوتر بين النفس الحقيقية والنفس التى يحلم بها ، فإن النتيجة تكون تولد الشعور المنحوس الساحق أحياناً ، بوجود نقص . وقد أظهرت دراسة ٢٧٥ رجل وامرأة من خريجى الكليات ، أن أكثر من ٩٠٪ يعانون شعوراً بالنقص بأكل قلوبهم . وقد ذكروا أسباباً شتى — عجز البدن ، والشكل القبيح ، وفقدان الظرف ، والخيبة فى الحب ، وضعف القوة العقلية ، والإخفاق الأدبى ، والخطيئة .

ولا شك أن الإحساس بالنقص لا يمكن أبداً أن يؤخذ على ظاهره فيعد دليلا على نقص حقيقى . إن اللاعب فى مباراة لبطولة التنس قد يعانى كرباً من الشعور بعدم الكفاية . على أن أهمية المسألة تبدو جلية من الوسائل السيئة التى تعالج بها فى العادة .

وبعضهم يعالجونها بطريقة إلقاء ستار من الدخان . ذلك أنهم يشعرون شعوراً مؤلماً بالنقص ولا يريدون أن يعرف الغير هذا . فالحيى ينقلب معتدياً ، والمرتبك فياضا متدفقاً ، والضعيف القلب فخوراً فيّاشاً . وثم رجل كان رقيقاً ظريفاً مع أسرته حسن الرعاية والتعهد لها ، فأصيب بإخفاق مذلّ فغدا لتوّه فظاً متجبراً . ومن النقائض أنه لما كان يشعر بأنه متفوق كان سلوكه ينطوى على الوداعة ، كأنما كان يشعر بضعة الشأن ، فلما شعر بالضعة بدأ يتغطرس كأنما كان متفوقاً .

وثم آخرون مثلهم كمثل الثعلب فى خرافات إيسوب ، إذ زعم أن كل عنب لا يصل إليه ، حامض . فالشاب الخرع يغض من قيمة الألعاب الرياضية ، والمستهتر السادر يسخر ممن يملكون أزمة نفوسهم ويزعم أنهم يتكلفون الاحتشام ويتصنعونه ، والخائب فى المدرسة يحتقر أهل الذكاء والمواهب ويسميهم متحذلقين . ومن المحقق أن مقداراً كبيراً من النزوع إلى الاستهزاء راجع إلى هذا . ولاحظ ما يستهزىء به الناس ، فإنك تستطيع فى كثير من الحالات أن تهتدى إلى ما ينقصهم ، وإلى ما يتمنون فى أعماق نفوسهم أنه كان لهم .

وهناك آخرون يجدون أعداراً قائمة على الاعتراف المبالغ فيه بنقصهم ، ومن هذا القبيل طالب كان يغالب الخيبة ، فقال :

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« لقد فكرت فى الأمر بعناية، وانتهيت إلى هـذه النتيجة وهى أنى ضعيف العقل » . ولم يقل هـذا بروح اليأس ، بل قاله وكأنه يطرح عن صدره عبئاً . وهو اعتذار وافٍ يخرجه من كل عهدة وتبعة ، غير أنه من وجهة الحقيقـة كان سخيفاً ، وكان من الوجهة العاطفية ينطوى على شذوذ .

ومن العناصر الإنسانية التى تجعل تقبل النفس عمـلا أساسيا لكى يصبح الإنسان شخصاً حقيقيا — مبدأ الجزاء ، فإن العيب يمكن أن يكون حافزاً مشجعاً كما حدث لديموستين ، فقد أراد أن يكون خطيباً فكان عليه أن يقر لنفسه بأنه تأتاء وفى لسانه ثقل ، غير أنه لم يخف عيبـه ولم يحاول ستره بالجعجعة والنفخة ، ولا أن يغض من قدر البلاغة ويزعمها عبثا لا قيمة له ، ولا استسلم لثقل لسانه وجعله عذراً للعجز والقعود عن العمل ، بل اتخذ موقفاً إيجابيا حيال عيبه . فكان يتكلم فى وجه الموج وضجتـه وفى فمه حصى ، حتى استطاع أن يتكلم بوضـوح واطمئنان . وإنا لنقلل من قيمة هذا الجهد إذا قلنا إن ديموستين صار خطيباً على الرغم من ثقل لسانه ، وأخلق بالعالم النفسانى أن يزيد على ذلك أنه صار خطيباً لا يبارى فى تأثيره ، لأنه كان ثقيل اللسان .

ومن الممكن دائماً تقريباً أن يفوز المرء بنوع من الجزاء ، فالفتـاة الساذجة قد تستطيع أن تفوز بحظ أكبر من الذكاء والظرف والفكاهة لأنها ساذجة ، والشاب الحيى السريع الارتباك الذى ينزع به مزاجه إلى العزلة ، قد يكون أنفع ما يكون فى البحث العلمى لهذا السبب .

وينطوى مثل هذا العلاج الناجح للنقص المعترف به على القدرة على الانتقال من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم حيال عيوبنا . ففلان مثلا يتقبل نفسه ويقر بحقيقة عيوبها ومصاعبها ، ثم يذهب ينشد ما يستطيع أن يعمله للتغلب على ذلك .

أظهر الكابتن جون كالنـدر جبناً فى معركة بنكر هل . فاضطر جورج وشنطن أن يأمر بمحاكمته عسكريا . وقد عاد كالندر فدخل فى الجيش جنديا عاديا . وأبدى فى معركة لونج أيلند بسالة ممتازة ، حتى إن جورج وشنطن ألغى الحكم الذى كان قد صدر عليه ورد إليه رتبته (كابتن) . فوراء مثل هذه التجربة عمل أساسى من مواجهة النفس على حقيقتها — بعينين مفتوحتين ، وبغير مواربة أو اعتـذار — وتحول فى الوقت ذاته من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم ، يجعلان من جون كالندر مثالا ملهماً .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولكى يسع الإنسان مواجهة نفسه على حقيقتها يحسن به أن يبدأ بأن يهوّن إلى الحد الأدنى من الأشياء التى تكربه ، فإن كثيرين من الناس تحقرهم فى نظرهم مواقف لا محل للتحقير فيها على الإطلاق . مثال ذلك أن نقص القدرة المنشودة ، أو الحالة الاقتصادية المحدودة — مثل هذه الحالات تعد حوائل وقيوداً ، ولكنها إذا صارت سبباً للمهانة فذلك لأننا نجعلها كذلك فى ذات نفوسنا . وهناك رجل ابتلى بمركب نقص لازمه طول حياته وهدم مستقبله ، لأن شعر رأسه كان أجعد مفلفلا ، وكان لونه أحمر غير مألوف . وقد تقبل نابليون نفسه — وكان طوله خمس أقدام وبوصتين ، وترتيبه الثالث والأربعين فى المدرسة الحربية — ولم يرض قط فى نفسه عن هذا ، فإذا اعتبرنا أطماعه الإمبراطورية ، فإن قامته القصيرة كانت عائقاً ، ولو أنه كان قد اتخذ من قصره ومن ضعفه فى المدرسة عاملا مذلا له ، لكان الأرجح أن لا يبلغ المبلغ الذى جعل منه « نابليون » .

إن الحياة مهمة تشبه ما نتعهد به الأرض ، فنحن نعطى رقعة من الأرض واسعة أو ضيقة ، ومستوية أو وعرة ، وكل خطوطها العامة وسطحها لا اختيار لنا فيه . ولكل رقعة أو موضع عيوبه ومزاياه ، والنتائج التى كانت تعد أبعد ما تكون فى الاحتمال تكون ثمرة التصرف — فبعض الفرص الحسنة تحجب ، وبعض المواقف التى لا أمل فيها على الإطلاق تصبح لافتة للنظر . والعناصر الأساسية فى أى موقع شخصى لا بد أن تظهر فى النهاية مهما كان ما نصنع ، كما أن الرقعة من الأرض تبدى سعتها وأشكالها الكبرى وسطحها مهما يكن ما يفعله المهندس ، ولكن هذه العناصر الأساسية ينبغى مواجهتها لا كمهانات ، بل قيود ، ويجب فوق ذلك أن تعد فرصاً بل حوافز .

نشأت سيدة فى الفاقة والعوز هى الآن من أقدر النساء فى أمريكا ، وزوجة مدير جامعة ، وهى تتذكر مرة إذ كانت فتاة صغيرة فشكت إلى أمها متاعبها فقالت لها أمها : « اسمعى . لقد أعطيتك الحياة ، ويكاد هذا يكون كل ما أستطيع أن أمنحك إياه . فكفى عن الشكوى واصنعى شيئاً تعالجين به ما تشكين منه » .

إن أكبر ما أودعناه هو قدرتنا على أن نكون أشخاصاً حقيقيين ، والإخفاق فى ذلك إخفاق فى كل شىء ، كما أن النجاح فيه هو النجاح الأسمى .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

إعفاء النفس من النفس

هناك مدرسة « للظرف » تعد طلابها أن تهبهم « الشخصية » . وفي الدرس الأول من دروسها تكلف الطالب أن يقف أمام مرآة كبيرة وينطق باسمه مرات بصوت « رقيق لين وخفيض » ، وذلك لتنطبع نفسه في نفسه ، غير أن اشتغال الإنسان بنفسه من أقوى عوامل التقويض في الحياة . ولا سبيل إلى شخصية كاملة التناسق إلا إذا وسع الإنسان أن يجد خارج نفسه مشاغل لها قيمة ينصرف إليها فينسى نفسه . وإذا أراد أحدنا أن يكون وحدة كاملة فإن عليه أن يعفي نفسه من نفسه .

إن تركز اهتمام المرء بنفسه طبيعي في الصدر الأول من الطفولة ، غير أن كثيرين لا يشبون عن هذه الحالة أبداً ، فيظلون وهم في الخمسين من العمر يعيشون على طراز صبياني . ويصف رجال الاخلاق هؤلاء الناس بأنهم أنانيون ، ولكن للمسألة باطناً نفسانياً — ذلك أن هؤلاء نماذج للنمو الذي وقف . وتقول روائية في وصف إحدى السيدات في رواية لها : « إديث بلد تحده من الشمال إديث ، ومن الجنوب إديث ، ومن الشرق والغرب إديث » فإديث هذه تعاني آفة نفسانية ، وانحصار خواطرها في الذات هادم لكيان الشخصية الحتمة . والرجل الملفوف في نفسه لا يكون في خير الحالات إلا حزمة صغيرة .

إن الإنسان لا ينجح في أن يكون رجلا حقاً بالغوص وراء نفسه بل بالالتفاف والدوران حولها ، فهو يهرب من نفسه إلى مشغلة أعظم يتخلى لها ويقصر همه عليها ، وبذلك ينسى نفسه ويتسرب في حياة مطردة موحدة لها قيمة ودلالة .

وكل اقتراح عملي للخلاص من النفس يجب أن يبدأ قريباً من الجسم ، فإن كثيرين من التعساء المحصورين في نفوسهم لا يحتاجون إلى طبيب نفساني لتحليل حالتهم ، ولا إلى قسيس ليهديهم ويبصرهم من الناحية الأدبية بقدر ما يحتاجون إلى العقل والحكمة في علاج الأساس الجثماني للحياة الصحيحة .

ويحتاج الرجل الحديث إلى التذكير الدائم بأنه لا يستطيع أن يطرح ميراثه الحيوي (البيولوجي) ، فإن أجسامنا قد ركبت بحيث تستخدم في أعمال بدنية شاقة . وما من رجل اهتدى إلى الرياضة الصالحة التي يستطيع أن ينطلق فيها ويستعمل عضلاته الكبرى ، إلا وهو يعرف مبلغ التطور الذي يحدثه هذا المجهود البدني في خواطره وفي نظره إلى الأمور .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ومن أطول النعم عمراً أن ينسى الإنسان نفسه فى عمله ، وهذا هو السبب فى أن الذين يصابون بالأمراض العصبية من جراء الفراغ فى وقتهم أكثر ممن يصابون بها من إرهاق العمل ، وأن البطالة من شر المآسى وأن آثارها النفسانية سيئة كآثارها الاقتصادية .

وتثقل مسألة الاهتداء إلى مشاغل خارجية ، على بعض الأمزجة أكثر مما تثقل على البعض الآخر ، فالرجل الذى يتجه اتجاهاً خارجياً بطبعه يضرب فى الشئون العملية الموضوعية بسهولة ، ويكون بحكم استعداده العاطفى نزّاعا إلى مجاوزة نطاق الذات وصبوراً جلداً على النقد . أما الرجل المنطوى على نفسه فشديد الإحساس بالنقد ، ومشغوف بإدارة عينه فى نفسه وتعقب عيوبها ، وأشد تنبهاً على العموم لعالمه الباطنى منه للعالم الخارجى .

وكل إنسان يستطيع أن يعرف هذين الضربين من الناس ، وكل رجل يسعه أن يتبين بأيهما هو أشبه وإلى أيهما هو أقرب ، وإن لم يكونا على هذا مزاجين منفصلين تمام الانفصال غير متداخلين ، وليست المزية كلها لأحدهما دون الآخر . والرجل المتزن مركب منهما جميعاً .

كان لأبراهام لنكولن صراع أليم مع نفسه ، ولم يكن فى شبابه شخصية متناسقة موحدة ، بل كان أشبه بكهف إيلوس ، كله عواصف ، وكان يعانى مبادىء الانهيار العصبى . وقد قال فى سنة ١٨٤١ : « إنى الآن أتعس مخلوق على قيد الحياة . ولو أن ما أشعر به وزع بالعدل على الأسرة الإنسانية قاطبة لما كان هناك وجه واحد متهلل على ظهر الأرض » . وكان من السهل أن يصبح نموذجا متطرفاً للرجل الحسير المنطوى على نفسه ، ولكنه لم يكن كذلك ، فقد حل مسألته الباطنة المخامرة ، بالالتفاف حولها . ولم يكن التطور المدهش الذى طرأ عليه فى الأعوام الأخيرة من حياته حتى صار شخصية عظيمة ، راجعاً إلى تركيز خواطره فى نفسه ، بل إلى نسيانها . وكان من فضل تفرغه لقضية أعظم من قضيته الخاصة ، أن تحول ما تعلمه أثناء الصراع مع نفسه إلى الفهم والعطف والفكاهة والحكمة . وليس فى وسعنا أن نقول فى النهاية إنه كان من المنطوين على نفوسهم أو من الضرب الآخر ، فقد جمع بين الاثنين .

ولا يزال الذين يستشارون فى الشئون الشخصية يصادفون أناساً منطوين على أنفسهم ومحصورين فيها ، يحاولون جاهدين

مرهقين أن يجدوا السعادة عن طريق « الإعراب عن النفس » . والمعنى الشائع للإعراب عن النفس هو أن ترسل نفسك على السجية وترخى لها العنان ، وتنزع السدادة عن برميل عواطفك وتدعها تفيض وتسيل . ومن السهل تعليل هذا باعتباره مظهر سخط واحتجاج على توافه الحكم والآداب ، وإن لهذا قيمة كوسيلة لصدع القيود من بعض الأفراد الذين كبلت الوساوس السخيفة أيديهم وأرجلهم . وإن المستشار الحكيم لينشد الإعراب عن النفس أيضاً ، ولكنه يبغيه عملياً ومطابقاً للحقائق النفسانية الواقعية ، فإن مجرد تفجير الإحساسات ليفوز الرجل المنطوى على نفسه بنشوة وقتية ، لا قيمة له ، وتكون النتيجة فى النهاية أن هذا التكرير الدائم لمثل هذه التسرية العاطفية عن النفس ، يبدد الحياة ويتركها أبعد عن أن تكون لها غاية مما كانت من قبل ، وهذا يصدق حتى على المسائل الجنسية . ويقول طبيب نفسانى كبير : « إذا اعتبرنا العلاج ، فإن النصح لإنسان بأن يذهب ويفرج عن غرائزه ، حماقة . ولم أر قط فى تجربتى العملية مصاباً بالاختلال العصبى شفته العربدة الجنسية » .

إن التعبير الوافى عن النفس شىء أعمق جداً من احتدامها وانفجارها ، والشارح الحقيق لها والمعبر الصادق عنها ليس العربيد . بل الفنان ، والعالم ، والأم السعيدة المستغرقة فى أسرتها ، ورجل الأعمال البار بقومه الذى يصنع شيئاً لهم ، والمعلم الذى يقول كما قال الأستاذ جورج بالمر : « إن كلية هارفرد تؤدى أجراً على فعل ما يسرنى أن أؤدى لها أجراً لتسمح لى بفعله » . فهؤلاء وأمثالهم من ذوى المراتب الملحوظة أو الوضيعة يعبرون عن أنفسهم حتماً ، والصفة المشتركة بينهم هى استثمار النفس لا الاستغراق فيها .

وهناك نتيجتان عمليتان على الأقل لمثل هذا النجاح فى توسيع أفق النفس .

إحداهما أن الإنسان يكتسب روح الفكاهة وهى منجية ، أما المصاب بشذوذ الانطواء على نفسه فإن نقص روح الفكاهة يكون عقابه المحتوم ، ولا يستطيع أن يرى نفسه كما هى بغير تحيز إلا الذين يحيون فى غيرهم وتكون مشاغلهم متفاذفة .

حدث ذات مساء أن كان ناست المصور الهزلى فى مجلس ، فرسم صوراً فكاهية لكل من كانوا هناك ، فكانت النتيجة ذات دلالة جلية — استطاع كل واحد أن يعرف صور الآخرين ، ولكن البعض لم يعرفوا صورهم هم . وهذا العجز عن رؤية أنفسنا

كما تبدو للغير ، من أقوى الدلالات على عدم النضج وانحصار المرء فى ذاته .

صور أريستوفان فى رواية « السحب » سقراط فى صورة هزلية ، ولما مثلت الرواية انطلقت أثينا كلها تقهقه . قالوا : فذهب سقراط ليشهد الرواية ، ولما ظهر على المسرح الساخر منه ، وقف سقراط ليكون النظارة أقدر على الاستمتاع بالوجه المستعار الذى أريد به السخرية منه . لقد كان سقراط رجلا مكتمل النضج ، وكان قد استطاع أن يعفى نفسه من وطأة نفسه .

واتساع أفق النفس يؤدى أيضاً إلى القدرة على احتمال المتاعب ، فإنا نجد عاملا مشتركا بين جميع الذين يستجيبون لما يهيب بهم من الحوادث الجسام ويحشدون قواهم لمقابلتها — وهذا العامل هو أنهم يفكرون فى غيرهم فضلا عن أنفسهم . ومن هذا ما كتب به ضابط أمريكى شاب فى الحرب العالمية الماضية إلى أهله ، قال : « فى وسعكم أن تكونوا على ثقة من أنى مبتهج طول الوقت ، ولم لا أكون كذلك ؟ إن معى ٣٨ رجلا ، فإذا انطرحت على الأرض حين تقبل علينا قنبلة ، انطرح الثمانية والثلاثون جميعاً ، وإذا ابتسمت سرى الابتسام على طول الخط » .

وإذا استطاع إنسان أن يمزج نفسه حقاً بأشخاص آخرين ، فإنه يكون قد أتى أمراً له قيمة عظمى لنفسه على غير عمد . ولنقل إنه عاش إلى الآن فى عقل كأنه غرفة تحيط بها المرايا ، فهو فى حيثما يلتفت يرى نفسه ، أما الآن فإن بعض المرايا قد صارت نوافذ فهو يستطيع أن يرى منها ويستحدث لنفسه مشاغل جديدة .

استخدام كل ما فينا

ويجب علينا بطريقة ما أن نصنع شيئاً بكل هذه البواعث العاطفية التى بنينا عليها ، فإن هذه الحوافز من مثل الفضول ، والشكاسة ، والخوف ، والاعتزاز بالنفس ، والرغبة الجنسية ، جزء جوهرى منا ، فأما أن تستعبدنا ، وإما أن نسيطر عليها فتصبح شخصيتنا بفضل هذه السيطرة أغنى .

والفضول حافز عاطفى فى كل إنسان طبيعى ، ومظاهره شتى ، فالمغتابون ، والثقلاء الذين يتنسمون الأخبار ، وطلاب الحقيقة المخلصون ، والرواد والمستكشفون البواسل والعلماء الباحثون — كل هؤلاء يعدون مظاهر للفضول .

وبعض الفضول يخرج للدنيا أحقر الناس وبعضه يخرج أحراهم بالإعجاب ، ولكنه لا مفر منه . ومن هذه الحقيقة التى تصدق

على كل حوافزنا الطبيعية ، يخلص لنا درسان : الأول أنه لا يجوز أن نحتقر أى عامل عاطفى أساسى فى الطبيعة الإنسانية ، والثانى أن كل واحد من هذه العوامل يشرف ويسمو تبعاً للوجه الذى نستخدمه فيه .

والنزوع إلى الخصام من أعمق الحوافز العاطفية فى الطبيعة الإنسانية ، والميل للعراك لازم لبقاء الحياة الإنسانية وتقدمها ، وتترجم روح القتال نفسها بالعمل الشاق ، وبالشجاعة فى مواجهة المصاعب الشخصية ، وفى كل مظاهر الهجوم على المساوىء الاجتماعية المستقرة .

ولكنا إذا أرخينا الحبل لهذا الحافز العاطفى الذى لا غنى عنه ، كانت النتيجة مدمرة ، فإن البغضاء المزمنة أو إمساك الحقد فى القلب يمزق صاحبه ، والغيظ الشديد قد يورث مرضاً كما تفعل الجرثومة . وإذا كان من سوء حظ الإنسان أن يكون له عدو ، فإن شر ما يمكنه أن يصنع — لا للعدو بل لنفسه — هو أن يدع الغيظ يستقر ويعمق مكانه ، والكراهة تزمن .

لما قال إدوارد إيفريت هيل فى أخريات حياته : « كان لى فيما مضى عدو ، عدو لدود ، وأنا طول يومى أحاول أن أتذكر اسمه » أثبت أنه مستقيم العقل صحيحه أيضاً . وكذلك لنكولن حين لامته سيدة على عبارة كريمة قالها على الجنوب فى أثناء الحرب الأهلية ، وقالت له إنه كان الأولى به أن يتمنى القضاء على أعدائه — كان موفور الصحة الأخلاقية والعاطفية حين قال يرد عليها : « ماذا تقولين ياسيدتى ؟ ألا ترين أنى أقضى عليهم حين أجعلهم أصدقاء لى ؟ »

والخوف عنصر آخر لا غنى عنه فى تكوين الإنسان ، ولسنا نستطيع الاستغناء عنه حتى فى أبسط صوره . ولو أن رجلا لا يخاف بالمعنى الحرفى سار فى شوارع مدينة حديثة ، لكان الأرجح أن يلاقى حتفه قبل المساء . والخوف يمكن أن يكون باعثاً على الخلق والابتداع ، ويمكننا أن نقول ، إذا نظرنا إلى المعنى العميق ، إن المدارس تنشأ من الخوف من الجهل ، والصناعة من الخوف من العوز ، وعلوم الطب من الخوف من المرض ، ولكن الخوف فى مظاهره الشاذة — الهستيريا والخوف من شىء معين ، والقلق المخامر — تمزق الشخصية تمزيقاً شديداً .

والحياة الإنسانية حافلة بالمخاوف المكتومة المزوية فى أركان الشخصية ودهاليزها المظلمة . فالخوف من الظلام ، ومن القطط ، ومن الأماكن المغلقة ، والأماكن المفتوحة ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

والخوف من المسؤلية ، ومن أن يكون المرء بنون ، ومن الشيخوخة والموت ، والمخاوف الآثمة وهى كثيراً ما تكون راجعة إلى خطيئات قديمة العهد . وأحياناً المخاوف الغامضة التى تملأ الحياة توجساً واضطرابا ، مثل هذه البلايا تكون كاللعنة المنصبة على حيوات من لا يحصى عددهم .

والأثر الضار لمثل هذا الخوف المزمن المكتوم مرده إلى البدن ، فإن الغدد فوق الكليتين تزودنا فى كل موقف مرعب وبقدر من مادة منعشة لغريزة القتال . والقليل من ذلك منشط ، ولكن الكثير منه سم . والقلق والفزع إذا أصبحا عادة يؤديان إلى ما هو فى حكم إنذار كاذب مستمر ، ويحولان إفراز الغدد فوق الكليتين من منعش عند الحاجة إلى سم مزمن .

ومن الأهمية بمكان أن نبالج خوفنا حتى نخرج به إلى الفضاء الرحب ونواجهه فى صراحة . وقد بدأنا ونحن أطفال بالخوف من شيئين فقط — الوقوع والضجة العالية . ثم تكدست عندنا جميع المخاوف الأخرى بعد ذلك . فإذا استطعنا أن نتبين أين وكيف التقطنا هذه المخاوف ، وأن نتعقب أدوار نشوئها ونستعرضها استعراضاً موضوعياً ، كأنها لغيرنا وليست لنا ، فإنا نكون قد كسبنا نصف المعركة . وكثيراً ما يتيسر حينئذ الضحك والتخلص منها .

على أنه يتفق أحياناً أن يكون الخوف الذى نواجهه له مسوّغه ، وفى هذه الحالة تهزمنا الأكذوبة القائلة إن المواقف الخطرة غير مرغوب فيها بلا مراء ، على حين أن الحقيقة هى أن المواقف الخطرة تنطوى على عوامل إنعاش وتنشيط .

وحب الخطر من أقوى بواعث الإنسان ، وإذا كانت الحياة تخلو من الكفاية من الخطر فإن الإنسان يذهب ينشده ويبحث عنه ، والناس ينشدونه فى ألعابهم التى تتطلب حركة أكثر مما يتطلبه غيرها ، وفى المباحث والارتيادات الحافلة بالأخطار ، وفى مغامرات التبشير ، وفى تأييد القضايا التى ينفر منها الرأى العام ، فإن التشدد فى المواقف الخطرة وتركها تستثير فى نفوسنا لا الخوف بل حب المصاولة والمنازلة ، تجربة ملهمة تفيد البدن والنفس صحة .

ومن أنجع ما تعالج به المخاوف السقيمة ، العمل . وإليك ما يرويه الدكتور هنرى لنك عن إحدى الأمهات قالت : « فى أول عهدى بالزواج إذ أنا زوجة شابة ، كنت أعانى

مخاوف كثيرة، من بينها الخوف من الجنون. وظلت هذه المخاوف تساورني بعد أن ولدت أول أبنائي، على أني ما لبثت أن ولدت طفلا آخر، وانتهى الأمر بأن صار لنا ستة أبناء. ولم نكن قط في سعة من الرزق فكنت مضطرة أن أنهض بجميع الأعمال، وكنت كلما شرعت أفكر في نفسي أسمع الطفل يبكي، فأضطر أن أجري إليه وأتعهده وأعنى به، أو يتشاجر الأولاد فأحتاج أن أفيء بهم إلى التراضي والسكينة، أو أتذكر فجأة أن الوقت قد حان لإعداد العشاء، أو أن على أن أخرج وأعيد الثياب المغسولة قبل أن تمطر السماء، أو أن على أن أكوي الملابس وغيرها، فكانت الواجبات التي ينبغي أن أقوم بها تأخذ على مخاوفي متوجهها، فزالت هذه المخاوف شيئاً فشيئاً، وأنا الآن ارتاد بذاكرتي إليها فأتسلى».

وهذه القصة تعلل شيوع المساوىء الشعورية والعاطفية بين الأثرياء والذين لا عمل لهم، فإن الوقت يطول بهم فيغذون خيالهم. وهم في زمن الحرب يستطيعون أن يستمعوا إلى كل ما يذاع من الأخبار والتعليقات. على خلاف الجندي الذي عليه أن يؤدي عملا وينهض به، فتكربهم أخطار لا يصنعون شيئاً لدفعها، وأمثال هؤلاء في زمن السلم فريسة لهموم خيالية لا آخر لها، حتى صار صحيحاً على العموم أن أكثر الناس همًّا أقلهم في الواقع هموما.

وخير مثال للطبيعة المزدوجة للخوف، باعتباره خيراً وشراً في وقت معاً، ذلك الرجل الذي يبلغ به خوفه من التقصير في واجبه أن لا يبالي بما يكلفه فعله. وإذا كان للإنسان ما يحيي له، سواء أكان هذا طفلا، أو عمل يوم جديراً بالتفرغ له، أو عالماً استنقذ من ويلات الحرب، فإن هذا هو المهم والذي له قيمة.

والاعتزاز بالنفس أيضا لا يجوز أن يحتقر أو يقمع، بل يجب تهذيبه والانتفاع به. لما قال تشارلز لام: «إن أعظم مسرة أعرفها هي أن يفعل الإنسان الخير سراً، ثم يعرف ذلك اتفاقا» — لما قال ذلك كشف عن مبلغ قوة الرغبة في الالتفات الذي يزيد تقدير المرء لنفسه.

ويقول المتشائمون إن وراء ما يوصف بأنه حياة قائمة على الإيثار، بواعث متعلقة بالاعتزاز بالنفس. والمتشائمون على حق، ولكنهم مخطئون في موقف السخر، فإنا جميعا نبدأ أطفالا ذوي غرائز قائمة على الاعتزاز بالنفس، غير أن المحك هو الغايات التي تستولي على القوى الكامنة فينا آخر

الأمر وتسخرها متخذة منها قوة دافعة .
فإذا كان المستشار حكيما فإنه لا يقول أبداً لأى إنسان أنه لا ينبغى له أن يشعر أنه شىء له قيمة ، بل يحاول على العكس أن يوجه هذه الرغبة القوية إلى مجار نافعة .

ومن الاعتزاز بالنفس حين يضل ، ينشأ الغرور والبخل ، وبعض الناس يعيشون أبداً صادرين عن مثل الروح التى جعلت ماسكانى يهدى روايته الأوبرا « الأقنعة » . « إلى نفسى مع التقدير السامى والرضى الثابت » ، غير أننا لا نستطيع ولا ينبغى أن نكف عن الاهتمام بنفوسنا ، فإن مهمتنا الأولى فى الحياة أن نعنى بأنفسنا لنجعل منها شيئاً يستحق الذكر .

والتسامى بالرغبة الجنسية ، أى إعادة توجيهها إلى مستوى أخلاقى أعلى ، موضوع يكثر فيه الغلط ويقل الفهم الصحيح . فليس مما يستطاع التسامى بكل مطالب الكيان الإنسانى ، ولا بديل هناك نعرفه من الطعام ، لتسكين آلام الجوع . والجنس إذا اعتبرناه بأضيق معانيه ، من هذا القبيل .

ومن الممكن أن يقال كلام كثير معقول للشاب الذى يعانى وطأة هذه الحاجة الحيوية الأولية : إن العفة لا تضنى ، وإن إرضاء الرغبة الجنسية ليس ضروريا للصحة ، وإن الاضطراب العام الذى يصحب الرغبة الجنسية التى لم تفز بما يسكنها ، هذا الاضطراب يمكن التخلص منه بالعمل النشيط لإتعاب البدن كله ، وإن الرغبة الجنسية طبيعية ولا عيب فيها ، وإنه يجب تقبلها بالشكر والرضى لأنها بعض ما بنينا عليه ، ولا يجوز أن نلوثها بالإحساسات السقيمة والشعور بالإثم والخطيئة حين تظهر هذه الرغبة ، وأن الطبيعة إذا ترك لها الأمر ، لها وسائلها لتخفيف وطأة الضغط الجنسى .

على أن الجنس أعمق جداً وأشد تغلغلا فى الشخصية مما يبدو لأول وهلة ، فكل علاقات الأسرة — من أمومة وأبوة وبنوة — أساسها هذا المعنى الأكبر للجنس ، وكذلك كل حب وصداقة بين الإخوة والأخوات ، وبين الرجال والنساء ، وكل امتداد من الأسرة إلى الجماعة ، كما يظهر ذلك فى حب الأطفال والعناية بهم .

وهكذا إذا اعتبرت حياة الإنسان فى جملتها ، فإن التسامى بالجنس يصبح حافلا بالمعانى . ومن الممكن أن يتخير الإنسان أسلوب معيشة تجرى محبّاته ونشاطه الإنشائى فى مجار مرضية ، فتجد الشخصية باعتبارها كلا راحتها وهناءتها ، حتى ولو تركت الرغبات

الجنسية الخاصة بغير إرضاء . فالمرأة غير المتزوجة ، أو التي حرمت الأمومة، تستطيع أن تجد في التمريض أو التعليم أو الخدمة الاجتماعية متنفساً لغرائز الأمومة ، يكسب شخصيتها التناسق والانسجام المرجين .

فأما أنه لا بد من كابح لجميع حوافزنا الطبيعية فأمر بديهي . وتصور حياة تنطلق فيها جميع الحوافز الطبيعية معاً بغير عنان — الاعتزاز بالنفس ، والشكاسة ، والرغبة الجنسية ، والخوف — فما من شك في أن الفوضى تكون هي النتيجة . فالرأي الشائع بأن كبح الحوافز الطبيعية الأساسية ضارّ ، ليس إلا هراء . وليست المسألة هل نكبح ونقيد غرائزنا ، وإنما هي كيف نفعل ذلك لتنسجم الحياة وتتناسق .

إن الاحتمالات العديدة لحسن استخدام غرائزنا أو سوء استخدامها ترجع في مردّ أمرها إلى صفة جوهرية لحياتنا العاطفية كلها ، وهي الحساسية . والطريقة التي نعالج بها هذه الصفة الأولية من أهم الأمور في فحص النفس واختبارها . وإذا اهتدى إنسان إلى ما هو أحسّ به وأشد تأثراً من ناحيته ، فأخلق به أن يستفيد بصراً بمشكلته الشخصية .

فكثيرون من الناس إحساسهم مرهف بالنقد ، وتأثرهم به شديد ، وكرامتهم تتاوى من جراء الرأي السيء فيهم ، لأن شدة تأثرهم بآراء الغير ، ولا سبيل إلى الحياة الاجتماعية بغير ذلك، قد صارت عندهم مرضاً .

وأمثال هؤلاء يعدون حسن التقدير أمراً مسلما ، أما النقد فيعدونه تطاولا . والرجل الطبيعي على نقيض ذلك ، يعد النقد أمراً مسلما ، وحسن التقدير ملاطفة . ألقى إمرسون ذات يوم خطبة أسخطت القسيس الذي كان يرأس الاجتماع سخطاً شديداً ، فلما وقف القسيس ليتلو الصلاة الأخيرة قال : « نتوسل إليك يارب أن تعفينا من أن نسمع مرة أخرى مثل هذه . الهراء الذي كنا نصغي إليه الآن » . ولما سئل إمرسون فيما بعد عن رأيه في ذلك قال : « يبدو لي أن القسيس رجل صريح حي الضمير جداً » . هذه العقلية السليمة المستقيمة عامل ضروري لتناسق الشخصية .

التغلب على الكآبة

أشيع أسباب الانحلال الشخصي من الكآبة ، وهي أحياناً تكون راجعة إلى أسباب بدنية ، ولكن السهوم الذي يعانيه كثير من الناس ليس من العسير أن يتغلبوا عليه .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وأول ما أشير به لعلاج هذه الحالة هو: اعتبر الكآبة أمراً مسلماً، فإن الذي ينتظر أن ينجو نجاة تامة من الكآبة والانكسار إنما يطلب المستحيل. أما تلقى فترات الانكسار بأكثر مما تستحق من الجد بدلا من أن تقول: «هذه أيضاً تزول» فإنه يجعل لها وطأة شديدة مخامرة ليست لها.

ونصيحة ثانية لها أهمية يومية: ذلك أن في وسعنا أن نعد خير حالاتنا النفسية لاشرها هي الدالة علينا والممثلة لنا، والقدرة على ذلك كامنة في أعماق سرائرنا، وفي مقدور النفس أن تختار «هذا» دون «ذاك» كمظهر لخيرها وحقيقتها، وأن تقرن نفسها بالاستبشار دون انكسار القلب، وبحسن النية دون فساد الطوية.

وكل الذين وقعوا في أسر الكآبة يتميزون بأنهم يقرنون نفوسهم الحقيقية بحالات الانكسار التي تعتريهم، فهم لا يكتفون بأن يكون لهم قبو في دارهم العاطفية — كما للناس جميعاً — بل هم يعيشون في هذا القبو. وكل امرىء تمر به ساعات كآبة، ولكنه لا داعي لأن يكون الإنسان كئيباً في الأغلب.

وهذا يفضي بنا إلى نصيحة ثالثة: إذا اعترتك الكآبة فقاوم نفسك ولا تكتف بالإنحاء على الظروف. إن الظروف كثيراً ما تكون أليمة وساحقة، فلا يبقى مفر من الكآبة، غير أن من الخطأ الوبيل أن يستخلص أحدنا من نزول المصاب بساحته، الحقّ في أن يكون كئيباً دائماً.

إن الحياة عملية هضم وتمثيل، نمزج فيها بنفوسنا كل ما يدخل فيها. ومن هنا كان لأبيات وولتر ده لامير معنى أوسع مما يبدو لأول وهلة:

«إن من الغريب البالغ منتهى الغرابة أن كل ما تأكله الآنسة ت. يتحول فيصبح هو الآنسة ت».

والكئيب يستطيع أن يخلق لنفسه بواعث اكتئاب من أى ظرف كائناً ما كان، وهذا يصدق على الخصوص في الأزمنة العصيبة التي ينقلب فيها العالم من جراء الحوادث الفاجعة. والإنسان الذي لا يكتئب للمصائب الحاضرة يدل على أنه لا يحس، ولكن كثيرين في هذه الأيام يردّون ما هم فيه من الانحلال العاطفي إلى حالة العالم الأليمة. على حين أن مشكلتهم الحقيقية مرجعها إلى نفوسهم. وقد كتب د. ه. لورنس يقول في أحد أشخاص رواية له: «عذب ريتشارد لوفات المسكين نفسه في مصارعته معضلته التي كان يسميها أستراليا».

والنصيحة الرابعة تجاوز مدى مغالبة النفس وهى : تذكر غيرك ، فإن العواطف معدية . وفى وسع رجل واحد مكتئب أن يعدى أهل بيت بأكمله وأن يصبح آفة حتى لمن هم فى حكم الأغراب . فإذا كان قول إيان ماكلارين له ما يسوغه: « ليعطف بعضنا على بعض ، فإن معظمنا يخوضون معركة قاسية » فإن البشر والشجاعة من أهم مظاهر العطف التى نستطيع أن نبديها .

وأما النصيحة الخامسة فتتطلب الاستمداد من أعمق ينابيع الشخصية : « تذكر أن بعض المهمات من الأهمية بحيث يجب أن ننهض بها سواء اكتأبنا أم استبشرنا » ، وأصحاب الشخصية القوية يعالجون اكتئابهم لا بالتخلص منه بل بالزوغان منه ، فإن أمامهم عملا يؤدونه ، وغرضاً يريدون إدراكه . وفى هذا الاتجاه ، سواء أكانوا أم لم يكونوا مكتئبين ، يسير الخط الرئيسى لحياتهم .

ملاذ القوة الأخير

إكساب الشخصية الوثاقة والتماسك يتطلب الاستعانة بذخر من القوة المكنونة — قوة متمثلة مما وراء النفس .

وكما أن الشجرة تعيش بالتمثل الكيميائى الذى يحدث فى الجذور والأوراق ، كذلك كياننا يحيى بما يستحوذ عليه من القوة . والوجود كله يمدنا بالوسائل التى لا غنى عنها والتى تيسر لنا الحياة . ونحن نعيش على النشاط الكونى ، وقوتنا ليست مصنوعة فى جوفنا ، وإنما هى تنطلق فى خلالنا .

وهذه القوة المنطلقة لا تقف عند أى خط وهمى يفصل حياتنا البدنية عن حياتنا الروحية . والتجربة الدينية العميقة تقرر أن أرواحنا مستمرة مع حياة روحية أكبر ، وأننا فى هذا النطاق لا ننتج قوتنا من ذات نفوسنا وإنما نتمثلها .

وليس أبعث على مرثية الناصح الشخصى من حالة أولئك الذين لا يعرفون فى علاج مشاكلهم إلا الاعتماد على قوة إرادتهم ، فلا يلبثون أن يتبينوا — عاجلا أو آجلا — أن مثل هذه الوسيلة لا جدوى منها . فإذا أصيبوا مثلا بفقد عزيز وحزنوا ، كان الالتجاء إلى الإرادة لتنهض وتحل المشكلة عبثاً وسفاهة .

مثل هذه اللحظات تتطلب أسلوباً آخر وعلاجا آخر — الإيمان الرحب الكريم .

وكثيرون يسألون : « كيف ينال الإنسان الإيمان إذا لم يؤته ؟ فإن الإيمان لا يستفاد بالإرادة » غير أن الإيمان ليس شيئاً يحصل عليه الإنسان وإنما هو عنده

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وفيه . يضاف إلى ذلك أن لدينا فيضاً منه منوطاً بغرائب أكثر من أن تحصى — الإيمان بالدكتاتورية ، أو التنجيم ، أو أرجل الأرانب والتمائم ، أو بفائدة هذا النظام الاقتصادى أو ذاك ، ومن الأدلة على أن عندنا من الإيمان فوق ما نعرف ماذا نصنع به ، أننا نُفيض منه على كل ما يصادفنا .

وقد اعتدنا أن نلعب بالألفاظ فنقول : « الإيمان ضد عدم الإيمان » فاحتجبت الحقيقة . والحقيقة أنه ما من إنسان يستطيع أن يكون غير مؤمن ، وقد ركب الإنسان من الوجهة النفسانية بحيث أصبح مضطراً إلى الإيمان — بالله مثلا أو بغير إله ما ، ومتى مات الإيمان الإيجابى فإن الإيمان السلبى يحل محله — بالمستحيلات أكثر من الممكنات ، وبالآراء التى تجعل منا ضحايا للحياة لا سادة لها ، وبالفلسفات التى تدفعنا إلى مثل الحالة النفسية التى كان فيها رابليه وهو يجود بأنفاسه ويقول : « أسدلوا الستار ، فقد انتهى تمثيل المهزلة .

كتب صديق ذات يوم إلى ترجنيف : « يبدو لى أن وضع الإنسان نفسه فى المحل الثانى هو كل مغزى الحياة » فأجابه ترجنيف بقوله : « يبدو لى أن اهتداء الإنسان إلى ما يقدمه على نفسه ويضعه فى المحل الأول ، هو كل مشكلة الحياة » . فالذى يقدمه الإنسان على نفسه كائناً ما كان ، هو ما يؤمن به ، ومتى بذل الإنسان إيمانه من قلبه ، فقد شدّ زناد النشاط الإنسانى .

والثقة بأن مما يستحق العناء أن يعالج الإنسان أمر نفسه وصحة العزم على ذلك ، إنما هى رهن بضرب من الإيمان . ويكاد المكروبون والمنكسرون يقولون دائماً : « لماذا نكلف أنفسنا أن نوجد شخصية متناسقة نافعة ؟ وما قيمتنا على أى حال ؟ » فهؤلاء التعساء لا يرون أن هناك شيئاً يستحق أن يحيوا له ، والدواء الوحيد لما يذهبون إليه من أن كل شىء عبث وباطل ، هو الإيمان .

وحتى لو كان الإنسان لا يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه روبرت لويز ستيفنسون حين قال : « إنى أومن بأن كل شىء يكون فى النهاية كما ينبغى » ، فإن مثل هذا الإيمان له قيمة لا تقدر ، فإذا جاوز الإنسان ما ذهب إليه ستيفنسون ، فإنه يجد أن الدين يهدى إليه إيماناً ليس أعظم منه ابتعاثاً للنفس يقول له : مهما يكن ما تخفق فيه ، فليس ثم ما يدعو إلى إخفاقك فى أن تكون إنساناً حقا ، وأن بناء حياة شخصية عظيمة تعترضه حوائل ومصاعب ومتاعب بل إخفاق أدبى أيضاً ، وأن الكون ليس شيئاً وجد اعتباطاً

ولا مؤلفاً فى ذرات لا غاية لها ، وإنما هو منظم دائر حول غايات روحية . والشخصية ليست وليدة الحظ والاتفاق ، وإنما هى أكمل وأتم وسيلة للحياة ، وأوفى رمز عندنا لصفات الله .

وهكذا يكون الدين أساساً للسعى المنطوى على الأمل وينبوعاً للقوة الميسورة ، إذ نحاول أن ننتفع إلى أقصى مدى بمواهبنا الطبيعية ، وأن نصبح كما ينبغى أن نكون . وكل من ينهض لأداء هذه المهمة يكون على الطريق السوى لتحقيق معنى الخلق ، ويكون قد عرف كيف يتقبل أمانة الحياة .

إذا تراكمتْ عليك الأعمال فلا تلتمس الرَّوْح فى مُدافعتها يوماً بيوم والروَغانَ منها ، فإنه لا راحة لك إلا فى إصدارها . وإن الصبر عليها هو الذى يخففها عنك ، والضجر هو الذى يراكمها عليك .

فتعهَّد من ذلك فى نفسك خصْلةً قد رأيتها تعترى بعض أصحاب الأعمال . وذلك أن الرجل يكون فى أمر من أمره ، فيرد عليه شغل آخر أو يأتيه شاغلٌ من الناس يكره إتيانه ، فيكدّر ذلك نفسه تكديراً يفسد ما كان فيه وما ورد عليه ، حتى لا يحكم واحداً منها .

فإذا ورد عليك مثل ذلك ، فليكن معك رأيك وعقلك اللذان بهما تختار الأمور ، ثم اختر أولى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه . ولا يعظمنّ عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر .

إن أردت السلامةَ فأشعرْ نفسك الهيبة للأمور ، من غير أن تظهر للناس منك الهيبة ، فتفطنهم بنفسك ، وتجرّئهم عليك ، وتدعو إليك منهم كل الذى تهاب .

[ابن المقفع]

باب الكتب

[illegible]

كابتن وليم ا. نولتون

حادثة من أغرب حوادث الحرب كلها . وقعت قبيل يوم النصر بقليل ، إذ أرسل ملازم شاب من الفرقة المصفحة السابعة الأمريكية ، وأمر أن يتقدم بجنود الاستطلاع متجاوزاً خطوط الحلفاء ليتصل بالروسيين . ولم يخطر قط لهذا الضابط الشاب الذي يناهز الرابعة والعشرين أنه سيكون عليه — وليس معه إلا أقل من مائة رجل — أن يشق طريقه بالخبّ والحيلة ، مسافة ستين ميلا ، وسط الجيش الألمانى الثانى عشر كله .

ولقد انقطع اتصاله برياسة جيشه ، وسار قُدُماً لأنه لم يجرؤ أن يرتد فيعترف بضعفه ، فاستطاع — وكان يومئذ ملازماً فرقي بعد ذلك إلى كابتن — أن ينزع سلاح آلاف من الألمان ، وأن يستولى على عدة مدن ألمانية .

وقد دوّن قصته الممتعة فى رسالة إلى زوجته لم يكن مقصوداً بها أن تنشر ، وهى حافلة بالحوادث ، والمواقف الحرجة ، والمغامرة ، ومُتَمَّلة بالفكاهة . ثم تجىء الخاتمة حين يلتقى بالروسيين لقاء كله ضجة ومرح .

مهمتك الاتصال بالروسيين

كنت أشرف على حراسة الأسرى ، وقد رددت فصائلى إلى الوراء حيث لا يتسنى الاتصال بها بالراديو ، وإذا بالملازم وليم ساليفان (سالى)* يتصل بى باللاسلكى ويقول : « اسمع يا بيل ! لقد كانت القيادة تحاول أن تعثر عليك ، فاذهب حالا إلى لدجز لوست » فقد أعدوا لك مهمة أخرى ، فسخطت فى سرى ، فقد كنا فى سرى طول الليل ، وعبرنا نهر الإلب والمطر ينهمر علينا والرياح تضرب وجوهنا هابّة من البلطيق ، وما زلنا منذ الفجر فى بعثة للاستطلاع أمام قوة الضرب التى استولت على لدجز لوست الواقعة على السهول الشمالية الغربية من برلين . فأمرت كل الفصائل أن تدع ما هى فيه ، وأن تقصد إلى لدجز لوست على الفور . وفتحت صفارة سيارتى المصفحة ، وضغطت موطن البنزين ضغطاً شديداً ، وانطلقت أنهب الأرض بسرعة ٤٥ ميلا فى الساعة . فكان هذا الأمر الصادر إلىّ بأن أذهب إلى لدجز لوست أهم ساعة فى حياتى .

كانت لدجز لوست غاصة بالأسرى الألمان فى بزتهم العسكرية . وأخيراً اهتديت إلى مقر قيادة فرقتنا .

فقال الكولونل : « اسمع يا نولتون . إن لدجز لوست هى نهاية الزحف المسموح به لنا ، وقد أنزل جنودنا فى خط يمتد من الشمال إلى الجنوب خارج المدينة .

« وأريد منك أن تأخذ جنودك وتتصل بالروسيين . هم فى مكان مّا إلى الشرق ، على مسافة تتراوح بين ٥٠ ميلاً و ١٠٠ ميل إذا صدقت الإشاعات . فاتصل بأحد رجالهم وعد به إلى هنا » .

وواصل كلامه فقال : « إن الجيش الألمانى الثانى عشر يعترض طريقك إلى الروسيين ، فإذا وقعت فى مأزق فلن يكون فى وسعنا أن ننجدك ، فلا تتورط أكثر مما يجب ، وأعلمنى بما يكون من أمرك ، والله يوفقك » .

وصافحنى . فأثر ذلك فى نفسى ، وأقلقنى فى الوقت نفسه . فإنك تصافح من لا تتوقع أن تراه قريباً ، فلم يسرنى ذلك .

وقررت فى سبيل السرعة أن أترك مدافع الهجوم ، وكانت فصيلة هاريل تقوم بمهمة أخرى ، فأخذت معى فصيلتين تنقصان سرية ، وثلاث سيارات مصفحة تابعة للقيادة ،

* كان رفقاء نولتون من الضباط فى هذه الرحلة هم اللفتنانت وليم ساليفان (سالى) ، واللفتنانت إرل هاريل ، واللفتنانت هارى كلارك ، واللفتنانت هنرى تمبل .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ووضعت سيارة كلارك فى المقدمة ، يليها عدد من سيارات جيب الصغيرة ، ثم سيارتى ، وبضع سيارات جيب ، ثم الملازم سالى ، ثم بقية الفصيلتين الأولى والثالثة . وكانت الجملة أقل من ٦٥ رجلا .

وتأملت الخريطة : فى وسعى أن آخذ الطرق الصغار ، وأنا وحظى إذا احتجت إلى القتال ، أو آخذ الطريق الرئيسى كأن ورائى جيشاً يتبعنى ، وعسى أن لا يضربنا أحد بالنار ، وقررت أن آخذ الطريق الرئيسى . وهكذا بدأنا .

كانت هذه هى مهمة الحرب ، وكان قلبى يرقص حين دخلنا فى الطريق ، ولكن قلبى كان يخفق قليلا أيضاً ، فإن هذه يمكن أن تكون مهمة ثقيلة ، كما تبينا فيما بعد .

وسرعان ما اجتزنا الخطوط الألمانية ، وكان الطريق فيما وراء ذلك مسدوداً بالجنود الألمانيين الذين يتقهقرون إلى المنطقة الأمريكية . وكانوا سكارى ، فى الأعم . ولا يكادون يروننا حتى يصيحون ويرمون أسلحتهم ، فتبينا من هذا حقيقة الموقف . وزدنا سرعة سيرنا . وبدأت جماعات الجنود الألمان تقل ، وما لبثنا أن صرنا نقطع مسافات قبل أن نلمح جماعة أخرى . وكانت لحظات اللقاء حرجة ، فقد كان الألمان يسددون مدافعهم ثم يمسكون ، وقد حيرهم أننا ظللنا قاعدين على قمم أبراجنا ، وأننا لا نمد أيدينا إلى مدافعنا ، وأخيراً يستقر رأيهم على أننا لا بد أن نكون قوة كبيرة حقاً ما دمنا نسلك هذا السلوك ، ثم يلقون أسلحتهم .

وبعد أن قطعنا عشرة كيلو مترات بلغنا نيوشتات ، وكانت الشوارع غاصة بالمدنيين والجنود كأنما هو يوم بطالة ، فقد كانت الجماهير تغنى وكل امرئ فى مرح ، وكان الجنود يضحكون ويلوحون لنا بأيديهم حين يروننا ، ويرفعون أسلحتهم لنراها ثم يلقونها . وكان لذلك عدواه ، فما يكاد جندى واحد يرمى سلاحه حتى يقتفى الباقون أثره .

واستغرق اجتيازنا لنيوشتات نحو ساعتين ، وأخيراً لم نجد بداً من أن نتولى نحن تنظيم المرور . ودعوت بضابط ملازم ألمانى وأمرته أن ينظم قوة للمرور من جنود فرقته فى المدينة ، وكان من بواعث التسلية أن يرى المرء وجوه الجنود الألمانيين وهم يركبون السيارات فى شوارع المدينة ، فإذا بهم يجدون جنود فرقة الصدام الألمانيين ، والجنود الأمريكيين يوجهون المرور جنباً إلى جنب .

وكان فى الجانب الآخر من المدينة غابة كثيفة من أشجار الصنوبر يجرى فيها الطريق ، وقد اعترضتنا مركبات تقـ

محطمة ، والجنود يتسلقونها باحثين فيها عن الطعام والثياب . فبدأت أشعر بشيء من القلق ، فقد كان كثيرون من جنود العدو يخرجون من الغابة ، ويأخذون الطعام ويرجعون . وكنت أرى مدافعهم الرشاشة ، وكانوا يبدون أشداء ، ولكنى ناديتهم ودعوتهم أن يخرجوا من الغابة ، فوقفوا وتلفتوا منزعجين ، ثم ذهبوا يعدون إلى مدافعهم الرشاشة ، فخيل إلىّ أن القضاء قد حُمّ ، ولكنى لم أشأ أن أطلق النار فأجمع علىّ جمعهم . ولهذا بقينا جميعاً قاعدين ، وذهبنا نصيح بهم كأن مما لا نستطيع أن نتصوره أن يحاول أحد مقاومة قوة كبيرة كالتى تتبعنا ! فجاءوا وألقوا سلاحهم .

وكانت الأسلحة من الكثرة بحيث لم نستطع تحطيمها كلها ، وأخيراً أخذنا المسدسات ، وأمرنا الجنود الألمان أن يرجعوا مسافة ١٥ كيلو فى ذلك الاتجاه ، وأن يسلموا أسلحتهم للأمريكيين هناك . ووعدتهم أن لا تطلق القوة الكبيرة التى تتبعنا النار عليهم ، وقلت بل الواقع أن الأرجح أن القوة الأمريكية ستكون محجوبة مموّهة ، بحيث لا يستطيع الألمانيون أن يروا أحداً منها حتى يبلغوا المناطق الواقعة خلف لدجز لوست . وقد كذبت فى ذلك اليوم أكثر مما كذبت فى حياتى كلها .

وبلغنا آخر الغابة ودخلنا فى فضاء مكشوف ، وهبط قلبى وقد كانت منى التفاتة إلى جانبى ، فقد كانت هناك ، على مسافة ١٠٠٠ ياردة ، بطارية مؤلفة من أربعة مدافع من أضخم المدافع المضادة للدبابات التى رأيتها فى حياتى . وأدركت أن الذين معى لم يروها ، ومن أجل هذا لزمت مقعدى فوق البرج كأن كل شىء على ما يرام . وتحولت المدافع إلى طابورنا وبدأت تتعقبنا ونحن نتحرك ، فجف حلقى وتقبضت عضلات معدتى التى كانت منقبضة من البرد ، وأحسبنى صليت ودعوت الله ، ولكنى لا أتذكر شيئاً سوى هذه المدافع التى تدير فوهاتها إلينا . وإذا بها فجأة تقف ، وتبرز أربع رءوس من وراء ستارها ، ونظر إلينا هؤلاء الألمانيون ملياً ، فلم نعبأ بهم ، وبرزت رءوس أخرى — وأخيراً خرج نحو ٤٥ ألمانياً من وراء استحكاماتهم وهم يرمون بنادقهم إذ يخرجون .

وكانت الرحلة كلها على هذا النحو . نقبل على جماعة من الألمان ، فيسددون إلينا بنادقهم ، فنصيح بهم أن يلقوا سلاحهم ، فيطيعون ، ونمضى نحن فى طريقنا . وقد مررنا بعدد كبير من الدبابات — من طراز النمر ، وطراز الفهد — ومدافع الهجوم ، وكل رجالها كاملون . وبعد أن

عطلنا عدداً كبيراً من هذه الدبابات اللعينة فى جيب الرور ، صرنا كأننا ننظر من وراء المسرح إلى هؤلاء الألمانيين وهم يسيرونها. وصرنا ننزع دبابيس الإطلاق ، ونرسل الدبابات فى طريقها .

وكان مما يستحق المشاهدة فعلا أن ترى هؤلاء الألمانيين يلقون سلاحهم بالآلاف — فصائل وكتائب . وقد حدث مرة أن تقدم كولونيل ألمانى أمام الطابور ، ونظر إلى شزراً ، وأمر الجنود جميعاً أن يكفوا عن إلقاء السلاح ، وكان أحد الجنود يحمل بين ذراعيه بازوكا ، ويهم أن يلقيها ، فلما صاح به الكولونيل أمسك ونظر إلىّ مستفسراً ، وأمسك جنود آخرون عن إلقاء سلاحهم ووقفوا يترقبون . فوثبت إلى الأرض من سيارتى ، وسرت إلى الكولونيل ووضعت كفى على وجهه ودفعته بقوة . ثم التفت إلى الجندى الذى يحمل البازوكا وأمرته أن يرميها ، فتردد ، فصحت به صيحة قوية خشنة ، فابتسم ورماها . فالتفت إلى الكولونيل ، وعنفته تعنيفاً شديداً وسألته : من تراه يظن أنه صاحب الأمر والنهى على كتيبته — هو أم أنا ؟

وكانت بارشيم شر مدينة رأيتها فى حياتى ، وكان بعضهم قد أبلغها بالتلفون أن الجيش الأمريكى قادم إليها ، فلما دخلت المدينة بقوتى الصغيرة ألفيت اثنين من رجال البوليس الحربى الألمانى على الجانبين لإرشادنا ، وكان الشرطة على طريقنا ، وجنود الصدام يردون الجماهير إلى الطرق الفرعية ويقصونها عن الشوارع . وكان الجنود الألمانيون مصطفين على طول الطريق فى ستة صفوف ، إلى آخر المدينة ، وهم يهتفون بقوة ، فقد أوهمهم بعضهم أننا سنحارب الروسيين .

وأخيراً وصلنا إلى لوبز ، وهناك انتابنى من الفزع ما لم ينتبنى مثله فى حياتى ، وكنا قد حاولنا أن نتصل بقيادتنا باللاسلكى فإذا بنا نجد أن اتصالنا بها مقطوع ، وهكذا صرنا متوغلين مسافة أربعين ميلا فى خطوط العدو ، وليس معنا سوى ٦٥ رجلا أو أقل ، فى قلب الجيش الألمانى الثانى عشر ، ولا أمل لنا فى الخروج أحياء ، إذا قرر العدو أن لا نخرج . وهنا فى لوبز التقينا ببعض المقاتلة الحقيقيين من الجيش ومعهم كثيرون من جنود الصدام . وكانوا يجلسون على دباباتهم الضخمة ومدافع الميدان ، ووجوههم عابسة وقذرة ، ولحاهم طويلة ، وقد سددوا أفواه مدافعهم إلينا . وكانوا قوماً أشداء ، وهم فوق ذلك لا يحبوننا .

وكان أمامى جنرال ضخم يستقل سيارة من سيارات أركان الحرب ، وحوله حرس

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

من جنود الصدام على الموتوسيكلات . وكان لا بد أن أفعل شيئاً وإلا ضعنا ، فوقفت بسيارتي المصفحة أمامه معترضاً ، وملت ، ونحيت أحد المدافع الرشاشة لراكب موتوسيكل جانباً ، وسألت : « إلى أين أنت ذاهب يا حضرة الجنرال ؟ »

فرفع إلى وجهاً مضطرما من الغضب لاجترائي على اعتراض طريقه وقال : « لست أفهمك ، فتنح عن طريقي »

قلت : « إلى أين أنت ذاهب ياصاحبي ؟ سأتنحى عن طريقك متى عرفت إلى أين أنت ذاهب » .

فصاح : « إني ذاهب إلى بارشيم » .

فقلت : « حسن ، ما دمت أعرف إلى أين تقصد . ياسائق ، تنح عن طريق الجنرال » وتنحينا ، وانطلق الجنرال في سحابة من التراب ومعه جنود الصدام . وقد اتضح أنه قائد الفيلق في هذه المنطقة ، ولكن الكلام على هذا سيجيء فيما بعد .

وبعد دقائق قليلة لحق بنا هاريل ، ثم أقبل علىّ رجل من جنود الصدام وطلب أن يعرف ماذا يصنع الأمريكيون هنا . فأخبرته أننا طليعة قوة كبيرة ، وسألته : أين الروسيون ؟ فقال إنهم على مسافة خمسين كيلو متراً . وهكذا نكون قد قطعنا خمسين كيلو متراً مخترقين منطقة العدو لنصل إلى لوبز ، ولا يزال أمامنا جحيم من مسافة طويلة حتى نبلغ الروسيين .

وحاولت مرة أخرى أن أتصل بالقيادة باللاسلكي على غير جدوى . وكان جنود الهجوم قد تجمعوا حول السيارات ، وكان عداؤهم بيناً ، فإذا أظهرنا شيئاً من التردد وقعنا في مأزق .

وكان أمامنا عدة مناهج . ففي وسعنا أن نمضي في السير ونقابل الروسيين ، ولكن الظلام أقبل ، وبرزت لنا مشكلة التعريف بأنفسنا ، وكانت العلامة نوعاً من القذائف المضيئة لم يكن معنا منها شيء ، وليس في وسع الروسيين أن يروا شاراتنا في الليل . زد على ذلك أننا عندما نقترب من الخطوط الروسية الألمانية ، لا يبعد أن يطلق الألمانيون علينا النار ، وفي وسعنا أن ندور ونرجع ، ولكننا إذا أظهرنا من التردد مايغري بالرجوع ، فإننا حريون أن نقتل جميعاً . وقد كان هذا بادياً جلياً في عيون جنود الصدام . وأخيراً نستطيع أن نقضي الليل في لوبز ، ونتصبب عرقاً طول الليل .

•

وكانت المدافع تمر بكثرة ، والدبابات تملأ الليل بضجاتها ، والضباط الألمانيون يصرخون مصدرين أوامر

شديدة — فكان ذلك من أبدع المشاهد التى اكتحلت بها عينى ، ومن أروعها أيضاً.

فاستقر رأيى على خطة وقلت لسالى : « اخرج بالجنود إلى ظاهر المدينة وإلى دروة تل ، وحاول أن تتصل باللاسلكى . وأنت ياجاويش لاد ، تعال معى » فخرج الجنود ، وشرعت أنا والجاويش لاد ، نشق طريقنا بين الجنود الألمانيين .

ولما بلغنا قلب المدينة أقبل ضابط له كرش عظيمة ، يتعثر فى الشارع ، ومعه مدنى قمىء وديع إلى جانبه وقال: « إن الجنرال ليس هنا، فأنا باسم الجنرال أستسلم »

فقلت: « أعرف ذلك . لقد تحدثت منذ فترة وجيزة إلى الجنرال . وقد ذهب إلى بارشيم » .

فقال الماجور : « حسن إذن ! إذن كان كلامك مع الجنرال هرنلين . أنا إذن أسلم المدينة . وهذا الرجل هو العمدة » .

فتمتم العمدة بسروره لرؤية الجيش الأمريكى (أنا والجاويش لاد !) ونزع قبعته .

فنحيته جانباً وخاطبت الضابط بحزم ، وكنت متعباً لا أكاد أبصر، ولكنى حاولت أن أبدو خشناً وعملياً ،وقلت: « أولاً أريد مركزاً للقيادة » .

فقال الضابط : « إنه هنا، ولجنود الصدام مكان للاشراف على المرور ، وكانت أيضاً مركزاً لقيادة الفرقة إلى أن رحل الجنرالات »

فأمرته أن يخرج جنود الصدام لأستخدم المكان ، وهكذا سرنا فى المدينة ، والناس يطلون من النوافذ محدقين ، والجنود يتزاحمون ليروا الحاكم العسكرى الجديد . ولم ألتفت لا يمنة ولا يسرة ، بل سرت فى الطريق مع الضابط والعمدة الذى كان ينهج وراءنا .

وكان مركز المراقبة حانة فيما مضى ، وكان غاصاً بجنود الصدام وضباط المظلات، فوقعت عينى على كولونيل جالس إلى منضدة كبيرة عليها خريطة فقلت: « سأجلس هناك » فأخلى الكولونيل كرسيه بكرهه ، ووقف الضباط الآخرون يلحظوننى لحظات حادة .

وكان على أن أتحرك وأعمل بسرعة حتى لا تنكشف الخدعة . فأمرت أن ينصرف المدنيون جميعاً عن الشوارع إلى بيوتهم ، وللجنود الألمانيين أن يمشوا فى المدينة ، ولكن عليهم أن يلقوا سلاحهم ، ورتبت الأمر مع العمدة بحيث يجعل من مصنع البيرة مركزاً لجمع السلاح .

وكانت فرقة المظلات التابعة لهرمان جورنج ، وهى من فرق الهجوم فى الجيش الألمانى . فى المدينة . فجعلت من

رجالها بوليساً حربياً ، وأمرتهم أن يحرصوا على أن يظل المرور مستمراً غير معطل ، وأن يعرج جميع المارة على مكان جمع السلاح ، وأن يلقى الجنود جميعاً أسلحتهم . فأقبلوا على العمل ، وما هي إلا ساعة حتى كانت حركة المرور تجرى فى يسر ، وأذنت لهم أن يحتفظوا بالدبابات الكبيرة ، كلها لأن الجنود الذين يستقلونها كثيرون ، وأنا أريد أن أبعث بأكبر عدد منها إلى خطوطنا .

وكنت أتفصّد عرقاً فى ذلك الوقت . وجاء عامل اللاسلكى وقال : « سيدى . بعثت برسالتك وهذا هو الجواب » ففضضت الرسالة وقرأت : « سيدى . لم أستطع أن أتصل بأية محطة — وقد أصبحنا معزولين عن جميع القوات الصديقة » .

فقلت : « شكراً لك يا جاويش ، وأبلغهم أنى سأفعل كما أمروا ، وأبقى هنا فى انتظار أوامر أخرى » فحيى وانصرف .

والتفت إلى الألمانيين وقلت : « لقد تلقيت أمراً من قيادتى بأن أقضى الليلة هنا ، وأستأنف السير فى الصباح للقاء الروسيين » .

فتلهبت نفوسهم حنقاً ، وطلبوا أن يعرفوا لماذا لا أواصل الزحف الليلة ، وصبرت على قليل من كلامهم هذا ثم ثرت وقلت لهم : « إننا جنود ، فإذا أمرنا قائدنا أن نبقى هنا الليلة فإننا نبقى » . وعادت سيارا تنا جميعاً إلى البلدة واستقرت فى الميدان الرئيسى . وأمرت فصيلتين أن تقيما معى فى مركز المراقبة . وأن يرقد رجالهما فى الدور الثانى ، فتذمر الألمان وقالوا إنها مجعولة لإقامة جنود الصدام ، فأخرجت جنود الصدام وأحللت رجالى محلهم .

وإلى الآن كان سلوكى أكبر خدعة فى التاريخ ، وإنما نجحت لأن القوم ظنوا أنى الجيش الأمريكى بأسره ، وأنى حين ألتقى بالأمريكيين سيرسم خط فاصل للحدود . وكنت أعلم أنى إذا وقعت فى مأزق ، فلن يخف أحد لنجدتى ، وكنت أعرف أيضاً أن هذه المنطقة ستكون منطقة روسية بعد الحرب .

وما كدت أستقر حتى دق التليفون . وكان المتكلم هو الضابط الألمانى الموكل ببلدة بارشيم فسأل : « يا حضرة القومندان ، متى يحضر الأمريكيون الآخرون ؟ » .

فقلت وأنا أتصبب عرقاً كالخنزير : « سيكونون هناك قريباً جداً ، فإذا لم يصلوا الليلة فسيصلون فى الصباح » .

فبدا لى أن الضابط قلق ، وسأل : « هل عندك تعليمات لى ؟ » .

فسنحت لى فرصة أضاعف فيها عظم مهمته فقلت : « نعم . تجمع الأسلحة من الجنود وتقدمها للأمريكيين حين يصلون »

فصرخ كأنه نسر جريح .

فصحت به : «لست أعبأ شيئاً بما ترى . إنى أنا القومندان العسكرى ، وأنا آمرك أن أن تنزع سلاح الجميع » وخطر لى خاطر بديع فأضفت إلى ذلك : «ولا تنس ديوان قيادة الفيلق عندكم ومعه الجنرال هرنلين » وألقيت السماعة .

ووصل كابتن من فرقة هرمان جورنج ، وقال إن قائده لا يصدق أن فى لوبز جنوداً أمريكيين وأنه يطلب سيجارة كأمارة على ذلك . وما كنت لأعطى أى ألمانى سيجارة أمريكية ، فكتبت إليه ما يأتى :

« هذه شهادة بأن الجنود الأمريكيين قد استولوا فى هذا اليوم على لوبز ، بألمانيا .

وليم ا . فولنويه

الملازم الأول — فرسان

قومندان

ووضعت مع هذه الرقعة قطعة من اللبان .

وجاء كابتن من فرقة البانزر البحرية ، وكان ضخماً وثقيلا ، وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبدأ يتبعنى ، وكان يتولى الدفاع على خط إلى الشرق ، وأصرّ على أن أخرج وأقابل الروسيين على الفور . فقلت له إنى سأخرج متى تهيأت للخروج ، وإنى لن أبعث بأحد من رجالى فى الليل من أجله أو من أجل سواه . فحاول أن يستدرجنى حتى يعرف منى الأوامر الصادرة إلىّ ، وعدد الجنود الذين معى ، وكان التلفون يدق كل بضع دقائق ، ويقول صوت فيه : « يا حضرة القومندان . إن الأمريكيين لم يصلوا بعد إلى بارشيم » .

فأقول : « سيصلون » ويتفصد العرق من جبينى .

وإليك وصف المكان ، وجانباً من الحوار فى مركز المراقبة :

تضاء الأنوار فنرى حانة جعة قديمة رثة غاصة بجنود ألمانيين شبان . وعلى المسرح مكتب ضخم وراءه صورة لأدولف هتلر ، ويجلس إلى المكتب الشخص الرئيسى فى هذه القصة .

والضوء الوحيد يرتمى على المكتب مباشرة فيجعله أشبه بمناظر من الدرجة الثالثة ، وسترته ممزقة من شظايا الشرابنل ، ووجهه قذر ، وعلى جانبيه شعر لم يحلق منذ يومين . ويرفع الستار فيرى كابتن من فرقة البانزر البحرية يتكلم ويضرب المكتب بقبضة يده .

الكابتن : يجب أن تخرج وتقابل الروسيين الليلة . إنهم يزحفون هنا فى هذا المكان ولا بد أن تقابلهم .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

إنهم هنـا ، وههنا . (ويضرب الخريطة على سبيل التأكيد) لا بد أن تخرج الليلة .

نولتون : لا تحـاول أن تعرفنى بما يجب أن أفعل ، إن أوامرى هى أن أبقى هنا وأقابلهم هنا .

الـكابتن : إنك لست على اتصال بقيادتك .

نولتون : لاشك أنى متصل بها ، ولـكن أوامرى هى أن أبقى هنا .

المهندس : يا حضرة القومندان . لقد أمرنى الجنرال أن أبذر حقل ألغام خارج البلدة هنا . فهل تسمح لى أن أعود الآن إلى سريتى ؟

نولتون : كلا ، بل اذهب إلى الحقل مرة أخرى . وإليك جواز مرور تقدمه للجنـود الأمريكيين الآخرين حتى لا يقفـوك (الجنود الآخرون لا وجود لهم !) .

المهندس : ولـكن الجنرال أمرنى .

نولتون : إذهب إلى هذا الحقل .

الـكابتن : إن الروسيين لن يزحفوا الليـلة لأنهم سـيكونون راقدين مع فتياتنا الألمانيات الجميلات . بناتنا الجميلات سيغتصبن .

نولتون : هذه دعاية ! .

جاويش ألمانى : يا حضرة المـلازم ، إن هؤلاء الرجال يريدون اختبار المصباح الـكهربائى الذى فـوقك ليستوثقوا من انتظام التيار (التلفون يدق) .

نولتون (للتلفون) : سـيقدمون الآن . (للـكابتن) لن أذهب الليلة إلى أى مكان (للعمال) إرفعوا أقدامكم القذرة عن عنقى ! .

الجاويش الألمانى : سيدى . عفواً ، ولـكن العمدة يريد أن يعرف هل تسمح له بالذهاب إلى بيته لينام .

الـكابتن : سترى حين تقاتل على شواطىء الأنهار البولنـــدية : حين يفرغ الروسيون من مضاجعة فتياتنـا الألمانيات الحسان . يجب أن تذهب الليـلة .

أمريكى (يجر واحداً من جنود الصدام يقاومه) : هذا الحقير ابن . . . حاول أن يرمينى بالرصاص ويقتلنى .

الجندى الألمانى : هؤلاء الأمريكان الخنازير الملعونون ! (التلفون يدق) .

التلفون : يا حضرة القومندان ، إن الجنود الأمريكيين لم يأتوا إلى بارشيم إلى الآن ، وقد أصدر حضرة الجنرال أمره إلى جميع الجنود أن يحملوا السلاح ويعودوا إلى الجبهـة فماذا

أصنع ؟ متى يحضر الأمريكيون الآخرون ؟ .

الأمريكي للجندي : اخرس وإلا أطرت لك اسنانك ! .

الضابط الألماني : يا حضرة القومندان ، إن مصنع البيرة قد امتلأ سلاحاً ، فأين يلقى الجنود سلاحهم الآن ؟ (تسقط في الخارج بعض طلقات من المدافع الروسية) .

الكابتن : أترى ؟ لقد جاء الروسيون ! يجب أن تخرج وتلاقيهم هنا — في هذا المكان . يجب أن توقظ رجالك .

نولتون : نعم يمكنه أن يذهب إلى بيته الآن . نعم ، سيصل الجنود إلى هناك قريباً . ابحث عن مصنع آخر تلقى فيه الأسلحة — لا أبالي أين — ارفع قدميك عن عنقي يا بن . . . أخرج هذا العمدة من هنا . من أي اتجاه تأتي قذائف المدفعية ؟ كلا ، لن أخرج الليلة مع أي دورية . الخ . الخ .

وقد دام هذا ساعات حتى أدركني الإعياء ، وتذكري أني قضيت ليلتين ويومين لا أنام ، وجاءت الضربة الأخيرة حين انحنى الكابتن الألماني فوق المكتب ونقر على الخريطة وقال : « أظن أنك تخدع ! فأولاً أنت فيما أرى لست على اتصال بقيادتك . وثانيا : أظن أنه لا يوجد جنود أمريكيون أقرب إلى هنا من لدجزلوست ، وأنه لن يأتي أحد منهم » .

وساد المكان صمت عميق — وأثارتني العيون الحادة بنظراتها النافذة ، وفي هذا السكون صارت الأصوات في الخارج أعلى ، وسمعت صوت سيور الدبابات وأغاني جنود الصدام تسري جلية في الليل ، والريح الباردة القارسة ودبيب الأرجل بأحذيتها ذات المسامير ، والأوامر العالية يلقيها الضباط الألمانيون .

وهبط قلبي ، وقلت لنفسي : « يا نولتون ! لقد كنت أخرق مغفلا حين ظننت أن خدعتك ستجوز على القوم . وإن فوقك ينام ستون رجلا يثقون بك ، وقد قدتهم إلى فخ فيه الهلاك ، وهذه آخر خدعة لك ، فيجب أن تنجح . لقد كنت تزعم أنك ممثل ، فهذه آخر فرصة يا بني ! » .

فاعتدلت وحدقت في الجمع وقلت : « لا تكونوا سخفاء . أتحسبون أني من البلاهة بحيث أجيء إلى هذا المكان ، وأستولي على ثلاثة مدن ، وأنزع سلاح عدة مئات من الآلاف من الجنود الألمانيين ، ما لم تكن هناك قوة كبيرة تتبعني ؟ » .

فسكت الكابتن وحك رأسه وقال : « كلا ، لا أظن » .

« والآن سأذهب إلى فراشى لأنام ، فإنى متعب » .

فعلت الاعتراضات ، وصاح كل امرىء أن الروسيين سيهجمون على الأرجح أثناء الليل .

فقلت : « لست أعبأ شيئاً بمن يجىء ما لم أرقد قليلا . عموا مساء ! » .

فضرب كل من فى الفرقة كعباً بكعب ، وحيا التحية العسكرية : « عم مساء يا حضرة القومندان » .

وفى صباح اليوم التالى نزلت فألفيت الموقف حرجاً ، فقد اكتشفت القيادة العليا الألمانية أن قوتى هى القوة الأمريكية الوحيدة على هذا الجانب من لسجز لوست ، وأننا على تقدير جنود الصدام — نزعنا سلاح ٢٧٥٫٠٠٠ من الجنود الألمانيين ، وأن الجيش الألمانى كله يلقى سلاحه فى لوبز . فصدرت الأوامر إليهم بأن يأخذوا سلاحهم مرة أخرى ويضربونا إذا قاومنا .

وتحادثت نصف ساعة مع كولونيل من أركان حرب فيلق الصدام ، فاتفقنا على أن يلقى الجنود الذاهبون غرباً سلاحهم . أما الذاهبون شرقاً فيبقى معهم سلاحهم . وقد وافق على هذا ، لأن الكبرياء أبت له أن يقر بأنه يوجد جنود ألمانيون يتقهقرون من الشرق . وهكذا انصرف — سليم الشرف — وواصل رجالى العمل الضخم فى مراكز جمع السلاح التى صار عندنا منها عدد وفير . على أنه سرعان ما تعددت الملاكمات بين رجالى وبين جنود الصدام . وقد كان الأمر خليقاً أن يخرج من أيدينا لولا شجاعة بعض رجالى . ولكن هذا كان عسيراً أن يدوم ، فكان الحل الوحيد أن نخرج فى عسس ، فنستطيع أن ننقذ وجوهنا ونتقى مباراة الضرب الأخيرة .

وأعددت سيارتى المصفحة ، ووضعت فصيلة هارى كلارك خلفى . وقبل أن نسير ، جئت بضابطين من مصنع هندسى ألمانى ووضعتهما على العجلتين الأماميتين لسيارتى . وقلت : « والآن أيها السادة ، إذا صادفت سيارتى لغماً ، فستموتان كغيركما ، ممن فى السيارة » وسرنا فى الشارع الرئيسى إلى بلاو . والضابطان جالسان فى المقدمة يفحصان الطريق بحثاً عن الألغام . وكانا أقدر من رأيت على الاهتداء إلى مواضع الألغام .

والأرض فى هذه المنطقة منبسطة ، ولما اقتربنا من بلاو كنا نرى إلى مسافات بعيدة ، وكذلك كان أى واحد على الجانب الآخر يستطيع أن يرانا . وكنت أسمع أصوات الطلقات عن بعد ، وبدأت أفكر

وأنا قلق فى مشكلة التعارف . وقد أكدوا لنا أننا سنجد أن الدبابات الروسية عليها كلها مثلثات بيض مرسومة ، وأن علاماتها المميزة أبدلت فصارت كعلاماتنا ، ولكن العلامات لا تكون واضحة من مسافة الضرب.

ودنونا من بلدة صغيرة فصاح أحد المهندسين الألمانيين : « هذه مدفعيتنا الألمانية ! » .

لم أر فى حياتى أطول من هذا الطابور الذى يسير عند خط الأفق من الشرق إلى الغرب ـ من الخيل ، ومركبات الخيل ، والرجال . فتناولت منظار الميدان ، وألقيت نظرة ، ثم ناولت الألمانى المنظار وقلت : « أعد النظر يا هر هاوبتمان ! ثم خبرنى منذ متى صار فى الجيش الألمانى قوازق على رءوسهم قبعات عالية من الفرو ، يركبون فى طليعة الطابور ؟ » .

حسن ، لقد بلغنا هذا المدى . والمسألة الآن هى كيف يحدث اللقاء التاريخى دون أن يقتل كثيرون . فدعوت بسيارة جيب ، وصعدت فوق خزان الماء ومعى راية بيضاء كبيرة ، وقصدت إلى المدينة . ولما درنا حول ركن رأينا ضابطاً روسياً برتبة ماجور ينظر فى خريطة فوثبت من السيارة واعتدلت فى وقفتى وألقيت التحية وصحت : « يا أمريكانتز أوبرليتنانت » (ملازم أول أمريكانى) وصافحته .

وهكذا فى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين من اليوم الثالث من مايو سنة ١٩٤٥ التقت القوات الأمريكية والروسية شمالى برلين . وكان هذا أول اتصال على الجانب الآخر من نهر الألب .

ودعوت هارى باللاسلكى أن يقبل ببقية السيارات ، ثم قادنا الماجور بين جنوده إلى الكولونيل — والجيش الروسى فذ — وقد كنت أتوقع أن أرى آلة حربية يديرها رجال قساة الوجوه ، وقدراً عظيما من المعدات الميكانيكية ، أما الذى وجدناه فخليط من الخيل والجرارات الألمانية والدراجات ، ومركبات المدنيين ، وقطع ميدان قديمة صدئة ، وقوزاق ، ومدافع تومى ، وموتوسيكلات . وكان يبدو أنه لا نظام هناك ، وكان الناس يدخلون فى الطابور ويخرجون منه كما يشاءون ، وكأنما لا أوامر هناك ولا أعمال خاصة ، وكان كل ثانى اثنين ضابطاً . وكان كل امرئ يبتسم ، ويحيينا ، ويصيح بما لا يفهم — فنبتسم ، ونحيى ، ونصيح ، ونحيى ، ونلوح بأيدينا ، ونحيى ونبتسم .

وأخيراً اتصلنا بالكولونيل . وكنت أتوقع أن أرى رجلا جسيما على صدره

المداليات وفى إحـدى يديه مدفع تومى . أما الذى رأيته فرجل أشبه بالفلاحين يقود مركبة يجرها جوادان ، كأنما هو يتنزه يوم الأحد فى بستان . وقد جلست إلى جانبه فتاة فى بزة عسكرية . وقد علمت فيما بعد أنها ممرضة روسية اسمها ماريا .

ولما عرف الكولونل من أنا ومن أين جئت ، نزل وتمشى ووجهه ينضح بشرا ، وتصافحنا ، وربّت كل منا على ظهر صاحبه ، وقد وجدت فيما بعد أن الطريقة التى تأسر بها قلب الروسى هى أن تعدو إليه ، وتضرب ظهره ضربة تصرع الرجل العادى ، وتتناول يده وتشد عليها شداً قوياً ، وتعانقه وتبتسم كالضبع ، وتصيح بصوت عال : « توفاريش ! » أو « يا أمريكانيتز ! »

وأقبلت ماريا تعدو ، فحييناها وربتنا لها على ظهرها . وكانت من الضخامة كأنها ثور صغير ، وبينما كان كل امرىء يضرب ظهر كل امرىء آخر ، ويلغط ويرطن ، أخرج الكولونل خريطته الروسية التى بدت لى كأنها مكتوبة باللغة الصينية ، وأخرجت خريطتى ، واستطعنا فيما بيننا أن نعين الطريق الذى قدمت منه ، وقد استغرب جداً أنى استطعت أن أخترق الخطوط الألمانية وأن أجىء بطريقة ما ، من خلف قوته المقاتلة وأقبل عليه من الوراء . وقد كان من حسن حظنا أننا فعلنا ذلك ، فما كان على الدبابات الروسية مثلثات بيضاء ، وقد كانوا يحدقون فى سياراتنا ويقول : « انظر أيها الرفيق ، إن سيارات الأمريكيين عليها نجوم » .

وأخرج الكولونل قلماً أحمر ، وقعنا به على الخريطتين ، ووضعنا علامة على المكان الذى التقينا فيه . ثم أخرجت زجاجة من الكونياك كنت اشتريتها وقدمتها إليه هدية ، فقدمها بدوره إلى ماريا ، وابتسم كل منا للآخر .

ولم يكن معى أحد يتكلم الروسية ، ولكن كان معى فتى يتكلم اللغة البولندية ، فأرسل الكولونل يدعو ضابطاً يعرف البولونية — وهو شاب صغير جداً برتبة ماجور — وكان الحديث قبل ذلك فاتراً متعباً ، فلما جاء طاب الحديث قليلا . وتحدثنا بواسطته فترة أخرى ، بينما كان ملايين من الروسيين يصعدون فوق سياراتنا المصفحة ويختبرون مدافعنا ، ويتخاطبون باللاسلكى ويفتحون ويغلقون الأبواب ، ويسلكون على العموم سلوك الأحداث إذ يكونون فى زيارة لمعرض حربى . وكان بعضهم يطلق مدفعاً من مدافع تومى من حين إلى حين أو أحد مدافعى الرشاشة ، فيكاد يقتل القوم جميعاً . وحينئذ يضحك الجميع ضحكا عالياً ، ويضرب بعضهم بعضاً على ظهره .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ثم بعث الكولونيل إلى قائد الفرقه ينبئه بما حدث ، فبعث قائد الفرقة يقول إنه سيحضر للغداء ، ويطلب اختيار مركز حسن للقيادة. فتخير الكولونيل مركزاً حسناً للقيادة ، وذهبت أنا وهارى ومعنا نحو عشرة من الضباط الروسيين برتبتي ماجور وكابتن ومعنا ماريا إلى مركز القيادة للغداء .

وبودي لو رأت القيادات العسكرية كيف يستولي الروسيون على مركز للقيادة ! لقد أدار الكولونيل عينه فى البيوت المجاورة وانتقى أحسنها وقال: «سآخذ هذا» وما كاد يقولها حتى انطلق عدد من القوزاق على الخيل إلى البيت ، ووثبوا عن ظهور الجياد ودخلوا البيت . وسمعت أصوات تحطيم كثيرة — وسمعت صوت تكسر الزجاج، والأبواب على الأرجح ، ثم صوتاً عالياً للتحطيم ثم صرخة — ثم فتح الباب وخرج منه ألمانيان شيخان، وكان من البديهي أنهما مدفوعان من الخلف بحذاء روسي ضخم ، وما كادا يخرجان حتى ظهر رجل من القوزاق يحمل طفلا ألمانيا من مقعده وعنقه ، وتلت ذلك أصوات تحطيم وتكسير أخرى ، وعلى هذا النحو كان الاستيلاء على مركز القيادة الجديد .

ولما وصلنا إلى حجرة الطعام كانت الفاكهة المحفوظة التى وجدت فى البيت موضوعة كلها على المائدة . وما لبثنا أن رأينا فتاتين روسيتين وسيمتين تدخلان وتحملان صحافا فيها بيض مقلي وغيره من الأطعمة ، وقد ظننتهما ممن يتبعن المعسكرات ، ولكني علمت أن إحداها جاويش فى فرقة مشاة والأخرى كابتن فى الفرسان .

ودخل الكولونيل وبدا عليه أنه راض عما وجد ، وتناول زجاجة الكونياك التى قدمتها إليه وزجاجة أخرى ساهم بها كلارك، وصب لكل منا جميعاً ملء قدح ماء . وكنت أنظر إلى القدح وأفكر، وإذا بالجميع يثبون فجأة إلى أقدامهم ، وقال الكولونيل بصوت له هدير : «تروومان، ستالين ، تشرتشل !» فلمس كل امرئ بقدحه قدح كل امرئ آخر .

ثم شربوا . وأقول شربوا وأعني ما أقول، فإن كل روسي هناك كرع ملء قدح ماء من الكونياك كرعة واحدة . وقد أخذت أنا وكلارك جرعة كبيرة فظل حلقي ملتهباً عدة دقائق . وقهقه الروسيون جميعاً وضرب بعضهم بعضا على الظهور ، وجعلونا نفهم أن الأمريكيين شعب هزيل، لأننا لم نستطع أن نكرع كرعة روية من الكونياك .

وخايلتني أشباح أبطال الغرب المتوحش، وأدركت أن سمعة رجال الحدود الأمريكيين

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

رهن بسلوكنا . وبهذا نهضت أنا وهارى وشربنا ما فى القدح دفعة واحدة . ثم تهافتنا وعيوننا مغرورقة ، ونحن نحاول أن نبدو كأن هذا ما كنا ننوى أن نفعله طول الوقت .

وتلا ذلك أن وضع أمام كل واحد قدح من الفودكا ، وكان الروسيون جميعاً وقوفاً ، نهضنا بسرعة ، وإن كنا نترنح ، واقترح الكولونيل نخب « أمريكا ... روسيا ... إنجيلانت » فأعدنا ما فعلناه . وقد كان هذا يتكرر كلما دخل ضابط جديد حتى سكرت .

وكنا قد أعطينا الكولونيل فى بعض مراحل الغداء علبة سجاير — فعرفنا شيئاً من الأسباب التى تدعو ملايين من الألمانيين إلى الفرار من الروسيين . وقد تحسس الكولونيل جيوبه ، فلم يجد سجاير روسية يقدمها إلينا فى مقابلة ذلك . فمن البديهى أن حسن التفاهم الدولى أصبح فى الميزان ! فدعا إليه جاويشاً روسياً وأسرّ إليه شيئاً ، فجمع الجاويش عدداً من الجنود ومضى ، وبعد دقيقتين سمعت جلبة فى الخارج ، ثم دخل الجاويش ومعه ثمانى علب من السجاير الألمانية قدمها إلى الكولونيل الذى قدمها إلينا فى زهو ومباهاة . وقال : « سجاير ألمانية ولكنها حسنة » .

ثم أقبل قائد الفرقة وهو رجل عظيم الذكاء وقد جرى لنا معه حديث ممتع . وقلت له إن جنرالى أرسلنى لأعود برجل من أركان حربه إلى القيادة الأمريكية فقال إنه سيذهب معى .

فذكرت له أنه لا يزال هناك ألمانيون كثيرون يحملون السلاح بيننا وبين الخطوط الأمريكية ، فساءه أنى لم أنزع سلاح كل ألمانى بين نهر الألب وبحر البلطيق . فاعتذرت بأنه ليس معى سوى مائة رجل ، فقبل عذرى وعقب على ذلك بأن الروسيين يقاتلون قتالا أشد للحصول على الأسرى . فقلت له إننا نحن أيضاً خضنا بعض المعارك منذ أيام نورمندى .

وأخيراً طلب منى قائد هذه الفرقة أن أبلغ قائدى أنه يريد أن يقابلنى فى كنيسة لوبز . وعلىّ أن أعود إلى لدفجز لوست بهذه الرسالة ومعى الماجور الذى يتكلم اللغة البولونية ، والذى كان لا يزال منهمكاً فى اقتراح الأنخاب .

وكانت الحرب قد وقفت أثناء الغداء ، فالآن استؤنفت . وكنت أتعجب للروسيين كيف يحتملون كل هذه الخمر التى يشربونها فاهتديت إلى الجواب : وهو أنهم لا يحتملونها فقد كنت أرقب قائد قوة الضرب وهو يصدر أوامره بالهجوم . خرج مترنحاً إلى الساحة حيث كان الضباط جميعاً مجتمعين ،

وفى أيديهم الدفاتر معدة . فوقف هنيهة ، ورفع الخريطة وظهره إلى الضباط حتى لا يراها أحد — ثم راح يتمتم ويغمغم بكلام مثل : « نذهب من هذا المكان إلى ذلك المكان ، ثم نمضى إلى ذلك الموقع » وهو يشير إلى الخريطة التى لا يستطيع أحد أن يراها . ولست أستطيع أن أفهم من اللغة الروسية شيئاً يذكر ، ولكن غيرى لم يفهم من هذه الأوامر أكثر مما فهمت .

وظل لحظة يواصل هذا الكلام المبهم إلى أن ألقى الضباط بعضهم إلى بعض نظرة معناها « لقد سكر مرة أخرى » وطووا دفاترهم وصاحوا بالروسية بما معناه : « هلموا أيها الرفاق — إن أولاد ... هناك فى هذه الناحية . فهيا بنا ! » وهكذا انطلق عدة آلاف من الروسيين المرحين فى الفضاء ، متدافعين ، وبدأ الطابور العجيب يسلك طريقه .

وفى طريق أوبق إلى لوبز كانت منى التفاتة إلى الوراء ، فكدت أسقط من البرج ، فقد رأيت صاحبنا الماجور الروسى السكران بارزاً من مقعد المدفعى فى سيارة كلارك المصفحة ، وعلى ذراعه فوطة ، وفى يده موسى كبيرة ، وهو يتهته ويحاول أن يحلق ذقن المدفعى .

وأخيراً عدنا إلى لوبز ، ولعلى لم أتصبب عرقاً وأنا أخترق خطوط الألمان مرة أخرى ، وكنت أفكر فى ذلك الكابتن من فرقة البانزر البحرية ومدفعه المضاد للدبابات ، ولكن الطوابير الروسية كانت قد استولت على نيوشتات ، وهناك لقينى كابتن روسى وسقانى وأطعمنى معه دجاجة ، على حين كان يضرب ويركل على التوالى ضابطا من ضباط فرقة الصدام برتبة ماجور جاء به فى سيارته ، وعدت فيما بعد إلى لدفجز لوست وأبلغت القيادة أنى قمت بمهمتى .

أذكر ، فضلا عما سبق ، أنى فى عصر اليوم التالى دعيت إلى ديوان الجنرال جافين حيث جرى احتفال قدم لى فيه الجنرال مدالية النجم الفضى . وأنا فخور بهذا على الخصوص ، لأنه جاء من فرقة غير فرقتى . وأنا أحمل المدالية ، ولكن الفرقة هى التى استحقتها ، فأنا أحملها من أجلها .

☆☆☆☆☆☆☆☆

إذا هبتَ أمراً فقَعْ فيه فإن شدةَ تَوقّيه أعظم ممّا تخاف منه .

[على بن أبى طالب]

مصرع وحش

چيم كوربت مختصرة من كتاب "وحش كوماؤن آكل الانسان"

« اشتهر اسم المؤلف فى مناطق واسعة من أقاليم الهند المتحدة ، ويعرفه القرويون بأنه الرجل الذى أذهب عنهم الروع الذى أورثهم إياه وجود وحش ضار شرير بينهم . وكم من حاكم هالته الفوضى التى نزلت بالريف من جراء نَمِر يأكل لحوم الناس ، فعاذ بالماجور جيم كوربت يلتمس المعونة — ولم يخب له أمل قط فيما أعتقد . وفى وسعى أن أقول عنه ، وأنا على يقين مما أقول ، إنه ما من رجل خرجت معه للصيد فى أية قارة ، يفهم سمات الأدغال خيراً من فهمه لها » .

[اللورد لنلثجو نائب الملك فى الهند سابقاً]

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مصرع وحش

خريطة كوماؤن الشرقية المعلقة أمامى على الجدار علامات مرقومة ، وتحت كل علامة تاريخ . فأما العلامات فتبين مواقع المسجلين رسميا ممن كانوا فريسة لبَبْر شوجار آكل الإنسان . وهناك ٦٤ علامة على الخريطة ، ولست أزعم أن هذا إحصاء مضبوط ، فما قيدت حوادث الفتك جميعاً ، وخاصة فى الحالات التى لم يصب فيها الناس بأكثر من رضوض ، ثم ماتوا بعد ذلك .

وتشمل العلامات رقعة مساحتها ٥٠ ميلا فى ٣٠ . وفى هذه الرقعة التى انتثرت فيها القرى ، وبعضها فيه مئة نسمة أو أكثر ، وبعضها ليس فيه سوى أسرة صغيرة أو أسرتين، أقام ببر شوجار عهد إرهاب وفزع . وتخترق الطرق الضيقة التى تصل ما بين القرى غابات كثيفة فى الأغلب ، فإذا جعل آكل الإنسان اجتيازها خطراً ، فإن الاتصال بين القرى يتمّ بالصياح ، فيقف الرجل على مكان مشرف ، من مثل صخرة كبيرة أو سطح بيت ، ويرسل صوتاً لينبه القرية المجاورة، ثم يؤدى رسالته بصوت جهير . وتذاع الرسالة من قرية إلى قرية بهذه الوسيلة فى وقت وجيز لا يكاد يصدق . ومن أجل هذا كان من الممكن عادة معرفة اعتداءات آكل الإنسان بعد وقوعها بقليل .

اشتهرتُ بأنى أشد عناية بتصوير الحيوانات منى بقتلها ، وأنى أعجب بالببر خاصة . وأنا مقتنع بأن كل هواة الصيد يوافقوننى على أن الببر سيد كبير القلب لا نهاية لشجاعته ، وأنه متى باد كما سيبيد حتما إذا لم ينهض الرأى العام لنصرته — فإن الهند ستخسر خير حيوانها . ولكنى قضيت أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أصيد أَكلة الإنسان ، لأن الببر متى اعتاد أكل اللحم البشرى ، تصبح قدرته على الفتك لا حد لها تقريبا . مثال ذلك ان بَبْر شامباوات قتل نحو مئتى إنسان فى نيبال قبل أن تطرده من هذه المنطقة جماعة من أهلها المسلحين . فانتقل إلى كوماؤن وافترس فى أربعة أعوام ٢٣٤ آخرين — فصارت جملة ضحاياه ٤٣٤ — قبل أن أوفق إلى قتله . على أن لحم الإنسان ليس بالطعام الطبيعى للببور ، وقلما يصبح الببر آكلا له إلا إذا أفقدته الجروح أو الشيخوخة قدرته على الفتك بفريسته الطبيعية .

وقد تبينت من الخريطة ذات العلامات والتواريخ التى قدمتها لى الحكومة ، أن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ببر شوجار أنشط مايكون فى القرى القريبة من المسكن الخلوى فى غابة كالا أجار ، فصار هذا المسكن أول هدف لى . وبعد مسيرة أربعة أيام انتهت بالصعود فى مرتقى وعر إلى ٤٠٠٠ قدم ، وصلت إليه فى مساء يوم من إبريل . وكان رؤساء القرى قد اجتمعوا ، فعلمت منهم أن الببر شوهد آخر مرة قبل عشرة أيام فى قرية تبعد عشرين ميلا ، حيث قتل وأكل رجلا وزوجته .

والأثر الذى مضت عليه عشرة أيام لا يستحق التتبع ، ولكن سرعان ما أقبل بعض القرويين وأخبرونى أن الببر هاجم صباح اليوم لفيفا من النساء كن يجمعن محاصيلهن فى قرية لا تبعد إلا عشرة أميال . فمضيت إلى تلك القرية على الفور .

وكانت القرية عبارة عن كوخين وحظيرة للماشية فى خمسة فدادين تحيط بها غابة . وكانت هذه الجماعة الصغيرة فى رعب ، فاستخفها الفرح لرؤيتى . وأومأ الناس إلى حقل القمح على بضع ياردات من الكوخين حيث شوهد الببر — فى الوقت المناسب — يتسلل وبطنه يكاد يمس الأرض ، لينقض على النسوة الثلاث اللاتى كن يجمعن المحصول . فلما صيح بهن تحذيراً لهن ، تراجع الببر إلى الغابة حيث انضم إليه ببر ثان ، وقد أيد هذا خبر تلقيته من قبل بأن آكل الإنسان يصحبه فرْز مدرك (ابن الببر) ، ولم تغمض لسكان الكوخين عين لأن الببرين لما أفلتت منهما الفريسة ظلا يختلفان إلى القرية طول الليل على فترات قصيرة .

وأهل الجبال كرام جداً ، وقد عرض على القرويون أن يعدوا لى طعاماً ، وكنت أعرف أن هذا خليق أن يرهق موارد الجماعة الصغيرة ، ولهذا طلبت شاياً ، ولما لم يكن فى القرية شاى فقد جاءونى بحليب صريف محلى بسكر القصب . وهو شراب كاف سائغ متى اعتاده الإنسان . ثم توليت الحراسة إجابة لرغبة مضيفىّ ريثما يجمعون بقية المحصول . فلما كان الظهر خرجت وحدى مشيعاً بدعوات هؤلاء الناس إلى الوادى ، فى الاتجاه الذى جاء منه صوت الببرين .

وهنا أود أن أقطع القصة لأنفى إشاعة مستفيضة فى الجبال بأنى فى مناسبات كثيرة اتخذت زىّ امرأة جبلية ودخلت الغابة ، وجذبت أنظار الببور إلىّ ، وقتلتها بفأس أو منجل . فإن كل ما فعلته مما يعد تغييراً للثياب ، هو أنى استعرت شملة وغطيتها بالحشائش المقطوعة ، أو تسلقت الأشجار . ولم تنجح الخدعة قط ، وإن كان قد حدث مرتين — فيما أعلم — أن الببور ترصدتنى وأنا فوق الشجرة ، مختبئة فى المرة الأولى وراء

صخرة ، وفى الثانية وراء شجرة مقلوعة ، فلم تسنح لى فرصة لرميها بالنار .

ولا بد للصياد الذى يخرج على قدميه ليطارد آكل إنسان أن يعتمد إلى حد كبير فى سلامته وفى معرفة حركات الببر الذى ينشده ، على الصيحات والحركات التى تصدر عن الحيوانات الأخرى التى فى الغابة . فإنها كلها تخرج أصواتاً على سبيل التحذير ، تنذر كل طير وكل حيوان على مسمع منها بوجود الببر . على أنها قد تصيح محذرة معلنة وجود رجل، وبهذا تنذر الببر وتضيع مجهود يوم كامل فى التربص . غير أنه ليس أعون من أصواتها وأعمالها على صيد الببر ، ولكن الريح خير حليف يعوّل عليه الصياد .

ويجب أن يدرك القارىء أنه على حين يحاول الصياد أن يقع على الببر ، يكون الببر على الأرجح متربصاً للصيّاد، وهو صراع كان خليقاً أن يكون غير متكافىء ، لما يحمى الببر من ألوان جلده ، ولقدرته على الحركة بغير صوت، لولا أن الريح عامل يشد أزر الصياد .

والببور لا تعرف أن الآدميين ليس لهم حاسة شم ، فإذا صار الببر آكلا للإنسان فإنه يفعل بالآدميين ما يفعله بالحيوانات المستوحشة ، أى أنه يدنو من فريسته المنشودة مع الريح .

ولما كان الببر يتربص دائماً لفريسته من الخلف ، فإن من الانتحار للصياد أن يسير فى غابة كثيفة فى الاتجاه الذى تهب منه الريح ، لأن الخطر يكون حينئذ وراءه ، فهو أعجز ما يكون عن درئه، ولكنه إذا اعترض الريح مراراً استطاع أن يجعل الخطر إلى يمينه وإلى يساره على التناوب . وقد لا يبدو هذا الكلام مشجعاً أو جذاباً ، ولكنه يجدى عند العمل به . ولست أعرف طريقة هى خير أو آمن عند السير مع الريح فى غابة شجراء ربض فيها ببر جائع آكل للإنسان، من أن يمشى المرء القهقرى !

وقد اتبعت هذه الخطة فبلغت فى المساء الجزء الأعلى من الوادى دون أن أرى الببرين ، أو أسمع من الطير أو الحيوان ما يدل على وجودهما فى الغابة . ولما كان الليل قد أخذ يرخى سدوله ، فقد صار من الضرورى أن أنام فى شجرة ، وهو أمر هين بفضل الدربة الطويلة على اختيار شجرة موافقة ، والقدرة على الرقاد فيها مرتاحاً . وقد سمعت صوت الببرين بعد دخول الليل بقليل ، ولكن الليل بعد ذلك كان ساكناً فنعمت بالراحة ، ولم يزعجنى شىء .

ولما كان عصر اليوم التالى ، كنت قد ارتدت الوادى كله . وإنى لأصعد فى مرتقى

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

معشوشب فى طريق إلى القرية ، وإذا بى أسمع دعوة طويلة ممطوطة ، فأجبتها بصيحة مثلها، فزعق رجل من فوق صخرة مجاورة خلف الوادى وسألنى : أأنت الرجل الذى جاء ليقتل آكل الإنسان ؟ فلما قلت له إنى هو، أخبرنى أن ماشيته خرجت هاربة من مجازة فى الجانب الذى أنا فيه من الوادى عندالظهر، وأن إحداها، وهى بقرة بيضاء، مفقودة .

فقصدت على الفور إلى المجازة للبحث فيها ، وما كدت أسير مسافة قصيرة حتى وجدت آثار الماشية الهاربة ، فلم أجد مشقة فى الاهتداء إلى المكان الذى قتلت فيه البقرة، فإن الببرين بعد أن قتلاها جراها على جانب التل المنحدر إلى المجازة، فتركت أثراً واضحاً للجر . ولعل كلمة « الجر » مضللة ، فإن الببر حين يأخذ فريسته ويقطع بها أية مسافة (وقد رأيت ببراً يحمل بقرة كبيرة مسافة أربعة أميال) لا يجرها بل يحملها . على أن الجزء الخلفى من الفريسة كثيراً ما يتدلى إلى الأرض فيترك أثراً واضحاً أو خفياً، بحسب حجم الفريسة المحمولة، والطريقة التى يمسكها بها الببر .

ولم يكن من الحكمة أن أسير على الأثر ، فانحدرت إلى الوادى ودرت دورة واسعة . واقتربت من الموضع الذى توقعت أن تكون فيه الفريسة من الناحية الأخرى من المجازة. وهذا الجانب من المجازة عميق وغاصّ بالنبات النرخسى ، فهو أصلح ما يكون للتربص ، فشققت طريقى خطوة خطوة بين أعواد النبات التى كانت تصل إلى خصرى . ولما صرت على مسافة ٣٠ ياردة من حوض المجازة، أخذت عينى حركة أمامى . فقد ارتفعت فجأة فى الهواء رجل بيضاء . واضطربت اضطراباً شديداً. وتلا ذلك زمجرة غليظة — البيران واقفان على الفريسة، وقد اختلفا على قطعة شهية منها وتنازعاها .

فلبثت عدة دقائق وأنا واقف لا أتحرك، وظلت الرجل تضطرب . ولكن الزمجرة لم تتكرر . وكانت هناك صخرة ملائمة على مسافة عشرين ياردة ، فانطرحت على يدىّ وركبتى وجعلت أدفع البندقية أمامى وأنا أزحف بين النبات إلى هذا الملجأ ، فلما صارت عيناى فى مستوى قمتها ، كررت الطرف فرأيت البيرين .

وكان أحدهما عاكفاً على الفخذين يقضم والآخر يلعق براثنه. وكانا يبدوان فى حجم واحد ، ولكن الذى كان يلعق براثنه كان أخف لوناً من الآخر ، فعلمت أن ذلك راجع إلى الكبر ، وأن هذا هو آكل الإنسان،وسددت بندقيتى بعناية شديدة إليه وأطلقتها ، فتراجع وخرّ على ظهره ، وذهب

الآخر يعدو فى المجازة وغاب عن عينى قبل أن أضغط الزناد الثانى . ولم يتحرك الببر الذى أصبته بجعلات أحسبه بالحجارة لأستوثق من موته ، ثم اقتربت وشعرت بخيبة أمل عظيمة ، فقد أرتنى نظرة واحدة عن قرب أنى غلطت وقتلت الفِـزْر — وهى غلطة كلفت أهل الناحية فى اثنى عشر شهراً خمس عشرة حياة ، وكادت تكلفنى أنا أيضاً حياتى .

وخفف من خيبة الأمل إلى حد ما ، أن هذه الببرة الصغيرة ، حتى ولو كانت لم تفتك بأى إنسان ، قد ساعدت على الأرجح أمها العجوز على الفتك (وقد تبينت فيما بعد أن هذا صحيح) . ولما كانت على كل حال قد غذيت باللحم البشرى ، فإنها يمكن أن تعد من أكلة الإنسان باعتبار ما سيكون — وهو تقدير خليق أن يريح نفسى .

ومن السهل سلخ الببر على أرض مكشوفة إذا كان هناك أعوان لك ، وكان معك ما تحتاج إليه . ولكن المهمة هنا كانت صعبة ، فقد كنت وحدى ، وحولى نبات نام كثيف ، وليس معى إلا مبراة . ومع أنه لم يكن ثم خطر من الببر آكل البشر ، لأن الببور لا تتجاوز فى الفتك مقدار الحاجة ، إلا أنى كنت أحس إحساساً مزعجاً بأن الببر قد عاد ، وأنه يرقب كل حركة من حركاتى .

ومالت الشمس للمغيب قبل أن أفرغ من المهمة الشاقة ، ولما كنت سأقضى ليلة أخرى فى الغابة فقد قررت أن أبقى حيث أنا .

وكان نطاق اختيارى لشجرة محدوداً بطبيعة الحال ، وكانت الشجرة التى قضيت فيها ليلتى تلك أقل ما جربت من الشجر راحة ، وكان صوت الببر يسمع بين الفترات طول الليل . فلما كاد الفجر يطلع خفت الصوت ثم انقطع فوق المرتفع المشرف على .

وكنت كليلا اشتكى عصبى ، وجائعا أتضور ، فقد قضيت ٦٤ ساعة بغير طعام وثيابى لاصقة بى ، فقد أمطرت السماء ساعة بالليل ، فانحدرت عن الشجرة لما وضحت الاشياء واستبانت المرئيات ، وبعد أن شددت جلد الببر إلى سترتى ، قصدت إلى القرية .

ولم يسبق لى أن وزنت جلد ببر وهو طرى ، وإذا كان الجلد مضافاً إليه الرأس والبراثن ، يزن ٤٠ رطلا فى البداية ، فقد حملت ذلك كله مسافة ١٥ ميلا فى يومى ذاك ، حتى رأيتنى مستعداً أن أحلف أنه يزن مئتى رطل قبل أن أبلغ مقصدى .

وقضيت اليوم التالى فى تجفيف أشيائى وتنظيف جلد الببر وعلاجه . وفى أثناء ذلك اجتمع حولى القرويون ليعرفوا ما وقع لى ، وليقصوا على ما وقع لهم . وكان كل واحد

منهم قد فقد واحداً أو أكثر من ذوى قرباه ، وكان فى كثير منهم ندوب من أنياب الببر وبراثنه، ستبقى معهم حتى يُغَيَّبوا فى قبورهم .

ولم ترد أخبار فى العشرة الأيام التالية عن الببر ، وفى اليوم الحادى عشر جدد أملى نبأ بأن بقرة قتلت فى مجازة فى التل المشرف على خيمتى، ولكنى لما زرت الفريسة تبينت أن البقرة قتلها فهد مسن رأيت أثر أقدامه مراراً . وشكا القرويون من أن الفهد ظل سنوات يفتك بماشيتهم وأنعامهم، فاستقر عزمى على الترصد له ، واخترت كهفا ضيقا على مقربة من البقرة المقتولة. ولم يطل انتظارى ، فقد أقبل الفهد من الناحية الأخرى من المجازة ، ولكنى سمعت وأنا أرفع بندقيتى صوتا مضطربا ينادى من ناحية القرية .

ولم يكن ثم سوى سبب واحد لهذا النداء الملح ، فالتقطت قبعتى واندفعت خارجا من الكهف ، فانزعج الفهد فاستلق أولا على الأرض ثم زمجر وانطلق يعدو من حيث جاء ، وأنا أجرى بأقصى سرعة لألحق بالقروى .

فأخبرنى الرجل أن الببر قتل امرأة على مسافة نصف ميل من الناحية الأخرى من القرية ، فذهبنا نعدو نازلين من التل ، فرأيت حشداً من الناس فى ساحة، وأطللت من فوق رءوس الرجال مجتمعين، فأبصرت فتاة قاعدة على الأرض ، وقد تمزق الجزء الأعلى من ثيابها عن جسمها الغض، وكان رأسها إلى الوراء ويداها خلفها على الأرض لتعتمد عليهما، وكانت بغير حراك أو صوت، سوى أن صدرها يعلو ويهبط ، والدم السائل على وجهها وعنقها يتجمع فى المطمئن من صدرها ويلزق به ويجمد .

وبينما كنت أفحص جراحها ، كان عشرات من الناس يتكلمون فى وقت واحد فقصوا على أن الهجوم على المرأة وقع على أرض مكشوفة وعلى مرأى من عدد من الناس، من بينهم زوجها ، وأن الببر أفزعته الصيحات المجتمعة فترك المرأة ودخل الغابة ، وأن الذين معها عدوها ميتة فارتدوا إلى القرية ليخبرونى ، وأن الفتاة أفاقت بعد ذلك ورجعت إلى القرية، وأنها ستقضى نحبها بلاشك من جراء جراحها بعد دقائق قليلة ، وأنهم سيحملونها بعد موتها إلى المكان الذى هوجمت فيه ، فأتربص للببر عند جثتها وأقتله .

وبينما كان هذا كله يقال لى ، كانت عين الفتاة لا تتحول عن وجهى ، وتتبع كل حركة أتحركها بمثل النظرة المتوسلة من

حيوان جريح ، وكان لا بد من فسحة فى الأرض لأتحرك بلا عائق ، ومن الهدوء لأستجمع عقلى ، ومن الهواء النقى للفتاة ، وأحسبنى لم أتلطف فيما التمست من الوسائل لذلك . فلما انصرف آخر رجل مسرعاً ، وكلت إلى النسوة اللواتى كن إلى هـذه اللحظة فى المؤخرة ، أن يسخن الماء ويمزقن قميصى ، وكان نظيفا جافا ، ويصنعن منـه ضمادات . وكانت هناك فتاة أشرفت على الجنون ، فبعثت بها إلى القرية لتبحث لى فيها عن مقص . وأعد الماء والضمادات قبل أن تعود الفتـاة بالمقص الوحيد الذى كان فى القرية ، وقد وجدوه فى بيت خياط مات منذ زمان طويل ، وكانت أرملته تستعمله فى حفر الأرض لإخراج البطاطس ، وكان حداه الصدئان ، وطولهما بضع بوصات ، لا يلتقيان فى أية نقطة . وبعد أن حاولت عبثاً ، قررت أن أدع خصل شعر الفتاة المعجونة بالدم دون قص .

وكان الجرح الأكبر قطعا من مخلب ، يبدأ بين العينين ويمتد إلى ما فوق الرأس وينحدر إلى القفا ، وقد ترك جلدة الرأس مشقوقة نصفين .

وكان لى صديق طبيب استصحبته مرة لاصطياد الببر ، قد أعطانى قارورة صغيرة فيها أوقيتان من سائل أصفر نصح لى بأن أحملها معى كلما خرجت للصيد ، فحملت القارورة فى سترة الصيد أكثر من عام ، فتبخر بعض السائل ، ولكن بقى ثلاثة أرباع القارورة . فغسلت رأس الفتـاة وبدنها ، ثم صببت السائل إلى آخر قطرة فى الجروح ، ثم عصبت الرأس لتعود الجلدة إلى مكانها ، ثم حملت الفتـاة إلى كوخها وهو غرفة واحدة .

وكان يتدلى من عرق فى السقف قريب من الباب سلة مكشوفة ، كان الذى فيها يصيح طالبا طعامه ، ولم أكن أستطيع أن أصنع له شيئا ، فتركت حل هذا المشكل للنسوة المجتمعات . (بعد عشرة أيام لقيت الفتـاة للمرة الأخيرة قبيل رحيلى ، فألفيتها جالسة على عتبة البـاب والطفل نائم فى حجرها ، وكانت جروحها كلهـا قد التأمت ما عدا الذى فى قفاها حيث انغرزت مخالب الببر فى اللحم ، ففرقت شعرها الوحف الدجوجى لتريني أن جلدة رأسها قد التحمت ، وشكرت لى أنى لم أقص شعرها — فإن الشعر المقصوص هنا يدل على الترمل . فإذا قدم لهذه السطور أن يقرأها صديقى الطبيب ، فإنه يسرنى أن يعرف أن القارورة الصغيرة التى كان فيها السائل الأصفر ، والتى كان يعيد النظر فى تزويدى بها ، قد أنقذت حياة أم شابة عظيمة الشجاعة) .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وقد زرت فيما بعد المكان الذى وقع فيه الاعتداء، واستطعت أن أتتبع أثر الببر مسافة ميلين أو ثلاثة أميال، ثم بلغت أرضا صلبة فانقطع الأثر .

وقد ظل الناس يومين فى القرى المحيطة كلها على كثب من مساكنهم، بقدر ما تسمح بذلك حاجاتهم الصحية، وفى اليوم الثالث حمل إلىّ أربعة من العدّائين خبراً بأن الببر قد أنشب أظفاره فى فريسة من لوهالى، وهى قرية تبعد خمسة أميال إلى الجنوب .

وقد بلغت هذه القرية فى عصر ذلك اليوم، فحيانى شيخ وتوسل إلىّ، والدموع تسيل على خديه، أن أنقذ حياة بنته، وكانت قصته قصيرة فاجعة . ذلك أن بنته — وهى أرملة وليس له من الأهل سواها فى الدنيا — خرجت من بيتها ولم تبعد عنه إلا نحو ١٥٠ ياردة لتجمع عيدان حطب تطبخ به غذاءها، فسمع نسوة كن يغسلن ثيابهن قريبا من هذا المكان صرخة، وأبصرن الببر يحمل البنت إلى الشجيرات المتكاثفة، فعدن مسرعات إلى القرية وقصصن ما رأين، ولكن القرويين خافوا أن يخفوا إلى النجدة . وبعد نصف ساعة عادت البنت تزحف إلى بيتها، وقالت إنها رأت الببر حين هم بالوثوب عليها، فألقت بنفسها من فوق التل، الذى ينحدر عموديا تقريبا، وبينما هى فى الهواء أدركها الببر فسقطا عن التل معا، وأغمى عليها فهى لا تذكر ما جرى بعد ذلك . فلما أفاقت ألفت نفسها على مقربة من جدول، ولما كانت لا تقوى على الصياح طلبا للنجدة، فقد زحفت على يديها وركبتيها إلى القرية .

وبلغنا باب المسكن وهذه الحادثة تروى لى، فرددت الناس عن الباب — وهو الفتحة الوحيدة فى جدران الغرفة الأربعة — ونزعت الملاءة المضرّجة عن المرأة . ولن أحاول وصف حالتها الأليمة، ولو كنت طبيبا أتعاطى الطب ولدى كل ما يتطلبه العلاج من أدوية ومعدات، لما كان من الممكن فى رأيى إنقاذ هذه المرأة . فكيف وما معى سوى قليل من برمنجانات البوتاس ! ومن لطف الله بها أنها كانت فى شبه غيبوبة فغسلت الدم المتجمد عن رأس المرأة وبدنها ليرتاح أبوها الشيخ، لا لأن هذا كان له جدوى، وطهرت الجروح على قدر المستطاع .

وقضيت تلك الليلة وبندقيتى المحشوة إلى جانبى على منصة من الحجر يستعملها القرويون للاحتفالات الدينية — وأعترف أن هذا مكان غير صالح لقضاء الليل فيه ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ولـكن كل مكان كان أفضل من القرية ، ومن تلك الغرفة المظلمة الحارة الوخيمة الهواء الملأى بالذباب ، وفيها تلك المرأة تتعذب وتجاهد مستيئسة أن تتنفس. وحملت إلىّ الريح عويل النساء ، فعلمت أن متاعب المسكينة قد انتهت .

وقد دلتنى حادثة هذه المرأة المسكينة وحادثة الفتاة الأولى ، أن البر الهرم كان يعتمد إلى حد كبير جداً على فِزْره فى الفتك بمن يهاجمه من الآدميين . والمألوف أن لا ينجو إلا واحد من كل مئة يهاجمهم ببر آكل للإنسان . ولكنه كان من الجلى فيما يتعلق بهذا البر ، أن الذين سيصابون سيكونون أكثر من الذين يقتلون . ولما كان أقرب مستشفى على مسافة خمسين ميلا ، فقد رجوت من الحكومة أن تزود بالمطهرات والضمادات كل القرى الواقعة فى هذه المنطقة . وقد سرنى أن أعلم فى زيارتى التالية أن المطهرات أنقذت حياة كثيرين .

ولبثت فى هذه المنطقة أسبوعاً آخر بلا جدوى ، وبهذا أكون قد مكثت فى هذه الأرض التى يغشاها البر قرابة شهر . ولم يكن يسعنى أن أطيل مقامى ، وقد جزع القرويون لما علموا أنى راحل ، ولكنى وعدتهم أن أعود فى أول فرصة .

وقد عدت فى شهر فبراير التالى ، فقد قتل بعض الناس وجرح كثيرون فى منطقة واسعة مذ رحلت عنها فى الصيف السابق . ولما كان مكان البر غير معروف ، فقد استقر رأيى على أن أربط عجلا صغيراً فى الغابة فى مجازة كان قد قتل فيها نور منذ فترة وجيزة ، وإن كان أملى ضعيفاً فى أن ينخدع البر بهذا الطعم .

وكانت الشمس قد انحدرت إلى المغيب حين دخلت المجازة ، وخلفى عدة رجال يجرون عجلا سميناً قويا . وكان على مسافة خمسين ياردة من الموضع الذى قتل فيه الثور ، شجرة مقلوعة ونصفها دفين ، فشد الرجال العجل إليها وعادوا إلى القرية . لم تكن هناك أشجار أخرى ، وكان المكان الوحيد الذى أستطيع أن أربض فيه صخرة ضيقة ترتفع عن حوض المجازة بنحو عشرين قدماً . فصعدت إليها بصعوبة ، ووجدت أن سطحها يميل إلى تحت ميلا غير مريح ، يضاف إلى ذلك أن الصخور تحتها متكهفة ، فلست أستطيع أن أرى ما تحت الشاخص من صخرتى ، ثم إن ظهرى فى هذا الموضع المتعب كان إلى الناحية التى يمكن أن يجىء منها البر ، غير أنى كنت هنا على مسافة ثلاثين ياردة من العجل .

وغابت الشمس ، وكان العجل راقداً فنهض وواجه رأس المجاز ، وبعد هنيهة تدحرج

حجر وهوى ، ولم يكن من الميسور أن أطلق بندقيتى فى الناحية التى جاء منها الصوت . فاجتنبت ما يشى بمكانى ، ولزمت السكون التام . وبعد لحظة دار العجل شيئاً فشيئاً حتى صار وجهه إلىّ ، فدلنى هذا على أن الذى أفزعه — وقد كنت أرى أنه فزع — فى الفجوة التى تحتى . وسرعان ما برز رأس بير تحتى مباشرة . ولا مسوغ لضرب رأس البير إلا عند الضرورة القصوى ، وقد كانت كل حركة آنئها خليقة أن تكشف عن وجودى . وبقى الرأس دقيقة طويلة أو دقيقتين لا يتحرك ، ثم اندفع البير بسرعة ووثب وثبة عظيمة فوقع على العجل ، ولم يكن ثم بحث عن موضع ينشب فيه أنيابه ، أو صراع ، أو صوت سوى صوت اصطدام الجسمين الثقيلين . وانطرح العجل ساكن الأوصال ، والبير فوقه وأنيابه فى عنقه . والاعتقاد الشائع أن البيور تقتل بضربة من كفها على العنق ، وهذا خطأ ، فإن البيور تقتل بأنيابها .

بطه جانب البير الأيمن إلىّ ، فسددت بندقيتى التى تسلحت بها ، وهى عيار ٢٧٥ر ، وأطلقتها . فلم يند صوت عن البير ، وانطلق يعدو فى المجازة واختفى عن عينى . فمن الجلى أنى أخطأته لسبب عجزت عن تبينه ، على أنه قد يعود إذا كان لم يبصرنى أو لم ير وميض النار ، ولهذا حشوت البندقية وجلست .

وكان العجل راقداً بغير حراك ، فأخذ يدور فى نفسى أنى أصبته دون البير . ومرت ١٥ دقيقة ثم برز رأس البير ثانية من الفجوة التى تحتى ، وطال تريثه كرة أخرى ، ثم خرج البير يمشى على مهل إلى العجل ووقف ينظر إليه ، فصار أمامى ظهره بطوله كله فلن أخطئه مرة ثانية ، وضغطت الزناد بعناية ، ولكن البير بدلا من أن يخر صريعاً وثب إلى اليسار ، وذهب يعدو إلى مجازة صغيرة .

فهاتان طلقتان فى ضوء حسن إلى حد ما ومن مسافة ٣٠ ياردة ، وقد سمعهما القرويون القلقون على أميال من حولى ، وكل ما أستطيع أن أريهم إياه هو جرح رصاصة — أو جرحا رصاصتين — فى عجل ميت ! ! فمن الجلى أن بصرى قد رابنى ، أو أنى وأنا أصعد إلى الصخرة أصبت ذبابة البندقية بما زحزحها عن موضعها .

ولم يكن من المحتمل أن يعود البير مرة ثالثة ، ولكنه لم يكن من الممكن أيضاً أن أكر راجعاً إلى القرية ، فقد أظلم الليل ، ولا علم لى بمكان البير . وقد

اعتقدت أنه هو الذى أطلقت عليه النار ، وقد يكون الآن بعيداً ، على أنه قد يكون مراقباً لى من مسافة خمسين ياردة ، فأشار الحزم بأن أبقى حيث أنا ، على الرغم من انتفاء الراحة . ومرت الساعات الطويلة بطيئة ، وانتفضت من البرد ، ودار فى نفسى أن صيد بر آكل للإنسان ليلا ، ليس من الملاهى التى تطيب لى ، وأن هذا الوحش إذا لم يتسن قتله فى ساعات النهار ، فخير أن يترك وشأنه حتى يموت بالشيخوخة . وقد قوّى هذا الرأى أنى حين شرعت أهبط لما أسفر الصبح ، وقد جمدت من البرد وتزحلقت على الصخرة التى طلّها الندى ، أتممت هبوطى وقدماى فى الهواء . ومن حسن الحظ أنى نزلت على الرمل فلم يصبنى لا أنا ولا البندقية سوء .

ومع أن الوقت كان مبكراً ، إلا أنى وجدت القرية قد نهضت . وسرعان ما حف بى الناس يسألوننى من كل جانب ، فلم أستطع الا أن أقول إنى كنت أطلق على بر خيالى رصاصاً فارغاً .

وأنعشنى إبريق من الشاى السخن ، ونار فائرة أدفأت بها باطن الرجل — الذى هو أنا — وظاهره . ثم صحبنى رجال القرية وصبيانها إلى حيث قضيت ليلتى ، وصعدنا إلى الصخرة الناتئة المشرفة على المجازة ، وبدأت أصف لهم حوادث الليلة السابقة ، وإذا ببعضهم يصيح فى حماسة : « انظر أيها السيد ! هذا هو البر الصريع ! » فأدرت عينى فى المجازة وأنا لا أصدق ، ولكنه لم يكن ثم من سبيل للشك فى أن البر هناك . وما كدت أفيق من دهشتى حتى تجددت الصيحات : « انظر أيها السيد ! » وأشاروا إلى مجاز جانبى : « هذا بر آخر » . وكان كلاهما من حجم واحد فى رأى العين . وكلاهما طريح على مسافة ٦٠ ياردة من الموضع الذى أطلقت منه النار ، فمن الجلى أن آكل الإنسان — إذا كان أحدهما — قد جاء برفيق .

فانحدرت عن سطح الصخرة الوعرة إلى المجازة ، والجمع فى أثرى ، وقصدت إلى البر الأول . فلما دنوت منه عظم الأمل فقد كان ببرة هرمة ، فناولت أقربهم إلى بندقيتى وركعت وفحصت أقدامها . وكنت فى ذلك اليوم الذى هاجمت فيه البيرةُ المرأةَ التى كانت تجمع القمح ، قد رأيت الآثار التى تركتها على حافة الحقل ، ففحصتها بعناية ، فدلنى الفحص على أن البيرة هرمة جدا وأن الشيخوخة فرطحت أقدامها . وكان باطن الأقدام الأربع مشققاً جدا ، وأحد الشقوق عميق يقطع باطن القدم اليمنى الأمامية من الأول للآخر ، وقد استطالت الأصابع إلى حد لم أره من قبل فى بر ، فكان من السهل

مع هـذه العلامات المميزة أن أعرف النمر آكل الإنسان من بين مئة نمر ميت .
ولكن الوحش الذى كان أمامى ، لم يكن لسوء الحظ آكل الإنسان . ولما أفضيت بهذا إلى الجمع المحشود ، سرت همسة من الاعتراض الشديد من كل جانب ، وقيل لى إنى أنا نفسى ، فى خلال زيارتى السابقة ، ذكرت أن آكل الإنسان نمر هرم ، وها أنا ذا قد قتلت حيواناً كهذا على مسافة بضع ياردات من حيث قتل أربعة من أهل القرية منذ وقت وجيز . وإزاء هذا الدليل المقنع ماذا تكون قيمة الدلالة المستفادة من الأقدام وأقدام النمور كلها سواء ؟

وما كان يمكن أن يكون النمر الآخر ، فى هـذه الظروف ، إلا ذكراً ، فشرعت أتهيأ لسلخ النمرة ، وبعثت بعض الرجال ليجيئوا بالنمر ، وكانت المجازة الفرعية ضيقة ووعرة . وبعد ضجيج وضحك كثير ، طرح النمر الثانى — وهو ذكر جميل — إلى جانب النمرة .

ومع أن القرويين كانوا يأبون أن يصدقوا ، إلا أنى أكدت لهم أن نمر شوجار آكل الإنسان لم يمت ، وحذرتهم من التراخى فى الاحتياط ، وإلا أتاحوا للنمر الفرصة التى ينشدها . ولو أنهم عملوا بنصيحتى لما فتك النمر بكل هؤلاء الذين فتك بهم فى الشهور التالية . ذلك أنى اضطررت مرة أخرى أن أغادر المنطقة دون أن أؤدى مهمتى .

وأود أن أصف لقرائى الذين صبروا على متابعتى إلى هنا ، أول لقاء لى وآخره مع النمرة .

وقد حدث هـذا اللقاء فى شهر إبريل التالى ، بعد ١٩ يوما من عودتى للمرة الثالثة .

وكنت قد خرجت فى ذلك اليوم مع اثنين من رجالى يجرون عجلا ليربط فى الغابة ويكون طعما ، وكانت البقعة التى اخترتها مكشوفة فيها شجرة بلوط كثيفة ، وشجيرة صنوبر مفردة . فربطت العجل إلى شجرة الصنوبر ، وكلفت أحد الرجلين أن يجيئه بكوم من الحشائش ، وأمرت الآخر — ماذو سنغ — أن يتسلق شجرة البلوط ، وأن يضرب غصنا جافاً برأس فأسه ، وأن يصيح بأعلى صوته كما يفعل أهل الجبـال حين يقطعون الحشائش لماشيتهم . ثم اتخذت مكانى على صخرة ترتفع نحو أربع أقدام على الحافة الأخرى من الأرض المكشوفة .

وكان الرجل الذى على الأرض قد ذهب وعاد مرات عديدة بالحشائش التى قطعها ، وكان ماذو سنغ على الشجرة يصيح تارة ويغنى طوراً بصوت قوى ، على حين كنت واقفاً على الصخرة أدخن ، والبندقية على مأبض

ذراعى اليسرى ، وإذا بى أشعر فجأة أن البير آكل البشر قد أقبل ، فجعلت أومىء للرجل الذى على الأرض ليأتى إلىّ ، وأصفر لألفت نظر ماذو سنغ ، وأشرت إليه أن يلزم الصمت . وكانت الأرض مكشوفة إلى حد ما من جهات ثلاث ، وكان ماذو سنغ الذى على الشجرة ، على الطرف الأيسر من قدامى ، والعجل الذى بدأ يظهر القلق والاضطراب ، على الطرف الأيمن . فكانت البيرة لا تستطيع أن تجىء دون أن أراها ، ولما كانت قد أقبلت فليس ثم لها سوى مكان واحد تستطيع أن تكون فيه الآن ، وهو خلفى وتحتى مباشرة .

ولست أشك فى أن البيرة قد اجتذبتها الضجة التى تصدر عن ماذو سنغ — كما هو قصدى — وأنها قد جاءت إلى الصخرة ، وأنى شعرت بوجودها حين صعّدت طرفها إلىّ ، وراحت تفكر فى الخطوة التالية . ولعل تحولى إليها وسكون الرجلين راباها . والمهم أنى بعد بضع دقائق سمعت صوت عود يتقصف على مسافة منى ، وزايلنى بعد ذلك القلق وذهب التوتر . وقد ضاعت فرصة ، ولكنه لا يزال ثم أمل حسن فى أن أضربها ، لأنها ستعود بغير شك بعد قليل ، ومتى رأت أننا ذهبنا فقد تقنع بقتال العجل .

ومتى عبرت الوادى وصعدت فى المرتقى المقابل للموضع الذى أنا فيه ، فإنى أستطيع أن أشرف على السفح الذى ربط فيه العجل ، ولكن الرمى يكون حينئذ من بعيد — من مسافة مئتى ياردة أو ثلاثمئة ، غير أن البندقية دقيقة . فلو جرحت البيرة ولم أقتلها فإنى سأجد أثراً من الدم أتبعه ، وهذا خير من البحث عنها فى مئات من الأميال المربعة فى الأدغال ، وهو ما كنت أفعله فى الأسابيع الكثيرة السابقة .

وكان أمر الرجلين هو الذى يتعبنى ، فإن ردهما إلى القرية وحدهما يعرضهما للخطر ، ولهذا اضطررت أن أستبقهما معى .

وكان لا بد للوصول إلى المرتقى المقابل أن أقطع مجازة عرضها عشر ياردات وعمقها أربع أقدام أو خمس . فلما انحدرت إليها طار طائر عن صخرة وضعت كفى عليها ، ونظرت إلى الموضع الذى كان عليه الطائر ، فرأيت بيضتين وكانتا فى لون القش ، وعليهما علامات سمراء واضحة ، وشكلهما غير مألوف ، فقد كانت إحداها طويلة تنتهى بطرف حاد دقيق ، أما الثانيـــة فكانت مستديرة مثل الكرة . ولما كانت مجموعتى ينقصها مثل هذا البيض ، فقد استقر رأيى على أن أضيفهما إليها . ولم يكن معى شىء أحمل فيه البيضتين ، فوضعتهما فى بطن راحتى اليسرى وغطيتهما بالعشب .

ولما صرت فى حوض المجازة ارتفع الجانبان ، ولما قطعت مسافة ٦٠ ياردة من موضع الانحدار ، صار الحوض على عمق ١٢ قدماً أو ١٤ . وكانت المياه التى تتدفق فى مجازات الجبال فى موسم الأمطار ، قد جعلت الصخر كالزجاج ملاسة . وكان الصخر وعراً لا تثبت فيه القدم ، فناولت أحد الرجلين بندقيتى ، وقعدت على الحافة وشرعت أنزلق . وما كادت قدماى تلمسان القاع الرملى حتى رأيت الرجلين يثبان ويهويان إلى جانبى ويدفعان بالبندقية إلى ، ويسألانى همساً : هل سمعت الببرة ؟ ولم أكن سمعت شيئاً ، ولعل الذى منع أن أسمع هو صوت احتكاك ثيابى بالصخر ، ولكن الرجلين سمعا زمجرة غليظة من ناحية قريبة ، وإن كانا لم يستطيعا أن يعينا الناحية التى جاء منها الصوت . وليس من عادة الببور أن تزمجر وهى تلتمس طعامها ، فالتعليل الوحيد الذى يخطر لى ، وإن كان لا يسكن إليه العقل ، هو أن الببرة تبعتنا بعد أن تركنا الأرض المكشوفة ، وأنها لما رأتنا نهبط فى المجازة سبقتنا ووقفت فى موضع تضيق فيه المجازة إلى نصف عرضها ، فلما همت بالوثوب علىّ ، كنت أنا قد اختفيت عن ناظريها حين انزلقت ، فأعربت عن خيبة أملها بهذه الزمجرة .

وكنا قد صرنا نحن الثلاثة وخلفنا الصخر الأملس الوعر ، وإلى جانبينا جدارا المجازة الحادّان ، وعلى بضع أقدام أمامنا صخرة قديمة تحجب عنا ما خلفها . وخير ما يوصف به هذا الموضع أنه يشبه إردوازاً مدرسياً ضخماً سمكه قدمان من طرفه الأسفل ، وهو قائم ، عمودياً تقريباً ، على أحد جانبيه الطويلين .

وخرجت من نطاق هذا الإردواز الضخم — وإذا بى وجهاً لوجه أمام الببرة !

وأحب أن تكون صورة الموقف واضحة فى أذهانكم .

كان القاع الرملى وراء الصخرة طوله نحو عشرين قدماً ، وعرضه نصف طوله ، وعلى هذا القاع رقدت الببرة وبراثنها مبسوطة أمامها ورجلاها تحتها . وكان رأسها مرتفعاً بضع بوصات عن براثنها ، وعلى مسافة ثمانى أقدام منى ، (قست المسافة فيما بعد) وعلى وجهها ابتسامة تشبه ابتسامة كلب يرحب بأوبة سيده بعد غيبة طويلة .

وخطر لى خاطران بسرعة البرق : أن علىّ أنا أن أخطو الخطوة الأولى ، وأن ما أفعل يجب أن يكون بحيث لا يزعج الببرة أو يثير أعصابها .

وكانت البندقية فى يمناى ومُراحة بعرضها على صدرى ، وقفل الزناد مفتوح ، فإذا

أردت أن أسدّدها إلى البيرة ، فإن فوهتها لا بد أن تدور ثلاثة أرباع دائرة .

وشرعت فى إدارة البندقية بإحدى يدى ببطء شديد لايكاد يلاحظ ، حتى صارت ذراعى ممدودة ، وبدأت أشعر بثقل البندقية ولم يبق إلا مدّ الفوهة قليلا . وكانت البيرة لا تحول عينها عنى ، وعلى وجهها ابتسامة الرضى والارتياح .

ولا أدرى كم من الوقت مضى لرفع البندقية إلى وضع التسديد . وقدخيل إلى وأنا أنظر فى عينى البيرة ، أن ذراعى قد سلت ، وأن تحويل البندقية لن يتم ، غير أنه تم أخيراً ، وما كادت الفوهة تواجه جرم البيرة حتى ضغطت الزناد .

وسمعت صوت الطلقة وقد زاد قوة لضيق المكان ، وشعرت بهزة ارتداد البندقية ، ولولا هذه الأدلة المحسوسة على أن البندقية قد انطلقت لخيل إلىّ، إذا اعتبرنا النتيجة ، أنى كنت أكابد ثقل كابوس تأبى فيه البنادق أن تنطلق فى اللحظة الحرجة .

وظلت البيرة لحظة وهى ساكنة تماما . ثم انثنى رأسها ببطء شديد على كفيها المبسوطتين ، واندفع الدم منبثقاً من موضع الإصابة . فقد أصابت الرصاصة عمودها الفقرى ومزقت الجزء الأعلى من القلب .

وكان الرجلان اللذان يتبعانى على بضع ياردات، واللذان يفصلهما جرم الصخرة عن البيرة ، قد وقفا حين رأيانى أقف وأدير رأسى. وقد أدركا بالغريزة أنى رأيت البيرة، وفهما من سلوكى أنها قريبة منى جداً . وحدثنى ماذو سنغ فيما بعد أنهم بأن يصيح ويدعونى إلى إلقاء البيضتين ، وأن أجعل كلتا يدى على البندقية، فلما أطلقتها وأرخيت بها ذراعى إلى قدمى ، أشرت إليه فأقبل ليريحنى منها ويحملها عنى ، فقد شعرت فجأة أن ساقى تعجزان عن حملى . وقد عرفت أن هذه هى بيرة شوجار، حتى قبل أن أنظر إلى أقدامها ، وأنها هى التى فتكت بأربعة وستين من الآدميين بحسب الإحصاء الرسمى، أو بضعفى هذا العدد فى حساب الأهالى .

وهناك ثلاثة أمور بدت معاكسة، ولكنها كانت فى الواقع مواتية وهى : (ا) البيضتان فى كفى اليسرى و (ب) البندقية الخفيفة التى أحملها و (ج) أن البيرة آكلة للإنسان. فلولم تكن فى كفى البيضتان لجاءت حركتى سريعة بحكم الغريزة ، ولقامت البيرة لا محالة بالوثبة التى صدّها عنها سكونى . ولولم تكن البندقية خفيفة لما كان من الممكن أن أطلقها بذراعى الممدودة إلى آخرها . وأخيراً لو كانت البيرة عادية ولم تألف أكل لحم الإنسان ، ثم وجدت نفسها محصورة لانطلقت

تعدو ، ونحتنى ودفعتنى عن طريقها . ودفع بيرة لإنسان له فى العادة عواقب وبيلة .

وبينما كان الرجلان يدوران ويصعدان فى التل لفك العجل والمجىء بالحبل الذى أحتاج إليه لغرض آخر أبعث على الرضى ، توقّفت أنا الصخور خارجاً من الحجارة ، ورددت البيضتين إلى مكانهما وإلى من هى أحقّ بهما منى. وإنى لأعترف بأنى كغيرى من زملائى الصيادين أتطير وأتفاءل ، وقد قضيت فترات فى نحو عام أو أكثر أحاول وأحاول جاداً — أن أقتل البيرة، فأخفقت. والآن بعد دقائق قليلة من التقاطى للبيضتين تغير الحظ وساعفتنى الفرصة .

وكانت البيضتان اللتان ظلتا سليمتين فى كفى طول الوقت ، لا تزالان ساخنتين حين أعدتهما إلى النجوة الصغيرة فى الصخرة التى قامت مقام العش ، ولما مررت مرة أخرى بهذه الناحية بعد نصف ساعة، كانت البيضتان قد اختفتا تحت الحاضنة التى كان لونها كلون الصخرة تماما .

وكانت براثن البيرة مكسورة ومشققة، وأحد أنيابها الفاتكة مكسور ، وأسنانها الأمامية مبرودة . وكانت هذه العيوب هى التى جعلت منها آكلة للإنسان ، وهى السبب فى عجزها عن الفتك الوحشىّ — وبمجهودها هى وحدها — بعدد كبير من الآدميين الذين هاجمتهم بعد أن حرمت معونة الفزر الذى قتلته خطأً فى زيارتى الأولى .

ومن ذلك المساء إلى هذا اليوم لم يقتل إنسان واحد ، ولا جرح ، فى هذه المئات من الأميال المربعة فى الجبل والوادى التى ظلت بيرة شوجار مسيطرة عليها خمسة أعوام.

« البَبْر حيوان هندىّ أقوى من الأسد ، بينه وبين الأسد معاداة .
وإذا قصد البَبر النمر ، فالأسد يعاون النمر » .

من كتاب [عجائب المخلوقات]

« البيور ... لا تعرض للناس إلا بعد أن تهرم فتعجز عن صيد الوحش » .

[الجاحظ]

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

صديقتي فليكا

ماري أوهارا

مختصرة من رواية بهذا الاسم

ظهرت « صديقتي فليكا » أول ما ظهرت في صورة أقصوصة ، وقد بلغ من نجاحها أن وسعتها المؤلفة وجعلت منها رواية ، وأضافت مادة كثيرة صادقة بارعة الألوان عن حياة الريف و إنتاج الخيول الأصيلة وتدريبها . وقد صارت الرواية معدودة في الآثار الأدبية الأمريكية الخالدة .

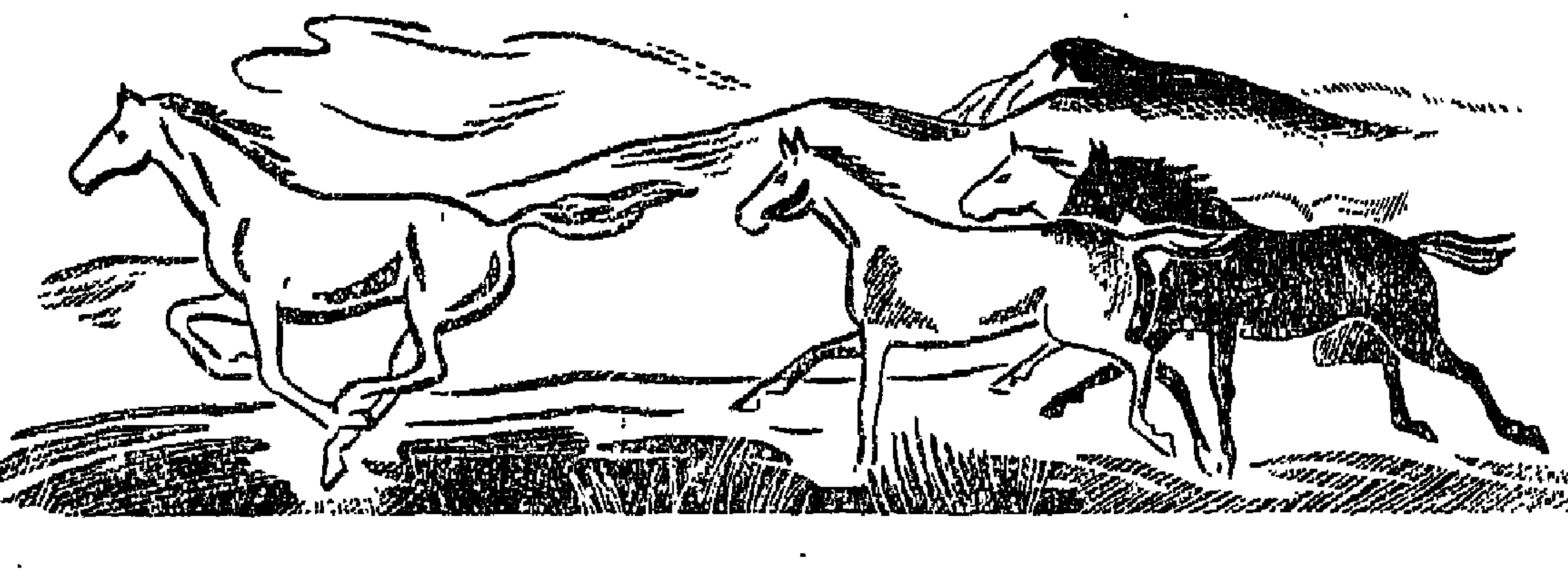

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

صديقتي فليكا

أرسلت التقارير عن امتحان الفترة الثانية بعد إغلاق المدرسة مباشرة ، فى منتصف يونيه .

وكان تقرير كينى صدمة للأسرة كلها .

وقال كينى : « لو أنه كان لى مُهْرة لأمكن أن يجود عملى » .

فحدج روب ماك لافلن ابنه بنظره ، وقال : « هل تسمح لى أن أسأل على سبيل الاستغراب ، كيف تحتال للحصول على صفر فى امتحان ؟ أربعين فى الحساب ، سبع عشرة درجة فى التاريخ ، ولكن صفر ! فهل لك أن تكلمنى كلام رجل لرجل ، بين لى ما يدور فى رأسك ؟ »

وقال هوارد : « نعم ، نبئنا كيف تفعل ذلك » .

فقالت أمه : « كل فطورك يا هوارد »

وانثنى رأس كينى الأشقر فوق طبقه حتى كاد وجهه يحتجب ، واضطرمت وجنتاه .

وفرغ ماك لافلن من شرب قهوته ، ودفع كرسيه إلى الوراء وقال : « ستشتغل ساعة كل يوم بدروسك طول الصيف » .

ورأت نل ماك لافلن ابنها كينى ينتفض كأن شيئاً قد آلمه .

الدروس والمذاكرة فى الصيف ، بعد أن انتهى الشتاء الطويل ، وليس فى اليوم ساعات كافية لعمل ما يود الإنسان أن يعمله !

وكان كينى يأخذ الأمور أخذاً شديداً ، فتلفتت عيناه إلى النافذة المفتوحة على مصراعيها وفيهما نظرة تكاد تكون نظرة يأس . وكان الجبل المقابل للبيت والمكسو بأشجار الصنوبر الذاهبة فى الجو كالرماح ، يبدو واضح المعالم فى الهواء الرقيق على ارتفاع ٨٠٠٠ قدم . وقد امتدّ إليه العشب الأخضر حتى بلغ سفحه ، وانبسطت أشعة الشمس القوية فوق الجبل والهضبة ، فسطع كل ما استوت عليه.

واحتاج كينى أن يرد عينه إلى الطبق ويطرف ، حتى يكفكف الدمع قبل أن يستطيع أن يلتفت إلى أبيه ويقول بغير احتفال : « هل تسمح لى أن أساعدك فى تمريط الخيل هذا الصباح يا أبتِ ؟ »

« ستذاكر دروسك كل صباح قبل أن تعمل أى شىء آخر » ، ودبدب ماك لافلن بحذاءيه القديمين ومهمازيه الغليظين فوق أرض المطبخ : « إنى مشمئز منك . تعال يا هوارد » .

فتبع هوارد أباه ، وآثر الشهامة فاتقى أن ينظر إلى كينى .

وقال كينى على العشاء فى تلك الليلة :

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« ولكن هوارد يا أبى أعطى مهراً ولما يجاوز الثامنة ، وقد درّبه وروّضه بنفسه. وهوارد الآن فى الحادية عشرة ، وحصانه هايبوى فى الثالثة ، وهو يركبه . وأنا الآن فى التاسعة ، وحتى لو أعطيتنى الآن مهراً فلن أدرك هوارد ، لأنى لا أستطيع أن أركبه قبل أن يكون ابن ثلاث ، وحينئذ أكون أنا فى الثانية عشرة » .

فضحكت نل وقالت : « ليس فى هذا الحساب خطأ » .

ولكن روب قال : « إن هوارد لا يأخذ أقل من خمس وسبعين درجة فى المتوسط فى المدرسة » . فلم يجب كينى ، فما استطاع أن يفهم ، على فرط ما اجتهد . وكان يقضى ساعات عاكفا على كتبه ، والمفروض أن هذا ينيل المرء درجات حسنة ، ولكنه لم يجده قط . وكان كل امرئ يقول إنه ذكى ، فلماذا لا يحفظ ما يدرس ؟ وطاف بنفسه إحساس غامض بأنه ربما كان يطيل النظر من النافذة ، أو يحدق فى الجدران عسى أن يرى السحب والسماء والجبال ، ويتساءل عما تراه حادثاً هناك . ثم يدق الجرس وينتهى وقت الدرس .

أما لو أن له مهراً ...

وبعد أن أوى الغلامان إلى فراشهما فى تلك الليلة ، جلست نل ماك لافلن ومعها سلتها الغاصة بما يتطلب الرفو ، ونظرت إلى زوجها .

كان جالساً إلى مكتبه على عادته مكباً على دفاتر الحساب وقوائم الجرد ، وكان ما بين عينيه مَزْوِيًّا من القلق ، وعلى وجهه سمات التجهم .

وخطر لنل أن بين روب وابنه كينى مَشابه ، فقد كان يتعلق بالشىء فلا ينصرف عنه — يتعلق قلبه بشىء واحد ، يبغيه قبل سواه . وقد تعلق بالخيل وتربيتها لما كان فارساً معلماً فى المدرسة الحربية ، واستقال من عمله بالجيش من أجل الخيل ، .. لقد نال ما كان يبغى .

وتنفست نفساً عميقاً وقطعت الخيط بأسنانها . وخطر لها أن نيل الإنسان ما يبغى غاية واحدة تطلب ، ولكنها ليست آخر الغايات . فهذه ضيعة مساحتها ٣٠٠٠ فدان وفيها مئة رأس من الخيل ، ولكن أين الربح ؟ — لقد ظلوا اثنى عشر عاما أو أكثر يحاولون أن يجنوا منها ربحاً ! والناس يقولون إن تربية الخيل لم تؤت ربحاً مذ شرع كبار الرعاة يطلقون قطعانهم على الأراضى العامة ، والناس يقولون ...

وهزت رأسها فجأة هزة نبيلة ثائرة . إن روب سيظل أبداً يكافح ويناضل شيئاً ما مثل كينى ، ومثلها هى أيضاً على الأرجح ،

حتى فى تلك الأعوام الأولى حين لم يكن هنـاك ماء يجرى فى الأنابيب إلى البيت ، وحين كان كل يوم يجىء بصعوبة جديدة أو خطر ، كانت مغتبطة بذلك أعظم اغتباط ولشد ما تغتبط به إلى الآن !

ودست كبّة الغزل فى جورب جورب كينى . وراعها طول القدم . نعم ، الأطفال يكبرون بسرعة . والآن هذا كينى — كينى والمهر ....

وبعد لحظة قالت : « أعطِ كينى مهراً يا روب » .

فجاءها الرد موجزاً : « لا يستحقه » ونحّى أوراقه وأخرج بيبته .

فوضعت ما ترفو وقالت : « إنه يتلهف على مهر يكون له ، وليس فى رأسه فكرة أخرى مذ أعطيت هوارد الحصان هايبوى » .

« لست أومن برشوة الأطفال ليؤدوا واجبهم » .

فقالت بلهجة المترددة : « ليست هـذه رشوة » .

« ليست رشوة ؟ إذن ماذا تسمينها ؟ »

فحاولت أن تفكر لتهتدى : « إنى أشعر أن كينى لن يستطيع أن يأتى شيئاً و .. »

ونظرت إلى عينيه : « وقد آن أن يفعل . إن الأمر ليس مقصوراً على درجات المدرسة . ولست أحب أن يظل كينى لا يبلغ شيئاً » .

« لقد بدأت أعتقد أنه قدْم غبى » .

« إنه ليس قدْماً . ولعل شيئاً صغيراً كهذا يغيّر ما ترى منه . إذا أعطى مهراً ودرّبه وركبه . . »

فقاطعها روب : « ولكن تدريب مهر وترويضه ليس شيئاً قليلا ولا شيئاً سهلا ، ولست أنوى أن أدع كينى يفسد حصاناً أصيلا بإهماله وسوء تصرفه . إنه يحلم وهو مفتوح العين ، ولا يعكف على شىء » .

« ولكنه يسره أن يكون له مهر ياروب ، فإذا استطاع أن يروضه فقد يكون لذلك أثره فى نفسه » .

« إذا استطاع ! هذا فرض ضخم جداً ! » .

وقال روب لابنه كينى على مائدة الإفطار فى صباح اليوم التالى : « بعد أن تفرغ من مذكراتك ، تعال إلى الحقل ، وسأذهب إلى القسم الحادى والعشرين هـذا الصباح لألقى نظرة على المهور . فتعال معى إذا شئت » .

فسأله هوارد : « هل تسمح لى أن أصحبك أيضاً يا أبى ؟ »

فنظر روب إلى هوارد مقطباً وقال :

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« لقد تركت حصانك هايبوى أمس وقوائمه قذرة » .

فتلوى هوارد وقال : « لقد نظفته .. »

« نعم ، إلى الركب فقط » .

« إنه برفس » .

« وغلطة مَنْ هذه ؟ لن تمتطى ظهره مرة أخرى حتى أرى قوائمه نظيفة » .

وتبادل الفتيان النظرات ، وكان كيني مبتهجاً في سره ، وهوارد مغيظاً ، ووقف روب عند الباب ودار وقال : « واسمع يا كيني ، بعد أسبوع من اليوم أعطيك مهراً ، فانظر في مدى الأسبوع أى مهر تختار » .

فوثب كيني عن كرسيه ناهضاً ونظر إلى أبيه وقال : « من نتاج الربيع — أو ابن سنة ؟ »

فبدت على روب الحيرة ، وأخفت زوجته ابتسامة ، فإن كيني يستطيع أن يدرك أخاه هوارد إذا أعطى مهراً ابن سنة .

وقالت برقة : « إن أباك يا كيني يعنى مهراً بلغ سنة . والآن أسرع إلى دروسك » .

وألفى كيني نفسه أهم رجل في الضيعة ، فارتفع رأسه وطالت قامته وشمخ بأنفه ، وصارت نظرته جريئة ، وشعر كأنه مخلوق جديد . حتى « جاس » و « تيم ميرفى » العاملين الأجيرين كان اهتمامهما باختيار كيني لمهر أشد منه بأى شيء آخر .

وكان هوارد لا يستقر من طول الانتظار وجعل يسأل أخاه : « أى مهر ستختار يا كيني ؟ قل لى — لماذا لا تختار داوبوى ؟ فإذا كبر صار كالتوأم لحصاني — على الأقل إذا اعتبرنا اسمه — داوبوى .. هايبوى .. هه ؟ »

وكان الغلامان جالسين على درجة سلم من الخشب قد تآكلت ، أمام باب يفتح من غرفة السلاح على الرحبة ، وهما مكبان بالخرق على اللجُم يصقلانها .

ونظر كيني إلى أخيه باحتقار فإن المهر داوبوى لن يكون له نصف سرعة هايبوى .

فقال هوارد مقترحا : « إذن تخذ المهرة « لاسى » فإنها سوداء كالحبر كمهرى ، وستكون سريعة العدو ... »

« أبى يقول أن لاسى لن تنمو أو يزيد ارتفاعها على خمس عشرة قبضة » .

ورأت نل ماك لافلن ما طرأ على كيني من التغير فكبر أمامها ، فقد صار يقبل على كتبه في الصباح بعزم ويجدّ في الدرس . وحل التنبه واليقظة محل الذهول والشرود ، وأصبح يحل مسائل الحساب بخط حسن . وكانت كلما مرت ببابه كل صباح قبل الإفطار تسمع همهمته وحده وهو يقرأ تاريخ أمريكا .

وكان كل ليلة يقبلها ويطوقها بذراعيه ويضمها إليه بقوة ، ثم ينصرف إلى مخدعه

وفى عينيه ابتسامة جميلة من الغبطة .
وقضى أياماً يتأمل أنواع الخيل والمهور المختلفة ، ويجلس ساعات على حاجز الرحبة منهوماً يمضغ القش . فلما انقضى الأسبوع أعلن قراره : « سآخذ مهرة « روكيت » ذات الذيل والعرف الأبيضين » .
فنظر إليه أبوه مدهوشاً : « المهرة التى دخلت فى الأسلاك الشائكة ؟ إننا لم نسمها قط » .
فزايله ما كان يشعر به من الزهو الجديد ، وثنى رأسه على صدره وقال : « نعم » .
« لقد أسأت الاختيار يابنى . وما كنت تستطيع أن تختار شراً منها » .
« إنها سريعة يا أبى ، وروكيت سريعة » .
« هذه شر ما عندى من الخيل ، وليس لحصان منها كلها عقل . الأفراس شياطين ، والجياد خوارج . ولاسبيل إلى ترويضها »
« سأروضها » .
فنفخ روب وقال : « لا أنا ولا أحد غيرى استطاع أن يروض أحدها » ، فاضطرب صدر كينى « وخيرلك يا كينى أن تغير رأيك . إنك تبغى حصاناً يكون صديقاً لك ، أليس كذلك ؟ »
فقال كينى بصوت مضطرب : « نعم »
« لن تستطيع أن تجعل من هذه المهرة صديقاً . وهاهى ذى كلها خدوش وجروح من هجومها على الأسلاك الشائكة كأمها الملعونة . وما من سياج يمكن أن يصدها » .
فقال كينى بصوت أكثر خفوتاً : « أعرف ذلك » .
فسأله هوارد : « ألا تغير رأيك ؟ »
« كلا ! »
فتجهم روب وتحير ، فما كان يستطيع أن ينقض وعده . والغلام يحتاج إلى قدر معقول من المعونة لترويض المهرة ، ولكن روب رأى بعين خياله ساعات ثمينة بل أياما بطولها تقضى عبثاً فى هذا المجهود .
ويئست نل ماك لافلن . فقد بدا لها أن كينى قد عاد مرة أخرى فأخطأ السبيل ورجع إلى ما كان فيه : ساكناً لا يبالى ، صامتاً لا ينطق ، عنيداً لا ينكص .
غير أنه كان هناك فرق لا يدركه إلا كينى ، وذلك هو حبه للمهرة ، وتغريد قلبه لها ، والزهو والجذل اللذان غمرا قلبه وفاضا ، حتى لقد كان أحياناً يطأطىء رأسه حتى لا يرى أحد ما فى عينيه من وميض .
وكان يعرف من أول لحظة أنه سيختار هذه المهرة التى بلغت عاما ، لأنه عشقها ، وكان قبل ذلك بعام قد خرج مع « جاس » العامل السويدى الضخم للعمل فى مجرى الماء ، فلمحا روكيت واقفة فى أخدود على سفح التل

هادئة على خلاف العادة ، وهى تنظر إليهما على حذر .

فقال جاس : « أحسب مهرتها معها »

وراحا يمشيان على حذر فى الأخدود . فنخرت روكيت نخيراً شديداً ، وهزت رأسها بخبث وانطلقت تعدو ، فلما بلغا حيث كانت واقفة رأيا المهرة الوردية تترنح ولا تكاد تقوى على الوقوف على أرجلها ، فندّ عنها صوت ضعيف ، ولحقت بأمها على قوائم مضطربة .

فقال جاس : « انظر إلى فليكا الصغيرة » .

« ما معنى فليكا ؟ »

« البنت باللغة السويدية » .

وأعلن كينى على العشاء : « قلت إنك لم تسمها قط ، فأنا قد سميتها . اسمها فليكا »

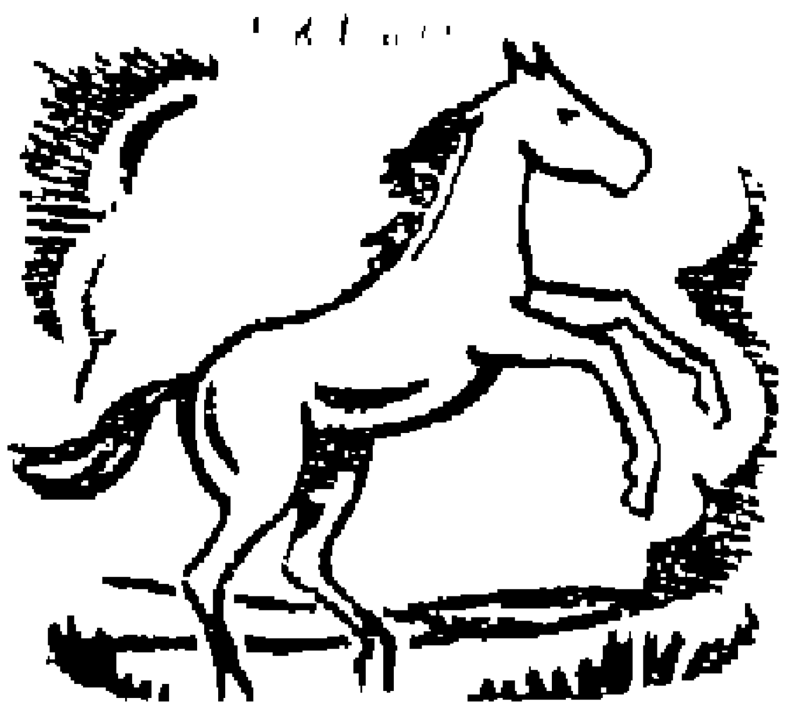

وكان أول ما ينبغى عمله هو إدخالها الإسطبل . وكانت تركض مع جماعة من المهور فى الفضاء الذى تكثر فيه الأخاديد والوهاد .

وخرج الجميع فى طلبها ، وكان كينى صاحبها ، يمتطى الجواد « روب روى » أهدأ الخيل جميعاً .

وكان كينى مفتوناً بملاحظة فليكا حين أحست المهور أن الجمع وراءها فمضت إلى الجبل . وكانت فليكا لا تبالى مواطىء أقدامها ، فتذهب تسبح فوق الحفر وتسبق الخيل . وكان الهواء يعبث بعرفها الناصع وذيلها يجلد الهواء ، وكأنه ليس عليها إلا أن تقصد بقعة معينة ، لتبلغها بأرجلها الدقيقة ثم تمضى سابحة . حتى لقد خيل إلى كينى أنها مهرة من بنات الجن .

ولبث مقتعداً ظهر حصانه وهو ساكن لا يتحرك ، ولا يزيد على النظر وعلى كبح روب روى ، حتى مر به أبوه يخطف على ظهر « سلطان » ويصيح : « ماذا جرى ؟ لماذا لم تردّ الخيل ؟ »

فتنبه كينى وركض خلف أبيه ، وسرعان ما عادوا بجماعة الخيل كلها ، وأغلقت بوابات الرحبة ، وقضوا ساعة فى إدخال الأفراس وإخراجها حتى صارت فليكا وحدها فى الرحبة الصغيرة المستديرة التى توسم فيها صغار الأمهار . وأخرج جاس الأمهار الأخرى من البوابة إلى المركض فى الجبل.

ولكن فليكا كانت لا تنوى أن تبقى وحدها ، فألقت بنفسها على قوائم الحاجز وحاولت أن تقفز من فوقها ، وكان ارتفاعها سبع أقدام ، فاصطدمت ذراعاها بالعارضة العليا وحكتهما ، وحبس كينى أنفاسه مخافة أن تدخل ذراعاها الغضتان بين العوارض

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فتنكسرا . وهوت على ظهرها ، وانقلبت ، وصوتت ، وقامت تعدو دائرة حول المربط. فأحس كيني بوجع في أحشائه وبدا على وجه أبيه التقزز .

وقذفت بنفسها مرة أخرى على السياج فانكسرت عارضة ثم أخرى ، ورأت الثغرة فأدخلت رأسها وذراعيها فيها — كالكلب حين يزحف من فتحة في حاجز — وخرجت وفرت ودمها يقطر من عدة مواضع .

وبينما كان جاس عائداً وقد همّ بإغلاق البوابة العليا مرقت المهرة منها ، ومرت مراً سريعاً على الطريق وفوق الخندق ، وذهبت تسبح سبحها الذي لا مثيل له على سفح الجبل كأنها أرنب . فقال جاس : « ربّاه ! » ووقف يحدق ولا يتحرك .

وعرض روب ماك لافلن على كيني أن يغير رأيه : « هذه آخر فرصة لك يا بني . وخير لك أن تختار حصاناً يكون لك أمل في ركوبه يوماً ما ، ولقد هممت أن أتخلص من خيل هذه الفصيلة كلها لولا أنها سريعة العدو ، وجرى بخاطري أن أحدها قد يكون وديعاً ، فيكون لي جواد سباق . ولكني لم أر ما يبشر بذلك إلى الآن ، ولن تكون فليكا هي هذا الحصان المأمول » .

وقال هوارد على سبيل التأييد : « لن تكونه فليكا » .

فقال كيني : « ربما أمكن ترويضها » . وكانت أمه نل تلاحظه ، فرأت شفتيه تختلجان ، ولكن صحة العزم كانت بينة في عينيه .

فقال روب : « إن الأمر إليك يا كيني . فإذا قلت إنك تريدها أتينا بها ، ولكنها لن تكون الأولى من جنسها التي تؤثر الموت على الإذعان . وإنها لأمهار جميلة وسريعة . ولكني أقول لك يا صاحبي إنها مجنونة » .

فاضطرب كيني على نظرات أبيه .

« وإذا جئنا بها مرة أخرى ، فلا عدول بعد ذلك مهما حدث . فهل تفهم ما أعني ؟ »

« نعم » .

« ما قولك ؟ »

« أريدها » .

فجاءوا بها وأدخلوها مرة أخرى . وكانوا أحسن حظاً في هذه المرة ، فقد حاولت أن تنطلق وأن تقفز فوق النصف الأسفل من باب الإصطبل ، فاصطدمت ووقعت في الداخل . فأوصد الرجال النصف الأعلى من الباب فحبسوها .

وطردت البقية ، ووقف كيني خارج الإصطبل يصغي إلى وقع الحوافر والأصوات والصدمات. إنّ مهرته فليكا في الداخل ! فتصبب عرقاً .

وقال روب لما حان وقت العشاء :

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

« سندعها لتفكر وتراجع نفسها . ثم نجيء فيما بعد ونطعمها ونسقيها » .

ولكنهم لما ذهبوا فيما بعد لم يجدوا فليكا حيث تركوها ، ووجدا شباكا — أعلى من المذود — مكسوراً .

وكان الشباك يفتح على مرعى حوله أسلاك شائكة ترتفع إلى ست أقدام ، وكان هناك على مقربة من الإصطبل حمل مركبة من الدريس . فلما قصدوا إلى ما وراء الإصطبل وجدوا فليكا مختبئة خلف المركبة ، فوثبت إلى أرجلها لما اقتربوا منها ، وذهبت تعدو شرقاً فوق المرعى .

وقال روب : « إذا كانت كأمها المجنونة ، فستقذف بنفسها على الأسلاك » .

فقال جاس : « أراهن أنها ستقفز من فوقه . إنها تثب كالغزال » .

فقال روب : « ما من حصان يستطيع أن يقفز من فوق هذا الحاجز » .

ولم يقل كيني شيئاً لأنه لم يقدر على الكلام . ولعلها كانت أعصب لحظة في حياته ، وجعل عينه على فليكا وهي تعدو إلى الأسلاك على الجانب الشرقي .

فلما صارت على بضع ياردات من الحاجز ، انحرفت ، واستدارت وانطلقت تركض جنوباً .

فصاح كيني وهو يكاد يبكي : « ارتدت ! ارتدت ! » وكانت هذه أول علامة تبعث على الأمل في فليكا « إيه يا أبي إن لها عقلا ! لها عقل ! لها عقل ! » .

ودارت فليكا مرة أخرى مرتدة لما واجهت الحد الجنوبي المرعى ، وعادت فرجعت عن الحد الشمالي ، واتقت البيدر ، ومضت تبحث وتستقصي كل احتمال دون أن تخفف من سرعة عدوها . ثم لما رأت أن لا أمل ، عدت جنوباً إلى حيث قضت حياتها ، وتجمعت وقذفت بنفسها في الهواء .

فارتفعت أيدي الرجال الثلاثة الذين كانوا يرقبونها ، إلى عيونهم ، وندت عن كيني رنة يأس وجزع .

وسقط معها عشرون ياردة من الأسلاك التي ارتمت عليها ، فقد علقت بالجزء الأعلى فانقلبت وهوت على ظهرها . وجرت قوائمها الأربع الأسلاك فوقها ، واختلطت بها اختلاطاً لا خلاص بعده .

فصاح ماك لافلن : « لعنة الله على هذه الأسلاك أما لو كانت مواردي تسمح ببناء أسوار أصلح . . . »

وتبع كيني الرجال وهم يعضون إلى المهرة وهو مغموم ، ووقفوا في دائرة ينظرون وهي ترفس وتكافح حتى التفت الأسلاك عليها وتعقدت ، وجرحت المهرة ومزقت قطعاً كبيرة من لحمها وجلدها . وأخيراً غابت

عن وعيها ، والدم يسيل على جلدها الذهبي إلى العشب تحتها ، فيصير بركا قرمزية تتسع وتنتشر .

وقطع جاس الأسلاك بالمقص الذى يحمله معه دائما ، وحملوها إلى المرعى ، وأصلحوا الحاجز ، ووضعوا إلى جانبها شيئاً من الدريس ، وصندوقا من الشوفان ، ودَلْوًا من الماء وانصرفوا .

وقال ماك لافلن : « لا أظن أنها ستبرأ من هذا » .

وفى صباح اليوم التالى نهض كينى فى الساعة الخامسة لمذاكرة دروسه . وفى الساعة السادسة خرج إلى فليكا .

ولم تكن قد تحركت من موضعها ، ولا ذاقت طعاماً ولا ماء . وكان الدم قد كف عن النزف ، ولكن الجروح تورّمت وخبثت .

وجاء كينى بدلو ماء وصبه على فمها ، ثم وثب بعيداً ، فقد عادت إلى فليكا نفسها ونهضت ، واستوت قائمة ووقفت تترنح .

ونأى كينى بضع أقدام عنها وقعد يراقبها . ولما نهض ليذهب ويفطر ، كانت قد عبّت من الماء وأقبلت على الشوفان .

وبدأ بعد ذلك ما يشبه الإقبال للبرء ، فقد كانت تأكل ، وتشرب ، وتطلع على المرعى ، وتقف ساعات ورأسها مدلى ، وقوائمها ضعيفة مائلة تحت الأشجار .

وبدأت الجروح الوارمة يعلوها القشر وتبرأ .

وكان كينى يعيش معها فى المرعى ، ويتبعها فى حيثما تكون منه ، ويحادثها أيضاً ، وكان مثلها يرقد ويغفى أو يقعد تحت الشجر ، وكثيراً ما كان يلاطفها ويمد إليها راحته ويمشى إليها فى رفق وسكون ، ولكنها ما كانت تدعه يقترب منها .

وما أكثر ما كانت تقف عند السياج الجنوبى ناظرة إلى الجبل ، وكان الدمع يترقرق فى عينى كينى إذ يرى كيف تتلهف على الخروج .

وكان روب لا يزال يصر على أنها لن تبرأ ، وأنه لا فائدة من وضع لجام لها ، فما فيها قوة .

وخرج كينى ذات صباح من البيت فلقى جاس فقال له هذا : « المهرة قد ساءت حالتها »

فانطلق يعدو إلى المرعى وهوارد فى أثره ، فإذا الساق التى كان ورمها شديداً عند الركبة قد انتقض جرحها وفسد ، وإذا هى منطرحة بلا حراك ، وعيناها ثابتتان .

وسأله هوارد : « ألا تأسف الآن لأنك لم تختر داوبوى ؟ »

فصاح به كينى : « اذهب عنى »

ووقف هوارد ينظر إلى كينى وهو يقعد على الأرض ويضع رأس فليكا على حجره ، وكانت متنبهة ، وتتحرك قليلا ، ولكنها لم

تقاوم ولم يبـدُ عليها الفزع أو الإجفال . وكانت الدموع تنهمر على خدى كينى وهو يكلمها ويربت عليهـا بكفه . ثم انصرف هوارد بعد دقائق .

وسأل كينى أمه : « ماذا تصنعين بجرح فاسـد إذا كان فى حصان ؟ »

« ما تصـنعه إذا كان المجروح إنساناً ، تنظفه . سأساعدك يا كينى ، فما يجوز أن تدع هذه الجروح تلتئم وفيها شيء من النّغَل . وسأضع ضماداً لهذه الساق الخلفية ، وأساعدك على وضعه عليها . وهى الآن تسمح لنا بالدنو منها ، ففى وسعنا أن نساعدها كثيراً » .

وقال روب: « إن المهم هو أن تأكل » ولـكنه أبى أن يذهب إليها وقال : « إنها لن تشفى . ولست أريد أن أراها أو أن أفكر فيها » .

وقام كينى وأمه على خدمتها ، وعصبا لها ساقها بالضماد ، فأخرج منها صديداً كثيراً . فتماثلت كينى واستطاعت أن تقف مرة أخرى ، وصارت تنتظر كينى وتتبعه كالكلب وهى تعرج على ثلاث أرجل ، وترفع ساقها وعليها الضماد الـكبير على هيئة مضحكة .

وقال كينى : « فليكا يا أبى صديقتى الآن ، وهى تحبنى » .

فنظر إليه أبوه وقال: « هذا يسرنى يابنى فجميل أن يكون للإنسان حصان صديق » .

ووجد كينى مكاناً أوفق لها ، فى الجانب الأدنى من المرعى حيث يجرى ماء جدول على الحجارة الباردة ، وهنـاك شط معشب فى سعة الرحبة يكاد يكون فى مستوى الماء ، وهناك تستطيع أن ترقد فى راحة ، وأن تأكل العشب وتشرب الماء الجارى البارد .

وكان كينى يحمل إليها الشوفان صباحاً ومساء ، وكانت هى تترقب قدومه فترهف أذنيها وتنظر إلى ناحية التل . وحدث ذات مساء أن أقبل كينى ، فلما صار على مسافة منها وقف وقد شاع السرور والابتسام فى وجهـه . ذلك أنه سمع حمحمتها ، فقـد رأته مقبلا فدعته إليها .

وهمس فى أذنها وهى تأكل الشوفان : « ستكونين بخير يافليكا بعد قليل » وعبث بعرفها الأبيض الناصع « وستكونين من القوة بحيث لا تشعرين أنى على ظهرك ، ونذهب نعدو كالريح . . . »

كان هذا أسعد شهر فى حياة كينى .

ثم حدث ذات يوم أن انتفخت وورمت الجروح كلها مرة أخرى ، وما لبثت أن

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

تفتحت واحداً بعد واحد ، وعاد هو وأمه إلى تطهيرها وعصبها بالضمادات ، وكانت لا تزال تمشي على ثلاث أرجل ، ولكنها أخذت تهزل ، ثم ذهب جسمها ويبس على العظم بين مساء وصباح ، وبدا من هزالها كل ضاع ، وزال لمعان جلدها وتغضن واسترخى كأنه على حصان ميت .

وقال جاس : « هي الحمى تأكل لحمها ، فإذا زالت عنها الحمى فإنها تشفى » .

وكان ماك لافلن يطل من النافذة ذات صباح فرأى هذا الهيكل العظمي يظلع على ثلاث . في نور الشمس فقال : « هذه هي النهاية . لن أستبقي شيئاً كهذا في أرضي » .

وأفهموا كيني أن فليكا لم تكن تقبل للبرء كل هذا الوقت . وإنما كانت تموت شيئاً فشيئاً .

فجرى على لسانه : « إنها لا تزال تأكل شوفانها » .

وكانوا جميعاً يرثون لكيني ، ولكن نل ماك لافلن كفت عن تطهير الجروح وعصبها ، وقالت في رفق : « لا فائدة يا كيني . وإنك لتعلم أن فليكا ستموت . أليس كذلك ؟ »

« نعم يا أمي » .

وكف كيني عن الأكل ، وقال هوارد : « كيني لا يأكل شيئاً . أليس الواجب أن يأكل غداءه يا أمي ؟ »

ولكن أمه قالت له : « دعه وشأنه » .

ولما كان قتل الحيوانات الجريحة رمياً بالرصاص مألوفاً في السهول الغربية ، ومؤلماً لكل امرىء ، فإن صوت روب ، حين أصدر الأمر بقتل فليكا ، كان مسيحاً لا أثر للعاطفة فيه .

« هذه هي البندقية يا جاس . اختر وقتاً لا يكون فيه كيني موجوداً ، وأرح المهرة من عذابها » .

فتناول جاس البندقية : « أمرك ياسيدي »

وكان كيني يعرف ما سيكون ، فجعل عينه على مكان السلاح . وكان أبوه لا يسمح بوجود السلاح خارج البيت ، وكان موضع السلاح فيما يلي غرفة الطعام ، فكان كيني يلقي عليه نظرة ثلاث مرات في اليوم وهو ذاهب لتناول الطعام ، يستوثق من أن جميع البنادق في مواضعها .

ففي تلك الليلة لم تكن كلها هناك ، فقد نقصت واحدة ، ولما رأى كيني ذلك وقف وأحس بدوار ، وجعل يحدق في موضع السلاح ويقول لنفسه : إن البندقية في مكانها على التحقيق — وكرر العد . ولم يكن يستطيع أن يرى بوضوح .

ثم شعر بذراع حول كتفيه وسمع صوت أبيه يقول : « إني أعرف يابني أن بعض الأشياء من الصعب احتمالها ، ولكنه لا بد

من التشدد لها . وأنا أيضاً أتشدد وأتجلد »

فتناول كيني يد أبيه ولم يخلها ، وساعده ذلك على الاتزان . وأخيراً صعّد بصره ، فابتسم له روب ، وهزه هزة خفيفة ، واستطاع كيني أن يبتسم أيضاً .

« أحسن ؟ »

« أحسن يا أبي » .

ودخلا إلى العشاء معاً .

وأكل كيني قليلا ، بجهد ، ولكن نل جعلت تتأمل وجهه المتقع ، وذلك العِرْق النابض في جانب عنقه .

وحمل الشوفان بعد العشاء إلى فليكا ، واحتاج أن يلاطفها ويغريها ، ولكنها لم تطعم إلا قليلا ، ووقفت منكّسة الرأس ، ولكنها لما أمرّ يده عليها وتحدث إليها ، أراحت وجهها على صدره راضية قريرة العين . وكان يحس وقدة الحمى في بدنها ، ويخيل إليه أنه ليس من الممكن أن يكون هذا الجسم الهزيل حيًّا .

ثم لمح كيني جاس مقبلا على المرعى ومعه البندقية ، فلما أخذت عينه كيني غير اتجاهه ومشى كأنما كان خارجاً ليصيد بعض الأرانب .

فجرى كيني وراءه وسأله : « متى تنوى أن تضربها يا جاس ؟ »

« كنت أنوى أن أفعل ذلك الآن قبل دخول الظلام ... »

« لا تفعل ذلك الليلة يا جاس ، انتظر إلى الصباح . ليلة واحدة يا جاس ! »

« فليكن يا كيني ، ولكنه لا بد منه . فقد أصدر أبوك الأمر » .

« أعرف ذلك . ولن أقول شيئاً آخر بعد هذا » .

وبعد أن أوت الأسرة إلى مخادعها بساعة ، نهض كيني وارتدى ثيابه ، وكان الليل دافئاً والقمر مضيئاً ، فذهب يعدو إلى الجدول وينادي برقة : « فليكا ! فليكا ! »

ولكن فليكا لم تجبه بحمحمة خافتة ، ولم تكن تعرج على المرعى . فراح كيني يبحث عنها ساعة .

وأخيراً وجدها في المجرى وفي الماء . وكان رأسها على الشط . ولكن تيار الماء شدها وجذبها ، ولم تكن لها قوة تعينها على المقاومة ، فهوى رأسها شيئاً فشيئاً حتى لم يبق سوى فمها على الشط ، أما جسمها وأرجلها فكانت تضطرب في الماء .

فنزل كيني إلى الماء ، وقعد على الشط وجعل يشدها من رأسها ، ولكنها كانت ثقيلة ، وكان التيار كأنه حديد أثقلت به ، فأنشأ يبكي لأنه أضعف من أن يقوى على إخراجها .

ووجد صخوراً يسند إليها قدميه ، وشد حتى صار رأسها على ركبتيه ، وأبقاه كذلك وحوله ذراعاه .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وسرّه أن تموت من تلقاء نفسها فى الماء البارد وضوء القمر ، بدلا من أن يقتلها جاس . ولكنه نظر إليها مستثبتاً فألفاها ما زالت على قيد الحياة .

فانفجر باكياً .

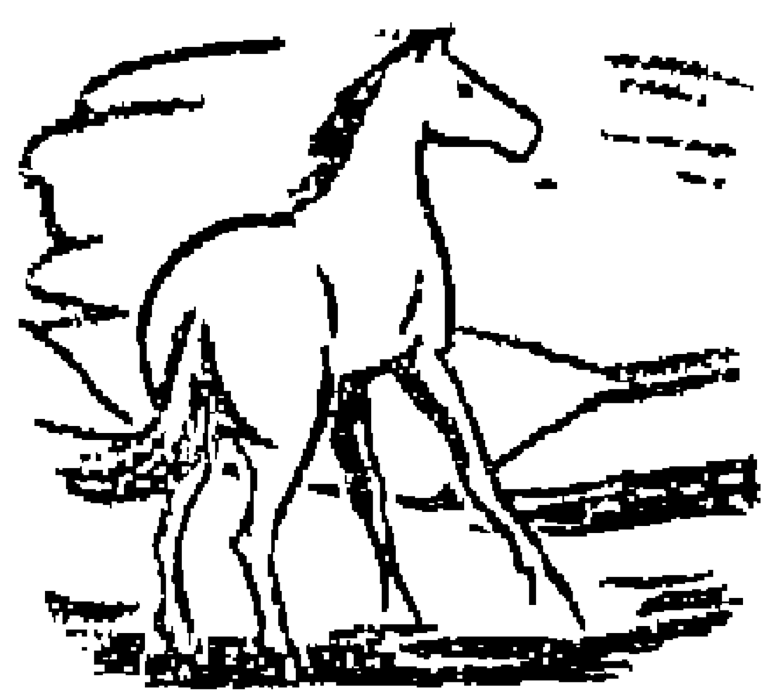

وتقضّى الليل الطويل .

ومال القمر إلى الغيوب ببطء .

وتحدر الماء فوق ساقى كينى وجسم فليكا ، وزايلتها الحمى تدريجاً ، وغسل الماء الجارى البارد جروحها .

ولما انحدر جاس فى صباح اليوم التالى بالبندقية ، كانا لم يبرحا مكانهما . هاهما هناك : كينى جالساً ونصفه فى الماء ورأس فليكا بين ذراعيه .

فتناول جاس رأس فليكا وجذبها إلى الشط المعشب ، ثم رأى أن كينى متخشب وكالمشلول ، فرفعه بين ذراعيه وحمله إلى البيت .

وقال كينى وأسنانه تصطك : « لا تقتلها يا جاس » .

« ليس الأمر بيدى يا كينى وأنت تعرف ذلك » .

« ولكن الحمى تركتها يا جاس » .

« سأتريث قليلا يا كينى » .

وركب روب ماك لافلن إلى لارمى ليجىء بطبيب ، فقد كان كينى تأخذه قرّة شديدة لا تقلع عنه ، وأرقدته أمه فى الفراش ولفت عليه بطانيات دافئة .

ونظر إلى أبيه متوسلا حين كان الطبيب ينفض مقياس الحرارة .

« قد تشفى يا أبى ، وقد أقلعت عنها الحمى . تركتها لما انحدر القمر » .

« طيب يا بنى . لا تقلق . وسيطعمها جاس صباحاً وليلا مادامت ... »

فأتم له كينى كلامه مغتبطاً : « مادمت أنا لا أقدر على ذلك » .

ووضع الطبيب مقياس الحرارة فى فمه وأمره أن يطبقه .

وكان جاس يباشر عمله طول النهار وهو يفكر فى فليكا . ولم يعد إليها ليلقى عليها نظرة ، ولم تصدر إليه أوامر أخرى ، فإذا كانت لا تزال حية ، فإن الأمر بقتلها لا يزال قائماً . ولكن كينى مريض ، ولعل روب قد نسى فليكا .

وبعد أن تعشى جاس وتيم ذهبا يتمشيان إلى الجدول ، ولم يتكلما حين اقتربا من المهرة وكانت منطرحة على العشب ، ولكن عيونهما كانت شاخصة إليها ليعرفا أميتة هى أم حية .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

ورفعت رأسها لما بلغاها .
فصاح تيم : « يا إلهي ! ها هي ذي ! »
فخفضت رأسها ثم رفعته كرة أخرى ، وحركت أرجلها ، وبدا عليها كأنها تحاول أن تنهض .

وقال جاس : « إن فيها بقية كبيرة من قوة »
وأخرج البيبة من فمه وراح يفكر ، واستقر عزمه على أن يحاول إنقاذ المهرة مهما كانت الأوامر . فقد تكلف كيني شططاً في سبيلها وليس يجوز خذلانه .

« سألف بطانية عليها يا تيم ، وأنهضها على أرجلها ، وأبقها واقفة » .

وكان القمر مضيئاً فعملا على نوره ، وجاءا بقوائم من الخشب ، وركزا قائمتين على جانبي المهرة ، ثم ربطا البطانية بالحبال ، ورفعا المهرة ببكرة .

ولم يزعجها ذلك فظلت محمولة والبطانية تحت بطنها ، ولمست الأرض بأرجلها ، ومدت فمها إلى دلو الماء الذي قدمه جاس إليها .

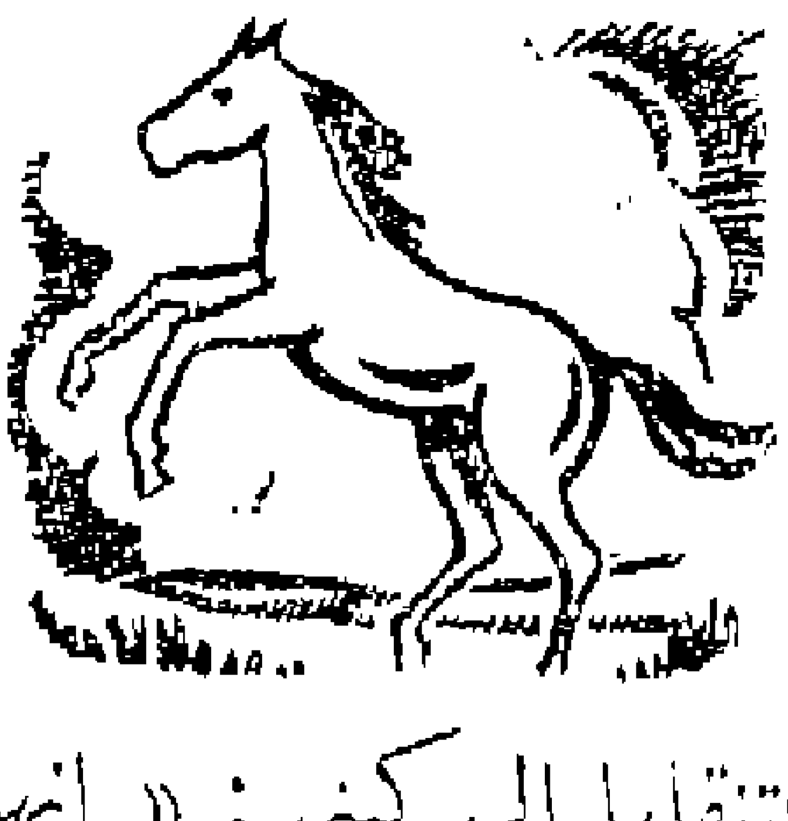

وطال مرض كيني وكاد يموت ، ولكن فليكا تماثلت . وكان جاس يقص أخبارها كل يوم على نل ، فتنقلها إلى كيني : « إنها تلتهم الشوفان » ، « خرجت من الرباط » « تتحامل على ساقها الجريحة » .

وقال تيم إنها معجزة حقيقية . وتجادل هو وجاس في هذا وهما يتعشيان .

فقال جاس : « كلا . إنه الماء البارد ، أخرج الحمى من بدنها . والذي هو أهم من الماء هو كيني . أتظن أن هذا لا قيمة له ؟ لقد جلس هذا الغلام طول الليل وهو يقول لها : « تشددي يا فليكا . أنا معك ، وإلى جانبك ، ونحن اثنان نتعاون ... »

فشخص تيم إلى جاس دون أن يجيب ، وهو يفكر في الأمر ، وعوى ذئب في سكون الليل على التلال البعيدة . وجرت الرياح مندفعة بين أشجار الصنوبر على التل .

وحشا جاس بيبته .
وأخيراً قال تيم : « نعم ، نعم . الأمر كما تقول » .

وجاء يوم وقف فيه روب ماك لافلن مبتسماً عند طرف سرير كيني وقال :
« أصغ ! هل تسمع صديقتك ؟ »
فأصغى كيني وسمع صهيل فليكا العالي .
« إنها لا تضيع وقتاً عند الجدول الآن »

وهى أكثر الوقت عند باب الرحبة تصهل من أجلك » .

« من أجلى ! »

فلف عليه روب بطانية وحمله إلى باب الرحبة .

ونظر كينى إلى فليكا ، وكانت فى نظرته دهشة . وأحس كأنما يعيش فى عالم كل مافيه فظيع مؤلم ولكنه حق . وعالمه هذا لا يمكن أن يكون حقاً . إن هذا كله رقة وسعادة ، ولاشىء يدعو إلى النضال او القلق أو المجاهدة ، حتى أبوه فخور به ! وكان يشعر بهذا فى ذراعيه الكبيرتين اللتين تحملانه . والأمر كله كأنه حلم ، وبعيد ، وليس فى وسعه الآن أن يقترب من حقيقة شىء .

ولكن فليكا ، حية ، وبخير ، وهى تدنو منه ، وتعرفه ، وتصهل له .

ومد كينى يداً — ضعيفة بيضاء — وأراحها على وجهها ، وردت لها أصابعه الصغيرة النحيلة ذؤابتها كما كانت تفعل ، على حين كان روب ينظر إليهما وعلى ثغره ابتسامة غريبة ، وفى عينيه وميض قل أن يكون فيهما .

« لا تزال ضعيفة يا أبى ، ولكنها تقف على أرجلها الأربع الآن » .

« إنها تتماثل » .

ورفع كينى وجهه فجأة وقد تذكر شيئاً : « أبى . لقد صارت لطيفة أليفة ، أليست كذلك ؟ »

« أليفة مثل ... مثل القطة الصغيرة »

وأقاموا كوخاً لكينى قريباً من الجدول ، وصار الغلام والمهرة صديقين .

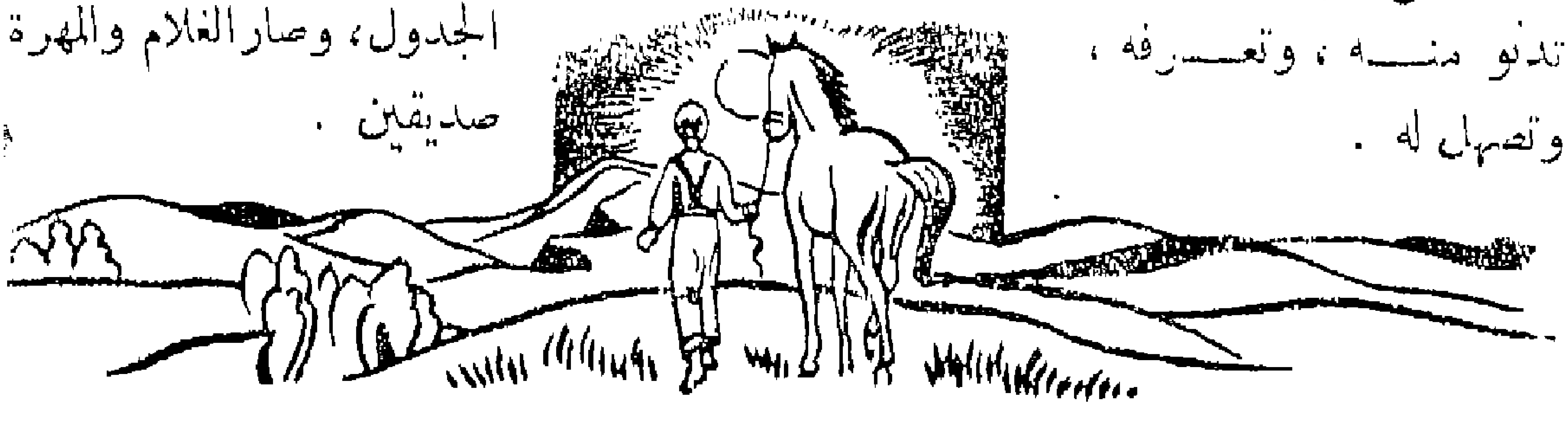

بوليفار

المحرر الأعظم

مختصرة من كتاب

"رجل المجد : سيمون بوليفار"

تأليف توماس رورك

« هجر عيشة الشاب الغنى العابث ، ووقف همه وحياته على قضية الحرية البشرية وتحرير شعوب قارة من الحكم الإسبانى »

https://t.me/megallat

oldbookz@gmail.com

بوليفار ، المحرّر الأعظم

أشعل على إسبانيا نار الثورة التي يسرت لخمس أمم أن تولد ، وقاد الجيوش التي أكسبتها حريتها ، ووضع المبادئ التي قامت عليها الجمهوريات ، وألف حكوماتها وكتب دساتيرها .

وكثيرون من الناس لم يسمعوا قط باسمه ، ولا يكاد أحد ينطق اسمه صحيحاً — سيموان بإليفار .

ويكاد سيمون بوليفار يكون اليوم ، بعد أكثر من قرن من وفاته ، بطلا مقدساً في نظر الملايين من أهل أمريكا الجنوبية . ويتمثل هذا المحرر العظيم في وعى أمته كياناً حياً ، لا يضارعه أى رجل آخر في التاريخ الإنجليزى أو الأمريكى . وفي قرى جبال الأندس القصية ، وفي قلب الأدغال ، وحول النيران في المراعى الواسعة ، يلهج الهنود الأميون والعمال بكلماته كأنما قيلت أمس فقط ، وفي مدن أمريكا الجنوبية يرفع الساسة قبعاتهم إذا ذكر اسمه .

في عصر يوم من أيام الصيف ، سنة ١٨٠٥ صعد رجلان في الجبل المقدس أحد جبال روما وقعدا يستريحان على قمته . واستلقى أحدهما على الأرض ، وكان شاباً نحيفاً وسيما ، وعيناه العميقتان السوداوان البراقتان تحدقان مفتونتين ، في المدينة المقدسة الممتدة في السهل . وكان الآخر أسنّ منه ، وأقل عناية بهيئته ، وشعره الطويل يعبث به النسيم ، وقد وقف إلى جانبه يتكلم . وكان من حين إلى حين يقرأ في صفحات ممزقة من كتاب « إميل » لروسو ، أو كتاب « حقوق الإنسان » لتوم بين ، أو مؤلفات فولتير . وكان يتحدث عن مجد روما الغابر ، وتجارب الحكم الجمهورى النبيلة التي جربت فيها .

ولما نشر الغروب وهجه حولهما نهض الفتى راكعاً على ركبتيه ، « وعيناه مغرورقتان ووجهه مضطرم كالمحموم من الحماسة » وقال هذه الكلمات : « أقسم بإله آبائى وبوطنى أن لا تفتر كفاى أو تهدأ روحى ، حتى أصدع السلاسل التي تقيدنا إلى إسبانيا » .

وقد قضى كل ما بقى من حياته للبر بهذا القسم .

كان سيمون جوزى أنطونيو ده سانتسيما ترنيداد بوليفار بالاسيو ، من أهالى كاراكاس في فنزويلا ، وكان نجيباً مرفهاً ، وأصغر أبناء أسرة من أغنى الأسر في البلاد ، وكان رفيقه في ذلك اليوم ، هو سيمون

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

رودريجويز معلمه مذ كان حدثاً . وكان بوليفار في ذلك الوقت يناهز الثالثة والعشرين، وكان وهو في السابعة عشرة من عمره قد أرسل إلى إسبانيا ليتلقى «التربية» المعهودة في أبناء طبقته ، فقضى ثلاثة أعوام في البذخ والعربدة في مدريد وباريس ولندن ، وصار ذا حظوة في البلاط والمجالس والمحافل بفضل ظرفه وبراعة لسانه ، وكان أستاذاً في الضرب بالسيف ، وراقصاً ماهراً ، وفارساً عظيما ، وذا مال كثير يبعثره ، فصار معروفاً باسم « البرنس بوليفار » ، وجعل خياطو لندن يأخذون عنه طراز ثيابه ، ودكاكين باريس تعرض « قبعة بوليفار » .

ولكن هذا الطور من حياته انتهى فجأة ، فقد قابل ، وأحب ، وتزوج ماريا تريزا ديل تورو ، وكانت جميلة رقيقة . وقال عنها بوليفار فيما بعد إنها « لم تخلق لهذا العالم » . وبعد بضعة شهور ماتت بالحمى ، فتفطر قلبه من الحزن ، ورأى في رزئه بوفاة زوجته آية : « رفعتني من عالم الماديات ، وأدارت خواطري على شئون بلادي المستعبدة » .

فالتمس أستاذه في صباه رودريجويز ، واهتدى إليه ، وراحا يطيلان المشي معاً ، فاستوعب بوليفار بحماسة جديدة مبادئ أستاذه . وفي سنة ١٨٠٤ وقف في كتدرائية نوتردام وشاهد نابليون يتوج نفسه إمبراطوراً . قال : « وقد بدا لي أن هذا العمل بجلجلة الجحيم . وهذا التاج الذي وضعه على رأسه أثر متخلف من العصور المظلمة » .

وما لبث أن نطق وهو على الجبل المقدس بالكلمات التي وقف بها حياته على الجهاد والتي قررت مصير نصف قارة .

وطالما ما اعتزم بوليفار اجتراءً رائعاً . فما كان هذا الشاب الذي يناهز الثالثة والعشرين يتمتع بنفوذ خاص في البلاد التي أراد أن يحررها ، وكانت تجربته الحربية مقصورة على بضع سنوات قضاها في مليشيا فنزويلا ، ولكنه أوتي منذ طفولته ثقة هائلة بنفسه ، وقدرة لا حد لها على الأحلام العظيمة ، وكانت الأحلام تدفعه دائماً إلى بذل الجهود على الفور لتحقيقها . فأبحر إلى فنزويلا ماراً ببوسطن ، ومتمهلاً في نيويورك ، وفيلادلفيا ، ووشنطن ، وهنا درس سير الديمقراطية الأمريكية .

ومع أن إسبانيا ظلت تستغل وتستعبد مستعمراتها في الدنيا الجديدة بلا حياء مدة ثلاثة قرون ، إلا أنه لم تحدث قط أية حركة منظمة في سبيل الاستقلال ، بل الواقع أنه لما حاول الجنرال فرنسسكو ميراندا (من

فنزويلا) ، وكان قد حارب تحت قيادة وشنطن فى الثورة الأمريكيـة ، أن يحرر المستعمرة ، قوبل بمقاومة مسلحة من مواطنيه . وقد قضى على جيشه الصغير ، واضطر هو أن يفر إلى إنجلترا .

ولما عاد بوليفار إلى فنزويلا ، شرع يعمل خفية ، ويستعين بجماعة من الأشراف الشبان ، ويبث فكرة الثورة بين الشعب . ثم أدرك نقص معلوماته الحربيـة ، فأقنع ميراندا بالعودة .

وفى الثالث من يوليه سنة ١٨١١ نطق بوليفار بكلمة « الحرية » للمرة الأولى علناً فى البلاد . وطلب الاستقلال التام عن إسبانيا ، فغمرت كاراكاس موجة قوية من العاطفة الوطنية ، وأعلن مؤتمر من الوطنيين أن فنزويلا حرة .

وهكذا وقعت الواقعة ، وحاول ميراندا أن يجمع جيشاً من خليط من العمال والشبان الأشراف الأنيقين الذين أعجبهم أن يكونوا ضباطاً ، وكانت مهمـة مثبطة ، وقد أخفقت فى النهاية . ومما ساعد على هزيمته حدوث زلزال فظيع قضى على كثيرين من جنوده وجانب كبير من مستودعاته . وسعى بوليفار وهو محنق أن يقوى قلوب الأمة التى ضعفت ، فصاح بين تراب العاصمة وخرائبها: « إذا كانت الطبيعة نفسها قد تألبت علينا مع قوات الاستبداد ، فإنا سنحاربها هى أيضاً ونثنيها لإرادتنا » .

ولكن الجيوش الإسبانية المحنكة سحقت المتطوعين من أهل فنزويلا واستولت على كاراكاس . وما لبثت الجمهورية الأولى أن ماتت ، وأركب ميراندا سفينة إسبانية ليقضى نحبه فى السجن فى قادس ، وصار بوليفار منفياً مفلساً فى جزيرة كوراساو ، وكانت فى ذلك الحين تابعة لإنجلترا .

ولو كان بوليفار دون ذلك حماسة وإلهاماً لما بدا ثم أضاًل بريق من الأمل ، فقد ضاع كل ما كان يملك — ضياعه العظيمة ، وقطعان الماشية التى لا تحصى ، ومبانيه الكثيرة فى المدينة ، وصادرها الإسبانيون . وكان يستكفُّ من الأغراب ليعيش ، غير أنه بعد أسابيع قليلة ليس إلا فرّ إلى مستعمرة غرناطة الجديدة (كولمبيا) حيث كانت حاميـة من الجنود الوطنيين محتفظة برقعة من الشاطئ ، وهناك تولى قيادة مئتى رجل — من الزنوج والهنود والهجناء الحفاة المهلهلى الثياب .

وكان بوليفار قد تعلم فى الطور الأول من الصراع شيئاً كثيراً عن الحرب ، وكيف ينبغى أن تدار رحاها على الإسبانيين ، فقد خاض المعارك وأبلى فيها بلاء حسناً . والآن

وفى ليلة ٢١ من ديسمبر ١٨١٢ باغت الحامية الإسبانية فى تنريف وقضى عليها، واستولى على دار الصنعة. وفى الليلة التالية انقض على مومبوكس، وشتت القوات الإسبانية. وظل الحال يجرى على هذا المنوال ستة أيام — ست معارك، وستة انتصارات، وست مدن محررة. وفى أسبوعين أجلى العدو عن المنطقة كلها.

وقوبل بوليفار فى كل قرية بالهتاف من الأهالى، وانضوى تحت لوائه مئات من المتطوعين، فتشجع فانتوى أن يزحف على مدينته كاراكاس. وكانت تلك مهمة كبرى فإن دونها ٦٠٠٠ جندى إسبانى وخمسمئة ميل من أرض جبلية.

وفى أوائل فبراير ١٨١٣ خرج بوليفار فى ٥٠٠ رجل مثقلين بالسلاح والأحمال، فشقوا طريقهم فى هضاب متجمدة وأودية عميقة صخرية، وجاهدوا فى أدغال ألغاز قائظة، وهم ينزفون من الأشواك والحشرات الكثيرة. وبوليفار لا يكل، ولا يزال يستحثهم ويلهبهم بكلامه، وعينه تومض، ولسانه يجرى بالنكات، وعقيرته مرفوعة بأغان فرنسية خليعة.

وامتازت معارك الحملة بصبغة البطولة نفسها، واستخدم بوليفار حينئذ كما فعل دائماً، مزايا الجرأة والسرعة والمباغتة — مجتنباً الهجوم المواجه، ملتفاً بجناح العدو، وشاطراً لقواته ومبيداً لها. وانهزمت القوات الإسبانية أمامه واحدة بعد واحدة، وكثر جنوده هو بعد كل ظفر حتى صاروا جيشاً حقيقياً له مدفعية وفرسان وفرقة طبية. وفى خلال تسعين يوماً من بدء زحفه خاض ست معارك كبرى وكسبها، واسترد الجانب الغربى كله من فنزويلا، فلما زحف على كاراكاس فزع القائد الإسبانى فسلم بدون قتال.

وكانت المظاهرة التى حيته عند دخوله فى كاراكاس كأنها منتزعة من سجلات روما القديمة، فعند أبواب المدينة، استقل بوليفار مركبة مزدانة بالغار وسعف النخل، وكان عارى الرأس، وعليه بزة بيضاء وزرقاء موشاة بالذهب، وفى قدميه حذاءان ثقيلان، وتناولت اثنتا عشرة من العذارى فى ثياب بيض وحول أجيادهن عقود من الزهر، حبلا من الحرير وقدنه ببطء فى الشوارع، وأجراس الكنائس تقرع وتدوى، وغلائل الورد والدفل والكاميلية تنثر عليه من الشرفات.

وتألف على عجل مؤتمر أعلن الجمهورية مرة أخرى وخلع على بوليفار لقب «المحرر» — وهو اللقب الوحيد الذى استعمله طول حياته.

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

السفن الإسبانية الضخمة مالبثت أن عبرت الأطلسى ، فتــدفق الأبطال الإسبانيون الذين خاضوا حروب نابليون ، من مدن السواحل . وكان على بوليفار أن يلاقيهم بما عنــده مما يستطيع انتزاعه من أرض ساذجة فقيرة غير مستقرة .

وظلت الحرب دائرة ١٤ عاماً وامتدت على وجه القارة كلها ، وشملت آخر الأمر منطقة فى سعة الولايات المتحدة كلها . وكان بوليفار يقود جيوشه الضئيلة فى هذه الساحة المترامية ، وكان رجاله أبداً أقل عدداً وأسوأ ثياباً وطعاماً ، وليس معهم الكفاية من السلاح . وكثيراً ما كانوا يدخلون المعركة ومع كل رجل طلقة واحــدة ليس إلا . وخلت مرة جعبتهم من الطلقات فاعتمدوا على الرماح المصنوعة من الخيزران والأقواس والسهام . وكان إذا أخذ عليه الطريق هنا، يضرب هنــاك ، وإذا فقد جيشاً فى مكان يظهر بأعجوبة ومعه جيش غيره فى مكان آخر . وقد كتب القائد الإسبانى إلى ملكه يقول : « لا شىء يدانى نشاط هذا الزعيم الذى لا يكل أو يفتر ، وقد عجزت اثنتا عشرة معركة متوالية سـقط فى حوماتها صفوة جنوده وضباطه ، عن نقض عزيمته التى يشن بها الحرب علينا » .

وحدث مرة أن كان الإسبانيون ومعهم وحدات قوية من المدفعية والفرسان معسكرة لقضاء الليل وقد حشدت ٣٠٠٠ من الخيل فى سياج تحيط به الجبال ، فربط أحد قواد الخيل فى جيش بوليفار جلود العجول الجافة إلى ذيول ٥٠ من خيله وساقها على القطيع الإسبانى ، ففزعت خيل العدو من الضجة ، وانطلقت على وجهها تدوس الجنود الإسبانيين النائمين ، وفى هذا الاضـطراب فى الظلام أعمل فيهم الوطنيون السيوف والرماح .

وفى مرة أخرى ، فى جوف جبــال الأندس وقع بوليفار فى فخ مع جيشه فى شِعْب ضيق ، وكانت النجود تذهب فى الجو حوله ، وكان جدول من الماء المزبد يتحدر إلى الوادى على جناحه ، والإسبانيون يصبون من المرتفعات ناراً حامية على صفوفه ، فلما مالت الشمس للمغيب تجمع الضباب فى الوادى وانقطعت النــار ، وساد السكون أكثر من ساعتين ، ثم لمع فجأة شعاع أخير من الشمس الغاربة وانقشع الضباب . والتفت الإسبانيون فإذا بهم يواجهون هجوماً بالنار والرماح يأتيهم من فوقهم . وكان الذى حدث أن جنود بوليفار اغتنموا فرصـة الضباب فتوقّلوا فى الجبل كالذباب ، مسافة ألف قدم ، فإذا صادفوا فى مرتقاهم صخرة عمودية غرزوا رماحهم فى شقوقها وصعدوا عليها كما يصعد المرء على حبال السلم .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكثيراً ما انهزمت جيوش بوليفار ، ولكن ثقته بالنصر آخر الأمر لم تضعف قط . وحدث مرة فى مأدبة أقامها ضباطه أن وثب إلى سطح المائدة الطويلة ومشى إلى آخرها وهو يصيح « كما قطعت هذه المائدة من طرف إلى طرف ، سأزحف من الأطلسى إلى الهادى ، ومن بناما إلى رأس هورن ، حتى يطرد آخر إسبانى » ثم دار وعاد وهو يقول : « وهكذا سأعود وما آذيت إنساناً إلا الذين يقاومون إتمام مهمتى المقدسة » وكان يعنى ما يقول ، فقد كان هذا على وجه الدقة تقريباً هو ما صنع .

وأعظم أعمال بوليفار — ويعترف رجال الحرب فى كل مكان أن ذلك فى عظم ما سجل التاريخ — زحفه من أنجوستورا على نهر أرينوكو الأسفل ، مجتازاً قارة بأسرها ، وقاطعاً السلسلة الرئيسية لجبال أندس ، وليس ثم على طول المسافة طريق أو مجاز حتى اليوم .

وكان جيشه مؤلفاً من ١٦٠٠ من المشاة و ٨٠٠ من الفرسان ، ومعهم عدة مئات من النساء ، وهم جميعاً من أهل الأودية الذين يروا قط جبلا ولا شعروا بقرس البرد .

وكانت المرحلة الأولى عبور السهول المحرقة والأدغال الخانقة فى موسم الأمطار ، وهو أشد فصول السنة حراً ، وتمتد هذه الشقة ٢٨٠ ميلا ، ثم تليها سهول كازانارى — ولا آخر لها ، وقد غمرها الماء وبدت كأنها مرآة قائمة تحت المطر الذى لا ينقطع .

وظلت الطوابير يوماً بعد يوم تتقدم فى المخاضات ببطء مدة ثلاثة أسابيع ، وقد ارتفع الماء إلى الخصور ، ورفع الجنود أيديهم ببنادقهم وأحمالهم ، والطين يبتلع أرجلهم فيقتلعونها فى كل خطوة ، والتماسيح تتقلب فى الوحل حولهم . فإذا دخل الليل تجمع الرجال والنساء والحيوان فوق ما يعلو الماء من أرض معشبة هنا وهناك ، وقد رثت الثياب على أبدانهم ، وتفتحت القروح على أبدانهم العارية ، وتعثر كثيرون وغرقوا فى الماء الموحل .

ثم ظهرت أخيراً جبال الأندس ، فصعّد إليها أهل السهول المنهوكون أبصارهم دهشين وتأملوا قممها السامقة التى يلتمع عليها الثلج .

وكان بوليفار ، لحرصه على ترك العدو جاهلا بمكانه ، قد سلك طريقاً قلما يسير فيه أحد ، وهو من أعلى الشعاب فى الجبل ، وتبعه جنوده فى ثنيات الجبال وقد أمضتهم الحمى ، ونال منهم الجوع ، وتعرّوا .

وكانت الصخور ترتفع فى الجو عمودية تقريباً ، فتسلقها الجنود متشبثين بأطرافها الناتئة ، وقد دميت أيديهم وأقدامهم العارية .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وكان الضباب البارد ينتشر ، والمهاوى تنتهى إلى فراغ مظلم ، والذين يسقطون لا يصدر عنهم صوت حين يتحطمون .

وكان الهواء تقل كثافته كلما ارتقوا ، فأسرعت خفقات قلوبهم ، ودبّ فى أجسامهم الخدر من دوار الجبل ، وكانت العواصف تثور بهم بين الصخور وتحصبهم بالثلج ، فيخدر أجسامهم ، وتعمى عيونهم مما يغشاهم منه .

ولبثوا ستة أيام يتوقلون حتى بلغوا جبل بارامو دى بيسبا الأجرد وهو يرتفع فوق مستوى البحر مقدار ١٣٫٠٠٠ قدم ، فقضوا الليل هناك ، فكانت شر ليلة عانوها . ولما شرع الجيش يهبط فى اليوم التالى ، كان كثيرون قد سكنوا — وصاروا كتلا متجمدة فى الثلج .

وقد بدأ الزحف بثلاثة آلاف ، قاد بوليفار منهم ١٢٠٠ فى انحداره عن جوانب الأندس الغربية . ومع ذلك ، وبعد استراحة أيام ثلاثة ، هزم جيشاً من الإسبانيين أحلاس الحروب الذين سبق أن قاتلوا بقيادة الدوق أوف ولنجتون . وكانت هذه المعركة هى نقطة التحول فى الحرب كلها .

وبعد هذا الزحف فى جبال الأندس علا نجم بوليفار ، وعظمت جيوشه ونمت موارده ، على حين تضاءلت قوات إسبانيا . ولما كان يرى أن الحرية مستحيلة فى أى بلد من بلاد أمريكا الجنوبية ما دام لإسبانيا مستعمرة واحدة تستطيع أن تستخدمها للهجوم منها ، فقد جعل ينتقل من إقليم إلى إقليم متجاهلا حدود المستعمرات مقاتلا الإسبانيين حيثما وجدهم . وقد أحرز أربعة انتصارات كبيرة مدوية ، حرر كل منها إقليما بأسره ، وكل منها شهير فى أمريكا الجنوبية شهرة أية معركة من معارك التاريخ الكبرى — بوياكا ، كارابوبو ، بتشنشا ، أياكوشو .

وكانت هناك ثلاثة عوامل ساعدت على إحرازه النصر النهائى ، فضلا عما كان له من صفات الزعامة . فقد استطاع رسله إلى لندن أن يجمعوا عدة آلاف من الضباط الإنجليز والإرلنديين الشبان ، فتألفت منهم فرقة بريطانية رائعة . وكان هناك تاجر يهودى من كوراسا واسمه لويس بريون ، فبنى أسطولا صغيراً من ماله الخاص وقاده بنفسه ، وأقصى به الإسبانيين عن الأورينوكو ، فحرس بذلك مؤخرة بوليفار . ثم إن جوزى أنطونيو بايز ، وهو فارس فظيع ماكر من أهل السهول ، أمد بوليفار بآلاف من أشداء الفرسان ، وبقطعان عظيمة من الماشية للطعام ، وكان يواصل الغارات

باستمرار على الإسبانيين . وكان الجزء الجنوبى من القارة — شيلى وبوينوس إيرس (الأرجنتين الآن) قد حررها من الإسبانيين محرر عظيم آخر ، هو جوزى دى سان مارتن ، فلما سلم القائد الإسبانى فى كالاو فى بيرو لبوليفار فى ٢٢ من يناير سنة ١٨٢٦ أنزل آخر علم إسبانى عن القارة ، وصارت أمريكا الجنوبية كلها حرة .

وقد حارب بوليفار ١٥ سنة ، وأدار نحو ٥٠٠ معركة ، وحرر بلاداً تشمل الآن جمهوريات معروفة اليوم بأسماء فنزويلا ، وكولمبيا ، وإكوادور ، وبوليفيا ، وبيرو . ولكن أعماله الحربية ليست هى وحدها التى أنزلته منازل الأبطال فى عيون أمته ، فقد كانت كلماته وحياً لهم كذلك .

ذلك أنه كان من أعلى رجال التاريخ بياناً ، ولما مات كانت هناك عشر حقائب ملأى بمخطوطاته . وإحدى هذه المجموعات من كتاباته تملأ ٣٢ مجلداً كبيراً ، ولكنها لا تمثل إلا جانباً يسيراً من جملة ما خلف . فقد كان يكتب دائماً — فى إبان المعارك ، وعلى ضوء نار المعسكر ، وفى الاجتماعات . وكان يصدر البيانات ، ويلقى الخطب ، ويكتب الرسائل السياسية ، ويبعث بالرسائل إلى الناس فى أقطار العالم كافة . وقد قال :

« إن هناك من لابد لهم من الوحدة والبعد من كل اضطراب وضجة ليفكروا . وأما أقدر ما أكون على التفكير حين أكون فى جماعة من الناس ، وفى ضوضاء المعركة » . وكان يملى على ثلاثة من الكتاب فى وقت واحد ويصيح : « هاتوا لى كتاباً أسرع ! كتاباً أسرع ! ما من أحد يستطيع أن يسابق سرعة خواطرى ! »

وقد وضع لكل بلد محرر دستوراً ، ونظم حكومة بأدق تفصيل ، ودعا مؤتمراً ، ورتب شئون المال ، وألف الوزارات ، وعين الممثلين السياسيين ، ورسم السياسة الداخلية والخارجية .

وكانت له بصيرة نافذة كأنما ترى من ستور الغيب ، كما تدل على ذلك حوادث التاريخ التالية . فقد تكهن بمستقبل كل بلد فى العالم الغربى لمئة سنة . وحث على شق قناة بناما ، وتنبأ بقيام اتحاد كبير من جمهوريات أمريكا تقف كالحصن فى وجه فلسفات العالم القديمة المنحطة ، بل لقد خطا خطوات لإقامة مثل هذا الاتحاد ، ودعا الأمم الأمريكية إلى إرسال مندوبين إلى مؤتمر فى بناما ، واجتمع المؤتمر فعلا وأخفق ، وكان بوليفار قد توقع له ذلك ، وقال : « ولكن البذرة غرست . وستثمر يوماً ما » .

وظائفه لبوليفار الرجل من الشخصية ، والجاذبية ، والظرف مالابد منه فى زعيم شعبى . فكان أثناء المعارك يشاطر رجاله كل ما يعانونه ، وكانوا يسمونه « الذيل الحديدى القديم » ويعبدونه ، ولكنه كان أيضاً مولعاً بالموسيقى والرقص ، ولم تفته قط فرصة لإقامة حفلة .

ووصفه رفيق له بهذه الكلمات : « إنه دائم الحركة ، فهو إذ يسير فى دروب الغابات يمشى بسرعة ، ويعدو ، ويحاول أن يخلف رفقاءه وراءه ، ويتحداهم أن يواثبوه ، وإذا استلقى على شبكة النوم راح يتأرجح بعنف ، ويغنى ، ويتكلم بسرعة ، وينشد أشعاراً فرنسية . وقد يكون أحياناً عالى الصوت بذيئاً بين أصدقائه ، فإذا أقبل غريب ، صار هادئاً ، مجاملا ، مسيطراً بجلاله » .

والصفة التى كانت أقوى ما تكون فى بوليفار هى مايسميه الإسبانيون «هومبريا» أى القدرة على التغلب بفضل الرجولة وبقوة الشخصية وحدها . وكانت هذه القوة تشع منه كأنها تيار كهربائى يؤثر فى كل من يكون فى حضرته . وقد قابل مرة أثناء هدنة القائد الإسبانى موريللو ، وكان اللقاء عبارة عن معركة ذكاء ، أو منازلة نفسانية (سيكولوجيـة) ففاز بوليفـار بسهولة ، وظفر بما يريد ، واعتزل موريللو القيادة وعاد إلى إسبانيا .

وقد قال فى وصفه الجنرال فرنسسكو سانتاندر ، وهو رجل قوى مثقف بارع : « إن للرجل قوة سحرية تعمى ، وكثيراً ماواجهته وأنا مغضب ، فأنصرف وقد ألقيت سلاحى وامتلأت إعجاباً . إنه ما من رجل يستطيع أن يقاوم بوليفار وجهاً لوجه » .

وكانت لبوليفار مواطن ضعف . فقد كان مزهواً ، وكان غيوراً على مجده ، وعيوفاً معتدلا فى معظم الأمور إلا فى علاقاته مع النساء ، فقد كان من طينة الأرض وحمئها . وكن يعجزن عن مقاومته ، ويلقين بأنفسهن عليه ، فى حيث يجدنه . ويوجد أكثر من ألفى رسالة غرامية كتبت إليه ، وكانت هناك فى حياته دائماً امرأة مندصباه ، غير أن علاقاته كانت فى الأغلب قصيرة العمر ، وكانت حوادث يبدو أنه كان يشعر أنها لا تنال من ولائه لذكرى ماريا تريزا ، وكان حبه العظيم الحقيقى بعد ماريا تريزا ، لغايته الكبرى ، ولم ينسها قط لا فى المعركة ، ولا بين ذراعى امرأة .

وقد حقق كل ما أقسم أن يفعله ، ولكن أحلامه الآن اتسعت حتى صارت تشمل اتحاداً سياسياً من كل الدول الجديدة

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

فى ظل حكومة مركزية قوية على نحو يشبه الولايات المتحدة . ولكن قوات الوطنية والأحزاب السياسية الضنينة بنفوذها فى الدول المختلفة ، قاومته مقاوة مرة ، وصار الأصدقاء القدماء وزملاؤه فى القتال أعداء سياسيين له ، وأصبحت البلاد التى وقفت صفاً واحداً ضد الإسبانيين مستعدة أن يحارب بعضها بعضاً .

وقام بوليفار وهو مستيئس برحلات طويلة مرة أخرى ، وفى مأموله أن يوجد الوحدة . وكان سلطانه القديم ما زال باقياً فاستقبل فى كل مكان بحماسة ، ولكنه ما كان يستطيع أن يكون فى كل مكان فى وقت واحد ، فكان إذا ترك بلاداً تجمعت بعد رحيله أمواج الخلاف ، فصاح وقد ضجر وبه من اليأس هاتف : « لقد حرثت فى البحر » .

ولم يكن ينصح بديمقراطية صرف ، فإن أمم أمريكا الجنوبية ، فيما كان يحس ، لم تكن قد تهيأت لهذا : « إن عيونها حديثة عهد جداً بظلام الاستعباد ، فهى لا تقوى على هذا النور الساطع المقدس » . وكان الذى يقترحه لشتى الجمهوريات أن تقوم فيها حكومات أشبه بالإنجليزية منها بحكومة أمريكا الشمالية ، وفيها مجلس نيابى منتخب ، ومجلس أعيان وراثى ، ولها رئيس ينتخب مدى الحياة .

وكان فى وسعه فى أى وقت أن يصبح حاكماً بأمره (دكتاتوراً) وأن يفرض حكومته على كل البلاد التى حررها ، ولكنه كان يمقت الدكتاتورية . ولما اقترحت جماعة أن يتوّج نفسه إمبراطوراً كان رده : « إن لقب المحرر أسمى من كل لقب يخطر على البال كبرياء الإنسان ، وليس مما يقبله العقل أن أحقره » .

وبدأت أعوام المتاعب تحدث أثرها ، فصار مريضاً مضنى وشيخاً هرماً فى السابعة والأربعين . ولما سمع أخيراً فى بوجوتا أن حكومات دكتاتورية قامت فى فنزويلا وبيرو ، وبوليفيا ، وكولمبيا ، أدرك أن هذه هى النهاية وكتب يقول : « أظلنى الموت ، وانتهت دورتى ، ودعانى الله إليه » .

وأصر على الرحيل ليموت ، لاعتقاده أن مجرد وجوده فى الجمهوريات التى أوجدها يثير

بوليفـــار

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

شقاقاً أشد . وألح عليه أصدقاؤه أن يبقى وأن يفرض إرادته بقوة السلاح ، وقالوا إن آلافاً يسارعون إليه إذا دعاهم ، ولكنه أبى أن يستخدم مثل هذه الوسائل مع مواطنيه .

ولما ركب ليخرج من بوجوتا اصطف الشعب كله في الشوارع يبكون إذ يمر بهم ، وخرج معه الوزراء المفوضون وموظفو الحكومة ومئات من الأهالي إلى مشارف المدينة ، وهناك ترجلوا وعانقوه ، ثم امتطى جواده بجهد عظيم ومضى فاختفى في الطريق إلى الشاطئ .

ومرض على سفينة حربية قديمة ذاهبة إلى جاميكا ، فعرج الربان على ساحل كولمبيا وأنزله في سانتا مارتا ، وحملوه إلى الشاطئ على محفة ، وما بقي منه إلا طائفة من العظام كانت أعظم رجل في أمريكا الجنوبية .

وأدركه الحين في ١٧ من ديسمبر سنة ١٨٣٠ وهو مفلس ولا رفيق له ، وكان يحمل حول عنقه قلادة عليها صورة جورج وشنطن ، كان أهداها إليه لافاييت .

وكان أهل كاراكاس قد أرادوا مرة أن يقيموا له تمثالا فقال لهم : « انتظروا حتى أموت ، لتحكموا علي بغير هوى . إن التماثيل لا ينبغي أبداً أن تقام للرجل في حياته . فقد يتغير ، وقد يخون العهد . ولن تحتاجوا أبداً أن تتهموني بذلك ، ولكني أكرر قولي لكم : انتظروا ، انتظروا ! »

وقد قدروه تقديراً تاماً الآن . فبعد اثني عشر عاماً من وفاته ، احتشد أسطول عظيم من السفن الحربية في ميناء سانتا مارتا ، وكانت أعلام إنجلترا وفرنسا وهولندة ، فضلا عن أعلام الأمم التي حررها منكسة ، وغصت المدينة بممثلي الدول الأجنبية ، وحمل جثمان بوليفار على صندل ، على أصوات المدافع ودقات الطبول البطيئة ، إلى سفينة منتظرة . ومالبث الأسطول كله أن رفع مراسيه ، ونشر شُرُعه وأبحر مشرّقاً .

وهكذا عاد جثمان بوليفار إلى موطنه . وأحدّت كاراكاس عليه ، وأقيمت الأقواس في الشوارع ، وسار تحتها موكب طويل من عظماء الرجال من أمم عديدة ، تتبعهم خيل مجللة بالسواد تجر مركبة ضخمة تحمل تابوتاً مجللا بالحرير الأسود ومغطى بالأكاليل وطاقات الزهر . ووقف الناس صامتين ، والركب يمر بهم على أنغام الموسيقى البطيئة .

لقد بلغ بوليفار أخيراً المحل الذي كان يبغيه في قلوب أمته ، وفي التاريخ .

باب الكتب

قضية السلام

مختصرة من كتاب إمري ريفز

قالت النيويورك تيمس : « قد يكون من الخير للعالم أن يقرأ عشرة ملايين أو عشرون مليوناً من الناس كتاب « قضية السلام » ويناقشوه ، فإنه بارع بليغ يعالج الواقع كما هو » .

وتقول الأسوشييتد بريس « قل بين الكتب عن أخطار الحرب ما هو أشد تحريكا للنفس من هذا الكتاب عن احتمالات السلام » .

وقد نشرت الصحف حديثاً كتاباً مفتوحاً ، الغرض منه حمل أكبر عدد ممكن من الناس على قراءة الكتاب ، باقتراح المستر أوين ج . روبرتس القاضى السابق بالمحكمة العليا بالولايات المتحدة ، والمؤلفين المشهورين كارل وماك فان دورين ، وبتوقيع فولبرايت ، وبيبر ، وألبرت د . توماس أعضاء مجلس الشيوخ ، وألبرت أينشتين ، وتوماس مان ، وممثلى الصناعة ، والعمال ، وهيئات المحاربين القدماء .

ومما جاء فى هذا الكتاب : « ونحن نحث كل امرىء على قراءة هذا الكتاب وتدبر آرائه ، ومناقشته مع الأصدقاء فى المجالس الخاصة والمحافل العامة . فإن ما فيه من آراء ، إذا اعتبرنا حقيقة الحرب الذرية ، له قيمة عاجلة ملحة ، إلا إذا كانت الحضارة مصممة على الانتحار » .

والفكرة التى يدور عليها الكتاب بسيطة : وهى أنه ما من وسيلة من الوسائل التى استخدمت لتحقيق السلام إلى الآن ، تصلح . فقد جربت جميعاً مرة وأخرى وأخفقت بغير استثناء واحد فى منع الحرب . ويعتقد المستر ريفز أن السلام سيجىء ، متى تخلت السيادة القومية المطلقة التى تحدث الفوضى فى العلاقات الدولية ، عن مكانها لنظام قانون عالمى ، ومتى صارت العلاقات بين الأمم منظمة لا بالمعاهدات بل بالقانون .

وفى القسم الأول من الكتاب ، وهو المختصر هنا ، يتتبع المستر ريفز الاتجاه المفضي بكل الأمم نحو النظام الجامع فى ظل النظام الحالى القائم على السيادة القومية .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

قضية السلام

يمر تفكيرنا السياسي والاجتماعي اليوم بعصر انقلاب شبيه جداً بالعهد الذى مر به علم الفلك والعلوم النظرية فى أثناء عصر النهضة .

وقد ظل العلماء أكثر من أربعة عشر قرناً يعتقدون أن الأرض مركز الكون، وأن حولها تدور الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب .

ومع أن هذا التصور يبدو لنا اليوم بدائياً إلا أنه ظل سائداً لا ينقض إلى سنة ١٥٠٠ تقريباً . ثم أدى اتباع أساليب جديدة فى الملاحظة إلى خطوة من أعظم خطوات التقدم العلمى فى تاريخ الإنسان ، وهى تقرير نظام كوبرنيكس .

ولقد فتح كوبرنيكس عالماً جديداً ، وأرشد الناس إلى الطريق الذى أفضى فى النهاية إلى قبول النظرة الصحيحة إلى الكون ، وهى أن الأرض ، كغيرها من الكواكب السيارة ، تدور فى الفضاء حول الشمس .

واليوم ينبغى أن نشك فى تفكيرنا السياسى ، كما شك كوبرنيكس فى الآراء العلمية فى زمنه . ونحن نعيش فى عالم من الدول القومية ، ومركز عالمنا السياسى هو أمتنا الخاصة ، وهى بمثابة النقطة الثابتة التى نعتقد أن بقية العالم تدور حولها .

ونحن نستطيع أن نحل المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل كياننا القومى ، أى فى الأمة بواسطة القانون والحكومة . ولكننا فى علاقاتنا بالأمم الأخرى نشعر أن هذه المسائل ذاتها ينبغى أن تعالج «بالسياسة» و «الدبلوماسية» . وهذه هى قاعدتنا الأساسية وهى اليوم عتيقة جداً ولا خير فيها .

لقد ظلت هذه الطريقة عدة قرون قائمة لا يشك فى صوابها أحد ، وحلت المسائل الجارية على نحو مرضى ، ولكن التطور العلمى والفنى أحدث تغييرات بلغ من عمق صبغتها الثورية ، أن صارت الحاجة تحتم الاهتداء إلى طريقة جديدة . ففى قرن واحد زاد عدد سكان الأرض أكثر من ثلاثة أضعاف ، وظلت وسيلة المواصلات آلافاً من السنين ، هى قوة الحيوان — ثم حدث فى قرن واحد أن تغير النقل فصار بالسكة الحديدية والسيارة والطائرات التى تدفع بالنفث . ولا مثيل فى تاريخ الإنسان للتغيير الذى أحدثه التطور الصناعى .

وليس فى نظرياتنا المعتمدة ما يصلح لأن تعالج به مسائل اليوم المعقدة القلقة . فإنا نلفى أنفسنا عاجزين كل العجز لأنا لسنا

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

مزودين إلا بآراء غير صالحة ، موروثة من العالم قبل أن يدخل فى عصر التطور الصناعى .

وعلى رغم الاتساع الهائل فى نطاق النقل، نعجز عن منع المجاعات فى كثير من البلاد ، على حين توجد الوفرة فى غيرها من جهات الأرض . وهناك مئات من الملايين فى أمس الحاجة إلى المنتجات الصناعيـة ، ولكننا لا نستطيع أن نمنع البطالة بالجملة . ومع أننا استثمرنا من مناجم الذهب أكثر مما استثمرنا من قبل ، إلا أننا لا نستطيع أن نثبت العملة . وبينما نرى كل دولة حديثة تحتاج إلى خامات عند دول أخرى ، وتنتج سلعاً تحتاج إليها بلاد غيرها ، نرانا عاجزين عن تنظيم وسيلة مرضية للتبادل . وأخيراً عقت معظم الناس العنف ، ويشتاقون أن يعيشوا فى سلام ، ولكننا لا نستطيع أن نمنع تكرر الحرب التى تزداد قوة تدميرها باطراد .

ولا نزال نعتقد فى كل واحدة من الدول الثمانين ذات السيادة ، أن « أمتنا » هى المركز الثابت الذى يدور حوله العالم كله . والحوادث الغريبة الرائعـة التى وقعت بين الحربين العالميتين ، تحيرنا حيرة لا أمل فى انجلائها ، إذا تأملناها من الناحية التى تنظر إليها منها أية أمة مفردة . فمن طوكيو إلى وارسو ، ومن ريجا إلى رومية ، ومن براغ إلى بودابست ، تفسر كل أمة الحوادث تبعاً لوجهة نظرها القومية الثابتة . وترى أبناء كل أمة فى كل وقت مقتنعين بأن آراءهم لا يتطرق إليها الخطأ ، وأنها خالصة من الهوى .

ونتيجة هذا أنه ما دامت هـذه الأمم ذات السيادة تحتفظ بسيادتها — أى تظل حرة فى أن تفعل ما تشاء — فلا مفر من النزاع العنيف بينها ، وليس فى وسعنا أبداً أن نرجو تحقيق الأمن العالمى .

وقد آن أن ندرك أن طريقتنا الموروثة فى تناول المسائل السياسية بدائية صبيانية ، وغير صالحة على الإطلاق ، وخطأ فى خطأ . فإذا أردنا أن نوجد على الأقل بداية للعلاقات المنتظمة بين الأمم ، فإن علينا أن نسعى للاهتداء إلى طريقة علمية . ويجب أن نغير وجهة نظرنا ، وأن ننظر إلى الأمم جميعاً وإلى علاقاتها الصحيحة فيما بينها ، وأن نعتبرها دائرة على مقتضى قوانين واحدة ، بدون أن تكون هناك نقط ثابتة يخلقها لنا خيالنا لراحتنا .

وبعبارة أخرى يجب أن ندرك أن من الضرورى أن نقيد سيادة الأمم ، وأن نقيم حكومة عالمية تنظم العلاقات بين الشعوب على مقتضى القانون كما تنظم الولايات المتحدة الآن ، مثلا ، العلاقات بين الولايات ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وإذ فليس ثمة أدنى أمل في أن يستطاع حل أى مسألة حيوية يعانيها جيلنا ، ولا في أن يتسنى لنا اجتناب حروب أخرى أشد تدميراً .

وفي هـذا الاضطراب الحالى للعلاقات الدولية ، نسمع الأمم يتهم بعضها بعضاً على نحو ليس أغرب منه ، وقد رفعت كل منها عقيرتها بالإنحاء على الأخرى .

فالدول الفاشـية تقول إن الديمقراطية والشيوعية شيء واحد ، وأن نظام الحكم الديمقراطى يؤدى لا محالة إلى البلشفية .

ويصر الشيوعيون على أن الديمقراطية والفاشية رأسماليتان ، وأن رأس المال في ظل النظامين يستغل العمال ، وأن الفاشية وســيلة يتخذها الرجعيون للقضاء على الاشتراكية .

وتقـول الدول الديمقراطيـة بلهجة التأكيد : إن الفاشـية والشيوعية أمرهما واحد لا يختلف ، وأن الديكتاتوريتين الجامعتين تعصفان على السواء بالحرية ، وتسترقان الفرد وتستعبدانه .

على أن الواقع أن كل واحدة من هذه التهم المتقاذفة تعبر عن وجهة نظر سطحية ، ولما كان الجنس الإنسانى لا يزال يخوض حرباً أهلية حول هذه الآراء تشمل العالم كله ، فإن النتائج الحيـوية يجب أن تعرّف تعريفاً خالصاً من الهوى .

إخفاق الرأسمالية

كانت الرأسمالية هى الفلسفة الاقتصادية السائدة عند مولد النهضة الصناعية ، وكانت ثورات التحرير السياسـية التى قامت فى أخريات القرن الثامن عشر قد اسـتقرت وحققت غاياتها فى بداية القرن التاسع عشر ، وتوطدت دعائم الدول الديمقراطية — من جمهوريات وملكيات دستورية — فى العالم الغربى ، وكان من الطبيعى أن تصبح المثل العليا السياسية التى انتصرت ، هى المبادىء الأساســية السائدة فى ميادين الاقتصاد والصناعة والتجارة فى فاتحة العصر الصناعى .

وهكذا سارت حرية الاجتهاد ، وحرية التجارة ، وحرية المنافسة ، جنبـاً إلى جنب مع الحرية السياسية . غير أن الحرية فى الجماعة الإنسانية نسبية ، والحرية التى ظل الإنسان خمسة آلاف سـنة يجاهد فى سبيلها ، معناها فى الواقع التنظيم الصالح للأفراد فى الجماعة . ولا سبيل إلى الحرية الإنسانيـة إلا بتقييد النوازع والحوافز الإنسانية بالكبح العام — أى بالقانون . وهى — أى الحرية — لا تمنح إلا فى نطاق يمنع أن تجور حرية فرد من الأفراد على حرية الآخرين أو تعطلها .

على أن الاقتصاديين من دعاة الحرية

المطلقة للاجتهاد ، عجزوا عن أن يدركوا أن الحرية فى الشئون الاقتصادية لا يمكن أن تكون مطلقة ، فإن حرية العمل التى لا حد لها ولا قيد عليها لا يمكن أن تثمر « الحرية » فى هذا العالم ، إلا إذا كانت المساواة التامة المطلقة قائمة بين الأفراد ، وإلا إذا ألغى الميراث ، وصار على كل إنسان أن يبدأ من البداية . ولما كان مثل هذا لا يحتمل أن يكون ، فإن حرية الاجتهاد وتكافؤ الفرص لا يمكن أن يكونا على أحسن تقدير إلا بقدر نسبى . ومن الجلى أن النظام الموجود الآن فى الدول الرأسمالية لا يمكن أن يسمى « اجتهاداً حراً » مع احتكار كثير من الصناعات احتكاراً يمنع أن توجد محاولات جديدة ، أو يحول دون منافسة هذه الصناعات .

ومن أجل ذلك خلقت الحالة الصناعية الحديثة ثروات لا تتطاول إليها الأحلام للأقوياء من الوجهة الاقتصادية ، وفقراً ونقصاً فى الحرية للملايين الذين صار عملهم مجرد سلعة .

وقد أحدث هذا الموقف بطبيعة الحال رد فعل ، وكانت ثمرته الاشتراكية الحديثة . وتقول الاشتراكية إن الرأسمالية الخاصة تفضى إلى الاحتكار — أى إلى حصر رأس المال فى أيدى الأقلين وإفقار جماهير العمال .

وقد ظلت هذه الحرب بين الطبقات دائرة منذ نحو قرن إلى الآن ، على الرغم من أن النزاع قائم على سوء فهم . فليس السبب فى فشل النظام الرأسمالى ، أن رأس المال يسيطر عليه الأفراد والشركات الخاصة ، وإنما فشل لأن « الحرية » عُدت مثلا أعلى مطلقاً ، بدلا من مثل أعلى إنسانى يحتاج دائماً إلى التنظيم والتكييف بالقانون .

وبعد فترة من الغنى الخيالى لحفنة من الناس ، وفقر متزايد للأكثرين ، شرعت أمم شتى تجتاز الهاوية بين طبقات الرأسماليين والفقراء بتجربة اتحادات العمال ، والأمن الاجتماعى ، وضرائب التركات وغير ذلك من التدابير . وتدل التجربة دلالة لا شك فيها على أن حل المسألة ميسور من هذه الناحية ، على نحو ما كادت تحل فى السويد والدانمرك والنرويج . فإن كون النشوء يتطلب تحويل بعض وجوه النشاط الإنسانى من الفرد إلى الدولة ، ليس معناه نهاية الفردية ، وإنما معناه أن مصلحة الجماعة وحرية أعضائها ، تقتضيان لخيرها أن تكون بعض وجوه النشاط الحيوية للجميع تحت سيطرة الجماعة . فإن حياتنا المدنية قائمة على مبدأ أساسى هو أن الحرية الفردية فى أوسع نطاق ، هى ثمرة الحظر المضروب على الأعمال الإنسانية التى تفتات على أعمال الغير .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

وهـــذا هو معنى الحرية السياسـية وهو أيضـاً معنى الحرية الاقتصـادية . ولا شك فى أن التوازن الناقص الذى لم تحقق سواه إلى الآن بين الحرية والكبح قد عاق تقدمنا الاقتصادى .

غير أن هناك عقبة أخرى كبرى فى سبيل التقدم الصناعى ، وهى النزاع بين الحركة الصناعية والقومية السياسـية . وقد خلق هذا النزاع نزاعاً آخر أعنف ، يوشك أن يقضى على ما جنيناه فى القرنين الماضيين .

إن الصناعة الحديثة تتطلب حرية التبادل والنقل أكثر مما تتطلب الاجتهاد الفردى والمنافسة . وغايتها هى إنتاج أعظم ما يمكن إنتاجه من سلع الاستهلاك . وهـذا يقتضى اسـتخدام الخامات المجلوبة من كل أنحاء الأرض ، والتوزيع الحر على جميع أسواق العالم . وقد كانت هـذه الأحوال الجوهرية للتقدم الصناعى مفهومة ومدركة فى بداية عصر النهضة الصناعيـة ، فصارت حرية التجارة هى السيـاسة الطبيعية لأول دولة صناعية كبرى ، وهى إنجلترا .

فلما تقررت زعامة إنجلترا بفضل حرية التجارة ، بدأ الناس فى العالم الغربى يفكرون تفكيراً قومياً ، ويقدمون الولاء للدولة على كل شىء آخر . وبدا للحكومات الوطنية — وللسواد الأكبر من الشعوب — ان إقامة صناعات وطنية ، ولو قامت على غير أساس اقتصادى ، أهم من السماح للشعب بأن يحصل على خير السلع وأرخصها فى الأسواق . ولهذا قامت الحواجز الجمركية ، وفى ظلها ظهرت الصناعات القومية فى الولايات المتحدة ، وفى ألمانيا ، وفى بلاد شتى أخرى

وقد استطاعت الحواجز الجمركية زمناً ما ، أن تمكن بعض الأمم من زيادة ثروتها ورفع مستوى المعيشة فيها ، ولكن فى خلال بضع عشرات من السنين ، لم تكد تبقى دولة تستطيع أن تزيد ترقية اقتصادياتها . فإن الدول الصناعية نقصتها الخامات التى اضطرت إلى ابتياعها من الخارج ، وعجزت عن استهلاك إنتاجها كله فى الداخل . وما كادت الدول تبلغ هـذه الدرجة من التشبع ، وصار لا معدى عن التبادل مع الدول الأخرى التى لجأت إلى الحماية الجمركية ، حتى قام النزاع فاضطربت الأحوال الاقتصادية فى العالم كله .

ومنذ اللحظة الأولى التى فرضت فيها الحواجز الجمركية ، استحال أن نتكلم عن نظام الاجتهاد الحر . ومنـذ ذلك الوقت راحت المبادىء الاقتصادية والضرورات تصادم العقائد السياسية ، وتخوض معركة خاسرة . وصارت نظريات الاقتصاديين الأحرار ، مهما بلغ من قوة الحجة فيها ،

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

عاجزة عن مغالبة العواطف القومية الجامحة .

ولما لم تكن ثم بلاد جديدة تستكشف ، أو أرض عذراء تضم ، فإن الأمم المنقسمة لم يكن لها محيص عن التصادم العنيف .

وهـذا الذى اعتدنا أن نسميه التجارة العالمية ، ليس فى شىء من التجارة ، وإنما هو فى الواقع حرب اقتصادية . وليس الباعث عليه هو التبادل التجارى والإنتاج والاستهلاك ، أو حتى الربح ، بل تدعيم القوة الاقتصادية للدول القومية بكل وسيلة .

وأصبح لا يسع الاقتصاد القومى أن يعمل فى ظل القيود السياسية التى تفرضها الدولة إلا بالتشجيع المصطنع . وبدأت الرأسمالية تقضى على المنافسة التى هى أساس النظام الرأسمالى ، وأنشئت الاتحادات لتفادى قانون العرض والطلب الصارم ، وظن الأقوام أنهم ينجون بالتوجيه الاقتصادى لاتقاء إرباء الإنتاج على الحاجة ، ولإبقاء الأسعار مرتفعة .

وحدث فى الناحية الأخرى أن أنشأ العمال اتحادات الحرف ، وأن ألفوا الأحزاب السياسية ، ليوجهوا التشريع وجهتهم وليسيطروا على الحكومات .

وفى كل مكان فى العالم الغربى ترتفع الأصوات اليوم باتهام مديرى الشركات وزعماء أحزاب العمال واتحادات الحرف ، بالقضاء على الحرية الفردية . وخلاصة الصيحة هى أن الاقتصاد الموجَّه يؤدى إلى الدكتاتورية وسحق الديمقراطية .

ولا شك فى أن هذا صحيح .

فإن اتحادات الشركات واتحادات العمال ، تدفع الديمقراطيات إلى زيادة السيطرة الحكومية وتضييق الحرية الفردية ، ولكن الغريب هو أن أبطال الحرية ودعاتها الذين يتسخطون على هذا الاتجاه ، لم يعنوا بأن يدرسوا ويحللوا الأزمة التى يجتازها العالم .

إن المصالح القومية فى كل دولة تكره الحكومات والشعوب على نشدان الاستكفاء الذاتى الاقتصادى ، والاستعداد للحرب ، وزيادة التوجيه الاقتصادى . والكيان السياسى لكل دولة قومية يتعارض تعارضاً عنيفاً مطلقاً مع الحاجات التى لابد منها لنظام اقتصادى قائم على الاجتهاد الحر . ومن العبث فى الوقت الحاضر أن يبحث المرء عن قوانين الحياة الاقتصادية ، فإن المدفع فى عالم الصناعة القومية ، هو الذى ينظم الإنتاج والتجارة والاستهلاك . وليس ثم قانون أسمى من هذا ، لتسيير الاقتصاد فى عالم مكون من أمم قومية ذات سيادة تامة . ولهذا ينحط الناس فى كل أمة إلى درك الرق باطراد .

وإنه لينبغى أن يكون من الجلى لكل امرئ أن القومية عبارة عن حواجز

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

لا سبيل إلى تخطيها أمام الاجتهاد الحر ، فإن الرسوم الجمركية العالية وإعانات التصدير ، وإتلاف بعض الإنتاج رغبة في رفع الأسعار ، واتحادات الشركات ، قد عطلت تأثير العوامل والقوى الاقتصادية ، واضطر شعب كل دولة حيال التهديدات المستمرة من الدول الأخرى ، أن يجعل القوة في حكومته القومية مركزية .

وأصبحت حقوق الفرد التي كسبها بثمن باهظ في آخر القرن الثامن عشر ، على وشك الضياع التام والانتقال إلى طاغية جديد هو الدولة القومية . وصارت مزايا النظام الاقتصادي الحر ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وزيادة الثروة ، وطيب المسكن ، وصلاح التربية ، واتساع وقت الفراغ ، أقل قيمة في نظر الذين أعمتهم وأشرقتهم الدولة القومية من عواطفهم الوطنية . فإنا نرى الشعوب تنزل باختيارها وفي حماسة عن حق الاستمتاع بالحرية والغنى ، إذا هي أتيح لها أن تعكف على عبادتها الذليلة لقوميتها ولرموزها .

وهكذا ، فيما عدا فترة محدودة بعد ابتداء النهضة الصناعية ، لم تقم للاقتصاد الحر قائمة في الحقيقة ، لأن مبدأ القومية السياسية قضى عليه قبل أن يشتد ساعده . ولهذا حدث في كل دولة جربت ذلك ، أن أدى سوء السيرة في الانتفاع بالاجتهاد الحر إلى زيادة سلطة الدولة ، وإلى نظام الحكم الجامع ، وإلى القضاء على الحرية الفردية .

على أن الاتجاه في الدول الاشتراكية كان على المنوال نفسه وللأسباب عينها ، فإن الاشتراكية والنظام الجامع ليسا مجرد ردّ فعل لمحاولة علاج الأعراض البارزة الملحة ، لأزمة خلقها التصادم بين القومية والحركة الصناعية . وقد سار التطور في كل دولة قومية في نفس الطريق ، في ظل الفوضى العالمية التي اضطرت كلّ دولة أن تنشد من أسباب القوة أقصى ما يدخل في وسعها ، وقد اتجهت كل دولة إلى السيطرة على الفرد والتحكم فيه .

إخفاق الاشتراكية

في سنة ١٩١٧ صارت دولة كبيرة هي روسيا مسرحاً لتجربة اشتراكية واسعة النطاق ، فقلبت الشيوعية النظام القديم — القيصرية والرأسمالية معاً — غير أن الثورة لم توجد المساواة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية

وقد كان المثاليون الذين يؤمنون بإخلاص بالمجتمع الجامع ، مقتنعين بأنه متى تم تحويل « ملكية » الأرض ووسائل الإنتاج من الأفراد إلى الدولة ، فإن المساواة الاجتماعية

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com

تتحقق ، فيوجد مجتمع جديد سعيد يعيش في رغد .

على أنه تبين بعد سنوات قليلة من قيام الثورة أن المساواة الاجتماعية والاقتصادية المطلقة لا تتفق مع طبيعة الإنسان ، فإن الاجتهاد الخاص لازم للتقدم ، ولا معدى عن مقدار من الملكية كنتيجة للحرية الإنسانية ، فأدخلت سلسلة من الإصلاحات أدت إلى إيجاد درجات فى الغنى والسلطة ليست أقل بروزاً منها فى أية دولة رأسمالية .

وقد ظلت الأمة الروسية عشرين عاماً تعمل بهمة وإخلاص فى وضع أساس قوة صناعية عظيمة وإنتاج الأسلحة اللازمة للدفاع عن بلادها إذا هوجمت ، ولكن مستوى المعيشة ظل منخفضاً جداً على الرغم من أرقام الإنتاج الضخمة . ويعيش العمال فى أحوال هى أقل ملاءمة من الأحوال فى الديمقراطيات الغربية ، ولا وجود للحرية الفردية . ومع أن كل الموارد الطبيعية والأدوات ملك للجميع ، إلا أن العلاقة بين الإدارة والعامل هى مثل ما فى إنجلترا أو أمريكا — بل هى شر فى الواقع . ومعظم العمال مقيدون بالمصنع أو الأرض أو المنجم ، وليس لهم حرية الانتقال إذا لم يرضوا عن حالهم .

وبعد عشرين سنة من استئصال شأفة الطبقتين العليا والوسطى ، تكونت طبقة جديدة حاكمة . فالقائد أو الموظف الكبير أو المهندس الناجح أو الكاتب أو المصور أو قائد الفرقة الموسيقية ، يتبوأ منزلة أسمى بكثير من منزلة الجمهور ، كما هو الحال فى أعرق البلاد الرأسمالية .

وليس مما يغض من توفيق الشعب الروسى أن يقال إن المبادئ العليا الاجتماعية لماركس ولينين ، لم يكد يتحقق منها شئ فى الاتحاد السوفيتى ، فقد كانت الشعوب السوفيتية فى خوف دائم من العدوان الأجنبى ، فكان أكبر مسعى لها أن تقوى سلطة الدولة السوفيتية المركزية ، ومن هنا صار بقاء اتحاد الجمهوريات السوفيتية هو المبدأ الأعلى فى نظام ستالين . ولم يحتج الأمر إلى زمن طويل لتحول الدولية الأصيلة فى الفلسفة الشيوعية ، إلى شيوعية قومية وتسربها فيها .

وبعد أن تغلب ستالين على تروتسكى ، أخذت الحكومة السوفيتية تبنى القوة العسكرية والصناعية لاتحاد الجمهوريات ، وتصب العناصر غير المؤتلفة فى هذه البلاد الواسعة فى قالب قومى واحد عظيم ، وتستثير غرائز الجماعة القومية إلى حد يسر للحكومة السوفيتية أن تطالب الشعب بأية تضحية للدفاع عن الدولة السوفيتية وتقويتها .

وقد استثيرت العواطف القومية لهذه الشعوب غير المتجانسة ، التى يتألف منها

الاتحاد السوفيتي بنفس الأساليب الخطابية ، ونفس الصيغ والقوالب ، ونفس الأعلام والموسيقى والأردية العسكرية التي تستخدم في البلاد الرأسمالية . وقد اضطرت الأمة أن تنزل عن كل أمل في حياة مادية أرغد إلى زمن طويل، لتبني قوة الدولة القومية ، وأن تخفض إنتاج سلع الاستهلاك إلى الحد الأدنى ليتسنى قصر هم الأمة كله على صناعة مواد الحرب .

وقد أثبت الهجوم الألماني في يونيو من سنة ١٩٤١ أن هذا كان لابد منه . وجاء الانتصار في ستالنجراد دليلا على مبلغ نجاح هذه الخطة .

وقد أخمدت الإدارة المركزية المعارضة التي كانت كامنة بين جماهير العمال في هذا التغيير في السياسة ، بلا رحمة ، وصارت هذه الإدارة أكثر ديكتاتورية وأشد استبداداً ، يوماً بعد يوم ، من جراء المعارضة الداخلية المتزايدة ، والضغط الخارجي المتزايد الناشئ عن سوء الحالة الدولية ، وخنقت تدريجاً آمال الشعب الروسي في الحرية ، وصار من الجلي في أخريات سنة ١٩٣٠ أن الدولة السوفيتية صائرة إلى التحكم الجامع التام في الأمة بواسطة إدارة أوتقراطية .

فبعد خمسة وعشرين عاماً من إقامة أول دولة شيوعية على مبادئ ماركس ولينين ، صار الاتحاد السوفيتي أعظم دولة قومية على ظهر الأرض ، وصارت له بيروقراطية تامة السلطة، وأكبر جيش في العالم، وقوة بوليس معدومة النظير تسيطر على نشاط كل مواطن، وطبقات اجتماعية جديدة، وامتيازات خاصة لمن يتولون مراكز رئيسية .

وقد تقول الأمة السوفيتية أنه ليس من العدل أن يعاب النظام الشيوعي بأنه تحول إلى دولة مركزية قوية ، فقد كان هـــذا ضروريا لأن الاتحاد السوفيتي كانت تحيط به دول رأسمالية معادية له،فاضطر إلى اتباع سياسة الدفاع القومي .

وهذا صحيح .

ولكن كون اتحاد الجمهوريات السوفيتية كان شيوعياً ،على حين كانت الدول الأخرى رأسمالية ، لا قيمة له على الإطلاق . والسبب الوحيد الأكبر في تحول الاتحاد السوفيتي إلى دولة قوية،هو أنه كانت هناك دول قوية أخرى قائمة . وما دام هناك عدة دول قوية ذات سيادة يحتك بعضها ببعض ، فلا مهرب لها من التصادم ، بغض النظر عن نظمها الاقتصادية الداخلية .

ومن الجلي أن هـذه الحقيقة هي التي وجهت السياسة السوفيتية . ففي أثناء الحرب العالمية الثانية ، وفي كل الاجتماعات الدولية

التى عقدت للبحث فى صورة التنظيم العالمى الجديد، كان ممثلو الاتحاد السوفيتى يدافعون عن نظرية واحدة لا تتغير — هى السيادة القومية بغير شرط أو قيد، كما فعل الشيوخ لودج، وجونسون، وبورا، فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة فى آخر الحرب العالمية الأولى. وما من شك فى أن أشد الشيوخ الأمريكيين تمسكا بعزلة بلادهم فى سنة ١٩١٩، خليقون أن يوافقوا من أعماق قلوبهم على الآراء التى يدعو إليها بعد ربع قرن، أبناء دولة تزعم أنها أعظم الدول ثورة وأوضحها « دولية ».

وقد سارت السياسة السوفيتية الخارجية على نهج أية دولة كبرى غيرها تماماً — المحالفات، ومناطق النفوذ، والتساهل بالتوفيق فى المواقف الضعيفة، والتوسع بعد الانتصار الحربى. فالشيوعية فى الاتحاد السوفيتى ليست إلا وسيلة لغاية، وهذه الغاية الكبرى هى القومية.

وقد كان النظام السوفيتى فى عهد لينين وبعد موته بعدة سنوات، أخلى جداً من الاستبداد، منه اليوم. وكان هناك حظ كبير من الحرية الفردية، وكانت هناك مناقشات علنية حرة، وانتقاد للحكومة وللحزب فى الصحف وفى المحافل، وإنما جاء تحول النظام أخيراً إلى دولة جامعة ذات قوة بوليسية نامة السلطة، مع قمع حرية الكلام وحرية النقد، وكل حرية فردية، وقد جاء تحول الاتحاد السوفيتى إلى دكتاتورية جامعة مسايراً ومحاذياً ليقظة القومية ونموها، ولاشتداد ساعد الدولة القومية.

فمنذ سنة ١٩٢٠ أخذت الشيوعية تتضاءل أهميتها، والقومية تنمو وثبا. وفى هذه الأعوام الخمسة والعشرين الأولى عجزت الدولية الشيوعية على الرغم من محاولات ومساع لا تحصى، عن نشر مبادئ موسكو فى الخارج، ولكن الدولة السوفيتية الجامعة القومية نجحت. حتى الأحزاب الشيوعية فى البلاد الأجنبية — وهى تستوحى موسكو بلا شك — نفضت يدها من السعى لصبغ بلادها بالصبغة الاشتراكية، وصارت أداة ليس إلا لسياسة روسيا السوفيتية القومية، واتخذت فى كل دولة موقفا لم تمله الحاجة إلى بث الشيوعية، وإنما أملته الحاجة إلى تقوية المركز الدولى للاتحاد السوفيتى.

ولا محل هناك للجزم بشئ فيما يتعلق بالنزاع بين الرأسمالية والشيوعية، فإن كلتيهما تدعى أن غايتها رفع المستوى المادى والثقافى للجماهير، أما أن هذا النظام أو ذاك أقدر على إدراك هذه الغاية، فأمر يجب أن يتقرر بعد التجربة، لا بأن يحطم كل واحد رأس الآخر فى حرب طبقات

سخيفة . وإذا كان شعب معين ، كالشعب السلافى ، تميل به تقاليده التى مضى عليها قرن إلى الملكية العامة ، وإذا كانت شعوب أخرى ـ كاللاتينية والأنجلو السكسونية ـ تؤثر مدفوعة بتقاليدها الملكية الخاصة ، فإنه ليس ثم أدنى سبب يمنع هذه النظم المختلفة أن تكون قادرة على الوجود معاً ، والتعاون معاً .

ومن الممكن أن تمضى فى حرب الطبقات عشرات من السنين ، وقد تهزم إحدى الطبقتين الأخرى ، ولكن حل مسألة القرن العشرين لن يتقدم خطوة واحدة .

إن دعاة الرأسمالية والشيوعية يجب أن يدركوا أنهم يحتربون فى مركبة موحدة . فالنزاع على مقعد أوثر ، أو فى سبيل راحة أوفر ، لا معنى له ، لأنهم جميعاً محمولون لا محالة إلى نهاية واحدة . فأما المركبة فهى القومية ، وأما النهاية فهى النظام الجامع .

الطريق إلى الفاشية

دفعت الحوادث فى العقود الماضية ، بما تمخضت عنه وأدت إليه مما لا حيلة فيه ، بكل الدول الصناعية من رأسمالية وشيوعية إلى نظام الدولة القومية التى ليس فوقها سلطة ما . وفى بعض الدول التى كان الضغط فيها أعظم ، أدى الأمر إلى الرفض العلنى للمبادئ الديمقراطية ، وإلى إقامة مذهب جديد هو الفاشية ، التى أعلنت أن الدولة هى الغاية القصوى السامية للجماعة الإنسانية .

وقد انتشرت هذه الحركة الفاشية الجديدة المناقضة لجميع المبادئ الأساسية لصريح الأديان وللاشتراكية والديمقراطية ، انتشار النار فى الهشيم اليابس حول الكرة الأرضية كلها .

فما معنى الفاشية ؟

لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال إلا إذا تحررنا من الأهواء ، فلن نبلغ شيئاً إذا كنا نسمى من يشك فى حكمة السياسات الرأسمالية شيوعياً ، أو بأن نسمى من يجترئ على أن يقول إن روسيا السوفيتية ليست بجنة عدن ، فاشياً . وينبغى أن نكف عن الاعتقاد بأن الفاشية أداة سياسية فى أيدى عصابة صغيرة تشتهى السلطة .

وتوجد فى الفاشية عناصر من كل من الرأسمالية والاشتراكية ، ولكنها تبقى مع ذلك أقرب إلى أن تكون فكرة صوفية ، ولا يزال خير تعريف للفاشية هو المقال الذى كتبه بنيتو موسولينى عنها فى دائرة المعارف الإيطالية .

والفاشية رد فعل لتطورات القرنين الأخيرين . فقد حير الإنسان وخيب أمله عدم الاطمئنان وإفلاس الفردية الديمقراطية

فى عصر تنازع بين القوميات . وقد أحاط موسولينى فكرة الفاشية بالصوفية ، ليغرى الإنسان بنبذ الفردية وتقبل الخضوع التام للدولة فى مقابلة الأمن والاطمئنان .

وكتب يقول : « يرى الفاشى أن كل شئ يوجد فى الدولة، وأنه ما من شئ إنسانى أو روحى أو أى شئ له قيمة ، يوجد خارج الدولة ، فالفاشية بهذا المعنى : جامعة . . والدولة ، فى الواقع ، هى الموجدة للحق باعتبارها الإرادة الأدبية الشاملة . . . » .

وهذه الأقوال تبين بجلاء أن الفاشية ليست فكرة اقتصادية ، وأنها فى جوهرها مبدأ اجتماعى سياسى ، وغايتها التنظيم التام للحياة الفردية ، والهبوط بالفرد إلى الرق .

فيما بين عامى ١٩١٧ و ١٩٤٢ لم يحدث أن دولة واحدة رأسمالية ديمقراطية تحولت إلى شيوعية ، ولكن نحو عشرين منها انقلبت فاشية . ثم أن روسيا التى أقامت الشيوعية من طريق الثورة ، لم تكن قط دولة رأسمالية ديمقراطية وإنما كانت دائماً زراعية إقطاعية ، وجماعة متأخرة من الشعوب تحكمها أسرة أوتقراطية . ولكن الظاهرة نفسها بدت فى روسيا من اللحظة التى قامت فيها الثورة الشيوعية ، كما بدت فى الدول الرأسمالية ، وحدث نفس الاندفاع الذى لا يقاوم نحو الإدارة البيروقراطية المركزية . ومن الجلى إذن فى الأحوال السائدة الآن أن الشيوعية ماضية فى نفس الاتجاه الذى تمضى إليه الرأسمالية ، أى نحو النظام الجامع .

وقد رأينا فى حياتنا أن كلاً من الرأسمالية والاشتراكية تؤدى إلى تحكم الدولة — أى الفاشية . ولا مفر من أن نستخلص من هذا أن الفاشية لا شأن لها « بنوع » النظام الاقتصادى، رأسماليا كان أو اشتراكيا، وإنما شأنها بجوهره ، وهو التوجيه الصناعى .

إن النزاع الحقيقى فى عصرنا ليس دائراً بين الفردية والكلية ، ولا بين الرأسمالية والشيوعية ، بل بين التوجيه الصناعى والقومية .

ولأى غاية يثور كل هذا الشك ، وتلك البغضاء والحرب بين الاشتراكيين والرأسماليين؟ إن الحقيقة هى أن كليهما ينقلب فاشيا آخذاً بالنظام الجامع . وقد آن أن ندرك هذا ، وأن نسرع فى الجهاد المشترك فى سبيل الحرية الإنسانية والخير الإنسانى، ضد العدو الحقيقى المشترك وهو الدولة القومية.

قد انخدع المعسكران جميعاً بمنطق الفاشية القائل بأنه لا سبيل إلى الحرية الفردية إلا « بحرية » الدولة ، بل الواقع أن النظرية الفاشية تذهب إلى أن سلطة الدولة هى المقياس الوحيد للسيادة القومية. وهذه النظرية تجعل

حاجات الصناعة الحديثة خاضعة تمام الخضوع لأوامر القومية ذات السلطة العليا.

والناس فى الديمقراطيات يحاولون أن يتبينوا أيهما الخطر: ألشيوعية أم الفاشية؟ وهم فى هذا يحلمون بحرية تقرير لا يملكونها، إذ لا اختيار هناك. ونحن الآن متجهون رأساً إلى الفاشية، وقد بلغناها إلى حد كبير، وحتى لو نجحت ثورة شيوعية هنا أو هناك، فإن هذا لا يغير شيئا من الاتجاه إلى النظام الجامع. وأخلق بالبلاد الشيوعية إذا زاد عددها، أن تنضم بسرعة إلى الحشد الذى تقوده الدولة القومية.

فلا الرأسمالية الفردية، ولا الاشتراكية الجامعة، تستطيع أن تعمل داخل كيان الدولة القومية، فإن كلتيهما تخلق الفاشية فى ظروف معينة خاصة، ظروف تتحكم فيها وتهيؤها القومية. ولا قيمة لأيهما نختار، لأنه إذا كانت الدولة « قومية »، فإنها تصير لا محالة فاشية.

تشويه الدين

بلغت عبادة الدولة القومية ذروتها فى البلاد الفاشية، ولكن تشويه الدين وتسخيره للغايات القومية لوحظا فى كل أمة.

إن العنصر المقدس والمهذب فى المسيحية هو أنها عالمية — وأن مبدأها أن الناس خلقوا متساوين أمام الله، وهم يعنون لإله واحد قانونه واحد يسرى على الناس جميعا.

ولقد كانت هذه فكرة ثورية فى التاريخ البشرى، ولكن ظهور الدولة القومية منع هذه الفكرة أن يكون لها أثر مهذب.

ففى اللحظة التى بدأت فيها الأمم الحديثة تتبلور، بدأ الشعور القومى فى العالم الغربى يتغلب على الشعور المسيحى. وكانت الكنيسة منقسمة، فازدادت انقساما إلى مذاهب أخرى يؤيد كل منها المثل الأعلى الناشىء للأمة. وصار من المعترف به فى كل بلد أن السياسة القومية سياسة مسيحية، وتحولت الكنائس المسيحية إلى هيئات قومية تؤيد الغرائز القبلية للروح القومية.

ففى آلاف من الكنائس يسأل الله القسُّ الكاثوليك والواعظ البروتستانت المجد لمواطنيهم والوبال لغيرهم، وإن كان هذا يناقض مناقضة شديدة أسمى المثل العليا الدينية التى أوتيها الإنسان.

إن المبدأ الأخلاقى الكونى لا يكون كونيا ولا أخلاقيا إذا كان لا يصح إلا داخل جماعات منفصلة من الناس، فـ « لا تقتل » لا يمكن أن يكون معناها أن من الإجرام أن تقتل رجلا من مواطنيك، ولكن من الفضيلة أن تقتل رجلا يعد مواطنا فى دولة أخرى.

ومثل هـذا التطور يلاحظ فى جميع أديان التوحيد الثلاثة ، فالوحدة التى احتفظ بها القرآن قرونا بين الشعوب الإسلامية المختلفة الأصول ، قد ذهبت وصار الشعب الإسلامى قوميات شتى، فدعاة الجامعة التركية يرمون إلى توحيد فروع معينة من الجنس التركى، ودعاة الجامعة العربية يشيرون باتحاد الشعوب العربيـة ، ويقول المسلمون فى الهند : « إننا هنود أولا ومسلمون بعـد ذلك » ، وقد نسى الجميع الصبغة العالمية التى كانت أساس دين الإسلام العظيم .

والأمر لا يقتصر على المسيحية والإسلام، فإن أقدم الموحدين ، وهم اليهود ، قد نسوا التعاليم الأساسية لدينهم ، وهى أنه عالمى ، ويبـدو أنهم عادوا لا يتذكرون أن الله الواحد الأحد تعالى ، قد اختارهم لينشروا دعوة التوحيد بين أهل العالم . فهم يبغون أن يعبدوا بعواطف مشبوبة ، إلههم القومى الخاص ، وأن تكون لهم دولتهم القومية .

وما من اضطهاد أو عذاب مهما بلغ من أمره ، يمكن أن يسوغ نبذ هذه الرسالة العالمية من أجل القومية — وهى اسم آخر للقبلية التى هى أصل مصائبهم جميعا .

وإنه لعلى أعظم جانب من الخطر لمستقبل الإنسانية أن تدرك مبلغ التشويه الذى أصاب عقيدة التوحيد العالمية ، فما كان من الممكن قط بدون تأثيرها ، أن تقوم الحرية الإنسانية فى الجماعة — الديمقراطية — ولا أن تبقى .

وما من سبيل إلى إنقاذ الجماعة الإنسانية إلا بالعالمية . فإذا لم تعد الكنائس المسيحية إلى مبدئهـا المركزى ، ولم تجعله مبدأها المركزى فيما تعمل ، فإنها ستزول أمام عقيدة جديدة عالمية لابد أن تبرز من بين الخراب والآلام التى يسببها تهافت القوميـة الآتى لا محالة .

وما استطاعت سوى وسيلة واحدة فى تاريخ الإنسان المعروف كله ، أن تنجح فى إيجاد نظام اجتماعى يكفل للإنسان الأمن من القتل والسرقة وغيرها من الجرائم ، ويضمن له حرية التفكير والقول والعبادة . هذه الوسيلة هى القانون .

وما تيسرت العلاقات الاجتماعية المنظمة بالقانون — وهى السلام — إلا فى نطاق وحدات اجتماعية ذات مصدر مفرد للقانون، بغض النظر عن حجم هـذه الوحدات الاجتماعية أو أرضها أو سكانها أو جنسها أو دينها . ولم يكن هذا قط ميسوراً فيما بين وحدات اجتماعية كهذه ذات سيادة منفصلة ، حتى ولو كان أقوامها من جنس واحد ، ودين واحد ، ولغة واحدة ، وثقافة واحدة ، ودرجة واحدة من الحضارة . فإن النزاع والحروب بين الوحدات الاجتماعية لا مهرب

منها كلما احتكت طوائف من الناس متعادلة في الاستقلال والسيادة .

فالنتيجة إذن واضحة . وهي أن مسألة السلم في زماننـا رهن بإقامة نظام قانوني يستعلي على الدول القومية . وهذا يستدعي تحويل جانب من سلطات السيادة في الدول القوميـة الموجودة إلى هيئات عالمية ، أو بعبارة أخرى إقامة حكومة عالمية قادرة على إيجاد قانون عالمي للشئون العالمية .

إن عهد الحروب بين الأمم سينتهي ، كما ينتهي كل ما هو إنساني ، وقد ينتهي على الأرجح في خلال هذا القرن ، بإقامة قانون عالمي لتنظيم العلاقات الإنسانيـة . وسيتقرر هـذا القانون العالمي بالوسائل الرشيدة أو بالعنف أو بالفتح .

وللمرة الأولى في تاريخ البشرية أصبح في وسع دولة واحدة أن تفتح العالم وتحكمه ، وقد كاد هتلر يفعل ذلك . ومثل هـذا التوحيد للعالم بالفتح ، يعد من الوجهة السياسية احتمالا ممكناً ، إذا لم يوجد نظام قانوني يرضي الرغبة الغريزية للشعوب في الأمن .

وإذا آثرنا الصراحة قلنا إن أزمة القرن العشرين ، هي أن هذا الكوكب يجب أن يكون تحت إشراف موحد بالقـانون . ومهمتنا وواجبنا أن نسعى لإيجاد هـذا الإشراف الموحد بوسيلة ديمقراطية بأن نعلن أولا مبادئها ، وبأن نحقق الغاية بالإقناع ، وبأقل ما يمكن من إراقة الدماء . فإذا أخفقنا في تحقيق هذه الغاية ، فإنه يجب أن نكون على يقين من أن سنة التاريخ التي لا تتبدّل ستكرهنا على شن حروب أخرى عديدة ، بأسلحة أقوى ، على جماعات أعظم قوة ، إلى أن ينتهي آخر الأمر الوصول إلى الإشراف الموحد عن طريق الفتح .

[ستظهر خلاصة الجزء الثاني من كتاب إمري ريفز « قضية السلام » — وهو يعالج المسائل الأساسـية للسيادة ، وعقم الدبلوماسـية ، والحاجة إلى حكومة عالمية تقوم على القانون بدلا من المعاهدات — في عدد مارس ١٩٤٦ من المختار .

إن الكفاح في سبيل السلام هو المهمة التالية العظمى للمدنية . والخلاصة الآتيـة هي عبارة عن تحليل عميق جلي للمسألة . ويتوقع محررو المختـار أن تكون خلاصة هـذا الكتاب أعظم ما تدور عليه المناقشة مما نشره المختار في هاتين السنتين] .

https://t.me/megallat oldbookz@gmail.com